

تَارِيحُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

الشيخ محمد عبد الله

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الأول

القسم الأول

وفيه تفصيل سيرته وخلاصه سيرة موقظ الشرق وحكيم الإسلام

السيد جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

جامعة

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



دار الفيل للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٢٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٢٩٠٩٢٣١
الإمارات ، دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 19625 / 2003 م

الترقيم الدولي : 8 - 182 - 297 - 977

(تصويب أهم ما وقع من الخطأ وتحريف الطبع وخفائه)

(في الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام)

بذكر العوَاب دون الخطأ وقد منّا رقم السطر المبرع عند بحرف س على رقم الصفحة المبرع عنها بحرف ص
(جعلناه منفصلاً ليصحح بالقلم قبل القراءة، وتركنا بعض البديهي والمحكي)

في ص ٣ صفحة (ج) من التصدير : القرن الخامس - ص ١٧ صفحة (م) الذين آمنوا -
ص ١٢ ص ٦ هو مغلطة - ص ١١ ص ١٨ الناس نسباً - ص ٢٣ ص ٥٥ ودفع ص ١٧ ص
٥٩ دناة ص ١٦ ص ٩٣ وهو محتضر ص ١٥ ص ١١٠ طابخة ص ٢١ ص ١١١ من أغري
ص ١٥ ص ١١٥ ويحاوا - ص ٢٢ ص ١١٧ في اصطلاحهم ص ١٧ ص ١١٨ غيبة ص
٢٠ ص ١٣٢ الواضع ص ٢ ص ١٤٢ ماسبيرو - ص ١٨ ص ١٤٣ قراراته ص ١١ ص
١٤٤ تألفت لجنة ص ٩ ص ١٤٥ يتاحز - ص ١٦ ص ١٤٧ الاتقياني ص ١٧ ص ١٥١
جياتنا - و ص ١٨ أنحاها بجمايتها ص ٢٢ ص ١٤٨ أجل وأوفى ص ١٩ ص ١٧١ تدرج
ص ١٥ ص ٢٢٤ M. Brodley - ص ١٦ defended Orabi

ص ٢١ ص ٢٥٦ (يرمج) السطر كماه لان كلمة منوفي الاصل صواب) ص ١٢
ص ٢٦٦ كما حوكموا ص ٢ ص ٢٨٧ يمد - ص ١٠ ص ٢٨٩ لا يظن أحد ص ٢٣ ص ٢٩١
فجواه هذه الامم ص ٩ ص ٢٩٢ بل ما يجري ص ٢٣ ص ٢٩٤ للمراسلات - العدوان
الاجنبي ص ٣ ص ٢٩٥ ولئن قامت فكم ص ٣ ص ٣٠٨ المقالة ص ١٧ ص ٣١٢ وكوي
ص ١٤ ص ٣٢٢ البشرية ص ٢٣ ص ٣٢٣ فيها ص ٥ ص ٣٤٢ ستاراً كتف ص ٢٣ ص ٣٤٨
عدة مقالات ص ٢٤ لتمثيل ما كان ص ١٣ ص ٣٦٩ يراق ص ١٩ ص ٣٨٠ من سنة - ص
١٢ ص ٣٨٣ الجعر - ص ١٧ ص ٣٨٨ اجتثاث ص ١٩ ص ٣٩٣ فقضهم ص ٢٤ ص
٣٩٥ بخوض - ص ١ ص ٣٩٦ اختتمه ص ١٦ ص ٤١٤ طريقهما ص ١٩ ص ٤١٨
يلتص ٢٥ إياها على تكوين قوة بها في أمته لا رجاء في رفع السلطة الاجنبية عنه وعنها
بدونها (*) ص ١٦ ص ٤٢٦ حتى أهله ص ٩ ص ٤٣٩ وضع ص ٤ ص ٤٦٥ والمقارنة

(*) في هذا السطر تقديم وتأخير سببه سقوطه عند البدء في الطبع وامادته على
غير اصله. ويحسن في تصحيحه أن يوضع على كل كلمة رقم على الترتيب الاصل الذي هنا

صواب ما وقع من الخطأ في الكتاب

من ٢٢ ص ٤٧٤ الشيخين من ٢٤ ص ٤٩٠ كان: نونا من ١٧ ص ٤٩٨، متعاقبين من ٢٤
 ص ٥٠٢ مذاهب من ١٧ ص ٥٠٤ الاصلاح الديني من ١٦ ص ٥١١ نفي الشيخ
 العظيم اشتغالهم - من ١٧ ص ٥١٢ ازال الاستاذ وفي من ١٨ الاستدراك - من ٩ ص
 ٥١٩ الحيني - من ١٨ ص ٥٣١ كيلا يجرموا - من ٢٣ ص ٥٣٣ لوجدتها - من ٢
 ص ٥٤١ وأوهام من ١٧ ص ٤٤٤، تقرر من ٦ ص ٥٦٨ تلمذ من ٨ ص ٥٧٣ لحث لي أم
 من ١٨ نص القانون من ١٣ ص ٥٧٨ الوجدان يقبل من ١٨ ص ٥٨٢ ار كستره من ٢٥
 ص ٦٥١ شرا من ١٨ ص ٦٥٥ المشروع من ٧ ص ٦٦٣ في الدين من ٢١ فان طالب الخير
 من ١٥ ص ٦٨٠ أمر - الدم من ٢٢ ص ٦٩٣ الرئيسين المظليين من ٢١ ص ٧١١ قصد
 من ٨ ص ٧١٢ والنصاري من ٢٠ ص ٧٢٠ فيها وعون من ١٦ ص ٧٢٥ يوثقه دار الكرامة
 من ١٤ ص ٧٤٣ إحياء من ٢٠ ص ٧٥٧ الذين من ٣ ص ٧٥٨ الشيخ حسين من ١٣ ص ٧٥٩
 كلام غير المصوم من ٢٠ ص ٧٧٨ سنة ١٣٠٦ - من ١١ ص ٧٩٢ أجد - من ٢٠ ص ٧٩٦
 وإبراج الفاري قصة من ٢١ ص ٨٠٢ مقال من ٦ ص ٨٠٦ كتبت اليوم من ٨ ص ٨١٤
 ثم ذكر - من ٢٤ ص ٨١٥ وسط - من ١٤ ص ٨١٩ عالما لإبرانيا - من ٦ ص ٨٢٥ يؤولوا
 من ٢٥ ص ٨٢٥ يستأذنه من ١٧ ص ٨٢٦ ان يمد بهم من ٥ ص ٨٥٦ ويهملهم العلم اللازم
 من ٢ ص ٨٥٧ ويا ليت من ٤ ص ٨٦٥ تلمذه للغة من ٢٥ ص ٨٨٢ ذكراته من ٢١ ص ٩٠٨
 إلى جحرها من ٢٣ ص ٩١٥ الصفتان اللتان من ١٢ ص ٩١٧ الاذان كان من ٢٣ ص ٩٢٧
 نذاكر نافية من ٢٣ ص ٩٣٦ ختمتها من ٧ ص ٩٣٨ بان اسمه من ٤ ص ٩٤٥ بجعله من ٩ ص
 ٩٤٦ والمرشد من ٢٠ ص ٩٧٦ مذكراته فيها من ١٦ ص ٩٨٤ أو عاداته من ١ ص
 ٩٨٧ عبده من ١٦ ص ١٠٠٣ أخالفكم فيه من ٢ ص ١٠١٣ ويصلحهم ومن ٥ تفسير القرآن
 من ١٨ ص ١٠٢٠ لما كان من ٧ ص ١٠٢١ رشيداً من ٢٠ ص ١٠٢٥ كتابة من ٢ ص
 ١٠٢٩ لا يملؤه من ١٥ ص ١٠٣٢ تربيته من ١٣ ص ١٠٥٤ لم يتعودوا من ١٤ ص
 ١٠٦٢ عوض افندي واصف من ٢٥ ص ١٠٦٤ أدونها من ١٠ ص ١٠٩٠ واحبين
 الفرنسي من ١٩ ص ١١٠٣ سعيد الشرتوني

تصدير الكتاب

بيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكم الشرق والاسلام
(وشيخنا الاستاذ الامام ، ووجه الحاجة اليه ، ووجوب المحافظة عليه)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥: ٢٧) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠: ٧) وَتِلْكَ
الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠: ٣)

جرت سنة الله تعالى في أفراد البشر أن يؤتيهم قوى المشاعر الحسية والمدارك
العقلية بالتدرج حتى يبلغ احدهم أشده ، ويستكمل رشده ، ويستقل بنفسه بالعلم
والعمل والتجارب ، وجرت سنته في الشعوب والامم أن يمنح كلا منهم من هداية
الوحي في كل طور من أطوار حياتهم الاجتماعية ما هو مستعد له وصالح لحاله
وزمانه ، على مثال سنة التدرج في الافراد ، إلى أن استعد النوع البشري في جملة
ومجموعه لفهم أعلى هداية إلهية لا يحتاج بعدها إلا لاستعمال عقله في الاهتداء بها ، في كل
زمان ومكان بحسبهما ، فوهبه هداية القرآن ، وختم النبوة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام
ولما كان من طباع البشر أن يضيف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الامد على
عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم ، ويتأولوا كتبه باهوائهم ، أنتم عليهم بما يحبي
هداية النبوة فيهم ، بان يبعث فيهم بعد عصر النبوة مجددين ، وأئمة مصلحين ، يرثون
الانبياء بالدعوة الى اصلاح ما أفسد الظالمون في الارض ، ويكونون حجج الله
على الخلق ، وقد بشرنا نبيا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين ، بان الله تعالى يبعث

في هذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، ليكونوا خلفاءه فيما جدد من دين الله تعالى للامم كلها (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) إذا طال عليهم الامل ، فقتل قلوبهم ، وفسقوا عن أمر ربهم

إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ، فكان الامام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو أمية وأخلفوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا ، وكان الامام احمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما أخاق بعض بني العباس من لباس السنة ، ورشاد سلف الامة ، باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض في عالم الشهادة . وكان الشيخ ابو الحسن الاشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى ، وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي مجدداً في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزغات الفلاسفة وزندقة الباطنية ، والامام ابو محمد علي بن حزم الظاهري في القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية . وشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والالحادية ، من حلال الكتاب والسنة السنية ، في جميع العلوم والأعمال الدينية ، وحسبنا هؤلاء الامثال في التجديد الديني انعام

وظهر مجددون آخرون في كل قرن كان تجديدهم خاصاً بمحضر في قطر أو شعب ، أو موضع كبير أو صغير ، كابي اسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الاندلس ، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند ، والمولى محمد بن بير علي البركوي في الترك ، والشيخ محمد عبد الوهاب في نجد ، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن

وهناك مجددون آخرون للجهاد الحربي بالدفاع عن الاسلام ، أو تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وإقامة أركان العمران فيه ، وهم كثيرون في الشرق والغرب والوسط ، ورجالهم معروفون ، ك بعض خلفاء العباسيين والامويين ، ومنهم

من جمع بين انواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الايوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الافرنج المتحدة ، وأجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة وغيرها ، وأزال دولة ملاحدة العبيدين الباطنية من البلاد المصرية ، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك اوربة عرف فيها مجد الاسلام

ضعف الاسلام السياسي ومملكه

ثم اتسع ملك الاسلام وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلافتين فزوال كل منهما ، وكثرت دوله ففرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة في الاجناس والاطنان، ووحدة ماته الدينية إلى مذاهب مختلفة في الاصول والفروع، فتمادوا في الدنيا والدين، وتقاتلوا على عصبيات الملوك والسلاطين، فحق عليهم قول كتاب ربهم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم) فسلط الله عليهم أعداءهم فثلوا أكثر عروشهم، وانزعوا منهم أكثر بلادهم (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم (٥٣:٨) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١ : ١١٧) وكان يظهر في هذه الدول المتفرقة مجددون متفرقون في العلم كما تقدم وفي الادارة والعمران كحمد علي باشا بمصر - وفي الحرب كالامير عبد القادر في الجزائر ويعقوب بك في تركستان الصينية - وفي السياسة كسلفي رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا في الترك وخير الدين باشا في تونس - وفي ارشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسيد السنوسي

مال البشر الاقبر وما يقتضيه من التجرير

في أثناء هذا الضعف الاسلامي العام - دخلت الشعوب الافرنجية في طور جديد في الفتح والغلب والسياسة والعمران ، قوامه العلوم السكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام، وتجدد فيهما من آلات الحرب وكراعتها، وأسلحة القتال وعتادها، ما يمكن الجند القليل من إبادة جند يفوقه أضمافا مضاعفة في العدد والشدة والشجاعة في زمن قصير

واستحدث فيه من النظام ما يسهل به على أفراد ممن حذقوه ومردوا عليه

أن يسخروا لخدمتهم شعباً كبيراً غريباً عنهم في جنسه ولغته ودينه كما يسخرون الانعام الداجنة والسائمة، والجرالموكفة والخليل المسومة، فيذلون بالجماعات المذلة منه الجماعات المتمردة، ويستنزفون ثروته كلها فيجرفونها إلى بلادهم التي تزحوا منها فاتحين مستعمرين، ويتصرفون في قواه المعنوية، وروابطه القومية والدينية، كما يتصرفون في حرثه ونسله، ولحمه ودمه، وأرضه وماله، وهكذا يتصرف العلم بالجهل، والنظام بالفوضى

وابتدع فيه من صراكب النقل والسيار، وآلات رفع الاثقال، وأجهزة تبليغ الاخبار، ما مهد السبل لمبتدعيها ومتخذيها من كل ما أشرنا اليه من الاعمال الحربية، والتصرفات السياسية، والوسائل الاقتصادية، وصارت المسافة بين القارة والقارة، اقرب من المسافة بين بلد وأخرى من مملكة واحدة، وهو ما عبر عنه في الحديث النبوي بتقارب الزمان

اتسعت بذلك مسافة الخلف بين الشعوب في العلم والعمل ووسائلهما، واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة في المتخلفة منها عن المتقدمة، لا ينهض بثلة أمثال أولئك المجدين القدماء بالوسائل القديمة وحدها، ولا يطمح اليه صوفي يستمد قوته من الاموات، ويتكل على الكرامات ويعتر بالمنامات، ولا يطمع في تدليل صمابه واقتحام عقابه غريق في بحار النظريات العقلية، ومفترق الافكار بنظريات الفلسفة، ولا يطالع ثناياه، ويحتلي خفاياه، منقطع إلى كتب الشرائع، واستنباط أحكام الوقائع، ولا يتسامى اليه من تعلم العلوم والفنون المصرية تعليمياً آلياً ليكون أحد العمال في دائرة من دوائر الحضارة أو ديوان من دوائرها حكومتها.

إن هذا لبدع من الخطوب الكبرى غير عادي، لا ينبعث إلى تلافيه إلا بدع من كبراء الرجال غير عادي : أم قوية بالعلم الجديد والفن الجديد، والسلاح الجديد، والنظام الدقيق في السياسة والادارة والمال، والتعاون بتوزيع الاعمال، واستخدام قوى الطبيعة، تستلب ملك أم جاهلة، متفرقة متخاذلة، مختلة النظام، مستعبدة المستبدين، منقادة للخرافيين، وقد قذف في قلوبهم الرعب فكانوا مصداق قول النبي ﷺ « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى

قصمتها»^(١) فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غشاء كغشاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، ويبقى الذين آمنوا وهم أحبب إليه » قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال « حب الدنيا وكرهية الموت »^(٢) فمن ذا الذي يضطلع بتجديد حياة هؤلاء الموتى وبمخبرهم من قبورهم إلا إن الرجل الذي ينبعث إلى نفخ روح الحياة في شعوب هبطت إلى هذه الدرجات من الوهن، وبمئتها إلى مجاهدة أئم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة، يجب أن يكون ذا روح علوية، أوتيت حظا عظيما من وراثته النبوة، في كمال الايمان، ومحنة الالهام، وعلو الهمة، وقوة الارادة، وصدق المزينة، وإخلاص النية، وقوة الفراسة، والزهد في الشهوات البدنية، واحتراز الزينة الخادعة. والزهد في الجاه الباطل، وعدم الخوف من الموت، وأن يكون ذا وقوف على حالة العصر، وتاريخ الشعوب الدينية والسياسي، وممن الله في الاجتماع، وفصل الخطاب في الاقتناع، وفصاحة اللسان وبلاغة التعبير، وقوة التأثير، ثم يكون ما يتحذقه من سائر العلوم مددآ له في عمله

حكيم الشرق والاسلام

كذلك كان ذلك الروح العلوي النبوي، الذي تمثل للافتان في ناسوت بشري، جلس في دروس العلم خذلق العلوم والفنون القديمة نقلها وعلمها في بنوع سنين، وألم بالهند لتلقي مبادئ العلوم الاوربية فوقف على ماشاء منها في زهاء سنتين، ثم حج في سنة ١٢٧٣ ومكث في مفره زهاء سنة يتقلب في البلاد الاسلامية، لاكتناه أخلاقها وعقائدها الدينية، واختبار أحوالها الاجتماعية والسياسية ثم عاد إلى بلاده فانتظم في سلك حكومتها وهي ممزقة بالفتن الداخلية، وموبوءة بالذسائس البريطانية، فكاد يتدبيره يخلص الامر فيها لأميرها محمد أعظم خان الذي يواهم مكان الوزير الاول عنده، لو لا ما عارض ذلك من الذسائس الانكليزية، التي تمددتها القناتير المقنطرة من الجنيهات الاسترلينية، والروبيات الهندية

(١) تداعى بفتح الدال أصله تداعى أي يدعو بعضها بعضا. والاكلة بفتح الحين
جميع آكل (٢) رواه ابوداود والبيهقي في دلائل النبوة من حديث ثوبان (رض)

واضطار بفشل أميره إلى هجر وطن ولادته ونشأته، إلى حيث يمكنه الإصلاح من أوطان أمته، فر بالهند فبالغت حكومتها الانكليزية في الحفاوة بضيافته، مع إحاطة عمالها وجواسيسها بمجالسه، ومنع علماءها من الاتصال به، ولكنه نفخ فيمن لقيه من كبرائها روح الاستقلال، والجسارة على كسر مقاطر الاستعباد، ثم كان يغذي ذلك الروح بالكتاب وتأين الافكار، ان باقى من رجالها في مصر وأوربة وسائر البلاد، وبمقالات له في الجرائد نشرناها في المنار، وناهيك بالعروة الوثقى التي كادت تضرم نيران اثورة فيها، وكان موقنا باستقلالها من بعده، حتى انه قال للشيخ عبد الرشيد التتاري: يا ولد انك ستبلي صلاة الجنازة على القيصريّة الروسية، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند، وقد تمت البشارة الاولى وظهرت بوادر الثانية في هذه الاعوام

وأغرب من ذلك أنه حمّله تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في عاصمة الروسية رئيسها عم القيصر وقال له اذهب بهذه الرسالة وأوصلها إلى الفراندوق فلان، واعلم انك إما ان تقتل، وإما ان تفوز وتغنم، فأوصلها فقام الفراندوق لها وقعد، ثم أعاده بها إلى بلاد اليونان ليطلبها فيها بالاذنة الروسية ويرسلها إليه، وعرض عليه من المال ماشاء فلم يأخذ الا القدر الضروري، ولقي احوالا كادت تذهب بحياته . جاء هذا السيد مصر فنفخ فيها روح الحكومة النيابية، وألف فيها الحزب الوطني الاول لتقييد سلطان الحكومة الشخصية، وغذى تلاميذه ومريدبه بعشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة، كما ارشد المسلمين منهم إلى الإصلاح الديني، والجمع بينه وبين العلم المصري، وكان من أثر هذا ما شرحه هذا الكتاب

ذهب إلى إيران، فنفخ فيها روح التجديد في السياسة والعمران، فما زال يفعل فعله فيها بين قيام وقعود، وهبوط وصعود، حتى ظفرت بالحكومة النيابية في عهد الشاه مظفر الدين خان، وما زالت تتنقل في أطوار التجديد والإصلاح

ثم انتهى إلى عاصمة الدولة العثمانية فأنشأ يرشد السلطان إلى وسائل الاستفادة من منصب الخلافة الاسلامية، ويجمع له كلمة الشعوب والمذاهب المختلفة، حتى انه أقتع كثير آمن علماء الشيعة المجتهدين بالاعتراف بخلافته وجعلها مناط الوحدة الجامعة

للمسلمين ، ولكن قرناء السوء خوفوا السلطان من النهوض بهذه الجامعة فأعرض عنها ، وكان السيد مع ذلك يثبت هنالك أفكار الإصلاح والتجديد ، الجامع بين الطريف والتليد ، إلى أن قضى نحبه ، واتي ربه ، رحمه الله وقدر سره

الاستاذ الامام

أرأيتك هذا المصاح العظيم ، والمجدد الحكيم ، انه لم يظفر في شعب من الشعوب الاسلامية بمن يصلح أن يكون خليفة له ، ومتمم لاصلاحه بما يرجي به دوامه ، بعد أن وجه اليه الوجوه ، وعلقت بطالبه القلوب ، على كثرة من المصطبغين بصبغته ، إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده ، لان منصب إمامة الاصلاح والتجديد ، لا يرتقى اليه بوسائل الذكاء والتفكير والتربية والتعالم وحدها ، بل لابد فيه من الاستعداد الروحي والمواهب الفطرية كما قررنا

كان الشيخ محمد عبده سليم الفطرة ، قدسي الروح ، كبير النفس ، وصادف تربية صوفية نقية ، زهده في الشهوات والجاه الدنيوي ، وأعدته لورثة هداية النبوة ، فكان زيتته في زجاجة نفسه صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسه نار ، فمسته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نوراً على نور (يهدي الله انوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

اقرأ في الصفحة ٢٥ من هذا الكتاب كيف زار السيد المرة الاولى هو وصديقه وأستاذه الشيخ حسن الطويل في خان الخليلي ، وكيف كان اول حديثه معها السؤال عن تفسير بعض آي القرآن وما يقول العلماء والصوفية فيها ، وانه بين لهما قصور كل ما قالوه ، وجاء من عنده بخير منه ، وكيف اعجبا كلاهما بما قال ، ولكن الشيخ حسنا ظل على حاله ، لانه كان قد بلغ منتهى استعداده ، وكان أرقى علماء الازهر عقلاً وعلماً وزهداً

وأما الشيخ محمد عبده فكان يشمر بأن كل ما اصابه من حسن تربية الشيخ درويش ، ومن علم الشيخ الطويل والشيخ القصير^(١) دون ما تسمو اليه نفسه ،
(١) المراد بالشيخ القصير احمد الرفاعي القصير القامة وكان اصلب الازهر بين جمودا كما كان الشيخ الطويل اشد هم استقلالاً

رثاء الاستاذ الامام لا يدحمال الدين وتأثير روحه العلوية في أعماله ط

ويتطالع اليه عقله ، وتضطلع به همته ، و كان يطلبه بما استطاع من الوسائل فلا يجده ، ذلك ان روحه كانت مستشفرة للعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثة النبوية في إصلاح البشر ، وتجديد أمر الدين الذي بشر به المصلح الاعظم ﷺ فاتصل بالسيد جمال الدين من ذلك اليوم حتى اقتبسه منه وكان خليفته فيه ، لكن من ناحية ربيعة الامة التي كان يتمنى قيام السيد بنفسه بها ، اذ لا يثبت إصلاح الحكومات بدونها ، لا من ناحية استبدال حكومة صالحة مكان غيرها (راجع ص ٩٧٤) تلك الوراثة النبوية التي عبر عنها يوم موت السيد بقوله في رثائه الوجيز البليغ : «والذي أعطاني حياة يشاركني فيها علي ومحروس " السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى (ص) والأولياء والقديسين . ما رثيته بالشعر لانني لست بشاعر ، ما رثيته بالنثر لانني لست الآن بنائر ، رثيته بالوجدان والشعور لانني انسان أشعر وأفكر » اه بنعمه تقريباً^(١)

هذه الوراثة هي التي أخرج الله تعالى بها محمداً عبده من خمول تصوفه وخود أزهريته إلى ميادين الجهاد في سبيل التجديد الديني ، والإصلاح الاجتماعي المدني ، يخوض غمرات الثورات ، وتتماذفه أمواج الاسفار ، وتكافحه قن الامراء المستبدين ، وجهالة حملة العمام الجامدين — من حيث بقي حسن الطويل نديده في التصوف والفلسفة فابما في كسر بيته ، راضياً بخموله وراحة نفسه . وإن في الصلاة لراحة ، وإن في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابها قاصر على صاحبها ، وثواب الجهاد متعدد لكل من ينتفع به ، والانسان الكامل من يجمع بينهما

بهذا الروح العلوي كان يقول له استاذ السيد جمال الدين وهو مجاور يلبس الزعوط : قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت ؟ ذلك السيد الذي كان يخاطب الملوك المستبدين خطاب الاقران ، بل يهدد بعضهم ويمن على بعض فيقول للسلطان عبد الحميد انني لاجل أمرك قد عفوت عن شاديران ، ويقول له السلطان : بحق يخاف منك الشام خوفا عظيماً^(٢)

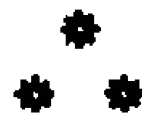
(١) هما أخواه اللذان يشغلان بالزراعة (٢) كنت كتبت العبارة من مذكرة له وفقدت المكتوب وبقي الخفوظ (٣) هذا لفظ السيد في ترجمة لفظ السلطان سمعه منه كثيرون في الآستانة

ى اشتراك الروحين المجددين في العروة الوثقى وتأثيرها الغريب

بهذا الروح العلوي كان يشرف من سماء إدارة المطبوعات بالسيطرة والساطان على الحكومة المضرية من أعلاها الى أدناها، فيأمرها وينهاها، منتقداً أعمالها، مرشداً عملها، يخطي اغتيم الكتابية فيضطرهم إلى إصلاحها في معاهد التعليم، ويفند أعمالهم فيقيمهم على صراط العدل المستقيم. بل ازعج بمقالاته في انتقاد وزارة المعارف ناظرها حتى شكاه إلى رئيس النظار رياض باشا فما أشكاه، وكلم الرئيس الشيخ فاقام له البرهان على وجوب الاصلاح، وأقنعه بإنشاء المجلس الأعلى المقيد لاستبداد وزيرها في الاعمال، فأنشأ دبرأيه، وكان هو سكرتير ذلك المجلس وصاحب التأثير الأكبر فيه

بهذا الروح العلوي كتب ذلك الكتاب البليغ في سجنه، وأعلن فيه عفو عن وشوا به وأساءوا اليه على ما كان من احسانه اليهم، وجزم بما أعدت له العناية من المجد، واعدأ بان سيفعل المعروف، ويغيث الملهوف . . . وكذلك كان

بهذا الروح العلوي كان هو الرأس المدير في كل مجلس رسمي عين عضواً مرءوساً فيه كمجلس إدارة الازهر ومجلس الاوقاف الاعلى ومجلس شورى القوانين. نجد إثبات ذلك في بيان اعماله فيها من هذا الكتاب، سافرة الوجه ليس دونها نقاب بل بهذا الروح العلوي كان اميره يكبره ويها به ويقول انه يدخل علي كأنه فرعون. وإنما كان يدخل عليه كدخول موسى عليه السلام على فرعون، متوكئاً على عصا الحق، داعياً الى الاصلاح والخير، ناهياً عن الاستبداد والبغي - كقوله له في مجلس تشريف المقابلة الحافل بالعلماء: ان مجلس إدارة الازهر لا يعرف لسموكم أمراً عليه، الا بهذا القانون الذي بين يديه، دون الاوامر الشفوية التي يبلغها عنكم، من لا يثق به المجلس لمخالفته لقانونكم



تلك آيات بينات من حياة كل من الروحين على الانفراد، فما رأيك إذا اجتمع هذا الروح العلوي بذلك الروح الاعلى الذي اذكى سراج الوهاج، واتحدوا في عمل من الاعمال؟ ذلك ما كان من اصدارهما جريدة العروة الوثقى التي لا تعرف في تاريخنا كلاماً بشرياً ابلغ من مقالاتها في إصابة مواقع الوجدان من النفس،

اشترك الروح حين المجددين في العروة الوثقى وتأثيرها الغريب ك

ومواضع الإقناع من العقل ، ونجربة الضعفاء ، على الثورة على الاقوياء ، والجهاد
لتحرير امتهم ، واستقلال بلادهم

فان سألت عن تأثيرها في رعب العظيمة البريطانية ، وإثارة العالم الاسلامي
والشعوب الشرقية ، فانك تجد قصصها مبسوطا في هذا الكتاب ، بما يشبع هممتك
السياسية من إسهاب ، ويروي غلتك الادبية من إطناب ، (ص ٢٩٨ و ٣٠٣)
وانه ليس ذلك بالروايات الصحيحة ، والشواهد الصادقة ، كل ما أشرنا اليه في
هذا التصدير من آثار تلك الروح القدسية ، وتجديد الاصلاح المنقذ للامم والشعوب
من رق القاتحين المستعمرين ، وظلم المستبدن القاهرين ، وجود الفقهاء المقلدين ،
ودجل المتصوفة الخرافيين ، فاطلبه من هذا التاريخ فانه يقصه عليك مفصلا تفصيلا
فاقرأه أيها الغيور على قومه ووطنه فصلا فصلا ، وتدبر مقاصد فصوله مقصداً
مقصداً ، ثم اقرأ في الجزء الثاني له مقالات الامام الاجتماعية والادبية ، ولوائحه في
إصلاح التربية والتعليم ، ورسائله الدينية والادبية لاهلماء والادباء . ثم ارجع البصر
إلى الجزء الثالث واعتبر بتأثير وفاته في العالم الديني والمدني ، وتأمل إجماع كتاب
الامم والشعوب المختلفة الاجناس والاديان والآراء والافكار على تزيكته وتقديسه ،
او تدبر مقدمتنا لكل منهما - تعلم انه هو الامام الذي يجب اتباعه في تجديد الامة وإحياء
الملة ، وإيجاد المدنية الفاضلة ، ثم انظر ما اقترحته على مصر في خاتمة هذا الكتاب
لعلاك تكون من حزب الدعاة المصلحين ، وأنصار التجديد المستبصرين الذين قال
الله تعالى فيهم (وزيد أن نن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة
ونجعلهم الوارثين)

هذا ما توخيت التنويه به من هذا الضرب البديع من التجديد لحياة الشرق
على ما وصفت من التباين بينه وبين الغرب ، وما كان من تأثيره الذي يشبه خوارق
العادات ، كبراء الاكهم والابرص وإحياء الاموات ،

المجددون للوثنية والرجل

إلا وإنه قد نجم في هذين القرنين قرنان أو قرون من أدياء التجديد، بعضهم في إيران وبعضهم في الهند، وإنهم إلا مسحاء دجالون، ومتنبئون كذابون، لبسوا على الناس لباس الإصلاح الديني، وعملوا لهم بالشكل الذي تصوره تقاليدهم لما ينتظرون من المسيح والمهدي، وانتحلوا لدعايتهم آيات، واخترقوا لأنفسهم معجزات، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من ادعى الألوهية، وقد اتبعهم فئام من المحرومين من مزايا الإنسان، الكافرين بنعمتي العقل والقرآن، الجاهلين لثبوت نبوة خاتم النبيين بالعالم والعقل، وإن الله ختم به نزول الوحي، فزادوهم رجسا على رجسهم، وعبودية للأجانب على عبوديتهم، فكانوا دعاة وانتصاراً للمعتدين على استقلال بلادهم، المستعبدين لأقوامهم، فوالله لو عمت فتنتهم لاستولى الانكايز على بلاد فارس كلها، ولما وجد في الهند من يطالب الانكايز باستقلال، ولا بحق من الحقوق ولا عمل من الاعمال

أليس من مثار العجب الذي جاء بها أبو العجب^(١) أن يضع كل من أتباع هؤلاء الدجالين لأنفسهم نظاما، ويجمعوا لبث نحلتهم أموالا، وينفروا للدعوة إليها خفافا وثقالا؟ فيكون لهم في كل واد أثر، وفي كل قطار ذكر، وينضوي اليهم بعض الملاحدة طمعاً في أموالهم، لا إيمانا بمسيحهم أو الهامهم؟

أوليس باوغل من هذا في أعماق العجب وأوانع في أحشائه أن يتخاذل العارفون بقدر حكيمة الشرق، وإمامي الإسلام بالحق، عن تأليف حزب اتعميم إصلاحهما، واستمرار تجديدهما، وأن يكون لجماعتهم نظام يكفل دوام سيرهم ومال يضمن نجاح سعيهم، ومدارس تربي النابتة على منهاجهم، وأطباء يداوون أمراض الاجتماع بمعالجهم؟ على استقلال الفكر، وحرية العلم والرأي، وهداية الدين، وتوطين النفس على الجهاد لأعلاء كلمة الحق. وإقامة ميزان العدل لتكون عزيزة لا تدين لاجنبي معتد، ولا لوطني مستبد؟

(١) أبو العجب الشموذي وكل من يأتي بالأعاجيب

نعم ان ذلك لعجيب ! وان هذا لا عجب منه . ويشبههما في العجب أن المنتهين إلى السنة من المسلمين أقل من المبتدعة تعاوناً وتناصرًا وعصبية ودعاية : أفلا أنبتك بالسبب ، الذي ينتاشك من حيرة العجب ؟

ان حقيقة السنة والجماعة هي حقيقة الاسلام . وان الاسلام الحق هو دين توحيد المبودية والربوبية لله وحده . والحرية وعزة النفس تجاه ماسواه . واتباع رسوله وحده فيما بلغه عنه والعمل بمقتضى الوازع النفسى التابع للعقيدة ، والنظام الاجتماعى الذى تقررته الشريعة ، فلا تذلل نفس صاحبه بالانقياد لرئيس ديني ولا دنيوي لذاته ، ولا سلطان ورأى أو تقليدي فيما وراء تنفيذ أحكامه .

وأما هذه النحل الباطلة والمذاهب المبتدعة التي أشرنا إلى بعضها فأنسابها المبودية والخضوع لفرد أو جماعة من البشر ، يقدر منتحابها أشخاصهم ويرفعهم على نفسه وعلى سائر الناس وهم منهم ، ويوجب طاعتهم عند فريق وعبادتهم عند آخر . فتكافل هؤلاء . يكون تاماً شاملاً لأنه تعبدى ، وعصبيتهم تكون أقوى لأنها وجدانية لا عقل للأفراد ولا رأى للجمهور فيها .

ويرد علينا ههنا ان العقائد الباطلة والتعاليم الواطئة ، خير للجماعات وللشعوب التي تأخذ بهن من العقائد الصحيحة والتعاليم العالية ، من حيث جمع الحكمة ووحدة الامة . ونرد هذا الايراد بقولنا ان العقائد الحق والتعاليم الصحيحة لا يقوم بها إلا أصحاب العقول النيرة والافكار المستقلة الذي آمنوا بها عن حجة وإذعان . وما تنازع هؤلاء . مع المخالفين لهم إلا وكان لهم الرجحان . سواء أكان التنازع في الدين أو في الحكم والسلطان ، وبهذا ظهر الاسلام على جميع الاديان .

وهذا الفريق فريق العقل واستقلال الفكر قل في جميع فرق المسلمين ببناء التعليم فيهم على أساس التقليد الذي يحتم على طالب العلم أن يقبل كل ما يقرره شيوخه بعنوان مذهبه وإن لم يكن منه ، سواء أعقله أم لم يعقله ، فإن نازعه فيه حكم بكفره ، ولهذا صار أكثر المسلمين يقبلون البدع والخرافات مهما تكن المذاهب التي ينتمون اليها ، إذ ليست المذاهب فيهم إلا عناوين لمصبيات لها رؤساء يطاعون باسماء ، وأكثرهم يجهلون اصولها وقواعدها . ومن تلقى منهم شيئاً منها فانما هو لفظ يفتله ولا يعقله ،

ن سبب قلة أنصار الحكماء من رجال الدين وكثرتهم في رجال الدنيا.

ولا يرجع اليه في فروع علمه ولا عمله ، ومن كان غير مستقل الفهم والعقل في عقيدته ، لا يكون مستقل الإرادة في عمله . ومن نتائج هذا الخضوع ان صاروا خاضعين للمستبدين ، وظهراء للظالمين ، وان كانوا بملتهم كافرين

وأساس الإصلاح الديني والسياسي الذي قام به وعليه الاسلام ديننا ودولة وقامت عليه الدول القوية هو الاستقلال بنوعيه . وهو الذي دعا اليه الحكماء المجددان الافغاني والمصري ، وقد بينه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد ، لهذا كان أنصارهما من رجال الدين هم الاقلين وخصومهما منهم هم الاكثرين . وكان أشد ما أنكروه عليهما القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد - ويقال له أن كان أكثر المعجبين بهما والذين قدرهما قدرهما ، هم الذين نبغوا في المدارس المدنية العالية التي يسير فيها التعليم على منهاج استقلال الفكر وكذا من تلقى من بعض أهلها وعاشروهم على استعداد فيه فصار مستقلا . ثلثة من المدنيين وقليل من المعتمدين

ولو كان مادعا اليه الحكماء هو التجديد السياسي والمدني دون الديني لآلف له هؤلاء الانصار حزبا كبيرا منظما كما فعل سعد باشا من تلاميذهما بعدهما

ولو دعا الاستاذ الامام الى نهضة دينية تقليدية صوفية لوجد من الازهريين وأهل الطرق من يؤسس له عصبية قوية يتبعها الالوف والوف الالوف في زمن قريب ، ولا سيما اذا أباح لنفسه أن يظهر لم تعبه الخفي ، ومعرفته بأسرار التصوف ، وغير ذلك من خصائصه الروحانية ، التي كان يعتقد وجوب كتابتها لأنها غير طيمية . فأظهارها للمقيدين بالسنن الطبيعية فتنة لهم ، وفيها كثير مما يعد من الكرامات عندهم ، وقد نقلت هذا عنه في بيان رأيه في التصوف والصوفية .

بيد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وان السيد جمال الدين رجل دين وان غلبت عليه السياسة . والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غلب عليه الدين . بل هو أقرب من أستاذه الى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين . فيهما ، فقد كان في الازهر لا يعمل قوله قول ولا يفتل رأيه رأي . وكذلك كان بين الراقين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والادباء والنشئين ، بل كان كذلك بين علماء الافرنج وساستهم ، وترى نموذجا من شهادات الجميع له في هذا التاريخ

خلاصة الخلاصة

في وجوب الجمع بين التجديدية الدينية والمدني

وحزب الاصلاح المعتدل

الذي يقوم به

و خلاصة ما أريد عرضه على قراء هذا التاريخ في هذا التصدير ان اصلاح الامة الاسلامية في أي شعب من شعوبها لن يكون إلا بالجمع بين التجديد الديني والديني. هذا ما صرح به الحكيمان وجريا عليه بالعمل. وصرح لي به سعد باشا زغلول وقد نقلته عنه في النار. بل هذا ما يعتقده أهل الرأي الناضج من غير المسلمين، وقد صرح به الكثيرون منهم قولاً وكتابة، كما يراه القاري، فيما كتبه بعضهم في تأييدهم. الأستاذ الامام وترجمتهم له من الجزء الثالث، وذكرت كلمات منها في الشهادات الممدودة لاشهرهم قبل خاتمة هذا الجزء.

فالجهد الذي يخوض غمراته دعاة الاستقلال السياسي والاصلاح المدني لا يتم لهم النصر فيه، ولا يتسق أمره وثبت بوانيه، إلا بالتعاون والتظاهر مع دعاة الاصلاح الديني، وقد كثر جنده المستقلون في فهم الاسلام في الازهر وغيره من القطر المصري وفي سائر الاقطار الاسلامية وهم منذ سنين يفكرون في تكوين وحدتهم وتنظيم حزبهم، فاذا وجدوا من زعماء الاحزاب المدنية رغبة في الاتحاد بهم والتعاون معهم، ظهر هؤلاء من قوتهم في الرأي، وتأثيرهم في الشعب، بألسنتهم الحاطبة، واقلامهم الكتابية، ما لم يكونوا يحسبون،

واختصر في هذا الموضوع هنا لاني قد وفيت حقه في خاتمة الكتاب بما ليس وراءه مزيد، إلا اذا ظهر الاستعداد له وانتقل إلى حيز التنفيذ

فراجع الخاتمة، واجمع بينها وبين هذه الفاتحة، وأما الاعمال بالخواص (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

✽ وكتبه محمد رشيد رضا في سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ✽

❖ المواد المهمة التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا التاريخ ❖

- (١) ما كان شرع فيه الاستاذ الامام من ترجمة نفسه بخطه .
- (٢) مذكرة بتاريخ حياته كتبها لي لاجملها أصلا لخلاصة لتاريخه طلبت منه
- (٣) ما كتبه من تاريخ الثورة العربية ومذكراته الوجيزة فيها
- (٤) مجموعة خطية له فيها بعض المستندات في عمله مع السيد جمال الدين في تأسيس جمعية العروة الوثقى السرية ونظامها. وبعض المكاتبات بيده وبين أعضائها
- (٥) مسودات مقالات ومكتوبات وتقارير كان يعطيني إياها لتبسيطها أو بسطها ونشرها في الجرائد أو إرسالها لبعض الناس ومنها ما هو خاص بالازهر
- (٦) مؤلفاته كلها وما اقتبسته من تفسيره ودروسه في الازهر
- (٧) جملة من المكتوبات والرسائل والمصائد التي كانت ترسل اليه وحفظها عنده
- (٨) مجموعة فيها حكم مقتبسة منشورة بخط السيد جمال الدين وخطه ومقالاته
- (٩) مقالاته الاصلاحية في جريدة الوقائع المصرية
- (١٠) مجموعة العروة الوثقى برمتها بخطي وخط بعض اخواني
- (١١) قوانين الازهر ولوائح التعليم فيه ومحفوظات أخرى في شأنه
- (١٢) كتاب اعمال مجلس ادارة الازهر
- (١٣) تقرير محمد بك ابو شادي في مسألة فتوى طعام اهل الكتاب
- (١٤) إرشاد الامة الاسلامية إلى أقوال الأئمة في الفتوى التراشقية لجماعة من أكابر علماء الازهر
- (١٥) مجموعة مجلدات المنار وما فيها من المقالات والآراء له وعنه وفي شأنه
- (١٦) عدة أجزاء من مجلة ضياء الخافقين فيها مقالات للسيد جمال الدين
- (١٧) مجموعات المجلات والجرائد المصرية التي نشرت ترجمة السيد وترجمته
- (١٨) كتاب الدفاع عن العربيين لمحاميههم مستر برودلي
- (١٩) ما كتبه لي أصدقاؤنا من تلاميذه ومريديه عن سيرته في سورية بعد النفي ورحلته إلى السودان وفي مدحه والدفاع عنه
- (٢٠) مذكراتي الخاصة ومكتوباته لي وما اقتبسته واستفدت منه من معاشرته ٨ سنين





المؤلف
الأستاذ الأمام الشيخ محمد بن عبد الله
والدكتور في الفقه
مكة



السَّيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

مَوْلَانَا الْحَكِيمُ ١٣٢٥

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ
صَادِقٍ فِي الْآخِرِينَ (٢٦: ٨٣) أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٢: ١٠١)

فلك الحمد أن جعلت سير الاولين عبرة للآخرين ، ومننت على عبادك بمن
بعثته في الاميين ، يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا
من قبل لفي ضلال مبين . محمد خاتم النبيين ، ورحمتك العامة للعالمين ، فصل وسلم
اللهم عليه وعلى آله وصحبه ، والمجددين لهديه واصلاحه من بعده ، حتي ترث
الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين

أما بعد فيقول محمد رشيد رضا صاحب المنار إن مصر لن تنسى ذكر الحكيمين
المجددين ، والامامين المصلحين ، السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده
المصري ، فطلاب الاصلاح الديني والاصلاح المدني والاصلاح السياسي ، لا يفتؤن
يشيدون باسميهما على أعواد المنابر ، وفي اعمدة المجلات والجرائد ، ولا يزالون
يجعلونها مضرب الامثال ، ويتناقلون ما يؤثر عنهما من حكم الاقوال ، وجلائل
الاعمال ، بل ذكرهما الحميد معروف في سائر الشرق ، غير مجهول في عالم الغرب ، وان
لقب « حكيم الشرق » ولقب « الاستاذ الامام » لاصقان بهما ، وهغنيان عن تسميتهما
وقد أجمع العارفون والمدونون للتاريخ الحديث على انهما مصدر هذه النهضة
العصرية في مصر والافغان وإيران والهند ، وهم يشعرون بالحاجة إلى وضع
تاريخ لهما يدون سيرتهما ، ويفصل أعمالهما الاصلاحية ، ويرون ان ما كتب في
الصحف عند وفاة كل منهما ، وما ينشر فيها أحيانا من التنويه باصلاحهما ، نزر
يسير من أعمالهما وآرائهما النافعة . وعجب بعض المفكرين ان رأوا بعض الافرنج
يكتب في تاريخهما ما لم يكتب مثله أولادها وأحفادها من دعاة الاصلاح والتجديد
وينجون بأشد اللائمة على المصريين منهم عامة وعلى صاحب المنار خاصة إذ
كان أخص مرادي الاستاذ الامام ونابشر علمه وحكمته . والمدافع عن اصلاحه

في عهده ومن بعده . وقد وعد بكتابة تاريخ له عقب وفاته . فنشر سفرأ جمع فيه أكثر منشأته القلمية، وجزءاً جمع فيه أهم ما قيل وما كتب في تأييده ورتائده، وماها الجزء الثاني والجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام . وقد مر ربع قرن ونيف ولم يصدر الجزء الاول الذي هو التاريخ الحقيقي

أشهد ان لوم اللائمين لمصر على هذا التقصير حق . واني بما يخصني من التثريب علي لاجله وهو أكبره أحق . ورب لائم ملهم . ورب ملوم معذور . وها أنذا ألخص عذري بعد أن اعترفت بتقصيري . وبرئت من ذنبي بانجاز وعدي

توفي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في إثر معارك من جهاده في الإصلاح ماصلي نارها معه غيري . وحات ما تصديت له من الضرر . غير متململ ولا ضجر . وأماما لدع قلبي من نار فقدده فهو الذي لم يكن لي بحمله حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم كنت مهتداً بعده بالنفي من هذه البلاد كما هددت في آخر عهده . وقد وطنت نفسي على النفي وعزمت على السفر الى الهند . ولم أتحول عن خطتي قيد شعرة أعلنت عزمي على كتابة تاريخ للاستاذ الامام فلم ألبث أن بلغت عن الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ان أصدقائه قد قرروا تأليف تاريخه بالتعاون بينهم وهم به أولى ، فقلت للمبلغ ان تأليف تاريخين لهذا الامام الكبير ، ليس بكثير ولا كبير . فليكتبوا ما عندهم وأنا أكتب ما عندي

ثم أرسل إلي عميد حزبه المدني وأقوى أركانه سعد باشا زغلول وكان عادع شقيقه احمد فتحي باشا من أوربة ، فجئته فبلغني أنه هو واخوانه من مرادي الامام وأصدقائه يرون أن أتولى كتابة تاريخه . وأن يساعدوني بما لديهم من المواد والمعلومات . ثم يساعدوني على طبعه ونشره بالمال ، بشرط أن أطلعهم على عملي وأستشيرهم فيه ، فان كثيراً من سيرته رحمه الله كانوا يعدون متكافلين معه فيه . ويعدون من بعده مسئولين عنه

فاجبته انني لست الا واحداً منكم بل أنا أصغركم ، ولا أستغنى عن مساعدتكم ومشاورتكم . ولا أحب الخروج عما ترونه من مصلحتكم . وفي إثر ذلك اجتمع بدعوة منه الشيخ عبد الكريم سلمان وحسن باشا عاصم وخمد بك راسم وقاسم بك أمين والشيخ عبد الرحيم الدهر دأش (باشا) وقرروا ندب أحدهم احمد فتحي باشا زغلول ليكون نائبا عنهم في التعاون والتشاور معي في العمل وبلغوا حموده بك عبده ذلك ، وانه يرضيهم أن يعطيني ما عنده من مواد هذا التاريخ ، وانما اختاروه لذلك لانه أنشطهم وأقدرهم عليه وأكثرهم مودة وزيارة لي ، وطلاقة في حرية الكلام معي ، وكان هو المتصل من جماعتهم بسمو الخديو ومحيطا بسياسته وسياسة الانكاز في الامور علما . وها الجانبان اللذان يحسب لرضاها وسخطها كل حساب

وكان كل ما قدمه لي من المساعدة نسخ مقالات الاستاذ الامام الاصلاحية من جريدة الوقائع المصرية الرسمية إذ كان يقتني مجموعتها . وكان أول ما شاورته فيه مقالات جريدة العروة الوثقى وكانت كلها منسوخة عندي . فاما ما كان منها خاصا بالسياسة ومسالة مصر والسودان وتهيج العالم الاسلامي والهند على الدولة الانكليزية فقد وافقته على تركه وعدم نشر شيء منه في منشأته لان الحرية في مصر لا تنسج لنشرها . وقد كانت العروة الوثقى ممنوعة من مصر والسودان والهند لاجلها . وقد نشرت أهمها في هذا الجزء . وأعطاني حموده بك بعض المواد ومن أهمها ما كتبه الاستاذ من تاريخ الثورة العرابية

وأما المقالات الاصلاحية العامة التي بث الحكماء فيها الدعوة الى جمع كلمة المسلمين واصلاح ذات بينهم . والتعاون على احياء مدينتهم بما تقتضيه وسائل هذا العصر . فقد ائقنا على نشر أكثرها . وترك ما تعدد انكسرة تحريضاً عليها منها . ولكنه أشار أيضاً بحذف جمل من بعض المقالات ما وافقته عليها إلاكارها . وأيقنت اني لا يمكنني أن أكتب هذا التاريخ تحت مراقبته والتقييد بمشاورته بالحرية التي أريدها ، وقد ساعدتني اللجنة بمبلغ من المال أعطيتها في مقابلته مئات من النسخ وزعها أعضاؤها بالجنان ، وبيع بعضها بثمن بخس

فهذا ما حملني على التعجيل بجزء التآبين والرتاء والتعازي ثم بجزء المنشآت والتسويات بجزء الترجمة ثم التطويل في فصول تربية الاستاذ الامام وتعليمه منه بذلك الاستطراد الطويل في الكلام على حقيقة التصوف وما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه واتفقنا على جعل ترجمة المنار للاستاذ الامام هي الاصل لجزء الترجمة في مواده مع بسطها والتوسع فيها . وقد قرأه هو ورتبه وأشار بالخير الاحمر الى حذف بعض المسائل منه لمخالفتها لمقتضى الحال أو سياسة الوقت

وفي أثناء ذلك استقال لورد كرومر العميد البريطاني وخلفه السير ألدون غورست صديق سمو الخديو وكان ذلك في أوائل سنة ١٣٢٥ قبل أن تتم على وفاة الامام سنتان ، فكبر نفوذ سموه في الحكومة وضاعت بكبره سعة الحرية علينا ، وأعيد في عهده العمل بقانون المطبوعات فاقتنع أحمد فمحي باشا نفسه بارتكاب كتابة تاريخ الاستاذ الامام كتابة حرة مفيدة صار متعذراً ، فاتفقنا على الوقوف عند ما كان قد تم منه وهو الى ٢٣٢ صفحة وهو المقدار الذي أطلعت عليه الشيخ عبد الكريم سليمان إذ رأيت شاكاً في بدئي بطبع الكتاب فاعترف بأنه لا يمكن نشره

وجملة القول ان طبع هذا الجزء كان يسوء الخديو عباساً وإن لم ينشر فيه ما كان من مقاومته للامام في اصلاح الازهر والمحاذم الشرعية والاقواف حتى المساجد فان نشر هذا فيه كإبراء القاري . هنا فانه كان يبذل كل قواه في عقاب مؤلفه ، وما

كان أحمد فتحي باشا ليرضى بذلك ولا سعد باشاً أيضاً، ومكانهما في حكومة جنابه مكانهما وما انتهى عهد سموه إلا بسبب الحرب الكبرى التي جعلت الحكومة الانكليزية مصر في اثنائها خاضعة لأحكامها العسكرية وأعلنت حمايتها عليها، واشتدت مراقبتها العسكرية ومراقبة الحكومة المحلية بأمرها على المطبوعات، واستمرت هذه المراقبة الشديدة الى ما بعد الحرب بزمان طويل.

وانما سنحت الفرصة الاولى لأصدار الكتاب في العهد الاخير لسعد باشا في زعامة الامة ورياسة الحكومة واستقرار نفوذه في البلاد أي في سنة ١٣٤٥ هـ إذ لم يبق للانكليز من النفوذ القوي في هذا العهد ما يخشى أن يمكنهم من حمل الحكومة على مصادرتة، على أن ثورة مصر قد انتهت ولم يعد ما في الكتاب من التحريض السابق يضيق على حريتهم. بيد أنه قد عاقني عن افتراض هذه السانحة بالسرعة عدة عوائق منها أنني كنت انتقلت من الدار التي طبعت فيها القسم الاول من التاريخ الى دار أخرى وتعذر وضع كل نوع من المطبوعات الكثيرة وحده فلم تقدر على العثور على المطبوع من التاريخ إلا بعد الانتقال الى دار المنار الجديدة ووضع كل كتاب من مطبوعاتنا في محل خاص به. وانما تم بعد وفاة سعد رحمه الله تعالى. وقد وجدنا بعض المطبوع تالفاً وبعضه قد فقد، فاضطررنا الى إعادة طبع أكثرها وشرعت في اتمام الكتاب في أواخر سنة ١٣٤٨ وعرض لي موانع عن المضي فيه مدة سنة وعدت اليه في أواخر سنة ١٣٤٩ وكنت أقدره بثانين كراسة (ملزمة) أو مائة، ثم كنت كلما شرعت في مقاصد فصل من الفصول أتذكر من مواد، ومسائل ما كنت ذا هلا عنه حتى بلغ ما رآه القاري، وقد صبرت نفسي وحبستها على كتابة ثلثة الاخير اربعة أشهر من هذا العام (١٣٥٠) لا اشرك به عملاً آخر حتى تم طبعه في هذه الايام، وبقي كثير من المواد والمستندات من تاريخه وتاريخ السيد جمال الدين ضاق عنها هذا الجزء فوعدت بآياتها في جزء الذيل الذي أضعه له ان شاء الله كيف كتب هذا التاريخ

كتب هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة وفترات بعيدة، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور باختلاف الاحوال، والالانة والاستعجال، ولم تكن مواد مجموعة مرتبة وانما جريت في ترتيب أكثرها على ما كتبه في المنار عقب وفاة الاستاذ الامام من ترجمته، ومنها ما ليس له ذكر في تلك الترجمة، ومن ثم يجد القاري فيه تكراراً لبعض المسائل عن سهو أو عمد، وربما تختلف فيه العبارة في المسألة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ كاختلاف الورق، ولا سيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفظي، وأرجو أن لا يكون فيها شيء من التناقض فأنني بفضل الله تعالى قوي الذاكرة للمعاني

ولولا ان طال هذا الجزء حتي صار يشغل حمله، وعطلت أهم أعماله لاجل اتمامه، مع سوء الحال، وقلة المال، لوضعت له خلاصة كلية ألخص فيها مقدمات كل مقصد من مقاصد فصوله ونتيجته، وأبين مواضع العبرة فيه على نحو ما ذكرته في أثنائه لبعضها، كأن أعد ما كان عليه الازهر قبل تصدي الامام لاصلاحه من الصفات والاحوال واحدة واحدة، وأعد ما كان عليه شيوخه وطلابه من الصفات والعادات والاعمال صفة صفة وعادة عادة وعملا عملا، ثم أبين ما كان من تغير الاصلاح لبعض ما ذكر وأعد فوائده واحدة واحدة بعد واحدة، ومثله أن ألخص آراءه في التربية والتعليم قاعد المفاسد التي ذكرها في لوائح اصلاح التعليم في الدولة العثمانية وفي مصر، وما ذكره منها في خطبه في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية، ثم أعد ما ذكره في تلك المواضع وغيرها من قواعد الاصلاح كلها وهي التي ادعو اليها، ولكنك أفعل هذا في كل فصل بل كل مقصد، وإذا لكنت الفائدة اتم والنفع أعم، وأذتذر على كتابة هذا فاني أوجه همة الراغبين في مثله أن يتولوه لانفسهم بانفسهم، ومن لا يعنيه ذلك فلا يهتم لقراءته. وعسى أن أوفق لهذا في الذيل الذي أرجو أن يكون هو المكمل له وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين والمؤرخين في بيان آراء الاستاذ الامام وعاداته وشماله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق، ومنها ما هو منتقد عندي على ما كان بيننا من الاتفاق، الذي يندر أن يوجد مثله بين اثنين من الناس، وأنا أعلم ان منها ما يكون منتقداً في نظر غربي وان كان صواباً عندي، ومنها ما ينتقد علي نشره لان مثله غير معتاد، أولانه من مبالغاته التي ربما كان يقصدها التأثير الخاص، ككلمته في تحريف الفقهاء، وهذا نادر

ومن أنعم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأى ان أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كي يحيط القاري به خيراً، ويحكم عليه حكماً صحيحاً، فان الذين يترجمون الرجال بذكر محاسنهم ومناقبهم، وإخفاء هناتهم ومثالبهم. انما هم شعراء مداحون، لا مؤرخون حقيقيون.

فاذا رأى القاري انني على اعجابي بسعة علومه ورسوخه في معارفه التي كان بها جديراً بلقب الاستاذ الامام، الذي قبله وأجازه الرأي العام. أثبت انه كان مقصراً في علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الازهر. وانني على اعجابي باخلاقه التي كان بها حقيقاً زعامة الاصلاح والتجديد للامة والملة، صرحت بانه كان كأستاذه لا يخلو من الحدة. ومما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة، والمبالغة في الورع، المغريتين لصاحبهما بإثارةهما على المصلحة العامة. وأنني على اعجابي بقوة تدينه وحسن تعبدده ومحافظة على تهجده. صرحت بانه كان يجمع بين الصلاتين في الحضرة أحياناً ترخصاً اجتهداً يا خالف فيه المذاهب الاربعة، ولكنه وافق حديثاً صحيحاً أخذ به غيرهم من الائمة

إذا رأى القارىء هذا وذلك أيقن انني لم أكن محاييا له في هذا التاريخ، ولا سالكا فيه مسالك الشعراء، ولا انصار المذاهب وزعماء السياسة، الذين يصورون أئمتهم وزعماءهم صوراً مكبرة مزينة مجلدة بما يظهر محاسنهم ويخفى مساوئهم، أو يبدل سيئاتهم حسنات، وعلم ان كل ما انتقد على الاستاذ يصح أن يقال فيه « حسنات الابرار سيئات المقر بين » واني وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والزاهة ولا الورع والشرف. ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد. فهو أكمل من عرفت من البشر. ومن اطلع على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى، او الحكمة والفلسفة، أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبجر. فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرياسة؟

ولقد كنت داعية لزعامته وامامته، وانما كانت دعاية صدق ودين، وجهاد وجلاد، لزعامه تجديد واصلاح. لازعامه رياسة وجاه، ومناصب ومال، وهل يتوسل العاقل المتدين الى الحق بالباطل، والى الاصلاح، بالكذب الذي مطية كل افساد، فيتمجّل لنفسه الاجرام نقدا، لاجل ما يرجو لغيره من الاصلاح نسيئا؟ وقد سئل الاستاذ الامام أترجو أن تجني ثمر اصلاحك في حياتك؟ قال أستبعد هذا ولا أظنه، وحسبي أن يتم فيجنيه من بعدي

وجملة القول ان هذا الرجل اكمل من عرفت من البشر ديناً وأدباً ونفساً وعقلاً وخلقا وعلماً وعملاً وصدقا واخلاصاً. وان من مناقبه ما ليس له فيه ند ولا ضريب، وانه هو السري الاحوذى العبقري الحقيق بلقب « المثل الاعلى » من ورثة الانبياء في هذا العصور ان لم اطلقه عليه لانه على اطلاقه خاص بالله في نص كتابه، وقد اجتذبه الناس في الخطب والجرائد حتى خرج عن معناه.

صنوف قراء هذا التاريخ

ألا وان قراء هذا التاريخ صنوف فمنهم طلاب الاصلاح والتجديد النافع للامة، مع المحافظة على مقوماتها ومشخصاتها التي تمت بها حقيقتها وامتازت من غيرها، وهؤلاء يشكرون لي عملي ويرون أنني أحسنت فيه وأصبت. ويعفون عما عساني أخطأت فيه أو قصرت، ويساعدوني على نشر الكتاب، لانه خير عون على اثارة الهمم، وتقوية الامل، والتنشيط على العمل. بل هؤلاء منا، من عرفنا منهم ومن لم يعرفنا

و يليهم المستعدون للإصلاح بسلامة فطرتهم وحسن نيتهم . و لكنهم غافلون عنه لقد الباعث والمنبه ، وسيجدون في هذا التاريخ أقوى دعاية ، وأوضح هداية ، فلا يلبث قارئه أن يكون منا وينصرنا بقدر ما أوتي من همة واستطاعة

ومنهم دعاة النهضة المدنية الوطنية اللادينية وسيجد المخلصون منهم ان امامنا امام لهم في جانب من جانبي اصلاحه ، وان الجانب الآخر ينفعهم ولا يضرهم ، فان الجامدين في التقاليد الدينية والخرافيين فيها هم أعداء التجديد المدني ، فاذا صلحوا اتقوا معهم في تعزيز النهضة الوطنية وتعاونوا معهم عليها ، مالم يكونوا دعاة الاتحاد لذاته . وقد كان المعاصرون منهم للحكيم الافغاني والامام المصري يدينون لزعامتهما ، وان لم يكونوا من مريديهما والمقتبسين منهما مباشرة . بل كان اخلص منهم لقومه ووطنه يعترف بفائدة إصلاحهما الديني وضرورته لا كمال النهضة المدنية ، والرابطة الوطنية ، كما ترى في تابين احرار النصارى وملاحدة المسلمين للاستاذ الامام

وأما الجامدون المصريون على التقاليد والخرافات ، المطبوع على قلوبهم بما مردوا عليه من الخطيئات ، فقد يوجد فيهم من ياتمس لنا العثرات ، ويبدل حسناتنا سيئات ، ويكبر الصغير من الهفوات . ولا خوف على أنصارنا منهم فالحق يدمغ الباطل والنور يطرد الظلمات ، وانما ضررهم محصور في مقلدتهم من العوام الجاهلين والخرافيين . يصدونهم عن قراءة كتبنا ، وما قرأها أحد وفهمها الا واتبعنا

ومن دون هذه الصنوف والطبقات صنف الملاحدة والزنادقة ، ودعاة الاباحة المطلقة ، وصنف اجراء الاجانب وأعوانهم ، وصنف المتملقين للظلمة المفسدين . وهؤلاء تحوت أدنياء لا يرجعون عن غيهم الا اذا صار للإصلاح دولة قوية غنية تستصلح هؤلاء بالرزق ، وتكبح شر أولئك بالقوة . وأما نحن فاذا خاطبونا قلنا سلاما . واذا مررنا بلغوهم مررنا كراما . ونسأله تعالى ان يجعلنا معهم ممن قال فيهم (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به . انه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

سيرة الاستاذ الامام

بدء الشعور بالحاجة اليها ومطالبته بالشروع في تدوينها ما كان الاستاذ الامام يفكر في أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تدون، لانه كان يستصغر عظم اعماله لتوجه همهته الى ما هو أعظم منها . ولا أعظم منها الا غاياتها وثمراتها . وأما علمه وحكمته وأخلاقه وشمائله فكانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر في باله ما في اظهارها للناس من المثل الكامل والاسوة الحسنة . فبينما هو غافل عن هذه ومستصغر لذلك اذا به يطالب من بعض أهل العلم والفضل بالتفضل عليه بترجمته . ثم اذا هو بمعجب به يقترح عليه أن يكتب بيده سيرته . واذا بالمقترح جاد يلحف في السؤال ويكرر الاقتراح، فهل كان هذا المقترح وذلك الطالب من تلاميذه ومريديه وعم أولى الناس بعرفان فضائله ؟ أم من صنائع أياديه فكان من حق الشكر عليها تعريف الناس بفواضله ؟ أم كانا من أولى النزعة الوطنية والعصبية القومية، فاحبا أن يباهيا به الاوطان، ويفاخرا به الاقوام ؟ لا هذا ولا ذاك جاء في الامثال « مغنية الحي لا تطرب » والعجيب اذا ألف لا يعود يعجب ، ولذلك يكون اجلال الغرباء للرجل العظيم أبلغ من اجلال أهله وقومه ، وقد كان للاستاذ الامام نصيب عظيم من اكبار الغرباء له لفضائله ومناقبه ، على حين كان أكبر تحويم قومه عليه لجأه ومنصبه ، لالعلمه وحكمته ، واكثر اغتباط اصحابه الكثيرين به لعلوم مروته ونجدته ، لا لاجل اصلاحه وجهاده ، فكان لاكثر الفريقين حظ شخصي من تعظيمه

وأما اعجاب الغرباء به فالباعث عليه فضائله الذاتية . لا فواضله العرضية . وقد كان الذي طالبه بكتابة سيرته وتاريخه رجل من فضلاء الاجانب لا من متبعي ملته ولا من اهل وطنه . والذي طالبه بتفضله عليه بمخلاصة من سيرته ليزداد علما بمناقبه . وتأسيا به في عمله ، رجل كريم يشاركه في الدين دون الوطن . فكان هذان الاقتراحان سببا لعلنا بما لم نكن لنعلمه لولاها

أما هذا المقترح للمخلاصة فكان سببا لحمل الاستاذ نفسه على كتابة مذكرة في خلاصة سيرته أعطاها لزيد فيها ما علمته منه بالمشافهة والمشاهدة . وأيضها ليرسلها اليه ، ففعلت ، وبقي عندي الاصل وقد ازددت به علما . وكان مادة لي في هذا التاريخ فيما سبق صحبتي لصاحبه من الزمن ، وأما المقترح لتدوين كتاب حافل في سيرته التفصيلية فقد كان بالحاجة وما شعر به الامام من اخلاصه ، سببا لشروعه فيه ، ولكن كثرة أعماله وضيق أوقاته عن الاتساع لها كلها قضت بان يسترق له من خلس الراحة سويعات من كل أسبوع أو شهر ، وكان كل ما أمكنه أن يكتبه المقدمة وبعض الفصل الاول الذي موضوعه أهله وبيته . واني أبدأ به وهذا نصه تجاهك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ولي الضعفاء اذ رجعوا اليه ، ونصبرهم اذا اعتمدوا في أعمالهم عليه ، وأخلصوا له العمل ، ومحصوه من شوائب الحيل ، ولم يياسوا من رحمته ، ولم يبطروا بنعمته ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله ، الهادي الى الحق وسبله ، الداعي اليه بقوله وفعله ، الموثر له على نفسه وأهله ، الممرض عن نعيم الدنيا لأجله ، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه ، وعلى الصراط المستقيم والهج الواضح تابعوه .

وبعد فما أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن تترك للأجيال طريقته . فإني لم آت لأمتي عملاً يذكر ، ولم يكن لي فيها الى اليوم أثر يوثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة ، أو يكون لأحد في أسوة ، وهذا الذي أجد من استصغار أمري ، وخفاء أثري ، وظهور عجزني عن بلوغ ما يرمي اليه فكري ويطمح اليه نظري كان بمنعني من أن أكتب شيئاً يتعاق بحياتي ، تعرض فيه بداياتي ، وشي من أعمالي بعدها ووصفاتي ، حتى أكون به باقياً عند من يطالع بعد مماتي . وكنت أقول : وقت أصر فيه في حكمة أستفيدها خبر من زمن أنفقه في قصة أستعيدها ، وما الذي عساه يبقى مني ، وأنا في قومي لم أترك ما يوثر غني .

ولكن عرض لي أن زرت يوماً بعض معارف من الغربيين ممن نظروا في الآفاق ، وبحثوا في العادات والأخلاق ، وجابوا لذلك الاقطار ، وركبوا الاخطار ، وتجشموا مشاق الأسفار ، وحققوا في ذلك وتقبوا ، وكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوا ، فدار الحديث بيننا على شؤون بعض الأم الحاضرة ، وما يجري فيها مما أدت اليه حوادثها الماضية قد كرت لهم ما عندي في ذلك وما أقيم عليه رأيي من مشاهدات ، في أيامي الخاليات ، فأروا فيما ذكرت شيئاً يستحق أن يذكر ، ولا ينبغي أن يهمل ويهدر ، وزادوا على ذلك أن قالوا : انهم يسمنون أن يروه منقولا الى لغتهم ، مقروءاً في قومهم بلسانهم ، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجاً في سيرتي ، معروضاً في تضاعيف وصفي لمعشتي ، وما تنقلت فيه من أدوار ، وما ندرجت اليه من آراء وأفكار ، مع اسناد

كل شيء الى سببه، ورد كل أمر الى أصله، وسألوني مع ذلك ان اكتب ما أعرف من نسبي وما كان عليه بيتي ومنزلة أهلي من قومي فقلت سبحان الله لو كانوا من المسلمين لقلت أنهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تحقرن من المعروف شيئا » أولئك قوم يعرفون الاقدار، ويقدرن الآثار، لا يبغسون شيئا حقه، ولا ينكرون عليه ما استحقه، يطلبون المنفعة في كل شيء حتى فيما لا قيمة له في نظرنا، وفيما نعهده من الضائعات فيما بيننا . هذا الذي القتهم الى دعوتي لتحرير سيرتي - نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتي، وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته، ولأه بكبريائه وعنجهيته، ومغرور بمقامه ورتبته، ومعجب بسنه وشيخوخته، وما استعشتي على اثبات شيء مما غشيتني الا رجل واحد يشاركني في الملة، ولكنه يفارقتني في الاصل والمنشأ، (١) وكان من كلامه في استنهاضي لذلك « انه ان لم ينفع أهل عصرنا انتفع به من يأتي بعدنا » غير أن المرء ولوع بما بين يديه غير واثق بما غاب عنه فكنت ادا فعه بما قدمت من الأعاليل، ولكن لما نصره أولئك الغرباء، وأيده في طلبه العرفاء، وبالغوا في الالاح علي حتى قال لي أحدهم ثاني يوم (٢) « لعل الفصل الاول قد تم » يريد بذلك لعلي بدأت في العمل عقب مفارقتي وأتممت الفصل الاول من الكتاب مع اني لم أكن شرعت فيه وفي يوم سفره قال « أرجو أن أقرأ الكتاب بلفتنا في مثل هذه الايام من العام القابل »

لما تكرر الطلب في هذه الصور المختلفة رأيت ان الاضراب عن الاجابة اغراق في الخمول وتقصير في احترام رأي لم يشبهه رياء ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة في المطلوب .

ثم نظرت نظرة في نفسي وما كانت بدايتي، وما لاقيت في نريتي، وما نزعته اليه اثناء الطريق في سيري، وما انتهيت اليه فيما تأخر من أيام عمري، قست جميع ذلك الى ما عليه الناس حولي، فوجدت اخلافا قد يسهو عنه الغافل، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل .

(١) يعني بهذا الرجل مؤلف هذا الكتاب الذي هو إتمام ما شرع به فاني كنت ألح عليه في ذلك (٢) هو المستر ويلفرد بلانت الانكليزي المشهور

وجدت انني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الاعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن ان سئمت الاستمرار على ما يالفون، واندفعت الى طلب شي مما لا يعرفون، فعمرت على ما لم يكونوا يعرفون عليه، وناديت أحسن ما وجدت ودعوت اليه، وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين - الاول محاربة الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة - لف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله ليرد من شططه، وتقلل من خلطه وخبثه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، بائناً على البحث في أسرار الكون، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس واصلاح العمل، كل هذا أعده أمراً واحداً وقد خالفت في الدعوة اليه رأي الفثنين العظيمين اللذين يركب منهما جسم الامة - طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في حاجتهم .

أما الأمر الثاني فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المحادثات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكفاية منشأ أو مترجماً من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمججه الذوق وتنكره لغة العرب: الاول ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لاني صورته ولا في مادته ولا يزال شي من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم غير انه والحمد لله قليل . والنوع الثاني ما كان يستعمله الادباء والمتخرجون من الجامع الأزهر وهو ما كان يراعى فيه السجع وان كان بارداً، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان كان رديئاً في الذوق، بعيداً عن الفهم ثقيل على السمع غير مؤد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية وهو وان كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية في صورته لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها، ولا يزال هذا النوع موجوداً في عبارات المشايخ خاصة . ثم

ورد علينا في أخريات الايام ضرب آخر من التعبير كان غريباً في بابه وهو ما جاءنا من الأقطار السورية في جريدتي اللجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني وهذا الضرب كان يعد من غرائب الاساليب وبه أنشئت جريدة الاهرام في مصر وقد محي أثره والحمد لله .

وهناك أمر آخر كنت من دعائه والناس جميعاً في عمي عنه، وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بمخلو مجتمعتهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الامة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً . دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلهم شهواتهم وانه لا يردده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصيح الامة له بالقول وبالفعل .

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه
والظلم قابض على صولجانه . ويد الظالم من
حديد . والناس كلهم عبيد له أي عبيد .

نعم اني في كل ذلك لم أكر الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير اني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبرح ادعو الى عقيدتي في الدين وأطالب بانعام الاصلاح في اللغة وقد قارب . اما أمر الحكومة والمحكوم فمرآته للقدر بقدره، وايد الله بعد ذلك تدبره، لاني قد عرفت انه ثمرة نجبها الامم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يبنى به الآن والله المستعان .

أصبت نجاحاً في كثير مما عانيت به ، أخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي اليه ، ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي ، وشي منها مما احتف حولي ، وطائفة

منها من اصالتني في الرأي أو خطلي، ومن الذي يستطيع ان يفصل ذلك غيري، حتى يكون ان شاء الله عبرة لمن يأتي من بعدي،

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت، وأثبت ما صادفت من لدن عقلي، منبها على ما في من معاييب، وعلى احسان الله اليّ في بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التي صرّت بها أو صرّت بي في أطوار حياتي. غير انني أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بما في يتي وهو ما لا أعرفه الا بالسماع من أهله كما لا يخفى

الفصل الاول - أهلي

أول ما عقلت من أنا ومن والدي ومن والدتي ومن هم أقاربني وجيران يتي عرفت اني ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر بمرکز شبراخت من مديرية البحيرة ووقر في نفسي احترام والدي ونظرت اليه أجل الناس في عيني وسكن من هيئته في قلبي ما لا أجده لاحد من الناس اليوم عندي أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال فأذكر منها قلة الكلام امامي ووقار كان في الحركات والاعمال والحياة، والتزّه عن مخالطة الصغار من الناس، ومشاهدتي أهل بلده يحترمونه ويبالغون في توقيرهم اياه، وانفراده بالطعام دون والدتي وأخواني فان ذلك كان آية العظم عندنا فانه ما كان يواكل نساءه وأولاده في تلك الاوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية.

ثم وجدت والدي يقري الضيف ويؤوي الغريب ويفتخر باكرام الغزير وذلك كان يزيد منزلته من نفسي علواً وأنا لأنهم من هذا الا أنه شيء يفخر به بدون أن أعقل له علة وبالجملة كنت أعتقد أن والدي أعظم رجل في القرية وكل من فيها دونه وهو بذلك كان أعظم رجل في الدنيا فان الدنيا عندي لم تكن أوسع من قرية محلة نصر وكان يمدني في اعتقادي هذا رؤيتي لبعض الحكم كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولا ينزلون في بيت العمدة مع انه كان أوسع رزقاً من والدي وأكثر دوراً وأرضين وفشاً في ذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال.

هذا وكنت أعقل من صفري ما كان عليه والذي من ثباته في عزيمة وشدة في
المعاملة وقسوته على من يعاديه وقد أخذت عنه ماعدا القسوة وأحمد الله ولا أحصي
ثناء عليه

أما والذي فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والذي وكانت
ترحم المساكين وتمطف على الضمفاء وتمد ذلك مجداً، وطاعة لله وحداً، ولم
أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك في نفسي الى اليوم .

عرفت لي عما يسمى بهنسى ولا أعرف من أحواله شيئاً لأنه مات قبل أن
أحفظ عنه وكان لو الذي ابن عم يسمى إبراهيم ولم يكن له بين الناس ما يذكرونه
وكان يسكننا في بيت واحد ولا يزال ولده يسكن في قسم من منزلنا الى اليوم
ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء وبيوتهم من خير البيوت في القرية .

هذا ما عرفته من حاضر بيتي في أول أمري وما طرأ عليه سيأتي ذكره في
سيرتي أما ماضيه فأتينا ذكره حديثاً عن أبي ورواية عن بعض من عرف شيئاً منه ممن
أثق به من ذوي قرابتي وغيرهم . جدي لاسي كان يسمى حسن خير الله توفي عن
أبي وعمي بالهواء الأصفر الذي فتك بسكان القطر المصري في أواسط القرن الماضي
ويقال أنه كان له قبل موته من نبي عمه وذوي عصمته نحو اثني عشر رجلاً وثني
بهم واثمن من بيت آخر جاء بالبلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها فسمى
بأهل هذا البيت (بيت خير الله) عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف
في وجوه الحكام وأعموانهم عند تنفيذ المظالم فأخذوا جميعاً وزجوا في السجون واحداً
بعد واحد ومن دخل منهم السجن لا يخرج الا ميتاً وكان جدي حسن شيخاً بالبلدة
وهو الذي بقي من البيت مع ابن أخيه إبراهيم الذي سبق ذكره

بعد وفاته طالت يد ذلك الكاشح بمساعدة أعوان الحكومة الى سلب ما كان
في البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه فانه لم يكن بقي الا والذي في سن الرابعة
عشرة وعمي في سن السادسة عشرة وإبراهيم في سن الثامنة عشرة والنساء فأخذ جميع
ما كان في البيت حتى الابواب وبعض أخشاب السقوف فهاجر والذي وعمي ومن
معهما من البلدة ولجأوا الى خال والذي الحاج محمد خضر وكان عمدة في قرية صغيرة

مترف بكنيسة أورين من مركز شبراخت ولاكنه لم يستطع ابواءهم عنده خوف
 الاضطهاد لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلقت احقاد الظلمة من الحكام
 ولوشاة فأخذهم خفية وسار بهم الى مديرية الغربية عند احد أقاربه في
 قرية يقال لها منية طوخ بمركز السنطة ثم انتقلوا الى قرية بجانبها تسمى شتره
 وكان معهم من النقود مايسمح لهم باستئجار أطيان يعملون في زراعتها اما بانفسهم
 أو بشركاء يعملون بأيديهم و يقتسمون الربيع معهم واشتهر والذي بالفتوة والبراعة
 في الصيد بالسلاح وأحبه لذلك مصطفى أفندي المنشاوي ومحمد أخوه وكانا
 موظفين في دائرة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاول في وظيفة مفتش زراعة
 واثاني بوظيفة ناظر وطابت له صحبتها وعدوه كأنه واحد من أهلها ودام ذلك
 مدة سنين

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر وضافت بهم السبل كما كان يسومهم
 ذلك الواشي من الخسف والذل أخذوا يتسللون ليلاً بعديت يهجون القرية
 ويذهبون ليقبضوا في جوار من سبقهم من أهلي فأحس الشقي بأشراف القرية على
 الخراب وفي ذلك انتقاص منافعه وخسار كبير في مصالحه فجدد لوشاية بالذي
 ومن معه ورفع شكوى الى مدير البحيرة وكان في شبراخت يذكر فيها ان والذي
 مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية وكان قد صدر أمر المرحوم عباس باشا الاول
 بتجريد الاهالي من السلاح وحظر حمله عليهم فكتب مدير البحيرة بذلك الى
 مدير الغربية وأنهم مع ذلك مصطفى أفندي المنشاوي بايوائه بعض الفارين من
 العسكرية فأخذ الجميع على غرة وقبض عليهم في بيوتهم وسبقوا الى مديرية الغربية
 أمام مصطفى المنشاوي فارسل الى ليمان الاسكندرية وأما والذي ومن معه فارسلوا
 الى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك الى أن يصدر الامر في شأنهم ولم يزلوا في السجن
 الى أن توفي عباس باشا فافرج عنهم وعن غيرهم وبعد ذلك عاد والذي الى مسقط
 رأسه في أول ولاية المرحوم سعيد باشا ولم يجد شيئاً مما كان يملكه اسلافه الا
 جدران البيت مهدمة .

تقدم انه طالبت اقامته في مديرية الغربية ويقال ان مدتها بلغت نحو خمس

عشرة سنة وفي أثنائها عرف كثيرا من سكان البلاد المجاورة لشبرا وعرف فيمن عرف بيت والدتي وهو بيت كبير في بلدة تسمى حصّة شبشير يعرف بيت عثمان كان كبيره اذ ذاك جذي ابراهيم عثمان الكبير فتزوج والدتي وأخذها الى شبرا وفيها ولدت في أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والالف من الهجرة (*) ولم يولد له منها غيري الا بنتان احدهما نسمي زمزم وهي بكره وتوفيت قبل ولادتي والاخرى تسمي مريم وهي لم تمت حتى تزوجت وأنا في آخر سني طلب العلم

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا بيت التركمان فسألت والدي عن ذلك فاخبرني أن نسبنا ينتهي الى جد تركماني جاء من بلاد التركمان في جماعة من أهله وسكنوا في الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن ثم اتفق ان اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب اليه واتخذ له خلوة في المحل الذي أسست فيه قرية محلة نصر فلما توفي رأى جدنا ومن كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الغرنواني ان يبنوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبة ويسكنوها ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون من مجموعها قرية محلة نصر وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداءه ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه الى اليوم اما تسميتها بمحلة نصر فذلك لان مزارع البلدة كانت أعطيت أقطاعا لشخص يسمى نصرا فسميت باسمه وذلك في زمن لا نعرفه أيضا . وقد أخبرني المرحوم علي باشا مبارك انه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادي الشهير تعرف بالرحلة الكبرى ورأى فيها اسم محلي نصر ومسروق وانه نزل ضيفا في بيت خير الله التركماني وقال ان البيوت الكبيرة في البلدة كانت ثلاثة: بيت الشيخ وبيت خير الله وبيت الغرنواني .

اما بيت والدتي فيقال انه عربي قرشي وانه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها .

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الانساب في الاسلام وكيف وصل الامر بالمسلمين الى ان لا يعرف الواحد منهم من آتائه أكثر من ثلاثة ومنهم من

لا يعرف غير والده

جاء الاسلام والعرب أشد الناس محافظة على انسابهم وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لاسلافهم من مجد وحسب وكانوا يبالغون في الاعتزاز بشرف الاحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئا يساوي شرف النسب . وهيات أن يرتفع خوآدب بآديه إلى رتبة شريف بنسبه، وإن كان خاملا في نفسه غير شيء في عمله . ولا يخفى ما كان في ذلك من بخر الحق والاستهانة بالكرم لذاتي والشرف العصامي والانتكال في نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون، لا على ما يكسبه المرء بمجده واجتهاده . نعم كان في الافتخار بالآباء والاجداد ومعرفة ما أتوا به من جليل الأعمال وما كانوا عليه من كريم الخصال تحريض لأخلافهم على الاقتداء بهم، وحفظ ما ورثوهم من علو ورفعة، لكن الكسل الملازم لطبيعة الانسان كان يغلب جانب الانتكال على جانب الاسوة فجاء الدين الاسلامي ينكر الافراط والغلو في اعتبار الانساب كما أنكر ذلك في كل شيء حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (إن اكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم «اثتوني بأعمالكم ولا تأتوني بآسابكم» ليدل على أن النسب وحده ليس بالشيء يرفع ويخفض ولكن المآل عليه، وما يصح أن يرجع الكرم اليه، إنما هو ما يكون عليه المرء نفسه فإن وافق ذلك نسباً عاليا وحسبا تالدا كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم والا فلن ينحس العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الآلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آبارهم، فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحا للمجد بما أودع فيهم من الفرائز الفاضلة، ووقفهم للأعمال الصالحة، فمنهم يبتدىء الحسب، واليهم في القرون المستقبلية يرجع النسب .

هذا ما اراده الاسلام وما دعا اليه ولكنه مع ذلك امر برعاية النسبة الى الآباء ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والالتحام بالادعيا وفرض على المؤمنين ان يدعواهم لا بآبائهم ليعرفوا بهم لا بمن اندرجوا فيهم وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقتصر من بلوغه رواحل الآمال وأوصى علي بن ابي طالب أن يعهد بمجلائل الاعمال الى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة

وجاءت سنة السلف شاهدة بان للنساب وتوارث الاحساب مظاهر في أعمال الاشخاص وآثاراً في خصالهم ينبغي النظر اليها . فلم يهمل الاسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن الادب المكتسب ، بل طلب العدل في الامرين ، وجمع لاهله بين النظرين الصادقين . ولكن ماذا يصنع الاسلام في المسلمين وقدمهروا في تحريفه وقلب مقاصده العالية الى اضدادها كأنما هم مفرون بذلك من أعدائه . رأوا من بداية الأمر أن بعض من لا نسب لهم من الموالي والملاصقين قد بلغوا من منازل الكرامة بين المسلمين ما يفتطمع عليه أهل الاحساب وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة أو علم وفضيلة وبلغ من أمر بعض الموالي الذين لا يعرف أبائهم فضلاً عن أجدادهم في الدولة العباسية أن استبدوا على الخلفاء من نسل العباس ابن عبد المطلب واغتصبوا الملك منهم وسادوا على كل ذي حسب ونسب في أيامهم بل قد فعل كثير منهم الا فاعيل بأشرف الناس نسباً من آل بيت النبوة فسقطت لذلك منزلة النسب من نفوس المسلمين وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الاخلاق والفرائض وان ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيئ الابناء لكسب مثلها وما جاء مخالفاً لذلك فهو من مبدعات القدرة الالهية وأما الترية فان كانت حسنة مهدت السبيل واسرعت بشكو بن الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالريضة على مكارم الاخلاق وليس له سلف فيها وان كانت رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحتة من طبيعة النفس وجاءت بدله بضده . وشأن الترية مع الاستعداد للذائل ذلك الشأن بعينه فان كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد واكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وان كانت غير صالحة أسرعت بتكوين الملكات الخبيثة في نفس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم يرميه القدر من أول نشأته من قسي الحاجة فيأخذ يكلف نفسه ما ليس في استعدادها ويحمل على معاطاة ما لا يليق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثلاً وهو ليس من أهلها .

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة في أنفسهم مع أنهم لم يغفلوا عنها في دوابهم من الخيل والحمر وما شبتهم من البقر والغنم والابل ونحوها فيطلبون

نتاج الجياد من الجياد ولكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين بل ولعوا بالجواري والإماء ممن لا تعرف أصولهن ، ولم تعرض على الاختبار خلاهن ، في بيوت آبائهن ، وأكثر ما كان من ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من عليّة الناس فكان خيرا للابن أن ينسى خوولته بعد أن كان يفتخر بها . وولع الملوك بالممالك وظنهم فيهم الاخلاص في الولاء وثقتهم بامانتهم ذهب بهم الى رفعهم على رؤس من سواهم فتوجهت اليهم النفوس بالرعاية والاحترام وما كان لاحد من أولئك العبيد المحترمين أن يذكر له ابا ، أو يتذكر لنفسه نسباً ، فصار الجهل بالانساب عادة وبشت العادة وأصبح البيت القديم المؤسس على مئتين من السنين لا يعرف من أسلافه الا واحدا أو اثنين ومن بقي بعد ذلك فقد أكل الزمن ذكره ومحي جهل خلفه أثره .

ولذلك أقول ان ما أسمع من بيت والدي ووالدتي انما هو روايات في أفواه الاهل والاقارب ومن يعرفهم من الناس قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس لتزهد في الفضل غير أن ذلك يأتي في الانساب الى قريش وعمر ابن الخطاب أما في الانساب الى أصل تركاني فلا أظن ذلك يأتي ولهذا يرجح عندي جانب صحة الخبر ويؤيده ما يرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التي لا يشاركون فيها من يجاورهم في مساكنهم .

(يقول مؤلف الكتاب) هذا ما كتبه رحمه الله في ترجمه نفسه ومن الاخلاق المروفة لبيته ان والده كان الى آخر عمره شهما شجاعاً وقوراً مهيباً سخي النفس كريم النخيلة محترماً من كل من يجالسها وكانت والدته برة رحيمة بالمساكين ذكية الفؤاد شديدة الحياء ولا أبعد إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة وأحسنهم خلقاً . وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثه ومكتسبة بالمعاشرة والقنوة لا بتعليم المدارس ولا بتأديب المعلمين . وهذا أصل عظيم في استعداد الرجل لما وصل اليه من الكمال الذي لم تر ولم نسمع مثله وقد قال صلى الله عليه وسلم « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » رواه البخاري ومسلم . لذلك كان السيد جمال الدين يقول له : قل لي بالله أيّ أبناء الملوك أنت : يشير الى أن ما كان عليه من الاخلاق العالية وشرف النفس كان وراثياً

❦ الفصل الثاني ❦

❦ نشأته وتربيته وطلبه العلم ❦

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سنه وقد كتب هو عن مبدإ تعلمه ونأديه من مذكرات أعطائها لأستخرج منها ترجمة مختصرة له - وكان قد طلبها بعض الغرباء الفضلاء - مانصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتمت حفظه جميعه في مدة سنتين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاؤا من مكتب آخر ايقروا القرآن عند هذا الحافظ ظانينهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حماني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأبي الشيخ مجاهد رحمه الله لأجود القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

« ثم في سنة احدى وثمانين جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصف لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عثر علي أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكرامي على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لا نجاح لي في طلب العلم ولم يبق علي الا أن أعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدل بتغالي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طالب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

« فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الازهر وهو الأثر الذي يجده خمسة وتسعون في المئة ممن لا يساعدهم القدر بصحة

من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم — سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم غير أن الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون نفثهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يملغوا سن الرجال ، وهم في أحلام الأطفال ، ثم يبثلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعائهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه

« بعد أن تزوجت باربعين يوماً جاني والدي ضحوة نهار وأزمني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ووجدت فرساً أحضره فركبته وأصحبني والدي بأحد أقاربي وكان قوي البنية شديد البأس إشييعني الى محطة (إيتاي البارود) التي أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا . كان اليوم شديد الحرو والرياح عاصفة ملتهبة سافياً ، فحصب الوجه بشبه الرمضاء ، فلم أستطع الاستمرار في السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولا بد من التعرّيج على قرية أنتظر فيها أن ينخف الحر ، فأبى عليّ ذلك فتركته وأجريت الفرس هارباً من مشادته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة اورين) — بلدة غالب سكانها من خوولة أبي — وقد فرح بي شبان القرية لانني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبقي معي الى العصر وأرادني على السفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدي انني سافرت الى طنطا . فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوماً تحولات فيها حالي ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتني ، ذلك ان أحد أخوال أبي واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاسنانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث وبجيد

حفظ القرآن وفہمہ ثم رجع من أسفاره الى قریته هذه واشتغل بما يشتغل بہ الناس من فلاح الارض وكسب الرزق بالزراعة

« وان هذا الشیخ جاءني صبيحة اليلة التي بتها في الكنيسة ويده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مریديه بالاطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئاً اضف بصره فدفت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد لكن الشیخ تبسم وتجلى في الطاف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضي فتغلبه وتسبق الى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشیخ بكتابه وألح علي في قراءة شيء منه فقرأت وفسر ثم تركته الى اللعب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الأول أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها فقال لي إنه في حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ومضيت أقرأه وكلماً مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهور وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سأله عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجد عندني من الرغبة في المطالعة والميل الى الفهم

« كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

« لم يأت علي اليوم الخامس الا وقد صار أبيض شيء إلي ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء إلي ما كنت أفضه من مطالعة وفهم وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب وبزهدوني

فی عشرة الشیخ رحمہ اللہ فکنت لا احتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من
لقاتهم جميعا كما یفر السليم من الأجر. فی اليوم السابع سألت الشیخ ما هي طریقتم
فقال طریقتنا الاسلام فقلت أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ قال لو كانوا
مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين
بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي
من المتاع القديم — متاع تلك الدعاوي الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور
بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا فی غمرة ساهين ، سأله ماوردكم الذي يتلى فی
الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال لاورد لنا سوى القرآن تقرأ بعد كل صلاة أربعة
ارباع مع الفهم والتدبر : قلت أنى لی أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا قال أقرأ معك
وبكفيك ان تفهم الجملة و ببركتها يفيض الله عليك التفصيل واذا خلوت فاذكر
الله — على طريقة بينها—وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض على
بضعة أيام الا وقد رأيتني أطير بنفسي فی عالم آخر غير الذي كنت أعهد ، واتسع
لی ما كان ضيقا ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندي من أمر
العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع المهوم
ولم يبق لی الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد
إماما يرشدني الى ما وجهت اليه نفسي الا ذلك الشیخ الذي أخرجني فی بضعة أيام
من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى إطلاق التوحيد ، — هذا
هو الأثر الذي وجدته فی نفسي من صحبة أحد أقاربی وهو الشیخ درویش خضر
من أهل (كنيسة أورین) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كانت
لی سعادة فی هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي ، وكشف
لی ما كان خفي عني مما أودع فی فطرتي ،

وفي اليوم الخامس عشر من بي أحد سكان بلدنا (محلة نصر) فأخبرني
ان والدي ذهبت الى ططا لتراني فعلمت ان سيقول لوالدي اني لا أزال فی
الكنيسة فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اللوم لانني
لو كنت أقمت له ألف دليل على اني وجدت فی مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع

« ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على العزية وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجرومية فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرس وجلست في الدرسين فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ما سنتلقاه . وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني فأبته أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجازيب فلما رفعت رأسي اليه قال مامعناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : فقلت له وأين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحانه الله من جد وجد : ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاماً ساقه الله الي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

« وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الازهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة . وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين - من منتصف شعبان الى منتصف شوال - وكنت عند وصولي الى البلد أجد خال والدي الشيخ درويشا قد سبقني اليه فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم الى يوم سفري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ما درست الحساب ما درست شيئاً من مبادئ الهندسة : وهكذا وكنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة أتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطئ في الطلب وأخرى أصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦

« وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت ألتقي عنه بعض العلوم الرياضية والحكوية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقي عنه كذلك وأخذ

مشايخ الأزهر والجمهور من طالبته يتقولون عليه وعلينا الا قويل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يقضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تهرمها خيري الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي: ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وان اعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفیه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بمقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علما وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلها الاضرار بالناس:»

هذا ما كتبه الفقيد عن مبدأ تربيته وتعليمه في ترجمته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حدثني بشيء من ذلك قبل ومنه أنه لم يكن يواظب على حضور دروس من لا يفهم أولا يستفيد منهم وأنه ربما كان يحضر درس أحدهم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البسيوني وأنه بعد الحضور في الأزهر ثلاث سنين مل الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطالب شيئا جديدا وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى اعادة شيء منها. وكان الشيخ حسن الطويل ممتازا في الأزهر بعلم المنطق فحضره عليه ولم يكن يشفي ما في نفسه بل كانت تقشوف دائما الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ومما ظفر به القطب على الشمسية ناقصا. وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئا من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو شبه الحزر فيما بينهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيتهما،

وأخبرني الشيخ رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو بقيم في خان الخليلي فسر بذلك وأخبر الشيخ حسنا ودعاه الى زيارته معه فالتقياه يتعشى فدعاهما الى

الأكل معه فاعتذرا فطمق يسألها عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فقيرنا به عجبا وشغفه حبا لأن التصوف والتفسير هما قرة عينه أوكما قال مفتاح سعادته . وأخبرني رحمه الله تعالى أنه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف ، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق ، والهداية والاشارات وحكمة العين وحكمة الاشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني في التوحيد والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجمعيني وتذكرة الطوس في الهيئة القديمة وكتابا آخر في الهيئة الجديدة نسبت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كغيره من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية ومرنهم على الخطابة فبرع فقيدنا في ذلك حتى صار أبرع من أستاذه نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانتها وبلاغتها لم تصف من كدورة المعجمة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كعبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد في ناديه وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلما كان يفوت فقيدنا شيء منها اذ كان يلزمه ملازمة ظله وما يستفيده المرء بالمذاكرة في ساعة لا يستفيده بالدرس في ساعات لان المدرس يكلفك كل ما يلقى اليك سواء كنت تشعر بالحاجة اليه وتعتقد الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعدا لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا ما يرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل الدرس يلقى اليك كمثل من يكلفك أن تأكل مقداراً معيناً من الاطعمة التي قد تعاف بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكلفة وغشاة فأنت لا تتغذى الا ببعضها والباقي اما أن يضر او إما أن لا ينفع ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشبهه وتناول منه ما يكفيك فيكون كاه غداء نافعاً . وقد قل بعض علماء التربية من الافرنج انه قلما يفلح من يقيم في مدارس العلم زمناً طويلاً . ولقد كانت مجالس اساتذنا العقيد كجالس استاذ (رحمه الله) تفيض علماً وحكمة وأدباً ولكن الفصل بينهما في هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان يخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى أنه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي

وحسب الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ومن خواصه انه يجذب مخاطبه الى ما يريد وان لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لاني توثر في حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام الا اذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهرا وهكذا الكتابة: وانا في هذا المقام نورد ترجمته للسيد جمال الدين التي نشرها في أول ترجمة رسالة الرد على الدهريين ونزید عليها قليلا قال

السيد جمال الدين الافغاني

بحملنا على ذكر شئ من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأينا من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صورته، في مخيلات اللائقين لخبره، حتى كأنه حقيقة كاية تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أروقة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، والرجل في صفاء حوصره، وزكا مخبره، لم يصبه وهم الوهمين، ولم يمسسه حذر الخراصين، وانا ندكر مجلا من خبره، نروي به عن كمال الخبرة، وطول العشرة:

هذا هو السيد جمال الدين ابن السيد صفر من بيت عظيم في بلاد الافغان ينسب الى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كفر) من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام ولهذا العشيرة منزلة عليا في قلوب الافغانين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من أيديها دوست محمد خان جد الامير الحالي (١) وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة كابل

ولد السيد جمال الدين في قرية (اسعد آباد) من قرى كفر سنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل وفي السنة الثامنة من عمره اجلس لتعلم وعني والده بتربيته فأبد العناية به قوة في فطرته، واشراق في قريحته، وذكاء في مدرسته، فأخذ من بدايات العلوم ولم يتف دون نهاياتها . ثاقى علوما جمة برع في جميعها

(١) يعني به المرحوم الامير عبد الرحمن لان الترجمة كتبت وهو حي

فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وثار يخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية ونهذيدية وحكمة نظرية طبيعية وألهية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى مافي الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة وأتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الامم التي مربها في سياحته واكتته أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد أداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان ولما زحف الامير الى هراة ليفتحها وملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى أن توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا . وتقلدا لامارة ولي عهدا شير علي خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته خصوصا من هو أكبر سنا منه ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة والابوهم للفساد طلبا الاستبداد بالامارة

وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد أعظم فلما أحسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار ونفروا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجاللات عنيفة أعظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن (الامير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وألقوا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه أميرا على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان

وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في العظام وما دونها (على خلاف ما تعودده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم) وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوي قرابته حملة على تفويض مهمات من الاعمال الى أبنائه الاحداث وهم خلو من التجربة عمارة من الحنكة فساق الطيش أحدهم وكان حاكما في قندهار على منازلة عمه شير علي في هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجراة على الانفراد عن جيشه في مثنى جندي واخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما انتفت بمقرب خان قائد شير علي فوجد ذلك الفر المتهور منقطعاً عن جيشه فكر عليه وأخذه أسيراً قد شئت جند قندهار وقوي الامل عند شير علي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي وبدلوا لها قناطير من الذهب ففرقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات وبعد حروب هائلة تغلب شير علي وأنهزم محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن فذهب عبدالرحمن الى بخارى (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر في مدينة نيسابور وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسه الامير بسوء احتراماً لمشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلائس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كيلا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يمض فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل الى الترخوم الهندية تالقه حكومة الهند بحفاوة في اجلال الا انها لم تسمح له بطول الإقامة في بلادها ولم تأذن للعلماء في الاجتماع عليه الاعلى عين من رجالها فلم يقيم أكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في أحد مرأى كبا على نفقها الى السويس فجاء الى مصر وأقام بها نحو

أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا إليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ثم تحول عن الحجاز عزمه وتمجل بالسفر الى الاستانة

وصل الاستانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقة الصدر الاعظم عالي باشا ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لثله وهو مع ذلك بزيه الافغاني قباء وكساء وعمامة عجرا وحومت عليه افضله قلوب الامراء والوزراء وعلاذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه وهو غريب عن ازيانهم ولقبتهم وعاداتهم وبعد ستة أشهر سمي عضواً في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافق على الذهاب اليها رفقاؤه . ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات حسن فهمي أفندي لأنها كانت تيسر شيئاً من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب اليه مدير دارالفنون تحسين أفندي ان يلقى فيها خطاباً للبحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه تحسين أفندي فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل القائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا . وعلى شرواني زاده وكان مشير الضابطية وعلى دولومنييف باشا ناظر المعارف وكان عضواً في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم وأطرب في مدحته

فلما كان اليوم المعين لاسماع الخطاب تسارع الناس الى دارالفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرئد وحضر في الجمع معظم الوزراء وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده وأرسل حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتشليل به وما كان يجدها لوطاب حقاً ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية بيدن حيوان وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن فشبه الملك مثلاً بالمنح الذي هو مركز التدبير والارادة . والحدادة بالمضد والزراعة بالكمد والملاحة بالرجلين ومضى في سائر الصناعات ولاعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف ثم قال هذا ما ينألف منه جسم المادة الانسانية

ولا حياة لجسم الا بروح وروح هذا الجسم أما النبوة وأما الحكمة ولكن يفرق
بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تألها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده
والله أعلم حيث يجعل رسالته . أما الحكمة فما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات
وبأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه . وإن أحكام النبوات
آتية على ما في علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فلا خذ بها من
فروض الايمان أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ما هو
الاولى والا فضل على شريطة أن لا يخالف الشرع الإلهي .

هذا ما ذكره متعلقا بالنبوة وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية
الا ان حسن فهمي أفندي أقوم من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام فأشاع
أن الشيخ جمال الدين زعم ان النبوة صنعة واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في
خطاب يتعلق بالصناعات (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) ثم أوعز الى الوعظ
في المساجد أن يذكر ذلك مخفوا بالتقنيد والتنديد فاهم السيد جمال الدين للمدافعة
عن نفسه وإثبات براءته مما رمي به ورأى ان ذلك لا يكون الا ببحث كما شيخ الاسلام
(وكيف يكون ذلك واشتد في طلب المحاكاة وأخذت منه الحدة مبلغا وأكثرت الجرائد
من القول في المسألة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ومنها أعوان لشيخ الاسلام
فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون ويغضي على الكريهة وطول الزمان
يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها فلم يقبل واجب في طلب المحاسبة فمظم
الامر وآل الى صدور أمر الصدارة اليه بالجللاء عن الاستانة بضمة أشهر حتى تسكن
الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء ففارق الاستانة مظلوما في حقه ، مفلوبا
لحداته ، وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها في أول المحرم
سنة ١٢٨٨ هذا مجمل أمره في الاستانة وما ذكره سليم العنحوري في شرح شعره
المسمى سحر هاروت مما يخالف ذلك خلط من الباطل لاشائبة للحق فيه

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها
ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستأله
مساغيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة وظيعة ألف قرش مصري كل شهر نزلا

أكرمه به لافي مقابلة عمل واهتدى اليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستوردوا زنده فاوردى، واستفاضوا بحره ففاض درا، وحملوه على ندر يس الكتب فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية الطبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم ولم يذهب الى الا زهر مدرسا ولا يوما واحدا نعم كان يذهب اليه زائرا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائدا لا خذعنه وأعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية ثم وجه عنايته لحل عقل الا وهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك الباب واستنضات بصائر وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان أرباب القلم في الديار المصرية القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهي على اختصاص فيه ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون في المراسلات الخاصة وإمام مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ومن عشر سنوات ترى كتبة في القطر المصري لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضارهم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المنصلين به ومنكر ذلك . مكابر ولحق مدابر . هذا ما حده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول قصارا النظر خشية على عقائدهم من الزيف أما الثابتون في إيمانهم فلمهم النظر في علوم الأولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم ولنا في أئمة الملة الاسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم لا يدهم اخلاط من الناس

من مذاهب مختلفة كانوا يطارقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، الى أن تولى خديوية مصر حضرة خديوها المغفور له توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناصرين لمحامده، إلا ان بعض المفسدين ومنهم (مسترفيفيان) فنصل انكترا الجنرال سعى فيه لى الجناح الخديوي ونقل المفسد عنه، ما الله يعلم انه بريء منه، حتى غير قلب الخديوي عليه فأصدر أمره باخراجه من القطر المصري هو وتابعه ابو تراب ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ وأقام بحيدرآباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين . ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر دعي من حيدرآباد الى كلكتة وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ثم أتيح له الذهاب إلى اي بلد فاختار الذهاب الى أوروبا واول مدينة أصد إليها مدينة لوندرة اقام بها اياما قلائل ثم انتقل عنها الى باريز واقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه في أثناءها . ولما كانت جمعية العروة الوثقى^(١) ان ينشئ جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية ايدها الله سألني ان أقوم على تحريرها فأجبت، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ما لم يأخذها قبلها وعظ واعظ ولا تقيبه منه، وذلك لخلاص النية في تحريرها، وصحة المقصد في تحريرها، ثم قامت للوانع دون الاستمرار في اصدارها حيث اقفلت ابواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الانكليزية في اعزازات من تصل اليهم فيه، ثم بقي بعد ذلك مقبلاً بأوروبا أشهراً في باريز وأخرى في لندرة إلى أوائل شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ وفيه رجع إلى البلاد الايرانية أما مذهب الرجل فخني في حنفي وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم، وله مشاورة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه وعرف بذلك بين معاصريه في مصر أيام اقامته بها، ولا يأتي من الاعمال إلا ما يحل في مذهب امامه، فهو أشد من رأيت في

(١) هي جمعية سياسية كان لها فروع في الاقطار الاسلامية

(م ٥ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

المحافظة على أصول مذهبه وفروعه

اما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد يكاد يلهت به غيرة على الدين وأهله
اما مقصده السياسي الذي قد وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي اليه
مدة حياته، وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله، فهو انهاض دولة اسلامية من
ضعفها، وتنبيهها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الامة بالامم العزيزة، والدولة بالدول
القوية، فيعود للاسلام شأنه، والدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة
بريطانيا في الاقطار المشرقية، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية، وله
في عداوة الانكليز شؤون يطول بيانها

اما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلبي إلا بنوع من الاشارة
اليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديد ابرازها في صورها اللاتقة بها
كأن كل معنى قد خلق له. وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش
فنطرة منه تفكك عقدها. كل موضوع يلقي اليه، يدخل للبحث فيه كأنه صنع
يديه، فيأتي على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر
المستور منه، واذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب الشرعيات
قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والابداع، وله لسان في الجدل وحذق
في صناعة الحجج لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا يعرفه، وكفاك شاهداً
على ذلك انه ما خصم أحداً إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الاوربيون
بذلك بعدما أقر له الشرقيون. وبالجملة فاني لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة
العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ. ذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

اما اخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته، وله حلم عظيم يسمع ما شاء الله ان
يسمع، إلا ان يدنو منه أحد ليمس شرفه او دينه، فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض
منه الشهب، فيبنيما هو حليم أو اب، اذا هو أسد و ثاب، وهو كريم يبذل ما بيده، قوي
الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتي به صروف الدهر، عظيم الامانة، سهل لمن لاينه، صعب
على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسي الذي قد مناه، اذا لاحت له بارقة منه،

تسجل السير للوصول اليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بخارفها ، ولوع بعظام الأمور ، عزوف عن صفارها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت كانه لا يعرفه ، إلا انه حديد المزاج وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعت الفطنة ، إلا انه صار اليوم في رسوخ الاطواد ، وثبات الافناد ، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعد لنفسه منزلة أرفع ولا عزا أرفع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده

أما خلقه فهو يمثل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الاولين من سكنة الحجاز حماه الله. ربة في طوله ، وسط في بنيته ، قحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الاحداق ، ضخم الوجنت ، رحب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ما ينطبق على كمال خلقه بقي علينا ان نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله وهو انه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباحات كالجلوس في المنزهات العامة والاماكن المدة لراحة المسافرين ، وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً من اللغو ، منزهاً عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الامراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم . وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه ، لكن الله يحب ان تؤتى رخصه ، كما يحب ان تؤتى عزائمه ، وأي غضاضة على الرء المؤمنين في ان يفرج بعض همهم بما اباح الله له . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلطنا في تاريخه مسلك التفصيل ، لادى بنا الى التطويل . اهـ

(يقول المؤلف) وكتب الاستاذ الامام في كتاب أسباب الحوادث العربية نبذة أثبت فيها أن هذا السيد كان ، مبدأ النهضة الاجتماعية السياسية بمصر ، وذلك قوله بعد بيان ما كانت عليه مصر في زمن الخديو اسماعيل باشا ما يأتي بنصه : « هذه كانت شذائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، بضل فيها الرشيد ، ويتمتر فيها

العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كمل ظهوره ، وانتشر نوره ،
لاهدى به الضال ، وحسن به الحال

«ذلك ان أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة
ملكاً لحاكمهم الاعلى ومن يستنيه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته ،
ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكلان الى أمانته وعدله ، او خيائته وظلمه ،
ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له ان يبدية في ادارة بلاده ، او إرادة يتقدم
بها الى عمل من الاعمال يرى فيه صلاحاً لامته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم
وبين الحكومة سوى انهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه
عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الاخرى سواء كانت اسلامية
أو أوربية . ومع كثرة من ذهب منهم الى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا
الكبير الى ذلك التاريخ الذي ذكرناه وذهب العدد الكثير منهم الى مجاورهم
من البلاد الاسلامية أيام محمد علي باشا الكبير و ابراهيم باشا لم يشعر الاهالي بشيء
من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارف التي اكتسبت بها ، ومع ان اسماعيل
باشا أبدع مجلس الشورى ، في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه ان يعلم الاهالي
ان لهم شأنًا في مصالح بلادهم وان لهم رأياً يرجع اليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا
من أعضاء المجلس أنفسهم بان له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة
الشورية لان مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل . أما في النظام فلانه قد
نص فيه على ان نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه وما يعن لها
أن ترسله اليه للمداولة فيه ، وأما في العمل فلانه كان يرسل من قبله عند المداولة
من يخبر الاعضاء بارادة جنابه فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، فكانوا يشعرون
بان الارادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم .

هل كان يمكن لاحد ان يعمل على خلاف ما يامر به ؟ هل كان يمكن لشخص ان
يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له ، او الوجهة التي يتوجه اليها الحاكم ؟ لو حدثه
الفكر السليم بان هناك وجهة خيراً من تلك هل كان يمكنه أن ينطق بما حدث به فكره ؟
كلا فانه كان بجانب كل لفظ نفي عن الوطن او إزهاق للروح أو تجريد من المال ،

وبينما الناس على هذا لا كاتب ينبريهم ، ولا خاطب يعظمهم ، اذ عرض امر
 قلاياتت اليه ، أو تحوم الافكار حواله ، وان كان مما يعرض في كل مكان ،
 وجرت به السنة الالهية في كل زمان
 ﴿ مبدأ النهضة المعنوية بمصر ﴾

« جرت سنة الله في خلقه بأن عظام الامور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام
 الاشجار تبسق من بزورها ، جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ رجل غريب ، بصير
 في الدين ، عارف بأحوال الامم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جريء القلب ، وهو
 المعروف بالسيد جمال الدين الافغاني ، وركن الى الاقامة في مصر فتعرف اليه
 في بادىء الامر بعض طلبة العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان ، ثم
 انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من افكار وعقائد ، فكان ذلك داعياً لطلاب
 الاجتماع به لتعرف ما عنده . ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان
 يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو
 في جميع اوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطرأ العقيدة ،
 أو يذهب بالنفس الى معالي الامور ، أو يستلقت الفكر الى النظر في الشؤون العامة
 مما يمس مصلحة البلاد وسكانها . وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك
 المعارف الى بلادهم ايام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم ، فاستيقظت
 مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في اطراف متعددة من البلاد
 خصوصاً في القاهرة — كل ذلك والحاكم القوي في علوم مكانه ، ارفع من ان يناله
 هذا الشعاع في ضعف شأنه ، ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء ، وينتشر في
 الانحاء على غير نظام الى ان نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة الروسية في سنة ١٢٩٣
 « وجد الناس من أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية
 صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسية فتطعموا الى ما يرد من اخبار الحرب .
 وكثرة الاجانب في هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الاوردية الى طلابها
 من الاوربيين ، ومخاطبتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق
 الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد

العربية التي كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على مالا يهتم ، فانطلقت في ايراد الحوادث ونشرها ، وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية ، وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية ، فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الاخبار ، ومناواتها في المشرب ، واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة

« لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب بل اجتراً الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتهم السياسية والمعاشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الاحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد ، وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الاقلام على التحرير وانشاء الفصول الادبية والعلمية في مواضيع مختلفة لا تخرج جامعها عن اصلاح الافكار ، وتهذيب الاخلاق ، فتساقطت الى ذلك الكتاب وتبارت الاقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه في عالم خيال ، أو أرض غير أرض الخيال ، ومن يطلع على اعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق والاهرام وصدائها يرى حقيقة ما ذكرنا » اهـ ما اردنا نقله من كتاب اسباب الحوادث العراقية وهو على ايجازه صريح في ان السيد جمال الدين كان هو مبدأ هذه النهضة الفكرية في مصر . وكان بعد ذلك يغذيها يارشاده وجرائد تلاميذه حتى صار له حزب سياسي عظيم من ذلك الحزب الادبي الذي لم يكن يخمار على البال

واننا ندعم ما كتبه الاستاذ الامام على قوته وورسوخه بما كتبه أديب بك اسحاق الكاتب المشهور وكان من تلاميذ السيد جمال الدين وافراده حزبه في زمنه قال أديب :



جمال الدين

«هو الحكيم الخطيب البالغ الحجة، النبيه المتوقد الذكاء، الجري، الذي لا يعرف الخوف، السيد جمال الدين الحسيني الافغاني، ولد بكابل في بيت شرف وعلم وعمره الآن نحو ٤٥ عاماً وطلب العلم بالفارسية والعربية على ما جرت به عادة الامراء والعلماء في بلاده فتبحر في المنقول والمعقول، وغابت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فدخل في ذلك بداءة بدء شيء من التصوف فانقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة، حتى صار له في القوم كثير من الأتباع والريدين، كل ذلك وهو دون العشرين سنة. ثم خرج من خلوته مستقر الرأي على حكم العقل وأصول الفلسفة القياسية، ومات عامئذ أمير الافغان عن ولدين وهما شيرعلي خان ومحمد أعظم خان فاقتتلا على الولاية فانتصر جمال الدين للثاني

فقربه وجعله من رؤساء جنده فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واستخفافاً بالموت، وأقام على ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان، حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان، فانصرف الاولياء عنه إلا جمال الدين ونفر غيره من الامناء فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا أن أوجست حكومة الانجليز خيفة من صاحب الترجمة فعاد إلى أفغانستان ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة فلم يلائمه ثم الهوا، فقصد الاستانة وأقام بها مجهول المكان، حتى اهتدى اليه بعض أكابر الوزراء فعرف قدره وفضله، فجعله من اعضاء مجلس المعارف العالي، ثم اقترح احد الامراء عليه ان يخطب في دار الفنون فأجاب وكانت خطبته في الصناعات فأنكر مشايخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيراً على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت له في مجلسه، فالتمس من الدولة إبعاده فارسلته الى الحجاز فاقام فيه مضطراً، وكان قد عرف رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منه باسباب مودة فقصد وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت له الحكومة الخديوية رزقا كافياً على ان يكون من المدرسين، فجرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة، أفضت الى المنافرة، فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطالبة بل من المدرسين ثم صارت ملتقى للنبهاء من رجال الحكومة والوجهاء فكان يكشف بعضهم بآرائه الحرة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل، على انه بقي مجهول الشأن عند العامة، حتى ظهرت آثاره وآثار مردييه في جريدة مصر، فظهرت شأنه، وصارت تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ومرة تحت حجاب اسم مصنوع مثل (مظهر بن وضاح) فطار صيته، وعظم نفوذه

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع إلى السياسة، شديد الميل إلى الحرية، قوى الرغبة في إنقاذ المصريين من الدل، فلما عظم التداخل الاجنبي في مصر واختلت أمورها المالية، علم أنه لا بد من تغير أحوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع السكامة على مبدأ الحرية فدخل الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء ثم أسس محفلاً وطنياً تابعا للشرق الفرنسي ودعا مردييه من العلماء والوجهاء اليه

فصار أعضاؤه نَحْوًا من ثلاثمائة عدا وعظم اقبال الناس عليه حتى ان توفيق باشا
ولي العهد حينئذ طلب الدخول فيه وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة
الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر في جريدة مصر فصولا ناطقة به خصوصاً
بعد اعتداء الانكليز على ابناء آية فهاجوا عليها وترجموها جرائد لوندرة واهتموا
بها كثيراً حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسه أمر الجدل في موضوعها فلما عظم
شان محفله داخل الخوف منه فنصل انكائره فوثق به الى الحكومة وبث الرقباء
في المحفل فسموا فيه فسادا

وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك والاختلال فظهر للسيد
جمال الدين ان الخديوي اسماعيل مخلوع لا محالة فكشف الفطاء عن مقاصده
السياسية وأخذ يسعى في انفاذ أغراضه فلقى المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا
ومكاتب التيمس وكلهما بلسان حزب كبير فهاه أمره بعض أمراء المصريين
تهريبه بذلك حجته وشأنه ونفذت سعاية أعدائه فأمر الخديوي الجديد بنفيه
لواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر سبتمبر سنة ١٨٧٩ فأخذ غلساً وقبض
على من كان في حلقة وأرسل هو وخادمه الأمين (أبو تراب) مخفورين الى
السويس ومنها الى أبو شهر (فرضة في العجم) وهو الآن بمحدر أباد مرفوع المكان
عليه المقام وبقيت كتبه وأوراقه في مصر وقيل ان روجرس بك أخذها ثم
أعادت لصاحبها

(قال أدب) عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مردي به ومحبيه طول مدة
الإقامة بالمحروسة والاسكندرية فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختيار على اني ملتزم
فيه جانب الصدق برى من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين
واقفه على ما أقول وكيل والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ربة ممثلي قوى البنية
جذاب النظر نافذ اللمحظ خفيف العارضين مسترسل الشعر بحجة وسراويلات سوداء
تطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الاستانة وأنه عزب
عفيف النفس قانت كثير القيام لا ينام الا القلس الى الضحى ولا يأكل غير مرة

واحدة في اليوم على أنه يكتر من شرب الشاي والتدخين قوي المعارضة ميال الى المعارضة طويل الحجة واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر، ويهتك أستار السرائر، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج

ومن عجائب ذكائه أنه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً في أقل من ثلاثة شهور بلا استاذ الا من علمه حروف هجائها يومين

ومن غرائب فضله أنه كان يتتبع حركة المعارف الاوربية والمستكشفات المصرية ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم في بعض مدارس أورب بالمالية

ومن مدهشات أحواله الدالة على ثبات جأشه وعفة نفسه أنه قبض عليه لما لا تعلم من الشر، فكان سائراً الى الخطر، سير الشجاع الى الظفر، وأنه أنزل الى البحر في السويس منفياً خالي الجيب فأتاه فيما يقال السيد النقادي فنصل ايران بذلك انتثر ومعه نفر من تجار المعجم وقدموا له مقداراً من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن فردده وقال لهم «احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ان اللبث لا يعدم فرصة حينما ذهب» اه من كتاب الدرر



ترجمة سليم بك المنحوري للسيد جمال الدين

قال في شرح ديوان (سحر هاروت) في تفسير قوله :

ترنو اليّ بمقله غضبي اذا بصرت بطود سال كالوديان

فكأنني يكون نسفيلد زمانه وكأنها من يفضها الافغاني

ما يأتي بعد ترجمة وجيزة لورد يكون نسفيلد الوزير الانكليزي الشهير :

« وأما الافغاني فهو السيد جمال الدين العالم الفيلسوف الشهير . نبغ في بلاد

الافغان فتعلم فيها اللغة الفارسية والعلوم الدينية والمناطق وشيئاً من علم الاخلاق وكان ممن انتظموا في سلك الجندية فلما قام الخلاف عام ١٨٦٣ على امارة الافغان

من شير علي خان واخوته وأولاد اخوته انحاز جمال الدين الى أفضل خان
 (أو الى محمد أكبر خان) «» وعد من مشاهير أنصاره بيدان الانكليز أخذوا
 أخيراً بناصر شير علي واعترفوا له بمعاهدة عمت في أوائل سنة ١٨٧١ بأنه ولي
 البلاد الشرعي فاختق سمي جمال الدين وفر تمت الى الهند وهناك أخذ عن
 علماء البراهمة والاسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ وتبحر في لغة (السانسكريت)
 ثم لغات الشرق وبرز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك الى الاتحاد والقول
 بخدمة العالم زاعماً ان الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكوّنة بترق وتحويل
 طبيعين ما نراه من الاجرام التي تشغل الفلك وتجتاذبها الجوان والقول بوجود
 محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقى الانسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه
 في العقولات بمعنى انه عند ما كان همجياً صرفاً وساذجاً بحثاً كان يعبد خشائس
 الموجودات من مثل الخشب والحجر ولما ترقى في معراجي المدنية والـ رقى بالنسبة
 عنها معبوداته فصار يحترم النار فالسحاب فالافلاك فاجرامها وما يروح يتدرج
 بمرقي الخبرة ويستضيء بمشكاة العلم وهو أخذ في سير طبيعي برفع مكانة معبوده
 ويرقيه في مراتب السموات حتى قال هو منزّه عن التكيف والكم معصوم من البداية
 والنهاية . بعيد عن الحصر والاحاطة . مالى الكمل وفي الكمل يرى الكمل ولا
 يراه أحد غير ان مدارك الانسان ترقى بعد ذلك الى حد أوصولها الى العلم بأن
 كل هذا ضروب أوهام ، وأضغاث أحلام ، نشأت في الاصل عن خوف الانسان
 من الموت وميله الى الخلود ، ذلك ما جعله يبنى في الهواء صروحاً من الالمانى وابراجاً
 من التعلّات مما رسخ في مخيلته الى حد كاد يكون اعتقاداً فعلق يقول انه سينحول
 بعد هذا الموت الى حياة خالدة ونعيم مقبم وان الخشب أو الحجر هو الذي ينتهي
 به الى هذا المقام الاسمى اذا أداه احتراماً ، وأوسع اكراماً ، فانبعث في عبادته
 تخلصاً من مرارة التفكير بمات لا تعقبه حياة . ثم عن له ان النار أكثر اقصاداً ،
 وأجل نفماً واضراراً ، فقال عنه الاله ، ثم رأى ان السحاب خير من النار وأقدر
 فانضوى اليه ، وعول عليه ، وما برحت تزداد حلقات تلك السلسلة المصوغة باداني

«» الصواب انه تمجيز لمحمد أعظم خان كما تقدم

وهم وميل مراقبين لفريضة الانسان وفطرته حتى انتهى الى تلك الرتبة المتناهية علواً فصار من موجبات نواميس الاشياء رد الفعل المؤدي الى الجزم بان كل ذلك خزعات منشؤها الأمازي لا حقيقة لها ولا رسم

وليس اعتقاد المرء ما خط كفه كما ان حاكمي الكفر ليس بكافر (عود على بدء) وبعد ان أقام في الهند ردحاً جاء فروق عاصمة الدولة العالية فأنصل بصدرها (أمين عالي باشا) وحظي لديه وما لبث هناك ان أئقن اللغة التركية ولما رغب اليه الصدر ان يخطب في دار الشورى ارتجل خطبة في الصناعات غالى فيها الى حد ان ادجج النبوة في عداد الصنائع المعنوية فشغب عليه طلبة العلم وشددت صحيفة الوقت عليه التنكير بما الجأ الصدر الى ابعاده فقصده مكة وجاور هناك عاماً وبعض عام أخذ في خلالها مبادئ اللسان العربي (كذا) ثم جاء مصر وكان قد سبق فعرّف في الاستانة رياضها المشهور (وزير المعارف أو انشد) فأكرم مشواة اجلالاً له وانه انزله حجرة في الجامع الازهر (كذا) وعين له راتباً رايكاً مع وظيفة التدريس بعد ان محضه النصيح بان يلزم خطة الشرع الانور والدين الخفيف فلبث في الجامع حيناً من الدهر يفي فروض الصلاة ويواصل الانقال والاوراد ويواظب على قشف الصوم مستمسكاً بشمائر أهل السنة وكان قد آانس من بعض الطلبة فكراً نيراً وذهناً وقادراً فجعل معولهم عليه، ومصدرهم عنه وموردتهم اليه، ثم لاح له ان يغادر الازهر فاتخذ له في حارة اليهود بيتاً مالبث ان صار متقدماً العلماء والادباء، ومحط رحال الطلبة الاذكياء، وكان من ديدنه ان يقطع يياض نهاره في داره حتى اذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه الى ملهى قرب الازبكية يدعى (قهوة البوسطة) وجلس في صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينتظم في سمطها القوي والشاعر والمنطقي والطبيب والكيمائي والتاريخي والجغرافي والمهندس والطبيعي فيتسابقون الى إلقاء ادق المسائل عليه، وبسط اعوص الاحاجي لديه، فيحل عقد اشكالها فرداً فرداً ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً بلسان عربي مبين لا يناهى ولا يتردد بل يتدفق كالسبل من قريحة لا تعرف الكلال فيدهش السامعين،

يرضخ السائلين ، ويبيكم المعترضين ، ولا يبرح هذا الشان شأنه حتى يشتعل رأس الليل شديداً وترعى غزالة الصبح نرجس الظلم فيقفل الى داره بعد أن ينقد صاحب الملهي كلما يترتب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك المجمع الانيق .

وبعد ان ذهب المنشئ الكاتب أديب اسحق الى الاسكندرية قصد تمثيل الروايات تحت رئاسة الفاضل المغفور له سليم نقاش سنحت عوارض قضت بالناء التمثيل فأصبح أديب خالي الوقاض ، بادي الانقاض ، فبعث به المرحوم حنين الخوري الى القاهرة مصحوباً بكتاب وصاة الى جمال الدين فأحسن هذا لقاء لما توسمه فيه من امارات الذكاء ومخايل النجابة ولزمه تمت ملازمة اللام للألف ، وأقبل عليه إقبال الهائم العاني الكلف ، فحصل له امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكاناً يباب الشريعة هباً له فيها من أدوات الطبع بالحرف البولاقي المشهور ما قوي معه على اصدار تلك الصحيفة فكانت ترد مودعة فصولاً وأمالى منسوجة يبراع جمال الدين ومنشورة باسم المزهرا بن وضاح أصارت تلك الصحيفة شأنًا مذكوراً ثم رأى ان ثغر الاسكندرية أقرب لاصطياد الاخبار فوفق بين أديب وسليم وأوعز اليهما بنقل الادارة اليها بعد ان مكنهما من نوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعياها (التجارة) ثم أوما الى كاتبيه الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقاني ان يخرجا تينك الصحيفةتين قلماً وسعياً ما استطاعا الى ذلك سبيلاً وجعل يواصلهما بشذرات من قلمه البديع ، وخطرات من فكره المزري بلا لآء الرقيع ، حتى كان سبب شهرتهما كما كانا بتعظيمهما له في النعوت والالاب من مثل (مهبط اسرار الحكمة وأسطرلاب فلك العلوم واسطخس هيولى الفلسفة) الى غير ذلك مما اعتادا ان يصفاه به سبب نماء شهرته وانتشار صيته وله في صحيفة مصر مقالتان احدهما في الحكومات الشرقية وأنواعها والثانية مماها (روح البيان في الانكليز والافغان) ترنحت لما اعطاف أولي العلم طرباً ، ومالت اليهما اعناق الحكام السياسيين عجباً ، حتى ان (غلادستون) زعيم الحرية في انكلترا اثبت في بعض الصحف رسالة تشهد له انه من اعلام الشرق واعيان العلماء ، حالة كون الانكليز من أعدائه الالاء ، ولما شخص المؤلف الى القاهرة

عام ١٨٧٨ تعرف به وانتفع بصحبته ولازمه حيناً من الدهر في أوقات اجتماعه وخلوته وكان ممن ساعدوه على الوصول الى الخديو (اسمعيل) والتمكن منه وشوقوه الى الاندماج في سلك الاخباريين فنال امتياز صحيفة دعاها (مرآة الشرق) ومطبعة سماها (الاتحاد) وكان قد أمر زعيم تلامذته الشيخ محمد عبده ان يقرظ كتابه (كنز الناظم) فوصفه برسالة ضافية الدبل نسج أكثرها بقلم جمال الدين ونشرت في العدد ١٢٦ من صحيفة الاهرام فانه كان من خلقه الاخذ بناصر كل منتم الى العلم وشد أزر كل ذي ميل للادب ومع انه كان كثير الانفة شديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالمعجب والخيلاء، ويرنو اليهم بعين المقت والازدراء، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لاولياء العلم وانصاره. هما كانوا خاملين قاصرين يبذل لهم الاتس والدعة ويخفض جانب الرقة والدماثة ويؤاسي محتاجهم ومحتاجهم بكلمة يدر عليه، وتصل يده اليه،

وفي خلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً في البلاد ومما مقامه لانه تداخل في السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية من مثل محمود باشا البارودي (الذي فني أخيراً مع عرابي الى جزيرة سيلان) وعبد السلام بك الموبلحي النائب المصري في دار الندوة وأخيه ابراهيم كاتب الضابطة وكثير سواد الذين يخدمون أفكاره، ويعلمون بين الناس مناره، من أرباب الاقلام من مثل الشيخ محمد عبده و ابراهيم الاقاني وعلي بك مظهر والشاعر الزرقاني وأبي الوفاء القوني في مصر، وسليم نقاش وأديب اسحق وعبد الله نديم في الاسكندرية. فتغيرت ثم لمجته في أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم اثناء مكالماته مامناه: انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وريتم بحجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الفزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم في غفلة معرضون، فلو كان في عروقكم

بعم فيه كريات حيوة وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيت
 بهذا الذل والمسكنة ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ولما قعدتم على الرمضاء
 وأنتم ضاحكون تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب
 (والا كراد والماليك ثم الفرنسيس والماليك والعلويين وكاهم يشق جلودكم بمبضع
 حديد ويبيض عظامكم بأداة عسفة، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حساكم
 ولا صوت انظروا اهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة وحصون
 حياط شاهدة بمنعة آباءكم وعزة أجدادكم

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرشيد فلاح
 هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا
 كقبي الأمم احرارا سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء، : الى غير ذلك مما من
 جاء ان يحرك الماء فيجعله ناراً، ويشير نسيم الصبا فيفادرها اعصاراً، فبدأت
 تنتشر حركة الخواطر في الديار المصرية وأخذ القوم يشكون من حكومتهم
 ضاللين، ويتطاولون باعناقهم الى ما يقول مشراً بين، ومذ ذلك الحين طارت
 الشررة الأولى من شررات الثورة العراقية وكان المؤلف قد لمح الى هذا في
 بعض أعداد صحيفته (مرآة الشرق) بقوله في جملته الافتتاحية

أرى خلل الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام
 فإر بعض قادة الجند (على بولسن ودبشير الوزيرين الاجنبيين وأوسعوها
 بمربا وإهانة واجتمع في بيت الشيخ البكري ثم في بيت راغب باشا ليف
 بين اعيان البلاد وعمد الارياض وأجمعوا على تغيير الوزارة النوبارية ثم
 التوفيقية ثم زاد انتشار الخواطر الثورية وكسبت صحف الاخبار أهمية ما كان
 لان نكسبها في اسمى البلاد مدنيةً وحينئذ رأى المؤلف ان المسلك وعراً
 وللوقف خطر، فمال الى الغاء التحرير بانني هي أحسن، والجنوح في هذا الامر
 السير لاني هي أقوم، فاعتزل الجريدة بعد ان أحال امتيازها الى رجل أصارها
 لموع اشارة الافغاني، فوكل بها كاتبه ابراهيم القاني، فبدأ من العدد السادس
 عشر ايعابها مبادئ الثورة وأمالى الشكوى والتعريض وبعد حين ناب الافغاني

عن الأمة بسفارة الى الخديو فذكرت ذلك (مرآة الشرق) بطنطنة عادت عليه بالوبال * وعليها بالتمطيل والنكال (السبب الظاهري لنعطيلها غير هذا واما المطلعون على الحقائق فيعلمون ان الباعث عليه انما هو انتهاؤها الى الافغاني) وكان قبل ذلك قطع في الاسكندرية بضعة ايام خطب في أثنائها بقاعة (زيزينيا) خطبة في النساء جمعت الوفداً من الفرنكات فوزعت بايماء منه على الفقراء ولم يمض زمن حتى انقلب دست (اسماعيل) وعلا أريكة الخديوية صاحب السمو الاميري (توفيق) وكان من الواجدین على جمال الدين فأخذ يحوس موامي أفعاله، ويرود مرامي أقواله، حتى علم انه ممن ينزعون الى ابدال الحكومة المقيدة بجمهورية شوروية فحدثه نفسه بتولي زعامتها فاغتاله بعض الشرطة وهو عائد عند بزوغ الفجر من مقامه الليلي المعلوم وكان قد ارفض عنه أصحابه فاستاقوه الى دار الضابطة وذهبوا به ثممت الى محطة السكة حينما أرسل من طريق الاسميلية الى (بورت سعيد) ولما رأى قنصل المعجم في ذلك الثغر (وكان ماسونيا) أنهم مزعمون على بعثه بطريق جدة الى بلاد فارس عرض عليه مئة دينار برسم النفقة فأبى مع كونه لم يملك ساعتئذ درهماً وأما مكتبته فحجرت عليها الحكومة وضبطتها وأما خادمه (أبو تراب) الذي صار بمعاشرته إياه وملازمته له فيلسوفاً صغيراً حالة كونه أمياً كبيراً فسجن زمناً ثم أطلق سراحه فأتى بيروت منذ عامين ولا علم لنا الآن اين مرسأه وكيف مسراه . وكان روح الثورة قد امتد في القطر بحيث لم يكن اجلاء الافغاني الا ليزيده سريانا وانتشاراً (من هنا فما بعد يعلم كل بما جريات الديار المصرية مما يخرج عن وظيفة كتابنا هذا الافاضة بتفصيلاته) ومنذ ذلك العهد احتجبت عن المؤلف اخباره حتى ظهرت في باريز صحيفة المروة الوثقى موسومة باسمه وموشاة بقلم دهقان رجاله الشيخ محمد عبده فعلم من منزعهما انه عاود الاستمسك بالدين الحنيف وجنح الى نهج خطة جديدة تكسبه ميل العالم الاسلامي ورضاءه عنه

وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته ولو لم يكن طموحاً الى المعالي بافراط واعجال وعاجزاً عن كتمان مبداه

وغايته لرحب به التاريخ وافرزه من اسفاره صفحات ثرى * زينها برقم اعمال
 محيية تكون قدوة للآتين وذكري * وهو الآن دون الخمسين من عمره أسمر
 اللون الى صفرة * مفلفل الشعر أسوده * نحيف البنية * اهيف القامة * جذاب
 الملامح * خفيف العارضين * حاد البصر يكاد يتطايّر الشرر من حدقيه . يلبس
 السواد ويتزيى بزي العلماء * طلي الكلام ذرب اللسان * نصبح اللهجة *
 بليغ العبارة * مليح النكته * سمح الكف * طلق المحيا * وقور السمات * محتجب
 النساء * يفظم نفسه عن الشهوات * يكره الحلو ويحب المر * وقلما خلت جيبه
 من خشب الكينا والراوند ينتقل بهما تفكها * يأكل الوجبة (مرّة كل يوم)
 ولا يأكل الا منفردا * يكثر من شرب الشاي والتبغ واذا تعاطى مسكراً فقليلاً
 من (الكونياك) وليس له من التأليف المطبوعة سوى تاريخ الافغان * يكره
 الكتابة ويتناقل منها فاذا رام انشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل ابراهيم افغاني
 القاء قلما يراجعـه ويصلحه فيجيب من أوّل وهلة مسبوكاً مفرغ الماعاني بقوالب
 لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد * فسبحان من خلقه بهذه الاطوار * وجله بهذه
 الآثار * انه فعال لما يريد * ما كتبه سايه بك المنحوري في شرح سحر هاروت
 وقد اطلم الاستاذ الامام على هذا الشرح أيام كان مقبلاً في بيروت واجتمع
 بالكاتب فأقنعه بأنه مخطئ * فيما وصف به السيد من الإلحاد فادر الى تخطئة
 نفسه في الجرائد فكان بذلك مصيباً للفضيلة ، وظهرها للحقيقة ، وقد نشر الاستاذ
 الامام ما كتبه المنحوري في آخر ترجمته للسيد التي نشرها في صدر ترجمة رسالة
 الرد على الدهريين قال :

« هذا مجل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفماً لما اقترأه
 عليه الجاهلون ولو سلكنا في تاريخه مسلك التفصيل ، لأدى بنا الى التطويل ،
 وانا تتبع هذا بما كتبو سليم افندي المنحوري نخطئة لنفسه فيما نقله في شرح
 سحر هاروت والمطلع على ما كتبناه ، يعلم خطاه في جل ما رواه ،

« هذا ما نشره سليم أفندي المنجوري في جريدة لسان الحال والجنة بحروفه:
 « لا يخفى اننا كنا أنينا في حاشية كتابنا (سحر هاروت) على شيء من ترجمة
 الحكيم الشرقي العزيز المادة السيد جمال الدين الافغاني الطائر الصيت وأبنا في
 عرض قصصنا لمحة مما تلقيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته
 ووهن دينه مما كان مدعاة أسفنا وباعث استغرابنا ثم أسعدنا البخت بان التقينا
 هاته الأيام بصديقنا المجلي بحلبة الفضل، الحائز قصب السبق في مضماري العقل
 والنقل، الشيخ محمد عبده نزيل بيروت وأعز أخلاء الحكيم المشار اليه فخال بيننا
 حديث أففى الى البحث بما يرويه عنه بعض الناس ورويناه نحن عنهم فأوضح
 لنا بدلائل ناهضة، وبراهين داحضة، أن ما تناقله الألسن من هذا القبيل ما كان
 الا من آثار ما رماه به بعض من غمرتهم أياديهم فجازوه بالكنود يعني بهم قوماً
 كفره تزلفوا اليه فاغتر بيراقيش السنهم ووطأ لهم جانب الأنس سالكاً في
 سبيل اسعادهم كل سبيل فلما دارت عليه الدوائر ونحوات الأحوال أخذوا
 يتبعجون بالتمذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر اليه، وبن لنا بأجلى أسلوب
 ان المباحث التي كان يدور بها لسانه اثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد
 المطلبين كان المراد منها اظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد بها، والجنوح
 اليها، بل مع تعقيبها بالرد عليها، واقامة الحجج على بطلانها، ثم تأييداً لمقاله هذا
 وقفنا على رسالة منسوجة بقلم المشار اليه سواً بها أصحاب المبادئ الممثلة من أي
 فريق كانوا وبين قبح طريقتهم بعبارة حنيف عريق بالاسلام ثبت منها هنا
 مبعثه في ضرورة اعتقاد الألوهية لسعادة الانسان

« قال بعد بيان وجوه زعموها كافية لصلاح النوع البشري ورد ما زعموا
 « فأذن لم يبق للشهوات قاصع، ولا للاهواء رادع، الا الايمان بأن للعالم صانعاً
 عالماً بمضمرة القلوب، ومطويات الانفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة، مع
 الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاءً يوفاه مستحقته في حياة بعد هذه الحياة
 مرمدية» ثم قال « فلم يبق ريب في ان الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان
 فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطه شيء من أباطيل من

يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب يكون سبباً في السعادة الزامة والتعليم الكامل ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري، والمعنوي ويصعد بذوبه الى ذروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع اعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفهم بسعادة الدارين ﴿

ثم أنى بعد هذا في مزايا الدين الاسلامي خصراً بما يطول بيانه وبعلمه من اطاع على تلك الرسالة هذا كله بعد ما قال في وصف الماديين ﴿ أنهم كيفاً ظهروا، وفي أي صورة تمثلوا، وبين أي قوم نجموا، كانوا صدمة شديدة على بناء قلوبهم، وصاعقة محتاجة لثأر أمهم، وصدعاً متفاقماً في بنية جيلهم، يمتنون القلوب الحية بأقوالهم، وينفثون السم في الارواح بأرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم، فما رزئت بهم أمة، ولا مني بشرم جيل الا انتكث قتله، وتبددت آحاده، وفقد قوام وجوده، ﴿ ثم أطال في بيان ذلك الى حد لم يبق معه محل للرؤية في كمال اعتقاده وجلاء يقينه

« فأخذتنا لذلك خفة الطرب وسارغنا لا ذاعته بلسان الصحف شأن المورخ العادل وقياماً بحق الأدب وضاً بفضل هذا الرجل الخطير من ان تناله السنة من لا يعرفه خطأ وافتراءً والله يتولى الصادقين هـ اهـ كلام المنحوري

(يقول محمد رشيد) ان الناس ولعوا منذ قرون كثيرة بأن يشبهوا بالكفر والحاد كل تابع في العلوم العقلية بل كل مستقل في العلم لا يتبع الناس في جميع ما درجوا عليه من التقاليد الدينية ولذلك نبزوا بلقب الكفر أو الابتداع مثل ابن سينا وابن رشد من الفلاسفة وأبي الحسن الشاذلي ومحبي الدين بن العربي من الصوفية ومثل الفزالي ممن جمعوا بين الفلاسفة والتصوف : وكذلك فعل النصارى قبل المسلمين فانبع هؤلاء منهم وسيأتي بيان ذلك في هذا الكتاب مفصلاً . من الناس من يتهم أمثال هؤلاء العقلاء متعمداً بالكذب والبهتان ومنهم من يشبههم لسوء ظنه وقصور عقله وقد أشار الاستاذ الامام في ترجمة أستاذه السيد الحكيم الى ذلك وبه أقنع سليم بك المنحوري كما قرأت آنفاً . وقد ذكرني هذا درساً خاصاً ألقاه الاستاذ علي بعض النابغين من أستاذة المدارس الأميرية وغيرهم في الدين هل هو فطري في البشر أم هو حاجة من حاجات الاجتماع تعرض لهم

فيعطيه إياها الجواد الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)
ذكر الأستاذ الامام في بيان كون الدين بطبيعته أمراً فطرياً أن الشعور
بوجود إله ينصرف في الاكوان تصرفاً غيبياً فوق تصرف المخلوقات ، بما يكون
من إفضاء الاسباب الى المسببات ، قد عرف في جميع البشر من أدنى القبائل
الهمجية ، الى أرقى شعوب المدنية ، فهو شعور يستوي فيه الحضارة في صحاري
أفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الافرنج الآن وقد
عرف في الفريقين عن قدماء الأمم كالمصريين والكلدانيين والهنود كما هو
معروف في هذا العصر . ومثل هذا الاتفاق بين الشرقي والغربي والشمالي والجنوبي
في جميع الازمان من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم لا يعقل الا أنه
فطري في البشر

فان قيل ان في الناس من لا يؤمن بالله ولا بعالم الغيب كالماديين من الفلاسفة
ومقلديهم ولو كان ذلك الشعور فطرياً لكان عاماً ولم يعرف منه هؤلاء : فاننا نقول
ان من لا يؤمن بسلطة غيبية غير خاضعة للأسباب المعروفة نادر جداً والقاعدة
لا تنقض بالنادر بل تبقى صحتها اثباتاً بالدليل ويبحث عن سبب شذوذ النادر
كما يبحث الماديون وغيرهم من علماء الكون عن أسباب الشذوذ الذي يعبرون عنه
بفئات الطبيعة ولا يعدون هذه الفئات دليلاً على بطلان الدين والنواميس العامة
في الكون . (قال) فالحقيقة ان الاتحاد مرض من الامراض الاجتماعية

ثم تكلم في مسألة ترقى الشعور الديني في البشر بحسب ارتقائهم الاجتماعي
وهي المسألة التي يعدها الملاحدون من علماء الاجتماع أقوى الشبهات على الدين
وهي التي ذكر النحوري ان السيد جمال الدين كان يحتاج بها على
كون الدين أمراً وضعياً وهمياً رقاء الانسان بحسب معارفه حتى بين له الأستاذ
خطأه كما تقدم . وما قاله الأستاذ في الدرس بوشك ان يكون قد سمع هو وغيره
مثله من السيد ففهم هو مالم يفهم أولئك الذين حرفوا الكلام عن مواضع جهلاً
وغباوة أو كذباً وبهتاناً

بين الأستاذ رحمه الله تعالى ان البشر في طور الهمجية كانوا يذهبون في

ذلك الشعور الفطري بأساس الدين مذاهب الوهم فكما أشكل عليهم فهم شيء من أسرار الخليفة توهموا أنه هو صاحب تلك السلطة الغيبية العالية التي كانوا يشعرون بوجودها فعظموه لهذا التوهم فكان ذلك عبادة له لأن العبادة هي تعظيم ينشأ عن الاعتقاد بالسلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب لامتني لها الا هذا

رأى بعضهم الثعبان الصغير يبيت الانسان أو نحو الثور والجل من غير أن يذبحه أو يذق عنقه أو يهشم رأسه وذلك ما لم يكونوا يعبدونه ولا يفهمون سببه فعبدوه وعلى هذا النحو عبدوا كثيرا من الحيوانات ثم وضعوا لها التماثيل فكانت موضوع عبادتهم . ولما ارتقوا عن هذه المرتبة عبدوا السحاب فالكواكب وهكذا كانوا يحضرون شعورهم بالاعتقاد بالخالق وعالم الغيب بما اتصل اليه عقولهم حتى استعدوا بالارتقاء الى فهم الحقيقة وهي أن كل ما في الكون ما عرف سببه وما لم يعرف مخلوق خاضع لسنن الامة في الاسباب والمسببات وأن الخالق الواضح لهذه السنن لا يحمل في شيء من هذه المخلوقات ولا يتقيد به . حينئذ بعث الله فيهم النبيين مبشرين ومنذرين ، فكانوا هم المبينين لحقيقة الدين ،

(يقول محمد رشيد) هذا ملخص ما علق بذهني من ذلك الدرس ومن أراد كمال البيان فيه فليرجع الى ما كتبه رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية عند بيانه فيه لقول أبي مسلم الأصفهاني والقاضي أبي بكر (ص ٦٠ م ٨ من المنار . وص ٢٩٤ وما بعدها من الجزء الثاني من التفسير) فهذا ما زاره في منشأ وهم الواهم في عقيدة السيد جمال الدين من غير الكذبة المقترين

وأما ما ذكره المنحوري من عادته في أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب فقد كان يأكل الوجبة ، واكثته لم يكن يأكل وحده ، وقد كان يكثر من شرب الشاي ، ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات ، فإن لم يكن ما قيل من شربه انليل من الكونياك فريه ، فيحتمل أن يكون له شبهة ، كان يكون رآه الناقل يشرب شيئا يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداويا فظنه الناظر عادة . وهذه الشبهات كثيرة وقع لي منها ما ظن به من لا يعرفني الا بالسمع انني أفطر في رمضان متعمدا

ذلك أن ابراهيم بك الهلباوي كتب في المؤيد مقالة ضرب فيها المثل برجل كان في ادارة المؤيد يكلم صاحب المنار ويمدح الدين ويذكر فوائده وهو يدخن بسيكارته في نهار رمضان . فظن كثير ممن قرأ تلك المقالة ان الذي كان يدخن وقت الحديث هو صاحب المنار وتمجبوا من ذلك وتكلموا فيه فكان من يسمعه من العارفين بهذا الفقير يقول لهم ان صاحب المنار لم يتعود التدخين ويكرهه وربما يحرمه لاعتقاده بضرره :

على ان القصة ليست كما رواها الكاتب فان ذلك الذي كان يمدح الدين - إنما كان يمدحه في معرض مدح المنار وفوائده - لم يكن يدخن في أثناء الحديث ولكنني تركته وخرجت لحاجة ثم عدت فاذا به يدخن ويشرب القهوة !!



تتمت الترجمة

علم أن السيد جمال الدين ذهب بعد إنشاء العروة الوثقى في باريس والسمي في المسألة المصرية ذهب الى روسيا . ونقول إنه أقام في بطرسبرج عاصمتها أربع سنين كان فيها موضعاً لا كرام القيصر وكان مما خدم به المسلمين هناك إقناع القيصر بحسن معاملة المسلمين والإذن لهم بطبع المصحف الشريف وبعض الكتب الدينية فأذن بذلك وقد نشرت جريدة الفلاح التي كانت تصدر في القاهرة مقالة في هذا الموضوع وينا هو في بطرسبرج زارها شاه ايران ناصر الدين وأظهر هناك رغبته في لقاء السيد فبلغ السيد ذلك فلم يحفل به ولم يزر الشاه . ثم سافر السيد الى مونيخ من بلاد ألمانيا فوافاه الشاه وهو فيها وهناك التقيا

ذكر السيد ذلك في بعض مجالسه في الاسنانة وقال : إن بعض الكبراء من الألمان وغيرهم جموني به فرغب اليّ أن أذهب معه الى بلاده ليجعاني رئيس

وزرائه فأيدت وقلت انني عزمتم على الذهاب الى معرض باريس ولا أحب أن أقض عزمي فألح عليّ أشد الإلحاح حتى ألزمني بالذهاب معه . وكان يقول عني : هذا رجل العالم السياسي الحربي الجدير بأن يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب : فقال له بعض الحاضرين - وهو الشيخ عبدالقادر المغربي الذي كتب حديثه وأرسله اليّ من الاسنانة يومئذ - كيف يدعوك الى ذلك وأنت مشهور بشدة رغبتك في تشييد عقائد أهل السنة ؟ فقال جنون وهوس منه : وبعد أن مكثت مدة في بلاده طلبت الذهاب الى أوروبا (كذا كان يعرف الكلمة وأمثالها في كلامه) فنفني وسمعت عنه كلاماً خشناً في حقّي وآراء رديئة مآلها الحجر عليّ في البلاد الايرانية . فأعملت الحيلة وذهبت الى مقام عبد العظيم وهو من أحفاد بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آثماً فكثت هناك سبعة اشهر كتبت في اثنتائها عدة مقالات وحررت في الجرائد جملة كتابات (كذا) في مثاب الشاه المذكور وحث الشعب على خلعهم ثم خرجت من هناك :

ثم ذكر بحديثه الى لوندرد وطعنه هناك في الشاه الى أن طلبه السلطان عبدالحميد الى الاسنانة وكلمه في الكف عن الطعن في الشاه . قال : أخبرني أفندينا أن سفير المعجم قصده ثلاث مرات قال فحجبتني في المرتين الأولى ثم أذنت له فطلب مني أن آمرك بالكف عن التعرض للشاه بسوء فأنا الآن أطلب منك الإعراض عن شاه المعجم : فقلت حينئذ : امثالاً لأمر خليفة المهر قد عفوت شاه المعجم قد عفوت شاه المعجم (كذا قالها بنعدية عفوت بنفسه) فقال مولانا أمير المؤمنين حينئذ : بحق أن يخاف منك شاه المعجم خوفاً عظيماً :

قال الكاتب : وذكر أنه حمل بعض علماء المعجم على الاقناء بجرمة الدخان (التباك) فخرمه ومنع العامة عن شربه فأطاعوه وشغبوا على الشاه وقصدوا داره لإهلاكه أو يبطال المقابلة الجديدة التي عقدها مع الافرنج لاجل حصر الدخان فاضطر الشاه الى ذلك ورفع غرامة لأصحاب المقابلة قدرها نصف مليون ليرة انكليزية :

(يقول المؤلف محمد رشيد) قد اطلعت على صورة مطبوعة على حذنها من الكتاب الذي أرسله الى رئيس المجتهدين في ذلك الوقت وهذا نصه :

مكتوب من البصرة الى السامرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقاً أقول : ان هذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت ،
وحيثما حلت ، وضراعة تعرضها الأمة على نفوس زاكية تحققت بها اوقامت بواجب
شؤونها كيفما نشأت ، وفي أي قطر نبغت ، الا وهم العلماء فاحبيت عرضه على الكل
وان كان عنوانه خاصاً ،

حبر الأمة ، وبارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق
عن الشرع المبين ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة
الاسلام ، ورد كبد الزنادقة اللثام ،

لقد خصك الله بالنبابة العظمى ، عن الحجّة الكبرى ، واختارك من العصاة
الحقة ، وجعل بيدك أزمة سياسة الأمة بالشرعية الغراء ، وحراسة حقوقها بها ،
وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتباب فيها ، وأحال اليك من بين الأنام (وانت
وارث الانبياء) مهام أمور تسعد بها الملة في دارها الدنيا ، وتحفل بالعقبى ، ووضع
لك أريكة الرئاسة العامة على الافئدة والهي ، اقامة لدعامة العدل وانارة لمحجة
الهدى ، وكتب عليك بما أولاك من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها
والشهادة دونها على سنن من مضى ،

وان الأمة قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، ووضعها وعاليها ، قد
أذعنت لك بهذه الرئاسة السامية الربانية ، جاثية على الركب ، خائرة على الاذقان ،
تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تمررها ، تطل بصارتها عليك في كل مصيبة
تمسها ، وهي ترى ان خيرها وسعدها منك ، وان فوزها ونجاتها بك ، وان
أمنها وأمانها فيك ،

فاذا ابح منك غض طرف ، أو نيت (١) بجاذبك لحظة ، وأمهلتها وشأنها لمحة ،
 لم تجفت أفئدتها ، واختلت مشاعرها ، وانتكشت عقائدها ، وانهدمت دعائم إيمانها ،
 نعم لا برهان للعامة فيما دانوا ، الا استفامة الخاصة فيما أمروا ، فان وهن هؤلاء
 في فريضة ، أو قعد بهم الضعف عن إمالة منكر ، لا عتور أوائلك الظنون والالوهام ،
 ونكص كل على عقبه مارقا من الدين اقويم ، حائدا عن الصراط المستقيم ،
 واعد هذا وذاك وذلك أقول ان الأمة الايرانية بما دهمها من عراقيل
 الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين ، وتطاول الأجانب على
 حقوق المسلمين ، ووجوم الحجة الحق (اياك أعني) عن القيام بنصرها وهو
 حامل الأمانة ، والمسؤول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شماعا ، وطاشت
 عقولها ، ونهات أفكارها ووقفت موقف الحيرة (وهي بين انكار واذعان
 وحجود وإيقان) لانهتدي سبيلا وهامت في بيداء الهواجس ، في عممة الوسوس ،
 خالة عن رشدها لا تجد اليه دايلا ، وأخذ القنوط بجام قلوبها ، وسد دونها
 أبواب رجائها ، وكادت ان تختار إياسا منها الضلالة على الهدى ، وتعرض عن محجة
 الحق وتتبع الهوى ، وان آحاد الأمة لا يزالون يتسألون شاخصة أبصارهم عن
 أسباب قضت على حجة الاسلام (اياك أعني) بالسبات والسكوت ، وحتم عليه
 ان يطوي الكشح عن إقامة الدين على أساطينة ، واضطره الى ترك الشريعة
 وأهلها ، الى أيدي زنادقة يلعبون بها كيفما يريدون ، وبمحكون فيها بما يشاؤون ،
 حتى ان جماعة من الضملاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا في الحجة ظن السوء ،
 وحسبوا الامر أحبولة الماذق ، وأسطورة الماذق ، وذلك لانها ترى (وهو الواقع)
 ان لك الكلمة الجامعة ، والحجة الساطعة ، وان أمرك في الكل نافذ ، وليس
 لمحكمك في الأمة منابذ ، وانك لو أردت تجميع آحاد الأمة بكلمة منك (وهي كلمة
 تنبثق من كيان الحق الى صدور أهل) فترهب بها عدو الله وعدوهم ، وتكف
 عنهم شر الزنادقة ، وتزيح ماحق بهم من العنت والشقاء ، وتنشلهم من ضنك

(١) كذا في الاصل واليت هو التمايل من ضعف وفعله ككمال يكيل

(٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

العيش الى ما هو أرغد وأهنى ، فيصير الدين بأهله منيعا حريزا ، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزا ،

هذا هو الحق . انك رأس العصاة الحققة (١) ، وانك الروح الساري في أحاد الأمة ، فلا يقوم لهم قائم الا بك ، ولا تجتمع كلمتهم الا عليك ، لوقت بالحق نهضوا جميعا ولهم الكلمة العليا ، ولو قدمت ثبطوا ، وصارت كلمتهم هي السفلى ، وربما كان هذا السير والدوران حينما غص حبر الأمة طرفه عن شؤونهم ، وتركهم هملا بلا راع ، وهمجا بلا رادع ولا داع ، يقسم لهم عذرا فيما ارتابوا . خصوصا لما رأوا أن حجة الاسلام قدونى فيما أطبقت الامة خاصتها وعامتها على وجوبه ، وأجمعت على حظر الاتقاء فيه (٢) خشية لقوبه ، الا وهو حفظ حوزة الاسلام الذى به بعد الصيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة . ومن يكون أليق بهذه وأحرى بها من اصطفاها الله في القرن الرابع عشر ، وجعله برهانا لدينه وحجة على البشر ، أيها الخبر الأعظم ، ان الملك قد وهنت مريرتنا ، فسات سيرته ، وضغفت مشاعره فقبحت مريرتنا ، وعجز عن سياسة البلاد ، وادارة مصالح العباد ، فجعل زمام الامور كليها وجزئها بيد زنديق أثيم ، غشوم ثم بعد ذلك زعيم . . يسب الانبياء في المحاضر جهرا ، ولا يذعن لشريعة الله أمرا ، ولا يرى لرؤساء الدين وقرا ، يشتم العلماء ، ويقذف الاتقياء ، ويهين السادة الكرام ، ويمامل الوعاظ معاملة اللئام ، وانه بعد رجوعه من البلاد الافرنجية قد خلع المذار ، وتجاهر بشرب الخمر ، وموالات الكفار ، ومعاداة الأبرار ، هذه هي أفعاله الخاصة في هذه . . ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين - المهادن ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب الى جميع ارجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول . . نهر الكارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج . . والجادة من الاهواز الى طهران وما على أطرافها من الممارات والفنادق والبساتين والحقول . . والتنباك وما يتبعه من

(١) الحققة الثابتة القوية والمراد طائفة العلماء لاسيما المجتهدين منهم (٢) الاتقاء التقية

المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين اني وجد وحيث
قيمت ، وحكر العنب للخمر وما استأزمه من الخواثيت والمعامل والمصانع في جميع
أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك
مالبنك هو اعطاء زمام الأهالي كلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه
ايامهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان ،

ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه فخبق قائلا ان هذه
معاهدات زمانية ، ومقاولات وقتية ، لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة !! يا الله من
هذا البرهان الذي سوله خرق الخائنين ، وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقا
لسكونها (لوسكنت) مرداب رشت وأنهر الطبرستان والجادة من أنزلي الى
الحراسان وما يتعلق بها من الدور والقنادق والحقول . . . ولكن الدولة الروسية شمت
بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية ، وهي عازمة على استملاك الحراسان
والاستيلاء على الأذربيجان والمازندران ان لم تنحل هذه المعاهدات ولم تنسخ
هذه المقاولات القاضية على تسليم المملكة تماما بيد ذاك العدو اللد ، هذه هي
النتيجة الاولى لسياسة هذا الاخرق ،

وبالجملة ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول يبيع المازا ،
وانه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم الصلاة والسلام للأجانب ولكنه
لحسة طبعه ودنائة فطرته لا يبيعهما الا بقيمة زهيدة ودرهم معدودة (نعم هكذا
يكون اذا امتزجت اللثامة والشره بالحيانة والسفه)

وانك أيها الحجة ان لم تقم بناصر هذه الأمة ولم تجمع كلمتها ولم تنزعها بقوة
الشرع من يد هذا الأثيم لاصبحت حوزة الاسلام تحت سلطة الأجانب (يحكون
فيها بما يشاؤون ويفعلون ما يريدون) ، واذا فانتك هذه الفرصة أيها الخبر ووقع
الامروأت حي لا أبقيت ذكرا جيلا بعدك في صحيفة العالم وأوراق الثوابيح...
وانت تعلم أن علماء ايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منك (وقد خرجت
صدورهم وضائق قلوبهم) كلمة واحدة ويرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها...
ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها ويتركها سدى ،

ثم أقول للحجة قول خير بصير ان الدولة العثمانية تتبجح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليه لانها تعلم أن مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية والاسديلاء عليها تجلب الضرر الى بلادها لاجل حاله ، وانت وزراء الايران وأمراءها كلهم يتعجبون بكلمة تنبص بها في هذا الشأن لانهم بأجههم بما فون هذه المستحدثات طبعاً ، ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ، ويجدون بنهضتك مجالا لابطالها ، وفرصة الكف شر الشره الذي رضي بها وقضى عليها ،

ثم ان العلماء وان كان كل صدع بالحق وجبه هذا الاخرق الخائن بسوء أعماله ولكن ردعهم للزور وزجرهم عن الخيانة ونهرهم المجرمين ماقرت كسلسلة المعدات قرارا ، ولا جمعتهما وحدة المقصد في زمان واحد ،

وهؤلاء لتمامهم في مدارج العلوم وتشاكلهم في الرئاسة وتساويهم في الرتب غالباً عند العامة لا ينجذب بعضهم الى بعض ولا يصبر أحد منهم لصفاً للآخر ولا يقع بينهم تأثير الجذب وتأثر الانجذاب حتى تتحقق هيئة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة . كل يدور على محوره ، وكل يردع الزور وهو في مركزه ، (هذا هو سبب الضعف عن المقاومة وهذا هو سبب قوة المذكر والبغي) . وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمزلة الرفيعة علة فمالة في نفوسهم ، وقوة جامعة لقلوبهم ، وبك تنضم القوى المنفرقة الشاردة ، وتلتئم القدر المتشتتة الشاذة ، وان كلمة منك تأتي بوحدانية ثامة يحق لها أن تدفع الشر المحرق بالبلاد . وتحفظ حوزة الدين وتصون بيضة الاسلام فالكلمة منك وبك واليك . . . وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس

ثم أقول ان العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا من ذاك العتل شداً ما سبق منذ قرون لها مثيل ، ونحملوا اصابة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صفار وكل فضيحة .

ولا شك أن حبر الامة قد سمع ما فعله أدلاء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج الملا فيض الله الدر بندي وستسمع قريباً ما صنعه الجفاة الطغاة بالعالم المجتهد النقي البار الحاج السيد علي أكبر الشيرازي ومنحبط

علما بما فعله بحماية الملة والامة من قتل وضرب وكى وحبس . ومن جملتهم الشاب الصالح المبرز محمد رضا الكرواني الذي قتله ذلك المرتد في الحبس والفاضل الكامل البار حاج سياح والفاضل الاديب الميرزا فروغي والارباب النجيب الميرزا محمد علي خان والفاضل المتقن اعتماد السلطنة وغيرهم .

وأما قصتي ، وما فعله ذلك الكنود الظالم معي ، فما يفتت أكباد أهل الايمان ، ويقطع قلوب ذوي الايقان ، ويتضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الاوثان ، ان ذلك اللئيم أمر بسحبي وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصفار وفضيحة لا يمكن أن ينصور دونها في الشناعة (هذا كله بعد النهب والغارة) « ان الله وانا اليه راجعون »

ثم حملني زبانيته الاوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلا في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقطني جحفة من الفرسان الى خانقين وصحبني جمع من الشرط ولقد كاتب الوالي من قبل والنمس منه أن يبعدني الى البصرة علما منه أنه لو تركني ونفسي لا تترك أيها الخبير وثبت لك شأنه وشأن الامة وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك أيها الحجة الى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمين ، وكان على يقين اني لو اجتمعت بك لا يمكنه ان يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد ، وهلاك العباد ، واعلاء كلمة الكفر وبما زاده لوءا على لوءه ودناوة على دنائه أنه دفع الثورة العامة وتسكيناً لهياج الناس نسب تلك العصابة التي ساقها غيره الدين وحمية الوطن الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالي (بقدر الطاقة والامكان) الى الطائفة البابية . . . كما أشاع بين الناس أولاً (قطع الله لسانه) أنني كنت غير مختون (وا إسلاماه) ما هذا الضعف ؟ ما هذا الوهن ؟ كيف أمكن أن صعلوكاً دنيء النسب ، ووغدا خسيس الحسب ، قد ران يبيع المسلمين وبلادهم بشمن بنحس حرام معدودة ويزدري بالعلماء ويهين السلالة المصطفوية ويهت السادة المرئضوية البيتان العظيم ، ولا يد قدرة تسناصل هذا الجذر الخبيث شفاء انيظ المؤمنين ، وانقضاء لآل سيد المرسلين ، عليه وآله الصلاة والسلام .

ثم لما رأيت نفسي بعيداً عن تلك الحضرة العالمة أمسكت عن بث الشكوى
ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي أكبر إلى البصرة طالب مني ان اكتب
الى الحبر الاعظم كتاباً أثبت فيه هذه الفوائد والحوادث والكوارث فبادرت اليه
امثالاً، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
السيد الحسيني

.....

(يقول محمد رشيد) إن هذا الكتاب نفخ روح الحماسة والفيرة في ذلك
العالم العظيم صاحب النفوذ الروحي في الامة الفارسية فأفنى بحرمة استعمال التذباك
وزراعته واذاغ العلماء فتواه بسرعة البرق فخضعت لها أعناق الامة حتى قيل
ان الشاه طلب في صبيحة يوم بعد وصول الفتوى الى طهران النارجيله (الشيشة)
فقيل له انه ليس في القصر تذباك لاننا اتلفناه فسأل عن السبب مبهوتاً فقيل له:
فتوى حجة الاسلام : فقال لم لم تستأذوني ؟ قيل انها مسألة دينية لا حاجة فيها
الى الاستئذان !! واضطر بعد ذلك الى ترضية الشركة الانكليزية على أن تأخذ
نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز . وبهذا انقذ السيد جمال الدين بلاد ايران من
احتلال الانكليز لها بابطال مقدمته وهو ذلك الامتياز أو الامتيازات التي قرأت
شرحها في كتابه فمكذا تكون الرجال وهكذا تكون العلماء

هكذا هكذا او الا فلا لا ليس كل الرجال تدعي رجالا

وقد ظهر الآن تأثير نفوذ طائفة العلماء في بلاد فارس ثم الظهور بما كان قلب نظام
الحكومة ومهولها عن الاستبداد المطلق الى الشورى . ولعل تلك الحادثة هي
المنبه للاول العلماء الى ان الامر في ايديهم . فالسيد جمال الدين علي هذا هو
العامل الاول في هذا الانقلاب كما أنه سبب الانقلاب الذي حدث في مصر فان
عمل جمعيته كان اول سعي في مقاومة سلطة اسماعيل باشا وتقويضها وفي نفخ روح
الاصلاح في توفيق باشا حتى واثق السيد وخاصته بأنه اذا آل الامر اليه ايوسن
مجلس نواب وليعملان وليعملان . ولكن تداخل الجند في السياسة أفسد العمل بعد ذلك
ولم يكن نجاح العلماء بسعيه وإرشاده في ابطال تداخل الاجانب في بلاد

فارس هو المنبه وحده لكون سلطة العلماء والامة فوق سلطة الملوك بل كان تمام
التنبه قتل الشاه بعد ذلك وما قيل من ان قتله من اتباع السيد جمال الدين
لم يكتف السيد بنحريض كبير المجتهدين وسائر العلماء على الشاه ووزيره
ولا بنجاحه في نديهم له بل ذهب من البصرة الى اوربا وطبق بطعن فيهما بالقول
والكتابة وقد أسس هناك مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والانكليزية باسم
(ضياء الخاقين) أو سعي في تأسيسها وكان يكتب في كل عدد منها مقالة في أحوال
فارس بتوقيعه المعروف (السيد) أو (السيد الحسيني) وكان الكلام في مهر من أهم مباحثها
وقد فضح في مقالاته عن بلاد فارس حكومتها وشاهاها شر فضيحة حتى جاءه
سفير المعجم في اندره يستقبله ويسترضيه ليكشف عن الكلام والكتابة في ذلك
وعرض عليه مالا كثيرا فقال له السيد « لا أرضى الا أن يقتل الشاه ويقر
بطله ويوضع في القبر » فكان هذا القول من الشبه على كون القاتل له من اتباع
السيد . وانا نورد هنا بعض ما كتبه في ضياء الخاقين عن بلاد فارس تخليدا
له في التاريخ . وماك ما كتبه في المدد الثاني تحريضا للعلماء على خلع الشاه والقيام
بشؤون الامة . وهذا المدد صدر في أول مارس (آذار) سنة ١٨٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حملة القرآن ، وحفظة الايمان ، ظهراء الدين المتين ، ونصراء الشرع المبين ،
جنود الله الغالبة في العالم ، وحججه الدامغة لضلال الأم ، جناب الحاج الميرزا
محمد حسن الشيرازي . وجناب الحاج الميرزا حبيب الله الرشتي ، وجناب الحاج
الميرزا أبي القاسم الكر بلائي ، وجناب الحاج الميرزا جواد الأقال تبريزي ، وجناب
الحاج السيد علي أكبر الشيرازي ، وجناب الحاج الشيخ هادي النجم آبادي ،
وجناب الميرزا حسن الأشتياني . وجناب السيد الطاهر الزكي صدر العلماء .
وجناب الحاج آقا محسن العراقي ، وجناب الحاج الشيخ محمد تقي الاصفهاني ،

وجناب الحاج المآ محمد تقي البجنوردي . وسائر هداة الأمة . ونواب الأئمة .
من الاحبار العظام ، والعلماء الكرام ، أعز الله بهم الاسلام والمسلمين ، وأرغم
آتوف الزنادقة المتجبرين ، آمين

طالما تآقت الامة الافرنجية الى الاستيلاء على البلاد الابرازية حرصا منها
وشرها . ولكم سولت لها امانيتها خدعا تمكنها من الولوج في ارجائها ونمهد فيها
سلطانها على غرة من اهلها تحاشيا من المقارعة التي تورث الضغائن فتبعث النفوس
على الثورة كلما سنحت لها الفرص وقضت بها الفترات . واكنها علمت ان بلوغ
الارب والعلماء في عز سلطانتهم ضرب من المحال لان القلوب تهوي اليهم طرا ،
والناس جميعا طوع يدم ياتمرون كيفما امروا ، ويقومون حيثما قاموا ، لامرد
لقضائهم ، ولا دافع لحكمهم ، وانهم لا يزالون يدأبون في حفظ حوزة الاسلام
لاناخدم فيه غفلة ، ولا نعروهم غره ، ولا نتميد بهم شهوه ، فخنست وهي تتربص
بهم الدوائر ، وتترقب الحوادث ، ايم الله انها قد اصابنا فيما رأنا ، لان العامة
لولا العلماء وعظيم مكانتهم في النفوس لا انتجات بطيب النفس الى الكفر واستنظلت
بلوائه خلاصا من هذه الدول الذليلة الجائرة الخرقى التي قد عدمت القوة ، وفقدت
النصفة ، وانفت المجاملة ، فلا حازت منها شرفا ، ولا صانت بها نفسها حقا ، ولا
انشرح منها صدرها فرحا .

ولذا كلما ضعفت قوة العلماء في دولة من الدول الاسلامية وثبت عليها طائفة
من الافرنج ومحت اسمها ، وظلمت رسمها ،
ان سلاطين الهند وأمراء ماوراء النهر جدت في اذلال علماء الدين فعاد
الوبال عليهم سنة الله في خلقه وان الافغانيين ماصانوا بلادهم عن أطماع
الأجانب وما دفعوا هجمات الانكليز مرة بعد أخرى الا بقوة العلماء وقد
كانت في نصابها .

ولما تولى هذا الشاه (الخارية (١) الطاغية) الملك طفق يستلب حقوق العلماء
تدريجيا ويخفض شأنهم ويقال نفوذ كرامتهم حبا بالاستبداد ياطل أوامره ونواهيها ،

(١) هي الحبة كبرت فصغرت حتى بقي رأسها فيه سم ، ونفسها وهي أخبت الافاعي

وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره ، فطرد جماعاً من البلاد بهوان ، ونهه فرقة
عن إقامة الشرع بصغار ، وجلب طائفة من أوطانها إلى دار الجور والخرق (طهران)
وقهرها على الإقامة فيها بذل فخلاله الجو فقهر العباد وأباد البلاد وتقلب في
أطوار الفظائع وتجاهر بأنواع الشنائع وصرف في أهوائه الدنية وملاذه البهيمية
مامصه من دماء الفقراء والمساكين عصراً ونزع من دموع الأراذل والأيتام
قهرًا (يا لاسلام)

فاذا اشتد جنونه بجميع فنونه فاستوزر وغداً خسيساً ليس له دين يردعه
ولا عقل يزجره ولا شرف نفس يمنعه وهذا المارق ما قعد على دسسته الا وقام
بإبادة الدين ومعاداة المسلمين وساقته دناءة الأرومة ونذالة الجرثومة إلى
بيع البلاد الإسلامية بقيم زهيدة .

فحسبت الأفرنج ان الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الإيرانية بلا كفاح
ولا قتال وزعمت ان العلماء الذين كانوا يذبون عن حوزة الاسلام قد زالت
شوكتهم وقد نفوذهم فهرع كل فاعراً فاه يبغي أن يسرط قطعة من تلك المملكة
فغار الحق وغضب على الباطل فدمغه فخاب مسماه وذل كل جبار عنيد .
أقول الحق انكم يا أيها القادة قد عظمت الاسلام بعزائمكم وأعليتم كلمته وملائم
القلوب من الرهبة والهيبة . وعلمت الأجانب طرا ان لكم سلطاناً لا يقاوم وقوة
لا تدفع وكامة لا ترد وانكم سياج البلاد وبيدكم أزمة العباد ولكن قد عظمت
الخطب الآن وجلت الرزية لأن الشياطين قد تألبت جبراً للكسر وحرصاً على
لوصول إلى الغاية وأزمنت على اغراء ذاك المارق الأثيم على طرد العلماء كافة
من البلاد . وأبانت له ان انقاذ الأمر انما هو باتقياد قواد الجيوش وان القواد
لا يعصون العلماء أمراً ولا يرضون بهم شراً فيجب لاستتباب الحكومة استبدادهم
بقواد الأفرنج . وأرت لذلك البليد الخائن رأسه الشرطة وقيادة فوج (١) القزاق

(١) يطلق الفرس هذا اللفظ العربي على الطائفة من العسكرية التي يطلق عليها الترك
لفظ طاوور (وصوابه بالعربية تابور) ويطلق عليها في مصر لفظ أورطوه وهي أعجوبة
(٩ ج ١ تاريخ الاسناد الامام)

نموزجاً (كنت واضرابه) . وان ذاك الزنديق وزملائه في الاتحاد يجدون الآن في جاب قواد من الأجانب . والشاه بجنونه المطبق قد استحسن هذا واهتز به طرباه لعمر الله لقد تحالف الجنون والزندقة ونعاهد العتة والشره على محق الدين واضمحلال الشريعة وتسليم دار الاسلام الى الأجانب بلا مقارعة ولا مناقرة . ياهداه الأمة انكم لو أهملتم هذا الفرعون الذليل ونفسه وأمهلتوه على سرير جنونه وما أسرعتم بخلمه عن كرسي غيه لقضي الأمر فمسر العلاج وتمذرا التدارك * أنتم نصراء الله في الارض . ولقد تمحصت بالشريعة الالهية نفوسكم عن أهواء دنية بُعث على الشقاق وتدعو الى التفاق ويؤس الشيطان بقذات الحق عن تفريق كلمتكم . فأنتم جميعاً يدٌ واحدة يذود بها الله عن صياصي دينه الحصينة و يذب بقوتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة . وان الناس كافة (الامن تضي الله عليه بالحية والحسران) طوع أمركم . فلو أعلنتم خلع هذا (الحارية) لأطاعكم الأمير والحقير وأذعن لحكمكم الغني والفقير (ولقد شاهدتم في هذه الأزمان عياناً فلا أقيم برهاناً) خصوصاً وان الصدور قد خرجت وان القلوب قد نفطرت من هذه السلطنة القاسية الحمقى التي ماسدت نفورا ولا جندت جنودا ولا عمرت بلادا ولا نشرت غلوما ولا أعزت كلمة الاسلام ولا أراحت يوماً ما قلوب الأنام بل دمرت وأقوت وأفقرت وأذلت ثم بعد ضلت وارتدت وأنها سحقت عظام المسلمين وعجنتها بدمائهم فعمات منها البنات (١) بنت بها قصورا لشهواتها الدنية . هذه آثارها في هذه المدة المديدة والسنين المديدة نسألها وتبت يداها *

واذا وقع الخلم (وتكفيه كلمة واحدة يذبح بها لسان الحق غيرة على دينه) فلا ريب ان الذي يخلف هذا (الطاغية) لا يمكنه الميدان عن أوامركم الالهية ولا يسهه الا الخضوع بمتبتنكم عتبه الشريعة المحمدية كيف لا وهو يرى عياناً مالكم من القوة الربانية التي تقبلون بها الطغاة عن كرسي غيها . وان العامة متى سمعت

بالعدل تحت سلطان الشرع ازدادت بكم وأما وحامت حولكم هياما وصارت
جميعاً جنداً لله وحزباً لا وإياته العلماء *

ولقد وهم من ظن أن خلع هذا (الحارثية) لا يمكن إلا بهجمات المساكر
وطلقات المدافع والقنابر . ليس الأمر كذلك . لأن عقيدة إيمانية قد رسخت في
العقول ، وتمكنت من النفوس ، وهي أن الراد على العلماء راد على الله (هذا هو
الحق وعليه المذهب) فإذا أعلنتم (يا حمة القرآن) حكم الله في هذا الغاصب
الجائر وأبنتم أمره تعالى في حرمة إطااعته لا نفرض الناس من حوله فوق الخلع لا
جدال ولا قتال *

واند أراكم الله في هذه الأيام إنعاماً لحبته ما أولاكم من القوة اتامة ،
والقدرة الكاملة ، وكان الدين في قلوبهم زبغ في ريب منها من قبل . اجتمعت
النفوس بكلمة منكم على إرغام هذا الفرعون الذليل وهامانه الرذيل (مسألة التذكير)
فصبغت الامة من قوة هذه الكلمة وسرعة نفوذها وبهت الذي كفر . قوة
أنصها الله عليكم لصيانة الدين وحفظ حوزة الاسلام . فهل يجوز أنكم اهمالها
وهل يسوغ التفريط فيها ؟ حاشا ثم حاشا *

قد آن الوقت لأحياء مراسم الدين ، واعزاز المسلمين ، فاخلعوا هذا (الطاغية)
قبل أن يفك بكم ، ويهتك اعراضكم ، ويثلم سياج دينكم ، ليس عليكم إلا أن تعانوا
على رؤوس الاشهاد حرمة إطااعته فإذا يرى نفسه ذليلاً فريداً يفر منه بطائفة
وينفر منه حاشيته وينبذه المساكر ويرجمه الأصاغر *

انكم يا أيها العلماء والذين قاموا معكم لتأييد الدين بعد اليوم في خطر عظيم .
قد كسرتهم قرن فرعون بمصالح الحق وجدتم أنف الحارثية بسيف الشرع فهو
يربص فرصاً تساعد على الانتقام شفاء لغيظه ومرضاة لطبيعته التي فطرت على
الحقد والجحاح فلا تمهلوه أياماً ولا تمكنوه أن يقبض زماماً أعلنوا خلمه قبل
اندمال جرحه *

وحاشا لكم أيها الراسخون في العلم أن ترتابوا في خلع رجل ساطانه غصب
وأفعاله فسق وأوامره جور وأنه بعد أن مص دماء المسلمين ونهش عظام

المساكين وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئاً حكم عليه جنونه ان يملك
الأجانب بلاداً كانت للإسلام عزا وللدين المتين حرزا وساقته سورة السفه
الى اعلاء كلمة الكفر والاستظلال بلواء الشرك *

ثم أقول ان الوزراء والامراء وعامة الاهالي وكافة العساكر وأبناء هذا
(الطاغية) ينتظرون منكم جميعاً (وقد فرغ صبرهم ونفذ جلدكم) كلمة واحدة
حتى يخلصوا هذا الفرعون الذليل ويريموا العباد من ضره ويصونوا حوزة الدين
من شره قبل أن يحل بهم العار ولات حين مناص والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته *

(السيد الحسيني)

(يقول محمد رشيد) ان العلماء من الاحترام والنفوذ الروحي في بلاد الأعاجم
ما ليس لهم في البلاد العربية وان احترامهم في بلاد الفرس أشد منه في سائر بلاد
العجم فان الحكم ليس لهم عليهم من السلطة هناك مثل ما لغيرهم من حكم المسلمين وما
أزال الملوك والأمرأ احترام العلماء ومحور نفوذهم - حاشا ما كان منه مؤيدا لهم ومعينا
لاستبدادهم - الا بما اخترعوه لهم من الرتب العلمية وكساوي الشرف الوهمية وبما
جعلوا من موارد أرزاقهم في تصرفهم . فصار رزق العالم وجاهه الديوي بيد الأمير
أو السلطان وهما الرسلان اللذان يقودون بهما طالب المال والجاه من العلماء الى حيث
شاورا . فاذا أمكن لطلاب الإصلاح الاسلامي أن يطلوا هذه الرتب العلمية
ومالها من الشارات ويخرجوا أرزاق علماء الدين من أيدي الحكماء فإنهم يحجرون
العلماء من رق يكون مقدمة لا صلاح الامة كلها

الإسلام دين اجتماعي جمع بين مصالح الدنيا والآخرة وقد عبث الحكم
استبدون في أهله بانتحال الرياسة فيه على كونهم قد أبطلوا اشتراط العلم الديني
وغيره في الخليفة وفي السلطان والوالي بالأولى ثم جعل بعضهم الاحكام والأعمال
والمناصب قسمين شرعية خاصة بعلماء الشرع كالقضاء فيما يسمونه الامور الشخصية
وغير شرعية وهي سائر الاحكام القضائية والادارية والسياسية ولا يشترطون في
عمال هذه الاحكام والأعمال معرفة شيء من أحكام الشرع ولا الأخذ بشيء
من أمر الدين كما أنه لا يشترط في الحاكم الأعلى من أمير أو سلطان ان يكون

قد تآتى علم التوحيد والفقه فضلاً عن التفسير والحديث . ومع هذا كله يجعل هذا الحماكم رئيساً دينياً ويجعل أمر علماء الدين في يده فهو الذي ينعم عليهم بالرتب العلمية التي يعدّ بها بعضهم فوق بعض في الدين وعلومه من غير مبالاة بالقاعدة المشهورة التي لا يختلف فيها عاقلان وهي « فاقد الشيء لا يعطيه » فلماذا صار الدين أمراً ثانوياً في أكثر بلاد المسلمين لا يحترم عند حكامه الا بقدر تعلق العامة به على حسب ما عليه العامة كالاحتفال بالمواسم الدينية والمبتدعة بينهم ركن من أركان الاسلام كالزكاة فلا يبالي به الحكام الذين جعلوا انفسهم رؤساء للدين ويسكت معهم العلماء عن ذلك فلا يقومون بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي سياج الدين لانهم على قسمين قسم مرتبط بالسلطين والامراء فهم تابعون لهم وقسم لاشان له فهو يستصغر نفسه ان تقوم بالدعوة الى احياء الدين فاذا عرف لنفسه قيمة وظهر بالدعوة فطفت العامة تحترمه نفحه الامراء بشيء من الدناير التي قاموا على خزائنها - وهي الامة لا لهم - وألقوا في عنقه ورأسه طوقاً من الفضة او الذهب (علامة الشرف) فكان لهوام من المنقادين

فلا صلاح للاسلام الا باستقلال العلماء وعدم ارتباطهم في التعلم والتعليم والارشاد ولا في الرزق بالامراء والسلطين كما تقدم

وكتب السيد في العدد الاول من ضياء الخافقين الذي صدر في فبراير (شباط) سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

أحوال فارس الحاضرة

ان اصراخ الفارس دويماً في آفاق الارض . قد أقفرت البلاد وبارت الاراضي وغارت الأنهر وتبدد الناس في شاسعات الاقطار شذر منذر . ان سواد العراق ومدن القفقاز وامصار ما وراء النهر وقرى الخوارزم وقصبات بين النهرين غصت بوجوه غيرة . ذراري الاماثل وسلالة الافاضل يكدون آناً الليل وأطراف النهار في أعمال خسية وحرف دنيئة تأنف منها النفوس وتماها الطباع . ان

الايوان بسعتها قد ضاقت على أبنائها ، ونبت بأهلها ، وليس في تلك البسيطة الرحبة
الا أخصاص حقيرة واكنان صغيرة ودور حرجة يستكنها شعث غبر رث الثياب
كانهم ينازعون الموت ويراقبون الأجل . الجور قد تمثل في تلك البلاد سلطاناً
قاهراً لا يحسد طوره ، ولا يسهر غوره . والقسوة برزت بصور بشعة وهيئات شنيعة
تقشع منها الجلود . جدع الانوف وقطع الآذان وشق البطون وجز الرؤوس
أعمال عادية وأفعال يومية لا يستغرب منها السامع ولا تبشعها الرائي . ودونها
فظائع تأبى النفوس البشرية عن استماعها ونجم دون ذكرها وتضطرب حياء وخشية
كلما خطرت في لوح خيالها .

الحكومة قهرت الشرع فأبادته ، وكهرت النظام المدني فمجته ، وازدرت
بناموس العقل والفطرة فطمسته ، فلا يسود فيها الا الهوس ، ولا يأمر الا الشره ،
ولا يقوم بالامر الا القهر والزور ، ولا يحكم الا السيف والكي والسوط ، يلذها
سفك الدماء ، وتبا هي بهتك الأعراض ، وتعجب باستلاب أموال الأراذل والأيتام ،
فلا أمان في تلك البلاد ، وان قاطنوها لا يرون وسيلة لصون الحياة من أنياب الظلم
الا الفرار ،

قد هرب خمس الايرانيين الى الممالك العثمانية والبلاد الروسية وراهم بمجولون
في الأزقة والأسواق بين حمال وكناس وزبال وسقا . وهم برثانة ثيابهم وكارحة
وجوههم وخساسة حرفتهم يستبشرون بالنجاة ويشكرون الله على بقية الحياة ...
لاحد في الأقطار الايرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس . ان
الجرائم ليست لها حقائق أحرزها الشرع وحكم بها العقل . والجزاء لا يحده حصر .
كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والتهمر . لا دستور للحكومة ولا نظام ولا
قانون . كل يفعل ما يقدر عليه وتدعو شهوته اليه ولا رادع لقضاء الحاكم ولا مانع
لحاكمه . يأخذ الجار بالجار ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل (ولا ذنب له)
كل مسؤول لديه عن الكل ...

الحاكم يقدم لاشاء على حسب عظام الحكومة وصرفها مقدسة (ييش كش)
و يلتزمها على نفسه كل سنة شكرا انوائيه (ولا شهريه له) ثم انه يأخذ من كل من

يستصحبه لخدمة الحكومة أو خاصة شخصه من مدير وكاتب ومعاون وشرطي وجلاد وطباخ وفراش وسائس وإغال مبلغاً جزاء لاستخدامه (ولا شهرية لهؤلاء أبداً) . وهذه القطيعة الضارية والضباغ الجائفة تثب فجأة على البلاد فتفترس وتنهش وتبلم وتدمر ولا شفقة تكف ولا عقل يزجر . فالويل كل الويل لقوم قضت الأقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه . . .

وان الحاكم واتباعه للاستئصال على ما نقدوه أولاً وما التزموا على ذمتهم لا يدعون في مدة الحكومة وهي غير معلومة عملاً شنيعاً وفعلاً فظيماً وأمرأ بشعاً إلا ويرتكبونها . . . يعاقون النساء بشعورهن ويضعون الرجال مع الكلاب المارقة في الجواقق ويسمرون الآذان على ألواح من الخشب ويدخلون زماماً في العرينين ويدبرون ذاك المظلوم بتلك الهبة المحزنة في الأزقة والأسواق وان أهون العذاب عندهم الكي والضرب بالسياط .

وان الحكومة الإيرانية لا تعلمون المساكر وأبست لهم لاشهرية ولا جارية فأنما تكلمهم الى قدرتهم في النصب وخذلهم في السرقة . تدبر فيما يكابده الأهالي ويقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحق . أليست هذه هي الامة الإيرانية التي سادت الأمم في زمانها ؟ أليست هذه هي الامة الفارسية التي أحيت العلوم في العالم الاسلامي وأقامت الديانة على دعامة الحق بقره براهينها وقومت اللغة العربية بعالي تصانيفها ؟ أسفا على هذه الامة كيف أبادها الجور وبددها الظلم حتى سقطت عن عداد الأمم العظيمة وكاد أن يندرس رسمها وينطمس اسمها . أين العلماء وأين حملة القرآن وأين حفاظ الشرع والقائمين بأمر الامة وأين نصراء الحق والمدل .

﴿ السيد ﴾

(يقول محمد رشيد) ألم يكن الشاه جديراً بالخوف من اظهار هذه المخازي وعاقبة ذلك التحريض ؟ أم هل يستغرب القارىء — وقد قرأ هذا — قول السلطان عبد الحميد للسيد : بحق يخاف منك شاه المعجم خوفاً عظيماً : وبلغني أن له كتابة أخرى بحرض فيها على خلع السلاطين ، ويقول فيها ان خلعها أهون من خلع النعابين ،

وانا لم أطلع على ذلك . ولكن أغايه أحد السلطانين بالدهاء وحجر عليه في الاستانة حيث لا مجال للنحريض بالقول ولا بالكتابة

قال السيد في بعض محافله بالاستانة ان الشاه ناصر الدين طغى ونجبر وبالغ في الكبر والعلو وكان كل استناده على دولة الانكليز . وذكر انه انما اختار عاصمة الانكليز لطمع فيه لاجل ان يحقر أمره في عين الشعب الانكليزي ويحفظ قلبه عليه

وقتل البنا أن السلطان كان يريد ان يرسله الى أوروبا في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك . وذكر هو أن السلطان أثنى عليه بخدمة الاسلام وقال له انني أحب ان اجعل وطنك الاستانة اذ لا وطن لك وعرض عليه ان يزوجه فأبى وقال في بعض مجالسه اني لو تزوجت لكان زواجي أغرب عند العارفين بحقيقة امري في مصر من ذهاب الشيخ عlish بتلاميذه الى أحد ملاهي الازبكية وتماطيههم كورس (البيرة) جهرا : وقد ذكرت ذلك للاستاذ الامام فقال لي انه كان قد قد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه الى ما علق آماله به من عظام الامور

وحدثني الشيخ حسين الجسر وغيره عنه انه بعد مجيئه الى الاستانة استأذن له على السلطان فقبل له انه مشغول وضرب له موعد جاء فيه فقبل له انه مشغول وضرب له موعد آخر فقال لا أعود ثم طلب بأمر السلطان لمقابله فتمنع وقال « هذه بتلك » فاقنعوه بما ذكروا له من كثرة أعمال السلطان وتقيده بالمواعيد فرضى . وان السلطان كان اذا أغضبه بعمل يرضيه بالقول وحسن المعاملة . ومن ذلك انه لما سمى به اليه بأنه أفشى سره (اي سر السلطان) الى مكاتب التيمس وكان قد زاره وان عنده ديناميت وأنه يحقر السلطان في مجالسه امر السلطان بتفتيش بيته الذي انزله فيه ففضب وذهب الى سفارة الانكليز وأراد ان يسافر من الاستانة فاستحضره السلطان بعد ذلك وقبّله وقال لا يفرق بيني وبينك الا القضاء المحتوم ثم انزله في زورقه الذي يتنزه به في بحيرة « يلدر » وما زال به حتى استجابات حيته لوقته ، واندمل جرحه بمسبوره ،

وكن السلطان يتساهل معه ما لا يتساهل مع أحد اذ يبلغه عنه من الأقوال الجارحة ما يبلغه فلا يظهر له ولا لأحد ذلك . وقد حدثني بعض من حضر مجلسه في الاستانة انه سمعه يقول « ان هذا السلطان سلّ في رثة الدولة » وكان هذا بعد إعجاب بالسلطان استمر مدة طويلة كاتب في غضوننا علماء الفرس المجتهدين واقنعهم بأن يعترفوا له بأنه خليفة المسلمين فأجابوا وكتبوا اليه في ذلك . يقال إن هذا كان ابتداء في دعوة المسلمين كافة الى الاعتصام بعروة الخلافة والقيام بتدير سياسي عظيم عرقله الشيخ ابو الهدي عليه واقع السلطان بوجوب الانصراف عنه .

مذهب السيد جمال الدين السياسي

لعل ما قلناه آنفاً هو السبب فيما اشتهر عن السيد من السعي الى جمع كلمة المسلمين على خليفة واحد فاني رأيت الناس يتناقلون هذا الرأي وقد كتبه غير واحد في الصحف المنشرة والتواريخ المصنفة . قال جرجي افندي زيدان في آخر ترجمة السيد من كتاب تراجم مشاهير الشرق (ص ٦٥ ج ٢) ما نصه :
 ﴿ آماله وأعماله ﴾ يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوّب نحوه أعماله ، والمحور الذي تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا السعي جهده واقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا ، اه المراد

والصواب أنه كان له من حياته مقصدان (احدهما) علمي وهو تنبيه المسلمين الى الاصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة (وثانيهما) سياسي اجتماعي وهو ما بينه الاستاذ الامام في ترجمته (ص ٣٤) وهو ترقية دولة إسلامية أية دولة كانت وحسبك انه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الإمارة المصرية فقد كان يرمي الى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كأحسن البلاد الاوربية . ثم تعلق أمله بالسودوان ، ثم بلاد إيران ، ثم بالدولة العثمانية .

(١٠ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

أما شأنه في مصر فظاهره معروف في الجملة وقل من يعرف أسرار الخفية ، ومقاصده السياسية ، وقد علم بعضه مما تقدم ونزيده بيانا فنقول
 نقلنا فيما مر من هذه الترجمة (ص ٣٥ - ٣٨) نبذة من كتاب اسباب الحوادث العرابية للاستاذ الامام ين فيها ان السيد جمال الدين هو موجد النهضة الاجتماعية بمصر (من الجهتين العلمية والسياسية) وقد بين بعد ما تقدم نقله ما كان من الارتباك الشديد في المالية المصرية بإسراف إسماعيل باشا وسوء تصرفه وتشكيل لجنة مختلطة من وكلاء الدول لذلك سميت « لجنة التفتيش العليا » وتعين وزيرين اوروبيين احدهما انكليزي للمالية والاخر فرنسي للاشغال العمومية فكان ذلك مع حكم المحاكم المختلطة على الخديوي في مسألة مالية وتنفيذ الحكم بالقوة رغم إرادته مما أعان على تنبيه أفكار المصريين وبين لهم ان حاكمهم قد يقع تحت الحكم وان سلطته ليست إلهية تعلق قوى البشر . ثم أفاض في بيان سوء الحال وذكر حادثة الضباط التي توسل بها إسماعيل الى قلب وزارة نوبار باشا مع بقاء الوزيرين الاوروبيين ثم توسله باعيان الأمة الى عزلها وخبر الائحة الوطنية التي عملت لاجل ذلك وما كان من تنبيه الناس الى ان حاكمهم قد يحتاج اليهم في الدفاع عن سلطته (وهذا مما كان يفتنمه السيد جمال الدين)

بعد هذا ذكر ما كان من سعي نوبار باشا في اوربا لعزل إسماعيل وأشار الى ما كان من سعي جمال الدين لذلك بمصر لما كان بينه وبين ولي العهد (توفيق باشا) من الموطاة على الاصلاح اذا صار الأمر اليه . قال بعد ذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأمورا فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على عزل إسماعيل ما نصه : « ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (أي إسماعيل) بعيدا عن كرسي الخديوية ، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله . وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخبرات في هذا الأمر فسعى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدوايتين لا بد ان تنالا ما تطلبان

عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شي بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبأنوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح (١) ويسعى اليه وأن الاصلاح لمصر لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر » اه

ثم ذكر ولاية توفيق باشا وما تشبث به من الاصلاح في اوائلها ومنه شروع شريف باشا في وضع قانون اساسي لمجلس النواب ومعارضة الاوربيين لاسيما وكلي فرنسا وانكلترا لذلك وذكر انشاء جمعية في الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » لم يكن فيها مصري حقيقي وانما كان أغلب أعضائها من شبان اليهود ثم انشائها جريدة (مصر الفتاة) المتطرفة في الانتقاد والوعظ والارشاد ثم قال مانصه :

« لكن ما حظ الاجانب في مصر من اطلاق الحرية للمصريين ونحو يلهم الاصلاح المرغوب؟ لو صح شأن المصريين واستنارت عقولهم وكان لهم رأي في ادارة بلادهم هل تزيد الضرائب ويضيق على الفلاح في ادائها حتى يأخذ المائة بمائة في بضعة اشهر وهو انما يأخذها من الاجني؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للاهالي سعادتهم هل يمكن للاجانب ان يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذي يتمتعون به تحت السلطة الاستبدادية وان يكونوا حكاما في اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين في مصالحهم؟ ماذا اصاب الاجانب في عهد الاستبداد مما لا يحبون حتى يطلبوا الخلاص منه؟ نعم قد يصح هذا اذا امكن ان يكونوا ملائكة قدسين يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم ويزهدون في المنافع الخاصة بهم اذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم وان يكون ذلك الطلب مبدءا توبة عما اتوه من قبل

« وسواء صحت هذه الأقول أو لم تصح فالمحقق الذي لا ريب به ان وكيل دولة فرنسا عند ما أحس بمقاصد الخديو وميله الى مشايعة الاحساس العام أخذ

يسعى في إقامة الموانع دون ذلك ودعا وكيل دولة انكلترا للاتفاق معه في اقناع الخديو بمضرة هذه الأوضاع الجديدة في الوقت الحاضر وقت الارتباك في المسائل المالية وان دخول النواب في تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق حل المشاكل الموقوفة لتشتت الآراء وافناء الوقت في المداولات لو تم ذلك وبقاء هذه العقد في الحكومة بدون حل سريع قد يؤدي الى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام . وساعدهم على ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجنب الخديوي ولقرب حادثة الخديوي الاسبق من الأذهان وظهور السبب فيها تأثر الخديو الجديد بهذه الأدلة ومال الى غير ما أظهر للعامة في أول الأمر وصمم على رفض مشروع الاصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا وعندما عرض عليه رئيس النظار ما وضعوه في مشروعهم عرضاً غير رسمي ظهرت عليه علامات النفور منه غير انه لم يقطع بعدم قبوله الى ان جاء الفرمان وتلي في احتفال عظيم وذهب المندوب السلطاني الى الاسكندرية ليتوجه منها الى الاستانة يوم الأحد غاية شعبان سنة ١٢٩٦ فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديو حضرات النظار فوفدوا عليه وبعد قليل قدموا استعفائهم فقبل وانصرفوا والسبب الصحيح لاستعفائهم ان شريف باشا صمم على تنفيذلائحة الاصلاح ورأى حضرة الخديو السابق ان الاصلاح على هذه الصورة سابق وقته فلم يقبل ما عرض عليه فاستعفت النظارة وشكل الخديوي نظارة جديدة تحت رئاسته

« بذلت مساع كثيرة في اخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة الى الاصلاح الجديد لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعي وكثر القيل والقال في ذلك وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ في مصر يظنون ان محرك هذه الافكار وباعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول للنظام انما هو الشيخ جمال الدين فتقدموا الى الجنب الخديوي باقامة الادلة على خطر الرجل واخافوه منه (١) كما اخافوه من النظام نفسه وكان التخلص من النظام باستعفاء الوزارة . اما التخلص من الشيخ جمال الدين فكان بنفيه سادس رمضان اخذ في الطريق آخر الليل وهو

ذهب الى بيته هو وخادمه وحجز في الضبطية ولم يمكن من أخذ ثيابه . وبعد ان اتشر ضياء النهار حمل في عربة مقفلة الى محطة السكة الحديد ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ومنها انزل في البحر ليسافر الى بمباي فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه والوقت صيف والحرارة شديدة حتى تقرح جسده ولم يكن معه من النقود اكثر من ثلاث جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة وهذا المبلغ اخذ منه في السويس فنزل البحر ولم يكن معه شيء . ولما شعر بذلك احمد بك النقاوي وكان قنصل دولة ايران في السويس ذهب لتشيعه وعرض عليه مبلغا وافرا من النقد فأبى ان يأخذ منه شيئا (٢) هذا ما رواه احمد بك النقاوي وواقعه عليه الشيخ جمال الدين عند ما سئل عن ذلك بعد عودته من الهند الى اوربا . وثاني يوم سفر الشيخ جمال الدين ذهب بعض تلامذته الى بيته فوجدوا بعض اعوان الضبطية يسيئون كبه فدهشوا ورجعوا وكان عنده كتب كثيرة في فنون شتى فاختار منها اعوان الاصلاح وحفظه الأمن ما اختاروا لأنفسهم وحشوا بالباقي بطون الصناديق وارسلوه الى بندر أبوشهر من بلاد ايران ظنا منهم بأن صاحب الكتب ذهب الى ذلك الغروب بيت الكتب في مخزن الجمر ك هناك الى ان اكملها المثلث هنيئا مريئا .

« اذ كر هذه الحادثة لما كان لها من الازالسي في افكار العامة قد ذكرتهم بالايام السالفة واحيت ما كان قد مات من ذكرى حوادث المقتش وغيره وفجعت آلامهم بشدة هائلة وقسوة شديدة نزلت بمن كان يقول له الخديوي قبل الحادثة بأيام على مسمع من الحاضرين

« انك أنت موضع أمني في مصر ايها السيد »

« فاین موضع هذا العمل من الاصلاح الذي كان ينادي به الجتاب الخديوي في اوامره العالية وينعش بذكره ارواح الخاصة من الماثلين في حضرته ويمتهد في ابلاغ البشرى به الى الكافة؟ اليس من اول مبادي الاصلاح تقرير الأمن على النفس وكفالة الحقوق بالعدالة ومنى يكون الامن اذا لم نحقق التهم ، ولم يسأل المتهم ، ولم تتضح الجناية بادلتها الصحيحة ولم تقدر العقوبة بقدرها

« لا ريب ان الاتزعاج بنفي الشيخ جمال الدين كان عاما، والكدر كان تاما، ولكن الجنب الخديو أظهر سروره مما فعل وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار في رمضان فظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل في محضر الشيخ جمال الدين وألزمت الجرائد بنشر الامر الصادر بالنفي وفيه من التقريع الشديد ما لم يكن يستحقه الرجل كما انه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه فنشره البعض وابت احدى الجرائد نشره لان محررها كان من تلامذته فعطلت . على ان هذه الشدة، لم تزد الافكار الا حدة، ولا اللسان الا جرأة، ولا الاحساس بضرورة الاصلاح الانموا وظهورا » اه المراد هنا من كلام الاستاذ الامام في كتاب اسباب الثورة العرابية وهو مؤيد بما تقدم في ترجمة اديب بك اسحق وسليم بك العنحوري للسيد

هذا شيء من التفصيل لعمله السياسي في مصر فهو الذي نفخ فيها روح الحياة المعنوية ونقلها من طور الى طور ولكنه تركها في سن الطفولية وخلف عليها وصيه ووارث علمه وحكمته الاستاذ الامام كما صرح بذلك عند سفره فاستقل بتريتها من بعده كما يعلم ذلك بالتفصيل من هذا الكتاب

وأما ما قصد اليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندره أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال . فقد عظم أمر محمد أحمد القائم بدعوى المهديّة بالسودان في نفوس الانكليز وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان الى انكلترا من الاخبار حتى اقنعا الحكومة الانكليزية بإخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها الا مجيء البرق بنبأ وفاة محمد أحمد

وقد كان لهما رحمهما الله من المساعي في مسألة السودان وتمهيد السبل الى العمل فيه بعد ترك الانكليز له . الا فائدة في بيانه . ويجد قارئ كتب الاستاذ الامام الى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى إشارات في بعضها الى بعض ذلك كما ترى في الرقيم ٦ من كتبه الإصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني)

وأما إيران فقد علم القراء بعض نبأه فيها من الفصل الذي قبل هذا فهو نافخ روح الحركة التي تقيم البلاد وتقعدها الآن

وجملة القول انه كان العامل الاول في هذا الانقلاب الاجتماعي الذي حصل في مصر من نحو ثلاثين سنة والمنبه الأول الى الانقلاب الذي حصل في بلاد فارس وسعت الاستاذ الامام يقول « ان السيد لم يعمل عملاً حقيقياً الا في مصر » ولا غرو فهو المزلزل الأول لجود الازهر والمصلح الاول للتعليم الاسلامي فيه بتريته للاستاذ الامام وواضع المعول الاول في أساس بناء السلطة الاستبدادية بمصر ومؤسس الحزب الوطني لايجاد حكومة أهلية صالحة - وقد كانت البلاد تشتغل بالعلوم الاوربية من قبله عشرات من السنين في غير ان يفكر احد فيها بشيء من هذا وقد كان من اسباب فشله والعوائق دون إتمام عمله بناء سياسته على عداوة انكلترا ومقاومة فتوذهما في الشرق وله في ذلك مقالات كثيرة سنورد طائفة منها في جزء آخر نجعله ملحقاً لهذا الكتاب مع طائفة أخرى من مقالاته في الفلسفة ومقاومة الاستبداد

فلسفة السيد جمال الدين

لا تزال فلسفة اليونان والعرب تدرس في بلاد الأعاجم ولكن قل من يقرأها في البلاد العربية كمصر والشام . وقد تلقى السيد جمال الدين الفلسفة العربية القديمة في بلاده ثم تلقى شيئاً من الفلسفة الأوربية والرياضيات على الطريقة الحديثة في الهند وكان قد تصوف قبل ذلك علماً وعملاً فكانت فلسفته مزيجاً من التصوف والفلسفة القديمة والحديثة أي كان له رأي خاص في العلوم العقلية وعلم النفس والاخلاق وعلم الوجود والتكوين يستدل عليه ويفند رأي من يخالفه ولا معنى لفيلسوف الا هذا

مذهب فلاسفة الافرنج في الوجود قريب جداً من مذهب الصوفية القائلين بالوحدة وكان السيد يميل الى هذا المذهب كما أشار اليه الاستاذ الإمام في ترجمته . ولا بد من التنبيه هنا الى ان مذهب السادة الصوفية قد اشتبه على كثير من المتأخرين بمذهب الباطنية الزاعمين ان الله تعالى يحل في بعض البشر سبحانه

وتعالى عما يصفون . والفرق بين المذهبين دقيق ، لا يحصيه الا أهل التحقيق ،
ف للصوفية كلام في أنفسهم وفي شيوخهم ، يشبه كلام الباطنية في أئمتهم ، ومن ذلك
قول الاستاذ الامام في خطاب السيد (رحمهما الله تعالى) « أوتيت من لدنك
حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول » الخ (راجع ص ٥٢٦ من الجزء الثاني)
فان كنت لا تعرف مذهب الباطنية حق العلم ومذهب الصوفية حق العلم ولا تدري
ما يريدون بالظهور والبطون والتجليات والتنزلات والمنازلات فأربأ بنفسك ان
تكون من أهل الدث والرجم ، وان تقفوا ما ليس لك به علم (١٧ : ٣٦ ولا
تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً)
كذلك يشبه على الجاهل الفرق بين رأي السيد في النشوء ورأي داروين قد
حكى الاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات مانصه :

« بين حفظه وأثبت ان الانسان نوع من انواع الحيوانات الارضية (لا كما
يزعم ارباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من انهم ابناء السماء فليترك من
له فطنة) وانه قد أتى حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ، ويسير في
في عيشه سيرتها ، يتغيا ظلال الاشجار ، ويستكن في الجحر والاوكار ، ليس له شعار
ولا دنار ، ولكن خفيف اشعار ، يقات بنيات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على
يد القوى الطبيعية ، لانفسها يد صناعة ، ولا تربية اجنبية ، ليس له من المكر
والتخيل الا مالا يداني فيه الثعلب ، ولا من العلم والتدبير الا ما يعثه على الغدو
لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار ، والرواح للاستكنان من كن يواريه عن
أعين الحيوانات العادية ، والفرار من المكاره الحسية ، كما تفر الشاة من الذئب ،
والارنب من الثعلب ، ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود ،
ويقويه متحكما في كل موجود ، ويدعوه للحكم بانه خلاصة العالم ، ومتهى سير
الحقائق وعمار عالم الكون ، وان جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لاجله ، والكواكب
والسيارات إنما تتحرك لخدمته » الخ ما أثبتناه في مقالة فلسفة الصناعة من جزء
المنشآت ، (راجع ص ٣٠ ج ٢)

فاذا قابلنا هذا القول برده على مذهب دارون وعلى الماديين الذين يقولون

انه لا فرق بين الانسان وبقية الحيوانات يتجلى لنا ان مذهبه وسطي بين المذاهب في ذلك وهو ان الانسان حيوان مترق من جهة وملك ارضي من جهة أخرى اي انه جامع لخواص الجنسين . وقد قال في رسالته في الرد على الدهريين مينا خواص اعتقاد اهل الدين بأن الانسان ملك ارضي وانه اشرف المخلوقات في الأرض (اي لا في العالم كله) مانصه :
 « فما يلزم الاعتقاد بان الانسان اشرف المخلوقات ترفعُ المعتد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية ، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ، ولا ريب انه كلما قوي هذا الاعتقاد اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلي ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بافرا الحفظ حتى قد ينتهي به الحال الى ان يكون واحداً من اهل المدينة الفاضلة بجبا مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الانسانية في الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

« فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية في معيشتها ، والثيران البرية في حالتها ، ومضاربة البهائم السائمة ، والدواب الهائلة ، والهوام الراشحة ، لا تستطيع دفع مضرة ، ولا التقية من عادية ، ولا تهدي طريقا لحفظ حياتها ، وتقضي آجالها في دهشة الفرع ووحشة الانفراد

« هذه العقيدة أشد زاجر لآبناء الانسان من التقاطع المؤدي لاقراس بعضهم بعضا كما يقع بين الاسود الكاسرة ، والوحوش الضارية ، والكلاب العاقرة ، وأشد مانع يدفع صاحبها من مشاكلة الحيوانات ، في خسائس الصفات ، وهذه العقيدة احجى حاد للفكر في حركاته ، وأنبج داع للعقل في استعمال قوته ، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل

« إن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، والى أي حد تصل بهم الشرور ، وبأي منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف ان السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية »

رأي السيد في اصلاح حال المسلمين

كان يرى ان المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية ودول عزيزة الا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به وما ضعفوا واستكانوا بعد ذلك الا بسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه وأنهم لا يرتقون ولا يعتزون إلا بحسن فهمهم له ونهوضهم به واستقامتهم عليه وهذا الرأي معروف عنه . وقد كتب اللي الشيخ عبد القادر المغربي من الالستان سنة ١٣١٠ انه زاره مرقين أو ثلاثا وانه كان مما دار بينه وبينه ما يأتي بالص الذي كتبه المغربي يومئذ :

« قال (السيد) ان بطرس برج وفيينا كيلريس في حسن الانتظام والزخرف وان فينا أكبر من الالستان . قلت الالستان منذ ثلاثين سنة لم تكن هكذا بل كانت متأخرة من عدة وجوه فهي لا تزال تتدرج في مدارج المدنية لاسيما باهتمام أفندينا وليّ النعم وهذا يدل على ان المسلمين عن قريب يلغون من التمدن والترقي ما بلغت اليه أهالي البلاد الغربية . فقال اذا لم يبن قدما وعمدا على قواعد ديننا وقرآنا فلا خير لنا فيه ولا يمكن أن نتخلص من ربة الانحطاط والتأخر . قلت إذا نظرنا الى حالتنا منذ ثلاثين سنة وقابلناها بما نحن عليه الآن نرى يونا عظيما . فقال : ما تراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهرا هو عين التقهقر والانحطاط لاننا في تمدننا هذا مقلدين للام الاوربية وبسبب ذلك يخشى علينا بدمر من غير طویل ان نمنع للذل والسلطة الاجنبية أو تبدل صبغة الدين الإسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلب الى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة .

« قلت ما الطريقة القويمة التي ينبغي ان نسلکها لتوصل للتمدن الحقيقي ولمساواة شعوب اوروبا ؟ فقال لا بد من حركة دينية لاننا اذا نظرنا في سبب انقلاب حالة عالم اوروبا من الخشونة الى المدنية نراه الحركة الدينية وذلك منذ عصر لوثيروس رئيس الطائفة البروتستانية فانه لما رأى اهل اوروبا تعتقد في البابا اعتقاداً يوجب عليها الخضوع له والاستكانة لاوامره وغير ذلك من الاعتقادات المسيحية الفاسدة

قام بتلك الحركة الدينية التي نشأ عنها الانقسامات بين الشعوب وجعل كل شعب يغار من الآخر ويحارب به في سلوك سبل النجاح . وخلاصة الامر ان تمدن أوروبا ينسب الى تلك الحركة ومبدأه من ذلك العهد

قلت ان دينهم فاسد فأصلحوه وديننا بحمده تعالى للآن محفوظ من التبديل والتغير فكيف تكون حركتنا الدينية وعلى اي شيء مبناها ؟ فقال حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ان لا يتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذل ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الإصلاح والنجاح ومثل . . . ومثل . . . فلا بد من بث العقائد الدينية الحققة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على محاملها الصحيحة التي تقودهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى . ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قرينة المأخذ سهلة الفهم لتستعين بها على تقدمنا لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته كعلم النحو والبلاغة يصرف الانسان جلّ في حياته الاشتغال فيها ولا يقتدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم في نفسه من الافكار والامور التي يرجع اليها لإصلاح في الوطن وتعزيز للدين وهوية للامة

« وهنا شرع في بيان سوء اشتغالنا في العلوم على غير طائل حتى ان الغير اهتدى الى لب تلك العلوم واستعان بها على تهويم اعوجاجه وتركنا نحن نتخبط في مهامه الخيرة والغفلة وتيه في فياقي الجهالة غير مباليين بما ينجم عن ذلك من الدمار والانعحاء من صفحات الوجود » فلا بد إذن من الحركة الدينية ، ، ، اه ما كتبه المغربي من محاورته مع السيد

وهكذا كان السيد يدعو كل من لقيه من المسلمين الى الإصلاح الديني ويخاطبه في ذلك على قدر فهمه ولا شيء من آثاره ينجلي فيها ذلك الا العروة الوثقى التي عرفنا منها مذهب هذا على ما فيها من الاجمال ولكن الاستاذ الامام هو الذي كان يسلك مسلك التجلي والتفصيل ، وهو المثال الكامل الذي عرف به فضل جمال الدين

﴿ عشق المؤلف للسيد وكتابه اليه ﴾

نشأ مؤلف هذا الكتاب نشأة دينية صوفية فحب اليه النسك والتحنث منذ سن المراهقة بل التميز وكنت لا يلذ لي شيء كقراءة أخبار الصالحين والذكر والصلاة وهديت الى قراءة إحياء العلوم قبل طلب العلوم فأكبت على مطالعته مع مطالبة النفس بالعمل به ثم اشتغلت بطلب العلوم ولم أترك التصوف بل سلكت معه طريقة النقشبندية فنفعتني التصوف في طلب العلم من جهة واضربني من جهة أخرى فأتيت رغبة عند دخول (المدرسة الوطنية) عن درس اللغتين التركية والفرنسية لاعتقادي يومئذ انه ليس في دراستها فائدة دينية ولا هما مما يطلب لوجه الله عز وجل

وقد غلب عليّ الزهد وبغض الحكام والمُسرفين من اهل الدنيا حتى كنت انكر على من أراه منهم كل منكر يأتيه . فانكرت على والي بيروت مرة إساءة صلاته وهو في مسجد « السراي » بطرابلس حتى لامني على ذلك بعض العلماء الرسميين وانكرت على كثير من رجال العدلية وغيرهم سيرتهم وحملهم للساعات والسلاسل الذهبية وغير ذلك

ثم اتفق لي ان كنت اقلب في اوراق والدي (رحمه الله تعالى) فرأيت عدد من جريدة العروة الوثقى ققرأتهما بشوق ولذة ففعلاً في نفسي فعل السحر فطفقت أبحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي فاستنسخت الجميع وقراءته المرة بعد المرة فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي وهو انه ليس روحانياً أخروياً فقط بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي من مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل ،

وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيمهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا . وكنت مجداً في ذلك حيث

كنت حتى اذا ما اردت ترويح النفس في بعض قرى الكورة (من لبنان) أخذت معي مثل كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) لأتوكأ عليه في المواعظ التي كنت أُنْهَى في كل مجلس فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة الى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأم العزيرة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة فطقت أستعد لذلك استعداداً

و كنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده وعمما قيل فيهما وما كتب عنهما . و كنت اناضل دونهما وادافع عنهما بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ احد على الطعن فيهما أمامي . ولما اشتدت المنافسة بين السيد وبين الشيخ ابي الهدى افندي في الاستانة وصار بدري باشا احد انباء ابي الهدى متصرفا في بلدنا (طرابلس) وكان ما كان لصنائعه بني الانجا من النفوذ والبغي كنت في دفاعي عن السيد عرضة للايذاء ولكن ذلك لم يحولني عن مذهبي حتى إني جاهرت بذلك في دار بدري باشا على مسمع من مصطفى باشا الانجا . و اني اذكر هنا صورة الكتاب الذي أرسلته من طرابلس الى الاستانة وهو يمثل حالي في ذلك الوقت تمثيلا بينا وهو بحروفه :

كتاب المؤلف الى السيد جمال الدين

(في سنة ١٣١٠)

الحمد لله على افضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وعلى سيدي بل السيد المطلق ، ذي القدح المعلي والجواد المصلي السابق ، سدره متهي العرفان ، وجنة مأوى المحاسن والاحسان ، الذي له في كل جوة متنفّس ، ومن كل نار مقتبس ، الامام المفرد ، والعقل المجرد ، حجة الاسلام ، وعلم الأعلام ، أخطب الخطباء وأبلغ الكتاب ، من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، بدل الأبدال ، سيد الآل ، الانسان الكامل ، الوارث الكامل ، المرشد الكامل

مهيّط الفيض مصعد الكلم الطيب ب مجلى سر الجمال الأكل

جمال الدنيا والدين ، وبقية رجاء المسلمين ، أيده الله تعالى ، وزاده رفعة وكمالا ان فرط الشغف بالجمال ، ومساهمة بالانتساب للآل ، قد حملاني على غارب الجرّة

والإقدام على خطابه خطاب نسيب لنسيب، ومحبل لحبيب، ومغادرة الأحرى بل الواجب الذي لا تخير فيه من مخاطبته مخاطبة مملوك لمليك كريم، وخادم لسيد عظيم، وعليه قلت :
اني منذ لاحت على مخايل التميز ما نمي الى خبر ألد وأشهى، ولا انبل واسمى،
من خبر سيدي (جمال الدين) نبأ عظيم غرس في قلبي حبة الحب والشغف وسقاها
بماء الحياة فنبت نباتا حسنا، وامتدت أغصانها، وتشعبت افنانها، حتي لم تذر في أرض
الجسم ذرة من دقايقه الا وجذورها راسخة فيها . شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في
السماء توّتي أكلها كل حين بإذن ربها، جنبت منها ثمرة حب الحكمة واقتطف
الناس منها ثمار الثناء، على حكيم الحكماء، أعزه الله تعالى . ولم تزل تنمو بنموي حتي كأنها
من عناصر جسدي، وتقوى بقواي العاقلة حتي كأنها من مقومات ماهيتي، وهي الآن
أرسخ الملكات في نفسي : لا أتبوأ مجلسا ولا أفيض في كلام الا ويكون ذكر الجمال
فاتحته أو ختامه، أو متخللا أجزائه وأقسامه، ان لم يكن هو موضوع الكلام، حتي عرفت
بين المعاشرين، بعاشق جمال الدين، وربما دعاني بعض الاصدقاء بالداعي له (واحد
الدعاة) لا سيما وأنا أعد له ما يعدّ عليه (كدخول الماسونية والجلوس في الاماكن العامة
وطول الإقامة في أوربا وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الاسلامية)

إني حتي الآن لم أقف على شيء من سيرة سيدي الا ما كتبه سليم أفندي العنحوري
في كتاب له خلط فيه الخطأ بالصواب : وما تقل في متخبات اديب بك اسحق وما
كتبه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده (حياه الله تعالى) على رسالة سيدي في
النسبة بين الدين والكفر في العمران (١) ولم أحظ بشيء من آثاره النفيسة إلا
الرسالة المشار اليها آنفا وتاريخ الافغان والاعداد ١٨ التي صدرت من العروة الوثقى
هذا كل ما ارويّه وأورثه عن سيدي وهو ان كان قليلا بالنسبة لمن أضرّ به
الظما فلا يكتفي بقليل من الورود لكنه لا يقال له قليل بالاضافة لما فيه من عظيم
الفائدة التي لا يغني عنها لقاء المئين والالوف من المشيخة ولا مطالعة أسفار المتقدمين
والتأخرين في الفنون العديدة

(١) انني منذ اطلعت على هذه الرسالة وسمتها بهذا الوصف الذي ذكرته لمؤلفها

فله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ماهبت نفحة من معارفها في
جوت قوم الا ونفخت في رمهم روح الفضل ، ولا تدقت امواه فضائلها في ارض امة
الا وجرفت منها ادران الجمل ، بل اقول لا تنبث من ذلك الذهن المشتعل بالانوار ،
ذرات الفكر في فضاء قطر من الاقطار ، الا تكون منها في سماء العقل من كواكب
العرفان ، ماهو افيد من النظام الشمسي في عالم الحس والعيان ، وعلى هذا فما
اجدركم بقول القائل

أبدأ تحن اليكم الارواح ووصالكم ريحانها والراح

وما أعذرتني وأنا أعد قربكم أفضل القربات ، ولقاكم غاية انغيات ، واني اسير
كتابي هذا ليكون مستمعا عواطفكم ، ومستجديا مكارمكم ، قبولي لديكم بصفة مرید
يتلقف الحكمة ، وتلميذ يقوم ببعض الخدمة ، يساهمكم السراء والضراء (وقاكم
الله) ويسايركم في الزعزع والرخاء (حاكم الله) ولا أراني ارد عن أبواب فضلكم
فما جزاء من احب الا ان يحب وللرحم حقوق مثل سيادتكم من يراعيها ويصلها
ثم ذكرت له في آخر هذا الكتاب ماخص ترجمتي ولا حاجة الى اثباتها هنا
على اني لم أجدها كلها فقد كنت كتبت لهذا الكتاب مسودة بقلم الرصاص على ورقتين
فهدت مني الصغرى منها وفيها تمة الترجمة وعبرة اخرى اتذكرها بنصها تقريبا وهي
قولي في الاعتذار عن عدم المبادرة الى الرحلة اليه في الاستانة « لاني اعتقد
ان القسطنطينية على سعتها بل المملكة العثمانية بما رحبت لا يفسح فيها لسيدي مقام
لأن ممالك الشرق امست كالمریض الاحمق يأبى الدواء ويعافه من حيث إنه دواء »
وقد كتب الي الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة أنه اجتمع بالسيد وانه
ذكر كتابي اليه فاثني عليه مبالغا في الثناء وأمره ان يبلغني ذلك معتذرا عن عدم
الكتابة الي بانه ليس عنده قلم ولا دواة ولا ورق (اي كان ممنوعا عن مكتابة
الناس او ممتنعا عنها حتى لا يسوء ظن السلطان به) وذكر لي احمد بك رشوان
وغيره ممن كان يتردد عليه من المصريين أنه كان يثني على هذا الكتاب وعلى
صاحبه ويقرأه لزاثيره المرة بعد المرة . ولا سبب لذلك الا اخلاص الكاتب
وشعور المكتوب اليه بذلك

﴿ نهاية امره في الاستانة ﴾

ذكرنا خبر مجي السيد الى الاستانة وحفاوة السلطان به . وقد كان لما طلبه السلطان من لندرة تمنع وكان ممن كتب اليه واجتهد في اقناعه الشيخ ابو الهدي افندي الشهير وكانت المادة بينهما في أول مقدمه شديدة وانخدع السيد بحفاوة ابي الهدي واجلاله له فأحسن به الظن كمعاداته فكان يثني عليه ثم لم يلبث ان قلب له ظهر المجن ومحل به عند السلطان وعرقل عليه عمله في شد او اخي الاخوان بين العثمانيين والفرس أو بين اهل السنة والشيعة ووسوس للسلطان في شأنه ماشاء ان يوسوس حتى قويت رييته فيه وجعله موضع الظنة واكثر من العيون والجواسيس حوله حتى ضاق صدره وناهيك بحياة من كان اشد الناس حرية وعزة في ضيافة السلطان عبد الحميد وتحت مراقبته مراقبة من يخشي منه على المملكة او الخلافة !!!

حدثني الثقة قال حدثنا السيد جمال الدين بالاستانة فقال مامثاله : ان الخديو كان شديد الرغبة في لقائي لما كان يسمع غني من اولادي واحفادي بمصر فارسل الي في ذلك فقلت لا بد في ذلك من اذن السلطان فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال الماين فكانوا يرجئون ويسوفون ويجمعون في الجواب ولا يفصحون وينا انا جالس في الكاغدخانة (متنزه مشهور في الاستانة كالجزيرة بمصر) أصيل يوم من الايام كمعاداتي واذا أنا بفارس قد اقبل علي وترجل مسالماً فقلت من انت ؟ قل عباس حلمي . فكثنا ساعة زمانية نتحدث . وطار الجواسيس الى السلطان بالخبر فارسل الي فلما لقيته قال : اريد ان تجعلها عباسية ؟ فقلت ان بني العباس قد انقرضوا وبنو علي أولى ، ثم قال ان مولانا يريد عباس حلمي وهل هي خاتم يدي فأضعها في اي إصبع شئت

وذكر غير هذا الراوي ان السيد لم يفهم ان السلطان يريد بقوله « أنريد ان تجعلها عباسية » جعل عباس حلمي باشا خليفة فأجاب بما أجاب . وكنت عند سماع الرواية الأولى فهمت انه قال ذلك أولاً على سبيل المغالطة . فبمثل هذه الأوهام

كان شياطين الانس يوسوسون للسلطان ويخوفونه من السيد حتى حرم الاستفادة منه

وحدثنا الثقة أيضاً ان السيد جمال الدين كان يركب عربته كل يوم بعد العصر فيذهب الى الكاغدخانة ففطن لجاسوس كان يتبعه ماشياً فقال لجماعة السلطان في نفس الماين انكم قد أعطيتوني مركبة وجعلتم لي جاسوساً بغير مركبة فاذا أنا أسرعت بعربي طفق يعدو ورأيي وهو يلهث كالكلب ولا يدركني فهلا رحتموه فأعطيتوه عربة ليدركني أنى سرت ؟



﴿ هذه آخر صورة للسيد قبل مرض وفاته ﴾

وقد بالغ الشيخ أبو الهدى في عداوته والكيد له حتى كان يسمى في ايذاء من يذكره بخبر أينما كان من بلاد الدولة . وكان يطعن في نسبه ودينه كما هي عادته فيمن يستاء منهم فانه يجردهم من اللباس الذي فصله وخاطه لنفسه ولمن يرضي عنهم من انصاره . وقد كتب إليّ في ٢٩ رجب سنة ١٣١٦ كتابا قال فيه « اني أرى جريدتك طافحة بشقاق المتأفغن جمال الدين الملققة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زورا وقد ثبت في دوائر الدولة رسما انه ما زندياني من اجلاف الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » وكذلك قال الشيخ أبو الهدى في امام الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي هو من أشهر الشرفاء ، في كتب لفقها باسماء الاموات والاحياء ، ولا ندري في أي دوائر الدولة يسجل شتم الناس فنصدق خبر أبي الهدى كذلك كان شأنه في الاستانة في آخر أيامه بمساعي أبي الهدى الى ان توفاه الله اليه



وهذه صورة السيد بعد العملية الجراحية

﴿ خبر مرضه ووفاته ﴾

المشهور انه أصابه وجع في احدى اسنانه أو أضراره فأشار الطبيب بقلعها فحصل له التهاب في موضعها كان يعالجه له الطبيب ثم ظهر في فكه السرطان فعملت له عمليات جراحية فلم تغد ولم يلبث أن توفي على أثرها فشاع في كثير من البلاد انه مات مسموما كما شاع مثل ذلك في موت الاستاذ الامام وموت السيد عبدالرحمن الكواكبي ولما توفاه الله تعالى صدرت الارادة السلطانية الى الجرائد العثمانية بأن لا تكتب في شأنه شيئا بل ضبطت الحكومة في سوريا جميع الجرائد والمجلات المصرية التي أبنته واعني غير الممنوع منها كالهلال والبيان . وإنا نختم الترجمة ببعض ما كتبه الصحف المصرية من خبر مرضه وموته

جاء في المؤيد الذي صدر في ٥ شوال سنة ١٣١٤ و ٩ مارث سنة ١٨٩٧ مانصه
 « علمنا من اخبار الاستانة العلية ان صحة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني في غاية الاعتلال شفاه الله وعافاه . وقد اقطع حضرته عن الكلام بالمرّة إثر العملية الجراحية الثالثة التي عملت له أخيرا فقطع فيها جزء من لسانه واستنصل الفك الاسفل . وجلالة دولتنا السلطان قد كاف جملة من أطبائه الخصوصيين بعيادته على التناوب ويرسل الاستفسار عن صحته كل وقت رسلا وكثيرا ما يتوجه عطفوا وعزت بك (العابد) من قبل الحضرة السلطانية لعيادته فيجد فضيلة السيد من هذه العاية ما يخفف آلامه لطف الله به

وفي العدد الذي صدر في ١٠ شوال و ١٥ مارث مانصه

انا لله وانا اليه راجعون

« نعت الينا أخبار الاستانة العلية المغفور له الاستاذ الفاضل والفيلسوف الشهير السيد جمال الدين الافغاني .

« توفي رحمه الله في الساعة ٧ و ١٣ دقيقة من صباح يوم الثلاثاء الماضي خامس

شوال (٩ مارث) الماضي (كذا) حيث كان يعود كثير من الحاشية والخدم الذين خصصهم له مولانا السلطان الاعظم في منزله يشكطاش

ولما حضرته الوفاة كان في خدمته كذلك حضرة جورج افندي كوتشي أحد موظفي محافظة مصر سابقا حيث يقيم معه من مدة وهو الذي نعاها الى المايين الهمايوني فصدرت الارادة الشاهانية الى سعادة حسن باشا ضابط بشكطاش ان يعد جنازته ويشيعها بالاحتفال اللائق . وبلغ الخبر جماعة من حضرات العلماء الاعلام فبادروا الى منزل الفقيد كما بادر اليه كثيرون من رجال الدولة وبينهم سعادة سهل باشا نجل دولتو فضل باشا العلوي وحضرة علي بك راغب المصري من ضباط البحرية العثمانية وقد شيعت جنازته بالاحتفال اللائق حيث دفنت جثته في قرافة « شيخلرمزارغني » أي مقبرة المشايخ

« ولقد أسف جلالة السلطان عليه شديد الأسف كما حزن عليه أصدقاؤه وكبار المايين الهمايوني الذين كانوا يعرفون فضله ويقدرونه حق قدره

« وجاء خبر وفاة الاستاذ الفقيد رحمه الله أمس تلغرافيا على حضرة الفاضل ابراهيم افندي اللقاني فأبلغنا إياه ولكن كان ذلك بعد ما طبع أكثر الجريدة . ثم جاءنا كتاب خصوصي من الاستانة العلية مساء أمس يفصل الخبر بما تقدم ولا شك ان وفاة هذا العالم العظيم تحزن جميع العارفين بفضله وما كان منفردا به من قوة الحجة والمعارضة في الكتابة والخطابة مع التضلع الرائد من العلوم العقلية والنقلية وسعة الاطلاع في المعارف الحديثة . فنحن نعزي أنفسنا وكل أصدقائه وتلامذته على وفاته ونسأل الله تعالى له الرحمة والرضوان »

وجاء في المقطم الذي صدر في ١٥ مارث ما نصه

« بلغنا نعي العلامة الشهير ، الغني عن الوصف والتعريف ، السيد جمال الدين الافغاني بعد صدور جانب من المقطم يوم السبت فذكرناه في الجانِب الآخر وما ذاع هذا النبا في أطراف العاصمة حتى جل الخطب على كل أديب ، واشتد الالاسى على كل من عرف فضل رجل طبق صيته المشرق والمغرب ، وكان منارا للحرية

والعرفان في كل مكان احتله، وتعلقت به افئدة النجباء والاذكياء في كل بلاد اقام بها، ووقعت تعاليمه وآراؤه في نفوس الادباء وقعا عجيبا، حتى انك لتراهم في كل جهة من جهات المشرق يتحدثون في مجالسهم بمواهبه ويتناقلون اقواله، فقد قد الشرق به عالما يهتدى بعلمه، وركنا يعتمد عليه، وداعيا الى الحرية يقتدي به في الدعوة اليها، ومقداما لا يهاب كبيرا في المجاهرة بضميره، ولا يراعي اميرا في ما ليس من رأيه، ولنا ندعي في هذه العجالة ايفاء حقا من حقوقه المتعددة في عالم الأدب والعلم والحرية، على انا سننشر ترجمته مفصلة في المقطف. وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء في التاسع من هذا الشهر بداء السرطان فراح مأسوفا عليه مبكيا من جميع تلامذته ومريديه واحتفل بمآتمه في الاستانة احتفالا يليق بمقامه ومكارم الحضرة السلطانية فعزى جميع انصار الحرية ومحبي العلوم والفضائل عن فقده، ونسأل له الرحمة والرضوان ولم يزل البقاء من بعده،»

ثم جاء في العدد الذي صدر منه (اي المقطم) في ١٨ مارث مانصه
« كتب الينا صديق يوثق بروايته تفصيل وفاة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وهو يخالف ما نشر من هذا القيل قال : رأى الطيب هرون صباح الثلاثاء في ٩ الجاري ان ساعة وفاة السيد قد دنت فقصد جرجي افندي كونجي صديقه الأمين وأيقظه من نومه قائلا ادرك السيد فقد حضرته منيته وقد تركته وهو يحاضر فأسرع جرجي افندي الى منزله فوجده في حالة النزع وليس عنده غير خادمه فلما رآه أمسك يده وكلما اشتدت عليه الحشرة حول عينيه اليه، كأنه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه، ثم اسلم الروح في الساعة السابعة والدقيقة ١٣ من صباح ذلك اليوم. فأبلغ جرجي افندي المايين خبر وفاته في الحال فجاء بعض الاطباء وشاهدوه ثم أثبتوا المايين وفاته فصدرت الارادة الى حسن باشا ضابط بشكطاش بضبط أوراقه وسائر تركته فحضر حسن باشا ومعه بعض البوليس وبعض الجواسيس ودققوا في البحث والتفتيش وضبطوا كل ما كان باقيا عنده . وفي الساعة العاشرة امروا بدفن الجنازة في مقبرة بجهة نشان طاش اسمها « شيخلرمزارلني » فأرسل جرجي افندي الى اصدقائه يخبرهم بوفاته فلم يحضر أحد منهم غير سهل باشا ابن فضل باشا الملاباري

وعلي قبودان راغب المصري ثم حمله اربعة من حمالي الاستانة على اكتافهم وسار بعض رجال البوليس حولهم بخفرونهم ودفن كما يدفن أقل أنسان في بلاد آل عثمان وبقي السيد رحمه الله خمسة أشهر يقاسي ألم السرطان وعذابه وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان فاشتدت عليه الحاجة والفاقة في مرضه ورجال الماين يشعرون ان السلطان يفيض عليه النعم ويغمره بالاحسان انتهى بمعناه. هذا واأسفاه ما يعامل به الفضلاء اذا قضوا نحبهم في دار السعادة »

وكان المقطم ذكر في العدد الذي صدر في ١٣ مارث و٩ شوال خبر اشتداد المرض على السيد وقال « ويقال ان السلطان ينفق عليه ١٨٠ ليرة في الشهر آملا ان يشفى من مرض قات فيه حيل الاطباء » وهذا يدل على ان المقطم كان يكتب مايلفه بدون تحامل . ولكن اصحابه لم يذكروا ترجمته في المقتطف كما وعدوا وقد كتب الينا بعض المطالعين على الجرائد المصرية والمتلفين لأخبار السيد من العارفين مايؤيد رواية المقطم الاخيرة في الجملة وزاد ان جرجي افندي انفق على السيد مئتي ليرة وان الماين لما بلغه ذلك بعد موت السيد أراد ان يعطي المبلغ لجرجي فلم يقبله . ومما رواه الكاتب من خبره عند مادعي الى السيد وهو محتضر انه قال « دخلت عليه وهو وحده يعاني سكرات الموت فاحترت ماذا اصنع والمحتضر يصلي او يذكر الله الله الله وأنا أدور من حول سريره حتى استأثر الله به »

تأييد مجلة البيان

﴿ وترجمتها للسيد جمال الدين ﴾

كتب الشيخ ابراهيم اليازجي الكاتب اللغوي الشهير في الجزء الثاني من مجلة البيان الذي صدر في اول ابريل سنة ١٨٩٧

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الافغاني ﴾

هذا جمال الدين امسى نازلا جدثا تضمن منه أي دفين
قد ربه به عم البكاء على امرئ فقدت به الدنيا جمال الدين

« نعت الينا انباء الاستانة انسان عين الفضائل والكمال ، ومجمع اشعة الحكمة
بل قطب دائرة العلوم على الاجال ، رُحلة البلقاء وقدوة العارفين ، وقاضي علوم
الدنيا والدين ، السيد جمال الدين الحسيني الافغاني المشهور ، فرع الارومة الزكية ،
وحليل الحسب القائم من منصب السوُدد في الذروة العلية ، فكان لمنه يوم اشتد
وقعه على القلوب والمخارج ، وطال في وصفه أزين الاقلام فأمدتها بالدمع عيون المحابر ،
وكيف لا وهو خطيب الشرق الذي رنَّ في الخفاقين صدى خطابه ، وامامه الذي
انبتت انوار اليقين من سماء محرابه ، واستاذ علومه الذي ما فتئت الحكمة تتدقق
بين قواديه ولسانه ، وتطلع شمس البلاغة من بين خاطره وبيانه ، ونجري مناهل
المرقان بين اقلامه وبنانه ،

« قضى رحمه الله في التاسع من الشهر الغابر بيلة السرطان وقد تشبث منه بين
الحك والنحر ، وذهب في مجرى الفصاحة منه ولا عجب ان يدي السرطان في البحر ،
فقبض ذلك اللسان عن تدفق عيابه ، وحبس تلك الدرر قلا يبرز مكنونها من
حجابه ، الى ان نقله الله الى جواره فذهب حميد الابر ، ودقن في قراقة المشايخ
مذكورا بالرحمة ما غاب قمر ، وناسح طائر على شجر ،

« وهذه ترجمته نلخصها عن فصل لحضرة العلامة الفاضل الشيخ محمد عبدالمشهر
صدر به تعريب رسالته التي كتبها في ابطال مذهب الدهريين على ما سيجي ، ذكره
في الترجمة قال حفظه الله :

(وهنا ذكر ملخص الترجمة التي تقدمت في ص ٢٧ - ٣٥ ثم قال)
« ووقفنا له على ترجمة اخرى باللغة الفرنسية فيها انه بعد ما فارق اوربا سار
يريد نجدا فوافقه رسالة برقية من الشاه ناصر الدين سلطان المعجم يدعوه اليه فتحول
قاصدا بلادهم ولما بلغ طهران احتفل به الشاه احتفالا بالغا وادناه منه ورفع منزله
وسماه وزير حرب وكان ينوي ان يرقه الى مقام الصدارة

« وبعدها اقام مدة ببلاد فارس شاع ذكره وتناقلت الالسة فضائله ووزارة علمه
وادبه فتواردت عليه الخاصة من وجوه البلاد وامراتها وعلمائها ورأوا من كمال فضله
وسعة معرفته باحوال السياسة والتاريخ وسائر العلوم قديمها وحديثها وتبحره في معرفة

الاديان مع ما رزقه من توقد الذهن و بلة المنطق و قوة الخطاب ما بهرهم وعظم به وقعه في نفوسهم فانصرفت اليه الوجوه وملكته القلوب اعنة اهوائها و رأى الشاه أن تسلطه على النفوس يزداد كل يوم وحرمة تعلقه عند الامة فاستشعر خشية من امره و اضمر الحذر من ناحيته و تبين السيد جمال الدين ذلك من قبل الشاه و استأذنه في الانصراف و خرج من البلاد الايرانية فصار الى موسكو ثم تحول الى بارز لشهود معرضها الذي كان سنة ١٨٨٩ وفيما هو مارفي موزنيخ من بلاد الالمان وافق الشاه بها فاجمل ملتقاه و دعاه للمصير الى بلاده و ألح عليه في ذلك فسار في صحبته و ما كادت تستقر قدمه في بلاد ايران حتى تألب القوم حوله بما ارى على ما كان منهم في المرة الاولى ثم رغب اليه المتفقون منهم ان يرسم لهم قوانين دستورية تجري بها الاحكام في نصابها من النصفة والعدل وتلزم الاحكام العمل بمقتضاها فأسر جمال الدين ذلك في نفسه ثم تطف في عرضه على الشاه فاستصوبه و مال الى موافقته عليه لكنه لم يلبث ان نكل عن قبوله بمشورة الصدر الأعظم فانه حذره عواقبه بحجة ان الامة غير متأهبة له فصلا عن انه يؤدي الى تقييد سلطة الشاه و ربما كان سببا في تقويض عرشه « فلما رأى جمال الدين ذلك خرج الى المشهد المعروف بشاه عبد العظيم وهو مقام مبني على نحو اثني عشر ميلا من طهران يفضى اليه بسكة حديد فاستمر اقوم يختلفون اليه في مقامه ذاك يفاوضونه فيما اشربته قلوبهم من أمر القوانين والاحكام الى ان اتى على ذلك نحو من ثمانية أشهر وأمره لا يزداد الا انتشارا حتى ثارت الخواطر في جميع اطراف البلاد

« و تخوف الشاه عاقبة ذلك على ساططانه فوجه الى الشاه عبد العظيم خمس مئة فارس مدججين بالسلاح فقبضوا عليه وهو مريض في فراشه وقاده خمسون منهم الى الحدود العثمانية فكان عن ذلك هرج شديد في البلاد الايرانية وانتشرت المشاغب وكثرت الرسائل والمنشورات ونواردت على الشاه كتب التهديد بان يجري على مقترحهم أو يخلع نفسه من الملك حتى بلغ منهم ان حاصروه يوما في قصره . وسار جمال الدين بعد ذلك الى البصرة لتفاقم العلة عليه بسبب اشتداد البرد في تلك الديار فلبث بها سبعة أشهر الى ان تمائل من مرضه ثم نهض متوجها

الى لندره فأنشأ بها جريدة سماها ضياء الخاقين) أكثر فيها من الطعن في سياسة
الشاه وتهيج خواطر الامة من رعيته عليه وكان يكثر التردد الى المحافل السياسية
ينحطب فيها في امر الشاه وحض رجال الدولة الانكليزية على خلعه واقام على
ذلك مدة ثمانية أشهر وفي اعقاب ذلك بعث السلطان عبد الحميد يستدعيه اليه على
يد رستم باشا سفيره في لندره فأجاب بعد ما امتنع على ان يؤذن له في العودة الى
أوربا متى شاء وقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فلقاه السلطان بتعطفاته واحسانه واجرى
عليه زرقا واسعا وكان كثيراً ما يدعوه ويخلو به في اغراض سياسية ليس من شأن
هذه المجلة التعرض لها ولا لغيرها مما اتفق له من الحوادث مدة اقامته بالاستانة
حتى ظهر فيه الداء فالزمه الفراش أشهرا قاسى في اثنائها عذابا واصبا الى ان اختار
له الله ما عنده فذهب مأسوفا عليه تغمده الله برضوانه وافرغ عليه سبحانه
رحمته وغفرانه

هذا ما وقع الينا من ترجمة هذا الرجل الشهير وهي كما تراها أدنى ان تكون
ترجمة رجل سياسي قد جعل نُصب ناظره غرضا بعيدا لا تبلغ اليه ذراعه، ولا
تصبر عن همته وأطماعه، فهو أبدا تمثال يقظته وطيف منامه، وحديث خواطره
في رحلته ومقامه

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتيتك المناظر
رأيت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر
فأقبل يضرب اليه آباط المسالك، ويكثر في التماسه من الحركة في البلاد
والتقل في الممالك، لا تستقر له قدم ولا يقف على ساق، ولا ينزل رحله في أفق
من الآفاق، ولسان حاله ينشد قول المتنبي:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبغني؟ ما أبغني جل ان يُسمى
وإنما تدرك الآمال، بمضافة الرجال، وتبلغ الأوطار، بمؤازرة الأقدار،
ولا نصير اذا لم ينصر القدر، ولا رفيق اذا توعرت شقة السفر، وكانت محفوفة

(١٣ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

بالخطر ، فلا عجب اذا قصر مشايعوه عن مجاراته ، وتخاذل مريدوه عن موالاته ، فكان كما قال المتنبي أيضا

وحيد من الخلائف في كل بلدة اذا عظم المطلوب قل المساعد
وانما هي نفسه الكيرة اقدمت على ركوب العظام ، ومته ان يبلغ منفردا
مالا يبلغ الا بالجيش الحضارم ، فلا مأربا نال ، ولا نفسه اقال ، ولكنه اضاع أيامه
في الطلب ، ولم يجن من أمانه سوى النصب ، وما أحسن ما قال المتنبي أيضا
واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام
وانما انتزع المتنبي هذه المعاني من صحيفة أيامه ، وما قرأ فيها من تخلف جده وتقدم
إقدامه ، كما قال :

أبدأ أقطع البلاد ونجسي في هبوط وهتي في صعود
قد طبع الرجلان على غرار واحد وان تفاوتا المحتدان ، ونشأ في منشأ واحد
وان تباين البلدان ، فدرج كل منهما بين صليل السيوف وصهيل الجياد ، وترعرع بين
مزاحف الصفوف ومواقم الجلاد ، في بلاد لا حكم فيها الا للغالب ، ولا شرع الا ما
حكمت به سفار القواضب

وحقيق بمن ربي على مثل تلك الحال ، ان يخرج صلب النفس رغب الآمال ،
ولاسيما اذا كان له قديم يرجع اليه يبصره ، او فائت يستحبه للكر على أثره
وعجيب من مثل السيد على استضاءة بصيرته بنور اليقين ، وضحه بين حاشيتي
علوم المتقدمين والمتأخرين ، ووقوفه على يفاع من الحكمة يجمع الدنيا به بنظرة ،
ويستقصي اطرافها بلحمة ، وقد تجردت له عن زيتها وزخارفها ، وأماطت له اللثام
عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يبقى في نفسه مكان شيء منها يقال له الرئاسة ، وتزع
همته الى حال من احوالها تسمى بالسياسة ، بل ما كان اجدره وقد رزق من توقد
الذهن وسعة المحفوظ ما كان فيه آية من آيات الله ، وأوتي من قوة الحكم وسرعة
الناظر ما انفرد فيه عن النظراء والاشباه ، ووعى في صدره من انواع العلوم العقلية
والقلبية ما كان فيه نسيج وحده ، ومن سياسات الممالك وتواريخ الامم ما عز على غيره
من بعده ، ان ينزل نفسه من دنياه حيث انزلته الفطرة ، ولا يتعدى ما قسم له القدر

ووجد من نفسه عليه القدرة ، فيجعل أيامه وقفا على الاشتغال والنفع ، واستزادة ما شاء الله من العلوم مما هو متأهب له بالطبع ، وتسطير ما يفتح به عليه مما غفل السلف عن تدوينه ، أوفاتهم الوصول اليه من علوم هذا العصر وفنونه ، ولو فعل لكان إمام الدنيا ملا مدافع ، وكانت حياته طافحة بالفوائد والمنافع ، ولتجاوزت الآفاق من صدى ذكره بما لا يأتي عليه كرور الليال ، ولا ينقرض الا باقراض القرون والاجيال ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو الكبير المتعال ،

اه ما كتبه اليازجي ونحيب عما تعجب منه بكلمة واحدة وهي ان السيد رحمه الله كان يشتغل بالسياسة لانه يرى أنها اذا لم تصلح لاتدع احدا يعمل إصلاحا ، ولا يطلب فلاحا ، ولا ينشر علما يرقى به الأمة ، ولا يطوي وهما يكشف به الغمة ، وان هي سمحت لمثله بالإصلاح يث العلوم ، وتربية الارواح والعقول ، فان طريق ذلك يطول عليه ، وربما حالت المطامع الاجنبية دون الوصول اليه ، فهو ما اختار الإصلاح من طريق السياسة الا لا اعتقاده ان العمل من طريقها أسرع تأثيرا من العلم والكتابة لا لأجل الرياسة كما علم من مجموع ترجمته

وكتب صاحب مجلة الهلال ما ملخصه :

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الاقناني ﴾

(ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٩ م) وتوفي سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م)

قد تمرُّ القرون وتتوالى الاجيال والناس على ما ساقهم اليه الحاجة في شؤون معاشهم لا يفقهون غنها من سمينها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها افرادا يميطنون عن اسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا استار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فهدوا سبل الاختراع والاكتشاف ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا اسرار الحكمة

المسترة وراء تلك النواميس وينبوا مأودعه الخالق في خليقته من القواعد العقلية والروابط الأدبية

ولكن الطبيعة لا تجود بواحد من أولئك الافراد إلا كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته أجيالا حتى إذا كادوا يرجعون إلى غيهم جادت عليهم بآخر ينفث فيهم روحا حية فيتهون من رقادهم ويعودون إلى رشدهم ريثما يأتيهم ثالث

هكذا كان شأن العالم في بدء عمرانه ومن أولئك الفلاسفة سقراط وأفلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء العقول والمنقول ممن لا تزال نستضيء بنبراسهم

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الاعمال فتحيط بهم ينثات لا تصلح لنماء ما يفرسون فيذهب سعيهم هباء مشورا

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض جهل الناس حق قدرهم واغفال التاريخ ذكرهم كما هو شأننا بفقيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله فقد نشأ قطبا من اقطاب الفلسفة وعاش ركنان اركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملا ولا الف كتابا . على أن ذلك لا يحط من مقامه وقد رأينا اعظم فلاسفة اليونان (سقراط) مات ولم يدون شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثتها الاجيال خلفا عن سلف . فحسب ان لا نحرم من مريدي الاستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك »

ثم ذكر الهلال ملخص ترجمة الاستاذ الامام له مع زيادات منها ما كان من شأنه في بلاد فارس على نحو ما ذكر في مجلة البيان . ومنها قوله قبل ذلك « وقضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات نشر في جرائدها مقالات تبحث في سياسة روسيا وانكلترا او الدولة العلية ومصر ترجمت جرائد انكلترا كثيرا منها وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسي رينان في « العلم والاسلام » فشهد لهذا بسعة العلم وقوة الحججة ثم شخص إلى لوندرا بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبري ليسألام عن رأيه

في المهدي وظهره إذ ذاك . ثم عاد إلى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلوه مكانا عاليا ، اه ومما قاله في شبائله :

﴿ مجلسه وخطابه ﴾ كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزمائره على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تزلزا . وكانت ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا باللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية وإذا آنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح فإذا كان السامع عاميا تنازل إلى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيبا مصقعا لم يقم في الشرق أخطب منه ، اه

يقول مؤلف الكتاب . حدثنا الدكتور شبلي شميل انه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح وإلقاء حسن لكلام مفيد حتى أدهش الناس . أو ما هذا معناه

هذا وإن كثيرا من الفرس يقولون إن السيد جمال الدين فارسي لا أفغاني فكلمة أبي الهدي لها أصل عن غيره زاد عليها من عنده كما هي عادته فقد ذكر في كتبه التي عزاها إلى الرفاعية طعنا مثل هذا في نسب السيد عبد القادر الجيلاني سواء بسواء وقد قال لنا بعض علماء الفرس إن أسرة السيد هي من بيوت العلم والشرف في بلاد فارس وقد هاجرت إلى الأفغان وإن السيد جمال الدين ولد في بلاد الأفغان فهو أفغاني منشأ فارسي في الأصل . ومن الناس من يظن أن ادعاء بعض الفرس أن السيد منهم هو من قبيل ما جرت به العادة في الرجال العظام من تنازع الشعوب لهم

وجملة القول أن هذا الرجل كان آية من آيات الله وإن عمله في البلاد الإسلامية لم يكن قليلا فهو الذي نقل مصر من طور إلى طور وأحياها حياة جديدة لم يسبق لها نظير في تاريخها فأنه كانت في كل أدوارها مستعبدة للحكام لم يخطر في بال شعبها أن يكون له شأن في حكومتها حتى في حركتها الأوربية الأخيرة في عهد يت محمد علي فأننا لم نقرأ لمن ترجموا الكتب الأفرنجية ولا لمن ألفوا الكتب

العصرية ولم نرو عنهم كلمة تشير إلى وجوب جعل الحكم في البلاد مقيدا برأي أهلها حتى جاء السيد جمال الدين فأسس الحزب الوطني المصري لأول مرة على هذا الأساس كما يعلم من مقالاته وخطبه التي كان يلقيها على تلاميذه (١) ثم انه هو الذي كسر مقاطر التقليد الفكري والديني واللغوي فكان إمام النهضة العلمية والفكرية والدينية في مصر وغيرها كما كان إمام النهضة الاجتماعية والسياسية وهو أيضا إمام النهضة الاجتماعية السياسية في بلاد الفرس الذي بذر في نفوس الفارسيين بذرة الحكم الشوري كما تقدم . ولو انه انقطع إلى التصنيف لما كان بوجوده مثل هذا التأثير الكبير

وقول في خاتمة ترجمته انه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكفى كما قال كثير من العلماء في شيخ الاسلام أحمد بن تيمية انه لو لم يكن له من الأثر إلا تلميذه ابن قيم الجوزية لكفى . ولعمد إلى ترجمة الاستاذ الإمام فقد جمع القلم في ترجمة السيد حتى جاء فيها بأكثر مما وعدنا به رحمه الله رحمة واسعة

﴿ دخول الاستاذ الامام الامتحان ﴾

(في الازهر)

بعد ان تلقى رحمه الله تعالى ما تلقاه على شيوخ الازهر وعلى السيد جمال الدين كما سبق البيان عرض نفسه على لجنة الامتحان لأجل شهادة العالمية كما هو المعمود وقد كتب عن امتحانه ما نصه :

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عlish وكان يعاديني على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلاد الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني درجة ما في العالم وجرت أمور قبل الامتحان

(١) راجع مقالاته في الحكومة الاستبدادية في (ص ٥٧٧ و ٦٠١) من

مجلد المنار الثالث وربما نشرها مع مقالات أخرى له في ملحق لهذا الكتاب

يطول شرحها ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الازهر وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية، الخ وقد أخبرني رحمه الله ان بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان يمينا مؤكدة لا يأخذن فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب عما سألوه فوق ما كانوا ينتظرون، طفقوا يناقشون ويراجعون، وينقلون به ويستطردون، حتى صار الامتحان مناظرة، تتولاها المشاغبة والمكابرة، فعند ذلك حلف الشيخ العباسي انه لم يراحد امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الاولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ وأظنه الشيخ الرافعي ان يوفق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطفق يعرضها على اخوانه الذين كانوا متقين على حرمانه لوقعوا عليها فوقها ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يحب ان يراجعهم بعد أن رأى منهم ما رأى فظفروا ببعض المطلوب وهو حرمانه من الدرجة الاولى، ما كانوا ضائرين.

﴿ طلبه العلم بعد التدريس ﴾

هذا مجمل سيرة الرجل في تلقي العلم عن الشيوخ منذ بدأ الى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يعدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعلم فلا تتوجه منهم بعده الا الى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما ينالون به من وظيفة وعمل. وان صاحبنا لم يسلك مسلكهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يؤثر عنهم: اطلب العلم من المهد الى اللحد: فكان يقول الى آخر حياته اني لا أزال طالب علم أبتغي المزيد منه في كل يوم. فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الازهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتن مع الشروح والحواشي والتقارير. سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه الى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية، فانتاشه من الإخلاد الى أرض العبارات الركيكة والاساليب الضعيفة، والاحتمالات البعيدة، ورفعها الى سما عرقان الحقيقة، والافصاح عنها بالعبارات البليغة،

بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين ، وتعويده الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كسابقه بالعلوم الإسلامية ، التي كتبت باللغة العربية ، مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة ، وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الأفرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الأيام . وكانت عنايته بعلوم الأخلاق والنفس وأصول الاجتماع الإنساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم وقلما علم بكتاب لا فرنجي يتكلم فيه عن الإسلام والمسلمين الا واستحضره وقرأه وقد قرأ عدة كتب في تربية الإرادة خاصة ، وفي سفره الأخير إلى سويسرة تعلم هناك القلم المسند لانه علم ان في بعض المكاتب الأوروبية كتابا فيه وإن الانكاز قتلوا من حضرموت بعض ما هنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل كبير في تاريخ العرب والإسلام . وهذه العلوم الأفرنجية هي التي أعطته القوة العظيمة في المدافعة عن الإسلام وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين بهاجمه أعداؤه وكيف ترد هجماتهم . وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوروبية لا يعد عالما في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته لنفسه عن تعلمه اللغة الفرنسية مانصه :

« بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عند ما كانت سني أربعاً وأربعين سنة ولكن ميلي إلى تعلم لغة أجنبية ابتداء في أثناء الحوادث العراقية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيتة هرباً وعند ما سافرت إلى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أعلم شيئاً من الفرنسية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين ورفاق من العرب واشتغالي بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب على ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة . أما بعد عودتي من النفي إلى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الأهلية والحكم بها خصوصاً في الجنايات على أصول القوانين الفرنسية وجلسي بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها فقد قوي عندي الميل إلى تعلم اللغة الفرنسية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء وبعد مجيئي إلى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل

فبحثت عن معلم فوجدت أستاذاً لا بأس به فدعوته فجاءني حاملاً كتاب نحو في يده (كرامير) فسألته ما هذا فقال كتاب نحو فقلت له دلا وقت عندي لأن أبتدي وإنما عندي زمن لأن انتهى ، ثم ناولته قصة من تأليف ألكسندر دوماس وقلت له أنا أقرأ وانت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلام وما عدا ذلك فهو علي والنحو يأتي في أثناء العمل ، وهكذا أتممت الكتاب وكتاباً بعده وثالثاً عقبه وكنت أطلع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خاليا فتعلمت مبادئ اللغة الفرنسية وحصلت منها ما كان يمكّني من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام . سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم ان الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت انه لا يمكن لأحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم ، اهـ

هذا ما يقال في طلبه للعلم وفيه عبر كثيرة لمن يعتبر بسير العظماء ، وتاريخ أفراد الحكماء ، أولها نفوره من التقليد والتسليم للشيخ بما يقولون من غير أن يفهمه وهذا هو مبدأ استقلاله بنفسه ، الذي فاق به أبناء جنسه ، وأوسطها عدم كفايته بما أتى عليه شيوخه في أكبر معاهد العلم في بلاده ، حتى صار يبحث عن علوم أخرى ويلتمس اساتذة آخرين ، وخاتمها عدم الغرور بنفسه والرضا بما حصله على تفوقه فيه بل عمل بقول السلف « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

الفصل الثالث

﴿ في تربيته الروحية وتصفوه ﴾

قد علم ممامر شيء من تربيته الأولى منها أنه نشأ في بيت يوصف أهله بالاخلاق
الفطرية الحميدة التي لا ينقصها الا نور العلم وقد كان له وانه لم يعن في صباه إلا بالفروسية
وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر
من السباحة وهذه الألعاب مما يحسن أن يربي عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء
وعلماء التربية وهي مما يربي عليه أولاد الملوك والأمرأ في أوربا

بعد ان أخذ حظه من هذه التربية الفطرية أخذ الشيخ درويش خضر
بالتربية الدينية فالزمه العزلة ومجاهدة النفس . وكان من جبلته أن يأخذ كل شيء
بقوة فكان في مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر
ويمشي مطرقة لا ينظر الا حيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا للضرورة وقد ظل عدة
سنين لا يلقي نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق . وقد كان لكثرة الانهماك في الذكر
والفكر والنظر في كتب التصوف والتفكر في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويزج
في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين . ولو كان يجيز شرح
ذلك لشرحناه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الاحوال غير الطبيعية لا يجوز
ذكره لغير العارف به ولا تجوز كتابته بحال ولو كنت ملكا لحكمت بقتل الذين
يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثيرا من الناس ولا يفيدون به أحدا . وقال ما معناه
ما زج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر
ويخرجه منه وذلك قليل

وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرج منه ، ورقى به الى ما هو
خير منه ، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جراه عليه زمانا عرفه به أنه أعرف بتلك
المعاهد ، وأسبق الى تلك المشاهد ، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يعجز

عن حالها ، حتى أقنعه بأنه من أفراد أهلها ، ولو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حادثة الشيخ عlish شيئا من أمر الرجل في تصوفه وتنسكه لهاجوا على الشيخ عlish وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من وشى اليه من فساق المجاورين ولا خاضوا في ققيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفا من الرياء وحب السمعة والامة مستعدة للشر وكانت الشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمهم الله أجمعين

قلنا ان السيد جمال الدين هو الذي نقل ققيدنا من حال الى حال في التربية كما نقله في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهد له السبيل للأمرين . وقبل ان تنقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويشا هو الذي رباه أيضا على التعرض للارشاد الديني والتصدي لنصيحة الناس فقد السبيل التي سلكها به السيد جمال الدين - سبيل الإصلاح العلمي والاجتماعي . ذلك ان الشيخ درويشا رأى ان مريده قد كملت نفسه بعد العزلة الطويلة وكل سلوكه فصار بآمن من المعاشرين الذين يقطعون الطريق على المريدين فأمره بمخالطة الناس والتعرض لإرشادهم وقد كتب لي رحمه الله في ذلك ما نصه :

« قلت اني كنت في أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك - والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم تارة ولبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى . قال لي عندما رجعت الى محلة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله اذالم يكن لك نورا تهدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه ان تستأثر بالفائدة دون أهل ملك وان من لم ينفع بما تعلم قد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فعليك ان تخالط الناس وتمظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة : فذكرت له اشمئزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي اذا قمتهم وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الدواعي الى ما حدثك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهدين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح

الكلام في الشئون المختلفة ويوجه اليّ الخطاب لا تكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وأنطلق في القول على وجل في أول الامر وما زال بي حتى وجد عندي شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم وفي شوال من تلك السنة ودعني وبكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى ، اه أقول يظهر أنه أحسن بأن عمله قد تم بتكميل تربية مريده وأنه ألهم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمله فبكى بكاء مودع وللصوفية من هذا الالهام والشعور ، ما هو معروف مشهور ،

ومن تدبر كيفية تربية الشيخ درويش للرجل وكان عارفا بطرق الصوفية يعلم انه يصدق على طريق الشيخ درويش ما قاله أبو السعود بن الشبل عن نفسه وعن شيخه عبد القادر الجيلي قال « طريق عبد القادر في طريق الاولياء غريب وطريقنا في طريق عبد القادر غريب » وأبو السعود هذا هو الذي كان يقول محيي الدين ابن العربي فيه وفي شيخه ان الشيخ عبد القادر أعطي حال الصدق فكان صاحب ظهور والشيخ أبا السعود أعطي مقام الصدق فكان نكرة لا تعرف .

وهكذا كان شيخنا محمد عبده في الصوفية نكرة لا تعرف أي انه صاحب مقام لا تغلبه الاحوال ، ولا يسهل عليه التأثير في نفوس الاغيار ، ولا يحتاج الى كلفة في إخفاء ما هو فيه ، وكتمان ما وهبه وأعطيه ، فكان مقامه مقام الصدق كالشيخ أبي السعود ابن الشبل ، ولذلك كان يظن المحجوبون عن خصوصيته انه كان من أبناء الدنيا ، ومن رآه منهم غير مبال بالمال ، ولا مبال إلى زينة الاثاث والرياش ، ظن ان حب الجاه هو الذي غلب عليه . ولكن من وقف على تاريخه يعلم ان هذا الظن من الباطل فانه كان يخفي ما استطاع كل مامن شأنه توسيع دائرة جاهه من الأعمال ، ولما عاد من منفاه في سورية إلى مصر وأراد توفيق باشا أن يجعله قاضيا في المحاكم الأهلية قال انني خلقت لأكون معلما لا لأكون قاضيا وانني أعلم انني إذا دخلت القضاء أرتقي الى أعلى درجاته ومع هذا أختار أن أكون معلما في مدرسة دارالعلوم على علمي بأنه لا ارتقاء في صنعة التعليم ، كما سيأتي

ولما بلغ انه صار مفتيا انكش وأخبرني بذلك وهو ممتعض حتى لم أنطق بكلمة تشعر بالسرور أو التهنة ولكنتي قلت له ومالي أراك متقبضا ؟ قال لأن هذه

وظيفة لا عمل فيها . وسيأتي لذلك مزيد بيان في الكلام على أخلاقه وانما غرضنا الآن ان نبين شيئا من تربيته الصوفية لا آثار هذه التربية في الاخلاق والعمل وان ما نريد من ذلك يتوقف على بيان شيء من حقيقة التصوف ومن أحوال طرق الناس فيه قديما وحديثا فنذكر من ذلك مالا بد منه لمن يريد ان يعرف الحقيقة التي نرمي اليها فنقول

ماهو التصوف

يقال تصوف الرجل إذا صار صوفيا لا معنى للكلمة غير هذا ولهذا البناء اصل معروف لانزاع فيه فهو كيهود إذا صار يهوديا ومنه الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولكن وقع الخلاف في الصوفي الى أي شيء ينسب فأشهر الأقوال وأقربها من اللفظ ان يكون نسبة الى الصوف لأن القوم كانوا يكثر من لبسه وعارض فيه بعضهم بأنه لم يكن خاصا بهم ولا كان كلهم يلبسه أو لم يكن شعارا لهم . وزعم بعضهم ان اسم الصوفي مأخوذ من الصفاء وانشدوا:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من الصوف (*)

ولست امنح هذا الاسم غير قتي صافي وصوفي حتى سمي الصوفي

وزعم آخرون انه من الصفة نسبتة الى أهل الصفة من الصحابة أي الذين كانوا يلزمون صفة المسجد لفقيرهم واتقائهم للعبادة وحفظ القرآن واللغة تنفي هذا النسب وتبرأ منه . ويقول بعض الناس ان الصوفي منسوب الى كلمة «سوقا» أو «سوفي» بعد التصرف فيها بالتعريب والكلمة يونانية معناها الحكمة والصوفية الحقيقيون كلهم طلاب حكمة وهم من صنف الفلاسفة الاشراقية عند اليونان . وذلك انه لما دخلت الفلسفة اليونانية البلاد الاسلامية أخذ كل أناس منها ما يناسب استعدادهم ففني بعض الناس بالعلوم النظرية وبعضهم بالعلوم العملية مع العمل وذلك قسما من قسم يتعلق بالظاهر كالطب وقسم يتعلق بالباطن كرياضة النفس وتهذيب الاخلاق وهذا هو موضوع التصوف ويعرف أهل التاريخ ان هذا التصوف قديم العهد في البشر فهو معروف عند

(*) ويرى المصراع الثاني هكذا « وكلمهم قال قولا غير معروف »

براهمة الهند الى اليوم وعند أهل الصين أيضا ومن الصينيين طائفة يسمون أهل الطريقة لهم شارات كشارات أهل الطريق وأعلام يكتبون عليهما كلمات دينية كالذي تراه كل يوم عند أهل الطرق

وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتاب «تليس ابليس» الى ان الصوفية نسبة الى رجل يقال له صوفة قال

« كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومومن ثم حدث اسم زاهد وعابد ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا واتقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقا تخلقوا بها ورأوا ان أول من انفرد بخدمة الله سبحانه عند بيته رجل يقال له صوفة واسمه الغوث بن مر فانتسبوا اليه بمشابهتهم اياه في الاقطاع الى الله سبحانه وتعالى فقسموا بالصوفية . وعن ابن سعيد الحافظ قال سألت وليد بن القاسم الى أي شيء نسب الصوفي فقال كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة اتقطعوا الى الله عز وجل وواطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية . قال عبد الغني فهو لاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر اخي تميم بن مرة . وعن الزبير بكار وقال كانت الاجازة بالحج للناس من عرفة الى الغوث بن مر بن أذ بن طائفة (هـ) ثم كانت في والده وكان يقال لهم صوفة وكان اذا حانت الاجازة قالت العرب «أجيزي صوفة» قال الزبير قال ابو عبيدة صوفة وصوفان يقال لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله اذا قام بشيء من أمر المناسك يقال لهم صوفة وصوفان . وعن ابن السائب الكلبي قال انما سمي الغوث ابن مر صوفة لانه كان لا يهيش لأمه ولد فذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ريط الكعبة ففعلت فقبل صوفة ولولده من بعده . وعن عقال بن شيبة قال قالت أم تميم بن مر ولدت نسوة فقالت لله علي ان ولدت غلاما لأعبدنه للبيت

(هـ) طابخة هذا هو ابن الياس بن مضر وهو بالباء والخاء كاسم الفاعل الموثق من الطبخ كما في المعاجم وضبط في نسخة التليس بالهمزة والخاء المهملة . والاجازة هي الافاضة من عرفات كانت العرب لا تفيض من موقفها بعرفات حتى يفيض بها صوفة وكذا من منى ونسبة الصوفية الى صوفة ذكرها الزمخشري في الاساس احتمالا

فولدت الغوث بن مر فلما ربطته عند البيت اصابه الحر فمرت به وقد سقط واسترخى
فالت ما صار الا صوفه فسي صوفة وكان الحج وإجازة الناس من عرفة الى منى
ومن منى الى مكة لصوفة فلم تزل الاجازة الى عقب صوفة حتى اخذتها عدوان فلم تزل
في عدوان حتى اخذتها قریش اه

أقول ولا مانع في القياس من صحة هذه النسبة عريية ولكن يبعد ان ينتسب
القوم باختيارهم الى أهل الجاهلية ولو الى النساك وملازمي خدمة البيت منهم فاذا
صح ان هذا هو أصل النسبة فالمعقول ان يكون قد أطلق عليهم ذلك بعض العرب
اذ رأوهم يكثررون التحنث وينقطعون للعبادة في المسجد الحرام وغيره لأن صوفة
ممن يضرب بهم المثل في مثل ذلك

وأما تاريخ التصوف ومبدأه فقد قال ابن الجوزي فيه: هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة

متين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها ان
التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على
الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال
الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الاخرى . وسئل الجنيد بن محمد
عن التصوف فقال الخروج عن كل خلق دري، والدخول في كل خلق سني، وعن
محمد بن حنيف قال لرويم كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على
الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالبوا أنفسهم بحقيقة الورع
ومداومة الصدق .

ثم ذكر ان هذا ما كان عليهم أوائلهم حتى لبس الشيطان عليهم فكان أول تليسه
ان صدم عن العلم وأراهم ان المقصود العمل فلما انطفأ مصباح العلم نخبطوا في الظلمات
فمنهم من غلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ومنهم أغري بتعذيب النفس
بالجوع والعري والفقر الاختياري . ومنهم من هام بالسماع والوجد والرقص، ومنهم من
غلبت عليهم الخيالات، حتى قالوا بالحلول والاتحاد، وكانوا يعنون بالنظافة والتنطع في
الطهارة وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعية

وذكر المؤلفين منهم وان بعضهم قد هذبوا التصوف . فأول من ألف لهم في الزهد

والغلو في ترك الدنيا الحارث المحاسبي . وصنف لهم عبدالرحمن السلمي كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم ما فيه العجب من تفسير لا يستند الى أصل من أصول العلم . وذكر ابن الجوزي ان السلمي هذا غير ثقة وانه كان يضع لهم الاحاديث وحدث عن الاصم بشواذ كثيرة وهو لم يسمع منه الا قليلا ، وصنف لهم ابونصر السراج كتاب لمع الصوفية وفيه كثير من الاعتقاد القبيح وصنف ابو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الاحاديث الباطلة والموضوعات . وصنف لهم ابونعيم كتاب الحلية وذكر في حدود التصوف اشياء منكرة قبيحة (وقال) لم يستح ان يذكر في الصوفية الخلقاء الراشدين وسادات الصحابة والتابعين وسفيان الثوري واحمد بن حنبل . وصنف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق الخ ثم ذكر تصنيف الغزالي للاحياء وما فيه من الاحاديث الباطلة وانه لم يكن يعلم بطلانها

ثم ان ابا الفرج بين ضروب التليس على الصوفية وما خالفوا فيه الشرع عن جهل او تاوّل فأصاب في أكثر ما كتب وأخطأ في أقله وقد كان حسن النية كما كان أولئك الذين انتقد عليهم مخلصين فيما قالوا وفعلوا وهو لا ينكر ذلك عليهم ولكنه كان أعلم منهم بالسنة السنية وبما كان عليه السلف الصالح من هدي الدين لأنه من الحفاظ ولم يكن في أولئك الصوفية حافظ ولا محدث الا من انتصر لهم في بعض المسائل كابن طاهر الذي انتصر لهم في القول بإباحة السماع وان احياء علوم الدين هو أحسن كتبهم ومولفه الامام ابو حامد الغزالي كان أوسعهم علما بالكلام والفقه والأصول وأدقهم فهما في اسرار الشريعة وحكمها ومع ذلك كله نرى في الاحياء كثيرا من الاحاديث والآثار الموضوعية والواهية وجالها أو كلها منقولة من كتاب قوت القلوب وهي هي وما أخذ منها وبنى عليها هو جل ما ينتقد على هذا الكتاب الجليل ولكن لا نعرف كتابا بالعالم من علماء الاسلام أشد جذبا الى الدين وتأثيرا في قلوب القارئ من هذا الكتاب . واذا كان كثير من الصوفية قد أخطأوا بقبول بعض الموضوعات والواهيات والاحتجاج بها والاستنباط منها فهذا خطأ لم يسلم منه كثير من الفقهاء الذين تحاملوا

عليهم رضالوا بعضهم وكفروا آخريين في القرون الأولى عند ما كان الصوفية صوفية كاملين في طريقهم ثم خضعوا لهم وذابوا وأولوا كلامهم المخالف لظاهر الشريعة وكذا المخالف لتصوصها وذلك بعد أن طرأ عليهم ما طرأ من الشذوذ والبدع الكثيرة وقف الصوفية على الطرف المقابل للطرف الذي وقف عليه الفقهاء من الاسلام: غني الصوفية بباطن الاسلام ولبابه وسره وهو تزكية النفس وتطهير القلب ومراقبة الله تعالى وما يوصل الى ذلك من علم حكمة التشريع وأسرار الدين وعلم النفس والاخلاق والعلم بصفات الله وسننه في خلقه . وغني الفقهاء بظاهر الاسلام من علم طهارة الابدان والثياب وأعمال العبادات والاحكام القضائية مدنية وجنائية وسياسية . وكان كل من الفريقين يخطئ ويصيب على نسبة استقلاله في فهم القرآن والعلم بالسنة وبعده وقربه من ذلك و « كل حزب بما لديهم فرحون »

قد علم كل أناس مشربهم ، واقتدى قوم آخرون بهم ، ثم جاء القلدون لكل منهم ، فذهب بهم الجهل الى الغلو فيهم ، حتى فضاهم بعضهم على الصحابة والتابعين ، وظنوا أنهم أوسع علما وأحسن عملا بهذا الدين ، هيئات هيئات لما تزعمون ، وشتان بين السلف والخلف فيما تصفون ، فلو صدق ما ظنتم ، وكانت حقيقة الامر ما زعمتم ، لكان لقائل أن يقول ان هذا الدين من وضع البشر ، ولذلك ارتقى بتطاول الزمن ، كلا ان السلف هم الذين أقاموا وزنه بالقسطاس المستقيم ، وجروا فيه على سنة الحنيفية السمحة وهداية الكتاب الحكيم ، فكل ما خالف جماعتهم من فنون زهد الصوفية البصريين ، وأواقسة الفقهاء الكوفيين ، فهو في هذا الدين مردود ، وصاحبه إما مجتهد معذور وإما مقلد معذول ، ولا يتبع أحد منهما فيما يعمل من ذلك ولا فيما يقول ، اذ المسألة من مسائل النزاع فترد الى كتاب الله وسنة الرسول ، (٤ : ٥٨) فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والى الرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فلا أحد من الصوفية معصوم في أعماله وأقواله ، ولا أحد من الفقهاء معصوم في آرائه وأقواله ، ولكن المعصمة لكتاب الله عز وجل ، ولما بينه من سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله (١٥ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

وسلم ، فحكما هو الحكم العدل ، وقولها هو القول الفصل ، وسبيلها هي سبيل جماعة المؤمنين الاولين ، وهم سلف الامة الصالحين ، من جمهور الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم قبل حدوث الفرق ، ونحزب الاحزاب والشيع ، واجماع أولي الامر ، من أهل الحل والمقد ، يطاع في المصالح العامة ، دون العبادات والامور الخاصة ، ولقد غلامن كل حزب وفرقة أناس بعدوا بالدين عن كتابه وسنته ، وسيرة سلفه وأئمة : كان من غلو بعض الصوفية أن أفرطوا في الكلام على حكمة الدين وأسراره حتى بعدوا بها عن النصوص والسنن ثم زعموا ان للقرآن ظاهرا وباطنا ، وان مدلول النصوص هو الظاهر ، وأما الباطن فلا يعرف الا بالكشف والالهام ، ومن هذه المنفرة دخلت على هؤلاء الغلاة دسائس الباطنية الذين أوجسوا خلال الامة يفتونها الفتنة بتحريف النصوص وتأويلها ، وفيها سماعون لهم ، مخدوعون بزخرفهم ،

ثم انهم اشتغلوا بالفلسفة وعلوم الكون من الرياضيات والطبيعات كالتكلمين ومزجوا ما أخذوه منها بكتبهم التي بحثوا فيها عن الوجود وعوارضه ، ولكن طريقةتهم فيها كانت مخالفة لطريقة التكلمين ، فكانت عناية المتكلمين منصرفة الى عرض مسائل تلك العلوم على الكتاب والسنة واقرار ما وافقها وإبطال ما خالف النصوص بالأدلة والبراهين على طريقة الفلاسفة أنفسهم ، وما خالف الظواهر ان ساعدتهم الدليل على إبطاله أبطلوه ، والا أولوا العبارة على طريق فنون اللغة من جعلها مجازا أو كناية ، وأما غلاة الصوفية فقد تصرفوا في المأماني والألفاظ ، وسلكوا سبيل التعمية والألفاظ ، فهم كغلاة الفلاسفة الاسلاميين واكثر منهم مخالفة للفلسفة ، ومخالفة للشريعة ، حتى إنهم قالوا شريعة وطريقة وحقيقة ، والتقسيم والمطاف يفيدان المغايرة ، وكان المتكلمون والفقهاء يكفرون الغلاة من الفريقين بل كانوا على الصوفية أشد تحاملا لأنهم يخدعون العامة باظهارهم التمسك فتمظم الفتنة بهم ، والفريقان سواء في شر ما كفرهما به المتكلمون والفقهاء وهو أمران أحدهما علمي كقولهم قدم العالم وكون النبوة نسبة ، وثانيهما علمي وهو إباحة المحرمات للأخوامين الكاملين في العلوم وجعل الشريعة وسيلة لتربية النابتة وضبط العامة ، ومن دون ذلك مخالفة

التصوص واتباع الفلاسفة في مسائل العالم العلوي وعالم الغيب كالسموات والعرش والكرسي والملائكة والجن والجنة والنار ،

والذي استنبطته من طول البحث والمقارنة ان أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لابسى لباس التصوف هم باطنية في الحقيقة وأقلامهم قد مرق من الدين بشبهات عرضت له من تلك الفلسفة الباطلة التي كانت رائجة في تلك القرون ، ثم قلدهم في هذه الأباطيل كثير من المسلمين وهم لا يعرفون أصلها ولا الغاية التي وضعت لتؤدي اليها

مثل الصوفية في ذلك كمثل الشيعة فقد كان هؤلاء حزبا سياسيا من المسلمين يرى ان الحكومة الاسلامية يجب ان تكون حكومة أشرف وان احق النام بها بعد النبي (ص) أقرب زعماء الصحابة المرشحين لذلك إليه وهو علي وبيته وصهره وابن عمه ثم أولاد علي من بنته (ص) فجعل الباطنية من أصول تعاليمهم الرضوية الضلوة في علي وولده والقول بمصبتهم ، وانه لا يعرف باطن الدين ولا حقيقته الا منهم ، وبثوا ذلك في غلاة الشيعة وجهاتهم ، توسلوا بذلك الى الطعن في انبي بكر وعمر وجهور علماء الصحابة وادعاء كتمانهم لبعض القرآن وتحريفهم لبعض آخر وابطال ثقتهم بما كانوا عليه من الدين وصرف وجوههم الى زعماء منهم يدعون انهم اخذوا حقيقة الدين من أئمة آل البيت المعصومين فيطمسوا الاسلام الحقيقي ويحلوا رابطة أهله ويستبدلوا به دينا جديدا ان لم يفسر لم يرجع الناس الى المجوسية التي هي دين واضعي تعاليم الباطنية للانتقام من المسلمين الذين أزالوا ملكهم واستولوا على بلادهم

هكذا ثبت الباطنية تعاليمها الاحادية الفاسدة في غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة وانخدع بها الفريقان لاظهار دعائها الاسلام والتنسك والتقوى حتى صار الناس يقولون ان الشيعة قسمان ظاهرة وباطنية ، ولم يكن أحد يقدر ان يميز بينهما لان الباطنية كانوا يخفون عقائدهم أو تعاليمهم المخالفة للاسلام نفسه المصروفة بعداوتهم الا لمن يثقون به بعد وصوله الى الدرجة الاخيرة من درجات دعوتهم ، ولذلك رأينا مثل الشريف الرضي من أئمة العلم والفضل في الشيعة يمدح بعض الخلفاء العبيديين ، ظنا منه انهم من الشيعة المسلمين ، وانهم حقيقة من العلويين ، فقال وقد كان مستاء من الخليفة العباسي

أبس الذل في ديار الأعادي وبصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيدا لنا من جميعا محمد وعلي

وأول علم أن الخليفة العبيدي عدو جده والساعي في إبطال دين جده لما قال ذلك فيه ولما ظهرت معالم الباطنية في بعض فرقهم امتاز مسلمو الشيعة وثبتوا على الإيمان بوحداية الله ورسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين وإقامة أركان الإسلام الخمسة بالعمل لا يخالفون غيرهم من المسلمين فيها إلا ببعض الفروع الاجتهادية، والباطنية هدموا كل هذه الأركان والعقائد الأساسية، ولكن بقي في كتب الشيعة وتقاليدهم شيء من معالم الباطنية كما بقي في كتب أهل السنة شيء من أحاديثهم الموضوعة. وأما كتب غلاة الصوفية فلا تزال حاوية لجميع ضلالاتهم أو أكثرها لا يستطيع التمييز بينها وبين التصوف الصحيح إلا أفراد من المحققين. وكان الاستاذ الامام صاحب الترجمة يقول أن التفسير المطبوع في جالدين المنسوب الى الشيخ محيي الدين بن عربي هو لكاشاني الباطني. ويقول بعض العلماء ان الفتوحات المكية والقصوص أشهر مصنفات الشيخ محيي الدين فيها كثير من دسائس الباطنية فان لم يكن كذلك فهو من أكبر زعماء الباطنية أو أكبرهم على الإطلاق.

قال ابن خلدون في مقدمته في سياق الكلام عن التصوف :

« ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملاؤا الصحف منه مثل الهروي في كتابه المقامات له وغيره وتبعهم ابن عربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطون للاسماعيلية المتأخرين من الدافضة الدائنين أيضا بالحلول والهيبة الائمة مذهباً لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان

د وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها
 قال : جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، وأن يطاع عليه الا الواحد
 بعد الواحد : وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من
 أنواع الخطابة أو هو بعينه ما تقول الرافضة ودانوا به

د ثم قالوا بترتيب الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى انهم
 استندوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم دفعوه الى علي رضي
 الله عنه وهو في هذا المعنى أيضا والا فلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة
 بتغاية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان ابو بكر وعمر رضي عنهما ازهد الناس
 من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحدا منهم بشيء
 يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة
 بشهد ذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما
 ليس لسلف المتصوفة في كلام بنفي أو إثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة الرافضة
 ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق

د ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في
 هذه المقامات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق ان كلامهم
 معهم فيه تفصيل فان كلامهم في اربعة مواضع (احدها) الكلام في المجاهدات
 وما يحصل في الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق
 انني تصير مقاما ويترقى الى غيره كما قلناه (وثانيها) الكلام في الكشف والحقيقة
 المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي
 والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الا كوان بأنواع
 الكرامات (وثالثها) التصرف في العوالم والا كوان بأنواع الكرامات (ورابعها) الفاظ
 موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة تقوم بعبور عنهم في اصطلاحهم بالشطحات
 تستشكل ظواهرها فنذكر ومحسن ومتأول

د وأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل في الاذواق والمواجد في نتائجها
 ومحاسبة النفس على التصبر في أسبابها فأمر لا مدغم فيه لا أحد وأذواقهم فيه صحيحة

والتحقق بها هو عين السعادة

د وأما في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون بينها بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت من الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها مكابرة وقد وقع للصحابه وأكابر السلف كثير من هذا وهو معلوم مشهور

د وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمزج عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لأنها لم توضع إلا للتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من التشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة

د وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتدائه حمل على القصد الجليل من هذا وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضاه ولا اشتهر فؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لما ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بها فهو حافز في حسه ولم يملكه الحال فؤاخذ أيضا ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الخلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم

د وسلف المتصوفة من أهل الرسالة (١) اعلام الملة الذين أشرنا اليهم من قبل لم

يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والافتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق والمحن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلقه أكبر وشريعته بالهداية أملاك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والافتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب اه
أقول وذ كر قبل ماقلناه أن بناء هذه الطريقة على مجاهدة النفس وغايتها الوصول الى مقام التوحيد والمعرفة : قال ان الادراك الذي يتميز به الانسان عن سائر الحيوان نوعان إدراك للمعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وإدراك للاحوال القائمة بالنفس من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف بالبدن تنشأ من إدراكات وارادات وأحوال وهي التي يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة ، والفرح والحزن عن إدراك المولى أو المنلذذ به ، والنشاط عن الجاهم والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة ، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة قترسخ وتصير مقاما للمريد ، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ، ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للكمال :

ثم ذكر غاية القوم بمحاسبة النفس على الاعمال والخواطر وعدم الاكتفاء بالانسان بالعبادة موافقة لشروط بالمقه بل يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ، فأصل طريقته المجاهدة والمحاسبة وانرها في النفس ، وذ كر انهم اصطالحوا على الفاظ تدل على ما انفردوا به من هذه الاذواق ومبادئها وغاياتها كما وضع أهل الكلام والفقه والاصول اصطلاحات لعلومهم فصار علم الشريعة صنفين علم الفقهاء وعلم الصوفية

ثم تكلم على ما تثره الخلوة والمجاهدة من كشف حجاب الحس وإدراك بعض العوالم الخفية وأطال في الكلام على هذا الكشف وعلته من سنة الله تعالى في النفس البشرية وما فيها من الاستعداد للادراك بغير واسطة الحس ، وما حدث للصوفية بعد عنايتهم بهذا الكشف من الكلام في حقائق الموجودات العلوية والسلفية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي ، وإنكار بعض الفقهاء وأهل الفتوى عليهم وتسليم بعضهم لهم وإطال في ذلك

وأقول ان ابن خلدون أصاب في أكثر ما قاله وأخطأ في بعضه وانه ما سلم للصوفية من سلم من الفقهاء الا لظهور بعض خوارق العادات من بعضهم كالكشف وغير الكشف والانسان مهما كان معتزاً قوياً بعلمه وثقته بمعرفته فانه يضمف وينقاد لأضعف الاشياء اذا ظهر له من قبلها ما يمدده مدداً من السلطة العليا والقدرة الإلهية اذ أودع الله في فطرته العبودية والخضوع لسلطانه الأعلى الذي سخر به الاسباب ولا تسخره الاسباب في شيء ، ومن الناس من لم يبال بخوارقهم لأنه علم بأن مثلها قد كان من الهنود والصينيين وغيرهم فقالوا ان لهذه الخوارق أسباباً جارية على سنة الله تعالى في النفس البشرية وآثارها فنحن لا نسلم بشيء في الشرع لم يقم عليه الدليل الشرعي لان القائل به جاء بشيء غريب لا نعرف سببه وهو نفسه لا يصلح أن يكون حجة على ما قاله ولا على عصمته فيما يكون عليه . وقد قال بعض كبراء العلم والتصوف : اذا رأيتم الرجل يطير في الهواء فلا تغفروا به حتى تروا حاله عند الأمر والنهي ، أي فان كان متنبها عما نهى الله عنه موثقاً بما أمر به فهو المؤمن الصالح الولي لله والا كان فاسقاً شقيماً ، أو كافراً غوياً ،

وقد غلا في علم التصوف فريقان فريق عده كله بدعاً محدثة بحجب ردها وعدم قبول شيء منها الا اذا كان له أصل يقوم عليه من الكتاب أو السنة أو إجماع السلف العملي أو القولي ولا يعتمد بما يسمونه الإشارة ولا الكشف لانهما ليسا من طرق الدلالة في الشرع ولا في اللغة العربية . ومنهم من جعل ما ثبت عنهم ديناً يتقرب الى الله تعالى به وينكر على مخالفه كما ينكر على من خالف الكتاب والسنة أو نصوص أئمة الفقه عند مقلديهم ، ويؤمن بتشابهه كتشابه الكتاب والسنة مع ان الصوفية

أنفسهم أنكروا ذلك . وذكر الشعراني أن شيخه علياً الخواص قال له في جواب سؤال : أن متشابه كلام الصوفية لا يقبل ولا يؤوّل كمتشابه الكتاب والسنة ، لمصنعة الكتاب والسنة دون كلام الصوفية ، فإنهم غير معصومين من الخطأ فيه . وهذه الكلمة أحسن ما نقله عنه

والصواب أن كلام الصوفية ككلام غيرهم من أهل العلوم الشرعية كعلم الكلام والاصول والفقه - وأهل العلوم الكونية والعقلية كالفلسفة والطبيعات . وكتبهم ككتب هؤلاء العلماء فيها الخطأ والصواب . وقد كنت كتبت لهذا البحث أوراقاً ثم ضاعت ، واتفق أن أطلعت قبل كتابة غيرها على فتوى لشيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية في الصوفية والفقراء ذكر فيها تاريخ ظهورهم وحقيقة حالهم وغلو بعض الناس في مدحهم ، وبعضهم في ذمهم وانتقامهم ، وحقق أن مبدأ ظهورهم كان في البصرة وأنهم من أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري ، وإن أهل البصرة قد اشتهروا بالعبادة والزهد أكثر من أهل سائر الامصار ، كما اشتهر أهل الكوفة بالفقه ، فكان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية وإن الصوفية والفقراء كثيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وإن السابقين بالخيرات منهم كالسابقين بها من الفقهاء ، ويسمون أهل الحقائق ، وقد يصل بعض هؤلاء وأولئك إلى درجة الصديقين . ثم قال : « وقد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية وذكره الحافظ أبو الطيب في تاريخ بغداد

« فهذا أصل التصوف ، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق ، وصوفية الارزاق ، وصوفية الرسم ؛ فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم ، وأما صوفية الارزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك ، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز وأكبر أهل الحقائق (م ١٦ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

لا يتصدون بلوازم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط احدها العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويحتجبون المحارم، والثاني التأدب بآداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الاوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت اليها. والثالث أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال أو كان غير متخلق بالاخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك. وأما صوفية الرسم فهم المقصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك، فهوؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زبي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره انه منهم وليس منهم»

ولما كان الصوفية يسمون أنفسهم (الفقراء) تكلم شيخ الاسلام في مسألة الفقر ولقب الفقير في عرف الشرع وعرفهم، وبين ان الفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث التي أشرنا اليها في تلخيص كلامه عن الصوفية

وجملة القول ان مرادنا من التصوف والصوفية هنا ينحصر في المسائل الآتية نلخص بها ما تقدم ونزيد عليه . وهي

- (١) التصوف الاسلامي هو التخلق بأخلاق الصوفية والانتظام في سلكهم
- (٢) الصوفية في الاسلام طائفة انقطعوا الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس وتربية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى، ثم ادعى حالهم من ليس منهم غشاء وتلييساء ولبس لباسهم من تناقض حاله حالهم دعوى وتقليدا
- (٣) ان رياضة النفس والتدقيق في عيوبها والحرص على تزكيتها وتكميلها يشر علما وعرفانا بسنن الله تعالى في الارواح وأسرار قواها، وأحوالا وأذواقا غريبة، من أعمها الكشف، وهو معرفة بعض الحقائق والوقائع من غير طرق الحس والفكر، (ومنها) التأثير بقوة الارادة في بعض الاشياء، وأكثر ما يكون ذلك بنحو شفاء مريض أو استهواء نفس تكون أطوع للمستهووي من طرفه، وأتبع له من ظله. وذلك فوق ما يعهد الناس في هذا العصر من الاستهواء الذي يسمونه [التنويم المغناطيسي]

وقد ظهر في هذا الجيل رجل في سورية عرضت له حال اعتقد بها انه يجب عليه الخروج لإزالة الفساد ، واصلاح أمر العبادة ، فكان يسبر ويدعو الناس الى اتباعه فيتركون حراثهم وزرعهم وتجارتهم وصناعتهم ويتبعونه فرادى ومثنى وجماعات ، من غير بينة ولا برهان ، ولولا أخذ الحكومة له لكان له شأن وأي شأن ! (ومنها) أحوال تعرض ، وبروق تومض ، يلطف بها الكفيف ، ويرق بها الغليظ ، ويضعف سلطان الشاعر ، وينعكس نور الابصار الى البصائر ، فيرى صاحبها ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه به غيره ممن ليست له تلك الحال ، حتى انه لينج به في عالم من الخيال ، يناجي فيه الارواح ، تتجلى في صور الاشباح ، بأغرب وأعجب مما يدعيه مستحضرو الارواح الآن

(ومنها) الغوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها ، وصفات النفوس البشرية وقواها وعللها ، وغير ذلك من العلوم العقلية ، والمعارف الكونية والإلهية (٤) إن هذا التصوف برياضة النفس وما تشره من الاحوال ليس من مستحدثات المسلمين بل سبقهم اليه قدماء الهنديين والصينيين واليونان وغيرهم — كما تقدم في أوائل الفصل — وقد سرى الى بعض صوفية المسلمين كثير من بدعهم وضلالاتهم ، وشعارهم وشاراتهم ، حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود ، فصارت هي غاية الطريقة عندهم ، كما كان تجريد التوحيد الشرعي غاية الطريق الاسلامي عند غيرهم . ولا ندري كيف دخلت هذه الدخائل على الصوفية ولا عن أي كتب الهند وغيرها أخذوا ، ولا تاريخ ذلك — لم تقف على ذلك كما وقفنا على ما يقابله من دخول فلسفة اليونان على علماء الكلام ، ولكننا رأينا في بعض كتب الصوفية ذكراً لصوفية البراهمة وتفرقة بين كشفهم وكشف المؤمنين . ويسمون الكشف الاول الكشف الصوري والظلماني ، والثاني الكشف المعنوي والروحاني ، وأما المتكلمون منا فقد قالوا بجواز وقوع الكشف وغيره مما يسمونه خوارق العادات من غير المؤمن التقي ، ويجمعون لكل نوع منها اسماً ، فما كان على يد المؤمن التقي يسمونه كرامة ، وما كان على يد الكافر أو المبتدع أو الفاسق يسمونه استدراجاً (٥) اننا على جهلنا تاريخ دخول تلك الدخائل على صوفية المسلمين نعلم ان الباطنية

الذين كانوا يؤلفون الجماعات والاحزاب للكيده للاسلام ودولة العرب، والسعي لإفساد الدين وإسقاط الملك، قد دخلوا على المسلمين من بابي القشيع والتصوف مما كما تقدم، ولذلك ترى أكثر طرق الصوفية تتصل بأئمة آل البيت عليهم السلام وتنتهي إلى أصلهم علي المرتضى كرم الله تعالى وجهه. وما عدا ذلك فهو مستحدث كطريقة النقشبندية التي تنتهي إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه. والباطنية هم الذين اخترعوا مسألة كون الشريعة لها ظاهر و باطن، وكون أئمة الباطن هم العارفين بتأويل القرآن وحقيقة الدين دون غيرهم، وكونهم يتصرفون بأمور الكون، وهم الذين أدخلوا على التصوف بدعة وحدة الوجود البرهمية ونزغات فاسفة اليونان النفسية. وكان غرضهم من ذلك إفساد عقائد الاسلام وإزالة سلطانه وحكمه، وكانوا يعنون بالأئمة والاقطاب وأهل الديوان المستورين أئمة نخلتهم الذين يريدون رفعهم إلى عروش الممالك ليتمموا لهم ما يزيدون بقوة السطة، بعد التمهيد العظيم له بالدعوة. وقد تم لهم أمر الملك في مصر بدولة العبيديين، ولكنهم عجزوا عن إبطال الاسلام وفساد أمره (٦) قد امتزجت دسائس الباطنية بتعاليم الصوفية فراج بعضها على الأكثرين وبعضها على الأقلين، وعز التمييز بينها حتى على كثير من العلماء الراسخين، كما راج على الأكثرين ما دخل عليهم من البدع الأخرى جهلهم بالسنة الصحيحة وسيرة السلف المتقدمين بهم من الصحابة وأئمة التابعين

فالضلالات والبدع المتغلغلة في كتب الصوفية قسمان (أحدهما) ما أخذه الباطنية من صوفية البراهمة واليونان وفسده في التصوف الاسلامي وليس له أصل من كتاب ولا سنة (ثانيهما) ما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر المخالفة للسنة في ذاتها أو في كيفيتها. ولا يخفى انه ليس لاحد بعد زمن الوحي ان يجعل بعض العبادات التي لا أصل لها في الدين شعائر تؤدي بطريقة مخصوصة في أزمان مخصوصة بكيفية مخصوصة. إذا لم يرد هذا التخصيص في السنة المتبعة. مثال ذلك صلاة رجب (الرجائب) وشعبان اللتين نص الفقهاء على كونهما من البدع المذمومة، وقس عليهما ما هو دون الصلاة من شعائرهم كاجتماع لقراءة الاوراد والدلائل والاذكار بالكيفيات المخصوصة في الايام المعلومه والمواسم المؤقتة كالموالد وغيرها، وما فيها من

البدع والمنكرات الكثيرة

(٧) إنما الحكم العدل في التصوف والصوفية كتاب الله وسنة رسوله (ص) وسيرة أهل الصدر الأول في اقامتهما والعمل بهما، فما وافق ذلك فهو الحسن المقبول، وما خالفه فهو القبيح المردود، وما كان غير موافق ولا مخالف فهو محل الاجتهاد اذا لم يعد ديناً، ونحسين الظن أولى بالعاجز عن الاجتهاد، ولو فيما كان مخالفاً للمعهود بين الناس

ولا يعرف هذا الحكم الا العالم الراسخ في التفسير والحديث وتاريخ الاسلام، لان شيوخ التصوف يلتزمون لما لديهم أدلة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ولكنهم قد يستدلون على الشيء بما لا يدل عليه من التأويلات البعيدة والآيات والاحاديث، والاخذ بالاخبار الموضوعة بآلة الضعيفة، وتري علما كبيرا كالامام الغزالي يقع في ذلك

(٨) طالما تمنيت ان يوجد كتاب لاحد أئمة العلم الجامعين بين علوم النقل والعقل والتصوف يحصي على المنتسبين الى التصوف ما ألما به من البدع، ويبين ما خالط كتبهم من دسائس الباطنية والفلاسفة، ويزن ذلك بالقسطاس المستقيم المبين في المسألة - السابقة - حتى عثرت على كتاب [مدارج السالكين بين منازل : إياك نعبد وإياك نستعين] للامام الشهير ابن القيم - وهو ابن بمجدة هذا الامر وأبو عذرتة - فاذا هو قد شرح فيه كتاب [منازل السائرين] لشيخ الاسلام أبي اسماعيل عبدالله بن محمد الانصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١هـ فكان هو الأمانة أما أبو اسماعيل فهو - على كونه من أكابر أئمة الصوفية أرباب الحقائق - مفسر محدث فقيه حنبلي سلفي، وأما كتابه [منازل السائرين] فهو نسيج وحده في متون التصوف، جملة عشرة أقسام في كل قسم عشرة أبواب، في كل باب كلام وجيز على منزلة من منازل السائرين الى الحق تعالى، وكل منزلة لها ثلاث درجات. وقد يعبّر بغير الدرجات قليلاً، وقد غاب تصوف مؤلفه على علمه بالسنة في بعض المواضع فشذ كغيره. ولذلك نمتي الحافظ الذهبي لو لم يكن ألف هذا الكتاب وأما الامام ابن القيم فلا يعرف مكانته وعلو قدمه في التصوف الا من اطلع

على كتابه مدارج السالكين . وأما علمه بالسنة وسائر العلوم الاسلامية فهو فيه أشهر من علم ، وكتابه هذا هو الذي حرر علم التصوف وتقاه من دسائس ملاحدة الباطنية وغيرهم ، وحكم فيه كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) وسيرة السلف الصالح . فهو غاية الغايات في هذا الباب ، لانعرف كتابا غيره ندل عليه من يريد هذا العلم علما إسلاميا ليس فيه بدع ولا عقائد زائفة ، الا ان تذكر لتدحض شبهتها ، وتدمغ جبهتها

مكان صاحب الترجمة من التصوف

بيننا في أول الفصل ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ربي تربية صوفية، وانه كان صوفيا حفيا خفيا ، وأنه كان يرى وجوب كتمان كل ما يؤتاه المرء من ثمرات التصوف ، وأن يكون مع الناس فيما يشاركون فيه من الصفات والاحوال . وكذلك كان : كان مع الحكماء حكماء ، ومع الفقهاء فقيها ، ومع الادباء أدبيا ، ومع المؤرخين مؤرخا ، ومع رجال الادارة والقضاء اداريا كاملا ، وقاضيا عادلا — وكان يخاطب كل قوم وكل فرد بقدر ما يراه من استعداده ، مع التزام الصدق واستقلال الرأي ولما كان وجود الصوفية في هذا العصر أندر من الكبريت الاحمر كانت مكانة الشيخ في التصوف مجهولة حتى عند أصدقائه وتلاميذه ، ولا أعرف أحدا من أهل هذه البلاد كان يزوره لئذا كره في علم التصوف وأحواله الا أحد شيوخ الطريق المعتقدين في الصعيد وهو الشيخ أبو شروقاي رحمه الله تعالى . كان لهذا الشيخ تلاميذ يعتقدون أنه من أولياء الله تعالى ، ومنهم من هو سيء الاعتقاد أو الظن بالشيخ الذي كان شيخهم يسأله عن دقائق التصوف ويستفيد منه

ولولا أن سبق لمؤلف هذا الكتاب اشتغال بسلوك طريق التصوف وعناية بمطالعة كتبه لما أمكن أن أعرف من صاحب الترجمة ما عرفت من أمره فيه شيئا لانه كان زكرة لا تعرف كما قلت في أول الفصل . وقد أخبرني أن كتاب الفتوحات المكية عنده كتاربخ ابن الاثير لا يقف فهمه في شيء منه

وقد بدا لي الآن ان أبدي شيئا مما كنت عازما على إخفائه من معنى قوله : مازج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر

ويخرجه منه وذلك قليل . فأقول :

ان كل من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة عرضة للوقوع في عالم الخيال ، ومن آثار ذلك ان يرى في اليقظة (الطبيعية لا ما تسميه الصوفية اليقظة) ما لا وجود له في الخارج ويسمع من نفسه تارة ومن الارواح التي تتمثل له تارة كلاما لا يسمعه غيره وان كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما انه لا يمكن للرجال ان يعبروا للأطفال عما هو خاص بهم من لذة أو ألم ، وينبع هذه الاحوال تخيلات وأوهام كثيرة ، يجد لها صاحبها لذة عظيمة ، يحتفر في جنبها ما سواها ، فلا يسمع فيها عذل عاذل ، ولا رأي عاقل ، ولا فتوى فقيه ، ولا برهان متكلم أو حكيم . ولكنه قد يقبل كلام من يرى انه فوقه في أحواله وأعماله ، وأننى لغريق خياله باقناذ غريق خياله ؟ بل ما كل من غرق ثم نجا يقدر على إنقاذ الغرق ، وإنما تكون انتجاة من هذا الفرق بقوة واستعداد من الغريق ، وقوة واستعداد آخرين من المنقذ ، وقلا يتفق اجتماع الامرين ، كما اتفق ذلك للشيخين — الاستاذ الامام والسيد الحكيم — قدس الله ارواحهما

ومن لم يتح له هذا التوفيق يفتن بهذه الحال أو بذلك الخيال ، ويفتر به ويرى انه مستغن به عن جميع العلوم الدينية والدينية التي فرضها الله على العباد ، اذ جعلها مدار صلاح أمور المعاش والمعاد ، فاذا اقترن بذلك ما يقع كثيرا من المكاشفات ، أو التأثير بقوة الارادة في شفاء بعض الامراض ، أو حمل بعض الناس على أعمال ما كان ينتظر ان يعملوها لولا ذلك التأثير ، وغير ذلك من الامور الغريبة التي يسمونها كرامات ، فحينئذ يكون من يقع له ذلك فتنة لنفسه ولغيره ، فيفلو فيه من يرى ذلك منه ، أو يروى له عنه ، حتى ان من الغالين من يمدلون هؤلاء الناس بربهم ، ويجعلونهم شركاء له في التصرف بهم وبغيرهم ، بل يدعونهم حتى عند الشدائد من دونه ، ويقدمون كلامهم على كلامه وكلام رسوله ، فاذا كان لاحد من رجال طريقته حزب أو ورد اتخذوا قراءته شعارا من شعائر الاسلام ، وهجروا لقراءته تلاوة القرآن ، ومنهم من يواظب على الورد ويترك الصلاة ، وإذا نسبت الى أحد

منهم بدعة ، قدموها على ما اتفق عليه المحدثون من السنة ، فيصدق عليهم بذلك ما فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (اتخذوا أجباهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بأنهم اتبعوهم في مسائل الحلال والحرام ، وكذا فيما زادوا في الدين من العبادات

ومن رضي أن يرى نفسه إماما متبوعا ، وشارعا مطاعا ، جدير بأن تعظم فتنه ، ويرسخ غروره ، وقد يتوهم انه على هدى من ربه ، وان من ينكر بدعه من علماء الشرع محجوب بقشور الدين عن لبه ، فيكون من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ولكن منهم من يتخذ إلهها معبودا ، وربما مقصودا ، وشارعا مطاعا ، وهو لا يدري ، واذا درى لا يرضى

ومن دون هؤلاء من ينتحل لنفسه مقام شيوخ الطريقة ، وهو لم يعرف للسلوك معنى ، ولم يذق للتصوف طمعا ، ولم يعقل له حدا ولا رسما ، إنما قصارى أمره فيه أن يرأس زعنفه من الغوغاء ، على اللفظ والصياح بما يسمونه الاذكار والاوراد ، ثم انه يُدعى له مقامات العارفين ، وكرامات الصالحين ، فيخادع العوام الغافلين ، بتخييلات السحرة وحيل المشعوذين ، ويخترع لهم من الرؤى المنامية ، ما هو عندهم أهدي من الكتاب العزيز والاحاديث النبوية ، فاذا مثل له الهوس في أحلامه ، بعض ما يشغله في عامة ليلائه وأيامه ، فقد يلبس على نفسه ما كان يلبسه على الناس ، ونعوذ بالله من شر الوسواس الخناس

فهؤلاء يعيشون في عالم خيالي ، وأولئك يعيشون في عالم خيالي ، والفرق بينهما كالفرق بين الملائكة والحدادين — كما يقول في أمثاله الغزالي — بل هؤلاء من الشياطين ، وأولئك من الصالحين غير الكاملين ، فهم بغرورهم بما هم فيه والاستغناء به عن علوم السنة والفتنة الصحيح والعلوم والفنون التي تمتاز بها الملة وذم ذلك واحتقار أهله كـ بعض غلاة علم الكلام وعلم الاحكام الذين يفضلون جدلهم وحيالهم التي يسمونها شرعية على كل شيء ، ويختفرون في سبيلها كل شيء .

ان المنتسبين الى طرق الصوفية في هذا العصر ألوف الألوف ، ولكنهم هبطوا الى أسفل سافلين ، قلما يصلح احد منهم أن يعد ممن سماهم ابن تيمية صوفية الرسم

دع صوفية الارزاق الذين فوقهم ، دع صوفية الحقائق الذين كلامنا فيهم طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين في اصلاح شأن المتسبين الى طرق الصوفية ، وإتقاذهم من خيالاتهم الفاسدة وبدعهم الفاضحة ، بل إخراجهم من جحر الضب الذي دخلوه وهم لا يشعرون — فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا ، ولما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ كان أول إصلاح سمعت اليه ان حاديات إقناع شيخ مشايخ طرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكري بالقيام بهذا الاصلاح ، كلمته بذلك قبل إصداري (المنار) ثم مازلت ألح عليه في ذلك وهو يسوق مع الاستحسان حتى عمد الى ذلك بوضع لائحة رسمية ولائحة داخلية ، ثم وضع كتابا في الاخلاق والآداب ، على انه سألتني عن رأيي في ذلك فقلت له مرارا ان الاصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والاخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق كلها ، ثم علمت بعد طول السعي ان ما حاولت من الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحي يكاد يكون من محالات العادات (١) وقد جرت المذاكرة في ذلك مرة بيني وبين صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي — وكان يرى أن إصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال — فقلت أرأيت إذا اقنعنا بعض إخواننا الصادقين في حب الاصلاح ، العالمين بطرق الارشاد ، بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة ، ألا يستطيعون ان يقفوا بعامة أهل طريقهم عند حدود السنة ، ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة؟ فقال إنا جربنا ذلك فأقنعنا رجلا من أمثل هؤلاء الذين تعنيهم بنحو ما ذكرت ، فكان عاقبة أمره معهم ، ان أفسدوه ولم يصلحهم ، فأنس بهذه الرئاسة وآثرها ، فحسرتنا بها

(١) لما بعد من عجائب مصر أن مشيخة التصوف فيها منصب رسمي يورث كالإمام ، فأمير البلاد يقلد بعض الوجهاء منصب (شيخ مشايخ الطرق الصوفية) وهو منصب محصور منذ عهد بعيد في بيت البكري من بيوتات مصر ، وشيخ المشايخ يقلد مشيخة أكثر الطرق المشهورة في هذا القطر من برنها عن أبيه أو غيره ، ولهم عادات وتقاليد في ذلك لا غرض لنا في شرحها

(م ١٧ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

فعلم بهذا كله ان للحياة الخيالية التي يعيش بها هؤلاء الناس لذة عظيمة سواء كان الخيال فيها عاليا أم سافلا ، ولذلك كان اصلاح شأنهم عمرا جدا ، ولن يقوم به الا من جمع بين العلم الصحيح والتقوى والاخلاص وقوة التأثير بالكلام وبالارادة ، وهيات ان يتفق وجود افراد من هؤلاء اتفاقا ، وانما يوجد في كل عدة قرون منهم واحد ؛ وكثيرا ما يكون لهذا الواحد من الصوارف ما يحول دون التصدي لهذا الاصلاح ، فيجب على المسلمين السعي لتربية طائفة منهم ، وقد كان الاستاذ الامام من اولئك الافراد القادرين على هذا الارشاد لو تصدوا له ، ولكن صرف عنه حتي كان أكثر الناس يظنون انه ليس منه في ورد ولا صدر ، وطالما كانت نفسه تتوق اليه ؛ قال لي مرة : اذا يئست من اصلاح الازهر فاتي انتقي عشرة من طلبة العلم واجعل لهم مكانا عندي في عين شمس أريهم فيه تربية صوفية مع اكمل تعليمهم وأستعين بك على ذلك ، وكان اقترح مثل هذا الاقتراح على السيد جمال الدين ايام كانا ينشئان العروة الوثقى في باريس ، وسيأتي بيان ذلك

ولو تم للاستاذ هذا على الوجه الذي يريده لكان أعظم أعماله فائدة ، وما كان يحول دون تمامه الا تعسر الاهتداء الى عشرة من المريدين المستعدين لهذه التربية ، فان أوبئة فساد الفطر والاخلاق وضعف الارادات والعزائم لم يكد يسلم منها الا الافراد الذين يعز الاهتداء اليهم بالسعي ، وانما يعرف منهم من يعرف بالاتفاق والمصادقة غالبا. على ان تلك الروح الملية ، والارادة القوية، جديرتان بتحويل الطباع ، وتبديل الاوضاع

الفصل الرابع

في التطور الاول من حياته العملية

وهو ما قبل النفي

يتألف هذا الفصل من تمهيد في نتيجة تربية صاحب الترجمة وتعلمه ، خمسة مقاصد — ١ —
تدريبه في الازهر — ٢ — تدريبه في مدارس الحكومة — ٣ — عمله في ادارة الحكومة
— ٤ — عمله في نظارة المعارف — ٥ — سيرته في الثورة العرابية

تمهيد في حظه مما يكون به الرجل عظيما لو سأل سائل: أي الرجال أعظم في
الامة وأفضل؟ — لاختلف الجواب باختلاف أفهام الافراد ومذاهبهم، فهذا يقول
أعظمهم العالم وذلك يقول بل الفيلسوف، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح، فينبري
رابع قائلا بل القائد الفاتح، ويخالفهم رجل آخر يدعي ان أفضل الناس السياسي
الحاذق، ويقول آخرون أقوالا أخرى. وإذا رجعت بالجميع الى البرهان رأيهم
يتفقون على ان أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم الى رفع
الامة من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا، وهؤلاء قلما نجد الاجيال بواحد منهم على
كثرة العلماء والصلحاء والقواد والسياسيين في كل زمان

انما يكون الرجل عظيما بأمرين أحدهما فطري لا يأتي بالكسب وهو الاستعداد
الذي يكون له بكمال الخلقة واعتدال المزاج، وحسن الوراثة للوالدين والاجداد.
وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع، وقد كان استعداد الاستاذ الامام
لكل أمر عظيما حتى كان استعداداه هو الاصل في تربيته وتعليمه. فقد علمت مما
مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لا يفهمها ولم يعرف هذا

عن غيره من المبتدئين بطلب العلم حتى أذكياهم الذين استفادوا بعد العناء، فصاروا من كبار العلماء، فقد كانوا يصبرون على مالا يفهمون زمنا طويلا، وإذا حفظ أحدهم شيئا بالترار ظن ان هذا فهم ودلم، ولا سيما إذا حفظ تفسير المتن من شرحه وحاشيته. ولكن صاحبنا لم يكن يترك المسألة حتى يفهمها، ويوقن أو يرجح أن الحكم فيها كذا، ولذلك أسرع اليه الملل من دروس مشايخ الاحتمالات. وكان يقول ان حضور كتب العلوم العربية على طريقهم قد أضر بذهنه وعقله، وأنه ظل يكتس ذهنه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة. وقد أعجبه طريقة السيد جمال الدين فانه كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للافهام ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبّقها عليها فان انطبقت والا أبان ما فيها من التقصير، أو يقرأ العبارة ويبحث في دليلها فيقره أو يفنده ويجزم بغيره. وبهذه الطريقة ارتقى الى أن يحكم بنفسه في المسائل ولا يرضى بمجرد فهم المراد مع التسليم لمؤلف الكتاب، فالذي امتاز به صاحب الترجمة على اخوانه الازهرين هو أنه في بدايته لم يرض أن يحضر شيئا لا يفهمه، وفي نهايته لم يرض بما يفهمه الا بعد أن يستشير فيه الدايمل فيرضاه له، وأنه لم يقنع بالعلوم المتداولة في الازهر بل كان من أوائل عهده يطلب العلم الى يوم وفاته يطلب العلوم ويقدم منها ما يزيده كمالا في نفسه، ويعينه على رفع شأن ملته وأمته، ولو انه تعلم في حدائمه على طريقة قديمة كما تعلم النابغون من حكماء أوربة وعلمائهم في المدارس النظامية ولم يضيع ذلك الوقت الطويل في البطالة وفي الطريقة الازهرية الملتوية - لرأينا من آياته العلمية أضعاف ما رأينا، على ان مارأينا يكاد يكون من الخوارق، فانه لم يكن يتكلم في علم الاوتراه صاحب القدح المملّى فيه حتى كأنه هو الواضع له، فمن شاء أن يقتدي بطريقته المثلى من الازهرين وغيرهم فليفعل عسى أن يكون من المفلحين.

وأما تربيته النفسية فقد علم مما تقدم أنفا انه تربي على طريقة الصوفية القويمة الخالية من البدع والخرافات وسلم من أوهامها الخالية حتى ملك نفسه وكملت أخلاقه وصار الدين وجدانا له، فكمل دينه بالجمع بين صحة الوجدان وقوة البرهان. وأهم ما اتفق له تربية الارادة أي ملكة العزيمة والاقدام، فقد كان فيها نسج وحده في أمته،

وسياتي بيان ذلك في الكلام على أخلاقه .

تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل أن يصير مدرسا رسميا فبدأ بإحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الازهر ثم ان السيد جمال الدين وجه وجهه الى اصلاح الاجتماعي والسياسي فجعله ساعده وعضده في ذلك، فاشتغل بها معه مدة ثم استقر رأيه على ان اصلاح محصور في إحياء لغة الامة واصلاح نفوسها بالترية الصحيحة والتعليم النافع. وسيعلم القارى من هذا الكتاب كيف تنقل في ذلك من حال الى حال حتى كان بدء عمله التعليم في الازهر وخاتمة التعليم في الازهر

المقصد الاول

تدريسه وبدؤه بإصلاح التعليم في الازهر

كان عفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ الطائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم إيساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني مع حواشيه ثم مقولات السجاعي بحاشية المطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر، فكبر سواد المجتهدين عليه، وكان يدعوهم الى مطامعة ما لم يهودوا من القنون والكتب، ويفتح لهم أبواب المداكرة والمناقشة ليلا، فكانوا يفتنون ليل ولا يشعرون بطوله، ووقتن الاذكياء بحسن بيانه ودقة فحجه، وحسده أناس منهم فحفظوا عليه قلب الشيخ عايش فكان ما كان من أمره معه، اذ ذهب ابن للشيخ عايش مع زبب آخر فقلوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية، وقد ربح في درسه أمس مذهب المنزلة على مذهب الاشعرية، وكان الشيخ عايش رحمه الله أدنا يصدق كل ما سمع، وكان شديد الغيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب، فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته، فأرسل الى الفقيد فجاءه وهو يقرأ الدرس في المسجد الحسيني، فقال الشيخ عايش: بلغني أنك تقرأ شرح العقائد النسفية درسا، قال: نعم، قال الشيخ عايش وبلغني أنك

رجعت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية ! قال : اذا كنت أترك تقليد الاشعري فلماذا اقلد المعتزلي ؟ إذاً أترك تقليد الجميع وأخذ بالدليل ، قال الشيخ عيش : أخبرني الثقة بذلك ، قال : هلم الثقة الذي يشهد بذلك فايميز امامنا هنا بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت ، قال الشيخ عيش : أو مثلك يفهم شرح العقائد ؟ قال : الكتاب حاضر وأنا حاضر فسلي ان شئت . فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب مجاور للشيخ عيش المهيب ، وقال بعضهم ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته ، وأخذ عمامته عن رأسه ، ولفظ الحاضرون ، فتركهم الفقيد رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن رأسه . فقال أناس ان الشيخ عيشا ضرب به ، وقال آخرون انه منعه من الدرس . وكثرت الاشاعات والاقوال والرؤى والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين . والحق أن ما ذكرناه هو كل ما حصل ، وأن الفقيد لم يمتنع من قراءة الدرس ، وقد اشيع ان الشيخ عيشا لا بد ان يمنعه من الدرس بالقوة ، واشتهر انه ترك قراءة الدرس في مسجد محمد بك أبي الذهب وأتمه في بيته . وقد حدثني انه لم يترك الدرس ولكنه كان يضع بجانبه عصا وقال اذا جاء الشيخ بـكازة فله هذه العصا . وكان من الشجاعة على ما بهد عارفوه ، كما سنبين ذلك في الكلام على أخلاقه .

أما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها ، بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاستاذ الامام رحمهما الله تعالى حتى عدوا حبس الاستاذ في امر الثورة الميرانية كرامة للشيخ عيش ولم يعدوا حبس عيش كرامة له . وسنعتقد فصلا خاصا في هذا الجزء نبين فيه انه لم يعلم أحد من أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن ، وأنه من مناقب حكيمنا قدس الله روحهما ، وإن الذين يتشفون بمثل هذا الخوض من الأعداء والحاسدين ومن يقدم من المساكين والمجانين لو عقلوا لكتموه وسعوا في ازالته

نعم ان ذلك الخوض والتقول مما نزين به تاريخ هذين الحكيمين ولكن لا نكر أن تأثيره السيء وقع على الامة الاسلامية عامة وعلى الازهر خاصة دون الرجلين الذين لم يحترم الناس من عقلاء الامة الاسلامية ولا من الاجانب أحداً في هذا

العصر من أهل المشرق كاحترامهم إياها — ذلك أنه كان عقبة في سبيل إصلاحهما واستفادة الأمة منهما ، وهما مأجوران عند الله تعالى بحسن نيتهما ، وبذلها جهد المستطاع في خدمة أمتهم وملتهم . وقد كاد يترتب على ذلك حرمان فقيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الأزهر لولا عدل الشيخ العباسي وإنصافه . ثم إن دروسه في الأزهر كانت بناءً جديداً للمقائد على أساس البراهين القطعية ، وتجديداً لما يلي من سائر العلوم العقلية ، وكانت حلقة درسه في الأزهر واسعة جداً تحيط بأعمدة كثيرة ، وكان يقرأ في بيته درساً في الأخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين : قرأ في ذلك كتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه الرازي فكان ذلك سبب طبعه المرة الأولى . وقرأ كتاب (كنز) في السياسة ولا أدري أنه أم لا .

شمر الأزهر بشيء جديد يتجلى في تلك الدروس ، فهابها كثيرون ، كما أقبل عليها كثيرون ، وحسد الفقيد عليه بعض الشيوخ فكانوا يصدون تلاميذهم عنه ، حدثني صديقنا حقني بك ناصف أنه ما أقدم على حضور درسه في الأزهر إلا على سبيل الاكتشاف ، مع مراعاة الحذر والاحتراز ، وإنما اكتشف بتلك التجربة كنزاً من التبر ، وغاص في بحر جنى منه أنفوس الدر ، فترك له ما كان يلهو به من الخرف ، أو يخطف بصره من بريق الصدف ، وتبع هذا المصلح فكان من أنفع تلاميذه .

هذا ما كان من أمر الفقيد في الطور الأول من حياته العملية ، وهو وضع جرنومة الإصلاح في الأزهر ، وقد بقي هذا همه الأكبر طول حياته فكان المبدأ والختام ، وسيأتي تفصيل ما عمله في الأزهر في أواخر أيامه .

المقصد الثاني

تدريسه في مدارس الحكومة

عين الفقيد في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم ، وللعلوم العربية في مدرسة الأسن الخديوية ، فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس

في الجامع الأزهر، فبدأ دروسه في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون بأنها مقدمة للتاريخ وإنما كان غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ، فكان يطبق ما فيها من الكلام على نهوض الدول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمته، ويبين أسباب ضعفها، والوسائل التي تذهب به وتميد اليها ما فقدت من عزها ومجدها. وكان يكلف التلاميذ كتابة المثلالات والفصول في ذلك فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب في هيكله، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شأن أمته، لأن هذه الأفكار لم تكن مهودة في هذه البلاد، فلا تذكر في المدارس ولا في الجرائد، والمرور في أذهان جميع الناس وقلوبهم أنهم عبيد للحكام لا حقوق لهم عليهم وقد كتب رحمه تعالى في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع في هذا العصر من أحكام العمران في المصور الغابرة

وكان في مدرسة الألسن آية البيان في أحياء اللغة العربية وإشراع الطريق اللاحب في التعليم، والخروج بالطلاب من مآرق العهد القديم وما نبغ من نبغ من تلاميذ السيد وتلاميذ الشيخ إلا أنه كان يقصد بتربيتهم وتعليمهم إيجاد نابتة من المصريين تحيي اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، وتقيم عوج الحكومة، إذ كانت قد رثت ووهت، ووقعت في النزاع أو أوشكت. عظم فيها سلطان الأجانب، وأحاطت بها سيول الفتن من كل جانب، ففئت الأمة بالمرية والمهينة، وضربت عليها الذلة والمسكنة، ذلك بما أسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس، وتعذيب الأجساد واذلال النفوس، وقد حدثني بعضهم أنهم عند ما كانوا يحضرون دروس الشيخ ومجالس السيد يشعرون بأن في استطاعتهم القيام بكل إصلاح يناط بهم، وأنهم إذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها في أقرب وقت، وقد كان السيد مهد السبيل لهذا الإصلاح باتصاله بتوفيق باشا ولي عهد الخديوية المصرية، وإقناعه إياه بما يجب أن تكون عليه الحكومة إذا آل أمرها إليه، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة السيد رحمه الله

ظهرت آثار روح الشيخين في أعمال تلاميذها فكان منهم أرقى القضاة

الاهلين والمحامين وأساتذة المدارس العالية ، ومن أشهرهم سعد زغلول ، و ابراهيم اللقاني ، وحفني ناصف ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد

المقصر الثالث

عمله في ادارة المطبوعات والجريدة الرسمية

في أواسط سنة ١٢٩٧ توجّهت عناية رياض باشا الى تحسين كتابة الجريدة الرسمية وجعلها مفيدة مرغوبا فيها من الناس فاستشار الشيخ حسيناً الرصني ومحمود باشا سامي البارودي كلا على حدته فأشارا برأي واحد كأنهما توأما به وهو جعل الشيخ محمد عبده محرراً فيها أولاً ففعل بعد أن استرضى توفيق باشا فصدر الأمر العالي بتعيينه محرراً ثالثاً وانتظر رياض باشا مدة من الزمن فلم يرتضياً يذكر فطلب الفقيده وسأله عن ذلك فقال ان أمر الجريدة ليس إلي وإنما أنا أحد المحررين ان طلب مني شيء كتبتّه وإلا فلا .

ثم ان رياض باشا كتب من الاسكندرية يأمر قلم المطبوعات في مصر بان يكتب مقالة في مالية مصر تلم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له قانون التصفية وأن تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان قد بقي له يوم واحد فخاص كتاب الجريدة وحاروا فلم يبدروا ما يكتبون ثم اهتموا السبيل فأرسلوا الى صاحب الترجمة من أحضره من الازهر وكلفوه كتابة المقالة فكتبها في مجلسه ونشرت فلما قرأها رياض باشا أعجب بها أشد الإعجاب وسأل عن كاتبها فقيل له هو فلان فزاد عجبه أن وجد في الازهر شاب واقف على تاريخ المالية في مصر عارف بجميع شؤونها قادر على بيان ذلك والافصاح عنه . ويقول بعض مريدي الاستاذ ان رياض باشا طلبه وكلفه كتابة تلك المقالة في بيان الغرض من قانون التصفية وفائدته للبلاد وأما الرواية الاولى فتد سمعتها من الفقيد ولعلها واقعتان لمقالتين . وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في اصلاح الجريدة اذ علم انه ابو عذرتها ، والمنفذ لما يرجو من ترقيةها ، فبين له رأيه في تقرير ضاف فأمر بان

(م ١٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

تؤلف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير، وأن توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك، وعين الفقيد رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية وسمي « المحرر الاول » لها، فاختر لها من المحررين المهرة الشيخ عبد الكريم سامان والشيخ سعد زغلول (هو سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ ابراهيم الملباوي (هو ابراهيم بك المحامي الشهير الآن) والشيخ سيد وفا (رحمه الله) وهم ممن كانوا قد برعوا في الكتابة معه على يد السيد.

ثم ماذا كان من شأنه؟ كان مالم يخطر على قلب بشر، وهو ان رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهميناً على الحكومة والامة، ينتقد الاعمال والاقوال، وينتقل بالناس من حال الى حال وضع لائحة لقلم المطبوعات أو الجريدة الرسمية اجازها وأنفذها رياض باشا فكان من احكامها ان جميع ادارات الحكومة ومضاهيها ومجالسها في العاصمة وغيرها مكلفة ان تكتب الى ادارة الجريدة مخبرة بما عملت فتمت وما شرعت فيه فلم تتمه، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج احكامها، وأن لادارة الجريدة الحق في انتقاد كل ما تراه منتقداً من الاعمال ومن المكتوبات الرسمية، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في اقطار المصري، وأن تبحث عن حقيقة ما تقول في رجال الحكومة واعمالها، وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنه اذا نشر في بعض الجرائد ما تراه انتقاداً للمطبوعات فيه فإن لها أن تسأل المصاححة أو الادارة التي يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية إن لم يكن ما نشر مستنداً الى النظارة وإلا سألتها هي مباشرة. فإن كان حقاً ما نشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذه من نسب اليه الذنب وذكر ذلك في الجريدة الرسمية. وإن كان كذباً طوب مدير الجريدة باثباته وإلا أذنب. وكان من احكام قانون المطبوعات انه اذا تكررت اذاعة جريدة ثلاث مرات يمنع اصدارها البتة أو الى الاجل الذي تراه الادارة.

وكان من حق هذه الادارة أن تفصل في كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلاً لا تجوز المناقشة فيه. وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية

أن يجعل فيها قسماً غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعاً من المقالات الادبية (ويدخل في الادبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) ومن أحب أن يعرف قيمة هذه المقالات في ارشاد الامة والحكومة فليرجع الى ما نشرناه من مقالاتها في منشآت الاستاذ في الجزء الثاني من هذا التاريخ

ان في هذا لمبة لاولي الالباب — صاحب عمامة ازهرية يدخل في حكومة مطابقة بعيدة في أعمالها عن رجل العلم والدين فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصلح لعمالها ما يذنبون ويرشد هم الى اصلاح العمل فيما يعملون . ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الامة فيقوم من أخلاقها ، ويصالح ما فسد من عاداتها ، بالوعظ الصحيح ، والارشاد القويم . ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربها على الصدق في القول ، ويجعل للصادق منها سلطاناً نصيراً ، وتأثيراً ما ثوراً ! يالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطرايش ، وهابتها التيجان وعظمتها البرانيط . ونذكرها على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام في ذلك الهدى ان يستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش فأبى عليهم ذلك فأردوا الاستعانة عليه برياض باشا فأوهوه انه يميل الى لبس الطربوش ولكنه لا يلبسه إلا بأمره فسأله فظاهر له أنه لا يرغب في تركزيه وأنه اذا ألزمه ذلك الزاماً فإنه يمثل مادام في عمل الحكومة . فاذا خرج من عمله عاد إلى عمامته فقال رياض باشا كلا انني لا أرضى لك الطربوش لانني أحب ان يعلم الناس أنه يوجد تحت العمامة من العقول والافهام مثل ما يوجد تحت الطرايش وغيرها فلا در رياض باشا وجزاه الله الخير فإنه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكن له في أرض مصر وهو الذي كان السبب في ظهور مواهب الشيخ محمد عبده في اول نشأته حتى إنه حكمه في انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال المتوسطين فيها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد أن اجتمع اصحابها في انتقاء المحررين وقد أندر القعيد عامله الله تعالى باحسانه مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته

إذا لم يختزلها محرراً صحيح العبارة في مدة عينها فبادر ذلك المدير إلى الامتثال ولم يكن يأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة . وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة في الجريدة الرسمية أن نبه شأن المجيدين ، وفتحت مدارس ليلية لتعليم المقصرين وتبرع تعمده الله برحمته بقراءة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة القلمية الحقيقية في مصر ، فالفضل فيها للسيد جمال الدين وللشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى وأما انتقاده أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريك الحق والعزل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة ، وكل مديرية ومحافظة ، وقد ثقل على بعض المديرين انتقاد الجريدة اياه وأراد منها من مديريته وراجع نظارة الداخلية في أمرها زاعم ان انتقاد أعماله يضع من قدر الحكومة في أعين الرعية ، فعادت عليه شكاواه بضد ما أراد ، وعلم ان سلطة الجريدة الرسمية ، فوق سلطة المديرية

وقد غني الفقيه يومئذ بنفسه بانتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والتربية في مدارسها شر تمثيل ، فضايق ناظر المعارف لذلك المهد ذرعاً ، فلاذ رياض باشا شاكياً من الجريدة الرسمية ، فقال له رياض باشا ان كان ما كتب حقاً فلا وجه للشكوى منه ، وان كان باطلاً فعليك أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وفلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها ، فانه لا يقصد بما يكتب فيها إلا المصلحة . فسكت الناظر واجماً ، وكان ذلك سبباً لما ترى في المقصد الرابع ، من المشروع في إصلاح نظارة المعارف

المقصد الرابع

(عمله في مجلس المعارف الأعلى)

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم ان ما يكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر الفقيه في ذلك وفي وسائل تلافيه فأشار أولاً بان يستبدل بناظر المعارف ناظراً آخر أقدر منه على الاصلاح المطلوب ، فقال له الوزير ان الوزارة متكافلة لا تستطيع ان تفتح للخديو باب التغيير والتبديل فيها ، فعرض عليه حينئذ ان يكون للمعارف مجلس أعلى يكون له الحكم الفصل في ادارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذا لما يقرره فأنفذ ذلك رياض باشا باستصدار الامر العالي الآتي

وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقتراحات النافعة ولولا كثرة ما جعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما .

صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وهذا نص الامر العالي به وما كتبه ناظر المعارف الى صاحب الترجمة في ذيله نقل من الاصل الرسمي المختوم بختم الناظر وهو :

ترجمة

أمر عالي (؟)

نحن خديوي مصر

بناء على ما رفعه لنا ناظر المعارف العمومية وموافقة رأي مجلس نظارنا ذمير بما هوأت : بند ١-

قد تشكل تحت رئاسة ناظر المعارف مجلس أعلى للمعارف العمومية مركب على الوجه الآتي :

ناظر الاشغال العمومية	علي مبارك باشا
ناظر الحقانية	حسين (فخري) باشا
مدير وكوميسارى صندوق الدين العمومي	موسيو موني
باشكاتب عموم التفتيش العام	موسيو ليرونه دي رول
رئيس عموم أركان حرب	استونه باشا
وكيل نظارة المعارف العمومية	عبدالله باشا فكري
ناظر المدارس الحربية	لارمي باشا
رئيس مجالس الصحة العمومية	الدكتور سالم باشا سالم
ناظر مدرسة الطب	جالياردو بك

ناظر دار الآثار القديمة (الانتقخانة) ومدير عماليات الحفر والبحث في جوف الارض ناظر مدرسة المعلمين	مسيو جاستون ماسيرو موسيو موجيل اسماعيل بك الفلكي روجرس بك فيدال بك جيجون بك اسييتا بك
ناظر مندرسة المهندسخانة ناظر قلم الاملاك الميرية المعروضة للبيع ناظر مدرسة الادارة ناظر مدرسة العمليات ناظر الكتبخانة الاهلية ناظر دروس المدرسة العالية ناظر مدرسة التجهيزية وكيل مدرسة الطب خوجه بمدرسة المعلمين محرر أول الصحيفة العربية الرسمية عالم	موسيو مونتان صادق بك شنن الدكتور عمان بك غالب الشيخ حسين المرصفي الشيخ محمد عبده الشيخ زين المرصفي الشيخ حسونه موسيو بارنار
خوجه بمدرسة الادارة خوجه بمدرسة اللسن	

بند — ٢

يمطي المجلس المذكور رأيه في المواد الآتية :
أولا في مشروعات القوانين واللوائح المختصة بالتعليم وخصوصا في جداول
مواد التعليم بالمدارس الميرية
ثانياً فيما يتعلق بإنشاء مدارس جديدة
ثالثاً فيما يختص بتوزيع ما يمطي من النقود على سبيل الاعانة والتشويق
للمدارس الغير ميرية

رابعا فيما يتعلق بكتب التعليم التي تستعمل في المدارس الميرية
خامساً في جميع المسائل المختصة بضبط وربط المدارس الميرية وحساباتها وادارتها

سادسا في المسائل المتعلقة بحقوق وترقي المعلمين
سابعا في غير ماذكر من جميع المسائل التي يقدمها له ناظر المعارف العمومية

بند — ٣

على ناظر المعارف أن يقدم في كل سنة للمجلس الاعلى صورة ميزانية المعارف العمومية عن السنة التالية وعند تقديم هذه الميزانية لمجلس النظار ينبغي أن تكون مصحوبة بما يديه المجلس الاعلى من الملاحظات فيها بعد نظره اياها

بند — ٤

يجوز المجلس الاعلى أن ينتدب واحداً أو أكثر من أعضائه إمالتحقيق المواد التي تعرض عليه أو لتفتيش على المدارس الميرية أو المدارس الغير ميرية المربوط لها مرتبات على سبيل الاعانة من طرف الحكومة

بند — ٥

على المجلس الاعلى أن يحرر وينشر في آخر كل سنة تقريراً عن حالة التعليم في المدارس الميرية

بند — ٦

ينعقد المجلس المذكور بناء على طلب ناظر المعارف العمومية ويكون انعقاده مرة واحدة بالاقبل في كل شهر ماعدا في مدة البطالة (؟)

بند — ٧

لا تكون مداولات المجلس المذكور صحيحة ومعتبرة الا اذا كن حاضراً به تسعة من أعضائه لأقل وتكون قراراته بأغلبية الآراء

بند — ٨

على ناظر المعارف تنفيذ أمرنا هذا

صدر بسراي عابدين في ٢٨ مارث سنة ٨١ — ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨

بامر الحضرة النخيمة الخديوية الامضاء (محمد توفيق)

رئيس مجلس النظار

ناظر المعارف

الامضاء (رياض)

(الامضاء على ابراهيم)

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده

المسطار بهذا الترجمة الامر الكريم (١) الصادر بتشكيل مجلس أعلى للمعارف وحيث ان حضر تكم من ضمن أعضاء المجلس المذكور فلزم تحريره للمعلومية بما اشتمل عليه الامر والحضور لديوان المعارف الساعة ٩ افرنجي صباحا في يوم الخميس الموافق ١٥ جا سنة ٩٨ حيث سيكون انعقاد اول جلسة في "يوم المذكور" ١١ جا سنة ١٢٩٨

ناظر معارف

الحم

٣٦٠
—
٣٥

هذا نص ما بلغه صاحب الترجمة بحروفه ، وخاتم ناظر المعارف منقوش فيه قوله تعالى (والله غالب على أمره) لا اسمه — ويرى القارى ان الاعضاء الاوربيين أكثر من الوطنيين في هذا المجلس

في هذا المجلس تألفت للنظر في اصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس جعل الفقيه الكاتب العربي لجلساتها وكان له فيها الاراء الصحيحة والحجج القيمة على ما يطلب من الاصلاح

اذكر من اقتراحاته شيئا سمعته من ولا ادعي اني أحطت بتفصيله كل الاحاطة وهو أنه اقترح مرة على المجلس ان يطلب من الحكومة مبالغاً عظيماً من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكافأة لها على خدمة العلم ونشره في البلاد ، فهش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء الوطنيين ووافق عليه الآخرون الذين عرفوا ما يرمى اليه المقترح فتمت قراراً كثيراً آراء. ثم انه اقترح في جلسة أخرى أن يقرر المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مفتشوا النظارة في نظام التعليم وسيره فيها فهش الاعضاء الوطنيين لهذا الاقتراح وعارض فيه الاجانب ، فأقام عليهم الحجة بأن جميع الدول الاوربية تراقب جميع المدارس التي تأخذ منها اغاثة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة ان تعلم أنها لا تضع دراهمها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول حق وانما نعارض

(١) قرارات مجلس النظار المصري تصدر باللغة الفرنسية الى الآن وتدون بها

وترجم بالربية

الآن في هذا الاقتراح لانتاعلم أن المعارف في مصر منحلة وإنما اجتماعنا لترقيتها، وأرباب المدارس الاجنبية مرتقون في العلوم والمعارف ولا يصلح الادنى للإشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على المرتقي . فقال الفقيد رحمه الله تعالى للمعترض : كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت ورفاقتك الاوربيون المرتقون من أعضاء مجلس المعارف المصري ، على انه اذا كان الطلب في نفسه حقا وعدلا فلا يصح أن يرفض لان المعارف العمومية لم ترتق في البلاد المصرية . فان عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لا ينافي وجود أفراد من الموظفين في النظارة من الاوربيين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوربة العالية يصلحون لتفتيش المدارس الاجنبية : فهضت حجته وتقرر اقتراحه . وانها لأمنية كان يتلخر على ذكرها السلطان والامير ، وبسبيل لتوهمها لعاب الناظر والوزير ، ولكن تقف دونها الآمال حسرى ، وتنحني أمامها العقول حبرى ، وتكبو في غاياتها جياد السياسة ، وبصفر عن الطمع فيها أهل الرياسة ، ثم تسمو اليها تلك الهمة ، وتستنزها من أعلى القمة ، ولولا الفتنة العرابية لجعل لنا ذلك العضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ، على ما كان لهم في ذلك الزمان ، من النفوذ والسلطان ، فكيف لو كان ذا منصب أعلى ، ونفوذ أقوى ؟

المقصد الخامس

عمله ورأيه في الثورة العرابية

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت في أواخر إمارة اسماعيل باشا في ظلمات بحر من الظلم لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض — ظلمة الجور والظلم ، وظلمة الفقر والفاقة ، وظلمة الشرور وفساد الاخلاق ، والآداب ، وظلمة تحكم الاجانب وسيطرتهم على الحكومة بحجة المراقبة المالية للملم من الديون على اسماعيل باشا ، وظلمة سلطتهم على الرعية التي أغرقوها في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى ، وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهر من غمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمعت جذوة منه في الازهر فتفخ (م ١٩ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

الشيخ عlish نفخة أخذتها ولكنها ما أطفأناها، ثم كان هذا النور يظهر في معاهد خاصة فتعشو اليه الابصار، ويسير في ضوءه من سار، حتى أشرق وتلاّ في ادارة المطبوعات، وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ما كان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأمرهم الجديد (توفيق باشا) اعفته عن أموالهم، ورغبته في اصلاح حالهم، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بناجم الفتنة قد نجم، وطائر الشرق قد وقع، اذهب ضباط الجيش من المصريين يطالبون بحقوقهم، وأيديهم على مقابض سيوفهم، وتلك هي ما يسمونه بالثورة العراقية

كان استاذنا في أول أمر هذه الثورة كارها لها مند ابزعمائها وهو بينهم، لانه كان يعلم انها تحبط عمله الذي مضى فيه، وكل اصلاح لعمله الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد للاجانب سبيل الاستيلاء على البلاد، بل كان هو واستاذه يتوقعان ذلك من سيرة اسماعيل باشا، وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد، وحاول ان يحول دون ما يخبث ويوقع بالدمي في الاصلاح، فليس قولنا عن استاذنا أنه كان لا يجهل خطر الثورة من الدعوى أو الرجم بالغيب، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من المعارفين بما كان. كان ينتقد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في أنديتهم وسمائرهم وبالكتابة في الجريدة الرسمية، حتى أرسل اليه عرابي مرة من يتهده ويقول انك أنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش ورؤسائه. أرسل اليه ضابطين الى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما اذا هما لم يخرجوا، حتى صار عرابي وأعوانه ينفذون من المجلس الذي يدخل فيه

زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جلوس يتكلمون في الاستبداد والحرية، والحكومة المطابقة والحكومة النيابية الدستورية، واتفقوا على أن الأمن على الادواح والاول، وصعود الامة في مراقي الكمال، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال، وان هذا التحويل قد آن في مصر أوانه، وأدركها إبانها، فعارض الاستاذ في ذلك وقال ان أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال

يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيزية، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح، ومنه تعويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها اياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديریات والمحافظات، وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بما له قبل بلوغه سن الرشد وكال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد. فطلق عرابي مجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية، وكان مما احتج به الفقيه عليهما أن الامة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤونها لما كان اطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصوير الاستعداد الامة ومطلبها، ونخشى ان يجر هذا الشعب على البلاد احتلالاً أجنبياً يسجل على مسييه اللعنة الى يوم القيامة.

عند ذلك أبدى المجادل نواجزه لغير تبسم، وقال أرجو أن لا أستحق هذه اللعنة، وليس الجند هو الذي يطالب مجلس النواب ولكنه مؤيد لطلب أعيان البلاد ووجهاتها، ثم أصر الى الاستاذ أن سلطان باشا جمع الاعيان لهذا الطلب.

وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد المنار الرابع (مجلد سنة ١٣١٩) رداً على صحافي عرض بأن الاستاذ الامام كان من أركان الثورة العراقية نذكره هنا وهو « عرض هذا الانفجاني المتذقح بذكر الفتنة العراقية وبيالته كان يعرف حقيقة الفتنة العراقية ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرفه فاذا أحب فليسأل العارفين، وإبراجم كتابة الكاتبين، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين، يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي ونهوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها على حين ترتعد فرائص قصر الخديوية من عرابي، وعلى حين يرى هذا المنتقد الشجاع ان رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابي مكرها ويسمع من أتباعه ما يكره. ثم تظهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العراقية عند ما ألزموه حضور مجتمعه وان يقوم فيهم خطيباً.

« ماذا كان موضوع خطبته؟

« كان موضوعها بيان تاريخها اجتماعيا ملخصه أن المهود في سيرة الامم ومنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلاطتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام ، وانه لم يعهد في أمة من أمم الارض ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستثمارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك ، فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ (قال) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الانساني ، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدهم ونسأوا الصعاليك حبا بالعدالة والانسانية ؟ أم تسبرون الى حيث لا تدرون ؟ وتعاملون ما لا تعلمون ؟ : وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطفقوا ينفضون رؤوسهم وعلا على أفهام الآخرين

« هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمعات رؤساء المراهبين ولو كانوا يعقلون لرجعوا به الى رشدهم ، ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما نستعد الى الآن ، ولهذا الاستاذ ان يمثل بقول ابن الفارض رحمه الله تعالى

« ونهج مبدي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمت » اهـ

هذا ما كتبناه في سنة ١٣١٩ ونزيد عليه الآن أن عرابي ورجاله خنقوا على الاستاذ وكاشفوا المرحوم السيد أحمد علي محمود والمرحوم ابراهيم افندي الوكيل وكانا من أعضاء مجلس النواب ومن أخص أصدقاء الاستاذ بما أضمره له من سوء فاعدا احتفالا في منزلها بقصر الشوك دعيا اليه كل ذي جاه ومقام ليصاحبا ذات البين بين الفريقين ، وتوالى الخطباء هنالك حتى جاء دور الاستاذ وقام ليعتذر عما مضى ففسر مقصده من الخطبة السابقة تفسيرا كان أسوأ تأثيرا في نفوس المراهبين مما كانوا تقومونه منه وخنقوا عليه لاجله .

ولا يلتبس على القارئ معارضة الاستاذ الامام للمراهبين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بعد استاذه وأول من

تلقى ذلك عنه، فانه إنما كان يحاول أن يكون ذلك برضا الامير وحكومته لا بالخروج عليه، وأن يكون في البداية من قبيل التربين والتعويد، مقرونا بالترية والتعليم الى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها، وتصل من طريق الحكمة الى رشدها، وقد رأيت كيف كان التوصل اليه منه، فيما رويناه لك عنه، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالاصلاح عند مهب الفتنة، ويأجأ الى قصر الامارة أو يتغيا ظلال العزلة، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله بين المصالحتين، وقد قال عرابي مرارا كثيرة: عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطلب في بضع سنين، ونهاه بعد ذلك عن محاربة الانكليز

انتهت الثورة بالاحتلال الانكليزي وقبض على زعمائها وألقوا في غيابة السجن ليحاكموا فيقتلوا تقيلا، وجعل الفقيد منهم لأمرما، وصدر الامر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكليزي، وعين لهم محام انكليزي جاءهم فسمع منهم، وكلهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم، كل يكتب عن نفسه، ولا يطمعن في غيره؛ فلم ير في كتابة أحدا ما تقوم به الحجة، وتعمد به التهمة، ويدل على الغوص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الاسباب والنتائج. الا ما كتبه وما قاله الاستاذ الامام، وقد زاد المحامي على بيان ذلك أن أشعره بالحفايا، وأطلعته على ما في زوايا القصر من الخبايا، كقوله ان الحاشية خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا بأن يفعل كيت وكيت. وأعطاه من المستندات ما يقلب وجه المسألة، ولا ترضى اظهاره السياسة، فكان ذلك سببا لتخفيف الحكم، ونسخ إعدام الزعماء بالنفي، فحكم على عرابي ورفاقه المعروفين بالنفي الابدی وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث سنين. وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل من المنفيين حاشا الامام فانه كان رحمة له ونعمة عليه، ومزييدا في كمال علمه وتربيته، ومبيا لنشر علمه في بلاد كثيرة، ذلك أنه كان من أهل الاخلاص والتقوى، فعمل الله تعالى له من كل ضيق فرجا ومخرجا، بل بدله بالنقمة نعمة، والسيئة حسنة، فكان مبدأ حياة جديدة له نينها في الفصل الذي يلي هذا

هذا ما كنا كتبناه في النار ونزيد عليه هنا ما يلي :

﴿ قصيدة الفقيد في الثورة العرابية ﴾

أصبح الدلائل على رأي الانسان في أمر من الامور أو حدث من الاحداث
وعلى موضع ذلك الشيء من شعوره ووجدانه ما يكتبه بشأنه في أثناء وقوعه ، وقد
نظم صاحب الترجمة قصيدة في شأن هذه الثورة وهو في السجن صور فيها كل
ما كان في دماغه وقلبه في ذلك الوقت ، اذ كانت نفثة مصدور ، وشكوى مظلوم ، وأما
مصلح لم يدركه أهل زمانه ، فانهموه بضد ما كان عليه في نفسه ، ولو كان قعيدنا
من الشعراء ، أو استمال بقصيدته أمير البلاد أو أصحاب السلطة العسكرية فيها ، أو
اعتذر عن عمل عمله ، لا يمكن لمن لم يعرف أخلاقه أن يقول إنه قال غير ما يعتقد
ويشعر به لاستمالة أصحاب السلطة اليه ، توسلا به للافراج عنه . ولكن القصيدة كما
تري ، وهو لم ينظم الشعر قبلها ولا بعدها ، الا تلك الايات التي قلها في مرض موته
وقد سارت بها الركبان ، وحفظها الالوف من الناس . وقد قال لي إذ أنشدني إياها
أتي قلت شعرا في هذه الايام كأنتي لا أقول الشعر الا في المرض أو السجن (يشير
الى هذه القصيدة)

وقعت لنا نسخة من هذه القصيدة فيها غلط وتحريف وتصحيف ، فما عرفنا
أصله باليقين صححناه ، وما لم نعرف أصله تركناه ، وهي :

ما لي يعنف قلبي من تفاضيه	دهرٌ يسالغ في عجب وفي تيه
أيت لي كملسوع تساوره	زرق الافاعي وقد شدت أياديه ^(١)
الجسم في ألم والروح في قلق	والقلب في فرغ من خوف آتیه
وما ذنوبي لدى دهري سوى شتم	يا بني الدنيا وأفكار تضاهيه
سريت للمجد هو لنا غير ذي عجل	على أساس من التقوى أراعيه
مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه	وشيمة الحر تأبي خفض أهليه

(١) الايادي جمع الايدي وهي جمع يد ، وأكثر ما تستعمل الايادي في النعم
وصنائع المعروف ولعله يشير الى عجزه عنها في تلك الحال

وإذا أحسنَ عِدَاةَ الفضلِ مشيتنا
 فأوقفوني شهورا في مقاومة
 وازددت بسطة جاه لم يَنْ بها^(١)
 أنزلت نفسي مقاما لا يحفُّ به
 وقت للحق أجلوم من مطالعه
 وأبرزَ الفكرُ كنزا من جواهره
 وصحتُ بالظلم لا تطرق مغايننا
 نخرَ كلُّ غشوم واجفًا صَعَقَا
 وكنت أسهرُ ليلي في مطالعة
 أنعم به من سهاد كنت آفه
 وكان لي أمل في وضع قاعدة
 ويؤخذ القوم طرا في مناهجهم
 حتى يكون نظاما كل سيرهم
 يأخذ العلم والتهديب مأخذه
 ويصبح العدل طبعنا في جبلتنا
 وتستقل بلادنا في حكومتها
 ويشمل الخصب انحماها بجملتها

قاهوا على قدم: هيا نلويه^(٢)
 نجوت منها بعزم هيب ماضيه
 سوى مضيم ومظلوم اتجيه
 الا الفضائلُ تعلية وتغليه
 نورا وكانت غمام الظلم بتحقيه
 وزيت النطق باهيا بحالیه
 [رياض] راع وعثلي من حواريه^(٣)
 وارتيج كل ظلوم خيفة «الهي»^(٤)
 ونشر در لتبيان أوفيه
 وأبفض الشمس تُثني عن وصالیه
 لكل نوع من الاعمال تحويه
 أن لا يجوزوا عن المشروع أوفيه^(٥)
 بمقتضى الإرف مع فهم يزكيه
 من النفوس فزهو من دراريه
 ويشهد الكون أنا من موالیه
 ونمنع الترك مفروضا تؤديه^(٦)
 ويثري القطر قاصيه ودانيه

(١) أصله تناوئه بالهمز أي تفاديه (٢) أصل هنا (٣) حواريه بتشديد الياء
 أنصاره وخفف لضرورة الشعر (٤) هية اسم صوت كان يردده رياض باشا دائما بغير
 قصد، وأدخل عليه حرف التعريف لقصد لفظه، والمعنى خروفا من ذلك الوزير
 (٥) جار عنه عدل وانحرف وجار في الحكم وفي الامر ظلم أي بأن لا ينحرفوا
 عنه ولا يظلموا فيه (٦) قد كان موافقا لرجال الثورة في هذه المسألة

نقضي ديونا وتنشئ من ينازعنا
هذا سبيلي خبيت السير فيه على
ما كنت أسعى لنفسي في مصالحها
وكننت أتجمع قومي في مكالمه
وتنهض العزم أقوالي ولا عجب
أقاوم الصعب في سيري فأخضعه
وانما الفكر يغني نفس صاحبه

*

وبينا أنا لاه في محادثتي
قامت عصابات جند في مدينتنا
ذاك الذي أنعمش الآمال غيرته
قاموا عليه لأمر كان سيدهم
كان الرئيس حليف العدل منقبة^(١)
جرؤا مدافعهم صفوا عساكرهم
فنال ما نال وانفضت جموعهم^(٢)
ثمالبُ الشر هبت من مراقدها
تفلت الحكم من أيدي مدبرة

بصوت فضل يرج السكل دأويه^(١)
رغم الانوف من البله المعاتيه
جزءاً من الألف من سعي لانهيه^(٢)
مع الرئيس لإخلاص بتنويهي
شراب حق وروح الفضل ساقيه
ولا حسام ولا رمح أرويه
عن الجيوش اذا صحت مباديه

مع المعالي أقول «الامر ما فيه»^(٣)
لعزل خير رئيس كنت راجيه
وخلص القطر فارتاحت أهاليه
يخفيه في نفسه والله مبيديه
وسيد القوم يهوى الجور يأتيه
نادوا بأجمعهم سل ما ترجيه
أما النظام فقد دكت مبانیه
وأفسدت من قوام العدل باقيه
وصار فوضى شتيت الناس مجريه

(١) لعل البيت محرف (٢) الضمير راجع الى السبيل وهو يذكرو يؤنث (٣) هذه
جملة محكمة تستعمل في مصر عند إتمام الكلام وإرادة الشروع في غيره (٤) الرئيس
رياض باشا أي كان العدل منقبة راسخة فيه لا متكلفا (٥) أي نال سيد الجند
عربي ما نال من عزل رئيس الحكومة رياض باشا

مانوا أماني تبكيني وتضحكني
 حديثهم صخب أسرارهم لجب
 أما سبيلي فقد سدت منازعه
 رجعت أجري على خوف لمبدئه
 فغنفوني وراموا خفض منزلي
 وعجت أسأل ماذا في حقائبكم؟
 هزوا الرءوس جوابا أي نعم معنا
 فلولات مهجتي حزنا على وطني
 وصفت من كلمي شمسا تكاشفهم
 فأنكر الجمل ضوء الشمس ضاحية
 لووا رؤوسهم عجباً بقوتهم
 مزجت بالهزل جدي عل يعجبهم
 وأعجم القول طورا في مناصحتي
 وعند ما حقت البلوى أشرت لهم
 فلم يصيخوا وعجوا في محاضرم
 ولم يزالوا حيارى في تردد
 وشب حربا صلاها من بني وطني
 وسح كل غني ماء نروته

(١) مانوا كذبوا والاماني جمع أمنية وهي ما يستنمأ الانسان ويطلق على الكذب
 أي اختلفوا لا تفهم أماني زعموا انها مطالبهم وهي الحرية ونظام الشوري المالي في
 الاحكام. ولفظ الشوري يختلس فلا يعد مراعاة الوزن (٢) أي لا يلاقيه ويحتمل أن يكون
 لا يواتيه (٣) كان موضع كلمة خطب ياضاً ثم كتب فيه بقلم الرصاص كلمة (سال)

حرية ونظام الشوري عاليه (١)
 لا عقل لافهم أين النجح نبغيه؟
 طبعاً وعز صمودي في مراقبه
 أناد قومي تمالوا لا نماديه
 فقات لا تعجلوا هذا مرأيه (٢)
 هل ثم فكر وفكري لا يوافيه؟ (٢)
 سياسة السيف فيها الفصل نقضيه
 وقلت (خطب) لعل أن أجليه (٣)
 هذا المصاب الذي حلت مرأيه
 وظلمة الغي وارت ماتواريه
 واستكبروا النصيح أن يصغوا الصافيه
 كوالد الطفل يلبيه بمرضيه
 كساحر أم مصروعا ليرقيه
 : هذا الخراب فقدوا قد باغيه
 قولا هراء بلا فعل بماليه
 حتى دهام أبو الهيجا بداهيه
 من لا يهاب المنايا أن تقشيه
 كما همى دمع عيني من أمأقيه

وعج كل فقيه في تضرعه
والمسلمون وكل القبط في نهج
نادوا بأجمعهم هذى مواطننا
وبينما الظفر معتود بوحدهم
واستدبر الجيش واستدعى لحضرته
وقال أقدم فلا حرب ولا حرب
فرا به الريب وانهارت عزائم
وخالف الأمر واستعصى بقوته
وصار جيش المداء جيشا لحاكمنا
فأنحل عقد نظام كان ملتصقا
هذا وهذا الى ما كان من دخال
وزاد في الضعف ضعفا أن قوتنا
وقائد الجند شهم في مكالمه
يستطلع الرأي والتدبير في حُلم
ما كان أحسنه شيئا بزاوية
أما البلاد فوانمى لحالتها
واستنزفت طلبات الجند زوتها

كما تفر قلبى من عواذيه
مع اليهود كان لا دين بأويه
وطارق السوء فيها لا نخليه
مال الأمير لأمر كان ينويه
زعم عسكريه يلو مغازيه
فليصرف الجيش فورا لاتبقيه
إذ كان جيش المداء بالشر ماله
وز صب الشر مولى القطر واليه
وقوة الملك تحمي وجه عاديه
وبدد الرأي وهم كان يوهيه
في أنف من كبار الجند تطويه
ناس يرى ضبطهم صعبا تلافيه
أشعل قلبا إذ الهيجا تناديه (١)
من المناومات جل الله هاديه
يفشى النساء بوعظ كان يمليه
لم يبق فيها سوى أمر وتذنيه (٢)
واستأسد الذئب واشتدت عواذيه

(١) يعنى ان عرابى باشا كان شهماً أى ذكى الفؤاد عند الحديث ومكالمه الناس
ولكنه جبان اذا نادته الهيجا أى الحرب الى القتال يصاب قلبه بالشلل ، وفيما
كتبه الناظم في أسباب الثورة ومذكراتها يان لذلك مؤيد بالحوادث (٢) أى لم
يبق فيها سوى أوامر الجند تنفذ بالقوة ونذرم التي بسمونها تنبيهات

حكام أريافها هاضوا بأجمعها
 مهاجرو الثغر زادوا في مصائبها
 ماذا أحمل نفسي في مداركتي
 أظل يومي وأمسي في مناضلة
 وسقت من منطقي جيشاً أروع به
 حوائج الناس هالات على قري
 ونجح الجند مني في وقايتهم
 ولا جزاء أرجيه سوى ألم
 والناس قسمان قسم همه نسب
 وبينما الناس أحزاب وأغلبهم
 ساق النظام على الأشتات عسكره
 منا قتل ومنا هائم جزعا
 في موقع الشرق كانت شر هزمتهم

واستفرغوا من فقار الظهر شوكة (١)
 قوم جياع وباع العقل شاريه (٢)
 هذا البلاء بتخفيف يسريه (٣)
 مع الاهالي لدى من هم مراميهم
 قلب السلمي فألميه وأدهيه (٤)
 وليس في الناس إلا قاتل هيه (٥)
 ويقشع الظلم مذعوراً طواغيتهم
 يلتم بالقلب والانجياز يشفيه
 وآخر همه الطيباء تطريه
 من المنيفين (٦) يشدو باسم مسميه
 فصبح التل طود من سواريه (٧)
 قلبي الجريح فهلا من يداويه؟
 والشرق ضأن وذئب الغرب راعيه

(١) هاض العظم كسره بعد الجبر والظاهر ان المراد هاضوها أي الارياض
 بمعنى أهلها . وكان يمكن أن يقال * حكام أريافها هاضوا العظام بها *
 ومعنى البيت انهم كسروا عظام الاهالي وانتقوها أي أكلوا ما فيها من النخاع
 حتى النخاع الشوكي الذي لا حياة بدونه — أي لم يبقوا للفلاح شيئاً يسد به الرمح .
 وله شوكة مخفف شوكة أي نخاعه الشوكي (٢) مهاجرو الثغر هم الذين هاجروا
 من الاسكندرية الى الارياض (٣) جواب الاستفهام معروف من السياق: أي أحملها
 حملاً ثقيلاً (٤) أدهيه أنسبه الى الدهاء أو أرميه بداهية . يقال دهاه يدهاه بهذا
 المعنى (٥) هيه كلمة تقال للاستزادة (٦) أي ساق الانكسار أولو النظام عسكرهم على
 العرايين الاشتات المتفرقين فصبح المكان المعروف بالتل الكبير جبل من سواريه
 أي جيش كبير من فرسانه كالجيل في عظمتهم

وقائد الجند وافانا بلحيته
وسلم السيف واستجدي بعقلته
تخوف الذل فاستدعى مطيته
يسبل رعبا وثوب المار كاسيه
عفوا من الحنق المنزو خديويه
ركضا اليه فوافاه موافيه
..... (*)

تذكرتني وجوه كنت أعرفها
تيقن العزم اني لو برزت له
فهاص في قرم من ضل سحنه
حجبت عنهم وعضي غير محتجب
بنى الزمان لهم بيتا وشيده
نعم له معنا فيهم مداركة
هذا الزمان زحماه فذل لنا
وأحفظ الدهر اني لا أشاكاه
أحارب الدهر وحدي ليس ينفعني
تعلم الدهر مني كيف يطمني
وليس يعجزني عن كسر فياقه
ان المنايا سهام الله سددها
تعد لثم نعالى غاية التيه (١)
أخرجت من ضغنه أخرى مخازيه
يبغى مغالبي كلا ساقيه (٢)
صل يصلصل والاقدار تمليه
وليس يبغي على مالست أبقيه
فيهم أجرم من صنع أيديه
لكن به صرف عيب كنت أدريه
فما تبطن من غش وتمويه
إلا الثبات وحسي من أصافيه
نخاب ظنا وخائنه وراكيه
إلا المنايا تفاجيني فتحميمه
وليس يخطيء سهم الله ورميه

(*) حذف من هذا الموضع بضعة أبيات محرفة الاصل معظمها في طعن سلطان باشا
(١) رويت هذا البيت بهذا اللفظ عن محمود اقدى الكحيل أحد تلاميذ الاستاذ
الامام في المدرسة السلطانية ببيروت وقد رواه كما سمعه منه أو من أخيه حموده بك
الذى كان تلميذاً معه في المدرسة. وتنبت لو قال بناني بدل نعالى وقد يكون تقبيل
النعال حقيقة لا مجازاً (٢) هاص الطائر ساج وهاص بالشيء عتف به وأقمى الفارس
فرسه — رده القهقري . ولعل المصراع الاول محرف

كتاب الثورة العراقية

إذا كانت قصيدة السجن ناطقة برأي صاحب الترجمة وشعوره في الثورة العراقية وهو في شرح الشباب ، وأوان التأثر والانفعال ، ذي السلطان الأعلى على الخيال . و كان خيال الشعر في مثل هذه الحال والسن يصور الأشياء أحيانا بغير صورتها . وكثيرا ما يسمها بغير مسميها . فاعلم أيها القارئ لسيرته أنه قد كان شرع في أواخر سني حياته ، أو قبل بضع سنين من سنة وفاته ، بكتابة تاريخ للثورة العراقية يبين فيه أسباب الحوادث ومسبباتها ، وعالل الوقائع ومعلولتها ، ويستنبط النتائج من مقدماتها . توجه الى كتابة هذا الكتاب بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبلغ من كمال الحكمة الغريزية والكسبية المنتهى . بطالب من أمير البلاد . خلف العامل الأكبر في تلك الأحداث . وانك لتجد ما كتبه في هذه الحل . القاضية بأتم الروية والاعتدال . مما يعد في معنى الشرح . لما جاء في قصيدة السجن ، إلا ما فيها من الفخر . الذي لا يحسن إلا في الشعر

ومن سوء حظ مصر والمصريين ، بل الشرق الأدنى والشرقيين ، ومحبي حقائق التاريخ أجمعين ، أن الاستاذ الامام . لم يتم تأليف هذا الكتاب ، وسبب ذلك أنه كان يكتبه لأمر البلاد عباس حلمي باشا بأمره . وكان اذ رغب اليه بكتابته — وذلك في السنين الاولى من امارته — موادا للاستاذ شديد الرغبة في استفادة الامة من معارفه ، ولكن لم يكمل يتم القسم الاول من الكتاب ، وهو ما تقدم الثورة من المقدمات والاسباب . ففتح لها الطاق والباب . حتى نجمت نواجم التناكر بين الامير والاستاذ . وانتهت الى المفاضلة الشديدة المعروفة . وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا الى الامير أن الاستاذ عدوله واييت محمد علي ، ولا يزال يسعى الى سلب الامارة منهم . وبهذا صار تأليف الكتاب للأمير مشكلا ، لانه قد يعد مؤيدا لتهمة المفسدين بما فيه من إلقاء تبعة الثورة على الخديو توفيق باشا مباشرة . وجعل ما كان من اسراف الخديو اسماعيل باشا وسوء ادارته للبلاد أسبابا ممهدة لها — ثم ان أعمال الاستاذ الامام تضاعفت بعد جعله مفتيا للديار المصرية وعضوا في مجلس

الاقواق الاعلى ومجلس شورى القوانين على كونه رئيسا للجمعية الخيرية وعضوا
في مجلس ادارة الازهر . بل كاد يكون هو المجلس وحده — وسيأتي بيان كل ذلك
في موضعه — فلا جل هذا كله ترك إتمام كتاب الثورة ، منتظرا به سنوح الفرصة
قد اطلعت على مسودة ما كتبه بعد أن كنت كتبت كل ما تقدم القصيدة
من هذا المقصد في ترجمته التي نشرتها في المنار فنقلت جملا منه في ترجمة السيد
جمال الدين . ثم رأيت من تمام الفائدة تلخيصه أو الاتيان بخلاصة وجيزة منه
هنا يعرف بها قراء تاريخه مالا سبيل لهم الى معرفته من غيره . اذ كل ما كتب
غيره في هذه المسألة لا يتجاوز بيان الظواهر الخادعة والاخبار الرسمية . وأبدأ
بنشر خطاب المؤلف للامير في ذلك وهذائمه :

خطاب الاستاذ الامام لسما الخديو في أول الكتاب

الى مليك مصر المعظم عباس حلمي باشا الانخم

مولاي

هذا مقام الذاكر لنعمتك . العارف بقدر منتك . العاجز عن الايفاء بحق
شكر . التالي في سره وجهه لايات حمدك . طوقني احسانا لم أكن أتأمله . اذ
أمرتني أمرا ما كنت أتخيله . أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت . وما علمت
وما . اعتقدت في الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى نهايتها . مع بيان أسبابها .
واسناد الاعمال الى أربابها . سمحت بأن تكون الحقيقة بادية الرواء . حاسرة نقاب
الرياء . أي منة أعظم من الاذن للحقيقة أن تتجلى بعد أن نسجت عليها المناكب .
وتدافعت عنها المناكب . وسترها عن الابصار عثير الالهواء . وحجبها عن البصائر
ضلة الاعالياء . وذلة الضعفاء . حتى أنكرها من شهداها . وخبط فيها من سمع خبرها .
ممن تولى كبرها . أو ممن لم يقف على سرها . ولم يميز خلتها من خمرها . أي إحسان
أجل وأوفى من رغبة مليك في كشف الغطاء عن حادثة المت بعرش الدولة .

واضطربت لها أركان الحكومة وتغير لها وجه السلطان وظهرت بعدها البلاد في شأن جديد؟

علم «بعوامل هذه الفتنة يقرر تبعة الخطيئة على من اقترفها، ويبرىء منها من رمى بها، وقد كان الساعي في تسكينها وحاثي التراب في وجهها، وقوف على دخائل هذه النازلة يبعد بالعقل الرشيد في مثلها عن الاغترار بظواهرها، ليست لها سرائر، وصور انما تنكشف عن غير، وعبر ويحجب الفكر السليم في ما يشبهها عن الزلل، في مزالق الخطل، ويضيء لأهل المعزم مسالك الحزم، فلمولاي المنة على الحقيقة ومظهرها، حتى قدرها حق قدرها، واستضاء بسناها واهتدى بنورها

مولاي: أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسي غير ناظر في كتاب ولا راجع إلى مقال سبقني به غيري. اللهم إلا إلى بعض الاوامر الرسمية أو شيء من المحابر السياسية التي يضطر في بيان الوقائع إلى الإشارة إليها إذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع عليها

أرفع إلى كرم مولاي العظم ما استطعت أن أعرض على مقامه الفخيم، امثالاً لامره الكريم، معترفاً بقصوري عن إبلاغه منزلة كتاب يستحق النظر، أو عمل من الأعمال يليق به أن يذكر، إلا إذا شملته عناية الجنب العالي بحسن القبول، فعند ذلك تملو قيمته، وتستكمل له زينته، ويرتد عنه كيد الكائد، وتنقطع دونه نفثات الحاسد، أيد الله بالحق مليكتنا ومولانا، وأبلغه من العزة والمجد متمناتنا، آمين

﴿ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة العرابية ﴾

بدأ الاستاذ كتابه هذا بوصف حالة البلاد المصرية وحكومتها السوءى عند حاتنازل اسماعيل باشا عن إمارة مصر ووليها توفيق باشا، فبين أولاً بالايجاز ما كان من تدخل دولتي فرنسا وانكلتر في شؤون البلاد المالية وغيرها ومن تأثير المحاكم المحتلطة في إضعاف سلطة الحكومة والتصرف في ثروتها وروءة الامة - ومن سوء احوال رجال الحكومة وأحوال الجند - ومن تصرف الربويين في استنزاف ثروة

الامة بالرأى الفاحش ومساعدة الحكومة لهم — ومن الاضطراب العام في البلاد وإشرافها على المجاعة — وبين أيضاً ما كان عليه أهل مصر إلى ما قبل سنة ١٢٩٣ من توكلهم على حكومتهم في كل شيء وتسليمها إليهم أمر شؤونهم العامة وكذا الخاصة أيضاً، إذ كانوا يرون كل شيء ملكاً لها، وبين ان أكثر من تعلم في اوروبا من المصريين من عهد محمد علي الكبير الى ذلك التاريخ لم يغير شيئاً من هذه الحالة ولا أثر فيها مجلس الشورى الذي ابدعه اسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ لانه قيده في النظام والعمل فكان يقرر ما يوعز إليه بتقريره، فظل الناس معه على اعتقادهم أنهم عبيد للحاكم لا رأي لهم معه ولا أمر

ثم انتقل من هذا إلى بيان مبدأ النهضة المعنوية في مصر بارشاد السيد جمال الدين الافغانى وسعيه فينبى بالانجاز ما تقدم شرحه في ترجمة السيد من تربية نابتة جديدة وترقية أفكارها وأقلامها، وما كان من تأثير ذلك في ارتقاء الجرائد العربية وما أشرق عليها من نور الحرية. ومزج هذا بذكر بعض الحوادث الكبرى وتأثيرها في قلوب الناس وأفهامهم كالارتباك الشديد في المالية المصرية الذي أفضى إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة وتعيين ناظر انكليزي للمالية وناظر فرنسي للاشغال العمومية وكأحكام المحكمة المختلطة على الخديو وحكومته — وما تلا ذلك من انطلاق الألسنة والأقلام بالأفكار الجديدة (الجمالية) كيان أنواع الحكومات الاستبدادية والدستورية وتأثير ذلك في طبقات الامة. ولكن الشعور بمحقوق الامة في أمر حكم نفسها ومراقبة أعمال حكامها لم يسر في هذه النابتة من المصريين إلا وقد صحبه رؤية التصرف الاجنبي في حكومتهم. فتعلقت آمال البصراء من الناس باصلاح عظيم ولكن لم يهتدوا سبيلاً يسلكونه إليه لسوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها وسوء الظن بالسلطة الاجنبية والخوف من مالها

ثم بين أن الخديو اسماعيل ضاق ذرعاً بالوزيرين الاوربيين وأخذ يسعى إلى الخلاص منها، فكثرت الاشاعات عن سوء مقاصدهما بايعاز منه كما كان يقال. وفي اثناء ذلك دعي مجلس شورى النواب إلى الاجتماع فوجد أعضاءه إلى القاهرة وفي أنفسهم ذلك الشعور الشديد بشرا الاحوال ويلوح في أفكارهم الميل إلى الخلاص

منه « فالنأم المجلس في أوائل سنة ١٢٩٦ في موج من التشويش شديد الاضطراب واتفق ان الحكومة لم تقدم اليه من المسائل التي تطالب نظره فيها الا ما لا قيمة له » فكثر الانتقاد على الحكومة ، ولما أمرت باقفال أبواب المجلس سلك بعض النواب مسلك الشدة في الجواب عن ذلك الامر وحاولوا التوقف عن الانصراف حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما يثبتون به متتخبيهم ، وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأي يخالف رأي الحكومة، ولكن الخديو كان يشد عضد أعضاء المجلس في المعارضة هذه المرة

ثم ذكر قلق ضباط العسكرية من تأخير رواتبهم واحساسهم بانحراف الخديو عن نظار حكومته ومهاجمتهم لنظارة المالية وضربهم لناظرها الانكليزي واهانتهم لرئيس النظار نوبار باشا وقبض أحدهم عليه من شاربيه وتصديهم لاهانة سائر النظار لولا أن جاء الخديو بنفسه وصر فهم ، وانما كانت حركتهم بتحريك منه توصل به الى إسقاط وزارة نوبار باشا فتم له ذلك ، ولكن لم يمكن إسقاط الناظرين الاوريين فأدخلوا في الوزارة الجديدة التي تألفت برياسة توفيق باشا ولي العهد وزاد نضيقها على الخديو في التصرف فتوصل الى عزلها بوسيلة أخرى وهي طلب أعيان البلاد لذلك اذ اجتمعوا في دار السيد البكري ووضعوا اللائحة الوطنية المشهور أمرها التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة العظيمة وأنهم ضامنون لها

وقد بين الاستاذ ما في هذا العمل من الخطل وقصر النظر ، وأنه « أحدث في الناس شعورا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل فقد أيقنوا أن الحاكم القوي السلطان قد صار في حاجة اليهم ، ولا قوام لامره الا بالاعتماد عليهم ، فزاد ذلك ولوعا بما كانوا يميلون اليه من وجوب اشتراكهم في أعمال الحكومة دفعا للمضار التي نشأت عن استقلال الحاكم بالرأي ، وانفراده بالسلطة »

ثم بين سيرة اسماعيل باشا بعد ذلك في العود الى التصرف بأموال الحكومة وتبذيره وسوء الحالة العامة وذهاب رياض باشا ونوبار باشا الى أوربة بقصد الإقامة فيها وسعي الثاني الى اقناع فرنسة وانكلترة بالسعي الى خلع الخديو اسماعيل. ثم ارسال فرنسة موسيو تريكو مندوبا خاصا (فوق العادة) ليتحدث مع وكيل انكلترة في مصر في (م ٢١ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

مطالبة الخديو بالتنازل عن الخديوية لولي عهده ، واستشارة الخديو لحاشيته في الامر
واشارة أجهلهم بالسياسية عليه أن لا يتنازل والجيش حاضر يؤيده - وإشارة من
كان يقال انه أعلمهم بأن يتنازل ، وبين بعد هذا ان جمهور العقلاء يرون ان رأي
ذلك الجاهل كان عين الصواب وان الخديو لو ظهر لندوبي الدولتين بجلد الاسد
الذي كان يلبسه للمصريين وعلموا ان دون التنازل حمل السلاح لأمكنه ان
يرضيها بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش

ثم بين ان السيد جمال الدين كان قد أسس حزبا في مصر باسم (الحزب
الوطني الحر) وانه كان بينه وبين ولي العهد توفيق باشا مكالمات في هذا الامر ،
وانه سمى مع الكثير من الاعيان الى شريف باشا الكبير بأن يقنع الخديو بالتنازل ،
وان أحسن ما يجيب به مندوب الدولتين تفويض الامر الى السلطان - وان السيد
جمال الدين ذهب بوفد من المصريين الى وكيل دولة فرنسا وكاشفوه بأمر الحزب
الوطني الحر الذي يطلب الاصلاح ويرى انه لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق
باشا ، وأن ذلك تأييدا لرأي شريف باشا في اقناع الخديو بما ذكر آنفا فأقعه فحول
الامر الى السلطان فقبل السلطان تنازله وتصب توفيق باشا خديويا بدله - وقد
تقدم نقل كلامه في ذلك في ترجمة السيد - . فهذه هي الاسباب التمهيدية الاولى
للحوادث العراقية

❦ الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا ❦

حالة البلاد وتظاهره بالاصلاح

بين رحمه الله تعالى أن البلاد دخلت في عهد توفيق باشا في طور جديد من
الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين وتعاليمه وسمي الحزب الوطني
الذي ألفه فيها ما فتح أفعال القلوب والعقول لتدرك كنه أعمال حكومتها وما يجب
أن تكون عليه ، وسيرة الاجانب فيها وما يخشى أن تنتهي اليه ، فقد تولى هذا
الامير ولاية امة غير الامة التي كان يتصرف فيها والده تصرف الراعي الملاك
بالمواشي ، ولكن هذا الامير لم يكن شرها ولا مسرفا بل كان عفيفا رحما فكان

لطلاب الإصلاح فيه آمال كبيرة ، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه
وسوء سيرة حاشيته

وقد كان أول عمله أن كتب الى شريف باشا في اليوم الثاني من ولايته أمرا
بتشكيل الوزارة بعد قبول استعفاؤها صرح فيه برغبته في تحقيق آمال الامة فيه
واخراجها من الحال السيئة التي هي فيه ، بالاقتصاد القانوني في نفقات الحكومة والاستقامة
في الوظائف العامة واصلاح القضاء والادارة - ثم كتب في اليوم الخامس أمرا
آخر الى مجلس النظار فصل فيه ما يحقق الآمال يجعل الحكومة شورى ونظارها
مسوئين وتوسيع نظام شورى القوانين واصلاح المحاكم والمجالس والسعي لتعميم
التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم ،
وصدر ذلك الامر في ١٤ رجب سنة ١٢٩٦

وبين الامتاز أن كل ما ورد في هذا اتما انعكس على فكر توفيق باشا من
الحال الجديدة التي كانت عليها خاصة رعيته

يلي ذلك بيان مشروع شريف باشا في وضع قانون أساسي لمجلس النواب
يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الامة النظر والكلام فيه
على حسب ما قرأه ورآه في بلاد أوربة ، فأعجب بذلك أرباب الأفكار المتطرفة
وقالوا ان التصديق عليه يعد فاتحة عصر جديد لمصر والمصريين

قال: وتظاهر الاجانب بالرضاء عن اصلاح المشروع فيه ، وأنشئت جمعية في
الاسكندرية باسم [مصر الفتاة] لم يكن فيها مصري حقيقي بل كان أكثر أعضائها
من شبان الاسرائيليين المنتمين الى الاجانب ، وقد رفعت هذه الجمعية لائحة الى
الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار ، وأنشأت بعد ذلك جريدة
[مصر الفتاة] فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة . على حين
كان أولئك الاجانب في ظل الاستبداد يقرضون الفلاح المئة بمئتين في بضعة أشهر ،
وكانوا يتصرفون في المصريين كتصرف حكومتهم بهم

سواء صح ذلك التظاهر أم لم يصح ، وأما الذي لا شك في صحته فهو أن وكيل
دولة فرنسة أخذ يسعى في إقامة الموانع دون إعطاء النواب حق النظر في تصحيح

الموازنين وتقرير الامور المالية ودعا وكيل انكلترة الى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الاوضاع الجديدة في ذلك الوقت بحجة أنه مما يعوق حل المشاكل الموقوفة ، وساعد على اقناع الخديو بعض الوطنيين من حاشيته ، فتأثر الخديو بذلك ومال الى غير ما أظهره للجماهير من قصد الاصلاح المطلوب ، ثم رفض لأئمة شريف باشا عند عرضها عليه فاستقال شريف باشا لإصراره على هذا الاصلاح فشكل الخديو نظارة جديدة تحت رياسته

يتلو ذلك بيان أن وكلاء الدول أصحاب النفوذ في مصر كانوا يظنون أن محرك هذه الافكار الاصلاحية ، وباعث الانفس على طلب الحرية ، إنما هو السيد جمال الدين ، فأقاموا الادلة للخديو على خطر الرجل وأخافوه منه كما أخافوه من النظام نفسه . فأما التخلص من النظام فكان باستعفاء الوزارة ، وأما التخلص من السيد جمال الدين فكان بنفيه من مصر الى الهند

أقول وقد فصل هنا مسألة نفي السيد وسوء تأثيرها في مصر ونحول القلوب بسببها عن الخديو الذي تناقل الناس قوله له « أنت موضع أمني في مصر أيها السيد » وقد تقدم ما كتبه في ذلك بنصه في ترجمة السيد (ص ٧٤ — ٧٨)

مبدأ الفوضى في الجند المصري

ثم بين انه في حولي هذه المدة وقبل استعفاء وزارة شريف باشا صرف مبالغ عظيمة من الجند الى بلادهم وتقرر جعل الجيش العامل اثني عشر ألفاً فقط . وأن جماعة من الضباط قدموا بعد ذلك عريضة الى الجناب الخديو يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية وبنوا ذلك على أسباب منها رداة المآكل وضررها بصحة المساكن ، ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر في اصلاح معاشهم . فوعدوا باصلاح الحالة ، وبعد أيام استعفت الوزارة ولم ينظر في حال الضباط ولا المساكن بعد ذلك ولم يتوجه الفكر الى هذه الحركة الفوضوية بالبحث في أسبابها ، واستئصال عواملها من الجيش قبل ان تأخذ قوتها ويظهر أثرها بمثل ما ظهر به من بعد . (قال) وإنما قلت انها فوضوية لأن للضباط حق الشكوى مما يصل اليهم من الاذى أو ما يجردونه من

الضرر ولكن لا حق لهم في طلب العزل والنصب فما فعلوا كان خارجا عن حد النظام لهذا كان جديرا بالالتفات.

نفوذ الاجانب واسبابه وغايته

قضى باستعفاء الوزارة ونفي السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الاجانب وبعض الوطنيين في منع الاصلاح وأرهاب النفوس الطامحة اليه على ما ظنوا. وبعد ذلك أخذ القناصل في اقناع الخديو بأن هذه لوزارة الجديدة تحت رئاسته لا قدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة ومن الضروري ان يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب في الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذي تعانيه الحكومة، وأشاروا الى عودة واسن ودبليار، فأظهر لهم أن ذلك غير ملائم للصاحبة وأنه لا يرضى البتة بأن يكون في النظارة أعضاء أورييون لانه يشوش أفكار المصريين ويؤدي الى الخلط في الاعمال، قل ومع ذلك فلو صممت الدولتان على ارجاعهما وزيرين فاني مستعد للاشتراك معهما في العمل وقبول ما يشيران به واحسبهما صديقين ولكني أتبرا من تبعة ذلك، وقال: انني لا أنكر حاجتنا الى معونة الاجانب ولكني أريد رجالا مثل بارنج^(١) يشتغلون باصلاح المالية ولا يخلطون الادارة بالسياسة ويكونون في وظائف سامية غير انهم لا يكونون وزراء، فأشاروا الى نوبار باشا فأظهر غاية التمتع من قبوله بل أبى ان يسمح بعودته من أوربية إبعادا لدسائسه كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة وتناقلته الجرائد في حينه، فأشير الى رياض باشا فأبان شدة ميله اليه وقال انه الصديق الحميم والصادق الأمين، وانتهى الامر باستدعائه فحضر في النصف الاخير من رمضان ثم عهد اليه برئاسة النظارة في ٥ شوال سنة ١٢٩٦

« كان الخطاب الصادر من الجنب الخديوي الى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيسا للنظار يشف عن كمال المودة وتأكد الثقة وخلص السريرة في الاعتماد على امانته، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترأسه على مجلس النظارة مدة الشهر الذي مضى ان يعيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الاحوال (رفض لائحة النواب ونفي الشيخ جمال الدين اذ لم يظهر حال يقتضي التفرد بالسلطة سوى هذين الامرين)

(١) هو الذي صار لقبه بعد ذلك لورد كرومر

« ومن المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة في ذلك الوقت هي المسألة التي لاجلها اجبر خديو واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويبعد عن بلاده مشيعا بالعويل والنحيب، ولاجلها ولي خديو جديد ناشئ في العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان، وله الحق الكامل في المحافظة على ما وصل اليه بأي الوسائل الممكنة، وآماله في المستقبل تستدعيه في كل آن لحل ما واجده من العقيد ووضع حد لملك المصائب التي جرت الى مثل تلك الحادثة العظيمة والاطلاق الذي لم يكن في حساب، وتلك هي المسألة المالية التي كان يريد الجنب الخديو أن يأتي على حلها قبل كل المسائل، وبفض مشكلها قبل جميع المشاكل، على انه لم يكن مشكل سواها لولا ما أعقبها مما تولد منها

« لم تكن عقدة الاشكال فيما يمس حالة المصريين وعلاقتهم مع الحكومة في الامور المالية، اذ لم تكن لهم حاجة الى امور جسام وأعمال عظام فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة، فقد كان يكفي ان تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيرا وبزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد، وما كان أسهل هذا الامر في ذاته، على انه لو بلغ من الصعوبة أقصاها وكان فيه من المشاكل ما يصل بين الارض والسماء، لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءا من المئة بل من الالف مما أخذت المسألة المالية في ذلك الوقت. وأما كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولي الامر من وقت الى آخر ويحملهم على أعمال ربما لم يكونوا يقصدونها، على علم منهم بأنها تبعد عنهم قلوب الرعية وتصرف عنهم ميلها

« كان معظم الاهتمام منصرفا الى ارضاء الاجانب ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا يناولون من فوائد الدين الباهظ. ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها في أوقاتها المحددة في سنة ١٨٧٦. ولكون الخديو السابق كان يريد أن يكون ذلك المعجز معروفا عند الدول ذات النفوذ ويجب أن يتداخلن أيضا في تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد ظنا منه بأنه متى ثبت عجز المالية

المصرية عن اداء الدين ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفي له أعلنت الدول قطع مرتب الاستانة ونادت به ملكا مستقلا على مصر لا يؤدي خراجا الى سلطان آخر وكان يسره ان يكون ملكا ولو على بلاد خربة ورعية ضئيلة وبين خليط من الاجانب بصرفونه في داخلية بلاده حسب ما يريدون . ثم لم يكت الخديو السابق عن تصرفه الخفي في المالية المصرية بما يزيد ارتباكها وكما تقدم الزمن ظهر الاختلال فيها فیدعو وكلاء الدول السياسيين للتدخل في اصلاحها ثم هم يجيئون الى ما يدعونه اليه تمكيا لحق التدخل في الشؤون المصرية الى أن جر الامر الى تعيين لجنة التفتيش العليا ولم يكن فيها الامصري واحد وسائر أعضائها من الاجانب، وأخذت تناول البحث في الشؤون المالية وتصل بها ماشاءت من الامور الادارية، وكانت أحكام المحاكم المختلطة لارباب الديون النائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديو، وطلبت الحكومة سبيلا للتخلص من بعض ورطانها فعتدت سلفة روشيلد تحت شروط شديدة ورهنت بعض أملاكها وضمنت ما تعجز الاملاك المرهونة عن وفائه فكانت هذه السلفة ضغنا على ابالة ومشكلا فوق المشاكل، فقد أبى بيت روشيلد أن يؤدي بقية السلفة بعدما دفع شيئا منها وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة، وبذلك وقع الخديوي السابق في شباك من حبال السياسة التي ألقى بنفسه فيها اختيارا لا يشوبه شيء من الاضطرار وصدق فيه قول القائل "انه صرف مائة مليون من الجنيهات أخذها بأفخس الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب وقضى مع ذلك مدة سبع عشر سنة في سلطة تامة وكلمة نافذة — كل ذلك لان يعد بلاده ويهيأها لنفوذ أجني يسوسها، ولان يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منهما، بل كان يهيئ نفسه بالمال والسلطان للسقوط تحت سيطرة مسيطر لا يرحم، ورفيق بعجز عقله الذكي عن اخفاء شيء دون علمه، بل قاهر شديد بضعف سلطانه القوي عن مناوآته وهكذا كان يبذل جهد المستطيع في اضاعه نفسه وهو يظن انه ساع الى الاستبداد بالملك والوصول الى الاستقلال به، ولهذا سمح بأن يأتي وكلاء عن أرباب الديون ليعشوا في شؤون المالية وأظهر لهم

قبول ما طلبوه بعد بحثهم، وعين مراقبة من الأجانب على عموم حسابات المالية، ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه كما هي القاعدة المعروفة في كل ممالك العالم، بل حول المسألة من مالية إلى سياسية، وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم إلى ذلك الغرض السامي الذي كان يخبئه، وهي فرصة لا يضيعها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية في مصر

« ومن المقرر عند الأوروبيين أن العادة قانون وأن العادة تتأصل بمرّة فما بالك بالمرات الكثيرة، فلماذا انقلبت المسألة المالية آخر الأمر إلى سياسية محضة، وما أخذه الأوروبيون من حق التداخل في شؤونها أصبح أمراً مقراً وقانوناً واجب الرعاية ولم يعد لأحد من حكامنا أن يفكر في إلغائه أو تعديله خصوصاً وقد وجد الأجانب من الأدلة ما يحجون به المنازع إذ كانوا يقولون « لا ثقة بوعد ولا اعتماد على عهد فقد وعد الحاكم السابق وأخلف وعقد ونقض ولم نره يوماً أنى يعمل تكون النية فيه خالصة لنفع بلاده ولم نر له أثراً في البلاد تساوي قيمته ما صرف فيه، والحاكم الجديد حديث العهد لا نعلم ما يكون منه ولا نريد أن تقع في التجربة مرة أخرى، فلا بد من أخذ الاحتياط الشديد من بداية الأمر، ولما كان توفير المال الذي يقوم بوفاء الدين وضبط حسابه موقوفاً على ضبط جميع الإدارات والمصالح فلا بد أن يكون لنا نوع من المراقبة عليها، حتى نكون على ثقة من أن حالتها لا تنقص الإيراد ولا تزيد في النفقة، ولما كان الفلاح هو العامل الفرد في سوق الأموال إلى الخزينة ومنها إلى الدائنين فشأنه مرتبط بشؤون الدائنين ولا يشرع عمل الفلاح إلا إذا كان آمناً على نفسه وماله فلناحق المراقبة على كل ما يتعلق بالفلاح من هذه الجهة — والنتيجة التي لاشبهة فيها بعد تسليم هذه المقدمات أن لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها لكن تحت اسم المراقبة المالية، وزاد نفوذهم شدة تدخلهم في خلق اسماعيل باشا فهنا كان موضع الإشكال ومن هذا كان ينبوع الخفة والاضطراب على المسند الجديد »

« قبلت الدولتان ما طلبه جناب الخديوي السابق في عدم تعيين وزيرين أوروبيين ولكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان في نظارة المالية ونفوذها يشمل جميع الإدارات المصرية، وراتبهما الذي يناهز من الحكومة أوفر بكثير من راتب

وزيرين ، وصدر الامر بتعيينهما قبل توسيد رئاسة النظار الى رياض باشا بأيام . ولما تعين رياض باشا رئيسا للنظار وجد موسيو بارنج (اللورد كرومر) محاسباً عمومياً لقلم الإيرادات ، وموسيو دوبلنيار محاسباً عمومياً لقلم المحاسبة وإدارة الدين العمومي ، ولم يبق الكلام الا في تحديد وظائفهما ، كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافياً في فهم معناها ، وبعد قليل قدم قنصلاً دواي فرنسا وانكلترا لائحة تحدد وظائف المراقبين وبعد مداولة طويلة في مجلس النظار ونزاع شديد بينهم قبلت اللائحة كما قدمت تقريباً ، وصدر الامر بتحديد وظائفهما على وجه ان لهما في الامور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميع المصالح العمومية ، وعلى الوزراء والمأمورين من أي رتبة كانوا أن يقدموا الى المراقبين كل ما يطلبانه من الاقادات ، وعلى ناظر المالية ان يقدم اليهما كل أسبوع كشفاً مفصلاً عن دخل نظارته ونفقاتها ، وعلى كل ادارة ان تقدم كشفاً مفصلاً كذلك في كل شهر ، ويتقاسم المراقبان النظر في المصالح العمومية التي يكون من شأنها مراقبتها والاشراف عليها بمقتضى الحقوق المثبتة لهما في ذلك الامر الخديوي ، وتقرر لهما مقام في مجلس النظار برأي شوري ، وتقرر ان لا يعزلا إلا بموافقة حكومتيهما ، ولهما ان يعزلا وان ينصبا جميع الموظفين في ادارة التفتيش وان يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يريدان ، وعلى الحكومة ان تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلا معارضة . ومن هذا ترى ان تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهمه عنوان وظيفتهما وإطلاق حق المراقبة عن كل قيد » وقد ذكر في ذلك الامر ما نصه : « ان حكومتي فرنسا وانكلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لا يتدخلان في الوقت الحاضر في ادارة المصالح الادارية والمالية فالمرقبان يقتصران الآن ان يقدما الينا (الخديو) والى وزرائنا ما تهديهما اليه مراقبتهما من الملاحظات » فهذا التقييد « بلوقت الحاضر » يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من المخابرات . واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الامر الخديوي عن الفاظ « الوقت الحاضر » و « الآن » المسطورة في الامر الخديوي وتأويلهما على وجه لم يزد القصد الا ظهوراً يشير الى ان الامر سطر برأي القنصلين وان الحكومة تضرعت من هذا الوعيد بعد صدور الامر كما

(م ٢٢ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

تضجرت منه قبله ، ولكن لم يتعطف القنصلان لارضائها الا بعد امضائه ، وكانت الترضية عبارة عن إبقاء الالفاظ وتأويلها بما لا يفهم منها ليجري حكمها كما وضعت » لم ير ذلك على النفس والعقول بلا أثر خادش وهزة أسف عامة اكل من كان يلوح في قلبه شعاع الفكر ويدور في خلدّه خيال الميل الى استقلال البلاد ووضع الاصلاح فيها على قواعد سليمة واحاطته بما ينقي أعمال السلطة العليا من كل قصد الى غير مصلحة الرعية ، ويصونها عن كل غرض يسوق الى تأييد السلطة الاجنبية ، بعد ما عرفت آثارها ، وتمكنت من النفوس النفرة منها . وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين ، واكثروا الانتقاد عليه قبل مجيء رياض باشا وقبل ان تبين حدود المراقبة على هذا الوجه ، وبعد ان نشر هذا الامر وعرفه العام والخاص لم يدع انساناً حتى أنطقه ، ولا قلماً حتى أطلقه ، وجرائد ذلك التاريخ شاهدة به

«وهنا اترك تسلسل الحوادث وتوارد الاسباب التي جرت الى الثورة حتى افرغ من ذكر ماتم من الاصلاح مدة وزارة رياض باشا وما تحولت اليه احوال المصريين ، وما عرض على أفكارهم مما بحسب تقدماً وتأخراً . آتي على ذلك باجمال يغني عن تفصيل ان شاء الله . ثم ترى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقاً بدون حاجة للتنبيه الى العود اليه »

وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة

بين الاستاذ ان رياض باشا حفظ لنفسه وزارة الداخلية اصالة لاصلاح الحال العامة ، ونظارة المالية نيابة مؤقتة لحل مشاكلها مع الاجانب ، وانه سار في الاصلاح سيرة حميدة لا عيب فيها الا محاولة تعميم العدل والمساواة فيها بسرعة ، ونلخص ذلك بما يأتي :

إلغاء رياض باشا للسخرة

كان أول إصلاح قام به إلغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير في البلاد المصرية نوعين عاماً وخاصاً ، أما العام فهو إكراه الحكومة الاهالي على العمل بغير

أجر في المصالح العامة كإقامة الجسور (الحواجز) على الأنهار العظيمة وحفر الجداول الكبيرة وتشديد كل بناء يقام باسم الحكومة ، وأما الخاص فهو إلزام الاعلياء من دونهم العمل في منافعهم الخاصة بنير أجره كالعمل في المباني والأراضي بجميع أنواعه — فكان جميع الوجهاء وجميع موظفي الحكومة يرهقون الأهالي بهذه السخرة ، ويقرونها بالضرب والاهانة ، حتى ان بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة ، (قال) : كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به (أي هي منطقة نفوذه) يستخدم سكانها في أراضيها بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة على شرط ان يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيتهم من ديارهم اذا كانت البلاد قريبة ، فان كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين ولكنه لا يسمح لهم أيا كان بقي من المطر والبرد في أيام الشتاء ولا بمستظل يقيمهم الحر في أيام الصيف ، فكان القر يقتلهم شتاء والحر يذيبهم صيفا — وبين الأستاذ ضرر ذلك في الانفس وقله الشعور والاستقلال والارادة

شدد الوزير في إلغاء السخرة بنوعها وبالغ في ذلك « حتى إنه آخذ مديري القليوبية مرة في ارسال بعض أشخاص من أهاليها لحفر التربة التوفيقية التي تصل الى أراضي القبة لانها خاصة بالخدوي ، ووبخ المدير توبيخا شديدا وعرض الامر على الخديو فاستحسنه ، ولكن لم يذهب بلا أثر في نفسه ، فان مبالغته في العدالة الى هذا الحد مما لا يلتئم مع السلطة العليا في مصر مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال — فانظر ماذا يكون في نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين بل والحاليين من رياض بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة بلا تدريج »

ثم ان رياض باشا شرع في وضع نظام لتوزيع الاعانة على الاعمال العمومية يكون بدلا من السخرة كما أثارته لجنة التفتيش العليا من الاجانب ، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدني ودفع بدل تقدي ، فخف الويل عن كثير من الفلاحين وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة . وكان من عدل رياض باشا في ذلك ان عنف فريد باشا مدير الشرقية لارساله مثنى رجل لاصلاح ماجرته السيل من سكة حديد السويس اذ طلبت مصلحة سكة الحديد العمومية منه ذلك

حسب العادة ، هذا وان فريد باشا كان من رجال رياض الذين يحبهم ويحبونه وبينهما شبه قرابة . ولم يكتف بذلك حتى كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك . وقد كتب صورة هذا المنشور كتاب الداخلية مرارا وكلما عرضوا عليه صورة منقها لانها لم تف بغرضه من التنويه بشأن الاهالي ، (قال الاستاذ) وآخر الامر دعاني لتحرير ذلك المنشور فكتبت به وذكرت فيه الحادثة وأتذكر منه هذه الفقرة « وليعلم المديرون والاهالي (لعلمها والمأمورون) جميعا ان الاهالي ليسوا عبيدا لاحد ولا لأحد عليهم سلطان الا فيما يتعلق بمناقضهم عامة أو خاصة » وهذا تصریح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديوي باعتناق الاهالي من عبودية التسخير بل من العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطلاق ، وهذا مما لم يعمد له مثيل من قبل العدل في توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزع مياه النيل بالقسط وقد كان الفقراء لا ينالون من النيل أيام هبوطه الا فضلات ما يزيد عن حاجة الاغنياء . وشدد رياض باشا على نظارة الاشغال العمومية في تنفيذ ذلك على الكبير والصغير ، وذكر الاستاذ من الشواهد على ذلك تنفيذ عمل بحول دون ما كان يستفيد به بولينو باشا من آلة بخارية له يبيع الماء الذي ترفعه للفلاحين حتى في أيام الفيضان التي يجدون فيها الماء بغير ثمن ، وأن بولينو باشا جاء برجاله مسلحين ليمنعوا فتح التربة التي يسقي منها الاهالي فأمر رياض باشا بفتح التربة ولو بقوة السلاح ففتحت تحت حماية العساكر المصرية إلغاء الضرائب وترك بقاياها

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى ألغى ثلاثون ضريبة ونيف من الضرائب الصغيرة كانت أضرت بالمصنوعات والأعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين وبحال المزارعين . وزيد مئة وخمسون ألف جنيه على ضريبة الاطيان العشورية تعويضا لما فات بإلغاء تلك الضرائب ، فحذف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الاغنياء ، وهو مما لا يمحى أثره من أنفس الفريقتين . وذهب الافواج من التجار والصناع ليعانوا شكرهم للجناب الخديوي على إلغاء تلك الرسوم ، ولكن الكبراء لم يحفلوا بذلك ولا شاركوا الشاكرين (طبعا) ثم عفت الحكومة عما عجزت عن

وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة - ابطال الكرباج والحبس ١٧٣

تحصيله من الرسوم والضرائب المتأخرة الى سنة ١٨٧٦

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

« ثم نظم برنامج الايراد والمنصرف من مال الحكومة (ميزانية) وشكلت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وانصافهم ووضع نظام للتحصيل في لادفات المعينة على حسب مواسم الزراعة وعرف الفلاح ماله وما عليه » وضع هذا طبقا لما اشارت به لجنة التفتيش العليا

ثم ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الاغنياء والفقراء والوطنيين والاجانب في التحصيل ، وكان الاغنياء والاجانب يماطلون عدة سنين ، وكثيرا ما يعفى عنهم بعد ذلك . وظهر عند التنفيذ ان بعض اغنياء الاجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين فحصلت منه بقوة الحكومة . وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل

ابطال الكرباج

صدر الامر بابطال الضرب بالكرباج في تحصيل الاموال الاميرية فعجب كثير من الناس لذلك وقالوا: كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب؟ وأنكره كثير من المديرين وظنوا انه قد هدم ركن عظيم من سلطان الحكومة

ابطال الحبس في تحصيل الحقوق

صدرت الاوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء كانت أميرية أو شخصية، ولقي تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة تمكن الميل الى الظلم من أنفس أكثر الحكام، ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان قد محي الا ما ندر. قال : ومن غرائب آثار تعود الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر ان الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيل اقتضاء الحقوق - سواء كانت للحكومة أو للأفراد - كانوا يعدون تلك الاوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به وأنه لا يفيد الا الكرباج ، كما لا يزال قوم منهم يقولون ذلك الى اليوم ، وكانوا يهزءون بتلك الرحمة ، اللهم الا الذين لمع في عقولهم روح الفهم ، ووصل الى ابصارهم شمع الاحساس بما للانسان من حق التكرمة التي خصه الله بها

قانون التصفية

(قال) « بعد مخبرات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخيمة قبلت الدول تشكيل لجنة لتصفية الديون المصرية التي استدانها شخص اسماعيل باشا ولا يعرف في البلاد من آثارها في المنافع العامة الا القليل، قبلت الدول العادلة أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياها على الحكومة المصرية ولم يكن في اللجنة من المصريين الاعضوا واحد . قضت عدالة الدول المتمدنة أن تصادف المخبرات في ذلك صعوبات حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين ، وصدر الامر بتشكيلها تحت رئاسة السر ريفرس ولسون في ٢١ مارث سنة ١٨٨٠ و بعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذي اشتهر أمره ولا يزال من أصول الحكومة المصرية الى الآن »

ثم ذكر الاستاذ أهم مسائل هذا القانون ، وكيفية توزيع دخل الحكومة ودخل بعض الاملاك على الديون ، ومنها أنه قدر لنفقات الحكومة أربعة ملايين و ٨٩٧ و ٨٩٠ الف جنيه وفيها ويركو الاستانة وفوائد قنال السويس وتكميل النقص الذي يحصل في الايرادات المخصصة وسنوية المقابلة ، وما بقي من مالية القطر المصري فهو للدين وفوائده

وبعد أن أطلال في مسائل هذا القانون ذكر أن تأثيره كان حسنا على ما فيه من غبن الدائنين الحكومة وجعلها تحت مراقبة الاجانب وتصرفهم فقال :
« كان يوم أمضي هذا القانون من الايام المعروفة في تاريخ مصر وقد احتفل له في الاسكندرية جماهير من أهالي القطر المصري ، وعد الناس ذلك اليوم من الاعياد الوطنية في ذلك الوقت ، وقالوا انه فاتحة الطمأنينة وضمان من الاضطراب الذي كان يخشى منه ، وفي الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض قلق مشوش كان يتعسر السير فيه وبين مستقبل واضح معروف — كما تمنى الجنب الخديو وصرح مرارا من أنه يريد فصلا بين الماضي والمستقبل — وأهم ما غنمته الحكومة منه رضا أوربا عن الحالة التي قررها ، واطمئنان الاهالي والجناب العالي على مسند الخديوية ، وانقطاع المخاوف التي كانت المشاكل المالية تثيرها في الاوهام عند ما

يخطر بالبال حادثة فصل اسماعيل باشا، وبتلك الطمانينة كان الفرح لها كالاحتفال «

»

عمل المؤلف في المطبوعات (١)

قال « كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعمد البلاد توزيع الضرائب، ترسل الى من ترسل اليه بغير طلبه ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التي كان يجبر بها الممولون على الدفع، فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها، يحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ماتصمته من الاوامر واللائح فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير اكراه من الحكومة لهم على ذلك، وكان قد أحس بتوجه الافكار الى طلب شيء من طلاوة العبارة ووفرة المعنى وحسن الانتقاد. أما أوامر الحكومة وحدها فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها في الجريدة الرسمية لان المأمورين يعرفونها من طريق أخرى، والاهالي لم يكونوا قد تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره، ولا على أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب وينشر بوجه رسمي، ولا على الثقة بأن الحكومة تقف عند ماتصمته في أوامرها، لهذا لم يكن لهم اهتمام في الاغلب الا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه. ولم يكن في الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة الا مدايح للجناب الخديو وبعض كبار المأمورين على الطريقة القديمة، وهذا ما كان ينفر من رؤيتهاء فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة التحرير ونحريها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها، ورغب مع ذلك أن تكون يومية، فهداه بمحنته الى تعيين [الكاتب] في تحرير تلك الجريدة، وكان الجناب الخديو في انحراف عنه لأسباب غير معروفة، وإنما قبل عنه انه كان موضع ثقة الشيخ جمال الدين، فاجتهد رياض باشا في استرضائه فرضي بتعيينه فعين محررا ثانيا، وبعد أشهر ذاك في الطريقة التي يمكن بها اصلاح الجريدة

(١) كان ينبغي أن ينشر ما كتبه الاستاذ الامام عن نفسه في هذه المسألة في المقصد الثالث الذي قبل هذا ويشار اليه هنا بالاختصار مع الاحالة على ما سبق من التفصيل، ولكننا كتبنا ما تقدم قبل الاطلاع على ما هنا كما وعيناه مما سمعناه منه رحمه الله تعالى

فعرض له ما رآه في تقرير وافٍ فأمر بأن ينظر في التقرير لجنة تؤلف من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير، ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية، فوضعت اللائحة في قليل من الزمن وأمضاهما رياض باشا، وعين صاحب التقرير رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم، وتنبعث الرغبات الى النظر فيما يقولون، فتحول حال الجريدة الرسمية الى ما حمده العامة والخاصة

« وقد يقول غير العارف بسير الحوادث » وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر - سعادتها أو شقتها، طمأنيتها أو قلقها، تقدمها أو تأخرها، فنجيبه بأن تاريخ مصر ان كان مجموع حوادث شعب له حياة سياسية وأدبية وعقلية فتغير سير الجريدة الرسمية وتحرير ادارتها مكان رفيع من تلك الحوادث، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتتغذى وتموت، فالبحث فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعي ولا علاقة لما به الآن وربه تبسم استخفافاً بالامر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر في طبيعة ترقى الامر، ولا يحرك احساسهم الا الصدمات الصاعدة، والقواصف القارعة، وهم من موضع التاريخ الطبيعي كما قلنا

« واضع لائحة ادارة الجريدة الرسمية لم يكن من أرباب المنازل السامية في مصر، ولكنه نبت في تربتها واتصلت حياته بحياتها، وأثرت مداركه الاحساس بمحاجاتها، فكلما تناول عملاً مما له علاقة بشؤونها العامة فتح له هذا الاحساس بما من المعرفة بطريق اتصال منفعة من المنافع اليها، فلما دعي لوضع اللائحة أودعها في مكان غريبة في بابها يعجب لها الناظر فيها، خصوصاً اذا كان من أبناء الشعوب المتقدمة أو من المقلدين للمتمدنين، ولكن لكل بلاد طبيعة خاصة بها، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والازمان

« تضمنت اللائحة ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم (المجالس المرافعة) ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات بجميع ما لديها من الاعمال المهمة التي تمت أو شرع فيها على أن تتم، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها، وان لادارة

الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أي عمل من الاعمال عند ما ترى له وجهاً حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التي كانت الادارة جزءاً منها، واذا رأت في الجرائد التي تنشر في مصر عربية أو أجنبية ذكراً للخلل في عمل أو سوء تصرف في أمر ما فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية الى النظارة أو الادارة التي يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة، فان كان حقاً ما نشرته الجريدة أو خذاً لمخطيء بواسطة رؤسائه، وأشعرت ادارة المطبوعات بذلك ونشر في الجريدة الرسمية، وإن كان باطلاً كلف صاحب الجريدة إثبات ما ذكره وإلا أنذر مرة بعد أخرى وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائماً على حسب الاحوال، وإن من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمي ما يعن له أو ما يرد اليه من الفصول الادبية مما له مساس بالاحوال العامة، وقد منح رياض باشا هذه السلطة لادارة الجريدة إمامة ثقة منه بالعامل فيها وهو واضع اللائحة، وإمامة علمه منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجاتها الحاضرة

« وأول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والادارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة واقتضاها لطول المحابر في الاستفهامات التي لا طائل تحتها، ثم رسم الطريقة الفضلى التي يجب السير عليها، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوي الالمام باللغة العربية من موظفي الحكومة، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية ستراً لعيوب الادارات واضطر الجاهلون باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير، وعم ذلك المديرية كما عم النظارات، وذلك هو تاريخ اصلاح التحرير في مصالح الحكومة ولا زال يتقدم الى اليوم، وهكذا كان شأن الجرائد، كانت تتسابق الى اظهار مزاياها في التحرير حتي تعجب ادارة المطبوعات أو العامل فيها، وصلاح بذلك كثير من أماليب الجرائد التي لم تكن لها عناية بتهديب العبارات، وتسابقة الاقلام في تنقيح الالفاظ وضبط المطالب، فتمت بذلك نهضة التحرير التي كانت بدأت من سنين قبل هذا، وكان الضعف يقعدها، والخوف يرعدها، فقضي لها أن تظفر على يد من كان له دخل في نشأتها

« سهات بذلك المواصلات بين الانفس في الافكار، وخف عليها التعبير عما في الضمائر، كثر الكاتبون، وغزرت مادة المتكلمين، وتيسر التعارف بين المتباعدين، ونشأ في الناس نوع من الالفة، أحدثته الشعور بجامعة اللغة، وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه، أصبح وهو يشرف على فضاء يسع بني أمته، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة الى المقصد العام، كما ان له حركة خاصة الى الغرض الخاص، وفي هذا من تواصل اللذائد والآلام مالا يخفى على عاقل، وله من الاثر في إنهاض النفوس الى طلب ما يصلحها مالا يذهب إلا على غبي جاهل

« كانت تبحث ادارة المطبوعات، أو دائرة التحرير فيها في جميع منشورات الحكومة ولوائحها. وأعمال المديريات وأحكام المحاكم وتبدي رأيها في جميع ذلك وتنشره في الجريدة الرسمية، وكان ما ينشر من الآراء يأخذ مكانا من الاهتمام عند رجال الحكومة، ويوضع موضع البحث، ويبني عليه التعديل أو التغيير، ويبادر الى نشر ما تم من ذلك في الجريدة الرسمية

« كانت دائرة التحرير تبحث في الجرائد عامة، وما كان فيها متعلما بانتقاد بعض عمال المصالح كتب عنه من إدارة المطبوعات الى المصلحة التي كانت موضوع القول، وسئل العامل عما نسب اليه، فاما أؤخذ إن صحت النسبة أو أنذر صاحب الجريدة إن لم تصح. عملا بنصوص لائحة إدارة الجريدة الرسمية كما سبق، فارتفع شأن الجرائد في أعين المأمورين والناس عموماً من جهة، واشتد حرصها على تحري الصدق من جهة أخرى، أما القدح الشخصي فمكّن ممنوعاً على وجه الاطلاق سواء اشتهى من ذلك المطعمون فيه أو لم يشتهى، لاخلاله بالآداب العامة، فكان ذلك من أسباب تأديب المأمورين وحشهم على السير في طريق الكمال، والمنافسة في محاسن الاعمال، ومن وسائل تهذيب الجرائد وإلزامها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب، مع اطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجود الخطأ والصواب بدون خوف ولا تعنت، لم يبق عامل ولا رئيس مصالحة، بل ولا ناظر إلا كان يجب أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية ويخشى أن تكون له سوءة فتبدو بنفثة من نفثاتها

« ومن فيكاهات ذلك التاريخ ان مدير بني سويف (إ. بك) بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية ومؤاخذه نظارة الداخلية على بعض خطئه أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية في مديريته ، وكتب بذلك محرراً غير رسمي الى صديقه مدير المطبوعات ، فوقع المحرر في يد رئيس التحرير لانه كان العامل وحده في الادارة ، فنشرت تلك الفعلة في منشور عام ، ولجميع المديرين ، وأدرج المنشور في الجريدة الرسمية . فانظر الى أثر ذلك في أنفس العامة والخاصة . وهذا مما علم الناس طرق الانتقاد على اعمال الحكومة ، وأفهمهم انها قد اقامت من نفسها مراقباً عليها يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشد إلى طرق التدارك لما يقع من الخلل ، وهو مما يرفع الهمم الى اعمال الفكر في معرفة الحق ويسوق العزائم الى طلبه

« لم يضع رئيس التحرير فرصة في انتقاد نظارة المعارف وسير التعليم وإظهار معاييب التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الإصلاح ، فغضب لذلك ناظرها (ع. إ. باشا) وكان بطيء الحركة خامد الفكر . بعيداً عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من اقتفاء الجريدة الرسمية له وتنقيبها على مواضع الخلل من اعمال نظارته ، فلم يسمع منه بل اجيب الى ان الحق أولى بالتأييد ، فان كان ما ذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك وهي مستعدة لنشره ، فسكت لان ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد في سبيل انتقاده وبعد ان تكرر النقد ووجد رياض باشا ان السكوت عن الخلل ضرب من الاهمال الذي لا يغفر ، ذا كر يوماً رئيس التحرير في ذلك ، وفي الوسيلة الى اصلاح نظارة المعارف ، وقال أما تغيير الناظر فغير ممكن ^(١) لان له مكانة في نفس الجناب الخديوي من جهة ، ومن جهة اخرى فنحن كجزمة ضُمت اعوادها برباط واحد فلا يحسن البدء من الآن بحل ما عقد بيننا ، فلا بد من النظر في طريقة أخرى ، فعرض عليه أن يشكل مجلساً اعلى يكون هو القاضي في ادارة المعارف العمومية وما على الناظر

(١) انما قال هذا جواباً لا ابتداء فقد تقدم أن الاستاذ عرض عليه اولاً ان يستبدل بناظر المعارف غيره ، ويوشك أن يكون قد سقط من الاصل هنا ما هو بمعنى ما تقدم لاننا تلتميناه عن الاستاذ نفسه

إلا التنفيذ ، فلم يمض على إبداء هذا الرأي بضعة أيام حتى صدر الأمر بتشكيل مجلس المعارف الأعلى ، واعد في أعضائه كثير من اكابر الاجانب والوطنيين وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضواً فيه ، ولم يخل تشكيل هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الاجانب من أعضائه ، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك ان تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدول الاجنبية ذات النفوذ في مصر فيسهل تنفيذها بدون معارضة من المراقبين ولا غيرهم فيها خصوصاً اذا قضت بصرف النقود وتوسيع النفقات . وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لا ينكر أثرها في حالة المعارف العمومية ولم تضر به كثرة الاجانب فيه فان حمية بعض الوطنيين من أعضائه كانت تحبس بعض الأغراض السياسية في نفوس أربابها ، فن بدت وجدت من المقاومة ما يبدها ، وكانت القرارات تصدر جميعاً في مصلحة البلاد وما يجب ان يتبع في سير التعليم فيها « فلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل في انتقاد عمل من الاعمال العمومية ، أو طالب إصلاح عادة من العادات الرديئة ، أو الأخذ بفضيلة من الفضائل التي بني عليها العمران ، وكانت تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخطب الحكومة بلسان العامة ، لهذا كان لكلامها من الاثر في الانفس ما لم يكن لكلام غيرها من الجرائد . ومن يطلع على أعداد تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الاثر حتى اليوم ، وما كان المقال لاظهار براعة أو الافتخار بمعرفة بل كان يكتب ما يكتب منتظراً لآثره في الانفس لا غير ، وما كان الاثر يتخلف عنه

« بهذا وبما سبقه تنبهت الافكار وبدأت الحياة الاجتماعية تدب في جسم أمة فرقها الظلم وأماها الجور ، وانبعثت النفوس تطالب ما شعرت به من حاجاتها ، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية اسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية ، ولم يكن يسمع بمثل ذلك في مصر من قبل » اهـ ثم قال

دار الكتب العربية ودار العلوم

« اتجه عزم نظارة الاوقاف إلى الاخذ بوسيلة من أجل وسائل الإصلاح وهي تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الازهر وتوسيع نطاق المدرسة الى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ ، وأن يرتب التدريس فيها على طريقة

تؤدي الى تكثير الاساندة المهدين لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها في الامة، ولكل طبقة من طبقات المدارس، بل الى إعداد عدد كبير من أهل الذكاء لادارة كثير من الاعمال الادارية والقضائية في البلاد، وقد قدرت فوائد هذا المشروع في عشر سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره المهاترون في هذه الاوقات، وبهذا كان يتسنى لنظارة الاوقاف أن تقدم الامة المصرية خدمة لاحقة بذمتها بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين، وبناء معابد قلما يوجد فيها أحد من المصلين، بل بهذا كانت تقيم الهياكل الالهية في قلوب المؤمنين، وتزيد في عدد المصلين الحقيقيين، فان ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها وإقامة ما تدعو اليه الحاجة منها، وكان توجه نظارة الاوقاف الى هذا المشروع بناء على ما عرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضاً» ثم قال

اصلاح نظام العسكرية

« وجهت الحكومة عزميتها لاصلاح في نظام العسكرية فبعد أن قررت مدة الإقامة في الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكري الى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية، رأت أن الضباط الكبار منهم لا يمكن أن يكونوا من المساكر المقترح عليهم لان المدة المقررة للخدمة لا تكفي في أن يصل العسكري الساذج الخالي من المعارف الجندية الى درجة تؤهله لان يكون ضابطا. فلا بد أن يمحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير. وهو رأي معقول في نفسه لا يخطيء مصلحة البلاد في شيء»

اصلاح المحاكم

وذكر الاستاذ هنا اهتمام الحكومة باصلاح المحاكم القضائية وإعداد الوسائل لذلك، ودعوة القضاة الى المداولة في أمر المحاكم المختلطة لئلا شيئاً من حق المساواة بين الوطنيين والاجانب

سيرة الحكومة متبالات بالجمال

«والخديو توفيق باشا والوزير رياض باشا بشيء من التفصيل»

بعد هذا بين الاستاذ سيرة الحكومة بالاجمال، وانها كانت موجهة الى مافيه الخير لمصر وأهلها، ولم يكن بناؤها على أساس الاثرة وقاعدة الاستبداد بالسلطة لقضاء شهوة الحاكمين وأعوانهم، وذكر من مناقب الخديو توفيق باشا: العفة والابتن والتعجب الى الرعية، وتعرف أحوالها بالسياحة في المدن الشهيرة، وبعده عن السرف، واكتفاء من النساء بأميرة واحدة، وترفعه عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره . . . من الامور الفاضحة . وذكر نتيجة ذلك بقوله : فاجتمع له في أنفس الرعية : المحبة والمهابة، وهما أقوى سند للحاكم وأشد ركن يعتمد عليه، وهما البقية التي تحفز اليها الهمم، ونحث نحوها العزائم، وتطير دونها الرقاب، والسعيد كل السعادة من الحاكمين من هيا له القدر أن ينالها

وذكر من سيرته في حكومته اتفاقه مع نظارها وسائر كبارها، على ما يخفف عن الرعية أثقالها، ويرقي عقولها وآدابها، ويفتح أبواب السعادة في المستقبل لها، مع شدة تمسكه بحفظ مسنده، وتقوية سلطته، وان هذا رفع قدره في نظر الاجانب أيضاً، وان الناس تناسوا بهذه السيرة ما أتاه في اول حكومته من النفي بغير محاكمة والمسارة الى تعيين المراقبين من الاجانب وإعطائهم الحقوق الواسعة، وكادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعة الخطأ فيها على غيره

ثم ذكر من سيرة النظار العمل فيما يعود على البلاد بالمنفعة أيضاً (قال) « ولم يكن لأحد منهم شهوة الاستبداد بالامر في عمله، لمحض إعلاء سلطته ووضع من دونه تحت قهره، واستعباد الرغائب والارادات لرغبته وإرادته، وجمع ما تيسر له أن يجمع مدة استعلائه على كرسي الوظيفة » وقد استثنى منهم واحداً قيل انه كان يمد يده الى بعض الخطام في بعض الاعمال الجزئية التي لا يظهر لها أثر في كلياتها، وآخر كان يطيع العصبية الجنسية، وسيأتي ذكره

ثم بين الاستاذ حسن تأثير هذه السيرة في الناس في نشاط العقول وتحفز الهمم والاحساس بالجاذب الى مطلب البلاد « وهو أن يكون فيها من قوة الارادة ونفاذ البصيرة ما يمكنهم من حفظ ما بقي لهم ، واسترداد ما ذهب منهم على مدى الزمان . وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم الى البلوغ بها اقصى امانيتها ، مع نفوذ البصيرة في شؤونها - رضي هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا في العمل اليها ، وقبلوا ما كان في جسم الحكومة من العال اختياراً لأخف الضررين ، وخضوعاً لحكم الضرورة مع قوة الامل في الشفاء » وذكر ان ضياء الآمال كان يسطع على وجه كل أحد حتى الساخطين على الوزارة إذ أحس هؤلاء الساخطون بشيء جديد من القوة وان مطالبهم على ما فيها من الطيش سهلة المتناول .

(قل) « وكان أهل الاصابة في الرأي يتمنون لو استمر سير الحكومة في سبيلها ذلك عشر سنين على الأقل ، فيأخذ الشعوب بمنافع البلاد مكانه ، ويستوي سلطان الارادة السليمة على عرشه ، وترسخ المالكات الحسنة في نفوس المستبدين بمقتضى (ميل) المفطرة لاقتنائها - وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعد لهم الكرم الالهي - وتعود الى النفوس سكنتها بعد ذلك الاضطراب الشديد ، وعند ذلك كان يتهدأ لاهالي البلاد أن ينزعوا الى نظام أكل مما أعطي لهم ، وأن يطلبوا سبيلاً الى تخفيف شيء مما كان لا يزال يشغل عاينهم

« ولكن وانسأه! حال دون بلوغ تلك الاماني أمور (منها) ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار (ومنها) ماله علاقة بالجناب الخديو (ومنها) ماسببه امتداد السلطة الاجنبية الجديدة (ومنها) نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا في ذلك من الوسائل لاثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا

شمائل رياض ومعارفه وأخلاقه وأعماله

عقد الاستاذ في رياض باشا فصلاً وذا فيه ماله وما عاينه ، وقل انه استعمل غاية الرأفة في الحكم عليه ، وأن الذي قد حمه عليه ضرورة بيان أسباب الفتنة القريبة ، وقد بدأ هذا الفصل بقوله : « رياض باشا خير من طبقة من المصريين

بلا نزاع ، والمنازع في ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات مالا ينكره العدو النصف ، ولكن يصحب هذه المزايا ما قد يؤاخذ عليه « ثم بين ذلك بما نختصره على إيجازه واختصاره ، قال :

رياض باشا ذكي بالفطرة وقد اكتسب بالتجربة في الأعمال الإدارية ما لم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلي يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليها الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئي على مثله وربما لا يكون جامع الشبه بينهما تاما فيقع في الخطأ

فيه همة وقوة عزم لا تنكر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر في العواقب ليتجنب ما يكره منها

صادق النية مخلاس السريرة في خدمة البلاد ، ولكن لا يبالي في تأدية ما يراه واجبا عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن ان من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته وإن لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله وإن لم تظهر الغاية الصالحة منه

له نشاط في العمل ، لا يصعبه كلال ولا ملل ، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب المكليات

فيه مزية التفويض للعامل في عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، وامكن ليس عنده قاعدة يبني عليها ثقته . فتارة يثق بالاذكياء العارفين وبالصادقين وتارة باضدادهم

اذا غضب على أحد مزج في غضبه بين احساسه الخاص وما يتعلق بالعمل العام ، فيسقط من نظره وإن كان فيه من الفضيلة ما يعترف به العالم أجمع ، ويفوته الانتفاع منه ، ولهذا يحترم أحيانا من لا يستحق الاحترام ، ويحتقر من يستحق الاكرام ، ويذم المتعصبين الاوهام ويجل الكثير من أفرادهم

يحب المصريين جملة وليس في طبقة من يحبهم مثله ، ولكنه يحب أن يرام في أعلى درجات الكمال المنتظر فينادي عليهم بالويل ويرميهم بالنقيصة ، لانهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الايام الظالمة ، وقد أعجزه هو نفسه التجرد

من ذلك والخروج منه — وشبهه بالاب الشديد الحرص على اعلاء منزلة أبنائه الذي لم يسلك مسلك اللين في تربيتهم وهو أهدي المسالك وأقربها نظيف القلب بعيد عن الحيلة ، اذا مال الى شيء أو نفر منه ظهر ذلك في قوله وأسرة وجهه وحر كات أطرافه ، فتراه يميل الى اخفاء سره ، وطهارة نفسه تحاول اظهاره فتكون الغالبة

يهاب ذوي النفوذ من الاجانب ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم اذا وجد من آخر سنداً ، وهو أمثل طبقة في ذلك

جريء مقدم في الاعمال كأن لا شيء يخيفه فاذا عرض له مالم يستطع تذليله رجع الى أقصى ما يمكن أن يبلغه الاحتراس فينقطع العمل . . .

لم يكن بخالج فذكره ربة في سكون المصريين الى الطاعة في كل ما يؤمرون به حملاً لهم على سالف عهدهم فكان في غاية الطمأنينة من ناحيتهم فلم ير انه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة في تنفيذ السلطة و من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب ثم خص الاستاذ عثمان رفاقي باشا الذي كان ناظراً للحريية من دون سائر نظار الوزارة الرياضية بذكر كلمة موجزة من صفاته لان سيرته من أعظم مقدمات الفتنة العراقية فقال

عثمان رفاقي باشا

« كان رجلاً ساذجاً محدود الادراك بعيداً عن التبصر في العواقب لم يكن يهيمه بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضي ميله ويروي ظمأه الى حصر السلطة العسكرية في بني جلدته من الجراكسة ونجريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها مع معاملتهم بالاحتقار. كان يطيع في ذلك تلك العصبية المقنونة التي يعطونها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين في مصر كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تعقبت أديبارهم ، أو كأن أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه ، أو منعوهم حقاً كانوا أهلاً لان بناؤه »

تأثير سيرة رياض باشا وشماله في مقدمات الثورة ❦

قال: « بعد ماتين من موجز سيرة رياض باشا وهذا البعض من نظاره يمكنك

(م ٢٤ ج ١ — تاريخ الاستاذ الامام)

أن تسمع بعض ما أثمرته تلك السيرة » ثم قال ماملخصه

١ — ان إبطال رياض باشا للسخرة كان عدالة لا تنكر ولكنها أحنق عليه جميع الوجهاء الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالها، ولم يكن ذلك ضاراً لولا ما صحبه من استعلائه عليهم وتعريضه بسوء ماضيهم ، حتى رأوا انه ينبغي لهم التخلص مما يحس كرامتهم، فشكوا لمقاومته جمعية تسمى جمعية حلوان كان فيها م. ش باشا وش باشا وع. ل باشا وغيرهم فلما خاب سعيهم تربصوا به الدوائر. وكان قد اشتد على بعض الجرائد فألغاها بأسباب لم تكن بالقوية فمنح بذلك خصومه آلة تهيج الآراء لمقاومته فذهب [أديب إسحاق] أحد محرري تلك الجرائد الملقاة الى أوربة وأنشأ جريدة سماها القاهرة لم يكن لها موضوع سوى رمي رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد الى الاجانب حتى كانت تسميه [رياضستون] وكان ينفق على تلك الجريدة الخديو السابق (اسماعيل باشا) و ر. باشا وم. ش باشا وع. ل باشا وغيرهم ، وكان الكثير من الساخطين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية عاتيه ووسائل شفائه

٢ — زاد حنق أكثر الاغنياء عليه بزيادة مئة وخمسين ألف جنيه في أموال الاطيان العشورية وهو لم يبين الضرورة الداعية اليها ليتضح عذره فانهز الفرصة نوبار باشا وأب كثيراً من الاعيان المظاهرة بالشكوى من الظلم والخسار الذي يحل بهم — وكبر الاجتماع لذلك ونفى من كان واسطة في إثارة المتظالمين وهو حسن موسى العقاد ، وروح نوبار باشا مصر بتنبيه يقال انه صدر اليه ، ولكن جرح الاغنياء لم يبرأ ألمه بذلك

٣ — وثق بمن لم يكن أهلاً لثقة المديرين فأساءوا الى وجهاء البلاد ولم يكن يسمع الشكوى فيهم لاستناده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد. وهذا صحيح في الغالب ولكن ليس من الجزم جملة عاملاً. ولهذا وقر في نفوس الاعيان ان رياض باشا عذراً يريد استعظامهم وإثامة من درنهم مقامهم

٤ — اتهم بتقويض الامن كما دعت في كل وزاراته كأن البلاد في حرب دائم، وأعطى المديرين في ذلك سلطة أساءوا في استعمالها فأخذوا بالظن ونالوا من كثير

بالشبهة فأزعج ذلك نفوس الباقيين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل « إذا صوبنا النظر الى مادون المرتبة العليا من مراتب الانسانية وهي المرتبة التي يصل فيها الى منازل الملائكة في كمال الصفات، وأخذنا الانسان من وجهته البشرية، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها وعم أثرها لا تصرف الشخص عن نفسه، ولا تنسيه منفعه ومضاره الخاصة به، فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعوزهم البصيرة، وقد شعروا بشيء من القوة لا يدركون كيف يستعملونه؟ فمن مسه ظلم الأمور ولم تسمع شكواه — ومن يترقب أن يؤخذ بما أخذ به غيره بغير محاكمة عادلة — ومن نكبه شبهة مخيلة لا حقيقة لها — ومن يخاف أن يتمثل في خيال حاكم جاهل بصورة لا تعجبه فينال ما نال صاحبه — كل أولئك وإن كانوا لا ينكرون فضل الحكومة فيما أتته من الاصلاح كانوا يطالبون تغيير هذه الحال بما هو أدعى للسكينة والاطمئنان وتوفير المنافع. وأنزه الناس غرضاً كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى ذلك من نفسه بما تكشفه التجربة في زمن قصير أو طويل. أما الضجرون ومن لا تبلغ المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلاً عن أقصاها فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة الى أخرى ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها مهما استطاعوا

« تلك الرغبة التي كانت تلعب بالنفوس وتجيش في القلوب آخر عهد اسماعيل باشا والايام الاولى من حكومة جناب الخديو السابق رحمه الله — تلك النزعة الى تأسيس الحكومة على قاعدة اشورى ومنح بعض منتخبين من الاهلين حق المشاركة في كليات أعمال الحكومة — ذلك الظأ وجد مسكناً من مبادئ الاصلاح فاطمأنت النفوس الى عدل الحكومة في القضايا العامة وفترت تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضاً عن اشتراك الرعية في الحكم. لكن تلك النزعة انبعثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الاسباب التي سبق ذكرها ولاسباب سنذكرها فرجع التحدث بين الناس الى ما كان عليه. وأخذ الناس يقولون لا صلاح في الاستبداد بالرأي وإن خالصت النيات. فرأي واحد عرضة للخطأ. وإن تحققت نزاعته من الغرض »

رياض باشا لم يكن يعرف أن في البلاد من يطلب هذا الامر طلباً صحيحاً لانه لم يختبر الناس ولم يصنع حق الاصغاء الى ما كان يدور بينهم . وكان يعتقد أن في مجلس الشورى تعويقاً عن الاصلاح المطلوب لان أعضاءه تعوزهم الخبرة بالاحوال السياسية والادارية فلا ينتظر منهم إلا المعارضات وإطالة البحث في أمور تجب فيها السرعة . وكان يوافق في هذا الرأي كثير من العقلاء ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتشكيل المراقبة الثنائية وبتأهم المسائل السياسية ، إذ لم يبق بعد ذلك إلا الشؤون الداخلية والقضائية ، وكان يمكن تخويل المجلس بعض الحقوق التي منحها الامر العالي من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رفضاً باتاً فكان ذلك مما زاد الرغبة « ولو أنه أجاب بالرفق ووضع المسألة موضع البحث وطاول في بقها سنين - لكان قد أرسل الآمال تسرح في فسحة من النظرة ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه ، ويشير الاحقاد حواليه »

سيرة الخديو توفيق باشا

(المفضية الى الثورة)

قال « بعد امضاء قانون التصفية واطمئنان الحكومة من ناحية الاوربيين ومشاكلهم وجد الجنب العالي فراغا من الزمن يمكن أن يسمع فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التي كان ينبغي أن تكون له من جهة ما هو خديو وحاكم أعلى في مصر » « ابن عريكة الجنب الخديو أو رعايته لجانب والده أو حسن ظنه فيمن سبقت لهم أعمال في خدمة العائلة الخديوية - شيء من ذلك حسن لديه إبقاء الكثير ممن كانوا في خدمة حضرة الخديو السابق في معيته السنية وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا ولم تألف قلوبهم وجدان الرحمة والشفقة على الاهالي ، ولهم مطامع لا تهدأ بعد مذاقوا من لذائذها الماضية مذاقوا . هؤلاء يغث عايمهم أن يروا السخرة الشخصية قد أبطلت ، والسلطة الادارية قد قيدت . وتحول مجراها عن رجال المعية الى ناحية النظارات ، ولم يبق لهم التصرف المطلق في الاعمال والمصالح

كما كان لهم من قبل، بل أحسوا بأن من الاحكام العمومية ما يجري عليهم كما يجري على أفراد الاهالي، وهذه غضاضة في نفوسهم لا يسهل عليهم الصبر عليها، فوجدوا من ذلك على رياض باشا ظناً منهم انه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة

« ميل الجناب الخديوي الى أن يكون محبوباً من رعيته كان يبعثه على إفاضة الاحسان بالرتب والنياشين على من يراهم اهلاً لولائه أو على الوعد باجابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوي وجاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة، وعهد جنابه بالسلطة الخديوية أن لا تعارض في مجراها خصوصاً إذا كانت متجهة الى مالا ضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الاجانب. لكن رياض باشا كان يجد في كثير من ذلك موضعاً للمعارضة وهو مع خلوص نيته في خدمة الخديويين لا يستطيع إخفاء ما في نفسه من غيظ أو ضجر مما لا يراه حسناً فكان يظهر في أقواله ما ربما يחדش نفس الجناب الخديو. وقد كان يأتي في بعض مقالة ما يشير الى التهديد

بالاجانب وو كلائهم كما أخبرني به الصادق في روايته. ورأى الرابضون حول الاريكة الخديوية لوائح الانفعال تظهر مرة بعد اخرى على وجه جنابه ففتح لهم بذلك باب يلجونه لشفاء ما في نفوسهم، فأخذوا يستزلون الجناب الخديوي الى بث ما في نفسه فيفيض بما كان يجده، وهم يفيضون في شرح الاقوال وتوسيع دائرة المقصود منها وتحميلها مالا تحتمله، كأنهم مشايخ محققون، يلتقون دروساً على طلبة في الازهر مدققين، والجناب الخديو يسمع منهم ويسرح الى ما يقولون. وقد انتهى به الامر رحمه الله الى انه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا في كلامه وحرركاته أثناء خطابه وهياة جلوسه وما يرى في مشيته من دلائل الخيلاء في زعمهم، وما شابه ذلك. وكان رحمه الله يجد في ذلك نزهة لخاطره، ونوعاً من التسلية تسرب بها نفسه، ويتمضي بها وقته. وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بدت منه معارضة في أمر صغير أو كبير بما كان يصوره أولئك المتعلقون. وكما رأى رياض باشا علامات الانفعال اشتد ضجره وكما اشتد ضجره وظهر في قوله أو فعله التهب غضب الجناب الخديوي عليه وان لم يكن يظهره له، فوصل الامر في اقل من سنة بعد إمضاء قانون التصفية الى ان الجناب الخديو لم تكن له أمنية إلا عزل رياض باشا، ولكنه كان يظن ان قناصل الدول خصوصاً

قنصلي فرنسا وانكلترا يعارضان في عزله لو أراد. فأخذ يلتمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضاء به بدون معارضة، فاستأفت بعض من حوله نظر جنابه إلى الحادثة القريبة العهد التي كانت سبباً في عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو الاسبق فرآها أنجح الوسائل «
 إثارة الخديو الضباط على رياض

« أخذ الجاب الخديوي من ذلك العهد يستدني منه أمير الأي الأول الذي كان يحرض السراي وهو علي بيك فهمي ويستدعيه إلى مجالسه الخاصة ويمارحه ويزج به في الحديث على اختلاف شؤونه ويظهر له أمانيه في الاحسان عليه وعدم وجود السبيل إلى ذلك حتى قل له مرة: اني أردت الانعام عليك بألف جنيه ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا . ومرة اني أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا. وأمثال ذلك حتى اعتقد علي بيك فهمي ان الجناب الخديوي ساخط على رئيس نظاره وان رئيس نظاره عدو منفعتة ومنفعة إخوانه، وعلى المؤلف عندنا لم يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجري حولهم

« كل هذا والمرحوم عثمان رفيقي باشا يشتد في معاملة الضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم في مصر ويهين المشروعات لراحة القوة العسكرية منهم، فإذا كان يدور من الحديث بين علي فهمي وبين إخوانه الضباط الفلاحين؟ وماذا يتصورونه في منزلة رياض باشا من الخديو؟ وماذا يتخيلونه في ميل جنابه إلى فصله؟ وماذا جسمته أوهامهم من معاداة رياض باشا للضباط حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفيقي قائما هو من رئيس النظار؟ ولينظر ماذا بهجسون به من وسائل التخلص من رياض باشا ورفقي باشا معاً على ظن انهم لو فعلوا شيئاً من ذلك قائما يفعلون ما يرضي خديويهم، ثم تأمل في الاعاليل التي يمكن أن يتخذوها حجة على ان ما يعملونه في هذا السبيل موافق للصواب آت على وفاق الشرع

سيرة الاجانب من أسباب الثورة

عقد الاستاذ ههنا فصلاً في بيان كون نفوذ الاجانب كان من أسباب الثورة

يبدأ ببيان أن الضباط وغيرهم لما استراحوا من بعض المظالم انفسحت آمالهم في
 استكمال الشفاء مما بقي من عللهم والتنبه لها وزيادة التألم منها كالمرض يشعر بالآلم
 بقدر الأمل في الشفاء . وبهذا انتبه ظهر لهم أن قانون التصفية وضعه الاجانب لصلحة
 الاجانب وأنه حرم البلاد حريتها، وأن الاجانب يتقاضون رواتب فاحشة من الخزينة
 في إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدائرة السنية وسائر المصالح
 التي وظيفوا فيها مع ادعاء فقر الخزينة والبلاد . وانهم هم اصحاب الكلمة النافذة في
 الادارة والمالية وانما يعملون لمصالحهم لا لمصالح البلاد، فالحكومة الخديوية أصبحت
 تابعة لحكومات أخرى لا تهتم بسمادتها ولا شقاها إلا من وجه ما تبقى قادرة على
 تأدية ديون رعاياها وتقديم الرواتب الوافرة الى المندوبين من قبلها ففسوة الاجانب
 الثريوين وسيرة المحكمين منهم مما أوقع في خواطر المهين بذلك « ان حقيقة الظلم
 واحدة وانما طورها الجديد أرسخ أساساً وأضبط نظاماً وأظهر استعداداً للخلود
 فلا محيص عنه . فلو استطال سلطانه وامتد من دائرة الى أخرى آكل الامر الى وقوع
 البلاد في شدة منظمة وضيق محكم الحلقات »

وذكر في هذا الفصل أن ما كان يقوله الساخطون على رياض باشا وما ينشرونه
 في الجرائد التي تطبع في أوروبا وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن
 الحزب الوطني يرى مقررته لجنة التصفية وما أشار به المراقبون لا ينطبق على
 رغبته وأمانيه للبلاد . كل ذلك كان يهيئ الفرص للناقين على رياض . وذكر
 أيضاً أن الاجانب لم يكونوا راضين عنه لان ربحهم من البلاد قل بحسن سيرته .
 وقد حصل نزاع بين البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم
 المختلطة إذ كان الباشا يريد تخفيف امتيازات الاجانب فيه والبارون يأبى ذلك
 فأخذ يسعى في إيجاد الطرق لفصل رياض باشا

(أسباب تألب الضباط الذي أفضى الى الثورة)

تقدم أن بعض الضباط رفعوا عريضة الى وزارة شريف باشا التي سبقت
 وزارة رياض باشا لتهمسون بها عزل ناظر الجهادية تملأ برداء الطعام وعدم النظر في

أحوال المستودعين وأرباب المعاشات . فناظر الجهادية لم يهتم بالبحث في ذلك ولا في أسبابه ولم يسع لتفريق من جمعتهم تلك النزعة ، ولم يسلك مسلك رئيس النظار في المصالح التي تولاهما بأن يحمل العسكر على الأخذ بالأعمال العسكرية وتعاليمها ، ولم يلزم الضباط إحياء الآداب العسكرية وإعادة النظام السليم اليها ، بل اشتغل بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصري والجر كسي - وترك كبار الضباط هملاً بغير عمل

ولما جاء وقت وضع الميزانية وعزمت الحكومة على تنقيص الجيش في أواخر سنة ١٨٨٠ ميلادية وحصر ترقى الضباط في المتعلمين بالمدارس الحربية اضطربت أنفس الضباط المصريين واعتقدوا لسوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام إنما أحدث لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا للتشاور في أمرهم

عبد العال بك وعلي فهمي بك

وبينما هم كذلك أحال عثمان رفقي باشا عبد العال على الاستيداع وأقام أحمد عرابي مقامه . واتفق أن انحرف الخديو عن علي فهمي أمير الأي الأول وأبدى رغبته في نزع سلطته عن تلك الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة - وهو يعلم من سخطه على رياض باشا ما يعلم ويعتقد أن سلطته لا تنهض بالتخلص منه - فخاف أن يحل به ما حل بعبد العال وأن يبدل بجر كسي فانضم إلى من مسهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديو نفسه

أحمد عرابي بك

قال « أحمد عرابي بك كان ينظر إلى رؤسائه من الجراكسة نظراً العدو إلى عدوه، وكان يحقرهم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها، وربما لم يكن مخططاً في الكثير منهم، وكان أجراً أخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة، فلما شرعت نظارة الجهادية في عملها الجديد وبدأت باستيداع عبد العال غلب على ظنه أن ما يصل إلى عبد العال اليوم يصل إليه غداً فيحرم مما يرى نفسه أحق بالتمتع به، ووجد هو وإخوانه فيما كشفه علي فهمي من النفرة بين الخديو ورياض باشا سبيلاً للجرأة

على مقاومة تلك المشروعات ففرع الى رئيس النظار وشكا اليه مامس عبدالعال
قبلت شكواه بعد تردد استمر مدة أيام وأبقي كل في وظيفته »

أحمد بك عبد الغفار

كان [قائمقام سوارى] وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة لامور أهمها
تأربهما في درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة فكان كل يطلب الخلاص من
الآخر ولا يجده . وعرف الخديو ما بينهما وشكا اليه عثمان رفقي تصرف أحمد
عبد الغفار معه فكان من ثمرات ذلك أن الخديو كان يستدعي احمد عبدالغفار
في طريق منزله الجزيرة ويستوقفه ويحدثه الزمن الطويل مظهراً ميله اليه ويسمع
شكواه من عثمان رفقي ويعده باشكائه ورفع ظلامته . وهذا مما كان يشجعه على مناوأة
رئيسه ويزيد في حقد رئيسه عليه (و ذكر الاستاذ حادثة ضاعفت العداوة)
وبعد أيام كان عرابي وبمغن شركائه في الخوف من نظارة الجهادية في ولية
بيت نجم الدين باشا دعاهم اليها اثر قدومه من الحج . وبينما هم على المائدة قال
اسماعيل كامل باشا : ان ناظر الجهادية اتى اليوم عملاً لا يحمد عليه . عزل أحمد
عبد الغفار من قائمقامية السوارى وعين بدله محمد شاكر بك . فلم يتم أحمد عرابي
عشاءه بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط الى بيته وكان فيهم علي فهمي
وعبدالعال ودعوا احمد عبدالغفار وكتبوا تقريراً ضمنوه الشكوى من عزل احمد
عبد الغفار بلا محاكمة على خلاف القانون . وذكروا أشخاصاً آخرين عزلوا واستبدل
بهم شيوخ فانون أو جهالة دونهم في المعارف العسكرية ، وعددوا من سيق من
الضباط الوطنيين الى السودان ونحو ذلك . وطلبوا إحالة القضية على مجلس عسكري
ينظر في جميع أطرافها ، فان كان لهم حق منجوه ، وإن استحقوا عقوبة قبلوها .
وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال اعماله وميله عن النظام طاعة لميل خاص
رفعوا نسخة من هذا التقرير الى الخديو وأخرى الى رياض باشا بامضاء أحمد
هرابي وعلي فهمي وعبدالعال حلمي بالنيابة عن جميع الضباط المصريين فبقي التقرير
١٧ يوماً تحت المداولة بين الخديو ورئيس نظاره وكان من رأي رياض باشا أن
يهاب طلبهم في تشكيل المجلس العسكري ولكن الخديو لم يقبل ذلك
(٢٥ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

مظاهرة الملا المصري للضباط

« شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد في مصر ، علم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره، فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجنب العالي واتحدت وجهتهم في الغاية وإن اختلفت الدواعي والبواعث، فطلاب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تشكيكه، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشف اكربتهم وأمناء على أنفسهم، والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم، والذوات الكرام الطامعون في رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون في ارضاء شرهم ، والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية، وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى في الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتي خلفه بمكنه مجاراته في مطالبه ، والجنب الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رئاسة النظر بل تلك أمنية من أمنائه

« فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح في الطلب ، وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث اليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطاب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتى به ناظر الحربية لا يمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأتيمهم الاخبار بأن الجنب الخديوي لا يأتى إجابة طلبهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم وانما رياض باشا هو الذي لا يريد ذلك ، والله أعلم من أين كانت تأتيمهم هذه الاخبار مع ان رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر حسب ما طلبوا في تقريرهم كما قدمنا

« زاد هذا كله في جراءة الضباط وكلمات مدة التردد في حسم المسألة كثرت الاشاعات وقويت عزائم المحركين وغلب الظن بضمف الحكومة وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس المظار وبينهم قال دولته في إحداها لعراي ومن كان معه إن ماؤدعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر بعد خروجها عما حدده لكم

القانون وتلك مهلكة سياسية فقد يخشى أن يمد الا جانب ذلك سبيلا لزيادة تداخلهم في الحكومة واشتداد وطأهم عليها
«وأحس بذلك البارون درنج فأرسل الى أحمد عرابي واخوانه يقول لهم انه يسره ما يراه من صلابتهم في عزيمتهم، واشتدادهم في المطالبة بالعدل فيهم ، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم ولا يضعونهم ما يهددون به ، فهو بصوت حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة وليس في الامكان ان حكومة متمدة تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم ، الساعين في الانتصاف لأنفسهم ولا بناء بلادهم

بدء الثورة بحادثة قصر النيل الشهيرة

جعل الاستاذ لهذه الحادثة تمهيداً بين فيه ان الضباط كانوا يتوهمون ان رياض باشا مؤيد في منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر — وان الخديو نفسه كان يظن ذلك — ونتيجة ذلك ان مقاومة وزارته مقاومة للدول فلا يتعرض لها الا بوسائل الرفق واللين ، فلما قال قنصل فرنسا الجنرال لعرابي ما قال « انكشف ذلك الوهم، وتحول السير من سؤال الخاضع ، إلى إلحاح المضارع » فآخذ أحمد عرابي وعبد العال وعلي فهمي يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ما تسنه نظارة الجهادية من نظام ضار بهم وطلب عزل ناظرها مثار تلك المخاوف
علا نداء الضباط بذلك وكثر الاضطراب فانهقد مجلس النظارياسة الخديو للاسراع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعية « فكان من رأي رياض باشا أن يحال تحقيق مافي التقرير على مجلس عسكري . وكان من رأي ناظر الجهادية القبض على الضباط الثلاثة عوامل هذه الحركة والحكم عليهم بالمعقوبة التي استحقوها بمجرد أنهم هذه . ووافق بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية، وكان الجناب الخديوي من هذا الرأي . واستمر الجدل ذلك اليوم الى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر شيء فقاموا الى المائدة ، وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع إلى المداولة جاء أحد رجال المعية (طلعت) باشا الى رياض باشا وأسر إليه ان بعض الناس يتهم دولته بمجاعة الضباط والاخذ بناصرهم طمعاً في ان يملك قلوبهم ثم يستخدمهم في

الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا الى الجلسة لبث رياض باشا ساكتاً وصارت الاغلبية على رأي الجناب العالي وانما سأل رياض باشا ناظر الجهادية: هل تتحمل تبعه هذا الامر ؟ فقال نعم . وصدر الامر بالقبض عليهم وسجنهم في ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثني به أحد النظائر في ذلك الوقت ولاأظنه إلا صادقا »
« لم ينفذ الامر الخديوي بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة ولكن سلك في تنفيذه طريق الحيلة والغدر »

ثم بين الاستاذ ذلك بما حاصله ان ناظر الجهادية كتب الى الضباط الثلاثة يدعوه الى ديوان الجهادية للمذاكرة في ترتيب حفلة زفاف الاميرة جميلة شقيقة الجناب الخديوي أول يوم من شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — وهو اليوم التالي ليوم صدور الامر العالي بحبسهم — فلما وصلت اليهم الدعوة دهشوا لان موضوعها لا يحتاج الى مداولة ثلاثة من أمراء الااليات ولا مثله بمتمادفطنوا للحيلة في تلك الدعوة في ذلك التاريخ فدعوا من يثقون به من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة فقع الجميع بان خطراً سيحل بالثلاثة ثم بكل من يشايهم — أو بكل ضابط مصري على ما كان يخيل اليهم — « فحملهم الحرص على وظائفهم وأقدم بهم العلم بضعف الحكومة عن الانتقام منهم لمكان الاختلاف الواقع في أمهات عناصرها، وماهاجمهم من وساوس ذوي الكلمة في مصر وما كانوا يتخيلونه من رضاء الكافة عما يفعلون — على أن يقاوموا الشر المنتظر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك غير مباينين بعاقبة وكان في الضباط الحاضرين كل من محمد عبيد بكباشي في الاالي الاول — ألي الحرس — وخضر خضر بكباشي في ألي السودان فأخذا على عهدتهما إنقاذ الضباط الثلاثة إذا سقطوا »

بعد هذا التمهيد ذكر الاستاذ حادثة قصر النيل المشهورة وملخصها ان الضباط الثلاثة جاءوا قصر النيل يتبعهم على بعد بعض العيون من جند الاالي الاول فاذا الديوان غاص بالضباط وأمراء العسكرية فلما وصلوا الى حيث الناظر تلي عليهم الامر الصادر بسجنهم وجردوا من سيوفهم وألقوا في السجن » وتقاذفت عليهم الشتائم وكان أكثرها وأبلغها في التحقير كلمة (فلاح) فعاد المقتفون لاثرم وبلغوا الضباط الاالي

الاول مارأوا قهض محمد عبيد بالعسكر الذي تحت قيادته لا نقاذهم فاعترضه القا بمقام
[خورشيد بك بسمي] فلم يسمع له قولا وشاهد الخديو حركتهم فأمر [بروجي الحرس]
بأن يدعو ضباط الحرس الى السراي فدعاهم فلم يستجب له أحد . وانطلق بهم محمد عبيد
الى قصر النيل فهجموا على الديوان فيه فأطار الرعب قلوب الامراء فيه ومنهم
الناظر والوكيل ووثب كل منهم من نافذة يطلب الخلاص لنفسه فمنهم من كسر
ومن جرح وفتح الجند مستودع الضباط الثلاثة عنوة فخرجوا ظافرين . وأرسلوا
الى ضباط ألي السودان وكان في طره فحضر حالا وإلى ضباط ألي العباسية وهو
ألي عراي وكانوا قد قبلوا أميرهم الجديد الذي خلفه بعد حبسه والتمسوا العفو
عنهم ثم بلغهم ما حصل فوقعوا في حيض بيض . وقد خطب عراي في العسكر
والضباط المجتمعين وأثنى على اخلاصهم في حب أمرائهم ثم أمرهم بوضع السلاح
وأخذ يكتب الى القناصل ويستعد لخبرة سراي عابدين

(قال الاستاذ) « كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو في نظارة الداخلية فجاء
الى سراي عابدين — وعراي يرسل شكواه إلى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال
ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل ان الضباط لم يأتوا عملا إلا ما بقي أرواحهم
ويضمن لهم اقامة العدل فيهم، وأرسل اليه ورقة الدعوة الى ترتيب الزفاف وبسط
له الحيلة التي دبرها ناظر الجهادية للايقاع بهم . وشرح له ما حصل لهم من سلب
السيوف والحبس على انهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية
وهو طلب عادل لسوء تصرفه . فورد له الجواب من [البارون درنج] بالثناء على
عزيمته وثباته في مطالبه العادلة وبشره بأنه لا خوف عليه مادام الحق في جانبه .
فسر عراي بذلك . أما باقي القناصل فلم يجيبوه بشيء »

ثم ذكر ان الخديو أرسل الى عراي يسأله عن سبب هذه الفتنة فاجابه بأنه
لا يريد إلا عزل ناظر الجهادية فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون
أحدهم خلفا للناظر فلم يقبل أحداً الى أن عرض عليه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف
قبله فعين في الحال ناظراً للجهادية . فأرسل عراي يشكر الخديو على ذلك وطلب
العفو عن العساكر والضباط فيما فعلوا فعفا عنهم . وصدر اليه الامر بان يصرف

العساكر في الحال فلم يمثل بل أجاب بأنها تنصرف في صباح الغد
وانتهت بذلك الحادثة التي تعرف بحادثة قصر النيل

(نتيجة ماتقدم وتباين أفكار عرابي ومنشأيه ورياض باشا والخديو فيه)

« كان يمكن لعرابي أن يطلب فصل رياض باشا بل وأكبر من ذلك لاستكمال
الضعف في ذلك الوقت والمحصار القوة فيما بيده ولكن الامر كان غير مدبر فان
طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابي ومن معه حتى كانوا يفضون اليه بما يريدون
بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع الى نيل مطلب ما بالعنف والوصول اليه
بالقوة يكفي في أن يقدم رياض باشا استعفاءه ولا حاجة الى التصريح به لعرابي
ومن معه خوف الاخفاق فيزداد عناؤهم اذا انكشف أمرهم فكانت الوسوس
منحصرة في تزيين مآثم به الضباط من طلب حقوقهم

« أما عرابي فلم يكن يخطر بباله ولا يهدف به في منامه أن يطلب اصلاح
حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذي
أحاط بفكره وملاك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان
معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا ، فلم يكن له هم سوى الأمن
على مقامه والانتقام من ذلك العدو والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف
العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لانه هو وإخوانه
أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم

« وجميع المحركين له انما يأتونه من هذا الباب ولم يستلقتوه الى أمر آخر
فظن أن مقال الاعيان والذوات الفخام وما يأتية من الجانب الاعلى وما يسمعه من العامة
من بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويبهم للثبات عليه انما هو لعدالة الطلب
واعتدال الرغبة ، فحبل له أنه بعمله هذا يرضي الجانب الخديو والكافة وقنصل
فرنسا أيضاً بتطهير الحربية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فانحصر طلبه في عزل
عثمان باشا ، وما بقي من سلطة الجراكسة تسهل إزالته بعد ذلك فانقضى أرب
عرابي ولم يستعف رياض باشا

«أجال رياض باشا فكر في أسباب هذه الجرأة التي أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة مع أنهم ليسوا إلا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة وتمزيه الحاكم عن أن تتناول إليه الاوهام بالمقاومة فضلا عن اللسن والأيدي، فأنحصرت كل الأسباب عنده في البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال وأن صفته هذه وجهره بتعظيمه هو الذي نفخ فيهم هذا الروح ولولاه لم ينبض فيهم عرق، ولم ينطق لهم لسان، لهذا سعى لدى الجناب الخديوي في أن يطلب من رئيس الجمهورية استدعاءه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفاً له موسيو ستكوفيش

«لم يدر في خلد رياض باشا أن البارون درنج كان العلة المتممة وإن هناك أسباباً أخرى سبقت سعيه وهو ظهور الانحراف عنه من كل جانب، وإن الفتنة لا تسكن مادام في الوزارة غير مرضي للجناب الخديوي، مضايقا لمن يحفون به، آيماً البحث في تشكيل مجلس النواب، وإثبات بعض ضعفاء العقول من الحكم، مناصباً للذوات الفخام بلا محاملة، غير ناظر إلا إلى ما يراه حسناً، وما يعد خيراً للبلاد بدون التفات إلى ما يخفف مرارة الحق إن كان محضاً، ويجلو جمال النية إن كانت صالحة، ولهذا قد اكتفى بعد إبعاد البارون درنج بالتفويض لناظر الجهادية الجديد في إزالة أسباب الشقاق الخيم في المراكز العسكرية والأخذ بزمام هؤلاء الضباط وردهم إلى النظام وتسكين نفوسهم إلى الطاعة، وأما ما بقي من الأسباب الحقيقية للفتنة وهو ما في نفوس أهالي البلاد من الميل إلى تغيير شيء من السيرة الحاضرة وما تمكن في قلب الجناب الخديوي من النفرة منه فلم يلتفت إليه لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفس رياض باشا

«لم يكن يخطر ببال الجناب الخديوي في ذلك الوقت أن الأمر يصل إلى هذا الحد، وإنما كان يظهر البعض الضباط انحرافه عن رياض باشا ويبلغ إلى أن رئيس النظام هو عدوهم وهو الساعي في تقليل القوة العسكرية وفي إيجاد المنظمات التي تحرم كثيراً من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم في الجندية ونحو ذلك، ثم يميل في مجلس النظام إلى أخذ الضباط الثلاثة غيلة ويجريدهم من سيوفهم قبل محاكمتهم، كل ذلك

حتى يحدث شيء من الالتزام يعز على رياض باشا قبوله فيستعفى . كان الجناب العالي ينتظر أن يستعفى رياض باشا بمجرد الاصرار على صدور الامر بحبس الضباط الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف ، كان يظن بعد ذلك أن غاية ما يؤدي اليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجمعهروا حول رئاسة النظار يطالبون بالافراج عن اخوانهم ويصروا على ذلك فيستعفى رياض باشا كما استعفى نوبار باشا في حادثة الخديو الاسبق ثم تنتهي بذلك الحادثة ويعود النظام الى مقره . « وغاب عن الافكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا كانت لم تزل تشهد في الجندية تخفى وتظهر على حسب اقتضاء الاحوال كما يعرف من المريضة التي قدمت في وزارة شريف باشا السابقة على وزارة رياض ، ثم لو كان الجناب العالي اظهر رغبته في عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ودبر الامر معهم وقال لهم ان هذا الرئيس يرتكن على الاجانب وهم يسندونه فلا بد من إيجاد سبب يقنع الاجانب ظاهره لكان ما اتاه الضباط صادراً عن أمره ولبقيت هيئة المسند الرفيع في نفوسهم مع اطمئنانهم على ارواحهم ومراكمهم من ناحية جنابه ، ولما وجدت نفوسهم في الظفر بمطالبهم شيئاً جديداً سوى الامتثال لأوامر الحاكم وان كانت سرية ، ولما استشعروا بتلك القوة التي اندفعت بهم إلى خرق ذلك السياج المنيع الذي يحول دائماً بين النظام والفوضى . نقول ان ذلك كان اقل خطراً فقط ، أما سوء عاقبة مثل هذه الافاعيل فما لا محيد عنه غالباً .

« ثاني يوم الحركة استشعر الجناب العالي أن في الحادثة ما قد يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح في هين عظيمين بعد أن كان فيهم واحد — هم رياض باشا وهم الضباط — فبادر الى أخذ الاحتياطات لأهمها خطراً وأشدّها وهو الثاني ، فاستدعى علي فهمي أمير الالاي الاول وذكره بما كان له من الزاني عنده ، وأظهر له غاية الرضى عنه ، وأمره باستدعاء جميع ضباط الالاي الى سراي عابدين ليقسموا للجناب الخديوي يمين الطاعة والفداء ، ويقسم لهم جنابه يمين التأمين من كل عقوبة على ماضى

« أراد بذلك الجناب الخديوي أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف

بها ما بقي منه ، فاذا أراد أن يريح نفسه من عبد العال مثلاً ، لم يستطع ألايه أن يفعل مثل ما فعل الألاي الاول مع الضباط الثلاثة ، لوجود من يقاومه ، وهكذا لو أراد أن يبعد عرابي . ثم إذا استراح من كليهما رجع على علي فهمي وضباطه ، وبذلك ينتهي القلق ، لكن عرابي أحسن بالامر ، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه علي فهمي من يمين الامان ، فدخل برنماء الجناح الخديو - أو على غير رضاه - في رابع يوم الحادثة وتقاسما الايمان

« إلى ما قبل الحادثة بيوم كان عرابي يخاف على مركزه في العسكرية ويخشى شماتة أعدائه من الجراكسة مضطهديه فكان كل همه كما قدمنا ، أن يأمن على وظيفته ويتقي من عدوه ، ومع هذا فقد رفعه طلاب تغيير الحال إلى إعداد الضباط لفعل ما فعلوا يوم قصر النيل . أما وقد هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة ، وحولها عن وجهتها ، وجعل الآلة فاعلاً ، والفاعل آلة ، وذلك مما يعد جرماً في نظر كل واحد حتى إن سريره مهماً عميت لا يمكن أن تغفل عنه ، ثم رأى من الجناح الخديوي تخصيصاً لعل فهمي بتقاسم اليمين معه - فقد ولت عنه السكره ، وآبت اليه الفكرة ، ومثل له جرمه ، وشعر بان حاكمه لا يسمح له بقوة تعلقوته ، والنظام يقضي باهلاك هادمه ، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ، ولا ريب أن الروح عليه أعز ، وأن الشماتة بعدها أدهى وأمر ، وأن دخوله في يمين الخديو لا يكتفي في وقايته ، لانه لم يكن يجمل قيمة الايمان ، ولو كان اليمين ؟) عنده يلزم الخالف بما حلف عليه لما جاء هو بما نقض الايمان العسكرية التي حلفها عند استلام علم الامرة على فرقته ، فاخذ يحتاط لنفسه ولمن شاركوه في الجرم ، ويلتمس العضد من كل طرف ، ويفر من الموت في كل سبيل

« ركب به الجبن طريقاً عمياً ، يخبط فيها خبط العشواء ، يسوقه الرعب ، ويقوده الوهم ، وضعف الحكومة يمدده ، والرغائب الخرقاء تساعد به إلى أن أودت به وبالبلاد خطيته

« أول ما أخذ به من الاحتياط أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركه ليلاً ليحموهم من الغيلة المبتدلة في أرض مصر ، علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقي (٢٦ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

ما قد يوجه اليه من سلطان الحكومة فلجأ الى ضم القوة العسكرية اليه واخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك في ذلك مسالك علمت صغار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضابط لهم ، وكيف يتدخلون فيما ليس من شأنهم ان يتدخلوا فيه كما ستراه فيما بعد »

ثم بين الاستاذ ما طلبه عرابي باشا لاستمالة الضباط والعساكر اليه ومنه زيادة رواتبهم وزيادة كبيرة وصدور أمر عال بتشكيل لجنة مؤلفة من عشرين اميراً من كبار الضباط هو احدثهم للبحث في انظمة العسكرية والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية احوال المستودعين ، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق النظام بجعل ناظر الحربية هو الذي يعرض ذلك على الحكومة بل كانت المرائض تكتب في بيته او بيت احد شركائه « ثم ترسل الى الالايات ليختم عليها الضباط صغاراً وكباراً وبعض الصف ضباط ثم تقدم من قبل ضابط ألي إلى نظارة الجهادية أو الى رئاسة مجلس النظار — فلينظر بم كان يشتغل الضباط والعساكر وفيهم بصرفون أوقاتهم ؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم في الاعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التناول الى ما هو خارج عن الحق المحول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام »

ثم ذكر أن محمود سامي باشا أراد أن يتخذ سرور الضباط باعلاء مرتباتهم وسائر ما منحوه وسيلة لازالة ما وقر في انفسهم من معاداة الحكومة لهم ، وما يحوك في صدر الحكومة من الريب في مساكنهم ، فاحتفل لتلك المنحة احتفالاً باهراً في نظارة الحربية بقصر النيل دعا اليه النظار والمراقبين وأمراء العسكرية وخطب على المائدة خطبة فيما نالته البلاد من الاصلاح ونسب ذلك إلى همة الخديو وإخلاصه ، وصدق عزيمه رياض باشا وجدده ، وسائر النظار ورجال الحكومة ، وبين ان هذه النعمة لا تحفظ إلا بالشكر وهو الطاعة والخضوع للأوامر . ثم خطب رياض باشا بين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها وخاطب الضباط فذكر لهم ما نالوه وذكرهم بوظائفهم من حيث هم قوة الحاكم وآلته في تنفيذ أوامره ، وقام بعدهما عرابي فصدق ما قال وقال بلسان الجند والضباط انهم مقيمون على طاعة الحاكم الذي هو مصدر هذا التقدم وانهم آله

للنفذة في قبضة يده يديرها كيف شاء^(١) — ثم قال الاستاذ
« كل مطلع على ما قيل في ذلك الاحتفال يجد منه ان الحكومة كانت تريد
أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة، وان عرابي كان يعدها بذلك بنفسه وبالنسبة عنهم
وهو دليل على أن القاق كان لم يزل مستمراً الى ذلك الوقت، أي ما بعد حادثة
قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر، وقد كان يؤخذ من حالة عرابي عند ما كان يجيب
رياض باشا ومحمود سامي باشا انه كان ينطق بخلاف ما يضرر، وان حجاب
الطائفة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب

مسلك الخديو وحاشيته مع الضباط

« قلنا إن الجناب الخديو أصبح بعد حادثة قصر النيل يطلب الخلاص من
أولئك الضباط وسطوتهم النافذة في جيشه، فشغله ذلك وأخذ يدبر الوسائل لكن
لا مع وزرائه والمسؤولين عن الأمن في حكومته، بل مع حاشيته وبعض رجال
معيته ومن كان يختصهم من خدمه — ذلك مهيب البلاء على كل حاكم، ومنع الشقاء لكل
أمير: أن يتخذ لنفسه عمالاً في الخفية غير الذين أقامهم على الأعمال في الجهر. نعم
للاحكام بل عليه أن يستشير كل من يراه أدلاً لان يشير متى وثق من عقله، واتضح
له حسن السابقة في أعماله، ولكن من المفروض عليه أن يكشف بذلك رجال
حكومته الذين اتقى عليهم مقاليد أموره وفوض اليهم تدبير شؤونه في رعاياه،
فاذا أقروه على العمل بما أشير به عليه وراه حسناً مضوا فيه بالاتفاق وإلا نبذوه أو
ادخلوه لوقت آخر، أو عزل من لم يبرأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ
أوامره المنطبقة على مصلحة البلاد، بعد التروي في جميع ذلك والثقة بسلامة العقوبة
فإن اختلس لنفسه شيئاً من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم ممن ملكهم
زمام الامر من الحكومة تباينت المسالك، واختلفت الغاية، وفسد بذلك نظام الأعمال،
وسقطت البلاد في الفوضى وهجرتها العائنة، وتولاه القلق وظهر ضعف الحاكم، وباد
سلطانه — عواقب قضت بها السنة الالهية على كل أمة تضاربت فيها القوى
وتخالفت النيات، واستبد كل من الازعين فيها برأيه، ومضى على ما ترينه له نفسه،

(١) تراجع هذه الخطب في كتاب مصر للمصريين

« لم يأخذ المرحوم الخديو السابق بذلك الاصل الذي وضعه الله نظاما لكل حكومة، بل أخذ يعمل مع بعض خاصته للوصول الى ماهمه من التخلص من سلطة الضباط في الجنود الذين تحت أمرتهم، فبدأ بعبدالعالم ظنا منه انه كان أجراًهم وأشدهم نفوذاً في عساكره، وأفضى بسرّه في ذلك الوقت الى يوسف باشا كمال وكان ناظر دائرته الخاصة، فأخذ يوسف باشا على عهده موافاة إرادة مولاه

« استخلص يوسف باشا من صف ضباط ألاي السودان باشجاويشاً شركسيا ودعاه الى بيته في أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١ وأكرمه وكلفه أن يلوي العساكر والصف ضباط عن طاعة ضباطهم فيما يأمرونهم به اذا سيروهم الى حادثة مثل حادثة قصر النيل، وأن يقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيراً، فاذا صدر الأمر بنقل أمير ألايهم أو غيره من كبار الضباط الى ألاي آخر فعليهم أن لا يعارضوا في ذلك وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم. فذهب الاحق وكتب عريضة ضمنها ان العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم، واذا نقل أي واحد منهم الى أية جهة فلا يعارضون أمراً من الاوامر التي تصدر بذلك، وطلب من افراد الجند ان يختموا عليها قائلا انها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم فحتم الكثير منهم عليها لانه لا علم لهم بالقراءة والكتابة، وقد ألفوا تلك العادة التي عودهم عليها رؤسائهم من ان المطالب التي يطالبها الجند من الحكومة تكتب بها عرائض ويطلب من الضباط أو العساكر إيقاع الاختام عليها، غير أن أمين أحد البلوكات اطاع على العريضة فأخبر بها اليوزباشي سليم افندي الزيدي، وسلمها اليه وهو سلمها الى عبدالعالم، فقدمها عبدالعالم الى نظارة الجهادية. فأوصلها الناظر الى الجناب الخديوي فامر بالتحقيق لاظهار منشأ هذا الفساد فصرح الباشجاويش بأن يوسف باشا كمال هو الذي أمره فصدر أمر الجناب العالي بفصله من نظارة الدائرة الخاصة ظناً منه ان ذلك ينفي الشبهة في ان لجنازه يدأ في الحادثة، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من ان ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملاً إلا بإرادة مولاه، ويقال ان عزل يوسف باشا كان بناء على طلب عبدالعالم ومساعدة عرابي له « قال بعض كتاب الحوادث في تلك الاوقات ان العريضة كانت تحتوي على

الخامس العساكر والصف ضباط أن يعفو الجناب العالي عنهم فيما أتوه من السير إلى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل، وإن ما فعلوا من ذلك إنما كان باغراء ضباطهم لهم، ولكن ذلك تأويل للحادثة بما لا ينطبق على الحقيقة، على أنه ظاهر السخافة، فن الجناب الخديو قد أصدر أمر عفو عما وقع في تلك الحادثة عن جميع العساكر والضباط وانتهى الأمر فيها، ولم يكن يخطر بالبال أن أحداً سيؤاخذ على ما فعل ولم يحدث من جانب الحكومة ما يوجب الريب في ذلك حتى ياتمس العفو، بل كانت الظواهر جميعها متضادة عن أن الرضاء من جانب الحكومة على الجند ورؤسائه تام عام « وفي أوائل شهر إبريل سنة ٨١ حدثت حادثة أخرى، وذلك أن رجلاً يسمى فرج بك الزين من أمراء الأليات المستودعين كان يسكن في طره بجوار مركز ألاي السودان، وكان من خدم جناب الخديو السابق رجل يسمى إبراهيم أغا التوتنجي فكان من رأي إبراهيم أغا أن ياتي الخلاف بين العساكر وبين أمير الأليات عبدالعال بواسطة فرج بك الزيني، فاتفق معه على الأمر، وكان لفرج بك صهر يساكنه في بيت واحد فأتخذه آلة لتنفيذ ما يريد، فتعرف إلى شاووش يسمى عبدالخير فدعاه إلى فرج بك فأكرمه وطلب منه أن يكثر من التردد عليه هو وإخوانه فذهب عبدالخير وأخبر البكباشي خضر خضر بما وقع له فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون ففعل، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صفار ضباط السودان في ليلة من ليالي شهر إبريل سنة ٨١ فأبلغهم فرج بك سلام جناب الخديو وإن جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميراً سودانياً منهم (وهو فرج بك) وأنه متى صار الأمير منهم رقى الباشجاووش إلى بكباشي، والجواوش إلى قول أغاسي، والاونباشي إلى ملازم، ولا يتم ذلك إلا أن تعملوا على ما أشير عليكم به وموعدنا للكلام في ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطئ البحر، فتأقوا ذلك منه بالقبول وانصرف عبدالخير وأفضى بالأمر إلى خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد، ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير إلى الفتنة فعليهم أن يحضروه إليه، ثم اجتمعوا في الموعد في مزرعة قح على مقربة من البحر فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضباطهم شكاية من تصرفهم إلى الحضرة الخديوية ليبنى عليها ذلك التغيير، فعند ما سمعوا ذلك قام

واحد منهم وقال هذا لا يريد بنا خيراً وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدي ضباطنا في الحال، فاتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى فاحتمله عبد الخير وساعده اخوانه حتى أحضروه عند خضر خضر، فكتب الواقعة بالتفصيل الى أمير الألاي فحضر وطلب محاكمة فرج الزيني فحوكم وظهرت معه رسائل من ابراهيم أغا تدل على انه مصدر هذا الشغب، وحكم على فرج بيك بانزاله عن رتبة القائم مقام الى رتبة البكباشي وبنفيه الى السودان، فعفا عنه الجناب الخديوي وأرسله الى السودان موظفاً في وظيفة تليق به

تأثير دسائس الحاشية الخديوية في عرابي

« قد منا أن سلطان الخوف ملك قلب عرابي بعد حادثة قصر النيل، ودخوله في يمين الأمان مع علي فهمي لم يخفف شيئاً من قلقه، وقد زاد في اضطرابه تكرر هذه الحوادث والوقوف على مصادرها وان خاصة الجناب العالي هم العاملون فيها وهم لا يصدرون إلا عن رأيه السامي، فأيقن ان العفو الصادر واليمين السابقة لم يكونا إلا ألفاظاً قصد بها إلهاء وإخوانه عما يراد بهم، وأن الانتقام على ماصدر منهم ضربة لازب، وأن جميع ما اتخذ من وسائل جاب الجند اليه، وجمع كلمتهم عليه، لا يحميه من الغيلة، ولا يؤمنه من السقوط في فخاخ الحيلة

« لهذا أخذ ينقي الجيش من كبار اضطباط الذين لا يثق بهم ويخشى أن يكونوا عوناً على تدبير كيد يكاد به، فأوحى الى ضباط ألاي العباسية (ألاي عرابي) أن يخالفوا أوامر البكباشي (أنفي افندي يوسف) وأن يهينوه اذا عرضت الفرصة فتجاوزوا الحد في سوء المعاملة معه إلى أن كلفوه يوماً بتقديم استعفائه فأبى، ودافع عنه يوزباشي يسمى خليل افندي علي، وانتهى الامر إلى عرابي فالزم البكباشي بأن يستعفي وحوكم اليوزباشي فحكم عليه بالسجن مكبلاً بالحديد، ثم استودع مع القضاء عليه بأن لا يعود الى الخدمة العسكرية أبداً، وكذلك أشار إلى ضباط ألاي القاعة فطلبوا الى النظارة عزل أميرهم حمد بك صدقي فعزل وعين بدله ابراهيم بك حيدر، وكذلك فعل ضباط ألاي الطوبجية فعزل حاكم الألاي حسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبري، وحصل كثير مما يماثل ذلك ولا فائدة في الاطالة بذكره،

« أفراد الجند كثير، وعدد الضباط عديد، وقوة الجناب الخديوي أعلى من قوة عرابي، وليس في الامكان لضابط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها في جند مثل هذا مهما قل عدده، خصوصاً بعد أن ألف أفراد وضباطه مناوأة أرباب الامرة فيهم، وعرفوا في انفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوى منهم بحق وبغير حق، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسمعون اليه من ذلك، فمن الممكن القريب أن الحضرة الخديوية أو الحكومة نفسها توحى إلى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام بل الى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابي وصاحبيه وأن يأخذهم في مأمنهم على غرة منهم، فإن لم يكن ذلك بازهاق الارواح كان بافساد القلوب عليهم وهم لا يشعرون، ولو اتفق الجناب العالي مع حكومته على ذلك لتم لها ما أراداء، ولكن كان القضاء وسوء التدبير يسوقان البلاد إلى ماصارت اليه

طلب عرابي مجلس نواب وسببه

« تلك المخاوف استلقت عرابي الى أن يخرج من حوله وقوته الشخصيتين وأن يلمس قوة تعلو سلطته وسلطة الحكومة معاً ولها من الشأن في مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على ما يصدر منها خارجاً عن الدستور أو مخالفاً للعدل مما تخشى عواقبه وتتقي مصايره، وكان يطالع في الجرائد وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الاوربية ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك اوربا أن مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ اصول النظام، وهي القاضية على كل حاكم بالانزام حدوده، وبها محي الاستبداد في الارواح والاموال، وحفظت الحرية الشخصية في الاعمال، ولعب بعقله هذا الخيال، وظن انه لو كانت في البلاد تلك القوة النيابية، ولو أن حكومتها كانت حكومة شوروية، لكانت الشورى أو مجالس النواب عاصمات لحياته، حافظا لحقوقه في وظائفه، ومأمناً يلجأ اليه، إذا حوم طائر الانتقام عليه، ولم يعلم أنه لو كانت في مصر حكومة دستورية يقضي فيها القانون ولا يستبد فيها الرأي لأخذ عرابي ومن معه أشد المزاخمة، ولقضي عليهم مجزأ ما هتكوا من حرمة القانون، وما أدخلوا في الجند من الميل إلى الفوضى والاستهانة بالسلطة العليا،

وانما الذي استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الافاعيل هو ضعف سلطة القانون وعجزها عن إيقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه ، وميل صاحب الرأي الاعلى في الحكومة الى تلافي الامر بما ظنه أسد وأنجح مما حده النظام ، ولو كان ذلك الحاكم مقيداً بدستور أو بآراء نواب امته لامتنع عليه ان يذهب الى ماذهب اليه ، ولقامت الامة بلسان نوابها تطالبه أن يحل اشد العقوبة على من اعتدى على حدود ما شرعته لجندها ، ولكانت قوة الامة قد قضت على قوة الجيش وأبادتها لو خالفتها ، لكن تلك معارف تعلو أن يتناول اليها فكر كفكر عرابي ومن كان معه ، وغاية ماتوهم ان مجلس النواب هو من ابناء البلاد وهم لا يسمحون بأن يقتل واحد منهم او يعزل من وظيفته وإن تعدى حدود كل نظام ما دام يطلب طلباً يظنه هو عادلاً . لهذا اراد أن يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش في المطالبة بإنشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات في اوربا ، ثم تخيل انه اذا أنشئ هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنبيوهم فضل من كان السبب في تشكيله فيهتمون بالمحافظة على حياته وعلى نفوذه بما يستطيعون ، بل وثق بانه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم الى الغاية التي يريدونها منهم . ولم يخطر بباله انه اذا فعل ذلك فقد سقط بالقوة التي ياجأ اليها الى هاوية العدم ، فانه اذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بامرها ، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها ، واذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطاناً في نظر الامة أن يكرهها على عكسه فتقلب عليه بعد ان كانت له ، واذا كان المجلس تحت سيطرة الجند فما الفائدة من إنشائه مع وجود الجند ، فليستمن عنه بالقوة العسكرية ولتكن هي الملجأ دونه ، فكيف يتصور أن يطلب تشكيله ليكون واقياً مما لم يقو الجند على الوقاية منه ؟

« هذه أحاديث عقل يذبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي تمثلت له جنائنه في صور أغوال فاعرة الافواه محددة الانياب ، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه ، فهو في فزع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى إلا سيوفا مسلولة ، أو حبالا منصوبة ، ولا يسم من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة : الخلاص الخلاص الهرب الهرب . ولم يتمثل في مخيلته مهرب اوفى له من

طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه
 « وشد أمله في نيل أمنيته ان أغلب أهل الطبقة العليا من الناس ككثير من
 أهل الطبقة الوسطى هم مسنون بما يدل على التلق ويشعر بالملل من ادارة رياض باشا
 لأعمال البلاد وسياسته فيها للمآرب التي بينهاها ، فأخذ يتحسس مافي النفوس ،
 ويتسمع ما تنطق به الالسن ، فوجد ان أمنية تغيير الحال لم تنزل مجول في صدر كل
 واحد ممن كان ينتابه ، ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل اليه إلا باستدعاء جناب
 الخديوي السابق اسماعيل باشا أو استحياء اسماعيل باشا صديق لا ستسهلوا طلب
 ذلك بعد مذاقوا على عهدهما مذاقوا ، فقد نسي الماضي واحتدمت الشهوة في
 التملص من الحاضر ، وككة [مجلس النواب] كانت لم تنزل دائرة على الالسنه ، وفي
 وهم الكثير ممن نظروا في سير الامم الاوربية ، أن علاج كل داء ينحصر في تحقيق
 معنى هذه الكلمة [تشكيل مجلس نيابي وحكومة شورية] فلما فطق عراقي وهو
 صاحب النفوذ في الجند بانه يريد انشاء مجلس النواب سمع دوي الاستحسان
 من كل جانب ، وصفت له الاحشاء بين الجوانح قبل أن تصفوله لا يدي ، فاشتد
 بذلك عزمه وازداد طمعه ، وخيل له أن الامه ستكون سنده

« ولعله أن علاقة مصر بالدولة العثمانية قد لا تسمح له أن يجاهر بايجاد شكل
 في الحكومة المصرية ليس معروفا عند السلطان العثماني بدأ بتحرير عريضة أمضاها
 هو وعدد كبير من الضباط ختمها بالشكوى من استبداد الحكم في الاقطار
 المصرية وأن ذلك الاستبداد قد أضعف الامل في الامن على الانفس والارواح
 كما عاد بالقوة على نفوذ الاجانب حتى أصبحت مصالح البلاد في أيديهم وتحت
 تصرفهم وكاد اسم [الدولة العثمانية] ينسى ، وأشرفت علاقتها بمصر على الاندثار
 والانحلال . فورد له الجواب من بعض رجال [المايين] بحمل اليه تحية الخليفة
 العثماني وبجكي له أقاصيص رضاه السامي عن كل ما يجري في مصر لمقاومة نفوذ
 الاجانب في ادارتها ومصالحها

« أخذ عراقي بعد ذلك يجهر بطلبه هذا وخاطب رياض باشا في شأنه فاباه
 عليه ، فأخذ يخالط بعض العلماء ويكشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الاجنبي وردما
 (٢٧ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

سلبته أيدي الأجانب إلى أربابه ، وفي أثناء ذلك كان يصور لهم السلطة الأجنبية الحاضرة إذ ذاك كأنها نسر حوم في جوها لا اختيار خير الفرائس لينقض عليها ، ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالفه فيها ، وأنه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضي على الدين وسننه ، وفي خلال هذا كان يزين لكل ذي شهوة منهم ما تميل إليه نفسه ويمنيه بنيله إذا تغيرت حياة الحكومة الحاضرة ، فوجد من [حضرات المشايخ] وهم على ما نهض من السذاجة والبعد عن معترك السياسات اصغاء لقوله وتأييداً لرأيه ، وكذلك كان يخالط بعض الأعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاه أن لا سبيل لمبتغاه إلا بتأييده في طلب مجلس النواب فيجد ذهاناً مقتنعة ، وإرادات مستسلمة ، وذلك لأن القوة في يده ولأن نفوسهم تظن منتهى راحتها في التغيير على أي صورة جاء .

« استحثه الحرص على إدراك المطلب أن يفضي به إلى ضباط الجيش وأن يثير في أحلامهم الضعيفة تماثيل الأمان من العزة والسلطان ، والصعود إلى أعلى مراقب الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لا ينال إلا بمجلس النواب ، ولم يكنه أن يكون ذلك مطالباً لهم يشتهونه ويساعدون عليه عند القيام للالزام به ، ولكنه كان يطلب إلى بعض الضباط أن يكتبوا به عرائض يبينون فيها ضرورة إنشاء المجلس وإنما يقام الدليل على تلك الضرورة بالطعن في حياة الحكومة وبيان عدم كفايتها في كفالة الأمن على النفس والأموال والأعراض ، وبينما هو في ذلك إذ أحس الجنب الخديوي بسماء وعرفه بعض حاشية جنابه الكريم ، وبعد قليل ظهرت مسألة تسمى [مسألة التسعة عشر ضابطاً]

مسألة ١٩١ ضابطاً

« كتب البكباشي عبد الله أفندي الكردي تقريراً أمضاه هو وضابط [قول أغاسي] وستة عشر من اليوزباشية وملازمان وقدمه إلى ناظر الجهادية ومحصل مافيه الشكوى من تصرف عرابي ومحالفيه وتعليقهم حدود القانون واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباط الجيش وحماتهم على تقديم عرائض للجناب العالي يطلبون فيها فصل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس للأمة وزيادة عدد الجيش والتصديق

على القانون الجديد، وان عرابي قد صرح لهم بما معناه «ان القوة في يدنا، والعلماء والاعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن اجابة طلبنا، فان لم يفعل خلعهنا وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة» فلما وقف الناظر على ما في التقرير أمر بتشكيل مجلس عسكري لتحقيق ما زعمه الضباط فقالوا إنهم لم يكتبوا إلا ما سمعوا وزادوا على ذلك ان في الجيش كثيراً من النظم والخيانات وطلبوا تحقيقها، ثم قدمت إلى المجلس العسكري تقارير من ضباط الالايات تنسب فيها تهم كثيرة إلى هؤلاء الضباط الواقفين موقف الخاصة مع عرابي وجماعته، وانهت المحكمة بإثبات انهم كانوا مدفوعين من إبراهيم أغا التتجي على كتابة ذلك التقرير فحكم عليهم بمقوبات شديدة قابلها الجناب الخديو بعفو الكريم غير أنهم فصلوا من الجند « وفي أثناء هذا الاضطراب كان محمود سامي ورياض باشا خطبان فيما يجب على الجند ان يؤدوه للحكومة وعرابي يجيها بتسديق ما قالوا وينادي بان الجيش آلة الحكومة المنفذة : كلا الطرفين خادع مخدوع :

« في حوالى تلك الايام كان قيام ضباط الالاي الرابع (ألاي عرابي) لطلب انفصال (ألفي بك) البكباشي لانه المانع للالاي من الالايين الآخرين يوم حادثة قصر النيل فحملاه على الاستعفاء فاستعفى وأحيل على الاستيداع وكذلك فعل ضباط ألاي القلعة في طلب عزل أميرهم محمد بك صدقي فعزل وعين بدله إبراهيم بك حيدر، وتبعهم ضباط ألاي (الطبيعية) في طلب فصل قائدهم حسين بك ففصل وعين بدله اسماعيل بك صبري — كل ذلك ليستوثق عرابي لنفسه ولياً من على ان القوة الجندية بأسرها معه

« على ان ذلك لم ينفذ عزيمة المخلصين من حاشية الجناب العالي فقد قيل ان بقية مما ترك جناب الخديو السابق اسماعيل باشا من الجواري السود كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم فاخذوا يزوجهن ببعض المساكرو والضباط من ألاي السودان، وكان أغوات سراي الاسماعيلية يدعون أولئك المساكرو بمنحون الواحد منهم نقوداً لاتعطى عادة لامثالهم بحجة ان ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراي ولكن المساكرو كانوا يقولون لضباطهم ان الاغوات يفرونهم

بقتل رؤسائهم فيهبج غضب الضباط وتضعف ثقتهم في الامن على أنفسهم ويشد الرعب في قلب عرابي ومن معه وسواء صح قول العساكر أو لم يصح فآثره في ازدياد القلق والاضطراب لا رية فيه والاشاعات التي تتولد عنه لا تقل قيمتها عن الحقائق الثابتة ولما وقود الفتن ما يقال لا ما يفعل

« في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ حدث أن عجلة (عربة) لاحد تجار الاسكندرية يقودها قائد أوربي كانت تمر في الشارع المؤدي الى سراي رأس التين فصدمت جنديا من عساكر الطبجية فقتلته فاجتمع رده على ان يحملوه الى السراي حيث يقيم الجناب الخديو ويلتمسوا منه الاهتمام بمقابلة الجاني فحماله مخالفين في ذلك رؤساءهم وساروا به في ضجة وولولة، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل، فكبر الامر على الخديو ورآه تطاولا مخالفا لآداب الجندية - وله الحق فيمارآه - فامر العساكر بالانصراف فانصرفوا ظانين ان شكواهم قد قبلت، وبعد ايام صدر الامر بتشكيل مجلس حربي لمحاكمتهم وحوكموا وصدر الحكم على الجندي الذي بدأ بدعوة رفاقه الى الاشتراك في حمل الميت الى السراي بالاشغال الشاقة مدة الحياة وحكم على رفاقه وهم ثمانية بالاشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات، وبان يقضوا مدة العقوبة في السودان ثم يكونوا بعد ذلك من أفراد الجند في الاقطار السودانية. ثم قدم الحكم الى ناظر الجهادية فرفعه الى الجناب الخديو فامر بانفاذه وسيق المذنبون الى السويس ومنها الى سواكن ثم الى داخل البلاد السودانية

« بعد هذا كتب عبد العال حلي أمير الفرقة السودانية تقريراً طويلاً يشكو فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من قسوة الحكم ويبين قلقه من الخواث التي تجري في آلايه والفتن التي لا تنقطع ولا تجف ينابيعها واطهر استغرابه لشدة الحكم في حادثة مثل هذه مع مقابلة الجانين بالعفو فيما هو أعظم منها واهم كحادثة فرج الزيني وغيرها)

« قدم التقرير الى ناظر الجهادية، ورفع الناظر الى الحضرة الخديوية، اشد كدر الخديو لذلك وعده جرماً لا يقل عما اجترمه حاملوا القتل وملتسو عقوبة القاتل، فاستدعى الناظر من القاهرة بالتلغراف فاجتمعوا في حضرة وتداولوا في الامر

استعفاء محمود سامي من نظارة الجهادية واصرار رياض باشا على عدم الاستعفاء ٢١٣

بوقرر (أي جنابه) وواقفه الاغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامي في نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابي ومن معه هو منشأ هذه الفوضوية، وأن لا سبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين على السلطة العليا إلى الحد الذي رسمته لم وظائفهم الا عزل محمود سامي ، فقدم استعفاءه قبل في الحال ، وعين [داود باشا يكن] ناظرا للجهادية وأعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل [أحمد باشا الدره ملي] من ضبطية المحروسة وتعيين عبد القادر باشا مأمورا لها

« هنا أذكر ما أخبرني به بعض الثقات وهو ان من أسباب ميل الجناب الخديوي الى استعفاء وزارة رياض باشا انه كان ينتهز فرصة لتعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة، وانه لما لم يتمكن من ذلك في حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تهيأ له ان يتقدم عزم عليه من هذه الحادثة التي لا تمتاز في شيء عما سبقها من أمثالها ، ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا وأشيع في الاسكندرية بل وفي القاهرة أنه قدم استعفاءه لتحقيقه من عدم رضى مولاه عنه ، وعلم رياض باشا بعد انصرفه من سراي رأس التين بضجر الخديوي من بقاءه على ما أخبره به بعض الاوربيين ، فرجع اليه وسأله في ذلك فأكده ان لا صحة لما سمعه ، وأنه في المحل الاعلى من رضاه ، فظهر رئيس النظار اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الادلة على ما يخالفه

« من المبعث ان يقال ان رياض لم يكن يحسن بوجد الخديوي عليه ورغبته في اعتزاله للسلطة ولكن لذة المنصب والشغف بالرئاسة وثقة دولة الرئيس بنفسه وظنه أن لا صلاح للبلاد الا اذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شؤونها ، كل ذلك كان يغالط احساسه ويدافع وجدانه ، ويلتمس له العذر في البقاء ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه على قوتها، ويقبل به على موهبات الركون اليه على ضعفها، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلادده لا نصرف عن مقام السلطة مختارا قبل أن ينصرف عنها مكرها، فقد كان من المحتمل ان لا تبلغ الفوضى بالبلاد مبلغ ما وصلت اليه، أو لم يضطر الضباط الى حشد الجنود في ساحة عابدين لا كراهه على التنازل عن رئاسة النظار

« أراد داود باشا أن يقوم ما اعوج من النظام او يرمم ما تقوض منه فأخذ يصدر الاوامر الشديدة إلى الالايات يلزم بها أمراءها وضباطها كافة بأن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع في المنازل، والتردد على المحافل، ويطالبهم بإبقاء الأعمال "مسكينة حقها من الدقة"، وأمر بإنشاء مكاتب في مراكز الالايات لتعليم القوانين العسكرية ظناً منه بأن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلوا على طاعته، وتأخذهم الرهبة من مخالفته، وكان يذهب بنفسه إلى ثكنات العسكرية ليلاً ونهاراً ليراقب تنفيذ تلك الاوامر. واهتم سعادة مأمور الضبطية بمعرفة حركات ضباط الجيش خصوصاً الرؤساء منهم وهم عبد العال وعرابي واحمد عبدالغفار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط ولم يخف شي، من ذلك على عرابي ورفقائه

القوة التي اعتمد عليها ناظر الجهادية ومأمور الضبطية

« ما القوة التي كان يستند إليها ناظر الجهادية في إصدار اوامر ومأمور الضبطية في بث جواسيسه؟ هي القوة التي يشير إليها اسم الوظيفة (ناظر جهادية . مأمور ضبطية) وهي من القوى المعنوية التي لا يظهر أثرها إلا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عند التواء الامور عليها، كسائر الوظائف في الحكومة لا تخضع الأنفس للقائمين عليها، إلا ومثال القوة القاهرة منتصب أمامها، وماتلك القوة القاهرة إذا لم تكن سلاح الجند؟ فان كان الجند وهو حفاظ الوظائف في كل حكومة خصما لها أصيت بالشلل كما يصاب به المخ تمزقت عنه عظام الجمجمة . غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضبطية عن هذا الاصل المعروف عند الأمم كافة، وظننا ان اسم الوظيفة له من السلطان في إنفاذ الاوامر ما يغلب قوة الجيش ويحمد نيران مدافعه وبنادقه، وربما صار هذا السهو منها مثالا حذا حذوه كثير من السذج في مصر فيما تآخر من الزمان . نعم قد لا يبالى بقوة الجيش متى استعصى على النظام إذا قامت الامة بأسرها للمحاربة عن دستورها، وهمت بمعالجة جسمها بتقطع ما فسد من أعضائه، واستعاض الحاكم بقوة الرعية عن قوة بعض أفرادها (وهم الجند) وأخذ لذلك من

الوسائل ما هو أشد أثراً من كتابة المنشورات ، ونشر الوريقات ، ووسوسة الجواسيس ، وحشد الاخبار يترام كاذبها على صادقها ، ويغلب باطلها على صحيحها ، ليكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح

« لكن الأمة كانت لاتزال في النقاهاة من مرض التفرق وشلل الارادة (وأرجو أن تكون اليوم قاربت الشفاء) فهي ان حكمت على متمرد فانما تحكم أفذاذاً ، كل يصدر حكمه لصديقه همسا يرجو أن لا يسمعه ثالث ، وقديماً اغ الاغلب فلا يقضي قضاء إلا في نفسه ، وإن جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين إلا مجرد استحسان ، قد لا ينطق به لسان ، وإن نطق كان على طريقة القائل : فربما اجتمعت أصوات ، وعات ضوضاء ، ولكن كل في مكانه لا تتحرك قدماء ، ولا تمتد يداها ، وأول صيحة من مدفع تخرس لها جميع الالسن وتخفت جميع الاصوات ، ويتبدل الزئير بالانين . ذلك شأن كل أمة لم تقوم نفوسها بالتربية السليمة . ولم تثقف عقولها بالمعارف الصحيحة ، ولم يبلغ بها حب وحدتها الملية أو الشعبية الى حد أن يسهل عليها بذل المال والروح في سبيل صيانتها . كل أمة تفرق المطامع بين أفرادها ، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها . ويلهبها العاجل عن الآجل . ويذهب بها الحاضر عن المستقبل . فلا سبيل للاعتماد عليها في دفع غائل ، ولا في مقاومة صائل ، وعلى ولي أمرها أن يبتدىء فيها قبل كل عمل بهذيبها واصلاح طباعها ، حتى تنشأ فيها اثثة بنفسها ، وتعلو منزلتها في نظرها ، ويغلب لديها أمر عامتها على أمر خاصتها ، عند ذلك تكون ينبوع سعادته في السلم ، وسياحه المنيع اصده عدوه في الحرب

« كان الجند طوع عرابي ورفقائه لا تحت طاعة الناظر ولا المأمور ، وكانت الامة على حالها التي ذكرنا طالبة لتغيير الحال كما قدمنا ، فالجند والامة كلاهما كانا في جانب عرابي . أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابي واخوانه مقام انذار لهم بسوء المصير ، فاشتد جزعهم ، فاستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم . وكانت الليالي ليالي رمضان تكثر فيها الزيارات ، وتيسر الاجتماعات ، وتنتشر الاشاعات ، فازداد عرابي ومشايعوه من الحراس تحفظاً مما عساه يقع من الغيلة ، وواصل اجتماعه مع اخوانه ومع كثير من أعيان القاهرة ، وتابع

رسائله الى بعض من يظنهم على ولائه في الاطراف، وهو في كل ذلك يدعو إلى تشكيل مجلس النواب، لتوهمه انه الوسيلة الباقية لاتقاء شر الحكومة، وكان يتردد في أغلب الاوقات على منزل سلطان باشا ويستمد منه المعونة بالقول والفعل « سلطان باشا لم يكن من أغبياء الاغنياء في هذه البلاد، بل كان فيه شيء من الفطنة يزينه الغنى وتعلي قيمته مظاهر الثروة، كان يفهم ما يقال، ويرضي السامع اذا قل. ولكن هبهات أن يكون له بصر بالواقب أو علم بمصاير الانقلاب في الحكومات وتغير الاشكال عليها وما يصيب الأمم في مجاري الحوادث من تقدم وتقهقر — أفادته مناصبه السابقة أيام اسماعيل باشا شهرة وعلو صيت — حافظ على مكانته في النفوس ببسطة في الكرم امتاز بها على أمثاله، فكان ينتاب منزله الاعيان والعلماء وأرباب المناصب، وكان يجد في نفسه لهذا علواً على أقرانه. كان مثله مثل الكثير من الاعيان في استئصال يد رياض باشا فيما استأثر به من السلطة، وفي استنكار تلك البدع التي جاء بها في وزارته خصوصاً ابطال السلطة الشخصية، والأخذ على يد الاقوياء، أن تطاول الى استخدام الضعفاء رغم إرادتهم، ووضع حدود يلزم الاعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها في علاقتهم مع غيرهم فكان ممن يألّم لهذه القيود ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه. توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول الى مقام تعلو فيه كلمته على كلمة مثل رياض باشا، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصي فيمن دونه من عامة أهل بلاده، عند ما لاحته بوارق الثورة ولمع في عينه شرر الفتنة — عندما أحس ان عرابي يتلبس المعين على انشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه — ظن وصدق ظنه ان عرابي لا بد أن يصل الى ما يريد يوماً ما فمن الحزم أن يتفق معه في البداية، ليكون له النصيب الاشراف من الفائدة في النهاية، فكان أول من مدّ يده اليه ووثقه على التعاون في طلب مجلس الشورى، وأخذ سلطان باشا يستنزل بعض أعيان الوجه القبلي والبحري في رأيه ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا ويأج عليه في الطلب أن يستصدر من الجنب الخديوي أمراً باستدعاء مجلس النواب ونحويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في

حقوقه حتى يكون كمجالس النيابات في أوروبا ، ثم يكون ذلك دستوراً للبلاد تمضي عليه حكومتها ، فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فانقلب إلى عرابي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحري والقبلي وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة وتوجه إلى المنيا في أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى

« كنت معروفا بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب العسكري وتسوئة رأي طالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبذلك الوسائل الحق ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا فأري من لدن الباب عرابي وبعض رفقاءه جالسين معه ورؤسهم بادية من التوافد ، فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمي أسرعوا بانقراض من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا . مررت ببيت (حلبة) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ورأيت بعضاً من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت ، فدخلت للزيارة فوجدت عرابي وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية (ليلكس) وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث في وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجالس النواب ، وإن لا سبيل للامن على الارواح والاموال إلا بتحويل الحكومة الى مقيدة دستورية ، فأخذت طرفاً من البحث ، فأقننا على الجدال ثلاث ساعات كان عرابي والاستاذ من طرف ، والكاتب من طرف ، هما يقولان : ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شوروية ، والكاتب يقول : عاينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وإن نحمل الحكومة على العدل بما تستطيع ، وإن نبدأ بترويجها في استشارة الاهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من اللائق أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناسي ، قبل بلوغ سن الرشد يفسد : المال ويفضي إلى الهلكة ، وختمت قولي بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة لأن تشارك الحكومة في إدارة شؤونها

فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع، فلو تم للجند ما يسعى اليه ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعي فلا يلبث أن يتهدم ويذول، وأرى أن هذا الشعب قد يجر إلى البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسببه إلى يوم القيامة، فتبسم (عرابي) ابتسام الساخط وقال: أبذل جهدي في أن لا أكون مورد هذه اللعنة، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب وإنما هو مؤيد لطلب الأعيان وجوه البلاد. فسأله: وعلى من تعتمد؟ ومن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس إلي بصوت لا يسمعه إلا ثالثاً: أن سلطان باشا قد عاهدني على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا، ثم انصرفنا «بعد أن استوثق عرابي لنفسه من سلطان باشا وأيقن بما وعده أن أهالي البلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه، وبذلك يتحول عمله من عصيان غير مشروع إلى طاعة للامة غير ممنوعة. فقد تخيل أن يضع نفسه ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الامة، كأن الامة هي التي استعملتهم، فالثورة ثورة الامة لا ثورة الجند، وكل ما تأتي به الامة في سبيل حريتها وتقويم ما اعوج من حكومتها لا يصادف منكراً ولا يستوجب عقاباً. هذا هو الحجاب المزق الذي كان يسدله على أعين الناظرين اليه، والحجة الساقطة التي يقيمها للناقدين عليه، وبعد أن استحكم هذا الخيال من نفسه أخذ يترقب الفرصة لجمع رجاله لالزام رياض باشا بتقديم استعفائه، وكان يصل ليله بنهاره في التفكير والتدبير والمشاورة مع إخوانه، وكما عقدوا عزمًا على شيء عرض لهم ما ينقضه

« كل ذلك والجناب الخديوي بالاسكندرية وهم ينتظرون عودته، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من أن الجناب الخديوي استمال ألي الحرس وأميره علي فهمي وعاهده على أن يكون قوة تقضي على من يخالف الأوامر من بقية الالايات، وقد كانت الاشارات في ذلك لا تخلو من صحة، فقد أخبرني المرحوم علي باشا مبارك يوم مجيئه من الاسكندرية في ممية الجناب العالي أن اقتراق ألي الحرس عن بقية الالايات واستعداده لتنفيذ ما يصدر اليه من الأوامر مما لا ريبه فيه، وأنه عما يقلل سيؤخذ في تقرير أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة وتباد به جرائمها

« عاد الجناب الخديوي من الاسكندرية في أوائل شهر شوال وبعد عودته بأيام تجلى ذلك الامر الفاصل الذي سمعت خبره من علي باشا مبارك ، فاذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ، ذلك أن الحضرة الخديوية بعد ان استمالت علي فهمي ورجاله وأعدتهم لمغالبة من يستعصي عليها من سواهم ، استمالت أيضا أمير الالاي الخامس الذي كان مقبلا في الاسكندرية بجهة [باب شرقي] فأرادت أن ينقل الالاي الثالث الذي كان مقبلا بقلعة المعز بالقاهرة الى الاسكندرية ، وان يؤتى بالالاي الخامس الى مصر بدلا عنه ، وبذلك يكون في مصر الالايين تحت طاعتها ، والله أعلم ما إذا أرادت الحضرة الفخيمة بعد ذلك ان تفعل بهذين الالايين بعد استقرارهما في مصر

« هل كان الخديوي يريد أن يصدر أمراً بالقبض على رؤساء الفتنة فاذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الأمر بالحرب والقتال بين الطائعين والعاصين ؟ ما أظن أن ذلك خطر بالبال ، ولو مر ذلك بذهن جنابه لشغل عليه حسم الفتنة ثاني يوم واقعة قصر النيل ، ولكنها هواجس كانت تجول في الاذهان ، ثم تصدر عنها حركات وأعمال لا يدري صاحبها نفسه ما الغاية التي يريد منها ؟

« ولما استحكم اليأس من نفس عرابي وظن ان الخطر حائق به كتب هو وجماعة من الضباط عريضة الى السلطان يشكون فيها من الظلم ويلتمسون ارسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه ، وكان ذلك قبل حادثه عابدين بثلاثة أيام

حادثة عابدين

« أصدر ناظر الجهادية أمرين في يوم واحد أحدهما الى ابراهيم بيك حيدر أمير الالاي الثالث الذي كان يقيم في القلعة بالتوجه الى الاسكندرية ، والآخر الى حسين بيك مظهر أمير الالاي الخامس ان يبارح الاسكندرية الى القاهرة ليحل محل الالاي الثالث ، ثم أصدر أمراً الى أمير الالاي الثاني أن يرسل من الضباط من يستلم المخافر من ضباط ألي القلعة عند سفرهم ، فعند ما وصل الامر الى ابراهيم بيك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم الى عرابي وأخبروه به ،

ففرع لذلك هو ومن معه وهالهم الامر وتمثل لهم سوء العقبى ، وأيقنوا ان في ذلك القضاء عليهم . فأمر عرابي أولئك الرسل أن ينادوا في ضباط ألاي القلعة بعدم التسليم وبالإقامة في مواقعهم وان يمسكوا من يأتي اليهم من ألاي الثاني للاستلام ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك . وعند ما حضر ضباط ألاي الثاني كتب محمد أفندي الرملوي ومحمد أفندي السيد الى عرابي بما حصله ان اربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع ألاي . وأمتعة ابنائكم قد ربطت فاحضروا بنصف الايكم والافنحن قائمون . أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندي الزمر الى العصر ثم يحضر عند ذلك كتب عرابي « إلى نظارة الجهادية ينبشها بان جميع الأليات ستكون في ميدان عابدين في نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم وهو يوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩ بعد ان كتب الى جميع الأليات ان توافيه في الموعد وكتب إلى الجناب الخديوي يحيطه بذلك علما . وإلى قناصل الدول يؤكد لهم ان الغاية من جبهة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأموالهم وأعراضهم

« أرسل الجناب الخديوي رضا باشا ليسأل عرابي عن السبب في اجتماع المساكر بساحة عابدين فأجاب عرابي أن للجند مطالب يريد انفاذها . فجاء رضا باشا وعرض الامر على الخديوي فأرسل طه باشا ليطلب إلى عرابي أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة . فكان الوقت قد حضر قمام ألاي بمحضرة طه باشا وقام معه ألاي الطبعية . أما الجناب الخديوي فقد توجه بنفسه إلى ألاي الحرس (ألاي الاول) واخذ ينصح الضباط ويذكركم بأنهم أبناؤه وحرسه الخاص وينذرهم بمواقب مثل هذه العصبية عصبية الجاهلية فصاحوا جميعاً : نحن جميعاً فداء لولي نعمتنا . فعند ذلك امر جنابه أمير ألاي أن يوزع المساكر داخل السراي وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من الهاجين عليها . ثم استصحب رياض باشا وذهب إلى القاعة . وعند وصوله طلب الضباط وسألهم عن الحامل لهم على مخالفة الامر الصادر اليهم فأنكروا المخالفة فالتفت إلى أمير ألاي ابراهيم بك

حيدر يستفهم منه فأجابه أن [فوده بيك حسن] هو الذي أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم وكان فوده بيك على القرب من رياض باشا لجذبه من طوقه وقال له : مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟ وبينما هم في الكلام اذ ضرب أحد البروجية نوبة [سنكي ديك] فأسرعت العساكر الى تركيب الحواب على البنادق وأحاطوا بالخدو ورئيس النظار وصاحوا « أطلق البكباشي » فأمر الخديو بتركه وأخذ يخاطبهم : ألسن خديويكم ؟ ألسن ولي أمركم ؟ هل تأخر لاحد منكم راتب ؟ أو نقصت له مؤنة ؟ أو حرم من حقه في ملابس أو نحوه ؟ فلم جهرم بالعصيان وخالفتم أوامري ؟

« فأجابوه بقولهم نحن جميعاً مطيعون لأوامر ولي نعمتنا ولكن قيل لنا ان الغاية من الامر بسفرنا هو اغراقنا في البحر عند مرورنا فوق كوبري كنز الزيات فأسف الخديو لذلك وانصرف على ان يذهب الى العباسية لمنع عرابي من المجيء الى ميدان عابدين فبلغه وهو في الطريق ان الالاي قد سبق إلى ساحة السراي فرجع هو ورياض باشا فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلا من الباب الشرقي

« واول من حضر من الالايات السواري تحت قيادة احمد عبدالغفار ثم الالاي عرابي والاي الطوبجية تحت قيادة اسماعيل بك صبري ثم الالاي الثاني تحت قيادة البكباشي لان أميره محمد بيك شوقي أبي أن يحضر معه ، ثم الالاي عبدالعال ، وهو الالاي السودان تحت قيادة أمير الالاي ، وفرقة المستحفظين يقودها ابراهيم بيك فوزي واجتمعوا جميعاً في مبتدأ الساعة التاسعة حسبما كتب عرابي « وصل عرابي يقود أليه ومعه الالاي الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو ممتط جواده شاهر سيفه وبمحيط به عشرة من ضباطه شاهري السيوف كحرس له . أنبأه بعض الضباط أن علي فهمي قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج اليه لذلك فتسدى علي فهمي واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة فاعتذر بأنه فعل ما فعل مداراة

منه للخديو وتديراً لحيلة سياسية، ثم أمر بالنداء في الآلاي بالنزول فترلت العساكر جميعاً واصطففت في الساحة مع بقية الجنود

« كانت قناصل الدول ومستشاروا الحكومة ونظارها قد حضروا الى سراي عابدين وعند مارأى عرابي أن الجيش قد اجتمع بأكله ماعدا الآلي القائمة فانه بقي في مقره بأمره — أمر باقامة الخفر على أبواب السراي لمنع من يدخل اليها ومن يخرج منها

« أشرف الجناب الخديوي على العساكر وأمر باحضار عرابي فحضر راكباً جواده سلا سيفه محفوظاً بضباط السواري يحرسونه فأمره باغداد سيفه والنزول الى الارض وابعاد الضباط عنه ففعل ثم أخذ يخاطبه « ألم أك سيدك ومولاك ؟ أأست الذي رقيتك الى رتبة أمير الآلي ؟ »، فيجيبه عرابي « نعم »، ثم سأله « لم حضرت بالجند الى هنا ؟ فقال لطلبات عادة ، وهي عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام (الشيخ العباسي) فقال الخديو كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها فسكت عرابي ولم يجب بشي .

« ثم أشار القناصل على الخديو بالرجوع الى داخل السراي خوفاً مما عساه يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد ، ثم تولى [المستر كوني] المستشار الانكليزي في المراقبة الثانية وقنصلا انكلترا والنمسا أمر المخابرة مع عرابي في مطالبه ومطالب الجند فقال المستر مالت قنصل انكلترا لمرابي ان عزل الوزارة من خصائص الخديو وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الامة لا الجند ، ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش فان البلاد آمنة مطمئنة وليس في الامم من يريد لها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد اطلاع الوزراء عليه ، وأما عزل شيخ الاسلام فقد يحصل بعد بيان أسبابه ،

« أجاب عرابي يا حضرة القنصل ان ما يتعلق بالاهالي من هذه المطالب لم أنهض اليه الا بالنيابة عنهم فقد أقاموني نائباً عنهم في طلبه وتنفيذه بواسطة هذه

المساكر الذين هم أبناؤهم وأخوتهم، واعلم أننا لا نفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التي أبديتها

« قال القنصل تصرح بانك تريد الوصول الى ما تطلب بالقوة وهذه هي الهمجية التي تجر الخطر الى بلادك وربما تفضي إلى ضياعها . فقال عرابي وكيف ذلك ومن الذي يعارضنا في شؤون داخلينا ؟ وأن تحرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك الى فناءنا عن آخرنا . فقال مالت وأن تلك القوة التي تكافح بها وتناضل عن بلادك ؟ فقال أستطيع أن احشد في زمن قصير مليوناً من المساكر كلهم يسمعون قولي ويتبعون إشارتي، فان كانت دولة انكلترا هي التي تستعد لخصامنا فلتكن على حذر من ثورة عامة في الهند تقضي على حياتها فيه، فقال القنصل وماذا تفعل لو لم نجب على طلبك ؟ فقال كلمة واحدة أقولها ، فأجاب مالت : ماهي ؟ فقال عرابي أقولها عند اليأس والقنوط

« ثم انقطعت المحادثات بين الجناب الخديوي وعرابي مدة ثلاث ساعات استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراي من نظار وقناصل وغيرهم وظنوا ان من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب ، وحرباً تنتشب ، ولذلك أفضت مداولاتهم الى التسليم والرضى باجابة عرابي إلى ما يطلب لكن على شريطة التدريب في التنفيذ، وأرسلوا اليه يخبرونه بذلك فقبل ما عرض عليه واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف المساكر فجاءه الخبر في الحال بقبول استعفائها فطلب أن يعين شريف باشا رئيساً للنظار ومحمود سامي باشا ناظراً للجهادية فقبل شرطه وانصرف المساكر

« استدعي شريف باشا لقبول رئاسة النظار فتردد في ذلك أياماً لاحتساسة بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة اذا استمر الجند على مناوآته للحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب واستعداده عند الإبطاء في موافاة مطلبه الى إحاطة كرسي الحاكم بالسلاح ، وتهديده بالوثبة عليه ، اذا لم يسارع في سوق رغائبه اليه ، ولظنه ان دولتي

فرنسا وانكلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا وبهما أن يبقى في مسند الوزارة، فاذا اتولاها غيره خشي أن تنصب اليه المكاييد وتقيم اليه العثرات في سيره، ولما سبق علمه بالخبرات التي كانت بين الضباط وبين الأستانة وبما في بعضها من الشناء عليه وأنه ورياض باشا على طرفي نقيض فرياض باشا هو ممثل النفوذ الاجنبي في مصر وشريف باشا هو الامام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ واعلاء الكلمة العثمانية فيها ويخشى أن تظهر الحوادث عجزه عما يؤمل فيه

« كان شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت إلى فتنة ، كان من القائلين بأن النفوذ الاجنبي قد بلغ حداً لم يكن يمكن أن يبالغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للاجانب في كل ما يطلبون . كان شريف باشا يتنعم جلوسه بانه اذا ملك فيها أو قف الاجانب عند حدودهم وسار بالوطن شوطاً عظيماً في مجده ، كان هو ورؤساء الفتنة يتراسلون ويتواعدون ، ولهذا طلبوه رئيساً للنظار ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه . كان وجه الرئاسة يهش له على بعد ، وجعلها يخذعه وهو منها على موعد حتى اذا دنا منها ألغاه شكسة شرسة

انتهى ما لخصناه مما كتبه الاستاذ الامام من كتاب (الثورة العراقية) الذي لم يتمه وهانحن نثبت ما كتبه المحامي الانكليزي الشهير (المستبرودلي M . voidaorB) في كتابه (كيف كان دفاعنا عن عرابي How we defended Orabi) في ترجمة الاستاذ وهو نفسه الذي تولى الدفاع عن الاستاذ الامام ، وفيما كتبه ترجمة الالامحة التي كتبها الاستاذ الامام دفاعاً عن نفسه (أنظر ص ١٤٩) قال — :

الشيخ محمد عبده

العالم الصحفي - المحرر - *

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين وقد أثر في الطبقة المهدبة من أهل وطنه تأثيراً ظاهراً لأنه كان كاتباً لطيفاً، وعالماً بالعربية ضليعاً، وخطيباً فصيحاً يعمل في القلوب . ولا شك أنه ساعد من قبل كثيراً على جعل الرأي العام عاملاً حقيقياً في الترقى المصري . ولم يكن متعصباً ذا خطر أو متعصباً في الدين ، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد . وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأي الجمهوري الحر ، وكان رئيساً نشيطاً من رؤساء الراية ووطنيته التي لا شائبة للانانية فيها هي التي منعت بعض رفقاته المتحمسين من استيائهم من خطته الدينية الشاذة استياءً علنياً ، حتى ان عرابي باشا صديقه قال مرة « ان رأس الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للعلماء »

وتعد أخلاق الشيخ محمد عبده كلها مثلاً للقوة العقلية العظيمة التي تلبدت عليها سحب من ضعف البنية والاخلاق مدة من الزمن . والظاهر أن عقله وجسمانه معاً سحقا سحقاً لا أمل بشفائه بعد انفعاله الشديد الاناثي ، عن الآمال الضائعة وغصص القنوط ^(١) . وقد سب وأهين في السجن مثل رفقاته لكنه يختلف عنهم بحيث أن أخباره عما أصابه من المحن ضعيفة مبهمه اذا قيست بأخبارهم . والظاهر أنه

(* هذا الفصل ترجمة ما كتبه مستر برودلي تحت هذا العنوان

(١) أخطأ هذا المحامي الانكليزي في قوله : ان الشيخ قد سحق جسمه وعقله من غصص القنوط . فقد دلت قصيدته التي نظمها في السجن (ص ١٥٠ من هذا الجزء) وكتابه المطول الذي نشرته في جزء منشأته من هذا التاريخ (ص ٥٢١ ج ٢) على ضد ما زعمه هذا المحامي وهو أن المصائب لم تذهب بأمله ولم تزد أخلاقه إلا كمالاً . ثبت هذا بسيرته بعد السجن في منفاه وبعد عودته الى وطنه أي في سائر عمره . ولكن أكثر الأفرنج لا يستطيعون أن يقدرُوا الشرقي الكامل حق قدره

(م ٢٩ ج ١ تاريخ الأستاذ الامام)

لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه إلا في أواخر أيامه في السجن — حينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التي سعينا لاستحقاقها . . . وكاد يتعذر علينا في بعض الأحيان أن نصدق أن الشيخ محمد عبده هو كاتب تلك الايضاحات البراقة الدالة على غايات الوطنيين المصريين التي كان قد أرساها إلى المستر بلنت قبل ذلك بستة أشهر فقط . وكذلك يتعذر على البريطانيين وهم في بلادهم أن يققوها الانحطاط الاخلاقي التام الذي يفعله الفشل مع التهديد والتعذيب في نفوس المصريين حتى في أقوامهم عقلا وأجرئهم أدبا^(١) . ولا شك في أن مرتب الزيارات الليلية المزرية للمعتقلين السياسيين بعد نقلهم للسجن المصري كان شاعراً بمقامها وشأنها في نظر الشرقيين وعارفاً قدرها من حيث النجاح في المرافعة القادمة . إلا أن هذه الزيارات أدت إلى نتيجة مضادة كل المضادة للغاية التي وضعت لها

كتب الشيخ محمد عبده مذكرة في الدفاع عن نفسه باللغة العربية فصحة كانت باعتبارها عملاً أدبياً أيضاً عظيماً نور أفكار ترجماننا (المستر سنتلانا) لكي يراها ويا للأسف قربة جداً من نوع الاعتذار^(٢) والنقطة التي يستند عليها استناد النبهاء الحكماء هي من حيث الشريعة والصناعة تكاد تكل دونها الابصار . وكان سلوكه في رواية الثورة المصرية من أولها إلى آخرها سلوك التابع الطانع المخلص^(٣) وأصبح قبل أن يرفع الستار محرراً للجريدة الرسمية وأظهر في هذه الوظيفة من أولها إلى آخرها الطاعة لأوامر من تقدموا عليه بالحق الواحد تلو الآخر^(٤) ولا تصير أخباره لذينة إلا حينما تتصل بأرائه وتجاربه الخاصة . أما ما يختص بقيامه بواجباته العامة فإن المسوغ الذي استند عليه هو طاعته التامة للعمدة من ذوي الاقتدار، ويتحول

(١) يقول مؤلف هذا التاريخ : إن هذا المحامي قد تمذر عليه وهو في مصر مازعماً أنه تمذر على قومه في بلادهم . بل كان أجهل منهم فيما ادعاه من فقه ما أنزه التهديد والتعذيب في نفس صاحب الترجمة . فكان جهله مركباً لأنه يحسبه علماً وفقهاً . وكذلك شأنه في كثير من القضايا التي استبطاها من تقريره كما يعلم من مقابلاتها بما في هذا الجزء من تاريخه (٢) قضايها باطلة ، وقد علم مما تقدم أنه كان مسيطراً على الحكومة كلها حتى رؤسائه فيها

محور دفاعه عن سلوكه الوطني الى قضية منطقية مبتكرة مقنعة كما يأتي : —
 « ان وطنيتي ووطنية سلطان باشا واحدة وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد ، وقد أصبح سلطان باشا ذا لقب «سير» وحصل أيضاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ، لذلك وجب أن تكون وطنيته حسنة وأهلاً للثناء عليها. إذن يكون سلوكنا كلينا أهلاً للثناء عليه . فلماذا ياترى أزج في السجن منتظراً محاكمتي على وطنيتي بينما يصبح سلطان باشا حائزاً رتبة الشرف الانكليزية وحاصلاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ؟ »^(١)

« ان ما ذكره الشيخ من شدة الارتباط بين سلطان باشا وعراقي باشا فصل مهم في تاريخ الحركة الوطنية. وقد كانت آراؤه الى يوم عصيان عابدين مخالفة كل المخالفة لآراء عراقي المعتبرة عنده مثلاً لآراء عسكرية صرفة ، ويقول ان الاجتماعات العامة المتنوعة التي عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برئاسة سلطان باشا حوت في الحال مقام عراقي من قائد جيش الى قائد مضر . وإليك ما قاله الشيخ : —
 « وحينئذ أصبحت و سلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عراقي الى آخره » وهاك ما كتبه الشيخ عبده في حوادث الحرب : —

« هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن أزره رجال من جميع الاجناس والاديان فكان يتألب المسلمون والاقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حول وقوة لا اعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانكليز ؟
 « اني لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره — وقد رسخ هذا الاعتقاد عند ما علم الناس أنه أقال عراقي من منصبه لانه لم يمثل أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اتقاءً لنزول غزاة من البحر

« وفي أثناء ذلك طفق العلماء يقرءون البخاري في الازهر ومسجد سيدنا الحسين

(١) في مذكرات الاستاذ الخاصة بحوادث اثورة بيان اسباب مانائه سلطان باشا من اللقب والمكافأة وهو خيانتة لوطنه وخدمته السرية الانكليز كما سيأتي : ولا ندري أكان في مذكرته التي قدمها للمحامي شيء من ذلك كتبه المحامي أم لا ؟

ويدعون بالنصر لعساكر عرابي والهزيمة للانكليز - وكان إمام الخديو الشيخ الصالح العالم الالبيري في طليعة الملتهمين غيرة ووطنية، فنشر قصيدة ابراهيم دريد في غارة التتار على بغداد في أيام الخليفة العباسي المعتصم، وهي عبارة عن دعاء وابتهاال، وقد أضاف اليها أبياتاً من نظمه فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخاري. وقد طلب إليّ أن أنشرها في الجريدة (الوقائع) حتى يطلع عليها الجيش أيضاً - وقد كان عمله هذا مشروعا إذ أن المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب إسلامية ضد الكفار - وعند رجوع الخديو الى مصر بعد انتهاء الحرب خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته -

« وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية - حتى النساء - بالخليل والحبوب والنمود والميرة اللازمة للجيش - وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحمية في جمع الميرة المطلوبة وحشر المتطوعة للجيش ولسائر الأعمال العسكرية -

« وقد أرسل عثمان باشا غالب مدير اسيوط في ذلك الزمن ورئيس شرطة (بوليس) العاصمة الآن بضعة ألوف من ارادب الحبوب من مديريته ماعدا الخيول وغيرها من الحيوانات، وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء وزارة الحربية - وهاهوذا كما قلنا آنفا (رئيس بوليس العاصمة) بأمر الخديو « وهذا شأن خليل بك عفت الذي تعين مديراً بأمر وزير الحربية فأظهر غيرة ونشاطاً استحق عليهما الشكر الجزيل في الجريدة الرسمية - وهاهوذا نراد الآن مدير المنيا بأمر الخديو

« وقد بذل من اذكر اسماءهم فيما يلي امواهم بسخاء في سبيل الحرب إما مباشرة وإما بواسطة دوائرهم وهم :

البرنس جميلة	أخت الخديوي وحررم المرحوم سعيد باشا
خيري باشا	الامين الاول
علي باشا مبارك	وزير الاشغال العمومية الآن
يوسف باشا جدي	احد اعضاء لجنة التموين

محمود بك
علي حيدر باشا
كاتب (أو أمين) أسرار الخديو
وزير المالية (الفعلي)

« وأسماء هؤلاء وردت في أعداد الجريدة الرسمية . وإذا كانت سجلات الدريات لاتزال موجودة فيمكن استقراء ما تبرع به كل واحد منهم بالتحديد » وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الانكاز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وكان شبان القاهرة يمرحون في المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابي وفي نبي اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا »

[قال المحامي]

وكتب الشيخ محمد عبده بعد حين مذكرة في حوادث الاسكندرية التي حدثت في الحادي عشر من يونيو كانت هي وعبارتان أو ثلاث على نمطها سبباً لامتناع شديد ، ربما لا يرجح تحقيق الحق وابرازه، لكن ثمة مسألة في البحث ناصعة لا ريب فيها ، وهي أن مثل هذه المصيبة التي نزلت كانت مخالفة كل المخالفة لمصالح عرابي للهمة ، وتكاد تكون بالنسبة اليه فشلاً سياسياً وخذلانا قومياً تاماً، وإذا كانت قد تمت بإشارته فانها تعد حينئذ انتحاراً أدبياً حدث عمداً ، على أن نتائج هذه الحادثة من الجهة الأخرى تكون ربما عظيماً لاعدائه ، ويتخذ هذا الموضوع شكلاً مختلفاً جداً باختلاف النظر اليه من الوجهتين السياسيتين المتباينتين - السياسة الغربية والسياسة الشرقية - فالأولى تعتبر العمل السائق الى المذابح بل المحرك على تجمهر الغوغاء جنابة لا تغتفر، على حين تعتبره الثانية جائزاً ، أو ربما حسبه « نقلة » في الشطرنج السياسي حاذقة ، وبعد ما أصبح عرابي الحارس المسؤول عن الأمن العام لا باختيار مصر وحدها بل برضا أوربا كلها رأى الشيخ عبده بصورة واضحة ان سياسة الخديو ورجال قصره في سلب الثقة به هي سياسة موت أو حياة لهم، واعتقد انهم لم يحجموا عن التوسل بهذه الوسيلة المشتبه فيها كثيراً للقضاء على خصمهم المفرط في النجاح

والقوة . ويوجد رجال آخرون ذهبوا هذا المذهب أيضاً وصرحوا به . وإلى القراء مآله الشيخ محمد عبده

« لما وقع الخلاف بين الخديو ووزارة محمود سامي باشا شاع في القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغباً في نفس القاهرة الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت في ذلك طول مدة قيامها بأعباء الامر ، واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه - ففعل - وبالع الخديو في حسن استقبالهم وأكثر لهم من المواعيد ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بحشد ٣٠٠٠ بدوي وباحضارهم الى العاصمة بطريق الجزيرة ليحدثوا فتنة في البلد لعدم وجود النظام بينهم ولكنه تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من العسكر - ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافاً رمزياً (شفره) الى محافظ الاسكندرية هذا نصه :

« قد ضمن عرابي أمن الامن العام ونشر ذلك في الصحف وجعل نفسه مسؤولاً لدى القناصل واذا نجح في ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا أما الآن وأساطيل الدول في مياه الاسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقع الخلاف بين الاوربيين وغيرهم أمر محتمل فاختر لنفسك إما خدمة عرابي في ضمانه أو خدمتنا » وفي يوم هذه الحادثة توجهت الى السراي فرأيت موظفيها في جندل عظيم مما حدث وكانوا يبالبون في رواية الاخبار ويضحكون من عهد عرابي بالمحافظة على الامن العام - ومن المعلوم ان موظفي السراي لا يقولون إلا ما يسر الخديو ، فإذ كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم - « وبعد ١٢ يوماً من هذا التاريخ كنت في الاسكندرية فسمعت الناس أجمع يقولون ان المحافظ (عمر لطفي) سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقبلاً في البلد ولم يصدر أمراً بتوقيفها ولم يذهب الى مكان الفتنة إلا بعد مضي وقت ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع انهم كانوا على مقربة منه - وأجمع الناس على ان عمله هذا موعز به من الخديو - وعلمنا أيضاً انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ يتمشى من مكان الى آخر واذا بأوربي في شباك وفي يده

مسدس فقال أحد البدو : أرمي هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له « ارمه » فأطلق البدوي عليه الرصاص فقتله — وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه في ذلك اليوم الاسود —

وقد سمعت أيضاً انه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وانه أشار الى البوليس [المستحفظين] أن لا يتدخلوا قثلاً « دعوا أبناء الكلاب يموتون »

« ولم تسأل اللجنة التي تألفت لاظر في أسباب هذه الفتنة عمر لطفي عن شيء مما حدث مطلقاً ، بل كان الخديو أوعز اليه بأن يستعفي بدعوى المرض »
« كان عمر لطفي محافظ الاسكندرية زمن الفتنة وقد أهمل امر القيام بحفظ

الامن العام على انه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه . هذا إذا لم نقل انه هو المحرض عليها — فإذا كان فعل ما فعل ! اءة لا امر عرابي كما ادعى مع أن وظيفته تابعة رأساً الى الخديو — لان الخديو أصدر أمراً مخصوصاً صرح فيه انه بعد استعفاء وزارة سامي أفضت أمور الداخلية وشؤونها الى السراي — فكيف نعلل تعيينه (أي عمر لطفي باشا) وزيراً للحربية جزاء لطاعة امرابي وعصيانه لسيد الخديو ؟ وإذا كان الامر اهمالاً منه فكيف يصح مع اهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيراً للحربية ؟ ولماذا لم يسأل سؤالا واحداً عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسأل ؟

« لا ريب في أن استقراء سير هذه الحوادث يظهر أن الظهور أن الخديو بالاشتراك مع عمر لطفي كانا سبب هذه الفتنة — أي مذبحة الاسكندرية اه هذا وان الحذر والاحجام البادين على الشيخ دانا يزيدان في قيمة تصريحه وهي قيمة لا أكاد أضمرها على تصريح يقوله اي رجل من درجته . وما لم يحدث انقلاب جوهرى في الحالة الاجتماعية المصرية فإن حل لغز الحادي عشر من يونيو يبقى مستحيلاً ، وكل التدورات التي تحوم حوالها تبقى أمداً من باب التخمين والترحيل على انه يصعب علينا ان نقول ان رجلاً كالشيخ عبده وضع لكتابته التي شكافها من البصق عليه في الحبس مقدمة معتبرة أهداها لسمو الخديو يذهب هذا المذهب النظري ما لم يكن مطاماً أشد الاطلاع على المعانيات في دسيسة « السراي المصرية »

وانني أشهد شهادة عرفتها بنفسي ان جماعة آخرين : أثبتوا هذه الرواية ولم يكن لهم اتصال ممكن بالشيخ

وفي مساء اليوم الاول من يونيو سنة ١٨٨١ ودعت في الظلام محمد عبده الذي ذهب أخيراً منفياً عن القطر المصري مدة ثلاث سنوات . وعلمت منذ ذلك الحين انه يعيش عيش الفقر والشقاء في بيروت [هذا غير صحيح كما يعلم مما يأتي في هذا التاريخ]

واذا جاز لمصر ان تسيّر منفردة أو يكون لها بداءة خير يوماً من الايام فانها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده

العالم المحرر

[المؤلف] هذا ما كتبه محامي العراقيين الانكليزي في كتابه وكنا نود أن نقف على تقرير الاستاذ الامام الذي ذكره المحامي بنصه العربي الاصيل ، ولكننا نفهم من هذه الترجمة عين ما فهمه المحامي الانكليزي لدقة ترجمته ، وبممكننا أن نجزم بأنه أخطأ فيما فهمه من التقرير من انه أريد به الاعتذار لما اعتري كتابه من ضعف النفس وشدة اليأس ، ليس الكلام اعتذاراً عن نفسه ولا تنصلاً من عمل عمله وندم عليه ، وانما هو إقامة حجج وبراهين على ان مؤاخذته وحبسه مع زعماء الثورة ومحاولة الانتقام منه انما هي إغراء من الخديو توفيق باشا به لانه يكرهه كراهة شخصية من حيث هو خليفة السيد جمال الدين في نشر الافكار الحرة ودعوة ترقى الامة في مصر . وكان الخديو يعلم انه كان خصماً لعراي وحزبه العسكري إلى ان أصبح عراي صاحب الامر والنهي وقائد الجيش الوطني المدافع للاجانب عن البلاد . وفي هذه الحال لم يكن له أن يقاوم عراي إن استطاع وأنى يستطيع ؟

اذا كان هذا الرجل قد لزم مع زعماء الثورة لانه منهم فلماذا ترك سلطان باشا بل لماذا كان أقرب المقربين الى الخديو والانكليز جميعاً وهو الزعيم الاكبر للثورة بعد عراي أو معه أو قبله ؟ هذه حجة بالغة أراد الاستاذ أن يلقنها للمحامي البارع قلبه

مقلوبة كما يلبس الفرو ، وكأنه توهم عن فهم أو عن غير فهم ان الشيخ اعتذر بها عن نفسه، وأحب أن يكون من الخديو والانكليز في مكان سلطان باشا ، ولو انه كاشف المحامي بكل ما يعلمه من خيانة سلطان باشا لما كان لذلك التوهم الى عقله من سبيل

خيانة سلطان باشا لمصر

كان الاستاذ الامام يعتقد ان أكبر المصريين خيانة لوطنهم سلطان باشا ويليه في الخيانة عمر لطفي باشا محافظ الاسكندرية في ذلك العهد ، سلطان باشا كان موقد نار الفتنة ومحض نارها، حتى إذا ما اشتعلت نار الحرب بين أهل وطنه بتحريضه وبين الانكليز نكص على عقبيه، وكان أكبر مساعد للانكليز على قومه بالرشوة مع أنه من أكبر الاغنياء ، وأما عمر باشا فهو الذي مهد السبيل لمذبحة الاسكندرية ونهبها ليقم الاجانب الحجة على عجز عرابي عن حفظ الأمن كما جاء في آخر ما نقله المحامي الانكليزي عن الاستاذ آتفا وأقره عليه وعلى سببه، وهو انه تنفيذ لارادة السراي وسيأتي بيان ذلك نقلا عن مذكرات الاستاذ اليومية المحفوظة عندنا بخطه وفيه النصوص الصريحة بتعمده لذلك ، وبأنه كان يمكنه أن يمنع الشر ، ويحفظ الأمن ، وبأنه طوب بذلك فامتنع بل كان هو الذي طالب من قائد الاسطول الانكليزي التدخل بقوته العسكرية . وهو انما كان عبداً مأموراً ، لذلك كان سلطان باشا شراً منه لانه كان منافقاً مذبذباً

والذي زاد في استياء الاستاذ من أعمال سلطان باشا غير الخيانة انها كانت على عكس أعماله هو ، فلاستاذ كان ينهى عن الثورة ويسعى لمنعها الى أن نزل الجيش الاجنبي في البلاد محارباً لأهلها حينئذ صار عوناً لهم على قتال عدوهم ، وسلطان كان داعية الثورة وزعيمها، وعدو أمير البلاد المحرض على قتله وأمهامه ببيع البلاد الاجانب — الى أن جاء الاحتلال الاجنبي فصار نصيراً له وعدواً لوطنه وخائناً له يشترى به ثمناً قليلاً

وهذا يبارها

سلطان باشا

فهذا الهمام الوطني الذي أوقد نار الفتنة في البلاد، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لها وعم جميع الأنحاء، ثم هرب من طريقها عند ما خاف أن يلذعه لسان لهاها = جاء في آخر الامر نائباً عن الحضرة الخديوية في حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم . نال المكافأة^(١) من الجنب العالي بالاحسان جزاء إيقاد الفتنة ثم الهرب منها، ليتعلم كل مصري هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الاحسان أولاً وآخراً

إلا أن العدل الالهي سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ما صدر منه أول الامر وآخره (يوم يعرض الظالم^(٢) على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً) وكما ان العدل (الالهي) سيأخذه بما قدم من عمله، أظن ان محاكم العدل والانسانية تبين له خطاه في زعزعة راحة البلاد المصرية في أول الامر في رمضان سنة ١٢٩٨ دعا شريعي (باشا) للتوجه معه الى الخديو لطلب مجلس النواب، فامتنع ونصحه بأن لا يسعى في ذلك (حاكي الحكاية سايمان أباطه وكان فيمن دعاهم لذلك)

قال سلطان في بيت علي باشا مبارك بحضوري : ان مصر يمكنها أن تجمع ثلاثمائة ألف عسكري فتحارب أي دولة كانت . وأجابه علي (باشا) بعدم كفاية المالية ، وانتهى الامر بقوله « نسمع المغني أحسن »

علي باشا رأى الضباط يهربون من أودة (أي حجرة) إلى أودة في بيت سلطان ، وحكى لي الحكاية ثلاث مرات

(١) أنعم الخديو توفيق باشا على سلطان باشا بعد الاحتلال بعشرة آلاف جنيه من المالية جزاء إخلاصه كما في كتاب (مصر للمصريين) وهل هذه هي المكافأة التي عنها الاستاذ أم غيرها؟ فهناك مكافآت (٢) الاستاذ لم يكتب تكملة الآيات هنا الخ

جاء شواربي (باشا) عند محمود سامي (باشا) وهو ناظر الداخلية وقال ان جميع النواب متكثرون من تعيين فريد باشا مأموراً للدائرة البلدية تكثرت النواب جداً لاني أشرت بانتخاب سليمان باشا أباطه وكيلا للداخلية وذكر لي ذلك أحمد محمود فتبت على يديه الخ

تعدى مجلس النواب ماضرب له من الحد، وتذاكر في إبطال مصاريق الابراهيمية، مع انها داخلية في إيراد مديرية اسقوط المرهونة للدين الموحد، وردت المالية القرار، ثم حكم المجلس بتوقيف الاطباء الذين كانوا في الكورنتينة بناء على عرضحالات قدمت اليه، وظن سلطان أنني الذي أئين هذا الخطأ للنظار مع انه كان بحيث يفهمه الصبيان، فاشتكى سلطان باشا الى ناظر الداخلية مني، وقال له قل للشيخ محمد عبده لا يبيدي ملاحظات على محاضر النواب^(١)

كتب سلطان وهو رئيس النواب كتابة رسمية يطلب فيها من إدارة المطبوعات أن تعترف أن جريدة الطائف هي لسان النواب المعبر عن أفكارهم، فاعترفت الادارة بذلك تنفيذاً لامره، ونشر ذلك رسمياً بأمر ناظر الداخلية (وزارة سامي) ثم إنني عطلت الطائف^(٢) شهراً لنهيبه، ومع ذلك لم يكتب الباشا ما ينقض ما كتبه أولاً، وهو الذي حمل النواب على الاشتراك في ذلك الجرنال، واكتبوا له بمبلغ كبير إشارتي بعدم الاهتمام بمسألة الجراكسة — تقرير راغب باشا بطلب العفو عن جميع من اشترك في الحوادث ماعدا الجانبين في مذبح الاسكندرية — وقبول الخديو وصدور العفو —

(١) يعني في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية)

(٢) جريدة الطائف كان يصدرها السيد عبد الله نديم المهيج الشهير بمقالاته وخطبه، حدثنا أحمد فتحي باشا زغلول قال كنت في عهد الثورة تلميذاً في مدرسة رأس التين الاسكندرية فبلغنا ان السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور في مكان كذا، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان مما قاله ما خلاصته: إن طوابي الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ومدافع الاسكندرية اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر فكيفما جالت الاساطيل الانكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا — فملا هتاف الناس وتصفيقهم له !!!

يوم الحرب ذهبت للتكلم مع ناظر الداخلية في طريقة نشر جريدة المونتور
فرنساوية الرسمية لسفر محررها . اهـ

هذا كل ما في الورقة المفردة وهو عناوين كان الغرض منها تفصيل
الكلام فيها في فصول تفيد العبرة بها وإليها مذكرات الدفتر أسردها
بنصها الا انني أضع لها أرقاماً تضبطها بالعدد

(١) الدائنون يريدون أن تدفع لهم الفوائد على فداحتها فعدل سير الادارة
على أن يؤدي الى هذا الغرض . ورسم على المصري أن يخضع لاستبداد
إداري مختلط ، بل هو في الحقيقة أوربي لا شائبة للعدل فيه ، وهو الاستبداد
الذي اقتحمه الخديو المعزول

(٢) كل الامم من كل الاديان تغني من عمله (أي الفلاح المصري المشار اليه
في الجملة الاولى) وعلى نفقاته وهو في ذلة الفقر والفاقة
(٣) ما يقصر من أداء الديون من اللومين والدائرة السنوية يوفى من
الخزينة (تدبير ولسون)

سنة ١٨٨١

(٤) في أواخر سنة ١٨٨١ قصد غمبتا إرسال ٢٥ ألف عسكري لتقرير النظام
في مصر مع انه لم يكن حصل فيها شيء وكان ذلك في وقت المخابرة بين فرنسا
وانجلترا في عقد معاهدة تجارية

(٥) البارون درنج رأى الفرصة مناسبة لتقرير نفوذ فرنسا في وادي النيل
لكنه لم ينجح في إعداد المراقبة الثنائية لقبول خلع الخديو وإيجاد نظام جديد
وكان قد عرض على حكومته خطر استقلال المراقبة الثنائية وخطر مركز الخديوية
(لعل غمبتا قنع بما قاله درنج أخيراً)

(٦) في ٤ فبراير سنة ١٨٧٩ نشر منشور ضد رياض باشا طبع منه عشرون
ألف نسخة وفيه مطالب وطنية ، ولم يعثر على ناشره وكاتبه . ونسب الى الجمعية
التي تألفت لمعارضة رياض باشا (جمعية حلوان) شريف . شاهين . عمر لطفي .

راغب . ويقال ان سلطان باشا كان فيها

(٧) يقول شريف باشا بعد حادثة عابدين انه لا يقبل الوزارة حتى تكون لديه ضمانات تكفل انه لا يعتدي بالضباط أو الجند على النظام مرة أخرى — كأنه لم يعلم بسير الفتنة مع انه كان من مدبريها

(٨) حصل سلطان باشا على عرائض ممضاة من الاعيان والعلماء قبل حادثة عابدين وأطلع عليها عرابي وأبي عرابي إلا أن تكون تحت يده ، فهرب سلطان الى المنيا ، وبعد الحادثة ظهرت العرائض والمحاضر

(٩) لم يبق داع لبقاء أديب (إسحق) في أوروبا ، فألغيت (جريدة) القاهرة وأعيدت على هيئة جديدة وفي موضوع جديد ، وكوفي محررها بتعيينه رئيس قلم ترجمة أولاً ثم سكرتيراً لمجلس النواب بعد ذلك

وصاح الخديو عند إمضاء الأمر بتعيينه من شدة الفرح : « الحمد لله الذي خلصني من رق شخص كنت أبغضه »

خلاصة خطاب سياسي لعرابي

(١٠) لم يذهب عرابي الى رأس الوادي إلا بعد أن صدر الامر بتشكيل مجلس النواب على طريقة جديدة . وقد كان الخديو حاول أن يستدعي أعضائه على مقتضى النظام القديم فأبى إلا نظاماً جديداً ، وعند سفره ألقى على مودعيه خطاباً طويلاً شكاه فيه من العقبات التي تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور يكفل له الحرية ويؤمنه من الاستبداد . وصرح فيه بأن الخديو والنظار ومن على شاكلتهم كلهم لا يميلون إلى مساعدة الأمة على ما تطلب ، وبأن أعداء الأمة هم الدائنون ومعاونوهم من الأجانب ، يدفعهم الطمع الى الاستيلاء على جميع موارد الرزق في مصر ، وان من الافتراء أن يقال ان البلاد تريد سلب الأموال والاستثمار بالمنافع وسلب حقوق الدائنين . وانما الحق ان هناك شعباً يطالب بأن يكون على اثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الاشخاص والأموال

تواطؤ فرنسا وانكلترا على المصريين

(١١) قال غمبتا في محادثته مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب « قاي ممتلى ، رعبا ، ليس من الممكن الحزر والتخمين على ما عساه يقرره ما يسمى بالحزب الوطني ، من الجائز أن يعتمد الى تقرير طريقة مختلفة تخالف مصالح الاوربيين ، لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين ان انكلترا وفرنسا لا يمكنهما أن تحتكما شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات »^(١)

اتفاق غمبتا واللورد ليون من التعصب إذ لم يعرف مثل هذا الاتفاق على اسبانيا وايونان مع كثرة ديونهما وانهما أحط شر ، (؟) في الوفاء من مصر

سنة ١٨٨٢

(١٢) في ١٢ يناير سنة ١٩٨٢ سأل اللورد غرانفيل مالت: اخبرني بالتلغراف ماهي حدود سلطة مجلس النواب في المالية المصرية على حسب مقررته الجمعية العمومية والشروط التي تطلبها ؟

فاجابه في ١٣ منه

مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بعقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس وعلى ذلك يمكنه أن يلغي مصلحة المساحة مثلا لانها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولي ، ويمكنه الاستغناء عن عدد كبير من موظفي الاوربيين في الادارة المصرية

(١٣) قال مالت (في ديسمبر سنة ٨١) اذا حاز مجلس النواب حق تقرير الميزانية فقدت المراقبة سطوتها في الامور المالية

(١٤) في ١١ يناير سنة ١٨٨٢ قال مالت. انه قد تقرر عنده ان المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق في طريقة الدستور وان اللائحة التي يريد المصريون تقريرها لمجلس شورا هم تمثل في الحقيقة شرائط حريتهم وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شيء يمكن أن يبطله ولا أن يلغيه إلا أن يكون تداخل وهو آخر ما ينتهي اليه العمل

(١) ليعتبر المصريون والشرقيون عامة بهذه الاثارة التاريخية

مقاومة فرنسة وانكلترة لمجلس النواب في تقرير الميزانية

(١٥) سلطان اكد لقنصل انكلترة أن النواب لم يوافقوا الا آمال الشعب وليس من ضغط عسكري ، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافق رغبة الاهالي فاجابه : لا انتظار لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة (تقرير الميزانية) لما في ذلك من الخطر وما قولونه وما يطلبه النواب لا طريق لنيله الا القوة واستعمالها اعلان للحرب . وقد علمت ارادة انكلترة وفرنسا فيما يتعلق بذلك

(١٦) في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ في مجموعة اعمال البرلمان نمرة ٣،٢٣٠ تلغراف من مالت في ٢٠ يناير سنة ٨٢ اذا تمسكنا بباثنا على مجلس النواب ان ينظر في الميزانية كانت المداخلتة العسكرية امرا اضطراريا فان اصرار مجلس النواب على رأيه في ذلك جزء من مشروع تام أعد لاثورة

(١٧) في ١٧ سنة ٨٢ يناير قدم المراقبون طلبهم فيما يتعلق بمجلس النواب ومطالبه قائلين : إن الاوامر الخديوية السابقة قد ربطت الادارة المالية بدولتي فرنسا وانكلترة فاليهما يرجع السماح للمجلس بحق إعطاء رأيه في الميزانية وعدمه وهما لا تسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس في تقيص عدد الموظفين الاوربيين وفي ٢٧ منه امضوا المذكرة بذلك باسم الدولتين "

(١٨) في ٢ فبراير سنة ٨٢ استعفى شريف وعين محمود سامي

(١٩) مجلس النواب قرر تعيين لجننتين لتخفيف بعض الشكاوى التي رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل في أعمال الموظفين الاوربيين، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس، وقد رفض موسيو كاليار مدير الجمارك ان يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله

(٢٠) وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحد موظفي الدومين المسمى

(١) ليعتبر بهذا كله من يمكنون أي أوربي من الدول الاستعمارية من أي منصب أو عمل في بلادهم وخلاصته أن هؤلاء الموظفين يعملون لسلب استقلال البلاد بطريقة ادارية سلمية حتى اذا ما عاقهم عائق برزت القوة العسكرية من ورائهم تؤيدهم

(دوفسل) يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالاً في أن يصلوا بالظفرة الى ما يقال من حريتهم ، واشتكى من ان المدير لا يحبس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن ان كل شخص يحبس بغير أمر قضائي يرسل بالتغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يُسأل المدير عن السبب في الحبس. وهذا تظاهر من الاهالي بالاحوال الجديدة التي يبنون عليها حريتهم وخلصهم (٢١) غوردون باشا يكتب الى التيمس في يناير سنة ١٨٨٢ :

يقال ان مصر تسرع في الغنى والسعادة وانه (كذا) فرحة مسرورة . ولا أظن أن شيئاً قد تغير عما كان الا ما كان من ضمانه الدين فانها اليوم أوثق اما الحبوس (السجون) فخاصة بأولئك الساكنين من الفلاحين

مسألة الشراكسة وغش القنصلين للخديو

(٢٢) في مسألة الجراكسة قدم عرابي الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة فأرسل الخديو (الحكم) الى الآستانة فطلب السلطان الاوراق. وكان ما فعل الخديو بناء على نصيحة القنصلين. ساء الوزارة ذلك وبدأ انشلاف ، وطلب من الخديو تسوية المسألة فأشار عليه القنصلان بالاصرار وطلب استعفاء الوزارة

(٢٣) في ٢٠ مايو — أرسل موسيوسنكوينس (?) احد موظفي القونسلاتو موسيو مونج عند عرابي ليذاكره في المسائل الحاضرة فكان من قول عرابي ان المجلس الآن هو الحاكم وهو أول خاضع له ، ونقل هذا موسيو مونج الى رئيسه . وعند ذلك ابتداء القنصلان في المحاربة مع سلطان باشا

وفي ٢٥ مايو قدموا المذكرة التي ذكر فيها ان المجلس بلسان رئيسه نصح عرابي بالابتعاد عن الاقطار المصرية حيناً من الزمن
سأت النظرارة سلطانا فأنكر

ولكن الخديو قبل المذكرة فاستعفت الوزارة بعد إقامة الحجّة على كل ما جاء فيها . لم يقبل أحد النظرارة فرجع عرابي ناظراً للجهادية وأحيلت أعمال بقية النظارات على وكلائها

﴿ ما يتعلق بالمذكرة التي استعفت الوزارة عنها ﴾

(٢٤) جاء في الكتاب الازرق الانكليزي ان مستر ماليت كتب أولاً أن رئيس المجلس لا يمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه فان كراهم لكل تداخل أجنبي تزدد كل يوم عما قبله

ثم يقول في رسالة أخرى ان المذكرة التي قدمها لم يطلب فيها إلا تنفيذ ماأراده أعضاء مجلس النواب، وقد صرح المجلس بأرادته على اسان رئيسه سلطان باشا (٢٥) يقال ان قنصل روسيا موسيو ليكس نصح مراراً ان أحسن طريقة

لمعاقبة الشره الاوربي كان امتناع الاهالي كافة عن إعطاء الضريبة الخ لكن كان عرابي ورفاقه يشقون بالدول غروراً ولا يعلمون ما كان يجري حولهم (كذا يقول القنصل) فقد كتب موسيو مالت في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ قبل وصول المراكب يقول لحكومته : « ليس من الممكن الوصول الى أي حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة في البلاد »

(٢٦) حصلت مذاكرة في المذكرة التي قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال: هل يمكن لنا ان نجتمع المجلس؟ فأجاب سلطان أظن أن ذلك لا يكون الا بأمر الخديو فنسأله في ذلك ولا ريب انه يوافق عليه . فقال له أحد النظار : الخديو الذي كنت تطلب خلعه إن لم يمكن قتله قبل أيام؟

(قبل هذا) جاء كلام في الخديو في جلسة فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابي

وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان سالة الجناة الناهبين الذين باعونا للاجانب (هذا هو سلطان الذي كان رئيس الحزب الوطني وهو لا يريد الآن إلا

(١) هذه الجملة كتبها النقيذ في حاشية المذكرة لانه تذكرها بعد كتابها

فوضعناها بين هلالين لذلك

محملة الخديو — ذلك الخديو الذي لا ينبغي إلا بيع البلاد للأجانب^(١)
اجتماع مجالس النواب حق للشعب ونحن نوابه ولا بد لنا أن نطلب النواب
إلى القاهرة حتى لو أراد عرابي أن يوافي ما طلب من إبعاده إرضاء للسياسة
الأجنبية فليفعل، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى إليه الخلاف
سلطان رجع عن رأيه إلى رأي الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو
والقنصلين وفيما اضطر إليه من موافقة الثأرين

(٢٧) يؤكدون أن ضرب الاسكندرية لم يكن خطر ببال الوزارة الانكليزية
ولا وضع في مداولاتها إلى الرابع من شهر يوليو سنة ٨٠ وإنما وضع بعد ذلك انتقاما
من مؤتمر الاستانة وليس من البعيد أن يكون السبب صلات عرابي مع الاستانة

(المشير درويش باشا مندوب السلطان)

(٢٨) مقاصد الاستانة من إرسال درويش باشا (١) إطالة زمن المخبرات (٢) أن
يعاد من قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديو (٣) أن يستمال قلب
عرابي وخواصه بطريقة أبوية إلى زيارة الاستانة قصد التنزه على شواطئ البوسفور
(٤) تقرير ساعة الباب العالي بمصر . وكان من السهل إدراك ذلك كله لو أرسلت
من هو أقوم من درويش الخ

(٢٩) درويش يذكر بسلطة السلطان ويثني على الخديو وينصح بالخضوع
لنظام . وإذا جاء الكلام في النهضة المصرية يقتصد في القول ويقتصر على قوله ان
السلطان مولانا وأبونا وهو الذي سينظر في ذلك

(٣٠) أرسل الخديو لاستقباله ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابي من قبله يعقوب
سامي ، وقد حصل خلاف بين الرسالتين في الركب (الباخرة) عند المقابلة لتكدر
ذو الفقار . لكن درويش استقبل كليهما بالبشاشة

(١) أي بحسب رأيه . فيقابل هذا وأمثاله بما ذكره مستر برودلي المحامي عن
الفقيه في سلطان باشا ليعلم انه رحمه الله تعالى لم يكن حاسداً لسلطان باشا بل كان
محتجاً عليهم باتباع الهوى السياسي في ترك محاكمته وهو أساس الفتن كلها

جاء الاسكندرية في ٦ يونيو وسافر إلى القاهرة في ٨ منه
(٣١) أقوال بعض العلماء في إظهار مطالب في رأيهم وتصريحهم لدرويش
بما يجب أن يفعل أغضبه ، ومن ذلك الوقت مال الى توفيق فلما أحس بذلك
(أي الخديو) أرسل اليه ما يزيد إقبالا (*)

(المحاوراة المهمة بين درويش باشا التركي وعرابي باشا ومحمود سامي باشا)

(٣٢) في يوم السبت ١٠ يونيو قابل درويش باشا عرابي ومحمود سامي لأول
مرة فجرى الحديث بينهما على ما سندكره

(قال درويش) نحن جميعاً رجال جنود يحترم بعضنا بعضاً وأنتم اولادي
لمكاني من السن . وقد أرسلني مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته
المصرية العريضة ، وستسهلون علي هذا العمل ، انا اعلم شكواكم ستشكون (١)
صبراً قليلاً ، سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدولتين (٢) اللتين تضايقانا
جداً ، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادهما ، هذا ما تكفل به لو عضدتموني فيه ، انا ارى جيداً
من جهة وقع الخطأ ليس الخطأ من قبلكم ، يجب التوصل الى المطلوب مع الحزم والبصيرة
ثم التفت الى عرابي وقال له : أنت أنت وحدك الأمر الناهي في مصر .
أنت مع كونك لست الانظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها . هذا ما أغضب
الدول المتحدة ، يلزم أن يرين المساهلة معهن . وما بقي بعد هذا عملنا فيه بيننا
وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضوري حيث إني مشير مرسل
من قبل السلطان ، وكن نائباً عني مأموراً تحت قيادتي ، لكي تسهل علي المخاطرة
مع الاجانب عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الآستانة
حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير في مقاضته معكم

(*) أي أرسل اليه رشوة قدرها خمسون ألف جنيه وحليا قدر ثمنه بخمسة
وعشرين ألف جنيه

(١) تشكون بضم التاء وفتح الكاف أي ستقبل شكواكم ويزال ماتشكون منه
(٢) العاريتين من الاساطيل الانكليزية والفرنسية اللتين في الاسكندرية

فأخذ محمود سامي يترجم المقال وعراي يسمعه ، ثم قال
 (عراي) مشروءكم هذا في غاية الحسن ، وانا نختاره مع الشكر ، لست
 حريصا على السلطة التي تريد ان تنسبها الي . هي سلطة غير مفتصة ، الامة هي
 التي أفضت الي بها ، فالواجب ان ينظر الى الامة ويفكر في شكواها
 أعترف بأن يدك ابرع من يدي في العمل لتذليل المصاعب التي أمامنا
 الآن . سيني ووظيفتي تحت تصرفك . انا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك
 انما اشترط شرطا واحدا : أعطني باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتابا
 تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا في كل ماجرى الى الآن ، كائنا ما كان ، سواء
 كان ذلك مني أو من اخواني ، وحيث اني تعهدت للقناصل بحفظ الامن في الديار المصرية
 وتحملت ثقل ذلك على كاهلي فأرجو ان تعفيني من ذلك بطريقة رسمية معروفة
 أطلب ذلك لان الاحوال ان جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع
 وان جرت على العكس من ذلك كنا الجانين

مالت وكولفني وسندويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام وذلك في
 بلادنا وهم الاجانب الذين لا يحترمون لنا شيئا ونحن نحترم لهم كل شيء
 فوعده درويش بانالته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو وهو اليوم المحدد لجلسة
 يحضرها درويش باشا تحت رئاسة الخديو . وانما طلب أن يعلن هذا القول الذي
 جرى بينهما من قبلها جميعا وطلب من عراي أن يكتب الى الاسكندرية ذلك
 بالتلغراف فأبى عراي أن يعلن شيئا إلا بعد أن ينال ذلك الامر الخاص له من كل تبعة
 (استعداد الاوربيين وتسليحهم استعداداً للمذابح)

(٢٣) مسألة تسليح الاوربيين وإيهام موسيو كوكسون ان حوادث ستحدث (*)
 (٣٤) مالت أخبر حكومته نقلا عن سكرتير الخديو الاوربي (كودار بك)
 ان محمود سامي وعراي دخلا ثاني يوم استعفاء وزارة سامي والسيف في يد كل
 يهدد الخديو بفقد حياته

(*) كوكسون هو قنصل الانكليز في الاسكندرية

(٣٥) سمع مكاتب التيمس من عرابي قبل ضرب الاسكندرية انه يحترم القتال ما لم يخرق العدو حرمة البلاد وإلا هدمه ، ولكنه ضعف عن ذلك وقت الحرب (٣٦) أكثر الجرائد والتلغرافات من الاشاعات التي أفرغت الاوربيين وأخافتهم من المصريين وطلبوا من مديريهم في الاعمال أن يأذنوا لهم بالتسلح فمنهم من أبى ومنهم من أذن

(٣٧) خدمة (لاسترن تلغراف) طلبوا التسليح فأبى رئيسهم فكتبوا له عريضة فعرضها على رئيس (الكبانية) في لندرا فاذن بذلك وسمح بثمانية وثلاثين (لوفلير) وعائلات الموظفين أرسلت إلى قبرص على نفقة الكبانية (٣٨) الاوريون أصبحوا متأكدين من عداوة الشعب لهم لاحساسهم من ضمايرهم بسوء أعمالهم اليه

بدء المذبحة في الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

(٣٩) ١١ يونيو سنة ٨٢ كان يوم الاحد والقهاوي كانت غاصة بطالبي الراحة من الاشغال الطالبين للهو باللعب والسكر . فحدثت مشاجرة على قرب من قهوة القزاز في آخر شارع البنات نحو الساعة واحدة بعد الظهر حيث يوجد ازدحام كثير من الكراسي والطرايبزات وأشخاص منهم القائم والقاعد :مالطي يقال انه خادم مستر كوكسن أخذ (ركب) عربة وطاف بها من محل الى محل يشرب ويتنزه إلى أن وصل الى خمارة أحد مواطنيه وهو سكران فطلب منه العريجي الوطني أجرته فأعطاه المالطي قرشا واحداً ودخل القهوة (الخمارة) فتبعه العريجي وتبادلت الكلمات بينهما فتناول المالطي سكيما كانت معاقة في مائدة الدكان معدة لقطع الجبن وطعن بها العريجي فسقط لاحراك به ، فاجتمع بعض الوطنيين وحمار من أقارب العريجي وأرادوا القبض على القاتل فجاء يوناني خباز مجاور للخمارة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يمينا وشمالا ، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين من قراقول اللبان أول من جاء منهم مع المعاون قتل ، فجاء آخرون وصارت معركة عمومية

ولكن لم يتداخل العساكر في القبض على الجناة فتمكنوا من الفرار (الاروام والمالطية) وكان يكفي لحسم المعركة تدخل المحافظ لو اهتم بذلك لغيبة الضابط لمرضه وبعد نصف ساعة حصل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين فتقام الخطب لان كلا منهما كان يريد ان يقتل الآخر (وذلك لعدم القبض على الجانين) لكن مسألة الجانين لم يبق لها ذكر في اذهان المتنازعين وانما بقي النزاع (٤٠) والمسلمون والمسيحيون دخلوا في خصام حقيقي بين أهل الدينين وأخذ الاروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت مع انهم كانوا في مأمن من وصول الشر اليهم . وعند ذلك أخذ المسلمون يقدون من كل جانب مسلحين بعضهم بالعصي والبعض بأرجل الطرابيزات أو هشم الكراسي وبعضهم بالبايت اشتروها من المخازن القريبة خصوصا من السوق الجديد في هذه الحالة رؤي موسيو كوكسون نازلا من بيت أحد المالطين بلباس ملكي ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عند ما أراد أن يركب

العربة ففر ونجا منهم - وصحبه (عمر لطفي) في أثناء الطريق (٤١) لم يكن المسيحيون مدافعين بل كانوا يهاجمون أيضا . وقد طارت الفوغاء ، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين . وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الاروام المسلحين على حسب الاوامر المعطاة لهم وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز ولم يأت أحد من العساكر ولا من البوايس (ولا المحافظ) لاطفاء النار (٤٢) على القرب من تمثال محمد علي حيث لم توجد مقتلة وجد نحو اثني عشر قتلا ليس فيهم أوربي إلا واحد

(٤٣) وعلى القرب من زيزينيا رؤي (عمر لطفي) فسأله سائل كيف

تكون هنا والمذابح على خطوات منك؟ فقال لست بقائد وهذا لا يعني . فسأله

لم لم تحضر بلباسك الرسمي على حصانك شاهراً سيفك في خمسين من عساكر

المحافظين وبذلك كان الامر ينتهي ؟ فاجابه انصرف ليس هذا من شانك ،

وهل أنت محافظ البلد ؟

وبعد ذلك مر أحد موظفي المحافظة فستل ماذا يفعل الضابط ؟ فقال انه مريض وقد طلب من المحافظ مراراً ان يرسل العساكر فلم يفعل (١)

(٤٤) سليمان سامي كان مستعداً لارسال العساكر إذا ورد له الامر من نظارة الجهادية ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى النظارة لان الامر بيد المحافظ

وقد بدأ في المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولا جواب على ما يظهر (٤٥) ذهب نينه عند قنصل الروسية وحدثه بما رآه من المحافظ فمجب

وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعراي وكانت الساعة ٤ بعد الظهر

(٤٦) نحو الساعة ٥ بعد الظهر فابله من اخبره ان عراي ارسل الاوامر لاعادة النظام ، كانت الشوارع غاصة بالرعاة والاباش يحملون الاسلاب ويصيحون ويسبون وبعد نصف ساعة عاد النظام الى ما كان

(٤٧) لم تقتصر المذبحة على شارع البنات بل وقع ذلك جهة الجمره وشارع رأس التين وأبو العباس (أيضاً) . واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين في هذه الحالة خاصوا نساء أورييات وأوصلوهن إلى بيوتهن

(٤٨) يقال ان أخوين انكليزيين كانا مسلحين بلوفرير (مسدس) ولم يكونا يحسنان استعماله قتل أحدهما بضربة عصا أطارت سلاحه من يده

(٤٩) ظهر في اليوم الثاني أن عدد القتلى الوطنيين كان ١٦٣ غير من أخفاهم المتشاجرون اذ حملوهم سرّاً من وسط المعركة

ومجموع ما وجد من جثث المسيحيين أورييين وغيرهم ٧٥ كثير منهم مصاب برصاص في قمة رأسه * فمجموع القتلى ٢٣٨

(*) لهذا كان عمر لطفي باشا و ساطان باشا أبغض البشر الى صاحب الترجمة رحمه الله
(*) هذا يدل على ان هؤلاء قتلوا بالرصاص الذي كان يلقيه الاروام والمالطيون من أعلى بيوتهم بغير حساب

(٥٠) لم يصل الخبر عرابي الا الساعة أربع وربع بعد الظهر مع أن القليل من موظفي التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا في تلغرافات المحافظ حتى ان رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات في اسكندرية لم تقبل لا اشتغال العدة بتلغرافات المحافظ

(٥١) عمر باشا لطفي طلب إنزال عسكر انكليزي اعجز عرابي عن الامن (١٢ يونيو سنة ٨١)

(٥٢) موسيو كليكن كويسكي القائم بأعمال قونسلاتو فرنسا رجع الى عقله وأخذ في طلب تحقيق عن أسباب الحادثة فصدر الامر في الحال بذلك وبعد هذا امتنع الاعضاء الاوربيون من العمل : وألح الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهة عليه من الاوربيين ، فعارض في ذلك مندوبو اليونان والانكليز وأبي مندوب فرنسا الحضور " وطلب بعض وكلاء الدول شئ عشريين شخصاً من المذنبين وبهذا تنتهي المسألة في رأيه (١١ يونيو)

(٥٣) جيش صادق بك وكيل الضابط (سيد قنديل) لم يمكنه أن ينفذ شيئاً من تعليمات الضبطية لأن عمر لطفي كان يعمل بعكس تلك التعليمات وبعد ذلك عين وكيل حكمدارية السودان بناء على توصية عمر لطفي فهل لابعاده حتى لا يشهد أو مكافأة له على المشاركة في الجناية ؟

(٥٤) بعد الحادثة نبه القناصل على الرعايا بالهجرة مع الطلب من كل ان يكتب ما عنده فكتبوا دفاتر وزادوا فيها ماشاءوا . ذلك أن القناصل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب و أرادوا أن يرجع رعاياهم ما يشاءون "

(١) ليعتبر الشرقيون بهذه الذم وبهذه التصرفات ولا سيما الذين يعرفون ما يمدح به هؤلاء الافرنج انفسهم وما يذمون به المصريين وسائر الشرقيين وما يصفونهم به من التعدي والعصب

(٥٥) في الاسبوع التالي للحادثة اشيع خبر ان سيمور لا يعتقد ان للحزب الوطني دخلا في الواقعة فاهتم الخديو وأمر عمر لطفي ان يخبر سيمور ان تعهد عرابي بالأمن أصبح لا يعتد به ويخشى من مذبحه أخرى - ففعل ولكن لم ينل جوابا شافيا (أخبر الكاتب نفيه عرابي بذلك وطلب منه عزل * عمر لطفي * ولم يتيسر)

(٥٦) ثم عينت وزارة راغب واصدرت عفوا عن الجرائم السياسية غير ان القناصل لم يعرفوا بها تبعا لقنصلي فرنسا وانكلترا

(٥٧) بعد ضباط سيمور خبر الطوابي (١) وانها ليست بشيء (هذا الباعث له على الضرب)

(٥٨) عساكر الطبجية كانوا في بلادهم بتعلة الاقتصاد ، كان في الطوابي مائة مدفع وواحد ، منها ٦٩ كانت في مواضعها الحربية والباقي كان مرميا بعضه بجانب بعض وذلك من نحو اثنتين وثلاثين سنة قبل الواقعة

وأما البمب (أي القذائف أو القنابل) فلم يفارق مخازن الترسانة، قبل الضرب بيوم واحد لم يكن جهاز مدفع من المدافع بما يلزمه من بارود وبمب
غيرة الاهالي يوم الضرب

(٥٩) تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالي الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن أرسله

(٦٠) لورد نورثبروك أرسل البروفسور بلير (بالمر) ليفوي قبائل عربان غزة من شهر يونيو وقابله نفيه وكان لا يذكر اسمه لتكره . وقال له يوما قبل الضرب بمدة : ليهاجر فان المدينة ستضرب

(١) المؤلف: هذه الجملة ليست واضحة في مسودة المذكرات وتدل القرينة على سقوط شيء منها ، والمراد منها أن سيمور قائد الاسطول الانكليزي عرف حقيقة حال طوابي الاسكندرية بالاختبار وانما غير مستعدة لضرب بوارج الاسطول ولكن لا يعلم من أخبره بذلك . وكلمة بمد في أول الجملة لا يعلم متعلقها ، ويحتمل أن يكون أراد بها « بعض » أي ان بعضهم اختبر الطوابي . ولكن كيف كان ذلك

(٦١) قبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة اتصالات الانكليزية بتعديل في بعض الخطوط وطلب وكيلها في مصر مد خطوط إلى بورسعيد والسويس تحت الماء، وأذن له عرابي ولكن لم يتم
مدير الشركة في لوندرا طلب من وكيله بمصر في شهر مايو أن يتغيب بالاجازة إلى أن تنتهي الحوادث فان ميله إلى الوطنيين قد يضرب به عند الغالبين إذا حدث حرب
(٦٢) قنصل الروسية أكد لنيه ان الاسكندرية ستضرب وسأله أن يسعى على الأقل في عزل عمر لطفي . عزل عمر لطفي وعين ذو الفقار وهو لا يريد إلا ما أراد الخديو

﴿ شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ﴾

تمحش الاسطول لضرب الاسكندرية

(٦٣) في ٩ يولييه : كتب سيمور لطلبه (باشا) في شأن وضع المدافع وتجهيز الدفاع وتوعد بالضرب
(٦٤) في ١٠ منه : كرر ذلك الاشتكاء وقال انه سينفذ تهديده ان لم يسلمه طاية رأس التين لتجربتها من السلاح (لم يكن شيء من التجهيزات قد وصل في ذلك اليوم) فارسل اليه قرار من مجلس النظار تحت رئاسة الخديو حضره أيضا كثير من الاعيان محصله ان مصر لا يمكنها تسليم موقع من مواقعها إلا قهراً ، وان شيئاً مما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك . وما كان قد حصل (فهو) من الترميمات السنوية . وان المدافع لم تزل على حالها من سنين وصل الجواب اليه ضابط قال له ان شاء فلير بنفسي الطوابي وليتحقق مما يدعيه . فأجاب بانه مصر على وعيده ، وان عرابي لم يزل يحول بينه وبين مصر الخ
﴿ رأي الخديو توفيق باشا في ضرب الاسكندرية واحراقها ﴾

(٦٥) ١١ يولييه : أحد الميرالايات الذين في معية الخديو قال له : مامصير

الاسكندرية لو ضربها الانكليز؟

فأجاب (أي الخديو) ستين سنة !! وهز كتفه

فقال الضابط . لكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسط لدى الاميرال

والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية

فأجاب (اي الخديو) فلتحرق المدينة جميعها ولا يبق فيها طوبه على طوبه حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيدوق الاوريون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب (٦٦) الخديو ذهب من رأس التين إلى الرمل والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا واختفوا

﴿ حرق الاسكندرية وضربها والمهاجرة منها ﴾

(٦٧) بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد علي ممن كانوا على صلة بالخديو - ومنهم من أهالي الاسكندرية - ومنهم أوريون بقصد النبالغة في التعويضات . وذلك بعد ما أخلت الاسكندرية ممن يخشى عليهم (٦٨) في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ الساعة ٧ صباحا ضربت الاسكندرية ، وكان قد أوصى عرابي ضباطه ، ألا يضربوا الا بعد خامس طلقة من المراكب (٦٩) قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن على ايديهن ومات الاطفال أيضا ، وحمل النساء والاطفال وهن على هذه الحالة . (٧٠) هدم المسجد الذي في طابية قائد بك عمداً وجهت اليه النار على قصد

المهاجرون من الاسكندرية

(٧١) نحو مائة وخمسين الفا من السكان مجردين من كل شيء أخذوا في الحركة لغير قصد ولا لماوى . الموت والفرع ملء نفوسهم . على شطوط المحمودية . الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة ،

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة في كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرفي تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة ،

عود الضرب ثاني يوم .

(٧٢) في ثاني يوم الساعة ٨ صباحا عاد الضرب إلى الساعة الحادية عشرة وأصاب
 المستأجرة وهجرها كثير من المرضى والجرحى وكان عليها العلم الأبيض بالهلال الأحمر .
 (٧٣) طلبة (باشا) بعد ان رفع العلم الأبيض على نظارة البحرية ذهب إلى الاميرال
 يسأل عن سبب عودة الضرب فاجابه أحد الضباط عن لسان الاميرال أنه يطلب
 تسليم الطوابي والقشلاقات أيضاً . طلبة اراد المخاطبة مع مجلس النظار ، انتشر
 الخبر في المدينة ، أخذ العساكر في اخلائها ، هلع الناس وأخذوا ثانية في الهرب
 (٧٤) دخل اولاد علي للنهب . سليمان سامي سلم محافظة محلة الاوربيين إلى
 عاكر الرديف الذين لم يكونوا أفضل من العربان فانضموا اليهم في النهب آخر النهار .
 ﴿ عود إلى وصف المهاجرين من الاسكندرية ﴾

(٧٥) اما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو كماء انكسر سدده فاندلق ، يتصل
 بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين امامهم
 أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من امتعتهم : حيوان ، اثاث ضئيل ، ثياب
 رثة ، حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها .

في هذه الحالة - حالة شعب طرد من بيته - كان الحر شديد او غيم من الغبار سد
 الافق ، وأظلم الجو ، نساء يبحن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ،
 يتضاربن ، في أخلاط لا يمكن التعبير عنه - عربات بلا عجل استعملت مساكن -
 عربات من كل نوع بعضها ساقط في الحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بنجيل ،
 بعضها بغير خيل - روائح شي اللحم - صياح على المارة : الخبز الخبز

(٧٦) ابتداء الحريق في المدينة الساعة ١١ مساء من ثاني يوم الضرب

(٧٧) في ١٣ يوليو توجه الخديو من الرمل إلى رأس التين ، وعسكر

عرايبي في كفر الدوار

(٧٨) في ١٤ يوليو عندما وصل عرايبي لكفر الدوار اجتمع عليه النساء

والرجال ياعنون العالم ويطلبون الخبز ، فوعدهم بالقوت وبما يحملهم مجاناً إلى داخل
 البلاد وقد أرسلوا مع تواصي المديرين ليقبضوهم ويضعوهم في أعمال بقدر الطاقة

﴿ كتاب تاريخي من الخديو إلى عراي ورد عراي عليه ﴾
(٧٩) في مساء ذلك اليوم (١٤ يوليو) ورد لعراي كتاب من الخديو
محصله بعد العنوان .

سعادتلو عراي باشا ناظر الحربية في معسكر كفر الدوار —
« إنك تعلم ان الاميرال الانكليزي لم يرد حرب مصر وانما اطلق المدافع على
الطواي بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما انذره ، وقد اعلنا أنه يجب
اعادة العلائق معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ، فان
لم يكن فالى جيش عثماني ، وقد قرر مؤتمر الاستانة ان للسلطان وحده حق المداخلة
بقوة السلاح في المسألة المصرية . فعليك ان تحضر مع رفاقك الى رأس التين
للمداولة في ذلك ، وأمر بك بالكف عن التجهيزات التي لا فائدة منها بعد الآن »
فاجاب عراي بعد التعظيمات

« ان الاميرال انما اطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم
بانه لا تجهيز ولا تحضير ، وقد عددنا جميعا (وسموكم معنا) ان انذاره بالضرب
اهانة لمصر واعلان بحربها بلا سبب ، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطواي
كما قال بل قذف قنابل مفرقة على الاملاك حتى قتلت ودمرت كثيرا ، وان
عسكركم المنظم مستعد لان ياتي المدينة عند الاقتضاء ، وانا لا ارفض أي مخايرة
في الصلح ، لكن يلزم ان يتذكر ان التمدي وخرق سياج السلم وتدمير المدينة
انما جاء من المراكب الانكليزية ، وان الطواي لم تجاوب إلا بعد خمس ضربة
من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا
« ومن المعلوم ان انكلترة أصبحت بذلك محاربة لمصر ، اذ بعد اطلاق
النيران اثنتي عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لاخلاء المدينة وإشغالها
بعساكر انكليزية لا يمكن ان يقال ان البلد في غير حرب

« سموكم يعلم انه في هذه الحالة لا يمكن ان تكون مداولة حرة ما دامت
المراكب الاجنبية في مياه الاسكندرية بل يجب ان تبعد عنها ، فاذا حصل ذلك
فاني مستعد لاجابة الدعوة حالا . اما التجهيزات فيجب ان تستمر الى ان تبعد

مراكب عن الاسكندرية. تلك التجهيزات التي يشير اليها سموكم وهي جمع ٢٥ ألف
حامل هي التي امرتم بها وما انا الا منفذ لامركم

﴿ عزل الخديو لعراقي باشا ﴾

(واتفاق الناس على مخالفته واستمرار الاستعداد للحرب)
(٨٠) بعد أيام صدر الامر بعزله ووزعت بذلك منشورات لهذا السبب
وصرح فيها بانه كان ناظر الحرية إلى تاريخ الدعوة إلى رأس التين
(٨١) طبعت نسخ من تلك المحاطبات ووزعت في البلاد فجاء الناس لعراقي
طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من كل جانب
ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة الملاحات ،
وانتهت القلاع في قليل من الزمن ، وساعد على ذلك ان العدو لم يكن يعمل شيئاً

﴿ الجيش المصري والمتطوعون فيه والجيش الانكليزي ﴾

(٨٢) كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعاً من كروب.
وكان يوجد في أبي قير ثلاثة الاف وخمسةائة ، والقان وخمسةائة في رشيد ، وخمسة
آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر ألفاً^(١) اما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلا
(٨٣) كان من عمل المراكب ان تهدد في حركاتها النقط المذكورة لتمنع

عراقي ان يرسل جيشا إلى الوادي

(٨٤) أدخل العربان في الجيش على علم من عراقي بمضرة دخولهم . شرع
في جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشيء . شرع في جمع غيرهم . ودخل
كثير من المتطوعين ولكن لم يكن يكفي لجعلهم جيشاً صالحاً للدفاع وراء
الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد ، واما في الفلا فلا أقل من سنة لعسكري
ألماني ومن سنتين لعسكري انكليزي

١ أي مجموع العساكر التي في الثغور المذكورة فتكون مع الجيش المنظم الذي

يقوده عراقي ١٩ ألفاً

(٨٥) قالت التيمس : أرسلت الحكومة الانكليزية ٣٥ ألفاً وستبلغها ثلاثين ألفاً لمقاتلة الجيش المصري

﴿ طلاب التطوع في الجيش المصري من الاوربيين ﴾

(٨٦) كثير من ضباط التليان والالمان والسويس عرضوا انفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين والبعض كان يطلب وسيلة للنقل والبعض لم يكن يطلب (كالالمان) إلا تعيين الضابط الاكبر باسم رفيع في الجيش . أما الفرنسيون فجاء من بعض المفلسين منهم شيء لا يلتفت اليه

غير أن البحر كان مأخوذاً تحت مراقبة المراكب الانكليزية، والمواصلات كانت منقطعة تقريباً بين مصر وأوربا

﴿ آراء عرابي في حالته وفي عدم الثقة بالفرنساويين ﴾

(٨٧) لم يكن يهم عرابي عندما رأى في بعض الجرائد الفرنسية والانكليزية تلقيه بعاص - إلا مخافة أن يصدر بذلك أمر، وكانت له ثقة بالسلطان إلا إذا أكره. وتذكر البارون درنج وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع أنه كان موظفاً في خارجيتها. ثم بعد ذلك أخذ كرمصائب الاحتلال الفرنسي في مصر أيام نابليون وما احتال به هذا ومنو* على المصريين من الاكاذيب، وما حصل من الفرنسيين في تونس، واستنتج أنه لا يمكن الاعتماد على فرنساوي في شيء (١)

(٨٨) عند ما ضبط الاسير الانكليزي واستنطقه عرابي وسأله (٢) عما كان مكتوباً على بعض الكلال (٣) من اسم «اسكندريا» فأجابه حصل تحريف والحقيقة «اسكندرا» اسم المركب، فاعتذر عرابي بعدم معرفته الانكليزية. ثم قال له

(*) هذه كلمة مبهمه لم نستطع قراءتها قد تدل القرينة عليها

(١) المؤلف : ولكن عرابي اعتمد بهذا على داسيس الفرنسي في حاية القتال من الانكليز كما راه في عدد ٨٩ (٢) وقوله واستنطقه عرابي وسأله الخ لا بد أن يكون أحد الفعلين بغير واو والعطف (٣) الكلال تنطق بالكاف المفخمة واصلاً قاف ولعالم كتبوها بالكاف حتى لا تشبه بقلة الماء واصلاً واحداً

لعلك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين ؟ فأجابه نعم ولكنني عسكري ما علي إلا أن أطيع

(انخداع عرابي بنفس دلسبس في تركه القنال)

(٨٩) عرابي اعتمد على دلسبس في حماية القنال وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك تلك الناحية عوراء ، وعند ما أحس دلسبس بأن الجيش المصري قد يتحرك ناحية القنال كتب تلغرافا لعرابي يقول له من المستحيل ان عساكر الانكليز تمر من القنال

وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقيها بأن اثنين وثلاثين مركبا توجهت إلى القنال فورد تلغراف من دلسبس يقول : لا تشرع في شيء بمس القنال ! لا يمر عسكري انكليزي الا ومعه جندي فرنساوي ! أنا مسئول عن كل ما يحصل . فأجيب بأن هذا غير كف وتقرر ارسال جيش ثم أرسل الجواب ببطء وقبل أن يتحرك عسكري إلى ناحية القنال كان الجيش الانكليزي قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة في مخابرة دلسبس ، ويظهر أنه كان في الحاضرين خونة حملوا الاخبار وأبطأوا في المخابرة

(٩٠) قال ولسلي لو قطع عرابي القنال كما قرر لم يكن لنا إلا حصر مصر ، والضرب في البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا

(أخبار القتال بين المصريين والانكليز وضعف عرابي وجيشه)

(٩١) في ٢٣ و ٢٤ أغسطس كانت واقعة نفيسة وأسر محمود فهمي (باشا)

فجاء سامي (باشا) بنفسه وطلب من عرابي أن يذهب الى ناحية الوادي

(٩٢) جيش الجبهة الشرقية كان أغلبه من العساكر المجموعة حديثا التي

لا تساوي شيئا . خسارة محمود فهمي كانت جسيمة لا تعوض وليس من السهل

تعويضه . عرابي وجميع الضباط ومحمود سامي شعروا بالضعف والوهن عند ذلك

(٩٣) قررت مشورة حربية اغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق .

ذلك أخاف عرابي وأرهبه فلم ينفذ . وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط ورشيد وارسال مثل عبد العال إلى جهة الوادي ، فنفذ شيء وأوقف شيء ولم يحضر عبد العال وكان حضوره مفيدا

(٩٤) ذهب عرابي إلى الوادي في حزن وانكسار قلب . وقد اعترف أنه في مدة الستة أسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها . أرسلت عساكر إلى الوادي وجاء إلى كفر الدوار من عساكر الرديف الهرمون والمؤفون (١) (٩٥) مع حركات الجيش المتوالية ، وتلك الدهشة المستولية ، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع

﴿ عود إلى خيانة سلطان باشا ﴾

(٩٦) في ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد علي من عائلة شهيرة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار

ووجد معها منشورات من سلطان باشا ورسائل منه إلى رؤساء القبائل وبعض

الضباط يدعوهم إلى ترك عرابي والاتحاق بالجيش العثماني الذي جاء لاختضاع العصاة

استنطقوا فاعترفوا بكل شيء : وذكروا أن جنديا بحريا انكليزيا يسمى

(جيل) حمل ثلاثين الف جنيه من سيمور ليأحق بالاستاذ (بالمر) يستميل معه

عربان غزة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان

في الشرقية . وان مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الانكليزي

إلى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس

لمقابلة (بالمر) وقد قطع سلك التلغراف الذي يصل بين مصر والآستانة . وكان

(١) أي الذين ادركهم الهرم والمصابون بأفات العاهات فلا يستطيعون عملا . مؤفون

جمع مؤف وأصله مأووف اسم مفعول من أوف الشيء أو الشخص أي أصابته آفة أو عاهة

كل ذلك حقا فان قائد الفرقة البحرية في القنال أخذ المبلغ من (جبل) وسلم منه أربعة آلاف جنيه إلى (بالر) وحجز الباقي على حسابه وأرسل معه جبل وضابطا آخر قتلوا جميعا بين العربان

(٩٧) مركز الدسائس والمخابرات كان في اسكندرية في مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من الانكليز من موظفي الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر

وكان روح الجميع سلطان باشا

(٩٨) عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الانكليز لا يفيد، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح، فأخذ في التوزيع باسم الخديو والسلطان، واختار لبث الافكار الحاوي الطحاوي أحد ثقة عرابي، فكان الحاوي يوظف اخوانه العربان بمصيان عرابي وقوة الجيش المحارب ونحو ذلك، وكانت القيم التي تدفع إلى الافراد تتفاوت من جنبيين إلى ثلاثة. ولم يكن عرابي يقتنع بخيانة العربان وكان الحاوي مع ذلك يخبر عرابي ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابي كان يقضي اليه بجميع ما عنده

(٩٩) في واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغي وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف في الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانكليزي، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانكليزية زاحفة وأخذة جميع الطرق في الساعة واحدة. وجرح علي فهمي وراشد باشا وانهزم الجيش، وما ذاك إلا من الجواسيس العربان. وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت إلى قلب

الجيش وإلى كثير من الضباط بسعي سلطان باشا ومراسلة العربان (١٠٠) في ١١ سبتمبر جاء عرابي مراسله ينبئ به بخيانة العربان. فأبى قبولها

هائلا انهم مسلمون (!!!)

(١٠١) في ١٢ سبتمبر أنبىء عرابي من النبع نفسه (بعض رؤساء العربان

أيضا) بأن الانكليز سيفضربون التل الكبير ويرمون إلى بليس (جهة حصنها)
الفرنساويون من قبل) ليأخذوا هذا الموضع ويفتحوا طريق القاهرة . اقتنع
عراي بصحة الخبر فأرسل إلى طلبة يطلب منه ارسال فرقة من الجنود لتكون
في التل الكبير صباح الثالث عشر من شهر سبتمبر . جاءت الفرقة ماشية ، وصلت
الزقازيق في صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة

(١٠٢) يقول أحد الضباط إنه في الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا
إلا بصياح العربان ، وبضرب النيران ، ولم يعرف من كان لهم ممن عليهم ،
ووقع الاضطراب العام ، والجيوش الجديدة انهزمت فكان الانكليز يقتلونهم
كانهم في الصيد ، وقاوم ثلاثة آلاف فني نحو نصفهم . وبعض الضباط كان في
عجز عن المشي عن الفرار (اعلمها عند الفرار) لتقل النقود التي كان يحملها فذهب
من بعض السودانيين

(١٠٣) يقال ان عراي كان يحب اطالة زمن الحرب (أي رجاء أن تتدخل
الدول في المسألة كما قاله الاستاذ في موضع آخر — المؤلف)

[يقول المؤلف محمد رشيد رضا] هذا ما عندنا من المذكرات الخاصة بالفتنة
العرايية أثبتتها بحروفها كما كتبها رحمه الله في تلك الايام الحالكه الظلام ، المشتبهه
الاعلام ، المثيرة للاوهام ، حتى إنني لم أصحح ما أقطع بانه من عنرات القلم وان كتب
في بعض المواضع على الاصل الصحيح ، وفي بعضها على المشهور الدائر على السنة الناس
كلفظ الاسكندرية واسكندرية وسكندرية . وانما وضعت قليلا من العناوين
لبعض المسائل المهمة في سطر مستقل للتنبيه والترويح فيها وبعض الخطوط على
بعض الاعلام أو الجمل من فوقها وقابلا من الكلمات المفسرة والموضحة بين
علامتي الادراج هكذا () وأما الجمل التي وضعت بين هاتين العلامتين فهي
له رحمه الله تعالى الا الاخيرة منها التي ختمنا بها بكلمة المؤلف وفي هذه المذكرات
عظات وعبر لو اتبع لاستاذنا رحمه الله تعالى أمام تاريخ الفتنة العرايية وشرحها
لاستفاد قراؤه منها مالا يوجد له نظير الا في كلام حكماء المؤرخين الاعلام الذين
يقل عددهم حتى في الامم الحية العزيزة ، وكان لدى الاستاذ مملخصات مترجمة من

الجرائد الاجنبية فيما كانت تكتبه من الاخبار والآراء في المسألة المصرية في أثناء تلك الفتنة، كانت تترجم بأمره لادارة المطبوعات التي هو رئيسها ولدينا بعضها ولكن لا حاجة لنا بنشره لاننا نكتب تاريخ الرجل لا تاريخ الثورة العراية، وقد جئنا بما علم به رأينا في اسبابها ونتائجها وسيرته في اولها وآخرها .

ولما كان غرضنا من كتابة تاريخه استفادة الامة مما فيه من العبرة حسن منا أن نذكر القارىء ببعض الفوائد التي تؤخذ مما كتبه في هذه المسألة كتابة فللورخ الصادق الحكيم والوطني الصميم .

﴿ بعض فوائد ما كتبه في المسألة العراية ﴾

(الفائدة الاولى) ان الاوربيين كانوا يتصرفون في الدولة المصرية والبلاد المصرية أسوأ التصرف وأشد إفسادا للنظام ، وكلبا في جمع الحطام ، ويسوقون للحكام والرعية كما تساق الانعام ،

(الفائدة الثانية) ان أمراء البلاد لم يكن عندهم من العلم بطبائع الامم وحقوق الدول وأخلاق البشر وتاريخهم وسنن الاجتماع ما يهديهم الى السياسة المعقولة والادارة القويمة في حفظ ملكهم الاستبدادي ، لذلك كان اسماعيل باشا هو المحتاح لثروة الامة والدولة ، الممكن اننفوذ الاجانب فيها ، والممهد للثورة التي هي موضوع بحثنا ، وهو يظن أنه سيجعل مملكته كمالك أوربة . و كان توفيق باشا هو الموقد لئارها ، والداعي للانكسار الى احتلالها ، من حيث يظن أنه يحفظ سلطته من عبث الرعية بها .

(الفائدة الثالثة) إنه لم يكن في رجال هذه الدولة وأصحاب النفوذ فيها أوفى الشعب رجل كبير العقل بعيد الرأي قوي الاخلاص والعزم يتلافى الثورة على علم وبصيرة ، بان يحقق ما حققه الشيخ محمد عبده من أسبابها ، ويقنع الخديو توفيقا بما يجب فعله في امرها ، وقد كان هذا ممكنا مع توفيق لما كان عليه من الدماثة وضعف الارادة ، مع حب الخير والتدين ، ولو كان لهذا الشاب الازهري محمد عبده مدير المطبوعات ورئيس تحرير الجريدة الرسمية ما كان لرياض باشا وشريف باشا من المكانة في الدولة أو ما كان لسلطان باشا من الجاه والثروة في الامة ، لقام بهذا

الواجب. كان سلطان باشا يعلم ان عرابي وأخوانه الضباط المصري العرق ما فكروا قبل تفاقم خطب هذه الحوادث بالخروج على الحديو ولا في تقييد سلطته الاستبدادية بمجلس نواب ولا بغيره ، وكان يعلم ان غرضهم الاول من طلب المجلس الامن على أنفسهم ثم على وظائفهم العسكرية ، وان غرضه هو من المجلس الذي اتخذهم وسيلة له ان يكون وزيراً أو رئيساً له ، فكان يمكنه بمداستفحال الخطب وقرب وقوع الخطر على البلاد بالاحتلال الاجنبي — وقد رست بوارج الاسطول أمام مدينة الاسكندرية — ان يقنع الحديو توفيقاً بحقيقة أمر العرايين وان اخضاعهم ممكن ، وأنه خير له والبلاد من الاستعانة عليهم بالانكليز ، فان هؤلاء اذا احتلوا البلاد احتلالاً عسكرياً بظهورهم على قوتها العسكرية فان سلطانه الحقيقي يزول ، وانما يبقيه الانكليز كالشبح الماثل ليستعينوا باسمه على حكم البلاد كما يريدون ، كما فعلوا في بعض الممالك الهندية أو دون ذلك ، ولكن سلطان باشا كان أصغر نفساً وأقل علماً وأضعف وطنية من ذلك ، بل كان خائناً خان اميره أولاً بشبهة خدمة الامة وجعل حكومتها مقيدة بالشورى النيابية ، ثم خان أمته بشبهة خدمة أميرها والمحافظة على امارته ، وانما خدم الانكليز وخدمهم

فاين هو من الشيخ محمد عبده الذي كان ساخطاً على عرابي وجماعته منكرين عليهم افتياتهم على حكومتهم وأميرهم ، محذراً إياه من سوء العاقبة بانتهاء فتنه باحتلال عسكري يوجب لمسيه لعنة التاريخ الى يوم القيامة ، ومنكر آعليه وعليهم التعجيل بطلب الحكومة النيابية قبل إعداد الامة لها ، على أنه كان هو واستاذ السيد جمال الدين أول من نبه الافكار ووجه القلوب اليها ، ثم لما آل الامر الى تدخل الاجانب في أمر البلاد بطلب الحديو اضطر إلى ان يكون مع الامة عليه ويساعد الامة ما استطاع من رأي ، وقد تقدم ما يثبت ذلك بالتفصيل

(الفائدة الرابعة) ان من أهم أسباب هذه الفتنة ، وما آلت اليه من المحتمة احتقار الحديو ورجال بلاطه وكذا وزراؤه وكبار ضباط جيشه من الترك والجرس للمصريين الخالص ، والتعبير عنهم بالفلاحين للتحقير والتعير . وعدمهم غير أهل لمناصب الدولة ، ولذلك عظم على توفيق باشا ان يطلب منه هؤلاء الفلاحون حقوقاً وقد

خلقوا على رأيه ورأي البيثة التي تربي فيها ليكونوا عبيدا ، حتى آل به الامر الى الاحتفال بانتصار الانكاز على جيشه وقبوله التهانى من الوجهاء على احتلالهم لبلاده . وسلمهم للملكه ! كما يراه المطلع على كتاب (مصر للمصريين) وعلى جرائد تلك الايام . والواقع أن البلاء وقع على رأسه هو لانه سلب منه ملكه الاستبدادي ، وان الفلاحين كانوا في عهد الاحتلال آمن على أموالهم من السلب ، وعلى أنفسهم من الاهانة والضرب ، مما كانوا عليه من قبل ، وهذا من أكبر ما أصاب الشعوب الاسلامية بعد زوال ملك العرب العادل ، الذين كانوا يعدون جميع المسلمين أخوة لهم في الاسلام ، وكانوا يساوون في العدل بين جميع رعاياهم على اختلاف ملاتهم ومجتمعاتهم واجناسهم ، وملاحدة الترك يعدون هذا من عيوبهم ، جاهلين انهم لولاه لما تم لهم إخضاع تلك الشعوب الكثيرة لسلطانهم ، وإدخال تلك الملايين في الاسلام باختيارهم .

(الفائدة الخامسة) ان الشعب المصري في جملة قد قام بكل ما يجب عليه من الحقوق المالية والوطنية ، فقد بذل كل ما استطاع من المال والرجال في سبيل الدفاع عن بلاده ، وأما خانه بعض كبار رجاله كسلطان باشا وبعض الضباط وهمج البدو ، لارجال الحكومة والقصر (السراي) من الاعاجم الاصل وخدمهم . وقد استفاد الشعب المصري من هذه الفتنة أن شعوره بوجوده وبحقوقه قد انتشر في المدائن والقرى ، وضعف به ما كان مستحوذا على القلوب من هيبة الأمراء والحكام ، بعدما كان من جرأة العرايين عليهم فان الاسباب الخفية الخاصة التي جرأت ضباطه على المطالبة بحقوقهم التي هي حقوق لشعبهم لم تكن معروفة للجمهور ، على انها كانت اسبابا شخصية ، دخلت في طور الحقوق العامة ، فكانت كما قال بعض أئمة العلم : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا الله . واستفاد عقلاء الشعب من الحكام وغيرهم أنه لا قوة في هذا العصر للدولة الا بالامة ، وان الحكومة الشخصية الاستبدادية اذا لم تسقط بقوة الامة فانها لا بد ان تسقط بقوة الاجانب ، وتكون آلة لهم يذلونها ويذلون الامة بها ، وأنه لا يرجى استقلال هذه البلاد الا بعد تمكن هذه العقيدة فيها ، وعملها بمقتضاها .

(الفائدة السادسة) ان الدولة العثمانية العريقة في الحكم وممارسة السياسة

الدولية لم تحسن التصرف في المسألة المصرية ، وكان يسهل على مندوبيها المشير
درويش باشا درء الخطر ، وحل الاشكال ، ولكنه كان خائفا أيضا فاخذ
الرشوة من توفيق باشا وواقفه على هواه ، فابن هو من فؤاد باشا في حل مشكلة
سورية ولبنان سنة ١٨٦٠ واخرجه للجيش الفرنسي منها بدهائه وحكمته

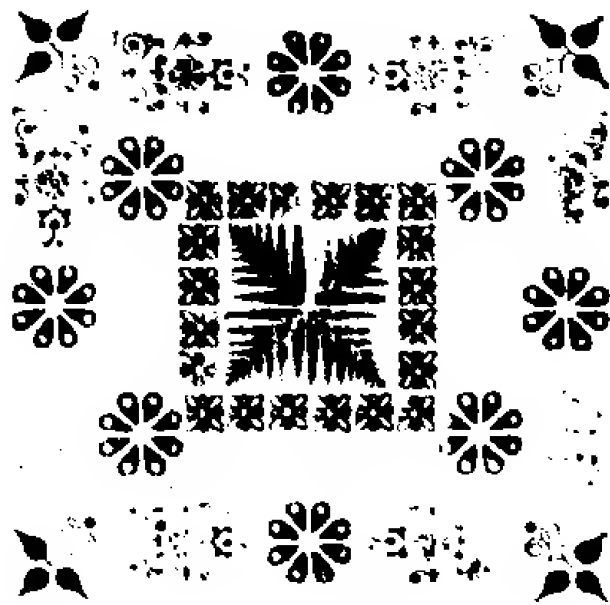
(الفائدة السابعة) أن الاستاذ كان مؤيداً لوزارة رياض باشا الاصلاحية ويرى
أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذي يرجى أن ينهض بالامة في مدة خمس عشرة
سنة كما بين ذلك في مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء في الجزء الثاني من
هذا التاريخ ، وكان يفضاها على إنشاء حكومة نيابية قبل استعداد الامة لها . وإن
كان اول من نبه الامة لها هو وأستاذه السيد جمال الدين ودعواها اليها كما تقدم .
ولكنه كان يرى ان رياضاً قد افراط في العدل والاصلاح بعدم مراعاة
استعداد الخديو ورجاله وأركان حكومته الذين استمرؤا مرعى الاستبداد وطبعوا
على الاسراف في استعباد الرعية الضعيفة الجاهلة ، وأنه كان ينبغي له مداراتهم
والرفق بهم ، وأنه لما علم بسخط اميره عليه وكرامته له كان ينبغي له ان يستقيل
من منصبه أو يرضيه ان أمكن ، لأن طاعة الأمير واجبة عقلاً وشرعاً مادام أميراً ،
فان ظلم وفسد وتعذر اصلاحه جاز السعي لاسقاط إمارته بالوسائل التي سنها الخالق
الحكيم للاجتماع البشري ، ولكن لا يجوز الاستبداد عليه والعصيان له مادام أميراً ،
(الفائدة الثامنة) أنه كان يعتقد أن عمل عرابي خطأ وخطر على البلاد ، لان

• تصدي رجال الجيش لادارة الحكم وإرغام ممثل السلطة العليا ومن دونه على
ما يريدون ، قلب للنظام ، وافساد للحكم ، وافضاء بالدولة الى الفوضى ، ولان الثروة
العسكرية في مصر قد تفضي الى احتلال أجنبي يذهب باستقلالها ، وكان يعلم
تلقاه عن السيد جمال الدين ما كان من سيرة الانكليز في الاستيلاء على الممالك الهندية ،
ويعلم أنه ليس في البلاد من القوة العسكرية المنظمة ومن الثروة ما يمكنها من
الظفر بدولة قوية غنية كاللدولة الانكليزية — وقد تقدم عنه التصريح بهذا

وكان مع هذا كله يعتقد أن عرابي باشا غر ساذج ينخدع للاجانب
لا يصح أن يخفى على رجل متعلم في الدرجة الوسطى ، وذكر عنه أنه انخدع

يقتصر فرنسة الجنرال أولا وبموسيو دلسبس آخرآ ، وإنما فهم بعد خراب البصرة أنه لا ينبغي لاحد ان يثق بفرنسة ولا باحد من رجالها — وأنه انخدع لأعراب أولاد علي وكان يطلع الحاوي جاسوس الانكليز على أسراره العسكرية ولا يتصور وقوع الخيانة منه ولا من احد منهم «لأنهم مسلمون» فيا لله العجب من فهمه لاسلامهم ومن ارتقائه بانفسهم فيه الى مقام الصحابة من المهاجرين والانصار ، والى درجة الاولياء والابرار ، بل عرج بهم الى أفق الانبياء المعصومين عليهم السلام. وأكثرهم لم يعرف من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، كما يقول خطباء الجمعة في مسلي هذا الزمان من أهل الحضارة ، بله همج البداوة . فهل يرجي لجيش ان ينتصر على مثله أو ما دونه في العدد والعدد اذا كان قائده يبني أحكامه وأعماله الحربية على هذه الاوهام ؟ كلا ، فكيف يرجي ان ينتصر على جيش يفوقه في كل شيء من الاسباب كالعدد والعدد والسلاح والنظام ؟

وأما كان الاستاذ مع هذا كله يشد أزرهم بما استطاع بعد وقوع العداء بينهم وبين الانكليز لان هذا واجب شرعا ووطنية ، ولو استطاع درء هذه الفتنة بمنع الثورة قبل استفحالها ، وبصالح شريف بمد ووصولها الى آخر حدها ، لفعل . والله في خلقه سنن مطردة ، والموفق من الافراد والشعوب من اعتبر بها وراعاها في عمله ،
(ولن تجد لسنة الله تبديلا * ولن تجد لسنة الله تحويلا)



خاتمة هذا المقصد

(في اتهمه وسجنه ، وما كان من تأثير السجن والوشاية في نفسه ، والحكم عليه بالنفي من بلاده)
لا تكمل تربية الرجال ، إلا بمكافحة الاهوال ، فمعادن الانفس لا تصفو من شوائب الضعف في الحق ، ولا تتمكن من مقعد الصدق ، إلا بعد ان تعرض على نيران المحن ، وتذاب في بواتق الفتن (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) ولذلك يبتي الله سبحانه وتعالى عباده المصلحين بفتن المفسدين ، ليعلم الصابرين والصادقين (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فالفتن والكوارث تمحص أنفس المؤمنين بالله السائرين على سننه فتزكيا وتعليها ، وتمحق الكافرين بنعمه ، والمتنكبين لسننه ، فتدسيها أو تفتنيها .
وقد اتهم الاستاذ الامام في الثورة بما هو بريء منه ، وتفنن المنافقون يومئذ باخبار سوء عنه ، وتقديم تقارير السعاية فيه ، فسجن وأهين كزعماء الثورة الذين كان يمارضهم ، ويحذرهم وينذرهم عاقبه جهلهم ، وحوكم كما حكموا بجرمة العصيان ، ولكن ظهر بعض حقه في المحاكمة فحكم عليه بعد سجن ثلاثة أشهر وأيام ، بالنفي من القطر المصري مدة ثلاثة أعوام ، وقد زعم مستر برودلي محامي العرايين الانكليزي ما تقدم عنه من سوء تأثير السجن في نفسه ، وحكمنا عليه بالخطأ في زعمه ، وقد نشرنا قصيدته التي نظمها في السجن ، وبين فيها رأيه في الثورة ورجالها ، واننا ننشر هنا ما كتبه رحمه الله لبعض أصدقائه وهو في السجن لا يدري ما الله صانع به ؟ ففيها الحجة البالغة على خطأ برودلي بما كشف من الحجاب عن كبر نفسه ، وعلو همته ، وصفاء سريرته ، وحسن نيته ، وبعد آماله ، وثقته بمواهبه ونعم ربه . لانه كتب ونظم تحت سلطان تأثير السجن واحتمال القتل .

﴿ الكتاب الذي أرسله من السجن الى احد اصدقائه او مردييه ﴾

وفيه من وصف حاله فيه وما بلغه من الوشايات فيه ممن كان يعدهم من اصدقائه
أو مردييه ويحسن اليهم، وتأثير ذلك في نفسه - ومن وصف شعوره وآماله ونيتته -
ما هو أصدق تعبير عنها . قال :

في ٩ المحرم سنة ١٣٠٠

عزبزي

تقلدني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم
هذه حالي : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره
من مركز الارض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ،
وامتدت إلى القطبين ، فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس ، اذ تقلبت طبيعتها على
المواد الحيوانية أو الانسانية ، فاصبحت قلوب الثقلين كاللحجارة أو أشد قسوة ،
فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتشرت نجموزم الهدى ، وتدهورت الشمس والاقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة .
وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الافلاك دورة العكس ، ذاهبة
بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت
السلطة لآلهة الشر ، فقبلوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا
على ذلك قادرين * (١)

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر - يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما
ويخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين ، كما يقال اغتاثهم الفيلان - فيمن هلكوا
بأسباب مادية تجوزاً مبنيًا على المعروف من خرافات العرب . ويعد بعض المفسرين
من هذا القيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » - كما في انيضوي وغيره
وتوهم بعض أدعياء العلم باللغة وفنونها وبالشرعية ان ذكر الآلهة ولو بأسلوب
الحكاية اثبات لها ، كأنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية عن العرب واستقلالاً ،
ومن الثاني قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهم النبي يدعون من دون الله)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ، غطي فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ، لا أرى إنسانا ، ولا أسمع ناطقا ، ولا أتوهم مجيئا ، أسمع ذئابا تعوي ، وسباعا تزار ، وكلابا تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، ونحکم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو بلا ريب من الهالكين *

تقطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالاولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحققت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبدات القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضي ، وغیظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة القدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين *

ذهب ارباب السلطة في محور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب أصداف من الشبه ، ومقدوفات من التهم ، وسواقط من اللعم ، ليموهوها بمياه السفسطة ، ويفشوها بأغشية من معادن القوة ، ليرزوها في معرض السطوة ، ويفشوا بها عين الناظرين *

لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلابا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدي الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لانفسهم قول الزور ، واقتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الابطال ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالما بان كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لان الله يعلم — كما

أنت تعلم — أنني بريء من كل ما رموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً
أو كنت من الضاحكين *

نعم خنقني الغم ، وأصمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة ، عند
مارأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم
أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمأن
قلي ، وسكن جاشي ، عند مارأيت توارىخ التقارير متقدمة ، ومع ذلك لم يصلكم
شر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح باباً لا يذر الأحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان ^(١) تقريرين جملاً فيها تبعات الحوادث الماضية على عنقي ، ولم
يترك شيئاً من التخريف إلا قلاه ، وذكر أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعاد الناس
عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أعدهما من المجانين *

ولم أتعب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان
هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني المعجب كل المعجب ، غاية المعجب ، بالغ ما شئت
في عجيبي ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان (٢) الذي أرسلت إليه
السلام ، وابلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *
إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ... ولكن سيصل إلي ، إنما فيما بلغني أنه
شهادة باقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدوميين *

هذا اللائم الذي كنت أظن أنه يالم لألمي ، ويأخذ الاسف الحلي ، ويبدل وسمه إن
أمكنه في المدافعة عني ، فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة
في قلوب الحاكمين *

كم سمعني أقاوم هيجان (٣) الجرائد ، وأوسع محرديها لوماً وتقريعاً ، وأهزأ بتلك
الحركات الجنونية ، وكان علي في بعض أفكار هذه من اللائمين *
كان ينسب فلاناً لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم

لم أنقض له عهداً ، ولم أنجس له ودّاً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده ، وظفناً ، فإبانه أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيّب هذا القلب الذي يملئ هذه الاحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغیره على حقوق الاولياء ، ما أثبتته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الاصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب من الايذاء ، ولو للاعداء ، ما أشده رعاية للود ، ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما توخى عليه الذم الطاهرة ، ما أقوا إقداما على العمل الحق ، والقول الحق ، لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم و كانوا غافلين *

هذا القلب الذي يؤلمونه بكاذبهم ، هو الذي سر قلوبهم بالترقية ، وملاها فرحاً بالتقدم ، واطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً - خصوصاً هذا اللثيم - أفنشرح " صدورهم وهم يخرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحهم وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذب معظمه من الاسف على ما يلم بالطبيعة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المخررة ، وجعلوه رسماً يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفوقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يسيرون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسبين *

آه ، ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة ، وان جاروا في تصرفهم ، ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخرز ، إذا اتصل بذي الود ، وان كان خشنا فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وان هذا القلب في علاقته مع الوداء ، كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما

كباوي يدقق، لا يجد للتحليل بينهما سبيلا ، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الآن وصلي تقرير اللثيم ، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني ، وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا ، ولكن تصادف فراغ الخبر من الدواة ، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين *

* *

وددت على التقرير ، وكان كل ما فيه الغش والتقرير ، وذكرك فيه فلانا ... باشنع ما يؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخيثن قبله ، ولكن دفعت ما قاله في جانبه أيضا . وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فما عليكم ان سئلتهم الا أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث ، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتملنون من أفكاري وأقوال التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ، ومن كانوا الهامن الطالبين * إلى هذا الحد قفوا ، فان سئلتهم فقولوا ما نحن بتأويل الاحلام بعالمين * في هذا الوقت وصاني الرقيم مبشرا بيقائكم في مركزكم ، فقامت ورفعت يدي ورجلي وناديت : الحمد لله رب العالمين * وأخذني الاسف على حبس فلان لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقيين *

يا عزيزي ، أعود إلى ذكر ما لا أولئك القوم ، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤوسهم ، فغشيهم من شدة الصدمة ما غشيهم ، فقاموا ينطقون بما لا يعون ، ويتكلمون ولا يفهمون ، ما بالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقدر من البلغم . وأمر من الصفراء ، وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيهم أخبث ما يحملون *

ما بال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر بهوت ، تقذف بسائلات

بشعة الطم، خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، تضطر معانيها للفرار منها؟ لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون * هل بطل يا عزيزي ماجاء على لسان النبوات: الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ماجاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يغرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنعة؟ هل كان خرافا ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟ *

هل أتأسف أن كنتُ سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنتُ مقداما في المكرمات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أبياً أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلتي؟ هل استحق العقاب على حيي لبلادي والناس لها كارهون؟ *

كلا والله لن يكون ذلك ولم أزد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزد في المرافضة عليها الا ثباتا، ولمن عشت لأصنع المعروف، ولأغشن الماهوف، ولأأخذن الهاوي في حفرة القدر، ولأأخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولأأجاوزن عن السيئات، ولا تناسين جميع المضرات، ولا بينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون *

ولأأظهرن الصديق في أجمل صور، ولأأجلونه للناس في أبهج حله، ولا ثبتن لهم ببرهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا غسق دجى الموم، تستضيء به في حل ما انعقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج العالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إني اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف. وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن. فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقاخص الشفاء، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويبعد عن نيل المطلوب. ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض. ويستثمهم ان طال زمن

معاينة العلاج، فيصبح المريض منهم في أدنى المنازل، وقد كان رباهم وهم له ساجدون*
 يذهب عنه البهاء، وينكشف من وجه الضياء، وتنكره الرؤية
 أعين العشاق، وتمجده طباع ذوي الاذواق، وتمحى من جبينه تلك الاسطر
 الجليلة العبارة، الصادقة النسبة، الناطقة بالحق، القائلة: ههنا كنز الرغبات،
 ههنا منازل الحاجات، ههنا ما يروح الروح، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس،
 ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة، فينحرف عنه السالكون اليه، وقد
 كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون* وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب
 جاه، ولا أظنكم بالقياس تجهلون*

لكن أقول لكم: ان الحوادث الاربعة سوف تنسى، وإن هذا الشرف
 سوف يرد، واثبتت طبيعة هذه الارض بنحسها ان يكون لها من عوده نصيب
 فليعودن في بلاد خير منها، ولا جذبن الى المجد أحبتي، ومن الى المجد ينجدون*
 كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم، ولا أطلب شيئاً فوق هذين
 سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس، وبعضهم له منكرون*

أطلت عليك الكلام فلا تسأم، وظنه آخر كتاب مني اليك في السجن إلا ان
 يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى. فان تلاقينا بعد اليوم كنت المشافهة أركى،
 والا كانت الرسالة أجل وأعلى. ولا تجزع، فليس في الامر ما يفزع، وهو
 أهون مما يتوهمون* وأسأل الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين، ويحفظكم من
 نكايه الخائنين، ويسرقني بالعلمانية عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين* اه
 | يقول محمد رشيد | لو لم يكن لنا من فئدة سجن الامام الذي كان نعمة
 في صورة نعمة، ومنحة في جلباب محنة، إلا كتابة هذا الكتاب البليغ الذي
 وصف به نفسه الزكية، وسريته الصديقية، أصدق الوصف وأبلغه وأجمله -
 لكني بها فئدة. وما كان لولا تلك الشدة الماتية ليكتب هذا أو يقوله وقد عهدنا
 ينأى عن الفخر بجانبه. ولعمري الحق لقد صدق فيما قال عن نفسه وصدقه فيه الزمان، وكل
 من عرفه من الناس، حتى أسوأ الناس ظناً بالناس وأشدّهم انتقاداً لهم. ومن كلام
 ابراهيم بك المويلحي الكاتب النقاد الشهير فيه: «باطنه خير من ظاهره»

الفصل الخامس

في الظور الثاني من حياته العملية

وهو ما عمله في اثناء النفي

وفي مقدمة في بيان تلقي سورية له بالتكريم ، وأثر ذلك في مرابطته وأصدقائه بمصر - ومقصدان (أحدهما) في عمله السياسي في أوربة مع السيد جمال الدين و (ثانيهما) في عمله العلمي الأدبي في سورية

المقدمة :

حكم على الاستاذ الامام بالنفي من القطر المصري وملاحقته مدة ثلاث سنين و كان ذلك في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وحكم كذلك على كثيرين من الذين أتهموا في تلك الحوادث المبرر عنها بحجة العصيان بالنفي إلى خارج القطر إلى مدد مختلفة من سنة إلى ٢٠ سنة و كان ممن حكم عليهم مثل الحكم على الاستاذ ابراهيم بك اللقاني وكان من أصدقائه وأخوانه الجمالين بل كان يعد المرید الثاني للسيد جمال الدين ، ومنهم الشيخ امين أبو يوسف من أصدقائه أيضا . وقد سافر هؤلاء مع كثير من رفاقهم من ازهرين وغيرهم إلى سورية فطاب لهم المقام فيها لما قابلهم به كرام أهلها من العلماء والادباء والوجهاء من الحفاوة والاكرام ، فكأنهم استبدلوا اهلا باهلا وجيرانا بجيران ، وخلافا بخلاف ، وأقام الشيخ محمد عبده واللقاني وكثيرون من أصدقائهم في بيروت ، ثم سافر الشيخ إلى أوربة وكان سبقه اليها السيد جمال الدين ، وكان من عملهما فيها ما نبينه في المقصد الاول من هذا الفصل ، ثم عاد الى سورية وأقام في بيروت وكان من عمله فيها ما نبينه في المقصد الثاني منه .

مقدمة الفصل

قلنا ان أهل سورية الاكرام قد تلقوا الاستاذ الامام ، بما يليق بمقامه العلمي والأدبي والعقلي من الاجلال والاكرام . حتى كان فيهم وهو منفي من بلاده ، بعيد عن صنائعه ومرابطته وتلاميذه ، اعزما كان في وطنه ، على ما كان

له في عهد الوزارة الرياضية من النفوذ الذي شرحناه في المقصد الثالث من الفصل السابق، كما كتب بذلك لتلميذه النجيب، ومريده الصادق، وصديقه الوفي (سعد زغلول) وتأثير ذلك في أنفس خلانته بمصر كما يعلم مما كتبه إليه هذا جواباً عن ذلك. وهاك الجواب الأول من أجوبته، ومنه يعلم بالأجمال ما كتبه الإمام له :

﴿ بعض مكتوبات سعد زغلول النذب الهام إلى الاستاذ الامام ﴾

(الكتاب الاول وهو مرجوع اول كتاب كتبه اليه من بيروت عقب وصوله اليها)

من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ إلى بيروت

مولاي الافضل، ووالدي الاكل، أحسن الله معاده

بعد تقبيل الايدي الكريمة : قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا اليه، قتلناه ووعيناه في القواد، وحمدنا الله تعالى على أن شرقت تلك الديار سالمين، مبالغاً في اكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبهاتها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء. ولهم منا معشر أتباعك ومريدك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الاجلال، السنة مرطبة بالثناء عليهم، وضائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم

صحتي البدنية معتدلة، أما فكري فقد تولاها الضعف من يوم أن صدع القواد بالبعاد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التي كنت تجلو مطالعها معان، نعرفها أوهاما يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون

توجهت إلى البليك صاحب تاريخ العرب وسألته إعارته فأجاب بأن محمود سامي أخذه منه وسافر ولم يرده اليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستمد خدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسياً كان أو معنوياً. وسأتحرى هذا الكتاب في كتب سامي عندي بها فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته في الحال إلى حضر تكم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر

الحال العمومية على ما تركتها ، غير أن الناس أخذوا في نسيان ما فات من
الحوادث وأهوالها ، وقلت قائلهم فيها ، وخفت شماتة الشامتين منهم ، وأصبح
المادحون للانكليز من القادحين فيهم ، وبالعكس . والكثير يتوقع انقلاباً أصلياً
والله أعلم بما يكون

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصريحاً وتلويحاً فتقبلوها بمزيد
المسرة والانشراح . يسلم على جنابكم الصادق في صداقته ومودته حسين أفندي
وهو في غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فراراً من شروره ، آسفاً
على ما وقع لجنابكم أكثر من أسفه على نفسه . الشيخ محمد خليل والشيخ عامر اسماعيل
والشيخ حماده الخولي والسيد عثمان شعيب والشيخ حسن الطويل ووالدي عبد الله
وأخوأي شناوي وفتح الله (هو أحمد فتحي) وكثير غيرهم يقبلون بديكم ، ويسلمون
عليكم ، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الاماخذ الذين أحسنوا
وقادتكم وأكرموا مثواكم ، زادهم الله بكمواً كمالاً

مولاي : ذكرت لحضرتك ن الضعف ألم بفكري فبالله إلا ما قوته بتواصل
المراسلة ، غير تارك فيها ما عودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي تهدي بها
إلى سواء الـ بيل ، ونتمكن بها من السير في العالم المصري الذي اختبرت حقائقه ،
وعرفت خلايقه ، وما يناسبها من ضروب المعاملة . وفقنا الله لمتابعتك ، ولا
أطال على بلادك مدة غيبتك ، انك إمامها وإن اقتدت بعيرك ، ومحبتها الصادق
وإن لم تعرف بقدرك ، والسلام
ولدكم

سمد زغلول

﴿ كتاب آخر جوابي منه اليه في ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ ﴾

مولاي الافضل ، ووالدي الاكل ، أحسن الله ما به
أكتب إلى السيد الاستاذ بعد تقبيل يده الشريفة عن شكر مزيد لمكارمه
التي لم يمنع من تواترها على صنائمه تباعد الديار ، ولا تنائي البلدان ، معترفاً بالعجز
عن وفاء واجب الحمد ، مع الاعتماد بأن هذا لا يثنيه عن المكرمات يوليها ، والمبرات

يسديها ، فما يفعل الخير التماس الثناء ، ولا يصدر البر ابتغاء الجزاء ، إنما بحسن محبة في الاحسان ، وببر شفقة بالانسان

تفضل أدام الله فضله على خريج حكمه ، النامي في نعمه ، بكتاب هو المحكم آياته ، المعجز دلالاته ، الشافي لما في صدور ، الكاشف لحقائق الامور ، الهادي إلى سبيل الرشاد وإلى صراط مستقيم ، فسر لمراه ، سرور العليل بالشفاء واقاه ، وتلاه متدبراً دقيق معناه ، مكرراً رقيق مبناه ، فازداد إيماناً بفضل مولاه ، ويقيناً بحكمة من أوحاه ، وشكر الله على صحة من أهداه ، دامت نامية وارفة الظلال . وتذكرم أبقي الله كرمه ببيان بعض أسماء الكلمة الكرام الذين دارسوه فصولاً من المروءة ، وأبواباً من النجدة ، وما لهم من كمال الفضل ، وما فيهم من تمام العقل فرسمنا أسماءهم على صفحات القلوب ، وحفظنا أمثلة فضائلهم في الصدور ، وتشوقنا لأن نتشرف أبصارنا برؤياهم ، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم ، وما يحتاج في اقناع النفوس بضعف تلك الحجة وإن كانت تمكنت في الاذهان ، إلى قوة البيان ، فمعرفة مقام فضله ، ومقدار حكمته ، ونبله ، كافية بذاتها في الدلالة على نزاعة نفوسهم ، وطهارة قلوبهم ، وغزارة فضلهم ، وسمو عقولهم ، ورجاحة همهم ، وسجاجة شيمهم ، وفي توجيه ما ثبت من الفساد في أخلاق غيرهم ، إلى أسباب أخرى نود أن يبينها الأستاذ الجليل في كتاب مخصوص اذا وجد من الوقت مساعداً ، إنما نحتاج إلى قوة البيان في هذا الموضوع لتبين كيف يكون تدارس المروءة بين الافاضل ، وتداول النجدة بين الكرام الامثال فما رايتنا من قبل لدينا إلا فاضلاً كرمياً يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقداراً ، ولا يفقهون للكرامة اعتباراً

ولقد زادني ميلاً في السفر ، وبغضاً في الحضر ، ماجاء في وصف أولئك الاماجد ذوي النفوس الزكية ، والمحامد العلية ، وما تلاه من بيان حقيقة غوازي

(١) الكلمة في الاصل هكذا «رايتنا» ولعل المراد فما رأيناك الخ والخطاب الأستاذ الذي يمت الفضيلة بالعلم والعمل في جماعة نكثوا عهده وخانوا وده، ووشوا

الامم، ساقطي الهمم ، ساقلي القيم ، جاهلي مقادير النعم ، غير أني عدلت عن داعية هذا الميل امثالاً للأمر، وفي النفس حسرات لا يقاومها صبر ، وبها الى السفر أشواق لا يتناولها حصر

وأحسن خلد الله احسانه على صنيع آدابه ، اليتيم في اترابه ، بحكم من مثل التي تعودها غذاء للعقل ، ونوراً للفكر ، فتلقاها بقلب شاكر ، وتقبلها بفؤاد حامد ، وحفظها في الوجدان ، راجياً من الله التوفيق الى الاخذ بمآنها ، والهداية إلى اتباع مآفيها ، آملاً من مكارم موليها ، دوام تواليها

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل ^(١) ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين ، ولولا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم ، ومن وثوقه بي فيما أرويه لكان الاسف مضاعفاً

إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وما سمعت منه ما يقصد به مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمامي يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين المعروف إلا بما معناه الاسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف ، فلعل ما بلغ المسامع الشريفة من هذا القبيل ، والسامعون لشدة حرقتهم وبلوغ الاسف من فؤادهم مبالغه ، انصرف خاطرهم عن رعاية مقام القول فتوجه ذهنهم إلى مفهوم الكلام الحقيقي وطبقوا المقام على ما فهموه ، ولهم العذر ، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضرتكم ولو مراداً به غير حقيقة معناه ، ولم يألوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها ، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده ، والعبارة في حد ذاتها يصعب تأويلها إلى غير المتبادر للافهام منها كل الصعوبة على من لم يكن أزهرياً متعوداً من الشيخ سماع أفطع منها مفهوماً وأشنع تركيباً

(١) ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله أيام غضب الشيخ عبد الكريم سلمان علي أنه كان بلغه في أثر الفتنة العرابية أنه طمن فيه يتبرأ من كونه من حزبه فكتب في ذلك كلمة في كتاب لا آخر - قال فيه : أكنزته كني وأدينته مني ، وجعلته في مكان النحو من ان جنني ، ثم هو يصرح بسبي ولا يبغي اه فظهر أنه كتب بهذا الى سعد وان سعداً دافع عنه بهذا الكتاب

وكيف يتأتى له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لؤم طبيعة وخراب ذمة وسفاهة عقل ؟

أنسى ما أوليته من كرائم النعم ، وجلال الامم (؟) التي لا يزال متمتعاً بها متفياً ظلالها ، وانك المورق أسفاً، المحترق حزناً، المشفق عليه يوم وجدت اسمه مكتوباً في تقارير اللثام، حتى شغلك همهم عن همك ، وسعيت وأنت مسجون في تنجيتهم من التهمة بواسطة المحامين

مانسي كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولائك ، ويبتكر هجاءك ، ويمس مقامك . في بيت أواه . ومنزل طالما رتع في مجبوحة نعماء

فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون المراد بها شيء وراء إعلان الأسف والاشفاق ، أما كونه لم يرسل خطاباً فولاى يرى انه من الأدلة الصادقة على كون ذلك الشيخ الفاضل صادقاً في ولائه ، حريصاً على دوام تذكروا له ، إذ لم يدعه الى ذلك إلا تمام رغبته في المحافظة على النعمة التي غرستم أصولها ، وأنتميم فروعها ، ليكون على الدوام متذكراً لحنيفة مبدئها ، متصوراً صورة منشئها

أما كتاب الشيخ محمد خليل ، فقد علمت ما في إرسال صورته من حسن التعليل وكال انتلطف في التأديب ، على ما جرت به عادتكم الشريفة . وقد طالعت هذه الصورة فرأيت انها من أقوى الأدلة على شدة ميل صاحب الاصل الى الصدق ، ورغبته عن التمويه ، حيث أوضح حاله صادراً في الايضاح عن الحق برهانا على شدة إخلاصه باثبات العبارة التي نفيها بين يدي حضرتكم في الدائرة

فان إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه ، ومن هنا يتبين لحضرتكم سلامة نيته ، وحسن طويته

أما عنوان الجواب فما أداه الى نسجه على ذلك الاسلوب الا اعتماده على معرفتكم بكونه من الصادقين المعظمين لجنايبكم الكريم . وعلى كل حال فنحن لا نستغني عن كريم عفوك ، وجميل صفحك ، فان لم تعف عنا وتصفح كتمان الخاسرين ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، ويحق

لحضرتكم السرور بما نال ولدكم (١) فهو المتربي في نعمتكم، المعترف من بحار
حكمتكم، المحفوف بعنايتكم، المشمول بعين رعايتكم. البالغ ما بلغ ويبلغ من
مراتب الكمال بحسن توجهاتكم، وكرم تعطفاتكم، أدامكم الله لكل خير مبدأ
رفعت تحيتكم إلى حضرات من ذكرتم أسماءهم وأشرتم اليهم فتقبلوها
بالاحترام وهم جميعاً يقبلون ידיكم. ويسلمون عليكم، وأخص بالذكر منهم منبع
الصفاء، ومصدر الوفاء، الذاكر لفضائلكم في كل حين، والذي حسين أفندي.
وحضرة ولدكم الصادق في متابعتكم الشيخ عامر اساعيل الذي امتن غاية الامتنان
بما اختصاصتموه به في كتابكم الشريف، وحضرة الشيخ سليمان العبد، والسيد أمين
أفندي. ونحن جميعاً نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا
بمعرفه أسماهم من الذين دارسوك فصول الكرامات وتقدم لهم واجبات الاحترام
أدامهم الله مثالا للفضل وعنوانا للكمال. ونسلم على حضرات أخينا الفاضل ابراهيم
أفندي اللقاني و ابراهيم أفندي جاد ونجلكم الكريم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله
أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها. نرجو تفصيل أحوالكم
وما تشغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك

كتب سامي لم تشهر إلى الآن في الزاد ولا زلت مراقباً لاشهاره

حضرة البك صاحب الكتاب توجه قبل ورود كتابكم الى البلد ولم يحضر
الى الآن. وعند العلم بحضوره أتوجه اليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم دامت
معاليكم. أفندم مك ٨ جاسنة ١٣٠٠ صنيعكم — سعد زغلول
أرجو عدم انقطاع المراسلات وأتمنى أن لا أحرم كل أسبوع من كتاب تطميناً
للخاطر وترويحاً للنفوس. ولمولاي في إجابة هذا الرجااء النظر العالي (سعد)

(١) يعني سعد نفسه، والخبر المشار اليه هو اشتغاله بالمحاماة

المقصد الاول من الفصل الخامس*)

محمد في أوربة مع السيد جمال الدين

تقدم في ترجمة الحكيم الاكبر، والموظع الاعظم للعالم الاسلامي ولساثر شعوب الشرق الادنى والاوسط، (السيد جمال الدين الحسيني الافغاني) أن حكومة الهند البريانية حجرت عليه في كالكته (عاصمة الهند) مدة الفتنة العراية، وأنها أطلقت له الحرية بعد انتهاء الفتنة واحتلال الجيش الاسكليزي لمصر وأنه ذهب بعد ذلك إلى أوربة، وأن الاستاذ الامام سافر اليه، وانهما أنشأ هنالك جريدة العروة الوثقى وقاما بعمل عظيم

وهذا العمل هو الذي نبسطه في هذا المقصد ونبدأ القول بسفر السيد من الهند واستئناف اتصاله بالشيخ فنقول :

كان سفره من الهند بحراً من طريق البحر الاحمر، ولما وصل إلى بورسعيد كتب إلى الاستاذ الامام كتاباً أخبره فيه بسفره وأين يقصد وفتح باب المراسلة معه، وترتب على ذلك سفر الاستاذ إلى أوربة بدعوته، وانا ننشر هنا نص كتاب السيد لانه أثر تاريخي من موضوع هذا الكتاب، وهذه صورته بخطه منقولاً بعكس الشعاع الشمسي مع بيانها بحروف الطبع

(*) قد كتبت الفصول الاربعية السابقة عقب وفاة الاستاذ رحمه الله تعالى وطبعت كلها ماعدا مذكرات الثورة العراية، ولما كان يتمذر نشر الكتاب في تلك السنين أمسكت عن اتمام تأليفه وطبعه ولم يتبع لي ذلك إلا في أواخر سنة ١٣٤٨ م (٣٠ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

كتاب السير بمجال الديار إلى الشيخ محمد بهر

برط سعيد

٢٣ سبتمبر

إلى الشيخ الفاضل الكامل الشيخ محمد عبده أطال الله بقاءه
 الابتهاج بجميل الصنع جزاء تفيض به جامعة الكون على النفوس، كما قامت
 بوظائف الوجود، والحمدة شهادة تبعث ما يكوّن وحدانية الهيئته على بثها متشخصات
 الطبيعة في مشهد العالم، تخليداً للجزء، وتعظيماً للأجر، فلك بجميل صنعك مع
 (العارف) (١) الجزء الأولي. وأنا أحمدك على البر والمعروف أداءاً للشهادة،
 وأشكر صنوك الفاضل الكامل الشيخ عبد الكريم، وأثني على الشابين الأديبين السيد
 إبراهيم اللقاني والشيخ سعد الزغلول (٢) والافندي الكريم الذي أنساني اسمه الزمان،
 وأذكر كلا بالخير في مشهد العالم قياماً بفريضة الشكر على الصنع الجميل والعمل الصالح
 وأنا الآن في (برط سعيد) أذهب إلى لندره - ترسل جواب هذا
 الكتاب إلى إدارة جريدة (الشرق والغرب) أو إلى (مستر باننت)
 إن أخبار العالم وحوادثه كانت انقطعت عني مدة سبعة أشهر، ولذا لا أدري
 مستقر (العارف) الآن. أخبره بسفري. والتفصيل في مكتوب آخر يصلك
 من لندره إن شاء الله

سلم على كل من عرفنا وعرفناه، واعترف بنا وسلمنا له، والسلام
 (حاشيتان)
 جمال الدين الحسيني الاقناني
 تسلم على صاحب النفس الزكية، والهمة العالية، ودوائر رياض باشا أيده الله تعالى
 أرسلت مضمونا (٣) إلى صديقنا الحاج المرزا علي أكبر والغرض درجه في
 الجرائد المصرية بعبارة قصيرة. وأرجو الاهتمام في هذا الأمر لانه ضروري جداً
 البدار البدار

(١) هو عارف أبو تراب خادم السيد الذي جاء معه من بلاد الافغاز وكان
 بقي في مصر بعد تقيده منها وكان السيد يحبه حباً جما ولقبه بالفيلسوف الامي
 (٢) كان السيد كثيراً ما يحكي الاسلام بالالف واللام كما ذكر علماء الاعاجم
 (٣) أي كتاباً أو مقالا مضمونا يعني مسجلاً

جمعية العروة الوثقى السياسية

السرية

كان الاستاذ في تلك الاثناء في سورية ولا أدري ما دار بينهما من المكاتبة بعد وصول السيد إلى لندن ولا تاريخ سفره اليه بالضبط، وأما (جمعية العروة الوثقى) فهي جمعية سياسية سرية قد بينا مقصدها في مقدمة العدد الاول من الجريدة، ولكن لم يطلع أحد على قانون الجمعية الاساسي ولا على اليمين الذي كان يقسمه الأعضاء إلا خواص رجال الجمعية وكلهم من خواص المسلمين

أعلم أن الجريدة كانت ترسل الى كبار العلماء والامراء والزعماء في جميع الاقطار الاسلامية وقد كان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من انجاله ورجاله، وقد وجدت بعض أعدادها في محفوظات والذي ووجدتها كلها عند استاذنا الشيخ حسين الجسر في طرابلس

وانني أذكر هنا ما لم ينشر من تعاليمها ويمينها، ولم يذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى شيئاً عن القانون الاساسي لها، وقد فاتني أن أسأله عنه، وأظن أنه لم يكن مكتوباً لئلا يقع في يد غير أهله

وانما كان الغرض البعيد منها إعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال في العصر الاول، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا، ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم. وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال

وكانت الجمعية مؤلفة من عقود وهذا ما كتبه نائب الرئيس وهو الاستاذ الامام نفسه من الاصول العملية الداخلية للعقد الرابع ونص اليمين الذي كان يحلفه كل من انتظم في عقد من عقودها

﴿ بعض الاصول العملية ، لاعضاء جمعية العروة الوثقى ﴾

العقد الرابع للعروة الوثقى

- (١) ينعقد بثلاثه يسمون اليمين للمعهود
- (٢) مذاكرة المجتمعين عند الالتئام المعتاد تكون في أمور :التذكير بآيات الله - النظر في حالة الاسلام عند بدنه وما كان عليه النبي وخلفاؤه فقط - البحث في السبب الذي امتدت به سطوة الاسلام حتى صال على جميع الاديان وكاد يتلعمها - في زمن قصير - كيف اقلب الحال وآل إلى ما نراه ؟
- (٣) يلاحظ كل باحث أن ذاته في موضوع البحث فيطلب العلة من نفسه قبل أن يطلبها في غيره ، ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة والانصاف
- (٤) مدارس أحكام الجهاد وحقوق المسلم وما هو مكاف به في معاملة غيره وما يفرض عليه إذا زحف الاعداء نخضد شوكة الاسلام
- (٥) النظر في حال المسلمين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم الوقوف على احساسهم الديني ومقدار الداعية الاعتقادية ليعلم الداء ويعالج بالدواء اللائق به .
- (٦) كتب كل فكر وتدوينه مفصلاً ثم مجزئاً مع ما تستقر عليه الآراء
- (٧) العمل في الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المال في مساعدة من يقوم بنصر الدين وحمل السلاح المقاتلة بين يديه عند المسكنة
- (٨) كل واحد من أهل العقد مكاف بالعمل واعداد أسبابه وما لا يتم إلا به ، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به مع الاحتراس التام من كل ما يفيد أن هناك عقداً . والثقة بمريد الانضمام انما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد عليها
- (٩) يكون معظم الاهتمام بضم الصالحين الأمر من ذوي المسكنة على اختلاف طبقاتهم من علماء وأمرأ ورؤساء عشائر وغيرهم . وفريضة

- كل منهم أن يعمل للاسلام فيما خوله الله
- (١٠) في كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد ان مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساوياً . العمل بدل المال والروح ، والاول أقرب الدليلين .
- (١١) على أهل العقد أن يرسلوا رسالاً إلى نواحي الوطن الحالين به وإلى المواطن المستعدة من غيره متى أمكنهم ذلك
- (١٢) لا يكون الشخص رسولا حتى يكون سيرة العقد ملكة راسخة فيه ، ويكون على قدرة كاملة في تصريح القول ، وتوفيق النصيح مع طباع النصوحين وحالة السلطة المعارضة عابهم ، فيكون حكماً في عمله لا يحتاج لوصية من غيره ، ولا لقيم بالاحظ عمله
- (١٣) يسمح للعقد أن يبعث رسالاً من الخارجين عنه على انهم وعاظ يعلمون المعروف من الدين ويؤيدون منطبق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقداً .
- (١٤) على لرسول إن كان من أهل العقد أن يكشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس ، وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته ، وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد .
- (١٥) من استحق باستعداده الدخول في العقد فعليه أن يقدم رسماً مالياً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لا يستطيع أداء على شريطة أن يبذل العالم وسعه في تبين الحق وبثه ، والمعتقد جهده في حمل معتقديه على العمل في مقاعد العقد ، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها
- (١٦) يجتمع أهل العقد في كل أسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه في الفصل الاول وما بعده .

(١٧) يجب على كل واحد أن يؤدي في آخر كل جلسة مقداراً من النقد على حسب استطاعته قليلاً أو كثيراً يدور على الحاضرين من أصغرهم سنّاً بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ما تيسر خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . لا يستثنى من ذلك أحد ويسمى هذا الصندوق صندوق التبرع

(١٨) يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عند من ينتخبه العقد أميناً

(١٩) يودع في ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هذا مال حق التصرف

فيه لعقد الاخلاص تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس)

(٢٠) يستعمل هذا المال في النفقة على محل الاجتماع ولوازمه ، وفي سبيل

نشر المشرّب وإرسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفي إغاثة المقصرين

مما ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه

للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) اما مباشرة أو على يد أحد نوابها

(٢١) يكون للعقد أربعة دفاتر (أحدها) لخصر أسماء رجاله (ثانيها) لأسماء

رساله (ثالثها) لخصر النقد المجتمع (رابعها) لأحصاء النفقات

(٢٢) إذا توفر في الصندوق مبلغ من النقد وافر وأمكن تنميته على وجه شرعي

مأمون الخسارة فعلى أهل العقد أن يديروا أمر نموه

(٢٣) على القائم بضبط الحساب في الإيراد والصرف أن ينهج الطريقة

المهودة في مركز العقد أن يضموا لها نظاماً حسب المعروف في بلادهم

(٢٤) لا يصرف شيء إلا بقرار من أهل العقد يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم

(٢٥) إذا قضت لحوادث بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية وخيف فوات

الفرصة بفوات الوقت واجتيج إلى نفقة تقتضي زيادة عن الوجود وجب

على أهل العقد أن يبذلوا ما في وسعهم لإتمام العمل .

(٢٦) لا يباح لأحد من رجال العقد أن يذكر شيئاً من أحوالهم ومقاصدهم

ومذاكراتهم عند من ليس من مقصده في شيء ، بل لا يباح التصريح

باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحاله عند رجال العقد

- (٢٧) على رجال العقد أن يحمي بعضهم بعضاً ويعين كل منهم باقيةهم بقدر الاستطاعة
- (٢٨) الاستطاعة لا تفسر بالاهواء حتى بعد كل وهم عجزاً وإنما هي المعروفة عند المخلصين التي لا يعدمها الانسان مادام حياً قادراً على الحركة
- (٢٩) اذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئاً فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فعملهم مخابرة من يتولى مواصاتهم فيما يريدون
- (٣٠) انقانون الداخلي للاجتماع يضمه أهل العقد

اليمين التي بحلف المرتبطون به بالعقد

أقسم بالله العالم بالكلية والجزئية ، والجلي والخفي ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجتاحت ، لا أحسن كتاب الله تعالى في أعماله وأخلاقه بلا تأويل ولا تضليل

ولا أجيب داعيه فيما دعا اليه ولا أتقاعد عن تلييته في أمر ولا في نهى ، ولا أدعون لنصرته ، ولا أقوم بها مادمت حياً ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا

أقسم بالله مالك روعي ، ومالي ، القابض على ناصيتي ، المصرف لأحاسيسي ووجداني ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لا أبذل ما في وسعي لأحياء الأخوة الإسلامية ، ولا أنزلها منزلة الأتوة والبنوة الصحيحتين ، ولا أعرفها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم في عقد من عقودها ، ولا راعيتها في غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الاسلام ، فاني أبذل جهدي في إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسي في أثره مثل ما آخذ عليها في المدافعة عن شخصي

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدماً واحداً أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين في شيء يتفق رأي أكثرهم عليه ، وعلي عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلاً وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه

من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسهل أمكاني الوجودي . وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الأمل ، وتأيد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه ، آمين .

النائب

محمد عبده

[المؤلف] من تأمل هذه الأصول وهذه اليمين حق التأمل تجلى له ان كاتبها الداعي اليها المجاهد في سبيل غايتها من أقوى المؤمنين بالله وبما جاء به محمد رسول الله وخاتم النبيين إيماناً ، وأشدّهم في إيمانهم إيقاناً ، وأرسخهم وجداناً ، وألمهم بمقاصد هذا الدين وتاريخه وصلاحه لأمور البشر ، وأعظمهم غيرة عليه وجهاداً في سبيل الله لاعادة مجده ، وتجديد ملكه ، وإحياء شرعه ، وإنقاذ أهله من الذل . . . ومن قرأ مكتوباته قدس الله روحه لبعض العلماء والكبراء من المنتظمين في سلك العقد في الفصل الاول من الباب الخامس من منشأته المصدر أكثرها بكامة شعاره « لا إله إلا وحده لا شريك له وبه الحول والقوة » رأى فيها شرحاً جلياً لهذه الأصول الجالية - وعلم من هذا وذاك ان خدمة الجعم الفقير من كبار علماء الأزهر وغيرهم من المصنفين في العلوم الإسلامية المختلفة منذ عدة قرون للإسلام لتصغر وتتضاءل في جانب خدمة هذا الرجل وأما هذه فان علومهم ومصنفاتهم كانت في العهد الذي تهدم فيه ملك الإسلام وضعفت هدايته ولم يكن لها أقل تأثير في العلم والعمل - لأنها كلها مباحث لفظية ، ومناقشات في عبارات بعض كتب المقلدين ، وليس لأحد منهم فيها كامة تدل على الشعور بذلك ، فضلاً عن الدعوة إلى تداركه ، والجهاد في سبيله . ولو شئنا شرح هذه الأصول وما أدمج فيها من الحكم والعبر لزدنا القاريء إعجاباً بأمر هذين الحكيمين وجهادهما ، ولا تظن أن بين ما في الأصل الثاني من التذكير بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه فقط ، وما في الأصل الثالث من الاعتبار بسيرة السلف ، وما في الأصل الرابع من الإشارة إلى أحكام الفقه - لا تظن أن بين ما ذكر شيئاً من التعارض فان لكل نوع منها غرضاً خاصاً فالاول الاعتبار بنشأة الإسلام وتأسيسه ، وما بعده ظاهر لا يحتاج إلى بيان .

وأتد كان هو ومرشده الحكيم على هذه الخدمة الإسلامية الخاصة يعطيان

للجامعة الشرقية حقها، والرابطة الوطنية حقها، حتى ان الاستاذ دافع عن بطرس باشا على حين طعنت فيه بعض الجرائد المصرية ونسبته الى التعصب للقبط في بعض أعماله وكان الاستاذ يومئذ منفياً في سورية (راجع الجزء الثاني ص ٣٦١ من الطبعة الثانية) وقد كان: السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجامعة الإسلامية وتولية العاملين لكل منهما وجهة من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعترف له بذلك وكذلك الشيخ محمد عبده معه ومن بعده وقد اشتهر على بعض الناس أمر الهمزة الإسلامية في جريدة العروة الوثقى وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فازالوا هذه اشبهة بعبارة نشرت في العدد الثامن الذي صدر في باريس في ١٨ رجب سنة ١٣٠١ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤) وهذا نصها: (العروة الوثقى) لا يظهروه أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحيانا ومدافعنا عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يحاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نميل اليه، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا. ولكن امرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم، والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم المنصرون الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجنيون وأذلوا أهلها أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها. وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب ان شاء الله تعالى هـ

أنشأت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها فقيدها الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى). وانبأني الامير شكيب أرسلان أنه سمع الاستاذ يقول ان الافكار في العروة الوثقى كلها للسيد ليس لي منها فكرة واحدة، و"عبارة كلها ليس للسيد منها كلمة واحدة. وإنني أنشر هنا فائقها وما يليها من بيان منهاجها، ثم أذكر بعده ما كان من تأثيرها ومقاومة الانكاز لها، ثم أبين تلخيص ذلك المنهاج وحضر مقاصده وتطبيق القول والعمل عليه الاسلام والشرق عامة، ومصر والسودان خاصة.

فاتحة العدد الاول من جريدة العروة الوثقى

وبالله بيان منهج الجريدة وخطتها

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى الله التكل ، في نجاح العمل خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها إلا تنفس ثم التوت ، أو غل الأقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيدها الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ، وبغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النذر اليسير ، وهو زعم ياباه القياس بل يبطله البرهان ، فإن تقابلات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسبت تلك العشيرة اسمها ونسبتها ، فلم يجز في زمن من الأزمان أمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه إلى اليوم ، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لا فراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون إلى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها

قوة أجنبية ، أزعمتها ونبتها بعض التنبيه ، فإذا توالى عليها وخزات الحوادث زلزلتها آلامها ، فزعت إلى استبقاء الموجود ، ورد المفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أي سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالتثام أفرادها ، والتحام أحادها ، وإن الإلهام الإلهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ، ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها^(١)

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت إذا كثر عييدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان ، فإذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها ، واستأسد ذنبها ، وتتمر عليها ، وانحسرت خلاصها ، وإن تقدم عند الطلب رشاداً .

ربما تخطئ مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وإن الحركة التي تبعث للدفع مالا يطاق إذا قام بتدبيرها قيم عايتها ومدير سيرها ، لا يكتفي في توقيف سرياتها أو محو آثارها فخر ذلك القيم وإهلاك ذلك المدير ، فإن العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها ، فإن ذهب قيم خلفه آخر وسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالته ، بإزالة علته ورفع أسبابه . جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والعادات والمشارب ، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره ، وإن كانت تستكبره ، وكما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكما ابتعدت منه بحجة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في

(١) أن هذا العلاج لا كبر الاوهام التي أذلت الأمم الكبيرة لاعدد القليل من أصحاب القوة الآلية قد كانت نجوهم هذه ثلاثة الأمم وقد بدأت تعتمد عليه في هذه الأيام ، وإن ما بعده من القواعد الاجتماعية يان لوسائله وشدة الحاجة اليه ، وإزالة الموانع من طريقه

الجنسية والمشرّب، قرى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطار، ألزم من ان تحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا بأخذنا العجب إذا أحسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الأيام؟ كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والافن، وإن العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل^(١)

بلى، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وإن عي عنه الطامع، وليس في الأمر كل اقناع الظالمين بالبرهان، ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في أبنائه ما يجري به القضاء الإلهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

*

بأنجح الجحاف بالشقين غايته، ووصل العدو أن فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم من أنزلوا عن عروشهم جوداء وذوو حقوق في الأمور حرموا حقوقهم ظلماً، وأعزاء باتوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وشححاء أضحووا سقاماً، واسود تحولت انعاماً، ولم تبقى طابقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من افراط الظالمين في اطعامهم، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها

حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، والزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمعة، فكانت الحركة المرافية المشيئة، فتخذوها ذريعة لما كانوا له طامعين، فاندفع بهم سبل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن خطأ الظن وهموا بما لم ينالوا

(١) هذا تنبيه لوجوب تأييد جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يكن يفكر فيه أحد قبله

لم تذكر نحمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلمتها حركة اخرى ، وفتح باب كان مسدوداً ، وقم قائم بدعوة لها المكانة الاولى في نفوس المسلمين ، بل هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة ، وربما يوجد من يدري ان مسببها في حيرة من تلافيا ، نعم انهم غرسوا غرساً إلا انهم سيجنون او هم الآن يجنون منه حنظلاً ، ويضعمون منه زقوما . لاجرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغافل في حرصه ، ولو انهم تركوا الامر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعتهم ، او اقتناء فائدتهم ، لحفظوا بذلك مصالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تنزل لهم قدم ، أو ينكس لهم علم غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الالهواء وهو أنفذ عوامهم وأقتلها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب . وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الامة وعوفي منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية المصابين ، وحجاب غفلة المسلمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون إلى ما فيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

*

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية ان الخطر الذي ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، وإن تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نفاراً ، وما هذا بغريب على المسلمين ،

فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

إن الفجعية بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجدت أحزاننا لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم من تذكّار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا ، بل نفيراً عاماً ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمّه الطمع

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته إلا المداواة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها مائتد إليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متقاربة الاشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقى مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر ، وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حنقت خنقت ، وليس له أن يفتر بعدم مكنتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لاتموزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شديداً البأس يساعدهم بما يلزمهم اتروج سياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوته أسلم أو عطاب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهممات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكثير^(١) الممتد من مصر الى مكة ، ومن مكة الى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

(١) الكريـر صوت في الصدر كهـوت المحتق أو المجهود وقد استعارها هذا المراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسن موقفاً وأشد تأثيراً فيه من هذه الكلمة وهي من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كالركبات لكن عند وقوعها في التركيب

إن الرزايا الأخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جذدت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بمحدودها، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الحق وعال الضعف ، راجين أن يترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وإن في الحاضر منها لهزة تفتنهم ، وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ، واثن فانت على فكم في الغيب من مثلها ، وإلى الله عاقبة الأمور .

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كامة الحق في كل صقع ، لا ينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته .

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يصارعهم في مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكدية مع الذين يتعلمون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ، ومناط اليقين ، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام ، يجتمع إليه الشرقي والغربي ، ويتآخى في مواقعها الظاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد إليها أفكارهم ثم تنبث إلى مآثر الجهات ، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .

*

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب إلى الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نقطة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم في هذه الايام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم .

الى الاقطار القاصية ، تنبيهاً للعافل ، وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسيني الافغانى أن ينشئ تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ماحمل الاول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الاحوال .

الجريدة ومنهجها

ستأتي في خدمة الشرفيين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت

ويستنبع ذلك البحث في أصول الاسباب ومناشئ الملل التي قصرت بهم الى جانب التفريط ، والبواعث التي دفعت بهم الى مهام حيرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب ، وتاه فيها الخريث^(١) وضل المرشد ، حتى لا يدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة ، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القاتلة وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام الترفين ، ولبست عليهم مسائل الرشدة ، وتزيح الوسوس التي أخذت بعقول النعمين ، حتى أورتهم اليأس من مداواة آلائهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وأن العلة بلغت حدها

وتحاول إشراب الافهام أن لا حاجة في الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة الى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط المزاج . وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عن المألوف وهو تحت الجناح . يكفي في الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة . وأن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض

(١) الخريت بكسر الحاء المعجمة وتشديد الراء الدليل الحاذق بخرت الارض

وهو معرفة طرقها ومضايقتها

الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها ^(١) ولا ضرورة في إيجاد النعمة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جملها وسلمها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للشرقي في بدايته ، أن يقف موقف الأوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أقر نفسه وأتمته وقرأ أعجزها وأعوزها وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لا ابتلاع الضعيف . وتجميل إهاب الوداد المرقش بألوان الملائكة ، المدبج بأشكال الجمالة ، شفافاً ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الطامعون في دياجير الغفلات ونهتهم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي بوجهها اليهم من لا خبر له بمحالمهم ولا وقوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ماداموا على أصولهم التي فازبها آباؤهم الأولون ولا تبين في تبليغ الشرقيين ما يحسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القوية التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والحاملين عليها ، لا تظهر إذا أدجوا ، ولا تتجد إذا أغرروا . وتذهب مذاهب الرشد . وتصيب بحول الله مواقعها عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجئنا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل اليها اسمه فما عليه إلا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذي يريده والله الموفق اهـ

(١) ريد الدولة الروسية التي جرت كذا شهورها وغبت بجعلهم أمة حرة مسالمة بأحدث آلات القتال وأخذة بأحدث نظمه كما هو مبين في مقالة أخرى (م ٣٨ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

دعاب الانكليز من العروة الوثقى ومقاومة هم لها

لما استقرت قدم السيد جمال الدين في مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وأنشأ يربي التلاميذ والمريدين لاعدادهم للعمل السياسي الذي هو غرضه من الحياة كان من أول ما نشره في جريدة مصر التي أنشأها بعض مريديه من السوريين مقالات عنوانها البيان، في الانكليز والافغان اوصف فيها قومه الافغانيين بقوله : « هذه الامة المعروفة بعزة النفس ، وشدة البأس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الحضجر (١) المبلى بجوع البقر والاستسقاء ، الذي لم يشبعه ابتلاع ماتي مايون من النفوس (٢) ولم تروه مياه الكنج والتمس ، بل فغر فدايلتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل ونهر جيحون اهـ

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الانكليزية وأظهرت الاعجاب به وبها وردت عليها كما تقدم تفصيله في ترجمته من هذا الكتاب فكان أول كاتب شرقي اهتمت الجرائد الانكليزية بكلامه

ولما عزم على نشر جريدة العروة الوثقى في باريس كان قد اشتهر أمره عند ساسة الانكليز بما كان له من الاثر النعل في السياسة المصرية في آخر مدة اسماعيل باشا حتى كان قضايتهم الجنرال هو الذي أغرى توفيق باشا باخراجه من مصر بعد أن كان من مريديه - وحتى ان حكومة الهند حجرت عليه في كالكته مدة اربعة اراية وحجبت عنه اخبارها كما تقدم ايضا

لهذا كله حسب الانكليز اجريده كل حساب وجهه بعض ساستهم بتحريض حكومتهم عليها قبل صدور شيء منها كما بينته في العدد الخامس الذي صدر في ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ (١٠ ابريل سنة ١٧٨٤) وهذا نصه :

(١) الحضجر كبرق ففج الواح الرطان وهو من اسماء الضع

(٢) يعني اهل الهند وكان هذا إحصاءهم في ذلك الوقت واما الآن فهم ٣٢٠

مايونا او يزيدون

الجراند الانكليزية والعروة الوثقى

لو نادينا الغافلين أن انتبهوا . والنائمين أن استيقظوا . واللاهين بحظوظهم أو أمانهم أو أوهامهم ان التفتوا ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت أقدامهم في ديارهم ، لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم . بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم - لقال الناس اننا نبالغ في الانذار ونغرق في التحذير . ولو بينا لهم أن الانكليز يؤخذون الابناء . بذنوب الآباء ، والاحفاد بجرائم الاجداد ، ويطالبون الذراري بدفائن اسلافهم - وان لم يكن لخلف علم بما ترك السلف - اعدوا هذا البيان مناشطاً في المقال ، وميلاً عن الاعتدال ولو روينا لهم أن في قلوب الانكليز حقداً وضغينة على كل إيراني سواء كان من الافراد أو الوجوه ، ويسيدون معاملتهم حينما وجدوا من بلاد الهند ، ويمقتونهم مقتاً شديداً لأن نادر شاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاجأ على عهد السلطنة التيمورية ، واستولى على خزائن الاموال في دهلي ، وأخذها إلى بلاده قبل استيلاء الانكليز على تلك المملكة بما ينيف عن قرن . ويعضون الانامل من الغيظ ويحرقون الأرم من الاسف على ما أخذه نادر من أموال دهلي ، وحرمانهم من تلك الاموال ، ويحملون هذا الوزر على عاتق كل إيراني - لحسبوا ذلك منا تغاليا .

واو قصصنا عليهم ما يامل به الانكليز رعاياهم في الهند عموماً والمسلمين خصوصاً ، وأنه يكفي لنفي عالم من علماء المسلمين إلى جزائر (اندومان) أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات من القرآن - لانكروا علينا ما نقول ، لبعدهم عن تلك الاقطار وعدم وقوفهم على أحوالها . ولسنا الآن بصدد اقناع المصريين بما نعلم من أحوال الانكليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من أحكام ساحتهم ، فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقص . ولكن نعرض عليهم نموذجاً من المعاملة لعله يكون للمتبحرين مرآة تحكي ما يغيب عنهم من لوازم السلطنة الانكليزية

عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنسية . فكتبوا عنها قبل صدورها ، غير مبينين لمشربيها ، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها . فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدة ، واحتدمت فيهم نار الحمية ، وانذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الانكليز ونفوذها في البلاد الشرقية . ولجوا في إغرائها بها ، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية . بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها . كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسي . مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لاثارة الخواطر ، ولا لايقاد الفتن ، وانما أنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما ، والمسلمين خصوصا . وتنبية أفكار بعض الغافلين منهم . لا فيه خير لهم . ولقد صدرت سالككة جادة الاعتدال ، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل ، كما يظهر لكل من اطلع عليها .

فليعتبر المعتبرون بهذا الاجحاف . والاعتداء والقصاص قبل الجزاية ، ومن كان سمندلي الطبع فليهنأ له العيش (في ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب *) ولكن فلنعلم الحكومة الانكليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة او بوسيلة أخرى إذا دعا الحل . فان أنصار الحق كثيرون . اهـ [المؤلف] قوله سمندلي الطبع في الاصل سمندزي بالراء وهو محرف ، والسمندلي نسبة الى السمندل (كسمر جل) وهو كما قال في القاموس : طائر في الهند لا يحترق بالنار . وهذه استعارة والمراد ان من كان لا يشعر بألم نار الذل والامتهان بان كانت طبيعته النفسية كالطبيعة السمندل الجسدية الذي لا يألم من مس النار فليهنأ له العيش في ظل الاجنبي الذي يشبه ظل محمود جهنم الذي وصفه الله تعالى بقوله للمجرمين (انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب) الخ

فاذا كان هذا شأن خوف الانكليز منها قبل صدورها فهل يستغرب من الحكومة البريطانية بعده أن تمنع دخولها في مصر والهند ؟ وهذا ماورد في مع الحكومة المصرية لها في العدد التاسع الذي صدر في ٢٥ رجب ١٣٠٢ (٢٢ مايو *)

العروة الوثقى

انعم قد مجاس النظار المصري في القاهرة واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاصياً عليها بان تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الاقطار المصرية، وتراقب جولانها في تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة في ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الاوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مائة من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا اليها عسر المالية المصرية بركة تصرف الانكاي في مصر) أما نحن فلا نغان أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوي على كرسي الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الحكم، ولا يحتاج في صدورنا أن مصر يا من أي مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم بل ولا شرقياً ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل

هذه جريدة قامت بالدفع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولما سعي بل كل الميحية آمال أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا نقدح في عمرو، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا، وانما عملها سكب مياه النصيح على لب الضغائن لتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد، تلتبس من أبناء الامم الشرقية أن يلتقوا سلاح التنازع بينهم، يأخذوا أحذرهم وأسلحتهم لدفع انضواري التي فقرت أفواهها لتهامهم ومن رأبها أن الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الامن من طروق الناهب هذا منهاج العروة الوثقى على كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم أن حركات الآمرين في القطر المصري هذه الايام قهرية لا يختارها شيء من الاختيار، والمدير لرحى القهر عاينهم هم عمال الانكاي

ولا نريد أن نقول للانكاي إنهم ظلموا في هذا الحكم فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والاجنبية من كشف مساوئهم، وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم . لانهم الانكاي الذين إذا

أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه الى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله اليه يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير الى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو اليه، ويسأله هل أنت معتمد بهذه الآية أو الحديث ؟ فإذا قال نعم قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا . فإذا أجابه بأنني درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لانه كتاب ديني، ضرب له الضابط أجل أربعة ايام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث ، فان مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بارسال تحريجه وتبديله وخروجه عن دينه الى مطبعة من المطابع ليطلع وينشر - بعثت به الحكومة الى جزيرة (أندومان) نفيًا مؤبدًا . ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأشكال هؤلاء المظلومين فدولة الانكليز التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم ، وما يمكن أن يهجم في حديث نفوسهم ، لا ريب اننا نعد وجود لفظ الاسلام في جريدة كافية لمنعها عن الدخول الى بلادها فيه قدم ثابت، أو تسعى في تثبيته، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصاً علق عليه هذا الاسم من أي جنس كان . فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلم لها أن هم الرجال لا قطعها أمثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا ادخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها الساحة الانجليزية الظالمة ، ذلك بمزاعم أولي العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى باننا أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويشحذ سناناًه لمناضلة الولي الحميم ، ويقابل ثوبه بالدم ، ومدحه بالقدح ، واحسانه بالاسدة ، ويواجه نصيحته بالظنة . ولا نظن أن هذا من عن عمد ولا اغراء عدو ، وانما هو شبهة حجبته نظره عن درك الحقيقة فإذا كشفت له الايام عن الواقع رجع الى الندم على ما صدر منه ، وكانت له مثابة الى الحق وركون الى الصواب لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى عن دخول القطر المصري وإيعاموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها في هذا المنع ، فان حكومة شرقية لا تسمح لها غير أن يمنع جريدة لاشي ، فيها سوى الدفوع عن الشرقيين ، وانما منشؤه حكومة الخبايا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها . إله

تأثير العروة الوثقى في العالم الاسلامي

انني لا ازال أتذكر أنه كان بدارنا في القلمون بجوار طرابلس الشام (في سنة ١٣٠٢) ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العراقية فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء فآخذها الاستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي المشهور، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت البترول، وأنشأ يقرأها بصوت جهوري كأنه خطيب، وإنما كان يقف عند بعض الجمل، ليعبر عما يخجله من شعور العجب، ولم يتركها حتى أتى على آخرها، ولم أكن في ذلك الوقت أعنى بشيء مثل هذا بل كانت تلك السنة هي السنة الثانية لاشتغالي بطلب العلم.

ثم انني رأيت في محفوظات والذي بعض نسخ الجريدة فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال، والحرارة والاشتعال، ما قدف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال، وقد سبق لي وصف تأثير الجريدة في نفسي بوجه الاجمال (١) وإنما كان الاثر الاعظم لتلك المقالات الاصلاحية الاسلامية، ويليها تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية، والذي علمته من نفسي بالخبر ومن غيري بالخبر ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب، والافئاع من العقل، ولا حد للبلاغة إلا هذا

وكأن هذا التأثير هو الذي أوحى إلى صديقنا الامير شكيب أرسلان قوله في مدح السيد جمال الدين الذي أفاض الله تعالى حكماً على جنانه

ومعان لو أوحيت لجمال هذه الشوق نحوها والغرام

حيرت كل ذي حصة إلى أن قيل لاشك انها إلهام

وقوله في كلام الشيخ محمد عبده الذي أبرزها باجمل الحلي والحلل من بيانه

كلام إذا ألقيته في جماعة غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب يذوق
عليه من النور الالهي مسحة تكاد على أرجائه تتألق
كذلك كان تأثيرها في نفس كل من كان يطالع عليها ، وناهيك بالمطالعين
عليها في زمن صدورها ،

ذلك بانها قد تجلت فيها تلك الأفكار الجمالية السامية ، بتلك العبارات العبدية العالمية ،
وجمعت بين الحكمة ونصل الخطاب ، والاخلاص في تحري الحق ، ومخاطبة القلب
للقلب ، فلا غرو أن يكون لها ما علمنا من عجب التأثير ، الذي لم يعهد له بعد ما كان من
تأثير القرآن في العصر الاول نظير ، وانما كان تأثيرها مستمداً من تأثير القرآن ،
فهي قد أحيت تدبره والجهاد به ، والدعوة اليه والدعوة به ، والمعاني الاجتماعية
والسياسية من تفسيره ، فكان قارئها يشمر بالروح الملوي الذي كان يفيض من نور
على ذينك القمرين النيرين ، وينعكس من فلكهما على العالم الاسلامي فيحدث فيه من
قوة التأثير ما كان يجزم أهل الرأي في الاقطار المختلفة بانه سيحدث ثورة اسلامية
قريبة في العالم يعقبه انقلاب عظيم في الشرق

سمعت أستاذنا الشيخ حسينا الجسر عالم سوربة الوحيد في الجمع بين العلوم
الاسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية يقول : ما كان أحد يشك في أن جريدة
العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الاسلامي لو طال عليها الزمان

وسمعت محمد بك علي المؤيد يقول كنت في بغداد في عهد صدور العروة الوثقى
وكانت ترسل إلى الزعيم العربي الاكبر في العراق السيد سلمان الكيلاني نقيب ائمة
الاشراف وكان يقول كلما جاء عدد منها يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذ
الجريدة قبل أن يجي العدد الذي بعد هذا . وكان السيد سلمان من زعماء المسلمين
أصحاب النفوذ الكبير في قبائل العراق المسلحة التي لم تكن تخضع للدولة العثمانية -
وأما نفوذه الروحي في الملايين من مسلمي الهند فهو يشبه العبادة أو هو ضرب منها .

وانما أعد القلوب لذلك التأثير سوء وقع احتلال الانكليز لمصر والامل
بانقاذها منه بسعي هذين الزعيمين الحكيمين ، فلا غرو أن يكون لذلك الزمان -
ولاختيار ذلك المكان ، وامتلاك الآمال والآلام ، من السلطان الروحاني على ذينك

المعاقين المالكين ، والقلبين المحاصين ، ما تجلى نوره في سراج العروة الوثقى وانعكس عنها على الشرق ، فأضاء ما فيه من ظلمات بعضها فوق بعض ، وظلمة الجهل بالقرآن ، والجهل بتاريخ الاسلام ، وظلمة استبداد الحكام ، وظلمة فساد الاخلاق العام ، ولقد عاد المسلمون بعدها يتسكعون في تلك الظلمات الحالكة ، وتلك المصايح بين أيديهم ينظرون اليها ولا يبصرونها ، فاني لهم الاستضاءة بنورها ؟

وقد رأينا الكل من هذين الحكيمين مقالات كتبها بعد ذلك فلم نر لها من الروعة والدهشة والسلطان على الارواح ما لمقالات العروة الوثقى ، بل قال لي الاستاذ الامام نفسه : اني لا أستطيع الآن أن أكتب مثله ، وعلم ذلك بما أشرت اليه من تأثير الزمان والمكان والحل والانفعال والآمل ولوعادت تلك المؤثرات لتكتب ما هو أبلغ منها ، لانه قد ازداد علماء وإيماناً وبياناً ، ألم تر كيف كن ما كتبه من افصول في آخر رسالة التوحيد من ذلك الطراز المبقر ، والالهام الالهي ، ولو أن موضوعاً اعتقادي لاعلمي ، وسبب ذلك أنه كتبها في حالة وجدانية استوائت على النفس ، فجذبتها من عالم الحس الى عالم القدس . زرتة رحمه الله تعالى في ضحوة يوم من أيام رمضان سنة ١٣١٥ بداره التي كانت بحي الناصرية فقيل لي انه موعوك لم ينزل من سريره . قلت أخبروه بمجيئي فأخبروه فاذن لي فسأله عن شكاته فقل انني أطلت الفكر ليلاً في حال المسلمين وما أصابهم من الشقاء بترك دينهم فإورتني آلام عصبية يعتادني مثلها كلما أطلت الفكر في هذا الامر ، حتى خدر في بالي أن أنزل من الدار وأذهب إلى مجامع لهم وفسقهم العامة في حي الازبكية وأصبح بهم : أيها الناس ما ذارأيتم في دينكم .. حتى تركتموه ؟ نعم انني لم أجد نفسي أسعافاً يسكن الالم إلا الكتابة فكتبت هذا الفصل الملحق برسالة التوحيد ، « انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ » وما يليه من الايراد والجواب عنه

(١) اني لا عجب لغفلة معلمي الانشاء في مدرسة دارالعلوم وغيرها من المدارس العالية ، كيف لا يلقنون الطلاب هذه المقالات ، ولا يرشدونهم إلى مطالعة غيرها مما اودعناه جزء المنشآت ، ثم يزول عجبى بتذكر إحاطة هذه الظلمات وكان بعض من أنار الله بصيرتهم من أساتذة مدرسة المعلمين العليا قد طالبوا من وزارة المعارف تقرير هذا الجزء لمطالعة الطلبة فيها فقررته ، ثم طلب غيرهم أن تستبدل به كتاب مقامات الحريري فاستبدلته !!! وانما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

مقاصد العروة الوثقى

الموضوعات التي تنحصر فيها مقاصد العروة الوثقى أربعة : الجامعة الاسلامية ،
الرابطه الشرقيه ، المسأله المصريه ، المسأله السودانية ، والرابطه الشرقيه مرتبطة
بالجامعة الاسلامية في مذهبها ، فليس فيها فصول خاصة ، بها وقلم . تخلو مقالة في الجامعة
الاسلامية من ذكرها ، ووجوب الجمع بينهما . وكذلك المسأله السودانية مع المسأله
المصريه إذا السودان جزء من المملكه المصريه . ولكن كان للحكيمين سياسة خاصة
بالسودان سيأتي بيانها وانني ألخص مذهبها في هذه المسائل اثلاث

الجامعة الاسلامية

كان الغرض منها إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الاسلام الاولى إلى
وحدته ، وسيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين في اقامته وتأسيس حكومته ،
وسيرة السلف الصالحين في هدايته . وسيرة القواد الفاضلين في تشييد صروح سيادته ،
ومذاهب الأئمة المجتهدين أي طرقهم العلمية الاستقلالية في تدوين شريعته ، ومناهج
الحكام والفنانين في تكوين حضارته ، وتوجيه جميع شعوبهم إلى استقلال بلادهم واتحادها
وتعاونها على إحياء مجدده ، بترك تعصبات المذاهب والجنسيات المفرقة لكامة أهله

واما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية أن
يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم أره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيره
مما كان يرويه عنه الاستاذ الامام وهو أعلم الناس بمقاصده وأعماله ، بل قال في
المقالة التي وضعناها عنوان (الوحدة الاسلامية) التي نشرت في العدد التاسع
من العروة الوثقى « لا أتمس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخص
واحداً فإن هذا ربما كان عسيراً . ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم
القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ما سلكه يسعى بجهد له حفظ
الاخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقاءه ، ألا إن هذا بعد كونه

أساساً لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات اهـ (راجع
المقالة في ص ٢٧٦ من الجزء الثاني - الطبعة الثانية)

وضرب لهم في المقالة التي أنشأها لدعوة الايرانيين والافغان للاتفاق
والاتحاد مثلاً الشعوب الجرمانية الذين كانوا مختلفين في النصرانية على نحو
من اختلافهما وقال : فما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية
ظهر الضعف في الامة الالمانية وكثرت غايبات جيرانها ولم يكن لها كلمة
في سياسة أوربة . وعند ما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية ،
وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة ، رجع اليهم من اقوة والشوكة ما صاروا
به حكام اوربا ويدهم ميزان سياستها اهـ (راجع ص ٣١٦ ج ٢ طبعة ثانية)

والظاهر أنه كان يكتفي بالوحدة الدينية وتجديد الاصلاح الاسلامي المدني
والحربي في كل شعب له دولة او تصير له دولة ، وعقد المحالفات بين هذه الدول
(كالترك والفرس والافغان في ذلك الوقت) ثم الاعتراف لاقواهن برياسة
الحلف بتمثيله للخلافة الاسلامية ، كجعل الدول الالمانية ملك بروسية امبراطورا
للمملكة وعاصمتهم مركز الوحدة العامة ، مع بقاء كل دولة مستقلة بنفسها في بلادها
أنشأ لهذا الغرض بضع عشرة مقالة صدر أكثرها بآيات من اقرآن وأقلها
بحديث أو عنوان يناسب موضوعها ، ولم يضع لأكثرها عناوين غير هذه الايات
وقد نشرناها ومقالات أخرى أدبية واجتماعية في الفصل الثالث من الجزء الثاني
(منشآت الاستاذ الامام) وجعلناها عناوين تليق بها

وأرى أنه لا يتم لقاريء هذا التاريخ ما كان الحكيمان يريدان من فكرة الجامعة
الاسلامية والاصلاح الديني إلا بقراءة تلك المقالات ، التي نشرناها في الفصل الثالث
من جزء المنشآت ، وحسبي هنا أن أصف بعضها ، وأذكر بعض الشواهد منها .

مقالة (١)

الجنسية والديانة الإسلامية

بدئت هذه المقالة ببيان ضاف في عصبية الجنس ونعوته ومكانتها في الأمم ، والحاجة اليها في الاجتماع ، ونجاوز الناس حد الحاجة فيها إلى الانفة من سلطان المخالف في الجنس وان كان عادلا مصلحا ، لان في قبول حكمه مهانة وذلا ، واستثنى من هذه الضرورة للعصبية الجنسية ما تزول به قائدها ، بوجود عصبية أعلى وأنفع وأعم وأشمل منها ، وهي العصبية الدينية ، ووصف سلطانها على النفس ، وأثرها في الوجدان والحس ، وضرب لها عصبية الدين الاسلامي مثالا وبين حال المسلمين فيها ، وعملها بما ينقض دعوى بعض ملاحدة هذا الوقت أن الاسلام رابطة روحية ، ليس له تشريع ولا سياسة مدنية اجتماعية ، وفيه بيان قاعدته في السطة العليا وهي الخلافة فقال : « لان الدين الاسلامي لم تكن أصوله قصيرة على دعوة الخلق إلى الحق ، ولا ملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق عليها وجزئيتها ، وتحديد السلطة الوازنة التي تقوم بتنفيذ الشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعا لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس او قبيلة او قوة بدنية ، او ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والتقدرة على تنفيذها ، ورضاء الأمة ، فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم الالهية المقدسة التي لا يميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عليهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها »

ثم استدلل على ما ذكره بشيء من الكتاب والسنة ، وذكر جريان المسلمين على ذلك في القرون الخالية ، واستقامة أمورهم باستقامة الوازعين فيهم على ما ذكر واختمها بالخاله ، ومنه قوله :

« وكما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في إبهته ورفاهة مديشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد ، رجعت الاجناس إلى تمصبها ، ووقع الاختلاف ، وانقبضت سلطة ذلك الوازع »

(ثم انتقل من هذه المقدمات إلى المقصد الاسمي ، وهو تأسيس حكومة اسلامية تكون مركز الجاذبية العامة للوحدة فقل) :

« ان المسلمين اختصوا من بين سائر ارباب الاديان بالتأثر والاسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها ، ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية واثابر على رعايتها ، وأخذ الدماء بمحدودها ، وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها ، وتجنّب عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لا يمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بآرباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك أتعاباً ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهره الدول العظيمة ، ولا مداخله أعوان المدن وأنصار الحرية ، ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية . ومن سيره هذا تذبعت القوة ، وتتجدد الوازم المنعة » ثم ختم المقالة ببيان ما يخالف هذا المقصد فقال

« ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب ان بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكاهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فياجئون للدخول تحت سلطة أجنبية ، على ان الندم يأخذ بأرواحهم عند اول خطوة يخطونها في هذا الطريق ، فتألمهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالآلم رجع واسترجع . وان بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية ، وانحرافهم عن منهاج اسلافهم الاقدمين ، فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا

« فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض إلا قليل من الزمان الا وقد أتاهم الله بسطة في الملك والحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين، وفقنا الله للسداد وهدانا طريق الرشاد » اهـ

مقالة

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها (١)

مقالة طويلة تزيد مطورها على ٢٣٠ سطراً ، تزين ٩ ص ونيفاً ، افتتحها بآية (سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن نجد لسنة الله تبديلاً) ثم قال « أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عواء العدم ، فإذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشا كل ، نمت فيها افنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الحكمة ، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا مساعدة لها إلا بانتهاج منهجها ، وورود شريعته ، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات ، كأنها للعالم روح مدبر ، وهو لها بدن عامل

« وبعد هذا كله وهي بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الالهواء ، وانشتت العصا ، وتبدت ما كان مجتمعاً ، وانحل ما كان منعقداً ، وانفصمت عرى التماون ، وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها . ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية »

وأخذ بعد هذا في وصف حال هؤلاء الافراد الذين فقدوا السلك الذي به كانوا أمة في حياتهم الفردية وما فعلت بهم قناعة البهم ، وما حشا أدمعتهم من جهالة الوهم ، حتى حاق بهم انقنوط واليأس ، فسلك أعناقهم في سلاسل الجبن وحبس أرجلهم في مقاطر العجز ، وغل أيديهم عن العمل ، وأقدامهم عن السعي ، ثم قل « نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذات ، وصحت ثم مرضت ، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وأسفاه ! ما أصعب الداء ! وما أعز الدواء ! وما أقل العارفين بطرق العلاج ! » ثم طفق يتسأل عن الدواء وطرق العلاج :

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفرق إلا لان كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ! لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أرضائه اتصالاً به ، ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظن أنها من شؤون نفسه » كيف تبعث الهمم بعد موتها - وما ماتت إلا بعد ما سكنت زماناً غير قصير إلى ما ليس من معاليها ؟ هل من السهل رد الثائرة إلى الصراط المستقيم - وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه ؟ خصوصاً بعد ما استدير المقصد ، وفي كل خطوة ، يظن أنه على مقربة من الخطوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المتهيج باحلامه ، وفي أذنيه وقر ، وفي ملامسه خدر ؟ هل من صيحة تقرر قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحائها ، وتتناهى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها ؟

« هل من نبأة تجمع أهواء المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل وران غين وخيل لا اعتول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعرة ؟ أيم الله أنه لشيء عسير يعيا في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير

(وههنا أخذ يبحث في حقيقة الدواء ومرض الأمة والفرق بينه وبين معالجة مرض الافراد الجدي ويستعرض الآراء في ذلك ، ومنها ذهب بعض الناس إلى فائدة الجرائد ، وآخرين إلى الاعتماد على إنشاء المدارس على نحو مما في أوربة ويبحث في كل منها من حيث الامكان والاتقان ومسألة الزمان ووضع تلك العلوم الغربية في مواضعها على الوجه الموصول إلى مقاصدها مع مراعاة استعداد الأمة وطبائعها)

وضرب المثل لقلّة غنائها في ذلك بما في مصر والدولة العثمانية منها وما كان من سوء تأثيرها في توسيع مسافة التفرق والانقسام وتبديد بقايا الالتئام وجعل النوافذ والخصاص في بنيان الامة أبواباً « لتدخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأممهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير » (وانتقل من ذلك إلى وصف المتخرجين في هذه المدارس المصرية والعثمانية الذين أضعفوا الامة بدلا من أن تنال بهم من المنعة والقوة ما يرد عنها الطامعين فيها خاسئين ، وتهكم بما يتفقهون به من ألفاظ الحرية والوطنية ، وسخر بما يفخرون به من الاسراف في الافراق والزينة محاكاة للاجانب في بداية تقليدهم لهم بما هو ثمرة ونهاية لعلومهم وفنونهم لا وسيلة لها ، وأشار إلى مانسفوا بذلك من ثروة بلادهم إلى غيرها وما أمتأتوا من الصناعات الوطنية وأبادوا من أهلها ونعت هذا التقليد السيئ ، التأثير بانه « جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هكذا إلا لان تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها » ومما قاله في هؤلاء المتفرنجين المقلدين :

وصف المتفرنجين المقلدين

« علمتنا التجارب ، ونطقنا مواضي الحوادث ، بان المقلدين من كل أمة المستحلين أطوار غيرها ، يكرنون فيها منافذ وكرى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوسوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واعتقاد من ليس على مثلم ، شؤما على أبناء أممهم - يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهيئون بجميع أعمالهم ، وإن جلت - إلى أن قال - وبصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات ، يهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا غيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم »

(وهنا ذكر أنه لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ماتغلب الانكليز على بعض أراضيها (حتى عاصمتها) لما بارحوها إلى أبد

«لآ بدین ء لأن الاجانب ما طرقوا أرضاً لأية أمة إلا أقبل هؤلاء المتعلمون عليهم
يعرضون أنفسهم لخدمتهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم ويعدون الغلبة
الاجنبية مباركة عليهم وعلى أعقابهم»

(ثم أجمل ما فصله من تنفيذ ما قيل من علاج هذه الامة وانتقل منه إلى العلاج
الصحيح الذي قال فيه إنه سبب يجمع كل الاسباب ووسيلة تحيط بجميع الوسائل
وحصر ذلك فيما أشار اليه في أول المقالة من حياة هذه الامة وقوتها وعزتها في
نشأتها الأولى فكان ذلك شرحاً لقول الامام مالك : لا يصلح آخر هذه الامة
إلا بما صلح به أولها .

مقالة

النصرانية والاسلام والمقابلة بينهما في طلب السيادة والسلطان

والقوة العسكرية والتنظيم (١)

عنوان هذه المقالة (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)
ويليه مقدمة فلسفية في «خلق الله الانسان عالماً صناعياً» في أطواره المعاشية والعلمية
والادبية والاجتماعية، ليس فيه من تأثير الطبيعة في شخصه ولا فيما يحيط به إلا ما يكون في
الاستعداد والاقابلية فكل ما يناله من علم وعمل «فهو ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو
مصنوع يتبع مصنوعاً - فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي» ثم انتقل إلى
مكان الدين من نوع الانسان وما له من الكسب فيه فقال

«هذا ما لا يرتاب فيه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا أن
الاعمال البدنية إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية؟ وأن الروح هي
السلطان القاهر على البدن؟ أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير لأنه مما لا يعزب عن

(١) نشرت في العدد الرابع بتاريخ ٧ جمادى الآخرة

الأذهان ، إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن أن منكرًا يجحدها :

« إن الدين وضع إلهي ومعلمه والداعي إليه البشر تتلقاه العقول عن البشرين المنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الأولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والأرادات فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها وكأنما الإنسان في نشأته لوح صقيل وأول ما يخطط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات حتى تبقى طبيعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال » بعد هذا شرع في الموضوع « وهو الملة النصرانية والملة الإسلامية » فأثبت أن الأولى بنيت على المساومة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت باطراح الملك والسلطة ونبت الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية وكذا الدينية الخ وأشار إلى بعض الشواهد على ذلك من الإنجيل وانتقل منه إلى التعجب أو التعجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي في المفاخرة بزيينة هذه الحياة واستيفاء لذاتها والمصارعة إلى افتتاح الممالك والمسابقة إلى اختراع آلات الحرب والتوسع في فنونها والمبالغة في تنظيم الجيوش وسوقها إلى ميادين القتال « حتى صار الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها ، وإن أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات إلى غيرها » (وقفي على ذلك بالكلام في طبيعة الديانة الإسلامية فقال)

« الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبت كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب

الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لاربية فيه بان المعتقدين بها لابد أن يكونوا اول امة حرية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القتالة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها « ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أيقن ان من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه. » (ثم انتقل من بيان هذه الاصول الى بيان حال المتتمين إلى هذه الديانة في هذا العصر من بها ونهم بالقوة وعدم عنايتهم بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع آلاته، ودهشته من اضطرارهم إلى تقليد اولى الديانة السلمية فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وبنى على ذلك أسئلة كثيرة نذكر بعضها)

« لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسيا ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطاب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، او ألقى شيء منها في أمانى معلمهم وناشري شريعتهم، عند ما يتربعون في محافل دروسهم ؟

« هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح ؟ او وجد الارواح دبير سوى الفكر والخيال ؟ او انفقت الافكار من سلطة الدين ؟ او تعاصت النفوس على الانتقاش بنقشته وهو اول حاكم عليها واقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العال عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟ »

(وهنا فند نسبة هذا التباين الى اختلاف الاجناس او طبائع البلدان، واحتج

عليه بما حفظه التاريخ للعرب والفرس والترك عند ما كانوا في شبيبة دينهم من الاعمال العسكرية التي ادهشت الالباب) ثم قال

« كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها ، وذكر ملكهم صرحم (انكايزي) في تاريخ فارس ان محمود الفزنوي كان يحارب وثنى الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها

» فأني عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن من قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرجهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن أنه لا بد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكننا نجمل على ما شرطنا »
أجاب عن الاول بما تلخصه في القضايا الأربع الآتية

(١) ان الدين المسيحي انما نشره في أوروبا أبناء الرومانين الذين ورتوا ملكات الحرب والقتال عن آباءهم فجاء مسالماً لعاداتهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقه الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم شيئاً مما ورثوه عن أسلافهم

(٢) ان صحف الانجيل الداعية إلى السلامة والسلام لم تكن مما يتناوله الناس كافة ، بل كانت مذخورة عن الرؤساء الروحانيين

(٣) ان الاحبار الرومانين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا لقومهم حرب الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعتائد الدينية وجرت منها مجرى الاصول

(٤) ان هذه الحرب أعقبهم زعزعة في العقائد المسيحية [فافترقوا شيعا ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في ساطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراما] الخ

وأجاب عن الثاني بأربع قضايا يجمعها أمر عام هو الاحداث في الدين (الاولى) عقيدة الجبر التي اخترقت الاذهان وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن

الاعمال (اثانية) ما أدخله الزنادقة فيما بين اقرن الثالث والرابع — وشرهم فرقة الباطنية — من البدع في الاسلام (اثالثة) شبهات السفطائية (الرابعة) الاحاديث الموضوعة [وفيها السم القاتل لروح الغير ءوان ما ياصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم ، وفتوراً في العزائم]

وعزز هذه الأربيع بخامسة لولاها لم يكن لمن ذلك التأثير في تشويه الاسلام وإضعاف المسلمين وهي [النقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكفاة إلى أصول دينهم الحق ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه ، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الوجوب لتقهقرهم ، وهو الذي نعاين من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه]

وهذا نص صريح من نصوص كثيرة في إثبات أن الاصلاح الديني الذي كان يدعو إليه الحكيمان كلاهما هو الرجوع بالاسلام إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه (رض) قبل حدوث البدع والمذاهب

ثم ختم المقالة بموضوع الدعاية فقال « الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته — وان كان حجابها كثيفاً — لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بآراء تدافع دائم ، وتغالب لا ينقطع، والمنازعة بين الحق والباطل كالدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث إن الدين الحق هو أول صفة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم المارضة فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الانغيان » وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق وهو القائم عليهم بأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل لا يدين لها وجهها ولا يخصص لها طريقا ، فاننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ماسباب منهم، فيتقدمون على سواهم في فنون الملاحة والمنازلة والمصاولة، حفظاً لحقوقهم وضناً بانفسهم عن الذل، وملتهم عن الضياع، وإلى الله تصير الامور » اهـ

مقالة

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك *

جمل عنوانها آية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهي تفصيل أو كالتفصيل لخاتمة المقالة التي قبلها. وبدأ القول فيها ببيان ما امتاز به المسلمون من الشدة في دينهم والقوة في إيمانهم وارتباط بعضهم ببعض تمتضى عتيدتهم وغيرة القريب منهم على البعيد بحيث لو سمع أي مسلم في أي بقعة من الأرض أن مسلماً ارتد عن دينه لعد ذلك من أعظم المصائب وإن طال عليه العهد واذطوت عليه القرون، — وذكر ما يوجب الدين عليهم من حفظ ملكهم وبذل المال والروح في سبيله ومن الهجرة من دار الحرب التي يكون فيها السلطان أعيرهم

وانتقل من هذا إلى بيان حال مسلمي هذا العصر في التفتير بهذه الواجبات وضرب المثل له بما كان من اعتداء الانكليز على أفغانستان ورؤية جيرانهم من أهل بلوچستان ذلك — ومن اعتدائهم على بلاد فارس ورؤية جيرانهم الأفغانين لذلك — وعدم تحرك النعرة الدينية من هؤلاء ولا أولئك. ثم ضرب مثلاً آخر ما جرى في مصر في ذلك العهد فقال

« ان جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً وإياباً تقتل وتفتك ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم ، بل السامعين لخبرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن إيمانهم وشمائلهم »

وقفي على هذه المقدمة بالتعجب من الجمع بين هذه الحال وما ينافيها ولا يتمق معها من عقائد المسلمين. وأشار إلى القاعدة التي يبنى عليها في المقالة التي قبل هذه من سلطان العقائد الدينية على النفس الباعثة لها على أعمالها ، وقيدتها بقوله

في شرط تأثيرها « لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التي تلائمها »

وشرح هذا الموضوع شرحاً علمياً فلسفياً بين فيه أن شأن جميع الروابط الطبيعية والجنسية كشأن الرابطة الدينية والافكار العقلية في تأثير كل منها في النفس بما شأنه أن يبعث على العمل، وأن ذلك لا يتم إلا بالتربية والعمل بمقتضى تلك الشؤون النفسية، فإذا لم تدع الضرورة الاجتماعية إلى العمل بها ضعف أثر الرابطة « ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات » ثم قال « بعد تدبر هذه الأصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك سبب سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصرته إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين إلا في العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الاعمال، وانقطع التعارف بينهم، وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل .

« فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركي في غيبة عن العالم الحجازي فضلاً عن يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الاقفاقي وهكذا . بل العلماء في قطر واحد لا ارتباط بينهم (الى أن قال)

« كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من الموارد ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة، وتضمحل هيئة الجسم

« بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما اقتنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين، والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم » كثر بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان . ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام : خلافة عباسية في بغداد وفاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس . تفرقت بهذا كلمة الامة وانشتت عصاها، وانحطت رتبة

الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ، ولا يرعون جانب الخلافة ثم ذكر ما كان من ظهور جنكيز خان وأولاده ، وتيمورلنك وأحفاده ، وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا ، وما كان من انفصال عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا ، واقتراق المسلمين فرقا كل فرقة تدعو الى ملك أو مذهب ، « فضعفت آثار العقائد التي تدعو الى الوحدة ، وصارت صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلاحظها الذاكرة عند عرض مافي النفس من خزائن المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل بعض المصائب بالمسلمين . بعد أن ينفذ القضاء ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفاتت لا يدعوا الى تدارك النازلة . ثم عطف على العلماء فذكرهم بما يجب من العمل لتأسيس الوحدة الذي هو موضوع جمعية العروة الوثقى وسيلة ومقصدا فقال :

« و كان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاهياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين . ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهيطة لروح حياة الوحدة ، ويصير كل منها كسلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر . » ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع أنحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم . ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدتهم التنزيل وصحيح الأثر — ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أوزار الدين وحفظه من قوارع المدوان والقيام بحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتدخل فيها بما يحيط من شأنها ، ويكون ذلك أدعى الى نشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع ... فلو أبدع مبدع امكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين الامة الخ

مقالة التعصب (*)

جعل عنوانها آية (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) وكانت الحاجة اليها شديدة لان الجريدة قامت بدعوة قوية إلى عصبية اسلامية عامة لم يعهد لها في الاسلام نظير بعد العصر الاول ، وكانت سبقتها في التاريخ دعاية صليبية في أوربة استنفرت جميع شعوبها لقتال المسلمين وابدانهم من البلاد المقدسة بل من الشرق كله ، فنفروا خفاقا وثقالا ، واستعمرت نيران تلك الحروب قروناً وأحرقت أجيالا ، كما أن التعصب المذهبي في النصرانية نفسها أثار حروباً أخرى لم يخمد سعيها إلا بتوازن القوى بين الدول التي تدين بالكاثوليكية والدول التي تدين بالبروتستانتية ، وما تلا ذلك وأعقبه من الحرية والاحاد في الدين ومناهضة عصبية واللهج بدمها والتحذير من ضررها

ثم ظهر السيد جمال الدين بسياسة جديدة في الشرق كان الغرض منها احياء جميع شعوبه وتعاونهم لدفع استعباد الغرب لهم ، واستقلال بلادهم بنفسها ، وعمرانها بأهلها ، ولما كان دين الاسلام هو الغالب في ممالك الشرق الادنى كبلاد الترك والفرس والافغان والعرب وشطر أفريقية الشمالي كله وكان أعظم أسباب ضعف شعوبها التفرق والتعادي باختلاف المذاهب والاجناس المحظور في دين الاسلام ، وكان سبب هذا الاختلاف والتفرق الجهل بحقيقة الاسلام نفسه والابتداع فيه ، وكان السعي لتلافي ذلك فرضا دينيا — لما كان ماذكر كما ذكر — كان من مقاصد السيد جمال الدين الاساسية ، بل أهمها تجديد الاسلام واصلاح ما أفسدت فيه البدع والمصيبات المذهبية والجنسية باحياء الرابطة الاسلامية الاولى التي عنوانها قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) كما تقدم بيانه في أصول جمعية العروة الوثقى وفيما لخصناه من المقالات الخمس من جريدتها

وكان من حكمته البالغة التي جري عليها بالقول والعمل الجمع بين الرابطة الاسلامية والرابطة الوطنية في البلاد التي تتعدد فيها الملل بحيث لا تجد

(*) نشرت هذه المقالة في العدد السادس الذي صدر في ٢٨ جمادي الآخرة

الاقليات غير المسلمة أدنى امتعاض ولا شكوى من الاصلاح الاسلامي الذي جرى عليه كما كان شأنه وعمله في مصر بل أجمع أرباب الاقلام على تلقيه بفيلسوف الشرق ، ولما كانت ضيحة الدعاية الاسلامية في هذه الجريدة شديدة كالبصاعمة وكانت تشتبه بما عرف عنه وتعارض ما ذكره في بيان منهاجها من الجامعة الشرقية العامة ، والرابطة الوطنية الخاصة ، أجاب المشتبهين بما تقدم بيانه بعد بيان أصول جمعية العروة الوثقى وبقي عليه أن يبين بطلان ما شتهر بين الناس من معنى التعصب ومن تخصيص الديني منه بالذم والمقت وبجلي حقيقته ويشرح فائدته وهو ما عمد له هذه المقالة في العدد السادس من الجريدة فكانت هي الحكمة وفصل الخطاب ، وقوبات بالخلوة والقبول من أولى الالباب . ولم يعترض عليها أحد من أهل الاهواء ، وتلخص في بضع مسائل :

- (١) تجهيل الدين بتفهيته بدم التعصب والتهكم بهم
- (٢) بيان معنى التعصب في اللغة وفي الاجتماع البشري
- (٣) بيان كونه من الصفات والروابط النشورية النافعة التي لها وسط هو الكمال الذي لا يقوم أمر اجتماعي عام في تكوين الامة وحياتها بدونه — ولها طرفة افراط وتفريط كلاهما نقص ضار ، فالافراط فيه ما يحمل أصحابه على الدفاع عن الملتحمين معهم بلحمة العصبية بحق وبغير حق ، وعلى هضم حقوق غيرهم . والتفريط هو اهمال ما تدعو اليه من التعاون والتناصر على حفظ حقوقهم والدفاع عنهم الذي يقضي إلى اضمحلال الامة لعدوان غيرها عليها .
- (٤) الرد على الذين يخصصون التعصب الديني بالمقت والذم من الافرنج ومقلداتهم ، وبيان عدم الفرق بينه وبين التعصب للجنس في حقيقته وفائدته في حالة الاعتدال ، وفي ضرره في حالي الافراط والتفريط
- (٥) في سيرة المسلمين وتاريخهم في هذا التعصب واثبات كونهم أدنى الائم إلى الاعتدال والانصاف مع المخالفين لهم وشهادة التاريخ لهم بذلك
- (٦) عناية الافرنج الطامعين في بلاد المسلمين ببيت الدعاية لتنفيذهم من العصبية الدينية لعلهم أنها لا تكون إلا بالمقيدة فهم يزینون لهم « هجر هذه

أصله المقدسة وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً» — إلى أن قال « وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً ، فساعدتهم على التنفير من العصبة الدينية بعد ما فقدوها ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يببالغون في تعظيمها حقاً منهم وسفاهة . فمثلاً كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه فاضطر إلى الإقامة بالعراء معرضاً نفواً على الجو وما تصول به على حياته »

(٧) نصب الدول الاوربية الحباطل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها لاصطياد من يساعدها على سياستها هذه (قل) « ولم تعد صيداً من الامراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة استعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم » وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الالهواء الباطلة ، ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويهجرون (١) في رمي المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم ويدي المارقين « الخ

(٨) بيان عصية الافرنج الدينية ومنها أن من قواعدهم الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، « واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلات ، وهيئات ونبات ، تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية ، وينادي جميعهم : ألا قد ألتلمة ، وحدثت حادثة مهمة ، فأجمعوا الامر ، وخذوا الالهة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثاها ، حتى لاتنخدش الجامعة الدينية (و ذكر أن دولهم تتفق على هذا مع اختلافهم فما عداه وتحاقدهم ثم قال)

« أما لو فاض طوفان الفتن وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في

الدين والمذهب فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني الخ (أي لان الدين رابطة اجتماعية وسياسية فهو لا يتعصبون له من هذه الجهة) وضرب للمتدينين منهم مثلاً الوزير غلادستون رئيس أحرار الانكليز الذي لا تخلو خطبة من خطبه من نفثة من نفثات بطرس الناسك مضمرة نيران الحروب الصليبية وختم المقالة بوصية المسلمين بالاعتصام بالرابطة الدينية التي يجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمعربي فتحفظ بها حياة الجميع المالية مع العدل ورعاية الرابطة الوطنية والتزام أوامر الله « في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة وإحكام في المنافع الوطنية بينهم وبين جيرانهم من أرباب الأديان المختلفة الذين لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحهم الخ » وبمباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية »

مقالة القضاء والقدر^(١)

كانت الحاجة داعية الى هذه المقالة كما كانت داعية الى مقالة التعصب أو أشد . ذلك بأن الأفرنج والمفرنجين يزعمون ان عقيدة القضاء والقدر من العقائد الضارة التي كانت أهم الأسباب لضعف المسلمين وتخلفهم عنهم في الكسب والعلوم والفنون والملك والغلب ، لأنها تعطل المدارك والقوى بجعل صاحبها ينتظر نيل كل مطالبه وحاجاته الشخصية والقومية من الله تعالى فيعده ذلك عن علو الهمة في العمل . والامر بضد ذلك فن هذه العقيدة تعلي الهمة ، وتنفخ في الانفس روح الشجاعة ، وتصغر عندها العظائم ، وتهون عليها مصارعة الشدائد ، وانما

(١) نشرت في العدد السابع بتاريخ ٤ رجب ١٣٠١ هـ اول مايو سنة ١٨٨٤ «

العقيدة التي لها ذلك الأثر الرديء عقيدة الجبر وهي بدعة حدثت في الاسلام كما بين هذا في مقالة المقابلة والموازنة بين الديانتين الاسلاميه والمسيحية في طلب السيادة والاخذ بأسباب المنعة والقوة الحربية .

فالغرض من هذه المقالة بيان حقيقة عقيدة القضاء والقدر والاستدلال على حقيقتها بالبرهان ، والفرق بينها وبين عقيدة الجبر ، ودحض شبهة من سوى بينهما ، وبيان ما كان للايمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم في رفعة المسلمين وعلو مكانتهم ، والدعوة الى سلوك سبيل الله فيها ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة الحجة على المسلمين الحاضرين المستضعفين ، بما كان من عظمة سلفهم الأعزة الغالبيين ليحيوا سنتهم ، ويبنوا بناءهم ، وقد وفيت هذه المقالة هذه المباحث حقها من البيان والتحقيق بما عجز عن مثله جميع العلماء المتقدمين والمتأخرين ومما قاله في هذا :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا مجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النور ، هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكروه ومقارعة الالهوال ، ويحليها بحلي الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نضرة الحياة ، كل ذلك في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة

« الذي يعتقد ان الاجل محدود ، والرزق مكفول ، والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته . والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشديد المجد على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية » (وذكر ههنا بعض آيات القرآن في بعض الغزوات النبوية وقرن بها وصف الفتوحات الاسلامية بمبارات خطائية شعرية ولكنها حقيقية ، ثم قال)

« بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهباء على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة

«هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسرون إلى الحدائق والرياض، وكانهم أخذوا لانفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تغشى الأولاد مهابة

«هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الأكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم، فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولعان أسنهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم»

وختم المقالة بما ظهر من بوار الرجاء في عودة المسلمين إلى ما كانوا عليها عند ما كانت تلك العقائد الإسلامية سليمة من مخالطة البدع لها، وطروء الوهن والزوال عليها، واستدل على ذلك بازدياد أنصار جمعية العروة الوثقى يوماً بعد يوم (وقال بعد الدعاء لها) ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموماً، والمسلمين خصوصاً اهـ

مقالة الفضائل والرزائل

وأثرهما في الأفراد والأمة (*)

عنوان هذه المقالة آية (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) والكلام فيها منتظم في سلك الدعاية بالحكمة، لاسلك القضايا العلمية الفلسفية المحضة، فهو يصور للقاري تأثير الاخلاق في الافراد ويجعلها مع الشاعر مثالا لتأثيرها في الأمم، وينتقل من الكلّي الى الجزئي فيشرح ما كان من تأثير الفضائل الإسلامية في المسلمين، وما نالوا بها من الملك والعظمة العلمية والعملية، وما آل اليه أمرهم بما

طراً على أخلاقهم ويصف العلاج له ، ومما ابتكره في تشبيه مكانة الفضائل من الأمة قوله بعد ذكر حياة الانسان الفردية والنوعية والقومية وتشبيه الفضائل في الأمة بقوى الحياة في الفرد المخصصة لكل حاسة وجارحة بوظيفة تؤديها لحياة البنية كلها قوله « وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير ، فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر ، وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الاكوان وبقائها . — كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله » (ومما قاله في سوء تأثير الرذائل في إفساد الأمة بعد بيان سوء تأثيرها في إفساد الافراد قوله) :

« هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقصت بناءها ، ونثرت أعضائها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في الاعمال بالقسر ، فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الارصاف (أي الرذائل التي ذكرها ومنها الجبن والمهانة والفحش والبذاء الفاشية الآن) ولا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض أذلة للاجنبي عنهم ، يمهدون السبيل للغالين الى النكابة بهم ، ويمكنون مخالف المقاتلين من احشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل حقيراً » الخ وختم المقالة بالرجاء في هم العلماء الراسخين وغيرتهم أن يتداركوا ما عرض للمسلمين من الضعف في أخلاق دينهم وإهمال فضائله ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ... ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعد الحق — في قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

مقالة الوحدة الإسلامية (*)

عنوان هذه المقالة في العروة قوله تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا
 في أموره) وتذهب ريمكم) ويليه وصف لما بلغت دولة الإسلام وفتوحه في نشأته
 الأولى وبيان حدودها في خريطة الأرض ، وما كان فيها من العمران والعلوم
 والعلماء ، وما كان لها من الجيوش والاساطيل ، ويليه وصف لحلم في هذا
 العصر على كثرة عددهم وبيان سبب هذا الهبوط والسقوط والوهن ووصف علاجه
 وقد نوهنا بها في أول هذا البحث عند الكلام على بيان المراد من الجامعة
 الإسلامية وتقلنا شاهداً منها

ومما قاله في هذا

« نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم والضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف
 طلاب الملك فيهم ، لانا بينا أن لاجنسية المسلمين إلا في دينهم ، فتمدد الملكة عليهم
 كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلطين في جنس واحد ، مع تباين الأغراض
 وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا
 العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه
 شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصناعات فضلاء
 التقصير في طلب مالم ينالوا منها ، والاعسار (١) دون الترقى في عواليها ونشأ من هذا
 ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع
 الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فاهوا بأنفسهم عن تعرض
 الأجانب بالعدوان عليهم

« هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر القادح عندما كانوا منفردين

في ميادين الوغى لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ، ولكن ضرب الفساد في نفوس
 أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فاقبلوا مع

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب

« ١ » الاعسار جمع عسر ككتف وهي الأمور المتبسة المشككة

«لهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة، وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل «هذا الذي أباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا اطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية، ودهورتها أمانيتهم الكاذبة في مهاوى الضعف والوهن، قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك اللاهون بلذائهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها، وأوقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الاعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنينا «ألا قاتل الله الحرص على الدنايا والتهالك على الخسائس، ما أشد ضررها، وما أسوأ أثرها، نبدوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم. وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الابعاد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم. ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف؟ أفادتهم حمرة دائمة في الحياة، وشقاء أيديا بعد المات، وسوء ذكر لا تمحوه الايام

«أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم، واثقلت آحاديهم، ولكن وأسفا تخلصهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير او ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى، هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب. «الخ (م ٤٢ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

مقالة الوحدة والسيادة ، أو الوفاق والقلب

عنوان هذه المقالة حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »
 تكلم فيها عن الوحدة والسيادة والطريق الموصل اليهما ، وما يرجى من علماء
 المسلمين من السير بهم في هذا الطريق ، أثبت فيها أن هذين الأمرين هما السببان
 لنشأة الدول ، وبقاء الأمم ، وانها يحصلان باحدى ثلاث علل : الضرورة
 أو الدين أو التربية والتعليم ، وأثبت أنها ركنان من أركان السياسة والاجتماع
 للملة الإسلامية فرضها الدين ، وجعل العقاب على إهمال هذه الفريضة خزي
 الدنيا وعذاب الآخرة . وأورد بعض النصوص على ذلك مع شرح كل ذلك
 بما لا يستغني مسلم عن تدبره

مقالة استعانة القامحين على الأمم بأمرائها

وهي أخصر المقالات لما تقدم من بيان هذه الرزية في المقالات السابقة ،
 وينبغي لقاريء هذا الجزء اذا بلغ هذا الموضوع أن يرجع إلى الجزء الثاني فيقرأها
 فيه . وهي المقالة الحادية عشرة من مقالات العروة الوثقى (ص ٢٨٨ ج ٢ طبعة
 ثانية) وحسبنا ما لخصناه وما أشرنا إلى موضوعه من تلك المقالات ، وانني أنصح
 لشبان المسلمين أن يطالعوها كلها ، ويكرروا ذلك حتى يتمكن من قلوبهم كل
 ما فيها ، فزادوا إيماناً وحكمة ، وعلماً وبلاغة ، وعلموا في الهمة ، وغيره على الأمة ،
 واعتصاماً بحبل الملة .

ونعلموا أن كل ربح يربحه الانسان في الدنيا فهو دون ربح نفسه ، وكل
 خسارة يرهقه فهو دون خسران نفسه ، وانه انما يربح نفسه بتزكيتها وجعلها أهلاً
 لجلائل الاعمال ، التي تنال بها الأمم معالي الآمال ، ويبلغ بها الافراد مقام السكال



المسألة المصرية

بذت سياسة جريدة العروة الوثقى في المسألة المصرية على ثلاثة أمور (أحدها) ان الدولة صاحبة الحق الرسمي في مصر هي الدولة العثمانية صاحبة السيادة المعترف بها من جميع الدول على هذا القطر (ثانيها) ان هذه المسألة من الامور الدولية التي تهم جميع دول أوربة لما لها من المصالح المالية فيها ولان مصر الطريق البحري الاعظم الاقرب بين الشرق والغرب (ثالثها) ان في الدول العظمى دوايتين ثنتين ترجى مساعدتهما لمصر وللدولة العثمانية على حمل الانكليز على الجلاء عن القطر المصري (أولاهما) فرنسة ذات المصالح المالية الكبرى فيه وذات النفوذ الادبي والسياسي الذي يعز عليها زواله (والثانية) الروسية التي تعد الدولة البريطانية أقوى خصم لها في سياستها الشرقية ومقاصدها البحرية ، فكانت مقالات العروة الوثقى في الدفاع عن مصر والسعي لانقاذها من الاحتلال الانكليزي تنحصر في خمس وسائل (١) تهيج مصر والهند والرأي الاسلامي العام عليها - (٢) حث الدولة العثمانية على السعي لاجراجها من طريق السياسة والقوة معا - (٣) محاولة إقناع فرنسة بمساعدة مصر والدولة على ذلك حفظا لمصالحها الاقتصادية ونفوذها السياسي والادبي - (٤) إغراء روسية بالزحف على الهند والاعتماد في ذلك على نفوذ الدولة العثمانية الديني هنالك باستمالتها اليها ، وعلى مساعدة دولتي الافغان و إيران على ذلك باتفاق يعقد بينها وبينها إذا أمكن وإلا انفردت بالعمل . وهنالك أمر آخر عظيم الشأن ، وهو (٥) تعظيم خطر ادعاء محمد احمد السوداني للهدوية ، وما يتوقع من تأثيره في العالم الاسلامي كله وكان الغرض الاول من هذه الوسائل كلها إقناع الدولة الانكليزية نفسها بالجلاء عن مصر وتسليم حكومتها الى « اولي العزم من المصريين » والاعتماد على صداقتهم في حفظ طريق الهند (قنال السويس) وقد جاء في بعض مقالات العروة وصف الانكليز بانهم على طمعهم الشديد وصلابتهم برائعون طبيعة العمران وتطور

الزمان . وأما إيقاد نيران الثورة عليهم في مصر وبلاد العرب والهند فهو الذي يلجأ إليه اذا تعذر الغرض الاول

وانني أذكر هنا بعض الشواهد في المسائل الاربع على إدماج بعضها في بعض ثم أذكر لدعوى المهدوية شواهد أخرى عند الكلام على مسألة السودان التي هي فرع المسألة المصرية ، إذ كان للحكيم سياسة خاصة كما كان للانكليز سياسة خاصة فيها ، وأبدأ القول في المسألة الاولى بتلخيص مقالة في وصف حال مصر نشرت في العدد الاول من العروة في (سياسة انكلترا في الشرق) لما فيها من بيان مكانة مصر وما يرجى لها من الاستقبال المجيد وسبب طمع الدولة الانكليزية فيها ،

الوسيلة الاولى اثاره العالم الاسلامي

﴿مقدمة في ملخص وصف حالة مصر وسبب طمع الانكليز فيها﴾

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الاول من القرن الماضي (الهجري) تعد من نوع حكومة الاشراف وبحسبها المؤرخون في تلك الاوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ، ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها ، وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كان معروفا في أغلب أنحاء المسكونة.

ثم أعجب الدهر فيها بغرائب بعد ما فوضت أمورها لمحمد علي باشا فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، تقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء ، وعد هذا التقدم السريع من عجائب الامور

هل كان في حساب أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قرى الروملي لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة إلا أن طبيعته

الفطرية كانت فائضة بحب الحضارة ، وبث العلوم ، وتأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل اليه ؟

بلى ، كان هذا في الغيب وابرزه القدر الالهي ، ونالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم ، وعهد خلفائه من بعده ، ما كانت تقف دونه أفكار الناظرين : طرقت أبواب السعادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعة تقدماً غريباً ، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحائها ، واتصلت أطرافها ، بما أنشئ فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت أهاليها ، واثتاف الجنوبي بالشمال ، والشرقي بالغربي ، وقوى فيهم معنى الاخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعداً الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا في المعاملات ، وتشاركوا في المنافع ، واعتدت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعد ما جالت فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاءها ، وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى اقاصي البلاد الغربية ، وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان ، وما خاب لها قاصد ، ولا اخفق فيها سعي ساع ، فأثرى في مغانيبها الفقراء ، وعز بها الأذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ، ومحط رحال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد اليها يمجداً أهلاً خيراً من أهله ، وسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغربية ، حتى كان الداخل اليها يخيل له انه تحت برج بابل يوم تبلبلت اللسان

وساد بها الامن وعمت الراحة ، وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الاوربية العظيمة ، وكان التأمل في سيرها هذا يحكم حكماً بما لم يكن بعيداً من الواقع ، ان عاصمتها لا بد أن تصبح في وقت قريب او بعيد كرسي مدنية لاعظم الممالك المشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقروداً في أنفس جيرانها من سكان

البلدان المتاخمة لها^(١) وهو أماتهم الفرد ، كلما ألم خطب أو عرض خطر، غير ان الايام كأنها حسرتها على مامنته، فعثر العاقل ، وفرط انالك ، واغتر المعجب، وتهور الغبي ، وخار الافين ، فتقرب البعيد ، وبعد القريب ، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا في حواشي طوامير الاوهام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف ، ففتحت للدسائس ابواب، وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات، فتفرق اتصال، وتقطعت أوصال ، فضعفت السلطة الوازنة، ونبتت الطاعة ، والتهبت نيران الفتن

قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في إعادة شأنها الاول إلى رأي قويم وعزم ثابت، ووازع قوي تدين لسطوته النفوس . وان من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه الاوصاف وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد اليه، لكن تحكم طمع واخطأ ظن ، فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة

أشقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال او ظنت ان آن التقدم بعض خطوات قد آن ، فرأت ان اءدة الامن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتغريم وما شا كل ذلك ما لا حاجة لبيانها ، وعم بعض انواع الهون ، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد الا مسه ضرره ، ما خلا أشخاصا قلائل، وهذه المهربات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لاشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد .

الديست المالية هي مرمى أنظار دول اوربا وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من

(١) يعني البلاد العربية ولم يصرح بذلك لانه يسوء الدولة العثمانية ، ومن الثابت انه لولا الاحتلال الانكليزي لانهت النهضة المصرية بتأسيس دولة عربية كبيرة تعيد الحضارة العربية سيرتها الاولى وما عرض لها من العناد باسراف اسماعيل وافن توفيق كان من المرجو تلافيه

الحقوق الاوربية؟ اليوم رزئت بالنقص في الايراد، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنهات، ورميت بنفقات جيش الحلول وحرب السودان ومصاريف اخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات، وأي مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة؟

عقد العزم على إلغاء الجيش الوطني وهو قوة البلاد وبه فخارها، وكأنه لم يوجد وسيلة لتنظيم عسكر مصري، وقصر الجهد عن مجاراة محمد علي باشا، وابراهيم باشا، اللذين دوا كثيراً من الاقطار بجنود مصرية

(وبعد أن أطل في وصف حالة الحكومة وموظفيها وماليتها والاهالي وفقيرهم ومخاوفهم وارهاقهم بالضرائب وطرق تحصيلها بالقوة قال)

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والاخذ بالشبه وإن ضعفت، واتباع بواطل التهم وإن بعدت، او استحالت، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبالغه، فلا ترى ماراً بطريق الا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق باثوابه شرطي يقوده إلى السجن، او يقتضي منه فداء، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا؟

هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري. هذا بعض ما يضيق به الصدر، وتنقبض له الانفس، مما رزئوا به بعد ما تكفل أباؤهم الاولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة، هذه طلائع الاصلاح المبشر به من زمان بعيد على السنة رسله، أصبح الاهالي حيارى في أمورهم، تأهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الاوربية تسميه ضيقاً وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه ويودون لو رجعوا اليه، ويحسبون غايه سعادتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها. الخ الخ

الشاهد الاول

في تحريض المصريين على الانكليز

(بعد اثبات ما يريدون من الاستيلاء على مصر)

ذهب الاستاذ محرر العروة الوثقى الى لندرة ولقي فيها كثيراً من رجال السياسة الرسميين كالوزراء وغير الرسميين كمحرري الصحف بمساعدة صديق مصر وصديقهم (مستر بلنت) وقد نشرت الجرائد الاوربية من انكليزية وغيرها بعض ما دار بينه وبين أولئك السياسيين من المناظرات ونشر في العدد الرابع عشر من العروة مقالة في ذلك ذكر فيها ما دار بينه وبين وزير الحربية البريطانية وما في ذلك من المعبرة ولكن بلسان السيد مدير العروة وهذا نصها

هؤلاء رجال الانكليز وهذه أقطارهم

تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة مامسنا من ضعف في المزاج مع مصادقة رداءة الهواء في البلاد الفرنسية في هذه الايام والحمد لله على زوال المانع . إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قمنا به في المدافعة عن حقوق المسلمين فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ورجو من ديان السموات والارض أن نموت في هذه السبيل وأن نبعث في زمرة السالكين فيها رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الاول لهذه الجريدة) إلى لندرة اجابة لدعوة من يرجى منهم الخير المتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانكليزية — وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي مامرت عليها قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه — وليسر أغوار المطامع الانكليزية التي لا يدرك منتهاها — تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة ، وطوقت كرة الارض بالفتح والاستيلاء

لم تنزل في مد لا جزر معه ، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في فرم شديد لابتلاع ممالك العالم ، وكلما أساغوا قطراً طلبوا اليه آخر - وايستطلع خفايا المقاصد من أثناء الافكار وغضون الاقوال - وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلويح ويتبين كيف يتمكنون من إبراز محاسن الاعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر اليها واظهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين ، حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كي لا يعثر الجاهل ولا ينزل العالم .

لأق (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الانكليزية وأنفذ الناس رأيا فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الاحوال المصرية ، ومن محادثاته الابتدائية ما نشر في بعض الجرائد الانكليزية كجريدة «البال مال غازيت» وجريدة «التروث» التي يحررها النائب الشهير (مستر لا بوشير) وجريدة «التيمس» وسيدكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الاكابر من رجال الحكومة الانكليزية مما يستفيد منه الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً . وستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامي افكارهم .

أما الآن فنأتي على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحرية الانكليزية ليأخذ كل مصري منها حظه ، ويصيب كل شرقي سهمه ، ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار رجال الحكومة الانكليزية . سأل اللورد هرتنكتون وزير الحرية الانكليزية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ أو لا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الاتراك وفلان باشا وفلان باشا ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) : كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلاً ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم أن يتصور هذا الميل في المصريين .

فقال الوزير: هل تذكر ان الجهالة عامة في أقطار مصر وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني ، وان ما ذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون في الأمم المهذبة ؟

فأخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في أداء ما فرض الدين وأوجبه حقوق الملة وقال (أولاً) ان النفرة من ولاية الاجنبي ونبد الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر ، وليس بمحتاج الى الدرس والمطالعة ، وهو شعور انساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا (كالزولوس) الذين لم تنسوا ما كابدهم من في الدفاع عن أوطانهم .

(وثانياً) ان المسلمين مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا لا يصلون من الجهل الى الدرجة التي يتصورها الوزير ، فان الأميين منهم ومن لا يقرءون ولا يكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها وأظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفتهم فيه ، وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وان جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الانسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم

(وثالثاً) ان أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوربا ، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون . والاختبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبيء الاخبار من القارئين ، فهذا أضافوا الى الشعور الطبيعي والتقليد الديني ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي ، قوي بها الميول الاولان ولا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الأمم

أين العلماء الاذكياء ، أين الجهلة الاغبياء ، أين الأتباع الاعلياء ، أين السفلة الادنياء ، يرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانجليزية؟

كل ذي شكل انساني وصورة بشرية يدرك ما وراء هذه الاسئلة وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة .

هذا اللورد هرتنكتون وزير الحرية الانكليزية يظن ان الجهل يبلغ من المسلمين عموماً والمصريين خصوصاً الى حد سلب عنهم كل احساس انساني، وانهم في حضيض من الجهل لا يميزون فيه بين الغريب والقريب، ولا بين العدو والحبيب هذا دليل على ان الانكليز (إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون ان الأمم الشرقية والأمة المصرية في درجة الحيوانات السائمة، والدواب الراحية، لا تتألم إلا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية، ولا تعرف من شؤونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية، فتألف راعيها والعامل عليها ومستخدمها في اي عمل من الاعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاماً وشراباً، وانها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غداءها وعشاءها، وإن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الاعمال، فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها :

★ ألا فاعجبوا ★

ان كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الامم التي يتسلطون عليها فأي معاملة تكون لهم ؟ ألا يعاملونهم معاملة العجاوات والحيوانات الرتع ؟ بلى ، وهكذا يعاملون وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على ما يعملون ، فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما : إما ان يتكاتفوا ويتضافروا ويندلوأ أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الانساني ومكانتهم العربية ، واداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون اليهم إلا كما ينظرون الى البغال والحمر ، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من اخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الامرين وإما ان ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية ، ويخلعوا حلية الايمان ،

ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليجعلوا ناف العبودية على أعناقهم ، وايقاسموا
الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر
الامرين وأدناهما ، وما أظن مصريا يختاره لنفسه ، واثن اختاره (معاذ الله)
فسيذهب الله بهم ويورث الارض قوما آخرين ، فان الله غيور على دينه ، غيور
على العدل ، منتقم من الضالين ، وانا لله وانا اليه راجعون اه

الشاهد الثاني

(في تحريض العثمانيين والمصريين والهنود)

«*

الوهم

﴿ اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الاوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا
نضل ونشقى ﴾

ألا قاتل اللهم الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ،
وطوراً يكون ممثلاً للمسررات ، حاكياً للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب
الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة ، وحكم على
العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنقاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والموئل مهاكاً ،
الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الوجود معدوماً ،
والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه
خبط المصروع ، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلابس
النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام ،
وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ،
لا يهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق

(* مقالة نشرت في العدد ١٧ المؤرخ في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر

سنة ١٨٨٤)

كان الانكليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد ، مستعدة للفتوحات ، وذلك في زمان بليت فيه الامم الشرقية بتفرق الكلمة ، واختلاف الالهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً أو كرامة ، فانتهر الانكليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، ومادهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الاوربية التي أثارت فيهم خواطر الاوهام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الانكليز من حباثل الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ؟ فسلبوا أموالهم ، واتزعوا من اراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ، فاستغنت الامة الانكليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفعت بما ملكت ، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الاقطار متوزعة فيها ، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزراً من العدد والعدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لا تستطيع ذوداً ولا دفاعاً ، وان أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة ، وقد ظهر هذا الامر على أنفس الامة الانكليزية ، فهي دائماً في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياؤها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لاية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الانكليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الأرجاء . ومع هذا كله نرى الامر لم يزل خفياً على الشرقيين ، محجوباً عنهم بحجاب الوهم ، يمثل الوهم لكل شرقي أن الانكليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم فمثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سباعاً ضارياً ومفترساً قوياً فينكب عن الطريق وهما وريية بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً ، أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشبه عليه مسالك الوصول إلى غايته ، ربما صادف مهلكة في ضلاله ومتلفة في غيه ،

بل لا نخطيء ان قلنا ان هذا الوهم كان متساعدا على الغربيين كما هو متساعدا على الشرقيين ، فلاوربيون كانوا ينظرون إلى انكلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة انكلترا متحصنة ممتعة في هذه القبة الوهمية ، مترتبة على عرش هذه العظمة الخيالية

يحس الانكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما في ستره ولاستاراكشف من الوهم ، ولهذا نراهم في كل حادثة يجلبون ويصحبون ويزارون ليثيرو بالاضواء هواجس الاوهام ، فتحول أنظار الناظرين ، وتعمشى بصائر المستبصرين فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا فقايل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانكليز

ذهب الانكليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسابقوا مع الفرنسيين وهولاندة والبرتغال في ميدان الاراضي الهندية الواسعة ، فحازوا في هذه المباراة قصب السبق ، بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد او طيب قلوبهم ، فالت النفوس إلى الانكليز اغترارا ، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا ، وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضايق من الارض لا تذكر ، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة ، قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندة وبرتغال) فانها تريد التسلط على ممالككم ، أما نحن (الانكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم . ثم انا ترى للانكليز الآن في الهند الاصلية والهند الصينية والبرمان سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانكليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الامم انه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الانكليز ، ولا تصل إلى ما وصل اليه الانكليز في الكبرياء والجبروت ، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميالهم للتخلص من تلك السلطة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المفاوضة إلا خمسون ألف جندي انكليزي ، مع انه

يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال ونخشي زوال ما بقى لها
مالو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندي ، وهذا فضلا عما يمكنه
حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الانكليزية وزال استقلالها
بالمرّة ، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها
بل عما هو موجود فيها ، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفاتكة القوة في
قبضة قوم ضعاف ، يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين
أنفسهم لمح اعتبار ، وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف
الانكليز في الحالة الحاضرة ، لرأوا موت الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة
تحت أرجلهم ، وعلموا أن استنقاذهم لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب
ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة .
يوجد في الدول الاوربية من يهاب دولة الانكليز اعتباراً لما في سلطتها
من الممالك الواسعة والامم العظيمة مما لم يباغ عده رعية دولة من الدول ويقيس
شأنها وقوتها في تلك الاطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا ، ويظن أن لها
قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها
ولم يلتفت إلى أن جسم الانكليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت
فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بساط الارض
حتى لم يبق لهم في موضع قوة ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه ، يترقبون
في كل آن زحفا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين .
لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انكلترا إلى حقيقة الامر لما احتاجت في معارضتها
ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الامر من الظهور إلى حد لا يحتاج
إلى دقة الفكر ، لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم .

ان العثمانيين ينظرون إلى دولة الانكليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع
ملاحظة ان دولة انكلترا تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النفوس فيظنون
لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدبر انظارهم إلى
ما وراء ذلك لينبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى

ميادين القتال ، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لا اعتداء بها في قوة دولة انكلترا ، فانما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها ، وهي في ارتكاب الفرص لخلع طاعتها ، فمتى ارتبكت دولة انكلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الانكليز ، خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة انكلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذاً يلجئون اليه ، وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة انكلترا انما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها . أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانكليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما تحرعوا مرارة الصبر على تحكيمات الانكليز وحيفهم في أعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية ، التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو اسلامية .

ان سكنة مصر كانوا أيام عرابي على قسمين : قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما برسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل باحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة مع الريب . والقسم الاول مخلص إلى الفشل ، فدخل الانكليز بلا حرب حقيقية ، نوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس صادف قلوباً مستعدة فأخذ منها مقاما فأنحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانكليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من التأثيرين عليه ، فتساهل المصريون في الامر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز مع ما جاءتهم به من الحججة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها ، بهذا فاز الانكليز واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الاهالي المصريين من يميل اليهم بل لا يوجد إلا من يفضيهم ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عمالاً لهما كهم ، ولكن الوهم بحجم المخافة ويكبح العزيمة

ان أهالي مصر ذهلوا عن الاسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كفة واحدة في مدافعة الانكليز ثم تغلبت عليهم القوة الانكليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم، وان الانكليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب

ان الذين كانوا من مدة سنتين سبباً في تغلب العساكر الانكليزية وحلولها في وادي النيل ولولاهم ما استقر لها قدم فيه - يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الاهالي عموماً وإخضاعهم لحكومة بريطانيا، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهاً، ومجارونهم في أهوائهم نفاقاً، هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانكليزية ليعلموا أن ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين ألف جندي، ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الانكليزي بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانكليز وخارت عزائمهم والتجؤوا إلى ترك البلاد لاهلها، ألا قاتل الله الوهم

ان للانكليز قوة حربية بحرية لا تذكر ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن، لا يمكن أن تعمل عملاً فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين، فلو فرضنا أن الانكليز أطلقوا قنابرهم على السواحل فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابر إلى أبد الأبدين إذا كان الاهالي في داخل البلاد يناوؤونهم، وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة؟ ليس في الامر شيء سوى الوهم، هذا الوهم تمزقت حجبته عن بصائر الغربيين فعلموا ما هو الانكليز؟ ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء، صوت عال، وشبح بال، قامت الدول على معارضتهم لعلمها ان الانكليز صاروا للامم كاللودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية. لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بامورهم، ولا ينتقلوا من عبودية إلى أخرى، ولا يستبدلوا سيداً أجنبياً بسيد آخر، اللهم ارفع عنا حجب الاوهام، وهبي لنا الرشد في أمورنا، واحفظنا من الغواية، واهدنا إلى خير نهاية اه

الشاهد الثالث

(في تحريرى مشترك بين الروس والعثمانين)

المسألة المصرية دولية*)

انا أنذرنا الانكليز خطراً قريباً على الهند ، ونبهننا في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركمان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم وبما يحمل تركمان سرخس على الاقتداء بهم ، وأشرنا الى مايتبع ذلك مما عاقبته نكال على الانكليز ، واليوم وقع ما توقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخمت بمحدودها حكومة الافغان ، وارتعدت فرائص الانكليز وغشيتهم الفزع والتقاق ، واعدت جرائدهم نحيباً ، ورددت نحيباً ، وأحست بقرب الاجل ، ولم يسكن روعهم ما ذكرته جريدة بطرسبرج الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم مشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وانما دخل في حوزة الروس اولاهما ، فن الانكليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لا يفصلهما إلا ترعة صغيرة « نهر تجند » عرضها عشرة أذرع بالتقريب ، على أن سرخس - التي حكم مهندسو حرب الانكليز انها باب الهند من طرف الشمال ، وانها ممرفتحية - من زمان قديم ، ومن طريقها طرق الهند اسكندر الاكبر ونادر شاه الايراني ، وان وصول الروسية اليها مما يخرق سياج الهند - انما هي سرخس القديمة . ومما زاد الانكليز فزعاً واضطراباً أن التركمان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعاً واختياراً ، وبعثوا وفدًا منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندوكوف حاكم ماوراء بحر الخزر من الولايات الروسية ، ووصل الوفد الى عشق آباد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس اليها

وقع الانكليز الآن بين شرين عظيمين ، خطر عاجل ، وحتف آجل ، أما الثاني فهو أن الروسية اما أن تتحد مع الافغانين وتحالفهم على مطاردة الانكليز وهو

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤)

الأقرب المتوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الانكليزية، وليس بخاف ما يضره كل أفغاني لكل انكليزي من الحق والضعف، والافغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيهم، فكيف ان وجدوا مساعداً قويا . وإما أن تميل حكومة الافغان إلى الانكليز - وهو من فرض المحال - فما أسرع أن تنتشب مقاتلات بين القبائل المختلفة من تحت حكومة الافغان مثل جمشيدي وفيروزكوهي وبين قبائل التركمان المتأخمين لهم ومقربها حرب بين الروسية والانكليز، لان كلا من الدوائين مضطر المدافعة عن حليفه، بل للروسية حق المناضلة عن رعاياها التركمان، فاذا زحف الروس إلى الاراضي الافغانية تقطعت حبال حيل الانكليز، وامتنعت عليهم وسائل الدفاع، وهذا آخر حياتهم في الهند

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروسية على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة ياتمسون في أضواؤها طريقاً للخلاص من الضيق والضنك الذي شابههم، وسبباً للنجاة من الويل الذي جابته عليهم مظالم الانكليز . هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عند ما وصل الهنديين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الابراي على هراة، بل انتفاض الهند على الانكليز في هذه الايام اقرب، فان خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد احمد السوداني، بل بما مكن في ادوائهم من الميل إلى تصديقه، وان لهذه الدعوة حملة على الهند لا يقاومها تدبير دولة بريطانيا

تريد دولة انكلترا ان تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام في هذا العام وربما فيما بعده حتى لا تصل أخبار محمد احمد وتورط الانكليز في مقاومته إلى مسامع الهنديين، ولكن سيجمل هذه الاخبار إلى تلك الاقطار حجاج الافغانيين والبلوجيين الذين يساكنون إلى الحج طريق البصرة والكويت بل يبلغونها إلى اخوانهم، على وجه أبلغ مما لو سمعوها بأذانهم .

هذا تأييد إلهي للدولة العثمانية فعليها ان تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في القلوب، وعلى السلطان العثماني ان يتذكر انه خاف لاوائك الاسلاف العظام الذين ما أضاعوا حقاً ولا أهملوا فرضاً، ويقضي من الانكليز

حقه ويسترد مصر من ايديهم ويظهرها من جرائم الفساد، ولا يقنع بما دون الحق، ولا يدع لهم فيها شأنا إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول، ولا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذي سقط فيه الانكليز كمقات الايرانيين الانتفاع بثورة الهند في الايام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم، والالكانوا أوقعوا بالانكليز ونالوا الغاية من ضرهم. على العثمانيين ان يتلافوا الامر قبل ان يشب الانكليز حربا صليبية بين الحبش والمسلمين على نفقة الحكومة المصرية. ليس للدولة العثمانية ان تنهاون في مطالبتها او تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة، ولا ان تخشى في ذلك تهويل الانكليز وجلبتهم، فان كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالف الانكليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة. بل الذي يفهم من جملة مقالاتهم انه لا توجد دولة من الدول ترضى بان يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانكليز على مصر او وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس الخ

الشاهد الرابع

في دولية المسألة المصرية

وعقد المؤتمر الاوربي للبحث فيها

(أرادت انكثرة إلهاء أوربة عن مسألة احتلالها لمصر من الوجهتين السياسية والعسكرية فرغبت الى الدول الكبرى أن تترك المؤتمر للنظر في المسألة المصرية وأمرت رجاها المالي الكبير (السر بارنج) الذي صار لقبه بعد ذلك (لورد كرومر) أن يعد لها تقريراً عن مالية مصر يجعله شغل المؤتمر الشاغل عن غيره لما للدول من الهم الاكبر في مصالحهم المالية بمصر، ففعل - ولكن المؤتمر لم يشغله ذلك بل أراد طرق المسألة من سائر أبوابها ففشل

(وقد خاضت العروة الوثقى عباب هذه المسألة وكأخت جميع أمواجه، وسبحت في مختلف خابجانه، وأنشأت فيه عدت مقالات رئيسية تأتي على نبذ من بعضها، لتمثيل من كان من سياسها، وتصوير بلاغة محررها فيها

(جاء في فاتحة المقالة الرئيسية للعدد العاشر نبذة في نهويل أمر المؤتمر وسياسة الانكليز وبسمارك ومطامح الدول الكبرى ومكايد رجالها فيه هذا نصها :
هذا ما ساقته اليه الحوادث المعصرية وهي منتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقها . العظام من الدول في يقظة لاسنة معها ، وحركة لاقتور فيها ، مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر ، ومجادلات متلاحقة ، يدأب فيها السياسيون من كل أمة ، بعضها بالمراسلة وشيء منها بالمشافهة ، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع نظار الخارجية من سواها ، يتهامون ويتغاضون ، ويسرون خلاف ما يعلنون ، ويذهبون إلى مالا يقصدون ، وقد حلق كل بصره للآخر لعله يلح من غصون وجهه ما ينبيء عن مضمرات سره ، ويصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله ، عسى أن لا يفوته شيء مما ربما يعتل به ، وجل ما انصرفت اليه قواهم تمثيل الرغائب ، وتخيل المطامع ، في صور أبعداها عن الحقيقة أقربها إلى الخيال . يعظمون الحقير ، ويحقرون العظيم ، ويجسمون الوهوم ، ويضلون عن المعلوم ، ويقربون البعيد ، ويمعدون اقريب ، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الاماني باهرة الانوار بزهور الآمال ، وما نبت بهارها إلا على حبال من المكر ، وفخاخ من الخديعة ، حتى إذا راقه المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لا يشعر .
هذا سهل صعباً ، والآخريو عر سهلاً ، وكل يتبع لحاظ رصيفه ، اذا أحس منه لما لمقصده أبرز له الواناً من الفوائد الموهومة ليستلفته عن مرامه ، واذا شعر منه بفكر يوصله الى ما يمسه ، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه عما يطلبه ، ويشوش عليه سيره ، ويقطع سبيل فكره ، منهم من يكسب الاصدقاء بمال غيره ، ومنهم من يستفيد الرفقاء بكف شره

ومن الناس أقوام آخرون ، على غوارب أمواج الحوادث نائمون ، تقذفهم كريمة وتلقفهم أخرى وهم عنها غافلون ، زلزلت بهم الارض زلزالها ، ودهمتهم الخطوب بارزائها ، وتوالت عليهم المزعجات ، وتناولتهم عواصف المفزعات ، وهم في سكرة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون ، والمقبل على الفوز من هؤلاء ، وأوائك انما هو أحزمهم رأياً وأثبتهم عزيمته ، وأشد هم بشؤونه بصيرة .

يقول الانكليز انا عدونا على الهند من زمان طويل فاعتصبناه وحقت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة وقوانين التغلب . وأين ديارنا في بريطانيا من هذا الملك العظيم في شرقي آسيا ؟ المسافات طويلة، والشقة بعيدة، فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطن . لاقدامنا ، لنحتفظ باملا كنا ، فلنا حق في اغتصاب جل العالم لاجل الهند، خصوصاً القطر المصري، فان به السبيل التي لا يماثلها سبيل ، وليس لنا عنها غنى، وكنا في تطلع اليها من زمن قديم، وكثيراً ماتمسكنا بجبال من الوسائل اليها فرثت في ايدينا بقوة حكام تلك البلاد، حتى هيات لنا حوادث السنين الاخيرة ما أحلنا دارهم، وأقرنا في قرارهم

انا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيتته على كرسي الخديوية المصرية إلا أنه بقتال ونزال فلا تختلف صورته عن صورة الفتح فلنا حق التملك في تلك الاقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة وازالة الاختلال، وكنا صرحنا بذلك عند عزمنا عليه، لكن الغرض الحقيقي انما هو تأمين طريق الهند، فدنسى لنا ما قصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا ان نتركه بعد الوصول . وحيث إننا عقدنا العزم على البقاء في مصر وأضربنا عن اخلائها لزمنا ضمان الديون المصرية وحملها ثقيل على كواهلنا، فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة، وتكون لنا عوناً على تنقيص الفوائد، ولا نحب ان تكون مذكراتها معنا إلا في المالية خاصة فانه لا نرجو من مفاوضاتها فائدة إلا فيها، وأما سائر الشؤون فعليتنا تدبيرها، والينا مصيرها . - هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون أسبابها إلى برلين ويرجون أن تكون مواضعها وما قدما في تلك المدينة عاصمة الالمان .

وأما البرنس بسمارك وهو مدير السياسة في أوروبا ويده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً وينكي عدواً، وليست له علائق سياسية بحمله على المدافعة عن مصر، ولا منافسة له مع الانكليز تبعثه على ما كاستهم، بل له اليهم حاجة في ضمهم اليه وإبعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لاحليف لها، وقد تكون له من صلة الانكليز ما يرب أخرى سوى قطع فرنسا عن الحلفاء ينالها يوم الحاجة اليها وما هو عنه يبعيد، فماذا يضره إذا ادخر عوناً وأساء عدواً، والنقطة على

خزينة غيره؟ نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وإيطاليا لما لهم من المصالح في البحر الأبيض، ويصعب عليه أن يصيب سياسته الجمع بين مرضاة انكسار لنيل مصافاتها وبين التمسك بعهوده مع ذوي حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخصص من هذا المضيق بالإشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الأرثوذكس (١) والإبقاء إلى الأراضي البلقانية وسلافيك (٢) ويجلوها لأنظار معاهديه، فيسكن جاشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاة الدولتين، ويقلم أظفار الروسية من أوربا الشرقية، ويضع مصالح فرنسائي بلاد المشرق عموماً ومصر خصوصاً، وفي كل ذلك الربح له والخسارة على غيره، وليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها، فهي شرعته التي يرد إليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت.

وفرنسا واقعة بين مراوغات الانكليز ومكايد بسمارك. لها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يمحى أثرها بمدخلة الانكليز، وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشأتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومداعسك. لهذا تبذل الجهد لاجلاء العساكر الانكليزية عن مصر وتخفيض سلطة الانكليز فيها، ويوجد لها عون من دولة الروسية، ولها من المنفعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوي العزيمة من رجالهم وميل افئدتهم لمكبتها من تخليص مصر وانزعاجها من ايدي الانكليز سعياً في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها.

وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الانكليز ومطاردتهم من بلادها، فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الاوقات لتستنقذ ممالكها من طمع الطامعين، وتعيد ولايتها على الاقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين، وان جميع المسلمين ينتظرون منها الحدق في هذه المسئلة ولهم فيها الامل القوي والثقة الكاملة، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون ان ينالوا بها حظهم من الغنيمة، وليس على الدولة من بأس اذا طالبت الانكليز ببرد حقوقها كافة، فانهم بالنسبة اليها أضعف من ان يجاهروها بالعدوان.

(١) كان هذان القطران مطامح مطامع ايطاليا (٢) كانت هذه امنية النمسا

وانا نكرر ما قلناه سابقا ان الانكاز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حربا خصوصا في هذه الاوقات التي أصبحت فيها دولة الروسية متاخمة لمملكة الافغان، فان أول إشاعة لهذه الحرب توجب لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية، وهذا جلي عند كل انكازي

ان التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسئلة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب و ليس للمصريين في طورهم هذا ان يركنوا إلى من ليس من أبناء جلدتهم، فان النعرة التي تحمل على الحمية تكاد ان تكون منحصرة بحكم الطبيعة في أبناء الوطن فلا ترجى من غيرهم، فعلى العقلاء من أهالي مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخلص بلادهم مستعنيين بأفكار الدول التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في انقاذها واعادة شأنها الاول وتحقيق ما يقال من أن (مصر للمصريين)

وبالجملة فالاطماع فغرت أفواهها، والافكار في اضطراب شديد، وظنون الناس شتى، فمن قائل ان المؤتمر لا ينعقد لتعسر الاتفاق بين فرنسا وانكلترا على القواعد الاساسية للمداولة فيه، ومن قائل انه ينعقد على ان يضع مصر تحت حماية عموم الدول، ويقرر انشاء مراقبة عمومية مع بقاء العساكر الانكليزية مدة سنتين، وعلى اي حال فلرزية انما تصيب الغافل، والسوء انما يحقق بالمنساهل، والجبان محروم من حقوقه، والعامل بيد غيره خاسر، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهروا الشهامة والاقدام، ويرفعوا علم الهمة ابقاء لحياتهم، وصونا لشرفهم، والامر لله يفعل ما يشاء اه

الحقيقة الناصعة في حلك الخيال الرائعة

(نبذة أخرى في تسمية أمر المؤتمر وحل منهاه بخدمة انكثرة لفرنسة)

جاء في المقالة الرئيسية للعدد الثاني عشر ما نصه :

أصفت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية، لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الاوربية، من يوم دعت انكثرا جميع الدول العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية، إلا أنها منعت دون حجاب كتمان، وإنما كانت تصل اليها دندنة أو جلبة، أو غمغمة أو جمجمة، وكل حس يصلها يثير رواكدا لاهام، فتتهيج فيها غرائب الصور والاشكال، والمذاعون (١) من أرباب الجرائد في أوربا وهم أشبه الداعين إلى الالاعيب والكوديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة، ويتنافسون في التمثيل والتصوير، للتغريب والتهويل، حتى أبرزوا الارض في صورة السماء والسماء في صورة الارض، خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وانكثرا، فكان يخيل لمتصفح جرائدهم أن البحار غاصت بالمراكب والمدرعات يصادم بعضها بعضاً، وأن فضاء البر أعزل بالجيوش المتلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلاً، وتجسم الخيال لأرباب الازهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع المعسكر وطرق المصاولة، وجموع المتلاحمين تجول في أذهانهم يميناً وشمالاً، ويموج بعضها في بعض، وكأنما كانت مخيلاتهم معرضاً لجيوش العالمين، وكأن في كل فوج داعياً، وفي كل قبيل منادياً، يقول حق هذا حق، فهيمات تتعالى، وزفرات تتصاعد، وإرغاء وإزباد، وتقطب في الوجوه وشزر في المناظر، وفي كل ذلك هول يأخذ بالالباب. والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حق قدرها كانوا يمتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحني الظهر،

(١) جمع مذاع بالتشديد وهو صيغة مبالغة من مزع (من باب نفع) اذا خبر بعض الامر ثم كتمه وقيل قطعه. ورجل مذاع متماق كذاب لا وفاء له والذي لا يكتم سرا

قد هوى بهامته إلى ركبته، يتوارى من الناس خجلاً بما ظهر من ضعفه وعجزه، وإن حكومة انكلترا ستمود بالخيبة (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الارعاد) وتقوت هذه الاوهام بما يطنطن أرباب الجرائد، وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة، وانبعثت رسل الافكار تجوس خلال الشؤون والاطوار، لتصل إلى شيء من هذه الاسرار، واجتمعت الارواح في الآذان، لعلها تسترق سمعاً عن تلك المداولات، وكنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبىء عن الحقيقة أو يقربها من الفهم. والجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق، وبعد طول الانتظار، كشف الستار.

فاذا عائدة الانكليز جالسة في هيكل آمون ويدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراعنة) متهيئة أن تضعه على رأسها، والملك العظيم وقوف بين يديها مستعدون لتهنئتها، كأنما كانت هذه المفاوضات والمخبرات اعداداً وتجهيزاً لاجلاسها على كرسي ميناس الاول ورمسيس الأكبر « لاحول ولا قوة إلا بالله » قام رئيس النظار الفرنسي في مجلس النواب خطيباً لبيان الاتفاق الذي عقده مع وزارة انكلترا ليرى النواب فيه رأيهم، وقبل ذكره أنفق مالدیه من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لاقتناعهم بقبول ما اجراه، تلطف في الكلام وابدع، وصوب وصعد، واتي على ترغيب يشوبه ترهيب، وبأس يحوطه امل، وادرج في طي خطابه ان فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء، وبه نالت اشياء، واوماً إلى ان وزارته لو طلبت ازيد مما حصلت لادى الامر الى ممانعة الوزارة الانكليزية، وافضى الخلاف إلى انقلابها، وربما يخلفها وزارة تطمح إلى الاستيلاء على مصر.

وجاء في نطقه بما حرك الطباع ومال بالاسماع حيث قال : ينبغي للسياسي قبل ابرام حكم ان يلاحظ جميع أطرافه ولواحقه . فهذه الكلمة الرفيعة بددت في السامعين آمالا، وظنوا ان المراقبة الثنائية قد اعيدت، أو تقرر اشتراك فرنسا مع انكلترا في الحلول العسكري، أو ابرم الحكم بخروج الانكليز من مصر. وبالجملة انهم فازوا فوزاً عظيماً، وبعد مقدمات طويلات بين الاتفاق قد

هو بعد امان النظر على هذا النحو ! ان الانكليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون ، وليس لنا ان نعارضهم ، فلا المراقبة الثنائية عادت ، ولا الاشتراك في التدخل العسكري أو النظر الاداري حصل ، ولا قررت حرية القنال على أصل ثابت ، ولا تحقق جلاء الانكليز على صورة قطعية ، ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين ، بل كما كان يلجأ اليه الانكليز عند نهاية العجز على ما أشار اليه كثير من سياسيتهم . فاذنبضت صدور النواب ، فلما رأى شدة تأثيرهم دفعة واحدة ، واحس منهم القنوط ، حاول احياء آمالهم بقوله انا سلكنا في اتفاقنا هذا مسلك سائر الدول ، ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف ، حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم . الخ

[يقول مؤلف هذا التاريخ]

(هذا ما بينه الكاتب من عاقبة المؤتمروخية فرنسة فيه ، ومحاولة رئيس وزاريتها اقناع مجلس نوابها بتصويب ما فعلته وزارته ، وقد قفى على هذا بتخطيطه وذكر دواته بما سبق من خداع الانكليز اياها في مسألة احتلال الهند واخراجها منها مخفي حنين ، أي كما خدعوها في أصل مسألة احتلال مصر ، ثم قال « والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء » فذكرنا بهذا كلمة قالها أستاذ التاريخ العام في المدرسة الحديوية في أواخر القرن الماضي وقد ذكر مثل هذا الخداع الذي عبثت به انكلترا بفرنسة مرة بعد أخرى سنة بعد سنة ، فقال له أحد التلاميذ انك كنت قلت لنا في العام الماضي مثل ما تقول اليوم فكيف تتخذ فرنسة هكذا لها وتلدغ من الجحر الواحد مرتين ؟ قال الأستاذ الفرنسي : وهل انتهى هذا الخداع والانهاد بمرتين ؟ كلا انها ستخذعنا في المستقبل أيضاً فتخذع !!

فلله در الحكيم الافغاني ، والامام المصري ، ما أبعد نظرهما ، وأدق علمهما بامور الأمم ، وسنن الاجتماع في البشر ، وحقائق السياسة في الدول !!

وقد قفى على هذه المقالة بمقالة أخرى في بيان (الاتفاق) الذي عقد بين وزارتي فرنسة وانكلترا وتواطأتا على أن يكون موضوع البحث في المؤتمر وأشار إليه رئيس الوزارة الفرنسية وهذه خلاصته :

(المادة الاولى) أن يستمر الجيش الانكليزي في الاراضي المصرية الى أول يناير سنة ١٨٨٨ . (أي ثلاث سنين ونصف) ثم لا ينبغي عنها الا بعد انعقاد مؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الاخلاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول . فان خالفت في ذلك دولة واحدة كان لانكلترا الخيار بين الجلاء والبقاء !

(المادة الثانية) إلغاء المراقبة الثابتة على أن يعوض عنها بتوسيع السطة لصندوق الدين العمومي فيمنح مجلسه حق الاطلاع على نفقات الحكومة المصرية ويكون له حق الاعتراض على ما يزيد منه على المقرر في الميزانية من أول سنة ١٨٨٥ الخ

(المادة الثالثة) حياذ مصر وحرية القتال

وقد بين في المقالة دخائل كل مادة من هذه المواد وعواقبها ، وسوء سياسة الوزارة الفرنسية فيها ، وكون هذا الأود والاعوجاج فيها لا يقيمه الاحمية الدولة العثمانية ، وحرص مجلس النواب الفرنسي على المصالح الفرنسية .

وقد صدق بذلك رأي العروة في الانكليز من أنهم يبلغون ما يرغبهم دائما بالخداع والكيد ، لا بالقوة والايدي . فهي قد خدعت فرنسا وغيرها بالاجل القريب الذي ضربته لانتهاه الاحتلال - وهو ثلاث سنين - من حيث وضعت للجلاء بعده شرطا لا يمكن وقوعه الى يوم الدين ، وهو اتفاق الدول واجتماعهن على أن الجلاء عن مصر لا يضر بالنظام الداخلي لها ، ولا بمصالح الدول المشتركة فيها ، ومتى اتفقت هذه الدول على رأي من الآراء وعمل من الاعمال ، في أمثال هذه المسألة التي تختلف فيها المصالح والاهواء ؟

ثم متى تكون هذه الدولة الداهية عاجزة عن استمالة دولة أو أكثر الى الخلاف في هذا ؟

الشاهد الخامس

في تحريض الدولة العثمانية (*)

الباب العالى والنظيم

يهم المسلمين في كل أرض أمر ما يجري في مصر بل تذهب نفوسهم حشرات كما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلاً أو حامياً ، وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فانها بهرة الاسلام وباب الحرمين الشريفين ، فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه ، والمسلمون في قلقهم هذا ينظرون الى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية والمعنوية ، يرجون منها عزيمة ثابتة تنقذ بها الاراضي المصرية من تبويء الاعداء ، ويحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الامم ، وتصان بها ولاية الاسلام من السقوط في حبال هذه الدولة الداهية « دولة الانكليز » التي أخذت على نفسها أن تبديد ولاية هذا الدين وتحول حابله على نابله * هذا فضلا عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ما سكتها على مصر ، فان قضي فيها الامر لغيرها « والعياذ بالله » أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر * فهذه دولة الانكليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفا لا يحس به عند بدئه ، ثم يذهب في البدن فيفسده ويبيليه بدون أن يشعر المصاب بالالم ، هكذا شأن الانكليز في ايهم وتلطفهم ، وحلاوة وعودهم ، وتلقفهم وخضوعهم ، يسلبون الممالك ما سكتها بل الحي حياته ، وهو مأخوذ بما يشعرون له . ولا ريب في أن الاهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب ، فان كل مسلم وله الحق يعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الاقطار .

إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون بها ، ويحسبون أنفسهم في عداد الامم التي لم تذهب سلطتها ، ويعتقدون أن لهم سلطانا قويا في الدولة العثمانية ، بل يرون أن خلاصهم

من قيد الرق الانكليزي لا بد أن يكون يوما ما بسعيها ، وقد أظهرت أيام الحرب الاخيرة آثار لحتمهم معها بالاحمة المالية بما لم يبق ريبة لمرتاب في شدة صلتهم بها . لهذا كذا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هذه الازمان الاخيرة عند ما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة ، وتصارعوا في المفاوضات والمجادلات محاماة عمالهم في المصالح في مصر ، مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة ارضاء لخواطر المسلمين عموما ، واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها ، وحماية عن تمالكها أو أهم مملكة منها ، إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المتعقد بين فرانسوا وانكلترا في المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الحل الانكليزي في مصر وأظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكف الانكليز عن حرصهم ، ورغبة ما فيه أنه يستتبع مدعاة الدول والدولة العثمانية مع الانكليز ، وبرهن على أن بقاء العساكر الانكليزية في مصر ليس بضروري في حل المسألة فان كانت الدول لا ترى في العساكر الاهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل فالباب العالي مستعد لارسال العساكر اليها على ما تقتضيه حقوقه فيها ، كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ولكن حال دون الاجراء موانع سياسية . فان لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل فانه يعرض عليها أن يحل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين وفرنساويين وانكليز وايطاليان واسبانيين وإلى الدول تعيين الاجل في الوجهين وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشا لخواطر الانكليز حيث قال ان الانكليز قد أنهموا أعمالهم في محو العصيان وثبتت سلطة الخديو الا أنهم لم يأتوا في تحسين حال مصر وتقويم نظامها الا بما فيه اجراء بعض مقاصدهم السابقة

وانا نقول كما يهتف به كل مسلم إن من فروض الدولة العثمانية أن لاتدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانكليز عنها ، وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الآستانة ، وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي لاتعقب مطراً * ومن الحق أن نقول إن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا

البيت البلوري « بيت العظمة الانكليزية » بحجر واحد، فاذا اشتدت الازمة تيسر لهم السعي في الوثام بين الايرانيين والافغانين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا إلا كبتين يستندان إلى أصل ديني قويم، وعندها يعرف الانكليز مقام أنفسهم في الاقطار الهندية ، والممالك المشرقية .

هل تسلط الانكليز في الاراضي الهندية الواسعة إلا بسبب الخصاصات المذهبية التي كانت بين الافغانين والاييرانيين ؟ ولو نظرنا اليها نظر التحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ، ولا رية عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الامم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا في نفوس المسلمين قاطبة . ولا يظن أن اعتصام الانكليز في جزائر بريطانيا والهند يتحصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لا تقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد مسالك بين الممالك العثمانية والانكليزية ، فإن الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الافغان والاييرانيين ، واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين

هذه طريق محمرة وبتدر عباس إلى بلوجستان مفتوحة للسالك ، مطروقة لسابل ، وهي الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند . ان هذه لجولة لو كانت لا تثار في وجوه الانكليز غيرة يضلون فيها عن رشادهم . ومعلوم أن الحي لا يسلم نفسه للموت بلا مدافعة مادام قادراً عليها . يكفي لقيام مليون من المقاتلة الافغانين والبلوجيين تحرك خمسة آلاف عثماني إلى أحيائهم .

لست أبالي أن أقول الحق : اذا حصل التساهل في أمر مصر انفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة ، وعزت بعد هذا وسائل التلافي ، فلتأت الدولة العثمانية على مافي الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم اه

الشاهد السادس

خاص بتنبيه الخديوي توفيق باشا ورجاله دولته

(ان العروة الوثقى لم تكن ترجو من الخديوي توفيق باشا أدنى عمل ولا أدنى مساعدة لمن يعمل ويسعى لجلاء الانكليز عن مصر وانما كانت تطالب بتسليم أمر البلاد الى أولي العزم فيها، ولكن وصلت اليها اخبار من مصر بأن الانكليز استولوا على قلبه، فصار يعتقد أن بيدهم أمر بقائه في منصبه، ومما أخافوه به إمكان ارجاع والده، وانهم استمالوا بعض المصريين من المسيحيين وغيرهم الى مساعدتهم على تثبيت اقدامهم في مصر فكان هذا سببا لكتابة عدة تنبيهات منها مقالة عنوانها

عمى بعض الناس في مصر او تعاميمهم عن مقاصد الانكليز فيها (١)

قال في آخرها بعد شرح طويل في تصرف الانكليز في مصر وما يعملونه به :
هذه كلها اعمال يزعمها الانكليز حجابا لما يسعون اليه من الاستعلاء على عرش السيادة في مصر وخطط الرحال في حزونها وسهولها .

فلم يبق بعد هذا سوى ان ينتبه الغافل ويلتفت صاحب الامر الى ما يحتمل به ليحترس من هذا الكيد العظيم . ولا يعين الانكليز على مقاصدهم جهلهم او اغتراراً بما يخيّلون له من نفع يعود على شخصه او بلاده . سبحان الله هل كان مثل هذا الامر يحتاج الى تنبيه ؟ هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق ، لا تفيدهم التجارب ، ولا تربيتهم المحن ولا تعلمهم الحوادث ، ولا تدريبهم النوازل وتناوب الرزايا والمصائب . من له أدنى خبرة بسير الانكليز في ماضيهم لو حاضرهم يعلم انهم يملكون البلاد بأيدي سكانها ، ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم

يرى الامير الشرقي هذا في أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهم عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره، فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره، مثل الاغنام يسوق الجزار منها واحداً بعد واحد الى المجزرة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده يرعى ويرتع آمناً مطمئناً حتى يفنى (١)

لأعار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة اذا تغلبت عليها أمة اشد منها قوة واكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح . وانما العار الذي لا يمحوه كره الدهور ولا ينسيه تطاول الازمان ، هو ان تسمى الامة او احد رجالها او طائفة منهم لتمكين ايدي العدو من نواصيرهم ، اما غفلة عن شؤونهم ، او رغبة في نفع وقبيح جزاء نقدي على خيانتهم ، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية ، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية ، ونوقد نيران الغيرة الجنسية ، لنخيب آمال الانكليز ونرد كيدهم في محورهم ، ونقذف بأولئك المغفلين الذين يميلون اليهم خارج تخوم هذه الحياة (٢) ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويذوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون ، هذا اذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق في محبة الاوطان ورعاية مصالحها ، فان تابوا وأصلحوا وانابوا كان الحق ظهيرهم ، وكان الله وليهم ونصيرهم ، وهو نعم المولى ونعم النصير

(١) نظم هذا المعنى ابن دريد فقال في مقصودته الشهيرة :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلي فارتعي

اذا احس نبأ ربع وان تطامنت عنه تمادى ولها

وهكذا شأن البشر في حال الادبار والانحطاط الاجتماعي . روى المؤرخون ان رجلاً من التار الخريين صادف مائة رجل في احد أزقة بغداد فذبهم واحداً بعد آخر وهم ينظرون ! فم كانوا يخافون ؟ وهل بعد وراء هذا الذبح شيء يخاف منه ؟ ان امثال هؤلاء احقر واصل من الغنم لان الغنم لا تدري ما يدرون

(٢) هذا رأي السيد جمال الدين في الخائنين لاوطانهم بمساعدة الاجنبي عليها

لأعلاج له عندم إلا القتل

الشاهد السابع

في سياسة دول أوربية في المسألة المصرية ومكان العثمانية والحكومة المصرية منها

*)

سقوط المؤتمر وسياسة بسمارك فيه

حركات العقلاء على حسب المقاصد ومقدرة بقدرها ، وأولاها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شؤون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر . على رعاة الأمم في كل مملكة أن يكونوا بمرصد لكل حركة سياسية ، ويمرّق للنظر في غاياتها والتنقير عما يبعث عليها . رب نهضة من سياسي عظيم تميد لها الراسيات في كل دولة ، وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة . فليس لمحك في السياسة أن يقصر نظره على ما عنده ، ويرد كل حادث سياسي إلى مارسم في مخيلته ، واعتقده موافقا لمصلحته ، فيضل عن الرشد بالقصور ، ويغيب عنه الحساب بالغرور ، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الأملكان ، ويتلوها في صفحات المنافع والمضار التي يحمل على جابها أو يدعو إلى دفعها طبائع الأمم ، ولوازم مليتهم ، ومواقع بلدانهم ، وعلاقتهم مع من سواهم ، حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب والدوافع حافظا لمداره ، واقيا لنظام سيره . يكون على غوارب أمواج الحوادث كالماح الماهر ، يضرب بسفينته عروض البحار ، في أمن من الاخطار ، يستفيد حتى من العواصف ، وينجو حتى من القواصف .

كانت حكومة فرانسا أشد الدول في دفع انكسارها عن مطالبها المالية وبهذه الشدة سقط المؤتمر ، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا في (اسكيارنيا فيس) . ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول المخابرة ومعهم وزراءهم ، رجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي وبعد الغاية . هل كان هذا التلاقي لاطفاء لوعة الشوق وإجابة داعي المحبة الشخصية ؟ لا . هل كان كما

قاله بعض الجرائد للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين ؟ كيف يكون هذا وليس أعوان الفوضى إلا كصوص تقمعهم السطوة الداخلية، ويكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخابرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية . ماتقوله الجرائد من هذا القبيل انما يقصد به التعمية وصرف الاذهان عن النظر في الحقيقة

أي غرض عظيم دعاهم للاجتماع ؟ لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فان حكم المنافسة محافضة الايثار . قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك والبارون دو كورسيل سفير فرنسا في برلين . هل يريد البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الامبراطوري أن يجعل لفرنسا ركنا شديداً في معارضة انكلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضي إلى حرب توهي القوة الفرنسية ويصيب منها ما يجب ؟ هذه قائدة خاصة بدولة الالمان لو قدرت على نيلها فاذا ينال الدولتين المنافستين لها من الاتفاق معها ؟ و يريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقطيب جراحها بتأييدها في رغباتها فتكون المصافاة بينها وبين المانيا وتنسى الاحقاد بينهما ؟ غاية لا تطالب والشأن فيها كسابقتها . هل يقصد البرنس مجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الاهانة التي لحقته في المؤتمر . ان كان هذا فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصي لا يمس المصلحة المشتركة . هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك والفتوح في الشرق وإلى هذا القصد تنتهي ؟ أيصح أن يكون ذلك الامر الكبير وسيلة لهذا الغرض الحقير ؟ على أن انكلترا كانت أقرب إلى المانيا في هذه الوجهة وأجدر بأن يميل اليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية . هل أراد البرنس أن يختل الروسية ويلهي فرانساً بالمسألة المصرية لتنام الاعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك وبوسنه الى ماشاء الله ووسعت القوة ؟ شفقة في غير موضع، وصنعة في محل القطيعة . هل أحب البرنس أن يتمتع نظره بشهود الفتوحات فبعد ما فتح للنمسا باباً في للشرق من جهة هرسك رسم للروسية طريق هرات وقندهار، ومد لفرنسا خطاً في حدود تونس وهو قرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها وان لم تعد من ذلك

فائدة على الامة الالمانية ؟ شيء لا يأتي عليه الفكر ولا يصيبه النظر .
 هذا ولا يصح لنا أن نقول إن الحلف العظيم بين القياصرة واهتمامهم بتأكيد
 الروابط بينهم لمجرد كف يد الانجليز عن مصر وابقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك
 على ما كانا عليه، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مكاتب التان البرليني، قال ان في عزم
 البرنس بسمارك أن يؤيد الحجة الفرنسية بثبات شديد و ارادة صحيحة، وسيكون مع
 فرانساً بدءاً واحدة في ابقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه، وفي زعم المكاتب
 أن هذا كان باعثاً لسياسي انكساراً على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين المانيا
 والنمسا وبين فرانساً . فان المسئلة المصرية بمجرد ما ليست مما يدعو الى حملة عمومية
 اني أرى تحت هذا النقع جحافل أهوال ، ووراء هذا الغيم وابلات
 أرزاء ، أرى تنقلا قريباً في حدود الجغرافية السياسية ، وتغيراً عظيماً في الخطط
 الدولية ، وانقلاباً في هيئة الروابط العمومية ، نعم قد يكون من المبادئ الاولى
 لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرانساً فانه لم يجد خيراً في مناوأتها
 زمناً طويلاً ، وكما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعاً، فريد أن يجرب صداقتها،
 كما جرب عداوتها ، وأن يدفع البرنس دولة الروسية الى آسيا فهو اسلم للدولتين
 الالمانيتين ، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولى وجهها وفيما تخلفه
 وراءها فائدة البرنس النقدية

(ثم قال بعد تقليب الآراء ما يأتي وهو ما أردناه من المقالة)

قضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزء من
 أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فملها التيقظ التام والاحتراس الشديد كيلا
 يكون خسارها في استفادة غيرها . اذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت
 حقوقها وصانت بقية ممالكها . الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة، والاخرق
 الغافل عرضة لكل خطر . الدول تطلب نكابة الانكليز من كل وجه فما الذي
 يمنع الدولة العثمانية من مجارة الدول العظام وهي أقدرهن على الاضرار بهم،
 فانهم في بلادها يعيشون فيها مفسدين، وسكان البلاد لا ينتظرون الا خطوة من
 دولتهم اليهم، فيقيمون القيامة عليهم؟

الشاهد الثامن

(في تحريض المسلمين عامة والسultan والمصريين خاصة على الانكليز)

زلزال الانكليز في السودان^(*)

نقلت الجرائد الانكليزية تلغرافاً ورد إلى جريدة الستندارد من دونقلا
نم كررت ذكره وثبتت مفاده أياماً متواليات ومحصلة : ان الاسن تلهج في
مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الانكليزية بقدم جيش محمد أحمد والحديث
مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف اليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء
والآخر على شطوط النيل وأنهم لابد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لا قبل لهم
باحتمالها ، وقد استولى بذلك الاضطراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصاً
عساكر مدير دونقلا لا خوفاً وفرعاً فقط ، ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا اليه من
أن السلطان راض عن أعمال محمد أحمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين
في تلك الاطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الانكليز في منزلة
العدو اللدويقاوموهم مقاومة الآيسين اه

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي
في معاكسة سير الانكليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والامكان قياماً
بما يوجبه الدين والوطن ، ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر
سلطاني ، فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار
الارض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه ،
بل توجبه في مدافعة الباغين عليه ، وتدعو كل ذي عقل لاخذ الحذر من حيل
المحتالين ، والتوقي من الارواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور
منها ما يخطف برونقه الظاهر لب الالباب ، ويذهب بهاؤه الصوري بنور الابصار ،
وهي منابع الشر ومصادر الفساد ، ومهب رياح النتن والاختلال .

(*) مقالة نشرت في العدد ١٨ بتاريخ ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ - ١١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤

تلك أرواح الاجانب و نفوس الاباعد الذين يهتكون حرم البلاد، ويخفضون شئون العباد، ويغمطون الحقوق، ويفسدون الاخلاق و يذلون النفوس المدافعة عن الوطن أمر طبيعي وفرض معاشي يكاتف في دعوة الطبيعة اليه الميل إلى الطعام والشراب ، فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه . نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مرايا التواريخ عند ما يمر الناظر اليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة ، وصيغت لهم هياكل من اللعن الابدي، مسرولة بالخزي والعار السرمدى ، هكذا يعرف الشيء بضده

لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بضمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر، وعلى أي وجه انقلب . القادر على فكر يديه ، او تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الاعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن. من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان. من سوف عمل اليوم إلى غد ، وتواني في تضليل كيد الاعداء بقول او فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة ، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على السنة الانبياء والمرسلين، وممقوت في نظر العالم أجمعين

ما أعظم جريمة الخيانة « المساهلة في شؤون الاوطان » يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه، إلا وصمة الخيانة، فلا تطوبها الادهار ، ولا يخفيها تطاول الاعصار، محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين . لوث على وجه الزمان ، ودرن في صفحة الامكان، مكنته باللعة محفوفة بالوقت إلى أبد الآبدين ، لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مها تداننت في الادراك تشمر بعظم جرمه فلنرجع إلى موضوع كلامنا كنا على يقين ولا نزال عليه ان الذات الشاهانية وهي الأب الاكبر لعموم المسلمين ، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين ، هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الاعداء في البلاد الاسلامية ، وهي لاتألو جهداً في تعويق سيرهم واحباط

أعمالهم ، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص
الامم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الاجنبية ، وانه لخرج
الصدر من أعمال الحكومة الانكليزية ، وعدوانها على الحقوق العثمانية والاسلامية
والمصرية ، بلغت غشمة الانكليز إلى حد لا يحتمل فليس من الغريب أن تضيق بها
للصدور ، وتفيض بالغيظ منها القلوب ، وتبلى منها دروع الصبر ، وتذوب سابقات الجلد
فيأيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم
وشريعتم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا : زحف العدو اليكم تحت راية
المحبة ثم قلب لكم ظهر المجن ، وتناول بيده الظالمه شؤونكم العامة من عسكرية ومالية
وإدارة وقضاء ، ولم يبق لکم شيئا إلا الحرمان من خدمة أوطانكم وأنتم أحق بها ،
وطالما دافعت عنها في الايام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ،
ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استمالة القلوب اليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف
به اذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخلا له الجو من المعارضين ؟

ماذا ترجون من مطاولته ، وماذا تؤملون في إرخاء العنان له ، وماذا تهابون في
معارضته والاخذ على يده ؟ أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رأيتم انه
أفسد شؤونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخدم ، وأقر آلافا مؤلفة
من العائلات ، ووهب من بلادكم لأعدائكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة
وتجارة وصناعة ، فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص
بأمور دينكم (كالأوقاف) ونعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم ،
وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها ؟ فماذا تخشون منه ؟

هل تخشون ان تنقص أموالكم ونمرات كسبكم اذا أدبتم حقوق وطنكم ،

ودافعتم عدوكم ؟ ربما يحتاج هذا بخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر ، أنتم واقعون
بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الاموال والثروات ، وفاضت العبرات ، وزادت
الحسرات ، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً ، وأوسعكم خراباً ودماراً ، ان
رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غني الا افتقر ، ولا عظيم الا احتقر ، وإن
شتمتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم ، واقروا حالكم في توارخ من سبقكم .

هل تخشون اذا قتم بفروضكم أن يأتي الخطر على حياتكم؟ يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة. الدول متألبة عليه يترقب منها في كل آن مطالبة بنتائج أعماله، ومحاسبته على عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية. انه مسرع في سيره منطلق الى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيئاً، ومقرراً أميناً، ولا يخفاكم ان المسرع في جريه يكبه على وجهه عشرة في مدره، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذه طفيفة، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم وجهرتم بذلك، لرأيتم أن ماء سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقتم سيره، واستعلتكم بقوتكم على ضعفه، وأقمت للدول حجة قوية في كبجه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، وتحويلها لسلطة تحفظها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة، أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيوشه أعالي البلاد المصرية «لأناله الله ذلك» صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول في معارضته إن أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر، فلو تمكن عدوكم بسكونكم من اظهار قدرته، وإقامة الدليل على كفايته للولاية عليكم، فقد فاز بالسيادة فيكم، وأصبحت دماؤكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جوره

في امكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في امكانه أن يضر بكم، فاذا مضى زمن انعكست القضية، وأصبحتم في عجز عن مقاواته، وأصبح وفي يده عصي الجبروت لا ذلالكم، ان كنتم تخفون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم؟ أليس يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة ويهانون ويدلون، وكثير منهم يقتلون؟ ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم، وحرركات دمائكم في أبدانكم، كما فعل ويفعل باخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لا يبقى على أحد منكم. فأنتم اليوم أصحاب أمركم، وهذا قصده اليكم، وفي امكانكم أن تستعينوا الله في التحصن من خطر آجل،

بدون ضرر عاجل ، فان شئتم فارحموا أنفسكم ، والا فأنتم ساقطون فيأمنه تخافون .
 يا قوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محبب حتى لعدوه ، والحيان
 مبغض حتى لأبيه وأمه ؟ تعلمون انه ماعز قوم بالخضوع ، ولا استهين شعب بالاباء ،
 لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عن سواكم ؟ أستم تتشابهون في الخلقة مع
 أعدائكم ؟ أستم تمتازون عنهم بالإيمان الصادق ؟ والعقائد الصحيحة ؟ أستم
 تنتسبون الى أولئك الابطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ؟ أستم تدعون
 انكم أشرف عنصرآ ؟ وأكرم جوهرآ ؟ فان قتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر
 مما يصيب أعداءكم ؟ ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الخسار فهم يرهبونه ،
 (انهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله مالا يرجون)

لاي شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على مائيس له ؟ ولاي سبب
 لا تقدمون بشيء من شهامتكم في حفظ ما هو لكم ؟ ان هذا لشيء عجاب . هل
 نذكركم بقول شاعركم :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يرق على جوانبه الدم
 ليس هذا مقام التذكير ، وليس المكان مكان المباراة في المجد والمسابقة الى
 معالي الامور . انما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة ،
 فان لم يستفركم طلب العلاء وسمو الهمم ، فليستفركم تصور الشقاء المنتظر ، الذي
 رأيتم بوادره ، ونعوذ بالله ان تدرككم أواخره .

أستغفر الله لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة . لا يزال دينكم
 يترقب منكم حمية عليه وغيره لدفع الغائلة عنه . ان صاحب الدين ﷺ ينتظر
 فيما يعرض عليه ، من أعمالكم نهضة لاعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه ،
 وان الله في عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم
 ويعلم الصابرين (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله * ولا تتبعوا خطوات الشيطان
 انه لكم عدو مبين * ولا تموتوا ولا تحزنوا وأنتم الا اعلنون ان كنتم مؤمنين) اهـ

[المؤلف] هذه آخر ما نشر في العروة الوثقى ونشر قبلها مقالة كأنها نار
 جهنم سميرا ، وتغيظا وزفيرا ، وحسبنا هذا النموذج التمثيلي ، لذلك العمل التاريخي .

مسألة السودان

وسياسة الحكيمين فيها

تقدم في ترجمة السيد جمال (ص ٢٨) إشارة إلى ما كان يقصده من العمل في السودان هذا نصها

« وأما ما قصد إليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندرة أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال، فقد عظم أمر محمد احمد القائم بدعوى المهديّة بالسودان في نفوس الانكليز، وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان إلى انكلترة من الاخبار، حتى أقنعا الحكومة الانكليزية باخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها إلا بحجىء البرق بنبأ وفاة محمد احمد » وقد كان لما من الساعي في مسألة السودان ومهيد السبل إلى العمل فيه بعد ترك

الدولة الانكليزية له مالا فائدة في بيانه . ويحمد قاري . كتب الاستاذ الامام إلى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى اشارات في بعضها إلى بعض ذلك كما يرى في الرقيم ٦ من كتبه الاصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني) * اهـ

هذا ما كتبه في هذه المسألة عند البدء بتدوين هذا التاريخ عقب وفاة الامام وكنت عازما على الاقتصار عليه لعدم الحرية التي كانت تسمح بالتوسع فيه، ثم بدا لي أن أزيد له الآن فأقول : يرى القاري . في فاتحة العروة الوثقى ان مسألة دعوى المهديّة في السودان كانت ركنا من الاركان التي يعتمد عليها الحكيمان في حل الانكليز على ترك السودان والخروج منه بما عظم من أمر هذه الدعوة وما كانا يتوقعان من استغلالها إذا استفحل أمرها ، وقد تكرر في العروة الوثقى ذكر هذا الموضوع ، وانني أذكر هنا بعض الشواهد منها في ذلك لما فيها من الفوائد التاريخية والادبية وآيات البلاغة ، ثم أوضح ما كنت أشرت اليه من ذلك السعي

(* هذا الرقم للطبعة الاولى وقد نفذت نسخها وطبع طبعة ثانية يقع الرقم

المذكور في ص ٥٥٥ منها

الشاهد الأول

في مقالة نشرت في العدد الاول الذي صدر في ٥١ جمادى الاولى سنة ١٣٠٥ (١٣ مارس سنة ١٨٨٤)

سياة انكلترة في الشرق

هلع على ما في البيت فهرع لاغلاق الباب فانخلع المصري وانقض الجدار من ورائه هذا شأن دولة بريطانية في الهند وقنال السويس . قصارى بغيتها أن تكون حي أمن على هذا الباب ، وكان سهلا عليها أن تخلص النية في مسالمه أرباب الولاية عليه فيقونه بارواحهم وأموالهم ، ثم هي تفوز بفوائده إلى الابد إلا أن جيشان الاوهام ، وموحشات الاحلام ، دفعته المباشرة حمايته بنفسها ، فاذا الامر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم أرادت انكلترة بعد تبوئها أرض مصر أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بانكليزية ، (١) وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة ، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بأنه صار من الضروريات لتنظيم أحوالهم ، وإقرار الراحة بينهم - وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة ان تمت لولا مالدولة انكلترة من تقسيم الممالك التيمورية في الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أكبر الاسباب وأصغرها لاستيلائها على الاقطار الهندية وأنا لنأسف على التماوت بين الزمانين ، والتباين بين المكانين ، فلا الاحسان الانكليزي يسهل تميمه ، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنيله ، وخطر الامر من غير يسير

(١) الفصيح في مثل هذا التركيب المشهور ان يقال : وأن تبدل العساكر الانكليزية بوطنية ، لأن الباء تدخل على المبدل منه لا على البدل كقوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) ولكن جرى الاستاذ على التعبير المشتهر بين الناس وفي الجرائد

ظهرت دعوى المهدوية في السودان ، واشتد أزر القائمين بها بمسارعة الانكليز الى التدخل في مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعي بعد مآراق دماء غزيرة ، ودبت روح دعوته الى سواحل البحر الاحمر وحدود مصر الطبيعية ، وأمالت القلوب اليه نفرتها من السلطنة الانكليزية

يقرب من الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب في فيافي طرابلس أوقاربت وان هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتيانه لاتلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء . وعند ذلك يمسى باب الهند بين أسنة النيران من ثلاث جهات . أيبعد عند العقل وبريطانية لاهية بانقاذ الباب أن تتقد النيران في البيت ؟ الخ [المؤلف] ذكر بعد هذا في المقالة شيء من عمل غوردون في السودان وبقيتها إنذار بزحف الجيوش الروسية على الهند ، ورسم طريق الزحف من الشمال وذكر اقبال التي في هذا الطريق ومذاهبها وأساليب استمالتها وقد تقدم بيان هذا في محله

الشاهد الثاني

انتصار السودانين على الجيوش الانكليزية (*)

وتأثيره في ضعف هيتهم الوهمية

أشدها كانت هية لانكليز وملكتهما على قلوب الشرقيين قبل تكتيب الكتاب وعقد الولاية وسوق المساكر لمقاتلة عثمان دجه على أميال من سواحل البحر الاحمر كان يخيل للسودانيين بل يلبس اعتقادهم أن القوة الانكليزية مما فوق الطبيعة ، وعن مثلها تصدر خوارق العادات ، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار آخر ان غرائب القدرة البريطانية بلغت مبالغ السحر ، تدهش الالباب وتحير العقول ، واذا خلع في صدر أمة صغيرة او كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق ، او تناوئها في مرغوب ، انشقت الارض وانفطرت السماء

(*) ماخص المقالة الافتتاحية للمدد الرابع والعنوان لنا

عن كفاة من الانكليز يصبون عليها أسواط العذاب ، ويذيقونها أليم الوبال ، ويخلعون الارواح من الابدان ، خصوصاً اذا كان مغالبوهم لا يحملون من السلاح إلا نوعاً من الصنع القديم مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض إلا ان هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان ان تسوق جيشاً للايقاع ببعض العرب في نواحي سواكن فتحركت الجيوش المنظمة لملاقاة عثمان ورجاله ، وبنى القواد في الزحف قلاعاً (مربعات) من المساكر الباسلة مدرعة بلوأم^(١) من حراب البنادق (السنج) مسيجة بالآلات الجديدة من صنع رمنتون وهنري مارتين على اجود طراز يكون منه ، وحصنها بآراج من المدافع لاندانيتها من سكان تلك القفار قوة ، ولا تسمو اليها منهم قدرة

لكن قوة اليقين أو تحكم الجهل دفع على الصنف الانكليزية جماعة من عراة العرب وحناتهم ، فهدموا قلاعها ، وتقصوا بنيانها ، وقوضوا أبراجها ، وبعد تدافع وتصادم ، وتقدم وتأخر في موقعتين عظيمتين كرا الانكليز إلى سواكن (ساحل البحر) وأخلوا ساحات القتال ، وتقهقر العرب إلى الجبال ، وعج الانكليز « غلبنا وانتقمنا » !

ماذا أثرت هذه الغلبة المعجية في نفوس السودانيين ؟ ثبتت أقدامهم ، وقوت جأشهم ، وجمعت كلمتهم ، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب ، فجمعوا قواهم واستعدوا للقتال مرة ثالثة ، فحرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من ملاقاته خصومهم ، لان شدة الحركة كانت من أعدائهم — إلى أن قال — وما حل بغوردون قد أسقط من شأن الانكليز وقوتها في أقطار السودان عموماً وجعل كلمتها هي السفلى وبعث على الاعتقاد بأنه إحدى كرامات محمد احمد ولا حول ولا قوة إلا بالله

خطب يعقوب خطباً ، وكرّب يحدث كرباً ، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب ، وأحدثت هزة في قلوب الهنديين ، فكشروا

(١) اللوأم كغراب هي التي يلائم بعضها بعضاً من قولهم سهم لأم : له ريش لوأم أي متلائمة بوضع بطن كل قذة منها إلى ظهر الأخرى. استعمله في الحراب بدل السهام

النوابون والرجوات^(١) عن أنيابهم ، ومدوا سواعدهم ينظرون إلام تطول ، ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد ، ويلمح الفرص من خلال هذه الحوادث

انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيش الانكليزية من مصيبة (هكس) إلى مابعدھا في جميع أرجاء الهند ، وترى الناس زرافات وفرادی يتناجون في هذه المسألة ، ويرجعون على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل ، وهم على رغبة من الامل ، يستطلعون سوايح الفرص ، خصوصاً المسلمين منهم - كما أنبأتنا به الرسائل الواردة الينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن ان الدولة الانكليزية وعماد قوتها الايهام والتعريض يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الاولى في نفوس الشرقيين

(وهنا حرض الدولة العثمانية على الاخذ بالحزم وقوة العزم في مسألة مصر والسودان ودين لها ان هؤلاء الانكليز الذين لا يعاملونها إلا بالتهديد والارهاب لنيل أغراضهم لا يمكن أن يشهروا عليها حرباً لما يعلمون من محبة مسلمي الهند لصاحب السلطة الاسلامية ويوقنون بان ذلك مقوض لسلطتهم في الهند لأول وهلة ثم قل) الاعتقاد بمحمد احمد أخذ سبيلاً الى قلوب الهنديين حتى كتب الينا أحد أصدقائنا في لاهور : ان محمد احمد لو كان دجالاً لا وجبت علينا الضرورة ان نعتقه مهدياً ، وأن لا نفرط في شيء مما يؤيده (ثم ختم المقالة بالنصيحة المرادة منها فقال) فما آخر الحيل ؟ أيكتمى بحفظ القتال مع ترك الفتنة يسري لھيها إلى مصر العليا بل إلى السفلى ؟ اني أخشى كما يخشى العقلاء من شيوع هذه الدعوى وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة انكلترة وبكل من له حق في مصر ، فعلى الانكليز كما نصحننا مراراً أن يصونوا بلادهم ويحفظوا طريق الهند بتفويض الامر إلى العثمانيين وأولي العزم من المصريين قبل فوات الوقت — وإلى الله ترجع الامور اه

الشاهد الثالث

أمانى انكسرة في حركات محمد احمد (*)

صرح اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات بان المقاومة الشديدة التي لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان في سواحل البحر الاحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة في تمكين سلطة محمد احمد في البلاد السودانية يريد من هذا انه لم يحماهم على الثبات والتمسك على الموت عدوانهم للاتكليف ولا طمعهم في توسيع الفتح وانما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد احمد في السودان خاصة . وهذا من اللورد إما غفلة أو تغافل عن لواحق دعوى المهذوية بل لوازمها التي لا تنفك عنها ، فان القائم بهذه الدعوى لا يقف في سيره عند غاية ، ولا يقنع بملك ، وانما يريد بسط دعوته في أقطار العالم ، وأخياء الأوامر الالهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي النيابة عنه في تبليغها وصيانتها في نفوس الناس كافة ، وسواء كان صادقا في دعواه أو كاذبا . فلن يتم له أمر وان تمكن له سلطة في بقعة من بقاع الارض سودانا كان او مصر أو غيرها من البلدان إلا يتقدمه الى ما وراءها ، حتى يعلي كلمة دينه ، ويرد الى الحق من انحراف عنه ، ويكون له التصرف التام في قلوب المسلمين ، ويأخذ منها مكانا عليا يشرف منه على مطامح دعواه في غيرهم من الامم ، وسواء يسر الله له النجاح في ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن . ولكننا نتكلم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة ، وبعد الوقوف على ماينبأ يسقط من النظر قول اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات ان حكومته لم يرد لها خبر بحماها على الظن باستعداد محمد احمد لقبول إمارة كوردان والاكتفاء بها ولا يعلم هل قبول محمد احمد لتلك الولاية يكون حجابا بينه وبين التقدم الى سواها ، فقد علمت أن محمد احمد لم يقيم بدعوى الملك ، ولا طالب حقا له في الإمارة كان

(*) مقالة وجيزة نشرت في العدد الرابع أيضا

يرثه عن آبائه وانما قام بدعوى لانهاية لا طرفها إلا عند حدود السطوة الاسلامية فليس يكافي، قوة دعوة اسلامية إلا عزم اسلامي . ولن يكافح هذا المدعي ويرده الى قدره إلا رجال مسلمون . يدافعون الدعوى بما يقوى على اضعافها أو محوها . فان لم يرد لحكومة الاورد خبر الى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل ولا نطن خبراً يأتيه إلا بنقيض ماتوهمه نسأل الله حسن العاقبة بعد تحرير هذه الاحرف جاءت الاخبار مصدقة لما قلنا ففي تلغراف من مكاتب التيمس في خرطوم أن ثلاثة دراويش جاؤا مرسلين من قبل محمد احمد الى الجنرال كوردون وأرجعوا اليه علامات الشرف التي كان بعث بها الى مرسلهم . وبلغوه أن محمد احمد يرفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل في دين الاسلام فهو خير له

الشاهد الرابع

(في مقالة عنوانها (السودان) نشرت في آخر العدد السابع الذي صدر في ٤ رجب (أول مايو)

(بنيت هذه المقالة على أخبار تواترت ونشرتها الجرائد الانكليزية والفرنسية بقرب سقوط مدينة بربر في يد محمد احمد وشروع حاكمها المصري في اخلائها، وانضمام بعض المساكر المصرية المنظمة الى محمد احمد - وسريان الثورة في جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربر، وعدم امكان الانكليز من ارسال جيش انكليزي الى السودان إلا بعد أربعة أشهر مع عدم رضاهم بارسال جيش مصري ... ووصول مكاتبات الى ضباط الحامية المصرية في أسوان من زعماء الثورة يندرونهم بها اخلاء المدينة . . - وقول جريدة الطان : اذا اجتمعت قوة محمد احمد عند الشلالة الاولى فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة ثم ختم هذه المقالة بما أودع مثله في غضوناتها فقال)

هذا الذي كنا نتوقعه ونخشاه من قبل وأشرنا اليه مراراً جاته الحوادث

ونظقت به الجرائد الفرنسية والانكليزية ، ولم يبق إلا التفات تلك الجرائد الى دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذي كاد يكون عضالا ، وتنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة والتبصر ، وترشدها الى أن العلاج الذي ليس وراءه علاج ، إنما هو تسليم الامر لدوي الحق فيه والعارفين بطريقه من المسلمين ، وسنراها بعد أيام تتبع السبيل المستقيم اه

الشاهد الخامس

(في مقالة نشرت في العدد العاشر الذي صدر في ١٠ شعبان (٥ يونيه) بعد استيلاء السودانين على بربر مختصرها بما يلي) :

السودان ومصر

نشرت جريدة (البوسفور اجبسيان) التي تطبع في القاهرة خبراً ذكره توفيق باشا نفسه وهو ان الجنرال (غوردون) توعد حكومته الانكليزية بانها إن لم تدمه بجيش ينقذه من الضيق الملم به فإنه يرفض الدين المسيحي ويدخل في دين الاسلام ، وضمنت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجيب)

وغرابة الخبر إن كانت من جهة انه تهديد بما لا يهيم الحكومة فنحن نعلم أن الانكليز يفرغونهم خروج أحد منهم عن دينهم ، وإن كانوا يرشدون الناس الى ترك الدين ويعيرون على المستمسكين به ، ولكنهم أشد الناس تعصبا فيه فلا محل للغرابة — وإن كانت من جهة ان غوردون وهو من أشد قومه تمسكا بدينه كيف يمكن الاسلام؟ فهو انكليزي الطبيعة كما هو انكليزي الجنس ، يتلون ظاهره بأي لون ويبرز في أي ثوب لاصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه فلا عجب ان قال وفعل (١)

(١) ليعتبر القارىء بانقلاب الحال فان الانكليز يدعون في هذه السنين الى تغيير السودانين احياء لذكرى غوردون ويتخذون جميع الوسائل له

(نم قال) جاء الخبر ان أهالي جرجا في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة وورد الى تلك المدينة رجل من أشياخ محمد احمد قادما من القاهرة ودعا الاهالي للأخذ بطريقته فاذا بينهم جم غفير يحيب داعيه ، ويذهب مذهبه، وهو مما يدل على ان القائم السوداني مهم بنشر دعوته ، محتاط لنفسه حاذق في عمله ، وله دعاة في ارجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها (القاهرة) فان ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشتد الخطب ، ولربما صار له بقوة ميل الاهالي اليه منعة يصعب على حكومة غير اسلامية أن تقارعها أما ما ذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها وبين المسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع ، لان الايام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين ذمام الآخر في جميع الاحوال التي عرضت على بلاد مصر . المسلمون والمسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها . والمقاتل التي وقعت أيام الحرب النقضية انما كان منشؤها افساد الفسدين ، على انه لم يمس فيها قبطي بسوء . والاخبار الصحيحة تؤيد ما نقول

الشاهد السادس

(من مقالة افتتاحية نشرت في العدد الثالث عشر)

(موضوع هذه المقالة الطويلة اثبات عزم الانكليز على امتلاك مصر وتحريض الدولة العثمانية على القيام بما يجب عليها من العمل لاجراجهم منها . ومما جاء فيها بشأن مهدي السودان مانصه)

وليس من المبالغة أن نقول إن حلول الجيش الانكليزي كان وسيكون من أعظم الاسباب لقوة محمد احمد ، ولولا وجود العساكر الانكليزية في مصر لما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة ، ولقد كان يتبرأ من نسبتها اليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين ، بل ما كان يجد أحداً يلبي دعوته ، أو يدخل تحت رايته

هذه توارى بخ الامم وهذا سير طريفة الكائنات ترشد المستبصرين الى ان مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها ، وزحف الغرباء اليها أي حجة لمحمد احمد في دعوة الناس اليه ؟ وأي نقشة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول ان الانكليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر وهي في عداد الاراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ، ودعامة القوة الإسلامية ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعي الله في مدافعتهم . وانقاذ البلاد من رجسهم ؟ وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء

هل يتوهم بعد سقوط خرطوم وجيش الانكليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد احمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم انه منقذ المسلمين ؟ هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق^(١) شعنته إلى أقطار اسلامية يخشى الانكليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند ؟

قد نرى الحالة أقرب الى المخافة منها الى الامن ، وسيعلم الانكليز انهم أحوج الناس الى السلم ، وأقفرهم الى القناعة أي قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار ، بل تردها على قائلها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان ، أو يذعن لها جان ؟ ليس لقوة أن تأتي بهذا الاثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين ، وأولي المزم من المصريين اه المراد منه

﴿ إيضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان ﴾

بيننا أنه كان للحكيمين غرضان من سياستهما في المسألة المصرية والمسألة السودانية كما أنه كان للانكليز غرضان فيهما . أما غرض الانكليز الأكبر فهو امتلاك مصر والسودان معا والتوسل بذلك إلى امتلاك شطر افريقية الشرقي من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح ، فإن تعذر ذلك واضطروا إلى ترك مصر اكتفوا باخذ

السودان وحده وهو الفرض الآخر ، وانتظروا الفرص لجعله وسيلة لاخذ مصر
وأما غرض الحكيمين الاول فهو اخراجهم من مصر والسودان معا بما شرعناه
من الوسائل لذلك ، والسعي أخيرا الى اقناعهم بترك السودان بتكبير شأن
دعوى محمد احمد للمهدوية ، حتى اذا تعذر ذلك وتم لها هذا ذهابا إلى السودان خفية
ونظما فيه قوة محمد احمد توسلا إلى انقاذ مصر بها ، وتأسيس دولة قوية يعترف بها
الاسلام والشرق ، وتتحرر شعوبهما من الرق

وقد قلنا انهما كانا قد وقتلا لاقتناع الدولة البريطانية بسحب جيوشها من
السودان وتركه لاهله ، وانه ما حال دون تنفيذ ذلك الاموت محمد احمد ، وأشرنا
الى ترك الاستاذ لأوربة بعد الاضطرار الى ترك إصدار العروة الوثقى بالتشديد
في منعها من مصر والهند ، وانه دخل مصر مستخفيا بعد أن ألم بسورية وتونس ،
وكان غرضه الاول التمهيد فيها للذهاب الى السودان على أن يتبعه السيد جمال الدين
اليه اذا نجح في سعيه له

كان آخر عدد صدر من العروة الوثقى وهو الثامن عشر مؤرخا في ٢٦
ذي الحجة سنة ١٣٠١ (الموافق ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤) وبعد تركها انفراد
السيد جمال الدين بالسعي المراد من مسألة السودان واننا نوضح هنا ما أشرنا اليه
قبل من دخول الشيخ محمد عبده في مصر وهو ما في بعض مکتوباته السرية إلى
بعض أعضاء جمعيتهم (العروة الوثقى)

قال في المکتوب الاول من الباب الخامس من منشأته (١) بتاريخ ٧ جمادى
الاولى من هذه سنة ١٣٠٢ ما نصه بعد كلام :

« فتأملت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من
النداء ، وامل الله ينهض بالقول ههما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس
ما ادخر لها من العمل ، وتلاحظ أضرار مادنا من الامل ، وتنبعث عزائم لتناول
ما حضر لديها ، وابرأ ما كمن فيها ، فعناية الله بأسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها
عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يصح فحونها ، وغطيط من الغفلة لا يسهعونها .

هذا ما اندفع بي الى بلاد أستعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف عند حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وما توفيقي إلا بالله ، وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عرق الشباب تمانني وأول أرض مس جلدي ترابها

غير انه لا يراني فيها إلا المخلصون ، ولا يعرفني فيها إلا العارفون ، وإن لك بينهم ذكرا يليق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، وقد أبلغت (السيد) من خبر صنيعك ما وفر لك شكره ، وأخلص لك سعيه . الخ

(وكتب الى آخر من الاعضاء في هذا التاريخ نفسه من مصر وهو المكتوب السادس من هذا الفصل مانصه :)

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك ، وحاشا ان يكون تساهلا في الحق ، أو تشاقلا عن فريضة الود ، وانما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها من يوم فارقتك الى الآن . « ذهبت الى باريس فماعدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن انحوجه المشرق ، حيث

مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات ، فمرت على بلاد كثيرة منها مدينة (تونس) عملت في جميعها على إحكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى

بلد خامت به عذار شيبتي وطرحت في كف الخطوب عناني وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتذكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل ، وإقبال الامل . — الى أن قال —

« واذا رأيت فنبهه ان قوة الاتحاد في الجنوب ، أفزعت قوة النيران في الشمال ، وان نيران القلوب ، أذابت مدافع الكروب (وما النصر إلا من عند الله) يؤتیه الصادقين ، ويوليه الخنصين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة الخ (يقول المؤلف) وحسبي بهذين التصريحين شاهدين على ما قلت

هذا وان محمد أحمد توفي في رمضان من تلك السنة (١٢٨٢) وكان الجيش المصري والانكليزي المساعد له في أسوأ الاحوال، وقد عقد الجنرال غرانفيل بعد موته هدنة مع السودانين مدة ثلاثة أشهر في كسلا وفي ٢٠ ذي الحجة منها أعلن تسليم حامية كسلا بعد حصار أكلوا فيه لحم الحمير، ولسنا في حاجة الى بسط حال السودان في ذلك الوقت لاننا لانكتب تاريخ السودان وانما نشير اليها من بعد لئلا يستغرب بعض قراء تاريخنا تمكن السيد جمال الدين من اقناع الحكومة البريطانية في عاصمتها بترك السودان بعد ما أذاعه في الهند وسائر المشرق من تعليق الآمال بدعوة محمد أحمد والتهديد به لثورة اسلامية عامة

العبرة في هذه السياسة

العبرة التي يجب أن تمثل لقراء هذا التاريخ ان السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده قد جاهدوا في سبيل انقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطاني جهاداً لم تسم الى مثله همة أحد من أمراء هذه البلاد وعلمائها وكبرائها ولا همة غيرهم من العثمانيين وسائر المسلمين والشرقيين، ولم يكن في قدرة غيرهما أن يعمل مثل عملهما. ولكن كان في قدرة كثيرين ممن ذكرنا أن يساعدوها بالمال وغير المال في هذه السبيل. ويعلم الواقفون على تاريخ مصر في هذا الطور الاخير أن كل ما كتب في جرائد مصر وغيرها في المسألة المصرية الى هذا اليوم لا يعد شيئاً مذكوراً في جانب ما كتبه الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى بارشاد أستاذه السيد جمال الدين الافغاني، وان كل سمي عملي لذلك كان وما زال دون سعيهما. فليحفظ القاري ما أوردنا من الشواهد في هذا المقصد الى أن يجيء الكلام في خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في مصر وعلاقته بأمرها واصحاب جرائده

خاتمة هذا المقصد آفة الشرق أمراؤه والمستبدون وزعماءه المرشدين و مرشدوه الجاهلون

نختم الكلام في خدمة الامامين الحكيمين للاسلام والشرق فيما فاضت به حكمة الأول على بلاغة الثاني في جريدة العروة الوثقى بهذه الحقيقة التي وضعناها هذا العنوان ، فلقد كان الناس غافلين عنها فييناها لهم أبلغ البيان ، وشر مفاسد هؤلاء الامراء والزعماء في هذا العصر غرورهم بالاجانب الطامعين في بلادهم ، ولو عقلوها لتمكنت حقيقتها من عقولهم ، وولوفقوها لرسخت عبرتها في قلوبهم ، ولما تكررت في مشرق العالم الاسلامي ومغربه تلك الرزايا التي انتزعت ممالكهم من أيديهم ، ومن العجائب انها لا تزال تتجدد ، ولا يزال مدعو الايمان يلدغون من الحجر الواحد مرارا كثيرة ، وقد قال رسولهم فيماصح عنه « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » رواه البخاري ومسلم

فلا عجب اذا فيما يصدر عن ملاحظة المسلمين الذين لاحظ لهم من حكمة الاسلام وهدايته الصادتين عن هذا الفساد ، ورضاهم بأن يكونوا أعوانا للاجانب على استعمار البلاد ، وهذا ما لا تزال نشاهده في كل عام (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) ؟

طرقت العروة كل باب من أبواب هذا الموضوع ففتح لها ودخلت منه فلم تدع في زواياه خبيثة الا واستخرجتها

انشأت له مقالات خاصة ، وجعلته مضرب الامثال في المقالات العامة. وقد ورد فيما أثبتنا من الشواهد بعض هذه الامثال والاشارة الى بعض تلك المقالات ونأتي في هذه الخاتمة بشواهد وأمثال أخرى وهي

المثال الاول

﴿ استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها ﴾

(قال من مقالة افتتح بها العدد الثامن موضوعها طرد الانكليز للجيش المصري وتأليف جنس صغير تولوا قيادته)

دمر الانكليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم ، وانبثروا بينهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الامراء ، واغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية ، فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة ، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه ، فصارت الاراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال ، واضطر كل نواب أوراجا إلى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه . او يتغلب بها على عدوه ، فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ، ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين ، وبسطوا لهم إحدى الراحتين بيد الذهب . وقبضوا بالآخرى على سيف الغلب . بدؤوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الاهلية ، ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها ، وماهم عاياه من القوة والبسالة والنظام ، حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على معاليه إلا بالجنود الانكليزية ، فأقبل الانكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه ، وفوزه بالتغلب على غيره ، بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانكليز ، ويكون بعض الجنود من الهنديين ، وبعضها من البريطانيين ، وما على الحاكم الا أن يؤدي نفقتها . ثم خلّبوا عقول أولئك الامراء بدهائهم وبهرجة وعودهم وائين . قماهم ، حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض ، وصار الانكليز بذلك أولياء المتباغضين ، وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) أرضاء لاهل السنة والشيعة والوثنيين

كيف خدع الانكليز أمراء الهند حتى استولوا على بلادهم بمساعدتهم ٣٨٥

ولما فرغت خزائن الحكام وقصر بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض، وأظهروا غاية السباحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة، وبعضهم بدون فائدة، وينتظرون به الميسرة، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمدّه بأعوان من السماء. وبعد مضي زمان كانوا يومثون الى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الاداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل في قطعة كذا من الارض نستغلها ونستوفي منها ديوننا، وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم، ثم الارض أرضكم نردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وانما نحن خادمون لكم، فيضعون أيديهم على غصرواات الاراضي وفيحاشها، وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة، وحصونا منيعة، كما يفعلون ذلك في ثكن [أما كن إقامة العساكر] عساكرهم على أبواب العواصم الهندية. (١)

وفي خلال هذا يفتحون للامراء أبواباً من الاسراف والتبذير، ويقرضونهم ويقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرى يضعونها إلى الأولى، ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح، فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين، لكل من المتغالبين، وبعد هذا فلهم شؤون لا يهتمون بها في إيقاع الشقاق بين سائر الاهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية، ويخرب بعضهم بيوت بعض، حتى إذا بلغ السير نهايته، واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم، وغلت الأيدي فلا يستطيع أحد حراكاً، ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيف تلك العساكر التي كانت حامية له واقية لبلاده، وكانت تشد لجذ عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله، ثم خلفوه على ملكه

وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلمون (١) وكذلك يفعلون الآن في البلاد العربية التي يريدون أن تكون هنداً ثانية

الملك ويولون الطالب، على شريطة ان يقطعهم ارضا او يمنحهم امتيازاً ، فيحولون الملك من الاب لابن ومن الاخ لاختيه، ومن العم لابن اختيه، وفي الكل هم الرابحون. هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا . ما فاجؤا أحداً بحرب، وما اختطفوا ملكاً بقوة مغالبة، بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهلها ، ولا بما تطرف به أجفانهم أولئك الانكليز باقعة العالم ، وأحبال الحيل، يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة، فلا تستغنى عن حامية، فان تم لهم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً انكليزيا يكون خادماً له وحافظاً للملك، فان لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التوبة على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد، يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحتهم أو غشهم ذهباً عن حقيقة القصد، فيقيمونه حاكماً خلفاً لمن لم تسمح ذمته بالقبول، وتكون رغبة الممرور حجة لهم عند أوروبا . هذا سر انقلاب الانكليز على الجند الوطني وقدحهم في سيرته بعد الشاء على حسن استعداده ، وسعيهم إلى طرده بالادلة الواهية ، والعمل الواهنة

المثال الثاني

(استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها)

(مقالة نشرت في العدد العاشر وهي التي أشرنا اليها في ص ٢٣٠ ثم حدث من الحوادث العامة ما اقتضى نشرها في هذه الخاتمة)

ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم ان تسود عليها وتستعبد لها وتذلها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والافكار ووجود المقاومة الطبيعية ، فضلاً عن الارادية ؟ ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الامة ، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله اذا غلبه الغالبون، تحمله على

المدافعة عن أمته، كما يدافع عن بيته وحرمة، فلا يتسنى للقوة المغيرة أن تذلل الأمة إلا بفنائها عن آخرها، أو افناء الأغلب حتى لا يبقى إلا المعجزة والزمنى، هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الأمة

نعم يسهل للقوة الاجنبية ان تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحاني مجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها، لمنزلة له في افئدة ابنائها، ولمكان آباءه من الكرامة في نفوسهم. فلا تحتاج القوة الغالبة الا الى إيقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ما تحكم به. أو نصب حباله الحيل له فتخدعه بالاماني والآمال فيذعن لما تقضي به. فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له. ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الامراء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها، فيخلعونها بالتهديد والتخويف، أو يملكونها بالخدعة وزين الاماني، فينالون بغيتهم ويأخذون اراضي الامم

وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند، ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز اول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الامم الهندية في احقاب طويلة. هذه قبائل الافغان عند ما انحلت ثقتها بأمرها وصار الامر الى الأمة قامت كل عشيرة بل كل فرد الدفاع عن نفسه بعد ما عمت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة ملكهم، وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قواتها وأجلوها عن بلادهم، وهي ستون الفا من الجيوش المنتظمة مسلحة بالاسلحة الجديدة، واضطر الانكليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها

لا ريب أنه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً أو اشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد، ويتيسر له ان يقف على طباعهم، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم، ويأتيهم من أبواب رغائبهم، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عايد، ونفوسها في وحشة منه، اللهم إلا بالابادة والتدمير

من هذا تجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع أقتالهم^(١) بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون^(٢) بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم ، وما هذا إلا لان قوة المغالين داخلية تحت الضبط ، وأما آحاد الأمم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاومتها ، إذا تعاصت وشحت بنفسها عن الذل لسواها ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها ، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنا نخاف ولا حول ولا قوة إلا بالله أن يكون أمراءنا والأعلن منا آلة في اضمحلالنا وفنائنا لما غلب عليهم من العرف والانهماك في اللذائذ والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم ، فانا لله وإنا اليه راجعون اهـ

المثال الثالث

رأي المروءة الوثقى في معاقبة الأمم الامراء والرؤساء الذين يكونون أعوانا للاجنبي عليه (قال في آخر مقالة وجيزة موضوعها الأمة وسلطة الحاكم المستبد ووصف فيها حال الأمة مع الحاكم المستبد المصلح الحكيم وحالها مع المستبد الجاهل الاحقر المتبع للهوى — مانصه)

عند ذلك ان كان في الأمة رفق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً ، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها ، قبل أن تنتشر الرياح بزورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة فتتميتها ، وينقطع الأمل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذوم قبل أن يسري فسادُه إلى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة . أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة سائمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالغيب) وان انحطت الأمة عن هذه الدرجة

(١) أي أمثالهم (٢) يفرقون بخافون فهو كبير رهبون وزنا ومعنى

وتركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء . فانذرنا بمضض
العبودية ، وعناء الذلة ، ووضمة العار بين الامم . جزاء على ما فرطوا في أمورهم .
(وما ربك بظلام للعبيد) اه

[المؤلف] خلاصة هذا الارشاد ان الامم لا ترجى لها سيادة ولا سعادة ولا
حرية ولا استقلال إلا اذا عرفت نفسها ، وجمعت كلمتها ، وكان أمرها بيدها ،
وكان حكامها خدما لها ، فمن أحسن خدمة أمته بالنصيحة والاخلاص كفافته ،
ومن خانها أو أساء اليها عاقبته ، ويجب عليها ألا تولي شيئا من أعمالها لأحد من
الافتونين بحب الرياسة على قاعدة الاسلام : طالب الولاية لا يولى . وقال الخليفة
الاول (رض) في أول خطبة خطبها بعد مبايعته : ولت عليكم ولست بخيركم
فاذا استقمتم فأعينوني ، واذا زغت فقوموني »

كانت هذه الحقائق مجعولة عند قراء العربية قبل بيان العروة الوثقى لها
نفصح العبارات وأقواها تأثيرا ، ثم رأوا مصداقها في مصر وتونس ثم في المغرب
الاقصى ، ثم في البلاد العربية الاسيوية ، فآفة الشعوب الجاهلة المتفرقة أمراؤها
ورؤساؤها وزعمائها ، ويليههم من دونهم من المتفرجين الذين يتخذ منهم الاجنبي
السلب لاستقلالها صفار العمال لكل ما يحتاج اليه من عمل في إدارة حكومتها ،
ولا ياتي بالاجنبي أو لا يوجد في أفراد من يكفى للقيام به ، ومن قواعد سياسة
الاجانب انهم لا يستخدمون في حكومة البلاد التي ترزأ بسيطرتهم عليها إلا من
يعلمون بالاختبار الدقيق أنه مخلص لهم ولو في خيانة بلاده ، وقد سبق في العروة
الوثقى ان الانكليز لو وجدوا في بلاد الافغان عند ما دخلوها محاربين واحتلوا
عصمتها (كابل) أمثال هؤلاء الرجال الذين يعرفون لغتهم ، وقد فتنوا ببهرجة مدنياتهم ،
خرجوا أو يخرجوا من الهند ، ولكنهم وجدواهم وغيرهم في بلاد أخرى من
البلاد ولا يزالون يجدون من لولاهم لم يستقر لهم قدم ، ولم يرفع لهم علم ،
وإن من يعقل ويفهم ؟



المقصد الثاني من الفصل الخامس

عمد في سورية

لما عاد الاستاذ الامام الى بيروت وألقى فيها عصا التسيار ، وتصدى للتعليم والارشاد ، كنت طالب علم بطرابلس الشام ، وكنت قد عرفت شيئا من قيمته ، بل كنت داعية له وللسيد الافغاني ، ولكن لم أتمكن من الرحلة اليه والتلقي عنه في المدرسة السلطانية ، وقد زار طرابلس في تلك الايام واتفق لي فيها معه مجلس واحد في المدرسة الخاتونية اذ جاءها لرد السلام على الاستاذ الشيخ عبد الله البركة أحد العلماء المتخرجين في الازهر وكان عرفه من قبل ولم يكن الاستاذ موجودا بل كنت فيها مع أحد الطلبة نذاكر دروسنا ، فتقينا الامام بالحفاوة والاجلال ، وقدمنا له شرابا مثلوجا فشرب ، وطفق يسألنا عن طلب العلم وأساليب التدريس للعلوم التي تدرس عندنا ، وتوليت إجابته دون رفيقي . ومما سألنا عنه تفسير القرآن هل يدرس للطلبة ؟ قلت لا وإنما يقرؤه رجل واحد للعوام ويعز فيه بالقصص الاسرائيلية والخرافات الصوفية اذ يقرأ تفسير روح البيان لاسماعيل حقي الصوفي وسألته أي التفاسير أنفع لطلبة العلم ؟ قال الكشاف . قلت ولكن فيه كثير من نزغات الاعتزال . قل تلك مسائل معروفة لا تخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها وإنما فضله لدقته في تحديد المعاني ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة ثم قلت له أما علم الاخلاق فقد اندرس فليس له طالب ولا مدرس . قال نعم واندرس معه الدين ، فأكبرت هذا الجواب وكبر شأن الرجل في نفسي لاني كنت شديد العناية بكتب الاخلاق ولا سيما احياء العلوم

وانني أذكر هنا ما وصل اليه عامي وخلصته في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار إثر وفاته (١) وأقفي عليها بفصل كتبه لي تلميذه النجيب السيد عبد الباسط

(١) قد استفدت بعض ذلك أولا من تلميذه محمود افندي الكحيل الطرابلسي

ثم من غيره ولا سيما من كلفتهما ان يكتبوا لي ما يعلمان فيما يلي

فتح الله رحمه الله وفصل آخر كتبه تلميذه الامير شكيب حفظه الله
نص ما كتبه في المزار (ص ٤٦٢) من المجلد الثامن معطوفا على الكلام في عمله في أوربة
وبعد الاخفاق في ذلك العمل السري ، دون ذلك الهدي النبوي ، ألقى
عصا السير في بيروت أعظم ثغور سورية وأقربها من العمران ، فأقبل عليه أهل
العقل والفضل ، وأرباب الذكاء والنبيل ، يستفيضون منه غيث سماء الحكمة ، ويتلقون
هدي الحكماء والأئمة ، فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الأذكاء وعشاق المعارف ،
من جميع الملل والطوائف ، ومما كان يقرأ عليه فيها السيرة النبوية ، على صاحبها
أفضل الصلاة والتحية ، و كان يقرأ التفسير في الجامع الكبير وفي جامع الباشورة
لا يلتزم فيه كتابا ، وإنما يقرأ في المصحف ، ويلقي ما يفيض الله على قلبه وكان الناس
يقبلون على درسه إقبالا لم يعرف في تلك البلاد لاحد من قبله ، حتى حسد النصارى
عليه المسلمين ، فكانوا ينسلون اليه زرافات ووحدانا ، ويقفون بباب المسجد . يمدون
أعناقهم ، ويشخصون بأبصارهم ، ويصيخون بأذانهم ، لعلمهم يلتقطون شيئا من تلك
الدرس . ثم إنهم استأذنوه في دخول المسجد والجلوس في ناحية من حلقة الدرس
فأذن لهم « فأجره حتى يسمع كلام الله »

وفي أول سنة ١٣٠٣ دعي إلى التدريس في المدرسة السلطانية لأحياء اللغة
والدين فيها فلبى ولم يكن في المدرسة من العلوم العربية الا مبادئ النحو والصرف
وما تسميه الترك « علم حال » وهو ما يلحق للولدان من أحكام العبادات . فلما
دخل المدرسة أدخلها في طور جديد كما كان شأنه في عامة أعماله : يدخل في العمل
مرسوما فيكون في الواقع رئيسا . ذك أنه أصلح إدارتها بالاتفاق مع مديرها ،
ووضع قانونا جديدا (بروجرام) للدروس وزاد في العلوم التوحيد ومعاملات
الفقه والتاريخ الاسلامي والمنطق والعاني والانشاء ، زادها لنفسه فكان هو الذي
يدرسها حتي كانت دروسه تستغرق عامة النهار . وكانت دروسه كلها للتلاميذ
على نحو ما ذكر في رسالة التوحيد « أمالي مختلفة تتغير بتغير طبقاتهم ... في
أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله » الا معاملات الفقه فكان يقرأ
فيه مجلة الاحكام العدلية ، التي يحكم بها في المحاكم العثمانية . وكان يكلف تلاميذ الانشاء

حفظ شيء من نهج البلاغة وديوان الحماسة والالفاظ الكتابية ويشرحه لهم. وكان لهم عظيم وعناية تامة بملاحظة آداب التلاميذ في المدرسة (١) حتى انه كان يزورها ليلا لأجل ذلك وقد تخرج على يديه نابتة هي الآن تخدم البلاد بغيرها واستقامتها، وعرفانها ونباها، ثم انه في سيرته كان مربيا للجماعير الذين يترددون عليه، فقد كان يجلس اليه السني والشيبي والدرزي والنصراني واليهودي فيوسع صدره للجميع ويعامل كل واحد بالأدب الذي يليق به، لا يؤذي جايئا، ولا يغمط فضل مذاكر ولا مناظر، على أنه لم يكن يقول غير ما يعتقد سواء كان القول في الدين أو في العلم أو في العادات والامور الاجتماعية، فكان رضي الله عنه نسخة كاملة من رجال سلفنا في التسامح والتساهل وجمع الكلمة واحترام العلم وأهله كما وصف في كتاب (الاسلام والنصرانية) وقد أدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته لاسيا في الخطابة الارتجالية التي لم يكونوا يعمدون بها

وكان هناك يشتغل بالتأليف فقد نقل إلى العربية رسالة الرد على الدهريين أو المقابلة بين الايمان والكفر في العمران التي كتبها السيد جمال الدين بالافسة الفارسية. وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بدیع الزمان الهمداني. وقد أقبل الناس على هذه الكتب وانتفعوا بها حتى انها طبعت مرارا. وكان يكتب المقالات النافعة في الجرائد وسنشر ما عثرنا عليه منها في تاريخه (٢) ولم يكتب بهذا الاصلاح العنوي بل كان يسعى لدى الحكومة في اصلاح البلاد الاداري فوضع في ذلك لائحة قدمها للوالي وسنشرها في تاريخه أيضا (٣) وكتب لائحة أخرى في الاصلاح الديني وقع عليها بعض الوجباء، وقدمت بواسطة الوالي الى السلطان (٤) وكان قد جال في أرجاء الولاية واختبرها ثم الاختبار ما نشرناه في المنار

(١) اخبرني محمود اقليد الكحيل انه لما طبع ديوان الميفاني الطرابايني في تلك الاثناء أرسلت اليه نسخة منه فرآه الاستاذ بيده فآخذه منه فوقع نظره على بيت يصف فيه الردف بقوله لا يرتقى الا لتصب سلما * فاستمر وجهه وألقاه ببداقة لا : أملك ينظر في هذا ؛

(٢) راجع الفصل الرابع ص ٣٤٢ من الطبعة الثانية للجزء الثاني (المنشآت)

(٣) راجع ص ٥٢٦ منه (٤) ص ٥٠٥ منه وهذه هي الاولى

..

*****,

..

.

..

.

.

.

.

.

..

سيرة الاستاذ الامام في بيروت

بقلم تلميذه وخريجه النابغة المصلح السيد عبد الباسط فتح الله رحمه الله تعالى

لما غلقت أبواب الهند دون « العروة الوثقى » وفات بذلك جل الغرض من تحريرها ونشرها عاد الاستاذ الامام الى بيروت التي كان اختارها داراً لاقامته مدة بعده عن الوطن، واتخذ له بيتاً في ضاحيتها طلباً لنقى الهواء، واجتناباً للمجامع التي قد تذهب بسلامة الوحدة وراحتها من غير جدوى. إلا ان بعد المقر لم يمنع نور العلم من الانتشار، كما ان العزلة لم تحبس نشر الفضل عن التفيح في ارجاء الاقطار، بل كان منزله في بعده عن مدار الحركة، وارتفاعه عن مجالات القوم، أشبه بالمنائر تنصب في أعالي الاطراف، فيهدي بشعاعها الساري ويطمئن اليها الوافد الحيران.

أنى رحمه الله بيروت وهي تتمخض بمجيش النهضة العلمية الاسلامية التي كان ألقاها اليها مدحت باشا إذ أسس فيها جمعية المقاصد الخيرية بيدي مريده النبيه رائف باشا (متصرف بيروت لذلك العهد) فأنشأت الجمعية مدارس للذكور والاثاث في كل حي من أحياء المدينة، ثم سمت بها الهمة بدافع الحاجة الى انشاء مدرسة عالية داخلية، فافتحت « المدرسة السلطانية »، وكان ذلك بعد نكبة مدحت باشا وأيام ولاية حمدي باشا — وحمدي باشا هو الذي مديده لمساعدة الحامل على الوضع فمجل لها الاجهاض.

ودرى بمقدم الاستاذ الامام نفر من أعضاء تلك الجمعية النبهاء فأقبلوا عليه ففهم عبق فضله، وبهرهم نور علمه وعقله. واذا كانوا في حاجة الى أستاذ يدرس في المدرسة «السلطانية» بعض العلوم الدينية والعربية على طريقة تلامذ روح العصر الذي يفيض على الطالب باستيعاب معلومات جمة في أوقات وجيزة، ذكروا له حاجتهم ورغبوا اليه أن يتسلى عن غربته بخدمة ملية هو أعرف الناس بجليل فائدها. فغلبى دعوتهم ودخل المدرسة في مبتدأ سنتها الثالثة عام ١٣٠٣ هـ. ولم يكن يدرس

فيها من تلك العلوم الابداعي والنحو والصرف مع شيء من فقه العبادات وقوانين الدولة، فوضع جدولاً جديداً للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي، وذلك للصف الاول والثاني حتى لقد كانت تستغرق دروسه في بعض الايام ساعات النهار بتمامه . ومن الغريب ان نشاطه في آخر درس لم يكن يقل عن نشاطه في الدرس الاول، بل كان يرى في تزايد ما تناقص النهار، وكانت دروسه كلها على نحو ما ذكره في مقدمة رسالة التوحيد وأماله يلقبها على الصفوف كل بحسب حاله واستعداده «في أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يعهد تداوله» ماعدا فقه المعاملات فانه كان يقرأ فيه كتاب (مجلة الاحكام العدلية)

ولما تفتت أذهان التلامذة وارتقت مداركهم قرأ لهم في علم الكلام قسماً من اشارات ابن سينا وفي المنطق «كتاب التهذيب» واستمر على الاملاء في التاريخ والمعاني . وجرى في الانشاء على شرح ما يستظهره التلامذة من كتاب الالفاظ الكتابية «ونهج البلاغة» و «ديوان الحماسة»

لم تمض على هذا المنوال الشهور الاولى من السنة حتى دخلت المدرسة في طور جديد لم تك تعرفه من قبل، وما كان إدراكه في تلك البرهة اليسيرة لأحد من عمدتها بالحسبان : كان يجد التلامذة المدرسة حبساً يقضون عامهم في توقع الانفراج وتمني الانطلاق، وكانت لانمضي الايام الاولى من السنة المدرسية التي تستغرق عادة في تنظيم الصفوف وترتيب المضاجع واعداد اللوازم وتأتي أيام العمل، إلا رافقتها السآمة تبدو على النواصي والملل يتولى النفوس . وما كان يخطر لأحد أن ينظر في أسباب ذلك أو يبحث له عن دواء، بل كان يظن أن هذه الحال هي من لوازم المدارس الداخلية ومن مقتضى طبيعتها .

دخل الاستاذ الامام رحمه الله المدرسة معلماً ولكن نفعه لم ينحصر في التعليم كاشمس تطلع مضيئة ولكن نفعها الخفي في العوالم الحية وتأثيرها في انتظام المكون بأسره لو دريت أجل وأعظم — جال جولة في مناحي الادارة المدرسية وطرق التلاميذ، فوقف على نواقصها وصعابها فاشتملها بنظر حكمته فأكمل الاولى وذلل

الثانية، وصارت المدرسة وكأنها غير المدرسة، وأصبح علمها وكأنه غير علمها في مدة من الزمن لم يألف التصور حصول مثل ذلك في مثلها.

خالط مدير المدرسة ومعلميها وكانت همهم تقف عند القيام بالوظيفة قياما آليا، وأنظارهم تنقطع لدى الغاية القريبة من ضبط حياة التلامذة وتحفيظهم أشياء من قواعد العلم الخافة. فسماهمهم إلى أفق أعلى من التربية الاخلاقية، ورمى بأنظارهم إلى غرض أنبل من مآثر العلم في ترويض النفس البشرية، فأعظموا إذ ذاك شرف مهنتهم، وجدوا في إدراك مآلهم من كمالاتها، وما لبثوا أن حمدوا صراهم، وقد تبدلت سامة تلامذتهم بهجة بدت علي وجوههم، وقام فيهم النشاط والرغبة في العمل، مقام الملل منه والكسل، وغدا الاستاذ هو لا يخرج من درس، إلا ليدخل في مذاكرة أو بحث. والمعلمون والتلامذة حافون من حوله يلتقطون منشور درره، ويحنون طيب ثمره. وهو يتلقاهم بمحياطلق، وصدر رحب، متنزلا في محادثتهم إلى متناول عقولهم، متلطفا في ارشادهم وتفهمهم، حتى تغفل حبه في خلايا قلوبهم، وصاروا يتلذذون برؤيته في غدوه ورواحه وخطراته فيما بينهم. اللهم إلا كسلان أو شرس. فان برق لحظاته كان يخطف ابصارهم، ورعد زواجره يرعد فرائصهم ويخلم افتدنتهم، وبدا لتلك الغراس انقضة ازاهر دونها نور الربيع. وتفتحت اكمامها عن نثر يزرى بينات المحار، وشعر دون منظومه قلائد العقيان، مع صحة في المبادي، ونبالة في المقاصد، وتهيؤ لخدمة الملة، ورغبة في عمل الخير، مما اعظم العقلاء الفضل فيه لصاحبه، وان يميز اكفاف البصائر من الغيظ.

ولما انقضت السنة المدرسية وجرى الاحتفال بنختمها قام احد الادباء وسأله على مسامع من المحتفلين وكانوا زهاء الالف أن يخطبهم في موضوع يختاره، فدهش الناس لهذه الجرأة ولم يسبق لهم عهد بسماع الارتجال، في مقام لا يقف فيه واقف إلا بعد المبالغة في الاستحضار والاستعداد، ولكن وقفة الاستاذ الامام على ماحفه الله به من السكينة وجلالة الهيثة، أزالا وحدها تلك الدهشة، واندفع فحوض في موضوع جليل يمكن أن يبر عنه بمثل هذه الكلمات «علة تأخر الشرق مع وجود بعض الاسباب لتقدمه في الظاهر»

فاستغرق كلامه من الوقت ساعة ونيفا حتى اختتمته مخافة الاملال بالاطالة
وسامعوه يودون لو لم يسكت ذلك النهار .

ومما يذكره بعض تلامذته من صفات نفسه العظيمة انه لما توفيت زوجه
الاولى وتركته له بنت نفاس وليس في بيته أنثى تقوم باعبائه، وهو في دار غربة ،
رمي بمحنة ، وضعتي نكبة ، أصابه غم قطعه عن التدريس أياما ، وأكبر الاصحاب مصابه
واضطربت له المدرسة ، فلما استأنف الحضور تحير التلامذة كيف يقابلونه ، وبأي
لسان يعزونه ويخاطبونه ، فما هو إلا وقد دخل عاينهم فسلم وجلس والكل مطرقون
منصتون ، لا يدرون ماذا يقولون ولا ما يصنعون ؟ فبادرهم بقوله أظن ان النوبة نوبة
الانشاء ، فتلجلجت الالسنه ولم تب ، فخل عقدها بقوله اكتبوا وأملئ عليهم :
تَمَزَّ قَاتِ الصَّبْرَ بِالْجُرْ أَجْمَلِ وليس على ريب الزمان معول

حتى أتى على آخر القصيدة ثم أنشأ بشرحها على عادته في مثل ذلك الدرس ،
فأدرك التلامذة انه يلقي عليهم في صورة الدرس المعتاد ، درسا أبعد مرعى وأسمى
غاية في الحكمة العملية والاخلاق .

هذا وكانت له غيرة على المدرسة لا يعرف قدرها إلا المحاصون ، فكان اذا التفق له
أن مربيا ليلا لا يغادرها دون أن يدخلها ويتفقد شؤونها ، حتى لم يطق البعد عنها ،
فترك منزله في « برج أبي حيدر » ونزل منزلا يقرب منها في « زقاق البلاط » يسهل
عليه اتيانها المرة بعد المرة وفي الاوقات المختلفة ، حسبما تقتضيه ساعات الدروس
غير ان ارادة الله الانتقامية في هذه الامة لم تشأ أن ينهقد لعمد النمرة
المرجوة ، إذ ان ازهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال
« العسكرية » على مديرتها (١) الذي صار له بفضل الاستاذ وحكمة تديره من النبالة
ولسان الصدق في الناس ، ما لم يرضه له أولئك الاوغاد ، فسمعوا به فبدلوه بآخر
تبايل اللطافة بالخشونة ، والخصافة بالرعونة ، وجاء خلفه فغير وبدل واضطرب نظام
المدرسة فضلت نهجها القويم وغايتها المثلى ، وغلت يد الجمعية عن العمل ، وفارق
(١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ أحمد عباس رحمهما الله ، والظاهر أن أولئك
الرجال من مبغضي العرب من الترك . . .

المدرسة معناها الرسوم فيما تقدم ، فاستقال الاستاذ وقد اصبح العمل ضرباً من العبث، وفي غضون ذلك جاءه نياً تبدل الوزارة النوبارية بالرياضية، وتلاه بعد قليل صدور الاذن الخديوي له بالعود الى دياره المصرية .
هذا ما يتعلق من سيرته في بيروت بالمدرسة السلطانية ، وأما بقية اوقاته فلم تكن تذهب سدى :

لما ظهر من فضله مظهر، واشتهر من علمه وعمله ما اشتهر، تسابق الناس الى معرفته، وتنافس العقلاء من اهل العلم والوجاهة والادب والنباهة في خطبة مودته، وسأله الكيسون ان يجعل لهم حظاً من الفائدة فاجاب سؤلهم ، وخصص ثلاث ليال من الاسبوع يفسر لهم فيها آيات القرآن الكريم في جامع الباشورة على مثل متهاجه (الخير) في الازهر، هذا عداء عصر يات رمضان من كل سنة، فنسل الناس الى استماع درسه من كل حذب، ولم يرض النبهاء من المسيحيين أن يفوتهم ذلك الحظ العظيم، فكان يقف فريق منهم في باب الجامع المري على مقربة من حلقة الاستاذ، ولكن ازدحام الحاق في الداخل وضوضاء السوق في الخارج كانت تحول دون مشتاهم من الاستماع، فشكوا اليه ضيق صدورهم من ذلك واستأذنوا أن يقفوا لدى الباب من داخل المسجد فأذن لهم. وكذلك تقطروا أفواجا لاستماع درس المجلة (١) وفيهم الشاب عن طوق التلمذة، وصاحب الاشغال التي لا تسمح له بالانتظام في سلك المدرسة، ولا تسمح قوانينها بقبوله، ولكنهم ألحوا حتى رخص لهم في حضور الدرس في الايام المعينة فقط، ومنهم من حضر درس التوحيد أيضاً .
وأما بيته فكان كمدرسة مطلقة تأوى اليه الفئة المتتورة من كل ملة ، فكثيرا ما كنت ترى طلاب الفوائد وفيهم من نعت بالعلامة يقيدون في دقائرهم شوارد الحقائق، ويدونون في صحفهم أو ابد الدقائق، التي كانت تأتي على لسان الاستاذ في غضون الحديث ، وفي ليالي رمضان كان يستقرى، خصيصاً له من تلاميذه (٢) السيرة النبوية على مسعس الزائرين مدة ساعة من بعد العشاء، ابتعاداً عن الافر الذي يقضي فيه المتسحرون ساعات الليل حتى السحور ، وقرأ في بعض الايام لطائفة

من طلبة العلم درساً في المنطق: وقرأ أيضاً لتلميذ له (١) بعضاً من « قسم الكلام » من كتاب التهذيب

وما خلا من أوقاته عن شغل في تدريس، أو حديث في مؤانسة جليس، كان يملؤه إما بكتابة الفصول المتنوعة التي كانت تدعو إليها المناسبات الزمنية، أو ملاحظاته الحكمية، ومن تلك الفصول ما تربو قيمته في النفع على كثير من المجلدات، وفي ثمرات الفنون غير واحد منها (٢) وإما بتأليف تمس إليه حاجة طلاب العلم وروام الأدب، أو يرى فيه فائدة للدين

فترجم أثناء إقامته في بيروت « رسالة الرد على مذهب الدهريين » لوليه الحميم الحكيم السيد جمال الدين الأفغاني وصدرها بمجمل من سيرته، وشرح « نهج البلاغة » لامير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومقامات بديع الزمان الهمذاني، وكتب رسالة مسهبة في اصلاح التعليم الديني وجه بها الى المشيخة الاسلامية عند ما بلغه عزم الدولة على شيء من ذلك (٣) هذا عدا عن الاجوبة والرسائل الخصوصية التي ما كانت تخلو من فائدة عمومية أو شخصية

وقد رحل خلال تلك المدة الى بيت المقدس ودمشق الشام وبعليك وطرابلس وتبول في انحاء لبنان وهو كيفما رحل وأينما حل ينتهز الفرصة لنفع الخلق عامة، مولياً وجهه شطر غرضه السامي النبيل من نشر العلم الصحيح ونصرة الدين المبين، ورفعته المسلمين.

وهو وان لم ينج في بيروت من أذى المشاغبين إلا أنه كان يحبها، وبتوسم الخير في ناس من أهلها. وان أثر فضله فيها لا ينمحي ما تواصلت عقول تدرك الحق، وتماطفت قلوب تحس بحسن الصنيع.

جزاه الله أحسن ما عمل بمنه وكرمه اه

(١) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل نفسه أيضاً رحمه الله

(٢) بينا في حاشية سابقة مكان هذه المقالات في الجزء الثاني من هذا التاريخ

(٣) بينا في حاشية سابقة مكانها في فصل اللاوائح من منشئاته في الجزء الثاني أيضاً

نبذة ثانية من سيرته في بيروت

بقلم تلميذه ومريده أمير البيان الأمير شكيب أرسلان

منذ حادثة سني كنت أقرأ الجرائد . ولما حدثت الحادثة العراقية سنة ١٨٨٢ بمصر كنت ابن اثنتي عشرة سنة فكنت أتبع وقائعها، وأتحرق عند ضرب الانكاز للاسكندرية ونزولهم وتقدمهم في القطر المصري ، وأحسب حساب بقائهم فيه . وعند ما انتهت الفتنة وشرعوا في محاكمة الذين حاكمهم ونفونهم الى خارج القطر ، قرأت في أخبار المحاكمات نص يمين قيل انها من انشاء الشيخ محمد عبده . وكانت هذه أول مرة سمعت فيها هذا الاسم ، أما نص اليمين فرأيت فيه أسلوبا عاليا غير الذي كنت أعلمه ، ولم أكن يومئذ بالذي يقدر أن يعرف مزايا الانشاء ولكني كنت أميز منها العالي من النازل بمحض الشعور ، فوقع في نفسي شيء من هذه اليمين ، ورأيت ان منشئها الشيخ محمد عبده ليس كغيره من المنشئين الذين نعرفهم . ثم نفي العراقيون الى خارج القطر سنة ١٨٨٣ فورد منهم بيروت الشيخ محمد عبده و ابراهيم افندي اللقاني وعدد من ضباط الجيش المصري أحفظ من أسمائهم مصطفى بك عبد الرحيم وأحمد بك عبدالغفار وحسن بك جاد ومحمد بك الزمر وخضر بك وغابت عني أسماء الباقيين وكلهم بين أميرالاي وقائمقام وقائد ألف . وكنت في ذلك الوقت أحصل العلم في مدرسة الحكمة . ولما دخلت سنة ١٨٨٥ قرأت في مجلة الطبيب التي كان ينشئها الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتوران بشاره زلزل و خليل سمادة خبر صدور جريدة في باريس اسمها « العروة الوثقى » من قلم السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده . وكنت بدأت أسمع باسم الافغاني وكانوا يقولون ان أديب اسحاق هو من أخذوا عنه ، وفي هاتيك السنة توفي أديب اسحاق واهتز عالم الادب لموته ، وكنا أصبحنا يومئذ في المدرسة مغرمين بأخبار الكتاب والشعراء والادباء لاهمنا شيء أكثر من هذا ، فكنا نرى الدنيا كلها قظا ونثرا ، وكان كل ما خرج عن الانشاء

والشعر والادب لانكاد نقيم له وزنا . فلما سمعنا ان اديب اسحاق كان يغترف من بحر الافغاني صرنا في شوق زائد الى معرفة الافغاني نفسه والى معرفة تلميذه ورفيقه الشيخ محمد عبده .

ولم تمض أشهر حتى سمعنا ان الشيخ محمد عبده عاد من باريس الى بيروت . وكان أهل الفضل في سورية بدأوا يعرفون قدره ، وكثر تردد الناس عليه ولهجهم بذكره ، ومرة زارنا في المدرسة الاستاذ الشيخ سعيد الشرتوني صاحب أقرب الموارد فسأله عنه فقال لي : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد تشوقنا الى معرفته . وفي أواخر سنة ١٨٨٦ جرت حفلة بمدرسة الحكمة كان الاستاذ الشيخ محمد عبده من جملة المدعوين اليها . فهذه أول مرة شاهدته فيها ، وبعد ذلك شاهدته في احتفال آخر السنة بالمدرسة الكلية الامريكانية، وكان معه الشيخ عبد القادر افندي القباني صاحب جريدة « ثمرات الفنون » وأحد أعيان بيروت المشار اليهم بالبنان ، وكان صديقا للاستاذ الامام، وكنت أعرفه فقدمني الى الاستاذ وسلمت عليه فظهر لي انه كان يعرف اسمي لاني أنا لذلك العهد كنت أنظم وأنثر، وصارت لي قصائد منشورة في الجرائد، فأتذكر انه قال لي : « أنت ستكون من أحسن الشعراء » فأخذنا من ذلك الوقت نزور الشيخ الى منزله . وكان يسكن في حي زقاق البلاط قريبا من منازل آل حماده وآل القباني، ويسمر كل ليلة في دار الحاج محي الدين حماده رئيس البلدية وعميد بيروت في وقته ، فكنا نحن وكثيرون نقصد السمر هناك لسماع أحاديث الاستاذ . وقد انطوى أكثر من كانوا ينتابون ذلك المجلس من الأعيان والفضلاء ، ولم يبق منهم الى اليوم فيما أعلم سوى الوجيه الكبير الفاضل الجليل الشيخ عبد القادر افندي القباني والفاضل الاديب الشيخ محمد البابا يدي . وزارنا المرحوم الاستاذ في منزلنا بالجليل وتعرف الى والدي رحمه الله وسروا الذي كثيرا بمعرفته ، وقدره قدره ، وصار لا ينزل مرة الى بيروت إلا يزوره . وكان الشيخ أيضا يجلس والدي كثيرا وقال للاستاذ الشرتوني عنه : انه أعقل من رأيت من أمراء الجبل . ولما توفي والدي الى رحمة ربه في أواخر سنة ١٨٨٧ كان الشيخ من أشد الناس عليه حزنا ولنا مؤاساة ومؤازرة

وكان الشيخ رحمه الله يقرأ التوحيد والفقهاء في المدرسة السلطانية في بيروت فحضرت عليه أنا والمرحوم أخي نسيب درس مجلة الاحكام العدلية، وأما تلاميذه في التوحيد فأذكر منهم أخاه حموده عبده الذي كان نبياً وكان الشيخ يتوسم فيه الخير والسيد عبد الباسط فتح الله الذي هو من انبغ خريجي الاستاذ الامام وأجل من أخرجته بيروت في هذا العصر وكل منهما قد لقي ربه .

وكانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة لأهل سورية فانه ماضت مدة إلا وقد أصبح منزله بصورة دائمة تقريباً غاصاً بالزائرين الذين كانوا يقصدون إلى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضراته، والالتقاط من درره، وصار للناس ولوع به، فكنت تراهم يحفظون من كلامه ويقلدونه في لفظه، ويتابعونه في رأيه، وان كثيراً من الافكار والباديء والالفاظ والجل السائدة الآن في بر الشام هي من بقايا آثار مجالس الشيخ محمد عبده، لاشك في ذلك وان كان الآن قد خفي أصابها، وانطوت نسبتها (١)

وانجم السوريون على إجلاله والولوع به إجماعاً لم يقع مثله لأحد، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء يزدحم حول ذلك التهل العذب، وكان هو بسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم، كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم، ونظراً لكثرة ترددي عليه أقول اني أعلم من

(١) مما يدل على قول الامر شكيب هذا ما حدثني به الاستاذ الامام قال: ألقيت مرة خطاباً في حفلة عامة جاءت موضوعه (العلم الاسماء كلمة الله للإيجاد) فجاءني بعد زمن قسيس سوري من المعلمين في إحدى المدارس بمقالة خاص فيها ذلك الخطاب وقال أرجو ان تصح لي هذه المقالة فاني أريد نشرها فصحتها له وحذفت منها عنوانها الذي هو (العلم الاسماء كلمة الله للإيجاد) وقالت له اختر لنفسك عنواناً غير هذا، قال هذا عنوان عظيم لا يمكن تغييره، قالت اذاً لا آذن لك بنشر المقالة فانها كلها من كلامي وقد صححت لك ما أخطأت فيه من نقله، واستبقيت لنفسى هذه الكلمة فلم تطب نفسي بالسماح لك بها فان لم ترض بذلك فما انا بالذي يسمح لك بشيء من المقالة قال رضيت

هذا الامر ما لا يعلمه غيري، فطالما لقيت بمجلس الاستاذ اصناف الملل والنحل وهي تفهم منه وهو يفهم منها، وتجلت لي هذه المسئلة (عظمة الفلسفة) بين العلوم وكيف انها تسهل فهم كل شيء، ومزية الادمغة التي حشوها الحكمة وطرأها التصوف، وظهرت لي محاسن الانظار الشاملة التي أفقها اوسع وأعلى من سائر الآفاق. فقد كان يجتمع بحضرته علماء السنة ومجهدو الشيعة وعقال الدروز، وإلى جانبهم اساقفة النصارى وأخبارهم من كل فريق منهم، وكانوا يرون التردد عليه أمراً طبيعياً، ويجدون فيه مرجعاً عاماً.

ثم انه لم تكن تلك المجالس تخلو من المباحثات الدينية، ومن الخوض في أمور كل هؤلاء الناس مختلفون فيها، وكان الشيخ يجول فيها، ويأخذ ويعطي ويشرح ويوضح على عادته، وينتهي الامر بأن الجميع يكونون على وفاق، وان كل فئة منهم ترى أن الشيخ قد فهم ما أرادت وانها هي قد فهمت ما أراد وأغرب من هذا ان ذلك المجلس لم يكن يخلو من الملاحدة والمعطلة الذين كانوا يقصدون إلى مجلس الاستاذ ليسمعوا اقواله في الالهيات والاديان، ويروا ما عنده في الخالق والمخلوق وأشباه هذه المباحث، فكان الاستاذ يناظرهم بكل تودد، ويحل لهم المشكلات التي كانوا اذا سألوا عنها غيره من العلماء اعجزهم الجواب عنها، فكنت تراهم منصتين اليه حيارى أمامه، لا يدرون ماذا يقولون، مع أنهم يكونون قبل حضورهم في مجلسه قد آلوا انهم يعجزونه كما اعجزوا غيره. وبالاختصار لم اعلم احداً تمكن من ان يبدي امامه في باب الجحود أكثر من اعتراض او اعتراضين، ثم لم يابث ان وقف حماره في العقبة، وخرج من حضرة الشيخ إما راجعاً إلى الايمان بالغيب، او باقياً على جحوده مع الاعتراف بالعجز عن الاخذ والرد مع هذا الرباني المنقطع النظر.

ومن اسرار عبقرية الشيخ في العلم والادب انه كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب او عقيدة من العقائد التي اصحابها من عمار مجلسه وان كانوا مخالفين له في العقيدة، وكان من الكياسة وحسن المخالفة بحيث لا يسمع منه احد من هؤلاء كبة واحدة تسوؤه او تشير إلى نخطئة مذهبه، او اظهار ما في

الاسلام أو مافي مذهب اهل السنة والجماعة من الفضل عليه . ولكنه من المحقق ان جميع عمار ذلك المجلس كانوا لا يخرجون منه الا وفي انفسهم إما ميل اكيد للاسلام ، وإما تقدير عظيم لمزايا الدين الاسلامي — برغم الاعتقاد بغيره وقد طال عجبى من هذا الامر حتى لم املك نفسي ان كاشفت الاستاذ حرة بما لحظته من هذا التأثير، فضحك رحمه الله كثيراً الى ان بدت نواجذه، وعلم اني ادركت هذا السر وقال لي : نعم وأنا ايضا اشعر بما تشعر به ، فقد قلت له «مالي ارى كثيرين من المسيحيين الذين اعرفهم معجبين اشد العجب بملتهم، محتقرين للاسلام في انفسهم، قد عادوا بعد ان عاشروك يذكرون الاسلام باجلال لم يكونوا يذكرونه به من قبل ، ومنهم من إخاله قد تحول مسلماً في ضميره ولو لم يعلن ذلك؟» (١)

فالشيخ قدس الله روحه لم يكن يعتمد لا تصريحاً ولا تلويحاً ان يظهر لغير المسلمين من زواره وسماه شيئاً من فضائل الاسلام او من خصائص القرآن (٢) بل كان يتنكب طريق الجدل معهم ، والتعرض لأي شيء يؤخذ منه الرد عليهم ، وأما كان يقول ما يعلم من القضايا التي يستل عنها ، ويفيض في شرح القوامض وحل المشكلات بالطريقة التي لم يعهدوا مثلها والتي عمدتها الفلسفة الاسلامية ، فكان مجموع كلامه يؤثر فيهم ، ويعلي مقام الاسلام في نظرهم ، ويربهم انهم لم يكونوا يعرفون عن الاسلام شيئاً تقريباً ، والحقيقة انهم كانوا يتصورون الاسلام بالصورة التي تركتها في اذهانهم كتب الافرنج من تأليف الفئة التعصبة وهي الكتب التي لم يكونوا يقرءون غيرها في مدارسهم في هذا الموضوع ، وكانوا اذا اختلطوا مع المسلمين لم يجدوا منهم الا عامياً جاهلاً، او شيخاً جامداً لا يعرف من الاسلام الا قشوره ، فكانوا يظنون ان الاسلام هو هذا ، ويقيسونه على الذين تتل فيهم ممن لم يعرفوا سواهم ولم يحتكوا بغيرهم .

وربما وجد في البلاد فقهاء وعلماء اجلة من المسلمين ولكنه كان يغلب عليهم الجمود احياناً، وكان منهم من يخشى العامة فلا يتجرأ على تخطئة خرافات

(١) اظن اننا ان من هؤلاء الشيخ سعيد الشرتوني وسأ نشر من مکتوباته ما يشعر بذلك ولا سيما تقریظه لرسالة التوحيد (٢) بل كان يعتمد ألا يظهره وهو يقصده

الحشوية عانا ، وأكثرهم لم يكن له اختلاط بالمسيحيين ولا وقوف على احوالهم ،
واذا راجعه احد من هؤلاء في شيء لم يكن إلا لاستفتائه في مسألة من مسائل
الحقوق أو المعاملات الدنيوية . فالعشرة بين الفريقين كانت محدودة جداً ، ودائرة
الاختلاط كانت ضيقة ، والجمود كان غالباً على علماء الاسلام هؤلاء ، والمبادي
الحشوية كانت مستفيضة فيهم

على مثل هذه الحالة قدم الشيخ محمد عبده الى بيروت وظهر فضله وسمته
شمسه ، فاختلط به ادباء المسيحيين وعلمائهم ورؤساؤهم فرأوا منه غير من عرفوا
الى ذلك العهد ، وبعد أن كانوا يرون في الاسلام شيخاً معماً قصير أمد الفكر ، او
بالكثير فقيها جامداً متورعاً ، صاروا يرون فيه بحسب تمثيل الاستاذ الامام ايام
فقيهاً نيراً وفيلسوفاً كبيراً واجتماعياً محنكاً ، وهناك شاهدوا الاسلام كما كان
عليه مثل الغزالي او كما كان عليه ابن رشد وكما كانت عليه تلك الطبقة العليا

وكما أن المسيحيين في سورية شاهدوا من الشيخ عالماً مسلماً لم يعهدوا نظيره ،
كذلك المسلمون أنفسهم على اختلاف طبقاتهم كانوا مقربين بفضله ، موفرين لقدره ،
وكان ناشئتهم معترفين بان هذا الاسلوب أسلوب لم يعرفوه من قبل . وقد كان
الاستاذ يجلس من علماء سورية بنوع خاص الاستاذ الشيخ حسين الجسر الطرابلسي
رحمه الله لانه كان عالماً مفكراً واسع النظر مهتماً بالجمع بين الشريعة والادب
العصرية ، وطالما سمعت من فمه اثناء على الاستاذ الجسر كما ان الاستاذ الجسر كان
معجباً جداً بالشيخ محمد عبده معترفاً بعبقريته . وقد ذكر لي ذلك إحدى المرات ، ولم
يأخذ عليه إلا شيئاً من حدة المزاج : فقد كان الشيخ يومئذ لم يتجاوز الثامنة
والثلاثين من العمر ، وكان من أصله عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، مرهف
الاحساس ، وربما جرى لسانه بسائق التأثر بما لم يكن يجري به لو لم يكن متأثراً

وفي سنة ١٨٨٩ ذهبت الى دمشق وكنت في السنة التاسعة عشرة من العمر
فحضرت مجلس مفتي الشام العلامة الشيخ محمد الزيني في أثناء الكلام جرى
ذكر الشيخ محمد عبده وكان المفتي يعرفه فأثنى عليه كثيراً وقل مامعناه انه مع

«لعم الوافر متصف بالكياسة والرقّة» جامع بين أدب النفس وأدب الدرس ، يشبه في هذا أكابر علماء الشام واستانبول

وقد زار الشيخ إذ هو في بيروت كثيراً من حواضر سورية ومدنها كدمشق وطرابلس وبعبك وصيدا والقدس وغيرها وكان أينما حل معززا مبجلا محفودا محفوا بالمستفيدين . وكانت أخلاقه تسير جنبا إلى جنب مع معارفه ، فكان مثالا تعلم مع العمل ، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد في شيء من أعماله مغلما أو مغمزا ، أو يلحظ منه ما يخل بالوقار أو الكرامة أو الحشمة ، بل كان له من الهيبة والجلالة ما لم يكن إلا لكبار الشيوخ من المعمرين مع أنه كان شابا . ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن سعة علمه فقط ، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم المقرون بالطهارة ، ومن الذكاء الزدان بالعفة ، ومن الفصاحة التحلية بالاحتشام والورع ، فكان التناسب في خصاله تاما ، وكان عظيما من كل جهة . ولقد كان المختلطون به بصورة دائمة عددا لا يكاد لا يحصى من كل ألوان ، ولم أعلم أحدا من جميعهم قدر أن يقول فيه كلمة سوء ، أو أن ينتقد منه قولاً أو عملاً يخل بالكمال ، وهو لا يكاد يوجد وحده إلا في وقت النوم . فأما في أثر أوقاته فقد كان محاطا بالزائرين . فالذين طعنوا فيه إن كانوا طعنوا عن جهالة دون عمد أو عن نفاق لم يدينوه فسبا محهم الله ، وإن كانوا طعنوا عن حسد أو شنان حمهم على القول بخير علم أو بما لا يعتقدون فحسبهم الله .

وقد سمعت في تلك الأيام بعض أناس يجهرون بعداوتهم للشيخ لكنهم لم يكونوا يحتمون في أخلاقه ولا في دينه ولا في أدبه ، وغاية ما كان ينسب إلى الشيخ من العيوب وجل من لا عيب فيه هو الحدة فقط ، وهو عيب أستاذ السيد جمال الدين فقط . وقد كان تاهل من بيروت وأهله هي كريمة الحاج سعد حماده أخي الحاج محي الدين حماده فكانت صفاته بهذا البيت تحمله في المنافسات والتخاصمات السياسية المحلية على الذب عنه بفصاحته وقوة حجته ، مع اعتقاده التام بنزاهة مقصده ، فكان يتحمل بسبب هذه النصرة لهم شطرا من إصر العداوة وتوابعها . وكان بعض الساخطين من جل ذلك يقولون مالم الشيخ وللتدخل في هذه الأمور التي لا تعنيننا إلا نحن أهل

بيروت فكان الاولى به أن يبقى فوق هذه الاحزاب؟ ولم يكن أحد يزيد في انتقاده على كلمة انه جاد المزاج، وكان والذي يقول لي انه لم يجد فيه إلا عيباً واحداً وهو ان لسانه حريف اذا غلب عليه الانفعال.

ومن غرائب مزاياه انه كان مع تلك المهابة التي فيه، وذلك الشمم الذي يتجلى من جميع نواحيه، من أرق خلق الله طبعاً، وأعظمهم وداعة وتواضعاً، وأحلامهم عشرة، وأحبهم للفكاهة، وأطربهم للنكتة، وكان للنكات والنوادر من مجلسه نصيب وافر. وكان للطرائف واللطائف من محضرته حظ سافر، ولكنه لم يكن يشوب تلك الفكاهات كامة بذئثة ولا لفظة ينبو عنها المجلس، ولا قصة يشتمز ذو تربية حسنة من سماعها. فقد كان جلال الاستاذ لا يفارق مجلسه أبداً، وكان وقاره يرفرف على أحاديثه دائماً فهو نادٍ زاهر إن عرف النكتة او النادرة فلم يعرف قط اللغو ولا اللهو. وكان أحد أصدقائه الاجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزز من سماع ذلك ومراراً صرح أمامي باشمئزازه من هذه العادة السيئة، التي تغلب على بعض الاسنة. فكان في هذا الامر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فاندك الأمريكاني الكبير يقول عنهم: تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة. وكان المرحوم الاستاذ يستحسن جداً هذه المزية فيهم، ويعجب بأدبهم في مجالسهم حتى آداب العوام منهم (١).

وكان الشيخ بسيط نوع المعيشة يكره السرف والترف إلا انه كان سخي النفس كثير البر، ينفق ما بيده ولا يعرف للمال قيمة. وكان بمد سباط الاكل في محل الاستقبال ويدعو أي من حضر اليه، وكان يحب السخاء الدائم والسباحة الفطرية بدون تأنيق ولا تصنع. وكان والده يرسل اليه ما يلزم لمعيشته فلم يحتاج

(١) ذكرت في حاشية قريية انه غاظ في الانكار على محمود كحيل من تلاميذ المدرسة أن رأى معه ديوان شعر فيه بيت في وصف الردف وألناه بعيداً كالقنر

في أثناء وجوده في بيروت إلى شيء ولا ضاقت ذات يده ولا مرة ، وكان يوازن موازنة تامة بين الراتب الذي يأتيه من أبيه وبين نفقاته فلا تجد بودجة أحسن انتظاما من بودجته ، ولذلك لم تكن تجده عائلا أبداً (١) وكان يصدق على الفقراء ولا يرد سائلا ، ومن مزايه أنه كان لا يقبل من أحد شيئا من شدة انفته ، إلا الهدايا التافهة من خلصاء أصحابه لا غير

وكان من السياسة والكياسة بالمقام الأعلى فلا تجد زائره ولا عشيره إلا راضيا ، ولم تكن تحمله شدة اللفة على أطراح التكلف فقد كن يقوم حتى لتلاميذه ومريديه ، ودخلت عليه مرة وكان عنده المرحوم منح بك الصلاح فتمثل واقفا لي فقال منح بك : ماظننت الشيخ يقف لك . فقال له : أنا لست ممن يقول اذا وقعت اللفة ، ارتفعت الكلفة

ولم يكن يطرأ على بيروت احد من معارفه او من الاعيان المشهورين إلا وقام بسنة السلام عليه . وقد يحله ويحتفي به ولو كان مخالفا له في العقيدة ، ولم أجده احتفل بأحد أكثر من احتفاله بعباس افندي البهاء رئيس البابية مع ان الطريقة البابية هي غير ما يعتقد الشيخ وهي الطريقة التي رد عليها استاذ السيد جمال الدين رداً شديداً ، ولكنه كان يكرم في عباس افندي العلم والفضل والنبيل والاخلاق العالية (٢) وكان عباس افندي يقابله بالمثل ، وكان ينصف الناس كثيرا ولا يبغض احداً شيئا من اشيائه ، حتى انه ذكر لي مرة ما يجده في نفسه من انصاف غيره حتى من اعدائه وقال لي : اني لأحسد نفسي على هذا الانصاف

(١) ذكر لي رحمه الله ان أحد أصحابه المصريين توفي والده في بيروت فجاءه . يقول انه ليس معه ما يجهزه به بما يليق بكرامته وكان مع الاستاذ راتبه الشهري كله فبذله له كله . ولكنه ما علم أن جاءته حوالة برقية بمبلغ من المال أكثر منه كان ديناله على بعض أصحابه قبل النبي وكان بمطل به ويسوف

(٢) قد علمت من الاستاذ الامام انه يعتقد ان عباس افندي مسلم محب للاصلاح كما كان يظهر له عملا بقاعدة النقية ولا سيما عند أمثاله الباطنية . وكان عباس افندي يهلي مع الاستاذ الجمعة والجماعة وسأفصل هذا في موضعه من هذا التاريخ

ومن بعد ان صرت من مريديه لم اسمع منه كلمة تقرّظ لشيء من اعماله او اقواله، بل كان اذا استحسن يسكت، واذا استهجن يذبه ويوقظ. وكان الواحد منا يتجنب اقل التسامح مع نفسه خوفا من توبيخه لشدة ما كنا نوقره ونهابه، وكان من اصدقائه الدكتور ابراهيم صافي وهذا لم يكن طبيبا شهيرا فحسب بل كان فاضلا صدوقا حسن العشرة، فكان الاستاذ يزوره في الاحياء وكنت اصحبه في هذه الزيارات، ففي إحدى المراسلات صافي عن ادباء العصر ومن الجملة عن اديب اسحاق. فقال له عن اديب: هو كاتب لا بأس به، فقال له صافي: والشيخ ابراهيم اليازجي؟ فقال الشيخ: هو اكتب من اديب بكثير بل هو اكتب المعاصرين فيما ارى، ثم التفت صافي نحوي مبتسما وقال للشيخ: والامير شكيب؟ فقال له: سيصير في المستقبل، فقال له صافي: اترأه سيكون مثل الشيخ ابراهيم اليازجي؟ قال له الشيخ: لا، قال له صافي: الا يقدر ان يكون مثل ابراهيم اليازجي؟ فتبسم الشيخ وقال: مرادي انه سيصير احسن احسن. وهذه هي المرة الوحيدة التي صرح امامي بتفاوته بحقي

وقد نقلت هذه الجملة لانها من كتاباته لا ادعاء بانني جئت مصداقها، وكان في غالب الاحيان يصبرني عيوبي ويذممني الى تلافى قصوري شأن الاب مع ابنائه ولم يكن يرغبني في الشعر، وقد مدحته بقصائده في ديواني الاول المسمى «بالباكورة» وقدمت الباكورة نفسها له وصدرتها بقصيدة مقدمة له (١) ولم يظهر لي الاهتمام بشيء من ذلك ولم يستمطر عارضي في الشعر إلا مرة واحدة وهي انه كان صديقا للمرحوم عبد الله باشا فكري وكان عبد الله شاعرا ناثرا فشار إلي بأن اهديه الباكورة واصحبها بأبيات بمدح عبد الله باشا، فنظمت ابيات رائية بعثت بها اليه مع الديوان، فاجابني عليها من البحر والقافية بقصيدة رنانة مثبتة في ديوانه

وكان يقول: لا اقول الشعر، وانما كان يعترف بالقصيدة الهائية التي قد وهو في السجن على اثر الحادثة العراقية وأنا احفظ منها:

(١) ما نشر بعض هذا النصائد وكأها في الجزء الرابع المتتم لهذا التاريخ ان شاء الله

مجدي بمجد بلادي كت أطلبه وشيمة الحر تآبي خفض اهليه
ومنها :

احاول الصعب في رأي فادركه ولا حسام ولا رمح ارويه
وانما الفكر يعني نفس صاحبه عن الجيوش اذا صحت مباديه
ولم تكن رغبته عن نظم الشعر بالتي تمنعه من الاهتزاز لجيد الشعر والافتتان
بغرر القريض . فقد كان يكاد يسكر من قراءة هذه الطبقة العالية من الشعر
لا سيما الشعر الجاهلي ، وقرأ ديوان الحماسة في اثناء مقامه ببيروت فحفظ منه
الكثير ، وكان يبلغ من شغف حسه ورقة شعوره انه يعيد البيت الواحد مراراً
متعددة وهو يترنم به ولا يرتوي منه ، وأحسبه قد فعل في نفسه سحر البيان
ماتفعله الالحان في السامع ، او بنت الحان في الكارع (١) ولشدهما كان يعجبه :
اذا هزه في عظم قرن تهلت نواجذ أفواه المنايا الضواحك
وقوله :

فخالط ملس الصخر لم يكدهح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر
وكان يعجبه في التشبيب قوله

(١) أما دقة فهمه وذوقه للشعر فهو من دقة فهمه للأمريية واثقانه لا دأها .
وأما تأثيره في نفسه فهو من رقة شعورها وصحة وجدانها . وكنت في بعض المناسبات
أذكر له بعض الشعر المؤثر في النفس فلم أره اهتز لشيء هزته لقول بثينة اذ نعى
اليها جميل . ذلك ان جميل لما حضره الموت أعطى رجلاً حلة له وأمره بأن
يسافر الى ربيع بثينة ويقف عند بيتها وينشد :

صرح التعي وما كنى بجميل وثوى بمصر نواء غير قفول
فلما سمعته بثينة لم تملك نفسها أن خرجت حاسرة وقالت له : يا هذا إن كنت
كاذباً فقد فضحتني ، وإن كنت صادقاً فقد قتلتني . فأخرج لها الحلة فانصرفت وهي تقول
وان سلوي عن جميل لساعة من الدهر لا حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر اذا مت بأساء الحياة ولينها
فاهتز الاستاذ لسماع هذا النثر والنظم وتغير وجهه ثم صار يردد البيت الثاني
مراراً وقال لما روى الأمير عنه

وقربن اسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعا كلما قسن أصبعها

وقوله :

أحقا عباد الله أن لست ذاهبا ولا جائيا إلا على رقيب
وكن بفضل محمود سامي على جميع الشعراء المعاصرين ويقرنه الى كبار
المتقدمين . وهو الذي دلنا على شعره وعرفنا بمقامه واطلعنا على « الوسيلة
الادبية » للمرصفي فحفظنا ما فيها من قصائد محمود سامي باشا البارودي . وأما
مراسلاتي الشعرية مع محمود سامي فيما بعد أيام كان منفياً بسيلان ثم بعد العفو
عنه وإيابه الى مصر فقد كانت بعد أن برح الاستاذ بيروت وعاد الى مصر .
وكان محمود سامي من أحب الناس الى قلب الشيخ فلم أعلم أنه كان يذكر أحداً
من أقرانه بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامي رحمه الله وكان يتأوه على غربته
ونكته مالا يتأوهه على أحد . ومرة كنا راجعين من إحدى السهرات في القاهرة
وذلك سنة ١٨٩٠ عند مازرته الى مصر فمررنا امام دار فيحاء فوقف ونظر
اليها وقال لي : هذا بيت صاحبنا، وتهد عند هذه الكلمة تنهداً عميقاً فسألته :
دار من هي ؟ فقال : محمود سامي . وكأنه تنهد لآعلى غربته محمود سامي فقط بل
على غربته مصر كلها واحتلال الاجنبي لها

وكان أيضاً شديد الحب لعبد الله باشا فكري لا يفتأ يذكر محامده ومثاقنه
دينه ورقة أخلاقه ويحفظ من شعره ويعجبه منه قوله خطاباً للخديو توفيق
ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ومال به الآمال اقتادها قسراً
ولكنها نفس فدتك أية تعاف الدنيا ان تمر بها مرا
وكان يروي ان محمود سامي وعبد الله فكري كانا يتساجلان في إحدى
السهرات فكان أحدهما يقول شطراً والآخر يقول الثاني فقال أحدهما
وترى الحجرة في السماء كأنها
فقال الآخر رز تبهر في طريق الحجر

وطريق الحجر طريق واسعة معروفة بمصر . وكان يروي لنا نوادر كثيرة
عن مصر وأدبائها وعلمائها ورجالها حتى صرنا كأننا في مصر ونحن بعد لم

نعرف مصر. وممن كان الشيخ يجلهم كثيراً الاستاذ الشيخ محمد المهدي العباسي شيخ الازهر فقد كان ينوّه باستقامته وعدم محاباته في الدين. وكان يجل الشيخ حسونة النواوي والشيخ حسن الطويل ولكنه بالاجمال كان يكره طريقة التعليم بالازهر ويذكر مساوئها ويتأوه من اشتغال الطلبة هناك بما يسمونه « بعلم الكراس » وما أكثره في وجوه الاحتمالات، وفي تأويل العبارات، مما أضاع أوقات الدارسين فيما لا فائدة فيه. وبقي ينوح على حالة التعليم في الازهر ويندب جمود العلماء الذين فيه وعقم طريقتهم الى أن صار هو صاحب نفوذ في مشيخة الجامع فأصلح من ذلك بقدر استطاعته

ولما زرتة في مصر سنة ١٨٩٠ قال لرفيقه وخليفه الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان بان يذهب معي الى كبار مشايخ الازهر كالشيخ العباسي والشيخ الانبائي والشيخ عبدالقادر الرافعي حتى أتعرف اليهم فلما زرنا الشيخ الانبائي وجدنا عنده عالماً اسمه الشيخ الظواهري. فلما ذكر الشيخ عبدالكريم اسمي وقال اني من جبل لبنان قال هذا الشيخ المسمى بالظواهري: وأين جبل لبنان هذا؟ أفي الغرب؟ فأجابه الشيخ عبدالكريم: بل في سورية. فأما أنا فكنت أصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ إلى هذا الحد معرفة البلدان. ولما رجعنا الى البيت أخبرنا الاستاذ بما وقع فقال لنا: نعم وهذا الشيخ الظواهري الذي يجهل أين جبل لبنان هو من علماء الطبقة الاولى

وهذا وأشباهه كان من أسباب نفي الشيخ على جمود العلماء الازهرين ونفودهم من العلوم المصرية وحصرهم جميع قواهم العقلية في دروس معلومة يجهلون كل شيء سواها حتى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل هذا العصر بل ليسوا من أهل هذه الدنيا، ومما جعله يتأوه على فراش موته رحمه الله ويقول

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآثم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العامم

وكان جاء الى بيروت الشيخ ابراهيم التادلي من أكابر علماء المغرب أدى فريضة الحج أولاً ومن الحجاز جاء إلى القدس ثم الى بيروت حينما كان الاستاذ الامام فيها، فذهب الاستاذ للسلام عليه وذهبنا معه أنا والاستاذ الشرتوني. ولم تكن

لي ألفة يوم مثذبلهجة إخواننا المغاربة فقلما فهمت شيئاً مما كان الشيخ التادلي يقوله .
وانما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه ، فقال لنا انه عالم على الطريقة
المهودة بالازهر والتي ابتلي بها العالم الاسلامي كله فالازهر والاموي والزيتونة
وجامع القرويين كلها واحد ، ولم يفهم منه شيئاً جديداً الا انه أعجبه من كلامه شيء
واحد وهو ان الشيخ سأله : هل في المغرب اليوم مؤلفون في أصناف العلوم
المختلفة ؟ فأجابه التادلي : نعم يوجد مؤلفون في المغرب إلا أن العلم لا ينتشر بقوة
التأليف وانما ينتشر بقوة التدريس وكثرة المذاكرة الشفوية . فاستاذنا وجد
هذا المعنى صحيحاً وقال لنا : هذا أحسن ما سمعته من كلامه . وثاني يوم قيل
لنا ان الشيخ التادلي يريد أن يقرأ درساً في الجامع العمري الكبير فأقبلت الناس
لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير وذهبنا نحن مع الاستاذ ونحن نرجو أن
نسمع شيئاً جديداً أو بحثاً عائداً الى أمراض العالم الاسلامي الحاضر وطرق علاجها مما هو
مقدم على كل شيء . فاذا بدرس الشيخ التادلي في البسملة وما تضمنته من العلوم والمعارف
والفنون مما هو مستفيض في كتب علماء ائمة ارحمهم الله ومما لا شك في ان الاستاذ التادلي أتقنه
اتقاناً تاماً ولكنه دل بهذا على انه غير مطلع على أحوال زمانه ولا مكانه ولا عارف
بما يوجبه الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الاحوال

وكان الشيخ محمد عبده يسمي هذا النوع حفظاً لاعلماء ويقول ان العلم الذي
لا يمتزج بالنفس ولا يصير جزءاً من أجزائها لا ينبغي أن يسمى علماً

وقد روى عنه الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » مجلساً جرى بينه وبين
جمال الدين أفندي شيخ الاسلام في الآستانة من جملة ما ذكر الشيخ فيه ان
أمثال هؤلاء لا يقال لهم علماء وانما يقال لهم حفاظ لانهم يحفظون عن ظهر القلب
أصولاً وقواعد لا يطبقون منها شيئاً على فروعها وقال أيضاً : انه جاء في تعريف بعض
السادة المالكية للعالم انه الخبير بامور قومه المطلع على أحوال زمانه . اهـ

[المؤلف] أرسل إلى الامير بعد هذا فصلاً آخر في شؤون الاستاذ الامام وآرائه
وأصدقائه وتلاميذه ولا سيما سعد زغلول باشا قد استفاد أكثره من زيارته لمصر
التي أشار اليها آنفاً وسندكره في موضعه اللائق به من هذا التاريخ . وموضوعنا
في هذا المقصد بيان سيرة الامام وعمله في سورية .

خاتمة هذا المقصد

(في سعيه لاقتناع الدولة العثمانية بالاصلاح وتعميم التعليم الديني مع التربية)
 ذكرنا في أول هذا المقصد ما كنا نشرناه في المنار - ثم ما أشار اليه أخونا
 المرحوم السيد عبد الباسط في فصله الذي نشرناه بعده - من ان الاستاذ الامام
 كتب الى شيخ الاسلام في الاستانة لائحة في الاصلاح والتعليم الديني ، وأشرنا
 في الحاشية الى نشرنا لهذه اللائحة في الجزء الثاني وهو (جزء المنشآت) ومن قرأ
 هذه اللائحة علم منها أن الاستاذ الامام قد تجدد له أمل كبير في اصلاح الدولة
 العثمانية من طريق التربية والتعليم الذي لا يمكن الاصلاح إلا بسلوكه ، ورأى انه
 وصف لها ماهي مستهدفة له من الخطر على مقام الخلافة ، ووحدت الأمة ، وقوة
 الدولة ، بفساد الجهل في المسلمين وفساد الاخلاق ، وسريان شبهات الحساد ،
 ثم بنفوذ الاجانب وتأثير المدارس التبشيرية في البلاد ، حتى انه خص المدارس
 العسكرية بالذكر فقال (ص ٥٠٨ طبعة ثانية) ولهذا رأينا كثيرا ممن قرأوا العلوم
 في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهال الابعقائده ، منكبين على الشهوات ،
 وسفاسف المذات ، لا يخشون الله في سر ولا في جهر ، ولا يراعون له حكما في خير
 ولا في شر ، وانحط بهم ذلك الى الكلب في الكسب . الخ

ان الاستاذ لم يكتب لائحة واحدة في ذلك بل لائحتين ، كان سبب الاولى
 منه ما صدور ارادة سلطانية لشيخ الاسلام بأن يؤلف لجنة تحت رياسته لاصلاح
 جداول الدروس في المدارس الاسلامية وتقويتها حتى تكون كافلة لجميع الوسائل
 الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقيهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم
 بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب ، فقررص أحسن الله
 جزاءه هذه السانحة لتعليم الدولة ماهي في أشد الحاجة اليه من هذا الاصلاح ،
 التي لا يرجى لها بدونه بقاء ، فبين لشبخ الاسلام ولجنته سوء حال المسلمين في
 هذا العصر ، وما استحوذ عليهم من الفساد والجهل ، ووصف سوء حال المكاتب
 والمدارس الاسلامية في بلاد الدولة ، وسوء حال رجال العلم والدين فيها ،

وطبقات الناس الثلاثة ، وما ينبغي من اصلاح التعليم الديني لكل طبقة منها — وهو التعليم الابتدائي لطبقة العامة ، والتعليم الوسط للطبقة المرشحة للوظائف ، والتعليم العالي لطبقة المعلمين والمرشدين . وبين العلوم الدينية التي تدرس لهذه الطبقة ووسائلها وتاريخ الاسلام والتاريخ العام وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى — وهو علم واحد . ومنها فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل — وأولها تفسير القرآن وقال فيه مانصه :

« وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا ارجاعهم اليه . وما لم تفرغ صيحاته أعماق قلوبهم ، وتزلزل هزته رواسي طباعهم ، فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة القمح وساقاة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم . والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي . فلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه . فان احتاج الى وسيلة أخرى فأولها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير القمي النيسابوري ومن أخذ طريقهما^(١) »

وبعد الكلام في التعليم والعلوم وأسلوب التدريس وغرضه عقد فصلا للاصلاح الديني والدعاة والمرشدين الذين يناط بهم وما يشترط فيهم . وخص بالذكر خطب المساجد . ثم بحث في الكتب التي يجب أن توضع للطبقتين الاولى والثانية . وفي الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية فين كل ذلك بمبارة مقننة وأما اللائحة الثانية فقد قدمها الى والي بيروت بعد تقديم الاولى الى شيخ الاسلام وموضوعها (اصلاح القطر السوري) وقد بين فيها وجه الحاجة اليه بالاجمال ثم بالتفصيل . فبدأ ببيان حالة أهالي جبل لبنان وطوائفه من الموارنة وهم الاكثرون ثم الدروز ثم المسلمون السنيون والشيعة . وقفى على ذلك بفصل

(١) راجع مقاله لنا في تفسير الكشاف وما أجاب به عن اعتراضات عليه في ص ٣٩٠

آخر في بيان حال أهالي ولايتي بيروت وسورية . فتكلم عن الطوائف النصرانية وميولهم الى الدول الاوربية ، وعن طائفة النصيرية فالشيعة الامامية خدروز حوران فالمسلمين من أهل السنة ، فأهل البادية من الاعراب المتنقلة . وبين علاقة كل منهم بالدولة وما يجب من الاصلاح والتعليم في الجميع الذي تستقر به سلطتها في البلاد وتتقي غوائل التعليم الاجنبي وما يتبعه من النفوذ السياسي ولو ان الدولة العثمانية عقلت تلك النصائح واتبعها لصلحت البلاد، وارتقى العباد ، وثبت سلطانها فيها ، وانتقل نفوذها الديني والسياسي الى غيرها . ولكن رجال الدين فيها كغيرها لم يكونوا يعقلون معنى لاصلاح مدني يستمد من القرآن ومن السنة الصحيحة ومن مراعاة سنن الله تعالى في الاجتماع البشري وأما رجال السياسة والادارة فكانوا مفتونين بتقليد الافرنج في معيشتهم وحريتهم وظواهر نظمهم ، وانما كانوا يقلدونهم فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الاصاغر ، لمن فوقهم من الاكابر ، كالازياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجوا أكثر القوانين ولم يقيموا شيئاً منها ، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئاً . وقد آل الامر بجهل الفريقين الى زوال هذه الدولة من الوجود ، وانحصار دولة الترك المغرورين في امارة صغيرة فقيرة ضعيفة .

وكان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يخاف على الدولة هذه العاقبة السوء ويخاف سوء تأثير زوالها في البلاد الاسلامية ، وقد صرح في بعض مقالات العروة الوثقى بأن خروج القطر المصري من حظيرة سيادتها يفضي الى ذهاب غيره ، وأشار في هذه اللائحة الى الخطر عليها من جهة فساد التربية وإهمال التعليم الديني وحلول التعليم التبشيري محله والنفوذ الاجنبي ، وقد سأله سنة ١٣١٥ عن رأيه فيها فقال انها سياج المسلمين في الجملة فيجب عليهم أن يعملوا لانفسهم قبل زوال هذا السياج الضعيف وإلا صاروا أسوأ حالا من اليهود ، فان اليهود قد تعوضوا من فقد الملك والدولة بما أوتوا من الثروة العظيمة الخ وسأعود الى بيان هذا في الموضع التاليف به من هذا التاريخ

الفصل السادس

في الطور الثالث من حياته العملية (وهو ماعمله بعد عودته من منفاه الى وطنه)

(وفيه مقدمة وثمانية مقاصد وخاتمة ، أما المقدمة ففي عودته الى وطنه وسعيه للعمل الاصلاحى فيه : وأما المقاصد فهي (١) عمله في القضاء الاهلي (٢) عمله في اصلاح الازهر (٣) عمله في افتاء الديار المصرية (٤) عمله في اصلاح المحاكم الشرعية (٥) عمله في الاوقاف (٦) عمله في مجلس شورى القوانين (٧) عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (٨) عمله في جمعية احياء العلوم العربية — وأما الخاتمة ففي دفاعه عن الاسلام وتدرسه في الازهر ولا سيما تفسيره للقرآن ،)

المقدمة :

ذكرنا في مقدمة الفصل الخامس انه حكم عليه بالنفي من القطر المصري وملحقاته مدة ثلاث سنين وأن ذلك كان في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٢٨٢) ومقتضى هذا ان مدة نفيه قد انتهت في أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — آخر سنة ١٨٨٥ م وكان في أثناء ذلك في بيروت مجدداً في عمله ، طائراً في جو أمله ، وكان أول أمله تربية نشء جديد في المدرسة السلطانية ، يوجه المستعدين منه الى ما كان ينويه من اصلاح الامة الاسلامية ، وقد كان في آخر عهده مع السيد جمال الدين في أوربة قد ضعف أمله في نجاح سياسة السيد ولا سيما بعد الاضطراب الى تعطيل جريدة العروة الوثقى وتخاذل المسلمين دون مساعدتهما الواجبة ، فقال للسيد أرى أن نترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجاهل الارض ، لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الاذكياء السليمي الفطرة قربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم الى مقصدنا ، فاذا أتبع لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا نغني بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ، ومن أمثال هؤلاء برجي الفلاح ، — فقال له السيد إنما أنت مشبوط ، نحن قد شرعنا في العمل

ولا بد من المضي فيه مادامنا نرى له منفذا . أو ماهذه خلاصته من قولها .
ثم انه كان يرجو من وجوده في بلاد الدولة العثمانية أن يتمكن من اقناع
أولي الامر فيها بما يجب عليها من اصلاح التربية والتعليم في المدارس بحسب
رأيه ، وأن يكون له عمل في ذلك اذا هم اقتنعوا بما بسطه لهم من وسائله ، وهو
ماأشرنا آنفا في خاتمة المقصد الثاني من الفصل السابق (الخامس) ولما طال الأمد ،
ولم يستجب لدعوته أحد ، واقتنع بأن الدولة العثمانية غارقة في بحار جهلها ، عاد الى وطنه
وهو يعلم ان الخديو توفيق باشا غضبان عليه كاره له ، وان الانكياز أصحاب النفوذ
الأعلى في البلاد قد ذاقوا من مرارة قلمه ، وصلوا من نار عصبية المليّة والوطنية مالم
يعهدوا له نظيرا في الطعن فيهم ، واثارة العالم الاسلامي والشرقي عليهم . ولكنه
هو الشجاع الذي لا يعرف الخوف إلا من الله عز وجل .

عاد الى مصر في سنة ١٣٠٦ ولا أذكر الشهر الذي عاد فيه ، فتلقاء أصدقاؤه
ومريده بالاجلال ، والسرور والاستبشار ، إلا الجبنة منهم فانهم تجاهلوا
وجوده ، وأذكر مما سمعته منه مثلا للصديق الشجاع ، ومثلا للصاحب الجبان ،
أما الاول فقد أخبرني رحمه الله تعالى انه كان في محطة مصر مع المحتفلين بقاء
الخديو في عودته من الاسكندرية ، وكان معه صديقه التليد سليمان باشا أباطه ،
فرأيا ان بعض الوجوه تتنكره ، والشيوخ تستدبره ، فجعل سليمان باشا يمشي بجانبه
متأخرا عنه قليلا ليكون منه كالتابع مع المتبوع ، فجاءه أحد أولئك الجبنة وأمر
اليه : من هذا الذي تمشي معه متأدبا ؟ ألت تعلم ان أفندينا غضبان عليه ؟
فأجابه رافعا صوته : ان هذا صديقنا واننا نجله لعلمه وفضله ووفائه ، ولم تكن
صداقتنا له لاجل أفندينا فنتركها لغضبه عليه .

وأما المثل الثاني فقد أخبرني أنه دخل على مختار باشا الغازي يوم العيد
لتهنئته فوجد عنده رجالين من الوجهاء الذين كانوا يعدون أنفسهم من الاصدقاء له ،
فلما رأياه داخلا تغيرت وجوههما ، وامتنعت الواثمة ، واتخذوا قيام الغازي له
سببا لتوديعه والخروج من حضرته بسرعة كأنهما لم يريا الاستاذ
وقد اتخذ دارا له في شارع الشيخ ريحان بالقرب من سراي عابدين فزاره

فيها صديقه عبدالعزيز افندي سلطان الطرابلسي وسأله عن سبب اختيار هذا المكان ؟ فقال : نناطح عابدين مناطحة !

هذا وانه لم يلبث أن تسابق العطاء إلى توفيق باشا يسألونه العفو عنه ، وكان في مقدمتهم بعض أفراد الاسرة الخديوية كما قلت في ترجمته من المنار ، وأخص بالذكر هنا الاميرة نازلي هانم البرزة السياسية المشهورة ، وصاحب الدولة احمد مختار باشا الغازي مندوب الدولة العثمانية السامي في مصر ، وكذا اللورد كرومر ، ولم يكن أحد من هؤلاء يعرفه قبل ذلك معرفة شخصية ، ولكنهم سمعوا بفضله ، فشكر لكل منهم جميله ، وكان لتلميذه ومريده الوطني سعد زغلول سعي حميد في ذلك عفا الخديو عنه بشفاعه هؤلاء التي لا ترد ، وهو يعلم أنه كان خصما قويا للثورة العسكرية ، وانما ذنبه عنده أنه كان الروح المدبرة لنهضة الاصلاح السياسي والحركة الفكرية ، وان الحكم العسكري عليه بالنفي لم يكن عادلا . ولذلك قال : ما عفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار منه بالعفو الا هذا . ذكرت في المنار أن الثقة أخبر الاستاذ الامام بهذا ، وأقول الآن ان هذا الثقة هو الشيخ البسيوني مفتي الجمعية الخديوية في ذلك المهد - رحمه الله تعالى

فعم ان توفيق باشا كان يعرف رأي الشيخ في التربية المالية والوطنية ، وفيما يجب أن يكون عليه شكل الحكومة ، لان السيد جمال الدين هو الواضع له لذلك ، وكان الخديو توفيق قد انتظم في سلك حزبه الوطني الذي أسسه لقلب نظام الحكومة في مصر ، وعاهده على تنفيذ النظام الجديد الذي أرشده اليه متى صار الامر بيده ، ولكنه لم يلبث بعد توليته ان نفاه من القطر المصري ونفى خليفته الشيخ محمد عبده من القاهرة الى قريته لعله بانه هو الذي يتم ما بدأ به أستاذه كما تقدم في ترجمة السيد من هذا الجزء . ليس من الغريب غير المؤلف أن يكره الامير المستبد تقييد سلطانه ، بل هو المعهود من المستبدين في جميع الامم ، وانما الغريب أن يسلب الاجانب سلطة أمير من الامراء ويجعلون امارته صورية يسخرونها في سياستهم ومقاصدهم حتى الضارة بها كما يشاؤون ، ثم يكون مع هذا راضيا بهذه الامارة الصورية تحت ظلمهم مفضلا إياها على تكوين بها قوة في أمته لا رجاء في رفع السلطة عنها وعنه الاجنبية بدونها

الشيخ محمد عبده كان يريد تربية الامة المصرية وتكوينها حتى تكون مصدر الادارة والسياسة في بلادها ، ويكون أميرها ورئيسها ممثلاً لها أشرف تمثيل ، والخديو توفيق باشا كان يكره هذا ويحول دون تمكين الشيخ منه

كان الاستاذ الامام يحب أن يكون أستاذاً لمدرسة دار العلوم - ان لم يمكن أن يكون ناظراً لها - فلما رأى ان الوصول إلى ذلك من طريق الخديو متعذراً أراد أن يحتال لنيل ذلك من طريق العميد الانكليزي ، فكتب اللائحة الثالثة من اللوائح التي نشرناها في ضمن منشأته من الجزء الثاني (١) وقدمها إلى العميد الانكليزي (السرافان بارنج) الذي أعطى بعد ذلك لقب « لورد كرومر » وفيها من الخلابة والكياسة ما كان يمكن عقلاً أن يقتنع به العميد لو لم يكن كاتبه والتصدي لتنفيذه هو الشيخ محمد محرز جريدة العروة الوثقى ، وخبر هذه اللائحة مر لم يكن يعرفه أحد ، ولم أصرح به في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار ، ولكن التاريخ الصحيح يجب أن ينطق بجميع الحقائق التي لا ضرر فيها على أحد ، وما أشرت نشر هذا الجزء منه إلا لأتمكن من هذه الحرية

ولم يكن الاستاذ الامام مع هذا السعي الخفي لتنفيذ مقاصده الاصلاحية من طريق رسمي مضيئاً لا وقاته في السعي له بل كان أول ماوجه اليه هم هو السعي لاصلاح الازهر من طريق مشيخته كاسيائي . ثم إنه كان يقرأ درساً في تفسير القرآن ، أخبرني بهذا الدرس في حديث داريني وبينه (في يوم الجمعة ١٣ رجب سنة ١٣١٥) بداره إذا اقترحت عليه أن يكتب في التفسير فاعتذر بعدم عناية المسلمين بالعلم وبتأويلهم للكتب كما أولوا نصوص الشرع ، وأطال في ذلك بما دونته في فاتحة الجزء الاول من تفسير القرآن ومنه قوله كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الأميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم هذا أحد فيما أعلم ، مع انها كان حقها أن تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطين من مدرسة الحقوق وكانا يراجعاني في بعض مايكتبان ، وأما المسلمون فلا !! ! والآن أين أعماله في مصر مبتدئاً بعمله في القضاء الاهلي

المقصد الاول

عمله في القضاء الاهلي

قنت ان الخديو توفيق باشا كان يخاف من الشيخ محمد عبده أن ينشر أفكاره الاستقلالية في الامة بالتعليم وبالمعاشرة ، فأراد أن يشغله عن ذلك فأمر بأن يعين قاضيا في المحاكم الاهلية ، وان يكون في خارج القاهرة ، فلما بلغ الخبر الاستاذ امتعض وقال انني لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا ، وانما خلقت لأكون معلما ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت ثم رغب الى ناظر الداخلية أن يشفع له عند الامير باستبدال التدريس في مدرسة دار العلوم بالقضاء ، وقال له انني اعلم انه لا ارتقاء في التدريس وانني أرتقي في القضاء إلى أعلى درجة فيه ولاكنني لأحبه ، فلم يقبل الامير هذه الشفاعة وصرح بالسبب فقال انني لأحب أن يربي لي التلاميذ على أفكاره السياسية ، فرضي بالقضاء ، وما زال يرتقى فيه الى أن بلغ أعلى درجة منه كما قال ، وهي درجة المستشار في محكمة الاستئناف

عين قاضيا في محكمة بنها ثم في محكمة الزقازيق ثم في محكمة عابدين بالقاهرة ثم عين مستشاراً في محكمة الاستئناف

وقد كان قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم ، وإن شئت قلت القاضي المجتهد لا المقلد ، ذلك أنه لم يكن يحكم بظاهر عبارة القانون وتطبيق الواقع عليها بادي الرأي ، بل كان يتحرى اظهار الحق واصابة العدل في القضايا ، فن انطبقت على القانون وإلا عمد إلى وسيلة أخرى ولا سيما الصلح . ومما كان يحكم فيه باجتهاده واعتقاده مسائل الربا فانه كان اذا تمذر عليه الصلح يحكم برأس المال دون الربا ، وكأين من قضية خالف فيها القانون عمداً ، حتى وشى به بعض حساده الواقفين على ذلك وذكر شيئاً من مخالفاته هذه في تقرير طويل قدمه الى وزارة الحقانية . فله المستشار القضائي السابق (مستر سكوت) عن حقيقة ذلك سؤالاً عادياً غير رسمي

يعد أن أطلعه على التقرير، فقال الاستاذ: هل العدل وضع لاجل القانون أم القانون وضع لاجل العدل؟ قال المستشار بل القانون وضع لاجل العدل والعدل هو المقصود بالذات. فأنشأ حينئذ يشرح له تلك القضية اياويبين أنه لم يحكم فيها إلا بالعدل، فاقتنع المستر سكوت وسر منه سروراً عظيماً لانه كان منصفاً عارفاً بقيمة الرجال، على ان هؤلاء الانكليز أبعد الشعوب الاوربية عن الرسوم في القضاء وأقربهم إلى اعتبار الانصاف ووجدان القاضي فيه

وقد أساء الادب بعض الاجانب مرة في الجلسة فأمر بحبسه فحبسه ، فاضطرب قنصله الجنرال واحتج وكلم وزير الخارجية ولما وصلت الشكوى إلى نظارة الختانية كلم المستشار القضائي الاستاذ في ذلك قائلاً إن هؤلاء القناصل ليس لهم عمل يشغلهم في مصر فهم يفترضون شيئاً مثل هذا يماحكون به الحكومة، ونحن نحب أن لا نجعل لهم سبيلاً إلى القيل والقال ، فذكر له الامام ما كان من ذلك الاجنبي في الجلسة من رفع الصوت وعدم التزام الادب المعروف ، وقال انني مادمت جالساً على هذا الكرسي لتقرير العدل فانا لا أقصر في احترامه — أوقال — لا أقبل أن يهينه أحد إذ لا يمكن احترام القضاء إلا بذلك الخ ماقال وكان مستحسننا عند المستشار

وقد كان لا يعتد بمعارضة الاجانب عند تنفيذ ما يصدر من الاحكام. من ذلك أن كثيراً من الفلاحين كانوا اذا حكم على أحدهم بنزع أرض من يده يلجأ إلى رجل أجنبي أو رجل يتمتع بحماية أجنبية فيعطيه الارض بمقد كاذب نكاية في خصمه فيمنع الاجنبي الحكومة من تنفيذ الحكم ، أو ترفع الدعوى إلى المحكمة المختلطة فتحكم فيها. وكان من المحكوم لهم من يترك الارض للاجنبي لاعتقاده بعجزه عن انتزاعها منه في المحاكم المختلطة ، ومنهم من كان يلقي بنفسه في مهاوي الدعاوي ويخسر فيها ماشاء الجهل أن يخسر ، فعلى أمثال هؤلاء الاجانب كان ينفذ أحكامه بالقوة متحملاً تبعه التنفيذ، لعله بان ذلك الاجنبي المحتال لا يتجرأ على مقاضاة الحكومة في دعوى هو فيها مبطل يعجز عن اثبات دعواه

من ذلك أنه حكم مرة بنزع أرض من واضع يد وطني وردها الى صاحبه

الحق الذي ثبت له في المحكمة - فقبل له ان فيها رجلا انكليزي التابعية رفع عليها علم دولته وهو يعارض في تسليمها . . فأعطى محضر المحكمة أمراً بأن ينزع العلم ويخرج الرجل المدعي للملكيتها بالقوة ، فلما رأى ذلك الرجل المستأجر لمنع تنفيذ الحكم ان الامر جد، وأنه اذا لم يخرج ممثلاً أخرج مهاناً لم ير له مندوحة من الخروج . وكان في الشرقية رجل سوري محصن بحماية الدولة الفرنسية قد جعل نفسه ملتجداً للمحكوم عليهم بأمثال هذه الاحكام في مقابلة جعل يكبر بقدر كبر القضية، وكان يدخل في المحاكمات مع خصوم الملتجىء اليه حتى صار ذا ثروة عظيمة، فلما رأى أحكام هذا القاضي الذي شرف القضاء بعلمته، التي كانت عنوان علمه وعدله وقوة إرادته، ترك هذه الوسيلة الدنيئة لكسب السحت إذ صارت مدعاة خيبة وخسارة واهانة ذلك شأنه في القضاء وقد كان فيه نسيج وحده، ولم يكن مشغولاً فيه عما خاق لاجله من تربية الامة، فقد كان يعاقب المزورين وشهداء الزور حتى ظهر كثيراً من البلاد من شرهم بعد أن استفحل وطفى سيله ، كان يتسقط شاهد الزور حتى يقر فيحكم عليه ويخرجه من الجلسة الى الحبس . ثم ان الحكومة أقرت عمله هذا وأدخلته في القانون بالتعديل له بعده . وكان يجتهد في الاصلاح بين أهل البيوت وذوي القربى ، ويبالغ في حفظ حقوق اليتامى فكم من أسرة كبيرة قطعت العداوة أرحامها ، واغتالت الخصومات ثروتها ، أصلح بحكمته وأحكامه ذات بينها ، وكان مما ثبت عنده باحصاء الدعاوى السنوية ان أكثرها كان بين الاقربين ، وقد قل في خطبة له في الجمعية الخيرية وكان مستشاراً : إن العداوة بين الناس صارت على أشدها للأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد ! أي على خلاف ما تقتضيه الفطرة السليمة ووشيجة الرحم وهداية الدين

وكان يطارد الفحش والفجور حتى كادت الزقازيق تطهر من رجس الباطل أيام كان قاضياً فيها كما طهرت من التزوير ، ذلك أنه كان يحكم بأشد العقوبة التي يسمح له القانون بها على كل بغى تبرجت في الشوارع وعلى أعين الناس حتى كاد يجعلهن من ذوات الحجاب . وقد نقل اليه عن بعض المجان هناك أنه قال مرة لبغى يعرفها كيف الحال ؟ قالت زي الزفت ، واذا بقي القاضي ابوعمة

(أي ذو العمامة) هنا فانه يقطع رزقنا من هذه البلد ، عايز يرجع الدنيا لزمان سيدنا النبي ، وقالت أخرى مامعناه ان النبي ظهر ثانية

أخبرني أنه كان اذا رأى أو علم بأن واحدة منهم خرجت الى الشارع منتهكة أو جلست أمام ماخورها متبرجة تغازل المارين أو تقني — أمر بعض الشرطة بسوقها الى المحكمة بذهب إغراء الناس بالفسق المحظور في القانون وحكم عليها بالغرامة أو الحبس في الحال ، فكن يقلن يا ويلتنا بل « يادهوتنا » كيف يعرف الناس بنا اذا التزمنا مايريده هذا القاضي منا من ستر وصيانة وأدب ؟

وقال لي كانت الفاجرة منهم تأتي المحكمة أولاً قبل أن يعلن مايراد بهن متبرجة بهيئتها المنكرة فاذا سألتها ماصنعتك ؟ — على سنة التحقيق — صرحت بفجورها بملء فيها ، فلما عرفني صرن بمجمعن بالجواب مرتعدات الفرائص ، فان أفصحت احداهن لم تزد على قولها : أنت عارف .

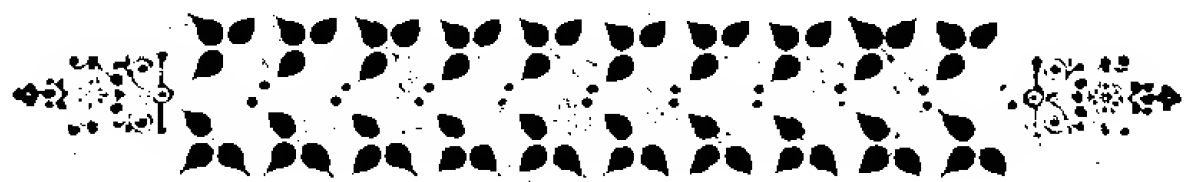
وأخبرني انه لما عين لمحكمة الزقازيق الكلية كانت قضايا العدوان والتزوير كثيرة ألجأته الى أن يعقد الجلسات في المساء حتى انه كان في بعض أيام رمضان يستحضر طعام الفطور الى المحكمة فيأكل ويصلي فيها ثم يشتغل بعد العشاء بكتابة بعض الاحكام . ولما اشتهرت سيرته وأحكامه في المديرية كلها قلت القضايا واستراح من العمل ، على ان صحته حسنت في المدة التي كان يكثر فيها العمل . وقد عرف الذين يختلفون الى جلساته من الخصوم والمحامين وغيرهم عادة من عاداته لم يكن هو يشعر بها وهي انه اذا ثبت عنده إجرام مجرم وأراد الحكم عليه بالعقاب كالقتل وما دونه أمال عمامته على جبهته ، فاتفق انه فعل ذلك مرة فصاح المجرم الذي علم أن سينطق بالحكم عليه « بعرضك اعدل العمة حتى أقول لك الصحيح » فضحك جميع الحاضرين ضحكة الدهشة ، واشتهرت هذه الحكاية في القطر المصري كله .

وأما براعته في تحقيق القضايا وفراسته في تمييز البري من ذي الريبة فحدث عنهما ولا حرج ، وقد كان مؤيداً بالوجدان الصحيح والالهام الصادق ، فان كان كغيره من البشر عرضة للخطأ في رأيه فقد كاد لا يخطيء في وجدانه أو إلهامه ،

٤٢٤ كلمة عالية في الارادة والاختيار ، والتقدير والابداع ، والنشوء والارتقاء

وسمعتة يقول في بحث الكسب والاختيار انني كثيراً ما أنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالادانة مثلاً حتى اذا ماتت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذي كنت بنيتة في ذهني من وجوه ترجيح الادانة، وظهر لي بغتة أن المتهم بريء، حتماً فأحكم بالبراءة ،

وهذا يشبه قول بعض العارفين : عرفت الله بنقض العزائم، والمراد منه ان الانسان غير مستقل الارادة التي هي مناط الاختيار ، فهو مجلي لتجليات من الابداع الرباني غير منتظم في سلسلة الاسباب . وههنا بحث دقيق في إثبات القدر الموافق لمذهب التطور التدريجي في الجملة ، وهو مذهب أهل السنة . وما يعارضه من القول بالأمر الأنف (بضمين) المراد به ان كل مخلوق مبدع مستأنف وهو مذهب القدرية ، والحق أن القدر هو المطرد في البشر ، وان الأمر الأنف كاستثناء في القانون ، وهو واقع في نفس الانسان ، وفي آيات الله للانبياء ، وحجة على ان سنن النشوء والارتقاء انما تطرد في سلاسل الانواع بعد وجودها ، لا في أصل إيجادها كلها ، وقد تتعارض مع سنن غيرها مما وراء المادة الجارية فيها ، وواضع السنن ومقدرها باقدارها ، قادر على التصرف فيها ، وترجيح غيرها من السنن عليها . ولا يخلو شيء من ذلك من حكمة بالغة ، وهذا استطراد لا محل هنا لتفصيل القول فيه .



المقصد الثاني

عمله في الازهر

كان أول حديث دار بيني وبين الاستاذ الامام (قدس الله روحه) في مصر الحديث في إصلاح الازهر . زرته في اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة بداره (في أواخر رجب سنة ١٣١٥) وبعد التحية والسلام، وما يتصل بذلك من كلام، كاشفته باعتقادي واعتقاد من أعرف من العقلاء فيه وانه بقية رجاء المسلمين في السعي للإصلاح والاضطلاع به، وأنه بلغني انه يعمل لذلك في الازهر. فأفاض في كلام لخصته بعد مغادرة المجلس في عشر مسائل . قال (١) إن إصلاح الازهر أعظم خدمة للإسلام فإن إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم ، و (٢) ان أمامه عتبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم ، و (٣) ان هذا الإصلاح لا يتم إلا في زمن طويل ، وانه إذا رأى حال الازهر قد صلحت قبل موته فانه يموت قريح العين ، ويرى نفسه سعيداً بل يرى نفسه ملكاً . و (٤) انه لا يرى لدخوله في الحكومة فائدة الا الاستعانة على إصلاح الازهر ، فانه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له في الازهر كلام ولا يقبل له رأي ، و (٥) انه لم يحصل شيء من الإصلاح يذكر حتي الآن ، و (٦) انه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الإصلاح اغتناماً للفرصة فاشير عليه بوجوب التدريج (!!) وانه لا بد له من المسابرة وإن كان يخشى أن تضعف الفرصة بما يسمونه التدريج ... هذه ست مسائل في موضوع الازهر أطال القول فيها وانتقل منها الى المسائل الأخرى وأهمها تهيئة أذكياء المسلمين الذين يريدون خدمة الاسلام من طريق السياسة ، أي دون التربية التي توحد قوى الأمة، وإلى يأس من يعرفه من كبراء المسلمين من نهوضهم وتخطئتهم في ذلك .

وقال لي في حديث آخر ان نفسي توجهت إلى إصلاح الازهر منذ كنت مجاوراً فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين ، وقد شرعت في ذلك فخيّل

بيني وبينه ، ثم كنت أترقب الفرص فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها ، حتي إذا ما صدفت الموانع لويت وصبرت مترقبا فرصة أخرى . وبعد ان عدت من النفي حاولت اقناع الشيخ محمد الانبائي (شيخ الازهر) بشيء فلم يصادف قبولا . قلت له مرة هل لك أيها الاستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الازهر ؟ ووصفت له من فوائد ما شاء الله أن أصف ، فقال ان العادة لم تجرب بذلك . فانتقلت به في شجون الحديث الى ذكر الشيوخ وسألته منذ كم مات الاشموني والصبان ؟ قال منذ كذا ، قلت انهما حديثا عهد بوفاة وهذه كتبهما تقرأ بعد ان لم تجر العادة بذلك . فسكت ولم يدخل في الحديث

وقال لي مرة أخرى ان بقاء الازهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه . واني أبذل جهد المستطيع في عمرانه فان دفعني الصوادم الى اليأس من اصلاحه فاني لا أياس من الاصلاح الاسلامي بل أترك الحكومة وأختار افرادا من المستعدين فأربيهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها ليكونوا خلفائي في خدمة الاسلام ثم أولف كتابا في بيان حقيقة الازهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود وأنشره باللغة العربية ولغة إنجليزية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهلها الناس حتى من أهله

ثم انه لما اضطر الى الاستقالة من ادارة الازهر على الوجه الذي سنبينه عزم على بناء محل بجانب داره بعين شمس والسعي لاختيار نفر من الاذكياء السليمي الفطرة وتربيتهم فيه بمساعدة مؤلف هذا الكتاب وهو ما كان اقترحه على السيد جمال الدين كما تقدم

وأما بدء عمله في الازهر فقد أتبع له بعد وفاة توفيق باشا فانه لما جلس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال ، وتوجهت إلى أعمال ، كان الغرض منها إزالة الاحتلال ، ولو كان هذا الغرض مما ترجى إصابته يومئذ بسهام المصريين ، لكان الفقيد يكون في طليعة العاملين ، لانه كما نعلم أنفذهم رأيا ، وأقواهم عزما ، وأخلصهم قلبا ، والسكنه كان يعتقد بعد ذلك السعي الذي

شرحناه في الفصل السابق أن المسألة لا يمكن أن تحل بوسيلة السياسة إلا باتفاق الدول العظام وأن الرجاء في اتفاقهم بعيد كمتين. فأراد أن يكون حظه من حب الامير الجديد للعمل السعي في إصلاح الازهر بنفسه واقناع الامير بالسعي في إصلاح المحاكم الشرعية والادارات لأن هذه المصالح الثلاث إسلامية محضة تشمل إصلاح التربية والتعليم وإصلاح المساجد والارشاد ، وإصلاح البيوت (العائلات) فاتصل بالامير وحظي عنده وكشفه برأيه فيها بأن قل له وقد رأه متبرما ضجراً من استيلاء الانكليز على جميع أعمال الحكومة : ان لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة فيمكنه أن يصلح الأمة كلها بإصلاحها ، وقد تركها الانكليز له لأنها دينية فهم لا ينازعونه فيها الآن ، ولا يؤمن تدخلهم في شأنها اذا طال العهد وساعدت الفرص فيجب المبادرة لإصلاحها ، وذكر له كليات هذا الإصلاح . وكشف الحكومة بأمله في إصلاح الازهر بأسلوب آخر ، وجاء بما جاء به من آيات الاقناع حتى توصل الى إنشاء قانون تمهيدي للإصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب في الازهر ينتخبون انتخاباً وقد جعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه على انهما من قبل الحكومة لا رأي لشيخ الازهر ولا للمجلس في انتخابهما ، ولا في استبدال غيرهما بهما. وكان الشيخ محمد الانبائي الذي هو شيخ الازهر لذلك العهد مريضاً وقد كثرت شكاوى الشيوخ من إدارته فعين الشيخ حسونة وكيله بعد أن أخذ عليه العهد بأقامة النظام والاتفاق مع الاستاذ الامام على الإصلاح وقد أجمعت القول في الإصلاح الرسمي في ترجمته من المنار فقلت

عين الشيخ حسونة وكيلاً لمشيخة الازهر مأذونا بإدارة شؤونه لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ وصدر الامر العالي بتشكيل مجلس ادارة الازهر لست خلون من رجب من تلك السنة أي في الشهر الثاني ثم حصل السعي في اقناع الشيخ الانبائي بالاستقالة فاستقال وصدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخاً للازهر في ٢ المحرم سنة ١٣١٣

كان الاستاذ الامام ، روح الله روحه في دار السلام ، يحب أن يجري الإصلاح في الازهر باقناع كبار مشايخه ورضى أهله فبدأ باستمالتهم بتكثير رواتبه

فسعى لدى المستشار المالي السابق لتعيين مبلغ من خزانة المالية لمساعدة الأزهر الذي يخرج للحكومة كذا رجالاً من القضاة الشرعيين والمفتين والمأذونين فأجيب الطلب وعين في ميزانية سنة ١٨٩٥ م مبلغ ألفي جنيه للأزهر على أن تصرف بنظام معلوم لا رأي شيخ الأزهر وميله على ما كان يعهد في الأزهر، مع الوعد بالزيادة على هذا المبلغ في فرصة أخرى إذا جاء بفائدة، فكان هذا حجة للفقيد على وجوب وضع قانون للمرتبات في الأزهر ليكون لكل عالم حق معلوم يتناول في وقته من غير تزلف إلى شيخ الجامع أو غيره. وتلا هذا القانون قانون كساوي التشريف ومرتباتها وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، فصارت تعطى لمستحقها من غير سعي ولا تزلف، فسر الشيوخ بذلك سروراً عظيماً

بعد هذا وجه الفقيد عنايته في المجلس إلى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها وجعل التدريس فيها على طريق توصل إلى الغاية منها. وبعد اجتماع ومذاكرات طويلة وضع القانون لذلك واحتيج في تنفيذه إلى المال فلجأ الفقيد إلى أربحية الأمير فصدر الأمر لديوان الاوقاف بصرف ٣٣٧٤ جنيهاً للأزهر بينت مصارفها ومنها ٤٦٤ جنيهاً لإنشاء دار الكتب الأزهرية، ثم وضع نظام آخر لتوزيع الجرايات بالعدل

وأما نظام التدريس واختيار كتب العلوم فهو الذي أحب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى أن يجعله برأي كبار الشيوخ ليسهل تنفيذه بالرغبة، ولا يثقل عليهم إزامهم به من جانب القوة، وليتعود أهل هذا المكان على البحث في الامور المهمة، والتعاون على ما ينفع الامة، فوضع مشروع نظام التدريس واختيار الكتب واقترح أن تؤلف لجنة من كبار الشيوخ للبحث فيها وإقرار ما يرونه نافعا، فألفت اللجنة من أكثر من ثلاثين عالماً وجعل الشيخ سليم البشري أحد أعضاء مجلس الادارة رئيساً لها. ثم انتخب منها لجنة للبحث في كل فرع من المشروع وإبداء رأيها فيه للجنة الكبرى، وكانت هذه اللجنة مؤلفة من بضعة نفر، هم أكابر شيوخ الأزهر وضم اليهم الاستاذ الامام من قبل مجلس الادارة، وبعد أن اتمت هذه اللجنة عملها قدمته إلى اللجنة الكبرى فأقرته هذه بعد تحوير

قليل لا يذكر وكانت مشيخة الازهر قد اسندت يومئذ الى الشيخ سليم البشري الذي أوقف كل ما كان المجلس شرع فيه فأوقف أيضاً مشروع اصلاح التدريس بل كان المجلس يقرر الشئ بالاتفاق مع رئيسه الشيخ سليم ثم انه لا ينفذه ولم يكن القصد من ذلك إلا إحباط سعي الاستاذ الامام وإبقاء القديم على حاله ، واقد كان قادراً على الالتزام بالتنفيذ بطابعه رسمياً من الحكومة ولكنه لم يكن يحب أن يكون للحكومة تصرف في الازهر بل أن يبقى مستقلاً يصلح أهله برضى واقتناع وهل يبقى كذلك بعده ؟ الله اعلم والايام تظهر ما يعمل

وكان من الاصلاح الذي تم في الازهر بسعيه رحمه الله تعيين طبيب الازهر وصيدلية (أجزخانة) خاصة به في نفس الجامع وإنارة المسجد بالغاز البخاري ، وإنشاء الميضاة على الاصول الصحية وتجديد مبان صحية في الاروقة وغير ذلك مما انفصله في التاريخ ، ومن شاء أن يطالع على ذلك بالتفصيل التام ، فليرجع الى كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر) ^(١)

وقد انتقل الازهر بهذا الاصلاح من خلل عام ، إلى شيء من النظام ، ومن حالك الديجور ، إلى بصيص من النور ، ولم يتم عمل من الاعمال على ما كان يجب رحمه الله تعالى . ولكن الاصلاح الحقيقي الذي كان روحاً محيياً ونوراً مبصراً فهو ما كان يلقيه من دروس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق فهذه الدروس هي التي حوت نفوساً كثيرة عن السبل المتفرقة الى سبيل الله وصراطه وهي محل الرجاء في هذا المكان اهـ

هذا ما أجملناه في ترجمة الامام عقب وفاته وقد وعدنا بتفصيله في هذا الكتاب ، واننا تنجز وعدنا بتلخيص المهم من كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر - من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ الى غاية سنة ١٣٢٢) وهي مدة اشتغال الاستاذ الامام المصلح في المجلس فهو قد استقال في شهر المحرم سنة ١٣٢٣ وتوفي في شهر جمادى الاولى منها ، وان كان في هذا التفصيل تكرار لما في ذلك الاجمال

(١) هو تاريخ يبين ما كان عليه الازهر قبل الاصلاح وما صار اليه بعده صورة ومعني وصفحاته ١٢٤ وعن النسخة منه ٤ قروش واجرة البريد قرش وبطلب من مكتبة المنار بصر

كتاب أعمال مجلس إدارة الأزهر في عشر سنين

طبعت هذا الكتاب ونشرته في سنة ١٣٢٣ ولم أكتب عليه اسم مؤلفه . وأقول الآن ان الذي كتبه هو الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان صديق الاستاذ الامام وزميله في هذا العمل ، كتبه في أثناء مرض الامام بامر ، وقد قرأته كله عليه قبل طبعه فأقره ، وأكثر ما يسنده فيه الى « أحد أعضاء مجلس الإدارة او بعض الاعضاء » يراد بالعضو فيه الاستاذ الامام ومنه وهو أقله ما يريد به نفسه وانني أسكت عن الاكثر وابين الاقل في الحاشية ، ولم يكن أحد منهما يريد إظهار اسمه لان عملهما كان خالصا لوجه الله عز وجل جزاها الله أفضل الجزاء . قال الكاتب رحمه الله

تشكيل مجلس إدارة الأزهر وأسبابه

(رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) في اوائل المحرم من سنة ١٣١٢ هجرية قامت قيامة أهل الفضل من العلماء على المرحوم الشيخ محمد الانبائي شيخ الجامع الأزهر اذ ذاك فرفعوا العرائض الى الجنب العالي مفعمة بان شيخهم عاجز عن ادارة شؤونهم وانه خص أهل مذهبه الشافعية بخيرات الأزهر وانه قصر عليهم كساوي التشریف على غير إنصاف بين أهل مذهبه وبين بقية أهل المذاهب ، وما زالوا كذلك حتى أوقف الجنب العالي صدور الاوامر العالية بالانعام على من اختارهم الشيخ وخصهم بتلك الكساوي التشريفية وبقيت الكساوي موقوفة الى أن تغيرت الحال

وفي الثامن من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ صدر الامر العالي بتعيين الشيخ حسونة النواوي وكيلا لمشيخة الأزهر مأذونا بأن يدير شؤونه حتى يتقرر أمر جديد . ثم لم يمض الا أقل من شهر حتى صدر أمر عال بتشكيل مجلس إدارة الأزهر وذلك في ٧ رجب سنة ١٣١٢ وابلغ الى رئاسة مجلس النظارة ، وسميت أعضاء المجلس في ذلك الامر الكريم ، فكان منهم اثنان من

موظفي الحكومة وهما الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وثلاثة من اكابر العلماء الازهريين غير الموظفين أحدهم شافعي وهو الشيخ حسن المرصفي والثاني مالكي وهو الشيخ سليم البشري والثالث حنبلي وهو الشيخ يوسف النابلسي شيخ مذهب الحنابلة اذذاك . ومجلس النظار أبلغ هذا الامر الى وكيل المشيخة وهو أعلنه للأعضاء ودعاهم الى الاجتماع أول مرة في الازهر للنظر فيما لديه فيه من الشؤون وكان أول اجتماع لهم في السادس عشر من شهر رجب المذكور وبعد هذا رؤي ان وجود شيخ للازهر بمنزل عنه لا يعلم شيئا من شؤونه ووجود وكيل هو رئيس مجلس الادارة واليه ينتهي كل شيء مما يدعو إلى توقيف سير الاعمال ، ويوجب بقاء القيل والقال ، فأوعز الى مأمور رسمي عظيم بان يحسن للشيخ الانبائي الاستقالة من منصبه ، فتردد الشيخ طويلا ثم انصاع بعد الى تلك النصائح التي اعتبرها أمراً ، وقدم استقالته الى المقام الرفيع - وكان حينئذ في الاسكندرية المصيف - وصادف ان رأس السنة الهجرية كان قد قرب فتوجه الكثير من العلماء لتأدية التهنئة بذلك الموسم وبالطبع كان فيهم الشيخ حسونة النواوي وكيل المشيخة ، فدار الكلام بصفة غير رسمية في قبول الاستقالة الانبائية وفيمن يعين شيخا للازهر بدله وبات في حكم المقرر أن يكون الشيخ الاصيل هو ذلك الوكيل

وبينا الحال كذلك في سراي رأس التين واذا بعريضة وقع عليها فوق الثلاثين وتلغراف وقع عليه عشرة ونيف كلهم من اكابر العلماء شافعيين وغير شافعيين طلبوا فيهما من العجائب العالي أن لا يقبل استقالة الشيخ الانبائي وان يبقيه شيخا لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت من العلم والقدرة على ادارة الشؤون، وان لا يعين الشيخ حسونة شيخا للازهر لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت ... وقد كاد هذا الامر يفضي الى بقاء القديم على قدمه والى توقيف تعيين الشيخ حسونة لولا ان بعض العارفين بحال الازهر واهليه كانت موجوداً في الاسكندرية وأشار بمراجعة هذه التوقييع التي على العريضة والتلغراف ومقابلتها بالتوقييع التي على عرائض الشكوى من الشيخ الانبائي فروجعت فاذا بعضها

موقع به على النوعين ، وهناك تحقق الجنب العالي انه لاقيمة لمثل هذه التواقيع التي توقع على الامرين المتضادين ، وان المصلحة هي المقدمة بقطع النظر عن يضادها وان كثروا وكبروا ، فصدر الامر الكريم بقبول استقالة الشيخ الانبائي رحمه الله ولم يعبا بطلب ابقائه من أولئك الطالبين وفي اليوم الثاني من شهر الحرام سنة ١٣١٣ صدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا أصيلا على الازهر ورئيسا لمجلس ادارته ، ثم ذهب الى السراي العامة واستلم الامر وشكر ولي النعمة على ماتفضل به عليه ، ثم استفاض الامر بين علماء الازهر الموجودين في الاسكندرية فارسل بعض أصدقائه تلغرافا الى مصر أخبر فيه بأنه قد عين شيخا للازهر وانه عائد الى مصر في الغد ، فلا وربك لم يبق ولا واحد تقريبا ممن طعنوا على تعيينه في تلك العريضة وذلك التلغراف الا وقد استقبله على محطة مصر او انتظره في بيته بقنطرة عمر شاه قبل أن يصل اليه ليهنتوه بالمنصب الجديد الذي هو أحق به ممن سواه وصدقوا فيهم حدس من قال في ذلك اليوم (يوم ورود العريضة والتلغراف) ان اوائك الطاعنين سيكونون السابقين الى تهنته الشيخ الجديد في المحطة ليعرفهم بانهم كانوا أول المهنتين^١

قانونه المرتبات

قلنا فيما مضى ان أول اجتماع لمجلس الادارة الذي شكل على الوجه السابق كان في السادس عشر من شهر رجب سنة ١٣١٢ ونقول انه في هذا الاجتماع الاول قرر أعضاء خطة سيرهم وما يلزم البدء به من الاعمال وما يقدم من القوانين المحتاج اليها في الوضع ، فظهر لهم ان أول ما يهم أهل العلم هو ضبط المرتبات وتوزيعها عليهم ، وقد صادف ان نظارة المالية كانت قد وضعت في ميزانية سنة ١٨٩٥ مبلغ ألفي جنيه مصري في السنة معونة للعلماء فوق ما كان لهم فيها من قبل وذلك بسمي بعض أهل الخير^٢ الذين يحبون أن يتسع رزق أهل الازهر وأهله يعرفونهم بهذه

(١) ان الشيخ عبد الكريم هو الذي قال هذا لاخديو ما يماز الاستاذ الامام

(٢) هو الاستاذ الامام الذي اقنع المستشار المالي بذلك كما اخبرني وقال انه تعب تعباً عظيماً في اخذ وفدهم لمقابلة المستشار ليتكلم بلسانهم وانما بيتته لانه لم يعبر عنه بمضو مجلس الادارة

الصفات وإن أنكروها عليهم أحياناً ، واشترطت المالية أن لا تصرف هذه المعونة إلا بعد أن يوضع لصرفها نظام فإن وضع فيها ، وإلا أبقى معونها عندها ، وحرّم منها أهل هذا المكان الضعفاء — كل هذا جعل البدء بوضع قانون المراتب أمراً لازماً لا يسوغ معه تقديم غيره عليه ، فكلف المجلس بعض أعضائه بوضع مشروع لهذا القانون فوضعه ، ثم توالت الجلسات لتلاوته والتعديل والتنقيح فيه ، حتى كمل وضعه وجاء وافياً بالحاجة من معظم وجوهه ، وقدم الى هيئة الحكومة ودارت المناظرات بين الهيئة الحاكمة وبين بعض أعضاء المجلس في تفهم مواد هذا النظام الذي لم يمهّد له عند الحكومة مثيل حتى اقتنعت نظارة المالية بما فيه وتبين لها ان ما كان منه مخالفاً للمألوف في قوانينها المالية انما جاء طبقاً للمألوف في الازهر ومراعى فيه احكام الضرورات وهي تبيح المحظورات ، فقبلته المالية وقرره مجلس النظار وصدر الامر العالي به في اليوم السادس من احرّم سنة

١٣١٣ و ٢٩ يونية سنة ١٨٩٥

ولقد ترتب على ايجاد هذا النظام ان طلبت نظارة المالية من الازهر أن يقرر درجات العلماء ويحدد المرتب لكل درجة منها ويبيث اليها بمجدول هذا الترتيب ، فاشتغل المجلس بذلك وآتمه على الوجه الاكمل فيما رآه وأرسل الجدول الى نظارة المالية فلم يسمها بعد إلا أن اقترت الامر وأمرت بصرف الالفى جنيه ، وبقي هذا الباقي في ميزانية المالية يصرف معونة الازهر مشاهرة الى الآن ولا تظهر فائدة هذا العمل (وضع قانون المراتب) إلا بذكر طرف مما كانت عليه الحال فيها قبل وجود هذا القانون وطرف آخر مما صارت اليه حالها بعد وضعه فلنذكر منهما شيئاً وان كان إجمالاً وقليلًا لتتجلى الفائدة واضحة التبيان

﴿ حال الازهر ومراتب الشيوخ قبل النظام الجديد ﴾

تنقسم مراتب الازهر الى قسمين : سنوية وهو ما يسمونه بدل الكساوي وشهرية ، ومصرفها معاً العلماء المدرسون وأولاد من يموت من العلماء . وقد كان الامر فيها بنوعيتها موكولاً الى شيخ الجامع الازهر يعطي من يشاء ويمنع من

يشاء . وكانت المراتب السنوية تجزأ اجزاء صغيرة بحيث يمكن لشيخ الجامع أن يعطي منها نحو مائة قرش في العام او اقل، وكانت المراتب الشهرية تمنح لأناس دون آخرين، فكان لبعضهم منها نحو ستة عشر قرشا في الشهر والكثير منهم الحرمان بالمرّة، وللقليل منهم ما فوق ستائة قرش شهرياً . واذا انحل بموت احد العلماء شيء من هذين القسمين رأيت بيت شيخ الجامع غاصاً بالمتزلفين ، مزدحماً بالراجين، مملوءاً بالشاكين البائسين ، ورأيت مباشر الازهر ^(١) وهو كاتب بسيط تتماوج بين يديه الفرجيات ، ذاهبات آثبات ، كل يرجوه، وهو يعد او يصد، او يؤمل او يقنط ، وربما انتهى الامر بعد الجري والعدو بين البغالة والفجالة ^(٢) لتجزئة ذلك المنحل وضم اجزائه الى مراتب بعض الاكابر ، وحرمان الخالين منها بالمرّة. فيتربص الراجون والشاكون ينتظرون موت واحد منهم لعله ينالهم من مرتبه شيء يسير

واني لا أعلم ان مجالس الادارة جاء وفي العلماء من ليس له مرتب اصلاً وهم كثيرون، وفيهم من له ستة عشر قرشا في الشهر لا غير، وفيهم من يعني نفسه، وفيهم من يئس ورضي بالخبز القليل ، أعرف منهم واحداً مات رحمه الله وقد عرضت عليه لفقره وعلمي بحاله بعض الشيء ، من مالي كل شهر فأبى علي ذلك، وطلب مني ان ارجو شيخ الجامع حينئذ في أن يعطيه شيئاً ولو من مراتب صدقات الاوقاف ففعلت ورضي بما توسطت له به عند الشيخ وهو نزر قليل

هذا طرف من تلك الحل القديمة وقد تغيرت والحمد لله بالمرّة بعد وضع

(١) المباشر في اصطلاحات بعض الفقهاء هو الكاتب إذ كان يوقع بالتنفيذ وببائره وهو هنا كاتب الازهر ولما صار للازهر عدة كتاب صار رئيسهم فهو فيه بمعنى (باشكاتب) في الدواوين اهـ من حاشية الاصل

(٢) البغالة موضع في مصر يقيم فيه بعض العلماء منهم الشيخ سليم الشري شيخ الازهر السابق والفجالة محلة كان يقيم فيها المرحوم الشيخ الانبأى اهـ من الاصل

ذلك القانون اذ تقرر فيه ان المرتبات السنوية (بدل الكساوي)^(١) لا يمكن ان ينقص عن اثني عشر جنيها في العام ولا ان يزيد عن ثلاثين جنيها وثلاثي جنيه ، وبينهما درجات ترتفع الواحدة عما تحتها ثلاثة جنيها ت (٢) وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه بالاحلاله عن يموت من العلماء ضوابط مقررة لا يتعداها أحد ، وان المرتبات الشهرية لا يمكن ان تنقص عن خمسة وسبعين قرشاً ولا ان تزيد عن ثلاثمائة قرش الا اذا تجدد شيء في المقرر ، وبينها درجات . وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه ضوابط كذلك . وبذلك اخذ كل واحد من لم يكن ياخذ مرتبة درجته التي وضعه فيها مجلس الادارة أو كمل لمن كان بيده اقل من المقرر لدرجته . وامان كان منهم فوق هذه الدرجات فقد أبقى على ما كان بحكم الضرورة لانهم ليسوا بالكثير ، ولأنه كانت لبعضهم مكانة بالسن والشهرة بالعلم ، ولأنه شيء ما اكتسب بالفعل فلا وجه لأخذه ، فاضطر القانون لاستبقائهم على ما كانوا عليه وقرر أن توزع مرتباتهم بعد موتهم طبق القانون ، فاستقر كل واحد في مكانه وانتفع بالمرتبة على مقدار ما قسم بدون ان يجهد نفسه في الرجاء او الاستجداء .

واني لا أعرف واحداً منهم هوجي يرزق الى الآن قال لما علم بأن ما كان بيده من المرتبة قد زاد (اني غير مصدق بانني اخذت شيئاً وكيف اصدق وانالم

(١) كان الممتازون من العلماء يزورون والي مصر في أول ليلة من رمضان فيخلع عليهم الخلع وهي الكساوي . وقد انقطعت هذه العادة مدة من الزمان ثم رأى الولاة بعد ذلك ان يستبدلوا بها نقوداً وصارت من مرتبات الازهر التي تصرف لاربائها من خزينة المالية في أول رمضان والفضل في استرجاعها للمرحوم الشيخ العباسي ولكنها صارت في ايدي مشايخ الازهر يعطون منها من شاؤوا اي مقدار شاؤوا فردها النظام الى أصنافها من حاشية الاصل

(٣) درجات بدل الكساوي سبع (الاولي) ٣٠ جنيها و ٨٦٧ ملابا وهي لاثني من العلماء أحدهما شيخ الجامع (الثانية) ٢٧ جنيها وهي لثلاثة (الثالثة) ٢٤ جنيها وهي لثمانية (الرابعة) ٢١ جنيها وهي لستة (الخامسة) ١٨ جنيها وهي لاربعة (السادسة) ١٥ جنيها وهي لخمس (السابعة) ١٢ جنيها وهي لعشرة اه من حاشية الاصل

اكلم احداً ولم ارج كبيراً ان هذا من المحال) ولم يصدق الا بعد ان قبض الزيادة بيده في آخر الشهر وتكرر صرفها بتكرار الشهور وهناك عرف ان الحق يصل الى صاحبه بدون ذلك الطريق المعروف

وأما اولاد العلماء فقد جعل لهم القانون حداً لاستيلائهم على تلك المرتبات المنحلة عن آباءهم وقيد ترتيبها لهم بقيود مراعيًا معونتهم على طلب العلم واستدامة اشتغالهم ليخافوا آباءهم الارلين وقدر لهم سنين يأخذون فيها ذلك المرتب مع مراقبتهم في عمالهم من مجالس الادارة

هذه حال المرتبات بعد القانون وهي وان كرهها الاقلون قد أفرحت الاكثرين، وجعلتهم في مأمن من استقلال الشيخ بالامر وصرف ما يشاء لمن يشاء، واني لا أعرف واحداً من اكابر المالكية قل لبعض اعضاء مجالس الادارة والمجالس يشتغل بترتيب الدرجات « كيف يأخذ هؤلاء العلماء الصغار من المرتبات ونحن العلماء الكبار على قيد الحياة؟ » فأجابه المصو « يامولانا ان الصغير يشتغل بالتعليم كما تشتغل وان اخلفتما في النفع فيحسن أن يكون له في مقابلة عمله راتب قابل، ومثلك يامولانا يأخذ على مقدار عمله الراتب العظيم » فلم يقتنع الشيخ ورأى ان هذا من الاجحاف بمكان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بعد أن وضع هذا القانون وجداول الدرجات قاسى مجلس الادارة الاهوال في تطبيق كل حادثة وقعت على نصوصه لان اهل هذا المكان لم يتعودوا على شيء من النظام، ولاحظ المجلس انه ربما كان للمالية بعض المراقبة على تطبيق نصوصه فجاء هذا الحساب مضبوطا وأرسلت المالية آخر السنة مندوبا من أمهر عمالها لمراجعة أعمال المجلس ففتش كل صغيرة وكل كبيرة فلم يجد ما يلاحظ عليه ورجع مسروراً، ثم عاد آخر السنة الثانية وفعل كما فعل في الاولى فكان الامر فيها أيضاً على ما رآه

(إلحاق التعليم في الجامع الاحمدي بالآزهر ^(١))

في ١٦ شوال من سنة ١٣١٢ أي بين زمن توكيل الشيخ حسونة وبين زمن مشيخته صدرت ارادة سنية بإلحاق الجامع الاحمدي بالجامع الأزهر في التدريس والامتحان وإدارة الشؤون العلمية، فأجهد المجلس نفسه (في الفترة التي كان فيها قانون المرتبات بين يدي الحكومة) في وضع القوانين والنظم لهذا المسجد وقامى كذلك في تنفيذ تلك القوانين خصوصاً ما يتعلق منها بالامتحان مشاق لا تحتمل عادة، وآخر الامر انصاع أهله للحق وقر قرار شيخه الجديد الذي عينه مجلس الإدارة وقبل الامتحان من أهله أكثر من عشرين وهم الذين كان دسهم شيخه السابق قبل فصله بأيام في العلماء بلا امتحان، وسار التدريس فيه سيراً حسناً بقدر الامكان، وتخرج فيه كل سنة كثير من العلماء بالامتحان

(إلحاق التعليم في المسجد الدسوقي ودمياط بالآزهر)

وفي يوم صدر قانون المرتبات السابق ذكره (٦ المحرم سنة ١٣١٣) أي عقب تعيين الشيخ حسونة شيخاً بأربعة ايام صدرت ارادة سنية اخرى بإلحاق التدريس والامتحان في المسجد الدسوقي وفي دمياط بالجامع الأزهر فوجه مجلس الإدارة عنايته اليهما، ووضع لكل منهما نظاماً خاصاً به وكلف نفسه أوصاباً كبيرة في تنفيذهما، ولم يعبأ بما لاقاه من أهل العلم في دمياط فتدكّر شعبهم ولعبهم في أمر تقرير درجاتهم وعلت شكواهم فوجه اليهم المجلس من أعضائه من عمل بالحق، حتى انحسم الامر فيها بالعدل، وتقررت لهم الدرجات وفرضت عليهم الاعمال، وتكفل نظامهم بما يعوزهم من العمل فسكتوا راضين

وأما الجامع الدسوقي فقد عمر بالعلم ونيط التدريس فيه ببعض علماء من الأزهر

(١) غرض الاستاذ الامام من هذا إلحاق ظاهر وهو توحيد التعليم وقائده في ازالة الفساد وتعميم الاصلاح لا تخفى ومن المعجيب ألا يشير الكاتب الى سعى الاستاذ الامام او احد اعضاء مجلس الإدارة الى ذلك

ارسلوا اليه، وتوارد اليه الطلاب من أقاصي البلدان بعد أن كان لا يتأق في غير
لفيف من اهل البلد لا يهتم الا الاخذ من صندوق النذور^(١) ودروسه الآن حافلة
والراغبون فيها كثيرون، وقد جاء منهم الى الازهر طلاب واختبروا فوجدوا أهلا
لأن يتلقوا الكتب العالية فيه، وحسبت لهم مدة الطلب في دسوق

كساوي التشریف

لما كان من عادة اهل الازهر الاهتمام بالماديات قبل كل شيء، وقد فرغ
المجلس من أمر قانون المرتبات توجهت الفكرة الى كساوي التشریف التي كانت
اوقفت في زمن الشكوى من المرحوم الشيخ الانبأبي وكانت نحو اثنتي عشرة كسوة
فوزعها المجلس على بعض المشايخ توزيعا روعى فيه جانب الاستحقاق والعدل
من جهة وجانب ما كانت قد جرت العادة بملاحظته من قبل. وصدر الامر العالي
بالاحسان بها طبق ماقرره مجلس الادارة، فكان هذا مع ماسبقه من اعطاء المرتبات
موجبا للفرح والسرور، ثم التفت المجلس بعد ذلك الى انه يجب أن يكون لصرف
هذه الكساوي قانون يراعى فيه تقرير صفات الاستحقاق لكل درجة من
درجاتها حتى تندفع الأثرة ويكون الحكم هو القانون، وتكون الاهلية بالصفات
وبالاعمال، لا بالمحابة والالاحاح. فوضع المجلس هذا القانون ثم عرضه على الحكومة
وهي بعد أخذ ورد وطول مناقشة وكثرة اجتماع ببعض الاعضاء أقرته. وصدر
الامر العالي بالعمل به في ١٧ شعبان من سنة ١٣١٣

والذي قيل في بيان الفائدة من وضع قانون المرتبات يقال أيضا في وضع
قانون كساوي التشریف فقد كان الامر فيها فوضى تابعا للهوى وكان لا يمنع
الكسوة من علم وعلم أو عمل بما تعلم ولكن ينالها من كثر سعيه أو ظهرت ثروته
أو التجأ الى ذي جاه، حتى تعدت الى غير العلماء فأخذها بعض من لا يقدر أن

(١) يعني صندوق النذور التي تنذر للشيخ ابراهيم الدسوقي لاجل قضاء الحاجات

وشفاء المرضى. وهي من سحت الوثنية

بقراءة فضلا عن أن يفهم، وتحلى بها بعض التابعين للمشايخ من القضاة وقد كانوا في صف كتاب المحاكم، ووصل اليها من مشايخ الطرق والساجيد أناس لا يعرف كيف وصلت اليهم، وترقى في درجاتها من لا مكانة له في الوجود الا بتلك المظاهر. أعرف منهم كثيرين ويعرفهم غيري بما أعرفهم به من الصفات وقد وصل الامر في هذه الكساوي الى ان مجلس الادارة كان يصل اليه الخبر بموت أحد أصحابها اتفاقا فيحتاج في الوقوف على حاله وموته أو حياته الى استعلامات رسمية من بعض جهات الحكومة في الارياض وبعد التتبع والتي يعرف اسم الشخص وتاريخ موته فيصرف الكسوة التي كانت معه الى مستحق جديد.

اما وقد ضاع النظام فقد تقرر الصفات وحددت الدرجات وخص المدرسون من العلماء بانواعها الثلاثة، وجعل لغيرهم ممن ليسوا منهم نوع مخصوص سمي بكسوة المظهرية، وبين المظهرية والعلمية مميزات. وقد تساهل القانون في العلماء الموظفين نوعا من التساهل فقرر لهم الكسوة العلمية بقطع النظر عن الدرجات. وأما من وصلتهم هذه الكساوي العلمية قبل صدور القانون وهم ليسوا من أهلها فقد اقيمت الحال فيهم على ما كانت الى أن يموتوا لانهم صاثرون الى النقص بالضرورة، وقد كادوا يفرغون فلم يبق منهم الا عدد قليل.

ثم ان المجلس أراد أن يوفق بين القانون وبين ما كان جاريا من قبل نوعا من التوفيق فراعى في بعض الاحيان الاقدمية في العالمية بعد مراعاة صفة الانفع في التعليم، وبذلك انتقل الحال في أمر الكساوي كما انتقل في أمر المرتبات وسارا في طريق بحمد العاقل ورضاه كل محب للنظام (١)

«١» نعم ولكن محبي النظام كانوا هم الاقلين، وأعداءه كانوا هم الاكثرين وقد كان الشيوخ المعمون في سورية يتألمون لدخول النظام في الازهر حتى قال بعضهم أماي في طراباس الشام عقب حادثة الازهر التي أثارها بعض مجاوري السوريين فأوجبت تدخل البوايس والجند لازالتها - قال - ان الازهر أدخل فيه النظام، فحكم فيه النظام، وكان قبل ذلك فوق النظام والحكام. أي ما هذا حاصله

نظام التدريس والامتحان

بعد صدور قانون الكساوي توجهت فكرة المجلس الى مافوق الماديات وهو التدريس والتعليم والامتحان فوضع لذلك مشروع قانون عام ضمنه خصائص الادارة العمومية وما لمجلس الادارة ولشيخ الجامع من الاعمال وشروط الانتظام في مسلك طلبة الازهر ومدة طلب العلم والمساحات والعلوم التي تدرس في الازهر وبيان المقاصد منها والوسائل وما يجب لعلوم المقاصد من العناية توسيع زمن الدرس فيها ، ثم الامتحان بقسميه وهما الامتحان لنيل شهادة الاهلية والامتحان لنيل الشهادة العالمية ، ثم أحكام الضبط والربط والعقوبات . وفي كل باب من هذه أحكام فسيحة تتوجه كلها الى مقصد واحد هو تحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن محدود بطريقة سهلة التناول ، والتحلي بشجرة تلك العلوم وهي محاسن الاخلاق والاعمال .

وقد قسمت فيه العلوم الى مقاصد ووسائل كما قلنا وبينت المقاصد بانها علوم التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصوله والاخلاق الدينية وبينت الوسائل بانها المنطق والنحو والصرف وعلوم البلاغة الثلاثة ومصطلح الحديث وضم إليها الحساب والجبر ، وهذه العلوم بقسميها هي التي يلزم طالب الامتحان لشهادة العالمية بالامتحان فيها ، ثم ان هناك علوماً آخر تستوجب لحصلها التفضيل على من في درجته في التوظف والمرتبات ، وهي تاريخ الاسلام ، وصناعة الانشاء ، ومتن اللغة وآدابها ، وتقويم البلدان ومبادئ الهندسة . وهذه لا يلزم الطالب بالامتحان فيها الا اذا رغبه وأراده

ثم ان القانون قضى على معلمي البلاغة ونحوها مما يقصد من تعلمه العمل به أن يمرنوا الطلبة على تطبيق العلم فيها على العمل (راجع المادة ١٩) وان يخص علوم المقاصد وهي العلوم الدينية المحضة أوسع أزمان التدريس بحيث يكون ما يصرف من الزمن في تعليم الوسائل اقل من الزمن الذي يصرف في تعليم المقاصد (راجع المادة ٢٠) وان يقتصر في السنين الاربع الاول من سني طلب

العلم على المتون والشروح الواضحة العبارة فتمنع فيها قراءة الحواشي والتقارير (راجع المادة ٢٢) وانه يجب على الطالب أن يحصل من علوم الوسائل اولا ما يكفيه ويؤهله الى طلب المقاصد (راجع المادة ٢٣) وقد جئنا بهذه النماذج من هذا القانون ليظهر مقصده وتعرف مقاصد المجلس (١) التي رامها العلماء والطلاب في هذا المكان الديني المحض وانه لم يطلب سواها فيه .

وقد كابد المجلس عظيم المشاق واستغرق بحثه النافع طويل الاوقات حتى أكمل المشروع على ما رآه مفيداً في هذا المقصد الديني المحض ، وأرسله الى الحكومة فشككت للنظر فيه لجنة من خيار رجالها ، ومن أشهر الصالحين وكبار العارفين فيها بحاجات هذا الزمان ، وانضم اليهم بعض أعضاء المجلس ، فوالوا الجلسات حتى فرغوا من تنقيحه وزادوا فيه مازادوا وحذفوا منه ما علموا صعوبة تنفيذه ، ثم رفعوه إلى الجنب العالي الخديوي فأصدر أمره بالعمل به في ٢٠ المحرم سنة ١٣١٤ وبه صارت مشيخة الازهر مشيخة نظامية ، ولم يبق عليها إلا الجدل في العمل بهذه القوانين والمحافظة على ان تكون كل أعمالها مطابقة لها ، ومراقبة تنفيذها على الوجه الاكمل وتمتع العلماء والطلاب بشمراتها ، وان ذلك لم يكن بالامر السهل القريب المنال ، ولهذا كان التعب والعمل للتنفيذ فوق ما يحتمل في العادة ، ولكنها المقاصد القويمة تسهل الصعب وتخفف ثقل العناء ، وتصحح العزيمة للدأب على الاعمال

ولا داعية لتبيان الحال في التعليم والامتحان قبل صدور هذا القانون وما تغيرت اليه فيها بعده ، فان ذلك يضطرننا إلى تطويل القول مع كونه معروفاً بالبديهة فلا ينكر ان الازهر سار من فوضى في التدريس الى نوع من النظام ، وان كان لم يصل الى الحد المطلوب فيه . وأما في الامتحان فالامر أجلى من أن يبرهن عليه لانه ما من شيخ من الذين تولوا مشيخة الازهر زاد في عدد من يمتحنون في كل عام على ستة نفر ، وفي بعض السنين كانوا لا يتجاوزون أربعة ، والذين كان يساعدهم

« ١ » ما المجلس الا الاستاذ الامام رحمه الله فهو الذي وضع القانون وبين هذه المقاصد له وهو الذي كان سبب مساعدة الامير لها أولاً ثم كانت وفقاً لخطه عليه

الحظ ويؤخذون للامتحان كانوا لا يصلون الا بعناية الراجين ، وإلحاق الملحين ، ولم يكن للدور ولا للاقدمية ولا للذكاء ولا للشهرة بالتحصيل مدخل في نيل الحق ، بل السلطان القوي هو شفاعة أولئك الشفعاء الذين لا يشفعون إلا للغني وان كان غيباً ، ويضيعون حق الفقير وان كان ذكياً ، وبذلك تراكم في قلم كتاب الازهر عرائض طلب الامتحان حتى صارت لا يدرى أولها من آخرها ، ولا عاجلها من آجلها ، ويئس مقدموها من إجابتهم ، ففترت عزائمهم عن التحصيل ، وانقطع معظمهم عن المجيء الى الازهر الا في القليل من السنة الدراسية ، وتعدي هذا اليأس إلى من يليهم في الزمن ، فحفت آمالهم ، وعلموا ان الدور إن وصل اليهم فأنما يصل بعد الهرم ، وكان ذلك ظاهراً للعيان

وتد تدارك مجلس الادارة هذا الامر وأحب أن يعيد الى الناس آمالهم ، فقرر تصفية هذه التلال المتراكمة من العرائض ليتحقق وجود أصحابها ، فأعان الجميع بأن الامتحان سيكون على غير تلك القاعدة السادسة أو الرابعة ، ولكن جاء الامر في سنة ١٣١٤ على غير ما في الحسبان إذ طرأت فيها حادثة رواق الشوام المشهورة المشؤومة ، ثم اضطر الازهر بحكم قرارات الصحة العمومية إلى المساحة معظم السنة أو كلها تقريباً فلم يمتحن في سنة ١٣١٤ غير شخص واحد ونجح

وهاك بيان عدد من امتحنوا في السنين التي بعدها — سنة ١٣١٥ امتحن فيها ٢٩ نجح منهم ١٨ وسقط ١١ وسنة ١٣١٦ امتحن فيها ٢٨ نجح منهم ١٣ وسقط ١٥ وسنة ١٣١٧ امتحن فيها ٢٠ نجح منهم ١١ وسقط ٩ وسنة ١٣١٨ امتحن فيها ٢٥ نجح ١٦ وسقط ٩ وسنة ١٣١٩ امتحن فيها ٣٧ نجح منهم ٢٣ وسقط ١٤ وسنة ١٣٢٠ امتحن فيها ٣٩ نجح منهم ١٧ وسقط ٢٢ وسنة ١٣٢١ امتحن فيها ٩٥ نجح منهم ٣٤ وسقط ٦١ وفي سنة ١٣٢٢ امتحن فيها ٦٨ نجح ٣٤ وسقط ٣٤ ومن هذا البيان يتضح الفرق بين ما بعد القانون وما قبله وأما كثرة السقوط في بعض السنين فسببها انقطاع أولئك الذين كانوا قدموا عن التحصيل . فتجددت الآمال ، واجتهد العمال ، وانتظم تقديم طلب الامتحان ، وهذه بعض المزايا للقانون في هذا الباب ، وهي فاتحة الخير عند أولئك الدالاب

﴿ المساحة أو عطلة الدراسة ﴾

ترتب على صدور ذلك القانون تقليل عدد المساحات وتقصير أزمان العطلة الدراسية ، فقد كانت الحال فيها قبله لا يكاد يعرف لها ضابط ، وكان الطالب يمكنه أن يتغيب قبل المساحة الرسمية بأسابيع ولا يحضر إلا بعد انقضائها بأسابيع ، وكان المشايخ المدرسون يذهبون إلى بلادهم قبل الطلبة ولا يحضرون منها إلا بعدهم ، وكانت السنة الدراسية تبدأ من أواخر شوال وتنتهي في أوائل جمادى الآخرة وبين البدء وانتهاء مساحة العيد الأكبر ، وكانت تقرب من عشرين يوماً ، ثم مساحة مولد السيد ، ثم مولد الدسوقي ، وربما تداخلتا فلا تنقص مدتهما عن خمسة وأربعين يوماً ، ثم مساحات صغيرة كهاشوراء والمولد النبوي والمولد الحسيني ومولد الشافعي ومولد العفيفي ومولد الشرقاوي ، وكل واحدة من هذه لا تنقص عن ثلاثة أيام فمدة الدراسة بعد كل هذه المساحات لا تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف متقطعة في السنة ، يخرج منها أيضاً يوماً الخميس والجمعة من كل أسبوع ويضاف إلى ذلك ما يتساهل فيه المشايخ والطلبة وهو كثير

ولما صدر القانون حددت فيه أيام العطلة تحديداً تاماً واشتغل المجلس بشدة المراقبة على الطلاب وعلى بعض المشايخ وتقدمت الحال نحو الإصلاح عاماً فعاماً ، ومع ذلك لم تخل هذه المراقبة من تقصير في بعض الأحيان ، والشدة كل الشدة كانت في تعويد الطلاب على العمل ، وانتهاز فرصة الوقت وعدم ضياعه فيما لا يفيد ، وأشد من ذلك ما يلاقيه المراقبون في تعويد الدارسين أنفسهم على احترام النظام والاستمرار في العمل إلى آخر أيامه ، وإلى الآن لم تصل الحال إلى الدرجة المطلوبة ، لأن الكثير من الطلاب تعودوا البطالة بلا سبب ، فصاروا يخلقون المماذير ويقدمونها إلى المشيخة وإلى المتولين أمر الجرايات ، كوت الآباء وهم أحياء ، أو مرضهم وهم أحياء ، وكونهم مطلوبين للقرعة وقد أخذوا شهادة العفاة ، أو أن عليهم أو لهم قضايا في المحاكم الأهلية والاعلان بيدهم ، وربما ادعوا لأنفسهم

المرض والواحد منهم يأكل خمسة الارغفة في اليوم ، وهذه الاشياء وإن كانت تقل يوما عن يوم إلا أن الباقي منها كثير وهو ما كانت الهمة موجهة الى قطعه بالمرة وجعل الطالب طالبا حقيقيا يرغب بذاته في التعليم

وجملة القول ان المساحات قد ضبطت ضبطا تاما، وصارت السنة الدراسية سنة كاملة ، تبدئي من العاشر من شوال وتنتهي بالخامس والعشرين من شعبان ، ويتخللها اثنان وستون يوما للمساحة الصيفية « منها شهر يولييه وبعض شهر أغسطس » وهي الايام التي اذا اشتغل فيها المشايخ والطلاب كان شغلهم كلا شغل لشدة الحر ووقوف الازهان ، ومنها أيام في عيد الاضحى وغيره ولا يمكن أن يضيع غير ذلك ولا يوم واحد بمثل تلك المعاذير ، ومن أضاعها من الطلاب عوقب عليها بما هو مبين في القانون ، وهذا فيما أرى من أجل المزايا لهذا القانون . وغيرها كثير نضرب عن ذكره صفحا مخافة التطويل

﴿ مساعدة الجنب العالي على تنفيذ القانون بالمال من الاوقاف ﴾

وقد توجهت فكرة المجلس بعد صدور هذا القانون الى أمر تنفيذه فرأى انه لا بد في ذلك من معونة الجنب العالي للازهر بالمال ، فاستقر الرأي على قرع باب المكارم الخديوية توصلا الى هذا الغرض ، لانه بدون المال لا تنجح كبار الاعمال، فكان كذلك واجتمع المجلس مرات لتحديد أقل ما يمكن به السير من القود وترتيب البدء في العمل بعد أن يسمح بها جنابه الكريم . ثم انخط الامر بعد اقدام وإحجام على أن ترفع مذكرة الى ولي النعم ببيان المبالغ المحتاج اليها، فرفعت مبينا فيها ما يلزم من المبالغ وطريق صرفها والمنفعة منها، فتقبلها جنابه الكريم بالمسرة والارتياح ، وصدر أمره السامي الى ديوان الاوقاف بتقريره في ميزانية سنة ١٨٩٧ وسبق ذلك عدة مذكرات في كثير من الاجتماعات مع بعض العارفين ممن وثق بهم الجنب الخديوي، تقرر فيها خطة السير في علوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ والخط ، وعرضت كلها على الجنب العالي فاستحسن غاية الاستحسان، ووافق عليها، وأظهر غاية المسرة من تقريرها وادخالها في الازهر

المنيف ، ولم يخطر على باله حفظه الله في ذلك الوقت ولا على بال أحد من رؤساء العلماء وكبرائهم مالكيين وغير مالكيين ان ذلك مما يعطل دروس العلوم المتداولة في الأزهر ، أو انه مما ينهى عنه الدين ، أو انه مما يعود على العقيدة الإسلامية بالضعف أو غير ذلك مما لا كتبه الالسن في هذه الايام (١)

وانتهى الأمر بأن قررت المبالغ في تلك السنة وورد الاعلام بها من ديوان الاوقاف الى الأزهر في أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٦ وصادف ان السنة الدراسية كانت قد انتهت أو كادت تنتهي فلم تستعمل هذه المبالغ إلا في شوال سنة ١٣١٤ الموافق لشهر مارس سنة ١٨٩٧ وهذا فيما عدا المبالغ التي قررت لدار الكتب الأزهرية فانها استعملت من أول يناير سنة ١٨٩٧ ، لان دار الكتب (الكتبخانة) يمكن العمل فيها في أي وقت بخلاف الأزهر فان سنته الدراسية تبتديء في شهر شوال من كل عام وهذا بيان تلك المبالغ التي قررت لتنفيذ القانون مع بيان مصارفها

جنيه مصري

٦٠٠	لاربعة وعشرين عالما
٦٠٠	مكافأة للطلبة
٦٠٠	لمشايع الأروقة والحارات والملاحظين
٦٠٠	لعلوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ الإسلامي
٣٦٠	للخط
١٥٠	مصارييف الإدارة العمومية للأزهر
٤٦٤	لدار الكتب الأزهرية
٣٢٧٤	

استعمل المجلس هذه المبالغ على الكيفية الآتية فأما المبلغ الذي قرر لاربعة وعشرين عالما فقد انتخب المجلس هذا العدد من بين كبار العلماء على اختلاف

(١) سبب هذا ان الحديو غضب على الشيخ محمد عبده الواضع منهاج الأزهر لهذه العلوم بعد ان كان راضيا عنه فلما غضب صارت تلك العلوم والنظام في التدريس خطراً على العقيدة الإسلامية عند أولئك المنافقين

مذاهبهم ووزع عليهم ستمائة جنيه لكل منهم مبلغ يختلف بين الجنين والثلاثة ونصف زيادة على مرتباتهم الشهرية الازهرية وكلفوا في مقابله بأن يكون تدريسهم للعلوم الدينية المحضة على الطريقة التي قضى بها القانون من ترك الحواشي والتقارير والاقتصار على الشروح والمتون الواسعة العبارة وتوسيع زمن الدرس في علوم المقاصد وتمرين الطلاب على تطبيق العلم على العمل في العلوم التي غايتها العمل بها وغير ذلك مما يفيد في جودة التحصيل ، وقد وضع المجلس لهذا النوع قرارا مخصوصا بين فيه مايجب على كل أستاذ في إلقاء هذه الدروس وخصص لكل واحد من الاربعة والعشرين عالما علوما معينة من العلوم الدينية المحضة وكتبها معينة من الكتب المعروفة ، لانه لاحظ ان ليس في امكان كل شيخ أن يحسن تدريس كل علم او كل كتاب ، وقرر أيضا ان هذا المبلغ يصح انتقاله عن أخذه اذا لم يؤد العمل على ما فرض عليه . وقد جرى المجلس على أن يجمع هؤلاء العلماء في أول كل سنة دراسية ويبين لكل منهم ما اختاره له من العلوم والكتب والطريقة التي يتبعها في التدريس والتمرين ، ثم يوجه نظرهم الى قراءة السيرة النبوية من كتب السنة الصحيحة لانها كانت معدومة تقريبا من الازهر مع أنها من أهم العلوم الاسلامية المحضة ، وكذلك وجه نظرهم الى علم مصطلح الحديث وقد كاد هذا العلم ينقرض من الازهر الا ما كان منه في مقدمات كتب الحديث ، وكانت النتيجة مفيدة اذ ندرج الطلاب في الارتقاء من عام إلى عام ، ولولا هذا المبلغ لما أمكن تكليف أحد من اولئك العلماء بعمل ما لم يتعوده من قديم

مكافأة امتحان الطلبة

وأما المبلغ الذي قرر لمكافآت الطلبة فقد كان الغرض منه بث روح الغيرة فيهم وترغيبهم في تحصيل العلوم المتداولة في الازهر ، وان يكون تحصيلهم لها على وجه يبقى معه ما حصلوه منها راسخا في الذهن لا أن يكون قاصراً على مجرد فهم العبارات والمناقشات اللفظية ، ولهذا وضع المجلس قراراً لصرف هذا المبلغ على الطلاب قرر فيه أن يعمل لهم امتحان اختياري في آخر كل سنة دراسية في نهي

علم من العلوم التي تقرأ في الازهر ، وحدد أوقات الامتحان وكيفية وان يكون تحريريا وان توزيع المكافآت على الناجحين يكون بنسبة ما حصلوه ونجحوا فيه ، وان توزيع المكافآت يكون في اول العام الدراسي بمحضر من شيخ الجامع وأعضاء مجلس الادارة وكل أفاضل العلماء الازهرين

ولقد جاء هذا الامر بالفائدة المقصودة منه فلم يحن موعد تقديم الطلبات في اول سنة لتقرير هذا المبلغ حتى اجتمع منها لدى قلم الكتاب شي كثير، ثم امتحن الراغبون فيما تقدموا الى الامتحان فيه من العلوم على يد لجان شكلت له من خيار العلماء مع مراقبة أعضاء المجلس ونخبة من العارفين بأساليب الامتحانات وتقرر ان تعتبر نمرة النجاح في العلوم الدينية المتداولة في الازهر هي نمرة ١٥ فما فوق، وان تكون نمرة النجاح في العلوم الحديثة هي نمرة ١٨ فما فوق ، تسهيلا للنجاح في الاولى وتشديدا في الثانية ، مراعاة لموضوعات العلوم وملاحظة لمنع الظنون. وهذا بيان من تقدموا للامتحان في كل سنة من السنين وبيان الناجحين فيه

ناجحون عدد	ساقطون عدد	مقدمون للامتحان عدد	سنة (لم تتحقق منها بالضبط ولذلك لم تذكرها)
٢٩٠٩	٢٧٢٠	٥٦٢٩	١٣١٥
١٨٥٦	١٥١٩	٣٣٧٥	١٣١٦
١٩٤١	١٢٩٩	٣٢٤٠	١٣١٧
٢١٨٤	١٧٢٤	٤٩٠٨	١٣١٨

وليلاحظ ان عدد المتقدمين والناجحين والساقطين المبين هنا كان منظورا فيه الى العلوم التي يقدم فيها الطالب لا الى كل طالب بخصومه . مثلا اذا قدم الطالب الواحد في خمسة علوم ونجح منها في اثنين او ثلاثة عد المتقدمون خمسة والناجحون اثنان او ثلاثة، وليلاحظ أيضا ان سبب الكثرة في عدد المتقدمين في سنة ١٣١٥ كان لان المجلس أطلق لكل واحد أن يقدم في كل علم شاء التقديم فيه حتى لو قدم في عشرة علوم قبل طلبه ، ثم رأى ان هذا الاطلاق مضر بالطلبة فحدد لهم ان لا يقدم الطالب في أكثر من أربعة علوم من العلوم الدينية مجتمعة واذا

أراد أن يضم اليها شيئاً من العلوم الجديدة فليضم علماً واحداً وبهذا قل عدد المقدمين وما كان أبهج الاجتماع الذي توزع فيه تلك المكافآت على أولئك الناجحين فقد كان يجتمع اليه كل المشايخ تقريباً وكان شيخ الأزهر يعطي بيده لكل طالب من العشرة الأوائل مكافأتهم، والمشايخ يشاهدون فرح الطلبة فيخرجون وكلهم ألسنة تشكر مجلس الإدارة على هذا العمل الخيري ويبالغون في نتيجته وما يأتي به من الفائدة للطلاب في المستقبل، وكان يختم كل مجلس بالدعاء للجناب الخديوي الذي كان مصدر تلك النعمة. وقد وجدت في الطلاب روح التسابق وذاقوا طعم العلم وأقبلوا عليه

مشايخ الاروقة والحارات والملاحظون

وأما المبلغ الذي قرر لمشايخ الاروقة والملاحظين ومشايخ الحارات فقد كان الغرض منه أن ينساقوا الى نظام الضبط والربط في الجامع الأزهر ويتعودوا عليه، فانهم كانوا من قبل في غاية الإهمال. ولما جاءت النقود وعرف مشايخ الاروقة انهم ينتفعون منها وتحقق المجلس انهم يقبلون كل شيء ويعملون ما لم يتعودوه متى كان من ورائه المال، وضع المجلس نظاماً لإدارة شؤون الضبط والربط وكاف به مشايخ الاروقة (وسمائي الكلام عليه) وقرر لهم مرتبات شهرية تختلف بين مائتي قرش وخمسة وستين قرشاً بحسب درجة الاهمية وكثرة العدد في كل رواق. ثم زاد عدد الملاحظين فبعد أن كانوا اربعة في كل الجامع صاروا ستة عشر وترقت مرتباتهم حتى صار يمكن تكليفهم المبيت في الأزهر بالدور

وأما ذلك النظام الذي وضع للاروقة فانه صدر في ٢٤ يناير سنة ١٨٩٧ وقضى بأن يكون شيخ الرواق من العلماء المستحقين فيه فإن لم يكن من علماء الرواق فمن علماء اقرب الاروقة اليه، وبأن يراقب الشيخ من في رواقه في سفرهم وحضورهم ويقيد أسماءهم في دفاتر مخصوصة، وأن يكون مسؤولاً عن آداب الطلبة ماداموا في الرواق، وفيصلاً فيما يقع بينهم من المنازعات الخفيفة، ويلاحظهم في أداء الوظائف التي شرطها الواقفون، ويحصل إرادات الوقف ويوزعها على المستحقين بعد أن يقدم عنها حساباً لمشيخة الأزهر، وأن يبيت بنفسه أو يستنيب من يبيت

في الرواق لملاحظة الضبط والصيانة في الليل . وبذلك خفت وطأة المشاجرات الليلية والنهارية ، وما اجل ماتفعله النقود

العلوم الحديثة

وأما المبلغ الذي قرر للحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي فقد استجلب به المجلس في أول الامر اساتذة من معلمي هذه الفنون في المدارس الاميرية وانتخبهم ممن سبق لهم تلقي العلوم الدينية في الازهر حتى لا يكونوا بعيدين عن أهله، وليلاحظوا في تعليمهم عوائد المكان وأهله . وقد وضمت قبل تعيينهم القواعد التي يسير عليها التدريس في هذه العلوم وحددت السنين لكل علم منها ، وأرسل هذا إلى اللجنة السنية فوافق عليه الجنب العالي مع إظهار غاية الاستحسان ، وأبلفت اللجنة ذلك إلى الازهر ، وهو شرع في العمل من أول السنة الدراسية الداخلة في سنة ١٣١٥ وسار هذا التعليم في طريق قويم (معلمو الخط) وأما مبلغ الثلاثمائة والستين جنيها المقرر لتعليم الخط فقد انتخب المجلس عشرة من المعلمين للخط على اختلاف أصنافه وقاط بهم تعليمه وجعل لهم أوقاتا معينة في أماكن مخصوصة فأقبل عليهم الطلاب في الاوقات الخالية من الدروس

فائدة الامتحان والعلوم العربية

وأما الفائدة التي نجمت عن استعمال هذه المبالغ الثلاثة (مبلغ مكافآت الطلبة ، ومبلغ العلوم الحديثة ، ومبلغ الخط) فتعرف مما يأتي
قد كان طلبة الجامع الازهر لا نصيب لهم في صناعة الكتابة والانشاء وكان الواحد منهم إذا كتب لا يبه يستمنحه إرسال الزاد والنقطة قصرت صحيفته عن بيان المطلوب له ولم ينفعه ما حصله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه نقشاً مكسر الخطوط ناقص الحروف ، وإذا أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه عبر عن ذلك باللفظ لا بالرقم لعدم معرفته به

هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء وهي باقية في الكثير من
الأكابر الى اليوم ، واني لا أعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ
الأنبائي الى الافطار عنده في رمضان فاعتذر اليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره
على حال لم ير مثلها الرايون ، إذ كتبه اليه في ورق من اوراق المطار والكتابة فيها
غير منتظمة الشكل ، والخط لا يقرأ الا لمن تعود قراءة هذه الخطوط ، والاربعة
الأسطر التي كتبها اعتذاراً للشيخ كان فيها أكثر من عشر لحقات نحوية لا يمكن
تطبيقها على قواعد العربية ولو مع التأويل الذي تعودوه ، وهذه الرقعة من عالم كبير
الى عالم أكبر ، فلا يقال ان الاستاذ كتب ما يفهمه المكتوب اليه . وأعرف غيره
وغيره وغيره من أمثاله ، وهؤلاء الاغيار كثيرون وتطويل القول فيهم مما لا حاجة اليه
وقد أصبح الفرق بين تلك الحال وما نحن عليه الآن في الازهر واسع
المدى وان لم يبلغ الغاية المطلوبة ، ذلك أن امتحان المكافأة قد عود الطلاب على
التعبير عما في الضمير ، وعلمهم استبقاء المعلومات في ذاكرتهم حتى يكتبوها في
الامتحان ، وعلمهم ملاحظة القواعد في الكتابة وانتقاد أنفسهم في ذلك لتوقع
الانتقاد عليهم — وان تعلم الخط والاملاء جعل خطوطهم مما يقرأ عادة ، وصير
الاملاء صحيحاً مضبوطاً ، وهم الآن في الحساب وتقويم البلدان والتاريخ على
حالة لم تكن تنتظر منهم ، فقد أصبح الازهر وفيه خمسة عشر عالماً يدرسون
الحساب على أحسن ما يكون من تدريسه في المدارس ، وعلمان يدرسان علم تقويم
البلدان كذلك ومن الطلبة من لا يكادون يحصون عدداً من العارفين بالعامين ،
والكثير منهم قد أدى الامتحان في الحساب والجبر العالي وأخذ الشهادة بأكمال
دروسها ، ومن بينهم عدد كثير قد دخلوا في امتحانات الاسانذة في المدارس
الأميرية ومدارس الاوقاف والمدارس الالهية وحازوا قصب السبق فيه على
المتخرجين في المدارس وأحرزوا وظائف الاستاذية في تلك المدارس باستحقاق ،
وهذه احدى النتائج الحسان التي ربما كانت لا يحلم بها ولا تخطر على البال
ثم ان المجلس تعود ارسال تقرير عمومي يشتمل على نتيجة هذه الامتحانات
في كل سنة الى المعية السنية ليعرض على الجنب العالي ومعه الرسوم الجغرافية

هو الخطوط وبعض الرسائل التي يؤلفها الطلبة، وفي كل سنة كانت تجيء الى الازهر مكتبة الديوان العالي الخديوي معلنة عرض تلك النتيجة على جنابه العالي وانها حازت الرضا والقبول، وان جنابه الفخيم مسرور منها مستحسن لها، ومشجعة على استمرار العمل مع الجد والاجتهاد، وفيها اثناء الجميل على المجلس لقيامه بهذه المهمة خير قيام، وفي بعض السنين لاحظ المجلس أن يعرف تأثير هذه الطريقة الجديدة ويستطلع قوة المشتغلين بالعلوم الحديثة مع العلوم القديمة وحال المقتصرين على القديم، فقرر انه لا يقبل طلب امتحان المكافآت في علم من العلوم الحديثة وحده بل لابد أن يصحب بثلاثة علوم على الاقل من العلوم المتداولة، وان من يطلبه في العلوم القديمة وحدها فله ذلك بدون حجر عليه، فكان كذلك في سنة ١٣١٨ وبعد قراءة اوراق الامتحانات تبين منها جلياً ان الناجحين في العلوم القديمة وهم مشغولون بالعلوم الحديثة أكثر من الناجحين فيها وهم غير مشغولين بتلك العلوم الحديثة، وهناك ظهر للمجلس ظهوراً لا ريبه فيه ان هذه العلوم مما يساعد على فهم العلوم الدينية، وكتب المجلس هذا في تقريره السنوي وأوضحه بأدلته المينة بالارقام

فهذا هو الفرق بين حالي الازهر قبل استعمال هذه المبالغ وبعده وهو فرق ظاهر عرفه الخاصة والعامة واعترفت به الحكومة أيضاً، لانه كان يرفع اليها تقرير كل سنة بنتائج الامتحان بعد أن يرفع الى الجناب العالي ويتقبله الجناب الخديو بالمسرة والانشراح كما هو مثبت في دفاتر الازهر من مكاتبات رؤساء الديوان الخديوي، وتلقاه الطلبة أنفسهم مع مافيه من المشقة عليهم بالاقبال عليه، ولم ينزع فيه أحد من مشهوري العلماء ولا من أكبر صالحهم الى آخر سنة ١٣١٨ هجرية لامنازعة ظاهرة ولا خفية، بدليل حضورهم جميعاً في حفلة توزيع المكافأة واعطائها من يد شيخ الجامع نفسه للعشرة الاوائل من الطلبة تنشيطاً لهم وحثاً لغيرهم على مساواتهم، وما منهم الا من أظهر الاستحسان وبشر بحسن الاستقبال ودعا لمن كان السبب في هذا الخير العميم (١)

(١) راجع حاشيتي ص ٤٤١ و ٤٤٥ وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام على معارضة الاصلاح

دار الكتب في الازهر

المبلغ الذي قرر للمكتبة الازهرية وهو ٤٦٤ جنيها قد خصص لمرتبات الامين والمغير والكتاب والخادم (الفراش) ولأربعة من العمال المؤقتين انتخبوا من العلماء ليعملوا جميعا في جمع الكتب وترتيبها تحت ملاحظة الامين ومنه مبلغ ١٥٠ جنيها لشراء كتب جديدة ولتكميل بعض النواقص من الكتب الموجودة ولتجليد ما يوجد منها بلا جلود. ثم زيدت هذه المرتبات سنة بعد سنة بحسب مقتضيات الاحوال كما زيد في عدد العمال ووضع مجلس الادارة لهذه المكتبة قانونا عاما سار العمل فيها عليه الى الآن سيرا حسنا

ولاجل أن يعرف ماهي هذه المكتبة وأين كانت كتبها وكيف كان حالها وما هو شأنها اليوم نذكر طرفا من خبرها ليعلم مقدار العناية في جمع تلك الكتب وترتيبها على هذا النظام التي هي عليه الآن

كان في الازهر خزائن كتب وضعت في بعض الاروقة والحاتات وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفاكهاني وجامع العيني، ونيط حفظها جميعا باشخاص يقال لهم المغيرون، فتصرفوا فيها تصرفا سيئا للغاية صحح معه اطلاق اسم المغيرين عليهم، لانهم غيروا وضعها، وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها، وتركوا مالا عناية لهم به منها في التراب، يأكله العث ويبلية التراب. وهذا غير ماتصرفوا فيه تصرف الملاك وصار بأيدي باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس، ولم يبال المتصرف الاول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء وبالجملة فلم(?) يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها اعدم امكان الانتفاع

ولما جاءت للمجلس فكرة جمع هذه الكتب في مكان واحد واصلاح ماأفسدته منها هذه الأيدي، وتسهيل الانتفاع بها، اختار المكان المعروف في الازهر برواق الابتغاوية وكتب لديوان الاوقاف في سنة ١٣١٤ فأرسل من أخذ المقايسة لاصلاحه وانشاء مايلزم له من الخزائن التي توضع فيها الكتب. ثم

عرض الأمر على الجنب العالي فأقره مستحسناً له وخرج هذا العمل من القوة إلى الفعل، وتهيأ المكان لما وجد لأجله من وضع الكتب وحفظها فيه من الانتفاع بها تحت ضوابط ونظامات، وشرع عملها في انفاذ ماعهد اليهم من أول سنة ١٨٩٧ أفرنكية الموافق شعبان سنة ١٣١٤ وهناك ظهر المعجب المعجب

حملت تلك الكتب من خزائنها السابق ذكرها إلى ذلك المكان الجديد فكان يأتي بها أولئك المنبرون محشوة في الزكائب والمقاطف، ثم يفرغونها تلالاً وأكواماً عليها خيوط العناكب، وبينها الاتربة، ويتخللها الجلود البالية، وليس بينها من كتاب سليم مستقيم الوضع إلا مالا يكاد يذكر، وجلس بجانبها أولئك الموظفون المكلفون بجمعها وترتيبها، وأعضاء المجلس والأمين يراقبون عملهم ويرشدونهم إلى الطريق الاقوم، فعملوا وكدوا واستخلصوا من بين هذه الدشوت والاوراق المتفرقة كتباً معتبرة في كل الفنون وكان معهم مندوب من ديوان الاوقاف وموظف آخر نييط به تقويم كل كتاب وجد أو جمع بالثن اللائق به، وقيدت في دفاتر بأعداد متسلسلة، واستلمها الأمين بأتمانها المقدرة لها

ثم اشتغلوا بعد ذلك في توحيد الفنون وقرروا لكل فن موضعاً مخصوصاً من المكان وقد استغرق عملهم هذا زمناً طويلاً كانت كلها أتعاباً ومشاق، واني لأعرف كتباً كثيرة مما تجده الآن كاملاً كان الكتاب الواحد منها بعضه في خزانة فلان وبعضه الآخر في خزانة فلان وباقيه في خزانة فلان ولم تجتمع أجزاءه بعضها على بعض إلا بطريق المصادفة الحسنة، وأعرف كذلك ان بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود وجد في دشت كان في خزائن الجامع العيني ولم يعبا به أحد ممن تولوا تغييرها للطلاب، ولم يعن بفرز الدشت لتوجد تلك النفائس بين أوراقه إلا بعد أن كان صدر أمر أحد مشايخ الجامع باحراقه، وتدارك الأمر من يعرف قيمة العلم ولا يبالي بالتعب في المحافظة عليه، وقد رأيت بعيني كثيراً من المصاحف الشريفة وهي بين الاتربة مع انها من أجود المصاحف خطاً وورقاً، وفيها من الفوائد وعلوم التجويد مالا يوجد في سواها وغير ذلك كثير، فنكتفي بما ذكرناه فما الغرض إلا بيان حالها قبل جمعها وفي هذا القدر ما يكفي لذلك

بعد أن عرف ان في الازهر دار كتب أقبل عليها أهل البر فأعانوها بهداية من الكتب النفيسة، وأهم هدية قدمت اليها هي هدية كتب المرحوم سليمان باشا أباطه فان ورثته حياهم لله لثقتهم ببعض أعضاء المجلس (١) سمعوا قوله وقبلوا اشارته وقدموا كتب أبيهم الى دار الكتب الازهرية مشترطين أن تجعل لها خزائن مخصوصة في مكان مخصوص فكان كذلك وجاءت تلك الكتب كالعروس تجلى لصاحبها ليلة الزفاف لأن الباشا رحمه الله كان ممن يتعشق الكتب ويحب فنون الآداب العربية والتاريخ وهي في كتبه شيء كثير ، فكان ورثته قدوة لغيرهم من الناس وبذلك كله تكونت مكتبة جميلة منتظمة لا ينقصها الآن سوى الفهرس العام والعمل فيه سائر سيرا حسنا وإن كان بطيئا ولعله يتم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولم يكتف المجلس بهذا القدر بل رجع الى الاروقة الشهيرة في الازهر وهي أروقة الترك والشوام والصعايدة والمغاربة وجعل الكتب التي بقيت فيها تحت مراقبة أمين المكتبة الازهرية ، وطلب من ديوان الاوقاف مبالغ أخرى لترتيب كتبها وتنسيقها ، فأجيب الطلب وتعينت العمال ، ورتبوا الكتب في تلك الأروقة على الطريقة التي رتب عليها المكتبة ، ثم وضع الكثير منها بعد جمعها وترتيبها في خزائن جديدة صنعها ديوان الاوقاف على نفقته بالاروقة المذكورة تحت مراقبة هذا الأمين ، ولا تزال العناية موجهة الى تجديد خزائن لباقيها ولقد تفضل الجنب العالي بزيارة دار الكتب الازهرية عدة مرات وما من مرة إلا وأظهو سروره مما رآه فيها من حسن الوضع والنظام ، وهي الآن مطرح أنظار السائحين ، ومحط رحال المطالعين ، ومكان النفع العام للعلماء والطلالين

وقد زيد في مبلغ المائة والخمسين جنيها المخصصة لشراء الكتب واصلاحها وتجليدها مائة جنية في كل عام فأصلح وجلد كثير مما كان من الكتب بلا جلوده واشتريت كتب كثيرة من كثير من التركات حتى ضاق بها المكان على سعة

(١) تقدم في أول هذا الفصل أن سليمان باشا أباطه كان من أوفي اصدق الاستاذ الامام وكان أنجاله يمدونه كوالدهم في العطف عليهم فلذلك قبلوا رأيه

فاضطر المجلس الى أخذ مكان آخر من الازهر أصلحه ديوان الاوقاف وعمل فيه ما عمل في الأول، وامتلات خزائنه أيضا بمعتبرات الكتب ونفائسها مما يتجدد شراؤه كل عام.

ولم يصل المجلس الى هذا الحد من صيانة تلك الكتب وجعلها بأمان من الضياع والتلف إلا بعد عناء شديد وجهد جهيد في مقاومة تلك الافكار المتيقة، ومطاردة تلك الاطماع التي كان يقصد منها بيع تلك البقية بذلك الثمن البخس، واني أعرف كثيراً من أهل الفضل والدين أرجعوا الكتب التي كانوا اشتروها من أولئك الباعة الادنياء الى مكتبة الازهر لعلمهم انها صارت دار الحفظ والصيانة لهذه الكتب الموقوفة على المتعلمين، وأما بعض أهل الشهرة من كبار العلماء وصالحهم فقد جيء من بيوتهم بالكتب في الزنايل والغرائر، لا يعرف الكتاب منها أول ولا آخر

اصلاح التعليم

وفي أول السنة الدراسية من سنة ٣١٤ الداخلة في سنة ٣١٥ شرع المجلس في تنفيذ بعض مواد القانون فبدأ بالمادة الثانية والعشرين لانها أساس ترقى التعليم، وهي اقاضية على الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى من سني التعليم، فحدد الكتب التي تقرأ فيها بدون تلك الحواشي وتلك التقارير التي تحول بين الطالب وبين الفهم وتشوش عليه موضوعات العلوم، فأصدر قراراً في ٦ شوال سنة ٣١٤ بأن الكتب التي تقرأ في السنين الأربع الممنوع فيها الحواشي والتقارير تكون في علم النحو من الاجرومية الى ابن عقيل، وفي فقه الحنفية من مراقي الفلاح الى العيني، وفي فقه المالكية من ابن ترمكي الى الشرح الصغير وفي فقه الشافعية من ابن قاسم الى التحرير بدخول الغاية في الجميع، وحتم في القرار منع قراءة شرح الكفراوي على الاجرومية لانه أضر الشروح بالطلبة المبتدئين، ثم ألزم الاساتذة أن يبدأوا دروس الفقه في كل سنة من السنين الأربع برسالة في علم التوحيد قاصرة على سرد العقائد ومجردة عن البراهين الكلامية وأن يختتموا

دروس الفقه في كل سنة منها برسالة صغيرة في علم الاخلاق حتى يشب الطالب متحلياً بالآداب الشرعية وكذلك حتم على الاساتذة أن تكون قراءة الكتب المعتاد قراءتها في أيام العطلة الدراسية مجردة عن الحواشي والتقارير

وقد لاحظ المجلس أثناء تلك السنة الدراسية أن بعض الطلبة وكثيراً من المشايخ قد تعودوا أن يطيلوا مدة البطالة الرسمية فأصدر قراراً في آخرها ليكون عليه العمل من أول السنة التالية الدراسية (١٣١٥ الداخلة في سنة ١٣١٦) أبان فيه مدد المسامحات القانونية وحددها تحديداً في غاية الوضوح حتى لا يحتاج طالب ولا يتأول عالم . وحتم على كل استاذ وكل طالب أن لا يخلي من أيام العمل القانوني يوماً واحداً من إلقاء الدروس أو تلقيها وقرر العقوبات على كل من يخالف بقطع الجرايات فيما ليس فيه شرط واقف وبقطع المرتبات النظامية التي رتب بمقتضى القانون فيما لا يسمح شرطهم بقطع الجراية فيه

وكذلك لاحظ المجلس في أثناء إلقاء الدروس في تلك السنة الدراسية أن في الازهر عادة مستحكمة وهي إهمال الاستاذ للطالب في آدابه وفي مواظبته على الحضور في الدروس، وإهمال الطالب لانه لم يتعود من مشايخه المراقبة عليه فأهمل في احترامه لهم، وتباطأ في أعماله، ولم يبال بحقوق اخوانه الطلبة، ففسدت أخلاق الطلاب، وضاعت آدابهم الدينية، وتلاشت عوائد حسن المعاشرة بينهم، فأصدر المجلس قراراً في ٢٩ شعبان سنة ١٣١٤ ليكون دواءاً لتلك الادواء . بين فيه ما على الطالب من الحقوق ، وما على الاستاذ من الواجبات ، فحتم على الطالب أن لا يتلقى أقل من ثلاثة دروس في اليوم، وأن لا يشتغل أثناء الدرس بغيره ، ولا يكلم فيه غير أستاذه، وأن لا يسأل الطالب أستاذه في الدرس أكثر من ثلاث مرات في الموضوع الواحد. فان بقيت لديه شبهة كاه فيها بعد الفراغ من الدرس، وأن تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين ، وأن يحترم أستاذه في الدرس فلا يرفع صوته عاياه، ولا يجلس بين يديه بهيئة تنافي الآداب، وأن يعامل جليسه في الدرس بالحسنى ، فلا يؤذيه بالقول ولا بالفعل ، وأن يستمر في تلقي الكتاب الذي ابتداء فيه على الاستاذ الذي شرع في تلقيه عنه حتى يتمه ،

فإذا بدا له الانتقال الى شيخ غيره وجب عليه أن يخبر شيخ جهته المنتسب هو اليها ، وإذا شرع الطالب في تلقي كتاب وجب عليه اكمله فلا ينتقل الى كتاب أرقى منه قبل أن يتمه ، وكل هذه الآداب التي قررت للطالب كانت العادة جارية بين الطلبة بمخالفتها ، وضررها بالتعلم والاخلاق لأمريّة فيه

وأما الاستاذ فقد حتم عليه في ذلك القرار أن يكون القدوة الحسنة للطلبة في حسن الاخلاق والسيرة الشخصية ، وأن يتعهد الطلبة الذين يحضرون درسه بنفسه ان كان مبصراً او بمن يستنييه ان كان ضريراً ، ليعرف من يتغيب منهم عن الدرس فيخبر عنه شيخ جهته المنتسب هو اليها ، ليخبر شيخ الجامع بانقطاعه عن الدروس ، وأن يراقب حال الطلبة اثناء الدرس حتى لا يأتي احدهم بما نهى عنه ، فإذا خالف نهى الشيخ اول مرة ، فإذا عاد زجره ، فإذا عاد أبعدته عن الدرس ، وأخبر شيخ جهته ليخبر شيخ الجامع ليعاقبه بما يراه ، وأن يجتنب الاستاذ حتماً تلك العادة القبيحة : عادة سب الطلبة وشتيمهم الشتم القبيح بسب الآباء والامهات ، وضربهم بالعصي والنعال . وأن يوجه ذهن الطالب الى تعقل المسائل وفهم المعاني من أقرب الوجوه ، متجنباً الاحتمالات البعيدة وتكلف التعاسيف ، وأن يحضر الاستاذ درسه قبل إلقائه فيراجع ما يحتاج لمراجعته من الكتب لتصحيح ألفاظ الشعر التي تذكر في الشواهد ، حتى لا يضيع وقته في التفاهم مع الطلاب ، وإن كان ذلك لا يمنعه من قبول رأي التلميذ ان كان صواباً ، وإن لا يأتي الاستاذ للطلابين في أثناء الدرس بما يشوش عليهم الفهم ، فلا يغرب بالاكثار من الاعتراضات اللفظية والجواب عنها بتلك الاحتمالات المضطربة للاوقات ، وأن لا يخطئ مسائل علم بمسائل علم آخر الامسالة جاءت عرضاً وتوقف عليها فهم المقام ، فيتكلم عنها الاستاذ بمباردة قصيرة على قدر ما تدعو اليه الضرورة في الافهام ، وجعلت مدة الدرس بحيث لا تنقص عن ساعة ولا تزيد عن ساعتين وكل هذه التكاليف التي نيطت بالاستاذ كانت العادة جارية بعدم ملاحظتها ، وكان عم معظم المشايخ الكبار هو التشديق بالاحتمالات البعيدة وتضييع الاذهان

(٥٨ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

تفتيقا لها كما يزعمون ، ولا يبالون أفهم الطالب أم أشكل عليه الامر ؟ أصبحت القاعدة ام ضاعت هباء ؟

أعرف شيخا من كبار المالكية (١) قد شهر بالتقدم في السن كان يقرأ درسا في علم المنطق أيام المسامحات من كتاب الخبيصي ويحضر درسه هذا كل الباقي من المجاورين في الازهر تقريبا ، وعرض في درسه ان حاشيته اعترضت على الشرح فأخذ الشيخ يدفع الاعتراض بالتمحلات والاحتمالات النحوية ، حتى استقر رأيه على تصحيح كلام الشرح ، فقال له بعض الطلبة وأنا أعرفه أيضا (٢) « يامولانا انه يترتب على هذا التصحيح تغيير حكم القاعدة المنطقية فبعد أن تكون السالبة الكلية تنعكس جزئية مثلا يصير عكسها كلية ولم يقل بهذا المنطقيون » فأجابه الاستاذ : ليس في هذا من ضرر يا كيت وكيت اذا صح الاعراب اندفع الاعتراض ، فما علينا من القاعدة الاصلية وما يطرأ عليها من البقاء او الانقلاب . وأعرف شيخا آخر من كبار الشافعية قرأ في درسه لعدم مراجعة الكتب قبل القاء الدرس البيت المشهور * كادت نفوس القوم عند الغلظة * بالفاء بدل الغين ، فقال له أحد الطلاب وأنا أعرفه أيضا انها الغلظة بالغين لا بالفاء ، فسبه وشتمه وأهانته كثيرا وأصر على انها بالفاء . كل هذا قد لاحظته المجلس ووضع له ذلك القرار ، تخفيفا لتلك الاضرار ، ومراعاة لمصلحة المعلمين والتعلمين بما يقضي به الشرع الشريف ، ويطالبنا به الدين القويم

نظام الجرايات

وفي ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٤ دار في خلد المجلس ان يضع نظاما للجرايات بما تخوله له المادة التاسعة من القانون لتقطع الفوضى في هذا النوع من الماديات ، كما قطعت في مادة المرتبات ، وأمر الجرايات في الازهر لا يخطر مافيه من الهمجية

(١) هو الشيخ احمد الرفاعي المشهور (٢) هو سعد زغلول الشهير وقد سمعت

هذا منه وذكرته في المنار عنه

على بال ، ولا يمكن أن يتصور كيف وجدت على ماهي عليه ولا كيف سارت ولا كيف رضي بسيرها القوم ، وهي التي كانت منبع الثروة للنقباء ومشايخ الاروقة والحاترات ، وسبب التخاصم بين المجاورين بل بين العلماء اسكبار ، اذ كانت تعطى في الغالب لغير المستحق وهو يعرف أنه غير مستحق ، فيبيعها للنقيب طول السنة الدراسية او مدة المسامحات . ولم يكن الاخذ للجرايات او الحرمان منها مبنيا على طول زمن المجاورة أو على اختيار تبين به حال الطالبين فيقدم المجتهد وبحرم من سواه ، وانما كان مبنيا على حسن الحظ والاهواء ، فكتبت مشيخة الازهر الى مشايخ الاروقة تمهيدا لوضع هذا النظام منشورا مضمونه ان مجلس ادارة الازهر سيشرع في سن النظام لكل الاروقة والحاترات وذلك يستدعي أن يكون لديه كل المعلومات المناسبة لذلك وطابت منهم أن يرسلوا الى المشيخة في ظرف ثلاثة أسابيع بيان ما عندهم من الجرايات والمرتبات ومن هو مصرفها من العلماء والطلاب ، وما هو الأصل في ترتيبها على الوجه الذي هي عليه سواء كان قاعدة عمل قديم أو شرط واقف ، مع ارسال صور من كتب الوقف أو من قواعد العمل القديم ، وصور ما في كل رواق من قانون قديم وضع لضبط المجاورين أو لتوزيع الجرايات والمرتبات ، أو لتعيين المستحقين بالعدد أو بالصفات ، وما يكون موجودا عندهم من شروط الانتظام في سلك الطلبة والمنتظرين ، أو طرد من يخرج عنها من المجاورين ، وما يوجد من الوقفيات القديمة الدالة على ان للارواق ريعا سواء كان متحصلا أو غير ممكن التحصيل بسبب من الاسباب وبناء على ذلك وعلى كثرة الاحاح من المشيخة تكلمات المعلومات وقدمت الى مجلس الادارة ، فقرر تشكيل لجنة للنظر في تلك المعلومات ، واستخلاص مشروع نظام واحد يعم جميع الاروقة والحاترات ، على اختلاف مقادير الجرايات في كل منها وجهات ورودها ، مراعى في كل واحد منها شروط الواقفين عليه ان كان له أوقاف معلومة بشروط معينة ، وأما ان كان أصحاب الارصادات أو شروطها غير معلومة فيراعى فيها قواعد الشرع المنيف ، فشكلت اللجنة تحت رئاسة الشيخ عبدالقادر الرافعي وانضم اليها أحد أعضاء مجلس الادارة ليضع المشروع في قالب المعتاد للأنظمة

وقد اشتغلت اللجنة بمجد واجتهاد ، وبمحث طويل في تلك المعلومات التي وردت من الاروقة والحارات في سجلات الازهر وفي الوقفيات المقيدة بها ، ورجعت في معظم أعمالها الى الكتب الفقهية والنصوص الشرعية في الاحوال التي كانت تستدعي ذلك حتى اكملت المشروع وقدمته الى المشيخة في أواخر سنة ١٣١٦ تضمن هذا المشروع فصل معظم الاروقة بعضها عن بعض في الحكم لان شروط بعض الواقفين مخالف لشروط البعض الآخر ، وضم بعض الاروقة والحارات الى مماثله في الحكم ، وجعلت فيه الجراية العمومية التي تصرف الآن من الاوقاف لغالب الاروقة تحت حكم واحد لانها من قبيل الارصادات أو من قبيل ما هو مجهول الشروط ، وجعل للغرباء أحكام خاصة بهم من جهة تقدير الكفاية لكل شخص من الجراية في كل يوم لانهم منقطعون وليس لهم أهل في البلد ينفقون عليهم ، ثم بين فيه مدد المساحات والمدد التي يسمح للطالب بالتغيب عن الازهر فيها أيام العمل والتحصيل محافظة على شروط الواقفين ، وحددت فيه العقوبات بقطع الجرايات بما ينطبق على شرط الواقف وغير ذلك من الاحكام وبعد الفراغ من وضع هذا المشروع قدمته اللجنة الى مشيخة الازهر ليعرض على مجلس الادارة ويقرره بعد تعديل ما يحتاج منه الى التعديل وقد طرأ على المجلس أمور كثيرة عاقته عن النظر فيه وأقلها انه يحتاج الى مراجعة الاصول التي أخذت عنها اللجنة التي وضعت وأكبرها ما يؤخذ من الكلام فيما يأتي عن مدة مشيخة الشيخ سليم البشري والعوائق التي كانت تعترض سير المجلس في مدة هذا الاستاذ

امتحان التدريس وشهادة العالمية

وفي ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٦ قرر مجلس الادارة النظر في شؤون امتحان طالبي التدريس ، فأول اصلاح بدأ فيه أن أعلمت مشيخة الازهر طلاب هذا الامتحان بأن (المادة الثانية والعشرين) من القانون تقضي بأن الطالب والاستاذ مخيران بعد الأربع السنين الأولى في النظر في الحواشي وعدمه ، ومع هذا التخيير لا يصح أن يلزم الطالب بأن يؤدي الامتحان في الحواشي انعد

تأديته فيها ، وما عاينه إلا أن يكون على علم تام من الفن الذي يمتحن فيه ، وان (المادة الثالثة والعشرين) من القانون تقضي بأن كل طالب علم في فقه مذهبه يتلقى أصول مذهبه ولا يصح من هذا إلزام طالبي الامتحان بأن يؤدوا امتحان الاصول في كتاب جمع الجوامع اذا كان الطالب مالكيًا أو حنفياً، فان ذلك الالتزام يفضي الى ترك العمل بمادة (٢٣) السابق ذكرها ، فما على طالب الامتحان إلا أن يمتحن في علم الاصول غير مقيد بكتاب جمع الجوامع المذكور

وبعد هذا تحقق المجلس من أن كيفية امتحان التدريس جارية على غير قاعدة معينة وان كل عضو من أعضائه يسأل الطالب كما يشاء في أي وقت أراد على غير نظام ، وهذا يؤدي الى تشويش ذهن الطالب ، فأصدر قراراً في ٢٨ شوال سنة ١٣١٦ كان هو النظام الداخلي لامتحان طالبي التدريس ، ومقتضاه ان السنة الدراسية كلها ظرف للامتحان ، وأن يعقد مجلسه في كل أسبوع مرة على الأقل ، ولا يمتحن في المجلس الواحد أقل من اثنين ، وأن لا يسأل الطالب في أول قراءته بل بمهل حتى يسكن روعه وينطاق لسانه ، وأن لا توجه اليه الاسئلة إلا بعد أن يقرر المسألة على حسب فهمه ، ولا يكون السؤال في العبارات ، إلا بعد الاسئلة في الموضوعات ، وأن لا يتعدد السائل في سؤال واحد ، وأن لا يتداخل سائل آخر في سؤال السائل الاول حتى يتمه ، وأن لا يناقش أعضاء المجلس بعضهم بعضاً بل تكون المناقشة قصيرة على العضو السائل والطالب المسئول ، فاذا وقعت المناقشة بين الاعضاء بحضرة الطالب فلا يعد عجزه عن الجواب فيها طعناً على اقتداره ، وان لرئيس اللجنة أن يخصص كل واحد من أعضائها للسؤال في علم من العلوم ، وان الاستغراب ممنوع لما يترتب عليه من الخلط في موضوعات العلوم ، فلا يسأل الطالب وهو يقرأ الفقه مثلاً في علم النحو والبيان ، وغير ذلك من اختصاص رئيس اللجنة ببعض الاحكام ووجوب العمل بهذا القرار في العام الدراسي الذي صدر فيه (وهو عام سنة ١٣١٦ الداخل في سنة ١٣١٧)

وكل ما أوجبه هذا النظام كان لمعنى مخصوص مشاهد في الامتحان ، سبب الشكوى منه في كل زمان ، ومع شدة مراقبة رؤساء اللجان والمحافظة على تنفيذ

ماقضى به هذا القرار فقد كان يغلب على بعض الاعضاء ما تعودده قديما فيحتاج الى التنبيه في كل مرة ، وما رسخ من ازمان ماضية لا يزول الا بالتكرار

العلوم والكتب ونظام التدريس

وفي ٩ رجب سنة ١٣١٦ صدر قرار من مجلس الادارة تنفيذاً للمواد ١١ و ١٢ و ١٧ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من القانون وهي متعلقات بتوزيع العلوم التي تدرس في الأزهر على الاساتذة المدرسين فيه، وبتعيين الكتب لجميع العلوم التي تدرس في الأزهر خصوصاً غير المتداولة فيه، وبتحديد نوعي العلوم من المقاصد والوسائل وبتمرين الطلاب في العلوم الآلية على تطبيق العلم على العمل، وبتخصيص الزمن لكل نوع من النوعين وبمنع قراءة الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى. وبإلزام الطالب بأن يبدأ اشتغاله بعلوم الوسائل حتى اذا جاء الى المقاصد كان لديه ما يجعله أهلاً لتلقيها ولقد كان في وسع المجلس أن يصدر قراره بذلك كله ويصير بمجرد صدوره واجب التنفيذ كما قضى به القانون ، ولكنه أراد أن يشرك معه كبار العلماء ليشاورهم في الامر ويقف على آرائهم في كل باب من هذه الابواب^(١) فلذلك عرّض تشكيل لجنة من اكثر من ثلاثين من أفاضل العلماء من كل مذهب تحت رئاسة الشيخ سليم البشري ، وكان اذ ذاك من أعضاء المجلس ، وضم إلى أعضائها بعض أعضائه الآخرين ، وكتب شيخ الأزهر إلى رئيس هذه اللجنة كتاباً بذلك ودعا العلماء إلى الاجتماع في إدارة الأزهر فاجتمعوا جميعاً ، وافتتح شيخ الجامع الجلسة بحمد الله والثناء عليه بأننا قد دعوناكم لا بلاغكم ان لجنة تشكيلت منكم للنظر في أمر الكتب وطريقة التعليم ، ولا يخفى عليكم أن كل علم غاية ، وكل غاية وسيلة ، ومن وسائل العلوم الكتب والتعليم ، ومن الكتب

(١) كان غرض الاستاذ الامام من هذه المشاورة ان يكون كبار علماء الأزهر مقتنعين بهذا الاصلاح ليرجى دوامه وعدم رجوعهم عنه اذا زالت السلطة القاهرة التي كان هو القائم بها ولم يكن وانما بدوامها

ماهو سهل الايصال إلى الغاية أو واف بما يؤدي إليها ، ومنها ما ليس كذلك ، ومن طرائق التعليم ما يوصل إلى فهم مايلقى على الطلبة ومنها ما ليس كذلك ، ولا يخفى عليكم أيضاً أن من الاساتذة من يتصدى إلى تدريس علم والافضل له أن يقتصر على غيره ، ولقد رأينا في امتحانات طالبي التدريس أن بعض طلبة العلم بعد إقامتهم الزمن الطويل في الازهر يوجد فيه قصور ظاهر ، وأغلبهم لا يكون عنده من المعلومات أكثر مما يعرفه بعض طلبة العلم المتوسطين ، ولأجل هذا شكنا هذه اللجنة وكتبنا لحضرة رئيسها هذا الكتاب وتلاه بنصه وهذا ملخصه :

من المعلوم أن الكتب المتداول قراءتها في كل العلوم التي تدرس في الازهر محتاجة للنظر فيها من حيث هي موصلة للمطلوب منها من تعليم الطالب ما فيها من العلوم لان نظام التعلم والتعليم مفتقر الى معرفة الوسائل من المقاصد والغاية المطلوبة من كل علم ، وبمراعاة ذلك يصلح ما هو معلوم لنا ولكم من نقص محصول الطلبة في كثير من العلوم ، وفضلا عن ذلك فإن ما نشاهده وتشاهدونه من عدم وقوف كل استاذ عند حده في قراءة الكتب والفنون محتاج كذلك الى الاصلاح ، وفي علمكم ان القانون يقضي باصلاح ذلك كله وجعله على نظام مقرر مضبوط ، ولهذا شكلت لجنة من اكابر العلماء تحت رئاسة فضيلتكم للنظر في امر العلوم التي تدرس في الازهر ، وتحديد الغاية المطلوبة من كل علم ، وفي امر الكتب المتداولة قراءتها وتقدير ما يلزم إدخاله عليها سواء كان بتغيير بعضها أو الزيادة على الموجود أو تنقيصه ، والنظر في قراءة حواشي الكتب التي يستقر الرأي عليها والزمن الذي يخصص لقراءة كتب المقاصد والذي يخصص لكتب الوسائل ، والنظر في توزيع العلوم على حضرات الأساتذة المدرسين ، حتى يحصل بذلك طلاب العلم بالازهر على المقصود منه ، وتستقيم طريق التعلم والتعليم ، مع تطبيق عملكم في سائر الامور كلها على قانون الجامع الازهر ، وتقييد جميع الآراء التي تبدى في جلساتكم وتحريرها واضحة في محضر يعد لذلك

وبعد الفراغ من تلاوته اجتمعت كلمة كل الاعضاء على استحسان هذا للمشروع ، وعلى وجوب النظر في الموضوع ، ورأوا ان الاسهل لا كمال الامر أنه

تنتخب لجنة فرعية من هذه اللجنة العمومية للنظر في كل جزء مما حواه هذا المشروع وتقرير ما تراه فيه ، فكان كذلك ، وصادفت أغلبية الاصوات لأعضاء اللجنة الفرعية كلا من الشيخ عبد القادر الرافعي والشيخ عبد الرحمن البحراني من الحنفية والشيخ احمد الرفاعي والشيخ محمد أبي الفضل من المالكية والشيخ محمد البحيري والشيخ محمد النجدي من الشافعية ، وضم اليهم الشيخ محمد عبده على أن يكون عضو مجلس الادارة ، والشيخ يوسف الحنبلي عند الكلام على كتب فقه الحنابلة ، وتقرر أن تعرض هذه اللجنة الفرعية أعمالها على اللجنة العمومية لتقرر فيها ما تراه

ولقد ابتدأت اللجنة الفرعية جلساتها يوم الاحد ١٣ رجب سنة ١٣١٦ واستمرت على الاجتماع والبحث والعمل الى يوم الاحد ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣١٧ وكان أعظم همها وما دار عليه بحثها هو تعيين كتب الدراسة وبدأت عملاً بتلاوة الفصل الاول من الباب الثالث من القانون وهو ما يحتوي على مشكلات لأجله اللجنة ، وما زالت تنظر في كل جزء جزء حتى أكملت مأموريتها وقدمت تقريرها الى اللجنة العمومية في ذلك اليوم ، واللجنة العمومية لم تعدل في تقرير اللجنة الفرعية إلا بعض الشيء ، وذكرت في بعضه انه مستحسن وان كان غير لازم ، إلا انه في مواد نافذة لا تذكر ، ثم رفعته الى مشيخة الازهر - وقد كانت أرسلت الى الشيخ سليم البشري - فرقد هذا التقرير المسكين مع ما رقد من الاعمال الجامعية - سمح المشيخة بتقديمه الى مجلس الادارة ولا أظن الا ان نومه سيطول إن شاء الله " وأما تقرير اللجنة الفرعية الذي أقرته اللجنة العمومية فاني ذاكر ما يخصه من الفائدة وتبياناً لتلك المقاصد التي كان يقصدها مجلس الادارة وليعرف الناس ان كل لا يقصد بالعلم وأهليه غير الخير

[المؤلف] وههنا تفصيل لما اتفقوا عليه في تدريس كل علم لا تطيل بنشره ، ومن ثم الاطلاع عليه فليرجع الى ذلك الكتاب ، ولكنني أذكر انه بين في التقرير

(١) كان سبب توقيف الشيخ سليم لاعمال المجلس العلم بانحراف الخديو عن شيخ محمد عبده وارتياحه أو إيمازه بمقاومة عمله كما سنقصه في الكلام على مقاومة الامم

يكون الغرض من درس كل علم ما وضع العلم لأجله والتأهيل للعمل به ومن ذلك وهو أهمه، أن يكون درس التفسير « لبيان ما أودع في القرآن من الاسرار والحكم والمفاسد التي يرمي إليها في القصص والأوامر والنواهي ووجوه العظة بأخبار الماضين وأحوال الحاضرين ، والمعاربة بين ما جاء فيه وما عليه الناس الآن . وبيان ما فيه من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز » وكان مما قررته اللجنة درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز من كتب البلاغة ، وكذا درس رسالة التوحيد للاستاذ الإمام في العقائد ، ولكن لم يقرأ هذه الكتب فيها غيره . وفي هذه السنين يقرأ رسالة التوحيد بعض اخواننا الذين نشأوا على مشربه رحمة الله (ثم قال الكاتب)

ثم اتفقت الآراء على عدة من العلوم التي لم تكن تدرس في الجامع الأزهر ومنها (التاريخ الاسلامي) واختاروا له كتاب الخميس والمواهب اللدنية في تاريخ السيرة النبوية . وكان من رأي الجميع وجوب قراءة التاريخ وأن يكون المقصود منه بيان الحوادث وتعليقها لا مجرد ذكر القصص والحكايات وكذلك اتفقت الآراء على تقرير علم (تقويم البلدان) وأن تكون كتبه ما يختار مدرسه ثم اتفقوا أيضا أن يقرأ في الأزهر (علم المحاضرات) وأن يكون الكتاب الذي يقرأ فيه هو العقد الفريد لابن عبد ربه ثم تقرر أيضا بالاتفاق أن تدرس فنون (روايات القرآن) ولكن لا يكون ذلك إلزامياً بل لمن يختار

مسألة زاوية العميان

فصل الشيخ عبد الكريم رحمه الله هذه المسألة في خمس صفحات وقال انها أهم عمل إداري لمجلس الإدارة . وملخصها أن زاوية العميان هي أحد أروقة الأزهر خاصة بالعميان ، كان للمجاورين فيها استحقاق في وقف (المرحوم عبد الرحمن بك كتهداي) الذي يديره ديوان الاوقاف وقد مضت عدة سنين والديوان لا يعطيهم استحقاقهم في الوقف فوكل شيخ الزاوية أحد كبار

المحاميين بارشاده في رفع قضية على الديوان في المحكمة فحكمت المحكمة على الديوان بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه وأيدت الحكم محكمة الاستئناف فتوقف الديوان في الدفع فاضطر المحامي الى حمل المحكمة على التنفيذ القهري ففتح محضرها خزينة الاوقاف بالقوة القاهرة (في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٧ الموافق ربيع الاول سنة ١٣١٥) وأعطى المبلغ للمحامي فأخذه ووضع في صندوقه ولم يعطه لشيخ الرواق الذي هو وكيله ، فكان هم مجلس الادارة حفظ المبلغ من الضياع وإيصاله الى مستحقيه بالعدل والانصاف . فكلف شيخ الزاوية أن ينذر المحامي بدفع المبلغ من قبل المحكمة - فلما بلغه الانذار اتفق مع بعض الاجانب على بيع حصص العميان اليه لاجل منع التنفيذ في مقابلة مبالغ معين يدفعه له ، فأنذر الاجنبي شيخ الزاوية وشيخ الازهر والمحامي طالبا دفع المبلغ له بما اشتراه به من المحامي الوكيل الشرعي عن المستحقين . وبلغ المحامي أصحاب السلطة والنفوذ الفعلي في الحكومة من الانكليز ان مجلس ادارة الازهر يريد أخذ مال العميان الفقراء المساكين ليرده الى ديوان الاوقاف أرضاء للخديو فعمزوا على عدم تمكين الازهر من أخذ المبلغ وأما سمو الخديو فكان قد اعتقد أن الازهر يستعمل سلطته القانونية بما يعد إهانة وإساءة الى ديوان الاوقاف التابع لسموه وهو صاحب الفضل والنعمة على الازهر فيما دخل فيه من النظام وبما أفاض عليه من الاموال ، فوقع مجلس الادارة في مشكلة ذات ثلاث شعب: الخديوي يسيء الظن فيه بأنه خارج عليه مهين لديوانه - والانكليز يسيئون الظن فيه بأنه آلة للخديوي يريد أرضاء باموال العميان المساكين ، وهو بريء من هذا وذلك وإنما هو القيام بالواجب عليه من حفظ حق العميان ان يضع وإيصاله اليهم بالعدل والانصاف

فذهب أحد أعضاء مجلس الادارة الى الاسكندرية لشرح المسألة لسمو الخديو - وهذا العضو هو الكاتب الشيخ عبد الكريم رحمه الله إذ كان الاستاذ الامام مسافراً بالاجازة ولو كان موجوداً بمصر لما وصلت المسألة الى هذا الحد المشكل . فقابل الخديو وشرح له الحقيقة وان القضية رفعت على الديوان قبل تشكيل مجلس الادارة وان المجلس وجد نفسه أمام حكم نهائي لا مرد له فكان الواجب

عليه حفظ هذا الحق لاهله وهو عرضة للضياع ، ثم قابل رئيس مجلس النظار وكان عنده ناظر الخارجية فشرح لها المسألة ، فاقتنع كل من الجانبين بعض الاقتناع، وظلت المسألة معلقة حتى عاد الاستاذ الامام من إجازته وعاد في تلك الاثناء المستشار القضائي الانكليزي وكان يجلس الاستاذ الامام كل الاجال كما تقدم في الكلام على عمله في القضاء ، فبين له حقيقة المسألة ثم بينها للعميد المسيطر على الجميع (لورد كرومر) ففوض هذا البت فيها الى المستشار، فجمعه الاستاذ الامام بشيخ الجامع الازهر وكان المحامي قد تردد عليه يستعين به على ما يريد فقضى بأن يوزع المبلغ كله على مستحقيه في الحال وأن يضرب باندازات ذلك الاجني الذي ادعى شراءه عرض الحائط ، وألزم المحامي رده كله ، وان يكون توزيعه بمقتضى كشف يحررها مجلس ادارة الازهر باسماء المستحقين ومقدار حصصهم ، وأن يتولى التوزيع عثمان بك مرتضي مدير الاقلام العربية في نظارة الحفانية. وكذلك كان، ولما وصلت الدنانير الى أولئك العميان الذين كادوا يرضون بمشورها انطلقت أسنتهم بالدعاء لمن كان سبب ذلك . . .

الحاق الاسكندرية في التعليم والنظام بالازهر

في ٢٩ المحرم سنة ١٣٢١ و ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٣ صدرت الارادة السنية بالحاق التدريس والامتحان في ثغر الاسكندرية بالجامع الازهر، ومضمونها (ان الجناب العالي وافقت ارادته العلية أن تكون الاسكندرية ملحقة بالازهر في التدريس والعلوم والامتحان وان مجلس ادارته يضع لها القوانين والنظامات ويرتب درجات العلماء الموجودين فيها وقت صدور هذه الارادة ويحصر الاماكن التي تدرس فيها العلوم هناك وان يكون ترتيب درجات علمائها بحضور ثلاثة من مشهورهم (الأقدمين) فبلغت نظارة الداخلية الازهر هذه الارادة ، ولم يكن إلا ان سافر شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى الاسكندرية وشكلا لجنة تحت رئاسة شيخ الازهر من أكابر علماء الاسكندرية ودعوا اليها الشيخ احمد باشا ليعلم هل يقبل ان يكون الجامع الانور الموقوف للتدريس من قبل جدم الاعلى

خاضعا لهذه النظمات الجديدة في الاسكندرية أم لا ؟ فتروا في الامر أولا ثم عاد اليهما وأمضى على المحضر بانه قابل هذه التنظيمات ، وان مسجد جده تسري عليه الاحكام التي توضع لها ، ثم اشتغلت اللجنة بعد ذلك في حصر العلماء الموجودين وجعلت عمدتها في عملها قائمة وقف الغزي الذي اشترط واقفه ان يصرف جزء من ريعه الى العلماء ، ودقتر الجامع الانور التابع لوقف أولاد الشيخ ، لانه لم يكن ليدرج في قائمة وقف الغزي مستحق على أنه من العلماء الا بعد امتحان واذن بالتدريس ممن له الولاية في ذلك ، ولان دقتر الجامع الانور يقيد فيه من يؤذن له بالتدريس على ما وضعه واقفه من القواعد ، سواء كان بالامتحان أو الاختيار المصحح لصدور إذن شيخه للطالب بالتدريس فيه ، فكل من اندرج في أحد هذين النوعين فقد حاز صفة العالمية في ذلك الشجر ، فله حق اطلاق هذا الاسم عليه فيه ، أما ترتيب درجاتهم (أولى وثانية وثالثة) فكانت عمدة اللجنة قد طلبت التثبت من حالة العالم في العلم والاشتغال به ومقدار عمله بالسؤال من أعضاء اللجنة الاسكندريين لانهم أعرف بأنفسهم ، ودرجة الاشتغال لا تعرف إلا منهم ، فلا يعول في تقدير الدرجة للعالم إلا على أقوالهم ، خصوصا وانهم من المشهورين ولهم على معظم علماء الشجر المشيخة في العلوم

أمضى الشيخان في الاسكندرية ثلاثة أيام ، ثم عادا ومعهما محضر عملهم فاشتغل مجلس الادارة بتقرير العلماء في الاسكندرية وحصرهم في عدد مخصوص ، وترتيب درجاتهم العالمية ، فصدر قراره بتاريخ ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢١ (أو آخر يونيه سنة ١٩٠٣) قاضيا بحصر عدد العلماء الاسكندريين في سبعة وأربعين عالما وان منهم أحد عشر في الدرجة الاولى وتسعة عشر في الدرجة الثانية وسبعة عشر في الدرجة الثالثة ، وتضمن هذا القرار أيضا أن لا يدرج في سلك علماء الاسكندرية بعد أولئك المحصورين إلا من ينجح في امتحان التدريس على القاعدة الجديدة التي يوضع لها النظام الجديد ، وان هؤلاء العلماء المحصورين يدرسون في الاسكندرية وغيرها من أماكن التدريس في انمطار المصري (عدا الجامع الازهر) وان من أراد منهم أن يدرس في الازهر فعليه الدخول في امتحان التدريس

فيه، وان من يتقدم لهذا الامتحان من علماء الاسكندرية يقدم على غيره من كل طائفة، وحدد في هذا القرار ما يدرسه أهل كل درجة في الاسكندرية من العلوم المتداول تدريسها فيها

ولما كان تنفيذ هذه الاحكام يتوقف على وجود شيخ للعلماء هناك وكان لاولاد الشيخ ابراهيم باشا المنزلة الرفيعة بين أولئك العلماء لما لهم من الاوقاف ولما كانتهم من الثروة وقدم بيتهم في العلم رأى مجلس الادارة أن يعهد بتنفيذ هذه الاحكام إلى أكبر أولاد الشيخ الثلاثة، فقرر تعيين الشيخ محمود باشا شيخا لعلماء الاسكندرية وتعيين الشيخ احمد باشا وكيله لأنه كان في حالة شيخوخة لا يتمكن معها من ضبط الاعمال، وأرسلت مشيخة الازهر هذه القرارات إلى الشيخ ووكيله وعهدت اليهما بتنفيذها وانتظرت الجواب بأمرهما سيملان بما تضمنته هذه القرارات من الاحكام

ثم اشتغل مجلس الادارة بوضع قانون لسير التدريس والامتحان في الاسكندرية كما وضع غيرها من الاماكن الملحقة به، وبعد الفراغ من وضعه رأى شيخ الجامع تعيين أحد أعضاء الادارة الازهرية^(١) ليذهب إلى الاسكندرية ومعه هذا النظام الجديد فيتذاكر فيه مع شيخ العلماء ووكيله هناك حتى اذا كان لهما عليه ملاحظات اصالح الحال فيها قبل التصديق الا تيأني عليه، فكان كذلك وذهب هذا العضو في شهر اغسطس او سبتمبر من سنة ١٩٠٣ واشترك مع الشيخ احمد باشا في تلاوة ذلك النظام فلم يجد من ملاحظته عليه الا ما يضمن المحافظة على كيان اوقاف اولاد الشيخ والتوقي من أن تمس بمحاسبة أو مراقبة من قبل المشيخة الازهرية، ثم لاحظوا على قرار حصر العلماء أنه ترك فيه ستة ممن يصح ادراجهم في أولئك العلماء وان ترتب درجات العلماء يحتاج إلى التعديل لأن بعضهم أعطي الثالثة وهو يستحق الثانية مثلاً

هذه كل ملاحظات اولاد الشيخ على النظام والقرارات وكلها امور نفسية في اشياء شخصية كما هي القاعدة عند أهل العلم الشريف الآن. فبحث معهم

(١) يغاب على ظني ان هذا العضو هو الشيخ عبد الكريم رحمه الله

مندوب المشيخة فيما طلبوه فتبين له بمراجعة دفاتر مسجدهم والتحقق من حالها ان اولئك الستة الذين تركوا في حصر العلماء لهم الحق حقيقة في أن بدرجوا في سلكهم فوعدهم بادراجهم بمجرد رجوعه الى مصر . وأما تغيير الدرجات لبعض اولئك المحصورين سابقاً فلم يوافقهم عليه لان التغيير في البعض بلا سبب يستلزم إجابة من يطلب تغيير درجته في المستقبل والا كان ترجيحاً بلا مرجح ، ثم عاد مندوب المشيخة الى مصر وعرض الامر على الشيخ فقدمه الى مجلس الادارة وهو اصدر قراره بجعل هؤلاء الستة من العلماء وأن يكون واحد منهم في الدرجة الثانية والخمسة في الدرجة الثالثة كما اتفق عليه المندوب مع اولاد الشيخ ابراهيم باشا فصار عدد علماء الاسكندرية الذين يسرى عليهم حكم القرار السابق ثلاثة وخمسين أحد عشر درجتهم اولى وعشرون درجتهم ثانية واثنان وعشرون درجتهم ثالثة ، وتاريخ هذا القرار ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٢١ و ٨ مارس سنة ١٩٠٤ (وههنا ذكر الكاتب ان اولاد الشيخ ابراهيم باشا بدا لهم رفض ماقرره مجلس ادارة الازهر من جعلهم تابعين له في ادارته ونظامه وترك استقلالهم وانفرادهم بالرياسة العامة في الاسكندرية وان المجلس جاملهم بكساوي التشریف وغيرها الى أن يأس منهم فقرر تعيين شيخ امهد الاسكندرية غير الشيخ محمود الباشا (ثم قال)

الشيخ محمد شاكر

ان الله تعالى قد اطف بعباده العلماء وأراد أن لا يبق حالة الاسكندرية على ما هي عليه من الخلف وتعطيل الاعمال ، فساق الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السودان الى مصر بالاجازة فجاء اليها وليس في نفسه إلا الاستراحة من حر السودان ومن العمل فيه أيام شدة القيظ، ولم يكن يخطر على فكر أحد من شيخ الازهر ولا أعضاء مجلس ادارته انه بمقدمه ينحل هذا المشكل لانه في وظيفة عالية بالسودان مرتبط فيها برأي غير رأي مصر والمصريين، والكن الحاجة تفتق الحيلة كما يقال ، ولا أجابها فكر فيه بعض أعضاء المجلس وجس نبضه فوجد منه

ارتياحا للقبول فأشار عليه أن يعمل ليصل الى هذه الغاية^(١) فقام بالأمر خير قيام ومهد لذلك باسترضاء الجهتين: جهة السودان اتوافق على نقله منها، وجهة مصر اترضى بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية، وكل سعيه فيهما بالنجاح، فقرر مجلس الادارة في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ انتخابه لهذه الوظيفة الجليلة وأن يكتب الى نظارة الداخلية لتستصدر الامر العالي بذلك فكان ماطلبه المجلس وصدر الأمر العالي بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية في يوم ١٠ صفر سنة ١٣٢٢ و ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٤ وأنحل ذلك المشكل العظيم

عض أولاد الشيخ باشا بعد ذلك بنان الندم فانه لم يكن ليمر على خاطرهم مساقه الله من حل هذه العقدة وعادوا على الشيطان بالسخط وعلى أنفسهم باللائمة لقبولها وساوسه، واكن هذا لم يكن بالنافع فقد فات وقته وماضى لا يعود قام شيخ علماء الاسكندرية الجديد بعمله أحسن قيام، لما فيه من الفطنة وشدة الذكاء، واعلمه بما يجب لهذا الزمان الحاضر وعنده مجلس الادارة الازهرية وشيخ الازهر أكبر التعضيد، وسهل له الطريق في استعمال فكرته، ولم يقيد بنظام سوى نظام الازهر نفسه ونسخ له صور القوانين والقرارات التي يجري عليها العمل المستمر، وقرر له كل ماطلبه في سير الاعمال وضبط نظامها وتكليف العمال بما يطلبه منهم. فأمضى بقية سنته في ترتيب وتنظيم وفي تعويد العلماء على العمل وضبط المواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس. واستصدر أخيراً من مجلس الادارة قراراً بمحصر المساجد التي يكون فيها التدريس في ثمانية مساجد ليس مسجد أولاد الشيخ ابراهيم باشا منها. والحكمة في ذلك ظاهرة جداً لانه يجب أن لا يوجد

(١) ان المصو الذي أشار عليه بذلك هو الاستاذ الامام، وما أشار عليه به ان يظهر السخط عليه لاسمالة سمو الخديو حتي انه رضي ان يطمئن عليه بهذا القصد، اذ كان من المعروف لدى سموه ان الشيخ محمد شاكر من حزب الشيخ محمد عبده ومن رجاله وانه هو الذي اخاره للسودان وسعى لجملة قاضي القضاة فيه. وهذا حق وان لدي أكثر مكتوباته وتقاريره المهمة التي كان يرسلها الى الاستاذ الامام ليستنير فيها برأيه

معه من يشغله عن الجد في العمل، وأنت تزول عوائق المعارضات من بين يديه،
فأصدر المجلس هذا القرار المطلوب وبه استراح خاطر شيخ العلماء الجديد
والمقصد الأكبر والساعد القوي للآزهر والاسكندرية هو صاحب الفضل
والنعم المتوالي على الجهتين الجنب العالي الخديو، فانه قد أظهر أرتياحه واستحسانه لما
بذله شيخ علماء الاسكندرية من الجهد في تغيير وجهة التعليم فيها من القديم الى الحديث
وأظهر رضاه العالي عن الآزهر لنعضيد هذا الشيخ في مقاصده ونقل التعليم
من حالة الهمجية الى حالة النظام والدخول بالعلم والعلماء والطلاب في باب العلوم
التي يقتضيها هذا الزمان (١)

وفي آخر السنة الدراسية الموافق تقريباً لأخريات سنة ١٩٠٤ قدم شيخ
علماء الاسكندرية تقريراً الى مشيخة الجامع الأزهر (نشرته جريدة المؤيد في حينه)
فصل فيه أعماله في تلك المدة القصيرة وهي نحو ستة أشهر تفصيلاً تضمن بيان
أحوال العلماء والطلبة وما كانوا عليه وما صاروا اليه وما قريء في تلك المدة
من العلوم وكيفيات التدريس ومواعيده وأمكنته وأنواع العلوم التي قرئت هناك
ومن اختارهم من العلماء لتدريس كل علم منها، وختمه بأن لابد من إيجاد نقود
كافية لكي يكمل الغرض المطلوب ويتمكن من إلزام العلماء والمتعلمين بالنظام،
لانه يستحيل تقدم الأعمال بغير نقود. فوقع تقريره هذا عند مجلس الادارة
أحسن الوقع وتحقق ان العمل في الاسكندرية سيوصل الى ما يرجوه من نفع
المتعلمين، وكلف شيخ العلماء بأن يبين حاجته من النقود ويضع احرفها ميزانية
مضبوطة فيعاوننه في تحقيق أمله بطلبها من لدن الجنب الكريم، ففعل ما كلف به
في أقرب زمن، وقدم منه نسخة الى الجنب العالي ثم قدم نسخة أخرى الى مشيخة
الأزهر، فلم يكن غير قليل من الزمن حتى وردت النسخة المرفوعة من الجنب

(١) لا شك في ان سموه كان يحب هذا النظام الذي وضعه الشيخ محمد عبده
للآزهر ونفذه بمساعدة سموه وأسكنه سخط أخيراً على النظام تبعاً للسخط على
الشيخ. ولما ظن ان النظام في الاسكندرية لا فضل فيه للشيخ وان الشيخ محمد
شاكر ليس من رجاله وجهد المقتضي لمروره ونعضيد غير ممارض بالانتم منها

العالى على الازهر مع كتاب من رئيس الديوان الخديوي مطلوب فيه نظرها بمجلس الادارة وتصديقه عليها بعد البحث وتحقيقه من الحاجة الى ما فيها، فبحث فيها المجلس ورآها كلها موافقة للصواب فأقرها على ما وضعت وصدر قراره الرسمي بذلك في يوم ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٢ و ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ وأبلغ هذا القرار في يوم صدوره الى ديوان الاوقاف ليقرر المبالغ المطلوبة في ميزانية سنة ١٩٠٥ المقبلة، أما مقدار المبالغ الذي طلبه الشيخ محمد شاكر وأقره مجلس الادارة فهو ٤٣٧٤ جنيهًا مصريًا في العام وقد أقر عليه المجلس الأعلى بديوان الاوقاف المنعقد تحت رئاسة الجنب العالى حسب العادة، وأدرج في ميزانية سنة ١٩٠٥، وجاء بذلك كتاب الى الازهر وهو أبلغ الخبر الى شيخ العلماء في أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكفه أن يضع لصرف هذا المبلغ قاعدة منتظمة حسب ما يراد منيذاً العالم والتعليم وضع شيخ علماء الاسكندرية ميزانيته وجعل فيها موضعاً لاربعة من علماء الازهر ليكونوا عوناً له على ادخال العلوم الحديثة التي تعلموها في الازهر بالاسكندرية، فضلاً عن تعليم العلوم الدينية المتداولة في الازهر على الطريقة التي تضمنها قانون الجامع الازهر وقرارات مجلس ادارته فيكون تعليمها مفيداً للطلاب، وخصص قسماً من المبلغ المقرر له ليصرف في جرايات للعلماء والطلاب، وقسماً منه لاسكان المجاورين، وقسماً بعنوان مرتب شهري للعلماء على اختلافهم في الدرجات، وقسماً بعنوان معونة لبعض العلماء الفقراء غير المشتغين حق الاشتغال، فجعل مرتب العالم الازهري من الاربعة الذين طلبهم منه ثمانية جنيهات في الشهر، ومرتب العالم من الدرجة الاولى الاسكندرية خمسة جنيهات، ومرتب العالم من الدرجة الثانية منهم أربعة جنيهات، ومرتب العالم من الدرجة الثالثة منهم ثلاثة جنيهات، ومرتب العالم من ذوي المعونة منهم جنيهاً واحداً — وهذا عدا الجرايات — وأرسل ترتيبه هذا مع جدول ببيان الدروس التي تاتى في البام الدراسي المقبل (الذي نحن فيه الآن) وأمكنستها ومدرستها وأوقات تدريسها هناك الى الازهر، فبحث فيه مجلس الادارة بحثاً مدققاً وأصدر قراره مصدقاً عليه بتاريخه في ٨ ذي القعدة سنة

١٣٢٢ و ١٤ يناير ١٩٠٥ تم انتخاب له العلماء الازهريين من أفضل علمائه الذين تخرجوا منه حديثاً بعد دخول العلوم الحديثة فيه، وقرر أن تبقى مرتباتهم الازهرية معهم مضمومة الى المرتب الاسكندري، وسافروا الى اشقر الاسكندري قبيل مسامحة عيد الاضحى، وهام اولاء مع شيخ العلماء هناك يداً واحدة يشتغلون ليل نهار فيما يعود على العلم بالترقي والتقدم، وفيما يعود على المعلمين بالنجاح إن شاء الله تعالى

﴿ مرتبات أولاد العلماء وما تنفقه الحكومة على الازهر ﴾

بعد نحو شهر من تقليد السيد البيلاوي مشيخة الازهر اتفق هو وأعضاء المجلس على تنفيذ قانون المرتبات فيما يتعلق بأولاد العلماء، واتوضح المقام تقدم مقدمة مختصرة نبين فيها ماهو المرتب للازهر في المالية شهرياً وما يصرف منه للعلماء وما يصرف لأولاد التوفين منهم وما يقضي به قانون المرتبات في شأن أولاد العلماء فنقول :
كان المرتب الشهري الازهريين سواء كانوا علماء أو أولاد علماء قبل صدور قانون المرتبات نحو ٣١٠ جنيهاً ثم انضم اليه مبلغ الألف جنيه في السنة الذي أعطته الحكومة إلى الازهر ووزعه مجلس إدارته بعد صدور القانون فخص الشهر ١٦٦ جنيهاً وكسوراً وبضمه إلى مبلغ ٣١٠ السابق ذكره يكون مجموع ما يخص الشهر ٤٧٦ جنيهاً وكسوراً (وهذا عدداً نحو ٦٢٧ جنيهاً سنوية تصرف في بدل كساي التتريف لكبار العلماء وهو لا دخل له في المرتبات الشهرية) والذي يصرف من مبلغ ٤٧٦ جنيهاً الشهري للعلماء نحو ١٤٩ جنيهاً في الشهر. و كان عدد أولاد العلماء الذين يأخذون هذا المبلغ ١٧٣ شخصاً. فهذه جملة ما تصرفه الحكومة المصرية السنية لهذا الجامع الذي هو أكبر مدرسة دينية في البلاد الاسلاسية، وخلاصة ذلك ان أولاد العلماء كانوا ١٧٣ نفساً ومرتبتهم الشهري ١٤٧ جنيهاً (١)

(١) ليت الشيخان محمد عبده وعبد الكريم يلحان في برزخها ان ميزانية الازهر زادت في عهد جلالة الملك فؤاد على ٣٠٠ ألف جنيه في السنة وان الاصلاح الذي كاشه نشدانه لم يتقدم ٣٠٠ خطوة ولا ٣٠ ولا ثلاثاً إلا ما بينه بعض المدرسين القليلين المهدين

أما الأحكام المتعلقة بأولاد العلماء في قانون المرتبات فهي كما يأتي :

(مادة ٢٠) إذا توفي أحد العلماء عن شيء من هذه المرتبات الشهرية وكان له ابن أو أكثر صرف لهم ما يكفيهم من مرتب أبيهم فإن لم يكف البعض صرف لهم الكل ، والرجع في تقدير الكفاية إلى مجلس الإدارة

(مادة ٢١) إذا كان أولاد العالم المتوفى قصرًا عند وفاته اشترط فيهم أن يشتغلوا بحفظ القرآن إلى أن يبلغوا خمس عشرة سنة ، فإذا بلغوها اشترط أن يشتغلوا بطلب العلم وأن يواظبوا عليه ، وإن كانوا عند وفاة والدهم قد بلغوا السن المذكورة اشترط في صرف المرتب اليهم أن يكونوا مشتغين بطلب العلم ومواظبين عليه

(مادة ٢٣) إذا امتحن ابن العالم ولم ينجح على ما قرر في أصول الامتحان أو احترف بحرفة غير طلب العلم في الأزهر قطع مرتبه وصرف إلى مستحقه

(مادة ٣١) مجلس الإدارة ينظر في شؤون من يأخذون الآن مرتبات عن آبائهم ، فمن ثبت له منهم أنه مشغول بطلب العلم حق الاشتغال أبقاه على مرتبه إلى أن يؤدي الامتحان بنجاح وعند ذلك ينقل إلى درجة العلماء ويجري على حكم المادة (٢١) ومن ثبت له منهم أنه غير مشغول أو مشغول غير مواظب أمره رئيس المجلس بالاشتغال أو المواظبة فإن استمر على ترك الاشتغال أو ترك المواظبة أربعة أشهر في السنة متوالية أو متفرقة لغير عذر كانت لمجلس الإدارة أن يقطع مرتبه ويصرفه لغيره من المستحقين ، فإن عاد إلى الاشتغال بعد ذلك لم يكن له حق في أخذ المرتب إلا إذا امتحن وصار من العلماء وعند ذلك يأخذ مرتب عالم وتجري عليه أحكام الدرجات

(٣٢) تضمنت المواعيد التي يتضيها ابن العالم في الاشتغال بطلب العلم وهذه الأحكام كلها كما تراها روحها اشغال ابن العالم ومعاونته على طلب العلم وإلزامه بدوامته والكن هؤلاء الأبناء قد عكسوا قصدا قانون وصارت النقود معونة لهم على البطالة ، وعلى إتيان ما يحل بشرف العلم وأهله كما ثبت بالتجربة ، فإن من لا مرتب له منهم أو من له مرتب قليل يشتغل لينال مركزاً في الوجود وليكون خلفاً لآبيه في الأزهر ، ومن له منهم مرتب يغنيه نوعاً ما اكتفى به عن العمل أو استعمله في غير ما وضع لاجله أو استعان به على ما لا يرضي الله وكان ماساً بالعلم والعلماء والمتعلمين .

لأجل هذا كله ولتحري النفع لأولاد العلماء نظر مجلس الإدارة في شأنهم فقرر في جلسته المنعقدة في ٢ المحرم سنة ١٣٢١ و ٣١ مارس سنة ١٩٠٣ أن يدعى جميع أولاد العلماء الذين يأخذون هذه المراتب لاختبار بسيط يتبين به حال المشتغلين منهم وغير المشتغلين والمواظبين والمهملين مع مراعاة التساهل إلى الحد الممكن بحيث لا يراعى النسبة بين الزمن الذي أمضوه في الطلب وبين ما حصلوه من العلوم، لأن الغرض إنما هو الاشتغال. وأن يكون اختبارهم أمام اللجنة تحت رئاسة أحد أعضاء مجلس الإدارة، وأن تقدم اللجنة جدولاً باسماء من يختبرون منهم وملاحظاتها على كل واحد مبيناً فيه حاله بغاية الضبط، وأن يملئهم قلم الكتاب إعلاناً صحيحاً يصل إلى كل واحد منهم بنفسه ويجب عنه كتابة إماماً بالحضور أو إبداء المذرة أو عدم الانقياد. كل هذا بعد أن ثبت أن رئيس مجلس الإدارة السابق كان أعلنهم بنص المادتين (٣١ و ٣٢ من القانون) ونبه عليهم بدوام الاشتغال والمواظبة.

اشتغل قلم الكتاب بإعلان هذا العدد (١٧٣) وبعضهم مقيم بمصر والبعض مقيم بالبنادر أو الأرياف، وقد كانت العادة من قبل أن تصرف للمعينين خارج مدينة القاهرة رواتبهم إذا أدت فيهم شهادة من القاضي أو نحوه بأنه مواظب على الاشتغال، وكثيراً ما جاءت هذه الشهادات عن أناس تركوا القرآن أو العلم واشتغلوا بالمدارس أو بحرفة أخرى أو لم يشتغلوا بالمرّة واستمروا يأخذون مرتب الأزهري وهم على تلك الحال وصلت الإعلانات إليهم وحدد فيها لكل فريق منهم يوم مخصوص بحضور فيه أمام اللجنة بإدارة الأزهري، وعلى أثر ذلك وصل إلى الأزهري بلاغات من ثلاثة عشر منهم يقول البعض أنه تنازل عن مرتبه في الأزهري والبعض أنهم اشتغلوا بحرفة غير طالب العلم، والباقيون أنهم لا يقبلون الاختبار مهما كان سهلاً، والإدارة وشأنها في المرتب، فإن شئت أبقتهم وإن شئت قطعتهم ولا معارضة لنا فيما تجريه. فقرر المجلس بالطبع قطع المراتب عن هؤلاء الذين أظهروا الاستغناء عنها ومالوا إلى عصيان أوامر المشيخة ومقدارها ١٣ جنبها وكسوراً. ووزعها على من لا مرتب له من العلماء الذين كانوا يشتغلون بلا مرتب وهم أولى وأحق من أولئك الذين كانوا يأخذونها وهم لاهون نائمون، أو متمتعون آثمون، ثم تتابع حضور معظم

الباقيين الى اللجنة فكانت تختبر من يقول انه يتلقى السعدوهي تعلم انه كاذب - في اعراب مثال خفيف يحله من يتلقى كتاب (الازهرية) فاقرت قوما وهم على هذا النحو من التحصيل لعلهم يخجلون فيعملون، ووجدت بين الباقيين من هو مشتغل حق الاشتغال فأثنت عليه بما يزيد في نشاطه، ووجدت من هو مشتغل بحفظ القرآن لان سنة لم يبلغ الخامسة عشرة، ومن هو مقدم لامتحان التدريس فلم تختبره ووجدت من بينهم من لا يكاد يقرأ ولا يكتب بعد أن مضى عليه زمان طويل يختلف بين ست عشرة سنة وخمس وثلاثين سنة وهو يأخذ هذا المرتب على انه من المشتغلين

أذكر من هؤلاء واحداً قدم من (جرجا) بعد كثرة الاعتذار وطول التغيب وقد مضى عليه أكثر من عشرين سنة يأخذ المرتب بما يتوالى على الازهر من تلك الشهادات القاطعة بانه مشتغل بطلب العلم في جرجا حق الاشتغال، وقد اتفق كل القضاة والمفتين الذين عينوا في جرجا في ذلك لزم على الشهادة له بانه طالب علم مشتغل بطالبه مواظب عليه، ولم يخطر ببال أحدهم أن يستدعيه مرة ليعلم من حاله ما يصحح الشهادة له بالاشتغال، وكأنهم فهموا ان أخذه لهذا المرتب خير ولا يجوز لهم أن يمنعوا الخير. واني لا اعتقد انه لو اتفت أحدكم إلى ذلك واستدعاه مرة وسأله عن أسهل شيء لانتبه هذا الطالب من غفلته وعمل بعض العمل ليحلل أخذ هذا المرتب، ولكنه جزم بأن لا رقيب عليه فاهمل نفسه غاية الاهمال، واشتغل يدل العلم بسفاسف الاعمال. ولو فعل حضرات القضاة والمفتين ذلك لخرجوا من عهد الشهادة بما لا يعلمون (١)

(١) يقول محمد رشيد : ألم يقرأ أو لم يسمع هؤلاء القضاة والمفتون قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا كونوا قواوين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما) الآية ؟ بلى كلهم قرأها وسمعا مراراً لا تحصى وحفظوا لفظها ايضا ولكن لم يخطر ببال احد منهم انه مخاطب من ربه بالمباغة في القيام بالقسط والشهادة بالحق مهما تكن حال المشهود عليه، لأنهم لم يتعلموا في الازهر ولا في غيره وجوب تدبر القرآن والاهتداء به، ولما قام الشيخ محمد عبده بطالهم بهذا ويحاول اصلاح فسادهم وابطال تزويرهم حتى في طاب العلم مادوه وطعنوا في دينه كما سيأتي

وبالاختصار قد حضر هذا الشخص إلى إدارة الأزهر وجلس لامتحانه بعض من يشفقون عليه من أهل جلدته بل سكان بلدته بل ذوي قرابته وهم أخوف الناس عليه فلم يسمعهم إلا الإقرار بأنه لم يشتغل زمنا ما بأي علم من العلوم ولما انتهى المجلس وعلم هو منهم أو أعلموه بما سيؤول إليه حاله طلب من شيخ الجامع أن يعاد امتحانه لأنه تهيب ذلك المجلس، وهو عذر لم يكن مقبولا لأن الامتحان أمام شيخ الجامع أهيب منه أمام عضو من الإدارة، خصوصا وقد كان في الأولى قوي الظاهر بمن حضره، ولكن الشيخ قبل طلبه قطعاً للمعاذير فلم يلبث أن خرج من المجلس الثاني وهو جازم بأنه غير مغبون وبأنه هو المقصر في نفسه وعاد على من كانوا يشهدون له باللوم والتعنيف ورجع إلى بلده يائساً من لقاء الرتب بيده استخلصت اللجنة أولئك المختبرين فظهر أنهم منقسمون أربعة أقسام: الأول يبقى مرتبه، والثاني يكلف تقديم طلب الامتحان لنيل شهادة العالمية ويبقى مرتبه إلى أن يخرج من الامتحان فإن نجح نقل إلى مرتب العلماء وإن سقط قطع مرتبه بمقتضى القانون، والثالث أمر بمداومة الاشتغال والمواظبة، وأعلن بأنه مراقب في عمله، فاما أن يمجّد ويحتهد وإما أن يقطع مرتبه، والرابع وهو أمثل ذلك الجرجاوي يقطع مرتبه من الآن

وقد استغرق هذا العمل من أول أبريل سنة ١٩٠٣ إلى ١٦ يولييه سنة ١٩٠٤ أي خمسة عشر شهراً ونصف شهر، وفي ١٦ يولييه سنة ١٩٠٤ صدر قرار المجلس بقطع مرتب القسم الرابع وعددهم ثلاثون وهم الذين تبين للمجلس أنهم لا يصلحون لشيء، مطلقاً، وأنه يحرم أخذهم المرتب المشروط بالاشتغال والمواظبة. وتقرر أن يكون القطع من أول أغسطس سنة ١٩٠٤، أما مقدار ما قطع من الثلاثين فهو ٢١ جنيهاً وكسوراً في الشهر. ثم اتبع المجلس هذا القرار بقرار آخر في ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤ بقطع مرتب ثمانية من أضراب أولئك الثلاثين كان ينبغيهم إلى الاشتغال وتحقق أنهم لم يشتغلوا وإن يشتغلوا، ومقدار مرتبهم تسعة جنيهات وكسور، فيكون جملة من قطعوا ٥١ نفساً ١٣ تنازلوا و ٣٨ لم يفادحوا وجملة مرتبهم ٤٤ جنيهاً وكسوراً فالباقي من أولاد العلماء الذين يأخذون المرتب من أول يناير

سنة ١٩٠٥ - ١٢٢٠ ومرتبتهم الباقي لهم مائة جنيه وجنيهان ويضم المقطوع من اولاد العلماء إلى مرتب العلماء يصير ما أخذونه ٣٧٣ جنيه في الشهر وكسور الجنيه ، وعلى هذا تم الامر في مرتب اولاد العلماء وهو عمل قد طابق القانون والحق من كل الوجوه

سعي الاستاذ الامام لاعانة اولاد العلماء بعد قطع رواتبهم

في زمن الشيخ حسونه قطع مجلس الادارة مرتب بعض اولاد العلماء وهم نحو ثلاثة عشر على ما ظن لم يتحقق فيهم الاشتغال المشروط في القانون، ولكن كان معظمهم من الاغنياء الذين لا يؤثر فيهم قطع هذه المرتبات، وأما هؤلاء فكثير منهم ممن كانوا قد استغنوا بهذا المرتب القليل وقعدوا عن العمل بأقل من الكفاف فصاروا كالأعلى الأزهر والأزهرين . ولما رأى بعض أعضاء المجلس - وهو من يعرفه الناس بالسعي إلى الخير والعمل للمصلحة العامة - ان في الواحد والخمسين المقطوعين بمقتضى القانون من قعد به الدهر عن السعي، وتعود أن يأكل بلاكد ولا تعب ولا عمل، حتى شاخ وهرم، وصار لا يقدر على انتحصيل من جديد وله زوجة وأولاد وقد أخذ القانون بالعدل المر فأخرجه من عداد المستحقين - لما رأى ذلك العضو هذا استعطف بعض أهل الخير والبر والروية والثروة فأخذ منهم جانباً من النقود وأودعها في خزينته الأزهر لتنفق على أولئك المعوزين باعتبار ما كان مرتباً لهم من قبل، فمن جهة قد روعي القانون وتفيذه، ومن جهة لم يفت أولئك المحتاجين شيء من حاجاتهم التي كانوا يقضونها بمثل هذا المرتب الزهيد، وسعى لبعضهم سعيه المحمود فقيده في بعض الاوقاف الخيرية ورتب له مبلغ مستديم، ولا يزال يجمع لهم النقود ويرسلها إلى الأزهر ليصرف عليهم منها إلى الآن ، ولقد فعل هذا حتى بعد استقالته من عضوية مجلس الادارة بل بعد مفارقه الأزهر فبعث إلى خزينته الأزهر بمبلغ كبير يكفي أولئك المستحقين سنتين ان شاء الله . وقد سعى لترتيب مبالغ غير قليل في وقف خيرى واسع لإعلاقه بالاوقاف العمومية لبعض هؤلاء المساكين، الذين أفسدهم إهمال المشايخ السابقين، ولو كان ممن يعملون كما يعمل الناس لغرض مخصوص لما اهتم بعد بهذا الجمع، ولكنه رجل المصلحة، ورجل الخدمة العامة، ورجل الشفقة على البائسين في أي مكان وجد وفي أي زمان. فجزاه الله أحسن الجزاء

حالة الازهر الصحية وتعيين طبيب له

فاتنا ان نذكر شيئين مهمين : تعيين طبيب للازهر واستدراار المسكارم الخديوية لعلماء دمياط والجامعين الاحدي والدسوقي. فأما تعيين الطبيب فقد كان في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ أي قبل فصل الشيخ حسونة بنحو سبعة أشهر وعشرين يوماً ، والحامل على طلب تعيينه والفائدة منه يتبينان بذكر ما كان عليه الجامع والطالبة في الاسور الصحية قبل مجيء الحكيم وما صار اليه بعده ، ولانذكر منهما غير القليل ، فهو يكفي عن التطويل

كانت أمكنة الجامع الازهر من صحنه الى مقاصيره الى أروقته الى مغاطه وميضاته وكنفه مجتمع أوساخ، ومهب روايح عفنة، ومنبع وخامة، وبؤرة أمراض معدية ، فاذا دخل الداخل الى الصحن وجد فيه بقايا الكراث والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكنس من مواضع النوم أكواما والى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج وما تحمله النعال من وحل الطريق حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفص ولا تنظيف. وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة

ثم اذا ذهب الى جهة الميضأة وجد حوالها أمثال ذلك ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها وهي تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات (١) واذا قصد المغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الادران، وشم منها مالا تحمل الانوف والابدان ،

(١) بل كان بعضهم يستنجي بمائها من جوانبها وقد اخبرني الاستاذ الامام انه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الازهر بل كان يأخذ الماء من مصبه فيها المسمى بالسلسول على قلته ويتوضأ منه . وكانت ميضأة الجامع الاحدي اقذر من ميضأة الازهر ولا سيما ايام الموالد الثلاثة فقد كان النساء يغسان اولادهن من العذرة فيها حتى ترى سابحة وراسبة فيها ومع هذا كله كان الخرافيون يعدون ابطال الميضأة المكشوفة واستبدال الاناييب بها (الحنفيات) من سيئات الاصلاح الذي ذهب ببركات الازهر

واذا وصل الى غرف السكنى في الاروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق الماء بين يديه فيمنعه الكسل أن يمضي بها الى البالوعات، وذاك يطبخ والدخان يسود وجه الحائط وداخل المسكن، وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيت، وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الاسبوع والاسبوعين بلا كنس فيترك فيها التراب مع بقايا المأكولات - هذا الى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة، ونومهم مزدحمين رأس الواحد عند رجل أخيه، ومعهم فيها على ضيقها متاعهم وقراهم وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود.

واذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحرل الاساطين وفي الاماكن التي يسمونها بالحارات وجدها كلها مشحونة بخزائن الخشب القائم بعضها فوق بعض صفوفًا بلا نظام، تجري بينها لقدارتها الفيران، حتى يخلفها الرائي لقدم عهدتها من آثار الاقدمين، وإذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح المش وعفن الخبز فلا يملك رائيتها إلا أن ينهمز أمامها ويفر مغلوبًا الى حيث ينتهي به الفرار.

هذا حال السكان، وأما حال السكان فقد كانوا لا ينجسون من الامراض المعدية وأهمها الجرب والرمم الصديدي، وفيهم السلول والمجدوم والمصاب بالزهري وإن كان هؤلاء قايماين، وأنهم ما كانوا يستعملونه للجرب هو كبريت العامود، ولا تسل عن الدرس اذا كان بين طالبيه جربان قد طلى جلده بالكبريت والقطران، فقد يختلط هذا بسواه ويزدحمون، وبالله والله أكبر اذا كان الفصل فصل القيظ، فهناك تنتشر تلك الروائح الكريهة وتسري العدوى الى معظم المجاورين، ورحم الله من لا أنف له أو من كان ذوق حاسة الشم فانه هو السعيد فيهم.

وقد ذاق كل مناذلك الألم ونحن في الطالب، واكن كان يخففه عنا ما يلقى علينا من المتقدمين منا والسابقين في طالب العلم من أن الجرب علامة الفتوح وان الذي لا يلحقه الجرب من المجاورين يعد بينهم مترفها ولا يؤمل فيه النجاح. ولقد فشت الامراض الباثية في الازهر كثيراً ولم يشعر بها أحد وبقيت في المجاورين تحصد، ولا يوجد من يخبر عنهم لجهل الحكام بحالهم، ولجهل أهل المحل بما يلزم للصحة من الاحتياط.

وإن من يكون مسكنه ومببته ومقبلة ومحل عمله ودرسه ومعيشته على ما قدمناه فلا بد أن تلزمه المعديات من الامراض ، اللهم إلا من كان منهم قوي البنية بأصل الخلقة وكان بدنه غير قابل للتأثر بالعدوى ، وهؤلاء في وسط مثل هذا الجو قليلون . هذا قليل من كثير من حالهم الماضية ، أما وقد جاءهم الطبيب فقد خفت جداً وطأة هذه الامراض لانقطاع معظم أسبابها وزوال بعضها بالمرّة ، فالمبضة استبدلت بحنفيات (١) والكس مستديم ايل نهار ، والمغاطس أبدلت بحمامات تقريبا ، والغرف قد اتسعت على السكان بحيث لا يسكن في الغرفة الواحدة إلا عدد يراه الطبيب غير مزدحم فيها ، ووجدت المراقبة على الغسيل ، وأعدت مطابخ في الاروقة بعيدة عن غرف السكن ، وأقفلت تلك الصهاريج وأدخلت المياه النظيفة من مياه الشركة ، واستعملت المرشحات ، وتعود الطلبة على الدواوي من الامراض ، فقد أعدت للطبيب بينهم غرفة في الرواق العباسي يجلس فيها وقتا معينا من النهار فيفد عليه فيها مرضى الطلبة فيبحث في أمراضهم ويعطيهم الدواء من صيدلية (أجزخانة) الازهر التي ينفق عليها ديوان الاوقف ، ويصف لهم كيفية استعماله ، ولا يتكلفون في العلاج نقودا ، وإذا كان بعضهم في حال لا تمكنه من المجيء الى موضع الطبيب ذهب هو اليه بنفسه في محل سكنه داخل الازهر أو خارجه وقد أعقب هذا ان المظافة في الجسم والمكان والثوب والأكل والشرب قد وجدت على الجملة في غلب المجاورين بنصائح الطبيب وهي مناط الصحة كما هو معروف ، ثم ان النور الذي كان يمرض العميون قد ذهب بالمرّة واستميض بأنوار الغاز ، وهي تستعمل الآن في المطاعة والتدريس الليلي ولونها أبيض وضوءها عظيم ، وأما النور الذي كان يستعمل قبل ذلك في المطاعة فكان على سرج الزيت توقد بجانب العمدة ولونها أحمر كدور ودخانها يعمي السليم ، وإذا رأى الطبيب بعض المصابين بالزهري أو السل أو الجذام كذب إلى المشيخة باعطاء رخصة طويلة جداً بحيث ينقضي الاجل قبل انقضائها ، ولا ترى المشيخة إلا فاعلة ما يشير به ، وفي هذا من شدة الاحتياط ما لا يخفى وهي الدواء الحتبي لمثل هذه الامراض

(١) الصواب أن يقال استبدلت بها الانابيب المعروفة بالحنفيات

هذه جزئيات من حال الازهر بعد وجود الطبيب يستدل منها على الكليات والفضل في ابتكار هذه الفكرة - فكرة إيجاد الطبيب - لمجلس الادارة، والفضل كل الفضل لمن ساعد على تحقيقها واستحسنها وأمدّها بالمال وهو الجنب العالي حفظه الله، فانه لما عرضت عليه هذه الفكرة فرح بها وأيدها، وأمر بأن ينتخب للازهر طبيب مسلم عارف بأحوال هذه البلاد وأمرأها، فانتخبه المجلس وكتبت عنه المشيخة إلى الاوقاف وهو عرض الامر على وليه، فصدر الامر على الفور بتعيين الطبيب وما يلزم من الادوية، وورد مكتوب الديوان بذلك إلى الازهر بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٨، نمرة ٧٤ ولم يكن إلا يوم حتى جاء الطبيب وأخذ في عمله بغاية الجهد والاجتهاد، وهو إلى الآن يعمل بكل نشاط

واند زاد المجلس في هذا النوع ترقياً فطلب في سنة ١٩٠٤ بناء مستشفى لطلبة العلم الفقراء يقيمون فيه مدة العلاج، فارتاح الجنب العالي إلى هذا الطلب وأمر بانتخاب قطعة من أرض الاوقاف قريبة من الازهر يبنى عليها هذا المستشفى، فكان كذلك فشرع الديوان في بناءه على الأرض التي في آخر السكة الجديدة مماليي شارع الدراسة وهي أحسن موقع صحي يبنى عليه مثل هذا المستشفى

(وهنا عقد الكاتب فصلاً لبيان كل ما كان من إعانة ديوان الاوقاف

الازهر وهي حقيرة جداً بالنسبة إلى ميزانيته في هذا العهد . ثم قل)

هذه الاعمال الماضية كلها التي شرحناها من أول هذه الرسالة إلى هذه النقطة هي الاعمال المستديرة التي قام بها مجلس الادارة من عهد تشكيله، وقاسى في وضعها وفي تنفيذ معظمها أكبر الاهوال على ما تبين مما ذكرناه، وتضاف إليها الاعمال الجزئية اليومية من ترتيب المرتبات وتوزيع كساوي التشریف والترقي فيها وما كان يتحراه في ذلك من وجوه المصاحبة البعيدة عن الغرض، فاننا لم نعهد عليه انه أعطى أو منع الا لما يراه نافعا في التعليم . . .

(ثم عقد الفصل الآتي في محافظة المجلس على حقوق الازهر وشرفه)

محافظة المجلس على حقوق الازهر وشرفه

(كان) من الأعمال اليومية المحافظة على كيان الازهر وشرف الازهرين « ومكافحة كل جهة من جهات الحكومة وديوان الاوقاف إذا جاء منها ما يمس حقاً من حقوق الازهر وأهليه ، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى (فمنها) المحافظة على حقوق الازهر وطالبته في أمور القرعة العسكرية إذ كثيراً ما كانت (نظارة) الحربية تعامل الطالب خطأ بما تراه مجالس القرعة في العاصمة وبلاد الارياف ولا يساعد عليه القانون، فتكرر المكاتبات بين الازهر والحربية متضمنة للحجج والبراهين ويذهب ذلك العضو المعروف إلى النظارة وينتهي الأمر برد المظلمة وتقرير قاعدة لمعاملة الطلبة في المستقبل ، فينتفع بها العموم (ومنها) انه إذا وقع عالم أو طالب فيما يوجب المحاكمة ناضل الازهر عنه بوجه الحق كما حصل في حادثة من شهدوا من العلماء لطالب في بليس وذلك ان هذا الطالب انتحل لنفسه صفة العالمية وعقد عقد زواج بلا حضور المأذون خلافاً للأنحة ، ولما وقع بين يدي النيابة استشهد كثيراً من علماء الازهر على ورقة ليقدمها إلى النيابة بأنه عالم شهير حتى يخرج من التبعة بمقتضى الأنحة ، فقدمها إلى النيابة فاشتبهت فيها وأرسلتها إلى الازهر وطابت منه أن يرسل اليها كل من وقعوا عليها لسؤالهم عما شهدوا به ، والتدقيق في البحث معهم فيه . فرأى الازهر أن لا رساهم دفعاً للاهانة عنهم ، واستحضر أوائك الشاهدين من العلماء فقرروا جميعاً انهم لم يعاموا بما شهدوا عليه ، وانهم إنما ختموا على تلك الورقة لان كاتبها أفهمهم بأنه يريد التوظيف في مسجد ببلده وانه يليق لتلك الوظيفة . ثم أرسلت المشيخة نتيجة التحقيق إلى النيابة في الزقازيق وبها دين المتهم . ثم نشرت المشيخة إلى عموم العلماء منشوراً تحذرهم فيه ان يشهدوا بما لا يعامون . ونظائر هذه كثيرة الوقوع

(ومنها) مقاومة ديوان الاوقاف في استئثاره على الازهر ومن فيه خصوصاً في مسائل التوظيف والامامة ومستخدمي الجامع وما ألحق به . والشاكل بين

الازهر والديوان في هذا الباب عديدة وأقربها مسألة الاسكندرية الاخيرة ومسألة المنصورة ولا نطيل فيهما الكلام .

ومما كان بين الازهر والاوقاف مسائل من يموت من العلماء وله مرتب في الديوان رتب له لانه من العلماء فان المادة (٢٥) من قانون المرتبات تقضى بانه اذا انحل عن أحد العلماء شيء من هذا القبيل لا يعود الى الديوان ولكن يوزعه مجلس الادارة على علماء الازهر في منفعة التعليم وقد مات في زمن الشيخ حسونه بعض العلماء ممن لهم هذا المرتب وكذلك في زمن الشيخ سليم وفي زمن السيد الببلاوي وكما قرر الازهر توزيع مرتب واحد منهم على العلماء وأرسل قراره الى الديوان ليأمر بالصرف بموجبه قامت قيامة أهله كلهم يصرفونه من خزائهم، ويضطر الازهر الى كثرة الاخذ والرد، والى تردد بعض أعضائه على الديوان حتى ينتهي الامر باجابة الازهر الى ما أراده من المحافظة على القانون (١)

وقد كان من الراجب على الديوان ان لا ينازع ان كان لا بد من المنازعة الا في المرة الأولى ثم يجعل ما انتهى عليه الحال فيها قاعدة للعمل في المستقبل، ولكن هكذا كان يقع النزاع في كل مرة بخصوصها .

إني لا تذكر ان مشيخة الازهر كانت كتبت الى الديوان في اواخر عهد السيد الببلاوي بما مضمونه (اننا علمنا بان مولانا الجنب العالي قد تفضل على بعض علماء الازهر في هذا الزمن الاخير فاحسن عليهم برواتب مختلفة من جنبيين الى عشرة جنيهات في الشهر وصدرت اوامره العلية بذلك، والازهر يهمه ان يعرف اسماء من رتب لهم هذه المرتبات ومقدار ما رتب لكل منهم ليقيدها في دفاتره وليقبضها مباشرة الازهر مع المرتبات الاخرى ويسلمها الى أربابها كما هو متبع في سواها) فحفظ الديوان هذه الكتابة عنده زمنا الى ان جاء هذا التغيير الحديث في مشيخة الازهر ومجلس ادارته فكتب الى الازهر جوابا عن تلك الكتابة مضمونه « قد علمت كتابة الازهر المتضمنة طاب اعلامه بمن رتب لهم مرتبات

(١) لولا هذا المصو وهو الاستاذ الامام كما هو معلوم لم يتجرأ الازهر على معارضة ديوان الاوقاف ولا مطالبته ، ولما كان يستفيد من المطالبة ما يريد

حديثه من علماء الازهر ومقدار ما رتب لكل منهم ، وقد تحقق الديوان ان الازهر يريد ادخال هذه المرتبات الجديدة تحت حكم المادة (٢٥) من القانون ولذلك استعلم من المعية السنية عنها فأجابت بان هذه المرتبات لهؤلاء العلماء هي شخصية وعلى ذلك فهي لا تدخل تحت قانون المرتبات الازهري « وهو جواب من الاوقاف غير مقنع كما تراه لا يقتنع به الا من يريد السكوت

(ومنها) تعويد الطلاب والعلماء المواظبة في العمل ، والمحافظة على مواعيد الدراسة الرسمية ، وتعليم الطلاب انه لا يتقدم أحدهم في الجرايات الا بالجد . فشرعت لهم نظم الانتساب والانتظار ، وحددت لهم فيها المواعيد ، وسنت لهم الامتحانات ليتقدم أهل الاعمال على أهل البطالات فسادت هذه الروح بين الطلبة خصوصا طلبة الحنفية المقيدة أسماؤهم في الرواق وفي الدقتر، ومستحق وقف المرحوم سليم باشا اتوزير الشهير من الشافعية والمالكية والحنفية ، وكل هؤلاء تحت نظر مفتي الديار المصرية (١) بمقتضى شروط الواقفين أو قرارات المشايخ السابقين ، فقد فهموا ان الاستحقاق لا يكون الا بالاشتغال ، وان الاشتغال لا يتبين الا بالاختبار ، فصاروا يتقدمون اليه ، ويتهافتون عليه

(ومنها) فصل ما يقع من المشاكل كل يوم بين الطلبة وبين مشايخ الاورقة والحرارات بتحقيق ما يشكو منه الطالب أو الشيخ وتقرير ما يقطع الشكوى وما يحسم النزاع واكثر ما يكون وقوع هذا في رواق الصعايدة والشوام ورواق المغاربة ورواق البرابرة ، واما غيرها فوقع النزاع فيها قليل

(ومنها) المراقبة الشديدة على سفر الطلاب والعلماء في غير المواعيد المقررة حتى صار من البديهي عندهم ان السفر لا يكون الا بعد الاستئذان من الجهة المختصة باصدار الاذن به وصدور أمرها كتابة الى مريدي الاسفار وشدة الملاحظة والمراقبة على أمر النظافة في الجامع وأروقته وفرشه وخزائنه وكل هذا وغيره مشاهد معلوم

(١) أي وهو الاستاذ الامام المنفذ للنظام فيهم ومن أجدر بتنفيذ النظام من واضحه لقوة شعوره بالحاجة اليه

تمهيد لبيان الشغب قبل الانقلاب

لا يشك عاقل متدين في ان هذه الاعمال كلها كلها وجزئها مما يرضاه الدين الخفيف، ويأمر به الشرع القويم، ويقبله العقل السليم، وليس فيها ما يقلق طالبا أو عالما، ولا ما يوجب شغبا أو لغبا، ولا ما يولد شقاقا أو خلافا، ولا ما يقتضي زعزعة في العقيدة أو فسادا في الاخلاق، ولا ما يوجب نزوعا إلى الثورة، أو شغلا عن العمل النافع، ولا ما يستدعي ترك علوم الدين وإهمال تعليمها، ولا ما يخرج بهذا المكان عن كونه مدرسة دينية محضة، تدرس فيه العلوم الدينية المحضة، ولا ما يجلب على هذه المدرسة عارا في بلد من البلدان، ولا ما يدعو إلى الاضطراب والهياج، ولا ما يخالف نظام الهدوء والسكينة والاطمئنان، ومن ادعى شيئا من هذا فعمله ان يميز بين الدين وعدم الدين، فان لم يستطع وأراد محو ما وضع وان كان هو النافع للدين، واحداث ما يضره وان كان هو الضار بالدين، فمأخذه الا أن يعمل ليستصدر امرا عاليا بالغاء كل ما كان بناء على انه مخالف للدين، وارجاع الازهر الى ما كان عليه من قبل، وهذا أمر غير ميسور لان الجناح العالي أيده الله قد تحقق من نفع هذه الاعمال وموافقتها للدين، وأنها مفيدة للعالم والتعلمين، موطدة لاركان علوم الدين، لانه كما سبق قد استحسناها جميعا، باستحسان كل واحدة منها عند صدورها، بل ان جنابه العالي هو المبتكر للكثير منها، وأهمه تشكيل مجلس الادارة وصدور الاوامر بما وضعه (المجلس) من القوانين، وهو المؤيد لباقيها المساعد على ايجادها بما أمدها به من المعونة بأموال الاوقاف الخيرية، وهو أفضل ما تنفق فيه ولا يرضى جنابه العالي وهو الامام، بان تحمل الحمجية محل النظام، ولا تسمح نفسه العلية أن يحكم بأن ما أمر به لاصلاح الدين مخالف للدين ومما حب الغرض وان كان يقتدر على تصوير الخير بصورة الشر، وعلى تمثيل الحق بالباطل، والنافع بالمأطل، وتشويه المليح، وتزيين القبيح. الا انه لا يلبث أن يظهر مقصده فيقع في شراعهاله وان لا بيت ربا يحميه (وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون) .

ندع هذا كله ليحكم فيه من يطالع عليه ونرجع بالسيد البيلوي الى ما بعد

تسعة أشهر من تعيينه سار فيها مع أعضاء مجلس الإدارة بغاية الوثام والوفيق كما قد مناه واتخذ العمل الصالح إمامه وجعل مقصده خدمة العلم والعلماء والطلاب [ثم ختم الكاتب كتابه بعد هذه المقدمة بذكر الشغب الذي كان السبب المباشر لاستقالة السيد البيلاوي من مشيخة الأزهر ، والمفتي الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من مجلس إدارته فنشره وتوفي عليه ببسط الحقائق التي لم يكن يستطيع هو التصريح بها - قال]

الشغب الذي انتهى باستقالة البيلاوي

(والعضوين العاملين بالمجلس)

بعد مضي تسعة أشهر من تعيين السيد علي البيلاوي - والناس في هادئ وسكون، وجميع المدرسين بلا استثناء في وفق على طاعة رئيسهم، والطلاب قد وضعوا بين أيديهم أملاً يقصدونه بعمائمهم - سمع الناس فجأة بضجة بين بعض المدرسين وهياج إلى الشكوى من أمور كاهان مقتضى الأمر العالي الصادر بنظام الأزهر وما عدا ذلك مما سمع ليس له حقيقة بالمرّة، ووجد بعض الزعاف من بينهم يدعون الناس إلى الختم على عرائض الشكوى، وموضع تلك العرائض التي يؤند الناس للختم عليها منزل شيخ كان معروفاً من قبل بالبعد عن الناس والابتعاد عن أبواب الأمراء، وكان يظهر من التعفف والتعشف ما يمثل به سيرة الصالحين ولم يكن يطالب من حظوظ الدنيا إلا أن يكون شيخ المقاري بمصر (١) يأخذ جرائتها ويتساط على قرائها إلا أنه من عدة سنوات نصح بعض المترافين للجناب العالي الخديوي أن ينشئ في مدينته درساً للتفسير في شهر رمضان على نحو ما يحصل من سلاطين آل عثمان فأمس الجناب العالي شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري بانتخاب اثنين من العلماء لذلك وانتخب ذلك الشيخ والاستاذ الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الحالي

(١) في مصر طائفة تعيش بقراءة القرآن الدوتى في القبور وفي غير القبور ولها

رئيس يسمى شيخ المقاري

على ان من نحن بصدده يقرأ كل يوم من رمضان في سراي القبة ، وأما الآخر
وهو شيخ الازهر الحالي فانه يقرأ كل يوم جمعة منه فقط في سراي عابدين
من ذلك العهد خلع الشيخ القصير ثوب التقشف الطويل ، وارتقى على سنه
وشيبته إلى درجة من حب الزلفى أقسم فيها بالله: إن أفندينا العباس ولي من أولياء
الله. وذلك في حضرة أحد مشايخ الازهر السابقين، ثم ساق له بعض الكرامات،
وحكى عنه ما شاهد من خوارق العادات (١). ثم ان الشيخ سلباً استعمله في
السعي لا بطل مكافأة طلاب الازهر التي سبق الكلام عنها، ونحو ذلك من
مقاصده التي مر عليك خبرها. أصبح هذا الشيخ وسيلة من الوسائل يتوسل
بها من شاء إلى ما شاء. وهو الذي أرسل بعض من يجتمع عليه يدعو بعض المشايخ
لختم العرائض بالشكوى من السيد علي البيلاوي ومجلس إدارة الازهر، فأخذوا
يوقدون الناس إلى منزله وهو ومن معه يقولون لمن يحضر: إن هذه عرائض
بطلب زيادة مرتبات وعد أفندينا بمنحها للمدرسين ، ومن طلب قراءتها ليعرف
ما فيها اضطروا أن يقولوا له ان هذه الشكوى على رغبة أفندينا ومن ختم نال
المكافأة ومن لم يختم صار مغضوباً عليه، وهو يصدق لان الشيخ من الحاشية
ببحث الباحثون عن السبب في هذه الضوضاء وقيام الشيخ من يسمع قوله
للشكوى وقد كان من الهدوء والسكينة بحيث يضرب به المثل ، والذين هاجوا
معه كانوا من المنتسبين لشيخ الجامع ولأعضاء مجلس الإدارة ومن سبق احسان
هؤلاء اليهم ، فوجدوا أن ذلك كله كان عقب قرار صدر من مجلس الاوقاف

(١) وهو ان سموه كان بالاسكندرية فكلم الحاشية في سراي القبة : ان الشيخ
يحضر لقراءة الدرس فلا تدعوه يذهب حتى يفطر، فلم سموه ان الشيخ سيحضر وهو
غائب وهذا من المكاشفة وعلم الغيب الظاهر، وما كان يقول هذا الذين يجهلون أن
جنيته الى السراي كان معروفه للخديو لاجل الدرس بل يقوله لمن يعلم ذلك ؟
وما كان الخديو مكاشفاً وانما كان كاشفاً لدجل الشيخ وتاييسه اذ ادعى انه يجمع له
الجن ويريه بعض أعمالهم فأدرك الخديو حياته في ذلك وأظهرها له

الاعلى في مسألة استبدال أرض للاوقاف في الجزيرة وقد اشتهر أمرها ولا يزال مشتهراً إلى اليوم . وقال قائلون ان الغرض من هذا كله الانتقام من المفتي لان هذا القرار صدر بموافقته . وسواء كان السبب معقولا أو غير معقول فهـذا هو الذي كان يقال ولا يزال يقال

مع السعي والتحريض والترغيب والترهيب لم يوافق الشيخ على الختم أكثر من خمسين مدرسا (من عدد أربعمائة ونيف) قام هؤلاء نفر وحملوا عرائضهم وقدموها إلى الجناب العالي فدرجت في الادراج ، وظهر بعد ذلك ظهور الشمس في ضحاها ان مبعث الحركة كان السراي العامة ، لازالت ببركة الميل الى الوفاق عامرة وحدث في أثناء ذلك مسألة الزوجية المشؤومة على البلاد والعباد ، فظن قوم برجال الازهر التقصير في معونتهم أو انهم يعاونون خصومهم ، ولا والله ما أصابوا ، فما رجال الازهر من أولئك الطرفين . فمن ثم كان لهذه الحادثة ما كان لها من التعكير على ادارة الازهر ، ولا يدري عاقل ما العلاقة بينها وبين هذا الاثر وقد قيل ما قيل (*)

وقمت هذه الاحن كلها موقع التصديق ، فأحب الجناب العالي على زعم البعض أن يستقيل أعضاء مجلس الادارة أو بعضهم حتى ينتهي المشكل ، ولكن جنابه العالي لم يصرح بذلك لاحد من الاعضاء بطريق رسمي أو شبه رسمي . وإنما كان يذيعه بعض أولئك العلماء ومن أعانهم حتى يصلوا إلى غرض مخصوص ، وأما الحكومة فقد صمت أذنها في ذلك الوقت عن سماع مثل هذه الاصوات ، وتركت

(*) عقد الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد نكاحه على صفة بنت السيد عبدالحالق السادات بدون إذن ابيه ، واخرجها الى بيته فرفع والدها عليه قضية طاب فيها فسخ العقد لانه غير كفؤ لها ، فحكم القاضي الشرعي أولا بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر في القضية ، وأخيرا بطلان العقد لدم الكفاءة . وعدت الامة المصرية عمل الشيخ علي إفسادا لآداب الامة وهاجت عليه الجرائد ، وكانت القضية شغلها الشاغل ، وأمين صاحب المؤيد إهانة قبيحة عامة ، وكان الخديو نصيرا له بالطبع ، واتهم هو الاستاذ الامام بأنه عونا للسيد عبد الحاق السادات عليه ، فهذا ما أبهم المؤلف كما أبهم كثيرا من المسائل أو أظهر الريب فيها تقية واحتراسا

الشاكين والمشكويين يقولون ويعملون ما يشاءون . فطال الزمن على هذه الضوضاء ولم يشأ رجال الازهر قمع أولئك المحركين بأجراء العقوبات المنصوص عليها في قانون الجامع الازهر لانهم جزموا بأن أولئك النفرا آلات في أيدي أولئك المعينين لهم اللاعبين بهم ، الذين يذيعون ان جميع أقوالهم وأعمالهم إنما تصدر عن رضى واستحسان من ولي الامر ، وما هم في ذلك إلا موهمين

كبرت كل هذه الاحوال عند السيد على الببلاوي ورأى انه معطل عن العمل ولا فائدة من وجوده ان لم تترتب عليه الآثار ، فحاك في خاطره أمر الاستقالة وأفضى به إلى بعض أعضاء المجلس فلم يوافقوه عليه ، فكن في نفسه يترقب الوقت ويتحين الفرص ، حتى رأى ان قد رتب للبعض من أولئك الساعين بالازهر (ومنهم الشيخ المنصوري الذي كانت معونة الشيخ سليم له سببا في عزله من المشيخة) مرتبات من الاوقاف على غير علم منه ولا مذاكرة معه ، ولا أخذ رأي له فيمن يرتب له ومقدار ما يكفيه ، وتجسم خاطر الاستقالة في نفسه وجعله نصب عينيه ، لانه جزم بأن ترتيب هذه المرتبات هو تشجيع لاولئك الناس واستحسان لما يعملون . وانه يحيط منزلاته بين العلماء ، ويكون عقبة في طريق أعماله التي لا يقصد منها غير فائدة الازهر والازهريين

حدثت بعد ذلك حادثه رواق المغاربة وهي ان فريقا منهم قد احتلوا بعض غرف خالية من السكان في الاروقة العباسية الجديدة ، فأراد مجلس ادارة الازهر إخراجهم منها وأجراء التحقيق فيما صنعوه ، فلم يمثلوا وأبوا الانقياد وتدابروا بالقنسلات الفرنسية ، فدارت المجاربة بين بعض أعضاء المجلس وبين ناظر الخارجية وبينهما وبين القنسلات ، حتى استقر الرأي على أن يعمل الازهر بمقتضى قانونه ان لم يمثلوا لأوامره . فكان كذلك وصدر قرار مجلس الادارة بقطع عدة أشخاص منهم بمقتضى قانون رواقهم ، وطلبت الخارجية امهال تنفيذه حتى تعلم حال القنسلات في شأنهم ، فلم يكن منها أدنى ممانعة للحق والقانون . ولما دعي شيخ رواق المغاربة للمفاوضة معه في شأنهم لم يحضر عليه إلا بعد يومين كان فيهما حيث لا يعلم مكانه أحد من الازهر ، ثم عاد فأخبر أن القنسلات توغیر معارضة للازهر في شيء

وانها تحب أن يعمل الآزهر. معهم بالين أولاً فان لم يفعل فليجرح أحكام القانون خرج المغاربة من الأماكن التي احتلوها وانتهت حادثتهم، ولكن شيخهم هرب ولم يخبر المشيخة بما وقع، فبحثت عنه فقبل انه في حلوان مرة، وقيل انه في غيرها أخرى، ولم يزل غائبا حتى حضر الجنب العالي من الاسكندرية وظهر أن غيبته كانت في سراي القبة. ولم يزل فيها حتى انتهى الامر في المشيخة وجاء يخبر بان الجنب العالي رأى حلاً آخر غير ما اقتضاه القانون وجرى عليه مجلس الإدارة، ولا ضير فان أمره أعلى من القانون

في أثناء هذه الحركات الأخيرة تردد بعض الحواشي على بيت السيد الببلاوي فكشفهم بما يريد من أمر الاستقالة، فما أظنهم إلا قد حسنوها له خصوصاً وأنه قد ضجر من تكرار هذه الملمات، وجزم بأنه معطل عن العمل لا محالة، وأنه لا يرجي من بقائه أن يعود إلى عمله المفيد. فكتب في يوم ١٥ مارس سنة ٩٠٥ استقالته وسلمها إلى رئيس الديوان الخديوي العربي والافرنجي، وهو أبقاها عنده إلى أن شرف الجنب العالي من بعض تنقلاته، وجنابه العالي قبلها وأمر بان يكتب اليه كتاب القبول، وفيه غاية التلطف والعطف والاحسان، ثم استقر الرأي على تعيين الاستاذ الحامي الرجل الزاهد المعتقد الجليل، فصدر الامر العالي بتعيينه بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٣٢٣ (١٩ مارس سنة ٩٠٥) وعقب تعيينه استدعي إلى السراي العامة في محفل حافل من العلماء، لا لباسه الخلعة المعتادة لمن يعين شيخاً للجامع الآزهر وفي هذه الحفلة قال الجنب العالي قوله المعروفة في الآزهر وما يقصده فيه وما يحبه له، وعلى أثر ذلك جزم العضوان الموظفان بأنهما ربما لا يلائمهما العمل في هذه الهيئة الجديدة، فاستقالا بعد تعيين الشيخ الجديد بنحو ستة أيام، وقبلت استقالتيهما وسدرت الاوامر العالية بتعيين بدلها. وعلى ذلك استقرت الحال

وبالجملة فقد كان زمن الشيخ حسونة كله على الآزهر خيراً وبركة، وكان زمن الشيخ سليم البشري كله زمن وقوف حركه، وكان زمن السيد الببلاوي كله زمن ونام ووفق، وعمل بقدر ما يطاق، ونسأل الله أن يكون هذا الزمن الجديد زمن نجاح وفلاح آمين (كتب في أوائل سنة ١٣٢٣)

(هذا آخر مادونه الشيخ عبدالكريم رحمه الله من هذا التاريخ)

خلاصة الكلام في مسألة اصراع الازهر

قد لخصنا ما كتبه الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان من تاريخ الاصلاح للازهر الذي سعى الاستاذ الامام اليه ، وكان هو أكبر أعوانه عليه ، وملخص ما كتبه - وهو وقائع رسمية مقرونة بأسبابها ونتائجها - ان الخديو عباس حلمي باشا كان مقتنعا بما بسطه له الشيخ محمد عبده من الحاجة إلى اصلاح الازهر من كل وجه ، ومخاضا في مساعدته عليه ، وان الشيخ حسونة النواوي أمثل من غيره من الشيوخ استعدادا لقبول الاصلاح وتنفيذ ما يقترحه الشيخ محمد عبده على مجلس الادارة ويقنعه به فيحمله على تقريره ، وانما كان البطء في المضي في الاصلاح من ضعف استعداد أعضاء مجلس الادارة لتغيير تقاليدهم ، وكان الاستاذ الامام يريد أن يكون الاصلاح برأيهم واقتناعهم واقتناع جمهور العلماء والفتهم النظام فيه ليكون ثابتا . وكان الشيخ حسونة لا يعارض الاستاذ الامام رأيا ، ولا يخالف له قولا ، ولكنه يطالبه بأن يسير بالتدرج إلى الاصلاح المؤبدا ، ولولا لسان فيه شوطا بعيدا ، فتخرج فيه باقاء الكتاب ، ومصاتهم الخطباء ، وفحول العلماء ، وكبار رجال القضاء ، والدعاة إلى الاسلام ، ولوعاظ المرشدين للعوام ، بما تقتضيه حال هذا العصر في كل العلوم والاعمال ، وانشر ذلك في العالم الاسلامي وغيره . كان الاستاذ الامام صاحب عارضة لا تعارض ، وحبية لا تنادى ، وعزيمة لا يقل لها حد ، وهمة لا يبرض لها فتور ولا يأس ، وكان أعضاء الادارة يعامون أن أمير البلاد يؤيده ، والحكومة تنصره ، وقوة الاحتلال لا تقاومه ، فلا يجاوبون لهم تفصيا مما يطالبهم به بعد سقوط شبهاتهم دونه ، الا استماعة صديقه الشيخ حسونة عليه بمطالبتة بالرفق واتباع سنة التدرج حتى إنهم ألقوا هذا الرأي إلى الأمير ومن أمثلة كبحه لجدلهم بالشدة ان الشيخ محمد البحيري - وكان من أذكاهم - قال له في مجلس الادارة في الدفاع عن المنهج الازهري في التعليم : اننا نعلمهم

كما تعلمنا . قال الاستاذ الامام وهذا الذي أخاف منه . قال البحيري ألم تتعلم أنت في الازهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العلم الفرد ؟ قال الامام إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فاني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ماعاق فيه من وساخة الازهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ...

وقد اغتر الشيخ حسونه بما كان من الضوضاء في مسألة قاضي مصر الشرعي المشهورة ، فخرج عن رأي الشيخ محمد عبده في سيرته فيها ، فكان ذلك سبب عزله من مشيخة الازهر وافتاء الديار المصرية معا ، وسيأتي شرح هذه المسألة في مكانها اللائق بها من هذا التاريخ ، وولي المشيخة بعده الشيخ عبدالرحمن القطب والافتاء الشيخ محمد عبده نفسه كما سيأتي ، ولم يلبث الشيخ القطب أن توفي ، فبادر الخديو إلى تعيين الشيخ سليم البشري شيخا الازهر

وفي أثناء عهد الشيخ سليم تغيرت نية الخديو وأفكاره بسبب ما ذكره وراجت لديه دسائس العلماء وغيرهم ، فكان ذلك مجرئا للشيخ سليم على وقف سير الاصلاح في الازهر ، حتى انه كان يمتنع من تنفيذ قرارات مجلس ادارته ، التي تقرر بالا تفارق معه في الجلسات التي تعقد برياسته ، وكان الشيخ محمد عبده يصبر على ذلك وهو قادر على إكراهه أو عقابه إذا أصر على عدم تنفيذها

قال لي مرة عند الحديث في هذه المسألة : ان الشيخ سليما مسكين لا يعلم ان مادة كذا من قانون العقوبات تقضي بمحاكمة كل رئيس مصلحة رسمية يمتنع من تنفيذ ما يقرر من أحكام قانونها محاكمة جنائية ، واني لو بلغت النائب العمومي أن مجلس الادارة قرر كذا وكذا في تاريخ كذا بمقتضى قانون الازهر وامتنع رئيسه من تنفيذ هذه لقرارات فانه لا يسمعه إلا أن يدعوه للتحقيق في محكمة الجنايات ، ولكنني انما أريد أن يكون اصلاح الازهر برأي شيوخه واقتناعهم لا بسلطة الحكومة الكافلة لتنفيذ القوانين ، ولا فرق فيها بين قانون الازهر وسائر قوانين الحكومة ، اذ هو صادر بمقتضى ديكرتو خديوي كغيره

[أقول ولدى مذكرة بخطه في مواد قانون الازهر التي امتنع الشيخ من تنفيذها سأنشرها بعد]

(قال) وانا مادمت في هذا المكان لا أدع للحكومة مجالا للتدخل في شؤونه لانها حكومة واقعة تحت سلطة أجنبية

وقد أراد الانكليز التدخل في شؤون الازهر في تلك الفرصة ليرفعوا عنه سلطة الخديو ويجعلوه تابعا لمجلس النظار، فكان الاستاذ الامام حائلا دون ذلك أخبرني مرة أن لورد كرمر أرسل اليه أنه يريد أن يزوره - وقد علم رحمه الله أن الغرض من هذه الزيارة الكلام معه في حالة الازهر إذ كان قد بلغه ما يفعله الخديو من الدسائس فيه ، واستخدام الشيخ سليم فيها ، ويريد أن تتدخل الحكومة في عزل الشيخ سليم كما فعلت في عزل الشيخ حسونه - قلت له وماذا تنوي أن تقول له ؟ قال أقول أحسن ما أعلم ، وأسكت عن شر ما أعلم ، ولا أقول إلا حقا ، ولا أدع منفذاً لنفوذ الاجني أن يتسرب إلى هذا المعهد الديني قلت : حياك الله ، ما أشد جهل قومك بمقامك ، وعلو درجة إيمانك ووطنيتك !

ولكن الازهر صار بعد وفاة الاستاذ الامام خاضعا للحكومة في جميع شؤونه وكذلك مصلحة الاوقاف صارت وزارة مرتبطة بالحكومة بسعي الانكليز، وهو ما كان أنذر به الخديو كما تقدم في أول هذا المقصد فصح فيه المثل :

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح إلا ضحى الغد

ولقد كان على شدة عنايته بالازهر وأهله والدفاع عنهم ومبالفته في تكريمهم شديد الاحترار لهم في نفسه - إلا أفراداً منهم - وكان الازهر عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص عند شدة تألمه من فساد حاله وهي : الاصطبل . المارستان . المحروب (بهذا اللفظ العامي)

ولو أنه هو الذي كتب الكتاب الذي كتبه الشيخ عبد الكريم ولخصناه فيما تقدم كما كان ينوي لفصح هذا المكان المشهور بفضله وعظمته وخدمته للعلم والدين فضيحة لا أستطيع وصفها ولا تقدير سوء تأثيرها في الشرق والغرب ، ولعجز أن يزيل ذلك التأثير المخزي كل أحد ، وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم

آنفام شهادة الزور حتى من قضاة الشرع والمفتين . الذين لقب المحقق ابن القيم أمثالهم « بالموقعين عن رب العالمين » وكان قد اطلع على ما لم يطالع عليه أحد من مخازيهم بعمله في إدارة الأزهر وتفتيشه المحاكم الشرعية كأكل السحت من الرشوة على الأحكام والفتاوى، وعلى ما هو أشد ضرراً منها وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية، نعم ناهيك بما هو الممد لهذه المخازي كلها وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم الذي مكن الخدبو مما ذكر من العبث بهم، والعزة والكبرياء على المجاورين المساكين والاهانة لهم، وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتمهم البذيئة المزرية التي لا تبقى في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة، ولا عزة الايمان المكتسبة، وقد كان لكثير من أبناء أولئك الفقراء المساكين من الفلاحين نصيب وافر منها . دع تأثير القذارة والأمراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم

واقعد قلت الاستاذ الامام : كيف استطعت أن تعيش نظيف الجسم والثوب والمقل والقلب عزيز النفس في هذه البيئة التي نشأت فيها ؟ فذكر لي ان السيد جمال الدين استغرب هذا منه قبلي، وذهب الى ان له وراثته ممددة لفطرته فيه فكان يقول له : بالله قل لي أي أبناء الملوك أنت ؟ وسأبسط هذا في الكلام على أخلاقه، وقلت له مرة : انني جاهدت نفسي في التصرف على تعمد ترك لذائذ الطعام، والنوم على الارض، وبذل مافي اليد، حتى لم يعد يشق علي من ذلك شيء، واكنني حاولت أن أعود نفسي احتمال الوساخة بترك تغيير اشياي من العرق، وترك الاستحمام غير الواجب مدة من الزمن، فعز علي ذلك. إذ كان يضيق صدري منه حتى انه يفسد علي عبادتي، فلا أراني فيها منشرح الصدر، ولا حاضر القلب، . . فقال وأنا كذلك من كل وجه

وشر من ذلك كله تمكن الخرافات والالوهام من أكثر القوم، حتى ان الشيخ حسونة الذي كان يمدد الاستاذ الامام أمثالهم كان يقبل به أحد أدعياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام، بما يلبسون عليهم وبهمونهم من المكاشفات والكرامات، فيؤمنونه على نسايتهم حتى انهن كن يدخلن معه الحمام !!

وناهيك بما يفعلونه في احتمالات الموالد المبتدعة ، وشاركتهم لسدنة القبور المعبودة فيما ينذر لها من المال والفول الثابت وغير ذلك
 إنني أذكر هذه الأشياء وأنا متألم من ذكرها لأئین للقاريء أهم الابواب التي كان يريد الاستاذ الامام أن يصورها بقله البليغ ، ويذكر أسبابها ونتائجها وسوء تأثيرها في إضاعة الاسلام ، وهداية القرآن ، وسنة محمد عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من اضاءة ملك المسلمين وعزهم ومجدهم .
 على أنه قد كان لذلك الاصلاح على ضعف وسائله ، وقوة غوائله ، تأثير عظيم في اصلاح اخلاق الازهريين وصحتهم ونظافتهم ، وكثر فيهم المقاومون للخرافات والأوهام ، والاستعانة على مصالحهم ومنافعهم بالاموات ، وأعود الى ايضاح ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم من سبب غضب الخديو على الاستاذ الامام وانتقامه منه بما عمله في الازهر

الغضب على الاستاذ الامام ورئيس الديوان وما اقتضاه من الانتقام

كان أنكى ما أحفظ سموه على الشيخ محمد عبد الفتى وعلى صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم (في ص ٤٨٩) ، وأبهمه كالمثاله وهو مسألة أوقاف الجيزة . ويأنه بالاجاز أنه عرض على مجلس الاوقاف الاعلى طلب استبدال بعض أراضي الاوقاف المدة للبناء في الجيزة من ضواحي القاهرة بمزرعة من مزارع الخاصة الخديوية ، وبني الطلب فيها على تقدير ريع المزرعة وكونه أكثر من ريع تلك الارض ، بما يقتضي أن يزداد عليها ثلاثون ألف جنيه ومع هذا تكون أنفع للوقف ، فقال الشيخ المفتي : الانفع للوقف في مثل هذا إنما يعرف بتقدير الثمن لا بالغة السنوية ، فلا بد من تعيين لجنة من أهل الخبرة برياسة (باشمهندس) الاوقاف لتقدير ثمنها و ثمن تلك المزرعة . وكان أول من وافقه على هذا حسن باشا عاصم الذي هو نائب سمو الخديو في المجلس ،

ومن ذا الذي يعارضهما فيه ؟ تقرر تأليف اللجنة فقامت بعملها فكانت النتيجة أن الفرق الذي تتحقق به الانفعية للوقف إعطاؤه عشرين ألف جنيه مصري فوق المزرعة فكانت جملة الخسارة خمسين ألفاً

بهذا اشتدت حفيظة سموه على مفتي الديار وعلى رئيس ديوانه ، وإلى حلقة لا تحلل ليخرجنهما من منصبيهما أو يخرج هو من منصب الخديوية فاما منصب رئاسة ديوانه فأمره اليه وحده ليس للحكومة ولا للاحتلال المسيطر عليها رأي فيه ، ولكن قوانين الحكومة لا تبيح العزل بغير ذنب يحكم فيه مجلس تأديب . وكان سموه يكره أحواله على المعاش لانه يحب أن يخرج من عمله عاريا عادما ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستقالة ، فكان سموه يعمل كل ما من شأنه أن يسوءه ليستقيل ، يعمل ذلك بنفسه وبالايعاز إلى موظفي الديوان ، وكان حسن باشا على عزة نفسه وإبائه يتجاهل كل هذا ويصبر عليه حتى لا ينال الخديو أربه منه ، فلما أعياه أمره ، وعيل صبر سموه وما عيل صبره ، أحاله على المعاش وأما منصب الافتاء فله علاقة بالحكومة والمفتي عندها من موظفي وزارة الحقانية لا من موظفي المعية ، فرأى سموه انه لا بد من التوصل إلى النيل منه بارتضاء العميد البريطاني ودولته .

وقد دونت خبر إحالة حسن باشا عاصم على المعاش وخبر استرضاء سمو الخديو للانكليز متعاقبتين في مكان واحد من جزء المنار الذي صدر في غرة شوال سنة ١٣٢٢ (٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤) من المجلد السابع

وذكرت في الخبر الاول اجماع الجرائد على اثناء على حسن باشا عاصم واستغراب إحالته على المعاش من غير سبب ، إلا اللاواء فانه رجح أن سبب الاحالة غضب الامير على رئيس ديوانه « منذ حدثت مسألة استبدال مزرعة الامير المعروفة (بمشتهر) بارض لديوان الاوقاف في الجزيرة . والمسألة مشهورة وملخصة أن طالب الاستبدال كان طلب من ديوان الاوقاف ثلاثين ألف جنيه زبادة ، فما رضي الديوان حتى أخذ منه عشرين ألف جنيه . وكان ذلك بموافقة حسن باشا الخ . وأما مسألة استمالة سموه للانكليز فقد كتبت فيها مانصه (ص ٧٥٩ م ٧) :

﴿ استعراض الامير لجيش الاحتلال احتفالا بجلوس ملك الانكليز ﴾

جرت عادة المحتلين بأن يستعرض عميدهم جيش الاحتلال في ميدان قصر عابدين لما لا يخفى، وقد سبق من توفيق باشا الخديو السابق الترائي للجيش من شرفة القصر، ولكن عباس باشا الخديو الحالي أعرض عن ذلك حتى كان في احتفال هذا العام، وكان في أول أيام الصيام، أن خرج بملابسه العسكرية وحضر الاستعراض مع اللورد كرومر تحت العلم الانكليزي، فكان لذلك تأثير عظيم في النفوس واحمى بهذا مع ما سبقه من قبيله ما كان يتوهمه الدهماء من أن الامير هو المعارض للمحتلين وأن النظار هم المشايعون لهم؛ وعلموا أنه أشد من نظاره وفقاً معهم، لان أوائلك يوافقونهم لمكان القوة فيما يريدون، وهو يمنحهم أكثر مما يطمعون، ولا نقول الا ان مظهر وتبين نافع، وان خفاء الحقيقة قبله كان ضاراً لما فيه من غش الامة والقذف بها في معامي الغرور والوهم، فللامير - وفقه الله تعالى لكل ما يرضيه - الشكر أن كذب بمعله أولئك المغررين الخادعين الذين شغلوا قلوب الناس بمسألة وهمية وهي مقاومة المحتلين، ونسأل الله تعالى ان يوفق أهل هذه البلاد إلى الاستفادة من هذه الحلة بالمحافظة على أرضهم وتشميرها وعمارها، وبالعناية بتربية أولادهم وتعليمهم العلم النافع ليحيوا حياة اجتماعية شريفة يرتقون بها إلى أن يكونوا أمة عزيزة، فان الحرية الهادئة لا يرتقي فيها إلا المذهب المقتصد، ومن اتبع فيها هواه، خسر دينه ودنياه اه وقد كان المؤيد وغيره من الجرائد لبسوا على الناس هذا النبا الغريب وجعلوه من فلتات المصادفات، ونوادر الاتفاقات، فكان ما كتبه آنفاً فضيحة لتليدسهم، ولما اطلع عليه الامير استشاط غضباً، وحرق الأرم حنقاً، لأن صيته بمقاومة الاحتلال هو رأس ماله في التجبب إلى الشعب وتبغيض النظار اليه، واستحضر بطرس باشا غالي وزير خارجيته فأعطاه المنار وأمره أن يذهب به إلى نورد كرومر ويترجمه له ويبين له ان الذي أغرى صاحب المنار بهذه الكتابة هو الشيخ محمد عبده لانه يكره الاتفاق معهم هذا ما كان من التمهيد السياسي لاخراج المفتي من منصب الافتاء ومن ادارة الازهر، وأما التمهيد الديني فنشير اليه بما يأتي:

﴿ التمهيد الديني ، بعد التمهيد السياسي ، للانتقام من المفتي ﴾

غيرة شيوخ الازهر على الدين

في هذه الاثناء كثر خوض العلماء في مسألة الازهر والتبرم مما يسمى الاصلاح فيه ، واطافه ما يسمى بالعلوم الجديدة إلى دروسه ، وتبارت أقلام الكتّاب منهم في الجرائد في الشكوى من هذه العلوم ، والخوف منها على الدين القويم والشرع الشريف ، ومن امتحان الطلبة فيه ، ومن مكافأة الناجحين منهم بالدراهم ومن مفسد ذلك عندهم ان هؤلاء الناجحين المكافئين يؤلفون حزبا جديداً لبعض العلماء (يعني الاستاذ الامام) وقد كتبت في تلك الايام مقالات كثيرة في الجرائد رددت فيها على ما كان ينشر من ذلك وكنت أضع لها امضاء (أزهرى) أو غيره

وكان من تلك المقالات ما نشره الاستاذ الشيخ محمد الاحمدى الظواهري في المؤيد في المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم) من الانتقاد على طريقة الازهر القديمة في التعليم لبنائها على « التقليد وضيق الفكر » والتسليم لما يقرره المشايخ في تفسير الكتب ، وينتقد طريقة الاصلاح الجديدة في مدارس المعاهد الدينية ويقول فيه « وارجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس بعنايتكم وان تقطعوا منها جرائم الفساد والانحطاط » . وأذكر ان المؤيد تعقب هذه المقالة بانها مخالفة لما كتبه الشيخ الظواهري في كتابه (العلم والعلماء) من مدح طريقة الاصلاح الجديدة والترغيب في العلوم الجديدة الخ وانه عاد فكتب مقالة أخرى يؤيد بها رأيه الجديد بنصوص من ذلك الكتاب ، ولا غرض لنا في بيان الرأيين هنا وقد نشرنا في ذلك الوقت أهم ما جاء في كتاب العلم والعلماء من فساد التعليم في الازهر وفساد علمائه وما يجب أن يكونوا عليه ، وضربه المثل العالي لهم بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وما قيل من سبب مخالفتة لذلك ومجاراته للشيوخ المعارضين للاصلاح ، فليراجعه من شاء في صفحة ٧٢ و ١١٠ من مجلد المنار الثامن

وانما نقول هنا ان التمهيد السياسي المشار اليه لم يثمر لسموه إلا عدم معارضة الانكباب والحكومة المصرية له في التبديل الذي يريده في الجامع الازهر باستقالة شيخه السيد علي البيلاوي والشيخ محمد عبده والشيخ عبدالكريم سلمان (رحمهم الله تعالى) وأما إفتاء الديار المصرية فقد صرح لورد كرومر بان الشيخ محمد عبده يظل مفتيا في مصر ما ظلت بريطانيا العظمى محتلة لها ، ونحصر انتصار الخديو في هذه المعركة بما ذكر من استقالة الشيوخ الثلاث بتأثير التمهيد الديني الذي علمه القراء ، ولكن هذا النصر كان صوريا لا حقيقيا ، بل هو شر انكسار الامير نفسه ، لأنه أضاع به ما كان يستقل به من الامور الدينية العامة حتى الازهر - وشر خيبته للشيخ الذين يسخرهم الامير لمقاصده كيف يشاء والازهر نفسه ، لأنه بني على حرمان الازهر من اصلاح وعلوم لا ارتقاء فيه بدونهما ، وحرمانه بذلك من تخرج القضاة الشرعيين حتى لا يكون للمتخرجين فيه نصيب من تنفيذ ما بقى الامة من أحكام الشريعة الاسلامية ؟ إذ لم ترض الحكومة به إلا بعد أن رضي الامير معها بانشاء مدرسة خاصة لتخرج القضاة الشرعيين وموظفي المحاكم الشرعية ، ولكن أكثر أولئك الشيوخ لم يكونوا يعقلون هذه الخيبة والكسرة ، وما عقلوها إلا بعد سنين كثيرة ، أجمعوا فيها على ان إنشاء مدرسة القضاء الشرعي انما كان قضاء على الازهر نفسه وبدلوا جهدهم لالغائها ، واعادة النظام الذي حاربوه وسموا لا بطلاله مسخرين مدللين

تمام التمهيد بشخص الشيخ الشرييني

كان الشيخ عبد الرحمن الشرييني رحمه الله من أشهر شيوخ الازهر في علومه ومن أشهرهم بالصلاح والزهد في الدنيا ومناصبها ، وأبعدهم عن التفكير فيما يرتقي به اهلها ، وقد عرضت عليه مشيخة الازهر مراراً فأعرض عنها وما قبلها ، ولكنهم في هذه المرة أقنعوه بأنه قد انحصر في شخصه إزالة الفساد الذي يسمى بالاصلاح ، وتوجيه تعليم الازهر الى ما يليق بعلماء الدين من التقوى والصلاح ، وكان أول من اظهر للمسلمين قبوله لذلك الشاعر الكاتب خليل مطران (السوري المسيحي) فتلقى من فمه حديثاً نشره في جريدته (الجوائب المصرية) رددت صداه الجرائد ،

وفي مقدمتها جريدة المؤيد التي كانت مذبذبة في هذه الحادثة ، لان الشيخ علي بوسفه كان يمتد وجوب إصلاح الازهر وأن الشيخ محمد عبده هو القادر على هذا الإصلاح دون غيره من العلماء وغيرهم ، ولكن سياسته كانت تقديم إرضاء الخديو على كل ما سواه إذا تعارض معه ، وكان قد أساء الظن بالاستاذ الامام في قضيته الزوجية كما تقدم فآثر الانتقام منه لنفسه أيضاً

وهذا نص الحديث

حديث الشيخ عبد الرحمن الشرييني

هذا نص مانشره خليل مطران في جريدته (الجوائب المصرية) في ٧ المحرم ونقله المؤيد عنها في صدر العدد الذي صدر منه في ٩ المحرم وعنوانه (حديث مع عظيم من علماء المسلمين) قل بعدوصه بحجة وقته وإمام عصره ... الخ

«ماذا يرى مولانا فيما قام ياتمه اليوم الشيخ الظواهري من الجباب الخديو؟»

الاستاذ : الظواهري انما نطق بلسان كل محب لخير الازهر عالم بالغرض الذي أسس له والخدمة التي أداها للدين ولا يزال يرجي منه أداؤها مادام فيه جدار قائم قلنا : وما ذلك الغرض وماتلك الخدمة يا مولاي ؟

الاستاذ : غرض الساف من تأسيس الازهر إقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لما الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم^١ وأما الخدمة التي قام بها الازهر للدين ولا يزال يؤديها له فهي حفظ الدين لاغير . وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له . وقد خرج منه

- (١) يعني مانشره المؤيد للشيخ محمد الاحمد الظواهري في خامس المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم) وتقدمت الاشارة اليه
- (٢) المعروف في التاريخ أن الجامع الازهر قد بناء جوهر قائد المعز العبيدي إمام الباطنية ومؤسس دولتهم في مصر ، وهؤلاء الباطنيون كما قال الغزالي : ظاهريهم الرفض ، وباطنيهم الكفر المحض . فالجامع الازهر وجامع الحاكم قد أسسا لنشر مذهبهم الظاهر وكفرهم الباطن لا لفقهم مذهب أهل السنة الاربعة كما قال الشيخ ، وان وافقه الاستاذ الامام في رده الاتي عليه جدلاً أو بناء على الظاهر

بحمد الله في كل زمان ومكان من أدى هذه الخدمة الشريفة حق أدائها فعلاؤه في مشارق الارض ومغاربها هم هداة الخواص ومرجع العوام في الكثير من أمور دينهم . قلنا : وهل حدث يا مولاي ما يقف للازهر في الخدمة المطلوبة منه ؟

فتبسم الاستاذ ثم قل : بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه ، ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفي نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية التي تبعث اليه بالطلبة المستفيدين ، ويبعث اليها بالعلماء المرشدين ، ولقد جاوزت خمسين حجة أطلب العلم وأخدمه بالازهر فلم أعلم ولا سمعت ان مقام الائمة الاربعة وضع في موضع الشكوك والريب الا في هذا الزمن الاخير حيث كثر بين أفراد الطلبة ممن نجح فيهم سعي المفسدين المتهمجين على مقام الائمة ، الطاعنين بكفاءتهم ، المنكرين علمهم عاليا مراتب الاجتهاد

« إني أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الازهر ، أو اصلاح الازهر ، والمكنتني لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح حتى الآن من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه ، وذهاب ما كان من مودة ورحمة ومهابة بين الطلبة وبين شايخهم الاجلاء ، حتى أصبح الائمة الذين كان يغضو في الازهر من مهابة لمكانتهم في العلم ، وجليل خدمتهم له ، وما يحملون من شريف شرع الله - عرضة للسخرية من بعض الطلبة المخدوعين الذين سمعوا بسببهم وفلسفته فهرقوا بما لم يعرفوا ، واشتغلوا بما يلهيهم من هذا وأمثاله ، عما وجدوا في الازهر من أجله ، وهو طلب علوم الدين لا غير » عرضت عليّ مشيخة الازهر مراراً فاعتذرت وتنصت لعلني أن العلماء في هذا المسجد أخوة في خدمة الله وشرعه ، فلا يليق بأحدهم وهو خادم الله والعلم أن تأخذه العزة بالرياسة والزعامة (١)

وقد رأيت الكثيرين من اخواني خدمة العلم في منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة . كانوا ينقطعون لخدمة العلم ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر ، وذكرهم العاطر

(١) الرياسة ضرورية للدين والدنيا وهي لا تستلزم أخذ العزة بالانم . ثم لماذا قباها الشيخ آخرأ بعد أن رفضها مراراً؟

قلنا مقاطمين : واليوم يامولاي

قال الاستاذ : اليوم نسمع بوجود أحزاب في الازهر ونرى الطلبة منقسمين
مشتغلين عن طلب العلم الشريف بالحديث أهل النفوذ والجاه والتأثير فيما يزعمون
مشغوفين بالفلسفة ، حتى ان من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم
الشريف الى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرأوها أو مجلة فلان ليتصفحوها (١)

ومثل هذا في تاريخ الازهر من قبل ما سمعت ولا رأيت

قلنا أياذن لنا الاستاذ في نشر هذا الحديث لعل في ذلك زاجراً لفريق

من الطلبة ومنهم بالحكومة الجناب العالي الى تلافي الخطب قبل تفاقمه ؟

قال الاستاذ : انشر ما شئت وقل ما شئت ، وأنت نظر الجناب العالي

والحكومة والناس الى أمر واحد جدير بالتأمل والاعتبار ، وهو ان الازهر انما

وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا ، فليتركوه كما هو حصننا للدين ، وذخرا

للمسلمين في اطراف البلاد . وإن أرادوا به اصلاحا فليكن الاصلاح منحصراً

في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وما سوى

ذلك من مبادئ الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتدخله الحكومة إن شاءت على

مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه اه بحروفه

وقد أثنى المؤيد على هذا الحديث وصرح بموافقة الاستاذ على كل ما قاله فيه

من هدم ما يسمى الاصلاح للدين - إلا ادخال العلوم الحديثة فانه لا يرى ضرراً منها

ولما نشر المؤيد هذا الحديث كتب الاستاذ الامام مقالا فند فيه كلامه كما

بما يعر تفصيلاً لكل ما كتب الشيوخ المسخرون لتلك الفتنة وأقام عليه وعابهم

الحجة التي لا تدفع ، فبيضت المقال ونشرته في المقطم في ١٣ المحرم (١٨ مارس)

وأبقيت الاصل عندي وهذا نصه :

(١) يظهر أن الشيخ رحمه الله لم يقرأ كتاب العلم والعلماء للشيخ الظواهري

الذي أيد رأيه في كتابه المفتوح للخدوي ذكر في كتاب العلم والعلماء أن الاطلاع

على الجرائد والمجلات من الضروريات للعلماء وذكر من أسماء هذه المجلات المقتطف

الفلسفي والهلالي التاريخي والمنار الديني

الازهر الشريف

والغرض منه اصلاح طرق التعليم فيه

(لاحد علماء الازهر الاعلام)

ما كنت لأخط سطرًا واحدًا في موضوع ما يكتبه بعض الناس في هذا الوقت . تعلقا بالازهر الشريف لولا ما نسب كلاما لاحد شيوخه بعد ما وصفه بأوصاف تعين شخصه ، ولولا ما جاء في ذلك الكلام مما يمس الازهر ويمس كثيرا من شيوخه .

لأتكلم فيما بعث الناس على ملاقة الشيخ ، ولا مادفع الناقل الى النقل عنه ، فذلك مما عرفه كل قاري . لأول الاطلاع عليه ، ولكن أقول بعض كلمات فيما نسب الى الشيخ دفعا للبس من الباطل قد يستر عين الحق عن يهيمهم أن يعرفوه لا تنكر على الاستاذ ما قاله في الغرض من انشاء الازهر فذلك غرض كل من يبني مسجداً لله في أي مكان وأي زمان ، لا يبني مسجداً إلا ليعبد الله فيه ويعلم فيه دينه ، ولا تنكر عليه ان الخدمة التي يلزم أن يؤديها الازهر هي تعليم الدين ولكن لم نفهم قوله « وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للازهر به » فان كان يريد ان التعليم في الازهر يجب أن يكون قاصراً على الفقه وأصوله والحديث ومصطلحه ، وعلم تقرير العقائد ، كما ورد به الكتاب والسنة ، وعلم آداب الدين والاخلاق المؤسسة على ما ورد منه . وأما ما عدا ذلك وان كان من مقدمات هذه العلوم السابق ذكرها فلا يصح أن يدرس في الازهر . إن كان يريد ذلك فكنت أكون أول موافق في رأيه لو كان التعليم في الازهر قاصراً على ذلك في القرون الماضية ، ولو كان حضرة الاستاذ نفسه لم يتعلم ولم يعلم في الازهر غير هذه العلوم . لكننا عرفنا الاستاذ يقرئ فنون البلاغة والنحو والمنطق وعلم الكلام على مافي علم الكلام من المذاهب الفلسفية وغيرها ، وعلى مافي مقدمات

الأدلة التي يأتي بها المتكلمون من التعرض لمعنى الوجود وهل هو ارض الممكنات أو عين الممكنات؟ والتعرض لاحكام الجواهر والاعراض مما لا يمكن فهمه إلا ببحث دقيق في حقائق الكون ، وقد ذكر لي بعض عشاق الاستاذ ان له براعة في علم الكلام والوقوف على مذاهب الناس في العقائد بما لم يساوه فيها غيره . وقال لي : انه يعرف من كتاب المواقف وشراحه ويقف على اسرارها ، ما لم يتفق لغيره أن يعرفه ويقف عليه . ولقد شاركنا الشيخ في أربعين سنة من الحسين التي ذكرها ولم نجد للاهتمام في الازهر وجهة الا تعليم فنون الوسائل من النحو والصرف والمعاني وغيرها مما ليس في علوم الدين وإن كان من مقدماتها ، واني أعرف للشيخ طريقة في تدريس تلك الفنون من أغرب الطرق ، فاذا قرأ شرح التلخيص في المعاني والبيان للسعد التفتازاني ألقى فيه بضع سنين يحقق معاني ألفاظه والروابط بين كلماته ، وقلده بعض الناس في ذلك حتى أصبح آباء الطلبة يثنون من طول الإقامة في الازهر الشريف دون أن يحلى الطالب منها بطائل ، والفضل في ذلك لمذهب الشيخ في التحقيق والتدقيق ، كأن كلام المؤلف قد أنزل من السماء على معصوم فلا يصح أن تقع فيه أداة إلا ولها من أسرار المعاني ما لا يعرفه إلا مثل الاستاذ من عليّة المحققين

أما كتاب الله فلا نعهد للشيخ فيه درساً يستوفي من التحقيق ما يستوفيه أحد شروح السعد على التلخيص ولا أخص الشيخ بذلك بل هذا كان شأن الازهر الذي وجدناه عليه ولا يزال الى الآن

كنت أوافق الشيخ على ما رآه إن صح أن يكون ذلك مراده لو سعى - حفظه الله - هو واخوانه من خدمة العلم في انشاء مدارس لتعليم الوسائل التي يرتقى بها الى فهم علوم الدين وبعد أن يستعد الطالب فيها لتلقي العلوم الدينية وينال الشهادة بذلك يأتي الى الازهر ويتعلم الدين خاصة

كل ذلك لم يكن فلم يبق إلا ان الشيخ أراد من علوم الدين ما يجمع مقاصده ووسائله حتى علم المنطق والكلام ، فاذا أراد الشيخ ذلك - ولا محيص له عن أن يريد - فإذا يقول في امام الحرمين والامام الرازي وغيرهما من أئمة مذهبه وفيما

جاءنا بالتواتر من كتبهم، وما احتوت عليه من البحث في حقائق الاكوان ليبينوا عليها الأدلة التي رأوا إقامتها لاثبات مكوّناتها؟ وفي العلماء الاجلاء الذين كانوا يقرؤونها في الجامع الازهر في كل زمان وقد يرفههم الشيخ كما نعرفهم؟ إن سمح الشيخ لنفسه باللوم على متقدم فانا لا نسمح لانفسنا بلوم أحد منهم على ما رأى من المصاحبة في ذلك - فإذا صح معنا ان أئمتنا سبقونا الى اضافة هذه العلوم - علوم البحث في حقائق الاكوان - الى علوم الدين لانهم عرفوا ان لا سبيل الى اقامة الأدلة الصحيحة على العقائد - التي شرط في العلم بها اليقين إلا بذلك البحث وقد شاركهم الاستاذ في العمل على تلك الطريقة - فما الذي ينكره الاستاذ من علوم سماها « علوم الأعصر » أو أمور سماها « أمور الدنيا » ؟

هل يعد الحساب من ذلك؟ وهو باب من أبواب الفقه في قسم من أهم أقسامه وهو علم الميراث أو علم الفرائض؟ هل يحسب من ذلك سيرة النبي ﷺ التي أمر كثير من المشايخ بتدريسها وهي قسم من الحديث؟ هل يدخل في ذلك علم الآداب الدينية والاخلاق التي تكتسب من الدين وهو الفقه الحقيقي ولا قوام لعلم من علوم الشريعة بدونه؟ هذه الفنون التي كانت تقرأ من قبل في الازهر لـكن لا على سبيل الالتزام فالزم بها الطلبة وأصبح كل واحد منهم يعرف انه لا ينال درجة العالمية إلا بتحصيلها، وما عدا ذلك فهو لا يزال على ما كان، فهل هذه الفنون هي التي يسميها الاستاذ مبادئ الفلسفة؟

ان من الغريب عندي أن يكون الاستاذ الذين يشيرون اليه قال هذا الكلام الذي نقل عنه ،

الأمر العالي الصادر بتنظيم الازهر موجود والاطلاع عليه سهل فهل منعت التقوى أهلها من أن يطلعوا عليه حتى يعرفوا ماهو الاصلاح الجديد؟

جاء في ذلك الامر العالي ما يوجب على العلماء والطلبة أن يصرفوا في المقاصد (وهي علوم الدين) أكثر زمنهم وانه لا يباح أن ينفق في تحصيل الوسائل ما يساوي زمن تحصيل المقاصد أو يزيد عليه ، فهل هذه هي الحركة الفلسفية التي أرادها الشيخ؟ ان الذين أرادوا الاصلاح لم يكن يهمهم إلا أن تكون وجهة

الطلبة والمشايخ هي تحصيل الدين والوقوف على أسرارہ والتخاق بأخلاقه .
والامر العالي الصادر في سنة ١٣١٤ وهو مايسمونه الاصلاح كان كافلا لذلك
لو كان حضرة الاستاذ واخوانه ممن ساعدوا على تنفيذه ، ولكن مثل هذا
الكلام الذي نشر في هذه الايام وأمثاله مما نشر في أوقات أخرى لمقاصد خاصة
بعد الذي حال دون الاصلاح ، وعاق طلابه عن الوصول الى مايقصده حضرة
الاستاذ من جعل التلميم دينيا ، ومن اشرب كل عمل من أعمال الطلبة والاساتذة
روح الدين ، فليهنأ الاستاذ ببقاء الازهر على ما هو عليه قبل الاصلاح وبعده إن
كان لم يبلغه ذلك أو بلغه ما يخالفه ممن لم يصدق الحديث

أما قول الاستاذ : ان في الطلبة من يحط من مقام الائمة وينكر عليهم
مراتب الاجتهاد فذلك مما لم أسمعه ولا اظن أحداً يعرفه إلا من بلغه ، غير أنا
نعرف أن كثيراً من الطلبة يختلف الى من لا دين له ممن يسمون بالمسلمين
وبخوضون معهم فيما لا يليق ، لا متعلقا بالائمة فقط ولكن قد يصعدون الى من هو
أعلى وأقدس ، وهو شي ، يشكي منه طلاب الاصلاح ويحاولون دفع ضرره بتعليم
الطلبة تاريخ سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين والائمة رضوان الله عليهم
أجمعين ، فان الذي يخدع الطالب ذلاقة لسان المنافق ، وجهل الطالب ونقص
علمه ، فتروج عنده الاباطيل بسهولة ، ولو علم حال من مضى من سلفه كان من
السهل عليه أن يهدي الضال لا أن يتبعه في ضلاله ، فهل يسمح الشيخ بتعليم
تاريخ السلف في الازهر حتى يعرف الطلبة من أحوال الائمة مايدفعون به المطان
فيهم ؟ وهل علم الاستاذ أحداً من هو الامام الشافعي ؟ وكيف حصل العلم ؟
وكيف عمل على نشره في الآفاق ؟ وكيف كان يعيش في بعد عن مشاغبات
الخاصة وغوغاء العامة ، مع الوقوف على أحوالهم ، وتقرير الاحكام بما يتفق مع
مصالحهم في شؤون دينهم ودنياهم ؟ فليطالعني حفظه الله على واحد أخذ عنه هذه
السيرة الجليلة سيرة الامام الشافعي محررة بما صح من الاخبار ، لا محشوة بما
لا يعقل من الاوهام ؟

أما الفوضى المنتشرة في ربوع الازهر كما يقول فاننا لم نفهم لها معنى ، لله

يعني ما حصل من المقاربة وعصيانهم أوامر المشيخة في هذه الايام ، لو أراد الشيخ أن يقف على حقيقة السبب فيها لصعب عليه أن يعرف أن ذلك من تآريث بعض اخوانه لسبب يسوءه أن يعرفه ، وهي حركة ضد الاصلاح لانشئة عنه يقول الشيخ: انه لا يعرف الا ما أضاع المحبة والرحمة بين الطلبة ومشايخهم ، متى كان هذا ؟ اما انتقاد الطلبة على أساتذتهم فقد كان معروفا مدة الاربعين سنة التي أقمتها في الازهر والعشرة التي سبقتي بها الشيخ بل قلما توجد مدرسة من مدارس العالم لا ينتقد الطلبة فيها أساتذتهم في بعض أعمالهم (واقوالهم) وأما وصول الانتقاد إلى حد الاهانة والتقاطع فذلك لم يكن الآن اللهم إلا ان يعني الشيخ ما وقع من أحد حذاق المحامين من الشدة في نقده لبعض كلامه (١) ولكن ذلك ليس من الطلبة الآن ، وان كان قد سبق له طلب مدة الخمسين سنة الماضية أظن ان مجلس الشيخ مطروق باوائك الذين ينقلون له مالا تعرف له حقيقة من أين جاء للشيخ لفظ سببسر وأي طالب نقل اليه هذا الاسم ؟ وأي مبدأ من مبادئ سببسر دخل في الازهر ؟ وماذا يعني الشيخ بهذا الاسم خاصة لو كان هو الذي ذكره ؟ سبحان الله ما كان أحق بالتقوى أن تنهى أهلها عن المزوالمه ان الذي يلمزه الشيخ بهذا الكلام طالما نادى في درسه بأن الذي أضر بالعقائد وباللغة ادخل الفلسفة في الاولى والحذو حذو أهلها في الثانية فهو وأن تعلم شيئا مما تعلمه لم يحصله إلا ليدفع الشر بالشر إذا لم تمكن وسائل الخير لم لم يقبل الشيخ مشيخة الازهر بعد حضرة الشيخ حسونه النواوي وقد ظهر له ان ما ادخله الشيخ حسونه كان شراً على الازهر ، وكانت مشيخة الاستاذ كافلة بآزالة ذلك الشر ؟ زهد في المشيخة حتى لا يعملو على بعض اخوانه كما يقول ، سبحان الله ! أما كان له أسوة في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر بن الخطاب في قبول الرياسة على اخوانهم ليحفظوا نظامهم ؟ هل هو أزهد منهما في الرياسة او أعلم منهما بما فيها ؟

(١) هذا المحامي هو السيد احمد الحسيني - رحمه الله - كان يحضر درس الشريفي في فقه الشافعية واعترض عليه وناقشه في بعض المسائل بما يهده تجهيلاً له

يمدح المشايخ الذين رأهم في خمسين سنة لا يشتغلون بالسياسة ؟ ومن الذي يشتغل بالسياسة الآن ؟ هل كان الشيخ حسونه يشتغل بها او الشيخ سليم من بعده أو حضرة الشيخ اليبلاوي اليوم ؟ وأي سياسة يعني الشيخ ؟ ان كان ما يريد منها سياسة الازهر وتنظيمه وتأسيس العمل فيه على قواعد يلزم السير عليها فالباديء بوضع هذا الاساس هو الشيخ العباسي رحمه الله ، ولقد هاج عليه الناس وفيهم كثير من اخوان الاستاذ لانه وضع قاعدة الامتحان على انه كان يفضى من مهابته كما يعرف الشيخ وأضرت نصائح المشايخ بكثير من الطلبة إذ حقروا لهم أمر الدخول في الامتحان حتى حرموا من نيل درجة العالمية وهم يندبون حظهم إلى اليوم . وقد كنت ممن خدع بتلك النصائح ولولا حادثة حدثت مادخلت في الامتحان ولذهبت متاعبي سدى

وان كان يريد للسياسة معنى آخر فما هو ومن هم المشتغلون به ؟ أظن ان الشيخ نفسه قد دخل في الاشتغال بالسياسة من حيث لا يشعر حيث سمح بنشر هذا الحديث أو لعله يشعر بأنه عمل سياسي لكن يستبجح منه لنفسه مالا يستبجحه غيره . نعم عهد لعلماء الازهر ولطلبته تبعاً لهم شغل بالسياسة قبل أن يدخل فيه ما يسمونه بالاصلاح . ذلك في أيام الفتنة العرابية ، فقد انقسم المشايخ الى قسمين أكثرهم مع عرابي ، وأقلهم مع الخديو السابق ، وكانوا يسمحون لعبد الله افندي نديم أن يدخل الازهر ويخطب فيهم بفتنة السياسة ، وكانوا يحيطون به وينادون : اللاتمة مرفوضة (يعني اللاتمة التي قدمها قناصل الدول بطلب نفى كبراء الضباط) كان هذا في مدة الخمسين سنة التي ذكرها الشيخ ، وأما ما كان في زمن الفرنسيين وأول مدة محمد علي فلا نتكلم فيه لانه مضى عليه أكثر من مئة سنة وصار أوائك المشايخ سلفاً رضي الله عنهم

ألم يكن الاجمل بحضرة الاستاذ في صلاحه وتقواه أن يبذل جهده أولاً في لقاء الذين يعينهم بكلامه ويبعث معهم فيما يعملون وما يقصدون ، فان رأى خيراً ساعد عليه وإن رأى شراً وعظ ونصح ، فان لم ينجح النصيح كان له الحق فيما ينشره في جرائد سيارة بحب كثير من الناظرين فيها أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا

اللهم ألهم الاستاذ واخوانه أن يقرأوا سورة الحجرات ، وأن يعظموا قول
 الله فيها ، فإذا جاءهم فاسق بنبأ تبينوا ولم يصيبوا قوماً بجهالة حتى لا يصبحوا نادمين
 أما مانشره بعض الناس في تلك الجرائد التي لأشك في منازعة ضماير أربابها
 لألسنتهم وأقلامهم من الكلام في الاتحاد ، او وجوه الاصلاح ، فهو مما لا يصح
 النظر فيه بل هو مما يمر به العقلاء كراما . سامح الله هؤلاء المخاطرين بشرف
 الازهر وأهله الطالبين للاحاق أشد المضرات به ، ونظر الله جل شأنه بعنايته إلى
 هذا المسجد الشريف وقبض له من يتغلب على هذه المصاعب كلها حتى يصبح
 مؤديا للوظيفة التي تطلب منه ويتمناها الشيخ الفاضل
 وإذا كان أصحاب الجرائد التي نقلت كلام الشيخ احراراً فلينقلوا هذا كما
 نقل ذاك بعضهم عن بعض تأدية للأفكار الى قرائهم اهـ

استدراك على مقالة الرد على الشيخ الشريبي

في اشتغال علماء الازهر بالسياسة

تم نشر المقطع في ١٥ المحرم (٢١ مارس) مقالة عنوانها (علماء الازهر
 والسياسة ، او السياسة والازهر) بامضاء (مؤرخ) استدرك فيها على المقالة السابقة
 بان علماء الازهر قد ثبت عنهم الاشتغال بالسياسة الداخلية للحكومة في مدة
 السنين الخمسين التي نفي الشيخ العظيم نفي اشتغالهم بالسياسة فيها ، وذلك « عند
 ما أرادهم رب السياسة (الخديو) عليها ، ولم ينبج من شرها إلا الشيخ العباسي
 مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر يومئذ »

وذكر الكاتب حادثة محاولة اسماعيل باشا اسقاط وزارة نوبار باشا ونجاحه في ذلك
 وان تلك الوزارة كانت تسعى لتخفيض ربا ديون الحكومة المصرية من سبعة في المائة
 إلى اربعة فرأى الخديو ان هذا التخفيض لا يليق بالحكومة ولا بالامة المصرية الشريفة
 فأمر بوضع لائحة سميت (اللائحة الوطنية) كان من أحكامها أن تضمن الامة المصرية
 سداد الديون ورباها الفاحش . واستعان على ذلك بعلماء الازهر فوقم اللائحة أكثر
 من يعرف له اسم من العلماء ومشايخ الطريق ووجوه الامة وأعضاء مجلس نوابها

وبعد أن وضعوا أختامهم بعث بها إلى المرحوم الشيخ العباسي لامضائها وختمها فتعال بالمرض و كان في حلوان فلم يأذن للرسول بمقابلته... وما زال الخديو يلح عليه في وضع اسمه على اللائحة حتى كتب عليها هذه العبارة « اوافق على المشروع من هذه اللائحة » يريد بالمشروع ما وافق الشرع دون ماخالفه من دفع الربا على النحو الذي طلبه الخديو . فاكتفى الخديو بذلك لان الذي كان يهمه ان يوجد اسم المفتي وشيخ الازهر على اللائحة
ثم قال الكاتب:

« ولعل الشيخ لا يسمي ما كان من أولئك العلماء دخولا في السياسة لانه يشترط في الدخول المذموم أن لا يكون وسيلة للحاكم في الوصول الى رغبته: ولذلك برأ الازهر وعلماءه من الدخول في السياسة في تلك المدة
« واذا صح هذا يكون قضاء على العلماء بان يكونوا آلات في إيصال السياسيين إلى حظوظهم ورغائبهم بلا حرج عليهم ولا لأئمة تتوجه اليهم، سواء وافقت السياسة الشرع أم خالفته، وحصر السياسة في نقطة واحدة وهي أن يققه العالم معنى السياسة ويكون بصيراً بتصرفها، ولو لیتی شرها، ويأمن مكرها، ولكن السادة المالكية جعلوا هذا المعنى تعريفاً للفقهاء إذ قال فيه أحد أئمتهم « الفقيه هو المقبل على شأنه، البصير بأهل زمانه » اهـ ملخصاً

وأقول الآن ان سر الاستاذ الامام رحمه الله هو الذي اشار بكتابة هذا الاستطراك على المقال الاول

وجملة القول ان هذه التمهيدات السياسية والدينية قد انتهت بما تقدم من استقالة السيد البلاوي وتولية الشيخ الشرييني مشيخة الازهر كما تقدم . فكان هذا الشيخ الزاهد كغيره آلة لسياسة الخديو الضارة بالازهر وبالدين، ثم لم يكن موفقا في مشيخته لشيء من خدمة الدين، ولا راضيا ولا مرضيا من العلماء ولا السياسيين. ونذكر الآن ملخص خطبة سمو الخديو في حفلة إلباس الخلعة للشيخ الشرييني وبعض ما كان لها ولترك الاستاذ الامام لادارة الازهر من سوء التأثير في العالم الاسلامي

ملخص خطبة الخديو بقصر عابدين

﴿ في حفلة الانعام بالخلافة على الشيخ عبدالرحمن الشرياني ﴾

شيخ الازهر في ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣

قل سموه بعد مقدمة :

« ان الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية .
تشر علوم الدين الحنفي في مصر وجميع الاقطار الاسلامية . يأتيه المسلمون من
كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الفراء ، ولينفعوا قومهم ،
ويرشدوهم للدين الصحيح متى رجعوا اليهم

« واقدم كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهرين دائماً ، ولكن
من الاسف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات
بالدين ، ويكثرون من أسباب اقلل .

(وهنا ذكر حادثة رواق المربعة التي تقدم ذكرها في ص ٩١ ، وأشار إلى
ما سبقها من حادثة رواق الشوام وهما من حوادث الشغب الذي أحدثه وشكاه منه ثم قل) ،
« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف ،
والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتقّي العلوم الدينية النافعة البعيدة
عن زيف المقائد وشغب الافكار لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء

« إن كل ما بهم الحكومة من الازهر شيئان . الاول استتباب الامن فيه وهو
ما أوصي به دائماً . والثاني تخرج القضاة الشرعيين ، وهو ما سينشأ له مدرسة
مستقلة يقصدها كل من يتحصل على شهادة العالمية في الازهر ، ويريد التوظيف في
القضاء . وستشتغل الحكومة بابراز هذا المشروع من القوة للفعل قريباً

« وانني أول من يقدر السيد علي البيلوي شيخ الجامع الازهر السابق
حق قدره ، ويعرف فضله وتقواه ، وبحترمه مزيد الاحترام ، ولكنه رعاية
لصحته رأى أن يستقيل من وظيفته ، وقد جريت منذ اثنتي عشرة سنة على هذا

القاعدة ، وهي أن أقبل استقالة كل من يستقيلني من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالته ، ومن يستقيلني من وظيفته سواء فانا مستعد أن أقبل منه جريا على العادة التي اتبعتها في ذلك . والآن قد اسندت وظيفة مشيخة الازهر للاستاذ الشيخ الشريفي المعترف له من جميع الطبقات - ازهريين وغيرهم - بالعلم والتقوى والصلاح . وانا مستعد أن أساعده بكل ما في وسعي لتأييد كلمة العلم والدين في الازهر . وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب ، وأن تحثوا اخوانكم والطلبة على ذلك . ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والالوهام أو الايهام بالاقتوال أو بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الازهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى أن يرجع إلى بلده ويبت فيها ما يريد من الاقتوال والآراء المغايرة للدين ، ولمصلحة الازهر والازهرين » اه بنصه الرسمي المنيف الذي نشره المؤيد

يرى قاري خطبة الامير انه يتكلم بلسان الفاتح الظافر ، والملك المستبد القاهر ، كأنه لا يدري ولا يشعر بأنه هو المغلوب المقهور الخاسر ، وان الازهر نفسه هو الذي خسره نهائياً في هذه المعركة ، فان أمر الازهر كان من خصائصه التي لا تتعرض له فيها الحكومة ولا سلطة الاحتلال ، فأصبح لا يملك الاستقلال فيه بشيء ، وقصارى سلطته أن يتقبل استقالة من يستقيل منه ، وأي شيء هذا ؟ وأما قوله (ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده) الخ فهو يعني به هذا العاجز صاحب المنار - كما صرحت بذلك جريدة اللواء - لانه كان أخلص نصير للاستاذ الامام في كل ما كاد به الامير له ولا سيما مسألة الازهر ووسائلها ، وقد أشار بهذه العبارة إلى ما كان ينويه من اخراجي من مصر منفياً بعد أخذ كتابه من شيخ الازهر بان ما أكتبه في المنار مخالف للعلم والدين ، او اعتداء على علمائه العاملين . وقد بلغ هذا الكيد يومئذ كبار الحكومة وتحدث به مصطفى باشا فهمي رئيس النظار مع الاستاذ الامام فقال انه يريد نفي السيد رشيد رضا من مصر واكن من ينفذه . وسأذكر في مقام آخر بعض ما كان من سموه في شأني وأوله التفريق بيني وبين الاستاذ الامام ، ومنه السعي لاجراحي من هذه البلاد

وأكتفي هنا بذكر بعض ما كتبه في المنار عقب هذا العبث والتغيير في الازهر من بيان ما بني عليه ، ثم أنشر بعده فصلاً فيما كان من تأثير استقالة الاستاذ الامام من ادارة الازهر . وهذا نص ما نشرته في ص ٧٧ من المجلد الثامن

﴿ غرض الحكومة الخديوية من الازهر ﴾

قد شاع وذاع أن سمو الامير اتفق مع حكومته على ان كل ما بهم الحكومة من الازهر شيئاً (الاول) أن يكون أهله في أمان (والثاني) لتخرج القضاة الشرعيين . ولما كان التعليم في الازهر غير كاف لتخرج القضاة الذين تصلح بهم حال المحاكم ، وينفذ حكم الشريعة عازمت الحكومة الخديوية على انشاء مدرسة خاصة لتخرج القضاة يكون تلامذتها من طلبة الجامع الازهر ، ولم يكن أحديصدق هذه الاشاعة لولا أن المؤيد ذكر أن الامير قال ذلك في كلامه الذي خاطب به مشايخ الازهر في حفلة لباس الخلعة للشيخ الشريفي ووافق المقطم في معناه (١) وأسنده إلى أولياء الامور وقد كثرت التساؤل بين الناس عن سبب استقالة الشيخ محمد عبده من ادارة الازهر على عنايته العظيمة بخدمة الازهر وحرصه على تخرج رجال فيه يقدرون على خدمة الشرع وتأييد الدين . وكان ينبغي أن يكون أول سبب يخطر في البال ، بعد الاطلاع على تلك الاقوال ، هو بلوغ الشغب في هذه المدرسة غايته ومثله من رجال الجدل لم يخلق للعب بالشغب ، بدون فائدة تكفي ، إنفاق الوقت في التعب . ثم اكتفاؤه بعناية أولياء الامور بتربية جماعة من طلبة الازهر في مدرسة خاصة ليتخرج منهم أساتذة وقضاة وهو شيء مما كان يميل اليه ، وقد تيسر الوصول اليه ، ويقول المقطم ان الحكومة ستنوط بالشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أمر هذه المدرسة فان صح ذلك فحسبه تربية البعض من الكل ، على أن تركه لادارة الازهر ليس ترك الازهر كله ، فإنه شيخ رواق الحنفية وهو أكثر الاروقة طلاباً فهو يبت فيهم النظام ويرشدهم الى روح العلم والدين وهذا بعض آخر من كل و « كل ميسر لما خلق له »

(١) غبت بقولي في معناه أن المقطم لم يوافق المؤيد على أن تلك الخطبة هي نص ما نطق به الخديوي بل نازعه في ذلك مؤيداً نزاعه بشهادة من كان حاضراً للحفلة وسمع الخطبة بأذنه .

تأثير ترك الاستاذ الامام الازهر في المسلمين

نشرنا في (ص ٢٣٧) من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان مانصه :

لقد اضطربت قلوب عقلاء المسلمين ووجعت نفوسهم لهذا النبأ في كل قطر، فقد جاءتنا الكتب والرسائل في ذلك من السودان وسورية ومن بلاد المغرب والمشرق ما بين شاكية وباكية، منها ما يعرف مرسلوها عذر الامام، ويرون أن لا عتب عليه ولا ملام، لو قوفهم على حقيقة أحوال هذه البلاد، فرأيهم في ذلك كراي اكثر العقلاء في مصر الذين استشار الامام بعضهم فأشاروا بوجوب تركه (١) ومنها ما يتضمن اللوم لاعتقاد أصحابها أن الاستاذ الامام قد يش من إصلاح المسلمين، فترك خدمة الملة ملالاً من مقاومة الجامدين، أو علماً بأنهم غير مستعدين، وقد آلمهم ذلك لأنهم يعتقدون أنه اكبر زعيم للإسلام في هذا العصر وأقوى نصير له في علمائه، ويشعرون بأنهم يستمدون منه الهمة والغيرة والرأي الصحيح على بعد الديار، وتناثي الاقطار، ولا أنكر انني أعرف من أذكاء المسلمين الاقربين داراً بل من المصريين انفسهم من سرى اليه شيء من هذا الوم وقد آلمني وسيؤلم كل ذي غيرة وشعور قول (النواب محسن المالك) ان اليأس والقنوط قد تمثل لأهل النهضة الاسلامية في الهند، وشعروا بأن قد طفىء نور الاصلاح المنبعث من هذا الامام، فوقعوا في حنادس الظلام - يحزننا ويمضنا هذا القول من قوم نعتقد أن نهضتهم أعلى من نهضتنا، وهمتهم أعلى من همتنا، والامل فيهم أقوى من الامل فينا، ولا نفضلهم الا بهذا الرجل وباتقان اللغة العربية، لاننا نراهم يرجوننا اكثر مما يرجون أنفسهم، كما انه يسرنا شعورهم بارتباطهم بنا، ولا يأس منا ولا منهم إن شاء الله

ان من أغرب ما كتب اليينا في هذه الحادثة نبذة لا حد الفضلاء في قس وهي :

(١) من هؤلاء جل تلاميذه ومريديه من كبار رجال الحكومة كسعد زغلول وفنحي زغلول وقاسم امين ومحمد راسم الخ

«قد ساءنا وإيم الله ما بلغنا من استقالة حضرة جناب الاستاذ الامام، وعالم علماء الاسلام، فريد هذا العصر، وغرة جبين الدهر، ذروة جهابذة الآفاق، ونخبة كبراء المصلحين بالاتفاق، مولانا وسيدنا الشيخ محمد عبده أدام الله بقاءه مرشدا للعالمين - من عضوية إدارة مجلس الازهر الشريف الذي كان متعنا الله بوجوده مجتهداً في إصلاحه، كما ساءتنا تلك الخطبة... ولكن (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقد كدر ورود هذا الخبر جميع محبيكم ومحبي الاستاذ الامام لعلمنا بأنكم من المجددين في إصلاح الامة الاسلامية. الخ

وإنما كان هذا غريباً لأن تلك البلاد أبعد بلاد المسلمين عن التفكير في الإصلاح أو الشعور بالحاجة إليه، ولكن هذه الافكار قد سرت في كثير من أهلها من بعض المهاجرين اليهم من المسلمين، ومن قراءة بعض الصحف كالمنازل. وقد ختم هذا الكاتب كلامه بقوله: وأدام الله بقاءكم رغباً عن أنف الجاهلين والمستبدين، والمفسدين والمقلدين اه

تأثير الاستقالة في الهند

ذكرت نبذة من كتاب عالم فاضل في المغرب الاسلامي الأقصى في سوء تأثير هذه الحادثة حذفت كلمات الطعن منها، وأكثر ما كتب إلي في ذلك يتضمن طعناً شديداً في الخديو لم يكن نشره ممكناً - واقفى عليه بما كان من تأثيره في أرقى الشرق الاسلامي

كتب إلي زعيم مسلمي الهند وعميد نهضتهم الاسلامية الاكبر، العلامة الكاتب الاشهر، النواب محسن الملك عميد المدرسة الكلية الاسلامية في عليكره ورئيس الشرف لادارتها كتاباً طويلاً أثني فيها علي وعلى جهاد المنار في سبيل الإصلاح الاسلامي، ثم قال في هذه المسألة مانصه نقلاً عن ص ٢٣٣ م ٨ «وقد أدهشنا خبر هائل وصل إلينا من الجامع الازهر وأوحشنا وأقلق جل

أصحابنا والامة، وأراق الدماء من الجفون والمقل، وكادت القلوب لها ان تنهبل^(١) وقد انصدعت له الصدور، وتصدعت لها المهج في شلو كل مصدور، وذلك ماشاع عن هذا الفيلسوف السرسور والحلاحل الوقور^(٢)، والنبراس في ظلمات الديجور، من رفض ما كان اليه من نظارة الجامع المذكور، أسفا على ما تجرب من جفاء اهل عصره، ولا سيما علماء مصره، ومساعدة الحضرة الخديوية للعلماء، وقضاها بخلاف ما كان يرجى من تلك الحضرة الفراء، لما كان أيده الله تعالى يريد من إشاعة العلوم الحديثة، وإذاعة المعارف والحكم الجديدة، زيادة على ما كان يجري فيه من دروس العلوم الشرعية والمسائل الفرعية. ولما لم يصغ احد الى رأيه ومقالته، ولم يكثرث رجل الى ما كان فيه من محض نصاحته، تمثل لنا عند ذلك الياس، وتجدد لنا شبح القنوط والابلاس^(٣) لخود هذا النبراس، فقد كنا نظن قبل ذلك أن سوف يرحل به عنا ايل المحن، ويقام عنا داس الفتن، وتقوض عنا خيام البلاء، وتعطف عنا سهام الضراء، ويتنفس علينا صبح الاقبال، ويطلع على وجهنا فجر الآمال من اجل ذلك البارع الحكيم المفضل، وكنا نظن انه قد توقد في الاسلام صباح يستوقد منه آلاف الوف من المصابيح، ومفتاح يفتح به مغالق أبواب الفرج والتراويج، ولكن قد تبين الآن أننا لم نبرح عرضة للبلاء، ودورية لرماح الضراء، وجزراً لسيوف البأساء، ما زالت هذه الخضراء تدور على الغبراء. وما أشبه حال هذا الحكيم الرزين، في المصريين، بحال السيد احمد الذي أعثرناك على حاله في الهنديين، فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة، فإنا لله وإنا اليه راجعون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

ولما وصلت جريدة المؤيد إلى الهند ورأوا فيها خبر الانقلاب وخطبة الخديو كتبوا في ذلك مقالات شديدة في الإنكار على سموه، لم نعر بترجمة شيء منها في ذلك الوقت لتعذر نشره ونكتفي منه بما نشر في جريدة (الرياض) التي كانت

(١) يقال نهبل لهيبه واهتبل اذا اكتسب. ولعل الكلمة في الاصل تهبل من هبل ولده واهتبله اذا ثكله (٢) السرسور بالفم الفطن العالم الدخال في الامور. والحلاحل السيد في عشيرته الشجاع الركين في مجلسه (٣) الابلاس هو النعم من اليأس والحيرة

تنشر باللغتين العربية والاوردية في عليكره وكنا جنظناها لاعتدالها ، وهذا نصه
من العدد الذي صدر في ١٠ صفر سنة ١٣٢٣

(خطبة الجناب العالي الخديوي واصلاح الازهر)

ألقى الجناب العالي الخديو خطبة أنيقة على جمع حافل من العلماء والفضلاء
والمشايخ عند استقبال حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد الرحمن الشريبي
شيخ الجامع الازهر الجديد صرح فيها بآرائه وأفكاره السامية في مسألة الاصلاح
الازهرية فقال حفظه الله :

« إن الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية
تنشر علوم الدين الحنفي في جميع الاقطار الاسلامية يأتيه المسلمون من كل جهة
ليأخذوا أمور دينهم ويكونوا علماء بالشريعة الغراء ، ولينفعوا قومهم ويرشدوهم
للدن الصحيح متى رجعوا اليهم »

والكن الافادة والارشاد يتوقفان على أن تكون علومهم ومعارفهم أعلى وأرقى
من معارف قومهم سواء كان معارف الاديان ، أو معارف الاكوان .
« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف
والشعب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة
عن زخ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء »

(وقال حفظه الله في ختام الخطبة)

« وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب وتحشوا إخوانكم على
تأييد كلمة العلم والدين ومن كان يحاول الشغب بالوساوس والاهام أو الابهام بالاقوال
أو بواسطة الجرائد والخذ والرد فيها فليكن بعيداً عنه ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء
فأولى له أن يرجع الى بلده ويبحث فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغايرة
للدن ، ولمصلحة الازهر والازهرين »

بعد إيراد تلك الكلمات من الخطبة الملوكية لا يسعنا إلا ان نقول بأسف
زائد : ان حركة الاصلاح قد قضى عليها ، وان هذه المدرسة العظيمة تبقى على

تقاليد قديمة، وأوضاع عتيقة، وطرق غير نافعة، وجود ووجود وهبوط، يبقى مستقبل التعليم الديني مظلماً الى ما شاء الله تعالى . فليسكت المنار وليرجع الشيخ الظواهري عن الآراء والاقتراحات التي نشرها في كتاب العلم والعلماء والكتاب المفتوح فقط اهـ
ثم نشر في العدد الرابع الذي صدر من هذه الجريدة في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٣ المقال الآتي :-

عجب واسف على قضية الخريو في الجامع الازهر

لحضرة الفاضل العلامة النواب محسن النظام الاعزازي اعليكم كالج
قد استحرننا وتضجرنا ونحسرننا وتخيرنا من النطق الفاضل والحكم الفيصل،
الذي قضى به سمو الخديو المصري على جامع الازهر، من جهة ما هو عليه من
مكانته في العلم بالمعارف، الجديدة والخبرة الواسعة المنتسبة بالعلوم الحديثة، وما كان
بمرأى منه من الترقيات الحالية في أرض اروبا، وعلى معرفة تامة بما يستتبع التعليم
النافع من الآثار الجيدة، والنتائج الحسنة، والفوائد المستحسنة، فليت شعري
كيف بدا له أن يقضي بمثل هذه القضية؟ أم كيف عن له أن يحكم بمثل هذا
الحكم الذي تنسد به ذرائع الارتقاء والصعود على وجوه المسفين، وانه بنفسه
لينظر إلى باقي الجامع الازهر من ضياع النفقات الكثيرة وضيمه الاموال المنفسة
القيمة التي تنفق فيها، وهو بعد على خبرة تامة بحال الطلبة الخارجين عن هذا
الجامع، والذين يتحللون من نصاب دروسهم منه لا يكونون إلا صاعاليك وسائلين
وفي الرقاب، وهم مع ذلك من أرباب الجهل البحت، وأصحاب التعصب الذميم
المحض، وليس للجامع الازهر حظ من التعاليم الدينية الاصلية الحقيقية النافعة،
ولا يوجد فيه ضرب من الدروس التي تنفع الناس، نظراً إلى ارتقائهم في معارج
الفضائل الخلقية، والمدارج الدنيوية، ومع كل ذلك فان السعادة الخديوية قضت
على الجامع الازهر أن تدوم له تلك الحال التي كان عليها إلى الآن في النهج القديم
الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يقصد فيه إصلاح حال، ولا يرام منه
وعاية لجانب انواقب والمآل

وأعظم من ذلك أن الحضرة الخديوية لم تقنع بمجرد هذا الامر، ولا بمحض هذا الحكم، بل أخذت تنبز بالالقباب من أراد منهم الاصلاح في أحوال الجامع، وزاد الخديو على ذلك بان وعدهم بالاجلاء عن حوزة ملكه، وهددهم بالنفي عن حومة دولته، وأجبر أمثال المقتي محمد عبده الذي من حق العالم الاسلامي أن يفتخر بوجوده، ويختال مرحا بكونه وشخصه، لعلو كعبه في العلوم، وسعة معرفته وخدمته للمعارف، ودراسته وصفاء سريرته، وتوقد قريحته، وجلاء قلبه ووحدة ذهنه، أنجاه سمو الخديوي إلى الاستقالة وترك العضوية والنظارة، والذي ظهر لنا ان الخديو لا يريد بذلك إلا تطيب نفوس العوام، وإرضاء شيوخ الازهر الاعلام، وتنشيط قلوب هؤلاء الكرام، الذين لا يعرفون من العلم إلا الدارس، ومن الدرس إلا الخلق البالي، كما يحسبهم الجاهلون أنهم هم المسلمون حقاً، وأهل الديانة صدقاً، ويكون محلهم في أعين الخلق محل حماة الاسلام، وسوقهم موقع الدابيين عن حمى شريعة خير الانام

(وهنا استغرب عدم تدخل لورد كرومر في هذه المسألة، وعلمه بما عن له. ثم قل) فأما اذا كان الامر كما وصفناه فهل يرتجى من أهل مصر أن يرجوا بشيء في معارج الارتقاء، بعد ذلك القضاء المقلق، والحكم الموبق، الذي تصدعت له قلوب الخازمين من أهل الاسلام كافتهم؟ وهل يرتجى لهم بعد تلك الحادثة الهائلة أن يتمكنوا من الصلوحية للارتقاء في العلم والحكمة، بعد ولوعهم في مثل تلك الدروس الخاوية، وعكوفهم على تلك التعاليم الخلقية البالية، في الجامع الازهر؟ وهل في الوجود أحد أعرف بذاك من سمو الخديوي؟ الخديوي يعرف ان المسلمين الذين يتعلمون في الجامع الازهر في تلك الهيئة الرثة الخلقية، لا يزالون ينحدرون بها في غيابة الجهل والظلمة، ومنتهى غاية الذل والمسكنة، ولا يقدر على شيء غير التقمص بقمص التعصب والجهالة، والارتزاق والاستيكال في وجوه الذلة والمهانة، ومن الآن لا يولد في أرض مصر رجل يكون لهوى في الوطن، ووله في ارتقاء القوم، وحرية في العزم والرأي، وان يخلق في هذه الارض نسمة يكون من شأنها ادعاء الصلوحية، ودعوى القابلية للامور الحكيمة،

والملكية لنفسها ، وقد تبين ذلك عند أهل مصر وهم قد افتموا من هذا الحكم الهائل ان سمو الخديو قد آثر رضا الشيوخ ومشايخ الازهر على فلاح القوم وصلاحهم ، وقرب على ذلك بمثل لهذا القربان والله المستعان على ذلك وفي كل فازلة ولو ان أهل مصر كانوا يتوقعون من المستر دنلوب بعد قنوطهم وإياسهم من جامع الازهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع في أرض مصر ، ويكون فيها نشر التعاليم العالية واشاعة النصاب الاعلى في العلوم والحكم ، لكان في ذلك بمض تمزية عما قد فاتهم من ذلك في الجامع الازهر ، ولكن الذي ظهر لنا انهم لا يتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا كما قد ينسوا من ذلك الجانب ، وعسى أن ينكشف لديهم ان أعضاء الدولة والذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لا يرضون بأن يتاح لهم من التعاليم ما تستنير به قلوبهم ، وتستضيء به أدمغتهم ، ويظلمون به على حقوقهم المالية والسياسية ، ويمزمون به على طلبها ، والاجتهاد والجد في تحصيلها ، واحراز الفائت منها .

فأما الدولة الانكليزية فقد أخذت أزمة الحكومة المصرية وأعنتها في يدها لمحض النصح التام لكافة أهلها ، وأن لا تألوا جهداً في تحسين صورتها وتجويد حالها ومنظرها ، ولكننا نسلم ذلك الى الوقت الذي ليس لأهل مصر اطلاع على أحوال السياسة ، وإلمام وممارسة بفنون التمدن ، وما فيه قوام الدولة وقيامها ، أو هم ذاهلون عن اكتساب العلوم النافعة التي امتلكت بها أرض أوربا سائر البلاد ، وذلت لنفسها كل صواب الامصار والاقطار . ومعلوم ان هذه الذلة والهوان ، وان ذاك النعاس والنسيان ، وهذا الحرمان والخذلان ، وغيرها من المعايير التي توجد في أهل مصر من أجل تلك التعاليم الدارسة البالية في الجامع ، أصلها من هؤلاء الأبرار من أهل العلم والمشيخة المقدسين ، وهم السبب الاصيل والعلّة انتامة لهذه الحل المتهنة ، وانما يكفي من تعليم الدين محض اسمه لأجل ارضاء المسلمين ، ونفريج خواطر العامة الجاهلين .

فأما نحن فقد أحطنا خبراً من الجرائد المصرية ان أهل مصر وان كانوا قد أحسوا بما فيه ملكهم ودولتهم من الارتقاء والاصططاد من أجل النظام الحاضر

البريطاني واخضرا رعود المملكة به واستقامة عمودها لاجله ، وهم عارفون بفضل الحرية التي اكتسبوها ولم يرزقوها من قبل - فهم بعد غير راضين بنهج التعليم الذي وضعه لهم المستر دنلوب رئيس ادارة التعليم وأسس له وأنفذه بينهم في أرض مصر ، وبحسبون ان هذه الطريق لا تأذن لهم بشي من الارتقاء والصعود . وهم لا يكتفون ذلك ولا يسرون رأيهم هذا ، بل يجاهرون به ويتصارخون في الجرائد المصرية ، ولكن لو أمكن في الوجود سبيل الى اصلاح الجامع الازهر وتسبل اليه اشاعة العلوم النافعة ، أو وقع رأي مثل المقتي محمد عبده وغيره ممن يبتغي الاصلاح في موقع القبول ، لكفت هذه الكلية وحدها لاصلاح المصريين ، وتخرج من هذه الكلية الباهرة متعلمون كانت أرض مصر تصير كمثل أوربا باجتهادهم في نشر التعاليم العالية وإحسان التربية لبني أوطانهم ممن يتعلم فيها . أوليس انه لو أصلح حال كلية مثل الجامع الازهر الذي يتعلم فيه عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف نفس ، ونشرت فيه العلوم الحديثة على مناهج كليات أوربا ، وأتيحت لهم الدروس الدينية مع العلوم العقلية ، وكان هناك نظم جيدة لتربية الرجال المتعلمين فيه - أفلا يتخرج منه في كل سنة مائة نفس يحامون عن الاسلام والمدنية ، وتستنير قلوبهم وأدمغتهم بأنوار العلوم الحقيقية ، ويمحون بذلك عن المسلمين نسبة الجهالة ، ورسام فقد القابلية للارتقاء والتهضة ؟

الحق ان الحكم الذي قضى به سمو الخديو إنما هو غضب من الله وعذابه حل على أهل مصر ، وقد تمثل وتصور في هيئة هذا الحكم الهائل الخديوي ، وللمصريين أن يقنطوا من الآن ويئسوا منذ الساعة من ارتقائهم في معارج الصعود ، وقيموا المآثم بالبكاء والعويل على ما فاتهم من تعليم العلوم النافعة والفنون المفيدة لهم . ولشيوخ الازهر وأساتذتها أن يتعبدوا بمثل هذا العيد العظيم ، وأن يبارك كل واحد منهم الآخر ويهنئه على انه من الآن لن يتطرق الخلل الى ملاذ هؤلاء المعتمدين ومنافعهم المزخرفة ومعايشهم الدينية والدنيوية ، وان كان يستتبع ذلك هلاك قومهم ، وطفل اخوانهم وتاف أبناء أوطانهم .

نم إن علماء الازهر قد وصفوا هذه العلوم الجديدة بأنها مطفئة لنور الاسلام

وإن الخديوي بنفسه وصف العلوم التي تتلقى الآن في الجامع الأزهر فقال أنها تبعد الرجل عن عقائده الدينية ، وتحول بينه وبين تركها ، والانصراف عنها ، وقد عبر عن أشاعة العلوم الجديدة الشائعة في تلك السنين والأعوام ، وادخالها في نصاب التعليم بالوساوس والأوعام ، ووصف الذين يبتغون الإصلاح ، ويسعون من أجل تلك الأمصار والبلاد ، بأهل الشر والفساد ، وهذه الأقوال والكلمات وإن هي انحلت في مذاق القوم ومطعمهم ، وزاقهم زخرفها وزبرجها لما يحسبون فيها من أحياء رميم الدين ، وأعلام كلمة الشرع المتين ، فإنه بعد قد تبين للعاقل أن من الحق غير ما ارتآه هؤلاء ، وخلاف ما زعمه وذهب إليه أولئك الناس ، وإن قولهم ضد ما يقوله الإسلام بنفسه ، أو رآه سلفنا الصالحون به من قبل ، فهؤلاء كأنهم قد صرحوا بخطاباتهم وكلماتهم تلك أن الإسلام أشد مبغض وأمر قائل المدنية ، والارتقاء للعلوم الطبيعية ، مباغض لها ولمدلوها أي مباغض ، ومعاد لها ولمنطوقها أي عدا ، وكان المسلمون في رأي هؤلاء بمعزل عن الاستعداد والقابلية في الارتقاء والاصطدام ، فقد طعن هؤلاء في الإسلام طعنة ماطعنه بها أشد المبغضين له ، ولا رماه بها أعظم المعادين معه ، وقد عادى هؤلاء إخوانهم معاداة لا يستطيع أن يزيد عليها أكبر أعاديهم ، ولا يستزيد لها أعظم مبغضيه

وإنما يزيدك عجباً إلى عجب أن سمو الخديوي أعلى علم باستقراره على عرش الملوك الذين سبقوه وتسلطوا في أرض مصر ، وكانوا ممن أشاعوا العلم والحكمة لا في ملكهم خاصة بل في سائر البلاد والأقوام ، وأست بخبير بما صنعه الكلدانيون (١) وتلاهم في ذلك البطالسة الأقدمون ، وجاء على أثرهم الفاطميون ، وهذا مضافاً إلى ما سبقهم في ذلك من جماعة آل عباس الذين امتلكوا هذه البلاد وأشاعوا فيها العلم والحكمة أو ما دار في خلدانه خليفة هؤلاء الملوك الماضين ، ومن خلف هؤلاء السلف الفاضلين ؟ وإن أرض مصر أرض تخرج منها أناس كانوا أول من تكلم على صناعة حيو مطرنا (٢) وحسبوا حركات النجوم وتقويمها وسيرها ورجوعها واستقامتها

(١) لعله أراد أن يقول الفرعونيون فوقع في ذهنه أقرانهم الكلدانيون أهل مدينة

العراق فرسم قلمه هذه موضع تلك ، أو أراد الجمع بينهما

(٢) كذا في الأصل غير منقوط والمراد تخنيط الموتى

وتداويرها وجور جرائها وحواملها ومتماتها . واليونانيون بأسرهم على جلالهم في هذا الشأن عيال على هؤلاء المصريين فان تاليسهم (١) أول من أخذ هذه العلوم منهم، وأخذت الهند علومهم من الفينيقيين الذي كانوا في نوبتهم تعلموا هذه العلوم من المصريين فيما هو مبين من المقالة الرابعة البديعة الحكيمة الشهيرة (بالاوائل العلوية ، في الحكمة العربية) التي نشرت في النمرة السابعة من الجزء الاول من البيان الاغر فليرجع اليه

وأرض مصر بنفسها الى الآن مكتنزة لعجائب علوم المصريين وعماراتهم البديعة التي أعجزت الفلاسفة الافرنجيين عن اكتناها سرها، واعتيمهم عن الوصول الى نخوم حقيقتها، وفيها الى الآن من تلك الآثار المغربية والعلوم المبهرة مالا يعلم حدها إلا الله عز وجل

هذا وان سمو الخديوي لا يرى حقاً في ردم باب الحكمة على وجه رعيته، ولا يحسب ذلك ضيماً في شأن صعاليك قومه وملته، ولا يستحي من النظر الى مكانته واستقراره في عرش مملكته ، في أي أرض يملك ؟ أم على عرش من هو جالس ؟ أم خليفة من هو من الملوك الماضيين الفاضلين ، أم رئيس من هو ممن تخرج من الحكماء الكاملين، من تلك الآفاق والارضين

ونحن منمقون شيئاً في هذا الباب في الزمن القابل ونبين للناس غلط الخديو وشيوخ الازهر من الكتاب والسنة ، وأقويل حكماء الاسلام في العهد القادم . وعما قريب سنوضح للناس أن سعادة الخديوي وعلماء الازهر قد أضروا بانقوم والملة ضرراً لا يستطيع أحد أن يكافئه بشيء . أو يكفي شره بنوع (٢) وهؤلاء الشيوخ والخديو وإن فرحوا الآن بما قد صنعوه في الحال فعما قريب يذوقون من مرارة سمومه في مواخره وصعاب عواقبه ومعائره (لعلها مصايره) ، مالا غاية له إلا موت القوم والملة ، ولانهاية له إلا فوات العلم والحكمة (وسيله الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

(١) هو طالس أقدم فلاسفتهم السبعة (٢) قد أرسل الينا هذا المقال وقتئذ وتشره فيما يلي بعد مقدمته له فيما كان سببه

﴿ تعاق جريدة الرياض على مقالة النواب ﴾

[الرياض] الازهر أكبر كلية اسلامية في العالم فكان أجدر به ان يخرج منه رجال يفتخر العالم الاسلامي بهم وبعلمهم ، ويستفيد المسلمون من أدوار معارفهم ، ويرتفع بهم الدرجة العلمية الاسلامية التي ألحظت منذ عدة قرون أفليس هذا محل الاسف ؟ ان هذه الكلية الاسلامية مع كثرة المعلمين والمتعلمين فيها لا تفيد المسلمين إلا تعصبا وجهالة ، ولا يزيدهم إلتخساراً في العلم والتمدن والمخطاطا في العلوم الحديثة والقديمة ، وخسرانا في المعارف الكونية والدينية فأني شخص أعلم من حضرة الخديوي بسوء تربيته ، ونقص تعليمه ، وفساد نصابه ، فان سموه قضى معظم عمره الشريف في سياحة البلاد الاوربية ، واختبر بنفسه نتائج الكليات الغربية ، فهو عالم بالعلوم الحديثة والقديمة عارف بأسباب تقدم الاقوام وتأخرهم ، وترقيهم وتدهورهم وحياتهم وموتهم

بناء على هذه الوجوه عجبنا وعجب كل مسلم في الهند من حكم سموه الذي قضى به في جمع حافل من العلماء ، وشدد النكير على حزب المصلحين وجماعة المتخلصين ، وعنفهم وأنذرهم بسوء عاقبة هذه الوسوس والاهام ، فان اقتضت المصالح المصرية بالغاء العلوم الجديدة من الازهر فكان الانسب عندنا أن يرتفع النصاب الديني إلى الدرج الاعلى في جميع العلوم المتعلقة بالديانة الاسلامية كالفقه وأصول الفقه ، والتفسير وأصولها ، وعلم الحديث بأسانيده وأصوله ، وعلم الكلام الذي هو الفلسفة الالهية الاسلامية إلى النهاية التي بلغت إلى الآن ، والعلوم التي هي مثل المبادئ لهذه العلوم كالادب والبدع والبيان والانشاء والبلاغة بحيث من يتم دروسه يكون على بصيرة تامة في جميع الاصول الاسلامية وفروعها ويقدر على اثبات العقائد الاسلامية بالبراهين القاطعة ، ويكون له نفوذ عظيم في العالم الاسلامي ، فان ارتفع تعليم الازهر على هذه الدرجة يستحق أن يقال له انه نافع للمسلمين في دينهم ، ويبقى الضرورة الدنيوية على حالها ، وإلا فلآن يصدق على من يخرج من الازهر : ليس له في الدنيا نصيب ، وما له في العلوم الاسلامية من خلاق اه

دفاع المنار عن علماء الازهر

فيا نهم به النواب محسن الملك

نشرنا فيما تقدم ما جاءنا في كتاب طويل من النواب رحمه الله تعالى خاصا بترك الاستاذ الامام الازهر بعد اطراء طويل للمنار ولنا، وقفنا عليه بمقالته الحافلة في هذا الموضوع التي نشرها في جريدة الرياض الهندية ووعد في آخرها جارد علينا فيما دافعنا به عن علماء الازهر.

واننا ننشر هنا ذلك الدفاع عنهم بنصه ونقفي عليه برد النواب فنقول :
كنا بدأنا جواب المنار على كتاب النواب الجليل بما يتعلق باقتراحه علينا الاستمرار على كتابة المقالات الحماسة للقلوب، الحماسة للهمم، الموكفة للديم، ثم عطفنا عليها الجواب عن أقواله الحماسة للامارة لعلماء الازهر التي أملاها عليه تأمله وتبرمه بما كان من خطبة الخديو وحديث شيخ الازهر السابقين، وهذا نص عبارتنا (في ص ٢٣٥ من مجلد المنار الثامن)

وأما ترك الاستاذ الامام الازهر فهو لم يكن من يأس ألم بنفسه الكبيرة، ولا عن ضعف في همته العلمية، ولا لمقاومة علماء الازهر لما يريد من اصلاح التعليم، أو اضافة علوم جديدة على ما يقرأ في الازهر من العلوم، وانما هو ما تنسمتموه من الجرائد المصرية، ونزیدكم فيه بيانا بمكاتبة شخصية، وقد ظلم العقلاء عندنا وعندكم علماء الازهر فأنزلوهم من درجتهم في العلم والفهم، كما أعطوهم اكثر من سهمهم من الشعور والاخلاق

أما ظلمهم اياهم فهو اعتقادهم وقولهم فيهم انهم يعتقدون أن العلوم الدنيوية قروض بناء الدين، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين، وان اصلاح طريقة التعليم خروج عن صراط السلف المستقيم. وكل هذه الظنون فيهم باطلة فان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها، فكيف لا يخافون الكفر والضلال على أفلاذ أكبادهم مع عدم تمكنهم من العلوم الدينية، وبخافون ذلك على طلاب الازهر المتوغلين في علوم الدين؟

ان هذا شيء لا يعقل . ثم كيف يطعنون باكابر علماء الاسلام الاعلام الذين تمكنوا من علوم الدنيا وصاروا يعدون من الفلاسفة كالامام الغزالي والامام الرازي وفلان وفلان؟ ثم كيف لا يطعنون بدين أكابر أمرائهم وحكامهم في هذا العصر وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا وقلما يوجد فيهم من تلقى عقيدة الاسلام ببراهينها ، أو عرف مہیات أحكامها ، ولو غفلا من دلائلها وحكمها ، وان منهم من يصف بعض هؤلاء الامراء بالتقوى والصلاح . فظلم وألف ظلم لعلماء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقاً عن علومه ، وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين ، وأنه دين عام وأن لادين بعده أوفق لمصلحة جميع البشر منه ، مع استلزام هذا لكون الاسلام يتفق مع علوم البشر ومدنيته في كل زمان وإلا كان متضمناً لتكليفهم ما لا يطيقون نعم انه يوجد فيهم بعض الاغبياء الذين يعيث بهم هذا الوهم ، ولكن الحكم على جميعهم أو أكثرهم بذلك ظلم وجور . واني اقول ان الاستاذ الامام لم يقرر في إصلاح الازهر شيئاً إلا برأي جماعة من كبرائهم واستحسنهم ، وقد نفذ بعض ما طلبه وحاوله برضاهم وموافقتهم ، وأوقف بعض الإصلاح للأسباب التي لا اصرح بشرحها بعد رضاهم به واعترافهم بفائدته (١)

وأما وصفهم بأكثر مما يستحقون من الشعور بالمصلحة وإرادة الخير فهو تابع لذلك الظلم ، وهو اعتقاد كثير من العقلاء في مصر وفي أقطار أخرى ان هؤلاء الناس أعداء الإصلاح الذي عرف سرارة الامة وعقلاؤها شدة الحاجة اليه لما في قلوبهم من الشعور بضرره ، ولما عندهم من الارادة القوية والعزيمة الصادقة والغيرة الملتزمة على الاسلام والمسلمين وانهم لا يخافون في ذلك لومة لائم ، ولا سطوة حاكم ، ولا حرماناً من منفعة مالية ، أو كسوة تشريف قصبية ، والحق أن هذا الصنف الشريف الذي كان له من قوة العزيمة بالاتحاد والاتفاق ما يقيم به محمد علي باشا حاكماً على البلاد المصرية قد امتضعف فضعف حتى صار لا يجهر برأيه الا اذا أيقن ان قويا بمده ، أو حاكماً يسندوه وكثيراً ما يستحسن أمراً ثم يستهجنه ، أو يستقبح شيئاً ثم يستحسنه ، ولقد كان

(١) أعني إغراء الخديو لهم ، وهذا سر ما شكوته من ضعف أخلاقهم

أكابر علماء الازهر موافقين للشيخ محمد عبده في كل شيء، يقترحه لاصلاح الازهر أيام كان مؤيداً بنفوذ الامير، وانما كانوا يرغبون اليه في أن يكون ذلك بالتدريج البطيء، لانهم لم يتعودوا ويثقل على المرء لاسيما الكبير المضي فيما لم يتعود ولما بدا للامير في تأييده ومساعدته وقف كل اقتراح، وعورض كل اصلاح حتى لم يبق للحكومة الخديوية ثقة بتخريج القضاة في ذلك المكان فهي ستبني مدرسة جديدة لتخرجهم فيها، ولم يبق لها من العناية بالازهر الا حفظ الامن فيه كما هو حق كل أحد وكل شيء على الحكومة لاجل هذا ترك الازهر ولكن آثاره الصالحة لن تتركه، فهو قد وضع أساس النظام الذي قد يضعف تارة ويقوى تارة وقد يزاد فيه وينقص منه ولكنه لا يزول. وهو قد نفخ في نفوس كثير من الازكياء فيه روح الشعور بالحاجة الى اصلاح التعليم واصلاح الاخلاق وخدمة الاسلام والمسلمين والسعي في ازالة ما غشهم من البدع والفتن فاضعفهم وأذلهم فلن يموت هذا الشعور. ثم انه لم يزد الارضاء بالله وهمة في خدمة ملته بالعمل والتدريس والتأليف لا يثنيه عن ذلك ثان الامايل به من المرض أحياناً شفاه الله ونفع به آمين

هذا وان العبرة الكبرى فيما كتب هذا السري الكبير هو احساس المسلمين المحاصنين الذين يعرفون الاسلام ويفارون عليه بان اصلاح اذا ظهر في أى قطر ففائدته لا بد أن تكون عامة لكل البلاد الاسلامية، وان النور اذا ظهر في هذه الامة من أى مطلع فانه ينبسط على جميع البقاع لان هذه الامة امة واحدة، ربها واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد، والهدى في دينه على مله واحدة وهي ما جاء به نبيه (ص) عنه، ومصلحتها لذلك واحدة، فما يضرها يضر جميع المؤمنين لها وما ينفعها ينفعهم أجمعين. لاجل هذا أحس الاحياء من مسلمي الهند بان ما دهي به اصلاح في الازهر هو مصيبة على الاسلام والمسلمين في جميع الارض لانه كان يرجى أن يكون خيره متى ثبت ونجح عاماً لجميع مسلمي الارض ولو بعد حين. فماذا يقول أولئك الذين يريدون أن يقطعوا أوصال المسلمين بنزعات «الوطنية» الفاسدة في هذا الاحساس الشريف من إخواننا في الهند وكذا في غيرها؟ اهـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وإياه نعبد وإياه نستعين

سماعة الفاضل الحكيم العلامة ، دتم بالمرز والكرامة

سلام عليكم ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، وأعلي على نبيه النبي
الكريم ، وعلى آله وصحبه السادة الالهاميم (وبعد) فانا قد سررنا وتنشطنا بحسن
صنيعكم اليان من نشر رسالتنا المشبعة الطويلة التي كتبناها اليكم في قضية علماء الازهر
واستقالة الاستاذ الامام الكبير محمد بن عبده في مجلتكم الباهرة الغراء التي صدرت
في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي . وقد سرني أيضا ما قد استتبعت
ذلك بانتقادكم الحافل البديع عقيب هذه الرسالة تحامون فيه عن علماء الازهر
واستفراغكم اتوسع بذلك في دفع ما وقع من الغلط والخطأ في الآراء التي ارتأها
الناس فيهم ، ولكن الذي آمل من طيب خلقكم وطهارة سريرتكم ، هو أن
تعمو غني مما قد تجاسرت في الانتقاد على هذا الانتقاد ، فانه يا أخي ليس فيما
أحسب مما يطمئن به بال أحد ، أو أن يفند به ما قد رآه أكثر اهل النظر في هؤلاء
العلماء من انهم لا يحبون إشاعة العلوم الحديثة ، ولا يجوزون لها السبيل والتطريق
في المدارس والكليات ، ولا واحد عندي بمقلع عن رأيه ذلك فيهم فيما أحسب ،
فقد علمت ياسيدي أن تعسف علماء الازهر وتمصبهم للعلوم الخلقة البالية ، وخلافهم
للاصلاح في شؤون التعليم والاخذ بالعلوم الحديثة ليس مما يرتاب فيه أحد ، قد
شجنت بذلك الجرائد المصرية كلها لاسيما مجلتكم الباهرة التي نصت على انهم
لا يجوزون العدول بيسير عن المنوال العتيق الذي يجري عليه نصاب التدريس
في الجامع الازهر ، ويتخرجون من تشكيل صناعة التاريخ والجغرافية في نصاب
الدرس الحاضر ، فما ظنك بالعلوم العالية الافرنجية وما هي فيه من المنهاج
الجديد في أرض أوربا ؟

أنسبت ياسيدي ان الذين لا يزالون يقرءون ويتلون الجرائد المصرية ، ولا
يفترون عن مطالعة جريدتكم الغراء ليلا ونهاراً ، أقترأهم يقلعون عن رأيهم في شأن

هؤلاء العلماء؟ أم ترى ان اعتقادهم في هؤلاء فيما أفدتم بنفسكم بأنهم يعتقدون ان العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين، وان إصلاح طريقة التعليم خروج عن الصراط المستقيم - أفترى أن هذا الاعتقاد منهم يزول أو يحول أو يضمحل بشيء عن قلوبهم مما كان عندهم من قبل؟ أم تراهم يوافقونك في قولك: وكل هذه الظنون فيهم باطلة؟ كلا ولا كرامة، وحاشاهم عن ذلك

فأما انتم فلمعمرى لم تألو جهداً في المحاماة عن هؤلاء العلماء، وأنتم في بيان ذلك بحجتين، وكتاها ننتقد عليها، وننظر في وزنها ورجحها، على منهاج أصحاب النظر، أما الحجة الاولى فقوالكم: ان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها الخ وأما الاخرى فقوالكم: ولا يطعنون بدين أكابر امرائهم وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا الخ. ولكن هذا الكلام منكم لا يجديهم نفعاً، ولا يحمي أويذب عنهم شيء، فقد عرفتم ما هو من دين علماء هذا العصر انهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون. وهم الذين قال فيهم الشاعر العارف الحكيم مصلح الدين السعدي الشيرازي وهو من معاريف الشعراء ومشاهير أهل النظم - قال:

ترك دنيا بمردم آموزند خویشان سم و غله اندوزند

يعني بذلك انهم يعلمون الناس ويحملونهم على رفض الدنيا وترك زخارفها وهم بأنفسهم يكتزون الذهب والفضة ويحتكرون الطعام لأنفسهم* ومن دينهم أيضاً ان لا يطعنوا بشيء على الامراء والولاة كيلا لا يحرموا من صلاتهم، ولا يياسوا من استجلاب خيرهم ومبرائهم، بل وإنا تراهم يوافقون العامة في بدعهم ولا يشنعون بشيء على أفاعيلهم، ويشاركونهم في الاحداث الفظيعة التي يأتون بها في الدين، فتراهم لا ينكرون عليها بل يماضونهم بموافقتهم ومشاركتهم فيها. وشاهد ذلك قوالكم في هذه النمرة التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي « فشايع الازهر يقرءون في كتب الحديث نهى الشارع عن بناء

(*) قال الشاعر العربي:

وذموا لنا الدنيا وهم يرضونها أقاويق حتى ما يدروا ما عمل

القبور واتخاذ الدعا عليها ، واتخاذها أعياداً وتعظيمها . ثم انهم يشاركون العامة في هذه الاعياد التي يسمونها موالد على ما فيها من المنكرات التي نهى عنها أئمتهم في الفقه . ثم انهم يقرءون في شمائل نبيهم انه كان يسدل شعره الشريف ويفرقه ، وهم ينكرون على من يفعل ذلك من اهل العلم والدين ، وقد أمرني بذلك بعضهم وكان شيخنا للازهر قائلاً : انك من اهل العلم لا يليق بك أن ترسل شعرك فاحلقه ، فحججته بالسنة ، فحاجني بأن ذلك شعار العلماء الآن « وقد صرحتم قبل ذلك بشيء في قولكم ص ٢٢١ من هذه النمرة الحاضرة » وانما صرح العلماء بكراهة حلق الرأس وكونه مخالفاً للسنة لانه كان في الصدر الاول شعار الخوارج ، فلما إذا أخذنا بادلاقهم كان اللوم في ترك هذه السنة موجهاً في هذا العصر إلى علماء الدين فانهم يخلعون ، بل ينكرون على من لم يحلق وهم مخضون «

هذا — أم كيف يوافقكم أحد في قولكم « ظلم وألف ظلم العلماء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقاً عن علومه ، وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين » الخ . وقد ساف منا مراراً انا قد رأينا في (الجواب المصرية) انها قالت في شأن رجل عظيم من العلماء « انه محترم المقام بين علماء المسلمين بحله كبيرهم وصغيرهم لعله وفضله ، يعدونه حجة وقته وإمام زمانه في علوم الدين وأصول الشريعة » فهذا العالم الجليل الذي ترأس العلماء في عصره ، ومن رأيه ما يقول لمدير الجواب ما تلك ألفاظه « غرض الساف من تأسيس الازهر : إقامة بيت لله يُعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كاتركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ... وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له «

ولما راجعه المدير واستحفاه بالسؤال قائلاً « هل حدث يا مولاي ما يقف للازهر في الخدمة الطائفة منه ؟ » فتبسم الاستاذ ثم قال « بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني ، ويحوّل هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية » الخ وبجهر في آخر كلامه متظاهراً قائلاً « ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا »

وليتركوه كما هو حصن للدين، وان أرادوا به إصلاحاً فليكن الإصلاح منحصراً في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم، وما سوى ذلك من مبادئ الفلسفة، والعلوم الحديثة العالية، فلتدخله الحكومة إن شئت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة إليه»

أم كيف نصدقكم في قولكم هذا وأنا نرى هؤلاء العلماء قد ثاروا وشغبوا الناس وأثاروا في إصلاح الأزهر بما اضطر الخديوي إلى إخماد الفتنة وخاطب شيخ الجامع الأزهر قائلاً «إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر فيها علوم الدين الحنيفية في مصر وجميع الاقطار الإسلامية.» «واقعد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً» ولما كان يخال أن هؤلاء الرهط الذين يرومون الإصلاح كلهم مفسدون قل فيهم «أول شيء أطلب أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الأفكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء، ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والالوهام أو الإيهام بالاقوال، أو بواسطة الجرائد والاخت والرد فيها فليكن بعيداً عن الأزهر، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولي به أن يرجع إلى بلده ويبحث فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغيرة للدين ولمصاحبة الأزهر والأزهريين» (١)

فهل في الوجود أحد يقف على هذه الاحوال ويعرفها حق المعرفة ثم يرتاب في أن هؤلاء العلماء أكثرهم لا يجوزون الإصلاح في النهج القديم للتعليم ويحسبون أن العلوم الحديثة بأسرها مظلمة لنور الاسلام، ولعمري ان هؤلاء العلماء هم الذين اتخذوا جامع الأزهر الذي كان من حقه أن يكون رحمة وبركة للمسلمين مركزاً للنكبة، وموطناً للمذلة، ومعقلاً للمتربة، وموضعاً للمسغبة، ولو فطرت إلى العلوم التي تدرس فيها لوجدته بأسرها علوماً بالية عتيقة اتخذها المقلدة من العلماء علوماً دينية، ولا تجد فيها إلا تلميذين نبذ من المسائل التي تشتمل منها القول،

وتعجب قبولها أحلام الفحول ، وذلك من أجل مخالفتها لقواعد الحكمة وأصول الفطرة ، ولا يوجد فيها غير تعليم ماعداها من المطالب التي لا تستنير بها أدمغة الرجال ، ولا يتسع بها فضاء علمهم ومعرفتهم ، بل يتركز بها التقاليد في تخوم قلوبهم ، وقد امتلأ القرآن العزيز بدمه ، وشحن الكتاب المجيد برده ، وجل همهم في أن يحمل الناس على منهاج يعتقدون به أن الاسلام بدع هذه البدع ، ونفس هذه الاحاديث التي ليست بأدون من أحاديث خرافة ، بل عين الشرك الجلي ، فضلا عن الشرك الخفي ، وإنما جهدهم في المنع عن تعليم صنعة تنفعهم بشيء إما في الدنيا أو في الدين ، هذا شيء من حالهم في تعليم العلوم . فأما سبل التعليم ومنهاج تدريسهم ونظم الامور فيه فأمره أشهر من أن يذكر ، وأبين من أن يوضح ، ولقد تفجع له بعض فضلا الهند الذي كان حل بالقاهرة وكتب في ذلك كتابا إلى حيدرآباد عاصمة دكن ولقد نشرتموه في الجزء العاشر من المجلد الخامس من مجلتكم المنار وبعد ذلك فهل تحسبون اننا نحسن الظن بهؤلاء العلماء ونضعهم في ميزان علمائنا السلف الذين مضوا إلى رضوان الله كالامام الغزالي وابن رشد الاندلسي والامام ابن الخطيب الرازي وغيرهم ، فقد كانوا يعتقدون ان العلوم الكونية والعقلية عين هذه العلوم الدينية ، وكانوا يحضون المسلمين وبحشونهم وبحرضونهم على تحصيلها في تأليفهم وكتبهم وأسفارهم ووزبرهم التي كانوا يعملونها لنشر تلك العلوم ويخاطبون فيها اخوانهم المسلمين قائلين « معاشر الخلال اني آنست نارا في وادي هذه للفنون ، لعل آتيكم منها بنجر أو قيس لعلكم تصطلون »

أوليس هؤلاء العلماء قد عمروا على قضية عمر بن حسام فيما أخرج الخبر به الامام الرازي في التفسير الكبير من ان عمر بن حسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الاهري فقال بعض الفقهاء يوما ما الذي تقرأونه ؟ فقال افسر آية من القرآن وهي قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها » فأنا أفسر كيفية بنائها . ولقد صدق الاهري فيما قال : فان من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظمته . انتهى كلام الرازي بعبارة الفاظه اولم يعثر علماء الازهر على فصل المقال للحكيم الفيلسوف القاضي أبي الوليد بن

رشد (الذى) نص فيه على وجوب معرفة الموجودات والعلم بحقائقها من جهة الشرع وان القرآن العزيز قد أمرنا بذلك أمراً أكيداً في كثير من الآيات وكتب في آخر ذلك ماتلك عيون أفاظه « وقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع وان من نهى عن النظر فيها فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله وهو باب النظر المؤدى الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية البعد عن الله تعالى » ولم يدر هؤلاء العلماء ان الامام الغزالي كان من قوله في علم الهيئة فيما نقل عنه الفاضل عصمة الله في (التصريح شرح التصريح) للشيخ العلامة بهاء الدين العاملي من انه من لم يعرف الهيئة والتصريح فهو عني في معرفة الله (١)

وأعظم من ذلك كله الاثر المأثور المشهور عن سيدنا علي فيما أشار به على سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم احراق خزانة الكتب بالاسكندرية قال انها علوم ليست تخالف القرآن العزيز بل تعاضده وتفسره حق التفسير لاسراره الغامضة الدقيقة. وهو قول معروف عنه وقد أخرج الخبر به مفصلاً الحكيم المؤرخ الاسلامي القاضي الصاعد الاندلسي في طبقات الامم فيما نقل عنه العلامة المحدث ابن عيش اقرني التيمي في بعض مقاطيع القسم الاول من الجزء الاول من كتاب الكشف عن الغثاة فليرجع اليه

هذا وانه لن يذهب عنا الاسف والكد الذى نجده في أنفسنا من جهة قضية الخديو وآرائه ومن جهة الحال التي نحس في علماء الازهر ونحن بهذا المعصر في حاجة الى مثل الرازي والغزالي وابن رشد الاندلسي وأمثالهم من العلماء ومن كانوا في ميزانهم في الدهر الحاضر مثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده وأضرابه الذين يضيئون العالم بنور الدين وضياء الاسلام، ويبينون للناس ومن في قلوبهم مرض وزيف عن الحق ان الديانة الاسلامية كلها تطابق العقل والفطرة حذو القذة بالقذة، وان العلوم العقلية والكونية بأسرها في الاصل علوم دينية يجب على المسفين تعليمها والاخذ بها وتعلمها، فيخرجوا بذلك عن قعر الازل وغيابة الهوان والصغار التي ألقوا

فيها وهم صاغرون ، وقد لزم الاسلام بهم عار قبح به منظرده ، وسامت بذلك هيئته ،
وهم يظنون من أجل ذلك ان الاسلام هو الرادع للناس عن التمدن والارتقاء ،
في معارخ العز والاعتلاء ، فأما نحن فلسنا في حاجة إلى أمثال هؤلاء الذين يقولون
ان العلوم الحديثة مطفئة لنور الاسلام ومخمدة لناره ، ومطمسة لآثاره ، ومجلمية
له عن عقر داره ، ومحله وقراره

أوليس ان الحال التي انتهت اليها هيئة المسلمين مما يتضاحك بها الاعداء ،
ويتصارخ لها الاولياء بالعويل والبكاء ، وتسكاب الدماء ؟ أو ليس قد تراكمت
على المسلمين سحائب الذل والهوان ، وجللتهم غياهب العدم من كل جانب
ومكان ، أي نقطة في الوجود من نقاط الارض يكون فيها من حال المسلمين مالا
يتصدع لها القلوب وتتفطر بها الأكباد ، وتجرد لها المحاجر والآفاق بأنهار الدماء
الساثلات ، وتنسكب لها قاني الأمطار من المقل الفائرات ، خرجت الممالك من
أيمانهم ، واضمحلت الدول التي بقيت في أيديهم ، كأنهم لا حراك بهم ، وصاروا
في العالم كأنهم اللعبة تتداولها أيدي الأجانب ، وتلاعب بها أكف الأبعاد ، بما خرجوا
عن امتلاك الأقارب ، لا يحس فيهم شيء من آثار الثروة ، ولا عندهم ميل إلى التجارة
والصنعة بل هم زاهدون فيهم ، وراغون عنها ، يستقبحون شكلها ومنظرها ، ويستفظعون
محلها ومصدرها ، ورضوا بالافتقار ، في تحصيل كل شيء حقير وجلب كل ما عون يسير ،
من أرض أوربا يستجلبون الفرش والسرير للمساجد والصوامع من أرض الفرنج ولا
يتخذون من ذلك شيئاً بأنفسهم وأيديهم . لم يبق لهم عزة ولا صولة ، وما بقي عندهم
أمة ولا دولة ، وأما عددهم فهم وإن كانوا يبالغون إلى ألف مليون نفس في
العالم فهم بمد ليسوا في قطر من أقطار الدنيا ممن يفتخر هنالك بوجودهم ، ولا
ممن يتفاخر بهم على لسان وإيهم وودودهم ، أو يفرح الرجل بالنظر إلى عيونهم
وأشخاصهم ، أو يسير اخوهم إذا كان يرمق إلى عددهم وفرادهم — فماذا يكون من
السبب الاصيل في ذلك ، ويبد من رهنت ذمة هذه الامور

والذي أحسب ان جل السبب في ذلك ليس إلا نفارهم عن العلوم الحديثة
وتعاميهم عنها ، وانهم ذلك كله على عاتق هؤلاء العلماء الذين يزرون تلك الاوزار ،

ويجوزون للمسلمين أن يخرجوا عن غمار الذل والصفار . ومن ثم تراهم يرفعون
عن التعاليم الذميمة ، ويردعون الناس عنها بفتاوى التكفير لمن ولع بهذه العلوم
الحديثة، ويحولون بينهم وبينها، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ، ولا يشعرون
أن ارتقاء الأوربيين الذي يضرب به المثل اليوم ليس إلا من جهة توغلهم في
العلوم الجديدة، ونبوغهم في الحكم الحديثة ، وكل دولتهم وقوتهم منسوبة في الأصل
إلى تجارتهم وحر فهم، وهي في نوبتها منسوبة إلى تناغيهم في هذه العلوم الجديدة النافعة
دع عنك أوروبا وانظر إلى هذه الأمة الحقيرة التي يقال لها أمة جابان ؟ أفلا
يرونها كيف ارتقت في مدة لا تتيف على عدة سنين ، لا تعد إلا على أنامل
الآدميين، ارتقاء مبهرأ بهرت الانظار، وخطفت لها النواظر والابصار، أفليس أنها
لم تستكمل نفسها منذ خمسين سنة، وكانت تعد من قبل ذلك في الاقوام المتوحشة،
وتستحقرها الأمم المتمدنة ، وهي اليوم في كل شأن على أعلى مراتب الصعود
والارتقاء، وقد أدهشت الدنيا بأسرها بأعمالها ابدية التي صدرت منها في هذه الايام
وكل واحد يحترمها كل الاحترام ، وحرمتها مركوزة في طبع كل انسان، فماذا الذي
قلبها عن حالها القديم ، وانعكس أمرها عن شأنها الفاسد الميم ؟ ما ذلك إلا من أجل
تناغيها في العلوم والحكم ، والازهريون على خبرة من حالها، ومنهاج ارتقائها
ومنوالها، وانما الاسف عليهم من أجل انهم لا يقيسون أنفسهم هؤلاء ولا ينظرون
في علل تلك الاشياء ، ولا يفكرون في أسبابها التي أورثتهم الارتفاع ، وأورثتنا
الانحطاط والانخفاض. ولو كان عندهم صواب في الرأي وحزم في الروية ومعرفة
صحيحة بالقرآن والاسلام لكانوا يستحيون مما هم فيه ، ولكان كل واحد منهم
مثلكم ومثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده يخرج نفسه من شرك التقليد الذي
أضل الناس كثيراً، وامكان يسلك في منهاج التحقيق الذي هو الصراط المستقيم،
ويضيء فضاء الارض برحبها، وينور العالم الاسلامي بسعته كلها، بمشعلة الاسلام،
ونبراس كلام الله الملك العلام

وليت شعري ماذا الذي علمنا القرآن والاسلام ؟ هل هو بعض هذه الحركات
البدنية ؟ أم نبذ من تلك المراسم الظاهرية ؟ أو مطالب عديدة من مسائل النفاس

والحيض (التي) يعنون بها التعليم الديني لا غير لا مادون ذلك ؟ كلا ولا كرامة وحاكما عن ذلك ، بل قد دلانا على ما فيه جل الخير وتمام النفع في الدين والدنيا وكال الربح في الاخلاق والمدنية ، وعلمانا الاصول التي بها نهتدي الى تحصيل تلك العوائد الثمينة والفوائد الغالية ، وأوجبنا علينا اكتساب العلوم الكونية والعقلية بأسرها . ولو كان علماء الازهر مشاركين في آرائهم لمثلكم ومثل محمد بن عبده وينظرون بنظر الامعان في امضا آتكم (١) البديعة الرشيدة التي علمت الدنيا أن الاسلام من بين سائر المذاهب هو المذهب الواحد الذي يرغب الناس ويشوقهم في تحصيل الفوائد الدنيوية ، والعوائد المالية والقومية ، وهو الذي تمخذا العلم والعقل عين الايمان والدين ونفسهما في الاصل ، ولو لم يكن الازهريون يظنون ظناً باطلا ان العلوم الدينية بأسرها منحصرة في الفقه ومقصورة على جزئيات المسائل الفرعية التي لا يعتمد ولا يعتمد بها ، واكثر هذه المطالب ليست بجذرة للعمل في هذه الاعصر والدهور (٢) ولو عرفوا ما في تعليمها من ضياع العمر وتضييع الوقت ذلك ما هو معلوم عند كل ذي حجة وهم يزعمون ان الولوع بها مما يشيد بناء الدين - لما رؤي الطلبة الازهريون كما هم اليوم في غايتهم من الذل والهوان ، ونهايتهم من الصغار والخذلان ، ولو كانوا يعلمون أن العلوم العقابية والكونية عين العلوم الدينية ، لكاتب كاية كيمبرج واكسفورد ومحمد كاية الازهر وتغبطها غبطة ما كان يجحدها أحد ولتخرج منها في عرض عدة سنين رجال كانوا يصعدون بالبلاد الاسلامية ويخلقون بها الى أعلى ذرى الارتقاء ، التي وصلت اليها أمة جابان في هذه الاعصر والازمان ، هذا رأي ورأي سائر الافراد الذين لهم خبرة باحوال الدنيا ووقوف على أخبارها وإلمام بتواريخها ، واني لقاطم بصحة هذا الرأي ورأي هؤلاء ممن عداني ان العلماء هم العلة الاصلية لكل هذا الصغار والهوان ، وتمام تلك النكبة والخذلان ، وهم موقوفون غداً بين يدي الرحمن ، ومستولون من لدنه فليستعدوا للجواب ، فهم الاصل الاصيل لجل هذه الفاسد وكل تلك الشنائع

وأنت يا أخي لا تستطيع وإن جهدت كل جهدك للمحاربة عن علماء الازهر

(١) يعني بهذه الامضاءات ، مقالات المنار الاصلاحية (٢) يعني مثل أبواب الرقيق

أن تغسل هذا العار عنهم ، وتدفع هذه التبعة والنقيصة منهم ، فانك لا تستطيع أن تكذب الحس والعيان ، ولا أن تدفع الوقائع التي حدثت في الازهر والازمان . أفهذه الكلية التي مضت لبنائها ألف سنة ونخرج منها مليون، بل أضعاف مليون طلبة ، ولا يزال يخرج منها كل عام آلاف من هؤلاء الطلبة، أفيمكن أن يكون نهج التعليم في هذه الكلية بحيث يتخرج منها طائفة من صعاليك الناس وسائلين في الرقاب يتخذون غذاءهم بالذلة ، وعشاءهم بالمسكنة ، ويبيتون وهم مخدولون بالمسغبة ، أو يجدر بها أن ينفر فيها عن طريق التعليم التي يتخرج منها أناس يرتفع بهم منار الدين، ويتقد به نور الاسلام ويعلو قدر المسلمين، ويهتدي بها المسلمون إلى واجب الصمود والارتقاء، ويزيدهم عزة وبهاء ، ويهيء لهم ذرائع الاصطعاد والاعتلاء ،

وانما يحزننا أولاً انا نجد المسامين في أي مصر وأية نقطة من نقاط الارض كانوا بأسرهم ذاهلين عن استجلاب العلم واكتساب الحكمة ، غافلين عنها غير مكترئين بها، وثانياً انه حيث ما نجد لهم وسائل التحصيل حاضرة، ولو احب الاكتساب متسعة، ومناهج التدريس مطروقة متفتحة، وحيثما يوجد لهم كلية قديمة مثل هذه الكلية التي هي أقدم كليات العالم، يكون فيها مثل هذا التعليم الفاسد الضار، الذي تضع فيه الاعمار ، ويضاع فيها الفضة والنضار ، ويصطلح الناس فيه على أن يسموا مثل هذا النهج الباطل العاقل العتيق الذي لا ينبعث المسلمون به للنهضة، وينسلب من أجملها مادة التحقيق عن قلوبهم الخاوية ، ويبغض اليهم النظر في العلوم النافعة، يصطلحون على أن يسموه تعليماً دينياً - وعلى أن يسموا الرجل العارف بمسائل شتى من الطلاق والرجعة والنفاس والحيض رجلاً عالماً ولا غير

هذا واني است بمسهب مقالتي في هذا الشأن، ولا بمطنب في شكائتي من علماء الزمان، نظراً إلى ما حوت مجلتكم الباهرة الغراء من أحوال هؤلاء العلماء وشؤونهم واخبارهم، فنحن في غنى عن إطالة الكلام عليها، وبمزل عن إسهاب المقال فيها، وعلى كل حال فان الاحوال الحاضرة للعلماء ومدارسهم ومكاتبهم مما قد تبين واتضح للناس ضررها وفقدان نفعها للمسلمين وضوح للشمس في كبد السماء، وانما تبني

وحزني على ذلك من جهة ان الازهر كان هو المدراس الواحد في الدنيا من قديم
الاعصر والاعوام الذي كان يرجى فيه اصلاح جميع المفاسد المالية والمدنية في
الاسلام ولا غير، ولو تقبل الناس آراء المفتي محمد بن عبده وبادروها بالقبول لكنا
نأمل منه خروج المسلمين عن غيابة الذل والنكبة، ونترقب صعودهم إلى أعلى
قنن الفوز والسعادة، ولنسكن عليكم بعد أن لا تأسوا من روح الله، وتجدوا كل
الجهد في اصلاح المساميين، وأحسنوا ان الله لا يضيع أجر المحسنين. وكتب
يوم الخميس ٢٥ خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ١٣٢٣)

وأنا مخلصكم الصفي الوفي

(محسن الملاك)

[المؤلف] انني نشرت اصدقي أمير العلماء والمصلحين في الهند مقالته هذه
في السنة التالية ولم أناقشه في شيء منها، وهو يحتاج على المنار في كثير مما انتقده
علي . ولكنه لم يفهم مرادي من الدفاع عن علماء الازهر في تلك الحادثة بعد
حملاتي الكثيرة عليهم من قبل لأنني لم اقدر أن أبينه البيان التام كما بينته هنا ،
وهو أن الذين هبوا لمقاومة الاصلاح في الازهر لم يكن الباعث على ثورتهم جهلهم
بالحاجة إلى الاصلاح ولا الفيرة على الدين وانما كان الخديو هو الذي سخرهم
واستخدمهم لذلك وروجت له جراند هذه الابهام وهي المؤيد واللاء والجوانب
المصرية والظاهر ، وكان هو يظن أنهم هم الذين بعثوا الخديو بل الجأوه إلى ما
فعل . وقد كتبت في تلك الاثناء مقالة في حقيقة حال الازهر واصلاحه لم أتمكن
من نشرها ولو رأها النواب رحمه الله تعالى لما اشتبه في شيء من كلامنا الاول ،
فنشر هنا مقدمتها وهي

حقيقة الازهر (*)

وأهوام الناس في علمه وتعليمه ، وما عرض حديثا في محاولة إصلاحه

للناس في وظيفة الازهر وحاله آراء وخواطر مختلفة يقل فيها الصواب . كان الازهر مدرسة كسائر المدارس الاسلامية الكبرى في الشرق والغرب يشتغل فيها المسلمون بجميع العلوم التي كانت معروفة في الارض أيام لا علم إلا عليهم ، ولا عمران إلا عمرانهم ، ولا مدنية إلا مدنيهم . ولما فتكت الادواء السياسية والاجتماعية بعمرانهم ضعف فيهم العلم ، ودرست مدارس العراق والاندلس وهما جناحا عمران الاسلام ، وبقيت مدرسة الازهر في القلب او الوسط عضوا اثريا ليس له وظيفة حية لها اثر في العمران الاسلامي ، ونعني بكونها عضوا اثريا أنها حفظت بعض التصانيف التي ألقت في آخر عهد حياة العلم ، وكتبا أخرى كتبت في عهد موته ، نسخ بها كاتبوها المقلدون ، ما أنشأه وسواه المتقدمون .

يظن بعض الناظرين إلى الظواهر أنه لو لم يحفظ الازهر هذه الكتب بمدارسها لدرست رسوم الاسلام ، ونسبت لغته ، وجهات علومه ، إلا بقايا لا يعتد بها في جامع تونس وجامع قس ، وبعض البلاد التي غلبت عليها العجمة كبلاد الهند والروم ، فللازهر - على رأي هؤلاء - الفضل الاكبر على الاسلام والمسلمين وخاصة العرب منهم . ولو دققوا النظر لرأوا أن فائدة الازهر في هذه القرون الاخيرة فائدة تاريخية لاحيوية ، كما هو شأن الاعضاء الاثرية ، فيها يعرف المؤرخ البصير كيف انحط العلم في المسلمين وإلى أي هوة هبط ؟ وما كل ما يفيد المؤرخ لامة يكون مفيدا لها ، إذ المؤرخ يبحث عن الضار والنافع ، وعن أسباب الترقى وأسباب التدلي والانحطاط .

ان الطريقة التي جرى عليها الازهر في مدارسها بعض كتب الفنون العربية والعلوم الشرعية غير موصلة إلى الغاية التي وضعت لها تلك الفنون والعلوم ، ثم

(١) مقالة كتبناها في وقت الانقلاب لبيان اسبابه تنشر هنا مقدمتها فقط

هي عقبة في كل طريقة يمكن أن يشرعها محبو الاصلاح الذين ينكشف لهم قبحها وانحرافها عن جهة الغاية . ذلك ان اهل الازهر جمدوا على التقليد لما يفهمون من عبارات تلك الكتب فلم يعودوا ينظرون في المقاصد والغايات من العلوم ، ولا في كون الغايات موافقة لمصلحة الامة العامة التي هي روح الشريعة ، وقد اتخذهم الناس رؤساء في الدين وظنوا كما ظن بعض الامم قبلهم انه لا يحل للامة إلا ما يحلون ، وانه يحرم عليها كل ما يحرمون ، فحرم المسلمون بهذا الاستفادة من روح الحياة المنبثة في القرآن لان علماءهم حجاب بينهم وبينه ، كما ان تقليد الكتب حجاب بين هؤلاء وبين القرآن . وحرموا أيضا الاستفادة مما وصلت اليه حالة العصر من الارتقاء الصوري والمعنوي ، لان من لا حياة له لا يستفيد من غيره شيئاً . ولذلك ترى المسلمين لم يستفيدوا من الارتقاء الاوربي الذي يحيط بهم فائدة جوهرية تعطيهم حياة حقيقية ، ومثل ما أصابهم منها كمثل الزينة التي تعلق على الجدران ونحوها من الاجسام غير الآلية لا تخالط جوهرها ولا تدخل في كنه حقيقتها ليس ضرر الطريقة الازهرية في التلميم قاصراً على المسلمين بل هو يعم معهم جميع سكان البلاد التي تسير على هذه الطريقة ، لان البلاد التي يتألف أهلها من عناصر كثيرة تكون صفات العنصر الاكبر فيها هي الغالبة ، ويمسر على الاقل فيها أن ينهض بالاكثر ، وعلى الضعيف أن يؤثر في القوي . بل كان الجمود على تلك الطريقة هو الحائل دون اقتباس ما قضت الضرورة على الشرق أن يقتبسه من الغرب ، والسبب في طول العهد على التباعد والتباغض بين شعوب في الاوطان البعيدة والقريبة بل في الوطن الواحد ، فهي طريقة ضارة بأهلها ونسالة بغير انهم وأهل أوطانهم ، ، وضارة بسائر الناس ، لانها عائق عن ارتقاء طائفة من أبناء الانسان وجعلهم فتنة لآخوتهم ، وعقبة في طريقهم

وجد في مصر وفي غيرها أفراد من اهل العلم والفهم نشأوا على الطريقة الازهرية ، ويظن من لم يعرف تاريخهم أن هذه الطريقة على وعورتها قد توصل إلى غاية صحيحة ، ولكن من يعرف تاريخهم يعرف ان ذكاهم الفطري قد هدام إلى طريقة أخرى في التحصيل بواسطة أخرى أصابوها بسمي او بغير سمي ، على

انه لم ينهض من هؤلاء أحد إلى مرتبة المصلحين إلا عالمنا الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد ، فقد كان هذا الرجل ممن نشأ في الازهر غريباً عن اهله ، وكان له واسطة غريبة لمعرفة الطريقة المثلى للعلم ، فنبغ في بلاده ، وكل بالسياحة في افريقية وآسية واوربة ، وعرف أحوال الامم الحاضرة ، وتاريخ الامم الغابرة ، ثم سمت به همته إلى السعي في إصلاح الازهر ، معتقداً ان اصلاحه خير اصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية ، ولاصلاح كل من يساكنهم في بلادهم بالتبع لهم ، وأنه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ، وخير صلة بين المدنية القديمة ، والمدنية الجديدة ، لانه علم ان السبب في التقاطع بين اوربة والمسلمين هو جهل الاوربيين بحقيقة الاسلام ، وعجز المسلمين عن افهامهم تلك الحقيقة ، لانهم غير متحققين بها لاعلماء ولا عملاء ولا تخلقاً ، ثم جهل المسلمين بحقيقة مدنية أوروبا وبكنه ارتقائهم العلمي والاجتماعي . ولو صلح حال التعليم في الازهر لب المسلمون إلى طلب العلوم الصحيحة ، والمدنية العزيزة ، كما هبوا لذلك في اول نشأتهم ، فأحيوا ما امانته الزمان من علوم الهند واليونان ، ، فلا يجدون امامهم إلا اوربة وعلومها الحية ، ويفهمونها انهم خير عون لهم على تكميل مدنيته ، فيتعارفون ولا يتناكرون . وإذا عارضت السياسة تعارفهم ، فانه يسهل عليهم من إزالة معارضتها مع التعارف والعلم ، مالا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل

كان هذا الرجل سعى في بث شيء من الإصلاح في الازهر على عهد الخديو السابق (توفيق باشا) رأى من جهود اهل المكان مالا يمكن معه العمل إلا بمساعدة منه ، ولم يجد عنده ارحية لذلك وإنما وجد اشد المعارضة . ولما ولي الخديو الحالي وهو قد تربى في اوروبا وعرف من الحاجة إلى الإصلاح مالم يعرفه سلفه ، عرض عليه الشيخ محمد عبده رأيه في اصلاح الازهر والخروج به عن كونه تكية للفقراء ، وملجأ للكسالى وجعله مدرسة حقيقية تؤدي وظيفتها كما يجب ، فتخرج للبلاد قضاة عادلين ، ومعلمين ماهرين ، ووعاظاً هادين ، يعالجون بروح الدين هذه الامراض النفسية التي أفسدت الاخلاق والعقول ، حتى عمت الخرافات ، وفشت الفواحش والمنكرات فصادف من الامير الجديد أذناً واعية ، وهمة سامية ، وعهد اليه الامير أن يضع

المشروع للإصلاح ، فوضع للأزهر قانوناً وجعل له مجلس إدارة يدير فيه نظام التربية والتعليم ، فأنفذ الخديو ذلك وخصص الأزهر مبلغاً صالحاً من مال الأوقاف إعانة على الإصلاح ، وراق ذلك الحكومة فخصصت له مبلغاً آخر من خزانة المالية ، وكان صاحب مشروع الإصلاح الشيخ محمد عبده عضواً في مجلس إدارة الأزهر من قبل الحكومة وكذا زميله الشيخ عبدالكريم سلمان وباقي الأعضاء ينتخبون من علماء الأزهر ، وانفرض من هذا أن يكون هذان العضوان دائمين لا يعرض لهما التبديل ، لأن مدار الإصلاح عليهما . فسار العمل بالتدرج الطبيعي اللائق بحال قوم طال الزمان على جمودهم . ولم يكن في الأزهر أحد يعارض الإصلاح عناداً ، وإنما كانوا يطلبون إرجاء بعض المشروعات بحجة وجوب التدرج في العمل بدأ الإصلاح (أولاً) بتحديد مدة الدراسة وكان الرجل يقضي عمره في الأزهر فلا يسئل ماذا قرأ ولا ماذا حصل (وثانياً) بالامتحان السنوي لمن يختاره مع مكافأة الناجح بالمال وكانوا لا يمتحنون طالباً لاجل نقله من كتاب إلى كتاب ولا لغير ذلك ، وقد ظهرت فائدة هذا الامتحان و كان يكثر عدد الراغبين فيه عاماً فصار (وثالثاً) بإلغاء بعض الكتب الضارة وتقرير بعض الكتب النافعة وقد عقد لذلك عدة لجان برئاسة الشيخ محمد عبده وتقاريره بما تم فيها مطبوعة محفوظة (ورابعاً) بجعل مدة دراسة المقاصد كاللغة والتفسير أطول من مدة دراسة الوسائل كالنحو والصرف ، وقد تقر هذا قولاً ولم ينفذ فعلاً (وخامساً) بزيادة علم الأخلاق وعلم التاريخ وعلم تقويم البلدان وعلم الحساب والجبر والمقابلة في العلوم التي تدرس في الأزهر ، وكل هذا قليل من كثير ، مما يحتاج إليه الأزهر لنهضة المسلمين سار الأزهر بالتدرج على هذه الطريقة بفاية الهدوء والسكينة وبدأت تظهر ثمارها ، وتوجهت نفوس بعض الطلاب إلى التماس علوم أخرى ، ولكن سمو الخديو تغير في أوائل السير على الشيخ محمد عبده الذي يدير بيده المكان بالاتفاق مع شيخ الأزهر الذي عين باقراحه الخ

ولا حاجة الى نشر بقية هذه المقالة فقد نشرنا معناها آنفاً قبل أن نعرض
محفوظاتنا على هذه المقالة واكتناقني على هذا بنشر مذكرة بخط الاستاذ الامام

في بيان ما لم ينفذ من مواد قانون الازهر بما نفخ فيه روح المقاومة والشقاق ،
وكان يمكن للأستاذ الامام محكمة شيخ الازهر في محكمة الجنايات بامتناعه من
تنفيذها وانما لم يفعل لما ذكرناه قريباً من مذهبه ومشربه في الاصلاح

﴿مذكرة الاستاذ الامام﴾

في مواد قانون الازهر التي لم تنفذ

(المادة الثانية من قانون الازهر)

(شيخ الجامع ينفذ اللوائح وقرارات مجلس الادارة ، ويتخذ الوسائل
لتحسين حالة الازهر وترقية التعليم ، ويدير الاعمال بما لا يخالف القوانين
وقرارات مجلس الادارة)

صدرت قرارات من مجلس الادارة متعلقة بما يجب على مشايخ بعض الازوقة
وقرارات متعلقة بالتعليم وأهمها القرار الصادر بتعيين مدرسين يدرسون العلوم
على طريقة جديدة عملية توافق أحكام هذا القانون ، ورتبت لهم مرتبات مقدارها
ستمائة جنيه في السنة من الاوقاف الخيرية ، وشرط في ذلك القرار ان من لم يقيم
منهم بما عهد اليه ينزع منه المرتب ويعطى لغيره والممول على الاختبار ، ولكنهم
من يوم عينوا إلى هذا اليوم لم ينظر في كيفية تدريسهم ، وهم في التدريس كغيرهم
لم يمتازوا عن بقية المدرسين بشيء سوى أخذ المرتبات ، والقرارات المتعلقة بمشايخ
الازوقة لم ينفذ منها قرار واحد

(المادة السادسة)

(مجلس الادارة ينعقد كل ١٥ يوم مرة على الاقل)

لا ينعقد المجلس إلا عند موت شخص لتوزيع مرتبه أو اعطاء كسوته
التشريعية لغيره ، أو عند شكوى أو مشاجرة أو نحو ذلك ، اما للنظر في حالة التعليم
أو في وضع شيء مفيد له فلا ينعقد ، غاية الامر انه ينعقد في شهر شوال من كل
سنة لتوظيف أو نقل معلمي الحساب والجغرافية والخط لاغير

(المادة الثامنة)

(مجلس الادارة يقترح طريقة توزيع النقود التي ترد إلى الجامع الازهر سواء كان وزودها بصفة دائمية أو مؤقتة)

ظنت المشيخة ان المراد من ذلك النقود التي تأتي للتوزيع على انها نقود ، أما مايرد في شرط الواقفين من النقود التي يشتري بها جرايات فيوزعها الشيخ بدون مدخل للمجلس وهكذا جرى العمل مع ان المراد عموم ماينخصص للازهر من النقود سواء اشترى به خبز أو وزع نقوداً

(المادة الحادية عشرة)

(مجلس الادارة يوزع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة وعلى السنين ولا يجوز لاستاذ أن يتعدى مايقدره المجلس)

لم يشتغل مجلس الادارة بتنفيذ هذه المادة قط في العلوم المعهود تدريسها في الازهر ، وانما الذي وزع ولا يزال يوزع إلى الآن هو بعض العلوم التي اضيفت أي الحساب والجغرافيا والجبر لاغير . وبقية العلوم تهمل لايعرف مايدرس أولا ولا آخرأ إلا ما جرت به العادة في قديم . والمادة المذكورة انما وضعت لاصلاح القديم لانه صار ضرراً ظاهراً

(المادة السابعة عشرة)

تتضمن تقسيم العلوم إلى مسائل ومقاصد ، وأضيف فيها علوم الاخلاق الدينية والحساب والجبر ، وعدت هذه العلوم الثلاثة الجديدة من العلوم الالزامية التي يمتحن فيها الطلاب حتماً عند طلبة الامتحان لنيل شهادة العالمية وجاء في المادة ٦٠ ان من مضى عليه أقل من ست سنوات وقت صدور القانون أو من يدخل الازهر بعد ذلك يكون امتحانه على حسب هذا القانون

ومع ذلك لم يلتفت إلى الزام الداخلين بعد صدور القانون بتعلم هذه الفنون ولم ينشر ذلك على الذين دخلوا من قبل ومضى عليهم أقل من ست سنوات بل

لم يتنبه إلى ذلك إلا في هذه الايام حيث قدم بعض الطلبة ممن تنطبق عليهم المادة ٦ طلبات الامتحان فرفض طلبهم بناء على أنهم لم يتمموا الحساب والجبر ولكن ذلك بعد فوات الوقت

(المادة التاسعة عشرة)

العلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها كعلوم البلاغة يجب على مدرسيها تمرين الطلبة على تطبيق العلم على العمل
هذه المادة لم يعمل بحرف منها قط

(المادة ٢٠)

يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة ما يساوي الزمن الذي يصرف في المقاصد
لا يزال معظم الزمن يصرف في النحو وهو من الوسائل ، وأما المقاصد مثل تفسير القرآن والحديث فلا يصرف فيها إلا الزمن القليل

(المادة ٢٢)

تمنع قراءة الحواشي والتقارير منماباتا في جميع العلوم في الاربع سنوات الاولى ويكتفى بالمتون والشروح الواضحة ، وبعد الاربع السنوات بخبر الطلبة والاساتذة في النظر في الحواشي ، وأما التقارير فتمنع قطعا إلا بقرار من مجلس الادارة حصل اجتهاد مدة سنتين فقط بعد صدور القانون في تنفيذ هذه المادة بجميع المشايخ الذين يدرسون في السنين الاربع الاولى وإلقاء التوبيخات عليهم لمراعاة هذه المادة ولكن لم يقع تفتيش ولا مرة واحدة لينظر هل يعملون بمقتضى التوبيخات أم لا ؟ ثم بعد ذلك أهمل الامر بالكلية والمشايخ بقرءون الآن ما يريدون كما كانوا قبل صدور القانون

(المادة ٢٣)

(لا يباح للطالب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد قبل أن يستحضر من وسائله ما يمكنه من فهمه وعلى كل طالب أن يتلقى أصول مذهبه)

هذه المادة لا يمكن تنفيذها إلا بتفويض من كل طالب في دروس المقاصد لمعرفة
إن كان تلقى من الوسائل ما يؤهله لفهم كتاب من المقاصد أو كان لم يتلق ما يكفي
وهذا أمر لم يقع من يوم وضع القانون إلى اليوم ، بل لم يشتغل مجلس الإدارة
بتحديد وسائل كل علم ودعوة الطلاب إلى الاخذ بما يقرره

(المادة ٢٤)

أكثر مدة الطلب ١٥ سنة

مقتضى ذلك ان الطالب لا يقيم على انه طالب في الازهر أكثر من ١٥ سنة
ويوجد طلبة لهم أربعون سنة فما دون ذلك ولم يلتفت مجلس الإدارة إلى النظر
في تصفية الجامع من هؤلاء البلقاء بل منهم من يطلب الامتحان والشيخة
لأنجييه إلى طلبه

(المادة ٣٧)

تقضي بان طلبات الامتحان تقدم إلى المشيخة في الشهور الاربعة الاولى من
كل سنة ، وأنه بعد ذلك يشكل شيخ الجامع لجانا لامتحان الطالبين
ومقتضى ذلك أن يتحتم على الشيخ تشكيل اللجان لامتحان جميع الطالبين
وإلا فلا معنى لذكر اللجان بصيغة الجمع ولا معنى لتحديد مدة الطالب بالشهور
الاربعة ، والآن يوجد ما يزيد على خمسمائة طلب من سنين عديدة ولا يمتحن من
الطالبين أكثر من ثمانين شخصا في السنة وفي ذلك قتل للطالبين وهدم لقوامهم
بتناول السنين عليهم بلا فائدة

أما المواد ٤٣ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ المتعلقة بكيفية الامتحانات فلم يعمل بها
ولا مرة واحدة

وقد كان الشيخ محمد عبده شرع في تطبيقها عند ما عين عضواً في لجنة
الامتحان من نحو ست سنوات فلم يقبل المشايخ الجري عليها واستمر العمل على
إهمالها إلى اليوم

والحاصل ان هذا القانون قد عدته مشيخة الازهر ومشايخه وطلبته من قبيل الوصايا التي يجوز للشخص أن يعمل بها ويجوز له أن لا يعمل وهم يحبون أن لا يعملوا بالضرورة لعدم تعودهم العمل اه نص المذكرة من هذه المذكرة يعلم أن مشيخة الازهر كانت معادية للنظام حتى مادة جعل جل العناية في الازهر تحصيل علوم الدين المقصودة بالذات وفي مقدمتها التفسير والحديث ، ويعلم منها ان الذين اتهموا الاستاذ الامام بأنه أضعف علوم الدين في الازهر من المنافقين الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ونعود الى ما كان من تأثير استقالته في العالم مما نشرناه يومئذ في الناز

صدى الحادثة في أوربا

(أو مقاومة النفوذ الفرنسي والانكليزي للاستاذ الامام في الاصلاح)
(نشرت تحت هذا العنوان ما يأتي في الناز بعد بيان تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في العالم الاسلامي . وقفيت عليه بانتقاده وهو)
نشرت جريدة اللواء في عدد يوم الخميس (١٣ ربيع الاول) خبرا قالت انه مترجم عن جريدة (الغلوب) الانكليزية بغير تصرف وهذا نصه بغير تصرف :
« اختلف العلماء من عهد قريب بشأن التعليم في الازهر ، وسبب ذلك ان رئيسهم الشيخ محمد عبده حاول ادخال نظام للتعليم أوسع من النظام الحاضر - الذي وضع من قرون مضت والذي لا يتضمن غير محض تعليم مواد الاجرومية وقليل من بعض العلوم الاخرى - بقصد تكوين قوة جديدة في الاسلام ، ويريد الشيخ محمد عبده السالف الذكر ادخال العلوم الحديثة في بروجرامه الجديد ليستعين بها العلماء على اكتساب أرزاقهم من طرق العمل والجهد لا الكسل والتواكل .
« وقد قاومه العلماء في مشروعه هذا مقاومة شديدة واتصل بنا انه قال في حديث له : ان السبب في عدم نجاحه وفشله النهائي راجع إلى محاربة النفوذ الفرنسي والانسائي والانكليزي السياسيين له ، واستشهد بعبارة نشرت في بعض الكتب

السياسة الفرنسية مؤداها ان سوا من فرنسا من الحزب الاستعماري لا يقبلون بوجه من الوجوه تنور المغاربة بنور العلم « اهـ
(اقول) ثم علمت بعد نقل هذا عن جريدة اللواء انها تركت من الاصل كلمة أخرى ذكرتها جريدة (الغلوب) وهي ان الشيخ محمد عبده قل لمحدثه « فهل يسر الانكليز بتخريبهم لهم رجالا مستعدين يفهمون حقوقهم ويعرفون كيف يدافعون عنها بقوة مستمدة من العلم والمعرفة ؟ » وانما ترك اللواء هذه الجملة لانه يسر المسلمين من الشيخ محمد عبده أن يقول هذا في مقاومة الانكليز وسوء الظن فيهم . وما كان صاحب جريدة اللواء يحب أن يسر المسلمون من الاستاذ الامام بشي .

ملاحظة النار او اتقاده على ذلك

(أي على ما نشرته جريدة اللواء)

يعجب المصريون أن يروا في الجرائد الانكليزية من يخبط في المسائل المصرية على غير هدى ، مع وقوف الانكليز هنا على حقائق الامور ، وقد ذكرنا وذكر غيرنا ممن قرأ تلك النبذة في جريدة اللواء ما كان أشيع هنا بعد ترك الشيخ محمد عبده لمجلس ادارة الازهر من ان بعض المصريين الذين لهم حظ فيما حدث في الازهر كفوا أحد مكاتبى الجرائد الانكليزية أن يكتب لجريدته التي يكتبها شيئاً يفيد معنى ما كتب في بعض الجرائد المصرية التي لها هوى في الحادثة من أن جميع علماء الازهر مضادون للشيخ محمد عبده فيما يريد من اصلاح التعليم وزيادة العلوم في الازهر ، ويتضمن شيئاً آخر يفيد سحق الانكليز على الشيخ وأتذكر ان بعض الجرائد الاسبوعية في مصر كتبت شيئاً عن هذه الاشاعة وقالت ان ذلك سيكتب ثم ينقل في بعض الجرائد المصرية اليومية

مالنا ولما أشيع في سبب الكتابة ولما قيل في مصدرها ؟ انما نحن أمام قول يتضمن خبرين (أحدهما) ان علماء الازهر كارهون ومقاومون لما يريد الشيخ محمد عبده من النظام وتوسيع دائرة العلم في الازهر ، وقد بينا في كلامنا على رسالة « محسن الملك » ان هذا غير صحيح ، وان علماء الازهر برآء مما يرمون به من

الغلو في بغض العلم والنظام ، والجهل بما يعلي شأن الاسلام ، و(ثانيهما) ان الشيخ يقول انه لم يخفق فيما حاول من اصلاح الازهر إلا بمقاومة النفوذ الفرنسي والانكليزي له ، لان ترقية المسلمين تناقض مصلحتهما في استعمار بلادهم . وتقول ان هذا النقل عن الشيخ غير صحيح ، وإن كان أكثر المسلمين يعتقد صحة علته المذكورة . ولا يعقل أن يقول الشيخ ذلك لان فرنسا لا نفوذ لها في الازهر ولا في مصر فتقاوم ولان الانكليز لم يقاوموه لما هم عليه من الحرية وعدم التعرض للمصالح الدينية . على ان المصريين الذين لم يقدرُوا حرية الانكليز حق قدرها ولم يعلموا انها تمثلت مع الفضيلة في اللورد كرومر في أبهج صورها ، يتعجبون من عدم مقاومة الانكليز لاصلاح الازهر في السنين الماضية ، ويظنون ان لم بدأ في المقاومة الآن وأما الشيخ محمد عبده فقد سمعناه غير مرة يقول : انه ما قصد إلى خدمة المسلمين في شيء . واتي مقاومة فيه من غيرهم لامن انكليزي ولا من افريقي ولا من قبضي ولا من شامي . ولا غرو فان جهل المسلمين ونخاذلهم في هذا ان مصر كافيا لاجباط كل سعي لترقية شأنهم ، لا يحتاجون إلى مساعد في ذلك ، ومن يسعى بعقل لا يقاومه العقلاء هذه فرنسا التي كان منهجها في مقاومة تعلم المسلمين في الجزائر أمراً معروفاً قد أنشأت ترجع الى منهج الانكليز في اتساعه وقد تكلم الشيخ محمد عبده مع رجالها في تونس والجزائر في مساعدة المسلمين على التعليم فوجد منهم ارتياحاً الى ذلك وقد نشرت جريدة الطان من عهد قريب مقالة في الاحتفال بمدرسة الجمعية الخلدونية ذكرت فيها ان مصدر هذه الحركة العلمية في تونس هو الشيخ محمد عبده وبعض المجلات العلمية المصرية التي تبحث المسلمين على الجمع بين علوم الدنيا والدين وترد فيها رأي الذين يظنون أن تعليم النساء يضر بفرنسا لان هؤلاء المتعلمين يكونون دعاة لاستقلال البلاد وقيامهم على المستعمرين لها ، وترجت الازهرام مقالة الطان فسر بها المسلمون هنا . اهـ

والمراد ببعض المجلات العلمية المنارة ، وقد نشرنا فيه مقالا طويلا مترجماً عن جريدة الطان لا محل لبسطه هنا ، وليكتنا نقول مع الاسف إن ما أظهره بعض رجال فرنسة للاستاذ الامام في الجزائر من ميلهم الى اعطاء المسلمين ما يجب من حرية العلم والدين لم يصح فكان إما خداعاً وإما رأياً شخصياً ممن أبداه له هنالك

استطرد

في بيان حال الازهر في عهد الشيخ عبد الرحمن الشرييني

قد ظهر للناس عجز الاستاذ الاكبر، الشيخ عبد الرحمن الشرييني عن إدارة الازهر، فلم يستطع أن يعمل فيه عملاً، ولا أن يحقق لسمو الخديو وقدماء الشيوخ الجامدين أملاً، ولا أن يسير كما أراد الشيخ الطواهري سيراً يكون فيه [بين بين] أو مذبذباً.

وقد خضعت حالته في هذا الطور الاخير في ورقة واحدة جعلتها مقدمة لمقالة النواب محسن الملك قلت فيها بعد خبر تعيين الشيخ الشرييني وما بني عليه مما ذكره الخديو في خطبته مانصه (ج ٩ م ٩ في رمضان سنة ١٣٢٤)

« كان مدار ذلك الكلام على ان كل ما يهم الامير وحكومته من الازهر أن يكون في أمان وهدوء، وبعد عن الشغب والقلاقل، وأن يظل مدرسة دينية كما كان، وربما كانوا يظنون أن سكون الازهر وراحة أهله ورضاء كبار شيوخه عن الامير وإخلاصهم له هو مما ينتج به جمال الشرييني شيخاً للازهر لانه في مقدمة العلماء الازهريين الذين يرون وجوب بقاء الازهر على حاله التي كان عليها في زمن تعلمهم فيه، ويتوقف هذا على ترك الشيخ محمد عبده له وهو هو الذي يريد تغيير نظام التعليم وزيادة العلوم والفنون فيه، ولكن جاء الامر على نقیض ما كان يظن أولئك الظانون. فاستاء محبو الاصلاح من اهل الازهر لترك الاستاذ الامام لإدارته كما استاء عقلاء المسلمين في كل مكان.

« وأما المحافظون على الحالة العتيقة فقد رأيناهم على عهد الشيخ الشرييني أشد استياء من إدارة الازهر منهم على عهد من سبقه. كما أشرنا إلى ذلك في العدد الماضي وكثر في هذا كلام الناس وكتابة الجرائد بالشكوى من حال الازهر والطعن في علمائه حتى ان بعض الافندية كتب في بعض الجرائد اليومية يقول في جهل علماء الازهر وفقد الثقة بهم مامعناه: ان الناس لا يقصدون في حل مشكلات الدين والدفاع عنه إلا بعض حملة الطرايش، وفي ذلك هضم لغير الازهريين من حملة العاثم كأساتذة المدارس الاميرية وغيرهم » اهـ

وكتبنا قبله في آخر الجزء الثامن من المجلد ٩ (شهر شعبان سنة ١٣٢٤) مانصه :
 « كثر الخوض منذ سنة في الازهر ومشيخته ومجلس إدارته ، وكتب في
 الجرائد بعض ما يتحدث الناس به من الخلل في الإدارة ، والمحابة في الامتحان
 وشهادة العالمية ، وبيع الشهادات بالدراهم ، وما بين شيخ الازهر ومفتي الديار
 المصرية من المفاضبة والمناصبه . ومما أشيع ان المفتي شكاً شيخ الجامع إلى رئيس
 النظار وإلى السيد البدوي (!!) وقد بلغنا أن شيخ الجامع ضاق صدره فاستقال ،
 وانه سيقال بعد أن يعين الشيخ محمد شاكر وكيل الازهر تمهيداً لجملة أصيلاً بعد
 استشارة الامير لحكومته في ذلك ، وسنعود إلى ما نراه نافعاً من الكلام عن
 الازهر في الجزء الآتي اه

ثم كتبنا في آخر الجزء التاسع منه ما نصه :

« ذكرنا في الجزء الماضي ما كان بلغنا من استقالة شيخ الازهر وعزم الامير
 على تعيين الشيخ محمد شاكر وكيل الازهر تمهيداً لجملة أصيلاً ، وقد تحقق ذلك
 ولكن استقالة شيخ الازهر حفظت وحمل على طلب اجازة ثلاثة أشهر ، وعين
 الشيخ محمد شاكر وكيلاً لمشيخة الازهر ، فعظم ذلك على أهل الازهر واستنكره
 كبراء الشيوخ واستكبروا أن يكونوا مرئوسين له على حدائته في السن والعلم .
 وانتهى الامر إلى الحكومة أولاً إلى أولي الامر ، فخطبوا الامير في ذلك ، وتقرر أن
 الشيخ شاكر لا يكون شيخاً للازهر ولا وكيلاً ، وقد سمي الآن نائباً ، وقد زاد
 الشغب والاضطراب في الازهر في أيام نيابته ، على امداد الامير إياه بنفوذه ،
 ويتوقع أن ينتهي هذا التلاعب في الازهر بجملة تحت مراقبة نظارة المعارف إذ
 لا قرار إلا مع السلطة الثابتة المنتظمة ، واعلمنا نتكلم عن اصلاحه في جزء آخر اه
 وأقول الآن : ان هذه الكلمة الاخيرة كانت انذاراً للخدو ، سببه أن بعض
 الناس كانوا يسعون إلى هذا كما سمعوا من قبل ، ولكن الانكسار لم يرضوا بذلك ،
 وقد بلغنا أن بعض المصريين المتماقين لهم قل لمستر دنلوب مستشار المعارف :
 لماذا لا تصاحون لنا الازهر كما أصلحتم وزارة المعارف ؟ فقال له المستشار : إن

الازهر بناء متداع للسقوط من طبعه ولا بد من سقوطه ، فاذا وضعنا يدنا فيه قال الناس اننا نحن الذين أسقطناه

نم كتبنا في آخر الجزء العاشر منه - شوال سنة ١٣٢٤ ما نصه :

ألفت ادارة الازهر ثلاث لجان أو أربعة لامتحان الذين أنموا مدة الدراسة وهم كثيرون جداً . فامتنع كثيرون من كبراء الشيوخ أن يكونوا من أعضائها لان الشيخ شاكر نائب شيخ الازهر هو المؤلف لها والرقيب عليها ، فكان أكثر أعضائها من غير المشهورين ، وفيهم من صاروا مدرسين من عهد قريب ، ولكن هذه اللجان قامت بالامتحان بنظام واهتمام . وقد رأينا الازهريين المنصفين يفضلون نظام هذا الامتحان على ما كان قبله ، ولم نسمع الآن ما كنا نسمع في السنة الماضية (الدراسية) من أخبار المخابة والرشوة . والفضل في ذلك لمراقبة الشيخ شاكر ويقظته ، فله الشكر والثناء الحسن . ولعل ما سمعناه من أخبار التساهل واعطاء الدرجات لافراد لا يستحقونها مبالغ فيه ، ولعل الشيخ شاكر أعنى بتحقيق الحق في ذلك » اهـ

بعد هذا قبل الامير استقالة الشيخ عبد الرحمن الشربيني وولى مكانه الشيخ حسونة للمرة الثانية برضاء حكومته . وعلى يده نفذ مشروع مدرسة القضاء الشرعي . وقد كتبت في الجزء الاول من مجلد المنار العاشر الذي صدر في المحرم سنة ١٣٢٧ المقالة التالية :

أضر من الله وفتح قريب

(الازهر ومدرسة القضاء الشرعي)

قال الاستاذ الامام عليه رضوان الله تعالى « يستحيل بقاء الازهر على حاله فاما أن يصلح واما أن يسقط » وكان أكرم الله مشواه باذلاجل عنايته في اصلاحه حذراً من سقوطه وحرمان المسلمين مما يرجى باصلاحه ، وكان أقدر من عرفنا من الناس على هذا الاصلاح : وسائله ومقاصده ، وأحكامهم في تنفيذه ، الا انه أخطأ

في امر واحد لولاه لم له ما أراد من الاصلاح وهو فوق ما طلب منه . ذلك الامر هو محاولة اصلاحه برضى كبراء شيوخه واستعمالهم فيه بالاقناع دون السلطة الا مبدءاً به من وضع قانون لادارته ، والسمي في اصدار إرادة من الامير به ، بناء على قرار من مجلس النظر لعله أن العمل بدون ذلك متعذر ، ولا محل لشرح ذلك هنا ، بل موضعه الجزء الاول من تاريخه الذي نعتني بطبعه الآن وانما نريد أن نبين انه كان يحاول تنفيذ هذا القانون بدون استعانة بسلطة التنفيذ في البلد بل بمجرد اقناع شيخ الازهر وأعضاء الادارة

كان الشيخ حسونه النواوي اول من ولي المشيخة واختير للعمل بهذا القانون مع المرحوم وسائر من اختيروا للادارة ، وكان المرحوم هو الذي اختاره وسعى لدى الامير بتعيينه وكيلاً للشيخ الانبائي المرحوم ثم أصيلاً . وقد استعان على هذا ببعض صدقاته كالمرحوم امين باشا فكري . ذلك انه كان يعتقد ان الشيخ حسونه أميل الشيوخ وأرجاهم لقبول الاصلاح . علمت ذلك منه اول مقدمي لمصر سنة ١٣١٥ اذ قلت له : سمعت من بعض مجاوري الازهر الطرابلسيين ان شيوخ الازهر قد اتمضوا من جعل الشيخ حسونه شيخاً للازهر لانهم لا يعدونه من كبار العلماء ، فقال ان كانوا يعنون بذلك انه لا يقدر على ايراد الاحتمالات الكثيرة في مثل عبارة جمع الجوامع ، فهذا صحيح ، ولكن هذه الاحتمالات التي يوردونها ليست من العلم في شيء ، والشيخ حسونه أمثلهم . وقد دلت التجارب على صدق هذا القول — ولا تنسى فضل المرحوم السيد علي البيلوي الذي ظهر من فضله فوق ما كان يظن فيه — فان ماجرى على يد الشيخ حسونه أولاً وآخرًا لم يجر على يد غيره مثله

نعم كان الشيخ حسونه يرحي بعض ما يقترح المرحوم ، عملاً بالتدرج عن رأي واعتقاد ، ولكنه لم يكن يقرر الشيء ولا ينفذه كما فعل من جاءوا بعده ماعدا البيلوي ، وقد تقلب على الازهر في هذه المدة عدة شيوخ كان أشهرهم في علوم الازهر أعدم عن الاصلاح . فالشيخ سليم البشري من — أشهرهم — لم يجر على يده شيء من الاصلاح بل كان معارضاً لكل شيء ، فأرضى أمثاله من المحافظين

على القديم وأغضب طلاب الجديد ، والشيخ عبد الرحمن الشريبيني أشهرهم على الإطلاق وهو لم يفعل شيئاً ولم يرض طائفة من الطائفتين

قلت للاستاذ الامام مرة : ان قرار مجلس ادارة الازهر هو كقرار كل مجلس رسمي وكل محكمة يطالب القانون بتنفيذه ويماقب على تركه ، فلماذا لا تطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التي يتمتع شيخ الازهر من تنفيذها بصفة رسمية ، فلو فعلت هذا مرة واحدة لنفذ كل قرار (١) فقال : ان هذا لا يكون إلا بسلطة الحكومة واني أرجو أن لأدع الحكومة تتدخل في الازهر مادمت فيه فكيف أكون أنا الذي يدعواها الى ذلك ؟ فنحن ندعو الشيوخ بالاقناع معتصمين بالصبر وكان يكره أن يكون «المعية» أصبح في الازهر كما يكره أن يكون للحكومة يد فيه ، لاعتقاده ان خير الاصلاح في العلم والدين ما كان بعيداً عن السياسة ناشئاً عن اقتناع العلماء به واستقلالهم فيه ، ولكن «المعية» ولدت بالازهر ولوعا كاد يكون عشقا وغراما ، ولما رأيت أن تمتعها بهذا المعشوق لا يتم مع وجود هذا العذول الرقيب ، طفقت تماهضه حتى كان ما كان من أمر استقالته من ادارة لاهر ، وكان ما كان بعده من الخلل في هذا المكان ، حتى أدى ذلك إلى اقامة نائب عن شيخه الشريبيني يدير الامر من دونه عدة أشهر ، ثم إلى استقالته واعادة الشيخ حسونه إلى المشيخة ، وعلى يد الشيخ حسونه تم مشروع مدرسة القضاء الشرعي وصدر به الامر العالي فصدق قول المرحوم فيه «انه أمثلهم» في حياته وبعد مماته

مما كان ينويه المرحوم الامام من اصلاح الازهر انشاء قسم قضائي فيه يرشح فيه الطلاب لمنصب القضاء ، زاده حرصا عليه اقترح المستر سكوت المستشار القضائي الاول اصلاح المحاكم الشرعية وجواز جعل المتخرجين في مدرسة الحقوق الخديوية قضاة شرعيين . ولم أر الاستاذ مهتما في مقاومة شيء كاهتمامه في حمل الحكومة على الاغضاء عن جعل متخرجي الحقوق قضاة للشرع ، سمى في ذلك وحاول اقناع كبراء الشيوخ بأن يسعوا معه فلم يبر منهم مبالاة فكان يتململ ويقول إذا نفذ

(١) هذا السؤال وجوابه هو عين ما كان قاله لي في شأن الشيخ سليم كما تقدم حاولت بعد مدة أن أقنعه بهذه الشدة فرأيت رأيه لم يتغير

هذا المشروع قضي على الازهر . وقد نجح سعيه فلم ينفذ
وعند محاولات الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الالهية المحكمة
الشرعية العليا بمصر ولم يتم ذلك قوي عزمه وظن أن الفرصة سنحت لانشاء القسم
القضائي وقد فتحنا كوة للبحث في ذلك، إذ أنشأنا مقالة في المنار الذي صدر في ذي الحجة
سنة ١٣١٦ تقترح فيه انشاء هذا القسم القضائي ، ولكن حال دون إنشائه عزل
الشيخ حسونة من المشيخة وتولية الشيخ عبد الرحمن القطب في ٢٤ المحرم سنة
١٣١٧ ولم يلبث هذا أن توفي بعد شهر من توليته ، وولي الشيخ سليم البشري
الذي وقف في عهده سير الاصلاح ، وكان من أمر « العمية » من اول عهده إلى
الآن ما أشرنا اليه آنفاً، إلى أن انتهى باستقالة المصلح العظيم من إدارة الازهر، وبهذا
انقطع رجاء الحكومة من إصلاح حال القضاة الشرعيين الذين ضجت منهم الامة
طالبة باسان الجمعية العمومية ، ولسان مجاس الشورى إصلاح المحاكم الشرعية ،
فعمدت اليه بوضع مشروع إنشاء مدرسة قضائية يتولى هو بنفسه أمرها ، وكان
هذا المشروع آخر عمل إصلاحي عمله، إذ تم في أوائل مرض الموت، وما كان يؤمله
من هذا المشروع إلا انفصاله عن الازهر ، وقصارى ما أمكنه من وصله به جمعه
تحت نظر مفتي الديار المصرية دائماً ، وكان للحكومة معه وقفة في هذه المسألة
تبارك ناصر المحلصين، أحياء وميتين، فقد قضت حكيمته عز وجل أن يقوم بتنفيذ
المشروع وبجعله أشد صلة بالازهر سعد باشا زغلول ناظر المعارف لهذا العهد ،
ولا يجهل أحد من المصريين من هو سعد باشا من الامتاز الامام ، وان يكون
ذلك في عهد مشيخة الشيخ حسونة ، وبعد موافقته عليه وجعله تحت نظره، وقد علم
القراء اعتقاد المرحوم في الشيخ حسونة وما كان من نيته في أيام مشيخته الأولى . اهـ

ما أخطأه الامتاز الامام في إدارة الازهر

قلت في أول هذه المقالة انه أخطأ في اعتماده على اقناع علماء الازهر بالاصلاح
وذكرت في أثائها انه كان يجب عليه التنفيذ بقوة القانون ولو أفضى إلى تدخل
الحكومة . وسأذكر في الفصل التالي رأي خليل باشا حماده وانه لو قبله لثم له
ما أرادته ولكن صده عن هذا دينه وعما قبله وطنيته

الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي

قد توسل سمو الخديو بكل ما يقدر من الوسائل للانتقام من الاستاذ الامام وعزله من منصب الافتاء ومن إدارة الازهر ، وكل منها يتوقف على موافقة مجلس نظار الحكومة ، وموافقة المجلس يتوقف على موافقة مستشار المالية والعميد البريطاني من فوقه ، وكان من أسخف التدبير لاقتناع لورد كرومر بذلك انهم لفقوا صورة شمسية له مع جماعة أو أسرة من الرجال والنساء ونشروها في جريدة الحمارة الهزلية مع طعن في المفتي بأنه يجالس نساء الافرنج وذلك بعد إزراء بمنصبه الديني . وقد أرسلوا هذه الصورة الى لورد كرومر مع رجل أراد إقناعه بأن هذا بعد إزراء بمنصبه في عرف المسلمين وينبغي خروجه منه مراعاة لشعورهم ... فتبسم اللورد سخرية من هذه السخافة وقال : ان هذه الصورة لا يثبت لها عندى أصل ولكن الاستاذ يزورنا هنا ويحضر مجلسه لادي كرومر وغيرها من عقائلنا ، فهل يصح ان نعد هذا إهانة له أو لنا ؟ أم يصح أن نهتم بشعور المتمصين الجهلاء ونبني عليه عملاً مهماً كهذا ؟

والذي اشتهر أن تلك الصورة ملفقة أخذت عن صورة منفردة للمفتي وضمت بجانبها تلك الصور فكان الماخوذ عنهما كأنه ماخوذ عن أصل واحد . وقد نظم الاستاذ ابراهيم بك اللقاني المحامي الشهير والاديب الكبير أبياتاً في ذلك قال فيها :

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة

ودبروها وكانوا بقبة الاستشارة

ولطخوا بمد هذا بالطين وجه الحمارة

يعني بقبة الاستشارة سراي القبة محل إقامة الخديو . وبتلطبخ وجه الحمارة بالطين وهو مثل ما أعقب نشر جريدة الحمارة للصورة وطعنها من محاكمة النيابة لصاحبها والحكم عليه بالسجن

ومن هذه الوسائل مسألة منم الحج اتقاء للوباء فقد ابتكر هذه الوسيلة سموه وعرضها على لورد كرومر مباشرة ، بأن قال له إنه يمكن ذلك بأجازة العلماء

وإفتائهم، وهو يعلم أن الحكومة لا تعمل إلا بفتوى المفتي الرسمي فإن هو أفتى أقام عليه قيامة العلماء والجراند، وأسقط قيمته عند الأمة كلها، وإن لم يفت اسخط الانكليز ذكر اللورد ذلك لرئيس النظار، وهذا أخبر به المفتي وسأله عن رأيه فيه ففطن لمراد الخديو فرد مكيدته عليه ووضعها في عنقه بأن قال لرئيس النظار: إنه ليس لذلك إلا طريقة واحدة وهي أن يقول أمير البلاد وولي أمرها الشرعي إنه قد ثبت عنده أن السفر إلى الحجاز في هذه السنة موقع للحجاج في خطر وتهلكة فحينئذ يفتيه العلماء بأن له منعهم من القاء أنفسهم في التهلكة ما دامت معلومة ثابتة عنده. قال له الرئيس وهل يكفي ثبوت هذا عند الحكومة؟ قال المفتي: لا بد أن يثبت هذا عند ولي الأمر النائب عن السلطان وتكون مسؤوليته عليه وحده.. والاستاذ يعلم أن الخديو لا يقبل حمل هذه المسؤولية ففشلت الدسياسة ويشبه هذه المسألة ما جرى بيني وبين سموه في أثناء انكسار الجيوش البريطانية في حرب الترانسفال، قابلت سموه في قصر القبة وقلت له: إنه خطر في بالي أنه يمكن لأفندينا في هذه الأيام أن يسمى لجلاء جيش الاحتلال عن مصر بأسلوب ودي يمكن أن يرضي الانكليز، وهو أن يقول أفندينا للعميد الانكليزي: إذا كنتم في حاجة إلى إرسال من لديكم من جيش الاحتلال عندنا إلى الترانسفال فيمكنكم ذلك بمقتضى اتفاق معنا ترصونه لتأمين مصالحكم في مصر بدون وجود هذا الجيش، بل إذا شئتم أخذ جيش متطوع من المصريين لمساعدتكم فانتا تقبل ذلك... أو ما يستحسنه أفندينا من الأسلوب بعد استشارة من يثق بهم من رجاله لا غتنام هذه الفرصة للاتفاق مع الانكليز الخ

فتهلل وجه سموه، وقال هيه! وما هو رأي الشيخ محمد في هذا؟ قلت له: انني لم أذكر هذا له وإنما هو رأي خطر في بالي فرأيت أنه يجب علي عرضه على صاحب البلاد

قال طيب. اذهب من هنا إلى عين شمس واذا كره للشيخ ثم ارجع إلي فأخبرني برأيه فيه

فذهبت إلى دار الاستاذ الامام وقصصت عليه القصة فقال: أتدري لماذا

أرسلك إلي ؟ إنما أرسلاك لأجل أن يقول للورد كرومر إذا وافقت على هذا الرأي ان الشيخ محمد عبده يغريني بأن أغتحم هذه الفرصة لطرد الجيش الانكليزي من البلاد ... قلت انه ينتظري لا حمل له جوابك فماذا أقول له ؟ قال قل له إن هذه مسألة مهمة يجب على أفندينا أن يتفكر فيها كثيراً قبل أن يبرم فيها رأياً .

ومن تلك الوسائل مسألة صندوق التوفير الذي أرادت الحكومة إنشاءه في مصلحة البريد فسألت المفتي عن وجه شرعي له فقال يمكن اتخاذ طريقة شرعية لانتفاع الفقراء بما تريد الحكومة ان تعطيتهم إياه في مقابلة توفير نقودهم في صندوق البريد . ولما ذكر ذلك لسموه قل بل انا الذي أتولى هذا الامر وبيان الطريقة الشرعية مع العلماء ، وطلب جماعة من علماء المذاهب إلى قصر القبة وذكروا لهم المسألة وكان يظن أنهم يتفقون على أن ما أشار به المفتي مخالف للشرع ومبيح للربا ، فخاب الظن وكان رأي المفتي ، فلما بلغ ذلك الحكومة فطنت لمراد سموه وأما الوسيلة الكبرى فقد كانت الفتوى الترانسفالية المشهورة فهذه هي التي أقاموا لها القيامة ، وقالوا إن المفتي أحل ما حرم الله من كل الموقوذة . وأرادوا استفتاء شيخ الاسلام في الآستانة أو استفتوه بالفعل ليحتجوا بفتواه على بطلان فتوى مفتي الديار المصرية فلم يفهم . وسنبت الكلام على هذه المسألة في المقصد الآتي وهو عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء وفي أثناء ذلك رفعت تقارير إلى السلطان عبد الحميد بالظمن في مفتي مصر ورميه بعبادة الخليفة والسعي لخلعه ، وقابل ذلك آخرون بتقارير في الظمن في سمو الخديو وإثبات انه هو القائم بما يتهم به المفتي بل هو يطمع في منصب الخلافة والمفتي هو الذي يعارضه وحده . ومن أدلة ذلك أنهم لقبوه في مجلس شورى القوانين بصاحب الجلالة فاعترض المفتي الشيخ محمد عبده على ذلك وأمر كاتب المجلس بشطب لقب صاحب الجلالة ووضع لقب الجنب العالي في موضعه ، وقد اشتهر ذلك ونشر في الجرائد . وكذلك فعل أحد الخطباء في خطبة الجمعة على مسمع من سموه ولم يعترض على ذلك إلا المفتي .

وقد اطلعنا على تقرير رفعه الى المايين سمادة يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي نذكر هنا اهم مواده الخاصة بهذه الدسائس وما في معناها وهي :

مواد التقرير الذي رفعه إلى المايين الهمايوني

صاحب السعادة يوسف طلعت باشا صاحب جريدة الراوي اليومية

(البند الأول) ان الخديو يحاول أن يجعل الازهر آلة سياسية دينية يهدد بها مولانا السلطان وغيره لقضاء ما ربه وهو متمكن من التأثير على مشايخه البسطاء ونسكن وجود المفتي في الازهر يحول دون غرضه فانه رجل قوي المزينة ويعتقد أن استعمال رجال الدين في السياسة يضر بالاسلام والمسلمين ، ويعتقد أن المحتلين يتدخلون في كل شيء يتداخل الخديو فيه ، فيخاف أن تمتد أيديهم إلى الازهر فهو يقاوم ذلك وله حزب في الازهر يؤيده حتى ان شيخ الازهر الحالي على رأيه

(البند الثاني) ان الخديو يستعين على استعمال المشايخ والتأثير عليهم بمال الاوقاف العمومية والخصوصية . والمآتي يعاكسه في ذلك بما له من النفوذ في مجالس الاوقاف الاعلى . وطريق الاستمالة هو أن ماهيات المدرسين والخطباء كلها من الاوقاف ، هذا فضلا عن المطايا الخصوصية السرية ، ويدل على هذا البند وما قبله البنود الآتية

(البند الثالث) وضع المفتي مشروعاً في الاوقاف يسدي مشروع المساجد اقترح فيه أن يكون جميع الخطباء من المدرسين في الازهر ، وأن تكون ماهياتهم معينة مقررّة ، وكذلك رواتب المدرسين والوعاظ لكي يقوموا باداء وظائفهم على الوجه النافع ، ولا يكون لاحد سلطة عليهم ولا تأثير لئلا يفرضهم بشي سياسي كما أغرى بعضهم بترك اسم السلطان في الخطبة غير مرة . وقد رضي الخديو من مشروع المفتي أن يكون الخطباء من المدرسين ، ولكنه عارض أشد المعارضة في أن تكون ماهيات الخطباء والمدرسين مقررّة لتكون في يده دائماً

(البند الرابع) لما كانت الخاصة الخديوية عقدت اتفاقاً مع الخواجه بيدساكي الرومي وشركاه لاستخراج معادن طشيوز ومنعت الدولة العملية الشركة من ذلك عاد بيدساكي إلى مصر وأراد رفع قضية على الخاصة الخديوية يطالبها فيه بالتعويض المالي فأمر الخديو فيضي باشا مدير الاوقاف العمومية يومئذ بصرف سبعة عشر ألف

جنيه إلى يساكي حتى لا يرفع القضية فدفعها المدير بدون استشارة المجلس الاعلى
فعارض المفتي في ذلك واحتج عليه ، وأخيراً قرر عدم المسئولية على فيضي باشا
لانه مأمور من الناظر الحقيقى على الاوقاف وهو الخديو ، وعلى ان هذا
هو المسئول وحده .

(البند الخامس) لما أرسل الخديو المهندسين الى طشيوز لفتح الطرق للجبال
والغابات أمر لهم بستمائة جنية من الاوقاف فصرفت بدون اذن المجلس الاعلى
فاحتج المفتي على ذلك كالذي قبله . وكان هذا وذاك سببا في فصل الاوقاف
الخصوصية عن الاوقاف العمومية . وإيراد هذه الاوقاف يزيد على خمسة وثلاثين
ألف جنية في السنة يصرف عليها منها نحو سبعة آلاف جنية ويستعين بالباقي على
مقاصده وهذا ماعدا وقف خليل أغا العظيم الايراد الذي ضمه أخيراً

(البند السادس) انه أراد من مدة قريبة أن يربح من الاوقاف العمومية
مبلغاً عظيماً فاتفق مع الخواجه زرفوداكي الرومي على أن يكون هذا واسطة استبدال
أبدية للخديو اسمها مشتهر تبلغ نحو ١٢٤٧ فداناً بارض الاوقاف في الجزيرة تبلغ
١١٢ فداناً ونصف قرر المجلس الاعلى أن تباع للمباني وذلك بان يعرض
زرفوداكي أرض مشتهر على ديوان الاوقاف بسعر ١٣٠ جنيهاً في الفدان وأن يحسب
سعر الفدان من أرض الاوقاف بمبلغ ١٢٥٠ جنيهاً ثمن الفدان ليكون ربح الخديو
من ذلك ثلاثين ألف جنية ، وكلم في ذلك أعضاء المجلس الاعلى واستمال كثيراً
منهم . ولما عرضت المسألة على المجلس عارض فيها المفتي ووافقته حسن باشا عاصم
رئيس الديوان الخديوي فاضطر الباقون لموافقتها لان الحق معهما ، وكانت
النتيجة أن ديوان الاوقاف لم يكتف بالتخلص من دفع الثلاثين ألف جنية إلى
زرفوداكي بل أخذ منه عشرين ألف جنية وبذلك يرى الخديو أنه خسر في هذه
الصفقة خمسين ألف جنية

(البند السابع) لما رأى الخديو أن المفتي هو العقبة في طريق اتخاذ الازهر
والخطباء آلة سياسية أراد أن يزيله من الازهر ، فرأى النظار والمحتامين لا يرضون
بذلك ، فأراد أن يستعين عليه بشيخ الازهر وبعض أعضاء إدارة الازهر فرأى

أن نفوذ المفتي هو الغالب وان شيخ الازهر وأعضاء الادارة لا يمكنهم معا كسوة المفتي . ومن ذلك انه أرسل الشيخ توفيق البكري إلى شيخ الازهر يبلغه أمره بأن يوجه كسوة تشريفة من الدرجة الاولى كانت منحلة الى الشيخ محمد راشد امام المعية وكان مجلس إدارة الازهر قرر توجيه الكسوة الى شيخ آخر قيل للخديو انه من حزب المفتي ولذلك أراد منعها عنه ولكن المفتي لم يقبل الا بتنفيذ قرار المجلس ووافقه الشيخ والاعضاء ولم يعمل بأمر الخديو

(البند الثامن) رأى الخديو أن يعزل ثلاثة من أعضاء مجلس إدارة الازهر ويضع بدلهم ثلاثة له أمل في موافقتهم له على كل ما يريد منهم امام معيته ، فوعد الى شيخ الازهر بأن يعزلهم فلم يقبل فأرسل اليهم الشيخ توفيق البكري يرغبهم في الاستعفاء ، فقال لهم المفتي : ان البكري لا ثقة به ولا يعمل بتبليغه والالزام ممنوع فإذا قال لكم الخديو بصفة رسمية استعفوا فلا بأس ، وعند ذلك يكون لكم عذر عند الحكومة إذا سألتكم عن سبب الاستعفاء ، فلم يقبل احد منهم أن يستعفي . وقد باغ عضو آخر بان الخديو يريد مقابلته « لاجل إقناعه بالاستعفاء » فقال لا أذهب إلا بطلب رسمي . ومعلوم ان الخديو لا يمكنه أن يعمل عملاً رسمياً هناك وإنما يريد ان يكون ذلك خفية ويرى أن المانع الوحيد هو المفتي

(البند التاسع) ان الخديو تمكن من إقناع احد الاعضاء بالاستعفاء وذلك بان وعده بزيادة ماهية له في جامع غير الازهر جنيمين ونصفا في الشهر فاستعفى . ولكن الخديو لم يقدر أن يمين بدله أحد الذين يثق بهم وبظن أن المحتلين هم الذين حالوا دون ذلك لانهم يعرفون جميع مساعيه وبما كسونه فيها وهو الذي يساء لهم على نفسه فانه لا يكتف شيثا فاذا عزم على شيء ييوح به لجميع من يجتمع به اولئك الذين منهم وان كان يعتقد بعدم إخلاصهم وإذا قال له اللورد كرومر : لا تفعل فانه لا يفعل

(البند العاشر) ان الخديو بعد أن رأى نفسه عاجزاً عن عزل المفتي الذي يعارض مساعيه في الازهر والاوقاف شرع في معاكسته بأمرين : أحدهما الاستعانة بمولانا الخليفة الاعظم على عزله بحجة انه أفتى بما يخالف الشرع . وثانيهما : إنشاء جريدة اسمها (الظاهر) لاجل إسقاط نفوذه الديني وإضفاء حربه المؤلف

من طائفة من العلماء ومن أكثر رجال الحكومة والمدارس
(البند الحادي عشر) أن الخديو يظن أنه إذا أمكن غش شيخ الإسلام في
دار الخلافة العالية وأخذت منه فتوى ضد المفتي فنها لا تاتي معارضة ، ولكن
الارجح عندنا انها تلتقى أشد المعارضة من المحتملين نظراً لسياستهم العلومة ومن
الحكومة لانها تؤيد المفتي . ومن أكثر العلماء وأهل الفهم في مصر لانهم مقتنعون
بصحة الفتوى ، وقد زادتهم الجرائد تحزبا للمفتي . وقد تحقق ان اللورد كرومر
قال للخديو : إن كان تحريك بعض الشايخ ضد المفتي لاجل فصله من الافتاء فاسمح
لي بان أقول ان مادام ابريطانيا المظمى نفوذ في مصر فان الشيخ محمداً عبده يكون
هو المفتي حتى يموت . واننا نعلم الآن انه لا يوجد في مصر حزب ضد مقام الخلافة
ويخشى أن يوجد ذلك إذا فرضنا مداخله سباحة شيخ الاسلام في هذا الامر لاسيما
إذا لم يعمل بقوله كما هو الراجح عندنا

(البند الثاني عشر) ان جريدة الظاهر التي سلطتها الملية على تخطئة فتوى
المفتي جريدة غير منتشرة ، وقد قامت ضدها أكثر الجرائد اليومية والاسبوعية
ولم تنتصر لها جريدة الا اللواء ككتب فيها جملة مختصرة وجريدة أسبوعية
أخرى من الجرائد التي تسمى الساقطة تطبع في مطبعتها ، وان أكثر الجرائد
التي ردت على جريدة الظاهر لم تذكر اسمها لئلا تشتهر . وان صاحب هذه
الجريدة جاهل بالشرع ، ومن الذين يقضون معظم أوقاتهم في شرب الخمر جهرا
ولعب القمار فليس اكلامه في الدين أدنى تأثير . وان الحكومة قد سلبت
هذه الجريدة الامتياز فاعتبرتها من الجرائد الساقطة وكان يكتب على كل عدد
منها « قررت عموم المحاكم الاهلية جريدة الظاهر رسميا لنشر الاعلانات » فصدر
الامر بعدم كتابة هذه العبارة فسقطت بذلك قيمتها بالارة وقد ردها كثير من
الذين كانوا قبلوها

(البند الثالث عشر) أن الخديو كان قد اتخذ عدة وسائل قبل الطعن
بالفتاوى التي اعترضت عليها جريدة الظاهر لايجاد نفوذ ديني في مصر ولا سقاط
النتي ولم ينجح في شيء منها لوقوف الحكومة على انها مدبرة من قبله . أهمها

مسألة الحج فإن الحكومة في العام الماضي لم تكن تفكر في منع الحج حتى قابل سموه اللورد كرومر وقال له انه يمكنه أن يتخذ طريقة لمنع المصريين من الحج بعد مشاورة العلماء فباع اللورد النظار ذلك فسأل هؤلاء المفتي فقال لا طريق لذلك إلا أن يستفتي الخديو بصفته أميراً للبلاد ، ويقول انه قد تحقق عنده بأن الحجاج المصريين اذا ذهبوا إلى الحجاز يكونون على خطر وانه يريد تأخير الحج إلى أن يزول هذا الخطر المحقق عنده هو . فاذا استفتي على هذه الصورة فإن المفتي والعلماء يفتونه بالجواز والمستولية عليه . فقال النظار واذا طلبت الحكومة هذا الفتوى بهذه الصورة فيماذا نجاب ؟ قال المفتي إن العلماء لا يعرفون في مثل هذا الامر إلا الامير نائب السلطان على البلاد . وبعد ذلك علم الخديو بجواب المفتي للحكومة فغضب غضباً شديداً ثم انتهى الامر باجتماع مجلس النظار تحت رياسته وأقر على الضريبة التي ضربت على الحجاج في العام الماضي ، وخففت في هذا العام ، وكان الخديو أراد أن يكتب في المؤيد ان الحكومة كانت تريد منع الحج وأن الخديو حامي حى الدين هو الذي عارضها في ذلك ولكن الذي منع من ذلك هو العلم بان الحكومة كانت عازمة على تكذيبهم في الجريدة الرسمية وبيان الحقيقة (البند الرابع عشر) أن من جملة وسائله للظهور عند العامة بمظهر المحامي عن الدين مسألة صندوق التوفير في البوستان ، فمذا الصندوق جعلته الحكومة لحفظ ما يوفره الفقراء مما يزيد من إيرادهم على مصاريقهم ومصلحة البوستان تستغل هذه الدراهم التي تحفظ فيها . وقد تبين لها أن نحو ثلاثة آلاف فقير لم يقبلوا أن يأخذوا ما تقرر في الديكرتو الخديوي من الربح ، فسألت الحكومة المفتي هل توجد طريقة شرعية ؟ فأجاب شفاهاً بإمكان ذلك بتطبيق استغلال النقود المودعة في الصندوق على أحكام شركة المضاربة . ثم ذكر رئيس النظار الخديو بتحرير الديكرتو الخديوي وتطبيق المشروع على الشرع فأظهر سموه الارتياح ولما قال له رئيس النظار : إننا استشرنا المفتي غضب غضباً شديداً وقال كيف يبيع المفتي الربا ؟ لا بد أن استشير غيره من العلماء ، ثم جمع جمعية من مشايخ الازهر في سراي القبة وكلفهم بأن يضعوا له طريقة شرعية لصندوق التوفير ليظهر أمام العامة

بأنه هو المحامي عن الدين والمطبق له على الشريعة ، وأن الحكومة كانت عازمة على إلزام المسلمين بأكل الربا والمفتي مساعد لها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك فإن المشروع الذي وضعه العلماء قدمته المعية لنظارة المالية فعرضته نظارة المالية على المفتي لتأخذه رأيه وتعمل به فوجده المفتي هو عين الرأي الذي كان قاله شفاها (البند الخامس عشر) جاء رجل من الترنسفال وسأل المفتي عن ثلاث مسائل : عن جماعة يلبسون البرنيطة لقضاء مصالحهم عند النصارى ، وعن أكل الذبائح التي يذبحها النصارى هناك مع العلم بأنهم يضربون البقر قبل ذبحه بالبلطة ثم يذبحونه بغير تسمية كما يظن فيهم وفي أمثالهم ، وعن صلاة الشافعية خلف الحنفية فأفتاه المفتي بأن لبس البرنيطة لا يكون كفراً إلا إذا قصد لا بسها بلبسها الخروج من الاسلام والدخول في غيره ، ولا يكون مكروهاً إلا بقصد التشبه بالكافر ، ويجوز أكل ذبيحة أهل الكتاب ، وصلاة الشافعي خلف الحنفي لأن الجميع مسلمون . فعلم الخديو بذلك وظن أن الفتوى مخالفة للشرع أو للمذهب فأوعز إلى جريدة الظاهر واستكتب بعض المشايخ عريضة فيما قل ذكرها فيها الاسئلة والاجوبة على غير وجهها فيما يقال أيضاً ، وكان يظن أن مجرد ظهور الفتوى كاف في إسقاط نفوذ المفتي الديني أو التوصل إلى عزله فظهر له خلاف ذلك

(البند السادس عشر) ان النتيجة من كل ما تقدم أن سمو الخديو يريد أن يجعل لنفسه سلطة دينية آلتها الازهر وماليتها الاوقاف وقد حدث بهذا كثيرين وقال ان أورد يا تهاب البابا والساطان لاجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا ، وأنه مادام الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية وعضواً في الازهر وفي مجلس الاوقاف الاعلى وفي شورى القوانين ، فإن يتم له في ذلك عمل إلا العمل الرسمي القانوني الظاهر لكل أحد . وان الشيخ توفيق البكري الذي حسن له هذا الرأي لا نفوذ له في هذه البلاد (١) ، وقد ساءت الناس قصيدته التي كان زين للخديو فيها دعوى الخلافة ورضي عليه هو وحده بسببها واتخذها الآن ساعياً فيها بينه وبين مشايخ الازهر واكن بدون ذكر لفظ « الخلافة » (٢) فالمفتي هو المعقب في طريق هذه السلطة وحزبه كبير جداً اه المراد من هذا التقرير

(١) قد حذفنا من هذين الموضعين كلاماً لصاحب التقرير يضمن فيه على البكري

خلاصة الخلاصة

في اصلاح الازهر

ان اصلاح الذي كان ينشده الاستاذ الامام في الازهر قسمان : صوري ومعنوي ، فاما الصوري فهو (١) النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية ، و (٢) توسيع دائرة العلوم والمعارف ، و (٣) ترقية اللغة العربية . واما المعنوي فهو (١) اصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم و (٢) صحة القصد فيه بما يقضي إلى ارتقاء الامة في دينها ودنياها ، و (٣) اصلاح الاخلاق بالصدق والاخلاص وعزة النفس والسخا والوفاء الخ

فاما الاول فقد شرحنا ما قاساه في وضع قوانينه وتنفيذ نظمه مع اعداء النظام ، ولكن النظام وجد ولا يزال يصارع ماتربى عليه القوم من الفوضى والخلل في كل شيء ، ولا بد أن ينتهي الامر بانتصاره ولو بعد حين

واما الثاني فعمدته فيه ما كان يبته هو في دروسه التي تفيض روحا محييا ، وتتألق نورا ساطعا ، وقد قال فيه ما معناه : اني بذرت في الازهر بذرا إيا أن ينبت ويشمر ويؤتي أكله المغذي للعقل والروح فيحيا به الازهر حياة جديدة ، وإيا أن يقضي الله على هذا المكان قضاءه الاخير ، وقد نبت ذلك البذر فصار زرعاً أخرج شطأه واكن قل من يتعاهده بالسقي ومنع الحشرات الضارة ليستوي على سوقه ويؤتي أكله وقد أشرت إلى هذا فيما زدت بعد موته في (المقصورة الرشيدية) قلت بعد وصفه ، وما قام به من اصلاح مع السيد جمال الدين ومن بعده ، مغالبا فيها الرجاء في الازهر على اليأس :

ماتم للامام ما أراد من خطتي اصلاح هدا وبنا
ولم يفته كل ما شاء فقد خرج من يتم كل ما بنى
إذا استجاب الله ما به دعا وزال ما حذر به بما رجا (١)

(١) اشارة الى الايات التي قالها قبيل وفاته

وعلم الازهر كيف يفقهه الـ
 من غير بحث في مقال من خلوا
 علمه التوحيد كي يفقهه
 علمه التفسير كما يهتدي
 وعلم (أسرار البلاغة) التي
 علم (بصائر المنطق) كي
 وهل وراء الدين واللسان والـ
 قات يك الازهر لم يصلح بها
 ونبتت من غرسه نابتة
 وترفع الحجر عن المعهد او
 حتى ينال وهو قد أشفى الشفا
 ثم يولي المسلمون شطره
 ماوردوا حياضه وصدروا
 فأحيوا الاسلام في أنفس من
 فماد أهلا إلى موطنه
 واستتبعت غربته المجد كما
 دين ويطلب العلوم واللغى
 يكثر فيه الاحتمال والمرا
 بعقله لا بعقول من مضى
 به على علم صحيح يقتفى
 (دلائل الاعجاز) منها تبتفى
 يقيم ميزان العلوم للحجى
 مقل إذا أصلحتهم منتهى
 فقد نأى عن سبل من كان مأى (١)
 ستلأم الصدع وترأب الثأى (٢)
 يعود جحر الضب رحبا كالفضا (٣)
 من مرض بات به على شفا
 ينحونه من كل فج ورجا
 إلا يفيضون علوما وهدى
 واصاهم بهجره صرف الردى
 من غربة طال بها عهد النوى
 كان فماد الامر مثاما بدا (٤)

(١) مأى بالغ وتعمق، والمعنى انه قد نأى وبعد عن طرق أولئك الشيوخ
 المتطمين في التعمق بالمناقشات اللفظية في عبارات الكتب (٢) لأم الشيء اصلحه
 والصدع جرحه وشده قالنأم وزال، وفي معناه رأيه واصلاحه، والثأى الفساد (٣) إشارة
 إلى حديث « لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر
 ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال « فن؟ » والمعنى أن تلاميذه
 ومريديه سيقفون الحجر عن القول فيفهموا العلم والدين إلى أن يخرجوا أهله
 والمسلمين من الضيق الذي يشبه جحر الضب (٤) إشارة إلى حديث « بدأ الاسلام
 غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وفي رواية بمعناه مع زيادة « فطوبى للغرباء الذين يحبون
 ما أمات الناس من سنتي » وبأحيائها تتمر هذه الغربة المجد، كالغربة الأولى



دار الفصيل للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

تَارِيخُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

الشيخ محمد عبد الله

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الأول

القسم الثاني

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرة موقظ الشرق وحكيم الإسلام

السيد جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

جامعة

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

علاقة الامام بالامير

رأينا من المناسب في هذا المقام أن نمقد فصلاً خاصاً نبين فيه ما كان من علاقة الاستاذ الامام (رح) بسمو أمير البلاد يكون فاصلاً بين عمله في الازهر وعمله في منصب الافتاء ، فنقول :

توفي المرحوم محمد توفيق خديو مصر في ٦ صفر سنة ١٣٠٩ (الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٨٩١ م) وكان ولي عهده عباس حلمي في النمسة يتعلم في المدرسة التي يتعلم فيها أولاد الملوك والامراء في النمسة ، فصدر الفرمان السلطاني بتقليده منصب الخديوية لانه اكبر أبنائه ، فعاد الى مصر وتولى أريكتها وهو ابن ثمانى عشرة سنة قمرية و ١٧ شمسية فنفتح في البلاد روحاً جديداً من الوطنية والشجاعة المعنوية ، جرأت الامة على مناهضة الاحتلال ، وقوت الآمال بالاستقلال ، فجذب اليه الرجال المخلصين الجامعين بين العلم بحال العصر وسياسته ونظامه ، وبين الاخلاق العالية ، كقوة الارادة والثبات والايثار والتفاني في سبيل المصلحة العامة ، وكان في مقدمتهم الشيخ محمد عبده من علماء الدين والدنيا ، وحسن عاصم وحزبهما من رجال القضاء والادارة في هذا العهد نال الاستاذ الامام الخطوة عند الامير الشاب المتحمس وأقنعه بما تقدم بيانه في أول هذا المقصد من فوائد اصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والاقواف (ص ٤٢٧) فهداه بالنهوض بالاول ، وأمدّه بالنفوذ وبالمال من خزانة الاوقاف العامة كما شرحناه فيه

ولكن لم يلبث الامير الشاب أن حوم حواه أولو التلق والتناق من رواد المنافع الشخصية الذين يتزلفون الى الملوك والامراء ، بما يلذ لهم من الاطراء ، والتذلل والاستخذاء ، فصادفوا منه اذناً صاغية ، ونفساً واعية ، فكانوا كباقربوا منه ، يجتهدون في إبعاد أولئك المخلصين عنه ، وفاقاً لسنة الله في تنافي الاضداد ، وهو عين ماء قع لو لده من قبله ، اذ ولي الاريككة وهو متشبع بآراء السيد جمال الدين الاصلاحية ، وعازم على النهوض بالبلاد إلى ذروة الحكومة النيابية ، وبهذه النية

عاد رياض باشا من اوردية الى مصر وألقى اليه مقاليد الوزارة ، وأسس له قياد التصرف في الاصلاح ، فمضى فيه بعزيمة ثابتة ، حتى أيقن الاوربيون أن مصر ستدرك مقام الدول الراقية ، ولكن لم يلبث أن ألقى سممه الى المتزلفين من عباد المنافع الشخصية فغير واقلبه عليه ، وورطوه فيما أفضى به الى إضاعة استقلال البلاد ، كما شرح ذلك الاستاذ الامام في أسباب الفتنة العراقية^(١)

كان من أولئك المتزلفين بعض شيوخ الازهر الذين اتصلوا بالخديو الشاب فاغتر بشهرتهم وسمعتهم وشكاهم ، وخضوعهم وخشوعهم وخنوعهم ، فشكوه أولا فيما كان أقنعه به الشيخ محمد عبده من فساد التعليم في الازهر وفساد الاخلاق في رجال العلم والدين ، والحاجة الى تجديد التربية والتعليم فيه ، شكوه حتى شك أو كاد ، ثم اقتنع بأن الشيخ مبالغ في وصف سوء حالهم ، ولكنه لم يشك في حسن نية مما قام به ودعا اليه من النظام الاداري والصحي والبيداجوجي لانه يفهم هذا أكثر من جميع علماء الازهر

واني أنقل عن سموه كلمتين سمعتهما منه بأذني ولا بد أن يكونا على ذكر منه ، فانه قوي الذاكرة قلما ينسى شيئا مر به ، قال لي في سنة ١٣١٩ وأنا ماثل بمحضرة في قصر القبة مامعناه : ان الشيخ محمد عبده يقول لي ان علماء الازهر ليس لهم عناية بأمور المسلمين العامة ، وما يصلحها من نظام التعليم والتربية ، وانما جل عنايتهم محصور في أمر معيشتهم ومصالحهم الشخصية ، اي الجراية والراتب وكسوة التشريفة ، وهل يعقل يا شيخ رشيد أن يكون هؤلاء الائمة المحترمون كما يقول ؟ وقد أخبرني الامام في ذلك العهد إنه انما قال له هذا لاعلامه بان شكواهم من الادارة والنظام في الازهر ليس لاجل المصلحة وان سموه إذا صرح لهم بأنه راض عن ذلك ويحب مساعدتهم عليه فان الشكوى تنقطع في الحال ، ويجري الاصلاح بسهولة جريان الماء الزلال . قال ولكنه هو يلتذ بالشكوى له فهو يغريهم بها من جهة ، ويساعدنا على الاصلاح من الجهة الاخرى

ثم قل لي سموه في أول مقابلة مثلت بها بين يديه في قصر القبة سنة ١٣٢٩ بعد غضبه

عليّ مدة تسع سنين بالتبع لغضبه على الشيخ رحمه الله : تعال يا شيخ رشيد تعال .
الله برحم الذي كنت تعمل معه أينما ذهب . انه قد ثبت عندي أنك تعمل لخدمة
الاسلام لانفسك وانه ليس لك مصلحة شخصية ، انك لم تطلب مني شيئاً لانفسك
قط . واني قد جربت هؤلاء العلماء ١٨ سنة (١) وكنت أحسن الظن بهم ، ولكنني لم أر
أحداً منهم يهتم إلا بالجراية والجنيه أو كسوة التشریف . فعندما قال كلمته الاخيرة
خطرت بيالي كلمة سموه الاولى التي أنكر بها على الاستاذ الامام ما هو نص كلمته الثانية التي
ثبتت له من التجارب الطويلة بضم عشرة سنة ، ولكنني لم أذكرها لثلاث أغضبه ،
وهو انما طلبني لاجل أن يقنعني بعدم العودة إلى الآستانة لانشاء (مدرسة
الدعوة والارشاد) وبأن انشاءها في مصر خير وأنفع ، وانه مستعد لمساعدتي عليها .
وقد فعل ، ولم يكن يكره أن يكون هذا العمل العظيم في الآستانة بل قال لي ان
وجود هذه المدرسة وجمعيتها في مصر سيقنع الدولة بانشاء مثلها في الآستانة
ويمكن حينئذ توحيد المشروع هنا وهناك ...

هذا واني لا مندوحة لي عن اعطاء هذا التاريخ حقه من بيان الحقائق في هذا
الموضوع العظيم الشأن ، وهو التصريح بان سمو الخديو عباس قد عرض له بعد
الطور الاول من إمارته الذي نفخ روح الحياة الاستقلالية في بلاده أمر آخر ظن
انه يكون أعظم عون له على سياسته التي تغافل فيها فكان أعظم أسباب فشله
وهو الاستكثار من المال ، فعني بهذا الأمر حتى كان شغله الشاغل الذي
صغر أمامه كل شيء . وكان ديوان الاوقاف امامة رهن تصرفه فأراد اللورد كرومر
أن يحول بينه وبين ماشاء من تلك الاموال الكثيرة ، فسمى لافشاء المجلس
الاعلى للديوان الذي لا يجوز التصرف بشيء ذي بال من أمواله إلا بقرار منه
ولما ولي الاستاذ الامام منصب افتاء الديار المصرية صار بمقتضاه عضواً في مجلس
الاوقاف الاعلى . وكان بتأثير تدينه وورعه معارضا لما يراه غير حق مما يريد
الخديو من الاوقاف . فكان هذا أعظم أسباب سخطه عليه ومعارضته فيما يريد

(١) او قال كلمة بمعنى انه لم بهم هذه المدة

من إصلاح الازهر، بل هو السبب الاصيل الذي وطأ السبيل لغيره من أسباب الاستياء التي كان يستغلها الدساسون .

ومن الأدلة على ذلك أن أعلم الناس بحال الخديو كانوا يقولون للشيخ رحمه الله : أترك له الاوقاف ولا تعارضه فيها ونحن نضمن لك أن يطلق يدك في إصلاح الازهر ويساعدك عليه بكل ما يستطيع . ومن هؤلاء الناصحين العارفين أو أمثالهم خليل باشا حماده الشهير الذي تولى إدارة الاوقاف العامة في مصر . ثم وزارة الاوقاف في الآستانة

خرجت معه ليلة من الازهر بعد العشاء كمادتنا في ليالي دروسه، فقال لي ان حماده باشا عندما فاذهب بنا إلى عين شمس نعيشي معه ونحدث ، فذهبنا ، فكان جل حديث الباشامعه فيما جاء من الاسكندرية لاجله وهو اقناعه بترك الخديو يتصرف في الاوقاف كما يشاء لاجل أن يتركه يتصرف في إصلاح الازهر كما يشاء، وكان يقول له على المائدة مراراً « يا سيدي الاستاذ أبوس إيدك ، والله ان اطلاق الحرية لك في إصلاح الازهر خير لك والاسلام والمسلمين في الدنيا والآخرة من كل ماتوفره من مال الاوقاف لديوانها .. » قال الاستاذ الامام عفا الله عنه : أنا أعلم هذا ولكن وجداني ومراقبتي لله تعالى لا يمكنني من إقرار مالا يبيحه الشرع . والباطل لا يكون وسيلة إلى الحق

(أقول) وهذا ما كان يعد ضعفا في سياسة الامام رحمه الله تعالى ، فالمصالح العامة تبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وتقديم أرجح المصلحتين ، ويتفق هذا مع مذهب الامام مالك رحمه الله الذي نشأ الاستاذ عليه .

هذا هو السبب الأول وعلة العمل لتحول قلب الخديو عن هذا الرجل المصلح الذي كان يجب أن يجعله عمدة فيما يصلح شعبه وبلاده ولما تنكر قلبه تجددت عنده أسباب أخرى للكره تنحصر في ثلاثة

(الاول) ما كان يراه من عزة نفسه ، على ضد ما يراه من كبار علماء البلاد من الذلة له ، بل لم يكن يرى من أحد من الامراء ولا من الوزراء ، ما يراه منه من الشم والاباء ، وقد كانت آداب الشيخ معه تحجب عنه كبر نفسه في طور

رضائه عنه ، فلما سخط عليه صار يراها بمنظار ذي عدسية زرقاء مكبرة ، حتى صار يقول : انه يدخل علي كأنه فرعون . ولما باغ الشيخ هذا القول من صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي قال : انه يجزيه ، أهو فرعون أم أنا؟ انني لست إلا رجلا من رعيته

وكذلك أثر سخط الامير عليه في قلبه ، ومقاومته إياه في عمله ، بما نقص من آدابه معه في مجلسه ، بالتبع لنقص قيمته في نفسه ، وكثرة انكاره عليه في سيرته ، حتى كان يتمثل بقول المتنبي في كافور :

أَمِينًا وَإِخْلَافًا وَغَدْرًا وَخَسَةً وَجَبِينَا. أشخصا لحُتلي لأم مخازيا؟
وربما استبدل كلمة لؤما بكلمة جبنا وأذكر هنا حادثة واحدة مما صدمه به في مجلسه :
أنحلت كسوة من الدرجة الاولى من كسى التشريف بموت أحد كبار العلماء فأرسل الخديو إلى شيخ الازهر من يبلغه أمر سموه الشفوي بتوجيه هذه الكسوة إلى الشيخ محمداشد الامام الخاص لسموه كما تقدم (وسيعاد) فلم ينفذ أمره ، فاستاء أشد الاستياء . فلما اجتمع عنده علماء الازهر في مقابلة التشريفات الشهرية قال سموه لشيخ الازهر بصوت الاستياء واستفهام الانكار : ألم أملك بتوجيه كسوة فلان الى فلان ؟ فتلعثم الشيخ في الاعتذار ، فقال الشيخ محمد عبده بصوت جهوري جريء : إن الذي قرره مجلس إدارة الازهر هو التنفيذ لأمر أفندينا ، لأنه مقتضى نصّ عليه القانون المتوج باسم سموه . وأما الاوامر الشفوية فلا نعرفها ، فإذا شاء أفندينا أن تكون (كساوي التشريف العلمية) بمقتضى ارادته الشخصية فليصدر بذلك قانونا آخر ينسخ هذا القانون أو مادة قانونية نصها : كساوي التشريف للعلماء توجه بأمر منا

فلما سمع سموه هذا الجواب بمحضر العلماء اخرج وجهه حتى كاد يتفصد دما ووقف — ايذانا للحاضرين بالانصراف فانصرفوا

أظن أن كل قارئ لهذه الحادثة يقول انه لا يعقل أن يحتمل أمير مجري في عروقه دم الحكم الاستبدادي الموروث مثل هذا الجواب الثقيل في السمع ، المستفز

للطبع ، فكيف اذا كان الامير صاحب مصر ؟ وكان الذي جبهه بهذا الجواب في مثل ذلك الجمع ، أحد علمائها المشهورين بالخضوع والخشوع والخنوع ؟

(السبب الثاني) اتهم بعض الوشاة النمامين للشيخ بأنه غير مخلص لسموه ولا راض بامارته ، وانه «يعاكسه» أو يشاكسه ، بل اتهمه بما هو أكبر من ذلك ، بانه يكره آل محمد علي ويؤلف عصبية في مصر ليزع الامارة منهم وجعلها جمهورية . أنا أعرف بعض الذين كانوا يقولون هذا القول للخديو ، وفاتني أن أسأل الشيخ علي يوسف عن مبلغ تأثيره في نفسه ولو سأله لأخبرني ، ولكن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان أكبر عقلا وأصدق وطنية من أن يفكر في مثل هذا في وطنه الساقط تحت ضغط دولة أجنبية قوية مهيمنة عليه

وكان له من أمراء هذا البيت العلوي أصدقاء محبهم ومحبونه ، ومجلمهم ومجلونه ، أكبرهم قدراً وأعلامهم نسباً الامير حسين كامل عم الخديو الأكبر ، وكان الخديو يعد من ذنوبه معه صداقته لعمه لما كان بينهما من الالحنة والنزاع ، ثم كان يعد من أكبر ذنوب عمه اهتمامه بمرض الشيخ محمد عبده وكثرة عيادته له فيه ، والحزن على موته الخ . وعاتبه على ذلك أحمر العتاب والذعة ، فذكر ذلك لرياض باشا فقال لو عاتبني أنا كما عاتبك لما سكت له ..

وكان من أصدقائه الامير محمد ابراهيم ، وهو الذي حبيب اليه الاشتغال باللغة العربية واقتناء كتبها ، وأقنعه بان الشرف لبيتهم أن يكونوا أمراء لشعب عربي يغارون على لغته وجنسه ، فيحبهم حبه لنفسه .

حدثني الاستاذ الامام قال : ذكر لي الامير محمد ابراهيم ان الامير محمد علي شقيق الخديو دخل عليه مرة في مكتبه فألقاه مكباً على المطالعة والكتابة ، فسأله عما يشتغل به ؟ قال فأجبت : اشتغل بالادبيات العربية وأحب ان أتأدب بها وأتقنها . قل وهل أنت عربي ؟ فقلت له اخبرني ايها البرنس هل الترك يعدوننا منهم ؟ قل لا . قلت هل الافرنج يعدوننا منهم ؟ قال لا . قلت فهل الشرف لنا ان نكون أمراء لا شعب لنا ولا أمة ؟ قال : لا . قلت إذاً يجب ان نكون من جنس شعبنا . نحن أمراء في مصر ، والمصريون عرب فيجب ان نكون عرباً مصريين . اهـ

أقول ثم اشتهر بعد ذلك عن الامير محمد علي حب العرب والعربية فلمل هذا الحديث هو الذي أيقظ في نفسه هذه الفكرة وأعود الى أصل الكلام فأقول : ان الاستاذ الامام كان مخلصا للخديو عباس غيوراً عليه ، يسره ان يكون على خير حال في نفسه وفي منصبه ، ويسوءه كل خذلان يحط من قدره ، على ما عرض له من كراهة شخصه ، وقد قل لي مرة في محطة كوبري الليمون بمناسبة حادثة من الحوادث الخاذلة : انه يظن انني اسر لخدلانه وكيف ذلك وهو رأس لنا؟ ولا يمكن أن يهبط الرأس ويكون مادونه من الاعضاء عالياً رفيعاً ، فانا أشعر بأنه كلما سقط يسقطنا معه او قال تحته ، ولا سيما سقوطه تحت الانكليز (فليتأمل العاقل) ؟ ولكن المشاكسات ، تولد كثيراً من الحوادث والشبهات . وقد استغل بعض المشتغلين بالسياسة بين الاستانة ومصر هذا الجفاء وكتبوا في ذلك من التقارير ما سلم ببعضه

(السبب الثالث) ما كان من حسن العلاقة بين الشيخ ولورد كرومر فقد كان اللورد يحله ويقدره قدره ، ويستشير في بعض المسائل الحكومية المهمة ويتحامي أن يهيج وجدانه ووجدان حزبه الراقى على الانكليز وكان الاستاذ يداريهم لعله انه لا يستطيع البقاء في مصر بدون ذلك (وسندكر هذا في محله من هذا التاريخ) وكان المفسدون المحالون (النمامون) يصورون هذه العلاقة للخديو بأنها تأييد للاحتلال البريطاني على البلاد أو على شخص سموه على الأقل وأظن ان الخديو لم يكن يشك في وطنية الشيخ واخلاصه لبلاده ، ولا يرتاب في ترفعه عن التقرب الى اللورد بمسأته ، فان لم يكن هذا الترفع للاخلاص لاميره ، فهو اكرامة نفسه وابانها

مناظرته على تأييد الامام الامير ضد الانكليز

والدليل على هذا ان سموه كان يلجأ في المهمات الى استشارته حتى في المسائل التي تقع المادة والمشادة فيها بينه وبين سلطة الاحتلال ، وانما تكون المصارعة فيها بينه وبين عميد الاحتلال لورد كرومر ، وأهم هذه المهمات التي

لم يجد عند غيره المخرج من مأزقها مسألتان هما شاهدان عدل في القضية (الاولى) ما كان قرره الانكليز من اكره الخديو على تعيين قاض مصري لرياسة المحكمة الشرعية العليا واخراج القاضي التركي من البلاد ، والثانية مسألة اتهامهم لسموه بحبس ليون فهمي الارمني في قصر المنتزه وتمذيبه فيه ، وايدانه بانه لا بد من تفتيش القصر ،

مسألة قاضي مصر

عزم لورد كرومر على قطع أقوى صلة دينية لسلطان عبد الحميد بمصر وهي اختصاصه بتعيين قاضي المحروسة عاصمة الديار المصرية من علماء الترك وهو يعتبر رئيس الامور الشرعية الذي يولي سائر القضاة الشرعيين في البلاد و كان يلقب بقاضي القضاة ثم سمته الحكومة رئيس المحكمة الشرعية العليا ووضعت نظاما لاختيار القضاة الشرعيين يناط تنفيذه باجنة يعينها وزير الحقانية وليكن القاضي التركي كان عضواً فيها وتعتبر موافقته على من يختار للقضاء اذنا له فيه من قبل الخليفة عزم اللورد على قطع هذه الصلة با كراه الخديو على تعيين قاضي مصر الا كبر من علماء الازهر و كان ذلك على اثر رفض القاضي لما قرره وزارة الحقانية من تعيين قاضيين من مستشاري محكمة الاستئناف الاهلية عضوين في المحكمة الشرعية العليا بحجة اصلاح المحاكم الشرعية التي كثرت الشكوى من اختلالها كما سنبينه في الكلام على عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء

عظم هذا الامر على سمو الخديو لما فيه من قطع أقوى الصلات بينه وبين الدولة العثمانية وشخص السلطان ، وهي مستنده وملتحمه الوحيد في مناهضة الاحتلال ، وبقطعها يكون للعميد البريطاني السيطرة على المحاكم الشرعية من طريق الحكومة وهو مما كان أنذره إياه الاستاذ الامام ، وما ذا يعمل سموه ؟ لجأ إلى الجرائد التي تؤيده وإلى علماء الازهر فأنشأوا ينشرون المقالات المؤثرة المستفزة للرأي الاسلامي العام ، بأن هذا اعتداء على دين الاسلام وشرعه القويم الذي يستمد سلطته التنفيذية من خليفة المسلمين ، وأيد احتجاجهم الشيخ

حسونه النواوي شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية في مجلس شورى القوائين، ولم تبال الحكومة بذلك كله لان اللورد كرومر كان اذا جزم بشيء لا يعارضه احد . وقد كان بعض كبار فقهاء الحنفية في الازهر افتى الحكومة فتوى شفهوية بان هذا العمل جائز شرعا ، وليس فيه عدوان على الدين الاسلامي مطلقا

ولما رأى قاضي مصر الشيخ جمال الدين افندي ان الامر جد ، ولا يستطيع تلافيه أحد ، باع داره وعزم على مغادرة هذه البلاد بعد صدور أمر الخديو بتعيين قاض من علماء الازهر لرياسة محكمتها الشرعية العليا ، وكان ذلك في شهر المحرم سنة ١٣١٧ (يونيو سنة ١٨٩٩)

وفي أواخره قررت الحكومة عقد مجلس النظار برياسة سمو الخديو في قصر التين بالاسكندرية لتنفيذ هذا الامر بعد أن باغ سموه رئيس النظار انه ورد على جناب اللورد كرومر برقية من وزير الخارجية بأن من ناطقة بوجوب تعيين قاض مصري في منصب القاضي التركي وقطعت جبهة قول كل خطيب

عندئذ أظلمت الدنيا في عيني سموه وضاعت عليه الارض بما رحبت ، فاستشار رجاله وكل من له ثقة به في المخرج من هذا المضيق فأعوزهم الرأي ، وأخيراً اتفق رأيهم مع بعضهم على ان هذه المشكلة لا يرجى وجود حل لها إلا عند الشيخ محمد عبده وإلا فهي (قضية ولا أبا حسن لها) فأمر حسن باشا عاصم أن يرسل برقية إلى الاستاذ يقول فيها ان أفندينا ينتظر في قصر رأس التين صباح غد

وصلت البرقية مساء يوم الاربعاء وهو موعد درس التفسير فقرأ رحمه الله الدرس وذهب بعده إلى داره في عين شمس فتمشى وجاء قبل نصف الليل إلى محطة مصر فسافر إلى الاسكندرية في القطار الذي يسمى قطار الصعيد فصباحها بكرة فذهب من محطتها إلى قصر التين تَوَّافاً فأنى سمو الأمير منتظراً له فتلقاه بأهفة قائلاً : انني وقعت في مشكلة أو أزمة ليس لها غيرك يا أستاذ ، وذكر له ان لورد كرومر سيحضر في هذه الساعة ليبلغه برقية وزير خارجيتهم بوجوب انهاء مسألة قاضي مصر وتعيين عالم مصري بدل القاضي التركي . وان مجلس النظار ينعقد

بعد خروجه لتقرير ذلك (قال) وأنا ليس من مصالحتي ولا من مصلحة مصر قطع هذه الصلة الدينية بالسلطان والعداوة النهائية للدولة العثمانية

قال الأستاذ الامام الامر سهل يا أفندينا . قال سهل ، سهل ، هيه ، هيه

قال الأستاذان الإنكليز أشد شعوب الأرض احتراماً لحرية الضمير والوجدان الديني ، ولا سيما الطبقات الراقية منهم ، وقد بلغ من احترامهم له أنهم لما سنوا قانون التلقيح بمادة الجدرى للوقاية منه وضعوا فيه مادة خلاصتها أنه يجب على كل إنكليزي أن يقبل عملية التلقيح إلا من يقول أن وجدانه الديني لا يسمح له بذلك . فهذا استثناء لم يعهد له نظير في شيء من قوانين الدول ، وسببه أن بعض رجال الدين كان يرى أن هذا التلقيح حرام

فاذا جاء لورد كرومر الآن وبأفندينا ما ذكر وكان هذا اعتقاده فقال له إن وجداني الديني لا يسمح لي بأن أعين القاضي ورئيس الأمور الشرعية لأنني أعتقد أن هذا حق السلطان بما له من صفة الخلافة - فأنني لا أشك في أن اللورد بما نعرفه من تربيته السكسونية الاستقلالية ومن أصولها احترام الوجدان فإنه يقبل من أفندينا هذا الجواب ، ويبلغه لرئيسه وزير الخارجية فيقبله الآخر ويكون هذا فصل الخطاب قل سموه : كده ، كده . قال الأستاذ هكذا أعتقد

وحينئذ جاء الحاجب يستأذن الأمير للورد ، فقام الأستاذ ودخل في حجرة أخرى ، ودخل اللورد على الأمير وبعد تبادل التحية ، بلغ سموه البرقية ، فأجاب سموه بما لقنه إياه الأستاذ الامام ، فقال اللورد إذا كانت المسألة مسألة ضمير ووجدان فلا كلام لنا فيها . ثم انصرف

وكان النظار ينتظرون خروجه لمقد الجلسة وقد بانهم ما جرى بينه وبين الأمير ، فقرروا في جلستهم إبقاء قاضي مصر التركي في منصبه ، وغض النظر عن مشروع انتداب القاضيين من مستشاري الاستئناف الأهلي عضوين في المحكمة الشرعية العليا ، وعاد كل شيء إلى أصله ، وعلى أثر ذلك عزلت الحكومة الشيخ حسونة من مشيخة الأزهر وإفتاء الديار المصرية

مسألة ليون فهمي

ليون فهمي رجل من دهاة الارمن استخدمه سمو الخديو في بعض أموره السياسية السرية وكان يهبطه مكافآت كبيرة وقد حفظ على سموه وأوراقه سرا رآ صار يهدده بها لسلب المال الكثير ، وفي أثناء ذلك اختفى عن الانظار ، فبلغ العميد الانكليزي ان الخديو معتقل له في سراي المنزه ، او في بخته (المحروسة) وانه يريد أخذه معه الى الآستانة - فأراد ان تفتش باخرة المحروسة وسراي المنزه بناء على هذه التهمة ، وانها لأ كبراهاتة لسموه ، ولما علم انهم فاعلون ولم يجد عند أحد من رجاله رأيا فيما يعمل لدرء هذه الالهاتة ومنعها . أمر بارسال برقية الى الشيخ محمد عبده بمصر لمقابله - كما فعل في مسألة قاضي مصر من قبل - فحضر الاستاذ فذكر له سموه المشكلة ، فقال له ان عندي رأيا يشترط في نجاحه أن يخرج ليون فهمي من السراي أو من المحروسة إن كان في احدهما . وبعد إخراجهم يكتب أفندينا بلاغا إلى ممتدي جميع الدول المترفين باستقلال مصر تحت سيادة الباب العالي وبخديويته عليها بان السلطة الاحتلالية تريد الاعتداء على استقلاله واهانتة بتهمة اجرام باطلة ويحتاج عليها ويحملهم تبعة تفتيش قعره ويختتم هذه التهمة وان يبلغ لورد كرومر انه سيفعل ذلك اذا تجرأ أحد على محاولة تفتيش السراي ولما بلغ العميد الانكليزي هذا علم ان الخديو لا يقدم عليه إلا اذا كان عالما بان المفتشين عن الرجل لا يجدونه ، فتركوا تفتيش السراي بعد تفتيش المحروسة وقد علمنا يومئذ ان سموه لم يستطع تنفيذ رأي الاستاذ باخراج ليون فهمي من السراي إلا ببذل مبلغ كبير من الجنيهاات وقد أرسله يومئذ مع احمد افندي اوبك الرئيس إلى بور سعيد ومنها إلى بلاد اليونان ليقيم فيها برضاه واختياره هكذا كان شأن الشيخ محمد عبده في بذل النصيحة وصدق الخدمة للخديو عباس فيما كان يتنازع فيه نفوذه مع نفوذ عميد الاحتلال وفي غير ذلك إلى أن تغيرت سيرته امامة في الجد ، وسيرته الخاصة مع الشيخ ، حينئذ صار يحترس فيما يقوله له من غير خروج عن النصيحة الواجبة وسأذكر بعض الشواهد على هذا في الفصل الآتي

علاقة المؤلف بسمو الخديو

قد علم من الفصل السابق انه كان لمؤلف هذا التاريخ صلة بسمو العباس كانت حسنة ثم ساءت بالتبع للغضب على الاستاذ الامام ، ثم حسنت في آخر الايام ، فاقضت المناسبة إعطاءها نصيباً من البيان ، الذي لا يتعدى العبرة في هذا المقام كان الشيخ علي يوسف رحمه الله تعالى هو الذي قدمني وقربني إلى سمو الامير عباس وعرفه بي تعريفاً حسناً ، وكان الاستاذ الامام قدس الله روحه يذكرني له إذا عرضت مناسبة للذكر الحسن ، وأمل أول مرة منها كانت يوم ترجم المنار من مذكرات البرنس بسمارك بكتبه في الدين والحرب والسياسة التي نشرت في ٩ رمضان سنة ١٣١٦ (ص ٨٤٦ من مجلد المنار الاول)

أخبرني انه ذكرها لسموه وذكر له انه نشرها في جريدة المنار بعبارة تشعر بأن المنار موضع الثقة عنده حتى قل له سموه : أنت لك جريدة في هذه الايام ، فأخبره بما أنشئ له المنار من الاصلاح ، والظاهر انه صار يثق بي من تعريف الشيخين اللذين كان يثق بهما منتهى الثقة ، وصرت أحضر جميع مقابلات «التشريفات» في الاعياد ، وكذا المقابلات الشهرية في الغالب فان تخلفت مرة عاتبني ، وكان يستوقفني كثيراً مع الشيخ علي يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ، ويتحدث معنا في بعض الشؤون الحاضرة ، وقد يستوقفني وحدي احياناً وكان المرحوم حسن باشا عاصم يستاء من هذه الوقفات في أثناء المقابلات لإخلالها بنظام الترتيب الذي حدده لها واقتضاها انتظار من يدخلون بعدنا اكثر مما ينبغي أن ينتظروا كما أخبرني بذلك وكان يومئذ رئيس التشريفات - وكذلك صار يقابلني في كل من قصر عابدين وقصر القبة ، وقال لي أنت ما ذون بالحجيء اليهما في أي وقت شئت ، وأذن رئيس التشريفات بذلك ، ثم زاده رغبة في ذلك علمه بمناصبه الشيخ محمد أبي الهدي افندي الصيادي لي وسعيه لاصدار إرادة من السلطان عبد الحميد بمنع المنار من جميع البلاد العثمانية ، وعلمه ايضا بأن ابا الهدي يكتابني

ويحاول إقناعي بترك مصر والذهاب الى الاستانة ويعدني بالرتب العلمية والوظائف الرسمية ، وكانت هذه المسألة من اهم المهمات عند سموه
أطلعت الشيخ علي يوسف مرة على بعض مکتوبات ابي الهدى في ذلك فذكرها
سموه فأراد أن يتوصل بها الى تغيير قلب السلطان على الشيخ ابي الهدى افندي
لعله بانه لم يمكنه استصدار الارادة السنية بمنع المنار الا بطعنه فيه وفي مذهبه
لدى جلالاته بانه عدو لشخصه ولمنصب الخلافة ، وجاء في تلك الاثناء من سفير
الدولة البريطانية في الآستانة الى لورد كرومر نبأ بان رئيس كتاب السلطان
(الباشكاتب) زاره وأخبره بان في مصر جريدتين عدوتين لجلالة السلطان
يساعدهما الخديو ومختار باشا الغازي ، أحدهما المنار العربية والثانية الميزان التركية .
(جريدة الجون ترك) وان السلطان يود من الانكبابز إبطال هاتين الجريدتين
فلما علم الخديو بهذا الكتاب وهو لم يكن يساعد الجريدتين اعتقد أن الذي
وشى للسلطان بهذا هو الشيخ أبو الهدى ورأى أنه إذا أخبر السلطان بانه مع هذا يتودد
إلى صاحب المنار ثبت عنده عدم إخلاصه لجلالاته . وقد ذكر لي الشيخ علي يوسف
رأى سموه هذا وأنه لا يتم الا باعطائهم أهم مکتوبات ابي الهدى فقلت له ان
المکتوبات الشخصية أمانة لا يجوز أن تتخذ وسيلة لا يذاع صاحبها . قال أوليس
صاحب هذه الامانة قد آذك فكيف لا يجوز أن تنتقم منه وهو البادىء بالشر ؟
قلت نعم هو قد آذاني وآذى اهلي وأصدقائي في بلادى ايضا ، ولكن الانتقام
منه بهذه الوسيلة المنافية لأمانتي الشخصية يجر علي فسكت غير مقتنع
ثم كان اول مرة قابلت فيها سمو الامير بعد ذلك حفلة التشريف الكبرى
لعيد الاضحى سنة ١٣١٦ فلما وقف إبدانا بانصراف من كنت معهم وصاروا
يخرجون مسلمين بالاشارة المعتادة التي يقابلها سموه بالنظر لكل واحد وتحريك
يده - صرف نظره عني لأبقى ثم أقبل علي فدنوت منه فكلمني في المسألة وقال :
هذه فرصة للانتقام من عدوي وعدوك فاذهب انت من هنا الى شفيق واتفق
معه على ما يجب وأنا قد كلمته - فخرجت قاصداً حجرة احمد شفيق بك (باشا)
وكان يومئذ رئيس القلم التركي عنده - فذكر لي ما كان سبقه اليه الشيخ علي

يوسف وقال لي ان أفندينا يمكنه أن يوصل هذا الكتاب الى شخص جلالة السلطان بما له من الوساطة في سراي يلدز ، وأفندينا يعد هذا اكبر خدمة لك عنده . فأجبتة بمثل ما قلته للشيخ علي يوسف من مسألة الامانة والخيانة . فقل بعد عدة مراجعات : ان هذا إحساس شريف جداً ولكنه لا يخطر في بال احد ولا يقول بمثله احد . قلت له ولكنني انا اقوله عن شعور واعتقاد وأعده من أخلاقي التي لا يمكنني الجناية عليها لاجل أفندينا الذي أجله ولا لاجل نفسي . فأكره احمد شفيق الفاضل هذا فوق ما اكبره الشيخ علي يوسف الذي قد غلب على نفسه شعور السياسة فكان يقدم ما تقتضيه على كل شيء .

والحق ان المنار لم يكن من خطته الطعن في السلطان عبد الحميد لافي شخصه ولا في خلافته وسلطنته ، وانما أنشأته لاجل الاصلاح الديني والمدني ، وانما ساء الشيخ أبا الهدى منه إنكاره خرافات أهل الطرق المنتحلين للتصوف وهو من كبارهم الذين ترقوا في معارج الجاه بانتحال الطريقة الرفاعية وهو قد صرح بهذا في كتبه الي - فايراجع ذلك من شاء في أول المجلد الثاني عشر من المنار هذا - وان سمو الامير لم يظهر لي أدنى امتعاض ولا انحراف بما كان من عدم امتثال أمره وموافاة رغبته في هذه المسألة بل لم يقل عطفه علي ومقابلته لي وكان من ذلك المطف بعد ذلك بسنين أن دعاني مرة إلى قصر القبة وبعد مقابلة طويلة أخذني بسيارته إلى بعض مزارعه وبعد الطواف فيها على انعامين في الزراعة وعلى ما يربي فيها من دود الحرير دخلنا في دار له هنالك فيها كسرة موسيقية جامعة لجميع الآلات المعروفة في هذا العصر فعزف عليها بيده أنواعاً من العزف ثم عاد بي إلى قصر القبة

وكان أول إعراضه عني ما ظهرت لي أمارته في استقباله بمحطة مصر مع المستقبلين وكان عانداً من سفر فلم يقبل علي كعادته وصرح لي في إثر ذلك صديقي حسن باشا عاصم بأنه نحول عني فيجب ان أقطع زيارته ، فانقطعت عنه وأنا لا أعلم سبب إعراضه . ثم ظهر لي انه كان تابعا لفضبه على الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ، وفي هذه الاثناء كنت أكتب في المنار وفي غير المنار ما يسوءه جدا حتى قال لي

حسن باشا عاصم : ان بضعة أسطر مما تكتب في المنار مرة في السنة هي اشد عليه مما يكتب في المقطم ضده مدة سنة ، كأن ما يكتب في المقطم حصى تلقى مرة بعد مرة على القصر ، وكان سطورك القليلة كرهة من الديناميت . ونموذج ذلك ما كتبه في حضوره حفلة عيد الجلوس للملكة الانكليز ونشرته آنفا في الكلام على التمهيد لانتقامه من المفتي ومن رئيس ديوانه

وأزيد عليه لا يفاء الموضوع حقه انه لما تم في سنة ١٣٢٠ هـ ١٩٠٢ م مائة عام لتأسيس محمد علي باشا ملك مصر وهو مفخرة ومفخر أسرته بلا نزاع - احتفل ديوان الاوقاف لذكراه بتزيين المساجد وماآذنها بالانوار ولا سيما جامع القاعة حيث اقيم احتفال ديوان الاوقاف ، وجامع الازهر حيث اقيم احتفال العلماء فانتقدت ذلك بأن المساجد بيوت العبادة لله وحده لا يصح أن تزين للاحتفال بذكرى الملوك والامراء المستبدين ، ولا يجوز شرعاً أن ينفق في ذلك شيء من مال الاوقاف ، وذكرت ان لمحمد علي ثلاثة أعمال كبيرة كان كل منها موضع خلاف هل كان نافعا أو ضاراً بالمسلمين في سياستهم العامة ودينهم (١) تأسيس حكومة مدنية بمصر كانت مقدمة لاحتلال الاجانب لها (٢) قتاله للدولة العثمانية بما أظهر به للعالم كله ولدول اوروبا خاصة ضعفها وعجزها وجراهن على التدخل في أمور سياستها وهي السياج الأمنع الأقوى لاستقلال ملك الاسلام في وجوههن ، وما زالت بعد ذلك تتدحرج في مهاوى الضعف والانحطاط (٣) قتال الوهابية والقضاء على مانهضوا به من الاصلاح الديني في جزيرة العرب مهد الاسلام وممقله وكانت الكتابة شديدة ترتب عليها خوض في الجرائد

ولما رأى الاستاذ الامام هذا في الجزء الرابع من المجلد الخامس من المنار كتب مقالة طويلة في مساوي حكم محمد علي في مصر ومقاصده منه نشرتها في الجزء الذي يليه بامضاء مؤرخ ، واتفق أن اطلع الخديو على الاول في يوم صدور الآخر فأرسل احمد بك العريس الى دار الاستاذ الامام في عين شمس يبلغه شدة استيائه مما كتبه صاحب المنار ويقول انه أشد عليه من كل ما يكتب من الطعن في سموه لانه ليس لهم مفخرة غير محمد علي ، وقال له ان أفندينا يقول انه لا يستطيع أحد إسكات

صاحب المنار غيرك ، وهذه خدمة لسموه ينتظرها من فضيلتكم
أجابه الاستاذ ان المنار جاءني اليوم فرأيت فيه مقالة في الطعن على محمد علي باشا
أشد من الاولى يظهر ان أفندينا لما يطاع عليها ، وأنا سأكلم صاحبه « وأرجوه »
بان لا يعود إلى مثل هذا مما يسوء أفندينا

ثم إن كثيراً من الوجهاء اقترحوا أن يقيم الشعب المصري ذكرى نافعة دائمة
لمحمد علي باشا بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس ملكه ، ورجحوا بعد المذاكرات
أن تكون هذه الذكرى مدرسة للصناعة تضاف إلى اسمه ، وألفوا لجنة لجمع المال
بالاكتتاب العام واختاروا لرياستها وزير مصر الأكبر ورجلها المجمع على الثقة
به مصطفى رياض باشا ، فنهض بالعمل ، وطلب من سمو الخديو أن يتوج
الاكتتاب باسمه الكريم فلم تجد نفسه بأكثر من مائة جنيه فكان ذلك محبطاً
للعمل وسبباً لاستياء القائمين به ، وكل من يرى انه عمل خيري نافع ، حتى إن
بعض أمراء البيت العلوي قد امتنعوا من الاكتتاب وفي مقدمتهم الامير
أحمد كمال باشا من أكبر أغنيائهم فانه لما عرضت عليه جريدة الاكتتاب قال
اكتبوا بجانب اسمي ثلاثة قروش ؛ قيل له اتمزح يا دولة البرنس ؟ قال لا والله
لا أزيد على هذا وهذا كثير في مقابلة اکتتاب المجلس على عرش محمد علي بمائة جنيه
وكان رياض باشا كلم لورد كرومر في المشروع ورغب اليه أن يأذن مستشار
المالية . وافقة مجلس النظار على إعطاء أرض كافية لبناء المدرسة فيها من أراضي
الحكومة الثمينة بالاسكندرية فأجابه إلى ذلك وتبرع للعمل بمائة جنيه من جيبه ووعد
بمساعات أخرى ليس هذا محل بسطها ، فثنى عليه رياض باشا في خطبته التي
ألقاها في الموضوع بمدينة الاسكندرية وعبر عنه بصاحب المقام الرفع .

وكان سمو الخديو يكره رياض باشا ويستاء من تعظيم الشعب له وثقته به ،
فسلط جرائده على الطعن فيه بهذه المناسبة وهي اللواء والمؤيد الذي يعرف الناس
فضل الوزير عليه وعلى صاحبه ، فبالموافاة في الطعن فيه حتى قالوا انه انتحر ومرق من
الوطنية . . . فلما رأيت ذلك كتبت في آخر جزء المنار الذي صدر في غرة ربيع
الاول سنة ١٣٢٢ (ص ٢٨٠ م ٧) مائمه :

﴿ قول رياض باشا - أو عبيد الكلام ﴾

رفع العلم الانكليزي باذن الخديو على السودان وخطب الامير تحته مدعياً
 انه فلم يؤثر في المصريين ، وعقد الوفاق الانكليزي الفرنسي بناء على ذكريتو
 خديوي ، ومن لوازمه تأييد الاحتلال في مصر فلم يؤثر فيهم ، ولونت خريطة
 مصر في مدارس حكومتها بلون المستعمرات الانكليزية فلم يؤثر فيهم - واستشار
 الامير اللورد في تعيين شيخ الازهر فلم يؤثر فيهم ، ووكل إلى اللورد النظر في
 لائحة المساجد وأئمة الصلاة فلم يؤثر فيهم - ويقول اللورد جهراً انه هو المسئول
 عن ادارة هذه البلاد فلا يؤثر فيهم . وقال رياض باشا في خطبته في احتفال
 تأسيس مدرسة محمد علي الصناعية ان اللورد هو صاحب النفوذ الشامل ، والمقام
 الارفع ، ورغب اليه في تعاهد المدرسة حتى تبلغ أشدها - فقام احداث الوطنية
 يافطون في ذلك ويعدونه حادثاً جلالاً - فانظر علام يسكتون ، وبماذا يلفطون . اه
 ثم شرحت هذه المسألة في الجزء التالي لهذا شرحا زاد الامير استياء لان
 قنبلته أكبر من هذه القنبلة فانها بلغت صفحتين كاملتين أو أكثر

محاولة الخديو الانتقام من صاحب المنار

والتفريق بينه وبين الاستاذ الامام

اخبرني أحد المستخدمين في الخاصة الخديوية ان سمو الخديو جمع مرة جميع
 مستخدميها عنده وكلمهم في بعض الامور الخاصة بوظائفهم ثم قال لهم : يجب
 عليكم ان تعاكسوا مجلة المنار وصاحبها « من تحت تحت » اي خفية بحيث لا يظهر
 عندكم . وبلغني من بعض المطالعين على دخائل السراى السرية ان بث بعض
 الجواسيس حولي ، عسى أن يطالعوا على هفوة مني تنافي صفتي الدينية الارشادية
 فيشهروني بها فلم يعثروا والله الحمد والفضل على شيء ، الا انني أضع عماتي عن
 رأيي في أكثر مجالسي وأركب في الدرجة الثانية من الترام كثيراً
 ثم توجهت عنايته إلى أمرين كبيرين لا أدري بايهما بدأ ، وانما أعلم انه

كان يجمع بينهما (إحداها) التفريق بيني وبين الاستاذ الامام . (وثانيهما) اخراجي من مصر ولكن هذه امتدت الى ما بعد وفاة الاستاذ

أما التفريق فقد بذلت له مساع متعددة ربما أشرحها في بيان علاقتنا من آخر هذا الكتاب . وأهم الواضح الصريح منها ان سموه أمر كلا من الاستاذ الشيخ محمد شاكر وبطرس باشا غالي بالسعي لذلك لدى الاستاذ الامام ، وأذن له بالتصريح له بان سموه يرضى عنه كل الرضا ويساعده كل المساعدة على اصلاح الازهر بشرط أن يبعد عنه صاحب المنار ويقطع صلته به ، وقد جاءه كل منهما في وقت غير الوقت الذي جاءه فيه الآخر إلى داره في عين شمس وكبه في ذلك أخبرني الاستاذ رحمه الله تعالى انه قال لبطرس باشا يومئذ : اذا كنت أنا انسانا ذاقمة في الوجود فانما ذلك باخلاقي لا بوظيفة الافتاء ولا بغيرها ، وأي خلق يكون لي اذا كنت أترك صحبة السيد رشيد رضا لأجل الخديو ، وكيف لا أترك صحبتك أنت أيضاً لأجل الخديو اذا أراد ؟ أحب ان تعلم ويعلم الخديو انني أفضل أن أعيش أنا والسيد رشيد رضا ههنا في رمل عين شمس على البقاء في منصب الافتاء وعضوية مجلس ادارة الازهر لان هذا الرجل متحد معي في العقيدة ، والفكر ، والرأي ، والخلق ، والعمل ... وأما فضيلة الشيخ شاكر فقد أخبرني انه لما بلغ الاستاذ شرط سموه في الرضا عنه قال له : كيف أرضى بأبعاد صاحب المنار عني وهو ترجمان افكاري ؟ ولما لم ينفع السعي لدى الاستاذ في ذلك وجاء وقت الحملة الكبرى عليه في موضوع الفتوى الترانسفالية الشهيرة جاء دور السعي لدي بهذا التفريق ، وقد عهد به سموه إلى سماحة الشيخ محمد توفيق البكري فأرسل هذا إلي عبد الله أفندي المفيرة ليمهد السبيل له ثم جاءه بنفسه وأخبرني بان سمو الخديو يحبني ويحترمني ويود مساعدتي على خدمة المنار الاسلام بالمال والنفوذ ، واني أنا الذي قطعت الطريق على نفسي بقشيعي للشيخ محمد عبده ... وقل انه قد أعد الآن حملة قوية من أشهر كتاب مصر وعلمائها لاطعن في الفتوى الترانسفالية (وان صاحب جريدة حديثة المهد غير مسلم قد أخذ منه ٧٠٠ جنيه دفعة واحدة) قال وهو لا يكلفك أن تطمن على الشيخ مع الطاعنين لانه يعلم كانه لم ان هذا مما لا سبيل اليه معك ، وانما يكلفك السكوت عن الدفاع عنه فقط ، فاذا كنت ترضى بهذا فافندنا مستعد لمقابلتك ...

قلت له إن هذه مسألة دينية وهي من أخص مباحث المنار فلا يمكنني السكوت لمن يخوضون فيها بغير علم إذا رأيتهم مخطئين فانا أدافع عن الحق لأعن المفتي شخصه ، وإذاً لا حاجة الى مقابلي لأفندينا

قل ما معناه وماذا تفعل أنت وحدك مع هذا الجيش من الكتاب ؟ قلت مثل من ؟ قال في مقدمتهم ابراهيم بك المويلحي . قلت ابراهيم بك المويلحي كاتب نكت وهزل ، وتقد في المدح والذم ، ولا أفهم له ولا لأحد ممن تشير اليهم وزنا في تحقيق مسائل الشرع الخ ، بل قلت له ما هو اكبر من هذا ، والسيد البكري أديب كبير لوذعي بجمل الامام ، وقد تاقى عنه ويقول عن نفسه انه منه كالذين آمنوا قبل الفتح ، وبجمل المنار ويسميه صحيفة الخواص

وقد ذكرت حديثه للشيخ علي يوسف فاستحسن امتناعي عن مقابلة الخديو لعله بانه يستحيل علي أن أرضيه في هذه المقابلة وهو من أعلم الناس بحاله وحالي لم أذكر هذه المسألة للاستاذ الامام الا بعد انتهاء الفتنه فقال لي لو استشرتني لأشرت عليك بمقابله وأخذ ما تستطيع لعملك النافع من مال هذا البخيل ، الذي لا يندل إلا في مثل هذه السبيل ، ويتفق علي ترك التلاقي مدة من الزمن ثم يعود ، قلت : وهل كان يمكنني أن أرضى بهذا الرأي ؟؟

وقد كان الشيخ علي يوسف قال لي في غير هذه الحادثة كلاما في هذا المعنى قد يحمله سيء الظن فيه علي صدي عن الاستاذ الامام بما دون التفريق (قال) انك رجل غير عادي ، وان جميع المسلمين في حاجة إلى الاستنارة بمنارك في هذا العصر ، وان المانع من انتشاره كما يجب انك بتشيعك للشيخ محمد عبده أوجدت لنفسك أعداء أقوياء يصدون عن المنار أقوام الخديو ورجاله ، ومنهم العلماء الذين يحدون الشيخ ويألمون من تفضيله عليهم ، وهو نفسه أهل لما تقوله فيه ولكنه في غنى عنه ، فحسبك أن تذكره بأعلى الالقاب العلمية المألوفة كما يفعل المؤيد عند ذكره وذكر شيخ الازهر الخ وبهذا تتقي ضرر أعدائه وهو لا يخسر شيئا فقامه معروف عند العارفين ... قلت أنا أعلم ان كلامك هذا صحيح وان كان كثير من يظنون خلافه وأن لي من هذه الجهة نفعا ماديا - ولكن لي غرضا من تعظيم قدر الشيخ وتفضيله هو فوق فائدة انتشار المنار بكثير ، وهو ان الاصلاح الاسلامي الذي أدعو اليه لا ينهض

إلا بزعم تثق به الأمة . ولا أعرف أحداً أجدر منه أويساويه في استحقاق هذه الزعامة ، فأنا أدعو إلى تعميم الثقة بزعامته . قال هذا غرض صحيح لا أعارض فيه وأما مسألة سعي سموه لنفي من مصر فلعل أول من أخبر الاستاذ الامام بها مصطفى كامل باشا ، وقد ذكرت في فاتحة المجلد الثاني عشر من المنار أنه قال له ان افندينا يريد نفي صاحب المنار من مصر ويطلب منك أن تسكت على ذلك ولا تحمل لورد كرومر على المعارضة فيه ... وهو الذي صرح في كلامه على خطبة الخديو يوم لباس الكسوة للشيخ الشريفي ان سموه يعني بقواه « ومن كان أجنبياً من هؤلاء الخ » صاحب المنار كما تقدم قريباً (ص ٥١٤)

وأخبرني الشيخ علي يوسف انه كان عند سموه في سراي القبة وجرى ذكرى فهاج وغضب وصخب وقال فيما قال : لا بد من اخراجه من هذه البلاد ... قال الشيخ علي فقلت له أظن ان افندينا لم يعلم بان السيد رشيدا أسناذ لجناب متشل انس وكيل المالية يتلقى هذا عنه العربية ؟ (قال) قلما نطقت بهذه الكلمة سكنت حديثه فجأة كما يلقي قليل ماء على القهوة عند ارتفاع غليانها فيهبط في الحال ، سكن غضبه، وسكت لسانه . إلا انه قال هذا من فعل الشيخ محمد عبده . . . (١)

وبعد وفاة الاستاذ الامام تجدد هذا السعي لدى سموه وقوي الامل فيه بعد استبدال الدولة البريطانية صديقه السر غورست بلورد كرومر ، وقد ذكرت هذا الخبر في فاتحة المجلد الثاني عشر أيضاً . ولما بلغ هذا الخبر رياض باشا في وقته ذكر لي ليلة كنت اسمر فيها معه في داره ، وقال لي ماذا تفعل انت ؟ هل تغير شيئاً من خطة المنار ؟ قلت حاش لله ما كنت لأغير عملي التابع لمقيدتي وخالقي ، وكل فضيلة لمصر عندي أني أستطيع فيها خدمة ملتي وأمتي بما اعتقد انه الحق النافع ، فإذا زالت هذه الحرية منها لا يبقى لها مزية عندي ولا يحزنني الخروج منها وأنا لاملأك فيها شيئاً . قال : هكذا او (كده) أريدك . عند الافرنج مثل يقول : الشجاع ان خسر بخسر عشرة في المائة والجبان ان ربح يربح عشرة في المائة

(١) طلب وكيل المالية من الإمام أستاذاً موشوقاً بطله وأخلاقه يقرأ عليه العربية فأقنني الإمام بأن أقبل ذلك لأنه يريد أن يرى هذا الانكليزي الحر المستقل الفكر عالماً مسلماً بخلافه فقبلت وقد حقق الله أمل أستاذنا بي حتى أتى بيت لهذا الرجل من فضائل الإسلام ما حمله على التصريح لي ثلاث مرات بأن اعتقاده عين اعتقادي وقد بسطت ذلك في المنار ، ورائدني كنت أمانع عن الخديو أمامه .

وكن بلغني أن سموه يريد التوسل إلى طلب نفي بفتوى من شيخ الأزهر أو مفتي الديار المصرية يقول فيها أحدهما أو كلاهما أنني أنشر في المنار ما هو مخالف لعقائد الإسلام وأصوله . أخبرني بهذا الدكتور مهدي خان الأيراني الشهير وأنه سمعه من الشيخ علي يوسف أو في مجلسه . فقلت له غاضبا صاخبا إن صح هذا فاني أطمع مائة ألف نشرة وأوزعها على أعضاء شورى القوانين وقضاة المحاكم ووزراء الحكومة وكبار رجالها ثم في المحافل العامة ، أقول فيها أنني كنت ادعو إلى إصلاح ما فسد من عقائد المساميين وأخلاقهم بالدلائل في المنار وأتحدى العلماء بازدي على ما كتب فلم يرد علي أحد ، وأذ وقع كذا وكذا فانا ادعو شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية إلى المناظرة في معنى شهادتي الإسلام وأطلب أن تكون هذه المناظرة في مجلس محضره بعض كبار القضاة ومستشاري الاستئناف وأعضاء شورى القوانين ، وإن يكتب كل ما يقال فيها بحضورهم وأوقع عليه أنا ومناظري ونشره على العالم الإسلامي ليحكم فيه ، ثم أسافر إلى الهند فقد دعيت إلى التدريس في مدرستها الكلية في عليكرة براتب شهري قدره ثلاثون جنيتها وأن يطع لي المنار بالعربية والأوردية بغير أجره وتكون حريتي هناك أوسم

لكن كانت تلك كلها أقوالا ، وكان من المستحيل أن يفتي شيخ الأزهر أو مفتي الديار المصرية بما كان يريد الخديو منها ، إذ لا يجدان له في المنار مستنداً لهم ، وقد انتقدت في المنار الشيخ الشربيني وانتقدت قبله الشيخ البشري وغيرهما من كبرائهم ، على كثرة ما كتبت في انتقاد التعليم الأزهري وضرره فلم يجدوا في ذلك ما يردونه علي . وهذه فضيلة لعلماء مصر ، ومن فضل الاستاذ البشري أن الخديو أرسلني إليه مع أحمد شفيق باشا لبيان رغبة سموه في الموافقة على ما يطلب من المال لمدرسة الدعوة والارشاد عند ما تعرض الميزانية على مجلس الأوقاف الأعلى فكان مما قاله لأحمد شفيق باشا في الثناء علي أن السيد محمد رشيد هو الآن إسان الإسلام . وهذه كلمة لم يقاها لأجل الخديو بل هي من فضله وإنصافه رحمه الله وعفا عنه

بل أقول أن من فضل أدباء مصر وشعرائها وكتابها مع علمائها أنه لم يوجد أحد منهم سفه نفسه لأجل الخديو بالظمن في الاستاذ الإمام كما فعل دجال بيروت المتجر بدينه

الشيخ يوسف النبهاني انظر في الشاعرة انه تقرب إلى سموه بموجبه الاستانة الامام الذي كان يحمله (ولدي كتاب بخطه ثبت ذلك) وأستاذ السيد جمال الدين وتلميذه محمد رشيد رضا في قصيدة طويلة غلا في البهتان والافتراء عليهم فيها والاحتجاج على ذلك بأحلامه التامية فنحه سموه راتباً شهر يامن الاوقف، ولم يكن لهجوه واقترانه ادنى رواج في مصر لان أقل المتعلمين فيها فهموا علما ارقى من الدجال النبهاني عقلا وأدباء، ويعدون الشيخ محمد عبده أعظم رجل انجبهت بلادهم في هذا العصر ان لم أقل في كل عصر. وقد ثبت ذلك باجلالهم له في حياته ومماته بما لم يتفق لغيره وقد تولى بعض تلاميذه مشيخة الازهر وافتاء الديار المصرية ومأذنه هذا الدجال ونهى المسلمين عنه تفسير المنار الذي كنا نقبس فيه أنوار حكمته وما امتاز به من رواية يعلم مكاتة هذا التفسير عند ارقى علماء الازهر وسورية وغيرهم (كفضيلة مفتي بلده بيروت) وما قرطوه به مفضاين له على تفاسير الاولين والآخرين وأما ما وقع بالفعل من وسائل اخراجي من مصر فهو ان المصية الخديوية السنية بلغت وزير الداخلية أنه جاءها كتاب من المايين الهايوني بطلب ارسال محمد رشيد رضا المثاني المقيم بمصر إلى الاستانة لأنه مطلوب من جانب العسكرية لاداء الخدمة العسكرية بلقتني هذا الخبر وزارة الداخلية وسألني عن جوابي فاجبت بانني كنت مستثنى من الخدمة العسكرية في مدتها القانونية بكوني من طلاب العلوم الدينية وقد أدبت الامتحانات العلمية الرسمية المثبتة لذلك في تلك السنين ومعها شهادات رسمية بها. وبعد انتهاء هذه المدة صرت من العلماء المدرسين ومعها شهادات من علماء بلدنا بذلك، ولا جله لم أطلب لاداء خدمة الرديف في العسكرية وقد انتهت هذه المدة ولم يعد للمصرية وجه لطلي للخدمة كما يعلم من المستندات الرسمية التي معي. وقد طلبت وزارة الداخلية مني هذه الشهادات والمستندات لتقديمها إلى المصية السنية وقال مصطفى باشا فهمي وزير الداخلية ورئيس النظار يومئذ نحن نعلم من أين جاء هذا الطلب ونعلم سببه ولكن لا بد لنا من جواب رسمي وهذه المستندات ابلغ جواب. فاعطيتها إياها واخذت وصولاً رسمياً بوصولها وتعهد وزارة الداخلية باعادتها إلي. فارسلتها إلى المصية وهي ارسلتها إلى الاستانة ثم أعيدت إلي ومن الاحياء الذين يملكون هذا عبد الله باشا صفيه فهو الذي تولى العمل به من قبل وزير الداخلية

استطراد

(في العبرة بسيرة الخديو بعد الاستاذ الامام وماله وعليه ، ومبدأ أمره ومنتهاه)
(ونصر الله للامام وحزبه حياً وميتاً)

من الغريب ان سمو الامير العباس ظل حاقداً على الاستاذ الامام بعد موته وقد امتعض واستاء أشد الاستياء من اهتمام القطر المصري بمرضه وموته ، وظل حاقداً علي لوفائي له بعد موته بأنهم مما كنت وفياء له في حياته ، وقد قوي حزب الامام الحـكومي بعد وفاته بدخول سعد باشا زغلول أقدم تلاميذه في الوزارة وجعل مدرسة القضاء الشرعي تابعة لوزارته وطوع تصرفه ، وتولي شقيقه احمد فتحي باشا زغلول وكالة وزارة الحـقانية ونوط الحـكومة به وضع قانون لاصلاح الازهر بالاشتراك مع لجنة خاصة وبذلك صار رجال المعارف ورجال القضاء الشرعي والاهلي كلهم وشيوخ الازهر تحت نفوذ حزب الامام رحمه الله تعالى

نم تألف حزب الامة بعده من أركان أصدقائه من كبار رجال الحـكومة ووجهاء القطر وأنشأوا صحيفة (الجريدة) لحزبهم فكانت مناصبة لسموه مقاومة لاهوائه بنفوذ حزبها وكتابها . وظل صاحب المنار ينشر افهام الامام العالية في تفسيره ، ويشيد باسمه واصلاحه في جميع الاقطار ، فبهذا كله كان الاستاذ الامام هو المنصور على الخديو حياً وميتاً . والـكن الذي لم يكن يمكننا هو نشر هذا التاريخ الحر في عهد سموه بعد هذا كله بلغت عبر الزمان من عقل سموه مبلغها فعلم انه كان مخطئاً في نزوله الى ميدان الكفاح والنزال مع أفراد من أمته ، جعلهم قرناء وخصماء له وهم من رعيته ، يتمنى أيهم أعلى مقاماً أن يقوم بخدمته ، فصار يستميل من تسنح الفرص لاستمالته ، ومنهم صاحب المنار وأحمد لطفي بك السيد مدير (الجريدة)

وطنية الخديو وسيرته الاولى فيها

ومن انصاف التاريخ أن أذكر هنا أفضل محاسن هذا الامير الكبير . وقد ذكرت مساوئه . حتى لا تكون المساوى هي التي تستقر وحدها في نفس قارىء هذا الكتاب وهو ظلم فأقول

أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف هذا العصر « بالوطنية » وقد أشرت إلى أطوار وطنيته في تأبين المرحوم مصطفى كامل باشا بقولي في الجزء الاول من مجلد النار الحادي عشر (الذي صدر في آخر المحرم سنة ١٣٢٦) وكان ذلك في عهد غضب سموه علي - ما نصه :

« بعد أن قضى الأمير توفيق وولي الأمير عباس دخلت البلاد في عهد جديد من الحركة الوطنية ، تجلت فيه كتجلي الحقيقة السكايه ، فكان تجليها الاول هو التجلي العام ، الذي ظهر في الخواص والعوام ، وكان لسانه الناطق جريدتا المؤيد والاهرام ، ثم قتر التجلي في جميع الطبقات ، ثم ظهر في طبقة الضباط وقتاً من الاوقات ، ثم قتر طائفة من الزمان ، ثم ظهر في مظهره الذي هو عليه الآن ، بان نفخت روحه في الناشئين ، ففعلت فعلها في غير أصحاب المآثم من المتعلمين ، لان هؤلاء لا يعرفون لهم جنسية إلا في الدين ، وقد كان مصطفى كامل هو المجلي ، في ميدان هذا الطور من أطوار التجلي ، ثم صار داعية النابذة الى هذه الوطنية وهادياً ، او ماثقها وحاديها ، وهي هي فوق المدعو والهادي ، وامام المسوق والحادي » اهـ واعني بهذه الاشارة ان البلاد المصرية كانت في عهد توفيق في فتور واستسلام يشبه الموت بالتبع لاستسلامه وخضوعه للاحتلال البريطاني فلما جاء عباس بعده كان كسيال من السكرباء طبق جوها ، وكهرب جميع أهلها ، فشعرت بانها أمة يجب أن تكون مستقلة بامرها ، وكانت زيارته للسلطان في الآستانة أكبر ظاهرة لتلك الكهربية او مضت بروقها ، وقصفت رعودها ، وقد ذكرت سبب فتور هذا التجلي في أول هذا المقصد ، وانه ذهب بثقة عقلاء البلاد بسموه . وأما التجلي الثاني في ضباط الجيش الوطني فقد كان من تدبير جمعية مصرية سرية من قبل سموه لم يلبث حاكم السودان ان كشف سرها ، وحمل الخديو على معاقبة الضباط الذين عرف انتظامهم فيها ، ففعل ، وزالت ثقة الضباط به . وأما التجلي الثالث فظهر في طلبة المدارس الاهلية دون الازهر والمعاهد التابعة له ، وكان مصطفى كامل وجماعته هم الذين يتولون ادارة هذه الحركة وفي آخر سنة من سني حياته أسسوا الحزب الوطني

الخديو ومصطفى كامل وحزبه

الخديو عباس هو الذي أوجد مصطفى كامل واستعمله في الحركة الوطنية وهو تلميذ فقير مع مسيو دولونكل مندوب حزب الاستعمار الفرنسي الذي كان مناوئاً للاحتلال البريطاني في مصر إلى عهد مسألة فشودة الشهورة وما أعتبها من اتفاق الدولتين سنة ١٩٠٤ وقد جعل سموه مصطفى أفندي كامل راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون جنيهاً ثم مازال يزيده حتى بلغ مائة جنيهاً في الشهر، عندما كان يأمر به المقربين من مساعدته، وفي مقدمتهم الأمير محمد إبراهيم والأميرة شويكار هاشم، وما كان من ذلك إلا ككتاب الكبير لانشاء مطبعة تصدر مع اللواء العربي جريدتين باللغتين الفرنسية والانكليزية. ومع هذا كله لم يكن مصطفى مخلصاً له اخلاص الشيخ علي يوسف بل انقلب عليه هو والحزب الوطني باطناً، وكان يظهر لهذا الباطن امارات، وتكتب فيه نبذ ومقالات، حتى قطع سموه عن الحزب الوطني مساعداته المالية بعد اتفقه مع السرغورست الذي خاف لورد كرومر فصاروا يصرحون بكرهته ويعدونه خائناً لوطنه مارقاً من الوطنية

وكان مصطفى كامل يود الاتفاق مع الاستاذ الامام والعمل معه او برأيه لمصر والاسلام، ولكن الاستاذ ورجاله لم يكونوا يقيمون له وزناً لاثرتهم واعجابه وكونه مسخراً للخديو بالمل، وكان سعد باشا زغلول يقول إنه مجنون، واما الاستاذ الامام فقال في وصف مقالاته انها مجموع نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف. ثم اتفق ان التقياً في باخرة حملتهما من اوروبا إلى مصر فصارا يتكلمان واهدى مصطفى إلى الاستاذ كتباً فرنسية كانت معه فيها كلام عن الاسلام قبلها شاكرًا، وقال له إذا قبلتني في مريدك فإن خدمتك الاسلام ومصر تكون مضاعفة، وصار بعد ذلك يزوره بمصر ويكلمه بالاتفون كثيراً، ولكن لم يدم اتصاها، لعدم المشاكلة بينهما، ولا حاجة إلى بيان ذلك هنا

وقد أخبرني رفيق بك العظيم وكان من أصدقاء مصطفى باشا كامل ومحمد بك فريد الركن الاعظم له وللحزب الوطني بعد تأسيسه انهما يتخذان الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الامة المصرية على مقاومة الاحتلال فان ظفرت البلاد بجلاء الجيش

الانكازي عنها فان الحزب الوطني يؤسس لها حكومة لا يكون للخديو ولا لامثاله أدنى حظ منها ...

ويؤيد هذا ما أخبرني به صديق وزميل لمحمد بك فريد هو (ا . ل . س) انه قال له بعد وفاة مصطفى كامل بزمان : انا وانت نعلم ان سبب تعلق المرحوم مصطفى بالخديو المال ، فالمال كان عنده كل شيء (بل قال كلمة لا يمكنني كتابتها بنصها) واما انت فالمال عندك لا قيمة له وقد أضمت ثروتك الشخصية في الخدمة الوطنية ، فما الذي يبعثك على موالاة الخديو والتنويه به ، او قل غش الامة به ؟ فأجابه محمد فريد : ان الامة متعلقة به فنحن نستميلها من طريقه الى أن نستغني عن ذلك ، او ما هذا حاصله

الشيخ علي يوسف بين الخديو والاستاذ الامام

وأما الشيخ علي يوسف فقد كان أخلص للخديو من مصطفى كامل ولكنه كان موالياً وقياً للشيخ محمد عبده ورجال حزبه ولا سيما حسن عاصم وسعد زغلول منهم ، وكان يخبرهم بجميع أسرار الخديو وما يذكره من أعماله وآرائه ويستشيرهم فيها ذلك ليقينه انه لا يصل الى سموه شيء من مكانته ، وكان يحاول التوفيق والتقريب ما استطاع ، ولا يطعن في أحد من أركان هؤلاء الرجال كما يفعل مصطفى كامل بدون تفرقة بين الحق والباطل ، حتى انه نصر اليهود على الاستاذ الامام فيما قرره في دروس الازهر من بيان مساوي اليهود في تفسير الآيات التي انزلها الله فيهم فان بعض الجرائد نقلت عن المنار شيئاً من ذلك فانتدب بعض اليهود للانكار على المفتي باسم الماسونية وتهوروا فيما كتبوا ولم يجروا لهم نصيراً من الجرائد المشهورة إلا جريدة اللواء ، ولم يلبثوا ان ظهر لهم خطأهم فيما كتبوا وجاء رئيس محفلهم الماسوني من الاسكندرية الى القاهرة وقابل الاستاذ الامام واعتذر له عما كتب باسم محمله . وزاره الرئيس الاعظم للماسونية واعتذره أيضاً بعد أن خطأ المحفل الذي احتج على فضيلته بأنه خرج عن حده وما تبذره له الجمعية . ولكن مصطفى كامل باشا هو الذي أصر على خطيئته دون اليهود والماسون وقد فصلنا ذلك في (ص ١٩٦ - ٢٠٠) من مجلد المنار السادس ولم يندفع الشيخ علي مع الخديو في مضارة الاستاذ الامام في مسألة الازهر

الآخيرة بكل شراشرة على ما كان له من هوى . وقد رأيت جماعة الامام مستغربين لهذا منه ولا سيما الشيخ عبد الكريم سلمان فقال لهم حسن عاصم باشا : سبحان الله ! أتريدون من صعيدي فقير صار جليس خديو مصر ومستشاره وامين سره ان تسمو نفسه إلى تركه لاجلكم لان لكم فضلا عليه في مؤيده ومطبعته وكتابته ؟ ولما قلت الاستاذ الامام ان أكبر أسباب استياء الشيخ علي منه اعتقاده انه هو الذي حمل صديقه الشيخ أحمد أبا خطوة القاضي الشرعي على الحكم بعدم كفاءته لبذت السيد عبد الخالق السادات ، قال انت تعلم انني موافق لك فيما كتبت في المنار ونقله عنك المؤيد في مسألة الكفاءة . وأما رأيي في الشيخ علي والسادات في شخصهما فهو انهما كفؤان لكن في الخسة لافي الشرف !! قال هذا من باب النكتة المصرية ولعلي أذكر ما كان من مودة الشيخ علي الاستاذ الامام في موضع آخر من هذا التاريخ وأكتفي هنا بأن أقول ان الشيخ عليا أخبرني في أثناء الفتنة الآخيرة التي اقتضت الجفوة والقطيعة ان الاستاذ الامام أرسل اليه انه يرغب منه أن يساعد الشيخ محمد شاكر عند الخديو ، ويتوصل الى ذلك باخباره بأنه غير موال للشيخ محمد عبده ولا من حزبه . قال لي فلم أخيب ظنه في وساعدت الشيخ شاكر آ جهـد طاقتي . وكذلك أذن الاستاذ الامام للشيخ محمد شاكر أن يتوصل إلى الخديو باظهار الانكار عليه والبعد عنه ، واحل له أن يقول فيه كل ما يرى فيه المصلحة حتى الطمن لتمكينه من خدمة العلم في معهد الاسكندرية ، فقال : انا لا أقبل ان اتعرض لك بظمن . وقد كان يتوصل الى قضاء غرضه بأن يخبر سموه أن هذا ليس على ما يحب الشيخ محمد عبده فيقضيه سموه له بهذا الاعتبار

الخديو وبطانة قصره

ومن الغريب انه لم يبق للخديو أحد من أصحاب الرأي أو العمل في البلاد يثق به حتى عبد الحليم باشا عاصم من خالص رجاله العسكريين وقد كافاه على خدمته بجعله مديراً للأوقاف العامة وهي أكبر المناصب التي كانت لا تزال خاصة به دون الحكومة قبل جعل مصلحة الاوقاف وزارة لحرمانه منها . اقترحت على عبد الحليم باشا هذا وهو مدير للأوقاف العامة أن ينصح لسموه في مسألة لها علاقة بالانكليز ،

فأجابني ان هذا اقتراح حسن ولكنني أخشى ان أقوله له فيتعرب بي إلى الانتكيز!!
وأما أحد شفيق باشا فقد قضى عمره في خدمته بعد خدمة والده بالاخلاص
التام ، وكان أدخل رجلاه في سياسته الرسمية وأعرفهم به وبكل أعماله وسياسته غير
الرسمية ولكن استمداده الطبيعي أميل إلى التارخ والادارة منه إلى السياسة، وكان
لهيته وإنصافه يحب الشيخ محمد عبده ويحبه ويعدّه من أخلص أصدقائه ، ولما زار
الشيخ الاستاذة اضطرب السلطان لزيارته ودعّب من تقارير الجواسيد فيها ولا سيما
بعد اجتماعه بشيخ الاسلام هناك ومحاورهما في حلة الاسلام والمسلمين، وأراد الانتقام
منه ، وحينئذ سعى أحد شفيق أخلص السعي لدى رئيس كتاب السلطان (باشكاتب
للائين) ولدى سفارة الانتكيز لاجل أن يخرج الاستاذ من الاستاذة من غير أن
يمس شرفه ، وكان ذلك بدون إذن الخديو وهو بمعية في الاستاذة ، فلما علم
بذلك عتبه أشد العتاب. وعندي كتاب من أحد شفيق إلى الاستاذ الامام بذلك
لملي أنشره في موضعه الاتق به وقد انتهت خدمته الطويلة لسموه بالسخط...
وغرضي مما ذكرته من أمر هؤلاء انهم يكن للخديو أحده قيمة إلا وكان يحل الاستاذ
الامام في نفسه، ويكره من وقع بين الخديو وبين الاستاذ الامام من المداودة والبغضاء ،
ويعتقد أنها من سوء حظ مصر والاسلام . ولكن الخديو لم يكن يعلم هذا على شدة
عنايته بتسقط الاخبار، وأنى لثله أن يعلم الحقائق وعمدته في نقل الاخبار للزدافون
للتملقون او الجواسيد وكل منهما لا يقول لثله إلا ما يوافق هواه

واند قال الاستاذ الامام في الدرس العام الحافل في الازهر بمناسبة عرضت:
ان نصيحة للوك والامراء المستبدين تكاد تكون متعذرة لانهم يتوهمون انهم
يمتضى منصبهم أعلى من جميع رعاياهم رأيا وأوسع علماً ، فلهذا يريد أن يلقى اليهم
رأيا أو يفيدهم علماً بشي. لا يمكنه ذلك الابحجة في الاسلوب لا يشمر من تلقى
اليه بأنه في موقف المستفيد كأن يقول الناصح: لاشك ان مولانا ايده الله يعلم من
أمر كذا ما لا يفقه غيره - أو ما لا نفهم - ولا يعزب عن رأيه وحكمته انه لو وقع
كذا لكنت عاقبته ضارة أو ناقصة الخ وهذا تمرير بالخديو فهمه الاذكياء كلهم

العبرة التاريخية في سيرة الخديو الأخيرة

من المعروف المشهور ان سموه كان لو ذعي الذكاء ، قوي الهممة ، عاملاً لا يمل ولا يكل ، وطنياً حريصاً على الاستقلال ، شديد البغض للاحتلال الانكليزي ورجاله ، وازيد على ذلك أنه كان حريصاً على الاتفاق مع الدولة العثمانية ، وكل ما فعله مما يسوء السلطان أو حكومته فهو لا قناعهم بأنه يستطيع أن يضر وينفع ليعتمدوا عليه ويتفقوا معه . وإنما أحبط أعماله الوطنية حرصه على جمع المال والاستكثار من العقار من أي طريق كان ، واشتغاله باتخاذ الجواسيس ومعاداته لكبار الرجال ، وجهه للانتقام حتى بافشاء الاسرار ، وذلك هو الذي اضطره إلى موافاة الاحتلال في كثير من الاعمال بطريق المساومة

وقد كانت السياسة هي الباعثة الاولى له على الاستكثار من المال والتصرف في الاوقاف لما تحتاج اليه أعمالها السرية (التي كان في غنى عنها) من النفقات ، ثم صارت مهمة المال ملكة راسخة فيه مستفرقة لجل اوقاته ، ولكن كانت العاقبة أن حرم أخيراً أكثر ما تأمله بالتبع لحرمانه مما هو أعظم منها وهو ملكه

سأله مرة في أوائل العهد بعطفه ولطفه : لماذا يشتري أفندينا الاراضي الواسعة في الضمان من الاناضول وبلاد الدولة أكثرها خراب والامل في عمرانها ضعيف ، ولا يضع ثمنها في اطيان مصر الآمنة المطمئنة ؟ قال انني معاد لدولة قوية قاهرة معتدية على بلادي ولا أدري هل تكون عاقبة مناوأتي لها الظفر بأخراجها ام تظفر هي بأخراجي ، فأنا أحتاط لنفسي بأن يكون لي شيء أعيش منه في بلاد الدولة اذا دارت الدائرة علي . ولقد دهشت من جوابه هذا في ذلك الوقت ، وتذكرته بعد ما حل به ما لم يكن يخطر في بال أحد غيره

ومن الانصاف ان يقال انه على كل ما عرض له من الغواشي المتقدمة التي أحبطت أعماله الوطنية (ولم نجد احداً صرح بها مثلاً) قد بقي ذلك الشعور الوطني قوياً في نفسه حتى كان هو الحامل له على الاتحاد الى الدولة التركية وأحلافها في الحرب الكبرى على شدة عداوتها له ومحاولتها لاغتياله في عاصمتها ، فقد أطلق عليه الرصاص بقرب الباب العالي وأصابه ولم يقتله ، ولا يشك احد من طرفي سياسة

الاتحاديين وتعدد اغتيالهم للمخالفين لهم انهم هم الذين أغروا من اطلاق عليه الرصاص بقتله وقد بالغ سفير الانكليز بالاستانة في اسمائه وحمله على العودة إلى عرشه في مصر قبيل دخول الدولة العثمانية في الحرب فلم يقبل، فبهذا اجمع الشعب المصري على حبه وان أقوى البراهين وأنهمض الحجاج على وطنيته ومقتله الانكليز ومشاكسته لهم طول عمره كتاب لورد كرومر الذي سماه (عباس الثاني) وهو أعلم الناس بسياسته فهو قد أثبت فيه أنه لا يمكن أن يتفقوا معه لاجل مقاومة حزب في لندن كان يسمى لاسمالة الخديو والاتفاق معه وإعادةه الى مصر

مدرسة للدين ومساعدته لمدرسة الدعوة والارشاد

وأختم كلامي بما ثبت عندي في العهد الاخير من حرصه على خدمة الاسلام وإحياء دعوته وبث عقائده وفضائله، وانه هو الذي حمله على دعوته إياي لمقابلته في قصره بعد عودتي من الاستانة سنة ١٣٢٩ لاقناعي بإنشاء جمعية الدعوة والارشاد ومدرستها في مصر وكفالاته لها لكن بعد إنشائها كما تقدم في أول الكلام على علاقة أستاذنا بسموه (ص ٥٧٠) وإن اعتقد من كانوا يسيئون فيه الظن انه فعل ذلك لحرمان الدولة من هذا المشروع العظيم . فهو قد صرح لي بأن نجاح هذا العمل في مصر قد يقنع الدولة بنفعه لها (قال) وحينئذ ننشيء مدرسة أخرى في الاستانة ثم ننشيء نسخة من المنار باللغة التركية أيضا

وقد أهتمه الشيخ عبدالعزيز شاويش تقربا للاتحاديين بأنه انما ساعدني على هذا العمل بالاتفاق مع الانكليز وانه كان يود مساعدتهم بهذا المشروع . وهذا أفظع بهتان رمي به وأبعده عن العقل، والله انه كان يخاف منهم عاياه، وهالك ما يدل على ذلك قال لي انه لا يمكن له الظهور أمام الانكليز بالمساعدة على إنشاء هذا العمل العظيم فانهم يعارضونه قطعاً . وأما إذا أمكنني جمع الاعانات من المسلمين وفتح المدرسة له فانه يقوم بمساعدتها بعد ذلك كما ساعد مدرسة الجامعة المصرية وغيرها من مال الاوقاف ، وهي أولى بالمساعدة منها لانها دينية محضة

ولما أنشأنا المدرسة كبر أمرها على دول الاستعمار الاوربي عامة والانكليز

خاتمة وكلم بعضهم سموه في أمرها، مصرّحين له بتشاؤمهم منها، بزعمهم انها ستلقى الشقاق بين المسلمين والنصارى !! فكان سموه يجيب من كالموه في ذلك بأنه مستعد لحل كل مسئولية تنشأ عنها بشخصه، لثقتة من مؤسسها ومن اخوانه. وأما العميد البريطاني وهو صديقه (!) السر غورست فقد كلمه في أمرها منذ أعلناه وقال له ان قناصل الدول الجزالية كالموه في شأنها فلم يثبه ذلك عن عزمه، بل أقنعه بأنه يضمن بشخصه كل تبعه

وقد أمر مدير الاوقاف العامة في السنة الثانية لتأسيسها بان يضع لها مبلغاً في الميزانية ولكن الميزانية كانت قد تم وضعها وكان فيها مبلغ ٥٠٠ جنيه قد وضع لاجل قسم الوعظ والارشاد في الازهر وهو لم يتم تأسيسه فأعطيت المدرسة. وفي السنة الثالثة وضع في صلب الميزانية ٥٥٠ جنيهها باسم المدرسة ودفعت الي مرة واحدة، ومثلها من الاوقاف الخديوية الخاصة. ثم حوات مصلحة الاوقاف بسمي لورد كتشنر الى وزارة وعين محمد محب باشا وزيراً لها في وزارة حسين رشدي باشا فإوصاه الخديو قبل سفره إلى الآستانة بان يضم في ميزانية الوزارة كل ماقرره مجلس إدارة المدرسة لنفقاتها في ميزانية سنتها المدرسية القابلة. وقد زار الوزير المدرسة واطلع على كل شيء فيها وقرأ قانونها، وجالسي عدة مرار للمذاكرة في أمرها، ورأى ان المبلغ المقدّر في ميزانيتها لبقعة السنة المدرسية القابلة أربعة آلاف جنيه، فوعد بان يجتهد لتوفيره كله او اكثره، وانه سيقابل سمو الامير في الآستانة ويتلقى أمره الاخير بشأنها. ثم سافر الى الآستانة. وفي أثر ذلك اشتعلت نار الحرب العامة وكان من أمرها ما كان. وفي أثناءها جعل الانكليز صنيعتهم ابراهيم فتحي باشا وزيراً للاوقاف وأوعزوا اليه بقطع المخصص للمدرسة في الميزانية ففعل، بعد ان كان عدلي باشا وزير المعارف بالفعل ووزير الاوقاف بالنيابة أمر بان تدفعه أقساطاً وبدى بذلك. وهذا هو البرهان الفعلي المؤيد لابراهيم العقلية على بطلان اتهام الشيخ شاوليش للخدّيو ولما بالاتفاق مع الانكليز ومن الشواهد على عناية سموه بخدمة الاسلام في غير مصر مساعدته للاستاذ

السيد محمد وجيه الكيلاني الذي كانت أرسلته مشيخة الاسلام في الآستانة الى (فيليبين) بطالب جمهورية الولايات المتحدة الامير كانية ليتولى ادارة امور المسلمين الدينية فيها ، ثم اهتمت امره وقطعت راتبه ، فناد من هنالك ليقم في بلاده من (سورية) فلما علم الخديو بوصوله الى بور سعيد أمر من بلغه ان سموه يرغب أن يجي ، مصر ويقابله في قصر عابدين ، فجاء الاستاذ وكان سمو الخديو قد أمرني بالمجيء الى عابدين في الوقت الذي يجي ، فيه السيد وجيه ، فاجتمعنا في حضرة سموه وبعد بحث طويل في حال مسلمي تلك الجزائر وما يحتاج اليه إقامة الدين فيهم وعد سموه بان يقوم بدفع تلك النفقات إلى أستاذهم بعد عودته ، وأنجز له بعض المساعدة ومنها أن صديقنا القديم السيد محمد بن عقيل كان قد أسس في جاوة مطبعة ومجلة تصدر بلغة الملايو على مشرب النار وتقتبس كثيراً من مقالاته ومباحثه ، ثم اضطر إلى تعطيل المجلة والمطبعة لقلة الدراهم ، وقد جاء مصر في تلك الاثناء فأخبرت سمو الخديو خبره فأمرني باحضاره إلى قصر القبة في صبيحة اليوم التالي لاختباري إياه بأمره فجئنا فأكرمه سموه وسأله عن أحوال مسلمي تلك الجزائر الدينية والاقتصادية والسياسية ، وعن مشروع مطبعته ومجلته ، فأجابه عن كل ما سأله عن معرفة - فقال له لا تترك عمالك واكتب لي تقريراً بما يحتاج اليه من النفقة كل سنة وعلى تسديد المال اللازم له بنظام مطرد

العبارة الختامية العامة

والعبارة العامة الكبرى من سيرة الخديو أنه لو ثبت على سيرته الاولى في الخدمة العامة والثقة بكبار العقلاء المصالحين لنهض بمصر نهضة أحييت العالم الاسلامي كله - كما قال الامير الهندي محسن الملك - وان العاقبة الفضلى في كل عمل من الاعمال هي لمن يتحرى الحق والخير والمصلحة العامة ، والاعتماد في كل عمل على خيار أهله ، وان شر ما يفتن به الملوك والامراء إثارة المفايقين المتملقين ، على الصادقين المحضين ، وهذا نص قوله تعالى (والعاقبة للمتقوى) وقوله (والعاقبة للمتقين)

استدراك على المقصد الثاني

﴿ والوعد بكتابة ذيل لهذا التاريخ ﴾

بقي لدينا من تاريخ عمل الاستاذ الامام في اصلاح الازهر مواد كثيرة يطول بنشرها كلها هذا الجزء ، على ما بقي من مواد عمله في القضاء الاهلي والافتاء والاقواف والجمعية التشريعية والجمعية الخيرية وسائر المباحث ، فاخترنا ان نرجى ، كثيراً من هذه المواد إلى الجزء الرابع من هذا التاريخ الذي سيكون ذيلًا جامعاً لما له علاقة بالاجزاء الثلاثة ومن مواد تاريخ اصلاح الازهر القوانين والتقارير التي وضعها مجلس الادارة لاصلاح التعليم ولجان اختيار الكتب ، وذكرنا مجملها في أعمال مجلس الادارة (ومنها) مقالات كثيرة نشرناها في مجلدات المنار وفي غيرها من الصحف كنا نؤيد بها الاستاذ الامام في عمله بالتصريح تارة وبالتلويح اخرى . ولعل أولها ما نشرناه في شعبان سنة ١٣١٦ بعنوان (محاورة في اصلاح التعليم في الازهر) اشرت فيها إلى قول بعض أكابر شيوخ الازهر : ان من ترك قول فقهاء مذهبه لالاخذ بحديث نبوي فهو زنديق . وأجابه بعضهم (وهو الشيخ محمد عبده) انما الزنديق هو من يعلم صحة حديث عن رسول الله ﷺ ويستحل أن يؤثر عليه قول شيوخ مذهبه اي من غير علم بأن لهم نصاً من القرآن او من حديث الرسول معارضاً له ومرجحاً عليه (ومنها) المواد المثبتة لتعلق الآمال الاصلاحية به وقيامه بأهم شؤونها بنفسه (ومنها) التقارير والمكتوبات التي كان يرفعها اليه الازهريون فيما يشكون منه وما يرجونه لانفسهم والازهر ، كطلب جماعة منهم تعيين معلم لحدى اللقتين الاوربيتين الانكليزية او الفرنسية . وهؤلاء قد صاروا كلهم مدرسين في الازهر (ومنها) اوراق أخرى كان يحفظها رحمه الله أغربها كشف بأسماء أشهر علماء المذاهب الاربعية في الازهر وفي جانب اكثر الاسماء إشارة بخطه إلى من يوثق بعلمه وعمله منهم وما يقابل ذلك . ومنها صورة عريضة رفعها زهاء ٣٠٠ طالب من الازهر إلى سمو الامير بالشكوى من العلماء الذين سعوا لابطال الامتحان والظلم فيهم وأما وصف دروس الاستاذ الامام وتثيرها في الاصلاح الديني واللغوي وفوائدها ، وارجاف الحاسدين بها ، فسيأتي لها موضع في هذا الجزء إن شاء الله تعالى .

المقصد الثالث

من الفصل السادس

عمر في منصب افتاء الديار المصرية

صدر الامر العالي من سمو الخديو بناء على قرار مجلس النظار بتعيين الاستاذ الامام مفتياً للديار المصرية، لست بقين من المحرم سنة ١٣١٧ (الموافق ٣ يونيو سنة ١٨٩٩) و كان الامير هو الذي اختاره لذلك عقب حادثة قاضي مصر وفصل الشيخ حسونة من الافتاء ومشیخة الازهر — وقد توقع سموه منه أن يرفض الافتاء بدون المشیخة ، فكلف صديقيه مصطفى باشا فهمي رئيس النظار وحسن باشا عاصم رئيس التشريعات أن يحسنا له القبول وقال الثاني : اخبر صديقك بأنه إذا لم يقبل الافتاء الآن فاني أعد ذلك منه إيقاعاً لي في صعوبة شخصية مع الاحتلال ، وأنا أعترف بأنه قليل عليه ولكن الامور مرهونة باوقاتها

أظن انني كنت أول من قابل الاستاذ بعد العلم بهذه المسألة . ذهبت إلى داره في عين شمس فألفيته واجماً كثيباً فلم أهنئه فظن انني لم اعلم فسألني ألم تعلم بما جرى في الاسكندرية ؟ قلت بلى ومالي أراك واجماً ؟ قل هذه وظيفة ليس فيها عمل . و ذكر لي تفصيل ما حصل من أوله إلى آخره . وأن الخديو قال لمستشار الحفانية : الآن أوجدت لك مفتياً تستطيع أن تفهم منه ويفهم منك بلا واسطة ولا ترجمة قلت : إذا لم يكن أفيرك في هذه الوظيفة غير إفتاء الحكومة فيما تستفي فيه ، وإفتاء محاكمها في مسائل الحكم بالقتل ، فأنت ان تكون كذلك ، وخطر في بالي ما كتبه بعد ذلك في المنار وهو ان الرجل الذي أمكنه أن يجعل التحرير في جريدة الحكومة الرسمية وسيلة إلى الاصلاح في جميع أعمال الحكومة ولا سيما وزارة المعارف ، ووسيلة إلى الاصلاح الاجتماعي والديني في الامة — لا يعجزه أن يجعل أكبر منصب شرعي وسيلة إلى الاصلاح الاسلامي العام من نواح كثيرة . وكذلك كان قد خدم بهذا المنصب القضاء الشرعي والاوقاف والمساجد وجمعية الشورى فأذكر عمله في هذه الثلاثة وأقني عليها بالكلام على فتاويه وأبدأ الكلام بتأثير تقليده هذا المنصب في الامة

تأثير تقليده منصب الافتاء في الامة

﴿وتهانيتها له﴾

توقع العارفون بفضل الاستاذ الامام من الخير والاصلاح بتقليده منصب الافتاء العام فوق ما توقعه هو بتواضعه وهضمه لنفسه ، ودون ما أهله الله تعالى له بنعمته وفضله ، وأكتفى هنا من التهانى الشرعية التي نظمت له بثنتين منها ، وأرجىء سائر ما اختاره منها للنشر الى ذيل هذا التاريخ

التهنئة الاولى

﴿لاديب العلماء صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبدالرحمن قراعة الشهير﴾

(وهو من أوائل تلاميذ الاستاذ الامام ومن اخوانه ، وقد تولى منصب الافتاء من بعده)
بهديك في الفتوى إلى الحق نهدي
سمت بك للعلاء نفس أيبسة
ورأي رشيد في الخطوب وحنكة
وعلم كنور الشمس لم يك خافيا
فضائل شتى في الافاضل فرقت
ولو جاز تعدادي لها لعددها
فقيم أطيل القول والشعر قاصر ؟
ومن فيض هذا الفضل نجد ونجدي
وعزيمة ماض كالحسام المجرد
وتجربة في مشهد بعد مشهد
على أحد إلا على عين أرمـد
ولكنها حلت بساحة مفرد
ولكنها جازت مقام التعدد
وماذا يفي قولي ويعني تزيدي ؟

أمولاي يا مولاي دعوة مخلص
لكل زمان من بنيـه مجدد
وقد علم الاقوام ان محمداً
يمينا بمن بالفضل خصص (عبده)
وقلده عقد الفتاوى فأصبحت
تقول فيصني أو تؤم فيقتدي
لما أبليت الالهواء من دين أحمد
مجدد هذا الدين في اليوم والغد
محمداً (الداعي لهدي محمد
تتيه به الفتيا بخير مقلد

لنخترقن الحجب بالرشد لا الهوى
فتوضح من إشكاله كل غامض
إليك أرف المدح شعراً مقصداً
لأبغ نفسي بامتداحك سؤلها
فجاء على قدري ولكن شافعي
وهنأت نفسي ثم هنأت معشري
وقلت لمصر: هنتيه وأرخي
سنة ١٣١٧

وتبني منار الحق بالفكر واليد
وتفتح من أبوابه كل موصد
على بُعد عهدي بالقريض المقصد
وأقضي حقاً لم يكن بمجدد
لدى قدرك السامي نبالة مقصدي
وهنأت أوطاني بما نال سيدي
(بهديك في الفتوى إلى الحق نهدي)
٤١ ٩٠ ٢٧ ٥٢ ٤١ ١٣٩ ٥٦٩

لقد سبق التاريخ عسراً فلم أجد
فزدت كما أبغي ومن يُلف مخلصاً
فلا زلت يا مولاي فينا محسداً
من الياء بدأ بعد طول تردد
من النقص يطلب للكمال ويزدد
وحاسدك المغبون غير محسد

﴿ التهنئة الثانية لشاعر النيل محمد حافظ بك ابراهيم ﴾

(وكانت هذه الايات مبدأ اتصاله بالامام وشهرته بالشعر الاجتماعي الراقى
كما توقعت ذلك في الممار)

باعتباك لم أنسب ولم أتغزل
ولما اصف كأساً ولم بك منزلاً
فلم يبق في قاي مدحك موضعاً
رأيتك والابصار حولك خضع
وخفضت من حزني على مجد امة
طاعت لها باليمن من خير مطاع
وجردت للفتيا حسام عزيمة
محوت به في الدين كل ضلالة
لن ظفر الافتاء منك بفاضل
فما حل عقد المشكلات بحكمة
ولما أفف بين الهوى والتذلل
ولم أتحلل خراً ولم أتنبل
نجل به ذكرى حبيب ومنزل
فقلت أبو حفص بهرديك ام علي؟
تداركتها والخطب للخطب يعتلي
وكنت لما في الفوز قدح ابن مقبل
بجذبه آيات الكتاب المنزل
وأثبت ما أثبت غير مضلل
لقد ظفر الاسلام منك بأفضل
سوانه ولا اربى على كل حوّل

عمله في تفتيش المحاكم الشرعية وإصلاحها

كان أول عمل عهدت به إليه الحكومة بعد تقليده الافتاء تفتيش المحاكم الشرعية وبيان رأيها في إصلاحها، بعد أن ضجت البلاد كلها من كثرة الشكوى من خللها، وارتأى بعض الباحثين وجوب إلغائها، وتحويل اختصاصها إلى المحاكم الأهلية بمجة توحيد القضاء، وادعاء أهلية قضائها للحكم في الأعمال الشخصية الدينية لأنهم يتعلمون الفقه الإسلامي في مدرسة الحقوق الخديوية، ومن يتعلم القوانين في غيرها كفراسة لا بد له من أداء امتحان في الشريعة قبل جعله قاضيا أو قبوله محاميا، وقد كتبت في ذلك الوقت في جزء المنار الذي صدر في ١٦ صفر سنة ١٣١٧ (٢٤ يونيو سنة ١٨٩٩) ما نصه:

﴿ إعطاء القوس باريا ﴾

لا خلاف في أن المحاكم الشرعية في القطر المصري كله في اختلال عظيم تحتاج بسببه إلى إصلاح عظيم، ولكن إصلاحها أعياء أطباء النظام، والجالسين على أرائك الأحكام، فساحة قاضي القضاة على فضله ونبله لم يداو لها عللا، ولم يصاح خلالها، واقد مكث في منصبه هذا بضع سنين، بحيث يصح أن يقال له (اولم نمرمك مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) وحوثت الحكومة حول الإصلاح غير مرة ولكن لم تقع عليه، ودمت إليه عدة هام فأخطأت كلها الفرض، فالاجعت آداء أولي الأمر، عقب ذلك الأمر الأمر. وبعد إجابة فداح الفكر، على إعطاء القوس باريا، علما بأن صاحب الدار أدري بما فيها، اتفق الجميع على تفويض العمل إلى علامة الشرع والأحكام، وحكيم الادارة والنظام، الذي لم يعرف له ثاب متبحر في علوم الدنيا والدين، جامع بين الارادة الفعالة والغيرة على مصلحة المسلمين، الا وهو استاذنا الا كبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

ناطت الحكومة بفضيلته تفتيش المحاكم الشرعية ووضع الاصول التي يراها كافية لإصلاحها، فتلفت جميع الجرائد هذه البشرية بالبشر والارتياح، واتفقت

على اختلاف منازعها ومشاربها على أن هذا هو طريق النجاح ، وأعربت عن
الامل باصلاح الخلل ، وإزالة العلل ، فدل هذا على أن الاستاذ هو الرجل الفرد
الذي نال الثقة الكاملة من مجموع الامة حاكما ومحكوما ، فليتأمل هذا بعض
المخدوعين ، الذين يأخذون ترجمته من أفواه الحاسدين وخرص المذاعين^(١) اهـ

تقريره في اصلاح المحاكم وموضوعاته

طاف الاستاذ اكثر محاكم الوجه البحري وصحب معه الاستاذ الشيخ احمد
ادريس من أعضاء محكمة مصر الشرعية ، ففتشها تفتيشاً دقيقاً ووضع تقريره فيما
رأى من خلل ، وما ارتأى لمداواة العلل ، فبدأ الكلام مرتباً هكذا (١) الحاجة
الى هذه المحاكم ووظائفها (٢) أماكنها وتقدير الحكومة فيها مع اشادتها لاماكن
المحاكم الاهنية (٣) الكتبة (٤) القضاة (٥) الحجاب (٦) الاعمال الكتابية (٧) ما يكفل
السرعة في العمل (٨) الدفاتر (٩) العقود التي ترد على المحاكم الشرعية من المحاكم
المختلطة (١٠) الدفترخانات أي خزائن الدفاتر المحفوظة (١١) الاعمال الحسابية
(١٢) تقييد القاضي كل ما يرد عليه (١٣) تشكيل المحكمة (١٤) اختصاص المحاكم
الشرعية مادة ومكاناً - وفي هذا الفصل اقترح أن يزداد في اختصاصها في مقابلة
من يريدون النقص منها ، دع من يسمعون لالغائها (١٥) الرافعات (١٦) الاعلان
أو الطلب والاعذار (١٧) التوكيل في الخصومات (١٨) الجلسات (١٩) حضور
الخصوم (٢٠) الرافعة (٢١) ما يبطل به الدعوى بدون سؤال الخصم (٢٢) الشهادات
والادلة (٢٣) الدفع وما يتبعه من المعارضة في الحكم على الغائب (٢٤) الاحكام
(٢٥) ما لا تسمع فيه الدعوى (٢٦) التنفيذ وفيه الشكوى من مقاسد كثرة الزوجات
للفقراء (٢٧) التفتيش (٢٨) المحامون (٢٩) ما دون عقود الزواج (٣٠) اللائحة
أو اللوائح التي وضعتها وزارة الحقانية لهذه المحاكم وما فيها من النقص
بين هذه المسائل في ٨٣ صفحة وقل في آخرها انها اجمالية يفصلها لوزير

(١) المذاع الكذاب ومن لا يثبت في قوله الخ

الحقانية بالمذاكرة الشفاهية. واني أنشر في هذا التاريخ مقدمة هذا التقرير الذي اجمع الناس والجرائد على الاعجاب به مع الفصل الذي عقده لبيان الحاجة الى هذه المحاكم . ثم اقفى عليه بالمقدمة التي بينت فيها مقاصده الاصلاحية

(قال بعد صيغة الخطاب الرسمي التي خاطب بها ناظر الحقانية)

علمت عقب تعييني في وظيفة افتاء الديار المصرية ان سأكون عضواً في اللجنة التي عازمت الحكومة الخديوية ان تسكل اليها النظر فيما يجب ادخاله على المحاكم الشرعية من الاصلاح الشرعي والنظامي ، فرأيت من الواجب علي أن أكون على بصيرة من الامر العظيم الذي سأدعى إلى البحث فيه ، وانه لا يتم لي ذلك إلا بالاطلاع على ماهو جار في هذه المحاكم والبحث في العمل التي عم الكلام فيها ، وما يجب أن يوضع لها من الدواء ، مع الحرص على قواعد الشرع وأصوله ومراعاة مصالح العامة ، والآخذين بأحكام الشريعة المطهرة في عقائدهم ومعاملاتهم ، وإزالة ما عمت منه شكواهم ، مما ينسب إلى عمال المحاكم او العوائد المتبعة في سير أعمالها ، ورأت نظارة الحقانية ما رأيت فسألتني أن أمر على المحاكم مدة الصيف الماضي وأنظر في أعمالها وأقدم لها نتيجة ما يتيسر لي من البحث في أحوالها ، فطفت على كثير من محاكم الوجه البحري واطلمت على ما أمكن الاطلاع عليه من سجلات ومضابط ومرافعات وسير في الاعمال ، وعرضت ذلك على ما تقرر من أحكام الشريعة الفراء ، وما وضع من اللوائح للمحاكم الشرعية ، واستخلصت مجموع آراء أقدمها بين يدي سعادتك وأرجو أن تكون موضوع نظر يأتي بالفائدة إن شاء الله ، وسألم في تقريري هذا باهم ما يجب النظر فيه الآن ، وأدع مادون ذلك إلى المستقبل ، وأبدأ مما أقصد بمقدمة قصيرة في بيان موضع المحاكم الشرعية من بناء الحكومة المصرية ، ومنزلتها من مصالح الامة الاسلامية :

﴿ الحاجة الى المحاكم الشرعية ﴾

تدخل المحاكم الشرعية بين الرجل وزوجته ، والوالد وولده ، والاخ وأخيه ، والوصي ومحجوره ، وما من حق من حقوق القرابة القريبة او البعيدة إلا ولها سلطان السيطرة عليه والقضاء فيه ، وانها تنظر من ذلك في أدق الشؤون وأخفاهاء ، ويسمع قاضيها مالا يسمح لاحد سواء أن يسمعه سوى ما يكون من الزوج لزوجته او الزوجة لزوجها ، فكما انها هياكل عدل ، هي كذلك مستودع سر وأي سر ، فمنزلتها من نظام الاسر (العائلات) تلي منزلة المحبة وروابط القرابة ، فاذا تراخت تلك الروابط ومرضت المروآت تعلق حفظ نظام البيوت بالمحاكم الشرعية . وللشريعة الاسلامية في ذلك دقائق لايسهل الالتفات اليها إلا على من أحاط علماً بكليات أحكامها ، ووقف بالبحث الصحيح على مقاصدها ، ووصل إلى أدق معانيها ، وكان من العلم بافتها في منزلة يعرفها له أربابها ، وإن يكون الرجل كذلك حتى يأخذ الشرع عن أهله ، وتكون تربيته على السنة الدينية الصحيحة ، ثم لا يكون القاضي حافظاً لنظام الاسر والبيوت - بعد الاحاطة بأحكام الشرع - حتى يكون للشرع وأحكامه سلطان أي سلطان على نفسه .

رأيت أغلب اهل الطبقة الدنيا ، وعدداً غير قليل من أهل الطبقتين الوسطى والعليا ، قد ودعوا عواطف انصهر والقرابة ، ولجأوا في علاقتهم البيئية إلى المحاكم الشرعية ، فحق النفقة والسكنى ، وراحة الزوجة من منازعة اهل الزوج ومن في مؤنته ، والقيام بشؤون الاولاد وتربيته إلى سن معلوم ، وما يلزم لذلك كله ، مرجعه الآن إلى المحاكم الشرعية عند من ذكرنا ، ولا يخفى ان الشعب انما هو مؤلف من البيوت التي تسمى عائلات ، وأساس كل امة عائلاتها ، لضرورة ان الكل انما يقوم باجزائه ، ولما تعلقت مصالح البيوت في أدق روابطها بالمحاكم الشرعية كما هو الواقع اليوم ، تبين مقدار حاجة الأمة في صلاحها إلى صلاح هذه المحاكم ، وظهر ان منزلتها من بناء الحكومة المصرية منزلة الركن الذي لو ضعف ظهر أثر ضعفه في البنية بتمامها

إذا ظهرت هذه المحاكم في مظهرها الديني الجليل، وسادت سيرتها الشرعية القوية، أدخلت أصول النظام في اصغر البيوت فضلاً عن أعلاها، وأعدت بالعدالة الأبوية ما فقدته الناس من نظام الالفة، وقد رأينا ان الرجل يدخل المحاكم الأهلية مخاضاً، فيخرج منها محامياً، فأحر بمن يقوم بين يدي قاض ينطق بالعدل الإلهي أن ينقلب وفي نفسه أثر من خشية الله

للمحاكم الشرعية بعد ما تقدم نظر في حقوق الميراث وأصول الاوقاف والاستحقاق فيها، وإليها وحدها الفصل في ذلك، والمخاضات في هذه الطائفة من الشؤون ليس عددها بقليل، وكم رأينا من قصايا أوقف النظر فيها أمام المحاكم الأهلية حتى يقضي الحاكم الشرعي فيما بني عليه الحق المتنازع فيه. هذا إلى ما عهد إلى تلك المحاكم من تحرير العقود الرسمية في كل باب من أبواب المعاملات ولا تزال ثقة الناس بها أشد من ثقتهم بالمحاكم المختلطة، ويعدون التسجيل في أقلام كتاب المحاكم المختلطة ضرباً من التساهل يأتيه من لا يريد بناء أمره على أساس متين، مهاهم قوم بتضييق دائرة اختصاص هذه المحاكم وجدوا عقبات في طريقهم وصعب عليهم المنال، ولئن نجحوا فإن يستطيعوا أن يضعفوا من حاجة الناس إليهم فن الحق أن يشتكي الناس من الاعتلال الذي عرض لها، ومن الحق إن ارتفعت أصواتهم بطالب الإصلاح، ومن العدل بل من الواجب الذي لا تبرأ الذمة إلا بأدائه، أن تسمع الحكومة شكوى الكفاية وإن تنهض لتخفيف آلام الشاكين، وتدخل إلى الإصلاح من أبوابه، وجزى الله كل من اهتم بشأن هذه المحاكم خيراً

سبق لي سعي لدى الجنب العالي الخديوي في اصلاح المحاكم الشرعية في سنة ١٨٩٦ يوم لم يكن لي ناقة فيها ولا جمل^(١) ولم أكن إلا واحداً من الناس أشعر بالآلامهم وآلام الشريعة مما كان جارياً فيها إذ ذاك، وتفضل جنابه الفخيم بقبول ما التمس منه وناط بي وبمجموعة من الفضلاء، وضع مشروع لازالة ما فيها من العلال وتقديم تقرير يبين ما فيها من العيوب، فتمت اللجنة عملها ووضع المشروع وقدم

(١) يعني انه لم يكن له يومئذ صفة رسمية يخاطب بها الخديوي في ذلك. وقد

بيننا في أول المقصد اناني انه سعي لدى سموه لاصلاح المحاكم الشرعية والازهر والاقواق

للتقرير ومضت مدة ، ثم نهض المستشار القضائي المستر سكوت لوضع اللائحة الجديدة فارشدته إلى ذلك المشروع لعله يأخذ منه ما يراه حسنا ، وقد فعل وظهرت اللائحة الجديدة وفيها الدواء الكثير لبعض ما وصفته من العلال

لكن اللائحة وضعت على عجل واختلف فيها النظر ما بين النظارة وبعض المشايخ ، فاهملت قيود كان يجب اثباتها ، وأغضت نصوص لمداراة بعض من يزعمون أن العدالة شيء ، والشرعية شيء آخر (برأ الله الشريعة مما قالوا) فاشتبه الأمر على منفذها ، وكثر الخطأ في تطبيقها على العمل ، وتنوعت ملاحظات القضاة على كثير من موادها ، وأصاب المتقاضين عظيم من الضرر ، وساعد على هذا كاهل إهمال المحاكم وعدم تهديدها بالمراقبة والتفتيش ، ودخول النظارة في كثير من الأعمال القضائية التي يرجع فيها القضاة والمتقاضون اليها ، وعذر النظارة أن القائمين بأعمال هذه المحاكم متمسكون بمبادئ يزعمونها شرعية ، وما هي منها في شيء ، ويحافظون على رسوم وألفاظ ان اقتضاها حال لم يقتضها آخر ، مع ان روح الشرع إنما هو الحق والعدل ، والتزام الصدق في القول ، والاخلاص في العمل ، فلا يباح في ديننا لاحد أن يكذب كذبة واحدة لتقوية حجته ، والدين كافل لكل بالوصول إلى حقه من أقوم الطرق وأهداها ، على ان حل المحاكم بعد صدور اللائحة الجديدة خير منها قبل ذلك وأرفع بدرجات

وشكوى الناس تنحصر في صعوبة المعاملة مع الكتاب ، وطول الزمن على القضايا خصوصا إن كانت مهمة ، وخفاء طرق المرافعات حتى على العارفين بأحكام الشريعة ، فضلا عن سائر العامة ، وهوى القاضي أو ضعف يقظته ، وشكوى القضاة تنحصر في رداءة مقامهم ، والتقتير عليهم في المرتبات وسائر النفقات التي لا بد منها ، والنظام يشكو من التساهل في المحافظة عليه . وسيأتي الكلام على جميع ذلك لكن على ترتيب آخر . فاني سأبدأ في عرض ما ينبغي أن يكون بما بدا لي على ترتيب ما يلاقي الذهاب إلى المحكمة لشأن من شؤونه اه

[المؤلف] لقد كان كل كاتب وكل عالم في مصر يعجز عن كتابة مثل هذه المقدمة بل لم يكن أحد يحيط علما بما يبتدئ به بالاجمال فكيف لو كان كاتبها شرحها وفصلها

مقدمة الناشر للتقرير

نشرت التقرير في المنار وطبعته على حدته ووضعت لنشره المقدمة التالية

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *
وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ

ان من طبيعة الناس وعادهم الشكوى مما يتألمون منه لضياغ مصالحهم ومنافعهم
ووقوع الحيف والظلم عليهم إذا وجدوا لذلك سبيلا ، وقد كثر في هذه السنين
الاخيرة الخوض في أمر المحاكم الشرعية في مصر ، وعمت الشكوى منها - الرعية
تشكو من ضياغ حقوقها ، والحكومة تشكو من القضاة ، والقضاة تشكو من الحكومة -
وقد أرادت نظارة الحقانية أن تشرع في اصلاح هذه المحاكم في هذه السنة فابتدأت
بوضع المشروع المشهور ، وهو انتداب قاضيين من قضاة محكمة الاستئناف الاهلية
ليكونوا عضوين في محكمة مصر العليا ، فقامت لهذا المشروع قيامة المسلمين في مصر ،
ولم يرض به أحد من خاصتهم ولا عامتهم ، وكثر الطعن في الحكومة بسببه قولا
وكتابة في الجرائد ، ثم انتهى الامر بتوقف الجناح العالي الخديوي أعزه الله عن تنفيذه ،
وبقيت الشكوى عامة من سوء حال هذه المحاكم مجما عليها ، حتى من قضائها والوظفين فيها
ثم عادت الحكومة إلى رجل من أكابر علماء الشرع الاسلامي ، ومن
واسعي الاطلاع في القوانين الوضعية ، والعارفين باحوال الزمان . ألا وهو الاستاذ
العلامة الشهير الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد بان ينظر في أدواء
المحاكم الشرعية ومزاجها ، ويبين دواءها ويصف علاجها ، ويضع في ذلك تقريراً ،
فحقى الناس في أمر مريح ^(١) حتى ظهر التقرير ، فإذا هو لم يغادر صغيرة ولا كبيرة

(١) اعني أنهم كانوا مضطرين في خطة الاستاذ وما سيقدره بعد تفتيشه لها

لاختلافهم في نيته وغرضه كما يعلم من الصفحة التالية

إلا أحصاها ، وبين مبتدأها وممتهاها ، ووصف علاجها ودواها . وأظهر للملأ أن خال هذه المحاكم بعضه من تقصير الحكومة نفسها ، وبعضه من تقصير القضاة والكتابة . وقد أجمع المطلعون على التقرير من أهل العلم الشرعي وغيرهم على أنه جمع فواعي ، وارشاد إلى الإصلاح الحقيقي وهدى ، وأثبت عليه الجرائد كلها على اختلاف مشاربها ومذاهبها ، وتشوفت نفوس سائر الناس للاطلاع عليه ، وهذا ما حملنا على طبعه ، قصد تميم نفعه

يقول بعض الناس : إن الحكومة لو لم تكن تقصد الإصلاح الحقيقي للمحاكم الشرعية لما طلبت من هذا الاستاذ بيان الإصلاح ، وهي تعلم أنه لا يحاييها ، لأنه لا تأخذه في الحق لومة لائم ، والسواد الأعظم لم يزل سيء الظن بالحكومة معتقدين أنها مدفوعة من القوة المحتلة إلى إلغاء هذه المحاكم ، لأنها أكبر شعار ملي للامة الاسلامية^(١) ويقولون أنها لم تكن تتوقع من هذا الاستاذ بيان تقصيرها وحماها على الإصلاح الحقيقي ، وقوي عندهم هذا الظن بتأجيلها النظار فيه ، ويتحدثون بأنها لا بد أن تغري بعض من يعينهم الامر حتى من رجال الشرع بالانتقاد على بعض ما جاء فيه ، وتتخذ ذلك حجة أمام الامة على عدم تنفيذه ، وسيظهر لهم عن قريب فساد الظنة ، وخطأ التهمة ، ويرون الحكومة إن شاء الله تعالى مجتهدة في تنفيذ ما يسمح الوقت بتنفيذه منه ، كما يجب عليها لدينها وأمتها . وأرجو أيضا أن يروا من المحتلين مساعدة لا معاندة ، ولا سيما فيما يطلب للمحاكم من المال ، فإن التوسيع في النفقة على محاكم هذا شأنها وهذه مكانتها من نفوس الامة أولى من الانفاق على اختبار الاسماك وتأليف كتاب فيها وهو ما سمحت له الحكومة بالفجنيه ولا يمكن أن توجد فرصة يبرهن فيها المحتلون لمسلمي مصر بل وسائر المسلمين

(١) أصرح الآن بان الاستاذ الامام نفسه كان يعتقد ان مشروع تعيين قاضين من مستشاري الاستئناف للمحاكمة الشرعية العليا كان تمهيدا لإلغاء المحاكم الشرعية بتعويد الناس على رؤية المتزيين باللباس الافرنجي والطربوش يتولون الاحكام الشرعية وقد صرح لي بان الذي وضع ذلك المشروع هو بطرس باشا غالي لاجل سلب المسلمين آخر ما بقي لهم في الحكومة من امورهم المالية

على احترام الدين الاسلامي وارادة الاصلاح الحقيقي في مصر مثل هذه الفرصة،
وليس من الحكمة أن تضع ولا يغتنمها القوم الذين قاعدة سياستهم هذه الكلمة
« نحن لا نوجد الفرص ولا نضيعها »

ان الغيرة الدينية المتدفقة من روح واضع التقرير قد غمرت المحاكم الشرعية
وقاض معينها على الازهر الشريف ، وما يتبعه من معاهد العلم الشرعي، فكما أشار
باصلاح أما كن المحاكم وأثارتها ، والتوسعة على القضاة والكتابة في الرواتب ،
واستقلالهم في الرأي ، والعناية بتنفيذ أحكامها الخ أشار أيضاً بمحصر موظفي
المحاكم في المتعلمين في الازهر وما يتبعه ، وباصلاح التعليم فيه بإنشاء قسم للتعليم
القضائي يتخرج منه القضاة (راجع صفحة ١٤ منه) وآخر يتخرج منه الكتاب
(راجع صفحة ١١ منه) وبأن يكون مأذونو العقود من طلاب العلم في هذه
المعاهد أيضاً (راجع صفحة ٨٠)

جرى صاحب التقرير في تفتيش المحاكم وابداء رأيه في اصلاحها على مبدأ
حكيم ، وهو كون الاحكام والنظام على وفق المصالح والمنافع الوجودية، إذ لا تقدر
الحكومة على تغيير شؤون الوجود بنظامها، كما ان الشريعة لم توضع لتحويل سنن
الكون باحكامها (وان تجد لسنة الله تحويلا) فقصارى ماطلبه من الحكومة أن
تجعل عنايتها بالمحاكم الشرعية كعنايتها بالمحاكم الاهلية، وان توسع دائرة اختصاصها
كما سنبينه . وقصارى ماطلبه من القضاة أن يفهموا أقوال الفقهاء ومقاصدهم في
الاحكام التي استخرجوها من الشريعة لوقاية مصالح الخلق وحفظ حقوقهم
ومنافعهم، لا ان يأخذوا بظواهر ألفاظهم ظانين انهم متعبدون بها ، فان القاعدة
المتفق عليها في العقود والمعاملات هي « ان العبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالالفاظ
والمباني » والفقه هو الفهم فمن يأخذ بظواهر الالفاظ فهو ليس بفقيه ، ولا يجوز
أن يكون غير الفقيه قاضيا يحكم بين الناس . وليس عندنا كتاب نتعبد بالفاظه
إلا كتاب الله تعالى ، ومع ذلك نرى جميع العلماء من المتكلمين والفقهاء وغيرهم
(رضي الله تعالى عنهم) قد أجروا فيه التفسير والتأويل ، ولم يأخذوا بظواهر
الفاظه كلها مع انها منزلة ومتواترة ومحفوظة من التحريف ، فكيف نأخذ بظواهر

ألفاظ الفقهاء من غير فهم ، وليس لها مزية من هذه المزايا .
يتبرم بهذا الطلب القضاة الذين لا فقه لهم ، وإنما ألفوا ألفاظاً تعلمها أكثرهم من
كتاب المحاكم ، ويتبرم به بعض من يعلم منهم أنه الحق الذي لا تقوم للشرع قائمة إلا
به ، ولكنه يغمطه حسداً وكبراً ، ويحاربه هؤلاء بسلاح التمسك بظواهر ألفاظ بعض
الفقهاء على أنها متعبد بها لا يعقل معناها ، فإن لهم في هذا غرائب ، بين التقرير كثيراً
منها ، كظنهم أن ذكر اسم الأب والجد في تعريف المدعي والمدعى عليه مطلوب لذاته
(راجع باب المرافعة وما بعده من التقرير) وسمعت أن بعض القضاة أنكر أن
الشهادة مطلوبة للعلم بالمشهود به !!!

الشريعة الإسلامية شريعة عامة باقية إلى آخر الزمان ، ومن لوازم ذلك
أنها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان ، مهما تغيرت أساليب العمران .
وشريعة هذا شأنها لا تنحصر جزئيات أحكامها ، لأنها تتعلق بأحوال البشر ما وجدوا ،
ولا يحيط بذلك علما إلا عالم الغيب والشهادة ، وهو الذي جمل أساسها حفظ
الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، إذ مصالح البشر في كل آن مبنية على حفظ
هذه الأشياء التي فيها السعادة في المعاش والمعاد . وقد استخرج الأئمة والفقهاء
رضي الله عنهم اقواعد الكلية والأحكام الجزئية ، وبنوها على أساس هذه الأصول
الخمسة . ومن القواعد المتفق عليها بينهم أن العبرة بالمعاني لا بالألفاظ ، كما مر آنفاً
وان الضرورات تبيح المحظورات ، وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن الأمر إذا
ضاق اتسع ، وأن الضرر الخاص يتحمل لدفع الضرر العام ، والضرر الأشد يزال
بالأخف ، وأن الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة أو خاصة ، وأن الأحكام تتغير
بتغير الأزمان ، وأن التعيين بالعرف كالتمعين بالنص ، ومن فهم كلام أئمة الفقه
حق فهمه ألفاه لا يتعدى هذه القواعد ، فيجب على القضاة جمعها آلة لفهم كلامهم
والحكم به لتحفظ الحقوق . على أن فضيلة صاحب التقرير على علم بعجز أكثر القضاة
الحاليين عن ذلك ولذلك طلب ما تراه في الأمر الثاني والثالث من التقرير
من أهم ما طلب في التقرير أمران يتعلقان بحاكم مصر أشد التعلق ، وأمر
يعتبر إصلاحاً إسلامياً عاماً :

(الامر الاول) توسيع دائرة اختصاص المحاكم الشرعية ، وفي هذا مخرج للحكومة من كثرة شكاوى المحاكم الاهلية الجزئية من كثرة القضايا حتى ان الحكومة اضطرت إلى تحويل عمد البلاد الحكم في بعض القضايا المدنية ، ولما رأت ان سيرهم ومعارفهم لا تمكنهم من اقامة العدل فيها عدلت عن تعميم هذا المشروع إلى انتخاب بعض منهم للتجربة ، والمعارفون بحول البلاد يعفون ان الحكومة لا تنجح في هذا ، ولا سبيل لخروج الحكومة من هذه الحيرة إلا بتحويل المحاكم الشرعية الحكم في كثير من القضايا المدنية . ولا يوجد مانع للحكومة من ذلك الا تمسك بعض المتنطعين ممن ينتسبون إلى الشرع ويجهلون مقاصده بمواند وألفاظ في المرافعات الشرعية ليست من الشرع في شيء . وبها يجهلون الحكم بالشرع متعذراً وهذا أعظم جناية عليه .

(الامر الثاني) عدم حصر منصب القضاء الشرعي في الحنفية لما بينه في صفحة ١٥ وليس هذا قولاً بالحكم بغير مذهب الحنفية ، فقد صرح هناك بان فقه المذاهب الاربعة متقارب ، والاختلاف في الفروع مذكور في أغلب كتب الفريقين ، فيمكن لمن برع في فقه الشافعية مثلاً أن يفهم فقه الحنفية بسهولة . وقالت جريدة المؤيد الغراء : ان هذا وقع بالفعل فان فضيلة الاستاذ صاحب التقرير يعد في مقدمة القضاة الحنفية وهو مالكي المذهب ^(١) والاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان أحد قضاة المحكمة الشرعية العليا من أمهر القضاة وهو شافعي المذهب ، بل نقول ان العلماء كانوا يقولون ان من برع في علم من العلوم يمكن أن يهتدي به الى سائرها ولهم في هذا آثار مشهورة

وقد رأيت في قائمة كتاب (أقضية الرسول) عليه السلام للامامة أبي عبدالله محمد بن فرح المالكي مانصه : « وافق مالك والشافعي وأبو حنيفة رحمهم الله تعالى على انه لا يجوز لما لم أن يحكم بين الناس حتى يكون عالماً بالحديث والفقه معاً مع عقل وورع . وكان مالك رحمه الله يقول في الخصال التي لا يصلح القاضي الا بها :

(١) كان الاستاذ قد طاب فقه المالكية أولاً وتربى عليه ولكنه تعلم فقه الحنفية في الازهر وامتنحن فيه امتحان العالمية واخذ شهادتها به

لا أراها اليوم تجتمع في أحد، فإذا اجتمعت في الرجل خصلتان رأيت أن يولى - العلم والورع . قال عبد الملك بن حبيب «فإن لم يكن فعقل وورع ، فبالعقل يسأل وبه تصلح خصال الخير كلها ، وبالورع يعمد» ، وإن طلب العلم وجدده وإن طلب العقل إذا لم يكن فيه لم يجدده » اهـ وهو حجة للاستاذ صاحب التقرير في تحكيمه اختبار جميع موظفي المحاكم في سيرتهم وأخلاقهم ، لا في الفقه فقط بالنسبة إلى القضاة ، وفي الكتابة فحسب بالنسبة إلى الكتاب :

وقد صرح في كتاب الأحكام السلطانية بأنه «يجوز لمن اعتقد مذهب الشافعي رحمه الله أن يقلد القضاء من اعتقد مذهب أبي حنيفة» الخ ، وقد طلب أهل السليمانية وكلهم شافعية من مولانا السلطان عبد الحميد خان أن يولي عليهم قاضياً من أهل مذهبهم ففعل (الأمر الثالث) أن تؤلف لجنة من العلماء لاستخراج كتاب في أحكام المعاملات الشرعية ينطبق على مصالح الناس في هذا العصر - ولا سيما الأحكام التي هي من خصائص المحاكم الشرعية - يكون سهل العبارة لا خلاف فيه كما عملت الدولة العلية في مجلة الأحكام العدلية ، ولا يكون هذا الكتاب وافياً بالقرض واقياً للمصالح إلا إذا أخذت الأحكام من جميع المذاهب الإسلامية المعتبرة ليكون اختلافهم رحمة للأمة . ولا يلزم من هذا التلويح الذي يقول الجمهور بيطالانه كما لا يخفى . وقد أشير في صفحتي ٤٠٣٨ من التقرير إلى عدم التقيد بالمذهب الحنفي ، ونوم بعض الناس أن هذا يمس حقوق مولانا الخليفة وإن الأحكام بغير مذهب الحنفية لا تصح ولا تنفذ لهذا ، ونجيب عنه بأمور

(١) جاء في كتاب الأحكام السلطانية مانصه « فلو شرط المولى وهو حنفي أو شافعي على من ولاه القضاء أن لا يحكم إلا بمذهب الشافعي أو أبي حنيفة فهذا على ضربين (أحدهما) أن يشترط ذلك عموماً في جميع الأحكام فهذا شرط باطل سواء كان موافقاً لمذهب المولى أو مخالفاً له ، وأما حدة الولاية فإن لم يجعله شرطاً فيها وأخرجه مخرج الأمر أو مخرج النهي وقال قل ذلك القضاء فاحكم بمذهب الشافعي رحمه الله على وجه الأمر ، أو لا يحكم بمذهب أبي حنيفة على وجه النهي ، كانت الولاية صحيحة والشرط فاسداً ، سواء تضمن أمراً أو نهياً ، ويجوز أن يحكم

بما أداه اليه اجتهاده سواء وافق شرطه أو خالفه، ويكون اشتراط الموالي لذلك قدحا فيه ان علم انه اشترط ما لا يجوز، ولا يكون قدحا ان جهل، لكن لا يصح مع الجهل أن يكون مواليا لا واليا، فان اخرج ذلك مخرج الشرط في عقد الولاية فقال قد قلدك القضاء على ان لا تحكم فيه الا بمذهب الشافعي او بقول ابي حنيفة كانت الولاية باطلة لانه عقدها على شرط فاسد. وقال اهل العراق: تصح الولاية ويبطل الشرط « اه المراد منه

(٢) لا يعدل عن مذهب الحنفية إلا في الاحكام التي لا تنطبق على مصلحة الناس في هذا العصر إذا حكم فيها بمذهبهم، وهذه حالة ضرورة أو حاجة تنزل منزلة الضرورة، وبهذا الاعتبار تكون من مذهبهم، لان الحكم الذي تمس اليه الحاجة أو يضطر اليه، يصير متقما عليه (١)

(٣) ان مذهب الحنفية واسع متشعب جدا بمعنى ان فيه كثيرا من الاقوال في كل مسألة، حتى قال كثير من قهاتنا انه لا يوجد قول لمجتهد في مسألة الا وهو موجود في مذهبنا لأحد أئمتنا او مشايخنا ولو ضيقا، ومن المقرر عندنا أيضا ان القول الضعيف يقوى بأمر الامام بالعمل به. وقد ألفت لجنة من العلماء مجلة الاحكام المدلية وأخذوا فيها ببعض الاحكام التي لا تصح في مذهب الامام ابي حنيفة رحمه الله تعالى ولكنها صحت في مذهب غيره وقالوا انها وافقت اقوال الضعيفة للعلماء الحنفية تقويت بأمر السلطان فوجب الحكم بها واذا ألف علماء الأزهر الكتاب الذي اقترحه فضيلة الامام مفتي الديار المصرية في هذا التقرير ولم يجدوا الوجهين اللذين قبل هذا كافرين لجواز الحكم بموجبه فيه كن طيب صدور الامر به من السلطان او نائبه اذا كان له هذا الحق، ولا يمكن ان مولانا السلطان عبد الحميد أو سمو عزيز مصر الحالي يتوقفان في امر رأى أكابر علماء الأزهر ان فيه صيانة مصالح المسلمين وحفظ حقوقهم

هذا ما اردت التنبيه عليه في هذه المقدمة، وأسأل الله تعالى أن يوفق رؤسائنا من الحكام والعلماء الى ما فيه خير الامة انه سميع مجيب محمد رشيد رضا
منشئ المنار

(١) وقد جرت الحكومة المصرية اخيرا على رأينا هذا

كلمة لأحد كبار قضاة الشرع في عمله هذا

قال العلامة الشيخ أحمد أبو خطوة في تأييده للاستاذ الامام في حفلة ذكرى الاربعين ما نصه :

« ولما أن ولي الاستاذ رحمه الله منصب افتاء الديار المصرية في أوائل سنة ١٣١٧ هجرية الموافق لشهر يونيو سنة ١٨٩٩ افرنجية لم يجهل هذا المنصب قاصراً على اعطاء الفتوى على ما يرفع اليه من الاسئلة في الحوادث، بل نظر فيه إلى ما هو أرفع من ذلك ، وأول فكرة عرضت له هي التفتيش على المحاكم الشرعية ليتحقق بنفسه حال من فيها من القضاة والعمال ، وكيف يسرون في الفصل بين عباد الله بمقتضى شرع الله، فعاونته عليها نظارة الحقانية وذهب إلى التفتيش في كل أرجاء القطر ، ولم يدع محكمة مديرية أو مركز إلا شاهدها بنفسه وبحث أعمالها بحثاً دقيقاً ، وتعرف حال قاضيه من قوة أو ضعف ، وضبط العمل أو الإهمال فيه، ثم عاد ووضع تقريره المعروف عن المحاكم الشرعية ، وطلب فيه ما طلبه من الإصلاح ، وحثه في ذلك أنه شيخ الحنفية من جهة ، وأنه من أعضاء المجلس الذي ينتخب القضاة من جهة أخرى، فلا بد أن يعرف حال الموجودين منهم في الوظائف وأن يهيء لها في الأزهر من يخلفهم عند انفصالهم منها ، وقد تضمن هذا التقرير كل وجه من أوجه الإصلاح، سواء كانت متعلقة بجوهر القضاء أو بترقية حال القضاة واحترامهم في نفوس المتقاضين أمامهم

« ولما وصل تقريره هذا إلى الحكومة أحلته من الاهتمام بشأنه المحل اللائق به وشكلت في نظارة الحقانية لجنة للبحث فيه . وتقرير ما يمكن تقريره مما فيه من أوجه الإصلاح

« وبعد هذا صار عضواً في مجلس شورى القوانين فوجه فكرته إلى هذا الغرض المهم عنده، وهو إصلاح المحاكم الشرعية، وساعده على هذه الفكرة رجال من عقلاء الأمة وأكابرها ورفعوا الصوت جهره بطلب هذا الإصلاح وحرصوه في أموريها رسمياً للحكومة. فاهتمت الحكومة لذلك وكلفتها رحمه الله بان يؤلف

لجنة تحت رياسته للبحث في كل طرق الاصلاح . وعرضها على الحكومة لتنفيذها واشتغلت هذه اللجنة بالفعل ببعض الشغل وقدمته إلى الحكومة للعمل بما فيه « وقد كان رحمه الله شديد الحرص على أن تكون هذه المحاكم محترمة موقرة في أعين الامة بتامها رقيعها ووضعها ، وأن تكون محفوظة الحق لا يتعدى عليها غيرها من الجهات التضائية . وحادثه الحكم في قضية وقف المرحوم راتب باشا التي حكمت فيها محكمة الاستئناف الاهلية لدولة بهية هانم بانها ناظرة لذلك الوقف بعد حكم المحاكم الشرعية فيها - أصدق شاهد على ما قلناه . فانه رحمه الله جزم ان حكم محكمة الاستئناف الاهلية في هذه المادة جاء من غير جهة مختصة ، فاشتغل بالامر حق الاشتغال حتى صدر الامر العالي بتشكيل هيئة تحت رياسة ناظر الحقانية كان هو من أعضائها للفصل في الخلف الذي وقع بين المحاكم الاهلية والمحاكم الشرعية في هذا الموضوع ، وقد جاء حكم هذه الهيئة موافقاً لرأيه . فقضى بان الذي ينفذ هو حكم المحكمة الشرعية دون حكم المحاكم الاهلية . وبهذا انتهى الخلاف .. وحفظت كرامة المحاكم الشرعية حفظاً لا خفاء فيه

« ولما استقال رحمه الله من ادارة الازهر لم تقعد به تلك الهمة العالية عن النظر فيما يصلح الازهر والازهرين خصوصاً ما يتعلق بانجاح المحاكم الشرعية وإيجاد العمال الذين يكونون امام الناس مثال التوقير والاحترام ، فاشتغل مع الحكومة السنية في انجاز المشروع القاضي بفتح مدرسة يتخرج منها القضاة والكتاب والمحامون الشرعيون ، فرضيت منه الحكومة بذلك . وشكلت لجنة تحت رياسته لتضع نظاماً لهذه المدرسة يبين فيه ما يصرف عليها كل سنة وما يعلم فيها من العلوم . والمدة التي يمكنها المتعلم فيها وكيفية إدارتها . ومراقبة سير التعليم فيها . فأكمل ذلك في أقرب وقت على أحسن ما يكون من الوضع ، وقدم المشروع إلى الحكومة قبل سفره إلى الاسكندرية بايام قلائل . وقد علمنا ان الحكومة تقبلته أحسن قبول ولم تلاحظ عليه شيئاً لا في مبناه ولا في معناه ، ولا نظماً إلا عاملة به إن شاء الله » اهـ

(المؤلف) ان العمل بتقريره رحمه الله في اصلاح المحاكم لم يسلم من معارضة السياسة وحمل عبيدها على مقاومته وهالك ما كتبه في ذلك في ص ٢١٢ من مجلد المنار السابع .

علماء الازهر والمحاكم الشرعية

(يُخَرَّبُونَ يُؤْتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَآتَتْهُم بِرُؤْيَا أُولَى الْأَبْصَارِ)

قد أهل الازهر عن إجابة طلب اسماعيل باشا الخديو تأليف كتاب في الحقوق والعقوبات موافق لحال العصر سهل العبارة مرتب المسائل على نحو ترتيب كتب القوانين الاوربية، وكان رفضهم هذا الطلب هو السبب في إنشاء المحاكم الاهلية، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا، وإلزام المحاكم بترك شريعتهم وحرمانهم من فوائدها، وفي توجيه عزائم الكثيرين من نابتة الامة إلى درس تلك القوانين في مصر وأوربا، وبذل النفقات العظيمة من الحكومة ومنهم لاجل تحصيلها، ولولا جهود أهل النفوذ من علماء الازهر لكانت كل هذه المحاكم شرعية أهلة بالعلماء التي يتحاسد حمايتها على الشيء اللقي، ويتنافسون فيما يرغب عنه غيرهم لقلّة ذات يدهم، وكانت تلك العمام موضع الاحترام والاحلال كما يليق بها، كما هي اليوم في نظر أكثر الناس

نم إنك تجد بعض أصحاب هذه العمام يتشددون بتلاوة (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) يعرضون بأهل المحاكم الاهلية، ثم انهم يتحاكون اليهم عند الحاجة ويتعلقون لهم في المجمع ليس إبطال هؤلاء العلماء للشرعية بعدم إجابة طلب اسماعيل باشا السابق بأعجب من اعتذارهم عنه وتعللهم فيه - أنهم تعللوا بل احتجوا بأنهم يحافظون بذلك على الشرع وطريقة سلفهم الازهر في كيفية التأليف، وهو أن يكون الكتاب مؤلفا من متن وشرح وحاشية، وعند زيادة البيان والتحقيق تضاف اليه التقارير - فهذا هي سنة المشايخ المألوفة، وتأليف كتاب أو كتب يقتصر فيها على القول الصحيح، ويجعل عبارة سهلة مقبلة إلى مسائل تسرد بالعدد على كيفية كتب القوانين، من البدع الهادمة لتلك السنة التي جرى عليها الميثون من عدة قرون!!

حدثني علي باشا رفاعة قال: إن اسماعيل باشا لمساخ بالمشايخ ذرعا استحضر والده رفاعة بك وعهد إليه بأن يجتهد في إقناع شيخ الازهر وغيره من كبار

الشيوخ باجابة هذا الطلب وقال له: انك منهم ونشأت معهم، فأنت أقدر على إقناعهم، فأخبرهم ان أوربا تضطرنى - اذا هم لم يجيبوا - إلى الحكم بشريعة نابليون فأجابه رفاة: انى يا مولاي قد شئت ولم يطعن أحد في ديني فلا تعرضني لتكفير مشايخ الازهر إياي في آخر حياتي وأقلى من هذا الامر، فأقاله. وكان إنشاء هذه المحاكم التي يرى المشايخ انها مؤسسة على الكفر والظلم والفسق أثراً للمحافظة (منهم) على الدين، وصونه من عبث الحاكمين، وما هذا الدين الذي حافظوا عليه إلا بدعة سيئة، وهي كيفية التأليف التي ألفوها كما تقدم، ولم ينزل بها كتاب، ولا وردت بها سنة، ولا جاءت في أثر عن الصحابة والتابعين. والكيفية التي دعوا اليها - فحسبوا خرقاً في الاسلام - هي أفضل وأنفع مما حافظوا عليه - فالنتيجة انهم أضاعوا الشريعة لأجل الجمود على هذه الكتب الحديثة الضارة المضية للعلم، فكانوا من الخاطئين. وأعني بما أقول جمهورهم لا كلهم كما لا يخفى

حدثت المحاكم الاهلية فكانت قسيمة للمحاكم الشرعية، ولكن ظهر للناس بالاختبار ان المحاكم التي يحكم فيها بقانون فرنسا أضمن للحقوق وأقرب للانصاف من المحاكم التي تسند شريعتها إلى الوحي السماوي، حتى كان شيوخ الازهر يتحاكمون إليها، فاشيخ العباسي رفع اليها بعض القضايا، وكان شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية. وكذلك شيخ الازهر، السابق « الشيخ سليم البشري » تحاكم اليها في قضية تتعلق بأوقاف الازهر وكان له مندوحة عن ذلك. فكانت جنايتهم على الشريعة انهم كانوا السبب في إضاعة القسم الأكبر منها، وانهم سلكوا في القسم الثاني الذي بقي للمحاكم الشرعية - طريقة سوءى ذهبت بثقتهم وثقة الناس منها - وكل ذلك بحجة حماية الدين وحفظ الشريعة الذي هو فخرهم ولو بالباطل،

ينالون به الزلفى في نفوس عامة المسلمين المقلدين لهم الذين لا يعلمون بماذا يقلدون تكاد حماية الدين والمحافظة على الشريعة عند هؤلاء تذهب برسومها كما ذهبت بروحها، فان السماء والارض تستغيثان من حال المحاكم الشرعية، وتلجآن إلى الحكومة طالباً لاصلاحها، ولكن الشيوخ عقبة في طريق كل إصلاح، وحببتهم الوهمية المحافظة على الدين الذي لا يعرفه سواهم، وقوتهم غرور العامة

بهم وتصديق دعاويهم، والحكومات تحترم دائماً عقائد العامة وعاداتها وتقاليدها حقاً كانت أو باطلة، لئلا تهيج عليها الرأي العام، ولذلك كان صلاح حال العامة بالتربية الصحيحة والتعليم النافع مفضيلاً إلى صلاح حال الحكومة بالطبع، لأن رأي الأمة يكون حينئذ صحيحاً، وقوة الأمة لا تقاوم، لأن يد الله مع الجماعة

هذه بعض آثار التقليد الاعمى للميتين والجمود على العادات الموروثة، وليس كل علماء الازهر على هذا الجمود بل السواد والدهماء منهم، وإنما العامة مع الأكثرين حتى يظهر الزمان خطأهم، الذي لا يعلو حكمه حكم انسان، هذا أحدهم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية اليوم قدر أي منذ زمن طويل فساد هذه المحاكم، وشعربتنا لم العدل من سيرة القضاة الشرعيين، وسعى في صلاحها وصلاحهم، محاولاً إقناع أمير البلاد به، وما زال يلح عليه حتى عهد إليه الأمير بأن يضع بمساعدة بعض الفضلاء تقريراً في ذلك سنة ١٨٩٦، ولكن كان نصيب التقرير الإهمال، حتى قام المستر سكوت الانكليزي مستشار الحقانية بمحاول وضع لائحة لصلاح سير هذه المحاكم التي كثر تألم الناس منها وشكواهم للحكومة، فأرشده الشيخ لذلك التقرير، فطلبه من أحد حاشية الأمير واستفاد منه واضعوا اللائحة الحديثة كثير أمن الفوائد ولكنها لم تكن كافية وفي سنة ١٨٩٩ م حاولت الحكومة المصرية عمل شيء في المحاكم الشرعية على انه من الإصلاح فقامت قيامة العلماء والجرائد وتهيجت العامة لاعتقاد الجميع ان ما كان يحاول غير جائز شرعاً (وفي الحقيقة انه لم يكن هو الإصلاح المطلوب للمحاكم) ولكنهم لم يطلبوا شيئاً غيره يجوز عندهم شرعاً. وكنا قبل هذه الفتنة قد كتبنا في المنار الصادر في آخر سنة ١٣١٦ هـ مقالة في (اتعايم القضاة) بينا فيها ان اصلاح المحاكم الشرعية لا يكون الا بقضاة صالحين للقيام بآباء القضاء. وأن هذا لا يتم الا بتعليم خاص بينا طريقته، واقترحنا على شيخ الازهر ومجلس إدارته تنفيذه، ولكن أتى ينفذ وحماة الدين من مشايخ الازهر أصحاب النفوذ لا يرضون بشيء جديد غير ما اتبعوا عليه آباءهم؟ الا الشيخ محمد عبده وهو صاحب هذا الرأي، ولكن لا موافق له منهم عليه في مجلس الادارة الا الشيخ عبد الكريم سلمان، وأكثر الآراء كانت على ضد ما يطالبان

انتهت فتنة المحاكم بسكوت الحكومة عن المشروع الذي أعدته ولكن المتقاضين لم يسكتوا على حقوقهم تضيع. وفي أثر هذه عهد بمنصب إفتاء الديار المصرية للرجل الذي كان أول ساع في الإصلاح والمشهود له بأنه أعرف الناس بطرقه ، فكلفته الحكومة تفتيش هذه المحاكم ووصف خللها وبيان ما يحتاجه من العلاج ففعل ، ووضع في ذلك تقريره المشهور الذي أجمع الناس على استحسانه ، حتى ان الذين يعادون الإصلاح باسم الدين لم يجهروا بنقده ولا بالاعتراض عليه . ثم ألقت الحكومة لجنة للنظر فيما يمكن العمل به من التقرير ، رئيسها ناظر الحقانية ، وكان في أعضاء اللجنة مع المفتي قاضي مصر السابق وشيخ الازهر واخترمت المنية القاضي ^(١) في تلك الاثناء فوقف سير اللجنة واستمر على وقوفه ، وعذر الحكومة في ذلك العامة ، وبلاء العامة العلماء . وهاك ماقاله اللورد كرومر عن هذه المحاكم في تقريره عن سنة ١٩٠٢ وهو :

﴿ المحاكم الشرعية ﴾

« يقول المفتشون من العلماء التابعين لنظارة الحقانية ان أحكام قضاة المحاكم الشرعية في الاحوال الشخصية وانجازهم للقضايا قد تحسنت بعض التحسن ، ولا ريب ان زيادة انفاق المال تفضي إلى إصلاح مهم في هذه المحاكم ، ولكن لا ينتظر أن يجري حتى يلح الاهالي في طلب الإصلاح من أنفسهم ، وذلك يكون بتقدم العلم والمعرفة . والشكاوي الآن كثيرة ولكن المعارضة شديدة في كل تغيير مهما كان لازماً وخالياً من الضرر . والغالب أن تلك المعارضة تنجح بدعوى أن الإصلاحات مخالفة للشريعة وامادة القوم » اهـ

فانظر تجد ان هذا السياسي الواقف على حالة البلاد أتم الوقوف بصرح بان الإصلاح لا يمكن إلا بعد أن تتحول العامة عن اعتقاد مايقوله المشايخ في مقاومة الإصلاح ، وأوضح منه ماقاله في تقريره عن سنة ١٩٠٣ الماضية . وانك لتجد شيوخنا يطمعون عليه ويعرفون مايقول الناس في جهودهم ولا يرجعون عنه رحمة بالشريعة - التي انتحلوا حملها - وبأنفسهم ، وهذا هو نصه :

(١) هو المرحوم جمال الدين افندي وكان عاقلاً عالماً بما يجب من حال الزمان

﴿ المحاكم الشرعية ﴾

« هذه ترجمة محضر مأخوذ عن الجريدة الرسمية وهو يتعلق بأعمال مجلس شورى القوانين في جلسة حديثة العهد . والحديث فيها بين احمد بك يحيى من أعيان المصريين وحضرة الشيخ حسونة النواوي وهو عالم جليل من علماءهم تولى منصب الافتاء فيما مضى

« حضرة احمد بك يحيى : ان الطريقة المتبعة حتى الآن في المحاكم الشرعية في أمر المرافعات وتأجيل القضايا أوجبت شكاوى كثيرة فلذا أقترح على مجلس شورى القوانين تأليف لجنة تدرس هذه الامور وتضع فيها تقريراً

« فضيلة الشيخ حسونة النواوي : اني لأعلم ان المحاكم الشرعية تحتاج إلى الاصلاح في أمر من أمورها

« تقرر بالاغلبية التصديق على رأي الشيخ حسونة النواوي » انتهى

« فهذه الاعمال مشددة للعزائم لانها تدل على أن في مجلس شورى القوانين نفسه بعضاً من الاعضاء الاذكياء الذين يشعرون بوجوب الاصلاح للمحاكم الشرعية

« أما كون الاصلاح ضرورياً تتشوق اليه النفوس فذلك أمر ثابت لا شك فيه إذ ليس للناس أقل ثقة بهذه المحاكم الشرعية وقد علا الضجيج من أعمالها ، وكثرت شكاوى المتقاضين بين يديها ، وحجتهم عليها ترجح يوماً عن يوم . والاصلاح يطلب من وجه معروف لا يختلف فيه وهو بسيط سهل المنال ، وذلك أن الشرع نفسه لا يمكن ان يطراً عليه تغيير مطلقاً فغاية ما يطلب إذن هو أن يقضى به بين الناس بطريقة معقولة على يد قضاة جمعوا من العلم والاستقلال ما يتنع معه تأثير كل مؤثر خارجي أيا كان مصدره

« وكانت الحكومة قد شرعت منذ خمس سنوات تقريبا في معالجة هذا الداء ولكنها عدلت عنه لان الغرض الذي كانت تقصده من الاصلاح انما هو صيانة المصريين أنفسهم ، فلم نجد منهم التأييد الكافي فأغفلته . أما الحكومة البريطانية فلا تبدأ بالسير في هذا السبيل ولكنها تنظر بعين الرضى إلى كل اصلاح يبدأ به ذوو

الشأن أنفسهم الذين يعنيهم أمر المحاكم الشرعية أكثر من سواهم ، وتؤيدهم وتشدد عزائمهم . ورأى الخصوصي هو أن مجلس شورى القوانين يحسن صنعاً بالعودة إلى هذا الموضوع وإيفائه حقه من البحث ، لاسيما أن التعميل في إصلاح

هذه المحاكم خير من التأجيل . ففي مصر جيل جديد يختلف عن أجداده في أمور كثيرة فيمكن أن تحدثه نفسه يوماً بأن مد إلى تلك الأركان القديمة يدّاً لا تعرف حرمة القديم ، فتكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبقاً لارشاد قوم لا شأن لهم في الأمر ، لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي ، فإذا كان لهذا الحساب نصيب من

الصواب فالأجدر بأبناء اليوم أن يشرعوا في الإصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله ^(١) وعسى أن المصلحين من أبناء القطر لا تضعف عزيمتهم لأول فشل حل بهم ، فإن الرأي العام لأبناء دينهم هو في جانبهم ، وهو ينمو ويزداد ، وإن كانوا لا يجاهرون به ، فعليهم الثبات إذن ، لاسيما إذ لم يكن أحد ينتظر أن الناس تغلب على أميالها وتوافقهم على مرادهم بعد أول حملة

«ويجدر بي أن أذكر في هذا المقام أن مجلس شورى القوانين اقترح على الحكومة في الملاحظات التي أبدتها على ميزانية السنة الحاضرة أن تزيد مصروف المحاكم الشرعية ، فرفضت الحكومة هذا الاقتراح . وعندي أنها أحسنت في رفضها لأن كل زيادة في هذا الباب تمد تذييراً لأموال الأمة حتى يجيء الوقت الذي تبأثر فيه مسألة الإصلاح بالجد والاهتمام » اه كلام اللورد

مناقشة مجلس الشورى في إصلاح المحاكم الشرعية

قبل أن يظهر تقرير اللورد هذا اجتمعت الجمعية العمومية المؤلفة من نظار الحكومة وأعضاء شورى القوانين ومندوبي البلاد المصرية واقترح غير واحد من أعضائها مطالبة الحكومة بإصلاح المحاكم الشرعية فأحيل الطالع على مجلس شورى

(١) ينذر اللورد مسلمي مصر بهذا ما وقع مثله في الدولة التركية إذ غلب الملاحدة عليها ففضوا على المحاكم الشرعية وعلى الشرع والإسلام نفسه في حكومتها

القوانين، فأجمع الشيوخ أمرهم، وأرادوا أن يدافعوا عن الحاضر حسب عادتهم، فالتزم من يعينهم الأمر مع أنصارهم في مجلس الشورى، وكبيرهم هو قاضي مصر الذي خلق في بلاد الروم مصرياً، وتعلم في الاستانة ولكنه كأنه تخرج أزهرياً^(١) وكثر السعي قبل الجلسة واتفقوا على شيء يدافع به القاضي الأكبر

ولما طرحت المسألة في المجلس قال القاضي الأكبر كلمته المزورة وهي :
« قد سمعنا المقترحات المتعلقة بالمحاكم الشرعية، ونقول : ان أعمال تلك المحاكم ترجع (أولاً) الى الشرع الشريف، وهذا لا يمكن مسلم أن يقول انه يحتاج الى اصلاح - (وثانياً) الى قضاة يحكمون بذلك الشرع، وهؤلاء تنتخبهم لجنة من كبار العلماء الخبيرين تشكل بنظارة الحتمانية بحضور ناظرها، وطبعاً انما تنتخبهم من العلماء الاكفاء - (وثالثاً) الى لوائح سنتها الحكومة بعد أخذ رأي مجلس شورى القوانين . فان كان هناك اعتراضات توجهت أو تتوجه في المستقبل فطبعاً انما هي متوجهة على تلك اللوائح ولو رجعت الحكومة في جميع أعمال المحاكم الشرعية الى قواعد الشرع ونفذت بالطرق الشرعية جميع ما صدر من تلك المحاكم من الاحكام لم يوجد أدنى اعتراض، فلذلك أطلب استلغات الحكومة الى ما ذكر .

هذا نص ما كتب، وتناقل الناس عن قاضي مصر يومئذ زيادة منها أنه قال في الجلسة : ان القضاة يدرسون علومهم في الازهر ويمتحنون فيه بحضور جماعة من كبار العلماء، وانه لم يعرف عن أحد من قضاة المحاكم ما يشكى منه . وجاء في آخر كلامه : أما اذا أرادت الحكومة تكميل المرشحين للقضاء باضافة بعض دروس مثل أدب القاضي وشيء من التمرين فلا بأس . وذكرت جريدة المؤبد يومئذ انه قال ما ينبغي لمثله في مقامه أن يقوله ، وكان له حزب مستعد لتأييد رأيه ، ولكن مفتي الديار المصرية تعقبه بعد ما أمر الكاتب بكتابة جميع ما قاله وقرر المفتي ما ملخصه :

أما كون الشرع نفسه لا يحتاج الى اصلاح فمسلم لكنه في كتبه التي في أيدي الناس بعيد عن افهام الخصوم، فهو في أشد الحاجة الى التقريب من الافهام، فيجب النظر في ذلك، ولا نطالب فيه إلا عملاً سبقتنا الى مثله الدولة العثمانية في كتاب المجلة التي عليها العمل في محاكمها

(١) هو يحيى افندي الشديد الجود الذي خف جمال الدين افندي العاقل المرن

المسماة (بالعدلية) وفي المحاكم الشرعية في أبواب المرافعات جميعها ولم يقل أحد ان الدولة في عملها ذلك قد خرجت عن الدين (عند هذا قال الشيخ حسونة النواوي : كتاب الاحوال الشخصية الذي وضعه قدري باشا موجود وهو من أحسن ما يكون) وأما مسألة امتحان القضاة في لجنة من علماء الازهر وانتخابهم بلجنة فيها كبار العلماء فيجب بيان ما فيها لهياة المجلس لانني من اللجنتين - لجنة الامتحان ولجنة الانتخاب أما الامتحان فيجري في موضوعات خاصة من عدة فنون يبتدأ فيها بالاصول فالعاني فالبيان وهكذا، ولا يأتي الفقه إلا في آخر الدروس عند ما يكون الممتحن قد مل السؤل، والطالب قدمل الجواب، فيكتفي الاساتذة من الطالب ببعض كلمات، ثم ينقلونه الى فن آخر. على أن الامتحان في الفقه كان ولا يزال في أبواب العبادات مثل التيمم ونحوه، وقد ألح في المدة الاخيرة على لجنة الامتحان لتعين مواضع الامتحان في المعاملات، فحصل ذلك لكن كثيراً ما يرجع عنه، فهل مثل هذا الامتحان له علاقة بالقضاء الشرعي؟ وهل تعرف به درجة القاضي إن كان أهلاً للقضاء أو غير أهل؟ (قال) أنا عضو في اللجنتين كما قلت لكم وربما كنت أعرف الناس بمن ينتخبون للقضاء ولاكني أقول لكم إننا نعمل في الانتخاب على قاعدة ارتكاب أخف الشرين، فنختار أخف القاصرين قصوراً، وكثيراً ما تكون الاغلبية على انتخاب المتقدم في الزمان، وإن كان متأخراً في العلم والاستعداد

(قال) وأما لوائح المحاكم التي يتوهم من لم يعرف تاريخها ان الحكومة وضعتها من عندها فهي بعيدة عن الشرع ومذاهبه، فأنا أذكر لكم حقيقة أمرها، كانت الحكومة في عهد أمراء مصر السابقين تاركة للمحاكم الشرعية تمام الاستقلال، وكان الناس يستغيثون من خلاها وظلمها، وشيوع الرشوة فيها، فلما أقبلوا الحكومة أمر سعيد باشا بوضع لائحة لسير هذه المحاكم، وقد كان ذلك باقرار لجنة من علماء الازهر مؤلفة من علماء المذاهب الاربعة، فاللائحة الاولى كان متفقا عليها من علماء الشرع - طال الزمان وظهر ان اللائحة لم تأت بالمطلوب، واستمرت الشكوى من أعمال المحاكم، فوضعت اللائحة الثانية بمعرفة الشيخ العباسي شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية لذلك العهد، وأما اللائحة الاخيرة فقد عرضت كذلك على شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية

وأقراها كما أقرها قاضي مصر السابق . فاللوائح لاتعاب إذن بمخالفة الشرع، والى كني
أقول مع هذا أنها قاصرة وفي حاجة الى الاصلاح، فتعين ان المحاكم الشرعية في حاجة
الى الاصلاح من كل جهة، وهذا الاصلاح ينحصر عندي في خمسة أمور وهي :
(أولها) تقويم طريقة التعليم لعمال المحاكم الشرعية من قضاة وكتبة ، وإضافة
ما يحتاج اليه وظائف القضاء الشرعي وما يتعلق بها من المعلومات إلى ما يتعلمون
الآن، وذلك يكون بإنشاء فرقة خاصة بهذا الغرض من طلبة الجامع الأزهر بالجامع
الأزهر ثم تكيل قاعدة انتخابهم بما يكفل التحقق من كفاءتهم

(ثانيها) تعديل لوائح المحاكم الشرعية على وجه يكفل انتظام سيرها ، وسرعة
الفصل في قضاياها ، وإزالة كل ما يشتكى منه بشرط المحافظة على الشرع

(ثالثها) لاتفاق مع جماعة من شيوخ الحنفية على إيجاد طريقة لتقريب فهم الاحكام
الشرعية التي يتقاضى الناس على حسبها حتى يمكن للخصوم أن يعرفوا إلى أية قاعدة
شرعية يرجع الحكم فيما يتخاصمون فيه، ويسهل على القضاة أنفسهم خصوصاً في بدء
أمرهم الرجوع إلى ما يحكمون بمقتضاه، ويكون ذلك شاملاً لجميع أبواب المعاملات من الفقه
(رابعها) وضع قاعدة لتنفيذ الاحكام الشرعية تكفل انتفاع المحكوم له

بالحكم ضد أي شخص كان بما لا يخالف الشرع

(خامسها) ترقية مراتب عمال المحاكم الشرعية وإلحاقهم بباقي موظفي الحكومة :
اقترح المفتي هذا وأمر بكتابته فكتب وظهرت على المجلس أمانة الإعجاب

والرضى به، فقال بعض المؤتمرين : ان هذا لا يتنافى قول القاضي والرأي ما رآه القاضي .
قال المفتي لك أن تقول ان رأيك موافق لرأي القاضي ، وليس لك أن تقول هذا

عن غيرك ، وإن كان القاضي يقر هذا الرأي فهو مانبغي، ولا فرق بين أن ينسب
إلي أو إليه . فقال ذلك العضو لأبأس بموافقة القاضي على هذا ولكن نحذف

المقدمات . قال المفتي ونحذف مقدمات القاضي أيضاً . قال بعض الاعضاء الاولى
إبقاء المقدمتين والموافقة على الرأي الاخير (رأي المفتي) مع اتفاق القاضي . وبعد

ذلك استقر الرأي على أن يمحى ما كتب عن القاضي والمفتي ويستبدل به : إن
المجلس يقترح على الحكومة الاصلاح بالاوجه الخمسة المذكورة وكذلك كان

هذا ملخص ما كان في الجلسة ولهج به الناس يومئذ كتبناه كما سمعناه من كثير من الاعضاء ومن يجتمع بهم ، ولكن الجرائد خلطت في المسألة ، ومنها ما نسب الاقتراح للقاضي ، وانما كان رداً عليه ، ثم انه لم يرد بداً من موافقة المجلس ، والذي يهمنا اننا وصلنا بعد جهاد المجاهدين في سبيل الاصلاح الى أن مجلس الشورى طلب باتفاق الآراء ان تبادر الحكومة الى اصلاح هذه المحاكم فليس لها بعد هذا عذر بالارجاء وهو أقصى أو فوق ما كان يتمنى اللورد كرومر

أرايتك هؤلاء القضاة الشرعيين هل اعتبروا باجماع اهل الرأي والحل والعقد وغيرهم على فساد امرهم وسوء سيرتهم ؟ كلا انهم لم يزدادوا إلا غياً وتمادياً ، حتى ان المحكمة العليا التي تشرف على جميع مجاري العبر ، هي أوغل من محاكم الواحات في الغرور والخلل والزلل ، ومن أعجب ما صدر عن قاضي مصر في هذه الايام بركة مستشاره أو

مشيره التصدي لمنع ديوان الاوقاف من تنفيذ لائحة المساجد التي وضعها مفتي الديار المصرية واقراها مجلس الاوقاف الأعلى بعد مباحثات طويلة . اهـ

(المؤلف) نقف هنا عن هذه المسألة من المقال الطويل الذي كتبناه في ذلك الوقت تحت ضغط الالم ونشرناه في الجزء السادس من المجلد السابع من المنار الذي صدر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ (أول يونيو سنة ١٩٠٤) ونرجي ببقيته وهي الخاصة بمسألة لائحة المساجد الى المقصد الخامس من هذا الفصل لانه هو الخاص بعمل الامام في الاوقاف ، وسيرى القاري اننا ختمناها بما افتتحنا به المقال ، وهو قوله تعالى (يخرجون بيوتهم بايديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار) ولكن أن أولو الابصار ؟ لقد مرت هذه الحوادث الكوارث على علماء الازهر الذين وجهنا اليهم التنبيه والتذكير في وقتها ، وأكثرهم لا يشعرون بوطأتها ، وأكثر الذين قرأوا أخبارها لم يميزوا بين من يعبت بشرية ومصالحهم ومن يدافع عنهم ويحاشدوهم ، وانما غرهم مظهر قاضي مصر التركي الجديد ، وماضي الشيخ حسونة التليد ، ووطنية صاحبي المؤيد واللواء اللذين لبساعليهم الحق بالباطل وهما يعلمان ، ولكن مرضاة الخديو مقدمة عندهما على مرضاة الديان ، وكان الواقفون منهم - و أعني علماء الازهر - على الحقائق كالسيد البيللاوي والشيخ احمد أبي خطوة نحو قولون ويسترجعون ، وهائؤم اقرؤا تنمة فصول هذه الرواية الخديوية العبدية أيها الحاضرون ، فان لم تعتبروا بها فسيتم بها الآتون .

المقصد الخامس

من الفصل السادس

عمله في الاوقاف العامة واصلاح المساجد

لما صار الاستاذ الامام عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى بالتبع لمنصب إفتاء الديار المصرية دخلت الاوقاف في طور جديد من الاصلاح المالي والاداري والشرعي، وقد فتح له بذلك باب العمل لاصلاح الاوقاف والمساجد الذي كان يفكر فيه ويوجه عناية الامير اليه كما تقدم بيانه — وكان أئمة المساجد وخطباؤها أحقر الموظفين في مصر في الاوقاف وغيرها، لان أكثرهم من العوام الخرافيين، وأفقرهم بقلة رواتبهم إلا من له مال موروث كإرث لامامة والخطابة، فما القول في سائر خدمة بيوت الله من مؤذنين وملاحظين ومرتلين؟ ومن أغرب الشواهد على هذا انه لما تم بناء مسجد الرفاعي وفرشه النفيس، فكان أخم المساجد الجامعة في العاصمة وأنزهها موقعا (وبجانبه مدافن أمراء الاسرة المالكة) قال الشيخ علي يوسف رحمه الله تعالى لسمو الخديو لو امرتم بجعل السيد رشيد رضا خطيباً لهذا الجامع وواعظاً فيه فانه ينفع البلاد نفعا عظيماً لانه خطيب مفوه... فقال له سموه: هذا قليل عليه ولا يليق به، وسننظر فيما هو خير له منه !!!

فكر الاستاذ الامام في ان الاصلاح للمساجد وما نوه به الذكر الحكيم من عمارتها الصورية والمعنوية لا يتم إلا بوضع نظام يقرر رسمياً لها وأناسه أن يجعل لها في مصلحة الاوقاف العامة ادارة خاصة تسمى ادارة المساجد، وأن يكون خطباؤها وأئمتها من العلماء المرشدين، وأن تقام بها الدروس والمواعظ للامامة فتكون وسيلة للإرشاد العام في القطر كله، ومدارس لهؤلاء العوام الذين هم السواد الاعظم من الامة، وقد استحوذ عليهم الجهل وأفسدت الخرافات عليهم فطرتهم وأخلاقهم وصحتهم ولا يبالي بهم أحد، وخطبة الجمعة التي شرعت لتكون درساً عامياً في كل أسبوع لجميع المسلمين بما فرض عليهم من صلاة الجمعة وسماع خطبتها - اذا لم تزد

جهلاً وفساداً - فانها لاتصلح من فسادهم شيئاً ، فإن أكثرها في فضائل الشهور والمواسم والاغراء بالكسل والتواكل والاعتماد على مكفريات الذنوب المجرئة على المعاصي ، وأكثر ما يذكر فيها من الاحاديث النبوية من الموضوعات أو الواهيات التي يحرم اسنادها إلى النبي ﷺ كحديث اعتاق الله ستمائة ألف عتيق من النار في كل ليلة من ليالي رمضان « حتى اذا كان آخر ليلة منه أعتق بقدر ماضى » وقد ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في حديث لنا في هذا الموضوع ان عثمان باشا غالب العالم الطبيعي المشهور صاحب المصنفات عرض له في شبابه شك في الدين بشبهات من هذه العلوم (قال) فما زلت أدحضها له وأقيم له البراهين العقلية والعلمية على حقيقة الاسلام حتى اقتنع ، وذهب معي إلى صلاة الجمعة في الجامع الازهر فلما سمع الخطبة ، وكان موضوعها وصف الوقاع في الجنة . . . قل لي : أهذا هو الدين الذي جئت بي لتكميل تهذيبي به ؟ أو ما هذا معناه — وانصرف مؤلياً أن لا يعود .

أقول : هذا شأن الخطبة في الازهر ، معهد العلم الاكبر ، فما القول في غيره ! ؟ صليت الجمعة مرة في مسجد من مساجد مصر فكان موضوع الخطبة أن من يطلق امرأته ثلاثاً ثم يعود اليها يكون كافراً « بعشرة أوجه بالاتفاق » وذكر الخطيب وجوهاً جملية كاذبة مكررة يصف كلامها « بالاتفاق » فاضطرت بعد الصلاة إلى إلقاء درس في أحكام الطلاق على المصلين علموا به ان كل ما قاله خطيبهم كان افتراء على الله في دينه ، وسيأتي مزيد بيان لحالها .

مشروع اصلاح المساجد

وجملة القول ان الاستاذ الامام وضع مشروعاً لاصلاح المساجد بما هو أوسع أبواب الاصلاح الديني في لامة ، وما جاء وقت عرضه على مجلس الاوقاف الأعلى إلا في الوقت الذي عرضت فيه على المجلس مسألة استبدال أراضي البناء التابعة للاوقاف في الجزيرة بمزرعة سمو الخديو المعروفة باسم مشتهر ، وقد تقدم ذكرها ، واشتهر أمرها ، فتوجهت عناية سموه الى معارضة مشروع إصلاح المساجد

لان مقترحه والواضع له هو الشيخ محمد عبده، ويقال ان شياطين الانس وسوسوا الى سموه بأن الشيخ محمد عبده اذا نجح في هذا المشروع فان حزبه الديني يتجاوز بعض علماء الازهر وجمهور الاذكياء النابهين من طلابه الى أئمة المساجد وخطبائها في القطر المصري كله، فيكون له من السلطان الديني في البلاد ما لم يتفق مثله إلا لبعض خلفاء الاسلام في القرون الماضية

لهذا اكتفى الاستاذ الامام من مشروعه بالتمهيد له في لائحة سماها (لائحة ترتيب المساجد) عرضها على المجلس في خريف سنة ١٩٠٣ فشرع المجلس ينظر فيها. وكان طلب موسيو زرفوداكي استبدال أراضي الجزيرة بمزرعة سمو الخديو في أواخر نوفمبر من هذه السنة. وفي أوائل ديسمبر منها قرر مجلس الاوقاف الأعلى ماقرره فيها وقد تقدم ذكره، ومن ذلك الوقت كنا نقرأ في الجرائد في كل أسبوع يجتمع فيه المجلس انه نظر في قسم من اللائحة وفي أكثر الاسابيع انه أجلبها، وفي أثناء ذلك ظهرت الحملة على الفتوى الترنسفالية وكثرت مقالات الجرائد فيها في ديسمبر سنة ١٩٠٣ ويناير سنة ١٩٠٤ وما بعده، وقد تقدم ذكر معارضة الخديو في هذه المسألة في اللائحة التي رفعها يوسف باشا طلعت الى المايين الهايوني، وأشار الى افضاء معارضة سموه فيها الى أخذ رأي لورد كرومرفيه (!!!) وذكرها كل من حسن باشا عاصم والاسستاذ الشيخ أحمد أبوخطوة في تأييده للاستاذ الامام قال حسن باشا عاصم وهو زميله وعضده في مجلس الاوقاف الاعلى: وكان من مقتضى منصب الافتاء ان كان رحمه الله عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى فكان نبراسا يستضيء برأيه في تطبيق أعماله على أحكام الشرع الشريف وفي حل المشكلات. ومن اقترحاته المفيدة ان تشكلت لجنة تحت رياسته وضعت نظاما للمساجد لو عمل به كما هو امرت بيوت الله وبيوت خدمتها ولكانت عوناً على احياء علوم الدين اه

وقال الاستاذ الشيخ احمد أبوخطوة (رح) في سياق الكلام على عناية باهل الازهر والسعي لنفعهم: ومن أجل مانفعهم به فكرة مشروع المساجد فانه رحمه الله سعى في وضع لائحة يجعلها ديوان الاوقاف نظاماً للأئمة والخطباء والوعاظ

والمدرسين فوضعت على حال يجعل الامام والخطيب من المدرسين في الازهر ويكلف الامام بان يدرس في الجامع الذي يوظف فيه درساً لعامة الوافدين عليه والمصلين فيه ، ويكون مرتب الامام والمدرس من ثلاثة جنيهاً إلى ثمانية في الشهر . ومع كل ملاقاه هذا المشروع من الصعوبات الكثيرة المعروفة أراد الله ببركة الاخلاص في العمل تنفيذه بمعناه ، ونفذ في كثير من المساجد ، والوجه الآن متجهة إلى تنفيذ باقيه . وهو مع اشماله على منفعة أهل الازهر اشتمل كذلك على نشر الدين بين طبقات الامة من طريقه الصحيح اهـ

(الؤاف) وجملة القول ان المجلس مازال يرجي النظر فيها الى أن أفر ما يأتي منها بنصه الرسمي في ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ وشرع في تنفيذه في العاصمة في أوائل مايو من هذه السنة الموافق لشهر صفر سنة ١٣٢٢ ولكن صدر الامر العالي الخديوي في ٣١ مايو بايقاف تنفيذه الى ان ينظر فيها من جانب سموه !! وكان تعرض للاعتراض على تنفيذه بايمازه قاضي مصر ، وتنوقش فيها بمجلس الشورى حتى انتهى ذلك بمرضها على عميد الاحتلال . وقد فصلت ذلك في المنار بما أثبتته هنا وهو :

لائحة المساجد

(منقول من الجزء السادس من مجلد المنار السابع الصادر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ (أول يونيو ١٩٠٤) وهو تمة المقال الذي تقدم في ص ٦٢٠ — ٦٢٩)

ماهي لائحة المساجد ، وما وجه الحاجة اليها ؟ هي لائحة تدور على جعل أئمة المساجد وخطبائها من أهل العلم بالدين يؤدوا الفرائض على وجهها ، وجعل مؤذنيها وخدمتها من أهل الكفاءة للقيام بعملهم على وجهه . ولا يجمل أحد أن أكثر الأئمة في هذا العهد من الجهال حتى باحكام الطهارة والصلاة ، وأكثر الخطباء يغاطون على المنبر حتى بآيات القرآن ، ويأتون في وعظهم بما يتبرأ الدين منه من الفس والكذب على الله ورسوله ودينه بسرد الاحاديث الموضوعة ، والخرافات المصنوعة . أليس من المعجائب أن يوجد في المسلمين من يحافظ على هذه المنكرات ويطلب بقاءها وعدم إزالتها باسم الدين ، وهو يدمع هذا من علماء المسلمين ؟ بلى

وانهم ليحتجون بانهم يحافظون على شروط الواقفين ، وهل وجد واقف اشترط ان يكون الائمة والخطباء من الجاهلين ؟ رب أعوذ بك من همزات الشياطين أوقاف المسلمين تزداد ريعاً ونمواً ، ومساجد المسلمين في خراب حسي ومعنوي ، إلا ما عمرت جدره وزخرفت سقفه لجنة الآثار العربية ليتمتع بالنظر اليها السائحون من الافرنج الذين يحبون الاطلاع على مباني الاواين ، وراتب الخطيب والامام اليوم كما كان منذ قرن أو قرون ، اذ كان مالك الالف يعد غنياً كبيراً ، والالف لا تشبع في سنيئنا الحمار شعيراً ، لهذا يضطر ديوان الاوقاف أن يجعل الجاهلين الكسالى المعدمين أئمة وخطباء ، اذ لا يرضى العالم الفاضل أن ينقطع لعمل لا يزيد راتبه في الشهر على مئة قرش وقد يكون خمسين قرشاً . هذا وان مساعدة أهل العلم والدين على معاشهم من أفضل المبرات التي تنشأ لها الاوقاف الخيرية . لهذا كان من موضوع لائحة المساجد أن يجعل للامام والخطيب راتب يتراوح بين خمس مئة قرش وثمان مئة قرش ، وللمؤذن والخدام راتب يرتقي إلى ثلاث مئة قرش ، وذلك بعد انتقائهم بحسب الشروط التي تؤهلهم للقيام بعملهم على أكمل وجه . وقد رفقت اللائحة بحال الحاضرين على ما بهم فلم تقض بعزل أحد منهم وانما جعلت مبدأ الاصلاح فيمن يتجدد

بهذه اللائحة تصرف أموال الاوقاف المكنوزة في أفضل مصارفها ، بهذه اللائحة تقام صلاة الجماعة على وجهها ، بهذه اللائحة تكون الخطابة مؤدية للحكمة التي شرعت لاجلها ، بهذه اللائحة تكون بيوت الله نظيفة طاهرة كما يليق بها ، بهذه اللائحة ينمو علم الدين بما وجد لاهله من المعاش الطبيعي الذي يليق بكرامتهم ، بعد أن أفقلت في وجوه المنقطعين له أبواب الرزق ، واحتقرهم الناس ولو بغير حق ، ومع هذا كله نجد في أصحاب العائش من يسمى لافناء هذه اللائحة بحجة انها مخالفة للدين ، وانها وضعت للافساد وهم من المصلحين ، يحاولون إغائها بسلطة المحكمة الشرعية التي ضجت السماء والارض من فساد حالها ، وشدة اختلالها ، فلماذا لا يصلحونها ويقيمون حكم الله فيها ، إن كانوا صادقين ؟

كتب قاضي مصر إلى مدير الاوقاف يطلب اللائحة لينظر فيها ويأمر

بتنفيذ ما يرى تنفيذه منها وإلغاء ما يرى إلغائه ، وذكرت الجرائد انه مدد المدير بعزله اذا لم يفعل ، فعرض المدير كتابته على مجلس الاوقاف الاعلى فقرر المجلس اجابة القاضي بان هذا امر لا يعنيه ، وانه ايسر في اللائحة أمر مخالف للشرع كما قرر مفتي الديار المصرية ، وأن الامر العالي الصادر في سنة ١٢٩١ يميز للمجلس سن أمثال هذه اللائحة ، ولهذا يرفض المجلس طلب القاضي ويأمر بتنفيذها كما قررها . هكذا ورد في جريدة الاهرام وقد أندرت القاضي بان لا يلعب بالنار ونعم ما فعلت ، فان الامر خطير كما ذكرت

هذا نموذج من سيرة هذه المحكمة بعد ما عمت البلوى ، وعظمت الشكوى ، يلعب أهلها بالنار ، ويسخطون الديار ، ويفقدون الانصار . ولا نسمع من علماء الازهر كلمة انكار ، بل يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار . اهـ

(ثم نشرنا في الجزء السابع الصادر في غرة ربيع الآخر (١٥ يونيو) مانصه)

لائحة المساجد

جاء في (ع ٧٩٦٥) من جريدة الاهرام الصادر في ٢ يونيو تحت هذا العنوان مانصه :

« أننا في أعدادنا السالفة قائدة لائحة المساجد التي يعمر بها الازهر وتعمر بها الجوامع ، ويقام عماد الدين والعلم والادب . وقلنا ان معاداة هذه اللائحة والقيام في وجهها هو عبارة عن معاداة صالح الازهرين وتقدمهم ، والوقوف في وجههم . ولقد اتفق بعض رصفائنا أمس على ان انفاذ هذه اللائحة قد أجل إلى العام المقبل ، أي حتى عودة رجال الحكومة من الاجازة ، فأخذنا نبحث عن سبب التأجيل فعرفنا ان فضيلة القاضي الاكبر رفع عريضة إلى سمو الجناب الحديوي يشكو فيها من بعض ما جاء في اللائحة ، ويدعي انه مخالف لشروط بعض الواقفين ، كأن يكون بالمسجد مبخّر وسقاء وكناس ، فاللائحة جمعت وظائف كثيرة في شخص واحد ،

فالمعية ترجمت شكوى فضيلة القاضي وأرسلت هذه الترجمة إلى الوكالة الانكليزية ، فأجبتها الوكالة ان الوقت قد انقضى وان جناب اللورد لا يقدر الآن على درس الشكوى واللائحة ، وانه يتم نظره فيها بعد عودته من الاصطيفاف ، فلهذا أجل الانفاذ . ولقد دهش العقلاء لهذا العمل لان المحتلين أعلنوا مراراً وجراراً انهم لا يتعرضون لأمر من أمور الدين ، فما الذي حمل المعية اذن على ارسال تلك اللائحة إلى الوكالة الانكليزية ؟ ألا توجد في البلاد سلطة دينية عاقلة عالية تقدر على درس اللائحة وتمحيصها ؟

ولقد دار في جميع الاندية ان ذلك كله نتيجة التسابق لارضاء المحتلين فكما ان دواتلو رياض باشا جعل جناب اللورد كرومر صاحب المقام الارفع كذلك المعية أحالت على جنابه شكوى العلماء وشؤون المساجد والجوامع !! فما أكبر حظ دولة تجمد مثل هذا من أمة تحكمها وبلاد تحتلها !! وما أعظم الفرق الذي يجده الانكليز بين كبار المصريين وكبار البوير !! فاذا كنا نحن قد لمنا رياض باشا على كلامه فانا نحن نلوم المعية على فعلها . ويقيننا ان الانكليز أنفسهم يوافقوننا على هذا اللوم » اهـ

[المنار] حسب الناس من العبرة الكبرى بهذا الخبر الصادع أن يعرفوه ، واننا لو أردنا أن نبدي رأينا فيها لما استطعنا أن نقف عند الحد الذي تجبزه الرسوم المتبعة . ونم عبرة أخرى وهي سكوت الجرائد اليومية التي تلقب بالاسلامية عن هذا ، وبيان الاهرام - التي يصح أن نلقبها بجريدة الامة - له (١) وسببه انه جاء من قبل الامير وحده وهو الذي يرضيها منه كل شيء ، ولو كان للنظار فيه رأي لقامت قيامة هذه الجرائد وأكثر الطعن والامن ، وحملت النظار وخدم التبعة ، كما هي عادتها في كل أمر يقوي نفوذ المحتلين ، مع انه لم ينفذ شيء من ذلك إلا بأمر الامير

(١) كان يقال : المؤيد جريدة الخديو لانه يقدم ما يرضيه على كل ما سواه ، والواو جريدة مصطفى كامل لان نفسه مقدمة عنده على كل شيء ، والمفطم جريدة الاحلال والاهرام جريدة فرنسة ، وكل يخدم البلاد فيها لا يعارض سياستها الخاصة . فلما جرات الاهرام وحدها على التصريح بما ذكر صححت لها هذا اللقب

وهو وحده كان القادر على معارضة الاحتلال بالحق وأوربا عضده ، وأما النظار فلا عضد لهم إلا الامير ، وهو الذي يقدر على عزلهم اذا خالفوا ، ولا يقدر على إلزامه اذا وافقوا ، فكل ما أخذه الانكليز منه وعليه ، وعلى الامة المسكينة التي أضاعها أمراؤها في كل زمان اهـ

(المؤلف) أزيد الآن في هذا التاريخ على ما قلته وما علقت أنه يجب على كل مصري مخلص لبلاده ولاسيما المسلم ان يتمثل موقف هذا الرجل (الشيخ محمد عبده) المجاهد في سبيل إصلاح البلاد بين أميرها وعلمائها وجرائدها ، يكافحهم ويكافحونه ، وينافحهم وينافحونه ، هو يطلب المصلحة العامة للامة في دينها ودنياها وحكومتها وعامتها ، ابتغاء مرضاة الله وحده لا شريك له ، وهم يطلبون مرضاة الامير وحده لا شريك له ، بالانتقام له ممن منعه من أموال أوقاف المسلمين ان يتصرف فيها كما يشاء هو اه ، هذا والبلاد واقعة تحت سيطرة أقوى دولة على وجه الارض ، فكيف كان يكون عملهم لو كان الامير مطلق الحكم والتصرف ، لا اراد لامره ولا عقب لحكمه ، ولتذكر كل مصري - يقرأ هذا - قول الاستاذ الامام ان مصيبة هذه الامة بفساد اخلاقها أكبر من جميع مصائبها ، وقوله انه لم يعمل عملا لمصلحة المسلمين ووجد له من يعارضه فيه من غير المسلمين ، لا من الافرنج ولا من القبط ولا من السوريين !!!

(فان قيل) وماذا فعل لورد كرومر بهذه اللائحة بعد عودته من اجازته؟ (قلنا) ان سمو الامير لم يعد يكتفي بعد عودة جتاه من نكايه الشيخ محمد عبده بايقاف تنفيذ لائحة المساجد ، بل وجه عزمته إلى إخراجهم من منصب الافتاء نفسه ومن الازهر بعد ان ثبت له أنه لا يمكن ان ينجح بمعارضته في أعمالهما ، ولا بد ان يكون بعض رجاله قد بين له ان تحويل لائحة المساجد الى اللورد قد ساء جميع المسلمين ، وقد كان من سعيه لاخراجهم من الافتاء والازهر ما شرحناه في موضعه ، وتلا ذلك مرض الاستاذ الامام ووفاته ، فلم يعد للبحث عن لائحة المساجد فائدة ، إذ زالت تلك الارادة القوية ، المصرية على تنفيذها بالرغم من إرادة الامير صاحب السلطة الرسمية ، وماله من الاعوان والوسائط في معارضتها

وكان الاستاذ الامام قد أعطاني صورة ما اقره مجلس الاوقاف الاعلى من اللائحة . وصورة المذكرة التي حمل مدير الاوقاف العامة على تقديمها للمجلس في افتراح تنفيذ بعضها بشكل آخر . فنشرتهما في جزء المنار الثامن من المجلد الثامن الذي صدر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٣٢٣ (١٩ يونيو سنة ١٩٠٥) وكان ذلك في أثناء اشتداد المرض على الامام وقد توفي بعده بشهرين فنشر ذلك مع مقدمة المنار له . وهو :

لائحة المساجد وما انفذ منها

(منقولة من مجلد المنار الثامن ص ٣٠٧)

واضع هذه اللائحة ومقترح إصلاح المساجد معروف وهو الاستاذ الامام فانه بعد أن صار عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى. وأشرف على أحوال هذه المصلحة الاسلامية العظيمة رأى أن غلات الاوقاف تزيد عاماً بعد عام وان مرتبات المستخدمين في هذه المصلحة عظيمة تضاهي نفقات مصالح الحكومة، ورأى من ناحية ثانية ان المساجد التي وقفت عليها الاوقاف العظيمة مهمة والمستخدمين فيها من الأئمة والخطباء فمن دونهم لا يرضخ لهم إلا بالقليل جزاء على خدمتهم ، فمنهم من راتبه خمسون قرشاً في الشهر ، ومنهم من يعطى أقل من ذلك ، والامام والخطيب الذي يرتقي راتبه إلى مئة قرش أو يزيد قليلاً يعد من ذوي الطبقة العليا . ورأى هذا المصلح - أيده الله بروح منه - ان أكثر المستخدمين في المساجد لا يقدر على أداء وظائفهم على وجهها ، وان استبدال القادرين بالعاجزين متعذر مع قلة الرواتب، إذ ينبغي أن يكون الامام والخطيب من أهل العلم ، والخادم منقطعاً للخدمة قادراً عليها ، ولا يكون هذا مع قلة المرتبات

أجال هذا المصلح الغيور قداح الفكر في هذه المسألة فرأى ان السمي في اصلاح حال المساجد يستتبع إصلاحاً آخر وهو خدمة العلم والاعانة عليه بالبحر والمورد جديد لرزق أهل الازهر يرغب الناس في طلب العلم . ذلك ان أول ما بهم الانسان في هذه الحياة الدنيا أمر رزقه ، وبرى الناظر في تقلب الزمان أن الاقوات تغلو في هذا البلد حتى أن نمن أن أكثر الاشياء قد تضاعف في زمن قليل ، فاذا استمرت هذه الحال في مصر كان المقام فيها عسيراً على غير الموسرين ، وقلت الرغبة في طلب العلم بالازهر . هذا ما بحث المصلح على البحث عن أحوال المساجد والمستخدمين فيها ووضع تلك اللائحة التي اشتهر أمرها . وانني أثبت ههنا نص لائحته التي وافق المجلس الاعلى على تنفيذها بعد البحث والتعديل ثم أوقفت بأمر الامير في العام الماضي وأتبعها بما أخذ منها وصدر الامر في هذا العام بتنفيذه وهو :

*)

مشروع ترتيب المساجد

الذي قرره مجلس الاوقاف الاعلى

عرض للمجلس مشروع ترتيب المساجد وبعد المداولة تقرر ما يأتي :

(المادة الاولى) ان هذا الترتيب لا يترتب عليه رفت أحد من وظيفته الا بوفاته أو وقوع أمر يستوجب رفعه حسب الجاري ، كما انه لا يقتضي الاخلال بشيء من اختصاصاته الحالية

الباب الاول في ترتيب الخدمة

(المادة الثانية) توحد الامامة في جميع المساجد، ماعدا الجامع الازهر والمساجد التي فيها عدة أماكن يمكن اعتبار كل منها مسجداً مستقلاً ، ويجب في هذه الحالة أن يؤدي الصلاة أحد الأئمة بعد الآخر ، ولا يجتمع إمامان للصلاة في آن واحد إلا إذا اختلفت الأماكن بحيث لا يشوش أحدهما على الآخر ، ومع ذلك فتعدد الامكنة لا يستلزم تعدد الأئمة ، بل لا يكون ذلك إلا للضرورة

الامام هو رئيس المسجد في جميع شؤونه ماعدا المساجد التي فيها دروس منتظمة مثل الازهر وما يلحق به مما يكون له شيخ خاص يديره من حيث هو مدرسة

(المادة الثالثة) يقوم الامام بوظيفة الخطبة ، والمساجد التي تتعدد فيها الأئمة - وهي المذكورة في المادة الثانية - يقوم بالخطبة أوفر الأئمة راتباً ، فان تساوا في الراتب قدم أقدمهم في وظيفة الامامة

(المادة الرابعة) توحد وظيفة المؤذنين في كل مسجد إلا عند تعدد المآذن فيكون لكل مأذنة مؤذن واحد لجميع الاوقات

(المادة الخامسة) يعين ملاحظ في المساجد التي يرى لزوم وجود ملاحظ فيها وهذا الملاحظ يكون رئيس الخدمة ، وعليه القيام بمراقبتهم في جميع أعمالهم تحت رئاسة إمام المسجد

(*) هذا العنوان هو الذي أخذته من الأستاذ الامام. ولما نشرته في المنار قبل وفاته بشهرين وضعت له عنوان الأئمة الاولى ، ووضعت للمذكرة التي تليه اسم الأئمة الثانية

(المادة السادسة) أعمال الميقاتية تضاف إلى المؤذنين

(المادة السابعة) يضاف عمل المبلغين إلى المؤذنين . وفي مساجد القسم

الرابع التي لا منارة فيها تكون قراءة السورة على المؤذن

(المادة الثامنة) العمل الذي يؤديه المرقى الآن وفي المستقبل يعوض بما يعبر

عنه شرعاً بالأذان الثاني ويحول على المؤذنين

(المادة التاسعة) تالي القرآن في المسجد يعطى ما يرتب له على سبيل الصلة

(المادة العاشرة) ملاحظو المساجد هم عهدتها ، ويستثنى من ذلك بعض

المساجد التي لها خزنة مخصوصون في جدول الترتيب ، ويدخل في وظائف

الملاحظين ما كان للنقيب

(المادة الحادية عشرة) يدخل تحت لفظ الخدمة أرباب الوظائف الآتية ولا

يقيدون بتسمية: الفراشون . والوقادون . والملاءون . والسقاءون . والبوابون

والسعاة، وخدمة الاسبلة في المساجد، وما أشبه ذلك

(المادة الثانية عشرة) الوظائف الآتية لاعلاقة لها بترتيب الخدمة وليس

النظر فيها من عمل المجلس الآن: خدمة الاسبلة المستقلة عن المساجد . والفقهاء

والدلايلية والساعاتية، ومتعهدو السواقي، وخفراء القبور والتربية والخدمة المختصون

بالأضرحة من جهة كونها أضرحة بأنواعهم وشيخ الليثية وقراء الربعة وكتبة النذور

(المادة الثالثة عشرة) وظيفة المبخر (البخورجي) تكون من أعمال أحد

الخدمة والمبالغ المرتبة لها تكون من ضمن مرتبه

(المادة الرابعة عشرة) وظيفة الداعي (الدعجي) لا تكون مستقلة وإنما تضاف

إلى عمل أحد موظفي المسجد ومرتبتها يحسب في مرتبه

﴿ الباب الثاني في المراتب ﴾

(المادة الخامسة عشرة) أئمة الجوامع بجميع أنحاء القطر يحملون أربع درجات

الاولى بثمانية جنهات والثانية بخمسة والثالثة بأربعة والرابعة بثلاثة

الملاحظون يكونون بجنهين . الخزنة يكونون كذلك بجنهين

المؤذنون ينقسمون إلى أربع درجات: الاولى ١٥٠ قرشاً لمصر والاسكندرية

والثانية ١٢٥ قرشاً لعواصم المديریات ومحافظات بورسعيد ودمياط والسويس .
والثالثة ١٠٠ قرش لعواصم المراكز والبلاد التي عدد سكانها عشرة آلاف نسمة
فما فوق، وان لم تكن عواصم مراكز . والرابعة ٧٥ قرشاً لبقية القرى
سائر الخدمة يكونون كالمؤذنين ماعدا المستثنين مثل خدمة الجامع الازهر ونحوه
قراء القرآن في الجوامع يكونون أربع درجات الاولى ٥٠ قرشا والثانية ٤٠
قرشا والثالثة ٣٠ قرشا والرابعة ٢٠ قرشا على حسب درجات الجوامع

(الباب الثالث في شروط التوظيف)

(المادة السادسة عشرة)

الامام يشترط أن يكون عالماً حائزاً لشهادة العالمية فان لم يوجد مرشح حائز
لشهادة العالمية يكتب بشهادة الاهلية ، فان لم يوجد أيضاً مرشح حائز لشهادة
الاهلية ينتخب اللائق بالامتحان ، على حسب القواعد المتبعة الآن

(المادة السابعة عشرة)

الملاحظون يشترط فيهم أن يكونوا أقوياء البنية، ويفضل أولاً من يقرأ ويكتب
ويحفظ القرآن ثم من يقرأ ويكتب فقط

(المادة الثامنة عشرة)

الخازن يشترط فيه أن يعرف القراءة والكتابة ومبادئ الحساب
(المادة التاسعة عشرة)

المؤذنون يشترط فيهم مثل الملاحظين ولا يمنع فقد البصر من التوظيف
بوظيفة المؤذنين .

(المادة العشرون)

يشترط في الخدمة أن يكونوا سليمي البنية ، وأوجه التفضيل تسري عليهم
وهي المذكورة في الملاحظين

(أحكام عمومية)

(المادة الحادية والعشرون) عدد الموظفين ومرتباتهم في كل مسجد يكون على حسب الجدول الذي قرره المجلس وأرفق بهذا

(المادة الثانية والعشرون) اذا وجد في شروط الواقفين زيادة في عدد الموظفين عما هو وارد في الجدول فيعطى للزائد ما هو مقرر له بشرط الواقف فقط ، كذلك اذا وجد في شروط الواقفين زيادة في مرتب أية وظيفة عما هو وارد في الجدول فتعطى الزيادة بحسب شروط الواقف .

(باب توزيع العلاوات)

(المادة الثالثة والعشرون) يلاحظ في اعطاء العلاوات على حسب الترتيب الجديد في كل مسجد أن لا يتجاوز مجموعها على ما هو جار صرفه الآن مجموع ما ينحصر على حسب هذا الترتيب: يبدأ في التوزيع لكل وظيفة على الوجه الآتي :
(أولاً) الأئمة الحائزون لدرجة العالمية والشهادة الاهلية أو الذين يحصلون على إحدى هاتين الشهادتين بعد الآن

(ثانياً) من يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن من الملاحظين والمؤذنين والخدمة ثم من يقرأ ويكتب فقط منهم

(ثالثاً) الخازن الذي يعرف القراءة والكتابة ومبادي الحساب وحيث ان مبلغ الاحد عشر ألف جنيه لم يكن مقررأً فقط لمساجد القاهرة بل لمساجد عموم القطر فيشترط أن لا يزيد مجموع هذه العلاوات هذه السنة في مدينة القاهرة على سبعة آلاف جنيه، فان زاد يقطع من كل وظيفة بنسبة الناقص اذا بقي شيء من مبلغ السبعة الآلاف الجنيه بعد التوزيع على الوجه المشروح فيما سبق فهذا الباقي يوزع على من يتلوهم ممن هم حائزون لشروط هذا الترتيب ومع ذلك اذا خلت في مسجد وظيفة زائدة عن المقرر في هذا الترتيب يوزع مرتبها لتكملة مرتبات موظفي ذلك المسجد الذين تنطبق عليهم قواعد هذا الترتيب من جهة العدد والمرتب وشروط التوظيف اهـ

(تنبيه) تركت نشر الجداول التابعة لهذه اللائحة لعدم العمل بها

مذكرة

مرفوعة الى مجلس الاوقاف الاعلى


يعلم حضرات أعضاء المجلس حالة خدمة المساجد وفقرهم وقلة المرتبات المقررة لهم مقابل خدمة هذه المحلات الطاهرة وقد ترتب على اهتمام الديوان بشدة المراقبة في نظافة المساجد وترتيب انارتها وأدواتها ان صار أولئك الخدمة مسئولين عن أعمال كثيرة ربما كانت سبباً للتضييق عليهم عن السعي في الكسب والارتزاق من الخارج ، وقد كثرت شكاويهم لجانب المعية السنية وللديوان وعلى لسان الجرائد المحلية من عدم كفاية مرتباتهم خصوصاً مع غلاء الاسعار في الوقت الحاضر ، والنسوا زيادتها لمساعدتهم في معاشهم ، وبالبحث في مرتبات هؤلاء الخدمة تبين ان عددهم في مساجد مصر وبولاق بلغ ١٦٢٧ منهم ١٣٦٠ رواتبهم تنحصر بين الخمسين والخمسة وسبعين قرشاً فأقل وهذه ماهية لا تنفع فرداً واحداً في أمور معيشية؟ فكيف بهم وهم ذوو عائلات

وحيث ان ميزانية الديوان وارد فيها مبلغ احد عشر الف جنيه لزيادة ماهيات خدمة المساجد ومخصص منه مبلغ سبعة آلاف جنيه لتوزيعه على مساجد مصر على الطريقة المذكورة في قرار المجلس الصادر بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ عن ترتيب المساجد

وحيث ان هذا الترتيب صدر لنا أمر عال بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٠٤ بايقاف تنفيذه لحينما ينظر فيه من طرف جناب ولي النعم الاخفم . وحيث ان ترك هؤلاء الخدمة بتلك المرتبات القليلة وهم يصيحون ويستغيثون مما لا يليق بمصلحه خيرية تجود بالكثير من أموالها في وجوه البر والخير وعلى الفقراء والمساكين وأجدر بها أن تفيض شيء على من يقيمون شعائر الدين ويقومون بخدمة تلك المحال الطاهرة فبناء على كل ذلك رأينا أن نضع مشروعا لعلو تلك المرتبات حتى إذا وافق عليه المجلس انفذ وارتفع الضرر نوعاً عن أولئك المساكين وما هو

الائمة والخطباء

حيث ان الائمة والخطباء بالمساجد تختلف حالتهم بعضهم عن بعض فقد
رؤي تقسيم مرتباتهم الى ثلاث درجات :

(الاولى) الائمة والخطباء الحائزون لدرجة العالمية وماهية كل منهم أقل من
جنيهين ونصف شهريا تكمل إلى هذا القدر بشرط ان الوجود منهم ولم يكن مكلفا
بإعطاء دروس لتعليم العوام يكلف به مثل غيره لا تتفاد العامة بالامور الدينية
(الثانية) الائمة والخطباء الحائزون لشهادة الاهلية وماهية كل منهم أقل من
جنيه وخمسة مائة مليم شهريا تكمل الى هذا القدر بالشرط المقدم ذكره 
(الثالثة) الائمة والخطباء غير الحائزين لدرجة العالمية ولا لشهادة الاهلية
وماهية كل منهم أقل من جنيه واحد شهريا تكمل إلى هذا القدر

المدرسون

المدرسون الموجودون في بعض المساجد من كان منهم ماهيته أقل من جنيهين
اثنين ونصف شهريا تكمل إلى هذا القدر

مشايخ الخدمة

هؤلاء من كان منهم مرتبه أقل من جنيه ونصف يكمل إلى هذا القدر

المؤذنون

من كان منهم ماهيته أقل من سبعمائة وخمسين مليم شهريا تكمل إلى هذا
القدر ماعدا المؤذنين في المساجد الشهيرة وهي الجامع الازهر ومجمع سيدنا
الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة فاطمة النبوية والسيدة سكينة
والامام الشافعي والسلطان ابو الملا فتكون ماهية الواحد منهم جنيها شهريا

قراء السورة

هؤلاء من كان منهم ماهيته أقل من مائتين وخمسين مليم شهريا تكمل إلى هذا القدر

وظائف الخدمة

الخدمة مثل الوقاد والكناس والبواب والملاء وغيرهم من كان منهم ماهيته
أقل من سبعمائة وخمسين مليم شهريا تكمل إلى هذا القدر

متمهدو اقامة الشعائر

المتعهدون المكلفون بالصرف على بعض المساجد من جميع اللوازم من كان مرتبه اقل من جنيهين اثنين يكمل إلى هذا القدر وبناء على ذلك فالزيادة الممكن اضافتها على مرتبات هؤلاء الخدمة جميعهم بمساجد مصر وبولاق بحسب هذا الترتيب هي ما يأتي:

الدين لم يصبه شيء من هذه الزيادة بحسب القاعدة	القيمة الشهرية	عدد	جنيه	جنيه	جنيه	مفردات	جملة
١٠	مشايع خدمة مارسين	١١	١٩٨	١٠٩			٨٩
٥	حائزين لشهادة العالمية	١٩	٥٧٠	٢٨١	٢٨٩		
٠	غير حائزين لشهادات ائمة وخطباء	٤	١٢٠	٩٣	٢٧		٣١٦
١	حائزين لشهادة العالمية	٤٦	١٣٨٠	٤٨٩	٨٩١		
٨	حائزين لشهادة الاهلية	٩٤	١٦٩٢	٧٢٩	٩٦٣		
٢٠	غير حائزين لشهادات مؤذنين ومبقاتية	١٤٨	١٧٧٦	٩٦٢	٨١٤		٢٦٦٨
	بالمساجد الشهيرة	٤٠	٤٨٠	٣٢٥	١٥٥		
١٣	بباقي المساجد	٢٩٤	٢٦٤٦	١٦٠٧	١٠٣٩		١١٩٤
٢٥	قراء السورة والمرقيين	١٦٢	٤٨٦	٢٠٨			١٧٨
١١٤	خدمة	٥٨٣	٥٢٤٧	٣٤٧٢			١٧٧٥
١	متعهدى اقامة الشعائر	٢٩	٦٩٦	٢٣٣			٤٦٣
عدد		عدد	جنيه	جنيه			جنيه
١٩٧		١٤٣٠	١٥٢٩١	٨٦٠٨			٦٦٨٣

فمبلغ الستة آلاف وستماية وثلاثة وثمانين جنبا هو اللازم زيادته على ماهيات خدمة المساجد بمصر على الكيفية التي توضح وتؤمل التصريح لنا بمبلغ ٣١٧ جنبا لتوزيعه بمعرفتنا على بعض الوظائف التي لم ينالها شيء من هذه القاعدة بحسب ما نراه من الضرورة والاهمية فيكون المقتضى التصريح به من المجلس بمبلغ سبعة آلاف جنيه وهو المخصص لمساجد مصر في القرار السابق بناء عليه قد تحررت هذه المذكرة للنظر وتقرير ما يترأى . اهـ

فتاوى الاستاذ الامام

هذه الفتاوى قسمان : رسمية وغير رسمية ، فالرسمية مقيدة بمذهب الحنفية ، وغير الرسمية تختلف باختلاف طلب المستفتي ، فمن المستفتين من يسأل عن حكم الله تعالى ، وعلى المفتي أن يجيبه بما يعلم من حكم الله تعالى في كتابه وما ثبت عنده من سنة رسوله ﷺ نصاً أو اقتضاء

والحكومة تستفتي مفتي الديار المصرية في الحكم بالاعدام الذي تصدره محاكم الجنايات لا يبيح لها القانون تنفيذه إلا بعد استفتائه ، لأنها عند وضع قانون العقوبات أرادت تقييد هذا الحكم بموافقة الشرع الشريف

وكان المفتون السابقون قد تابعوا على كتابة عبارة واحدة في جراب كل استفتاء يأتيهم من قبل محكمة الجنايات بحكم الاعدام حاصلها « اذا ثبت على هذا الرجل انه قتل الآخر عامداً متعمداً بشرطه حكم بقتله وإلا فلا » فلما جاء الاستاذ الامام عرض عليه كاتب الافتاء أول استفتاء في ذلك مع الجواب المحفوظ عنده عن المفتين السابقين ، ظاناً انه لا يلبث أن يوقع عليه بامضائه ؛ ولكنه فاجأه بالانكار واستغراب كتابة جواب واحد مبهم عن أسئلة مختلفة في أحكام قد يكون بعضها خطأ وبعضها صواباً ، وأملى عليه كتاباً فخواه : انه لا يمكن أن يفتي في هذا الحكم إلا بعد الاطلاع على وقائع الدعوى وبيناتها والمستندات والحيثيات التي بني الحكم عليها ، وطلب ارسال صورة صحيحة من ذلك اليه . فأرسلتها اليه المحكمة فقرأها بدقته المروفة لخواص الناس من القضاة وغيرهم ، ثم أفتى بما ظهر له من الحق فيها مبيناً أدلته الشرعية والقانونية فكانت فتواه محل الاعتبار ، وأما فتاوى غيره فكانت صورية لا يعتد بها

وقد استفتته وزارة الحتمانية فيما يكثر من شكوى الأزواج من أحكام المحاكم الشرعية في النفقات الزوجية في الاحوال المختلفة التي بين المهم منها في تقريره المعروف وما في مذهب الحنفية فيها من الشدة - فأفتاها في ذلك فتوى طويلة شرح فيها مثارا الضرر واختلال نظام البيوت (العائلات) بها ، وضمن فتواه عدة مواد فيه

هذا الموضوع مستنبطة من قواعد الشريعة العادلة ، وموافقة مذاهب بعض الأئمة لأجل أن يكون العمل بها بعد أمر ولي الأمر ، ولم يكن العمل بها متيسراً في ذلك الوقت ، ولكن الحكومة اعتمدت عليها في الإصلاح الجديد الذي قرره من عهد قريب ، ولعلنا ننشرها برمتها في ذيل هذا التاريخ .

وقد كنت عازماً على الاختصار فيه على الفتوى الترنسالية التي اتخذها سمو الخديو ذريعة للطعن في المفتي كما تقدم شرحه ، ثم بدا لي الآن أن أنشر فيه ثلاثاً من الفتاوى العامة الفائدة غير المقيدة بمذهب الحنفية ، وقد كان كثيراً ما يحيل عليّ أمثال هذه الفتاوى دون موظفي دار الافتاء ، فأكتب الجواب فيقره ويمضيه برمته أو يعض التعديل فيه ، ومنه ما أذن لي بنشره في المنار

الفتوى الأولى

قال الاستاذ الامام في مقدمة الاستفتاء الاول مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .
أما بعد فقد أتى إليّ أستاذ من أساتذة الجامع الأزهر ، وهو موظف كبير في المحاكم الشرعية سؤالاً وارداً من الهند الى بعض أنسابه يطلب الجواب عليه .
والسؤال موجه الى العلماء - لا الى عالم واحد - كما هو مذکور في نصه . فرأيت أن يكون الجواب عليه محتوي على مقال كثير من أفاضل العلماء . وقد انتدب حضرة حامل السؤال الى كتابة ما يجده من الكتاب والسنة وأقوال علماء الحنفية في موضوعه . وأرسلت نسخة من السؤال الى حضرة الاستاذ شيخ الحنابلة في الجامع الأزهر فورد منه ما رأى أن يجيب به . وكلفت جماعة من أساتذة الشافعية والمالكية أن يكتبوا ما يمتدنون انه الحق في جواب السؤال ، فكتبوا وأشبعوا جزاهم الله خيراً .
واني أبتدي بما أجاب به أفاضل الشافعية والمالكية بعد ذكر السؤال ، ثم أثني بجواب شيخ الحنابلة ، وأختم بمقال الاستاذ الحنفي ، ثم بما يعن لي أن أضمه الى اقوال جميعهم . والله الموفق الى الصواب وهو الهادي الى الصراط المستقيم

إستماعة المسلمين بالكفار وأهل البدع واللاهواء

لنصرة الملة وحفظ حوزة الأمة

﴿ نص السؤال الوارد من الهند ﴾

ما يقول السادة العلماء في جماعة من المسلمين يقرون أنهم على عقيدة أهل السنة والجماعة ومن تابعي فقهاء الأئمة الاربعة، ويسعون في تحصيل الألفة والاتفاق بين أهل الاسلام، ويدعون أهل الثروة واليسار الى تربية أيتام المسلمين والى اشاعة الاسلام في مقابلة حملات الكتائبين وصولات الوثنيين، إلا أنهم مع ذلك يستعينون بالكفار وأهل البدع واللاهواء لنصرة الملة الاسلامية، وحفظ حوزة الأمة المحمدية، وجمع شملهم واتحاد كلمتهم، فهل مثل هذه الاستماعة تجوز شرعاً؟ وهل لها نظير في القرون الثلاثة الفاضلة، المشهود لها بالخير؟ وهل يجوز لأحد من المسلمين أن يعارضهم في هذه الاعمال الجليلة والمقاصد الحسنة، ويسعى في تشييط الهمم عن معاونتهم، والتنفير من صحبتهم، نظراً الى أنهم يستعينون فيها بالكفار وأهل البدع واللاهواء، ويدخلون مجالسهم ويخالطونهم لمثل هذه المصالح العامة؟ وما حكم من يرميهم لمجرد هذه الاعمال - بالكفر والتضليل وسوء الاعتقاد والخروج عن أهل السنة والجماعة؟

أفيدوا الجواب، ولكم الثواب.

﴿ هذا ما كتبه جماعة من أفاضل المالكية والشافعية والحنابلة ﴾

أما السعي في تحصيل الألفة والاتفاق بين أهل الاسلام فلا نزاع في أنه من أفضل الاعمال الدينية وأعظمها عند الله تعالى، فإن التآلف والتودد بين المسلمين هو مدار الايمان وأساس الاسلام، والسبب الوحيد لنظام المدنية وقوام المجتمع الانساني ومدار سعادته في الأولى والآخرة. وقد حث النبي ﷺ على الأخذ به وبيان فوائده في كثير من الاحاديث. فمن ذلك قوله ﷺ «لا تدخلوا الجنة

حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » وقوله « لا يؤمن عبد حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير » وقوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه » و « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه » وقوله « نظر المؤمن الى أخيه المؤمن حباً له وشوقاً اليه خير من اعتكاف سنة في مسجدي هذا » وقوله « أفضل الاعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً أو تقضي عنه ديناً » وقوله « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك » وقوله « من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس ، ومن أصلح جوارئه أصلح الله برأيه » ومن تأمل في قوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) وقوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) مع قوله ﷺ « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تنافسوا وكونوا عباد الله اخوانا » وقوله « دب فيكم داء الأثم ألا وهي البغضاء والحسد » و « البغضاء هي الحالقة ، ولا أقول حالقة الشعر وإنما هي حالقة الدين » من نظر في ذلك كله عرف ما لاسمي في تحصيل الألفة والمحبة بين الناس من المصلحة في الدين ، وأنه من أعظم الاعمال ، وأفضل الخصال ، وعرف وجه حث الشارع عليه والتنويه بشأنه وتعظيم قدره

وأما تربية أيتام المسلمين ودعوة الميرين اليها فن الأمر المعروف في الدين ومن أفضل أعمال البر وأحبها عند الله تعالى ، والسنة مملوءة بطلب الرقي بالايام

والضعفاء والمساكين . ففي الحديث « ابغوني في ضعفائكم فانما ترزقون وتنصرون

بضعفائكم » وفيه « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا وبجل عالمنا » وفيه « من أحسن الى يقيم أو يقيمة كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » وفيه « خير بيت من المسلمين بيت فيه يقيم بحسن اليه ، وشر بيت من المسلمين بيت فيه يقيم

يساء اليه ، أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا (وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى »
وفيه « أحب أن يلين قلبك وتذكر حاجتك ؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه
من طعامك » وفيه « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله تعالى من

خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة

وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم »
وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إذا ذكر النبي ﷺ بكى . قال كان
رسول الله ﷺ أرحم الناس بالناس ، وكان لليتيم كالوالد وكان المرأة كالزوج
الكريم وكان أشجع الناس قلباً ، وأوضحهم وجهاً ، وأطيبهم ريحاً ، وأكرمهم حسباً ،
فلم يكن له مثل في الأولين والآخرين . الى غير ذلك من الاحاديث

أما القرآن فكثيراً ما قرن بين اليتامى وذوي القربى والمساكين وابن السبيل
في مقام الأمر بالاحسان والعبادة ، قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به
شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وقال
(وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين) الى غير ذلك من الآيات

وأما اشاعة الاسلام في مقابلة حملات الاجانب والدعوة اليها فهي أول مشكلة
من مسائل الدين وأساس وجوده وعليها حفظ كيانه وبقائه ، بل هي النوع
الميسور الآن من انواع الجهاد في سبيل الله تعالى كالامر بالمعروف والنهي عن
المنكر . قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما

بلغت رسالتك والله يعصمك من الناس) وقال تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض

عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف

يعلمون * واتقوا نكاحاً يضيق صدوركم بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من

الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقال تعالى (فلو لا نفر من كل

فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)

دعوته ﷺ اليهود الى ايمان به واسلام عبد الله بن سلام ٦٥١

وقال تعالى (وأندر عشيرتك لأقربين * واخفض جناحك لمن تباعك من المؤمنين *
وقل إني أنا النذير المبين) الى غير ذلك من الآيات .

وفي الحديث عن طارق قال : رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز فر
وعليه جبة حمراء وهو ينادي بأعلى صوته «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»
ورجل يتبعه بالحجارة وهو يقول : يا أيها الناس لا تطيعوه . وعن نعيم الداري
رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «الدين النصيحة» قيل لمن يا رسول الله؟
قال «لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين وعامتهم» وقال عليه الصلاة والسلام
« لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسا طن الله عليكم شراركم فيدعو
خياركم فلا يستجاب لهم »

وأخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي

قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا

دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ «أروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بحبب الله تعالى عن كل يهودي تحت أدبهم

السماء الغضب الذي عليه » فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، فقال «أيتم؟ فوالله

لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفى آمنتم ، أو كذبتهم » ثم انصرف ﷺ وأنا

معه حتى كدنا أن نخرج ، فاذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد ، فأقبل ،

فقال ذلك الرجل : أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ؟ قلوا والله مانع لم فينا

رجلا اعلم بكتاب الله تعالى ولا أفتقه منك ولا من أيك ولا من جدك . قال :

فاني أشهد بالله أن هذا النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل . فقلوا كذبت ، ثم

ردوا عليه وقالوا سرآ ، فقام رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام ، فأنزل الله تعالى

(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني اسرائيل على

مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) والآيات والاحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصر ، وليست هذه المسائل الثلاث من محل الخلاف بين العلماء ، بل هي مما اجمع الكل عليه .

وأما الاستعانة بالكفار وأهل البدع والاهواء على مصالح المسلمين فإن كانت بأموالهم وكانت لمصلحة دينية أو منفعة دنيوية ولم تشتمل على معنى الاذلال والولاية المنهي عنها فلا نزاع في جوازها ، خصوصاً اذا نظرنا للكفار وأهل الذمة من جهة أنهم نقضوا العهد وتمردوا على الاحكام ، فانه لا بأس بتناول أموالهم والانتفاع بها متى أمنت الفتنة والرديلة ، وقد قبل النبي ﷺ الهدية من المشركين ففي صحيح البخاري قال ابو حميد أهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء ، وكساه برداً ، وكتب له مجرم . وعن قتادة عن انس ان أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ

وعن أنس بن مالك أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل ألا نقتلها ؟ قال « لا » فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ وعن عبد الرحمن بن ابي بكر قال كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة فقال النبي ﷺ « هل مع أحد منكم طعام » فادام رجل صاع من طعام أو نحوه فمجن ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها فقال النبي ﷺ « بيعا أم عطية ؟ » أو قال « أم هبة » قال بل بيع فاسترى منه شاة فصنعت ، وأمر النبي ﷺ بسواد البطن أن يشوى ، وأيم الله ما في الثلاثين والمائة إلا وقد حزن النبي ﷺ له حزة من سواد بطنها ، إن كان شاهداً أعطاها إياه ، وإن غائباً خبا له . وطلب ﷺ من يهودي له دين على صحابي مات وترك أيتاما أن يبرئهم من الدين فما نبل ، وقصته في البخاري وفي الالوسي عند قوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين عضداً) مانصه :

وأما الاستعانة بهم في أمور الدنيا فالذي يظهر انه لا بأس بها سواء كانت

في أمر ممتن كنزح الكنائس ، أو في غيره كعمل المنابر والمحاريب والخيطة ونحوها انتهى . وكتب على قوله تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة) مانصه : قال ابن عباس نزلت في طائفة من اليهود كانوا يباطنون نفراً من الانصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقل لا أولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنهم لا يفتنوك عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم ، فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن فعلهم ، وحكي في سبب نزول الآية غير ذلك ثم أفاد ان المنهي عنه من الموالاة ما يقتضيه الاسلام من بغض وحب شرعيين يصح التكليف بهما ، لما قالوا ان المحبة لقراءة أو صداقة قديمة أو جديدة خارجة عن الاختيار ، معفوة ساقطة عن درجة الاعتبار ، وحمل الموالاة على ما يعم الاستعانة بهم في الغزو مما ذهب اليه البعض ومذهب الحنفية وعاليه الجمهور انه يجوز ورضخ له . وما روي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : خرج رسول الله ﷺ ببدر فتبعه رجل مشرك كان ذاجراً ونجدة ففرح أصحاب النبي ﷺ حين رأوه ، فقال له النبي ﷺ « ارجع فلن أستمع بمشرك » فمسخ لان النبي ﷺ استعان بيهود بني قينقاع ورضخ لهم ، واستعان بصفوان بن أمية في هوازن وذكر بعضهم جواز الاستعانة بشرط الحاجة والوثوق ، أما بدونها فلا يجوز وعلى ذلك بحمل خبر عائشة . وكذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس في سبب نزول الآية وبه يحصل الجمع بين أدلة المنع وأدلة الجواز ، على ان بعض المحققين ذكر ان الاستعانة المنهي عنها انما هي استعانة الدليل بالعزير ، وأما اذا كانت من باب استعانة العزيز بالدليل فقد أذن لنا فيها ، ومن ذلك انخاذ الكفار عبيداً وخداماً ونكاح الكتابيات منهم وهو كلام حسن كما لا يخفى اهـ

ومما أشار اليه من أدلة المنع والجواز ما رواه احمد ومسلم ان النبي ﷺ قال للرجل الذي تبعه « ارجع فلن أستمع بمشرك » ثم تبعه ، فقال له « تؤمن بالله ورسوله ؟ » قال نعم ، فقال له « فانطلق » وعن الزهري ان النبي ﷺ استعان بناس من اليهود في خيبر وأسهم لهم

وان قزمان خرج مع أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد وهو مشرك فقتل ثلاثة من بني عبد الدار حملة لواء المشركين حتى قال ﷺ « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » كما ثبت ذلك عند أهل السير ، وخرجت خزاعة مع النبي ﷺ على قريش عام الفتح .

وقد تصدى أئمة الحديث والفقهاء إلى الجمع بين هذه الآثار بأوجه، منها ما تقدم (ومنها) ما ذكره البيهقي عن نص الشافعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ تفرس الرغبة في الدين ردم فردهم رجاء أن يسلموا (ومنها) أن الأمر في ذلك إلى رأي الإمام (ومنها) أن الاستعانة كانت ممنوعة ثم رخص فيها. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير: وهذا أقربها وعليه نص الشافعي . وجكى في البحر عن العترة ، وأبي حنيفة وأصحابه أنه تجوز الاستعانة بالكفار والفساق حيث يستقيمون على أوامره ونواهيه واستدلوا باستعانتهم ﷺ بناس من اليهود ، وبصفوان بن أمية يوم حنين . قال في البحر : وتجوز الاستعانة بالمنافق إجماعاً لاستعانتهم ﷺ بابن أبي وأصحابه . انظر نيل الاوطار .

وفي الالوسي عند قوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تقاة) ما مفاده وفي الآية دليل على مشروعية التقية ، وعرفوها بالمحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء سواء كانت عداوتهم مبنية على اختلاف الدين كالكفر والاسلام أو على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والملك والامارة — إلى أن قال : وعد قوم من باب التقية مداراة الكفار والفسقة والظلمة ، وإلانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم ، والانبساط اليهم ، وإعطاءهم لكف أذاهم وقطع لسانهم وصيانة العرض ولا يعد ذلك من باب الموالاتة المنهي عنها ، بل هي سنة وأمر مشروع . وقد روى الديلمي عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض » وفي رواية « بعثت بالمدارة » وفي الجامع « سيأتيكم ركب مبغضون فإذا جاءوكم فرحبوا بهم » وروى ابن أبي الدنيا : رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى مداراة الناس . وفي رواية البيهقي : رأس العقل المداراة ، وأخرج الطبراني « مداراة الناس صدقة » وأخرج ابن عدي وابن عساكر :

من عاش مداريا مات شهيداً ، قوا بأموالكم اعراضكم ، وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال رسول الله ﷺ « بدس ابن المشيرة أو اخو المشيرة » ثم أذن له فالان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله ، قلت ماقلت ثم ألت له القول؟ فقال يا عائشة « ان من شر الناس من يترك الناس او يدعه الناس اتقاء فحشه » وفي البخاري عن أبي الدرداء « إنا لنكشر في وجوه اقوام وان قلوبنا لتلعنهم » وأخرج ابن أبي شيبة عن شعيب قال : كنت مع علي بن عبد الله فر علينا يهودي او نصراني فسلم عليه ، قال شعيب : فقلت إنه يهودي او نصراني؟ فقرأ علي آخر سورة الزخرف (وقيله يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون) فاصفح عنهم وقل سلام خسوف يعلمون) .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : كيف تبتيء اهل الذمة بالسلام؟ فقال : ما أرى بأسا ان نبتدئهم . قلت لم ؟ قل لقوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) وروى البيهقي : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا بد له من معاشرته حتى يجعل الله له من ذلك مخرجا

الى غير ذلك من الاحاديث غاية الأمر ، لا تنبغي المداراة الى حيث يخذش الدين ، ويرتكب المنكر ، وتسيء الظنون .

اذا علمت ذلك ، فلا استعانة بالكفار واهل البدع والاهواء المشار اليها في السؤال متى خلت عما أومأنا اليه فلا بأس بها ، بل هي من الامر المشرع كما تقدم ، وقد علمت نظيرها في القرون الفاضلة المشهود لها بالخير ، متى كانت الاستعانة من هؤلاء انصرة الملاك وحفظ حوزة الملة ، وحينئذ لا يجوز لاحد من الناس أن يعارضهم في هذه الاعمال الجليلة ، ويسعى في تشييط الهمة عن معاونتهم ، بل الواجب على كل واحد من أفراد الامة أن يشاركهم في هذا العمل لانه من البر والخير ، وقد قال تعالى (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وقال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) « والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا - والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »

وأما حكم من يرميهم بالكفر وانتزليل وسوء الاعتقاد ، فإن كان يعتقد أنهم كفار حقيقة بمثل هذا العمل ، وانهم خرجوا عن دين الاسلام بمجرد ذلك فحديث « إذا قال الرجل ل أخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما » ظاهر في تكفير هؤلاء المضللين . وقد نص شراح الحديث وعلماء الامة على الاخذ بظاهر هذا الحديث بالقيد المذكور ، وان قصدوا ان هؤلاء بولايتهم للكفار واستمانتهم بهم يفعلون فعل الكفار وليسوا بكفار حقيقة ، فمع اقترانهم وجهلهم بالدين قد آمنوا وارتكبوا جريمة تقرب من الكفر بهذه الكلمة الشذمة التي لاتصدر من مسلم فضلاً عن عالم . وفي الحديث « أبغض عباد الله إلى الله طعان لعان ، وان من أخلاق المؤمن أن لا يحيف على من يبغض ، ولا يأنم فيمن يحب ، ولا يضيع ما استودع ولا يحسد ولا يظمن ولا يلعن ، ويعترف بالحق وان لم يشهد عليه ، ولا يتنابد باللقاب ، في الصلاة متخشعاً ، إلى الزكاة مسرعاً ، في الزلازل وقوراً ، في الرخاء شكوراً ، قائماً بالذي له ، لا يدعي ما ليس له ، ولا يجمع في الغيظ ، ولا يغلبه الشح عن معروف يريده ، بخاط الناس كي يعلم ويناطق الناس كي يفهم ، وان ظلم وبغي عليه صبر ، حتى يكون الرحمن هو الذي ينتصر له » هذه هي أخلاق المؤمنين حتى إذا خرجوا منها فسدت أخلاقهم ، وانطفأ نور إيمانهم ، ونقضوا عرى الاسلام عروة عروة ، حتى لا يبقى منه شيء . نسأله السلامة

وفي الفروق القرافية: اعلم أن النهي يعتمد المفسد ، كما ان الاوامر تعتمد المصالح ، فأعلى رتب المفسد الكفر وأدناها الصغائر ، والكبائر متوسطة بينهم . وأكثر التباس الكفر انما هو بالكبائر ، فأعلى رتب الكبائر يليها أدنى رتب الكفر وأدنى رتب الكبائر يليها أعلى رتب الصغائر ، وأصل الكفر انما هو انتهاك خاص لحرمة الربوبية ، اما بالجهل بوجود الصانع او صفاته العلى ، أو جحد ما علم من الدين بالضرورة . قال ابن رشد: لا يحكم على أحد بالكفر إلا من ثلاثة أوجه وجهان متفق عليهما ، والثالث مختلف فيه ، فاما المنفق عليهما (فاحدهما) أن يقر على نفسه بالكفر بالله تعالى (والثاني) أن يقول قولاً قد ورد السماع وانعقد الاجماع ان ذلك لا يقع إلا من كافر ، وان لم يكن ذلك في نفسه كفراً على الحقيقة

وذلك نحو استحلال شرب الخمر ، وغصب الأموال ، وترك فرائض الدين ، والقتل والزنا ، وعبادة الاوثان ، والاستخفاف بالرسول ، وجحد سورة من القرآن ، واشباه ذلك مما يكون علامة على الكفر وان لم يكن كفراً على الحقيقة (والثالث) المختلف فيه أن يقول قولاً يعلم أن قائله لا يمكنه مع اعتقاده والتمسك به معرفة الله تعالى والتصديق به ، وإن كان يزعم أنه يعرف الله تعالى ويصدق به . وبهذا الوجه حكم بالكفر على أهل البدع من كفّرم ، وعليه يدل قول مالك في العتبية : ما آية أشد على أهل الامواء من هذه الآية (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) انظر فتاوى أبي عبد الله

والحاصل ان هؤلاء المضللين المكفرين قد ارتكبوا بهذه الكلمة كبيرة من الكبائر التي تقضي إلى الكفر إن لم يكونوا معتقدين كفر هؤلاء الجماعة المتمسكين بمعتقد أهل السنة وأعمال الاسلام والمسلمين . وأملهم ان شاء الله تعالى يكونون كذلك غير معتقدين كفر هؤلاء ، وإنما نطقوا بهذه الكلمة تعصياً وعناداً ظاهرياً ، فإن باب التكفير باب خطر ينبغي الاحتراز عنه ما وجدانيه سبيل ، ولا يدل بالسلامة شيء ، وإن كان قولهم بالكفر من الجهل العظيم ، والاقدام على شرية الله تعالى وأحكامه بالجهالة ، وعلى عباده بالفساد والظلم والعدوان . وأما ان كانوا يكفرون لولئك الساعين في الخير وهم يعتقدون انهم كفار حقيقة فيكونون هم الكافرين كما سبق في أول الكلام للحديث ، ومع ذلك نسأل الله سبحانه وتعالى أن يصلح حالهم ويتقدمهم من هذه الضلالة ويهديهم إلى الصراط المستقيم

وهذا ما كتبه شيخ الحنابلة :

الحمد لله وحده

الحكم عندنا مما شر الحنابلة ان الشرع الشريف ألزمنا أن لانكفر أحداً من أهل القبلة إلا اذا عرّض نفسه للكفر وكفر بمخالفة ما شرعه لهذه الامة سيد البشر ﷺ وكان المخالف فيه مجماً عليه من علماء أهل السنة والجماعة المتصفون .

بهذه الصفات الممدوحة شرعا من تحصيل الاتفاق والائتلاف بين فرق أهل الاسلام من غير اختلاف وشقاق وغير ذلك من بقية الصفات التي حث عليها الشارع ليسوا كذلك ، وإن استعانوا بالكفار في تحصيل مصالح المسلمين العامة كالصنائع والجهاد وغيرها . فإن الصنائع مأمور بها شرعا وقد اتصف بها آدم ومن بعده من الانبياء والمرسلين كما نص عليه ابن عباس

وقد نقل المروذي عن الامام احمد انه قل في قوم لا يعملون ويقولون نحن متوكلون: هؤلاء مبتدعة . واستعانة المسلمين بالكفار جائزة في الجهاد للضرورة كضعف المسلمين ، ولو كان العدو من بغاة المسلمين ، لما روى الزهري أن رسول الله ﷺ استعان بناس من اليهود في حربه فأسهم لهم . رواه سعيد بن منصور . وإذا جازت الاستعانة بالكفار في الجهاد فتمجوز الاستعانة من المسلمين بهم في غيره مما فيه مصلحة لعموم المسلمين بجامع أن كلا من المصالح العامة . وتكفير علماء أهل السنة والجماعة بالاستعانة بأهل البدع والأهواء ودخولهم في مجالسهم واختلاطهم معهم في هذه المصالح العامة لا يجوز شرعا

وإن قال ابن مفلح في الفروع أن الاستعانة بهم -م مختلف فيها قيل بالجواز وقيل بالمنع ، بل مكفروا هؤلاء العلماء هم الكفار

قال في منتهى الارادات وشرحه للبهوتي وعن الامام احمد : ان الذين كفروا أهل الحق والصحابة كفار ، قال المنقح وهو أظهر من القول بانهم فسقة خوارج بغاة . وقال في الانصاف والقول بتكفيرهم هو الصواب وهو الذي ندين الله به اه . وقال ابن مفلح في الفروع : وعن الامام احمد أنهم كفار ، وقال في الترغيب والرعاية انه الاشهر ، وذكر ابن حامد انه لا خلاف فيه ، وفي الحديث الشريف الصحيح ان من كفر أحداً بلا تأويل فقد كفر

وقل الشيخ برهان الدين الحلبي : ومن كفر أخاه المسلم بغير تأويل فهو كافر يجب عليه تجديد الاسلام والتوبة من ذلك وتجديد زكاحه إن لم يدخل بزوجه ، وكذا إن دخل بها عند أبي حنيفة . وأما عندنا فالصمة باقية إن عاد إلى الاسلام بالتوبة قبل انقضاء العدة ، فيجب على المسلم أن يصون من التكفير بغير

موجب قطامي كل فرد من أفراد أمة محمد ﷺ ومرتكب ذلك لغرض نفسه لا ريب هو من الضالين الممقوتين والله ولي المتقين

وقد روى أبو داود بإسناده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من أصل الإيمان الكف عن قال لا إله إلا الله لا نكفره بذنوب ولا نخرجه عن الإسلام بعمل ، والجهد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والإيمان بالاقدار والله أعلم »

أحمد البسيوني الحنبلي بالأزهر

وهذا ما كتبه الاستاذ الفاضل الحنفي : *

الحمد لله وحده

قال الله تعالى في كتابه العزيز (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وقال عز من قائل (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقل مخاطباً لصفوته من خلفه ﷺ (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال في محكم آياته (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوا في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) وهي آية محكمة لم تنسخ على ما عليه أكثر أهل التأويل . وقال ﷺ « المؤمن ألف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وقال عليه السلام « ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وهو في الصحيحين

إذا تمهد هذا فنقول : أما تكفير المؤمن فأن مذهب أهل الحق عدم جوازه بارتكاب ذنب ليس من المكفرات صغيراً كان الذنب أو كبيراً ، عالمه كان مرتكبه أو جاهلاً ، وسواء كان من أهل البدع والاهواء أو لا . نص عليه عبد السلام شارح الجوهرة عند قول المصنف * فلا نكفر مؤمناً بالوزر *
وقول في الدر المختار في باب المرتد : لا يفتى بالكفر بشيء من ألفاظه إلا فيما اتفق المشايخ عليه . وقول في جامع الفصولين : لا يخرج الرجل من الإيمان

(*) هو الاستاذ الشيخ محمد الطوخي رحمه الله

الاجحود ما أدخله فيه ، وما يُشك في انه ردة لا يحكم به ، إذ الاسلام الثابت لا يزول بالشك مع ان الاسلام يعلو ، وينبغي للعالم إذا رفع اليه هذا أن لا يبادر بتكفير أهل الاسلام اهـ

وقال في الفتاوى الصغرى : الكفر شيء عظيم فلا أجعل المؤمن كافراً متى وجدت رواية انه لا يكفر . وقال في الخلاصة وغيرها : إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنعه ، فعلى المفتي أن يميل إلى الذي يمنع التكفير تحسیناً للظن بالمسلم . وقال في التارخانية لا يكفر بالاحتمال ، لان الكفر نهاية العقوبة فيستدعي نهاية الجناية ، ومع الاحتمال لانهاية

وفي رد المختار من باب البغاة ما يفيد اجماع الفقهاء المجتهدين على عدم تكفير أهل البدع ، قال وان ما يقع من تكفير أهل مذهب لمن خالفهم ليس من كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون بل من غيرهم ، ولا عبرة بغير الفقهاء .

وفي الدرر وحواشيه من باب الامادة : من صلى الى قبلتنا لا يكفر بالبدعة حتى الخوارج الذين يستحلون دماءنا وأموالنا وسب أصحاب الرسول ﷺ غير الشيخين ، وينكرون صفاته تعالى وجواز رؤيته لكونه عن تأويل وشبهة . والمراد بالخوارج من خرج عن معتقد أهل الحق لا خصوص الفرقة التي خرجت على علي فيشمل المعتزلة والشيعة .

مطالب الاستعانة بالكفار وأهل البدع والاهواء

وأما الاستعانة بالكفار وبأهل البدع والاهواء على نصرة الملة الاسلامية فهذا مما لا شك في جوازه وعدم حظره ، يرشد الى ذلك الحديث الصحيح المار ذكره « ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وقال ﷺ « انه ليؤيد الاسلام برجال مالم من أهله » وقال في الدر المختار في كتاب الغنائم عند قول المصنف : أو دل الذي على الطريق — ومفاده جواز الاستعانة بالكافر عند الحاجة ، وقد استعان عليه الصلاة والسلام باليهود على اليهود ورضخ لهم

وفي شرح العيني على البخاري ان النبي عليه السلام استعان بصفوان بن أمية في هوازن واستعار منه مائة درع وهو مشرك اهـ

وفي المحيط من كتاب الكسب: ذكر محمد في السير الكبير: لا بأس للمسلم أن يعطي كافراً حربياً أو ذمياً وأن يقبل الهدية منه لما روى ان النبي ﷺ بعث خمسمائة دينار الى مكة حين قحطوا، وأمر بدفعها الى أبي سفيان بن حرب وصفوان ابن أمية ليفرقاها على فقراء أهل مكة، ولأن صلة الرحم محودة في كل دين، والاهداء الى الغير من مكارم الاخلاق

وفي شرح السير الكبير المرحومي: لا بأس أن يصل الرجل المسلم المشرك قريباً كان أو بعيداً محارباً كان أو ذمياً. وفي الدر المختار من كتاب الوصايا: أوصى حربي أو مستأمن لا وارث له هنا بكل ماله - يعني لمسلم صح، وكذا لو أوصى له مسلم أو ذمي جاز

نمقل: وصاحب الهوى اذا كان لا يكفر فهو بمنزلة المسلم في الوصية. وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى (انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين - الى قوله تعالى - أن تولوهم) قال أهل التأويل هذه الآية تدل على جواز البرين المشركين والمسلمين وإن كانت الواو الالة منقطعة اهـ

وفي البخاري ما يدل على وصية عمر رضي الله عنه بالقتال عن أهل الذمة وأن لا يكلفوا إلا طاقتهم اهـ

هذه هي نصوص المفتهاء وأصحاب الحديث وأهل التفسير في وجهي السؤال وبها تندفع كل شبهة في عمل هؤلاء الموقنين لخير أهل الملة الحنيفية السامعاء العاملين على تحصيل الائتلاف والاتفاق بين فرق أهل الاسلام الداخلين بتربية أيتام المسلمين في قوله ﷺ كما في صحيح البخاري «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» - وقال بأصميه السبابة والوسطى - المجاهد بن بعلهم هذا لاعلاء كلمة الله ونصرة الموحدين، ولا يمنع من صحة عمالهم دخولهم في مجالس أهل البدع واختلاطهم معهم في هذه المصالح العامة متى كانت نيتهم تحصيل ذلك الخير العام. فان الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، والله تعالى أعلم.

﴿ ماحققه الاستاذ الامام نفسه في المسألة ﴾

هذا ما ذكره هؤلاء الافاضل ثم نقول : المطلاع على ما نقله حضرات الاستاذة من علماء الجامع الازهر من نصوص الكتاب والسنة وأقوال الائمة والعلماء من أهل المذاهب الاربعة يعلم حق العلم أن ما يفعله أولئك الافاضل دعاة الخير هو الاسلام ، ومن أجل مظاهر الايمان ، وان الذين يكفرونهم أو يضللونهم هم الذين تعدوا حدود الله وخرجوا عن أحكام دينه القويم

أولئك الدعاة إلى الخير قاموا بأمر الله في قوله (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وأما خصومهم فقد خالفوا نهى الله سبحانه في قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) وإن كانوا يعتقدون كفر أولئك المؤمنين حقيقة فالمفنى به عند الحنفية انهم يكفرون بذلك لاعتدادهم الايمان وأعماله كفراً وهو جحد لما جاء به محمد ﷺ . وإن كانوا يقولون ذلك نبزاً بألسنتهم فأخف حالهم ان يدخلوا في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وقد قال الله فيهم (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) لانهم يضللون من يؤمن بالله واليوم الآخر وبما جاء به محمد ﷺ ويرمونهم بالفسق في اعمالهم ، وهو اشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، وما أعظم الوعيد عليه في قوله (لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) فهو من فظائع الكبائر .

بقي ان بعض الجهلة التشدقين ربما تعرض لهم الشبهة في فهم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم) إلى آخر الآية . وقوله تعالى (لم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) وقوله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون بهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن

تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعل ذلك فقد ضل سواء السبيل) ، وما لم أتذكره مما قد يكون فاتني من الآيات التي تصرح أو تشير إلى المنع من مودة المؤمنين لغير المؤمنين ، على أنه لا شبهة لهؤلاء الجملة في مثل هذه الآيات تسوغ لهم تفسيق أخوانهم أو تكفيرهم بعد ما جاء في الآية المحكمة من قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين *) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وبعد ما جاء من القصص الذي قصه الله علينا لتكون لنا فيه أسوة إذ قال (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) وبعد ما أباح الله لنا في آخر ما أنزل على نبيه ﷺ نكاح الكتابيات ، ولا يكون نكاح في قوم حتى تكون فيهم قرابة المصاهرة ، ولا تكون تلك القرابة حتى تكون المودة .

وحقيقة ما جاء في الآيات الدالة على النهي عن موالاة غير المؤمنين أو مودة الفاسقين والمجادين الله تعالى أنه نهى عن الموالاة في الدين ، ونصرة غير المؤمن على المؤمن فيما هو من دينه ، وامتداد الفاسق بالمعونة على فسقه ، وعن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين يكون من صفتها أنها تبذل وسعها في خذلانهم وإيصال الضرر إليهم ، فيكون ادلاء المؤمنين إليها بأسرارهم واتخاذها عضداً لهم في أعمالهم ، اعانة لها على الإيقاع بهم ، أما إذا أمن الضرر وغلب الظن بالمنفعة ولم يكن في المودة معونة على تعدي حدود الله ومخالفة شرعه فلا خطر في الاستعانة بمن لم يكن من المسلمين ، أو لم يكن من الموقنين الصالحين ممن يسمونهم أهل الأهواء ، فإن طالبا طالب الخير يباح له بل ينبغي له أن يتوسل إليه بآية وسيلة توصل إليه ما لم يخلطها ضرر للدين والدنيا

وقد بينت السنة وعمل النبي ﷺ ما صرح به الكتاب في قوله (لا ينهاكم الله) الخ . واتخذ كانت لنا أسوة حسنة في استعانة رسول الله ﷺ بصفوان بن أمية في حرب هو ازن وفي غيرها من الوقائع كما هو معروف في السنة ثم كان في

سيرة الخلفاء الراشدين من لدن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى علي كرم الله وجهه ما فيه الكفاية لمسترشد إذا استرشد ، فقد أنشأ عمر رضي الله عنه الديوان ونصب العمال ، واحتاج المسلمون إلى من يقوم على العمل في حساب الخراج وما ينفق من بيت المال ، واحتاجوا إلى كتاب المراسلات والقوم أميرون لا يستطيعون القيام بما كان يطلبه العمل من العمال ، فوضعوا ذلك كله في أيدي أهل الكتاب من الروم وفي أيدي الفرس ، ولم يزل العمل على ذلك في خلافة بني أمية بعد الراشدين إلى زمن عبد الملك بن مروان ، ولا شك في أن هذا استعانة بغير المسلمين على أعمال هي من أهم أعمالهم ، فكيف ينكر هؤلاء الجهال جواز تلك الاستعانة ؟ بل قد استعان كثير من ملوك المسلمين بغير المسلمين في حروبهم ، وأنا نذكر ما قال ابن خلدون في ذلك كله قال في باب ديوان الأعمال والجبایات :

« وأما ديوان الخراج والجبایات فبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين ، ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحل الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحساب أمر عبد الملك سليمان بن سعد والي الاردن لعهدده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فأكمل سنة من يوم ابتدائه ، ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصنعة فقد قطعها الله عنكم

« وأما ديوان العراق فامر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولحق ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله . ولما قتل زاذان في حرب ابن الأشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل ، ورغم لذلك كتاب الفرس اه

وقال في الكلام على الوزارة « وأما حال الجبایة والانفاق والحساب فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكأوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم ممن يجيده ، وكان

قليلاً فيهم . وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لأن الأمية كانت صفتهم التي امتازوا بها ، وكذا حال الخطاطبات وتنفيذ الأمور لم يكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي كانت فيهم ، والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته ، ولم تخرج السياسة إلى اختياره لأن الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الكلية في شيء ، وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجد للخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ، ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته من عماله من يحسنه اهـ وقال في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها :

(فصل) ولما ذكرناه من حرب المصاف وراء العساكر وتأكيده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الأفرنج في جندهم ، واختصوا بذلك ، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر ، والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردءاً للمقاتلة أمامه ، فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف وهم الأفرنج ، ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها ، وهذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر ، وإنما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناها من تخوف الأجفال على مصاف السلطان ، والأفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم اهـ

وجاء في الأحكام السلطانية لقاضي القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي في الكلام على وزارة التنفيذ وهذا الوزير وسط بين الإمام وبين الرعايا والولاية يؤدي مأمراً ، وينفذ عنه ماذكر ، ويمضي ما حكم ، ويخبر بتقليد الولاية ، وتجهيز الجيوش ، ويعرض عليه ما ورد من مهم ، ويجدد من حدث ملم ، ليعمل فيه ما يؤمر به ، فهو معين في تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ، ولا متقلداً لها ، فإن شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص ، ثم قال : ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة وإن لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم اهـ^(١)

واستعانة الخلفاء من بني أمية وبني العباس بأرباب العلوم والفنون من الملل المختلفة فيما هو من فنونهم مما لا يمكن لصبي يعرف شيئاً من تاريخ الأمة إنكاره ،

(١) وفي مسودة الإمام هنا زيادة في دخول خزانة في حلف النبي (ص) مسلمهم ومشرِكهم وهي منقولة من سيرة ابن هشام ولم يقبضها عند تبليغ الفتوى

وقد كانوا يستعينون بهم على أعين الأئمة والعلماء والفقهاء والمحدثين بدون نكير، فقد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين، على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين، وأن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم، وما فيه خير لهم، لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبي ﷺ وأصحابه، وأن من كفرهم أو فسقهم فهو بين أحد الأمرين إما كافر أو فاسق، فعلى دعاة الخير أن يجدوا في دعوتهم، وأن يعضوا على طريقته، ولا يحزنهم شتم الشائمين، ولا يغيظهم لوم اللائمين، فالله كفيل لهم بالنصر، إذا اعتصموا بالحق والصبر، والله أعلم

الفتوى الثانية

طوفانه نوح، هل عم الارض كلها؟

جواب سؤال ورد على الاستاذ الامام مفتي الديار المصرية من حضرة الاستاذ الشيخ عبد الله القدومي خدام العلم الشريف بمدينة نابلس، وفيه نص السؤال : وصلنا مكتوبكم المؤرخ في ٤ شوال سنة ١٣١٧ الذي أنهيتم به انه ظهر قبلكم نشء جديد من الطلبة ديدنهم البحث في العلوم والرياضة والخوض في توهين الأدلة القرآنية، وقد سمع من مقالاتهم الآن ان الطوفان لم يكن عاما لانحاء الارض، بل هو خاص بالارض التي كان بها قوم نوح عليه السلام، وأنه بقي ناس في أرض الصين لم يصبهم الغرق، وأن دعاء نوح عليه السلام بهلاك الكافرين لم يكن عاما بل هو خاص بكفر قومه، لانه لم يكن مرسلا إلا إلى قومه بدليل ما صح « وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس كافة »

فإذا قيل لهم : ان الآيات الكريمة ناطقة بخلاف ذلك، كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا) وكقوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) وقوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) قالوا هي قابلة للتأويل ولا حجة فيها، وإذا قيل لهم إن جهابذة المحدثين أجابوا بأنه صح في أحاديث الشفاعة أن نوحا عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الارض، وأنه يتعين

ان يكون قومه أهل الارض ، ويكون عموم بعثته أمراً اتفاقياً لعدم وجود أحد غير قومه ، ولو وجد غيره لم يكن مرسل إليهم - سخر وامن المحدثين ، واستندوا إلى حكايات منسوبة إلى أهل الصين . ورغبتم منا بذلك المكتوب كشف الغطاء عن سر هذا الحادث العظيم ، والافادة بما يقتضيه الحق ، وبطمئن اليه القلب . والجواب عن ذلك والحمد لله : أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الاحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، اذا عد اعتقادها من عقائد الدين

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده بثقة الراوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني وأما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الاديان وأهل النظر في طبقات الارض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الامم ، أما أهل الكتاب وعلماء الامة الاسلامية فعلى ان الطوفان كان عاماً لكل الارض ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الاصداف والاسماك المتحجرة في أعالي الجبال لان هذه الاشياء مما لا تكون إلا في البحر ، فظهورها في رؤس الجبال دليل على ان الماء صعد اليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الارض ، ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين ان الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير انه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية ان الطوفان كان عاماً لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين أن لا ينفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والاحاديث التي صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلي يقطع بان الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الارض وما تحتوي عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذى برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم

الفتوى الثالثة

﴿ هي الترا نسفالية التي هاجمتها السياسة الخديوية ، بأقلام كتابها المأجورين ، وشيوخها المداهنتين ، فأنكسرت دولة المال والرتب والنباشين ، وفازت دولة العلم والدين ، وكن النصر لكتابها المخلصين ﴾

قد تقدم ذكر هذه المسئلة (في ص ٥٨٦) وما قاله لي الشيخ محمد توفيق البكري من إعداد سمو الخديو لحمة من فرمان الكتاب للهجوم على الفتى في تنقيد هذه الفتوى ، واحتقاري لهذا التهديد ، ولم يلبث أن ظهر صدق قوله وصحة رأيي في احتقاري لهؤلاء الكتاب ، وكونهم لا يقام لهم وزن في هذا الموضوع ، فقد كتبوا وكتبنا فكنا نحن الغالين في العلم ، وكأوامم الراجحين في الجهل ، حتى أن إبراهيم بك اللويلحي لم يجد ما يرد به على صاحب النار إلا مثل ما كتبه في نهيج العامة عليه في حكايته لقول المفسرين في قوله تعالى (سأريك دار الفاسقين) أنها مصر في عهد فرعون موسى وأمثاله — إذ قلد السيد عبد الله نديم في قوله في أصحاب القطم أنهم كانوا قراء ، فلما استنبوا في مصر عادوا المصريين ، ولكن قسير اللويلحي في الدم والتهكم أتقوا طرف كقوله في موضع غني أو شيع « قلنا ليس الحرير وتافع الكشمير » ومثل هذا يسيطره بعض القراء في وقته ، ويتفكرون بلفظه ، فإذا نقل في وقت آخر كان ثما يسخر منه ، وكذلك إذا ترجم ، فإن ما كتبوه وكتبناه في هذا الموضوع قد ترجمته جرائد المسلمين في الهند وغيرها وكانوا من أنصارنا كما سيأتي قريباً

وأما الذي تولى كبير الأراجاف ، وأكثر الأيضاع فيه والأبحاف ، وتكلف تنقيد الفتوى ونهيج العالم الإسلامي عليه أقبح محو بك أبو شاذي الحامي في الجريدة التي أنشأها باسم (الظاهر) أو كل محرر ومظمها له دخل اسمه الشيخ محمد الشرطي كان طالب علم ثم دخل جامعة الدعاة إلى عقيدة وحدة الوجود وأنشأ جريدة سماها (النهج القويم) كانت هي التي كتبت ن الشيخ محمد عبده صرح في درس التوحيد الذي كان يلقيه في

الازهر بنفي توحيد الله تعالى فخاكمة النيابة العامة على هذا وجدته وسيأتي شرح هذه المسألة في محله وكان قبل حادثة الفتوى ببضع سنين ، فلما دعاه أبو شادي بك الى الكتابة في التشريع على الفتوى في جريدة الظاهر وافق هوى في نفسه وهو لم يكن صاحب مبدأ ثابت بل كان يكتب بالاجرة لجريدتين أو أكثر من الجرائد الاسبوعية التي تعرف بالساقطة فيرد في بعضها على ما كتبه هو نفسه في الأخرى وكانت جميع جرائد مصر اليومية والسياسية تقتصر للاستاذ الامام وتنتشر لانصاره كل ما يكتبون إلا المؤيد واللواء حتى أن أبا شادي بك رفع قضية على جريدة مصورة منها لانها حقرتة فيما صورت به تهجمه على فضيلة المفتي ، ولكن الذي كان يغيبه من هذه الصحف مجلة المنار لقوة حجتها ، وسيأتي مقاله في صاحبها ، وجريدتا الاهرام والمقطم لسعة انتشارهما ، مع قلة انتشار جريدته وكراهة الناس لها بعد تصديها للرد على الاستاذ الامام ، كما ذكر ذلك يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي في التقرير الذي رفعه الى المايين الهايوني في شأن عداوة الخديو المفتي وقد تقدم (ص ٥٦٤)

تقرير أبي شادي في الفتوى الترانسفالية

ولما وجد ان ما ينشره في جريدته قلما يقرأه الناس كتب في المسألة تقريراً يحرض به العالم الاسلامي كله على المفتي جعل عنوانه (تقرير ملي) يتضمن كذا « مرفوع بكل نجلة واحترام لائمة الدين الاعلام ، وعيالم علماء الاسلام ، في الاستانة العلية ومصر والهند وتونس والغرب الاقصى وايران وافغانستان وبلاد العرب . من واصله خادم الملة والدين المتفاني في الاخلاص لكافة اخوانه المسلمين !! » وطبع هذا التقرير في ٢٩ شوال سنة ١٣٢١ وهو يشبه التقارير التي يكتبها أمثاله من المحامين في القضايا المهمة التي بوكلون فيها وإن كانوا يعتقدون بطلان موكلهم فيها ، فهم يعتمدون فيها على تأثير المبرات الخطابية والشعرية التي يرجون أن تؤثر في نفس القضاة غير المدققين ، ففي هذا التقرير من مدح نفسه ووصفها بالغيرة على الاسلام وحبه للمسلمين وحرصه على شريعتهم التي وقعت في خطر عظيم من هذه الفتوى ووقعوا هم تحتها أيضا — ما يسخر منه العقلاء

وأما المسائل التي بنقلها فيها من كتب التفسير والفقه ففيها من الحجة عليه ما ليس يفهمه أو ما يفهم بعضه ويحاول اضلال قراء تقريره عن فهمه بمثل ما يحاول أمثاله اضلال القضاة في مرافعاتهم وتقاريرهم في الدعاوي التي يحامون عن أصحابها وأهم ذلك كله انه جعل البقر الذي يضرب على رأسه ثم يذبح من الموقوذة وكان أكثر ما نشره في جريدة الظاهر بقله أو قلم الشربتلي أو غيره تحت هذا العنوان الذي يوضع بقلم الثلث الكبير (الموقوذة) وإنما الموقوذة ماضرب بغير محدد كالخشب والحجارة حتى انحلت قواه ومات، وموضوع الفتوى بقر يضرب على رأسه بالبلطة (ويسمى الشاقور) حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت . فالضرب بالبلطة وهي حديدة تشخذ وتمتهدى كالسكين ليس من أسباب الوقت ، فلو مات الثور أو البقرة بالضرب بها لا تسمى وقيداً في اللغة فكيف اذا ذبح كما ان ما يضرب بغير المحدد كالعصي والحجارة اذا ذبح قبل أن يموت لا يسمى وقيداً فهو حلال بنص القرآن فإنه قال في الموقوذة واخواتها (إلا ما ذكيتهم) أي أتممت قتله بالذبح مثلاً قبل أن يموت . وهو ينقل هذه الأقوال عن المفسرين والفقهاء ولكنها يزيد على البلطة والشاقور فيعده منها بجمله أو توهمه ان القاري . يعتبر بذلك ويقبله ، وإنما يقبله العامي الجاهل دون العلماء .

ومن الغريب انه جعل التقرير في إنكار الفتوى الترانسفالية برمتها حتى صلاة الشافعي خلف الحنفي ولكنه أجمل الكلام في هذه المسألة مع إنكاره لجوازها وفي مسألة البرنيطة وفصله في مسألة الموقوذة . ووعد بتفصيل المسألتين الآخرين في فرصة أخرى بعد أن يرى تأثير كلامه في المسألة الاولى مسألة الموقوذة

ومسألة صلاة المنتسبين الى المذاهب بعضهم مع بعض قد جرى عليها العمل في بلاد الاسلام سلفاً وخلفاً في جميع الاقطار على صلاة بعضهم مع بعض ولا سيما مذاهب أهل السنة بل صرح أعلام أهل السنة بجواز الصلاة خلف إمام الصلاة المبتدع كالرافضي والخارجي وكذا الفاسق وان كان بعض المتعطلين في التقليد ذكروا وجهين في المسألة بناء على قاعدتين إحداهما ان العبرة في الصلاة برأي الامام والثانية ان العبرة برأي المأموم . ولكن العمل جرى على صلاة بعضهم مع

بعض وعدم التفريق بين المسلمين في أكبر مظاهر الاسلام الجامعة وهو الصلاة. أي على ان العبرة باعتقاد الامام فاذا كانت صلاته صحيحة في مذهبه جاز لمخالفة فيه أن يقتدي به
بضع جمل من تقرير أبي شادي

وانني أنقل بعض عبارات هذا التقرير لاجل العبرة به مع إعلام قارىء هذا التاريخ انه لم يبلغنا انه كان له أدنى قبول عند أحد من علماء المسلمين الذين أرسلت اليهم الالوف منه في جميع الاقطار . وان علماء مصر وغيرها من الاقطار قد أيدوا فتوى مفتي الديار المصرية كما سيأتي . وأبو شادي بك وعد بنشر كل ما يرسله اليه العلماء وغيرهم من الإنكار على الفتوى ولم ينشر شيئاً لانه لم يجثه شيء ، ونحن قد نشرنا بعض ما أرسل الينا من غير طلب وعندنا ما لم ننشره إلى الآن

(١) قال أبو شادي بك في أول مقدمة تقريره « اليكم يا حماة الملة وعلماء الدين وعواهل الامة المحمدية وحراس شريعته يرفع هذا العاجز تقريراً مشتملاً على واقعة حال ترونها أمام أنظاركم من اعظم الوقائع وأشدّها على الافئدة المؤمنة ، ترونها تظهر أمامكم ممثلة بعض ما يتوخاه العبدون من فرط التهاون بفروع الملة وأحكامها ويدعون انهم نصراء الزمان والمكان وأعوان الحياة الراقية ، وكأنها تستدعي في نظرهم هدماً للملة بمحاول التطرف الشديد ، وزلزلة في أرض الوجود الاسلامي شرقاً وغرباً . ترونها وهي تملئ عليكم عبارات تسيل بها عبرات العيون ، ويتوجع بها كل فؤاد حي محزون ، هي الواقعة ذات الضجة الهائلة والصلصلة المستمرة ، فصلناها لكم رجاء أن تعيروها آذاناً صاغية ، وأفئدة واعية ، الخ

وتلا هذا ذكر عداوة الغرب للشرق وتربصه الشر به ، وان أدنى بدعة في الاسلام تمكن الغرب من مقتل الشرق بهدمها لاركان الاسلام ، كأن القول بجواز الاكل من ذبيحة نصارى الافرنج بدعة أو أول بدعة حدثت في المسلمين ، وانها وإن كانت في مسالة فرعية لا بد أن تفضي إلى هدم أركان العقائد وتمكين الغرب من ازالة الاسلام من الارض . والواقع ان البدع في بلاد المسلمين قديمة ومنها ما هو مغل بالعقائد وهي على كثرتها في هذه البلاد وغيرها لم يسمع احد من أبي شادي ولم يقرأ أحد من كلامه المكتوب كلمة واحدة في إنكار شيء منها ، وانما القائلون

بهذا في هذه البلاد هم جماعة الاستاذ الامام مفتي الديار المصرية
(٢) ثم قال « فيا حمة الله ، ويا أنصار للرومة والشهامة ، ويا أساطين الدين ،
اليكم نسوق الحديث ونستحث همكم إلى وقاية أحكام دين الله في هذا الوسط المنعم
بالشروع ، في هذا الوسط الذي اندلع فيه لسان التروار . هذا الوسط الذي ظهرت
فيه الرذيلة على الفضيلة . هذا الوسط الذي أصبح الدين فيه أعزل بلا سلاح . هذا
الوسط الذي سطت فيه الشهوات على القلوب . فتمردت النفوس وآثرت إثارة
الخطوب . هو هذا الوسط الذي حارب فيه الدين من حماته ، وحوربت فيه الله
من رجالها . حوربت الشريعة من أنصارها . حوربت فيه الفضيلة من مظاهرها ،
حوربت فيه الأحكام من أساطينها . حوربت فيه ملة الرسول ، من كل ذي نشأة
غلب على فؤاده الفضول . فذهب مذهب الشذوذ في العقول والمنقول
«رضنا اليكم أيها الرجال هذه السطور تناديكم بصوت الملة ولسان الدين ،
وتوجه أنظاركم إلى بدعة لو تركت لافقت إلى ضلال مبين . قلبدار البدار إلى
مقاومة هذا الخطر . البدار البدار إلى حفظ الدين فهو خير شأنا . البدار البدار
إلى تقوية أركان الله التي أخذ المدهنون بمدينة القرب في قويضها ونقض بنيانها
اتقائم على أسس الحكمة «ومثل هذا القل الشري كثير جدا فيه ومنه استصراخ
خاص بملوك المسلمين وأمراتهم ، ومناجاة لموتاهم

(٣) ذكر أنه قد ورد عليه من علماء الأزهر عبارة تقتضي أن الشيخ محمد عبده

صار معزولا من الأقاليم «وظيفة الافتاء مختصة لمن يكون مقلداً للامام أبي حنيفة...
ولما كان الشيخ محمد عبده لم يستند في فتوى القرائن على شيء من نصوص
مذهب الامام أبي حنيفة بل أخذ برأيه متلا قد أعلن أنه مجتهد لا مقلد لمذهب
وحيث قد خرج عن التقليد للنصوص عليه في أمر التولية فيرى العلماء أنه صار
معزولا شرعا من وظيفة الافتاء ، بمجرد هذا الخروج لأن الحاكم إنما ناط الوظيفة
بالمقلد لا امام مخصوص »

وهذه العبارة هي المصروفة بالذات من كل هذه الحجة الخديوية على الشيخ محمد

عبدہ کما تقدم بيانه في محله، ولكن لم يتجراً احد من علماء الازهر على التصريح بها باسمه، ومعناها باطل كما بيناه في المنار قبل كتابة هذا التقرير وطبعه وسياتي

(٤) ثم قال بهذا المعنى في ص ٥٨

« وقد رفع أولئك الائمة اعلام عريضة إلى مقام الخديوية الجليل بلتمسون إيقاف تيار هذه الفتاوى التي أرادها الهوى، وعداها الرأي، واستاقها الغرض واستلت بمناجل الحصاد ما غرس الدين. وانخذت معاول الهوى لهدم معاقل الشريعة الغراء (حمها الله ذلك) اهـ

نعم هذا هو الغرض من كل هذا الغلو في الغيرة على الدين والشريعة بمجرد الدعوى التي لا يصحبها أدنى اعتقاد، فقاتل الله الرياء والافتقار

(٥) ثم قال «أما وقد صدر من مركز الفتوى أمر بنحو ديننا، ويبين ما ذهب اليه الاجماع من أئمة ماتنا، وكان يشغله أعظم منه عالمية وأكثر فضلاً، لا تتساهل ان نحمل عليه بما في طاقتنا ونوسعه ذماً وهجواً، اللهم إلا ان ثاب إلى الرشد وأعلن خطاه، وأبان انه نزع عن التصميم برأيه، والاستبداد بفكره، وفي اعتقادنا انه لا كبير إلا من كبره الدين، ولو اننا ممن يريد غير نصرة الدين واحترام أهله مادعوناه صراحاً إلى بيان حجته التي اعتد عليها فيما ذهب إلى الافتاء به فبخل واستغنى، ولم يرد إلا أن يكون جواب بني سام. من أفواه بني (شام) اهـ

هكذا ذكر كلمة شام بين هلاين وهو يعني بها صاحب المنار الذي بين صحة الفتوى بنصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الامة الصالح وأئمتهم، وان المفتي أهل لما أفتى به والاصل في المفتي أن يكون مجتهداً كما سيأتي، فلو كان ابو شادي بك يطلب الحجة لذاتها لاذم المفتي وهجوه ليكون حجة للخديو على اقناع الحكومة والمسيطرين عليها بموافقتهم على عزله — لما أعرض عن الحجة لمحيتها على لسان أبناء الشام، وهل هم إلا مثله من أبناء سام، ولكن الله فضلهم عليه بالعلم بدين الاسلام، وبنصره والدفاع عنه؟

(٦) ثم قل في خاتمة التقرير «إن أشباع المفتي انحصروا في اخواننا السوريين

والمسيحيين المتملقين، وافيف من ذوي السوابق المعروفة أطوارهم، ولم نقف على

يقول لعالم او شبه عالم او طالب علم غير صاحب المنار، ومكانته من الشيخ مكانة الشيخ من نفسه ، فلا يسمى شيعياً ولا غير شيعي ، ولا بحسب من القوم الماضين او أهل اليوم لانه مع الشيخ مطلقاً »

أما قوله ان مكانة صاحب المنار من الشيخ (يعني الاستاذ الامام) مكانة الشيخ من نفسه فنحمد الله تعالى انه قول صحيح ومعروف عند الناس ، وأما قوله « انه مع الشيخ مطلقاً » فهذا قول باطل فانه انما كان معه لانه كان على الحق ، وهو لم يكن يرضيه من اخوانه وتلاميذه إلا هذا ، وكانوا يصرحون له برأيهم فيما يخالف رأيه فيسر بذلك ويذكر لهم حجته على رأيه ، ويرجم إلى رأي من يراه مصيباً منهم كما سئد في الكلام على أخلاقه وآدابه وقوله قبله ان أشياعه انحصروا فيمن ذكروا باطل فان أنصاره من علماء الازهر وعلماء الآفاق الاسلامية كلها كثيرون ، وكذلك أكثر أصحاب الجرائد كما سيأتي . وأما أنصار سمو الخديو فلم يعرف منهم إلا ابو شادي بك ومحرر جريدته الشربتلي واللواء والجوائب ، وقد استغاث بعلماء الاقطار العربية وملوكها وأمرائها وكل ذي مكانة فيها ، فلم يره أحد منهم أهلاً لان يستجاب له أو يرجع إليه قول .

وقد اجتمع بعد نشر هذا التقرير جماعة من علماء المذاهب الاربعة في الازهر وكتبوا تأييداً للفتوى بنصوص المذاهب الاربعة وكان منهم على ما أذكر الشيخ احمد ابو خطوه والشيخ سعيد الموجي وشيخ رواق الحنابلة ، ولا أذكر أسماء علماء المالكية فيهم ، وسموه (ارشاد الامة الاسلامية ، إلى أقوال الأئمة في الفتوى الترنسالية) وطبع هذا التقرير الاستاذ الشيخ (عبد الحميد حمروش البحر اوي الازهري) ونشره في الاقطار ولعلنا ننشره في ذيل هذا التاريخ . وجاءتنا تأييدات أخرى للفتوى من الشرق والغرب ولا سيما علماء المالكية في تونس والمغرب الأقصى وذلك ان فتوى طمام أهل الكتاب قد بنيت على قول القاضي أبي بكر بن العربي من أشهر علماء المالكية وزعم المعارض ان المالكية لا يعتمدون قول القاضي أبي بكر المذكور وانني أنشر هنا ما كتبه يومئذ ونشرته في الجزء العشرين من مجلد المنار السادس في تأييد الفتوى وهي فتوى في ثلاث مسائل وعبرنا عنها بالفتاوى الثلاث وما نشرته في (ج ٢١) الذي بعد في الرد على الظاهر ، ثم اقني عليه ببعض ما جاءنا من سائر الاقطار ونشر في المنار .

الفتاوى الثمينة

(في لبس قلنسوة أهل الكتاب وأكل ذبائحهم واقتداء الشافعية بالحنفية)

نشرنا ما يأتي تحت هذا العنوان في الجزء ٢٠ من المجلد السادس الصادر في ١٦ شوال سنة ١٣٢١ (٤ يناير سنة ١٩٠٤) وقد جعلنا هذه الفتاوى هنا فتوى واحدة في ٣ مسائل وهذا نص ما نشر :

ذكرنا في الجزء الثامن عشر (أي من ٦) انه شاع ان بعض علماء مصر أفتى رجلا ترنساليا بجواز لبس القلنسوة التي يلبسها أهل أوربا وتسمى (البرنيطة) وان بعض الناس أكبر هذه الفتوى جهلا منهم بالدين ، وذكرنا من هداية السنة السنية ماتبين به ان الاسلام لم يقيد أهله بزي مخصوص لان الزي من العادات التي تختلف باختلاف حاجات الشعوب وأذواقهم وطبائع بلادهم فهو مباح لهم ، فلم يكن من حكمة هذا الدين العام لجميع البشر أن يقيد شعوب الارض كلها بعادة طائفة منهم كأهل الحجاز أو غيرهم ، ولهذا لبس النبي ﷺ من لبوس النصارى والمجوس والمشركين كما ثبت في الاحاديث الصحيحة التي أشرنا الى بعضها في ذلك الجزء ، ولذلك ترى للمسلمين في كل قطر زياً يشاركون فيه غالباً من ليس من دينهم بل أكثر لبوسهم مأخوذ عن النصارى برمته ، ومنه زي العثمانيين الرسمي كما تقدم

ثم بعد كتابة ما أشرنا اليه رأينا في بعض الجرائد ان الذي أفتى بما ذكره هو مفتي الديار المصرية وانه أفتى بفتويين آخرين كما تأ أيضاً موضوع انط الجاهلين الذين لا يعرفون من الدين إلا ما ينسب اليه من العادات والتقاليد الشائعة بين المسلمين في بلادهم خاصة . وقد ذكر في إحدى الجرائد نص الاسئلة التي رفعت إلى المفتي مع أجوبتها ، ويقال ان بعض اصحاب الجرائد اشترى ورقة الفتوى من الترنسالي بمال كثير لظنه أن فيها ما يثبت مخالفة المفتي في ذلك للمشهور من مذهب الحكومة الذي يفتي به الحكومة ، والمعروف عند العامة فيؤاخذ !! وسعى بعد ذلك في نشرها في الجرائد وانبرت إحداها ، للرد عليها أو التنويه بخطأها ، بدعوى

المدافعة عن الدين ولو كان صاحبها يمتقد أن الفتاوى خطأ كلها أو بعضها لكن الواجب عليه أن لا يصرح بأن إماما كبيرا أفتى بها ، لان كثيراً من الناس في مشارق الارض ومغاربها يثقون بفتواه ويعملون بها ، ولا يصددهم عن ذلك ان صاحب جريدة سياسية لم يرض بها ، فان كان يرى ان المستفتي معتقد بصحة الفتوى فكان عليه أن يقنعه بعدم صحتها إن قدر .

أما الاسئلة التي قدمها الترنسفالي المفتي فهي بنصها:

(١) يوجد افراد في هذه البلاد تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد اليهم ، فهل يجوز ذلك أم لا ؟

(٢) ان ذبحهم (أي نصارى الترنسفال) مخالف وذلك لانهم يضربون البقر بالبلط وبعد ذلك يذبحون بغير تسمية ، والغنم يذبحونها بغير تسمية أيضا ، هل يجوز ذلك أم لا ؟

(٣) ان الشافعية يصلون خلف الحنفية بدون تسمية ويصلون خلفهم العيدين ومن المعلوم أن هناك خلافا بين الشافعية والحنفية في فرضية التسمية وفي تكبيرات العيدين ، فهل تجوز صلاة كل خلف الآخر أم لا ؟

هذا نص الاسئلة كما نشرتها الجرائد ، فأما المسئلة الاولى فقد علمت ما فيها^(١) وأما الثانية فظاهر السؤال انه عن جواز فعلهم وليس من شأن المسلم أن يبحث عن افعال غير المسلمين في نفسها فلا بد أن يكون المراد الاستفهام عن جواز أكل المسلم من تلك الذبائح ، وقد أفتى المفتي بالجواز واستدل عليه بالآية وهو موافق في ذلك للجماهير من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، كما ستعلم ذلك بنصوصه . وأما المسئلة الثالثة ففتواه فيها بالجواز موافق لعمل سلف الامة الصالح بلا استثناء وانما استنكرها الجاهلون لان بعض الفقهاء من الحنفية والشافعية حكى في ذلك خلافا مبذيا على استنباطاتهم المعروفة الناشئة عن التعصب للمذاهب الذي يفرق بين المسلمين ويجعلهم شيعة كل شيعة تبطل عبادة الأخرى ، وكأنهم يرون أن يكون لكل أهل مذهب مساجد خاصة بهم كالنصارى

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف
كان الامام احمد يرى الوضوء من الفصد والحجامة والرعاف فليل له فان كان
الامام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه ؟ فقال كيف لأصلي خلف
الامام مالك وسعيد بن المسيب ؟ هكذا كان السلف الصالحون ، حتى جاء الخلف
المتعصبون المفرقون ، ولكن سورة التعصب للذاهب قد سكنت في هذا العصر
لذلك لا يرى المفسدون وجهاً للفظ في هذا الجواب

﴿ طعام أهل الكتاب ﴾

وأما مسألة ذبيحة أهل الكتاب فهي التي أكرت اللفظ فيها الجرائد
السياسية ، والسؤال ناطق بأن أهل تلك البلاد (الترسقال) يذبحون البقر بعد
ضربها بالبلطة ولكن موضع المخالفة لبعض المسلمين انهم لا يذكرون اسم الله عليها
والمفتي أقي بالآخذ بنص آية « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » فقد قال
الله هذا بعد آية تحريم الميتة وأحل طعامهم وهو يعلم ما يقولون عند الذبح ويعلم
ما يعتقدون بعزير والمسيح .

واننا ننقل بعض كلام أئمة السلف من الصحابة والتابعين في ذلك ثم نأتي
بفقهاء الدين في تحريم الميتة وما أهل به لغير الله فنقول :

جاء في تفسير الآية من كتاب (فتح البيان ، في فهم مقاصد القرآن) مانصه
« والحاصل ان حل الذبيحة تابع لحل المذابح على التفصيل المقرر في الفروع .
والطعام اسم لما يؤكل ، ومنه الذبائح وذهب أكثر أهل العلم الى تخصيصه هنا بالذبائح
ورجحه الخازن . وفي هذه الآية دلائل على ان جميع طعام أهل الكتاب من اللحم
وغيره حلال عند المسلمين وان كانوا لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم وتكون هذه
الآية مخصصة لعموم قوله (ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وظهر هذا ان
ذبائح أهل الكتاب حلال ، وان ذكر اليهودي على ذبيحته اسم عزير وذكر النصراني
على ذبيحته اسم المسيح ، واليه ذهب أبو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس
والزهري وربيعه والشعبي ومكحول . وقال علي وعائشة وابن عمر اذا سمعت الكتابي

يسمى غير الله فلا تأكل. وهو قول طاوس والحن وتمسكوا بقوله تعالى (ولانا كلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ويدل عليه ايضاً قوله (وما اهل به لغير الله) وقال مالك انه يكره ولا يحرم، ومثل الشعبي وعطاء عنه فقالا: يحل فان الله قد احل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون: فهذا الخلاف اذا علمنا ان اهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله. وأما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبري وابن كثير الاجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التي أهدتها اليه اليهودية وهو في الصحيح وكذلك جراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خير وعلم بذلك النبي ﷺ وهو في الصحيح أيضاً وغير ذلك

ثم ذكر أهل الكتاب من هم واستثناء علي (رض) بني تغلب منهم لانهم من العرب الذين لم يأخذوا من النصرانية إلا شرب الخمر، وذكر الخلاف في المجوس ونقل بعد ذلك عن القرطبي انه قال: جمهور الامة ان ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو غيرهم وكذلك اليهود. وفي تفسير ابن جرير نحو ما تقدم ومنه روايات عن الصحابة بحل ما ذبحه النصارى للكنائس عملاً بعموم الآية. فعلم من هذه النقول ان ذبائح أهل الكتاب حلال عند جماهير المسلمين وإن لم يكن ذبحها على الطريقة الاسلامية، بل وإن كانت على خلاف الطريقة الاسلامية عملاً باطلاق الآية الكريمة التي هي آخر ما ورد في الاكل نزولاً، وبذلك استدلل مفتي الديار المصرية وقال في نصارى الترنسفال «انهم من أشد النصارى تعصباً في دينهم وتمسكاً بكتبهم - ثم قل «ومجيء الآية الكريمة (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) من بعد آية تحريم الميتة (وما أهل لغير الله به) بمنزلة دفع مايتوهم من تحريم طعام أهل الكتاب لانهم يعتقدون بالوهية عيسى وكانوا كذلك كافة في عهده عاين الصلاة والسلام إلا من أسلم منهم. ولفظ أهل الكتاب مطلق لا يصح أن يحمل على هذا القليل النادر، فإذا تكون الآية كالصرح في حل طعامهم مطلقاً كما كانوا يعتقدونها حلالاً في دينهم دفعاً للخرج في معاشرتهم ومعاملتهم» اه وهو موافق للنقول التي قال بها جماهير الائمة كما تقدم

(القه في تحريم الميتة وكيفية التذكية)

« قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ — فَإِنَّهُ رِجْسٌ — أَوْ فِسْقًا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ »

والحق في آية المائدة بالميتة ما في حكمها مما مات بغير قصد التذكية وهو المنخقة بدخول رأسها بين عودين أو في حبل ونحو ذلك، والموقوذة وهي التي ضربت بعصا أو حجر غير محدد لا بقصد الذبح حتى انحللت قوتها وماتت، والمتردة من شاهق، والنطيحة أي التي تموت بالمناطحة، وما أكل السبع، قال تعالى بعد ذكر هذه الأنواع (إلا ما ذكيتم) أي ما أدركتم فيه حياة فذكيتموه بالقصد ثم قال (وما ذبح على النصب) وهي أحجار كانوا يذبحون عليها للأصنام

أما ما أهل لغير الله به فهو أشد المحرمات تحريماً لأن علة تحريمه تتعلق بمحفظ جوهر الإيمان لأن ذكر اسم غير الله مما يعتقد على الذبيحة ضرب من الوثنية وعمل المشركين. وأما الميتة فقد قيل إن علة تحريمها إن احتباس الدم فيها يجعل أكلها ضاراً، وهو تعليل ينافي إطلاقه علم الطب كما ينافيه الكتاب والسنة الصحيحة في الأذن بأكل الصيد تصيده الجوارح فيموت من غير تذكية، وكذلك صيد اليد بشرطه قال تعالى (وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ففكوا مما أمسكن عليكم) أي ما أحضره الكلب ونحوه لصاحبه ولم يأكل منه

روى أحمد والبخاري ومسلم من حديث ندي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال «إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليك إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإني أخاف إن يكون إنما أمسك على نفسه» وفي رواية لهم أن عدياً قال قات: وإن قتلتني؟ قال «وإن قتلتني ما لم يشر بها كلب ليس بها» قلت فإني أرمي بالمرض الصيد فاصيد؟ قال «إذا رميت بالمرض فخرق فكاه، وإن أصابه بمرضه فلا تأكله» وقد اختلف في تفسير المرض فقيل هو سهم لا ينصل له ولا

ريش ، وقيل هو خشبة ثقيلة في آخرها عصا محدد رأسها . وقيل : هو عصا في طرفها حديدة وكأنه كان يطلق على هذه الاشياء وكانوا يرمون الصيد بها ، والمراد بالخزق الخدش فإذا جرحمت هذه العصا الصيد فمات حل أكله . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة والحكم مجمع عليه إلا أن أحمد وإسحاق منعوا الصيد بالكلب الأسود البهيم . وفي رواية من حديث عدي بن حاتم متفق عليها أيضاً أنه قل عليه الصلاة والسلام « إذا أرسلت كلبك فاذا ذكر اسم الله فأن أمسك عليك فادركته حياً فاذبجه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فسكه فان أخذ الكلب ذكاة » ومذهب الشافعي أنه إذا أكل منه بعد احضاره يحل

وروى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث أبي ثعلبة الخشني قال « إذا رميت سهمك فغاب ثلاثة أيام وأدركته فكله مالم يمتن » وروى البخاري والنسائي وابن ماجه من حديث عائشة أن قوما قالوا يا رسول الله : ان قوما ياتوننا باللحم لا ندري ذكر اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا عليه آثم وكاوا » وكانوا حديثي عهد بالكفر . وروى أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عدي بن حاتم قال : قلت يا رسول الله انا نصيد الصيد فلا نجد سكيناً إلا الظرار وشقة العصا فقال ﷺ « أمر الدم بما شئت » الظرار جمع ظر بالكسر وظرار ، وهو الحجر المدور المحدد (أمر) من أمار الشيء ، ومار إذا جرى أو من مرى الضرع إذا مسح لهيدر فعلم من مجموع الأحاديث أن الصيد يحل وإن مات ولم يذبح وإن التسمية مستحبة غير واجبة ولا شرط للذبح وعليه ابن عباس وأبو هريرة والشافعي ، وإن اراقه الدم بأي شيء جائز ، وإن أخذ الكلب للصيد ذكاة شرعية ، وهو يدل على أن ما قالوه في تعليل تحريم الميتة غير صحيح وعلى أن الذبح المعروف الآن وهو قطع الحلقوم والمريء ليس من الأمور التي تعبدنا بها في الذبح بحيث لا نصح الذكاة بدونه مطلقاً ، بل الذكاة الشرعية على أنواع (منها) الذبح المعروف وهو لاغزم ونحوه من الحيوان الصغير (ومنها) النحر وهو الابل والخيل والبقر جاءت السنة بذلك في الجميع (ومنها) الصيد كما علمت (ومنها) أن الجبن يوجد في بطن أمه ميتة فيؤكل تبعاً لها إذا ذكيت بنوع من أنواع التذكية الصحيحة (ومنها) المقر والجرح

روى الامام احمد. والبخاري ومسلم وابوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث رافع بن خديج قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فندب بعير من ابل القوم ولم يكن معهم خيل فرماه رجل بسهم فخبسه فقال رسول الله ﷺ « ان لهذه البهائم اوابدا كأوابد الوحوش، فما فعل منها هذا فافعلوا به هكذا » والجمهور على ان الرمي تذكية له خلافا لمالك .

وروى من عدا الشيخين من هؤلاء عن ابي العشاء (بضم ففتح واسمه عطارد) عن ابيه قال قلت يا رسول الله : أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللبة؟ قال « لو طمنت في فخذها لأجزأك » وقد حمل ابو داود هذا على المتردية والنافرة والمتوحشة، وأخذ بهذا الشافعية وكثير من الفقهاء، ولكن السؤال يدل على الاطلاق وإن كان في سند الحديث الاخير مقال

فعلم من هذه الاحاديث الصحيحة أن التذكية الشرعية هي ما كانت بقصد من الانسان إلى امانة الحيوان لا كاه . فإن باشر ذلك بنفسه فله أن يفعله بكل محدود جراح وان كان حجراً إلا ان جاء في حديث النهي عن التذكية بالسن والظفر فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن الاربعة من حديث رافع بن خديج قال : قلت يا رسول الله انا نلتقي العدو غداً ونيس معنا مدى (جمع مدية وهي السكين) فقال النبي ﷺ « كل ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ما لم يكن سناً أو ظفراً : وسأحدثكم عن ذلك (أي عن سبب استثناء السن والظفر) أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة » وقد اختلف في هذه الجملة هل هي من جملة المرفوع أو مدرجة ، ولراجع انها مدرجة لتعليل النهي . ولذلك لم يرض جميع العلماء هذا التعليل ، بل قل بعضهم ان علة النهي هي ان في الذبح بالسن والظفر تعذيباً للحيوان ، وقيل غير ذلك . وكما تصح التذكية بكل آلة جارحة نصح بأية كيفية ممكنة ، كما رأيت في الاذن بأن كل ما خزقه للمراض ، ومن الاذن بالطعن في الفخذ . والبلطة التي جاء ذكرها في سؤال الترنسفي لا تقل عن هذه المحددات إنهاراً للدم وعقراً للحيوان ، على انه قل انهم يعقرون البقر أو يضربونه بها ثم يذبحونه ، وظاهر ان الذبح قبل الموت فاذا فرضنا أن الضرب بالباطة وقذ (وهو

ليس بوقد لانها آلة محددة ولان الفرب بها يقصد به التذكية للاكل لا الهلاك) فهو داخل فيما استثنى الله تعالى بقوله (إلا ما ذكيتهم) فانهم يذبحونها كما قال السائل فان مكان الغيرة على دين أهل الترنسفال أن يأكلوا الموقودة ممن لا يغار على دين نفسه فهو يفتي بغير علم ...

نم ان هذه الاحكام كلها خاصة بالمسلمين ، وأما أهل الكتاب فغير مكلفين بها عملا ، لان الذين يقولون من العلماء : انهم مكلفون بفروع الشريعة كالشافعية يريدون بذلك انهم يعذبون على تركها في الآخرة عذابا زائداً على عذاب ترك الايمان ، لا انهم يطالبون بها في الدنيا ، فالمسلمون متفقون إذاً على أنهم غير مطالبين بهذه الاحكام ، وطعامهم مع هذا حلال بنص الكتاب كيفما كان ، إلا ما حرم لذاته عندنا وعندهم كلحم الخنزير إذا أكلوه . وقد علمت ان جماهير أئمة السلف والخلف أباحوا ذبائحهم وان لم يذكروا اسم الله عليها ، بل وان ذكروا اسم غيره عملاً بعموم الآية التي اعتبروها مخصصة للأمر بالتسمية وملاحظة لقاعدة عدم مطالبتهم بفروع الشريعة . وعلمت أيضاً أن ما أهل به لغير الله هو أشد المحرمات لانه من أعمال الشرك ، وأنه مع ذلك قد أحل أكله أكثر المسلمين من طعام أهل الكتاب ، فلأن يحلوا ما ذكاه أهل الكتاب على غير طريقة التذكية عند المسلمين أولى

فقد رأيت من الاحاديث الصحيحة التساهل في أمر التذكية وكثرة أنواعها حتى يكاد يتمذر أن توجد طريقة للتذكية لاتشملها هذه الاحاديث

ان سلف الامة الصالح من الصحابة والتابعين اعتبروا كل من ينسب إلى اليهودية والنصرانية من أهل الكتاب الذين يحل ذبائحهم سواء تمسكوا بدينهم أم لا ، إلا ما نقل عن علي كرم الله وجهه من استثناء بني تغلب من متصرة العرب معاملة ذلك بقوله : انهم لم يأخذوا عن النصارى إلا شرب الخمر ، واكتفى الجماهير بنسبتهم إلى النصارى . ومن هنا تورع بعض أئمة المالكية كالقاضي أبي بكر بن العربي واشترط في حل ذبائح النصارى أن يأكل منه قسيسهم وعامتهم ، فلم يكتف بعمل من ينتسب اليهم دون علماء دينهم ورؤسائه ، وجرى على هذا التورع مفتي

الديار المصرية في فتواه لآثرانسفالي فقال مانصه كما نشر في الجرائد
« وأما الذبائح فلذي أراه أن يأخذ المسلمون في تلك الاطراف بنص كتاب
الله تعالى في قوله (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) وان يعولوا على ما قاله
الامام الجليل ابوبكر بن العربي المالكي من ان المدار على أن يكون ما يذبح مأكول
أهل الكتاب قسيسهم وعامتهم ويمد طعاما لهم كافه »

ثم أوضح هذا بما نقلنا بعضه من قبل . وقد تقدم ان القرطبي قال : جمهور
الامة على ان ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو من غيرهم .
ومن صرح بحل ذبيحة بني تغلب سعيد بن المسيب والحسن البصري وهما أعلم
أئمة التابعين وأورعهم ، فلمل المفتي زاد في الورع عليهما تأثراً بقول المالكية الذين
تأق مذهبهم أول اشتغاله بالعلم ، وان كان لا يعمل الآن إلا بقوة الدليل ، أو أراد
موافقة الاجماع في فتواه من حيث العمل بها ، لا من حيث اشتراط ما قاله ابن العربي
فان الجماهير لا يشترطونه كما علمت

﴿ نص فتوى القاضي أبي بكر بن العربي ﴾

قل في تفسير آية (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب
حل لكم) من كتابه (أحكام القرآن) مانصه

« هذا دليل قاطع على أن الصيد وطعام الذين أوتوا الكتاب من الطيبات
التي أباحها الله وهو الحلال المطلق ، وانما كرده الله تعالى ليرفع الشكوك وبزيل
الاعتراضات عن الخواطر الفاسدة التي توجب الاعتراضات ومحوج إلى تطويل
القول . ولقد سئلت عن النصراني يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها ، هل تؤكل
معه ؟ أو تؤخذ منه طعاما ؟ - وهي المسألة الثامنة - فقلت تؤكل لانها طعامه
وطعام أحباره ورهبانه ، وان لم تكن هذه ذكاة عندنا ولكن الله أباح لنا طعامهم
مطلقا ، وكل ما يروونه في دينهم فانه حلال لنا إلا ما كذبهم الله فيه . ولقد قال
علمائنا : انهم يعطوننا نساءهم أزواجا فيحل لنا وطؤهن فكيف لنا كل ذبائحهم
والاكل دون الوطء في الحل والحرمه » اهـ

وقد استنكر هذه الفتوى بعض الطلاب الذين لا يعرفون من الاسلام إلا ما يرون عليه قومهم من العادات الدينية فسأل عنها أبا عبد الله الحفار أحد علماء المالكية فأجاب بما نصه :

« لا إشكال فيه (أي قول ابن العربي) عند التأمل لان الله أباح لما أكل طعامهم الذي يستحلونه في دينهم على الوجه الذي أبيح لهم من ذكاة فيما شرعت فيه الذكاة على الوجه الذي شرعت . ولا يشترط أن تكون ذكائهم موافقة لذكائنا في ذلك الحيوان المذكور ولا يستثنى من ذلك إلا ما حرم الله سبحانه علينا بالخصوص كالخنزير و كالميتة التي لم تقتل بقصد الاكل ، وأما ما لم يحرم علينا على الخصوص فهو مباح كسائر أطعمتهم ، وكل ما يفتقر إلى الذكاة من الحيوانات فإذا كان على مقتضى دينهم حل لنا أكله ، ولا يشترط في ذلك أن تكون ذكائهم موافقة لذكائنا ، وذلك رخصة من الله وتيسير علينا . وإذا كانت الذكاة تختلف في شريعتنا - فتكون ذبحاً في بعض الحيوانات ، ونحرّاً في بعض ، وعقراً في بعض ، وقطع عضو كرأس وشبهه كما هو ذكاة الجراد ، ووضعاً في ماء حار كذلك كاللزون - فإذا كان هذا الخلاف عندنا بالنسبة إلى الحيوانات فكذلك قد يكون شرع في غير ملتنا سل عنق الحيوان على وجه الذكاة ، فإذا أجاز الكتابي ذلك أكلنا طعامه كما أذن لنا ربنا سبحانه ، ولا يلزمنا أن نبحث عن شريعتهم في ذلك ، بل إذا رأينا أهل دينهم يستحلون ذلك أكلنا كما قال القاضي أبو بكر لأنها طعام أحبارهم ورهبانهم

« وإنما وقع الاستشكال في هذه المسئلة لان سل عنق الحيوان عندنا لا يستباح به أكل الحيوان بل يصير ميتة ، فصارت الطباع نافرة عن الحيوان المفعول به ذلك فحين أباح القاضي ذلك من طعام أهل الكتاب وقع استشكله ولا إشكال فيه على ما قررته . وعلى الحمل الذي ذكرته حمله بعض أئمتنا المتأخرين المحققين » اهـ ولم يذكر الحفار بقية أنواع التذكية الشرعية من أخذ الكلاب وغيرها من الجوارح المأمورة للصيد وإتيانها به ميتة ، ومن الرمي بالسهم والصيد بالمعراض وما ذكرناه كاف

﴿ كلام الشيخ محمد بيرم في مسألة الخنق ﴾

ذكر الفقيه الحنفي الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه (صفوة الاعتبار) مبحثاً طويلاً في ذبائح أوربا ، ونقل عن أهل مذهبه أن ذبائح أهل الكتاب حلال مطلقاً. وجاء بتفصيل في أنواع المأكول في أوربا ثم قال مانصه :

« وأما مسألة الخنق فإن كان لمجرد شك فلا تأثير له كما تقدم ، وإن كان لتحقيق ، فلم أر حكم المسألة مصرحاً به عندنا وقياسها على تحقق تسمية غير الله أنها محرمة عند الحنفية ، وأما عند من يرى الحل في مسألة التسمية كما هو مذهب جمع عظيم من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين فالقياس عليها يفيد الحلية حيث خصصوا بآية (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) آية (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وآية (وما أهل لغير الله به) وكذلك تكون مخصصة لآية المنخنة ويكون حكم الآيتين خاصاً بفعل المسلمين ، والاباحة عامة في طعام أهل الكتاب ، إذ لا فرق بين ما أهل به لغير الله وما خنق ، فإذا أبيع الأول فيما يفعله أهل الكتاب كذلك الثاني وقد كنت رأيت رسالة لأحد أفاضل المالكية نص فيها على الحل وجلب النصوص من مذهبه بما يحتاج به الصدر ، سيما إذا كان عمل الخنق عندهم من قبيل الذكاة ، كما أخبر كثير من علماءهم ، وإن المقصود التوصل إلى قتل الحيوان بأسهل قتلة للتوصل إلى أكله بدون فرق بين طاهر ونجس ، مستندين في ذلك على قول لا نجيل على زعمهم . فلا مسرية في الحلية على هاته المذاهب

فإن قلت : كيف يسوغ تقايد الحنفي لغير مذهبه ؟ قلت : أما إن كان المقلد من أهل النظر وقد الحنفي عن ترجيح برهان فهذا ربما يقال إنه لا يسوغ له ذلك (أي إلا أن يظهر له ترجيح دليل الحل ثانياً) وأما إذا كان من أهل التقليد البحت - كما هو في أهل زماننا - فقد نصوا على أن جميع الأئمة بالنسبة إليه سواء ، والعامي لا مذهب له وإنما مذهبه مذهب مفتيه ، وقوله : أنا حنفي أو مالكي : كقول الجاهل : أنا نحوي : لا يحصل له منه سوى مجرد الاسم ، فبأي العلماء اقتدى فهو ناج . على أن الكلام وراء ذلك . فقد نصوا على الجواز والوقوع بالفعل في تقليد المجتهد

لغيره . والكلام ببسوط في ذلك في كثير من كتب الفقه ، وقد حرر البحث ابو السعود في شرح الاربعين حديثا النووية وألف عبدالرحيم المسكي في ذلك رسالة فليراجعهما من أواد الوقوف على التفصيل

« فان قيل : قد ذكرت ان الخنزير محرم وإن كان من طعامهم فلماذا لا يجعل مخصصاً بالحلية بهذه الآية - أي آية طعامهم ؟ وإذا جعلت آية تحريمه محكمة غير منسوخة فكذلك تكون المنخنة ؟ ولماذا تقيسها على مسألة التسمية ولا تقيسها على مسألة الخنزير ؟ وأي مرجح لذلك ؟

« فالجواب ان المأكولات منها ما حرم لعينه ومنها ما حرم لغيره ، فالخنزير وما شاكله من الحيوانات محرمة لعينها ، ولهذا تبقى على تحريمها في جميع أطوارها وحالاتها ، وأما متروك التسمية أو ما أهل به لغير الله والمنخنة فان التحريم أتى فيه لعارض وهو ذلك الفعل ، ثم أتى نص آخر عام في طعام أهل الكتاب وأنه حلال ، فأخرج منه محرم العين ضرورة وبالإجماع ايضاً ، وبقي المحرم لغيره وهو مسألتان (احدهما) مسألة التسمية (والثانية) مسألة المنخنة فبقية في محل الشك اتجاذب كل من نصي التحريم والاباحة لهما ، فوجدنا إحداهما - هي مسألة التسمية - وقع الخلاف فيها بين المجتهدين من الصحابة وغيرهم وذهب جمع عظيم منهم الى الاباحة . وبقيت مسألة المنخنة التي يتخذها أهل الكتاب طعاماً لهم مسكوتاً عنها فكان قياسها على مسألة التسمية هو المتعين لاتحاد العلة . وأما قياسها على مسألة الخنزير فهو قياس مع الفارق فلا يصح ، إذ شرط القياس المساواة ، وانما أطلنا الكلام في هذا المجال لانه مهم في هذا الزمان وكلام الناس فيه كثير . والله يؤيد الحق وهو يهدي السبيل » اهـ

﴿ توضيح القول في الموقوذة وادراك ذكاتها ﴾

قال القاضي البيضاوي في تفسير الموقوذة : هي المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت ، من وقفته اذا ضربته : وتبعه في ذلك أبو السعود الحنفي في تفسيره ، وكذلك السيد محمد صديق حسن في تفسيره ففتح البيان . وزاد أن الوقذ هو شدة الضرب حتى يسترخي ويشرف على الموت (قال) وشاة موقوذة ضربت بالخشب ، وهذا هو النصوص في القاموس وشرحه وغيرهما من المعاجم . وفي مجمع بحار الانوار « الوقيد والموقوذ هو

الذي يقتل بغير محدد من عصا وحجر» وقد صرح الامام الرازي بأن الموقوذة في معنى الميتة والمنخنقة قال «فانها ماتت ولم يسئل دمها» وهذا لا خلاف فيه فان الوقذ هو الضرب بغير المحدد ، وقد ذكر في تفسير قوله تعالى (إلا ما ذكيتم) : انه استثناء من جميع ما تقدم (من المنخنقة - الى قوله - وما أكل السبع) وهو قول علي وابن عباس والحسن وقتادة (قال) فعلى هذا انك اذا أدركت ذكاته بان وجدت له عينا تطرف أو ذنبا يتحرك أو رجلا تركض فاذبح فانه حلال فانه لولا بقاء الحياة فيه لما حصلت هذه الاحوال اه بحروفيه

والتعبير بالتذكية يؤيده فان أصلها - كما قال الرازي وغيره - اتمام الشيء ، ومنه الذكاء في الفهم وهو تمامه ، ومثله الذكاء في السن ويقال ذكيت النار أي اتممت اشغالها، كأنه يقول إلا ما اتممت أنتم اماتته بذبح ونحوه .

وقال في فتح البيان في مقاصد القرآن في قوله تعالى (إلا ما ذكيتم) استثناء متصل عند الجمهور وهو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقا وفيه حياة ثم ذكر خلاف غير الجمهور . وقال في ادراك الذكاة : وأما كيفية ادراكها فقال أهل العلم من المفسرين ان أدركت حياته بأن توجد له عين تطرف أو ذنب يتحرك فأكله جائز ، وقيل اذا طرفت عينا أو ركضت برجلها أو تحركت فاذبح فانه حلال . وقال الآلوسی في تفسيره : أي إلا ما أدركتموه وفيه بقية من حياة يضطرب اضطراب المذبوح وذكيتموه ،

وعن السيدين الباقر والصادق رضي الله عنهما ان أدنى ما تدرك به الذكاة أن يدركه وهو يحرك الاذن أو الذنب أو الجفن وبه قال الحسن وقتادة وإبراهيم وطاوس والضحاك وابن زيد ، وقال بعضهم يشترط الحياة المستقرة وهي التي لا تكون على شرف الزوال وعلامتها على ما قيل أن يضطرب بعد الذبح لا قبله : اه وأطال ابن جرير في رواياته عن الصحابة في تأييد الاول

فعلم بهذا ان ما يضرب بمحدد كالبلطة لا يسمى وقيدا ويدل على ذلك حديث صيد المعراض في الصحيحين وغيرهما «وان أصاب بعرضه فقتل فانه وقيد فلا تأكله» وانه لو كان من الوقيد فان ما يفعله أهل الترسفال من ذبحه واسالة دمه بعد ضربه محلل له كما تقدم

وانما ذكرنا هذه النقول لاننا بعد كتابة ما تقدم وتمثيله للطبع رأينا الجريدة السياسية تدعى ان ما يفعله اهل الترنسفال من الوقذونه لا يحل وإن ذبح وصال دمه. وقد زادت على كلام الترنسفالي قولها «نم يذبحونها تنميا لقتلها فيسيل منها الدم مصفراً دالا على حصول الارتجاج النحي المفسد للدم» النخ والسائل لم يقل ذلك ولو قاله لما كان مانعاً لصحة التذكية وحل الذبيحة، إذ لم يشترط احد من المسلمين أن يسيل الدم احمر او اسود، وإنما اشترطوا علامة تدل على الحياة حتى حركة أصغر الاعضاء كالجفن. وسيلان الدم باي لون من اقوى علامات الحياة، ولكن السياسة إذا تلاعبت بالدين لا تباني بكتاب ولا سنة، ولا تقول إمام ولا مفسر ولا فقيه ولا لغوي، فقد خالفت جميع العلماء في الموقوذة

(الخلاف في التسمية)

خلص لنا مما تقدم أن كتاب الله تعالى أباح لنا طعام أهل الكتاب مطلقاً. لم يشترط في ذلك ان ياخذوا باحكام الاسلام في التذكية، وان اكثر المسلمين من السلف والخلف اخذ بهذا الاطلاق، فأكل النبي وأصحابه من اللحوم التي طبخوها والجبن الذي عملوه، إلا ان الحنفية اشترطوا أن لا يعلم الاكل ان ماعرض له من اللحم قد أهل به لغير الله أو ترك ذكره عليه. وكل ما نقلته الجريدة فهو عن مفسريهم وفقهائهم، وخالفهم في ذلك أكثر العلماء كما تقدم. ونص على ذلك مفتي الحنفية في بغداد الشهاب الالوسي في تفسيره

وقال الطبري في تفسير (ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) الآية « واختلف اهل العلم في هذه الآية هل نسخ من حكمها شيء أم لا فقال بعضهم لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنت به. وعلى هذا قول عامة اهل العلم. وروي عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد قل حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن يزيد عن عكرمة والحسن البصري قالا قال (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين * ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) فسخ واستثنى من ذلك فقال (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم)

«والصواب من القول في ذلك عندنا ان هذه الآية محكمة فيما انزلت لم ينسخ منها شيء، وان طعام أهل الكتاب حلال وذبايحهم ذكية، وذلك مما حرم على المؤمنين أكله بقوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) بمعزل، لان الله انما حرم علينا بهذه الآية البيت وما أهل به للطواغيت . وذبايح أهل الكتاب ذكية سموا عليها أو لم يسموا ، لانهم أهل توحيد وأصحاب كتب لله يدينون بأحكامها، يذبحون بأديانهم كما يذبح المسلم بدينه ، سمي الله على ذبيحته أو لم يسمه إلا أن يتون ترك من ذكر تسميته على ذبيحته ، على الدينونة بالتمظيم أو بعبادة شيء سوى الله فيحرم حينئذ اكل ذبيحته سمي الله أو لم يسم » اهـ

ويعني بالآخر من يترك التسمية بترك الدين السماوي بالمرءة أو للدخول في الوثنية . ويؤيد تخصيصه الآية بالذبح للطواغيت ان الآية مكية ، وآية حل طعام أهل الكتاب مدنية ، وهي من آخر القرآن نزولا . والشافعية يحلون ترك التسمية ولو عمداً ، وقالوا ان النهي مقيد بقوله تعالى (وانه لفسق) وفسر الفسق بقوله (أو فسقا أهل لغير الله به) وهو ما كان يفعله المشركون لطواغيتهم وأهل الكتاب يحرمونه مثلنا . وقد أطل الامام الرازي في ترجيحه (راجع التفسير الكبير) أما إذا لم يعلم الآكل انهم أهلوا بغير الله أو تركوا التسمية فأكله حلال باجماع السلف والخلف كاللحم الذي يباع عادة في بلاد اليهود والنصارى ولم يحضر المسلم ذبحه ومنه اللحم الذي يباع في بلاد الترانسغال . وأما ضرب البقر بالبلعة قبل ذبحه ليضعف فهو لا ينافي التذكية الشرعية عندنا لو فرضنا انهم مطالبون بها وقد علمت أنهم غير مطالبين

(تأييد الفتوى وحققتها وما به الافتاء)

فظهر أن الفتوى مؤيدة بالكتاب والسنة وعمل السلف والخلف وأقوالهم وان خلاف الحنفية فيها لا يتحقق في واقعة الفتوى إذ لا يمكن العلم بأن كل لحم يراه المسلم هناك لم يذكر اسم الله عليه . ولو فرضنا انه تحقق فذهب الجمهور أقوى من مذهبهم لقوة أداته والفتي يجب عليه أن يفتي بما يراه أقوى دليلاً ، وأقوم قبلاً ، وأنفي للخرج باجماع المسلمين من السلف والخلف . وإذا كانت المحاكم الشرعية

تسأل المفتي في مصر عن الصحيح من مذهب أبي حنيفة فليس كل مسلم مكلفاً بهذا المذهب، بل المسلمون مكلفون بكتاب الله وما صح عن رسوله، وعلى العلماء النظر في ذلك والترجيح به بين أقوال العلماء.

وقد نقل عن أبي حنيفة وأصحابه أنهم كانوا يقولون: لا يصح لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعرف دليلنا. وكذلك كان يقول جميع أئمة المسلمين (راجع نصوصهم في مقالات المصلح والمقلد من مجلد المنار الرابع) فلم يبق بعد هذا إلا أن يرجع صاحب تلك الجريدة عن اعتراضه بغير علم، ويعلن ذلك في جريدته ليظهر أنه غير سيء القصد، وغير متلاعب بنصوص الدين عمداً، ومتهجم على تحريم ما أحل الله قصداً، ويثبت أن ما يقوله بعض الناس من أن هذه الجمعية قد انفرد بها صاحب هذه الجريدة الذي ليس من أهل هذا الشأن دون العلماء والفقهاء وسائر الجرائد لفرض سياسي لغيره شخصي له، فهو يتوقع قضاء لبائته منه كما قضاها من غيره.

ونختم الكلام بتذكير المفتي على الشرع بقوله تعالى في سورة النحل بعد حصر المحرمات في الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، إلا المضطر إليه. وهو:

« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ، لِيَتَفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(القول في اجتهاد المفتي وتقليده)

أما اللفظ بان افتاء مفتي الديار المصرية بغير مذهب الحنفية يتضمن دعوى الاجتهاد فيمكن الجواب عنه من وجهين

(أحدهما) ان تقليد أهل النظر الذين يسمون علماء بالمذاهب هو عبارة عن اتباع ما يعتقدون انه الاقوى دليلاً من أقوال الأئمة وقد أشرنا إلى ان مفتي الديار المصرية لهذا المهد تلقى مذهب الامام مالك في أول تحصيله للعلم فيجوز ان

يكون يستند ترجيحه إلى الآن، وإن كان قد تاقى مذهب الحنفية وبرع فيه وعرف صحاحه من غيره فإن لم يكن يرجح جميع مسائله فيجوز أن يكون يستند رجحان بعضها. وقد قال العلماء كافة بأن تقليد بعض الأئمة في بعض المسائل وتقليد آخر في بعضها جائز، وما من عالم شهير إلا وله فتاوى فيها يخالف المذهب الذي ينسب إليه. وفي مقالات المصلح والمقلد بيان ذلك

(والثاني) أنه مجتهد وما كان لمن يفسر القرآن بمثل ما يفسره به ويقوم الحجج منه على بطلان التقليد واستحقاق صاحبه لمقت الله وعذابه أن يكون مقلداً وحسبك من ذلك تفسير الآيات المنشورة في هذا الجزء (١) فراجعوا واعتبر بها إن كنتم من المؤمنين. وأما انكار المقلدين الجاهلين عليه الاجتهاد فلا قيمة له إذ ليس للمقلدين من حجة ولا هم من أهلها فم ينكرون؟ وقد نشرنا ولا نزال ننشر من الدلائل والبراهين على بطلان التقليد في غير التفسير ما فيه متنع لمن لم يختم الله على قلبه وسمعه ويحمل على بصره غشاة. وقد كتب مفتي الديار المصرية في التوحيد والتفسير ما يقصر عنه كل ما كتب فيها مما وصل اليها من كتب الأولين والآخريين وفضل الله ليس محصوراً في زمن معين، ولا رحمة مقيدة بأفراد مخصوصين، بل تسع كل شيء. ولا ينافي ذلك إقناؤه الحكومة والمحاكم بمذهب الحنفية فانهم يسألونه عنه لا عن اجتهاده ومن يسأله عن رأيه يفتيه به.

فإن قيل إن من علماء هذا العصر من بطمن فيه. نقول إن هؤلاء الطاعنين من الجاسدين أو المقلدين الذين أخذوا على أنفسهم تنفيذ من يتبع الكتاب والسنة من غير نظر في أدلته، وقد طمن في الأئمة العظام من قبله من هم في طبقتهم علما واجتهاداً. ولهذا قال ابن عباس (رض) «استمعوا قول القراء ولا تصدقوا بعضهم على بعض فوالذي نفسي بيده لم أشد تغايراً من التيوس في زرونها» رواه ابن عبد البر في كتاب العلم. والمراد بالقراء العلماء وبه عبر في الأحياء، وروى مثل ذلك عن مالك بن دينار باللفظ (المعلماء) وقد ذكرت بعض ما طمن به على الأئمة الأربعة وغيرهم كالبخاري وأضرابه بعض أهل العلم في عصرهم في كتاب (الحكمة الشرعية)

(١) هي قوله تعالى (٢: ١٢١) الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته وما جدها

﴿واقعة تناسب ما تقدم﴾

جاء في ذكر حوادث المحرم سنة ست وثلاثين ومئتين وألف من الجزء الرابع من تاريخ الجبرتي مانصه (ص ٣١٦) :

« وفيه من الحوادث ان الشيخ ابراهيم الشهير بباشا المالكى بالإسكندرية قرر في درس الفقه ان ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة لا يجوز أكلها ، وما ورد من اطلاق الآية فانه قبل أن يغيروا ويبدلوا في كتبهم ، فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغربوه ، ثم تكلموا مع الشيخ ابراهيم المذكور وعارضوه فقال : أنا لم أذكر ذلك بفهمي وعلمي ، وإنما تلقيت ذلك عن الشيخ علي البلي المغربي وهو رجل عالم متورع موثوق بعلمه : ثم انه أرسل الى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع فألف رسالة في خصوص ذلك وأطنب فيها فذكر أقوال المشايخ والخلافات في المذاهب واعتمد قول الامام الطرشي في المنع وعدم الحل ، وحشا الرسالة بالخط على علماء الوقت وحكامه وهي نحو ثلاثة عشر كراسة (كذا) وأرسلها الى الشيخ ابراهيم فقرأها على أهل الثغر فكثير اللفظ والانكار خصوصاً وأهل الوقت أكثرهم مخالفون للملة ، وانتهى الأمر الى الباشا فكتب مرسوماً الى كتبخدا ييك بمصر وتقدم اليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة وأرسل اليه أيضاً بالرسالة المصنفة . فأحضر كتبخدا ييك المشايخ وعرض عليهم الأمر فاطف الشيخ محمد العروسي العبارة وقال : الشيخ علي البلي رجل من العلماء ، تلقى عن مشايخنا ومشايخهم لا ينكر علمه وفضله وهو بمنزل عن خلطة الناس ، إلا انه حاد المزاج وبعقله بعض خلل والاولى أن نجتمع به وننذاكر في غير مجلسكم وننتهي بعد ذلك الأمر اليكم

فاجتمعوا في ثاني يوم وأرسلوا الى الشيخ علي يدعونه للمناظرة ، فأبى عن الحضور وأرسل الجواب مع شخصين من مجاوري المغاربة يقولان انه لا يحضر مع الفوغاء بل يكون في مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ محمد بن الامير بحضرة الشيخ حسن القويسني والشيخ حسن العطار فقط . لان ابن الامير يناقشه ويشن عليه الغارة ، فلما قالا ذلك القول تغير ابن الامير وأرعد وأبرق وتشاتم بعض من بالجلس مع الرسل

وعند ذلك أمروا بحبسهما في بيت الآغا وأمروا الآغا بالذهاب الى بيت الشيخ علي واحضاره بالمجلس ولو قهراً عنه ، فركب الآغا وذهب الى بيت المذكور فوجده قد تغيب فأخرج زوجته ومن معها من البيت وسمر البيت فذهبت الى بيت بعض الجيران ثم كتبوا عرضاً محضراً وذكروا فيه بأن الشيخ علي على خلاف الحق وأبى عن حضور مجلس العلماء والمناظرة معهم في تحقيق المسألة وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق ولو كان على الحق ما اختفى ولا هرب ، والرأي لحضرة الباشا فيه اذا ظهر ، وكذلك في الشيخ ابراهيم باشا الكسندري (كذا) وتمموا العرض وأمضوه بالختوم الكثيرة وأرسلوه الى الباشا ، وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الآغا ورفعوا الختم عن بيت الشيخ علي ورجع أهله اليه ، وحضر الباشا الى مصر في أوائل الشهر ورسم بنفي الشيخ ابراهيم باشا الى بني غازي ولم يظهر الشيخ علي من اختفائه . اهـ

(المنار) هذا ما كان من علماء الازهر في أوائل القرن الماضي وهم شيوخ علماء الازهر الحاضر بن أوشيوخ شيوخهم ، فيجدر بمشيخة الازهر اليوم أن تنتصر للحق الذي انتصرت له من قبل ، واذا كان العروسي شيخ الازهر يقول يومئذ في تلطيف أمر من يحرم ذبايح أهل الكتاب من العلماء إن في عقله خللاً فماذا ينبغي أن يقول شيخ الازهر اليوم في جاهل بالشرع يحرم ذبيحة أهل الكتاب رداً على فتوى مفتي الديار المصرية بالحل المحتج عليها بالقرآن الكريم ؟ واذا كان أمير مصر في القرن الماضي رأى وهو في كمال استقلاله ، وعدم دخول النصارى في أعماله ، ان العالم الذي قال بعدم حل ذبايحهم يستحق النفي من بلاده ، فماذا يرى أمير مصر اليوم في ذلك — وهو أعلم من جده بوجه الحاجة الى محاسبة الامم النصرانية والاخذ بالاقوال الشرعية التي تمنعها بأن ديننا دين مدنية وعمران؟؟ لعل الرئيسان العظيمان يريان ويقولان ان سلفنا اهتموا بتأديب الشيخين اللذين حرما ذبايح النصارى لانهما من العلماء الذين ينخدع العوام بأقوالهم ، وأما المحرم لها اليوم فهو من رجال القوانين ، فلا يلتفت أحد الى قوله في الدين ، وهو رأي صائب ، وان كان النهي عن المنكر من الواجب .

استحسان الاستاذ الامام لما كتب المنار

وفكاهة في عبارته في الاستحسان

لما صدر المنار وقرأ الاستاذ الامام هذا البحث فيه قال لي هذا طيب جداً جداً - وكررها - ولم أسمعه قال هذا في غيره ، بل كانت كلبته المعتادة فيما يعجبه من الكلام « موش بطل » وقد يقول في بعض المقالات « طيبة » وكان ابراهيم بك المويلحي يغيظه ان يقول في مقالاته المونقة « موش بطل » فضرب له مثلاً ينبيء بغيظه منه قال :

لو أن رب العالمين جلس على عرشه يوم القيامة تحف به الملائكة المقربون ، وعن يمين عرشه الانبياء المرسلون ، ومن ورائهم جميع البشر ، ويليهم جميع أنواع المخلوقات من الجن والشياطين والبهائم والوحش والطير ...

نم قيل للشيخ عبده ماتقول في هذا المنظر ؟ لما زاد على قوله « موش بطل » والشيخ لم يكن يقول هذا تهضماً لحق كاتب أو استعلاء على الناس ، وانما هي كلبته المعتادة فيما يعجبه ، فاذا بلغ العجب منه افق الاعجاب زاد عليها ، وكذا إذا سئل بيان رأيه فيما هو محل الاعجاب او تكلم بعض الناس في ذلك ، وسممته يقول مرة في مقال من هذا القبيل « اسلوب رفيع » وقال مرة في نقد للمويلحي لدع به بعض الناس : لو قال هذا في لما نقصت حلاوته في مذاقي ، او ما هذا معناه

﴿ اشتغال الجرائد بمسألة الفتوى ﴾

هذا وانه قد حي بعد نشرنا لهذه المقالة وطيس المقالات في هذه المسألة في الجرائد ومنها مقالة لنا نشرها المقطم في عدد ٨ شوال سنة ١٣٢١ و٦ يناير سنة ١٩٠٤ عنوانها (عبث السياسة بالدين ، وحل طعام أهل الكتاب للمسلمين) عزاه الى بعض العلماء الفضلاء ، وتلتها مقالة فيه لاحد الفضلاء مبنية على المقالة الاولى

(ولا أدري من كتبها) وقد نوهت بتأثيرها مستدلة على ان المسألة سياسية بالجريدة المحدثه (الظاهر) وعززتها بمقالة في ٢٧ شوال عنوانها (علام هذا الشغب؟) بامضاء خدام العلم بالازهر ، وجاء في عدد ١٩ يناير منه ان صاحب جريدة الظاهر رفع قضية على صاحبي جريدة النيل وعلى مطبعة النمدن لتصويرها مسألة اعترضه على فتوى المفتي بصورة هزلية . وفي عدد ٢٣ يناير منه مقالة عنوانها (حكم البرنيطة في دين الاسلام) لأحد طلبة العلم بالازهر . وفي اخباره ان جريدة الراوي « أنشأت مقالة غراء أول أمس عنوانها (حوالى الفتوى) راقى الجمهور ونهت المتطفلين على ما ارتكبوا من الخطأ قال « فنحول اليها أنظار الادباء »

وفي عدد ٢٦ منه (٨ القعدة) مقالة طويلة للمقطم نفسه موضوعها تساؤل الناس : لماذا حاكت النيابة صاحبي الورقة المصورة بتعرضها لفضيلة مفتي الديار المصرية ولم تطلب محاكمتها على تطاولها على مقام الحضرة الفخيمة الخديوية . وفيها نصيحة للمعية وتخطيطها باتخاذ جرائد تدافع عنها .

هذا بعض ما نشر في المقطم في شهر يناير الذي تقرر فيه ونفذ قرار مجلس الاوقاف الاعلى في مسألة استبدال مزرعة الجناب الخديوي المملومة باراضي الاوقاف في الجزيرة

وقد نشر في سائر الجرائد المصرية مقالات كثيرة في تأييد الفتوى وتعظيم المفتي ، وكان المؤيد على الحياد في ذلك ، ولما ظهر عجز ابي شادي ان يبرى لمساعدته مصطفى كامل ، وظهر تقرير ابي شادي في ٢٩ شوال سنة ١٣٢١

وانني لأحب أن أشرح في هذا التاريخ خطة مصطفى كامل عفا الله عنه في هذه المسألة التي كان بطبعه المدني يستحسنها لانه كان يسافر في كل سنة الى أوربة فيلبس فيها البرنيطة وبأكل من ذبائح الافرنج في كل يوم ، وكذلك مولاه الخديو فان له مزية صار بها من رجال التاريخ المصري ، وحسبي ما رددت به عليه كغيره في المنار في هذه المسألة وفي غيرها كمسألة الدفاع عن اليهود
نم كتبت في تأييد الفتوى والرد على الجاهلين المعترضين ما يأتي :

(مسألة ذبائح أهل الكتاب)

(تأييد الفتوى بالاجماع)

نشرنا تحت هذا العنوان ما يأتي في المنار الذي صدر في غرة ذي القعدة سنة ١٣٢١ (١٩ يناير سنة ١٩٠٤) وهو رد على الجريدة المحدث (الظاهر) وتأييد الحدث (مصطفى كامل لها)

واقعة الفتوى ان النصارى في قطر من الاقطار (هو الترانسفال) يضربون البقر قبل ذبحه بآلة محددة تسمى البلطة ، ثم يذبحونه ذبحاً ، وانهم في زعم السائل لا يسمون الله على ذبائحهم

(تحرير الجواب)

وتحرير الجواب من حيث صحة الذبح ان ضرب الحيوان قبل ذبحه بمحدد أو غير محدد لا ينافي كون ذبحه بعد ذلك من التذكية التي يحل بها أكله فهو حلال باجماع المسلمين من السلف والخلف ، والمتبادر من تصريح السائل بذبح البقر هو أنهم يذبحونه وفيه حياة إذ الميت لا يذبح . والمتبادر ان هذه الحياة هي التي يسميها بعض الفقهاء من الخلف الحياة المستقرة التي من علامتها انفجار الدم والحركة العنيفة إذ لو ذكي الحيوان وليس فيه إلا الرمق لما اعتد العامي (كالمستفتي في الواقعة) بذبحه بل لما سماه ذبحاً فالحياة هي الاصل ولم يرد في السؤال ما يدل على زوالها أو بقاء الرمق فيها فقط فيقال انها حلال على رأي الجمهور والاكثر كما قال المفسرون (ونقلنا ذلك عنهم في الجزء الماضي) لا بالاجماع كما تدعي

وما قلناه من إطلاق السؤال انهم يذبحون بعد الضرب يقتضي أن يكون المذبوح حلالاً بالاجماع نعرضه على علماء الاسلام في مصر وفي سائر الاقطار ونقول انه لا يمكن لأحد منهم رده ، ومن يزعم ان أئمة المسلمين اختلفوا في حل الحيوان يذبح بعد ضربه بأي شيء ، فليكتب اليانا بالبيان المنشور قوله ونحن على يقين من أن كل عالم اسلامي يعلم انه لا خلاف في ذلك وإنما الخلاف فيما إذا ثبت ان الحيوان ذبح بعد عروض سبب يحل عليه الهلاك وليس فيه حياة مستقرة فقال بعض الفقهاء

لا يحل قول أكثرهم أنه يحل وتقدم في الجزء الماضي قول المفسرين في ذلك ،
وعلاوة الحياة المستقرة انفجار الدم والحركة العنيفة كما قاله فقهاء الشافعية وقد علمت
مما نقلنا عن الصحابة وغيرهم في الجزء الماضي أنه يكفي في الموقوذة ونحوها علامة تدل
على الرمي من الحياة كحركة الجفن أو الذنب وأنه المتبادر من قوله تعالى (إلا ما ذكيتم)

وأما مسألة التسمية في الواقعة فنقول: أنه لا سبيل إلى الحكم على أهل قطر من
الاقطار بأنهم لا يذكرون الله على ذبائحهم إلا إذا كان دينهم يمنهم من ذلك .
والمستول عنهم في واقعة الفتوى ليسوا كذلك لأنهم نصارى ولو أحل الله ذبائحهم
وهم كذلك لما كان الاختلاف في اشتراط تسميتهم وعدمها وجه من الوجوه .
وقد نصوا على أن ذبيحة الكتابي - لم يعلم أذكر اسم الله عليها أم غيره أم لم يذكر
شيئاً - هي حلال بالاجماع ، وذلك هو الواقع في مسألة التنا ، إذ العلم بعدم ذكر اسم الله
على كل ذبيحة في قطر الترسغال أو في أي بلد من البلاد متعذر ، وإنما يتيسر العلم
بذلك في ذبيحة معينة وليس هو واقعة الفتوى . فالمستول عنه هو في الواقع ونفس
الامر من المجهول وهو حلال بالاجماع .

وانما نعرض هذا أيضاً على علماء الاسلام في مصر وفي سائر الاقطار الاسلامية
ونقول أنه لا يمكن رده ولا نقضه . ومن زعم خلاف ذلك فعليه بالبيان . ومن صرح
بالاجماع في المسألة الطبري وابن كثير كما تقدم في الجزء الماضي

وأما محل الخلاف في مسألة التسمية من الكتابي وعدمها فهو إذا علم المسلم
في ذبيحة معينة أن الكتابي لم يذكر اسم الله عليها أو ذكر اسم غيره ، وقد رأيت
النقل من الجزء الماضي عن المفسرين في أن ممن قال بالحل من الصحابة (رض)
أبا الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس ، ومن التابعين الزهري وربيعة (شيخ
الامام مالك) والشعبي ومكحول وعطاء ، وأن الشعبي وعطاء سئلا عن اليهودي
يذكر اسم عزيز والنصراني يذكر اسم المسيح فقالا : ان الله قد أحل ذبائحهم
وهو يعلم ما يقولون . ورأيت أن علياً وابن عمر وعائشة القائلين بالمنع إنما قالوا :
إذا سمعت الكتابي يذكر اسم غير الله فلا تأكل ، وهذه العبارة على كونها تشترط

السمع ليست نصا في التحريم إذ يحتمل أن يكون النهي للتنزيه . وإذا سلمنا انه للتحريم فلنا أن نقول: ان المسلم في الترنسفال يسهل عليه أن يأكل من اللحم الذي يجده في السوق لا نتفاء الشرط ، وله أن يتورع في الذبيحة التي يسمع النصراني يذكر عليها اسم غير الله فلا يأكل منها ليوافق الاجماع في الحالين ، ولا تنس أن السائل لم يقل انهم يذكرون اسم غير الله . فعلنا من هذا ان الفتوى في واقعها ليست مؤيدة برأي القاضي أبي بكر بن العربي فقط بل هي مؤيدة بالاجماع . ومن الجهل العام أن يستطيع رجل جاهل بالشرع ، معروف بسوء القصد ، تشكيك بعض الناس في حلها

فان قيل : لماذا استدل المفتي بقول القاضي أبي بكر بن العربي من أئمة المالكية ولم يستدل بالاجماع ، إذا كانت المسئلة اجماعية كما قلت ؟

والجواب أن المفتي لم يكن في جوابه في مقام المناظرة والاحتجاج ، وانما سئل عن حكم الله فاستدل بكتاب الله لا بقول ابن العربي ، وبعد الاستدلال بالنص قال « وأرى أن يعولوا على ما قاله فلان في تفسير الآية » والغرض من ذلك الارشاد إلى الاخذ بالاحتياط في شبه مسئلة اختلف فيها الصحابة (رض) وهي ذبيحة نصارى بني تغلب قال علي كرم الله وجهه : لا تحل لانهم لم يأخذوا من النصرانية إلا شرب الخمر ، وقال غيره منهم : تحل لانهم انتموا إلى النصرانية ولا يجب علينا البحث عن أعمالهم . فأراد المفتي أن يأخذ أهل الترنسفال بالاحتياط فلا يأكلوا إلا من الذبيحة التي يأكل منها القسيسون مع العامة ، وإلى ان الدين يسر يبيح أكثر مما في واقعة السؤال ، ولم يكن قول ابن العربي هو العمدة له في الاستدلال . وما ذكرناه في مقالة الجزء الماضي يتضمن كل ما لخصناه هنا ، ولكن الكلام هناك متشعب والنتائج فيه ممزوجة بالمقدمات والدلائل والنقول ، فاختصرناه هنا ليعقله كل قارئ . والمراد بالاجماع بشرطه : إجماع أهل السنة المحالين لذبايح أهل الكتاب دون الشيعة

﴿ تهافت المرجف في الفتوى ﴾

ما قام أحد بدعوة إلا ووجد من لبي دعوته حتى الذين ادعوا الألوهية من دون الله. وشبيه الشكل منجذب اليه . وقد بدأ بالارجاف في الفتوى رجل من محرري الجرائد الساقطة^(١) عرف بالطمع في المفتي من عدة سنين حتى زعم انه ينكر وجود الله أو توحيده ، وحوكم في ذلك وفي مثله وحكم عليه غير مرة وسجن . ولما دفع أو اندفع صاحب الجريدة المحدثه إلى الارجاف استخدمه ، فصار يكتب له باسمه وينقل بعض ما يكتبه له في جريدته التي صرح فيها بانه المحرر لها ، فصارا اثنين في (الظاهر) ولكنهما واحد في الحقيقة . ثم علمنا الآن ان صاحب (الحماره) الذي حوكم قبل الآن في طعنه بالمفتي وسجن ، وحدث السياسة^(٢) المشهور بالطمع في المفتي أيضاً قد انضم اليه أو اليهما فحدث السياسة رابعهم . فهؤلاء حماة الاسلام اليوم الذين يتبجحون بنصره والمدافعة عنه بتحريم ذبائح أهل الترانسفال وهي حلال باجماع أهل السنة والجماعة كما تقدم ، بل الحقيقة ان المعارض هو لاول وحده والآخرا ان يصدقانه فقط

أما منفذ الارجاف فقد كان في أول الامر تسميته ذبائحهم موقوفة وقد أكثر اللغو في ذلك . ولما نشرت الجرائد المنتشرة المقالات المبينة أن حقيقة الموقوفة هي ما ضربت بغير محدد حتى ماتت قبل أن تذبج وفيها حياة ، خرق له منفذاً ثانياً وهو ان أحبار اليهود وقسوس النصارى لا يعتدون بذبيحة أهل الترانسفال . وقد أخذ بمخناقه هذا المنفذ فخلط فيه أشد مما خلط في الاول إذ كان ينقل من العبارة فيها بعضها على حد « لا تقربوا الصلاة » يقتصر عليها من يريد تحريم الصلاة . واذا صح أن قسوس النصارى لا يعتدون بتلك الذبيحة ولا يجيزون أكلها فالفتوى صريحة في تحريمها إذ فيها ، اشتراط أن يأكل منها قسيسهم وعامتهم . ويتفقون على انها حلال في دينهم . فانظر كيف يناقض المرجف نفسه فيؤيد الفتوى من حيث لا يفهم ، ثم يفندها من حيث لا يعلم

(١) هو الشيخ محمد الشربتلي صاحب جريدة النهج القويم الأسبوعية (٢) . مصطفى كامل

نم خرق له منفذاً ثالثاً وهو الطعن بان العربي لان المفتي ذكره في فتواه وأيد رأيه في الاخذ بالآية الشريفة مع اعتبار ذلك الشرط المذكور آنفاً . أما طريق هذا الطعن فهو أن بعض الفقهاء بحث في فتوى لابن العربي بحل ماخنته الكتابي، وقد تهافت قول المرجف وتناقض في هذا أيضاً . ونقل عن المالكية ما يصرح بان فتوى القاضي ابن العربي صحيحة على خلاف، فيها وأن وجه النقد عليها من جهة العبارة فقط، وهو انه أطلق القول ولم يقيد به بان يكون قتل عنق الدجاجة المسؤول عنه بقصد التذكية أي الامانة لاجل الأكل فقد جاء في نقله عن المالكية بعد نقل ما قاله ابن العربي مانصه :

« ظاهر كلام ابن العربي التعارض ولكن جمع بينهما ابن عرفة ونصه : وقول « ابن عبد السلام : أجاز ابن العربي أكل ما قتله الكتابي ولو رأيناه يقتل الشاة » « لانه من طعامهم : يرد بان ظاهره نوى بذلك الذكاة أولاً وليس كذلك فنقل « جميع ما تقدم عند مختصراً وقال مانصه : قلت فحاصله أن ما يروونه مذكي عندهم « يحل لنا أكله وإن لم تكن ذكاته عندنا ذكاة : اه » اه من جريدتي المرجف وما قاله ابن عرفة وهو من أكبر فقهاءهم موافق لما قلناه في الجزء الماضي من أن مجموع الاحاديث يابل على أن الذكاة هي ما كان ازهاق الروح فيه بقصد الأكل لا مطلق التعذيب والاعدام . وظاهره أن مسألة فتوى ابن العربي لم يكن ينقصها إلا النص على أن قتل عنق الدجاجة بعد ذكاة اذا أرادوا به ذلك؟ وكأنه لم يذكره لدلالة القرينة عليه

نم ذكر قولاً آخر عن (المعيار) في المسألة وأنه أيد فتوى ابن العربي أيضاً وقولاً آخر عن الزباني وأنه سلمه . فعلم ان المسألة مسجلة عند فقهاء هذا المذهب وإنما أورد المرجف هذه المقول وهي حجة عليه لانه وجد أن بعض المتأخرين قل إن في هذا الكلام نظراً من وجوه . وقد تصفحنا تلك الوجوه فرأيناها غير وجيهة . فانه في أولها يستشكل تصديق أخبار أهل الكتاب ورهبانهم في ان هذا حلال عندهم، ويستدل على ذلك بان القرآن شهد عليهم بالتحريف والتبديل وثبت أنهم كذبوا بحضرة النبي ﷺ وانه عاين الصلاة والسلام قال « لا تصدقوهم ولا

تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وهذا الوجه حجة على ذلك المتأخر فإن الله تعالى قد أطاق القول بحل طعامهم وهو عالم بذلك منهم وأخبر به نبيه والمؤمنين . فدل ذلك على أنه لا يطالب منا ، بل يحرم علينا أن نتمادى على ما في كتبهم المحرفة وعلى أقوالهم فيها ، وإنما يحل لنا أكل طعامهم من غير بحث عن حكمه عندهم ، وإنما طعامهم ما ياكلون إلا ما حرم لذاته كلحم الخنزير . وقصارى هذا أن فقهاء المالكية كابن العربي أخطأوا في اشتراط كون طعامهم مما ياكل منه رجال الدين عندهم . وهذا صحيح ولذلك قلنا في الجزء الماضي إن ما قاله ابن العربي وعول عليه المفتي هو من باب الورع ، والظاهر ما عليه أكثر الصحابة من حل طعامهم مطلقا وإن لم يتمسكوا بشيء من كتبهم وأحكام دينهم كبني تغلب من متنصرة العرب (والوجه الثاني) البحث في التفرقة بين لحم الخنزير وما يقتلونه بالعقر كالضرب بالشاقور . ونقول إن الفرق قد تقدم في الجزء الماضي نقلا عن كتاب (صفوة الاعتبار) وباقي الوجوه مناقشات في العبارات . على أن مقتضى هذه الابحاث أن لا يحل من طعام أهل الكتاب شيء إلا ما علمنا أنهم جروا فيه على أحكام الشريعة الإسلامية وما هم بفاعلين ، فيكون قصارى قول الباحث أن الآية لا معنى لها ولم تفد حكما حديداً ، وهو ظاهر البطلان . وإذا اعتبرنا كلام المتأخر فأكثر ما فيه أن تكون مسألة أكل ما يخنقه أو يعقره الكتابي مختلفا فيه عند المالكية ويجب أن يكون من أعظم المرجحات ما كان أبعد عن الحرج المنفي بنص القرآن وهو قول القائلين بالحل . ولا يخفى أن هذا الخلاف ليس في موضوع فتوى مفتي الديار المصرية لأن موضوع الفتوى في حيوان يذبح بعد ضرب بمحدد وهو حلال باجماع أهل السنة والجماعة كما تقدم . وإنما يورد المرجف ذلك في الرد على الفتوى لاهتمام العامة الذين لا يعقلون

❦ الفقه في تحريم الميتة وما أهل به لغير الله ❦

قد علم مما بيناه في الجزء الماضي من أنواع التذكية الشرعية أن الضابط العام الذي يجمعها كلها هو أن يكون ازهاق روح الحيوان بقصد أكله . ويشترط في ذلك

٧٠٢ اهلل بعض المسلمين تير الله في ذياتهم وتسميتهم السواب لهم

شرط ديني واحد وهو أن لا يكون قسماً أهل تير الله من مسلم أو وثني مشرك بالله
كلني كانوا ينجونه على الصب، وهي حجارة تصب ويذبح عليها للأصنام.
وقد نهي بعض الصحابة عن أكل ما أهل به الكتابي لتير الله، وتقدم البحث
فيه في مسألة التسمية وإن الجمهور على خلافه. وذكرنا في الجزء الماضي ما يشهد
رأي الجمهور من كون آيت تحريم الأهلل لتير الله مكية المخ وتقدم أيضاً أن ما أهل
به تير الله هو أشد الحرم تحريماً لأن علة دينية تتعلق بجمهور التوحيد

ومن عجائب جهل عامة المسلمين بالدين في هذا الزمن أن صار فيهم قوم يهلون
لتير الله من الشيوخ للبين للمستدين عولاً تكاد تجد لك منكراً. بل يذكر عن
الامة أن يرضع عطاء الوقت يأكل من البهيمة (السائبة) السيد البدوي عندما تذبح
على اسمه في مولده وإن ذكر اسمه عند الدبح. وكان هؤلاء للشايخ يكتفون في
التأويل بأن الذبيحة تحمل لأن مريق الدم منسوب إلى الإسلام ويذكر اسم الله وإن
كانت سبت أولاً وسبت آخر آجل التقرب إلى السيد البدوي ويقصد بها
إرضاءه والناس الخير منه لأنه بدون ملاحظة شيء آخر، كما عليه البعض، أو لأنه
واسطة عند الله فيصل الله لأجلها يريد هو أو يريد للتقرب إليه عند قبره أو في بلدته!
ولكن من يتدبر القرآن، ويعتقه في الدين، يعلم أن تحريم ما أهل لتير الله به على
المسلمين حكمة أن لا يقرأ في مثل ذلك الذي كلن عليه للشرك كون الذين كانوا
يستنون به حكمة الله عنهم بقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نبيد الله إلا
ليقرئنا إلى الله زانقاً) وإذا لم تصدق أن بعض المتسبين لهم يأكلون مما يذبحه
بعض الناس للسيد وغيره فأتنا فليد أن هذا المنكر قبيح ولا ينكرونه على العامة،
ولو أنكروه علماء الأزم والجامع الأحدي لما استمر الناس عليه، بل لو أن الجرائد
اليومية ساعدت الناس ورددت قوله في إنكار مقاسد للوالد لزال كلها أو
بعضها، ولكن الأهواء السياسية والشخصية لم تهب على هذه الذات أنواط، ولكنها
هبت على الشجرة الطيبة التي يستظل بها الأستاذ الإمام تريد أن ترزعها أو تقلعها
ولكنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فلا تقوى عليها هذه الأهواء
بقي من بحث الفقه في التذكية وتحريم الميتة مسألة لم تذكرها في الجزء الماضي

لأن المقال فيه كان قد طال وهي : ماهو الفقه في تحريم مامات حتف أنفه - وهو المتبادر من لفظ الميتة عند الاطلاق - وما هو في معناه كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع منها إذا لم تذك أي يجهز عليها بقصد الاكل - ؟ وما الفرق بين الصيد يأتي به الكلب المعتميتاً فيكون حلالاً، وبين ما أكل السبع منه فوات ولم تدرك ذكاته؟ وما ضرب الانسان بعضاً أو حجر فوات كذلك ولم يذك بالقتل؟ وما الحكمة في جعل القصد محلاً؟

والجواب عن ذلك فيما يظهر لنا بعد اعتبار تعظيم شأن القصد في الامور كلها ليكون الانسان معتمداً على كسبه وسعيه وهو الحكمة الاولى في ذلك - هو أن الميت حتف أنفه يغلب أن يكون قد مات لمرض أو أكل نبات سام وبذلك يكون لحمه ضاراً كلحم الخنزير فان هذا قد حرم لضرره «راجع الجزء الثامن» فهذه حكمة ثانية

ونم حكمة ثالثة غير اعتبار القصد وخوف الضرر وهي ان الطباع السليمة تستقدر الميت حتف أنفه ولا تعد من الطيبات، والدين يربي الانسان على شرف النفس ولذلك أحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث . وأما ماهو في معنى الميتة حتف أنفها من المنخنقة والموقوذة الخ فيظهر في علة تحريمه كل ما ذكر إلا حكمة توقع الضرر في الجسم فيظهر فيه بدلها تنفير الناس عن تعريض البهيمة للموت باحدى هذه الميتات القبيحة في حال من الاحوال ، وان يعرفوا ان الشرع يأمر بالمحافظة على حياة الحيوان وينهى عن تعذيبه أو تعريضه للتعذيب ويعاقب من يتهاون في ذلك بتحريم أكل الحيوان عليه إذا تهاون في حفظ حياته ، فان الرعاية يقتضون أحياناً على بعض البهائم فيقتلونه بالضرب، ويحرشون بين البهائم فيغرون الكباشين بالتناطح حتى يهلكا أو يكادا ، ومن كان يرعى أنعام غيره بالاجرة يقع له مثل هذا أو أكثر . ولو كان أكل ما هلك بتلك الميتات حلالاً لما بعد أن يتمدد الرعاية وأمثالهم من التحوت (١) تعريض البهائم لها لآكلوها بعذر . ويدل على هذه الحكمة أحاديث صحيحة، منها قوله ﷺ بعد النهي عن الخذف وهو الرمي بالحصى والبندق (الطين المشوي لذلك) : « انها لا تصيد صيداً ولا تنكأ عدواً ولكنها

تكسر السن وتفقا العين » رواه احمد والبخاري ومسلم .

هذا ماظهر لنا ومن آتاه الله حكمة وراء ذلك فليتفضل علينا ببيانها
ذكرنا هذا البحث في فقه الشريعة وحكماتها لان أحكام المعاملات والعبادات
معقولة المعنى كلها مبنية على قاعدة دفع المضرات وجلب المنافع ، وأما قول
بعض العلماء ان أحكام الدين على قسمين قسم تعبدي تؤديه امثال الامر الله تعالى
وان لم نقبل وجه فائدته ومنفعته ، وقسم معقول المعنى يمثل فيه الامر من حيث
نطلب به المنفعة المقصودة منه ، فلا شك ان التعبدي منهما لا يظهر له وجه إلا في
أحكام العبادات التي يتقرب بها إلى الله على حسب ماوضع وشرع
ومن عجيب أمر علماء الرسوم وأهل الرأي انهم حكموا فياسهم ورأيهم في
مسائل العبادة المحضة حتى زادت على المنصوص ضعا فاكثيرة وجمدوا على بعض أحكام
العادات ولم يبحثوا عن عللها وحكمها بل منعوا أو كادوا بمنعون القياس فيها فتدبر

(تأييد علماء مصر والجرائد للفتوى) *

لما قام المرجف يلعظ في الجريدة المحدثه بالانتقاد على الفتوى نفر طائفة من
أهل العلم الى لرد عليه في الجرائد، فنشروا مقالات كثيرة أيدوا بها الفتوى بالنصوص
القاطعة، والادلة الساطعة، ومن هذه الجرائد الاهرام والمقطم والوطن اليومية. وأما
الاسبوعية الاسلامية التي كتبت فلم نحصها ولكن أشهرها جريدة (التمدن) التي يحرر
مباحثها الدينية بعز الازهريين، والنيل، والممتاز، والجرائد العثماني، وقد نشر كاتب
أديب في المقطم مقالة (عتاب صديق) للعلماء وابعض الجرائد اليومية الاسلامية لعدم
الكتابة في الموضوع فأحسن كل ما كتب إلا تعظيم شأن الخلاف وتكبير المسألة
وهي صغيرة، ولم يخالف فيها إلا المرجف ومستأجره، وأيده الحدث وصاحب الحماره،
ولذلك أجابه أحد العلماء المدرسين المؤافين بجواب وجيز نشر في (عدد ٤٤٩٩)
من المقطم وقد جاء فيه مانصه : « ولعمر الحق انما دعاهم - أي العلماء - الى السكوت

هذه المقالة رد على زعم جريدة الظاهر ان مؤيدي المفتي هم السوربون وهي تابعة

لما قبلها مما تنقله من المنار المؤرخ في غرة ذي القعدة سنة ١٣٢١

عنها وضوح السؤال والجواب، وعدم الحاجة الى رد أقوال المعارض على افتاء ليس عليه بنظر الشريعة غبار . أصل المسألة ذبيحة ضربت على رأسها بيلطة ثم ذبحت لتحل أم لا ؟ أفبعد قول السائل ثم ذبحت يتوهم أنها ميتة أو موقوذة ؟ كلا « الخ أما سكوت المؤيد فالظاهر أن سببه عدم العناية بالجريدة المحدثه وكرامة إشهارها مع اعتقاد أنها ضارة ، ولهذا لم يذكر اسمها الذين ردوا عليها أيضا . وإذا كان هناك سبب باطن أيضا فليس لنا أن نبحث عنه وإنما كلامنا في الظاهر فقط ، وأما (الراوي) فقد كتب أخيراً ما يدل على الانتصار للفتوى

وبينا نحن نكتب في هذا المقام وردت علينا جريدة جديدة تسمى (الواعظ) فرأينا فيها مقالة وعظية لعالم مغربي عرج على القاهرة في طريقه الى الحج ، فلما قرأ ما نشرت الجرائد في موضوع الفتوى كتب هذه المقالة وأرسلها الى بعض الجرائد الصامته الساكنة فلم تنشرها . فرغب الى صاحب الواعظ أن ينشرها ففعل فكان فعله مما حقق ان اسم الجريدة وافق المسمى . وقد رأينا أن ننقلها تنويهاً بالواعظ وتنبيهاً للناس الى مكانة المرجف من نفوس العلماء الغرباء ، بل على مكانة المصريين عند من يتوهم انه بروج فيهم مثل هذا الارجاف ومكانة الاستاذ الامام من نفوس عقلاء المسلمين في بلاد المغرب وهذا نصها :

﴿ المقالة الوعظية لعالم المغربي ﴾

« أيها المسلم . هل أتاك خبر ماشاءت الانبياء من قبل وقال في فتوى الشيخ الامام ، وهل علمت ما كتبه البار مما نص عليه الفقهاء والعلماء والصحابة وصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام ، وما حدث في أوائل اقرن الماضي في الديار المصرية ؟ تأمل وانظر كيف انعكست الاحوال وانقلبت ظهراً لبطن ، وأصبح الدين آلة في أيدي رجال العلم ، بحر مون اليوم ما حلاله آباؤهم من قبل ، ومعارضين فتوى السيد الامام ، وجمهور الفقهاء والصحابة والتابعين وصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام . وباليت شعري أهذا دليل على وقوع الامة في شرك الجهالة وانها ستتدلى الى أسفل سافلين ، أم ذلك تنافس بعجى ويزول ؟

« من المسلمين برجال يؤيدون الدين ويقومون بالاصلاح ويحافظون عليه

كالسيد الامام المفتي برأى الجمهور وما اعتمدته العلماء ، فهل يرد عليه بما رآه الآخرون ؟ وهل يعترض بمذهب على مذهب ؟

« على ان هذه الشريعة السمحة البيضاء تشعبت فيها الاقوال ، ليأخذ العلماء من كل زمان بما يناسب الامة من أحوال ، ولا تكون ضيقا على عباد الله ، إذ هي الشريعة التي ينتظر المسلمون وعقلاء النصارى أن تم الارض كلها كما قال تعالى (والله متم نوره) وكما قال (ليظهره على الدين كله) فهل يلبق أن نسبها بالخرج والضيق ؟ وقد اعتاد العلماء أن يقولوا قولا ضميما ليأخذوا به عند الحاجة اليه . وليست فتوى السيد الامام من هذا القبيل وانما الكلام في ان الشريعة أوسع مما يضيءون « ومالنا ولهذا وذاك ! كنا نقرأ في كتب الفقه ان المفتي والقاضي لا يوليان إلا اذا حازا درجة الاجتهاد كالاتمة الاربعة . وإلا كان تقليدهما باطلا ، فهل يسمح الدهر بهم ، واذا سئل العلماء عن المجتهدين يقولون انقطع الاجتهاد من القرن السادس وكل قاض ومفت بعد هذا الانقطاع فهو قاض للضرورة ، وكأنهم بهذا حكموا على الامة أن تتدلى وتنقرض ، وقد حكموا بتطبيقهم هذا على الشريعة الغراء أن تنقاص عن الاحكام وحل محلها القانون السياسي

« من لنا بقوم يشعرون بما نقول ؟ وأنا رجل مغربي طالما تمنيت أن يكون في المسلمين رجال عظام ، حتى اذا مارأيت هذا السيد في بلادي قرت به عيني . وها أنا ذا قد وفدت الآن على مبعث أنوار عرفانه فوجدت لغطا داني على ان القوم هنا لا يبالون بشريعتهم ولا رجالها

« وباليت شعري هل درى اخواننا العلماء انهم بتحريمهم ذبيحة أهل الكتاب يفتاتون على القرآن ؟

« القرآن أحل ماجرحته كلاب الصيد وقتلته . وعلم الله تعالى ان الانسان أفضل من الحيوان فاستدرك ذلك وأحل ذبيحة أهل الكتاب ، وإلا كانوا في نظر الشرع أقل من الكلاب ، وجل الله أن ينزل الانسان الذين في شريعة متممة للشرائع على أخس حيوان وأقبحه في نظرهم ، مع ان هذا الدين جاء ليتم الارض كلها . وهو الذي أحل منا كحة الكتابي ومعاشرته ومجاملته ومعاهدته وأوجب الدية في قتله ،

ولم يجوز قط الأكل في إناء وافع فيه الكلب حتى يغسل سبع مرات احداهن بالتراب
« يجوز لنا أن نأخذ الذبيحة من أنياب الكلب ولا نأخذها من بين يدي
الإنسان ؟ . . حاشا لله حاشا

« أظن أننا أصبحنا الآن أضحوكة في عيون الأفرنج ومضفة في أفواههم ، إذ
يسموننا بالوحشية المظلمة وديننا بدين الوحوش

« ذكر الله الصيد في أول سورة المائدة فلم يشأ أن يسكت عن أهل الكتاب علماً منه
أنهم أولى بالحل وهل ينقص النصراني الترنسغالي في نظر ديننا عن حيوان
الصيد ؟ أو أنه من التعصب الأعمى وعدم التفطن والنظر ؟

« وهل عرف أوثك العلماء حكمة الذبح المعتاد وشيوعه بين المسلمين بقطع
الحقنوم والمرى مع قيام غيره مقامه في الصيد والدابة الشاردة والسماك والجراد
والجنين في بطن أمه وغير ذلك ؟

« فليعلموا أن كل قتل بحسب الأصل موصل المقصود ولكن الله لحكمته
ورحمته بنا وبالحيوان جمل ديننا بقسمة عادة ومنة عامة فحرم علينا ما قتله الحيوان
وما مات في الخلاء بغير قصد منا ، ليبقى ذلك كله للحيوان يأكله لأنها أعم أمثالنا .
وكأنه تعالى لم يرض أن نأكل ما لم نقصده ولم نفكر فيه . فأما المذكي والصيد
والسماك والجراد ونحوها فإنها كلها غالباً لا تؤخذ إلا بالنصب والتعب .

« هذا . ولما علم الله أن الناس منهم الجاهل والعالم والقوي والضعيف وضع قانوننا
عاماً يشترك فيه عامتهم وخاصتهم في الذبح وهو ذبح العنق . ولو أباح أي ذبح لتقتن
الناس في تعذيب الحيوان . فله الحكمة البالغة

« هذا هو المقصد من شيوع قطع الحقنوم والمرى مع قيام غيرها مقامها في أحوال
أخرى كالسماك والجراد والصيد وذبيحة الكتابي
« يا أيها المسلمون هل أنتم منتهون عن هذا ؟

« أنه ليحزن العقلاء أن نتكلم في صفات الأمور وقد تركنا كبارها ، وهل يجوز
لكبار لبس البرنيطة مثلاً واستصغار تعلم اللغات ؟ وإنها القتالة للمواطنين القومية ،
المجيشة لأصول المعتقدات الدينية من مغارسها في النفوس . تركنا كبار الأمور

واستمسكنا بصفاؤها وأنه لعار عظيم . هلا قمنا وقمنا هذا القيام وهذا القعود لفروض الكفايات كالصناعات والسياسات التي ينطق بها القرآن ؟
« لقد دخلت بلادكم الأفرنج مداخلة شربت بها القلوب والاجسام وأصبحت المنازل والابواب والسياب وكل شيء جديد فيها من آثارهم ، ولاند صناعاتهم ، فكيف تحلون هذا كله وتحرمون البرنيطة على الترنسغالي الذي لا قوة له ولا استقلال ، يلبسها للضرورة - لعل العلم وقف على الظواهر ولم يعبا بالبواطن بل بالقشر دون اللب .

« ان الشيخ الامام حين قرأ الدرس في بلادنا المغربية في هذا العام فهمنا ان مصر كعبة العلم ومنبع الفضل ، مؤيداً لما كنا نسمع من قبل ، ولكن لما زرتها تنزل يقبني في ذلك ، وما هو عندي بمهم في قوله ، فلعلني عند رجوعي من الديار الحجازية أستنشق روح الوفاق على تأييد الحق ، وما هو ببعيد »

(المنار) يظهر أن الكاتب صدق المرجف في زعمه ان العلماء خطأ والفتوى وان سبق له القول بان شيخ الازهر وعلماءه لا يخالفون المفتي !! وفي هذه المقالة بيان حكمة رابعة لتحريم الميتة وما في معناها وهو جعلها من حظ الحيوانات التي تاكل اللحم رحمة بها

(تأييد واقعة الفتوى بمذهب الحنفية خاصة)

(تابع لما نقل عن المنار المذكور)

أشرنا في الجزء الماضي إلى أن الفتوى مؤيدة بالكتاب والسنة وعمل السلف وإلى أن خلاف الحنفية في مسألة التسمية ليس في شيء من واقعة الفتوى التي أفتى فيها مفتي الديار المصرية لان الحكم في واقعها مجمع عليه . وقد رأينا أن ننقل بعض ما قاله الحنفية إننا ما للموضوع ، حتى يعلم ان المفتي موافق لمذهب الحكومة المصرية ، وإن لم يكن ذلك واجبا عليه لاسيما في المسائل الدينية الشخصية ، خصوصا إذا لم يكن السائل عنها من رعية هذه الحكومة . وقد كنا راجعنا ما في الفتاوى الحامدية ثم جاءتنا رسالة من بعض شيوخ الحنفية المتخرجين في الازهر يذكر فيها نص الفتوى بعدم مقدمة في إنكار إرجاف المرجف ، ثم ذكر ما يؤيدها من كتب التفسير وأقوال السلف وختم الكلام بما نصه :

بقي علينا أن نوضح موافقة الفتوى لفروع المقه الحنفي فنقول « في كتاب (العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية) للمرحوم المحقق العلامة السيد محمد بن عابدين رحمه الله: سئل في ذبيحة العربي الكتابي هل يحل مطلقاً أو لا ؟

(الجواب) يحل ذبيحة الكتابي لأن من شرطها كون الذابح صاحب ملة التوحيد حقيقة كالمسلم أو دعوى كالكثابي، ولأنه مؤمن بكتاب من كتب الله تعالى ويحل منا كحته فصار كالمسلم في ذلك ، ولا فرق في الكتابي بين أن يكون ذمياً يهودياً أو نصرانياً حربياً، أو عربياً أو تلمبياً، لا إطلاق قوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) والمراد بطعامهم مذكاهم. قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قال ابن عباس رضي الله عنهما : طعامهم ذبائحهم - إلى أن قال - وهذا إذا لم يسمع من الكتابي أنه يسمي غير الله تعالى كالمسيح والعزير ، وأما لو سمع فلا يحل ذبيحته لقوله تعالى (وما أهل غير الله به) وهو كالمسلم في ذلك. وقال بعد كلام : لكن في مبسوط شمس الأئمة : ويحل ذبيحة النصراني مطلقاً سواء قل ثالث ثلاثة أو لا ومقتضى الدلائل وإطلاق الآية الجواز كما ذكره التمر تاشي في فتواه

فمما ذكره صاحب المبسوط حل ذبيحته مطلقاً سواء سمي عليها أو سكت عن التسمية أو قال ثالث ثلاثة لأن قواه : أولاً ، داخل تحته ما إذا سمي الله وما إذا لم يسم أصلاً بدليل قوله بعد ذلك : ومقتضى الدلائل وإطلاق الآية الجواز ، فمن هنا يعلم أن هذا القول موافق للفتوى من غير نزاع في ذلك وهو قول صحيح في المذهب يدل على ما ذكره ما قاله صاحب كتاب فتاوى الهندية حيث قال : ثم إنما تؤكل ذبيحة الكتابي إذا لم يشهد ذبحه ، ولم يسمع منه شيء ، أو شهد وسمع منه تسمية الله وحده ، لأنه إذا لم يسمع منه شيء ، يحمل على أنه قد سمي الله تعالى تحميداً للظن به كما بالمسلم - ثم قال بعد ذلك : المتردية والمنخنقة والموقوذة ، والشاة المريضة والنطيحة ومشقوقة لبطن إذا ذبحت ينظر : إن كان فيها حياة مستقرة حلت بالذبح بالإجماع ، وإن لم تكن الحياة فيها مستقرة يحل بالذبح سواء عاش أو لم يعيش عندني حليمه رضي الله تعالى عنه وهو الصحيح وعليه الفتوى ، كذا في محيط السرخسي ، اهـ

فمن هذا كله يتبين للقراء ان ما أفتى به فضيلة مولانا الاستاذ مفتي الديار المصرية موافق لاصول مذهب أبي حنيفة رحمه الله ولا خلاف في ذلك، فالموافقة التي لم تمت اذا ذكيت حل كلها سواء كان المذكي لها مسلما او يهوديا او نصرانيا لانها قبل موتها لا تسمى موافقة كما افاد ذلك العلامة الطبري فيما ذكرناه . وفي هذا القدر كفاية لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» اهـ (التوقيع محفوظ)

﴿ الاستدلال على سوء قصد المرجف ﴾

(منقول من الجزء ٢١ من المجلد السادس من المنار)

(كتبنا هذه المقالة في ذلك الوقت رداً على ما كتبه صاحب جريدة اللواء الملقب بحدث السياسة تايداً لصاحب جريده الظاهر الملقب بالمرجف في عدد اللواء المؤرخ في ٢٦ شوال سنة ١٣٢١ أي قبل صدور تقرير المرجف بثلاثة أيام وشهد له في مقالته بحسن النية وصحة القصد في إظهار فساد الفتوى ومخالفتها للشرع الشريف، وأنكر على أنصار المفتي ما يكتبونه من المقالات في الأهرام والمقطم في الطعن عليه واتهامه بسوء القصد، وما جرت اليه المناقشة من مر الكلام، والسب والطعن والخصام، وقال مصطفى كامل بك في هذه المقالة « ان العالم العامل من يسأل الناس مناقشته ومجادلته لا الركوع أمامه والامتنال لاقواله خطأ كانت أو صواباً، ويطالبهم أن يكونوا عبيداً له أو أصناماً، بل رجالاً ذوي افهام ومدارك » وقال انه أمسك القلم عن الكتابة في الموضوع انتظاراً من فضيلة المفتي لتبرير فتواه وتفسير ما أغمض على الناس منها . وذكر أنه إن قال أنصاره انه لا يليق بمقامه أن يقرأ كلام المعارض ويرد عليه فانه يجيبهم بانه ليس أكبر من عمر بن الخطاب الذي قال من رأى منكم في أعوجاجا فليقومه . ورضاء عن جواب الاعرابي له ... وهذا عين ما قاله أبو شادي بك في تقريره ...)

انفرد باللفظ في المسألة صاحب الجريدة المحدثه وهي من الجرائد التي تلقب في مصر بالساقطة ولقبناها في الجزء الماضي بالسياسية انما لما يتحدث به الناس من ان هذا اللفظ يقصده عمل سياسي في الازهر، واستدلوا على هذا بسكوت حدث السياسة عن مشاركته بهذا اللفظ مع انه كان ينتحل الشبه البعيدة للتعريض والتشهير بالمفتي، لان الحدث متهم بذلك السياسة ومعروف بالفرض . نعم شاع ان الجريدة المحدثه لما أساءت اللفظ وخرجت عن الموضوع الى السباب والمهاترة

والتناقض قبل انها لم تصادف من الجانب الذي كان يظن انها تقترب اليه إلا
 البعد والسخط، ولذلك تكلم الحدث بعد طول الأزم، فأيد الباطل وخذل الحق،
 وصور المسألة عن السائل بأن أهل التردسقال « يضربون الانعام بالبلط فأفتاه
 المفتي بانها حلال » وقد علم القراء من نص السؤال في الجزء الماضي ان السائل
 قال انهم يذبجون البقر بعد الضرب بالبلط ويذبجون الغنم من غير ضرب. فانظر
 الى تحري هذا الحدث البعد عن الصدق، لايهام الناس خلاف الحق، ثم انه يسأل
 كصاحب الجريدة المحدثه أن يتنازل المفتي لقراءة لغوهم ومجاوبتهم عليه. ونحن
 نعلم علم اليقين أنه لم يقرأه ولن يقرأه عملاً بقوله تعالى في صفات المؤمنين (والذين هم عن
 اللغو معرضون) وانه اذا سمعه يأخذ بقوله تعالى فيهم (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه
 وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير)
 ولو كان الحدث وصاحب الجريدة المحدثه يطلبان الحق في المسألة لما بادر
 أحدهما الى بذل ٣٠ جنيهاً من أصل (١٢٠) . . . في ورقة الفتوى ليشتنع عليها
 إذ توهم ان وراءها مؤاخذه رسمية، بل امكن بادر عند العلم بها الى الامام المفتي
 وسأله ايضاح الاستدلال بالآية الكريمة التي استدل بها ودفع الشبهة عن
 الاستدلال ان كانت هناك شبهة. ولولا سوء القصد لما حرقا السؤال بعد ما نشره
 المرجف. فانه نشره أولاً بنصه ثم نشره ثانياً في تقريره على نحو ما أورده الحدث
 فانه زاد عليه قوله « حتى تشرف على الموت » ولم يقل السائل ذلك ولو قاله لما
 كان مانعاً من حل الذبح عند الجمهور، ولولا سوء القصد لما غير المرجف في تقريره
 سؤال المستفتي عن لبس القلنسوة بعد نشره في جريدته صحيفاً فزعم أخيراً انه
 قال انهم يلبسونها تشبهاً بالقوم من غير سبب! وهذا كذب صريح. والفتوى
 صريحة في اشتراط عدم قصة التشبه

ولو كان المرجف يطلب معرفة الحق في المسألة لما ترك النصوص التي أوردناها
 في المسألة ولما ترك استفتاء شيخ الازهر وعلماءه في مصر أولاً كما كتب في بعض
 الجرائد وزعم انه سيستفتي شيخ الاسلام في الاستانة وحاخام اليهود وبطريق
 النصارى، ثم اقتصر على استفتاء حاخام اليهود القرايين في ذبيحة النصارى ثم اكتفى

بمقالة في جريدة يهودية تفصل ما أحل لليهود من حيوان البر والبحر وما حرم عليهم ، وتذكر شروط الذبح عندهم ، ومنها أن يكون الذابح بدرجة من العدالة قلما توجد في الناس اليوم ، وان يكون مستقبلاً بيت المقدس . وبزعم المرجف ان الله لا يحل لنا ذبيحة النصراني إلا إذا كان مستوفياً لتلك الشروط ، فهو يلزم النصراني بأن يتبع شريعة التوراة ، وان كان القرآن مصرحاً على لسان عيسى عليه السلام بقوله (ولا أحل لكم بعض الذي حرم عليكم) فكأنه يلزمهم بمصيان عيسى فيما نسخه من أحكام التوراة ليكونوا نصارى تؤكل ذبائحهم . على أن الله تعالى أخبر عن اليهود النصارى بأنهم لم يقيموا التوراة والانجيل وانهم يحرفون الكلم عن مواضعه ليوافق أهواءهم ثم انه في السورة التي يذكر فيها هذه الاحكام عنهم يحل لنا طعامهم فهو تعالى أعلم بمقائدهم وبأقوالهم ، وقد أحل لنا ذبائحهم ولم يكلفنا أن نقرأ قبل أكلها كتبهم ونطبق أحكامها على الذابح ، بل ورد في الحديث « لا تصدقهم ولا تكذبهم » أي فيما يخبروننا به عن شريعتهم ، ولكن صاحب الجريدة المحدثه يصدقهم ويحتج بكتبهم ويقيّد بكلام جريدة من جرائدهم إطلاق القرآن حل طعامهم ، وذلك لان مفتي الديار المصرية قول بوجوب الاخذ بهذا الاطلاق ، ثم يرجع فيقول لا يعمل بأقوالهم ؛ ولكن المفتي يقدم نصوص القرآن على كل شيء كسائر أئمة المسلمين ، فهل نترك القرآن لان المفتي مستمسك بالقرآن والمرجف لا يرضيه منه ذلك ؟

(اهانة المرجف للعلماء وتعريضه بالامير)

(من جزء المنار ٢١م ٦ المؤرخ في غرة ذي القعدة سنة ١٣٢١ (١٩ يناير سنة ١٩٠٤))
لما قال المرجف انه يريد استفتاء شيخ الاسلام في الاستئانة بكتب بعض المنتقدين في الجرائد يتعجب من اهماله استفتاء شيخ الاسلام وعلماءه في مصر وهم أعلم بالشريعة من علماء الترك ، وجعله شيخ الاسلام مقدساً كابابا فاجاب عن ذلك بما نصه (ع ٦٤) :
« أحل لانه ذكر اننا نؤيد رفع الفتوى إلى مقام مشيخة الاسلام في دار الخلافة ،

ووصفناها بما تستوجبه حياطاتها الدينية من القداسة ، وليكننا لم نخط من كرامة
مشيخة الازهر الجليلة إلا أننا نعلم أن المفتي وشيخ الازهر توأمان متلازمان فلا
يقول أحدهما بما يباين قول الآخر !! ولا نجعل النفوذ الذي للمفتي على الازهر
ومن فيه من المستضعفين الذين يخشون الشيخ ويتقون بطشه بهم، وقد رسخ هذا
الوهم في نفوسهم وتولدت منه مخاوف هوت بأفكارهم وسقطت بمدارك بعضهم،
حتى صفرت قيمتهم في نظر أنفسهم ، وعلى ذلك شواهد محسوسة لا تحتاج إلى
إيضاح » اه بحروفه

فلي نظر المسلمون إلى هذا المرجف كيف يطعن بفضيلة شيخ الازهر وسائر
علمائه ، ويزعم ان المفتي قد استخفهم فأطاعوه، حتى في خلاف ما يعتقدونه ديناً ،
كأنه فرعون مصر المستبد فيها . ثم هو بعد ذلك لا يستحي ان يقول في ورقته إن
علماء الازهر قد جاءوا إليه وتبرؤا من الفتوى ومؤيديها، وفي تقريره أن علماء
الازهر كتبوا إليه بأن عدم استناد مفتي الديار المصرية في فتواه للترنسفالي إلى
نصوص مذهب أبي حنيفة يقتضي انه مجتهد ، وأنه بذلك صار معزولاً من وظيفة
الافتاء !! (اه من ص ١٤)

فلي نظر أصحاب البصر والبصيرة إلى تعارض أقواله في العلماء - تارة يجعل رئيسهم
ومرؤسهم تابعاً للمفتي وإن أخطأ ! وتارة يجهلهم . متهمين على القول بعزله من
وظيفته ! فهل يصدق عاقل نقل هذا المرجف على تعارضه ، وبعد ما يرى من
تحريفه السؤال والجواب ، وتهافته في خلط ما يزعم انه نقل عن الكتب او
العلماء ومزجه بأقواله ؟

وقد ذكر في بعض ما كتب في المقام غيرة الامير على الدين وان عزل المفتي
وأمثاله بيده . وأن العلماء رفعوا الامر إلى سموه ، وللقاري أن يستنبط من هذا
أن الناقل كاذب في دعواه أو ان الامير أعزه الله قد علم ان الدين كتبوا اليه
يدسوا من العلماء الذين يعتمد على قولهم في الدين ، ولولا ذلك لما أبقي المفتي في
منصبه ، ويقول : اذا صح أن بعض العلماء كتب للامير بان الفتوى غير صحيحة
وأن أكل الذبائح المشلول عنها حرام في مذهب الحنفية الذي يتقلده ، وأنه صدقهم
(٩ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

ولم يصدق النصوص التي أوردناها في اثبات حايها بالاجماع أو برأي الجمهور ومنهم أبو حنيفة، فلا شك ان سموه يترك أكل اللحوم في أوروبا ولو على موائد الملوك والامراء. فان جميع ذبائح أوروبا على الطريقة التي صدرت الفتوى باثبات حلها، بل هي أبعد منها عن النصرانية لان نصارى الترانسفال متمسكون بدينهم متعصبون له كما جاء في الفتيا. وأما أهل أوروبا فقد تساهل أكثرهم بها، بل مرق الكثيرون منها، وانهم ليخنقون الطيور خنقا ولا يذكرون اسم الله على شيء من ذبائحهم على ما يقال، والامير أعزه الله أعلم بحقيقة الحال

ولعلنا نبين في الجزء الآتي شروط المفتي "وما يجب أن يعتمد عليه في الفتوى مؤيدة بنصوص العلماء. وربما ألمنا بشروط صحة الولايات التي يملك صاحبها نصب القضاة والمفتين وأهمها الاستقلال بذلك والقدرة عليه وعلى تنفيذ الاحكام الشرعية... وليس الغرض من هذا الذي كتبناه كله وما سنكتبه الرد على المرجف فانه في تهافته بحيث لا يعبأ به، ولكن الغرض سنحت لبيان أحكام الدين في هذه المسائل وازالة الشبهات عنها فلم نغفلها اه

﴿ كتاب من الترنسفال . في البحث عن حقيقة الفتيا والسؤال ﴾

بعد كتابة ما تقدم جاءنا كتاب من امام المسلمين في الترنسفال وهو من مشتركى المنار يذكر فيه صورة الاستفتاء والجواب على نحو ما نشر إلا ان في الكتابة غلطا أكثره من الاملاء ويقول المرسل انه عرض الفتوى على العلماء وان الشافعية قالوا قد حصل فيها غلط بقوله « إزهاق روح الحيوان بأي طريقة كانت » وقال انه توقف عن ارسالها حتى يصححها من جميع العلماء هناك « على أي حال كانت إن شاء الله تعالى » وقال في رأس الكتاب « ولا نعلم هل هي جوابات الاستاذ الامام حفظه الله أو غيره » اه بحروفه

(ج المنار) قد علم السائل من الجزء الماضي أن هذه الاسئلة عرضت على

(١) قد حققنا هذا الرجاء ولكننا لم نر نشر ذلك كله في التاريخ فمن شاء الوقوف عليه فلينظره في (ص ٨٩١ من المجلد السادس)

الاستاذ الامام وانها غير مفهومة كما قال . ولذلك جاءت الاجوبة عن مفهومها لاعتن نصها كما اشرنا إلى ذلك في الجزء الماضي . وقد عهد في السنة ان النبي ﷺ كان يحجب السائلين بمثل ذلك . وأما توقف الشافعية فيما ذكرتم فهو لا يستلزم أن يتوقفوا في حل الذبايح عندكم لان ذبيحة الكتابي التي لاتعلم كيفية تذكيته حلال باجماع أهل السنة . وما علمت كيفيته ففيه تفصيل . والجمهور من الصحابة والسلف على ان ذبايح أهل الكتاب حلال على الاطلاق ، ولغير الجمهور خلاف في بعض الصور . فالشافعية يحرمون مذبح وليس فيه حياة مستقرة اذا تقدم ذبحه سبب يحال عليه الهلاك ، فاذا علموا في ذبيحة معينة أنها كذلك فلمهم أن يجتنبوا الأكل منها ، وإن أباحها جمهور السلف الصالح الذين لم يشترطوا الحياة المستقرة ، وإنما اشترطوا أن يكون فيها وقت الذبح رمقوا اكتفوا من الدليل على ذلك بحركة أي عضو من الاعضاء ، وذلك ما يعبر عنه الشافعية بحركة المذبوح وقد رأيت النقل عن المفسرين في ذلك

وأما لبس البرنيطة فلا دليل في الكتاب ولا في السنة على منعه . وحديث « من تشبه بقوم فهو منهم » عند أبي داود والطبراني وابن رسلان - اذا سلمنا انه حسن كما قيل - فلنا ان نقول ان معناه أن من يتشبه بقوم يعامل معاملتهم في العادة فينبغي للانسان أن يتشبه بالكرام دون اللئام لكي يكرم ولا يهان ، وقد قال الفقهاء ان التشبه لا يتحقق إلا بالقصد وانه مكروه في الامور العادية كاللبس تنزيها ، واما في الامور الدينية فان قصد به الكفر يكفر وإلا كان حراما . وهذا البحث مفصل في كتاب (الاعلام بقوامع الاسلام) لابن حجر المكي الشافعي فراجعوه ولذلك قال الاستاذ الامام في جواب سائلكم « أما لبس البرنيطة اذا لم يقصد فاعله الخروج من الاسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفرا . واذا كان اللبس لحاجة من حجب شمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك لزوال معنى التشبه بالمرتدة » اهـ

على ان لبس البرنيطة ليس خاصا بأهل دين من الاديان فالمسلمون قد لبسوا نوعا منها قبل أن يعرفوا الافرنج سموه البرطالة في بلاد النبط ومن جاورهم من

العرب ، وكذلك أهل الافغان ألبسوا بعض المسكر نوعاً منها قبل أن يعرفوا
الافرنج ، ومسلمو الفرس يلبسون ضرباً منها أيضاً ، ومثلهم أهل تركستان
وخيوة وبخارى والتركمان والافغان والشركس وأهل داغستان ، وكذلك فرسان
الترك . ويقال انه لا يزال طائفة من مسلمي المغرب الأقصى يلبسون ضرباً منها
يسمونه المظلة . وقد علمت أن سلطان المسلمين الأكبر وأكثر أمراءهم قد أخذوا
زيهم عن النصارى ، بل جعلت الدولة العلية زي العلماء الرسمي شبيهاً بزي
القيسين الديني لا العادي ، فشيخ الاسلام في الاستانة مخصوص بالحلة البيضاء
كبطريق الروم ، وسائر لبوس التشريف للعلماء عندها مرتب على ترتيب لبوس
القسوس في الكنائس أيام الاعياد . وربما نعود إلى توضيح هذه المسائل ، ونقول
لكم الآن ان الفتوى التي وصلت اليكم صحيحة ولا يلتفت إلى قول من يخالفها
فانه جاهل بالدين والله أعلم

﴿ تأييد علماء الآفاق للفتوى ﴾

استنجد محمد بك أبو شادي علماء الامصار الاسلامية في الشرق والغرب
وظالهم بالرد على فتوى مفتي الديار المصرية المعروفة بالترانسفالية فاحتقره العلماء
ولم يرد عليه منهم أحد لانه طلب منهم أن يلبسوا الحق بالباطل ، ويجعلوا الحلال
حراماً بالتبع له . وأما نحن فقد جاءتنا مقالات تؤيد الفتوى وما شرحناه في
توجيهها وتفصيل الأدلة عليها ، نشرنا بعضه في المنار ومنه رسالة من فاس للعلامة
الفقيه الشيخ المهدي الوزاني ، ورسالة من تونس لم يذكر اسم مرسلها هنالك وهو
العلامة الفقيه الشيخ طاهر بن عاشور باش مفتي المالكية في هذا المهد ، وكنت قد
وعدت بنشر شيء منها في هذا التلويح ثم رأيت البحث قد طال وربما لم يقرأؤه
ما نشرناه كله في هذه المسألة فكركت الزيادة عليه ، ولكم في نشر مقدمة ما جاء
في الجريدة الامامية العلمية التي تصدر في (عليكرة) منبع المهنة الاسلامية
حيث مدرستها الكلية وهذا نصه (من نس ٢٣ من المجلد السابع)

هل ولد السيد احمد خان ثانياً في مصر

وظهرت جريدته (تهذيب الاخلاق) بشكل المنار

ان الله قد وهب للمرحوم السيد احمد خان طبعاً سليماً ودماعاً عجبياً ، فبينما العلماء الاعلام، والفقهاء الكرام ، يشتغلون عامة بوسائل التقاليد وطرقه وينهمكون في البحث بعبارات أمثالهم، كان السيد يبحث في أصول الدين ومقاصده بحث المجتهد المحقق ، وانبرى بهمة (أسدية) قوية لاظهار الاسلام بصورته الاصلية الاولى، ينزع لباس التقليد عنه ، وإزالة شوائبه منه ، إذ كان شيوخ الملة المقيدون بقيود التعصبات والالوهام، قد جعلوا أحكام الحنيفية السمحة البريئة من الخرج في غاية الضيق والشدة ، وحكموا فيها الرسوم والعادات فجعلوها مذهباً وشرعية . عني السيد بتحقيق العقائد والاحكام وبيان الحق ، ولم يخف في مخالفة الجمهور لومة لائم، ففصل بين العادة والعبادة، وبين الرسوم الموضوعية، والاحكام المشروعة، ليخرج المسلمين من تلك الالوهام ، ويعود بهم إلى أصل الاسلام ، ولما أنشأ يطبع تحقيقاته وينشرها علت الجلبة والضوضاء ، وصاح مع العامة العلماء والفقهاء: قد كفر قد كفر : وطلبوا من الحرمين الشريفين الفتوى بتكفير السيد، والغالب انه لم يكن في ذلك الوقت أحد من المسلمين في الهند إلا وهو ينظر إلى أفكار السيد وتصوراته بعين الحيرة وانتعجب

لعل أكثر الناس يتذكرون ذلك الزمان الذي أجاز السيد فيه لباس الانكليز وأباح الاكل معهم، وقال ان اللباس ليس من الامور الدينية بل من الرسوم والعادات ولم يحكم الشرع بالتزام زي يختص به المسلمون ، وأما الاكل فهو حل بنص الآية

القرآنية ، ويتذكرون كيف هب العلماء للرد عليه واستدلوا بحديث « من تشبه
 بقوم فهو منهم » وكفروا السيد . ولكن الاقوال التي قالها السيد منذ ثلاثين
 سنة، يقولها الآن أشهر العلماء في الممالك الاسلامية ، والافكار التي أظهرها السيد
 في الماضي يظهرها في هذا الوقت مفتي الديار المصرية بالحرية الكاملة و « النظافة »
 ونحن الآن نترجم الفتوى بحل طامع أهل الكتاب ولباسهم، ولكن لا ندري ماذا
 يقول الناس في هذا - اتفاق الحاضر مع الماضي - فان كان المسلمون قائلين بالتناسخ
 فليقولوا ضرورة بان السيد قد ولد (ثانية) في مصر وظهرت جريدته (تهذيب
 الاخلاق) في شكل (المنار) اه المقدمة

(المنار) لتعتبر الجريدة المحدثه بأقوال علماء المسلمين في مشارق الارض
 ومغاربها فان كانت كتبت ما كتبه من الطعن في الفتوى عن جهل وكانت تريد
 باستنجاد مسلمي الآفاق بيان الحق فهام أولاء قد أيدوا الفتوى فعليها أن
 تعترف بخطئها وتتوب إلى ربها . وباليات أصحاب الجحود ودعاة التأخير يملكون
 ان الاستاذ الامام وحزبه هم الذين يخدمون الاسلام والمسلمين في هذه البلاد
 دون سواهم ، وأن عقلاء المسلمين في جميع الاقطار معهم ومؤيدون لدعوتهم،
 ومرتبطون بهم بالمروءة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم . فلا يغتر
 حزب التأخير ، بمال فلان الفنى وجاه فلان الامير ، فان الحق يعلم ولا يملى
 وان حزب الله هم الغالبون . اه

اكتفى بهذا هنا . ومن شاء ان يطالع على نموذج من الفتاوى التي كان يحيلها
 الاستاذ الامام على مؤلف هذا الكتاب وبأذن له بنشرها في المنار فليراجع في ص ٥٧٤
 من مجلد المنار السابع تلك الاسئلة التي وردت عليه من (الهند) وهي ستة اهمها
 حكم قبول الوظائف من حكومة الهند والحكم بقوانينها واجوبتنا عنها .

المقصد السادس

من الفصل السادس

عمد في مجلس شورى القوانين

صدر الأمر العالي بتعيين الاستاذ الامام عضواً في مجلس شورى القوانين في ١٨ صفر سنة ١٣١٧ الموافق ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ وبعد ثلاثة أيام حضر جلسة المجلس فقدمه الرئيس الى الاعضاء فنهوه بهذه العضوية مستبشرين، ولما لم يكن في المجلس شغل أجلت الجلسة الى أول أغسطس، وكان رئيس الجمعية عمر لطفي باشا، وهو أبغض الناس اليه بعد سلطان باشا لما علمه من خيانتهم لوطنهما كما تقدم فيما نقلناه من مذكراته (راجع ص ٢٣٣ و ٢٤٧ و ٢٤٩ و ٢٥٠) وقد قال لي يومئذ انه ليشق عليّ أن أحضر جلسات هذه الجمعية تحت رئاسة هذا الخائن لوطنه الجاني عليه، وأنا لا أستطيع أن أراه؟ فكيف أعمل في مجلس هو رئيسه؟ وتوجه الى الله أن يجعل له مخرجاً من هذه الخيرة أو المشكاة، فلم يلبث أن مات عمر باشا فجأة في ٩ ربيع الاول ١٧ يوليو، فما رأيته سرّاً بموت أحد سروره بموت هذا الرجل، لا لخيانته السابقة بل لانه كان يشق عليه أن يعمل في مجلس هو رئيس له ويضطر فيه الى مخاطبته، على ما كان عليه من الحلم وسعة الصدر والعفو والصفح ولكن عن أساء اليه لا إلى وطنه، كما سند كره في الكلام على أخلاقه، وفي هذه المسألة فائدتان إحداهما توجه الى العوام، والأخرى الى الخواص (الاولى) لو كان الاستاذ من الدجالين الذين يدعون الولاية لعد هذه الحادثة أو لعدّها له من يعنون بهذه الأمور من كراماته، أو لقالوا انه تصرف بعمر باشا لطفي فقتله بالتوجه أو بالهمة أو بالدعاء، كما يقولون مثله فيمن يسمونهم الاولياء المتصرفين في الكون، ولو رويت هي أو مثلها للدجال النبّهاني الذي تصدى لجمع ألف كرامة لأولياء عصره - كما قيل لنا - وعزيت الى غير الاستاذ الامام من مشايخ

الطريق المعروفين، أو المجاذيب المجهولين، لكتبها وعدّها من أكبر الكرامات، ولكن الامام الحكيم المصلح المقاوم للخرافات، لا يمكن أن يكون عندهم من أهل الكرامات، بل لا يثقون بدينه وإيمانه، لأن الدين في نظرهم عدو للعقل والحكمة، وصاديق للخرافات غير المعقولة، وكيف لا وقد روى لهم بعض الوضّاعين أن نبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه دعا على غلام مر بين يديه وهو يصلي فابتلاه الله تعالى بالكساح أو الفالج، وعاش عمراً طويلاً وهو عبرة للناس ومعجزة بزعمهم للنبي (ص) ولم يستشكل الخرافيون من علمائهم من الرواية إلا أنها عقاب اغلام غير مكلف شرعاً، وانتحلوا لذلك أجوبة تدل على فساد عقولهم لا على جهلهم فقط. لولا ان الدين عند هؤلاء حليف الخرافات لاستشكلوا هذا الحديث ببطلان متنه، لو فرض ان المحدثين قالوا بصحة سنده، لان الرسول الذي وصفه ربه وامتن به على قومه بقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وامتن عليه بقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ما كان ليدعو على غلام ولا على رجل كبير يمر بين يديه بأن ينتقم الله منه طول عمره، وقد ثبت في شمائله الصحيحة انه ما كان ينتقم لنفسه، وانه لم يأذن بعقاب اليهودية التي أطعمته وبعض اصحابه الشاة المسمومة، وانه قال في المشركين الذين قاتلوه وشجوا رأسه وكسروا سنه « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » بعد هذا البيان أقول انه يصح أن يكون موت عمر باشا لطفي فجأة في ذلك الوقت كرامة للاستاذ الامام، لا من باب التصرف المزعوم والانتقام بخوارق العادات، بل من باب توفيق أقدار لأقدار، بما فيه الفرج والمخرج أو الفائدة لبعض الاخيار، فيما عون لهم على نفع الناس.

(الفائدة الثانية) المقصودة بالذات الاعتبار بوطنية الاستاذ الامام وأخلاقه، وبيانها ان أكبر عيوب كبراء أمتنا والخواص فيها، أن عيوب الوجهاء عندهم مغفورة، ففما يفعل الامير أو الوزير أو المدير أو الغني من خيانة أو فسق أو ظلم فانه لا يجد في معاشريه ولا غيرهم من أهل عصره من يحقره أو يهجره أو يتجهم له لأجل ذلك أو ينكر عليه فعله بالكتابة، بل لا يجد أحداً يقصر في تعظيمه وتكرمه.

هذه جريدة المؤيد الوطنية الاسلامية التي هي أجدر جرائد مصر بمعرفة تاريخ وقتها ورجال وطنها قد قالت عقب ذكر موت هذا الرجل الخائن الذي كان من مهدي احتلال الانكليز للاسكندرية بل طلبه بالفعل: انه كان «في كل وظيفة وعمل معروف بالجد والاجتهاد والحزم والنشاط، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى ومكارم الاخلاق» فانظر الفرق العظيم بين الشيخ محمد عبده والشيخ علي يوسف في الشعور الوطني والاخلاق، قلما يوجد أحد في مصر يغمص الشيخ عالياً في وطنيته، أو يصفه بجهل تاريخ مصر وسيرة رجالها في عصره، لكنه قد جرى على ما تعود الكتاب وغيرهم من مداهنة الوجهاء. في حياتهم او اولي قرباهم بعد مماتهم فلو كان أهل العلم والوجاهة وحلة الاقلام في مصر على منهاج الشيخ محمد عبده في دينه أو وطنيته — ولا أقول مثله في ذلك أو في درجته — لما استطاع عمر لطفي باشا ومحمد سلطان باشا أن يعيشا بعد الاحتلال الانكليزي عزيزين مكرمين نعم انه قد حدث اخيراً في مصر ضرب من الانتقاد على الكبراء والوجهاء في الصحف ولكنه مفسد للوطنية والاخلاق، لاسباج لها، فن أكثر أصحاب الجرائد. والكتاتين فيها يتبعون في ذلك الهوى، ويستبيحون هتك الاعراض واذاعة الفواحش، وهم لا يختلف أهوائهم لا يسلم من أفلامهم أحد، قالذي لا يعرف الناس باختباره لهم لا يمكنه ان يعرف من الجرائد حقيقة حالهم وأما سيرة الاستاذ الامام في هذا المجلس فقد قالت فيها من ترجمته في المنار ما نصه:

عمله في مجلس الشورى

في سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م عين عضواً دائماً في مجلس الشورى فانتقل المجلس به من حال إلى حال. كانت الحكومة قلما تحفل برأي المجلس، وكان المجلس لي نظر الامة وفي نظر أعضائه الوكلاء عنها غير مضطلم بما أوجد لأجله، حتى ان جلساته كانت قلما تلتئم على أصول نظامه بحضور جميع أعضائه أو معظمهم. فلما دخله نفخت فيه روح جديدة زال بها سوء التفاهم بينه وبين الحكومة، فصارت

تحتفل برأيه وتحمله من الاعتبار ما لم تكن تحمله ، فتأخذ برأيه فيما يمكن الاخذ به وتبين له سبب عدم اخذها بما لم تأخذ به ، وقوي رجاء أعضائه في خدمتهم وانتظم عقد اجتماعهم ، وعظمت ثقة الامة بهم ، وكان أكثر ما ترسله الحكومة إلى المجلس لينظر فيه يؤلف له لجنة تحت رئاسة الفقيه ، لتمدق النظر فيه وتعرض رأيها على المجلس . وكان له رحمه الله الرأي العالي والصوت المسموع ، في كل مسألة وكل مشروع ، فكنت تراه في المسائل المالية حاسبا اقتصاديا ، وفي المسائل الادارية اداريا ماهرا ، وفي اللوائح والقوانين قانونيا خبيراً ، وفي الامور الشرعية اماما فقيها ، وكان المجلس يعود اليه مذاكرة الحكومة في الشؤون العظيمة ليكون الحد الاوسط في شكل القياس فتخرج به النتيجة صحيحة في خدمة البلاد

وقد كادت أعمال هذا المجلس تغال معظم وقته فكنت أنا لم من ذلك لاعتقادي ان وقته آمن من أن ينفق في خدمة المجلس ، فلا أكاد أجد فرصة إلا وأرغب اليه فيها بالتخفيف والاقلال من الاشتغال بعمل المجلس ، حتى قلت له مرة ان الحكومة المصرية يشبه ان تكون أعمالها وقوانينها مؤقتة ، فهي عرضة للتغيير ، فرب عمل تنفق فيه أياما طويلة لتقره الحكومة على ما ترى انه أنفع للبلاد ، لا تلبث هي بعد ان تقره ان ترجع عنه بعد زمن قصير أو طويل ، ويوشك ان تنفق في تحقيق بعض الامور أياما كثيرة ثم لا يتيسر اقناع الحكومة به . او تقتنع بانه نافع ويمنعها مانع من العمل به ، ولو صرفت مثل هذه الاوقات في الكتابة والتأليف لكان ما تكتب هداية لهذه الامة باقية مابقيت الامة . فقال : إن الغرض الاول من العمل في المجلس هو التعاون مع الاعضاء على الجد والاهتمام بالبحث في الامور العامة ومصالح البلاد ، وتربية الرأي العام في الامة ليكون ذلك إعداداً لنفوس طائفة منا للفصل في الاحكام بالشورى (اي الحكومة النيابية التي بثت فكرتها استاذة الافغانى) فاذا ارتقت هذه الملكية في الهيئة الحاضرة للمجلس فانها تنتقل منها إلى الهيئة التي تخلفها ويكون ذلك جرثومة من جراثيم الاصلاح في البلاد . فعاتت من هذا الجواب انه لا يترك مذهبه في الاصلاح من طريقة التربية العملية في عمل من أعماله ، وسيأتي ذكر مذهبه هذا في محله . اهـ

وهاك ما قاله صديقه وزميله في المجلس حسن باشا عبد الرازق في تأييده في حفلة ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاته مصداقاً لهذا مع تلطف مع العبارة :

« اختارت الحكومة الاستاذ - رحمه الله عليه - عضواً في المجلس وتعين بأمره في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ وأول جلسة حضرها كانت يوم الخميس ٢٩ منه وكان إذ ذاك بين أهل الحل والعقد في الحكومة وبين رجال الشورى شيء أشبه بالخلاف في الرأي أدى إلى أن الحكومة نفذت كثيراً من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للامة في عدم العمل بها ، وصرفت النظر أيضاً عن كل أوجه التعديل في المشروعات التي كان يرى أن الصلاح والنفع للامة في تعديلها ، فلما جاء الاستاذ إلى المجلس ونظر في الامر نظرة الحكيم البصير وعرف ان ليس هناك ما يدعو إلى هذا الانفراج ، وإنما هو سوء التفاهم باعد ما بين المشارب على تقاربها ، سعى رحمه الله في أن يزيل أسباب هذا الخلاف فكان ما أراد ، وعرفت الحكومة ان المجلس إنما يطلب ما فيه السعادة للامة ويبتغي الخير لها ، وان ليس له غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها مادامت تتفق مع مقصده ، وعلم المجلس أيضاً ان الحكومة لا تقصد إلى شيء وراء ما يقصده لمصلحة البلاد . وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يتعسر حله »

« كان الاستاذ رحمه الله عليه واسطة العقد في مجلس الشورى فالتفت حوله القلوب ، وعرف الكل مكانته من قوة الحجة وسداد الرأي وطهارة النية ، وكان اخوانه من رجال الشورى يلجؤون اليه اذا اشتبه الامر وخفي الصواب ، فينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، وكان مع هذا أمرع الناس قبولا إلى الحق ، وأوسعهم له صدراً ، فاذا سمت اليه الحق هشت له نفسه ، وقرت به عينه ، ولم يصرفه عنه تمسك برأي ولا تعصب لمشرب

« وكثيراً ما كنا نباحثه في أمر اختلاف النظر فيه بيننا وبينه فيرجع إلينا ويوافق برأيه رأينا ، ولم نر مثله في احترام الآراء مادام مصدرها شريفاً لم يشبه الغرض »

« ولقد كنا نختلف معه في رأي وبجهر كل منا برأيه ويدعو اليه اعتقاداً منه بأنه الحق ، ولا نزال بعد ذلك أخلص الناس سرّاً ، وأصفاهم ودّاً

« كان رحمه الله يتألم كثيراً لما عليه المحاكم الشرعية الآن من عدم كفاءة العمال وخلل النظام في الاعمال، ونزارة رواتب القضاة والموظفين وقلة العناية بشؤونهما حتى في محال مراكزها التي لا تليق أن تكون مستقرّاً لاصحاب اصدار احكام الشرع الشريف. وكان منذ تقلد وظيفة افتاء الديار المصرية لا يزال يلفت نظر الحكومة ويلح عليها بتلافي هذا النقص، فعمدت اليه أن ينظر في الامر ويبين لها كل ما في نظام المحاكم الشرعية من العلل وما يلزم لاصلاحه، فقام بالامر خير قيام، وطاف لذلك كل المحاكم في الوجهين القبلي والبحري، ودقق البحث في أحوالها وأعمالها وقد أودع ذلك في تقرير بين فيه بالتفصيل حقيقة الداء وما يجب له من الدواء وقدمه للحكومة. وهاهو لا يزال في محفوظاتها كما ان صدام لا يزال يقرع الاسماع إلى الآن

« وكان الشهور باحتياج المحاكم الشرعية إلى الاصلاح قد امتلأت به نفوس أعضاء الشورى أيضاً وانتشر بين أعضاء الجمعية العمومية حال انعقادها، فجاهرت به وطلبت من الحكومة، وأحيل هذا الطلب على مجلس الشورى لمبحثه، وهو أحاله على اللجنة التي كان يرأسها الفقيد رحمه الله، وفوض لها مخابرة الحكومة فيما ترى لزومه، وبسبب أن بمحنته وقررت مآرأته فيه عرضته على المجلس وهو أقره أيضاً، فانتهز الفقيد واخوانه أعضاء المجالس هذه الفرصة وأظهر للحكومة بأقوى حجة وأوضح دلائل ان الضرورة قاضية باصلاح المحاكم الشرعية وجعلها في مصاف المصالح الاولى للحكومة، فقتنعت بما تقدم من البراهين، وشكلت لجنتين تحت رياسته، الاولى مركبة من نخبة أفاضل العلماء، وكلفتها بجمع ما يلزم لعمل القضاة من الاحكام الشرعية. والثانية مؤلفة من أكابر رجال العلم والعمل أيضاً، وكلفتها بوضع مشروع لمدرسة القضاء الشرعي وجعل نظامها كافياً كافلاً لايجاد العمال الأكفاء، فكان رحمه الله مع ما فيه من شدة ألم المرض يواصل العمل في ليله ونهاره حتى أتمه وقدمه إلى الحكومة قبيل قيامه إلى الاسكندرية بيضمة أيام (١) والله يعلم ماسيؤول اليه بعده أمر هذا المشروع الخطير

« ان تفصيل أعمال الاستاذ وما أثره في مجلس الشورى لا تتسع له هذه الفرصة ومجمل ما يقال: انه لم يعمل في المجلس عمل مدة وجوده إلا كان له فيه الرأي الرشيد والقول السديد ، فما انتخبت لجنة في مشروع إلا كان أول المنتخبين ، ولم يتألف وفد لمفاوضة الحكومة في أمر إلا كانت له الصدارة وهو في كل ذلك عضواً عاملاً وعلماً متبصراً .

« كان رحمه الله واسع الاطلاع ، نير البصيرة ، في كل ضرب من ضروب الاصلاح ، فاذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيراً بصيراً ، واذا قدمت اللوائح الادارية لم يكن أقل من أهلها علماً بدقائقها وأسرارها ، واحاطة بمنافعها ومضارها ، واذا جاءت المسائل المالية رأيتها ماهراً بأساليب الحساب ، عارفاً بفنون الاقتصاد ، فكنا نجد منه في سائر الابواب علماً جماً ، ومعرفة وفهماً ، ورأياً صائباً ، وذهناً ثاقباً ، ولم يزل هكذا يعمل وهكذا يجاهد حتى عجزت قواه عن العمل ، وحال بينه وبين مراده الاجل .

« قضى هذا الفقيد الكريم مدته بيننا وهو كالقطر حينما وقع نفع ، وانا لنعلم ان البلاد تشكلت بموته رجالاً لا تعوضه الرجال ، وانتم بفقده في بقاء الاسلام ثلثة جانبها ليس بمسدود ،

« نسأل الله تعالى ان يجزل حظه من الرحمة ، وأن يوآه دار الكرامة ، وأن يعوض الامة والاسلام فيه خيراً . اهـ

أكتفي بهذا الاجمال من عمله في مجلس الشورى ففيه ما ينبغي من بيان خطته الاصلاحية ، وخدمته الوطنية ، وانا لم أكن أعني بالوقوف على تفصيل أعماله في تلك اللجان التي كان يتولى رئاستها ، ويكون رأيه هو الفاصل فيها . ومن ذا الذي كان يظن ان هذا الامام الناسك الزاهد ، والصلاح القانت العابد ، يحيط بدقائق الاصلاح المالي والاداري في البلاد ، وقد نسي الناس ان أول شيء فيه صاحب الدولة رياض باشا المراقب له ، ولا سيما هذه المادة التي هي تحرير الجزية الموسمية كان سلاسل الارهر هو كتابته مقالة في قانون تصفية ديون الحكومة ووجه الحاجة اليه كانت فصل الخطاب كما بيناه في محله (راجع ص ١٣٧)

المقصد السابع

من الفصل السادس

عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية

نبدأ هذا المقصد بما نشرناه بشأنه في ترجمته من المنار مع زيادة شيء من العبرة في تاريخها ، ونقفي عليه بعبارة صديقه وزميله في إدارة الجمعية وكيلها حسن باشا عاصم ، ثم نبين مقاصده الاصلاحية فيها بشيء من التفصيل بما ننقله عن المنار من الكلام على احتفالات مدارس الجمعية وما كان ينشره فيها من درر الحكم ، ونوابغ الكلم ، في تربية الامم ، فنقول :

جاء في ص ٤٨٩ من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان مانصه :
يوجد في كل قطر من بلاد المسلمين أفراد تفرقت فيهم الفضائل الكثيرة التي هي مناط حياة الامم ولكن يعوزهم شيء للحياة الاجتماعية في هذا العصر هو أهم شيء وعليه يتوقف كل شيء وهو التعاون على الخدمة العامة والاعمال المشتركة . وانك لا تكاد ترى في قطر إسلامي جمعيات ولا شركات ناجحة يرجى خيرها للامة إلا ما بدأ به مسلمو الهند ومصر في ظل الحرية الانكليزية ، ولا يزال كثيره في مهد الطفولية ، ولم تنجح في مصر جمعية من الجمعيات الكثيرة التي ألفت فيها بأسماء مختلفة لمقاصد مختلفة مثل نجاح الجمعية الخيرية الاسلامية ، ولم تصادف جمعية منها ما صادفته هذه الجمعية من الصدمات ، التي يعز فيها الصبر والثبات ، وكان الفضل الاول في ثباتها ونجاحها للاستاذ الامام أحسن الله جزاءه

أنشئت الجمعية للتعاون على تربية أولاد الفقراء والمساكين من المسلمين وإعانة العاجزين منهم عن الكسب على شقاء الحياة ، فأتهمها أعداء البشر بالسياسة ، وسعوا بها إلى ذوي النفوذ والسلطة ، ولولا سعيه في الدفاع عنها وإقناع أهل الحل والعقد بأنها خيرية محضة ليس من موضوعها ولا مما تقصد اليه شيء سياسي أو

مري لغفت رسومها . ثم انه خدمها بنفسه وبالتعاون مع أصفياثة المؤسسين لها معه كوكيلها وأعضاء ادارتها لهذا العهد خدمة جليلة ، حتى ارتقت عن طور الطفولة وصار ثباتها مضمونا بحول الله وقوته . ومما انفرد به في خدمتها دعوة الامراء والوجهاء والاغنياء إلى الاشتراك فيها ومساعدتها وتحصيله منهم قيم الاشتراك إذا قضت الحال بذلك

أسست الجمعية سنة ١٣١٠ وفي سنة ١٣١٨ انتخب رئيساً لها فزاد اجتهاده في خدمتها وكان من ارتقاؤها في زمن رياسته ان صار إيرادها في السنة الماضية ١٠٣٩٥ جنبها وكان في سنة (١٣١٧) ٤٤٣٠ جنبها وصارت أطيانها ٥٣٣ فدانا وكانت قبيل ذلك ٢٨٠ فدانا وصارت مدارسها سبعة وكانت أربما . على انه كان يرى أن الفائدة الاولى المقصودة بالذات من الجمعية هي تمويد المسلمين الاجتماع للخير والتعاون على البر والخدمة العامة وإثمار قلوب الاغنياء عاطفة الرحمة والاحسان بالفقراء كما كان يصرح بذلك في الاجتماع العام السنوي كل عام فهو فيها عامل بمذهبه في تربية الامة كما كان شأنه في غيرها جزاء الله عن هذه الامة أفضل الجزاء

هذا ما كتبه في ترجمة المنار المختصرة ، وأزيد هنا لاجل المبرة التاريخية بحال هذه الجمعية مسالتين من ضعف المسلمين في هذا العصر هما سبب تأليفها ، وبعض ما لقيته من العقبات وهو ما اشترت اليه في ترجمة المنار

(الاولى) ان السبب الاول لانشاء هذه الجمعية أن مشعوذاً روسياً (هو ما يسمى هنا بالخاوي) جاء مصر ورجح منها بأعاليه الغربية أوقا كثيرة من الجنيهات فخصص دخل آخر ليلة منها لاعانة فقراء البلد كما هي عادته في كل بلد ، وكان يعطي ذلك في بلاد روسية وأوربة وغيرهما من الاقطار للجمعيات الخيرية ، لهذا أعطى دخل ليلة في مصر لمحافظة العاصمة (ابراهيم رشدي باشا) ليوصله إلى جمعيتها الخيرية لاسلامية . فلم يشأ المحافظ أن يوزعه على الفقراء ، بل استشار فيه بعض كبار العقلاء ، فذكرهم ذلك بأن من أكبر العار على مسلمي مصر أن ليس فيها جمعية خيرية لمواساة فقراء المسلمين وإعانتهم على معيشتهم وتربية أولادهم . مع العلم بأن لجميع طوائف

النصارى واليهود المقيمين في هذه البلاد جميات خيرية ، فوضعوا نظام تأليف (الجمعية الخيرية الاسلامية) وجعلوا ذلك المبلغ الذي وهبه المشعوذ الروسي رأس مال لها وأظنه يزيد على ألف جنيه ، وقرروا أيضا أن تقيم الجمعية احتفالا في حديقة الازبكية يوجد فيه أنواع اللهور المباح والشعوذة ويكون دخولها للتفرج برقاع تباع بالدرهم لاعانة الجمعية

وكان الاستاذ الامام وحسن باشا عاصم وسعد باشا زغلول وأحمد حشمت باشا ودرويش بك السيد احمد رحمهم الله أجمعين قد وضعوا في نظام الجمعية مادة كانت هي الكافالة لنجاحها المالي واستمرارها ، وهي ان نصف الدخل السنوي للجمعية يضاف إلى رأس المال لاجل الاستغلال ، والنصف الآخر يكون أكثره لتعليم أولاد الفقراء وتربيتهم وأقله لاعانة من ثبتت عند الجمعية حاجتهم . وسبب هذا ضعف ثقتهم بأهل البلاد أن يمدوا الجمعية بالاشتراك السنوي على قلته وكان حسن باشا أضعفهم ثقة بالناس ، كما بينت ذلك في ترجمته ، وكان هو الواضع لمشروع نظام الجمعية ثم أقره المؤسسون بعد البحث فيه ، جريا على العادة في مثل هذا ، وكان من دلائل إصابتهم في إساءة الظن أن كثيراً من خيار المشتركين ومن أعضاء مجلس إدارة الجمعية أيضا كانوا يمتطون في دفع الاشتراك السنوي ، بل يمنعون منه ، حتى ان الاستاذ الامام الرئيس أمر بأسماء بعض أصدقائه منهم فحيت من دفتر المشتركين وقد كنت مرة مع الامام الرئيس والوكيل حسن باشا في إدارة الجمعية (بقية الغوري) وجرى هذا البحث فقلت لها : إنه لو لاهذه المادة التي وضعتوها في النظام الاساسي للجمعية لما ثبتت هذه الجمعية ونمت بما تبدلان من اليهود في العمل لها ، أو لكانت حياتها مرتبطة بحياتها كما

وقد اقتسم العمل فيها شق الابلقة للشيخ الرئيس كان هو الذي يسعى لاعانة الكبراء لها ويدافع عنها مانها جم من الاشرار ، وهو الذي بث روح الدين والتربية الاسلامية في مدارسها ، وكان ينفع من روحه الاصلاحية في أعضاء إدارتها وجمعيتها العامة كما أراد فيما يأتي والباشا الوكيل هو المدير للمدارس والقائم بالأدارة وحفظ النظام كما بينته في ترجمته من مجلد المسار العاشر

(العبرة الثانية) ان أعداء أنفسهم وملتهم ودينهم ووطنهم قد كادوا لهذه الجمعية وسعوا لدى سلطة الاحتلال لاجل إبطالها فاتهموها بأنها تساعد مهدي السودان بالمال وقدموا في ذلك مستندات مختومة بختم للجمعية مزور فأقضى ذلك إلى تفتيش إدارة الجمعية وكان الاستاذ الامام غائبا عن مصر ولما حضر أقنع لورد كرومر نفسه بأن باطن الجمعية كظاھرھا ، ليس فيها أدنى شائبة للسياسة وأنه مستعد لحمل كل تبعة تثبت من خلاف ذلك ، وما كان أحد يتجرأ غيره على ذلك . وآل الامر إلى أن صار لورد كرومر يدفع إعانة للجمعية في كل سنة ، فهذا ما أشرت اليه في عبارة الترجمة

(كلمة وكيل الجمعية حسن باشا عاصم في تأييده له في حفلة الاربعين)

(من ص ٢٤٣ من ج التاريخ الثالث)

« كان رحمه الله يمتدح انه لا يرجى خير لأمة الا اذا دبت في أفرادها روح الاعتماد على النفس بعد التوكل على مسبب الاسباب ، وعلى التعاون على خدمة العامة - الامر الذي لا يتأتى إلا بالترية والتعليم . ولما كان رحمه الله يرى نفسه مخلوقة تربية الامة وتعليمها فقد كان من المؤسسين للجمعية الخيرية الاسلامية في سنة ١٣١٠ هجرية وله من العمل فيها ما يجعله في مقدمة أعضائها ، فانه كان يحض الامراء والعظماء والسراة على الاشتراك فيها ويحصل قيم الاشتراكات بنفسه اذا اقتضت الحال ذلك ، ويعمل كل ما في جهده لارتقائها واتساع نطاقها وكان يرى ان الفائدة الكبرى من هذه الجمعية هي تعويد المسلمين على الاجتماع لاجل التعاون وإعمار قلوب الاغنياء عاطفة الرحمة والاحسان على الفقراء كما كان يصرح بذلك في الاحتفال السنوي من كل عام . وله فوق ذلك كله خدمة جليلة في الجمعية ، اذ كان أن ذوي الغايات وشوا بالجمعية عند أولى الحل والعقد لدرجة كادت تقضي عليها لو لا انه دافع عنها حتى أزال سوء الظن فيها ، وحلت محلها الثقة التامة بها ، وقد برأس عليها من سنة ١٣١٨ لغاية وفاته رحمه الله

أما نجاح الجمعية في عهد رياسته لها فيظهر من المقابلة الآتية :

سنة ١٣٢٢	سنة ١٣١٧	الإيراد
١٠٣٩٥	٤٤٣٠	جنيها
٧	٤	عدد المدارس
٧٦٦	٣١١	عدد التلاميذ
٥٣٣	٢٨٠	عدد الاطيان التي تمتلكها الجمعية

هذه هي حياة المرحوم الشيخ محمد عبده ، وقفها على خدمة دينه ووطنه وأمته ، فطيب الله ثراه ، واجزه عنا أفضل ما جازيت به ناصحاً في دينه ، أميناً على مصلحة قومه ، ووقفنا اللهم لاقتفاء أثره في هذه الحياة . انك سميع مجيب الدعوات يا رب العالمين . آمين

الإصلاح الديني والاجتماعي

(الذي كان يبثه في الجمعية ، وشواهد في احتفال مدارسها السنوية)

(الاحتفال الاول بامتحان مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية)

(منقول من ص ٢٩٤ من المجلد الثالث من المنار الصادر في ١١ ربيع الاول سنة ١٣١٨)
احتفل في أصيل يوم الجمعة الماضي في قبة الغوري الاحتفال الاول بامتحان تلامذة مدرسة مصر القاهرة لهذه الجمعية النافعة تحت رئاسة فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده افندي مفتي الديار المصرية ، وأحد أركان مؤسسي الجمعية وأعضائها العاملين . وقد حضر الاحتفال سعادة الفاضل الهام ماهر باشا محافظ مصر ، وكثيرون من العلماء والوجهاء . وافتتح الاحتفال بقراءة آيات من الكتاب العزيز قرأها أحد التلامذة بصوت رخيم ، وتجويد وترتيل ، انشروحت له الصدور . ثم قام رئيس الاحتفال فشكر الحاضرين عنايتهم بالجمعية وتنشيطها بالسعي لحضور احتفالها ، ورؤية نمرة أعمالها

ثم بين أن الغرض الاول من تأسيس الجمعية : تربية أولاد الفقراء من يتامى وغيرهم تربية يحافظون فيها على عقائدهم وآداب دينهم وأخلاقه وأعماله ، ويستعينون بها على معاشهم ، وتحصيل أرزاقهم ، ومن عساه يوجد في مدارس الجمعية من أولاد الاغنياء... فوجوده غير مقصود بالذات . قال : وان الامتحان الذي يعرض أمام حضرته اليوم هو مطابق لهذا الغرض ومبني على هذا الاصل ، ولهذا لا تسمعون فيه ذكر لغة أجنبية ، ولقد كان من رأي بعض الاعضاء المؤسسين أن تعلم في مدارس الجمعية اللغات الاجنبية لاجل الترغيب في الاقبال عليها ، وقد كان الجواب عن هذا الرأي انه ليس الغرض من مدارس الجمعية التجارة فترغب الناس فيها بما ليس من موضوعها ، وإنما الغرض تربية أولاد الفقراء فلو أمكننا أن نلتقطهم من الشوارع ثم نرضي أولياءهم لفعلنا

لم تنشأ الجمعية لمقصد أعلى من هذا في مدارسها ، كأخذ الشهادات والاستعداد للوظائف ، بل من أهم مقاصدها ان تنزع من النفوس اعتقاد ان التعليم لا فائدة فيه الا لاستخدام في الحكومة ، وهذا الفكر كان مستولياً على الامة ، ونحمد الله أن كثيراً من الناس قد انتبه لما في هذا الفكر من الخطأ والضرر . والجمعية توطن نفوس التلامذة في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه باتقان ، ويعيش مع الناس بالامانة والاستقامة : فولد النجار يكون نجاراً ، وولد الحداد يكون حداداً ، وولد الفراش يكون فراشاً . والتربية والتعليم يساعدان كلا على إتقان عمله وصناعته ، فيكون أكثر كسباً لانه أكثر إتقاناً للعمل مع الامانة والاستقامة ، ولا شك ان الانسان إذا ظفر بفراش كاتب مهذب يزيد في أجره ، ويطول عنده مكثه . ومن كان فيه استعداد لشيء أعلى مما كان عليه آباؤه وظهر عليه ذلك فانه يذبح اليه من نفسه والجمعية تساعد عليه ، وقد حصل هذا لبعض التلامذة . والجمعية مهتمة بإنشاء قسم صناعي في مدارسها لانه من مقاصدها الاصلية

هذا الاحتفال بامتحان تلامذة مدارس الجمعية لم يكن بمواطاة ، ولا كان تركه في الماضي إلى هذه السنة - وهي الخامسة من سني المدارس - عن قصد ، وإنما هو شيء جاء من نفسه واقتضته طبيعة العمل ، فمثل الجمعية فيه كمثل الطفل

الذي تظهر فيه بعد خمس سنين نمرة العلم . وقد ظهرت الرغبة فيه قبلا من أعضاء الجمعية على ثقتهم بحسن النتيجة لما فيه من ظهور نمرة العمل التي يسر بها العامل ، وتكون مدعاة لمساعدة إخوانه الآخرين له ، ومصرة من لم يستطع المساعدة ، فان كل مسلم يسره أن يرى إخوانه المسلمين موقنين للأعمال النافعة للأمة التي لا يستطيعها هو . وهذا هو السبب في دعوة حضرتكم إلى هذا الاحتفال ، وشكرنا لكم حسن الاجابة والقبول اهـ ملخصا

امتحان تلاميذ المدرسة

ثم وقف أحد الاطفال فسأله أحد المعلمين أولا : عن وجه حاجة البشر الى ارسال الرسل . فأجاب بأحسن جواب — أجاب بملخص ما هو مذكور في كتاب « رسالة التوحيد » التي لم يؤلف مثلها في بيان حقيقة الاسلام ، فصفق له الناصي تصفيق استحسان ، وأعطاه فضيلة الاستاذ الرئيس جائزة مالية . ثم وقف آخر فقرأ نبذة من كتاب (الدروس الحكيمية) واختار الاستاذ مما قرأه جملة أمره بكتابتها واعرابها وهي « وبلغ بهم هذا الحب المتبادل الى حد من ثقة بعضهم ببعض ان كان أحدهم — ثقة بإخوانه — لا ياتي أمراً الا بمشورتهم » فأحسن اعرابها الا انه توقف بكلمات ثم فطن لها من السؤال ، فدل هذا على انه اعراب عن فهم لا عن حفظ ألفاظ واصطلاحات وعلمت انه كان في نية المعلمين أن يلقوا عليه الاعراب قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم) الآية لما فيها من المناسبة للمقام

(١) ذكرني هذا مجاورا في الازهر يطلب العلم فيه من ٢٩ سنة وحضر جميع الكتب العالية وقد أمره فضيلة مفتي الديار المصرية من أيام أن يعرب جملة في غاية الوضوح فاخطأ في البديهيات . العبارة فيما أذكر « ولما كان القضاء هو المقصود ... قدمه مقدمة للاصل » الخ فقال (لما) حينية . و (كان) فعل ماض (القضاء) فاعل و (هو) ضمير فصل (والمقصود) فاعل الخ واشتبه في كلمة (مقدمة) فقال مرة انها فعل ولكنه لم يعين نوعه فسأله الاستاذ هل هو معرب ام مبني ؟ فقال : كل فعل مبني . ثم أنكر انها فعل وقال انها اسم ولكنه لم يعرف ما هو ، ثم أنكر كونها اسما كما أنكر من قبل كونها فعلا أو حرفا الخ !! فما هذا العلم ؟

ثم وقف آخر وألقى عليه مسألة حسابية فحلها قولاً وكتابة، ثم آخر فسئل عن مسألة هندسية فاحسن الجواب، وكان موضوع المسألة بناء حوض صفته كيت وكيت، ثم طلب منه أن يرسمه بحسب الوصف فرسمه رسماً حسناً. ثم وقف آخر وطلب منه أن يرسم قارة آسيا ففعل، وسئل فيها بعض المسائل فاجاب، ثم وقف آخر صغير جداً يظهر انه في السنة الاولى، وان عمره لا يتجاوز خمس سنين، وقرأ في كتاب التعليم قصة المرأتين اللتين اختصمتا إلى داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام في لولد المتنازع فيه فاحسن القراءة، وسئل أن يحل المعنى بالكلام البلدي فحله حل الحاذق الفهم، ثم اعتذر بصغره وقصره وانه لولا ذلك لاجاد الكلام وآتى بما يعجب به الحاضرون فكانت الوجوه تتدفق سروراً وتتلأأ بشراً لكلامه وبراعته، وأخذ الجائزة المالية من فضيلة الرئيس وصدق له النادي كما صدق لآخوانه من قبله. ثم قام آخر وتلا الخطاب الآتي، ألقاه إلقاء خطيب متمرن يعطي كل جملة حقها من الاشارات وهو:

« غير خاف ان الانسان محتاج بطبعه في هذه الحياة الدنيا إلى الاجتماع يبني جنسه على هيئة يكون بها التعاون والتعاقد ليحصل بهذا الاجتماع على ما تقوم به حياته من الغذاء واللباس والسكن والدفاع ويتم ما أراده الله به من العمران » ولهذا الاجتماع العمراني علوم وفنون جملة ولدتها الحاجات وحققها التجارب حتى صارت حقائق ثابتة يتوقف على معرفتها تمتع أفراد المجتمع الانساني بالراحة التامة والرفاهية الكاملة، وعلى قدر التمسك بهذه العلوم والفنون والعمل بمقتضاها تكون سعادة الامة وغناها، وبمقدار اهمالها والتقاعد عنها يكون شقاء الامة وعناؤها، ومن قارن بين الامة الغربية والشرقية في هذا العصر تحق ما قلناه واعتبره مسباراً يسبر به غور الامة، فمتى وجد أمة ينمو بين أفرادها حب التربية والتعليم حتى يمتزج ذلك بدمائهم، ويرسخ في نفوسهم، ويصير أسمى مطلب وأنفس ما رُب عندهم، يتيقن انها سائرة إلى مجد شامخ، وشرف باذخ، لا بد وان تبلغه يوماً ما، ومتى وجد أمة على الضد من ذلك جزم بانها هاوية إلى البوار، ومتقهقرة إلى الدمار. « واننا نحمد الله حيث نرى ان أمتنا المصرية قد نهضت نهضة سريعة في

الميل إلى التربية والتعليم . واتجهت لذلك أنظارهم ، وتساقبت اليه همهم . فبدلوا في هذا السبيل أنفُسَ النفائس ، وأسسوا كثيراً من المدارس . حتى صار هذا التقدم في الحال ، مما يبشر بحسن الاستقبال .

«وكان الباعث الاول لهذه النهضة الوطنية . تأسيس هذه الجمعية الخيرية الاسلامية ، وغرسها أطيب المغارس ، بإنشائها هاتيك المدارس . لتربية أبناء الفقراء ، واليتامى الذين ليس لهم أولياء ، مع مواساة من أخنى عليهم الزمان . من بيوت كانت من المجد بمكان ، فما ظهر هذا المشروع المحمود ، من العدم إلى حيز الوجود ، إلا وثقته أيدي النفوس الزكية بالارتياح ، حيث كان افضل عمل يوصل إلى النجاح والفلاح

«كان تأسيس هذا العمل المبرور ، والفعل الحميد المشكور ، بهمة نخبة أصفياء من العلماء والوجهاء في سنة ١٣١٠ هـ ليلية الموافق سنة ٩٢ شمسية . مؤيداً بالعناية الالهية . وممزرأاً بالرعاية الخديوية العباسية . حيث أسامه البر والتقوى ، وغايته الترقى في معارج السعادة إلى الدرجة النصوى

«وفي مبدأ الامر لم يبلغ عدد الاعضاء المؤسسين له سوى اثنين وعشرين . وما زالت سراة الامة تحنو بالاشفاق عليه ، وتتجاذب نفوسهم اليه ، حتى بلغ عدد الاعضاء العاملين والمشاركين ، ما يزيد عن الستمائة والثمانين ، ولما كان روح النجاح في الاعمال ، هو ملازمة الثبات لبلوغ الآمال ، قد وفق الله الاعضاء العاملين للتمسك بحبل العزم المتين والاعتصام بروابط الاتحاد ، والدأب على مافيه الصالح بكل جد واجتهاد ، حتى تم في زمن غير مديد ، كثير من العمل المفيد ، «فأول عمل ينبغي ان يذكر فيذكر ، ويشهر بين العالمين وينشر ، انشاء هذه المدارس الاربع ، الزاهرة في أسبوط وطنطا والاسكندرية والقاهرة رحمة بأبناء الفقراء وانتياشاً لهم من وهدة الشقاء ، وتمهيداً بالتربية الحميدة ، وتثقيف عقولهم بالعلوم المفيدة ، حتى يشبوا على حب العمل ، والاعتماد على الله ثم على النفس في بلوغ الامل . فينتفعون وينتفع بهم ، ولا يكونون عالة على غيرهم ، وقد اثمر والله الحمد هذا الغرس ، وطابت منه كل نفس ، فبلغ متوسط عدد تلامذة هذه المدارس الاربع ٣٥٠

تلميذاً وعدد الزائعين منهم منذ الانشاء إلى سنة ١٣١٦ هجرية ثمانين تلميذاً الآن
التحق منهم بقسم الصنائع ٤٣ تلميذاً على نفقة الجمعية وانتظم الباقيون في أعمال
أخرى تحسنت بسببها حالتهم المعيشية وكلهم من أبناء الفقراء المعوزين.

«واني أيها السادة الكرام، والعلماء الاعلام ممن شملتهم هذه التعطفات الرحمانية
وغرتهم نعمة التعليم في مدرسة مصر من مدارس هذه الجمعية، وأوصاني الحظ
الجميل، إلى وقوفي هذا الموقف الجليل، بين يدي الحاضرين من العلماء والفضلاء،
والاعيان والوجهاء، وهو موقف كان يصعب على مثلي أن يقفه، وإن يتلفظ فيه
ببنت شفة فله الحمد والمنة، على جليل هذه النعمة

«ومن أعمال الجمعية المشكورة، وآثارها الجليلة المبرورة، مد يد المساعدة
بالبر والاحسان، لبيوت تقلبت بها صروف الحداث فأصبحت بعد العسر في يسر،
وصارت بعد الشقاء في هناء، وهذا لعمري الحق احساس شريف، ومقصد سام منيف
يقوي دعائم الفضيلة، ويشيد أركان الخلال الجليلة، ويرغب النفوس في حب السخاء،
وتوثيق عرى الاخاء.

«هذا — ولما رأى رجال الجمعية ان التربية قسمان علمية وعملية، بدأت بالاولى
لتكون كاساس وطيد، صالح لان يرفع عليه خير بناء مشيد، وعزمت على ان
تردفها بالانية بقدر الاستطاعة، فتنشئ قسماً عملياً لما تمس الحاجة اليه من فنون
الصناعة، لتتم الفائدة للنابعين من التلامذة، ويتيسر لهم بهذه التربية الكاملة، التي
تمت بها قواهم الماقلة والعاملة، ان يعيشوا عيشة راضية، حائزين في هذه الشركة
الاجتماعية حظوظاً وافية. حقق الله أماني جمعيتنا الاسلامية، وأعانها على تميم هذه
المساعي الخيرية، وجعلها نموذج كمال ينسج على منواله، وتتسابق الهمم السامية
إلى الحذو على مثاله، حتى نرى الوطن العزيز رافلاً في حلل البهاء، بآثار نبيل هذه
الايادي البيضاء، وفق الله الامة للسداد، ويسر لها أسباب السعادة والاسعاد.
وأيدها بالتعاقد والالتزام، حتى يبشر المبدأ بحسن الختام

آمين آمين لأرضى بواحدة حتى أبانها آلاف آمين اه

وقد طلبنا هذا الخطاب ونشرناه لما فيه من الفائدة المتعلقة بتاريخ الجمعية وثمرتها

ثم صعد مرقى الاحتفال ثلة من التلامذة ولحنوا نشيداً جميلاً يتضمن شكر الله تعالى وشكر مؤسسي الجمعية ومساعدتها والدعاء للحضرة الخديوية العباسية التي جمعتها تحت رعايتها وأمدتها بالرغد والمساعدة، ثم ختم الاحتفال كما افتتح بتلاوة القرآن الكريم، وشكر رئيسه للحاضرين. فانفض الجمع منشرحاً صدورهم بهذا النجاح الباهر لاسيما بما رأوا من الهدوء والسكينة والنظام التي هي من آثار كمال التربية والتهديب

(احتفال مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية (الثاني) بمصر)

(منقول عن صفحة ٣٤٧ من المجلد الرابع من المنار الصادر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣١٩)

احتفل بامتحان تلامذة مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية في مصر في مساء يوم الجمعة الماضي احتفالاً شائقاً، رأسه فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ورئيس، الجمعية وحضره كثيرون من العلماء والوجهاء. وافتتح الاحتفال بتلاوة أحد التلاميذ آيات من القرآن الكريم بالتجويد والترتيل، ثم أنشد طائفة من التلامذة انشودة نوهوا فيها بفضل رجال الجمعية ورحبوا بالحاضرين وختموها بالدعاء لمولانا السلطان والاعجاب العالي للخديوي. ثم وقف تلميذ وتلا خطبة وجيزة بين فيها الغرض من التربية والتعليم في مدارس هذه الجمعية، وهو تكميل النفس والاستعداد للدخول في مضمار المعيشة وتفضيل الصناعة والحرف على غيرها، وتوجيه النفس لترقية كل تلميذ صناعة والده وحرفته بما يكتسبه من العلم الذي كان والده محروماً منه — ومعلوم ان جميع هؤلاء التلاميذ من أولاد الفقراء المحترفين تعلمهم الجمعية وتربيتهم على نفقتها.

ثم وقف تلميذ آخر فأعطى كتاب « الدروس الحكيمية » ففتحها وقرأ منه نبذة جاءت أمامه بالعرض من الدرس الذي يبين حاجة البشر إلى الدين، قرأ فأحسن القراءة وبين معانيها على وجه الصواب، فناقشه الاستاذ الرئيس في الفهم، وسأله عن معنى الآية التي افتتح بها الدرس فأحسن في الاجابة والتفسير، حتى انه

فسر ما لم يذكر في الكتاب من تنمة الآية الكريمة .
 ثم تكلم تلميذ آخر في حكم فريضة الزكاة وفوائدها للمزكي وللفقراء وللبيئة
 الاجتماعية، ومن ذلك انها العلاج الواقي من داء الفوضى والاشتراك، وختم كلامه
 بقوله « لا فوضوية في الاسلام » فصفق له الحاضرون كما صفقوا لمن قبله ولمن بعده
 ثم امتحن تلميذ آخر باعراب جملة فيها تقدير دقيق فاجاد في الاعراب، وأنبا
 عن فهم يحالف الصواب، وامتحن آخرون في الحساب وفي الجغرافية والرسم
 حيث رسم أحدهم خارطة اوربا وبين ممالكها وعواصمها . وسأله الاستاذ الرئيس
 هل خطر لك أن تسافر إلى عاصمة من هذه العواصم؟ فقال: نعم تمنيت أن أزور باريس،
 فسأله ان يبين خطة السفر من القاهرة إلى باريس فيبينها أحسن بيان . وعرض بعض
 التلامذة على الحاضرين نموذجات من خطوطهم ورسومهم، وهي في غاية الاتقان
 والجودة . وخطب آخرون من التلامذة في بيان فوائد التربية والتعليم وفوائد الجمعيات
 الخيرية . ثم ختم الامتحان كما بديء بترتيل أحد التلامذة آيات من الكتاب العزيز

(خطاب الاستاذ في مقاصد الجمعية الصحيحة في مدارسها)

(وفساد تعليم مدارس الحكومة)

وبعد هذا وقف مولانا الاستاذ رئيس الجمعية وشكر الحاضرين عنايتهم بحضور
 الاحتفال بامتحان أولاد الفقراء ومشاهدة أثر تربيتهم، ثم تكلم في بيان غرض
 الجمعية من تربية هؤلاء الاطفال الفقراء وهو تهذيب نفوسهم ومساعدة كل
 واحد منهم على احياء صناعة والده وترقيتها، إلا ان يرى نفسه مستعداً لصناعة أعلى
 منها وأرقى، وذكر ان الجمعية تساعد بالمال من يتخرج من مدارسها ويشغل بصناعة
 والده مدة سنة، وانها تعلم التلامذة بانهم لو اديهم أولادهم الأقربين ثم الامة،
 وتعلمهم احترام آبائهم وأمهاتهم، وتنزع من نفوسهم الميل إلى وظائف الحكومة .
 وههنا انتقل الاستاذ لبيان مفاصل التربية في سائر المدارس وحال الذين يتعلمون
 فيها وفي اوربا، وكيف يكون الانسان بعد التعليم مشغولاً بالاماني الباطلة التي

لا تدرك ، محترماً لوالديه وأهله والناس ، يقضي معظم أوقاته في الملاهي ومعاهد البطالة واللغو في الغالب .

ثم بين وجه حاجة الامة إلى تربية الطبقات الدنيا وانها لا ترتقي ولا تسعد إلا بذلك لانهم هم الذين يقومون بمعظم الشؤون وأكثر الحرف التي لا يستغني عنها الخواص ولا يهنأ لهم عيش ما دام أصحابها فاسدي التربية فاقدى الآداب . وقال : ان جرائم الخير التي تلقىها مدارس الجمعية في نفوس التلامذة لا بد ان تنمو وتغلب جرائم الشر التي أصيدوا بها من البيشة (الوسط) التي يعيشون فيها لان الحق دائماً يغلب الباطل ، والخير يصرع الشر ، إلا اذا اضمحل أنصار الحق ودعاة الخير وضاعوا في كثرة الاشرار ، قال : وربما ينازعني بعض السامعين في هذه القاعدة مستدلاً باستحواذ الشرور على الناس : وأكتفي بان أجيب هؤلاء بكلمة واحدة وهي اثوني بعشرة من دعاة الخير في القوم الذين تحكمون بفسادهم ، وتغلب جرائم الشر فيهم على جرائم الخير .

ثم ختم خطابه بتوزيع الجوائز على نجباء التلامذة مبيناً ان لها مصدرين أحدهما ان اللجنة التي تألفت لايجاد أثر بخلد ذكر المرحوم علي باشا مبارك لخدمته المعارف ، كانت ارتأت ان تقيم له تمثالاً في نظارة المعارف ، ثم رجعت عن هذا الرأي لان معظم الامة المصرية يعد التماثيل اهانة لانكراماً ، ويسمون التمثال « الصورة المسخوطة » أي المسوخة . وترجىح اللجنة ان تعطي هذه الدراهم للجمعية الخيرية تستغلها وتجعل غلتها في كل سنة جوائز للناخبين من تلامذة مدارس الجمعية الخيرية ، بشرط ان يؤلف أحد أعضاء الجمعية كتاباً في تاريخ علي باشا وما أثره يوزع مع العجوائز أيضاً ويكون هذا أحسن ذكرى وأثر . قال : وقد تأخر تأليف هذا الكتاب في هذه السنة فرأينا من التعميل بالبر أن توزع الجوائز ، وفي العام القابل يوزع الكتاب إن شاء الله تعالى ، وهذا ما أصاب مدرسة القاهرة من هذه الجائزة يعطى لأربع التلامذة في العربية . وأما المصدر الثاني فهو ان الاستاذ الشيخ عبد الرحيم الدمرداش تبرع بعشرة جنبيات للجمعية شكراً لله تعالى على شفائه من مرض ألم به وجعلها دائمة في كل سنة . ثم انفض الجمع وخرج القوم مسرورين بما شاهدوه من النجاة والنجاح الذي كان فوق ما يؤملون .

(الاحتفال السنوي الثالث بمدرسة الجمعية الخيرية وخطبة المفتي)

(منقول عن ص ٢٧٣ من المجلد الخامس من المنار الصادر في غرة ربيع
الآخر سنة ١٣٢٠)

في أصيل يوم الجمعة ٢١ ربيع الاول احتفل في قبة الغوري الاحتفال السنوي
للمعتاد بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية في القاهرة ، وقد أجاب دعوة رئيس
الجمعية الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الهم الغفير من الفضلاء
والوجهاء فحضروا الاحتفال

ابتدأ أحد التلاميذ بترتيل آيات من سورة الفتح ، ثم ارتقى تلميذ آخر
الدكة التي يجثرون عليها ، فأعطى كتاباً ففتحها وقرأ فيه جملة صالحة قراءة
صحيحة ، فسأله الرئيس بيان معناها فينه . ثم اختبر آخرون بالأعراب وبالحساب
وبرسم خريطة أفريقية ، وبالتاريخ الطبيعي كيفية الدورة الدموية ، وقرأ بعضهم
مقالات محفوظة في فوائد الصوم وفوائد التربية وغير ذلك ، فأحسنوا جميعاً وصدق
لهم النادي مرات متعددة . وأنكر الاستاذ الشنيطي التصفيق على القوم انه بدعة
فكره بعضهم ، وأصر عليه الا كثرون لان بعضهم يراه من العادات المباحة التي
اقربن بها تنشيط التلامذة وإدخال السرور على قلوبهم ، وبعضهم لم يصل اليه الانكار
وكان الرئيس كما دته يناقش كل تلميذ فيما يقول ، ويطلب منه التعبير عما
قاله حفظاً بعبارة عرفية . ثم وزع الجوائز وهي على ما ذكرنا في السنة الماضية قسمان
(أحدهما) ريع المال الذي جمع لاقامة تذكاري لابي باشا مبارك لخدمته المعارف في مصر
(والثانية) تبرع الاستاذ الشيخ عبد الرحيم الدمرداش ، فهذا وزع على نفر من
الناجحين في المدرسة . وأما الاول فاستقر الرأي على أن يشتري به كل عام كتب
نافعة تعطى للتلميذين اللذين يفوقان سائر التلامذة ممن أتموا المدة بشرط أن
يشتغلا بعد المدرسة بتعلم صنعة من الصنائع ، وكذلك كان . وبعد ختم الاحتفال بترتيل
أحد التلاميذ آيات من الكتاب العزيز وقف رئيس الجمعية فشكر الحاضرين سعيهم
في الخير لمشاهدة أولاد الفقراء المتعلمين . ثم قال ما معناه ملخصاً :

خطاب الاستاذ الامام في التربية والتعليم

لا بد أن يكون بعض الحاضرين ممن يشتغلون بعلم التربية ينتقد علينا شيئاً أنه أوافقهم على انتقاده قبل أن أذكره وأجيب عنه: وهو أن يحفظ التلاميذ مقالات في الدين والآداب كالذي سمع منهم الآن فيها من الحكم والمعاني العالية ما لا ترتقي عقولهم إلى الإحاطة به، وما تعجز ألسنتهم عن بيانه بغير العبارة المحفوظة. أعيد القول بأن هذا الانتقاد صحيح، وأن حشو الأذهان بحفظ ما لا يفهم يفسدها ويذهب باستعداد العلم منها. ومدارس الجمعية تهتم بهذا الأمر، فنحن نؤكد دائماً على المعلمين أن لا يملوا التلاميذ كلاماً لا يفهمونه والعمل على هذا، والتفتيش من وزرائه لتحقيقه. وأما ما سمعتم فقد جاء من باب الاستثناء لغرض صحيح يوافقنا عليه المنتقدون. بادي الرأي. ذلك أن التلميذ يخرج من مدارسنا إلى العمل غالباً، ولا ثقة لنا بأنه يسمع في خطب المساجد ولا في دروسها شيئاً من حكم الدين وأسراره التي تبعث النفوس على العمل بأحكامه كالذي سمعتم من حكم الصوم. وكذلك لا نرجو أن يجد معهداً من معاهد العلم يسمع فيه شيئاً من مباحث التربية وعلم الاجتماع والآداب العالية بالأولى، فرأينا أن يحفظ كل تلميذ بعض مقالات في هذه المقاصد يجتهد في إفهامه معانيها بالجملة كما تقتضيه منه، ويوكل الفهم التفصيلي إلى حوادث الزمان، وارتقاء الفكر فيها، فهذه المحفوظات القليلة المفيدة دخر للتلميذ في مستقبله وهي كبذرة وضعت في أرض صالحة يتعمدها الزمان بالسقي والتغذية حتى تثمر الثمرة الصالحة إن شاء الله تعالى.

إذا أجلتم النظر في أحوال المسلمين ترون أن ترك تعليم الدين على هذا الوجه من بيان فوائده وحكمه وغرسه في النفوس (وهو الفقه الحقيقي في الدين) قد أدى إلى تركه من بعض المسلمين، والأتیان به على غير وجهه من بعض آخر. ولنضرب المثل بفريضة الزكاة التي حفظ تلاميذنا مقالة في فوائدها في العام الماضي كما يذكر من حضر احتفاله، وفريضة الصوم التي سمعتم فوائدها وهي التي تلي الزكاة في الترتيب الزكاة ركن من أركان الإسلام وبذل المال في إقامة هذا الركن يفضل غيره من أنواع البذل، ولذلك قرنت الزكاة بالصلاة في القرآن في أكثر المواضع، وقد

جعل الله إنفاق المال في سبيله آية الإيمان . وجعل تركه علامة النفاق والكفران ،
وقاتل الخليفة الأول بموافقة الصحابة كلهم رضي الله عنهم مانعي الزكاة ومع هذا كله
نرى المسلمين قد هدموا هذا الركن ونسوه حتى كأنه ليس من الدين بالمرّة .

وأطال الاستاذ الكلام في الزكاة وفي مضرّة تركها . ثم انتقل إلى الصوم وبين أن
بعض المسلمين تركوه وأن الذين يصومون لا يؤدّون هذه الفريضة على الوجه الذي
أرادّه تعالى بقوله (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)
وأوضح هذا بذكر ما عليه الناس — ثم انتقل إلى الكلام في تعليم مدارس الجمعية فقال :
إن مدارس الجمعية وضعت لتعليم أولاد الفقراء ما لا بد منه لكل إنسان
وهو أن يحسن القراءة بآلة أمته ويعرف ما يجب عليه من أحكام دينه ، ويترنّب عليه عملاً ،
والحساب والتاريخ وتقوم البلدان وطرفان من مبادئ التاريخ الطبيعي وحفظ الصحة
وأدب المعاشرة . ولا بد عندنا من تعليم هذه الأشياء على وجه مفهوم في مدة أربع سنين
وسن التلميذ لا يتجاوز الخمس عشرة سنة . وليس عندنا لغة أجنبية لأننا لا نعد
التلامذة للوظائف والشهادات ، وإنما نعدّهم للعمل بالحرف والصنائع ، وما ذكرنا من
التعليم لا يستغني عنه صانع ولا زارع

قال : كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاماً في البلاد ، ومنشأً في جميع الطبقات ،
ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم والفنون واللغات في المدارس
الثانوية والعالية ما هي مستعدة له . ولكن المانع للمشتغلين بالتعليم والتعلم من
التوجه إلى سلوك هذه الطريقة أمران : أحدهما أن رغبة الناس منصرفة إلى جعل
التعليم ذريعة لأخذ الشهادة لأنها شرط للاستخدام في الحكومة . والسبب في
رغبة الناس في خدمة الحكومة هو أن الناس لعدم تقمّم بأنفسهم ولجهالهم بطرق
الكسب الواسعة ، وضعف همّهم عن سلوك كراه ، يود كل واحد منهم أن يكون له مورد
من الرزق مضمون يعتمد عليه ، وإن كان وشلاً أسناباً فإذا استخدم بمائة وخمسين
غرشاً ولو في أعلى السميد أو السودان ينم آتاه ما يشاء ، ويأني هم الدنيا
وراء ظهره ، إلا إذا تيسر له السعي في شغاعة تزيد في راتبه ، أو ينتقل بها إلى
مكان غير مكانه ، ولو استعمل مواهبه التي منحة الله إياها وكدح في طلب الرزق

من طرقه الواسعة ، لا سيما التجارة ، لجاز أن يكون من أهل اشراف الواسع
 - وشنع الخطيب ماشاء على أصحاب هذه النفوس الخاملة الصغيرة ، ثم انتقل
 الى بيان السبب الآخر في عدم التوجه إلى التعليم النافع فقال:
 أما ثاني السببين فداؤه اقل ، وعلاجه أعسر ، أتدرون ماهو؟ هو قلة المعلمين
 والمربين فاننا نحتاج في التعليم الابتدائي إلى من يبدي التلميذ في السنة الاولى
 (بألف با) فلا تنتهي السنة إلا وهو يقرأ ويكتب ويعرف ما ذكرناه آنفا وعرض
 عليكم نموذج ، والذين يحسنون هذا النوع من التعليم قليلون ، وقد عزمنا على
 تجديد مدرسة للجمعية ولكننا عند المذاكرة فيها كنا نشكو من قلة المعلمين ، اننا
 نحتاج معلما لحدى مدارسنا فنعان ذلك في الجرائد فيجيئنا الراغبون بالاعشرات
 فمنتحنهم ونختار من نراه الامثل وإن لم يكن على حسب الرغبة تماما ، ثم يترن
 على طريقتنا في المدرسة مع طول التنبيه والتفتيش ، ومثل هؤلاء يجدر بنا أن
 نسميهم معلمي الضرورة

قال : ذكرت هذا لأوجه نفوس العلماء والوجهاء إلى تلافي هذا الخطب
 ومداداة هذه العلة التي هي أم العلال ، وذلك بانشاء مدرسة لتخريج المعلمين ، ولا بد
 في هذا من سعي العلماء ومساعدة الاغنياء ، ثم شكر للحاضرين سعيهم فانصرفوا شاكرين
 (أقول) كتبت هذا بعد أيام من الاحتفال في إثر انحراف في الصحة فان
 نقصت من فوائد الخطاب فني غير الفوائد الاصلية وإن زدت فربما كان كلمة في
 معنى الكلام تزيد في إيضاحه

مدرسة الجمعية الخيرية في المحلة الكبرى

(الاحتفال بافتتاحها والغرض من تعليمها)

(منقول عن ص ٦٧٣ من المجلد السابع من المنار الصادر في غرة رمضان سنة ١٣٢٢)
 ذكرنا في الجزء الخامس من هذه السنة خبر الاحتفال بتأسيس هذه المدرسة
 وقد تم والله الحمد بناؤها وأهلت بالتلاميذ ، وانتظمت عقود الدروس فيها واحتفل
 بافتتاحها رسمياً أول أمس بحضور رئيس الجمعية الاستاذ الامام و ابراهيم بك

الهابوي من أعضاء مجلس ادارتها ومنشئ هذه المجلة من أعضاء الجمعية وحضور
وجهاء المحلة وعمال الحكومة فيها وبديء الاحتفال بتلاوة أحد التلاميذ لآيات
من الكتاب العزيز ، ثم وقف الرئيس فبسم الله تعالى وصلى وسلم على
رسوله وشكر للحاضرين عنايتهم بحضور الاحتفال الدالة على رغبتهم في نشر
العلم ومساعدة الجمعية الخيرية على عملها وذكر الغرض من هذا التعليم الابتدائي
فقال ما خلاصته :

خطابه في الغرض من التعليم الابتدائي

المدرسة تعلم المبتدئين القراءة والخط والحساب ومبادئ العربية ، وتربيتهم على
الاعمال الدينية والادبية ، تعدم بذلك للعيشة الصالحة في أنفسهم ومع الناس الذين
يعيشون معهم ، وهذه المبادئ لا يستغني عنها انسان فقيراً كان أو غنياً ، فالفلاح
يحتاج إلى مكانة بعض الناس فاذا كنب بيده أو قرأ ما يكتب اليه وحسب ما يبيعه
ويشتره بنفسه فهو خير له من الاستعانة بغيره على ذلك ، ولهذا التعليم فائدة أعلى
من الاستعانة على المعيشة وهي ارتقاء العقل واستعداده لفهم المصلحة وتمييزها من
المفسدة ، فاننا نرى كثيراً من الناس يقع انتازع بينهم فيعتدي بعضهم على بعض
حتى تفنى ثروة الفريقين في التنازع وإذا حاولت اقناعهم بأن هذا ضار وأن الخير
والصواب في خلافه ، لا يسهل عليك ذلك لانهم لا يفهمون .

وأهم ما تقصده الجمعية من التربية في مدارسها تنشئة المتعلمين على الفضائل كالصدق
والامانة اللذين عليهما مدار السعادة ، ما نبحت أمة إلا بهما ، ولا هلك إلا بفقدهما ،
وقد حث الاسلام وجميع الاديان على هذين الخلقين ، ونهى عن الكذب والخيانة أشد
النهي واننا مع ذلك نرى الكذب والخيانة فاشين في الناس إلى حد سلبت معه
ثقة الناس بعضهم ببعض ، وقد اثمة مؤذن بالخراب والدمار . هذا التعاليم سلم يرتقي
عليه الغني إلى التعليم العالي ويجعل الفقير على مقربة من الغني في الفكر والخلق ، فاما
أن يجد فيلحقه ، واما أن يحسن الاستفادة منه بخدمته ومساعدته في أعماله بالصدق
والامانة ، فهذا التعاليم لا يستغني عنه أحد حتى الحمار والحمال

وتعلم المدرسة أيضاً مبادئ العلوم ولغة أجنبية لاعداد من يريد خدمة

الحكومة لها ، وهذا مالا ترغب فيه الجمعية نفسها لكنه من حاجة الناس وانما رغبتهم في الاستعانة به على تعلم الصناعة لمن يريدونها (١) ولها الرجا بهمة وجهاء المحلة وأهل الغيرة من أغنيائها في تأسيس قسم صناعي في هذه المدرسة فان المحلة بلدة كانت معروفة بالصناعة وقد وعد صاحب السعادة أحمد باشا المنشاوي بأنه مستعد لمساعدة الجمعية على إنشاء القسم الصناعي فلم يبق إلا اهتمام الوجهاء الحاضرين بالاكتتاب في جميع المركز وجمع المال الذي يمكن من أمام العمل .

وقال قد علمت بان أهل المحلة الكبرى ثلاثون ألفاً أو يزيدون وهي قاعدة مركز عدده كثير وليس فيها إلا مدرسة لقبط وأخرى للامريكان واني قد رأيت في بعض سياحاتي في البلاد الاجنبية مدينة عدد سكانها ستة عشر ألف نسمة ، وقد أنشأ الاهالي فيها مدرسة كلية تعلم فيها جميع العلوم العالية بمساعدة أهل المركز الذي هي قاعدته ، أنفقوا عليها كذا من ملايين الفرنكات (نسبت العدد) على أن فيها عدة مدارس ابتدائية وفي كل قرية من قرى ذلك المركز مدرسة ابتدائية فترجو ان نباع من مجارة أمثال هؤلاء الاحياء أن ترتقي مدرستنا هذه ويكون فيها قسم صناعي ، وأن يكون لنا في القاهرة مدرسة كلية فن القطر المصري كله لم يبلغ من التقدم في العلم ان كانت فيه مدرسة كلية تعلم فيها العلوم العالية

(خطبة صاحب المنار في مدرسة المحلة الكبرى)

نعم دعي كاتب هذه السطور الى أن يخاطب فيهم فليبق وقم فقال بعد الافتتاح بذكر الله : رغبتم اني في الكلام ، بعد ما سمعتم من حكم الاستاذ الامام ، وإن مثل الذي يعرض ما عنده من ذلك في حضرة الاستاذ اذا هو أحسن كمثل ذلك الوزير المعجمي في الاستاذ اذا كانت له منحة من جملة الجمال والمنطق بها فوق كتابه يترأى أمام الناس ويفتخره ، فليأتى من ذلك فمر بعض وذر الله ويقال

(٢) انما سمح الاستاذ الامام تعلم لغة الشريعة في مدرسة المحلة دون غيرها لانها مدرسة أغنيائها لا تعلم اولادهم على انهم الى القاهرة او غيرها للتعلم فهي ليست بمنشأة لتعليم اولاد الفقراء ودهم كسائر مدارس الجمعية

انه الامير مصطفى فاضل باشا المصري بان يدعو الى داره ويريه ما يصغر منطقته في عينه، فدعاه الى المشاء والسمر فرأى من الآنية والماعون والأثاث المرصعة بالجواهر ما خطف بصره حتى قيل انه رأى الشباشب (كلة مصرية مفردة ششب وهو الكوس او القفس في العربية) وسيور الققباب في المرحاض مرصعة بالجواهر فسار بعد ذاك يخفي منطقته تحت كسائه - وليكننا نقول شيئاً تلبية للطلب

جرت العادة بأن يكون الكلام في مقام الاحتفال بافتتاح مدرسة محصوراً في مدح العلم والتعليم، على أن العلم غني عن المدح باتفاق الناس على فضله، فلا يوجد جاهل ينكر شرف العلم وشدة الحاجة اليه ولكن الناس في أمتنا كانوا يعتقدون أن العلم محصور في أمور مخصوصة يكفي أن يقوم بها بعض الناس فيسقط الطلب عن الآخرين، وكان يصعب إقناع الجمهور بوجوب تعميم العلم وبانه يحتاج اليه في كل شيء، ولكن قد تغيرت الآن الأحوال في هذه البلاد، وصرنا نرى جميع طبقات الناس حتى الطهارة (الطبّاخين) يقذفون أولادهم ذكراً وإناثاً في المدارس لأحسانهم بأن التعليم لا بد منه، ولكن هذا الاحساس عند الأكثرين منهم لا يعرفون حقيقة ولا سببه ولا فائدة التعليم الحقيقية . والسبب الحقيقي فيه التأثير بحال الجانب الذين انتشروا في هذه البلاد، فهو سبب من الخارج لا من النفس، وهذه البلاد الآن في طور الانقلاب من حال إلى حال، إذ حدثت فيها مجاز جديدة للحياة أو تيارات تجرف في طريقها الناس من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، ومنها تيار تعميم التعليم، فالناس يرغبون في تعليم أولادهم وهم لا يدرون ماذا يتعلمون ولا ما هي فائدة التعليم، ولذلك لا يميزون بين مدرسة وأخرى

وقد سألت بعض المعلمين التعليم الثاني في المدرسة الخديوية عن رأي التلاميذ في فائدة التعليم مع العلم بأن أعمال الحكومة لا تنفي بجميع المعلمين؟ فقال انهم يرون ان المتعلم يقدر على أعمال شريفة يستغني بها لا يقدر عليها غيره . فقلت له ان الذي يتعلم ليعيش بعلمه لا غرض له إلا نفسه فهو محترف كالصانع والزارع، وقد رأينا كثيراً من العوام حصّلوا من الثروة بالزراعة والتجارة ما لم يقاربهم فيه متعلم

كزعزوع بك وفلان وفلان . والذين ارتقوا بالتعلم في مصر قليلون كفلان وفلان من القضاة وغيرهم ، ولم نجد فيهم من حصل بعلمه ثروة كبيرة كأولئك العامة ، فالتعليم في مصر لم يرتق الى درجة يسهل معها تحصيل الثروة الواسعة به ، على ان نفقات المتعلمين تكون أكثر ، فاذا طلبوا الثروة ولم يجدوها كانوا أشقى من غيرهم في العيشة . فقال هذا صحيح ،

ثم قلت له ألا يوجد في اخوانك المتعلمين من يفكر في التوصل بالعلم الى خدمة أمته وبلاده خدمة عامة فيكون أفضل من النجار والحداد والفلاح الذين لا يعملون إلا لاجل بطونهم ، وإن كان عملهم الجزئي نافعا للناس ؟ فقال يوجد قليل منهم يفكر في انشاء جريدة لخدمة الوطن . قلت وماذا رأوا من خدمة الجرائد للناس ؟ أي شيء ضار كانت عليه الامة فتحوات عنه بارشاد الجرائد ، وأي شيء نافع كانت منصرفه عنه فتوجهت اليه بمشها وترغيبها ؟ وهل تعرف أنت للجريدة الغلانية والجريدة الغلانية مذهباً ورأياً نافعاً تمتاز بالدعوة اليه لترقية البلاد ؟ فقال لا ، وكان قصارى الحديث معه أنه ليس لاحد غاية مقصودة من التعلم وراء خدمة الحكومة (أقول ويلحق بها الطب والمحاماة عند نفر قليل)

لهذا التعليم الناقص في مصر سيئات ومضار فان القن والمعاصي الضارة التي ألت بالبلاد بواسطة الاجانب لم تنتشر فيها إلا بسعي هؤلاء المتعلمين ، وقد قال الاستاذ الامام ان من مقاصد المدارس إفاضة المتعلمين الصدق والامانة فسلوه وسلوا غيره من العقلاء المختبرين ألهم ثقة بصدق أكثر المتعلمين وأمانتهم ؟ بجيبوك لا لا . والسبب في عدم إفاضة التعليم أمثل هذه الصفات هو أن القائمين بأمر التعليم لا يقصدون ذلك فان الحكومة انما تقصد بمدارسها إيجاد خدم لها يقدرون على أعمال مخصوصة ، وليس لها عناية بتربية الارواح وترقية الأمة ، هذا وان مدارس الحكومة خير المدارس وأرقاها تعلماً ونظاماً ، وأما المدارس الاهلية فالقصور منها التجارة والكسب ، وأكثر أصحابها لا يعرفون طريق الجمع بين الافادة المطلوبة والاستفادة ، وقد دخلت مرة إحدى هذه المدارس وسألت أحد المدرسين عن الكتب التي يقرأها في الدين - والدين كما لا يخفى أساس التهذيب - فقال

انني كنت بدأت بقراءة شيء من السيرة النبوية وبمناسبة ذكر المعراج ذكرت لهم فرضية الصلاة وأردت أن أذكر شيئاً من أحكامها فرأيت على وجوه التلامذة ما يدل على عدم الارتياح فتركت درس الدين : يعني ان هؤلاء لا يعلمون الا ما ترتاح اليه نفوس التلاميذ وتلذذه ، أي يريدون أن يكون التلاميذ هم نظار المدارس^(١) ولا نعرف في البلاد مدارس غرضها تهذيب النفوس غير مدارس الجمعية الخيرية ، وذلك ان رئيس هذه الجمعية ومساعديه في ادارتها هم خيرة رجال هذه البلاد معرفة وغيرة ، وأتدبرهم على إيجاد التعليم النافع والتربية الصحيحة ، ولا تنتج الامم الضعيفة أمثالهم إلا بعد مخض الزمان لها في قرون طويلة ، فيجب أن تفتنم فرصة وجودهم بمساعدة الجمعية على نشر التعليم والتربية على الوجه الصحيح النافع فانه ما قصر بها إلا قلة المال . وقد أحسن وجهاء المحلة صنعا بتفويض أمر مدرستهم الى الجمعية ، وانني أدعو كل واحد من السامعين الى مساعدة هذه الجمعية بنفسه وبدعوة غيره الى ذلك ، فان الامور العامة لا تحيا وتبلغ كمالها إلا بالدعوة فينبغي لكل واحد أن يدعو نفسه وكل من يظن فيه الخير الى مساعدتها على قدر استطاعة من غير تفرقة بين غني وفقير فان الله تعالى يقول

« لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا »

أي من كان رزقه واسعاً فلينفق كثيراً يليق بسعته ومن كان رزقه ضيقاً فلينفق بقدر حاله ، والقليل من الكثير كثير ، فلو أن كل واحد من اهالي القطر بذل للجمعية قرشاً واحداً في السنة لكان لها من ذلك ملايين تمكنها من تعميم التعليم في القطر وإيلاء كل من يبذل شيئاً للجمعية ولو قليلاً أنه شريك في الاجر وفي الشرف من بذل الكثير من حيث إن كل واحد بذل ما في وسعه ومن حيث إن العمل العام لم يقيم ولا يقوم به واحد وانما يتم بالتعاون والمساعدة وبذل القليل ركن من أركان التعاون اه

(١) نشرنا في صفحة ٦٠٢ من مجلد المنار السادس مقالة عنوانها (المدارس المصرية لانربي رجالا مستقلين-رد على المقتطف) فإبراجها من شاء استيفاء هذا الموضوع

خطاب ابراهيم بك الهلباوي

نم دعي الي الخطاب ابراهيم بك الهلباوي فقام وذكر ملخص تاريخ هذه الجمعية وبين انها جمعية عمل لا جمعية قول، وانه أحس من نفسه بالعجز عن الخطاب في احتفال مدرسة للجمعية على تمرنه على الخطاب. قال انني دخلت في هذه الجمعية في أول تأسيسها منذ اثنتي عشرة سنة ولم أخطب فيها قط، وقد عرضت مناسبات للخطابة فكنت استأذن مولانا الرئيس بالتلويح ووكيل الجمعية وبعض أعضاء الادارة بالتصريح، فكانوا يضعون اصابعهم على فرائهم اشارة الى وجوب السكوت، وقد قامت في هذه المدة جمعيات قوالية كثيرة فذهب بها ودرس رسومها القول والخطابة، على انها لم تصادف من المقاومة ما لقيت الجمعية الخيرية لاسلامية، وذكر اسماء هذه الجمعيات التي كانت محترمة في أوقات كان فيها ذكر الجمعية الخيرية مخيفا ومزدرى، حتى كان الداعي الى مساعدتها لا يتوقع إلا الخيبة، وحتى ان بعض الباشوات هدد محصلها مرة بالضرب بعد أن أهانه بالقول. وقد ثبت رجالها مع هذه الصعوبات على عملهم ليثبتوا للناس ان الساعي بالخير مع الصدق والاخلاص لا بد أن يظفر بالنجاح اذا هو ثبت وصبر وكذا كان ونالت هذه الجمعية الثقة في نفوس الناس بعدما تولى رئاستها مولانا الرئيس الحاضر، حتى أحس كثير من العقلاء بوجوب كفالتها للمدارس الاهلية التي ينشئها الاهالي تربية أولادهم، وكان السابق لذلك وجهاء الدنيا فقد أنشأوا مدرسة في بني مزار وعهدوا بادارتها الى الجمعية رجاء بقاتها وثباتها والانتفاع بتعليمها وكذلك فعلتم باوجهاء أهل المحلة فانكم طابتم من الجمعية أن تدير لكم هذه المدرسة التي أنشأتموها بأموالكم لمثل ذلك الغرض بمحض الاحساس بالثقة بالجمعية اه. وبعد أن أتم خطبة المفيد ختم الاحتفال كما يدي. بتلاوة القرآن الكريم، ولا صحة لما ذكر في المؤيد أمس من ان بعض المدعوين تصدوا للخطابة فمنعهم مأمور المركز الخ. فبثني على وجهاء المحلة طيب الثناء، ونرجو لهم كمال الارتقاء اه.

خطته الإصلاحية في الجمعية ومدارسها

الذي يؤخذ من خطب الاستاذ الامام في هذه الاحتفالات المدرسية ومن خطبه في اجتماع جمعيتها العمومية السنوية وكان يكرر فيها أن الفائدة العامة الكبرى من هذا الاجتماع هو تجديد شعور الاعضاء بفائدة الاجتماع بقصد التعاون على خدمة الامة الخادمة النافعة فهذا الشعور هو الذي يبعث الهمم ويقوي العزائم على النهوض والعمل المشترك للملة والامة الخ والذي يستفاد من حديثه معنا أيضا — وهو الذي أشربه وكيل مدارس الجمعية حسن باشا عاصم — هو ان الامة لا تتكون وتكون أمة واحدة في شعورها بحياتها الملية ومصالحها العامة وبحاجتها إلى التعاون على منافعها والدفاع عن حقيقتها في جميع طبقاتها بحيث تكون الطبقات في جسم الامة كالأعضاء في جسد الشخص ، إلا اذا كانت التربية والتعليم الاحداث موجهين إلى اصلاح النفس بالمعقائد الصحيحة والاخلاق الكريمة والآداب الحسنة ، والقيام بحقوق الله وحقوق الوالدين والاقربين والعجيران فسائر الامة بحيث يكون مجموع الامة كالسلسلة يهتز بتحريكها جميع حلقاتها — ومصداقا للمثل النبوي القائل « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام احمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) مرفوعا إلى النبي ﷺ في الجسد أعضاء ظاهرة وباطنة ذات وظائف مختلفة عمل كل منها لنفع الجميع والمها يشعر به المجموع ، فالعينان لا تبصران لاجل منفعة خاصة بهما ، والمعدة لا تهضم الطعام لاجل حفظ صحتها وحدها ، وكذلك الدماغ والقلب واليد والرجل . كذلك يجب أن تكون طبقات الامة تعمل عملها بالاتقان لمنفعة جميع الطبقات . ويكون ارتقاء كل طبقة وكلها في وظيفتها العملية ركنا من أركان ارتقاء الامة وكلها الاجتماعي والسياسي ، فهي لا تكون أهلا للحكومة النيابية مضطمة بها إلا اذا كانت طبقاتها كلها تشعر بحاجاتها المالية والسياسية شعورا واحداً ، فتكون أهلا لاختيار نوابها والسيطرة عليهم . ونماوسيلة هذا التعليم الاستقلالي المؤهل للقيام بجميع مصالح

الامة والتربية الدينية المصلحة للانفس الموجهة لها الى الاصلاح الخاص والعام هذا هو الواجب في التربية والتعليم في رأي الاستاذ الامام ورأي كل حكيم، ولكن القائمين بأمر التربية والتعليم في مصر لا يفكرون في هذا ولا يقصدونه سواء في ذلك التعليم الديني في الازهر وملحقاته، والتعليم المدني في المدارس الاميرية والمدارس الاهلية المقلدة لها

فأما الازهر وملحقاته فليس فيها إلا تعليم تقليدي في شكاه وموضوعه وغايته لما جرى عليه آخر السابقين فيها يشبه ما يسميه علماء الطبيعة بحركة الاستمرار لجسم دفعه دافع فانتهدت حركة الدفع القوية له وبقيت حركة الاستمرار تضعف أنا بعد آن، وليس لرؤسائه قصد يوجهون التعليم اليه غير ما يقصده الافراد من نجاة مجاور من الخدمة العسكرية إلى تحصيل شهادة علمية يكون حاملها مدرسا في الازهر او قاضيا شرعياً يعيش كل منهما براتب الوظيفة ويجري فيها على ما جرى عليه من قبله، لا يخطر لاحد منهم ببال أن ينقذ أمتهم وملته من ضعة، أو يعود عليها بمنفعة. بحيث تغير بسميه ما بانفسها من جهل ورذائل وفساد ليغير الله ما بها من ضعف وظلم واستبداد.

وأما مدارس الحكومة والاهلية فليس فيها إلا تعليم تقليدي صوري في شكله وموضوعه للمدارس الاوربية، وغايته تخرج موظفين للحكومة في جميع وزاراتها ومصالحها يكونون كالألات الميكانيكية لإدارة هذا العمل الكبير. وليس فيها شيء مما في المدارس الاوربية من تخرج رجال مستقلين في العلوم والفنون يرفعون قدر الامة بما يكشفون من أسرار الكون ومنافعها، وما يرقون من الصناعات فيها الخ كما انه ليس فيها أدنى فكرة في تهذيب الاخلاق ورفع شأن الفضيلة بالتربية الدينية وقد صار أمرها إلى الانكباب وكان المسيطر عليها أحاد قسوس البروتستانت في كان جل هم، محو كل أثر اسلامي منها. وللأستاذ الامام لأثمة في اصلاح تعليم الازهر والمدارس بأنواعها في مصر نشرناه في الجزء الثاني من هذا التاريخ (ص ٥٣٣- ٥٥٢) ولأثمة في اصلاح التعليم الديني في بلاد الدولة العثمانية نشرناه (ص ٥٠٥ - ٥٢٢) ودرس عام في التعليم الاسلامي ألقاه في تونس ونشرناه في

صفحة ٧٧٥ و ٥٩٨ من مجلد المنار السادس

وبجانب هذين النوعين من معاهد التعليم مدارس دعاة النصرانية وهي التي لها مقاصد عامة في التعليم والتربية . وجهة إلى جذب التلاميذ إلى دينهم ومذاهبهم أو إلى الاتحاد المحض ، وإلى نشر لغاتهم وغرس عظمة دولهم وثقافة شعوبهم في الانفس فجميع معاهد التعليم في مصر حرب للاسلام في عقائده وآدابه وسياسته وتشريعته بقصد وبغير قصد ونتيجة ذلك انها حرب للامة مانعة من ترقيتها واستقلالها وحدثها فوجه الاستاذ الامام عزيمته إلى مقاومة هذا الفساد كله باصلاح التعليم الديني في الازهر وملحقاته وإلى جعل التعليم المدني في مدارس الجمعية الخيرية اسلامي الصبغة يقصد به اصلاح الطبقات الدنيا من الزراع والصناع وأصحاب المهن الحرة من واطئة وعالية ، وترقية الصناعات الوطنية ومنع تعليم اللغات الاجنبية منها لكيلا تكون سبباً لجعل غاية التعليم خدمة الحكومة والجري على منهاجها المادي الفاسد المفسد للانفس ، وسبباً لعظمة الاجانب في القلوب والاندفاع لتقليد ما يروج تجارتهم ومصنوعاتهم ويحاولون ايجاد ما يغني عنها من مصنوعات البلاد . ولكن الجمعية قد تنكبت هذا الصراط المستقيم بعد وفاته ووفاة صنوه في الاصلاح حسن باشا عاصم (رحمهما الله) وصار التعليم فيها مادياً صوريا كتعليم المدارس الاميرية والاهلية ، حتى ان البنات يعلمن الرقص ولا يربين على الصلاة بالعمل فأبي خير يرجي للأمة من بنات لا يقمن الصلاة ولكنهن يتقن أنواع الرقص ؟ الا ان هذا هو الذي يزيد البيوت (العائلات) فساداً . والامة ضعفاً واعتلالاً ولم يكن الاستاذ الامام راضياً من التربية والتعليم في مدارس الجمعية الذي بينا وصفه في خبر الاحتفالات السنوي لها . بل صرح في بعض خطبه بأنه لا يزال تعليم ضرورة ، وكان يرى انه لا يبلغ كماله إلا بتخريج المعلمين الراقين في علومهم الدينية والدنيوية وفي أخلاقهم ، وان هذا لا يتم إلا باصلاح الازهر أو بانشاء الجمعية لمدرسة خاصة لتخريج المعلمين

وكذلك الكتب لم تكن تعجبه وقد عرضت عليه فكرة سنحت لي وهي تأليف كتب للتعاليم الدينية في درجاته الثلاث من العقائد والمبادئ بأن تكون

كتب العقائد على صراط القرآن في الاستدلال بآيات الله في الانفس والآفاق، على الوجه الذي ترتقي فيه علومها في هذا الزمان، وأن تكون كتب العبادات منها مبتدأة في كل باب بجملة ما ورد منها في القرآن الحكيم، ويتلوه جملة ما صح في السنة، وتذكر في الحواشي مدارك الأئمة، بترتيب سهل العبارة، فاعجبه هذا الرأي وقل لي أوجد هذه الكتب ونحن نقرر تدريسها في مدارس الجمعية الخيرية وقد كتب إلي من الاسكندرية في صيف سنة ١٩٠٢ في هذه المسألة مانصه: « رأيت حسن باشا وتذاكرنا في كتابي الفقه والعقائد فرأى رأيا لا يخلو من حسن وهو أن يكتب المجمع عليه في كل باب حتى في النجاسات ثم يكتب في حاشية الفصل من أسفل ما يهم من اختلاف المذاهب كلها ليكون ذلك هاديا إلى فهم الوحدة في تلك الكثرة، فاذا سهل عليك ذلك فافعل. وأحب أن أراك يوم الاثنين الآتي في عين شمس قبل الظهر اذا تيسر لك ذلك والسلام »

وأقول ان مسألة وضع الخلاف في الحواشي كنت ذكرتها له. وأما مسألة بيان الاجماع فكان من خطتي الأساسية كما بينته في مقالات المصلح والمقلد واعلم لم أذكرها له، وأما مدارك الأئمة فهي عندي غير خلافاتهم الجزئية

نم كتب إلي بعد عودته الى مصر بأيام كتابا أرسله مع ساعي الازهر قال فيه « حسن باشا أرسل يسألني اليوم هل شرعت في العمل لتحرير كتابي العقائد والفقه، وأحب ان أجيبه فهل شرعت؟ وبودي أن يكون الجواب: نعم وأن يتم العمل في مدة قليلة »

وأقول أما العقائد فقد كنت شرعت في كتابة رسالتين أو كتابين فيها أحدهما للمبتدئين والثاني لمن فقههم ولم أعلمها وأطلعته على الثاني فسر به، ونشرت نبذة منه في معنى صفة الحياة لله تعالى من تفسير آية الكرسي. وأما كتاب الفقه فارجأته لأجل مراجعة كتب المذاهب في الخلاف ولم يتسن لي ذلك وتوفاه الله تعالى ولم أحقق له والامة هذا الامل. ولا تزال هذه أمنيته وإن كثرت الصوارف عن إنجازها، وقد كثرت الشواغل عنها والله قادر على تيسيرها والامر لله العلي الكبير

رسم شمسي لمذكرة أرسلها حسن باشا عاصم وكيل الجمعية الخيرية الاسلامية

من الاسكندرية إلى الأستاذ الامام رئيس الجمعية بمصر بشأن تأليف

صاحب المنار كتابين في العقائد والعبادات ليدرسا في

مدارس الجمعية . وما كتبه الأستاذ الامام على المذكرة

كتاب العقائد والعبادات

عزيزي
احمواه تذكرا لشيخنا السيد باوعد الله وحكمهم
٨ يومه من

يوسف شفيق بهنه الطالب
ادع بن السكابين في الترتيب الكمال
من يلمن وضعها بين ايدي كنهه في اورد
الدراسة الثانية

المقصد الثامن

من الفصل السادس

عمد في جمعية إحياء الكتب العربية

قد كتبت في ترجمه المنار له في هذه المسألة مانصه :

كان رضي الله عنه يرى أن حياة الأمة بدون حياة لغتها من المحل ، وإن حياة العلوم العربية بمثل هذه الكتب الازهرية محال ، وإن لابد للإصلاح من إحياء كتب أئمتنا وكبار علمائنا التي ألفت أيام كان العلم حيا في الأمة ، فكان يسمى لذلك سعيه ، ويهديه وإسماعده طبعنا ذيك الكتابين الجليلين اللذين هما روح علم البلاغة - أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز - للشيخ عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة ولولا تصحيح الفقيه لهما واستحضاره لنسخهما من الاقطار النائية لما تيسر طبعهما . وفي سنة ١٣١٨ أسست في مصر جمعية خاصة لهذه الخدمة تحت رئاسته سميت (جمعية إحياء العلوم العربية) كانت قائمة أعمالها طبع كتاب (التخصص) لابن سيده في اللغة وهو كتاب لا نظير له في باب ولا غناء عنه في إحياء اللغة في هذا العصر . وقد شرعت بعد طبعه في حيا ، مدونة الامام مالك وعني الفقيه رحمه الله تعالى باستحضار نسخها من تونس وفاس وغيرهما من البلاد ، ولولاه لما تيسر جمعها كلها ، ولنا رجاء عظيم في بقاءها وحسن خدمتها بهمة من كان وكيلها وليس لرئاستها بعد الفقيه سواه الا وهو حسن باشا عاصم .

وقال حسن باشا عاصم في تأييده يوم ذكرى الاربعين مانصه :

عقب تقلده منصب الافتاء عين عضواً في مجلس شورى القوانين فكان المجلس على عهده من الخدمة النافعة والاحترام مالم يكن له من قبل ، فقد كان رحمه الله عامل التوفيق بين المجلس والحكومة وكان أهم غرض له من التعب الشديد في المجلس تمويد الأمة على دقة البحث في أمورها وتربية الرأي العام

فيها ، ولا ننس من خدمته للعلوم الاسلامية رئاسته لجمعية احياء العلوم العربية فقد أسست هذه الجمعية في سنة ١٣١٨ لاهياء كتب سلف هذه الامة وأفاضل علمائها، وكانت فاتحة أعمالها طبع كتاب المخصص لابن سيده في اللغة وهو كتاب لا نظير له في موضوعه. وقد تولى رحمه الله تصحيحه مع علامة اللغة المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي وان الفضل في خدمة الشنقيطي لهذا الكتاب راجع الى فقيدنا فانه لولاه لما أقام في هذه البلاد . وقد شرعت الجمعية بعد طبع المخصص في احياء مدونة الامام مالك رضي الله عنه ، وللفقيد من الخدمة في استحضار نسخها من تونس وفاس وغيرها من البلاد ما لولاه لم يكمل لنا استنساخ الكتاب كله اه هذا ما قاله زميله ووكيله في رئاسة هذه الجمعية وفي الجمعية الخيرية معا ، والذي قد بهما عن المضي في احياء كتب الائمة قلة المشتركين في الجمعية بالدرهم ، وقد حضرت اجتماعا لهما في ادارة الجمعية الخيرية بقبة الغوري بعد عودة الاستاذ من ميت غمر عقب توزيعه ما جمع لمنكوبي الحريق فيها من الاعانات ، فقال حسن باشا له مما زحاني كنت في ايام هذا الصيف أصرف جميع اوقات الفراغ من الديوان في المكاتب القديمة أبحث عن الكتب النفيسة ولا سيما تكميل نسخة المدونة القديمة ، التي عرنا على بعضها وانت تتنقل متنزها في البلاد ، والجرائد تتسابق الى ذكر تنقلات فضيلة الاستاذ ، قال الشيخ هذه هي العادة عندنا : الرئيس يكون قليل الشغل ويأبى اكثر حمله على الوكيل !! قال الباشا لو اعطينا للجمعية هذه الالوف الجنيهات التي جمعتها الاعانة أما كنا نخدم بها الامة بما هو انفع لها الف مرة من تمتع اهل ميت غمر بها ؟ ان الذين ماتوا بالحريق ذهبوا الى رحمة الله ، والباقيون من اهلهم ستظل معيشتهم على ما كانت لا تغيرها هذه الاعانات . قال الشيخ اني انما اقصد عند حدوث هذه المصائب الى تحريك شعور الرحمة في قلوب الناس وحملهم على مساعدة المنكوبين لتعويضهم البذل في المنافع العامة ، ومتى تعودوه سهل عليهم في جميع وجوه الخير والبر كجمعيةنا وغيرها . فرحم الله هذين الرجلين المصلحين اللذين لم يوجد لهما مثل في عصرنا ، ولا خلف يخلفها وفقنا الله للاهتمام بهذا الامام في خدمة الامة في كل عمل وكل حال ، ولنا في تاريخه هذا خير مثل وأفضل منوال

الفصل السابع

في شؤون العامة وهو يدخل في بضع مقاصد

(١) تدريسه (٢) مؤلفاته (٣) دفاعه عن الاسلام (٤) اغائته للمنكوبين في احداث الزمان (٥) أسفاره الى أوربة والاستانة وسورية وتونس والجزائر وصقلية والسودان (٦) آراؤه وآماله وأمانيه (٧) شمائله وأخلاقه (٨) مذهبه في الاصلاح ومذهب السيد جمال الدين والطنن عليهما

المقصد الاول

من الفصل السابع

تدريسه

كانت طريقة الاستاذ الامام في التدريس مباينة للطريقة الازهرية التي كان ينتقدها أشد الانتقاد بأنها مناقشة في عبارات الكتب فقد صرنوا على قراءة كتب معينة كل كتاب منها ثلاثة أو أربعة من المؤلفين ، وإن شئت قلت كل كتاب منها في الصورة هو ثلاثة كتب أو أربعة في الحقيقة : المتن ، والشرح ، والحاشية ، وقد يزداد عليها التقرير ، كل منها يفسر ما قبله ويذكر ما لم يحتمله عباراته من المعاني وما قد يرد عليها من الاعتراض ، وما يدفع الاعتراض من الاجوبة والاحتمالات التي تعد كثرتها آية النبوغ في التحقيق ، ولذلك كان يقول رحمه الله ان أهل الازهر يتعلمون كتباً لا علماً .

وقد جاهدتم جهاداً كبيراً على ترك قراءة الحواشي ، وكان يكره قراءة الشروح أيضاً ويترصص الفرص لتقايها أو ابطالها ، ولم يقرأ هو في عهد الاصلاح

الاخير في الازهر غير المتون ، واما ما وضعه من التعليقات على كتاب البصائر النصيرية في المنطق فلم يكن يلتزم قراءتها في درسه وانما وضعها لتسهيل مطالعة الكتاب على طلبة الازهر لدقة عبارته على كونه لم يرتب متناً متوسطاً خيراً منه .

وقد عمدنا المقصدين الاول والثاني من الفصل الرابع في تدريسه في الازهر بعد أخذه لشهادة العالمية وقبلها (راجع ص ١٣٣ - ١٣٧) وتدرسه في المدارس كدار العلوم ومدرسة اللغات . وأخبرني الذي كانوا يحضرون دروسه الاولى كسيد باشا زغلول وحفني بك ناصف ومحمد صالح باشا ان بيانه للمسائل كان في غاية الوضوح بحيث ينتقد من كان يحضر دروسه قراءة سائر المشايخ ويرغب عنها ، ولكن فاتني أن أسأله عن طريقته وأسلوبه في القراءة في الازهر ثم في دار العلوم وأظن أنهما عين ما عهدناه منه في الازهر أخيراً

وهو انه كان يقرأ عبارة متين رسالة التوحيد والبصائر وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ويبين معناها بعبارة مختصرة مفيدة قلما يحتاج سامعها الى سؤال ، فان استشكل مستشكل وسأل سائل أجيب بما يقنعه بالاختصار ، في قول فاصل ليس فيه شك ولا احتمال ، ثم يضع الكتاب أو الكراس أمامه ويبسط الموضوع العلمي بسطاً تاماً وافياً بتحقيق المسألة والاحاطة بالغرض منها ، بعبارات مختلفة سياقي وصفها في الكلام على ختام درس المنطق . وهذه الطريقة عكس ما كان يجري عليه السيد جمال الدين الافغاني فانه كان يبسط المسألة العلمية بما يجليها للسامع من جميع نواحيها ، ثم يقرأ عبارة الكتاب فيها فيفهمها السامع من أول وهلة .

قل لي سيد باشا زغلول ان الذي كان يحضر دروس أستاذنا في الازهر لا يسمعه الا أن يحقر دروس سائر العلماء فيه . وقد علمنا ان الشيخ أحمد الرفاعي يقرأ درساً في المنطق فذهبت الى درسه لأعلم كيف يقرأ المنطق على طريقتهم — وكان من أكثر المشايخ استنباطاً للاحتمالات في عبارات الكتب ، والمنطق لا يحتمل قواعده الاحتمالات — فاذا هو يقرأ في عكس القضايا فقرأ عبارة الكتاب وأورد في إعرابها احتمالاً يقتضي بطلان المسألة وهو عكس السالبة الكلية موجبة جزئية . قلت له يامسي الشيخ ان هذا الاعراب يفسد المعنى ويبطل القاعدة المنطقية فيجب رده .

قال : نحن مالنا . العلماء قالوا اذا صح الاعراب صح المعنى !! فانصرفت منه جباً
وقال لي حفي بك ناصف : لما شرع الشيخ محمد عبده يقرأ في الازهر لبعض
الطلبة وذاع صيته بين الاذكياء منهم ، اشتبهت أن أسمعه وكان أشياخنا يخوفوننا
من درسه بأن فيه فلسفة واعتزالاً ، فقلت في نفسي لابد أن أسمع منه ولو مرة
واحدة على سبيل الاختبار ، فلما سمعته دهشت من الإعجاب بفصاحته وبيانه
للمعاني بما يتلقاه العقل بالقبول

أقول ولما شرع في عهدنا بقراءة أسرار البلاغة في الرواق العباسي بالازهر بين في
الدرس الاول معنى علم البيان والبلاغة . قال الشيخ محمد المهدي : اننا قد اكتشفنا في
هذه الآية معنى علم البيان . فاعترف بأن محضره من هذا العلم في مدرسة دارالعلوم لم
يفقه معرفة حقيقة هذا العلم والراد منه ، وقد كان هو يدرس البيان في المدرسة الخديوية
ثم صار مدرساً في دارالعلوم ثم في الجامعة المصرية درس فيها آداب اللغة العربية ،
ثم في مدرسة القضاء الشرعي ، وقد انتقل بحضور درس كتابي أسرار البلاغة
ودلائل الإعجاز على الاستاذ الامام من طور الى طور في البيان والمعاني وآداب اللغة
ومن تخرج عليه في الكتابين فكان كاتباً مجيداً وشاعراً بليغاً المرحوم السيد
مصطفى لطفي المنفلوطي وله قصائد في مدحه ستُنشر بعضها في ذيل هذا التاريخ ،
ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ علي عبد الرازق
وكل منهم كاتب بليغ ، و كان الشيخ مصطفى مجيد نظم الشعر وقد مدح الاستاذ
الامام بشعره والظاهر أنه تركه بعد ذلك ، بل كان تدريسه لآيتين في الازهر
بدء عهد جديد في البلاغة سرى تأثيره من تلاميذه الى غيرهم وصار فيه عدد
كثير من حسني الانشاء الذي يعجز شيوخهم وشيوخ شيوخهم عن مثل كتابتهم
ومنهم الشيخ طه البشري وأخوه الشيخ عبد العزيز والثاني هو الذي اشتغل بعد
الازهر بالكتابة واشتهر بها . ولكن كان أكثر الناس استفادة من دروسه في البلاغة
من غير الازهرين أحمد باشا تيمور والمتخرجون في دارالعلوم وسأذكر أشهرهم
عند الكلام على درسه الخاص ، وقد كان يحضر جميع دروسه كثير من أساتذة
المدارس العالية والقضاة ورؤساء الدواوين

وأما قراءته للبصائر النصيرية فقد أفادتنا في المنطق ما كان يبيح لنا أن نقول فيه ما قاله الشيخ محمد المهدي في علم البيان ، فأنا أول واحد قل أننا لم نكن قبل هذا الدرس نفهم معنى الوجود والعدم ، على انني كنت حضرت على أستاذنا الشيخ محمد الجسر شرح السلم وشرح الفخاري على ايساغوجي وشرح القطب على الشمسية . وكان لي من الفهم في هذا العلم أن كنت أعنت أستاذنا الجسر في الاسئلة إعنا حتى قال لي مرة في أثناء درس الكتاب الأخير : لا تسألني عن شيء في هذا العلم فإن الذي عندي أقواله كله من غير سؤال . ولا فائدة في سؤالي عما ليس عندي . هذا وإن هذا الأستاذ الجسر كان أشهر علماء بلادنا في هذا العلم وفي غيره من المعقولات ، وهو قد تلقاها في الازهر ولكن طريقته في تدريسها غير طريقة الازهرين . واني أنشر هنا ما كتبت في المنار عند ختم هذا الدرس من صفته وفوائده ومن كلام الأستاذ فيه . فإنه هو الذي يجلي لقاري . هذا التاريخ قيمته وقيمة تدريس الأستاذ له في الجملة

(ختام درس المنطق للأستاذ الأكبر في الجامع الازهر)

(منقول من ص ٢٨٠ من المجاهد الثالث من المنار الصادر في غرة ربيع الاول سنة ١٣١٨)

لا خلاف في أن العلوم والمعارف بدأ ينزوي نورها ويفيض معينها في بلاد الشرق من عدة قرون ، ولم يكن الشرق إلا الاسلام والمسلمين ، حيث لا علم إلا علمهم ، ولا مدينة إلا مدينتهم . وقد اقتضت حوادث الكون بأن ينتبه المسلمون من رقادهم كما انتبه غيرهم ، وكانوا أحق بالسبق والتقدم ، وكما انتبه فرد انتباهاً حقيقياً يعني بتنبيه غيره سنة الله في الخلق . وشهر المنتبهين والمنبهين لأحياء العلوم في المسلمين لهذا العهد هو مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، أخذ حفظه الله على نفسه إيقاظ أهل الازهر الشريف وإرشادهم لطريقة التعليم المثلى ، فبقي في ذلك من العناء ما كان يلقاه الصالحون من قبله في كل زمان ومكان ، وعلم أن الارشاد بالقول قليل الجدوى ، فصار يقرأ الدروس بنفسه مع كثرة أعماله الأخرى في خدمة بلاده . وفي ليلة الاربعاء الماضية

أنم كتاب (البصائر النصيرية) في علم المنطق ، وقد احتفل بختامه في الرواق الجامعي كما هي عادة الازهرين احتفالاً قرئت فيه الخطب والقصائد في الثناء على الاستاذ، وكان الأولى أن تتوجه أفكارهم إلى بيان طرق الاصلاح الذي امتاز بها درسه ، والاقطاب التي كان يدور عليها كلامه، وترمي اليها سهامه، ومرجعها إلى أصلين (أحدهما) اختيار الكتب ، فإن الناس يختارون في كل طور وحال ما يناسب درجتهم واستعدادهم ، واضعف العلوم في القرون الاخيرة صار العلماء لا يقرءون الا كتب المتأخرين التي كتب عليها الشروح والخواشي المملأ بالمنازعات والمحاورات في الاساليب العرفية التي تضعف العلم واللغة جميعاً كما هو المشاهد . ولا يكاد يتجرأ عالم على قراءة كتاب من كتب الجهابذة المتقدمين التي لم تشرح ولم تعلق عليها الخواشي ويسمونها (غير مخدومة) فعلنا الاستاذ باختيار (البصائر النصيرية) الذي هو أمثل كتاب رأينا في المنطق كيف نختار الكتب النافعة، التي لم نلقها بالمدرسة، وعلق عليه شرحاً وجيزاً بين غوامضه ، وأصلح ما عساه يوجد فيه من الخطأ مما لا يخلو عنه غير كلام المعصوم، فعلمنا بذلك كيف ينبغي أن تكون الشروح، وكيف ان يتمكن من العلم لايهاب الكتب ولا يتقيد بالعبارات التي ألفها وتعلمها (ثانيهما) اللقاء والتقرير — علمنا بذلك كيف تتجلى الحقائق بالصور المختلفة، وتتجلى المعاني بالصيغ المتعددة، ليمتقنا من ريق العبارات ، ويفكنا من أسر الالفاظ التي استبدت بالحكم فينا زمناً طويلاً

علمنا كيف ضلت الافهام ، وغلبت الاوهام ، وكيف أطفأ دخان النقايد النظرية، مافي العقول من أنوار العلوم اليقينية، انطلب العلم برهانه، وناخذ الشئ بربانه علمنا كيف تتضائل الشبه افتضاحاً، وتبختر الحجج اقتضاحاً، وكيف يفرغ البيان العويص من المناريات، في قوالب البديهيات، لتقوى من الاعراض، وتقدم على العظام علمنا كيف نطاب العلم بالعمل بمسانده، والتحقق بدلائله، وملاحظة انطباقه على الواقع، وموافقته للوجود ، لتحصل ثمرة قوله ﷺ « من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم » علمنا كيف تتم حص الحقائق للوصول إلى اليقين بالعلم، والجزم بالفهم، ليخرجنا من الخيرة في طريقة التعليم المألوفة لهذا العهد ، طريقة الاحتمال وسرد الاقوال

علمنا بحاله ومقاله كيف يرتقي العلم ، وكيف يأتي المتأخر بما لم تأت به الاوائل ، لينزع من نفوسنا التسليم بأن الانسان دائما في تدل وهوي ، لا في تقدم ورتي ، فان التقدم مع هذا الاعتقاد ، ضرب من المحال

علمنا كيف يكون العلم صفة من صفات العالم تنفعل به نفسه ، وتتكيف به روحه ، ليرشدنا الى أن الصور والخيالات التي تلوح في الازهان ، وتراءى في الافكار ، عند ما تنشر الصحف ، وتعرض على الانظار نقوش الكتب ، ليس من العلم في شيء ، ولو شئت أن أستشهد على كل شيء ، مما قلته بشيء ، مما جاء في درس المنطق لفعلت ، وأظن أن نبهاء الطلاب الذين حضروه يكتبون بهذه الاشارات ، ولا يذسبون كيف فند الاستاذ كلام أفلاطون ، وأصلح رأي أرسطو في الماهيات ، ولا يغيب عن أذهانهم ذلك التحقيق العجيب في معنى الوجود ، وانه جنس الاجناس وجوهر الجواهر ، ولا ينكرون انهم لم يفهموا معنى الوجود إلا في ذلك اليوم ، كما لا يغيب عن عقولهم ذلك التحقيق البديع في معنى العدم ، وانه لا حقيقة له ، ولا يمكن تصوره ، فحيا الله من علمنا كيف نفرق بين الوجود والعدم .

وأظن انهم يتذكرون ذلك السائل الذي سأله منهم عن مفهوم « شريك الباري » وقول المنطقيين انه من الكلبيات التي لم يوجد لها افراد ويتذكرون جواب فضيلته الذي يتدفق حكمة وإيمانا ، وعلمنا وإيقانا ، الذي أثبت فيه ان ذلك المفهوم من الصور الخيالية المخترعة التي لا حقيقة لها ولا يمكن تصورها . وما جعلها من الكلبيات إلا نقص العلم ، وخطأ الفهم الخ مالا محل له هنا لا يوضحه وتفصيله

تليت القصائد والخطب احتفالا بختام الدرس كما قلنا والرواق العباسي غاص بالناس ، يزاحم العلماء والمدرسون فيه لطلاب والمجاورين ، وعلم الاستاذ ان ما سيلقى كثير فحتم المجلس بخطاب بليغ ابتداء بهضم نفسه بازاء الاطراء في المدح مع شكر من يظن به خيرا . وقال أحسن الكلام ما كان صادقا مطابقا لواقع ، وانما يذهب مذاهب المبالغة في قوله ، من كان مجازفا في رأيه ، وان كان العلماء توسعوا في التسامح بالمبالغة والتشبيهات والاستعارات ولم يعدوها من الكذب . وسنذكر ما علق بالذهن من خطابه في الجزء الآتي . اهـ

﴿ ملخص خطاب مولانا الاستاذ الحكيم ﴾

(في ختام درس المنطق)

(منقول من ص ٣٠٢ من المجلد الثالث من المنار الصادر في ١١ ربيع الاول سنة ١٣١٨)

وعدنا بأن نأتي بما وعينا من ذلك الخطاب البليغ وها نحن أولاء منجزو موعدنا : قال الاستاذ بعدما تقدمت الإشارة إليه من ذم الاطراء مامثاله ملخصاً سعادة الناس في دنياهم وأخراهم بالكسب والعمل ، فإن الله خلق الانسان وناط جميع مصالحه ومناقمه بعمله وكسبه ، والذين حصلوا سعادتهم بدون كسب ولا سعي هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وخدمهم لا يشاركون في هذا أحد من البشر مطلقاً ، والكسب مهما تعدد وجوهه فانها ترجع الى كسب العلم ، لان أعمال الانسان انما تصدر عن إرادته ، وإرادته انما تنبعث عن آرائه ، وآرائه هي نتائج علمه . فالعلم مصدر الاعمال كلها دنيوية وأخروية ، فكما لا يسعد الناس في الدنيا إلا بأعمالهم كذلك لا يسعدون في الآخرة إلا بأعمالهم . وحيث كان للعلم هذا الشأن فلا شك أن الخطأ فيه خطأ في طريق السير إلى السعادة عائق أو مانع من الوصول اليها ، فلا جرم ان الناس في أشد الحاجة إلى ما يحفظ من هذا الخطأ ويسير بالعلم في طريقه القويم حتى يصل السائر إلى الغاية ، وهذا هو المنطق المسمى بالميزان والمعيار ، الذي يضبط الفكر ويحكم الذهن عن الخطأ فيه ، ولهذا كانت العناية به من أهم ما يتوجه إليه طلاب السعادة

اعتنى العلماء في كل أمة بضبط اللسان وحفظه من الخطأ في الكلام ، ووضعوا لذلك علوماً كثيرة ، وما كان لسان هذا الشأن إلا لانه محلي للفكر وترجمان له ، وآلة لا يصلح معارفه من ذهن إلى آخر ، فأجدر بهم أن تكون عنايتهم بضبط الفكر أعظم . كما ان اللفظ محلي الفكر هو غطاؤه أيضاً ، فإن الانسان لا يقدر على إخفاء أفكاره إلا بحجاب الكلام الكاذب ، حتى قال بعضهم إن اللفظ لم يوجد إلا ليخفي الفكر

انما ينتفع بالميزان الذي هو علم الفكر من كان له فكر ، والفكر انما يكون فكر له وجود صحيح اذا كان مطلقا مستقلا يجري في مجواه الذي وضعه الله تعالى عليه إلى أن يصل إلى غايته ، وأما الفكر المقيد بالعادات المستعبد بالتقليد، فهو الرذول الذي لا شأن له، وكأنه لا وجود له

وقد جاء الاسلام ليعتق الافكار من رقها ويحلها من عقمها ، ويخرجها من ذل الاسر والعبودية ، فترى القرآن ناعياً على المقلدين ، ذاكرآ لهم بأسوأ ما يذكر به المجرم ، ولذلك بني على اليقين الذي علمتم معناه ، ووضحاً في درس سابق (١)

لا ينبغي للانسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق ، والدليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم أن يسترشد بمن تقدمه سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً ، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فإن وجدته صحيحاً أخذ به ، وإن وجدته فاسداً تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب) وإلا فهو كالحيوان ، والكلام كالمجسم له أو الزمام ، يمنع به من كل ما يريد صاحب الكلام منعه منه ، ويقاد إلى حيث يشاء ذلك المتكلم أن يقاد اليه من غير عقل ولا فهم

مالذي يعتق الافكار من رقها ، وينزع عنها السلاسل والاغلال لتكون حرة مطلقة ؟ الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل لان تخليص الافكار من الرق والعبودية من اصعب الامور ، ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يرجع اليها كل ما يقال وهي (الشجاعة)

الشجاع هو الذي لا يخاف في الحق لومة لائم ، فمتى لاح له يصرح به ويجاهر بنصرته وإن خالف في ذلك الاولين والآخرين . ومن الناس من يلوح له نور

(١) قال الاسناذ هو اعتقاد أن الشيء كذا وانه لا يمكن أن يكون الا كذا ، لأنه مطابق للواقع . وهو بمعنى قولهم الاعتقاد الجازم المطابق للواقع . واما قولهم عن دليل فلا معنى له ، لان اليقين اكثر ما يكون في البدييات وهي لا يدال عليها

الحق فيبقى متمسكاً بما عليه الناس ويجتهد في إطفاء نور الفطرة ، ولكن ضميره لا يسترىح فهو يوبخه اذا خلا بنفسه ولو في فراشه .

لا يرجع عن الحق أو يكتنم الحق لأجل الناس ، إلا الذي لم يأخذ إلا بما قال الناس ، ولا يمكن أن يأتي هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة .

إن احتمال الفكر والبصيرة في الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان ، وأن يكون طالب الحق صابراً ثباتاً لا تزغزه المخاوف ، فإن فكر الإنسان لا يستعبده إلا الخوف من لوم الناس واحتقارهم له اذا هو خالفهم ، أو الخوف من الضلال اذا هو بحث بنفسه ، واذا كان لا بصيرة له ولا فهم فما يدريه لعل الذي هو فيه عين الضلال . إذن « ان الخوف من الضلال هو عين الضلال » فعلى طالب الحق أن يتشجع حتي يكون شجاعاً ، والله تعالى قد هباً الهداية لكل شجاع في هذه السبيل ولم نسم بشجاع في فكره ، ضل ولم يظفر بمطلوبه

وهنا شيء يحسبه بعضهم شجاعة وما هو بشجاعة وانما هو وقاحة ، وذلك كاستهزاء بالحق ، وعدم المبالاة بالحق ، فترى صاحب هذه الخلة يخوض في الأئمة ، ويعرض بتنقيص أكابر العلماء غروراً وحقاً (١) والسبب في ذلك انه ليس عنده من الصبر والاحتمال وقوة الفكر ما يسبر به اغوار كلامهم ، ويمحص به حججهم وبراهينهم ، ليقبل ما يقبل عن يده ، ويترك ما يترك عن بينة . وهذا لا شك أجهل من المقلد ، لان المقلد يحمل ثقل التقليد على ما فيه ، وربما تنبع في عقله خواطر ترشده إلى البصيرة ، أو تلعب في ذهنه بوارق من الاستدلال لو مشى في نورها لاهتدى وخرج من الخيرة ، وأما المستهزئ ، فهو أقل احتمالاً من المقلد ، فان الهوس الذي يعرض لفكره انما يأتيه من عدم صبره وثباته على الامور وعدم التأمل فيها .

والحاصل ان الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة والشجاعة ههنا (وهي التي يسميها بعض الكتاب المصريين الشجاعة الادبية) قسمان : شجاعة في رفع القيد

(١) المؤلف هذا نفيد صريحاً ما زعمه المفترون من ان الاستاذ الامام كان يجري الناس عظامهم بالأخذ بالدليل على تحقير الأئمة وترك الاستفادة من العلماء ، كأن تعظيم الأئمة عندهم لا ياتي الا من الجهل بأدائهم وعدم فهم علمهم !!

الذي هو التقليد الاعمى، وتشجاعة في وضع القيد الذي هو الميزان الصحيح الذي لا ينبغي أن يقرر رأي ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه، وبهذا يكون الانسان حراً خالصاً من رق الاغيار عبداً للحق وحده .

وهذه الطريقة طريقة معرفة الشيء، بدليله وبرهانه ما جاءتنا من علم المنطق وانما هي طريقة القرآن الكريم الذي ما قرر شيئاً إلا واستدل عليه وأرشد متبعيه إلى الاستدلال، وانما المنطق آلة لضبط الاستدلال، كما ان النحو آلة لضبط الالفاظ في الاعراب والبناء كما قلنا . ولا يمكن أن ينتفع أحد بالمنطق ولا بغيره من العلوم مهما قرأها وراجعها إلا اذا عمل بها وراعى أحكامها حيث ينبغي أن تراعى ، فالذي يحفظ العلم حفظاً حقيقياً هو العمل به ، والا فهو منسي لا محالة،

وانما نرى المجاور يقضي السنين الطويلة في الازهر يدارس العلوم العربية ولا ينتفع بها بتحصيل ملكة العربية قولاً وكتابة وانما ذلك اعدم الاستعمال . فأنصح لكل من يسمع كلامي أن يستعمل ما يحصله من العلم ، وان يحصل لنفسه ملكة الشجاعة ، وبدون هذا لا ينتفع بعلم ولا عمل ، ويكون الاشتغال بالدروس في حقه من اللغو المنهي عنه المذموم صاحبه شرعاً . بل يقضي حياته كسائر الحيوانات العجم، وربما كان أعمس منها .

وأحب أن يكون كل منكم انساناً كاملاً، والانسان يطلب الجميل النافع لانه حسن في نفسه ، لا لانه غيره يطلبه ، فلو كفر كل الناس لوجب عليه أن يكون أول المؤمنين ، وهذا هو الاسلام الصحيح

ثم ختم الاستاذ الخطاب بالدعاء، واشاء على الله تعالى وانفض الاجتماع اهـ
(أقول) لو عقل عشرة في المائة ممن سمعوا هذا الخطاب الذي لخصنا به مآنيه، ولم يكن في استطاعتنا ايداعها تأثير إيمانه ، وجرس صوته . وقوة روحه، لرأيناه في الازهر اليوم مئات من أساطين العلم المستقلين ، ومدرسيه الشجعان المصلحين، على أنه والله الحمد لم يذهب سدى ، ولم يكن عبثاً ، فقد وعاه بعض من سمعه ، وسرى تأثيره الى من لم يسمعه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه .

درس التفسير

يبت في مقدمتي لتفسير القرآن الحكيم الذي ينشر في المنار ويجرد منه سبب قراءة الاستاذ الامام له في الازهر فاقله هنا بنصه وهو : (صفحة ١٢ من الجزء الاول)

انصت بالشيخ في الضحوة الصغرى لليوم الذي وصلت في ليله إلى القاهرة فكان انصالي به من أول يوم كانصال اللازم البين بالمعنى الاخص بملزومه، وكان أول اقتراح لي عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التي وجدنا روحها ونورها في مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة . فقال إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنها بعض . ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل ، فاقترحت عليه أن يقرأ درساً في التفسير وكان ذلك في شعبان سنة ١٣١٥ ثم كررت عليه الاقتراح في رمضان وكان يعتذر بما أذكر أهمه هنا

زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لي عبارة من كتاب افرنسي في الطمن على الاسلام وطفق يرد عليها بعد أن قل : ان هؤلاء الافرنج يأخذون مطاعنهم في الاسلام من سوء حال المسلمين مع جهلهم هم بحقيقة الاسلام . قال ان القرآن نظيف والاسلام نظيف ، وانما لوثة المسلمون باعراضهم عن كل مافي القرآن واشتغالهم بسفساف الامور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة في تفسير قوله تعالى (هو الذي خلق لكم مافي الارص جميعا) وماذا كان ينبغي للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتموا بها ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا انه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على أتباعه لاجل قهر الامم لا لاجل تربيتها ، وقال فأين هذا من تسمية النصارى خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف ؟؟ ثم طفق الاستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معاني التربية والعطف ، والتفرقة بينه وبين معنى الأب ، وكون طلبه للولد بمقتضى شهوته لا محبته له ، وغير ذلك من شؤون الوالد التي ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال في ذلك .

وهنا دار بيني وبينه ما اذكر ملخصه كما كتبت بعد مفارقة ذلك المجلس وهو:
(قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك
كل ما هو موجود في كتب التفسير وتبين ما أهملوه ...

قال : إن الكتب لا تفيد القلوب العمي فان كان السيد عمر الخشاب مملوءة
بالكتب من جميع العلوم وهي لا تعلم شيئاً منها ، لا تفيد الكتب إلا إذا صادفت
قلوباً متيقظة عالمة بوجه الحاجة اليها تسمى في نشرها . إذا وصل الى أيدي هؤلاء
العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لا يعقلون المراد منه ، وإذا عقلوا منه شيئاً يردونه
ولا يقبلونه ، وإذا قبلوه حرقوه الى ما يوافق علمهم ومشرهم كما جروا عليه في نصوص
الكتاب والسنة التي تريد بيان معناها الصحيح وما تفيده .

« إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء . لأن
نظر المتكلم وحركاته وإشارته ولهجته في الكلام - كل ذلك يساعد على فهم
مراده من كلامه ، وأيضاً يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه
فاذا كان مكتوباً فمن يسأل ؟ : ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم ،
والقاريء ٢٠ في المائة على ما أراد الكاتب . ومع ذلك كنت
أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر وبعض طلبة المدارس الأميرية ،
وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد
فيما أعلم ، مع أنها كان من حقها أن تكتب . وما علمت أحداً كتب منها شيئاً
خلا تلميذين قبطين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعا في بعض ما يكتبان ،
وأما المسلمون فلا

« قرأت تفسير سورة العصر في سبعة أيام وكل درس لا يقل عن ساعتين
أو ساعة ونصف ، بينت فيها وجه كون نوع الانسان في خسر إلا من استثنى
الله تعالى ، وما المراد بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، مما لو جمع لكان رسالة حسنة
في تفسير السورة ، وما علمت أحداً كتب من ذلك شيئاً إلا أن يكون عبد العزيز (١)
(قلت) انه يوجد كثير من المنتهين لحالة العصر والاسلام في البلاد المتفرقة

(١) قرأه بعد ذلك في الجزائر ثم كتبه باقتراحنا ونشرناه في المنار ووحده

وكثير منهم مانبيهم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أنتبه التنبيه الذي أنا عليه إلا بها (قال) ان بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأي موضوع أمام أي انسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين : باقي الحكمة لم يردها وغير مريدها ، وأنا كنت أحسده على هذا لاني تؤثر في حالة المجالس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلاً . وهكذا الكتابة ، فاني ربما أتصور أن أكتب في موضوع وعند ما أوجه قواي لجمع ما يحسن كتابته تتوارد على فكري معان كثيرة ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتيني خاطر : لمن أتى هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعاني التي اجتمعت عندي قد امتص بعضها بعضاً حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئاً .

« ان حالة المخاطب تؤثر بي جداً ، ولذلك لا أتكلم بشيء عن حالة الاسلام عند ما أجتمع بهؤلاء العلماء لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية ، ولذلك لا يعملون شيئاً مع سمة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين لاني لا أطالع عند ما أقرأه (١) لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الاعراب أو كلمة غريبة في اللغة . فاذا حضرني جماعة من البلاد الخاملة الفكر أحل لهم المعنى بكلمات قليلة . واذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقي له بالا يفتح علي بكلام كثير

(قلت) ان الزمان لا يخلو ممن يقدر كلام الاصلاح قدره وان كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوماً فيوماً ، فالكتابة تكون مرشداً لهم في سيرهم . وان الكلام الحق وان قل الآخذ به والعارف بشأنه ، لا بد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباشرة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أي سنة) الانتخاب الطبيعي ، كما حفظت (العروة الوثقى) فان أوراقها الاصلية الضعيفة قد بليت لكن ما فيها من المقالات البديعة المآل والفوائد العظيمة قد حفظت في الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعتهم بقراءة التفسير في الازهر فافتنع وبدأ بالدرس بعد

(١) لعله قال قبل أن أقرأ يعني انه لا يستعد لها بالمطالعة

سنة وثلاثة أشهر ونصف أي في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطاً) من الآية ١٢٥ من سورة النساء فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين اذ توفي لثمان خلون من جمادى الاولى منها رحمه الله تعالى وأثابه

كانت طريقته في قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير ، وهو أن يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الالفاظ والاعراب ونكت البلاغة ، وفي الروايات التي لا تدل عايتها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكل في ذلك على عبارة تفسير الجلايين الذي هو أوجز التفسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرأها أو ينتقد ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة .

وكنيت أكتب في أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله ، وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه وأمدده بكل ما أتذكره في وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح علي بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء الممار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره في المنار ، فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك في المجلد الثالث من المنار ، وكنيت أولاً أطلع الاستاذ الامام على ما أعده للطبع كما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينتج فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات . ولا أذكر انه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به ، على انه لم يكن كاه نقلاً عنه وممزواً اليه ، بل كان تفسيراً للكتاب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها ، لذلك أعزو اليه القول المنقول عنا إذا جاء بعد كلامي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فإذا انتهى النقل وشرعت بكلام لي بعده قلت في بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزماً في أول الامر بل يكثُر في الجزء الاول ما لا عزو فيه ، ومنه ما هو مشترك بين ما فهمته منه ومن كتب التفسير الاخرى أو من نص الآية على أنني عبرت عنه (في المنار) بأما لي مقتبسة ...

ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه إمام قبل طبعه وهو الغالب وإما

بعدد وهو الاقل، لم أكن أرى حرجاً فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبت عنه في مذكرات الدرس، لأن إقراره بإيديؤ كد صحة الفهم وصدق العزو. وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الأمانة أن لا أعزو اليه إلا ما كتبت عنه أو حفظته حفظاً وصرت أكثر أن أقول: قال ما معناه. أو: ما مثاله. أو: ما ملخصه. مثلاً، على أنني أعتقد أنه لو بقي حياً واطلع عليه لأقره كله ما كتبت في مقدمة التفسير

صفة درس التفسير في الازهر

هذا وإن درس التفسير في الازهر كان أحفل الدروس وأنفعها في الدين والاجتماع والسياسة، والأدب والبلاغة، وكان يحضره كثير من علماء الازهر، وأساتذة المدارس الثانوية والعالية، وكبار رجال القضاء الاهلي، وفضلاء الوجهاء ورجال الحكومة، ومنهم محافظ مصر المرحوم ماهر باشا حضر بعض الدروس — فكان الرواق العباسي يكتظ بحاضري الدرس حتى إن بابيه يسد بالواقفين فيه الذين لا يجدون للجلوس مكاناً، ومنهم من كان يكتب لنفسه ما يستطيع ضبطه، ومنهم علي باشا ذو الفقار الذي كان مستشاراً في محكمة الاستئناف الاهلية (ثم محافظاً لمصر) وكان يجلس بجاني بالقرب من كرسي الدرس

ولم يكن الامام يثق بضبط أحد لقوله وفهم مراده منه — دع التعبير الصحيح عنه — الا صاحب المنار (مؤلف هذا التاريخ) بدليل أنه كان يقرأ ما أعزوه اليه مما فهمته وإن لم أكتبه فيقره كما هو، وقد صرح بهذا مرة في الدرس لسبب اقتضاه ذلك بأنه وقع مطر شديد في بعض الايام تصحبه ريح شديدة فدخل المطر الرواق العباسي من نوافذه الكبيرة فتمذرت القراءة فيه أول ليلة بعد المطر فقرأ الدرس في الطريق الذي بين الرواق ومجاس إدارة الازهر لقلة من حضر في تلك الليلة، وكنت تأخرت عن أول الدرس فأردت أن أجلس وراء من سبقوني فسكت الامام لما رأي و ناداني تعال هنا — لا تكون بجانب كرسيه كالعادة — وقال للحاضرين معللاً ناداني: إنه يستفيد أكثر من كل أحد منكم — أو كلمة بهذا المعنى — كان درس التفسير مؤثراً جيداً وكأني من رجل كان يسيء الظن بالامام.

بتأثير كلام الحاسدين والجامدين ، فحضروا الدرس مختبرين ، فأنقلبوا معجبين
حشنين ، وعلى دوام الاستفادة عازمين .

وكان للاستاذ أحسن الله اليه فكاهات في الدرس يقصد بها الاحماض
وترويح النفس في إثر بعض الزواجر الصاعدة ، والمواعظ البالغة ، أو التناذر
والتهريب على بعض المجاورين الذين يلقون الاسئلة الشاذة ، كقوله لبعضهم مرة وقد
قال له : إن ما قلته لا يوافق عليه الجمال - يعني محشي الجلالين - قال الاستاذ : إنني أقرر ما
يدل عليه النظم الكريم والاسلوب البليغ ولا يعنيني أوافق الجمال أو الحمار عليه أم خالفنا ؟
ومن النوع الاول ما قاله اذ دخلت الرواق بنت لعل منها لا تقل عن ثنتي عشرة
فتخطت الرقاب حتى وصلت الى والدها فأسرت اليه كلمة وخرجت ، وقد كثر التفات
الناس اليها استغرابا لجرأتها ، وسكت الاستاذ هنيهة ثم قال باللغة البلدية « إياكم تكون
دي المرأة الجديدة اللي بيقولو عنها » يعني لعل هذه المرأة الجديدة التي يتحدث
الناس ويكتبون في الصحف وغيرها عن وجوب سفورها واختلاطها بالرجال بمناسبة
الكتاب الذي ألفه قاسم بك أمين بهذا الاسم . فضحك جميع الحاضرين انبساطا بكلمته
وجملة القول أن درس التفسير كان هو الذي عرف كل ذي فطرة سليمة من
أهل الازهر وغيرهم فضل الاستاذ الامام على غيره بالعلم بالله وكتابه وحقيقة
دينه وغيرته على تجديد الاسلام ، واهتمامه باصلاح المسلمين ، وطار صيته في الاقطار
بنشر المنار لخلاصته في تفسيره وقد كثر المادحون له به نظما ونثرا في حياته وفي
رثائه كما يرى القارئون في جزء التأيين والمرائي من هذا التاريخ وهو الجزء الثالث
وكان المنار وصاحبه من الشركة في هذا الاصلاح ان كان هو سبب قراءته ،
ثم نشر ما قرره في تلك الدروس تارة بالاجمال وتارة بالتفصيل والايضاح ، بما
كان يفتبط به ويقول كما روى عنه الاستاذ الشيخ محمد شاكر كيف أترك صحبة
فلان لاجل الخديوي وهو ترجمان أفكاري - كما تقدم - بل قال أكثر من
هذا كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى في موضعه اللائق به

وانني أذكر هنا شهادتين مكتوبتين رفعتا اليه يصف اصحابهما تأثير درسه في انفسهم
موقعنا في يدي بعد كتابة ما تقدم اذ كنت ألقب أوراق شيخنا المحفوظة عندي

شهران ثان في تأثير درس الامام

(الاولى) شهادة أديب غريب ، بما وجد في نفسه من تأثير درس التفسير ،
والظاهر أنه املاه املاء فوق من كاتبه بعض التعريف ، قل مخاطبا
الاستاذ الامام ما نصه :

مولاي : ان نصابك الرفيع الذي اقامك الله فيه لاصدار ما يرد عليك من
شؤون دينه ، وما عهد الى نظائرك (١) من سياسة الناس السياسة الشرعية ، وتقرير
الحكم والوصايا لهم — كل ذلك جعلني لا أستبعد صدور امثال تلك الاحساسات
الدينية الصادقة والمواطف القومية الحقة عن فؤاد رفيع حساس ، ونفس كبيرة
دراكة ، شمرت باقدس واجب نحوها قانبرت تناضل من ورائه وتعمل على حياطته
بالنفس والنفيس ، على حين فترة من الحق ومرض من اليقين

سيدي : اني استميتك الاذن لي بالاعراب عن اثر كبير خامر فؤادي بل
صدى رنان تلابت (كذا) به اقطار قلبي ثم اسألك العذر في تكلبني اياك اضاعة
جزء من وقتك النفيس بالنظر في سطور هذه وما هي الا كلمات مثلت بها احاسي
خيال ذلك المهيم من الفعال على النفوس

اتحفني الدهر ليلة أمس بتلقي درسك الكريم وكنت احسبني جالسا بين
اخواني ، حتى اذا توقلت كرسيك الرهيب ، واستهللت لأول كلمة مسني اذ ذاك
طائف من الهدوء والطمأنينة ، ونجلت لعيني الحكمة على فخامتها حاضرة لثامها ، وتراءت
لي السليقة العربية في جزالتها وعراحتها كاشرة انيابها ، فاحتملني ذانك الخيالان
الى عالم تعمه ارواح كبيرة ، (٢) وبلاغني مستوى قمت اناجي اليقين وهو يناجيني
بلا حجاب ريب ، ولا صدفه مرية ، وما زلت بين اجتلاء حكمة بالغة ، وتاتي
موعظة حسنة ، حتى قضيت تلك الفينات وودت لو لم تنقض ، ذلك ما كنت
أحسه ابان اسماعي لدرسك الكريم ، واتوسمه في نفوس الكثيرين ، ويعلم الله اني

(١) يعني نظاره في المنصب وانقام لافي العلم والاستعداد

« ٢ » في هذا الكلام اقتباس من مقدمة الاستاذ الامام لشرح نهج البلاغة

ما اقتدت (؟) في تمثيلي هذا قانون الصدق ولا تزعت الا عن اشرف غرض، بما اثني عليه كل ذي شعور حي ومبدأ قويم حق، لم تنفعل نفسه اثر التعاليم القديمة، سمعتك تفسر كتاب الله بنفسه وتذوبه عن تلك الارجيف المدونة، وقل من تصون عنها من المفسرين، في حين انهم اهملوا تفسير القسم الاخلاقي من القرآن اهمالاً كلياً، وبخسوه حقه من النظر الخفي والدرس المدق، وانت حفظك الله تمر بالآية فتوفيتها حقها، خصوصاً الآيات الاخلاقية، وحبذا لو اهتبل اخواننا الطلبة هذه الفرصة الثمينة، وعدلوا عن تلك المجادلات اللفظية، والاسئلة التي يوجهونها خلال الكلام، واني ارى أن القلم قد شط بي عما كنت ابتغي من الاجاز، وما حداني الى كتابة هذه السطور الا انني حين انصرافي من ذلك الدرس ألفيت له اثرا كبيرا في نفسي، فحاولت التمثيل عنه بهذه الكلمات، وودت لو ان لي من معين البيان مادة تنفي بذلك

وفي الختام تقبل مني فائق التجارة والاكرام (سليمان نظمي الفاروقي)

﴿ الثانية — شهادة نابغي دار المعلوم في رقعة رفعوها الى الامام، وهي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعسوا لهم وأضل أعمالهم)

ايس العجب من شجاع يكتب الكتاب، وبجند الجنود، ومحجوب بهم كل شجرا مرداء، ويصبح الأعداء بغارة شعواء، لا يصد عن نيرانها حتى يختلس النفوس وينتهب الأعمار، وانما الذي يتهوي الحازم طربا، ويكاد يطير له قلب اللبيب شعاعا، أن ينتضي فرد واحد من عزيمته صارما ما أغفلته الصياقل، ويسير من قواطع الحجج وسواطع البراهين والآيات البينات وسحر الاعجاز في خميس عرمرم، همته أن يهدم ما شيد الكفر، ويمحو ظلمة التوهم الخالكة التي كادت تسجل العار على ثلاثمائة مليون أو يزيدون، فهتك أستار النعمية على العقول، وفتح أغلاق القلوب، وأودع فيها من أنوار اليقين، ماشاء العليم الحكيم،

إنا نعترف والله يشهد والملائكة يشهدون ، إنا لو تقصينا العالم فرداً فرداً
نتوسم قريب هذه الصفاة لكان هو سيدنا واستاذنا حجة الاسلام وأسوة المسلمين ،
وكيف وقد رأينا في قلمه سيف عمر ، وفي مقاله فصل علي (رضي الله عنهما) على اننا
نستمع في أداء شكره الجزيل بلسان العلم الذي أخذ يشب في مهده فضله ، وقد كان فريسة
أسود الجهالة ، بل بلسان كتاب الله تعالى الذي كشف عن وجوه اعجازه ، ودفع
عنه السوء ، وأفرغه في العقول نوراً ، وفي القلوب يقيناً ، بل بلسان الاسلام الذي
نسجت عليه التقاليد حجباً من الباطل كثيفة ولولا فضل الله تعالى علينا وعلى الناس بنور
هداية سيدنا واستاذنا لما رقت تلك الغشاوات وعماقليل يحوها بمعونة الله ويظهر الحق
أبلاغ ناصعاً ، وإن يوم يتحلى فيه جيد الاسلام بأشبال له يحمون ذماره ، ويندودون عن
حوضه ، ويرفعون علمه ، ليوم ميمون الطالع ، لا يلمس الاسلام فيه الجوزاء الا قاعداً
كما تبين ان غرسك قد دنا لجنى وزرعك قد أتى لحصاد

ولتلم أن لديك أنصاراً يرتلون لك من الشكر بمقدار ما منحوا من قوة ،
وحسب المشكور عجز الشكور ، فتقبل غير مأمور هذه الرقعة يدفعها الولاء ،
ويصدها الحياء ، وتجاوز حد التقصير من فئة تراك نوراً لبصائرهم

ولو أطاقوا انتقاها من حياتهم لم يتحفوك بشيء غير أعمار
كاتبه كاتبه كاتبه

حسن منصور	محمد عز العرب	احمد ابراهيم
المدرس بالمدرسة السنية	المدرس بالمدرسة السنية	المدرس بمدرسة الناصرية
كاتبه	كاتبه	كاتبه
محمد حسنين	محمد المهدي	حامد حسين والي
المدرس بالمدرسة الخديوية	المدرس بالخديوية	المدرس بمدرسة الجزيرة
كاتبه		

عبد الوهاب النجار

بمدرسة عابدين

وقد كان يحضر درس التفسير غير هؤلاء من الدارين منهم الشيخ عبد العزيز
شاويش بعد مجيئه من اوروبا والشيخ مصطفى العناني وقد كافاني ان (اقدمهما)
اليه واذكر له رغبتهما في الانتظام في سلك مردييه ففعلت

الدرس العالي الخاص

اقترحت على الاستاذ الامام أكرم الله مثواه أن يعقد مجلسا في كل أسبوع أو أكثر لاقاء بعض الحقائق الحكمية العالية ، وتمحيص بعض المسائل الخفية أو المشكلة ، وبيان ما بين الدين وعلم الاجتماع والفلسفة العقابية من الصلة؛ وما أشبه هذا مما يعد وراء مستوى دروس الازهر

قل ومن يحضر هذه المجالس ؟ قلت بعض إخواننا المفكرين من أذكى متخرجي دار العلوم أساتذة المدارس الأميرية كفلان وفلان ، ومن غيرهم كأحمد بك تيمور ومحمود بك سالم ورفيق بك العظيم . فقال لي في واحد منهم انه من الجامدين جداً (١) قلت لعله كان كذلك واني اعلمه الآن فأراه مستقل الفكر ، ثم اتفقنا على ان يكون هذا الدرس في دار أحمد بك تيمور التي كانت في درب سعادة لانها في وسط القاهرة وصاحبها من أشد الناس رغبة في هذه المباحث وهو كان من المواظبين على جميع دروس الاستاذ الامام في الازهر . وهكذا كان في أول الامر ، ثم صرنا نذهب الى دار الاستاذ الامام في عين شمس ، واشترى أحمد تيمور دارا بجوار داره ، لاجل التمكن من اقتباس انواره ، فسكن فيها انتظم عقد هذا الدرس من جماعة قليلة أذكر من احيائهم الآن الاساتذة

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدي : وقد ذكرت له قول الاستاذ فيه فقال لي في سببه إنني كنت ذهبت مع الشيخ محمد زيد إلى دار سعد بك زغلول فوجدت عنده الاستاذ وفتح لي بك زغلول وقاسم بك أمين وغيرهم وكان الاستاذ يتكلم في أسباب ضعف المسلمين وجهاتهم وانتشار البدع والخرافات فيهم وسوء حال علمائهم ، والجميع يوافقونه ويشاركونه في ذلك : فأردت أن أجادهم في بعضه فأعياني الامر : فقلت له : لم لا تكتبون هذه المسائل وتنشرونها ليعرفها الناس - وغرضي الصحيح التوريط ليرد عليه العلماء ؟ فقال قد وجدت جريدة أنشئت لهذا الغرض فطالعها تجد شيئا من ذلك في كل عدد منها وهي جريدة المنار . قال الشيخ مهدي رحمه الله فكان هذا سبب اشتراكي في المنار من سنته الاولى فصحبتي لك

الشيخ أحمد إبراهيم استاذ الشريعة في كلية الحقوق اليوم والشيخ حسن منصور - وكانا استاذين في المدرسة السنية - ومحمود بك سالم الشهير والشيخ أحمد الحمصاني الاستاذ في بلدة بيروت الان ، ثم كان يحضره غيرهم ممن علم به من كبار المفكرين من رجال الحكومة وغيرهم من الادباء ومنهم شاعر مصر الاجتماعي محمد حافظ إبراهيم ولما زار مصر صديقنا الاستاذ محمد كرد علي مؤرخ الشام وكاتبها الاجتماعي أخبرته بهذا الدرس ودعوته اليه وكان من حاضريه يومئذ اسماعيل باشا صبري وأحمد فتحي بك زغلول ورفيق بك المظم وكذا قاسم بك أمين علي ما أظن ، فدهش ضيف مصر من روعة ذلك المجلس وجلال استاذه ، وبلاغة إلقائه ، ومكانة تلاميذه في العلم والادب والقضاء والهيئة الاجتماعية ، فاسماعيل باشا صبري كان وكيل وزارة الحفانية ، وفتحي باشا زغلول كان رئيس محكمة مصر الاهلية ثم صار وكيلاً لوزارة الحفانية إذ كان سلفه المذكور اصيل على المعاش

الدرس الاول طبيعة الدين وكونه غريزة في الانسان

كان موضوع الدرس الاول طبيعة الدين ومكانته من الانسان : هل هو حاجة من الحاج التي عرضت له في حياته الاجتماعية كما يقول بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع ؟ أم هو غريزي فيه ؟ بين أولا ما عرف في التاريخ من نشأة التدين وأطوار الدين في قبائل البدو ثم في شعوب الحضارة ، وترقيته بارتقاء البشر في العلوم والفنون والاجتماع ، وما يستدل به أهل المذهب الاول من ذلك على مذهبهم ، واستدل هو به على المذهب الآخر الذي جزم به وعبر عنه بقوله « إن الانسان حيوان ناطق متدين بالطبع » كما يقول بعض الحكماء متمدين او متمدين بالطبع قال في هذا المقام من هذا الدرس وغيره ما مثاله : إن روح التدين الغريزي في الانسان هو شعوره الفطري بأن فوق العالم الذي يعرفه بأعيانه وخواصها ومنافعها ومضارها وكل ما يشابهها مما لم يعرفه - موجودا غيبيا له السلطان والتصرف فيما ذكر كاه ، فهو يحيل على ذلك السلطان الغيبي كل ما يجهل سببه في هذا العالم المشهود وإنما وقعت الجماعات البشرية في الوثنية بتأليه بعض أعيان عالم الشهادة من نبات وحيوان وغير ذلك من الاجرام العلوية بسبب الجهل بحقيقة ذلك الموجود

الغيبى وما يجب له من الصفات الوجودية وانتزيعه ، والجهل بحقيقة ما يظهر لهم في هذه الاعيان المشهودة من خواص وافعال : هل هي مخلوقة خاضعة مسخرة لسنن الاسباب والمسببات كأفئادهم أم هي فوق عالم الاسباب فهي مظهر لذلك السلطان الذي هو فوق تصرف الانسان أو عينه ؟ ولما رجحوا الاحتمال الثانى بجهلهم وجهوا عبادتهم الى كل ما اعتقدوا أن تلك القوة الغيبية ظهرت فيه لانه يخشى ضرره ويرجى نفعه - ولا معنى للعبادة الفطرية إلا التعظيم والخوف والرجاء لمن يملك الضر والنفع بسلطان هو فوق الاسباب التي يملكها البشر

مثال ذلك أن الانسان الساذج الجاهل كان يرى الثعبان الصغير يقتل الانسان وما هو أقوى منه كالثور والفيل ، من غير أن يقطع عنقه أو يهشم رأسه أو يبقر بطنه مثلاً ، وهو لا يعقل أن يكون لهذا سبب في هذا العالم لانه لا يعلم أن في هذا الوجود المشاهد مادة تسمى السم هي سبب هذا التأثير في دم الحيوان ، فيرجع به الى ما في غريزته من الاحالة على القدرة الغيبية التي هي فوق الاسباب . وذكر الاستاذ أمثلة متعددة لما توهمه الناس في المخلوقات التي عبدوها في طرد البداوة وأطوار الحضارة حتى عبادة الكواكب وهذا الموضوع قد طرقة الاستاذ الامام في رسالة التوحيد وبسطه في درسها ولكنه لم يصرح في الازهر بمثل ما صرح به في هذا الدرس من الشبهات وكشفها ، لعلمه بأن كثيراً من طلبة العلم في الازهر لا يفهمون هذه الموضوعات حق الفهم فيخشى أن يعلق بأذهانهم من الشبهات ما لا يفهمون الجواب الداحض لها . وألم به ايضا في رده المشهور على موسيو هانوتو . وأقول هنا في تأييد هذا : إن بعض المجاورين أطلعني على كراسة له فيها ما فهمه من بعض دروس التوحيد فإذا به قد جعل التوحيد شركاً ، وقلب الحقائق قلباً فبينت له فساد فهمه واعترف به

وتكلم في درس آخر عن حقيقة التصوف وتاريخه وأطواره ، ومن أحسن ما قاله فيه : كان غرض صوفية المسلمين تربية المرء بالعلم والعمل الذي غايته أن يكون الدين وجدانا في أنفسهم تصدر عنه الاعمال الصالحة ، ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة ، وكان أكثر الدروس الاخرى في المسائل الاجتماعية وفلسفة الاخلاق وحكم التشريع ودحض ما يرد على الاسلام من اعتراض أو شبهة ، بما يقبل العقل ويطمئن به القلب ، فحمد الله تعالى وحزاه خير الجزاء عنا وعن دينه وأمتة ،

المقصد الثاني

من الفصل السابع

مؤلفاته

بموجب تاريخ تأليفها بالتقريب

(١ — الواردات) رسالة في الكلام أو التوحيد على طريقة الصوفية وأسلوبهم وهي أول تأليفه وكان أعطانا نسخة منها في حياته . وقد نشرتها في الطبعة الاولى للجزء الثاني في منشأته ثم طبعنها على حدة وذكرت أنه قد رجع عن بعض ما كان قرره فيها كما يعلم من رسالة التوحيد له

(٢ — رسالة في وحدة الوجود) لم أطلع عليها وهو الذي أخبرني بها وقال انها ليست بمعنى ما كتب عبد الكريم الجيلي وأمثاله مما هو أقرب الى مذاهب الحلول كالنصرانية منه الى توحيد الاسلام (بل هو أبعد عن الاسلام من النصرانية) ولكنها بأسلوب آخريين فيها مراتب الوجود وتعددتها من وجه ونظامها العام ووحدتها من وجه آخر ، ولما لنا نظنر بها ونطبعها

(٣ — تاريخ إسماعيل باشا) أخبرني بهذا الكتاب أحد تلاميذه الاولين وقال ان السيد عبد الله النديم كان أخذ من الفقيده نسخته في أثناء الثورة العراقية ونشر منه فصولا في جريدة الطائف بتصرف أو بغير تصرف ولم أسمع منه رحمه الله تعالى ذكره لهذا الكتاب وكنت أظن أنه لم يصنف شيئا إلا وقد أخبرني به لانه قص علي تاريخه بالتفصيل وكتب إلي شيئا مجملا منه كما علم القراء

(٤ — فلسفة الاجتماع والتاريخ) هو الكتاب الذي ألفه أيام كان يدرس مقدمة ابن خلدون في مدرسة دار الموم كما ذكرنا في هذا التاريخ ، وقد فقد هذا الكتاب عند ما عزله توفيق باشا من المدرسة ونفي السيد جمال وأخذت أوراقه . وكان طيب الله ثراه يقول أتمنى لو يحفظ هذا الكتاب من وقع في يده

ويدعيه لنفسه ولو بمد موتني لينتفع به الناس ، وقد سألت عنه محمد باشا صالح المستشار في محكمة الاستئناف اذ كان ممن حضره عليه ، فقال لي : انني كنت أكتب ما يمليه الاستاذ من تلك الدروس ، فطلبتها منه فقال انها بين أوراقى القديمة في البلد وعسى أن أبحث عنها وأجدها عند زيارتي للبلد في الاجازة ، ولكنه توفي ولم يفعل رحمه الله وعفا عنه

(٥ — حاشية عقائد الجلال الدواني) وهي غاية الغايات في علم الكلام وتحقيق مسائله وتحرير الخلاف بين المتكلمين وبيان ما هو لفظي منه وما هو حقيقي ، وقد اهتمدى في كثير من أبحاثها الى أن الحق في العقائد هو مذهب السلف ، ولكن كثيراً من نظريات المتكلمين وتأويلاتهم ظلت ناشئة في ذهنه زمناً طويلاً ، ولا يزول مثل هذا إلا رويداً رويداً . والحاشية مطبوعة تباع في السوق (٦ — شرح نهج البلاغة) وهو شهر جداً وقد طبع في بيروت وفي طرابلس وفي مصر مراراً ، وكان سبب شرحه له حمل طلبة المدارس على مطالعته لاجل تحصيل ملكة البلاغة من كتاب مملوء بالتوحيد وعظمة الاسلام وذكر في مقدمته أنه لم يتعرض فيه لمسألة الخلافة لان الخلاف فيها بين الشيعة وأهل السنة معروف في كتبهما . وهو لم يكن يعتقد صحة اسناد كل ما في هذا الكتاب الى الامام عليه السلام ، ولا كان يعتقد أنه كله أو جله موضوع كما قال الحافظ الذهبي ، ولم يكن يخفى عليه ان فيه دسائس مدرجة فيه ومنها ما ليس من أسلوب الصحابة وعصرهم في خطبهم وكتبهم كاصطلاحات المتكلمين الحادثة بعدهم

(٧ — شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني) وهو مطبوع في بيروت ولم يعرف لغيره شرح لهذه المقامات وقد فرغ منه في ١٦ رمضان سنة ١٩٠٦ (٨ — شرح البصائر النصيرية) في المنطق وهو شرح وجيز أطاق عليه لفظ التعليقات والكتابات عالي الأسلوب وهو من أحسن ما كتب المسلمون في المنطق ولم يسبق لاحد قبله كتابة عليه فيما نعلم وقد قرأه درساً في الجامع الازهر وحضرناه عليه كما تقدم في المقصد الذي قبل هذا واعلم لا يتسامى أحد الى تدريسه بعده ، وإن كان من الكتب التي قرر مجلس إدارة الازهر تدريسيها فيه رسمياً

الا أن يكون بعض من تلقاه عنه ، وقد ذكرنا آنفا مزايا درسه له .
(٩ — نظام التربية والتعليم بمصر) رسالة في الطريقة المثلى لتربية
المصريين وتعليمهم وهي على إيجازها من أحسن ما كتب وأنفعه وقد نشرناها
في باب لمباح التربية والتعليم من منشآته (صفحة ٥٣٣ ج ٢ طبعة ثانية)

(١٠ — رسالة التوحيد)

وما أدراك ما رسالة التوحيد ؟ هي التي يصدق عليها القول المشهور « لم
ينسج أسج على منوالها ، ولم تسمح قريحة بمثالها » هي التي يضح أن تعد معجزة
من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام ، ظهرت على يد الاستاذ الامام ، وآية
من آيات الاسلام ، هي التي ينبغي أن تجعل مادة الدعوة الى هذا الدين ، ويعم
تلقينها جميع المسلمين ، وقد قلت للاستاذ الامام رضي الله عنه إنه لولا اسم هذه
الرسالة وما في أولها من الاصطلاحات الكلامية الوجيزة لكان انتشارها أضعاف
ما هو الآن ، ولعم الانتفاع بها كل مكان ، ولكن البعيد ، إذا سمع باسم رسالة
التوحيد ، يتوهم أنها عقيدة كالسنوسية ، أو كالعقائد النسفية ، والقريب قد
يأخذ نسخة منها ، فيصرفه ذكر الواجب والممكن والمستحيل في أولها عنها ،
توهم أنها في علم الكلام ، الذي لا يتناول إلا نظار العلماء الاعلام ، وأكثره لا حاجة
اليه الآن وقد كان رحمه الله تعالى عازما على بسط الكلام في هذه المقدمات ، وسائر
مسائل الاهليات ، وجعل الكلام فيها كالكلام في النبوة ومزايا الاسلام ، موجهها
الى العقل والى الوجدان ، لا مجرد تقرير وجيز للبرهان ، وقد قرأها درسا في الازهر
ولقميناها عنه وأجازنا بقراءتها ، وطبعناها مرارا مصححة على نسخته التي قرأها في
الازهر ، وعلى جدول وضعه لتفقيحها في زهاء سبعين موضعا ، وعلقنا عليها بعض
الحواشي الضرورية ومنها ما سمعناه منه في الدرس وترجمت باللغة الفرنسية وطبعت
ولقد كان لرسالة التوحيد وقع عظيم في نفس اهل العقل والفهم ، وعارفي
قدر العلم ، لا من المسلمين وحدهم ، بل صرح بعض المستقلين من نصارى سورية
بالثناء عليها ، حتى قال بعضهم : « إذا كان الاسلام هو ما بينته هذه الرسالة فانا

أول مسلم ، ولكن مؤلفها فيلسوف ديني يقول ينبغي ان يكون الاسلام كذا ، فرد عليه أحد المسلمين بان مؤلفها من اكابر علماء الازهر وهو يقرؤها فيه ولم ينكر أحد من علمائه عليها ، ولا قال انها زادت في الاسلام ما ليس منه وقال فاضل آخر منهم: اود لو تقرأ هذه الرسالة في جميع المدارس النصرانية بعد حذف الكلام في نبوة محمد (ص) منها . اي لاجل وقوف نابتة النصارى على سر الدين المطلق^(١) وقد نشرت هذا وذاك في المجلد الاول من المنار

وقد جاء مصر في شتاء سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) نسيم بك خلاط احد كبار وجهاء النصارى وفضلائهم في طرابلس الشام واحب زيارة الاستاذ الامام فذهبت به اليه في دار الافتاء بالازهر فرحب به ، وكان مما قاله نسيم بك في حضرته. انه قرأ رسالة التوحيد واعجب بتحقيقها وبلاغتها ، وذكر من اعجاب السوريين بها وتعلقهم بالاستاذ ، وكان في المجلس جماعة من علماء الازهر فقال احدهم لنسيم بك : هل اشتهرت رسالة التوحيد عندكم حتى قرأها المسلمون وغيرهم ؟ فقال نعم ولها حظها من حسن الذكر والاعجاب ، كما ان جميع الطوائف عندنا تجل سماحة الاستاذ ، وتعشق مشربه في الاصلاح والتأليف بين الطوائف الذي نحن في اشد الحاجة اليه ولا نجاح لنا بسواه . قال العالم : لكنني اخبرك بنحبر ربما تعجب له وهو ان بعض علماء الازهر لما يقرأ هذه الرسالة : فنال من البيك العجب وقال اني اتبرع بخمسين نسخة من الرسالة توزع على الاذكياء الفقراء ، ثم انه امضى ذلك التبرع بالفعل ، فكان له من حسن التأثير عند المفتي وسائر العلماء ما يستحقه وقد ذكرت هذا في المجلد السابع من المنار بعد مقدمة وقفيت عليه بهذه العبارة : لا جرم ان هذه الارباحية فيناهي التي تقرب بعضنا من بعض ، وبامثال هؤلاء الرجال يغلب فضلاء المصلحين ، عصب المفسدين المفرقين ، الذين لا تجمعهم لغة ولا جنسية ولا قانون ولا دين ، بل اخترعوا لهم وطنية بالبهتان ، لا يشهد لها

(١) اخبرني صموئيل افندي بني الاديب الطرابلسي شقيق الاستاذ جورجى بنى صاحب مجلة المباحث أنه عني هذا على مطران طرابلس في ذلك العهد غريغوريوس حداد «الذى صار بطرك الروم الارثوذكس بعد ذلك» إذ كان ناظر المدرسة كفتين المشهورة

شرع ولا برهان ، وانما اساسها الاهواء ، وابتزاز الدرام من الدهماء اه
وقد قرظ الرسالة الشيخ سعيد الشرتوني الكاثوليكي مؤلف معجم أقرب
الموارد في كتاب خاص أرسله الى المؤلف تقريظ مؤمن بما فيها . وهذا نصه :

(تقريظ الشيخ سعيد الخوري الشرتوني)

أيها الشيخ الفاضل

بيننا أنا في لوعة من طول البعاد ، واليأس من اللقاء ، أتلقى أخبار مولاي
من سيادة الحاج محيي الدين حماده ، إذ وردتني هديتكم التي كشفتم بها عار مصر ،
وجلبتم له بها الفخر ، وهي مؤلفكم الفريد ، في علم التوحيد ، الذي لا ريب عندي
أن الله يشيكم عليه بكرامة الدنيا وسعادة الآخرة ، بعد طول العمر . ولم أتمجب
بما وقعت عليه فيه من البدائع ورأيت من الجواهر ، لصدوره ممن كشف الله عن
بصيرته . وميزه بالاطلاع على أسرار العقول والمنقول ، واختصه بفطرة شقيقة
المروءة والكرم ، أخت كل ماثرة ومحمدة . وما اظن ذوب العمل المصنفى أحلى
عندي منه . أقرأه ولا أمل ، ثم أعيد ملئاً به ولا انتذاذ السامع عند ما يسمع
من المعنى نفحة تغارب سمعه وتوأم ذوقه . فياثر ف المصرا الاسلامي بك ، وياخر
آدم بمثلك . فكان الذي يطالع الكتاب المشار اليه يرى شخصاً يشخص كل
ما يحتاج الفكر ويدور في الخاطر ، ولا يجد المتفكر طريقاً لا خراج به عبارة تحمل معناه -
مأنت في كل ما تشرع فيه إلا رجل جديد عندنا ، مع طول معاشرتنا وكثرة
مخالطتنا ، فلا غرو أن يكون دماغك مادة لكل بديعة ، ومخزننا لكل دقيقة .
والخلاصة ان مثلك آية من آيات الله تشهد بقدرته وجوده ، وتصدع بأن بين
الناس فروقا بعيدة المدى

هذا وأسأل الله أن يتولى مكافأتك على هذه الخيرية ، وبديمتك شرفاً

الداعي

الرحماني ، وخير ركن للإسلام ، بمنتهى ربه

سعيد الخوري الشرتوني

بيروت ٦ ربيع أول سنة ١٣١٦

أقوال علماء المسلمين في الرسالة

وأما أهل العلم من المسلمين فقد قرظ كثير منهم هذه الرسالة بقدر أفهامهم وهي تختلف باختلاف ما أوتوا من العلم وما قرأوا من الكتب الإسلامية وغيرها ، ولا يفهمها حق الفهم إلا من كان عالماً بمتهى ما كتبه جهابذة المتكلمين في العقائد الإسلامية والرد على المخالفين لها ، وواقفاً أتم الوقوف على شبهات فلاسفة الأفرنج على الأديان كلها ، وشبهات اللاهوتيين من رجال الكنائس على الإسلام نفسه وما يتكفونه من الطعن فيه ، ويقل في المسلمين من جمع بين الأمرين

سألت أحد كبار الفريق الأول عنها وهو العلامة الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير وكان في الذروة العليا من علماء الأزهر وأشهر فقهاء الحنفية: كيف رأيت رسالة التوحيد؟ فقال: عظيمة قوي ، الشيخ ذكي قوي وواسع الاطلاع ، جمع من هنا ومن هناك لفظه وهذا غاية المدح فان غاية العلم عندهم كثرة الاطلاع وأعظم التأليف جمع الأقوال الحسنة من المواضع المختلفة ، ولا سيما النادرة التي يقل من أطلع عليها ، ومن يقدر على تلخيصها وإيداعها في مصنفه ، وكان حظ من دون الشيخ الرافعي في العلم والفهم من علماء الأزهر الجامدين ان قال : إن هذه الرسالة إنشاء لاعلم!! وقال محمد فريد أفندي وجدي - وهو من الكتاب الواسعي الاطلاع على أقوال الأفرنج وفلاسفتهم في الأديان عامة والإسلام خاصة - : ان هذه الرسالة لا يمكن شرحها إلا في عدة مجلدات لأنها تشير الى أكبر معارك الفلاسفة في الأديان مع تقرير ما يوافق الإسلام منها ورد ما يخالفه من غير تصريح بأن هنالك مباحث وشبهات مشكلة اه بالمعنى

وأقول ان الأستاذ الامام رحمه الله تعالى كان متعمدا لهذا الإبهام لانه لم يكن يرى من الحكمة بيان مطاعن الماديين والفلاسفة على الدين المطلق ، ولا مطاعن الملاحدة ودعاة النصرانية على الإسلام بالتصريح ، والرد عليها بالتطويل ، كما كان يفعل فخر الدين الرازي في تفسيره ، إذ كان كثيرا ما يبسط الشبهات ويقصر في الرد عليها فيكون كلامه مقويا لها ، وقد بينت في الكلام على دروس شيخنا الخاصة ببعض الخواص سبب إبهامه هذا في دروس التفسير والتوحيد. بالأزهر،

وضربت له المثل بمسألة نشأة الأديان وتطورها والخلاف في الدين المطلق هل هو غريزي في البشر أو حاجة من الحاجات الاجتماعية التي عرضت لهم ، وبتبع هذه المقارنة بين الأديان ، وترقيتها بمقتضى سنة الاجتماع ، حتى ختمت بالاسلام ، وفي هذه المباحث شبهات لمنكري الوحي فندها في رسالة التوحيد وقرر الحق بعبارات بليغة لا تثير أدنى شبهة في قلوب ضعفاء الطلبة والاغبياء من قارئها ، وقد قلت له مرة في عبارة منها : لو فهم الجامدون من شيوخ الأزهر معناها أو المراد منها لا اضطربوا فيه وكان سبب القال والقال

ولاجل تعمده طيب الله ثراه لهذا الأسلوب قال في الدرس : إنني لا أسمح لاحد أن يشرح هذه الرسالة ولا أن يضع لها حاشية

وقد بينت في تقريري لها في المنار أنها هي الكتاب الوحيد الذي يصلح في هذا العصر للاعتماد عليه في الدعوة إلى الاسلام على الوجه الذي اشترطه المتكلمون في صحة الدعوة وهي أن تكون على وجه يحرك المدعو إلى النظر فيه ، وهذا الشرط وجيه فان في الارض أديانا كثيرة قيل إنها تبلغ الالف ، فلا يعقل أن تتوجه نفس كل أحد بلغه خبر دين أو دعوة إلى دين منها إلى النظر فيه لاجل معرفة حقه من باطله ، وناهيك بمن يريد الدعوة في هذا العصر إلى الاسلام في بلاد يصوره رجال الدين فيها بغير صورته ، ويصفون رسوله بضد صفاته ، ويفترون على كتابه وسنته وتاريخه أقبح الفري

وقد نشرت في المنار عدة تقارير للرسالة منها قصيدة لامام اللغة والادب في هذا العصر الشيخ محمد محمود الشنقيطي رحمه الله تعالى ألقاها على كرسي الدرس في الرواق العباسي والمؤلف حاضر وقد أشار إليه بيده عند ذكر اسمه في قوله :

لقد مات دين الله وانحل عقده فأحياء بالذكرى (محمد عبده)

وسياتي لهذا التقرير ذكر في الكلام على انصاف الاستاذ الامام عند ذكر أخلاقه وتنشر القصيدة في الذيل ان شاء الله تعالى

تقرير الشيخ سامي بوحاجب للرسالة

وهو أكبر علماء تونس وأشهرهم وكان باش مفتي المالكية . كتب رحمه الله
الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وسلم
حيا الله تعالى جناب الجهمذ الهام ، والعلامة الذي لا يفارق بدر معارفه التمام ،
الامام الذي هو لحل كل عويصة مأموم ، والفد المختص بصرف الهممة لكل ما ينفع
العموم ، زينة المناصب الشرعية ، والمجتهد في حسم كل ما يخل بحقوقها المرعية ،
حضرة مفتي الديار المصرية ، الشيخ سيدي محمد عبده قابل جميع مساعيه بأعزما
يمنح المولى عبده

أما بعد التحية ، وبث الاشواق الروحية ، للمناجاة الشهية . فقد وصاني
على طريق السيد عمر الخشاب ما أتخفتمونا به بل سائر الامة ، وهو تلك الرسالة
الغراء المهمة ، التي هي الملاك الوحيد ، للحصول بسهولة على ما يلزم استحضاره
من علم التوحيد ، فلقد أجدتم حفظكم الله في تحرير واجباته الاعتقادية ، وإفراغ
براهينها في مسالك مألوفة ، وأساليب اعتيادية ، بحيث يسهل نفوذ اليقين الى
القلوب ، ولا تحول الشبه دون وصول النفس الى المطلوب ، ولما أتيت على معظم
الرسالة المذكورة ، وعددتها من مساعيكم التي لا تزال عند الله وعباده مشكورة ،
رأيتني ملزما بواجبين عيني وكفائي ، وان كان قيام الغير بالكافي مما يسوغ بالاول
اكتفائي ، مع أن هاته البطاقة ، ليس لها بكلا الواجبين طاقة ، فحسبنا الآن أن
نعلن بشكر تخصيصكم للعبد بنسخة الرسالة المشار اليها ، ونعلم بأن حسن الرسالة
وحسن نية المؤلف أظهر من أهالينا مباديء الاقبال عليها ، فله المستول أن يشكر
سعيكم ، ويدعم لنفع الامة بقاءكم ورعيكم

حرره عبد ودم وكما لكم

سالم بوحاجب

٧ شوال سنة ١٣١٧

(أقول) لو كتب هذا الشيخ الكبير هذا الكتاب بعد اتمام الرسالة قراءة
وتأملا لعلم كنه قيمتها ، ولكان كتابه هذا ناطقا بان براهينها فوق المؤلف ،
كما ان اسلوبها فوق المعروف .

وقرظها أيضا أحد علماء الشيعة وأدبائهم في سورية تقریظا حسنا نشرناه

في أوائل المجلد السابع من المنار فقال في آخر تقريظ له للمنار مانصه : (ص ٦٨)

تقريظ عالم أدب شيعي للرسالة

«وحسبك في ذلك ما يقتبس من رسالة التوحيد لاستاذ الكل ، ووحيد هذا العصر أو من نظيره قل ، عليم العلوم الذي عم مده ، الشيخ محمد عبده ، كثر الله في الأمة أمثاله ، وزاد بين الورى اعظامه واجلاله ، فكم له فيها من حَزَّ أصاب المفصل ، وروية لم يخطئ بها الغرض ، إن خفي على التأمل ، وتحقيق كشف به الحجاب ، لأولي البصائر والالباب ، ولم يدع بعده عذراً لمفكر ولا مرتاب ، وحاشا أن تخلو الارض من عامل يعمل فيها بخير وهدى ، وداع يدعو فيها الى طريق نجاة ورشاد للورى ، فكم دافع عن الايمان ، بلسان أمضى من السنان ، وعن الاسلام ، بأقلام أمض وقعاً في الكفر من مريشات السهام . وعن الحنيفية البيضاء بمسود مداد أقطع من البيض الحداد ، أوضح مع الايجاز أدلة التوحيد ، بعد اثبات الواجب مالا يطلب التأمل بعده من مزيد ، وجل جولة في بيان ما يمكن الوصول اليه من الصفات ، أغني بها النصف عن اللجاج والتعرض للهلكات . وأوجز في صفتي الكلام والبصر ، مافيه البلاغ والمبر ، وتكلم في أفعاله تعالى بما يسبق الى القلوب اعتقاده ، وألف بين الفريقين^(١) بما هو حري أن يتبع وقرب ماتوم استبعاده ، وسلك في الجبر والاختيار جادة الاعتدال ، ومال في مبحث حسن الافعال الى أحسن الاقوال . وبسط القول في النبوة والرسالة ، حتى أوضح الحق وقع الجهالة ، وألف في مبحث الرؤية بين الفريقين^(٢) ورفع الوحشة وأزال النزاع من البين . وذلك الفضل من الله يؤتیه من عباده من يشاء ، ويمنحه من سبقته العناية فيه منذ فطر الاشياء . فجدير بمصر أن تفتخر بمن فيها من أفاضل العصر ، وتحقيق بحملة العلم في كل قطر ، أن ترفع أيدي الابتهاال لعزة ذي الجلال بالدعاء لكم بدوام التأيد والمجد ، والتوفيق لنصرة الدين ، وايضاح الحق ودحض الباطل وارشاد الضال . وجمع الكلمة واحكام الألفة بين المسلمين ، انه على ذلك قدیر ، وبالإجابة جدير . آمين آمين

(ع . ١)

(١) يعني بالفريقين أهل السنة والشيعة

تقرير الامير شبيب للرسالة

ومنها تقرير لنا بفة مريديه في الديار السورية الامير شبيب أرسلنا ذكره في كتاب خاص، ولو كتبه لاجل النشر في الصحف لزاد في البيان والابداع قال: «قرأت رسالة التوحيد ولم أزد بكم علما، الا أنني سررت لكم بنشرها بعد أن حجبت المحاكم بين الانظار، وبين تلك الآثار، وبعد أن ظن أن القضاء^(١) صرف نظركم عن كل ما سواه، ولعمري أن أحسن عمل يؤتى هو مثل هذا الاثر، ولم أقرأ في مكتوب العصر شيئا أبدع من هذه الرسالة ولا ما يداينها، الا ان كان بعض كلام المرحوم السيد جمال الدين، وعليه فالدائرة واحدة لا حق لي في الكلام من جهة الفن وتمثيل الآراء والمذاهب، ومع هذا فحيث كان الامر من العقول تأملت فوجدت أن طريقة هذه الرسالة هي أقصد الطرائق، وانها غاية ما يرتاح اليه العقل ويرتاح فيه، فما أشكل بعدها من مغالطات أسرار الوجود فهو مما حتم الله باشكاله وخبا نوره عن عباده» وأما البيان فقد طالما اعتذرت أن الانشاء مارق به المحسوس حتى كاد يسيل، أو تجرد منه مثال للتخييل، ولقد وجدتني من تلك الرسالة في عالم معنوي قادت البراءة أسرارها ومجرداته بزمam التعبير، الى أن تخيات آني قابض على المعاني بيدي، فضلا عن آني متمثلها في خلدي، فهذا غاية الخلق من البيان، وهو ما أتت به الرسالة اه (١١ - تقرير المحاكم الشرعية) هو على خصوصية موضوعه مفيد حتى لغير القضاة ومستخدمي هذه المحاكم من جميع أهل العلم والادب لا سيما طلاب علم الفقه فانه يعطيهم من البصيرة في طريقة التحصيل على الوجه الذي ينتفعون به وينفعون مالا يجردونه في سواه، وفيه كثير من الفوائد الادارية، والاجتماعية، والادبية، وأحوج الناس اليه بعد القضاة وكتاب المحاكم المرشحون للقضاء وللكتابة في هذه المحاكم، وقد طبعناه على حديثه، وتسكنا عليه في مقصد عمله في اصلاح هذه المحاكم من هذا الجزء ونشرنا فيه مقدمته للمؤلف ومقدمتنا لطبعه ونشره وفيها من بيان مزاياه ما يغني عن اعادته هنا

(١) كان الاستاذ في تلك الاوقات قاضيا في محكمة الاستئناف في القضاء تورية

١٢- الاسم والنصرانية مع العلم والمدينة

وهو مقالات كتبها لمجلة المنار ثم جردناها منها وطبعناها على حداثها وسميتها بهذا الاسم باذنه ، فجاءت كتابا مستقلا أعيد طبعه مرارا . وسند كر في مقصد عمله في الدفاع عن الاسلام بسبب كتابته ، وغرضه الا هم منه . وهو ايقاظ المسلمين وارشادهم الى اسباب تأخرهم وضياع مجدهم وزوال ملكهم ، والى المخرج منه ، فهو لم يترك شيئا من هذه الاسباب الا وقد بينه أحسن بيان . مؤيدا بالبرهان ، فترجيح الاسلام على النصرانية في حرية العلم ونشأة المدنية كان هو الغرض الا دنى المحرك للكتابة ، وإرشاد المسلمين المذكور هو الغرض الأعلى . ولكن هؤلاء المسلمين الساكنين الغافلين عن أنفسهم لما يعرف أكثرهم قيمة هذا الكتاب ، ولو عرفوها لوجدته في كل بيت من بيوتهم ولقرأه مرارا كل متعلم ومنعلمة منهم ، بل قال أحد العقلاء الفضلاء انه يجب أن يقرأ في كل سنة مرارا . وأنا أقول قرأته حين طبعته في السنة الخامسة للمنار مرارا ، ثم قرأته عند تصحيح كل طبعة وأجدني أستفيد منه في كل مرة عبرا كثيرة لا عبرة ، وتنفجر لي منه ينابيع للحياة غزيرة .

(١٣ - تفسير سورة العصر) كان رحمه الله تعالى قد فسر هذه السورة في دروس ممتدة كما تقدم بيانه في الكلام على سبب قراءته للتفسير العام في الازهر ، ثم فسرها في الجزائر تفسيراً مجملاً مختصراً ، ثم كتبه لينشر في المنار إجابة لرغبتنا ورغبة بعض أهل العلم في مدينة الجزائر الذين حضروا هناك درسه في تفسيرها ، وقد كتب الاستاذ في حاشية تفسير جزء عم عند تفسير هذه السورة ما نصه : « وقد كتبنا تفسيراً لهذه السورة الشريفة نشر وحده بعد ان طبع في مطبعة جريدة المنار وهو ما كنا ألقيناه درسا في مدينة الجزائر في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٢١ وفيه تفصيل طويل لما أجملاه في هذا التفسير المختصر فمن أراد بيانا أوسع ، وتفصيلا أبعد ، فليطلب ذلك التفسير ، فهو فيما أعلم غير مسبوق بنظيره اه » أقول اننا طبعناه بالقطع الصغير ليوضع في الجيب وطبعنا معه ملخص درس الاستاذ الامام في تونس وموضوعه العلوم الاسلامية وأقرب الطرق لتعلمها

(١٤ - تفسير جزء عم) قد كتب تفسير هذا الجزء ليقرأ في مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية وجعل طبعه حقاً للجمعية خاصاً بها - وقد كتبه في بعض أسفاره الصيفية الى أوربة ، وانه في مدينة جنيف من سويسرة في صيف سنة ١٣٢١ هـ الموافق ١٩٠٣ م وطبع الطبعة الاولى في اوائل سنة ١٣٢٢ وهو تفسير أشهر من نار على علم ، وقد كان رواجه أكثر من رواج سائر كتبه على شدة الرغبة فيها كلها ، حتى انه قد وزع منه عدة ألوف في عدة شهور ، وهذا شيء لم يعهد له نظير في المطبوعات العربية افتتح خطبته بضممة أسطر فيها اشارة الى كل ما يحتاج اليه المسلمون من اصلاح في دينهم ودنياهم ، متضمن لكل ما هم عليه من سوء الحال وخطر الاستقبال ، وهو ما يمكن أن يكون موضوعاً لدروس كثيرة ، وخطب مفيدة .

نم ذكر من الباعث على تأليفه لمدارس الجمعية ما يرشد جميع المسلمين الى ما هم في أشد الحاجة اليه من الاهتداء بالقرآن او كيف يكون ذلك إذ قال « ليكون مرجعاً للامانة لمدارس الجمعية في تفهيم التلامذة معاني ما يحفظون من الجزئين [أي هذا الجزء وجزء (تبارك) الذي كان عازماً على تفسيره بعده] اينشؤا متعودين على فهم ما يحفظون ، وتدبر ما يقرأون ، وليكون ما في تلك السور من دلائل التوحيد والعظائم والمعبر مشرقاً للعقائد السليمة في نفوسهم ، وعاملاً للاصلاح في اعمالهم وأخلاقهم »

أليس هذا هو الواجب على كل مسلم من هداية القرآن ؟ ففي أي مدرسة وفي أي مكان من بلاد الاسلام يلقن أولاد المسلمين هذا ويربون عليه ؟ اللهم اننا لانعلم هذه هي مؤلفاته التامة ولا حاجة هنا لذكر ما بدأ به ولم يتمه ، وأنفعه كتاب أسباب اشورة العرابية ، وقد لخصنا بعضه في موضعه من هذا الكتاب

المقصد الثالث

من الفصل السابع

دفاعه عن الاسلام، وكشفه للشبهات والادوهم

كان قدس الله روحه مدافعاً عن الاسلام طول عمره بلسانه وقلمه ، وخير مثل له في أخلاقه وعلمه وعمله، حتى قالت امرأة سويسرية من المجلات المصنفات في علمي التربية والاخلاق : ما كنت أظن قبل معرفة هذا الرجل أن القداسة توجد في غير المسيحية

وكان دفاعه عن الاسلام ثلاثة أنواع يعززها رابع يدخل في مقصد آخر من مقاصده وهو التمهيد بين اهل الاديان، ولا سيما النصرانية والاسلام، بما يزيل أكبر شقاق بين الشرق والغرب أو بين البشر، والتأليف بين أهلها، بما يحول دون اتخاذها سبباً لحد ما شرعت له وهو الهداية والخير، وسنلم بهذا بعد بيان الأنواع الثلاثة (النوع الاول)

الدفاع اللساني أو الشفوي بكشف شبهات المرتابين ، وأغلاط الخطئين ، واعتراضات الجاهلين ، وكبت الشائنين

المعروف عن أكثر علماء المسلمين الذين نصفهم بالجامدين ، ويصفهم الكثيرون بالمتعصبين والمفرورين ، أن من يسأل أحدهم عن شبهة عرضت له في دينه، أو مشكل أورده على بعض مسائله، يجيبه بما يعرفه في الكتب المتداولة في أصل المسألة التي تتعلق بها الشبهة وإن لم يكن جواباً داحضاً لها ، فإن قبله مدعنا فذاك ، وإن جادله فيه، وقال إن هذا عين المسألة التي لم أعقلها أو لم تظهر لي حقيقتها ، لا جواب عن شبهتي عليها ، أعرض عنه ونأى بجانبه ، ونهزه بقلب الكفر أو الابتداع ، إلا أن يكون وجيبها لا يتجرأ على مواجهته بما يكره من فعل أو كلام وأما أستاذنا رحمه الله تعالى فكان أشد رفقاً بمثل هذا السائل من غيره، وكان يجيبه بحسب ما يراه من حاله واستعداده في العلم والفهم ، فإن لم يعقل الجواب أو لم يطمئن

له قلبه ، أرجأ الحديث معه فيه الى وقت آخر ان كان ممن يجتمع به ، وربما أحاله على مطالعة الموضوع في كتاب معين لاجل الكلام معه فيه بعد مطالعته . وقد ذكر لنا في الدرس الخالص مثلين في هذا الباب وقعا بينه وبين بعض أصحابه (أحدهما) أن صديقه محمد بك راسم كان قد رسخ في نفسه مسائل لا تتفق مع المعروف من قطعيات الدين ، وعرضت له شبهات كان بها او فيها من المرتابين ، فما زال يحاور فيها حتى استلها من أعماق قلبه استللا ، فكان من أقوى النابذة المدنية إيمانا وأحسنها أعمالا ، وصار من قراء إحياء علوم الدين المتدبرين لحكمته ، وسيا تي ذكر كل الصداقة بينهما في موضعه

(ثانيهما) أن صاحبه الشيخ سعيداً الشرتوني الذي مر ذكره قريبا في الكلام على رسالة التوحيد ، بعد ان مر فيما كتبه اليه الامير شكيب من سيرة الاستاذ في سورية (ص ٤٠٠) قال له يوما إذ كان مقبلا في بيروت : إسمح لي يا أستاذ أن أقول لك إن نهج البلاغة أبغ من القرآن . فلم يرد عليه بانكار ولا إقرار ، حتى كأنه لم يسمع الكلمة لما دل عليه قوله من أنه لم يفهم بلاغة القرآن ، ولم يقدر أساليبه قدرها ، على سعة اطلاعه في اللغة وآدابها ، وظل الكلام جاريا بينهما مجراه الاول ، ثم كان يفترص المناسبات فيما كان يدور بينهما مدة وجود الامام في بيروت من الكلام في المسائل اللغوية الادبية والعلمية المختلفة ، فيورد له في كل محاورة ما يناسبها من آيات القرآن ، وما فيها من دقائق نكت البلاغة وروعة البيان ، حتى أدرك أن نهج البلاغة لا يعد في جنب كتاب الله شيئا مذكورا ، واعترف بذلك معجبا فخورا ، بل امتلأ قلبه من عظمة الاسلام ، والعلم بأن ما عداه من الاديان لا يبلغ أن يكون مجنبه . كنهج البلاغة في جنب الفرقان و ذكر الاستاذ الامام في ذلك الدرس أنه كان معه مرة فسمعا جرس الكنيسة فوضع الشرتوني أصبعيه في أذنيه والتفت اليه قائلا انظر أيها الاستاذ الفرق بين الدعاء الى العبادة عندنا والدعاء اليها عنكم بالاذان الذي هو نفسه عبادة . و أقول ثم كان تقریظه لرسالة التوحيد أعظم من هذا وأدل على مكانة الاسلام من نفسه ، وتأثيره في وجدانه وعقله

وهكذا كان أسلوب الاستاذ الامام ومنهاجه مع أهل الأديان وأهل المذاهب الإسلامية وطوائفها ، كان يظهر حقية الاسلام وعلوه بالصفة التي كان عليها الصدر الاول في المناسبات بعبارات فصيحة زبده بعيدة عن التعريض بأديان الحاضرين أو مذاهبهم المخالفة لدين الاستاذ ومذهبه فيه ، حتى كان يكون محل إعجاب الجميع واحترامهم ، واعترافهم بان الاسلام فوق ما كانوا يعلمون منه ، ومباين لكثير مما كان يروى لهم عنه ، كما بين ذلك الامر شكيب في المقال الذي وصف به سيرة الاستاذ الامام في بيروت (ص ٤٠٢)

احالته بعض المستفتين على مراده المؤلف

وكان كثيرا ما يرسل الي بعض السائلين عن الشبهات ، والمستفتين في المشكلات ، لكثرة أعماله ، وثقته بتلميذه ، كما كان يحيل علي بعض الاسئلة المكتوبة على ماسبق في الكلام على فتاويه. وأذكر من الاحياء المعروفين منهم الاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي الكاتب الخطيب المشهور كان كتب اليه وهو تلميذ في طنطا مكتوبات فيها أسئلة من هذا النوع ، وكان رحمه الله تعالى يرسلها الي لأجيبه عنها. وأذكر انني كتبت اليه مستحسنا إمامه بمصر لذكر الشفوية في مشكلاته وانه حضر ولقي الاستاذ وأراد البحث معه في تلك المسائل : فقال له اذهب إلى فلان صاحب المنار فهو يجيبك عما تسأل بمثل ما أجيبك به - او ما هذا معناه - وكتب لي رقعة أو بطاقة في التعريف به وبغرضه ، فلما أعطاه إياها قال له أنا أذهب إلى صاحب المنار والى كني أحفظ هذه أثرا من فضيلتكم عندي . قال لا بأس ، وأنا أكتب لك رقعة أخرى فجاءني ولا اذكر ما دار بيننا بالتفصيل

بعد كتابة ما تقدم راجعت ما أحفظه من أمثال هذه المكتوبات فوجدت فيها كتابين للاستاذ لطفي جمعة رأيت أن أنشرهما لما فيهما من الدلالة على ذكائه وحرية ، وبحشه في زمن التعليم في أعلى مسائل الفلسفة وعلاقتها بالدين ، وحسن إنشائه الذي يقل مثله فيمن كان في سنه وبخصيله ، ومعرفة بمكانة الاستاذ الامام وفضله ، وإلهامه الرجوع اليه فيما يهمه من أمره ، ووصفه لتعليم الدين في المدارس الأميرية وأمثالها ، وخلوها من التعليم الديني والتربية المالية التي يجب تنشئة التلاميذ عليها .

﴿ الكتاب الاول ﴾

طنطا في ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤

اللوكنده الخديوية بشارع البورصة — محمد لطفي جمعه

سيدي الاستاذ

يكتب اليك شاب قصم الدهر ظهره ، ونامت عليه المصائب بكاملها ،
فجلس في مجتمع من الناس لا يعرف منهم إنسانا
فلا صديق اليه مشتكي حزني ولا أنيس اليه منتهى جذلي
جلست وأنا مغمم بالهموم والاحزان ، وصدرى يجول به الحزن والضيق ، وفؤادي
حروع ، وعقلي يكاد يطير شعاعا ، فقلت الى من أشكو ، ومن ذا الذي يسمع
تألمي إلا الله . ولكن تلك القوة الهائلة تعلم ما أنا فيه ولا تفرج كربى ، لانه لم
يأن الأوان ، فقلت إني كاتب لشيخ هذه الأمة ، علي أجدى سلوى في كتابتي اليه
وأنا أشكو في حياتي هذه من أمرين : أمر يتعلق بنفسى ، وأمر يتعلق بجسمي
وأمر نفسي تحته مسائل شتى .

نشأت كما يذشأ كل مسلم مصري ، وأنا لا أعرف من ديني الا اسمه ، ولا
أعرف من أديان الناس الا انها كفر وبهتان . وحفظت قليلا من القرآن في المدرسة
الابتدائية ، كنت أضحك منها عند تلاوتها ، وخرجت من المدارس الابتدائية الى
المدارس الثانوية ، وأنا لا أزال كما كنت لا أعرف الله الا باسمه ، ولا النبي إلا
(صلى الله عليه وسلم)

وكان لنا استاذ غرس في نفوسنا حب المطالعة والبحث وأرانا القرآن بشكل
جديد ، وفسر منه آيات كثيرة ، فلم نعد نقول ان تفسيره حرام على غير العلماء .
وقرأت كثيرا في الكتب الانكليزية والعربية وطالعت فلسفة باكون
وفلسفة ابن رشد وندفا مختلفة من هذه العلوم ، فزاد الامر علي إشكالا ، فبقيت
كريشة في مهب الريح ، ثم نظرت في أصل الروح وما هي وكيف خلقت ، وما
أصل الخالق ؟ وهل نحن اجزاء منه ؟ وهل هناك قوة هائلة هي الله ؟ وهل العالم

يسير بنظام؟ وهل وجدت المادة قبل الخالق؟ أو هو الذي خالقها؟ وكيف خلق المادة؟ ثم كيف خلقت النفس البشرية؟ ذلك المخلوق الكبير الذي إذا سار في طريق الخير كان مثالا لله، وإن سار على درب الشر كان صورة للشيطان، وما هو الإنسان؟ ذلك (الحيوان الاله) العجيب، وأين النفس من جسمه؟ وما معنى أنها ملازمة للجسم؟ ثم جاءت مسألة القضاء والقدر وأعمال الإنسان في هذه الحياة، وأقول بأنها زادتني تعباً على تعبى، فلا أنا قادر على أن أقول إن كل شيء من عند الله، ولا قادر على أن أقول إن العالم متروك سدى، لأن في قلبي ما ينقض كلا هذين القولين ثم نظرت في الموت ولماذا هو في وقت معين؟ ولماذا لا يطيل الإنسان عمره؟ ثم نظرت في هل هناك حساب وبأي شكل؟

وأنا لا أعتقد بالبعث بالصورة الموضحة أي أننا نبقى أجساماً ونفوساً. ثم نظرت في الجنة فقلت إن ليس فيها «حورا وولداً» (كذا) بل فيها كمالات نفسانية وإننا ننقل إلى عالم أرقى من هذا العالم وربما كان كوكبا من الكواكب. وهكذا حتى نصل إلى أقصى درجات الكمال.

وكذلك ليست النار ناراً كما يقال، بل هي عبارة عن عذاب الضمير لنفسه. أنا مرتبك لا أدري ماذا أكتب؟ ولكن ها هي صورة مني والسلام وما طالعت في الكتب وما سمعته وكل هذا خلط في فكري خلطاً كبيراً وطالعت أخيراً سورتين من القرآن بامعان زائد فخرجت منهما على أن في القرآن أصلاً كبيراً للهيئة الاجتماعية ودونت ذلك في كتاب عندي هذا عذابي من جهة ديني

ومن جهة أمي فأنا حزين لأنها ساقطة ولا يرجى لها قيام. أمة منحطة لا تقدر الناس حق قدرها، ولا تعرف يومها من أمسها، وأحسد أمة اليابان التي ارتقت في خمسين عاماً مع أنهم يعبدون الاوثان، فما أجدرنا بترك ديننا لليابان وأخذ دينهم. لأننا لا نصالح له لأنني لا أزال أحترم الدين الإسلامي وإن كنت لا أعرفه، ومن جهة عائلي فألامي شديدة ومن جهة نفسي فألامي أشد وأنا لا أخاف أن أكتب لك بذلك

محمد لطفي جمعة

(الكتاب الثاني)

سيدي الاستاذ العظيم ابقاه الله لنا ذخرا ليحفظ كيان الامة الاسلامية .
انا لا اعلم ان كان ما كتبت قد تشرف بنظركم اليه فنال القبول ام لا ؟ ولا تخني
لا اري لي مندوحة من ان اكمل سؤالي حيث قد طرحت مبادئه على سيدي
الاستاذ فاقول :

﴿ الله ﴾ اول ما يخطر ببالي عند ذكر هذه الكلمة قوة هائلة لا يمكن
تصورها وهي محاطة بملائكة كثيرين . ولكن ما شكلها ؟ لا ادري . واحس
عند ذكره بجلال وخشوع ولكن لماذا ؟ لا ادري .

﴿ المادة ﴾ وهذه المادة التي خلق منها كل هذا العالم . هل خلقت من نفسها
او خلقتها تلك القوة الهائلة ؟ واذا لم تكن هناك مادة فكيف خلقت ؟ اذن هل
المادة جزء من القوة الهائلة ؟ او هل وجدت المادة قبل القوة الهائلة

هاتان هما المسئلتان اللتان تمنعان انكري عن جفوني

﴿ الكون ﴾ وهذا الكون المتناهي في العظام والكبر والفخامة ما عمره ؟ اني
اراه ايضا متناهي في القدم . وعبثا ان يخلق الله كل هذا الكون وهذه الكواكب
وهذه الاقمار وهذه الشمس عبثا ، فلا بد من ان يكون فيها مخلوقات لله . وكل
هذه الاشياء خلقت من المادة ، اذن فالمادة لها فضل على الخلق كبير .

ولكن هل يخطر ببالي احد ان ﴿ المادة ﴾ هي اصل كل هذا الخلق العظيم
وانها تحركت بنفسها وخلق منها هذا الكون الهائل وسار على قوانين منتظمة ؟ ؟

هذا خاطر كنت اميل اليه في بعض الاوقات اما الآن فقد تلاشى من
فكري او كاد . ودليل ذكره انني كنت اري ان الرجل اذا نالت جسمه السقام
او اصاب قابله بسهم فانه لا محالة يموت . اذن لم يمت حتى انحل تركيب جسمه
او اصاب العضو الرئيسي فيه ، والجسم مخلوق من المادة ، فهل حياة الانسان
موقوفة على المادة ؟؟؟

وسمعت هذا القول او ما يشبهه مرة من طبيب فشغلت نفسي به شهرا كاملا
ولا يزال عقدة في سلسلة افكاري .

النفس البشرية وخلق آدم

وهنا تأتي أم المسائل التي اعشقها عشقا عظيما . يأتي ذكر النفس البشرية ما هي ؟ اين هي من الانسان ؟ كيف خلقت ؟ وهل هبطت اليك من المحل الارفع ؟ انا اجيب نفسي على هذه الاسئلة بهذه الاجوبة :

النفس البشرية قطعة من الله ولا اقول شعاع من نوره كما يقول الفقهاء والمتكلمون . او ان الله مكون من عدد لا يتناهى من النفوس .

وهي ليست موجودة في أي جزء من اجزاء الانسان ، بل هي تظله ولا علاقة مادية لها به ، مثلها كمثل الحديد الرفيع الذي يوصل التيار الكهربائي الى عربة الترامواي فان هذه الحديد لا علاقة لها بانرامواي الذي هو جسم الانسان واذا حدث للترامواي (العربة) عطل فانها تمتنع عن السير اما الحديد فلا يحصل لها ضرر . وكيفية خلقها يعود بي الى السؤال الاعظم : كيف وجد الله ؟ بل كيف وجدت هذه القوة الهائلة ؟

لان الله والنفس شيء واحد : هذا رب في سمائه ، والنفس رب في ارضها : وهي لم تهبط من المحل الارفع . لكن اين هذا المحل الارفع ؟ ؟

خلق آدم وحواء

كنت وانا صغير شديد الولوع بمطالعة قصة آدم وحواء وكيف طردا من الجنة ، وكيف تقابلا وتناسلا : وانا الآن شغف بقول شاعر كم :

لم تلدنا حواء الا لنشقي ليتها عاقل من الاولاد

ولكن انا الآن أفكر في امر ارقى من هذين الامرين السابقين وان كانت طريقه محفوفة بالخطار وهالك سيدي رأيي في خلق اول انسان

صورة العالم في اول خلقه كما هي في فكري غريبة جدا : وهذه الصورة استنبطتها من العلوم التي قرأتها . كان العالم كله بحرا وذلك بعد ان بردت الارض وانفصلت من النظام الشمسي على حسب رأي لابلاس الذي جاء مصداقا لما في القرآن (كانتا رتقا ففتقناها) . ولما صارت الارض بحرا بقيت كما هي زمنا طويلا

طويلا جدا جدا . وبعد ذلك اخذت اليابسة تظهر شيئا فشيئا . وذلك بدليل الرمال العظيمة الموجودة في كل القارات وهي مصحوبة باصداف لا توجد الا في قاع البحار . ثم من ارقى درجات الجماد خلقت أدنى طبقات النبات مثل الحشائش في الصحراء وغير ذلك ، واخذ ذلك زمنا طويلا طويلا جدا ، ثم ارتقي النبات كثيرا حتي خلق من ارقى طبقاته ادنى طبقات الحيوان . واذا ذكر قول النبي ﷺ - قاله استاذي في الدرس اذكر معناه - « راعوا عمتكم النخلة » (١) لأنها ارقى درجات النبات . ومن ارقى درجاته خلقت الديدان والحشرات وطال الزمن طولا عظيما حتي وصل الحيوان الى ارقى درجاته وتم خلق اول انسان ، وفي هذا الاثناء كان العالم يرتقي من جهات أخرى . اني اميل لهذا الفكر لانه صحيح ادلته علمية استقرائية ولا اميل الآن الى قصة آدم وحواء . والسلام ، والبقية تأتي ان شاء الاستاذ العظيم

طالب الحقيقة

محمد لطفي جمعة

[المؤلف] ايس هذا الموضوع بمكان لهذه المباحث وانما اقول بالاجمال ان هذا العالم لذي نقيس مالم يعلمه البشر منه وهو أكثره ، على ما علمه وهو أقله ، هو منفعل لقوة فاعلة فيه لم يصل البشر إلى معرفة كنهها . واذا كان البشر قد عجزوا الى اليوم عن معرفة حقيقة ما يسمونه المادة وما يسمونه القوة المودعة في المادة وهي حادثة ، وان اهتمدوا أخيراً الى أن القوة تتحول الى المادة او الاخرى أن المادة تصدر عن القوة ، فأخرى بهم أن يعجزوا عن معرفة كنهه الخالق للقوة والمادة معاً ، وعن صفة خلقه لهما ، وقد قال تعالى في خلق العالم وخلقهم (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وكذلك الروح يكثُر ايمان الماديين بها عاما بعد عام مع الاعتراف بأنهم عرفوها بأثرها لا بحقيقتها . وليراجع القارئ الى قصة آدم في الجزء الاول من تفسير المنار ومعنى خلق الناس من نفس واحدة في أول تفسير سورة النساء يجد ما فيه الغناء في مسألتهم ومجد في مواضع أخرى منه ومن المنار أجوبة تلك الاسئلة كلها

(١) المؤلف : الحديث رواه ابو يعلى وابو نعيم عن ابن عباس بلفظ « اكرموا

عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم » وفي رواية « من فضلة طينة آدم » وفيه ضعف وانقطاع في السند

النوع الثاني

﴿ الدفاع القلمي عما يسأل عنه المسلمون من المشكلات ﴾

وبيانه لما فشا فيهم من البدع والمنكرات

كان بعض المسلمين يسألون الاستاذ الامام بالكتابة عن بعض المشكلات في القرآن ، أو في بعض مسائل العقائد أو الاحكام ، وبعضهم يسأله بالمشافهة ولكنه يرغب أن يكتب الجواب وينشر ليستفيد جميع الناس به ، وكان يأمر بنشر بعض ما يكتبه من الاجوبة ويجعل بعضها خاصا بالسائلين

ومما نشر في المنار منها مسألة الغرائيق ، وهي من أعظم المشكلات في كتب التفسير ، لأنها تتعلق بجوهر التوحيد. ومسألة زيدوزينب ، وفي كتب التفسير من الروايات فيها ما جعله دعاة النصرانية وغيرهم طعنًا في النبي ﷺ ومسألة شبه التعارض بين هاتين الآيتين من سورة النساء (٤ : ٨٧) أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل كل من عند الله ، فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا (٨٩) ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة (فمن نفسك) الآية . ولكنرة حاجة الناس الى التفسير الصحيح للآيات في هذه المسائل الثلاث جردناه من مجلة المنار ونشرناها مع تفسير سورة الفاتحة الذي طبع عدة مرات ، ومنها ما أدخله في عداد الفتوى الرسمية كمسألة طوفان نوح التي نشرناها في هذا التاريخ وكنا نشرناها من قبل في المنار

وكان رحمه الله تعالى يرسل الى بعض هذه الاسئلة المكتوبة لاجيب أصحابها وقد وقع في يدي قبل الشروع في كتابة هذا الفصل كتاب أرسل اليه يسأله صاحبه عن التحريف في التوراة والانجيل هل هو لفظي أو معنوي — وقد وقع عليه: الشيخ رشيد مجيب عن هذا بكتاب خاص ، وأرسل اليه بعض الناس رسالة مطبوعة « تتعلق بصلاة الظهر بعد الجمعة في الامصار » للشبرايماسي الشافعي ويسأله ما يقول فيها؟

فأرسلها الي وقد كتب على ظهرها مانصه: اذا وجدت وقتاً وطريقاً لتسفيه صاحب هذه الرسالة وناشرها في جريدة المنار فافعل » وأرسل اليه شيخ سوري اعتراضاً على شيء قاله في التفسير فأرسل الي كتابه وقد كتب على طرفه « الشيخ رشيد مجيب هذا الحيوان » الخ وسبب ذلك ان المعترض كان يريد التحرش والجدل بمباراة ظاهرة في ذلك ، فهذا مثال من غضبه رحمه الله من سيئي النية وهو قليل جداً فيما يضاده من حلمه وسعة صدره ، ومن انصاف التاريخ أن نبين كلا منهما

وبدخل في هذا النوع مقالاته في القسم الادبي من جريدة الوقائع المصرية الرسمية في موضوع ابطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية ودوسة أهل الطريق و (منتدياتنا العمومية وأحاديثها) ويراها القاري في الفصل الثاني من جزء المنشآت من هذا التاريخ — وكذا ما نشره في الصحف السورية كقائه في كتب المغازي وأحاديث الاقاصيص في (ص ٣٤٦) من المنشآت وغير ذلك

النوع الثالث

(ما كتبه في الرد على الطاعنين في الاسلام من غير المسلمين)

قد عقدت لهذا النوع الفصل الخامس من باب مقالات الاستاذ الامام في الجزء الثاني من هذا التاريخ (جزء المنشآت) وعبرت عنه بالمناظرات الدينية — وقد افتتحت الفصل بهذه الكلمة :

« أشهر ما كتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو — أحد وزراء فرنسة وكتابه — في الاسلام والمعتقد السامية والآرية ، وما يتعلق منهما بالاسلام والنصرانية ، ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد ، والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية . وانا نكتفي في هذا الكتاب بالمناظرة الأولى (أي مناظرة هانوتو) لأن الثانية قد نشرناها في المنار ، ثم جمعناها في كتاب مستقل طبع مرارا » وهو كتاب (الاسلام والنصرانية . مع العلم والمدنية)

الرد على هانوتو

نم بينت كيف كتب الرد على هانوتو ، وما كان له من الشهرة والتأثير في الشرق والغرب ، ونشرت ترجمة مقالة هانوتو الاولى ورد الاستاذ الامام عليها ثم ما كتبه هانوتو بعد وصول الرد اليه واطلاعه عليه ، ثم ما رد به الاستاذ الامام عليه ، وقد بلغ ذلك ست مقالات واستغرق نشر الاصل والرد ٦٨ صفحة من ٤٠٦ — ٤٦٨ (من المنشآت وختمته بهذه الكلمة في العبرة به)

(يقول جامع الكتاب) إن الغرض الذي رمى اليه الاستاذ في الرد على موسيو هانوتو هو تنبيه المسلمين وارشادهم الى النظر في عيوبهم ، والبحث عن الاسباب التي أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم ، وعمت ملوكهم وحكامهم ، وسوقتهم ودهاءهم ، والجمع بين بيان أسباب الفساد وبيان المخرج منها — ثم انها على ما كان من حسن تأثيرها ، ولهج الألسن بها ، وطبع الالوف الكثيرة من نسخها ، لم تحمل المسلمين على اصلاح خلل في تربية ولا تعليم ، ولا إدارة ولا سياسة ، وانما كان ذلك التأثير قاعراً على التلذذ بفلج إمامهم في المناظرة ، وظهور حجته في العلم والدين والسياسة ، على كاتب من أكبر رجال أوربة ، وذلك شأن الامة في طفوليتها : سرور كسرور الاطفال ، وغضب كغضب الاطفال ، لا يبعثان على عمل من الاعمال ، ولم يكن نصيب رجال الدولة الاسلامية الكبرى (أي العثمانية) خيراً من نصيب رجال الامة الاسلامية من هذه الآيات والعبر ، فقد صرح الامام بأن سياستها غير دينية ، وان إدارتها غير اسلامية . وأشار الى دابة الاحاد التي تأكل من منسأتها ، فلم يعتبر أحد من رجالها ، فلما خرت صريعة زعم الملاحدة الذين أسقطوها بجهلهم أن اتباع الاسلام هو الذي ثل عرشها وأودى بملكها !! اه

تأثير الرد على هانوتو في الناس

أشرت آنفاً إلى ما نشرته في المنار من تأثير رد الاستاذ الامام على هانوتو في الشرق والغرب ، وكنت أعد ذلك من مادة هذا التاريخ التي تنشر فيه ولكنه

طال فوق ما قدرته له فكان هذا مانعاً من نشر ما ذكره لكثرة ولكتني أنه
ببعض ما فيه العبرة في هذا الموضوع بالايجاز في مسائل:

(١) ان الرد كان بأسلوب رفيع من البلاغة ، وفيه من المفردات المصورة
لادق المعاني ما هو طريف غير متداول ، وفيه من الدلالة على سعة اطلاع الكاتب
على تواريخ الامم وعقائدها في الشرق والغرب - ولا سيما فرق النصرانية - ما ليس
للناس عهد بمثله في الجرائد ، وهو قد كتبه بسرعة لا مجال فيها لمراجعة شيء من
الكتب ، فانه قرأ المقالة الاولى في المؤيد ليلا فكتب رده عقب قراءته ليلا
وأرسله إلى المؤيد في الصباح فنشر في العدد الذي صدر في ذلك اليوم ، وقد
عزاه صاحب المؤيد إلى امام من أئمة المسلمين لان الكاتب لم يأذن له بالتصريح
باسمه ، فكان مثار الدهشة والاعجاب ، في أنفس جميع القراء من جميع الملل
والنحل والآراء ، ببلاغته وبادبه في التعبير ، فهو على شرحه ما بين النصرانية والوثنية
الآرية من وشيجة النسب وصلة الرحم ، وتفضيل ملة التوحيد السامية عليها لم يكتب
كلمة تسوء أحداً من النصارى لامن رجال العصبية الدينية ، ولا العصبية الدنيوية
(٢) ان أكثر أهل العلم والادب في القطر المصري قد جزموا بان الكاتب
لذلك المقال هو الشيخ محمد عبده وانه لا يقدر عليه غيره ، وقد قيل له هذا في
مكتب الافتاء ، وكان في مجلسه بعض العلماء والادباء ، فتوقعوا أن يتهمل وجهه
سروراً ، وان يظهر هذا على لسانه ولو بعبارات التواضع والفخر المعنوي ، ولكنه
فاجأهم بقوله ممتعاض انه لا يسوءه ويحزنه شيء كما يسوءه هذا القول المتضمن لمنتهى
ذم قومه واهل بلده بالجهل والعجز عن مثل هذا الرد الذي يجب أن يضطلع بمثله
أكثر أهل التعليم الوسط وندع التعليم العالي . قال : ومن المصائب على المرء أن
لا يستطيع الاستخفاء في هذا البلد الكبير إذا أراد أن يظهر رأيه وأفكاره دون
شخصه إذا رأى مصلحة في ذلك !! فليتأمل أولو الالباب ، هذه الارحية القومية
والوطنية الجديرتين بالاعجاب !

ومما يحسن ذكره هنا أن بعض أصحابي كان ينكر علي شدة اعجابي بالاستاذ
الامام وثنائي عليه (لانه لم يكن يعلم من أمره إلا ما يسمعه من الحاسدين له او جاهلي

مزايه) قل لي لما قرأ الرد على هانوتو : لو كان الشيخ محمد عبده هو الذي كتب هذا الرد لكنت أعذرك بدلا من عذلي لك على مبالغتك في مدحه - او ما هذا معناه - فقات له كان لبعض العشاق صاحب يكثروا له على الحب، فأبصر معشوقه يوما ولم يكن رآه قبل ذلك ، فدهش وراءه جماله، فقال له لو عشقت هذا لملكك ولما لامك أحد ، فأنشد العاشق :

ابصره عاذلي عليه ولم يكن قبلها رآه
فقال لي لو عشقت هذا ملامك الناس في هواه
فقال من حيث ليس يدري يأمر بالعشق من نهاه
فهم مرادي وصار من حزينا

هذا والله قد تصدى كثيرون للرد على هانوتو في الجرائد والمجلات ، فمنهم من أساء حتى طعنوا في الديانة النصرانية طعنا لا محل له وهو ضار غير نافع ، ومنهم من لم يحسن ، وأنى يبالغ من أحسن غبار الاستاذ الامام فيما سبق اليه وهو لم يدع مقالا لقائل ،

(٣) اقترص هذا الاضطراب بشارة باشا نقلا صاحب جريدة الاهرام العربية والبيراميد الفرنسية فتصدى للرد على الامام نفسه والدفاع عن موسيو هانوتو ظنا منه أن هذا يحمل الناس على كثرة قراءة الاهرامين العربية والفرنسية ويكون سببا لرواجهما لما جرت عليه العادة في المناظرات المهمة ، ولكن أخطأ الظن وخاب الرجاء ، إذ نفر جماهير المسلمين من الاهرام واعتقدوا أن الحامل لها على الرد على الامام ، إنما هو التمسب وعداوة الاسلام ، فقل قراؤها ، وكثر المعارضون عندها وكان أكبر ما تمسكت به الاهرام في الدفاع عن هانوتو انه أنكر على (كيمون) ما نقله عنه من الطعن في الاسلام واقتراحه اقضاء على المسلمين ونهب قبر الرسول الاعظم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس ، وإنما كان إنكاره أن وضع في آخرها علامة الاستفهام الانكاري ، وزعم ان ترجمة المؤيد لبيارتته لم تؤدغرضه هذا (٤) انني وقفت بالمنار في هذا النزاع والتخاصم بين الجرائد وموقف الحياد ، على ما علم من خطتي في تأييد الاستاذ الامام ، واقتصرت فيه على كتابة ما يرشد

المسلمين الى الاعتبار والاستفادة من هذه الحادثة ، ومن آداب امامهم وسياسته فيها ، فهو على شدة رده على هانوتو وبيان له سوء معاملة فرنسة للمسلمين في الجزائر وتونس ، قد أشار إلى إمكان التوفيق بين مصالحها ومصالح المسلمين كما يراه المطلع على مقالاته في الجزء الثاني من هذا التاريخ

وانني أثبت هنا ما نشرته في المجلد الثالث من المنار (ص ٢٥٠) في موضوع ذلك القيل واقال في الجرائد لانه جدير بأن لا يخلو هذا التاريخ منه ، وهذا نصه :

هانوتو والاسلام

(تلخيص ما جرى من المناقشات في مقاله والرد عليه)

سأل أحد أفاضل مسلمي بيروت صديقاً له من أدباء المسيحيين مقبلاً في مصر القاهرة (١) رأيه وما وصل اليه علمه في شأن المناقشات التي بنيت على مقالات هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقاً في الاسلام لاسيما صحة الترجمة فأجابه بكتاب نذكر منه في هذا المقام ما يأتي :

« مقال هانوتو الذي سبب حركة الافكار واهتزاز الاقلام ، قد طالعت مراراً باللغة الفرنسية ، وترجمة المؤيد غير مغلوطة ، ولكن المسيو هانوتو عند ما نقل كلام كيمنون كان غير مرتاح اليه ، وتهكم صريحاً على افكاره ، وعلى الحل المتناهي في الغلو الذي زعم كيمنون انه يريد ان يحل به المسألة الاسلامية ، فترجم مقال هانوتو في المؤيد قد حافظ على المحافظة التامة على الاصل ، فاكتمى بان يضع اشارة الاستفهام الانكاري والنقط التي تتبعها ، غير ان قراء لغتنا العربية لم يتمودوا على ادراك سر هذه النقط التي اصطلح عليها الفرنجة ، ولهذا التبس المعنى ، وظن الكثيرون ان هانوتو يصادق على كلام كيمنون ، ومع ذلك فقد استأنف الكلام ، وعاد ثانية إلى الاسلام ، وتبرأ مما نسب اليه وصرح بميله واحترامه الاسلام والمسلمين ، وترجم مقالة المؤيد وتبعه في ذلك الاهرام أيضاً »

« ١ » أما السائل فهو سمادة عبد القادر بك القباني صاحب جريدة ثمرات

الفنون الشهيرة وأما المسؤول فهو جاد افندي عيد

ثم دخل اللواء في مضمار المباحثة وتكدر منه محرر الاهرام الفرنسي (وهو شاب امتهقده تقلا باشا من باريز) وطلب مصطفى بك كامل إلى البارزة ، وتبع ذلك أقاويل مختلفة، وأقيمت الدعوى من تقلا باشا على صاحب اللواء، وتشاتم الفريقان، وانحاز إلى كل فريق انصار ومريدون

مولاي . لو اكتفى المؤيد واللواء بما كتبه ذاك الامام العظيم لخدما حقيقة الاسلام، لان الحق يصرع اذا عمد إلى اظهاره بالسباب والشتائم، ولم يكن لرد الامام الوقع العظيم في نفوس المسلمين فنت ، بل ان كثيرين من افاضل النصارى قد أجلوه كثيراً، واحلوه محلا كريماً ، ولا أبالغ اذا قلت لسعادتكم انني قرأته أكثر من عشرين مرة

دين الاسلام كله شهامة ومروءة وحرية ومدنية طاهرة، غير ان كيمنون والذين على شاكلة كيمنون، قد تلقوا كل ما هو مما كس لروح الاسلام والمسلمين وبعيد عن عقائدهم وآدابهم وأخلاقهم . وكتاب الفرنجة لا يراعون العواطف في اندفاعهم، وقد كتب الكثيرون منهم في الطعن على السيد المسيح وعلى طهارة والدته وعلى كرامة تلامذته ، واتصدى منهم فريق عظيم للتوثب على الاحبار الاعاظم، وقالوا فيهم الاقوال الشائنة التي ترتعد لها فرائص الآداب والفضيلة ، فالقوم الذين بلغ بهم التماذي والغرور إلى هذا الحد أيابق ان تترجم أقوالهم ونذيع ترهاتهم على رؤوس الاشهاد، ونحرك ماكن من الاحقاد

انني استحلفك بدينك القويم الذي أشرق بنوره الوضاح على البصائر المظلمة فأنازها ، وعلى العقول المقيدة فأرشدها وحل عقالها ، وعلى القلوب المتسكعة فأيقظها وقوماء وجاجها ، أن تحرك قلبك وتغمزه إلى الغاية المحمودة، وذلك في استنهاض هم فطاحل كتاب المسلمين للذود عن الاسلام بالطرق التي يريد بها الاسلام — الطرق التي يريد بها الاسلام لا تخفى على افاضل المسلمين الذين أشربت قلوبهم محبة الائتلاف والموادعة والمسالمة ، وتحريض الامة على اكتساب الفضائل السامية في اكرام الجار ، وتعزيز حقوق الجوار، ومعاملة عباد الله بطرق المساواة والعدل والولاء يوجد كثيرون من الذين لم يتشرفوا بالدين الاسلامي على ضلال مبين في

أفكارهم وظنونهم نحو الاسلام والمسلمين، ولكر ضلالهم لا تعفو آثاره إلا البراهين القاطمة، والحجج الدامغة، التي تثبت لهم ان دين الاسلام دين الحرية المطلقة، والحنان الصادق، والشهامة الحقيقية، والمحافظة على الاعراق، وكرم الاخلاق، والمرض والاخلاص والوفاء.

أنظن يامولاي ان كيمون يقذف من فيه تلك الاقذار لو كان قرأ في زمانه فصلاً واحداً من الفصول التي دبجتها أنامل الامام علي كرم الله وجهه ؟
أنظن انه يجرأ على التلفظ بذلك الحبل الهائل الذي يريد ان يحل به المسألة الاسلامية لو كانت سمع بحلم وحكمة العمرين، وكرم ابن زائدة، وعادل الرشيد، وسخاء البرامكة ؟

أنظن انه يحرك قلماً لو علم بان أحقر رجل من المتدينين بدين الاسلام يهرق آخر نقطة من دمه في الذود عن عرض وكرامة الملتجئ اليه عند ما يسأله الحماية ؟
مهما كان كيمون والذين على شاكلته في غرور وضلال فانهم لا يستطيعون بعد معرفة الاسلام إلا اثناء على الاسلام، والافتخار بفضائل الاسلام

وكنت أود من صميم الفؤاد ان أضمر صوتي إلى أصوات مقرري الحقيقة وأنصح أفاضل المسلمين أن يتخذوا الخطط الصائبة في مجادلاتهم، وكسر شرذمة المتوثبين عليهم، فالحق أيدك الله في جانبهم، غير ان بعض جهالهم يريدون ان يصرعوه في تطفلهم على صفة التحرير والتحرير، ولا أكنتم على سعادتك شيئا، فان الاقلام التي تحركت من بعد رد الامام المعتدل المحكم لم تأت بشيء من الفائدة، بل أضاعت أو شكت ان تضع الحق الذي بجانبكم، وتسبب حركة لا يرضاها عقلاء الامة الاسلامية
عن القاهرة في ٩ يونيو سنة ٩٠٠ ج.ع

[المنار] نحن نحامينا الخوض في المجادلات عندما هي وطيسها، وكنا غير راضين عن الدين نهوروا منا فطعنوا في الديانة النصرانية نفسها بما لا يتعلق بالرد، ورأينا من نعرف من أفاضل المسلمين معنا في هذا الرأي، وقد نشرنا كلام هذا الكاتب الاديب المسيحي لما فيه من روح المودة الذي نحن في أشد الحاجة اليه، ولا شيء ينفخ روح الهدوء ولا لتلاف، مثل الاعتدال والانصاف اهـ

الرد على فرح افندي انطون صاحب مجلة الجامعة

تمهيد

كان فرح افندي انطون من أمثل شبان النصارى في وطننا ذكاء وحجاً للعلم والفلسفة، تعلم في مدرسة كفتين للروم الارثوذكس - وكانت مدرسة ابتدائية ثانوية - ثم صار معلماً لاحدى مدارس طائفته الاولى في ميناء طرابلس الشام، وكنت ألقاه أحياناً عند الاستاذ جرجي افندي يني فيعجبني منه أدبه وامتناعه من ابداء رأيه فيما تدور المذاكرة بيننا فيه من المسائل السياسية والاجتماعية معتذراً بأنه لم يدرسها درس تمحيص يعطيه الحق في الحكم فيها، ولكنه عصبى المزاج إذا تألم مما يمس شعوره يفقد رشده

وكان يحن مثلي إلى الهجرة إلى مصر ويستعد لانشاء مجلة أدبية فلسفية فيها، وقد أعد لذلك مقالات كثيرة ترجمها عن اللغة الفرنسية بما كان أكثرها من كتب (جول سيمون وجان جاك روسو) وغيرها، واتفق ان سافرنا معاً في باخرة واحدة، وبدأ هو بالبحث عن عمل له في تحرير بعض الجرائد او المجلات من حيث كنت أنا أجول في الوجهين البحري والقبلي لاجل معرفة البلاد في الجمل، ثم أنشأت جريدة المنار قبل انشائه هو مجلة الجامعة العثمانية، وكلفته مساعدتي في العمل بترجمة بعض المسائل التي تهمني من الجرائد الفرنسية باجرة معينة

ولما أنشأ هو مجلة الجامعة العثمانية وجهت اليها نظر الاستاذ الامام، وقلت له ان منشئها يكتب ما يمتدق فائدته من المباحث العامة في الفلسفة والاخلاق والاجتماع، ورجوته أن ينظر فيها، ويثني عليها في مجالسه بما يراه للترغيب فيها، ففعل، وقابله فرح افندي انطون مراراً فلقني هذا من عطفه ما كان به راضياً مغتبطاً ولما كتب فرح افندي ما كتب في فلسفة ابن رشد مما لم يكن يفهمه حق الفهم، وحكم بان النصرانية أشد من الاسلام تسامحاً مع الفلسفة والعلم، ساء ذلك من اطلاع عليه من المسلمين وطلابه بعضهم بالرد عليه، فلما رأى الامتعاظ والاهتمام افترضه ليعين المسلمين جهلهم بدينهم واعراضهم عنه، كما صرح بذلك في آخر الرد

كيف كتب الرد على الجامعة وأين كتبه

سافر الاستاذ إلى رمل الاسكندرية في أواخر يوليو (سنة ١٩٠٢) وكان مشغولاً بجمع الاعانات المالية لمنكوبي الحريق في ميت غمر . ووعدني قبل سفره بان يكتب فيه ، وانه يتوقع أن يرى فيها فرح افندي أنطون ويتكلم معه في الغرض من هذه الكتابة ، وكانت المكاتبة بيني وبينه متصلة ، وانني أنشر ما وجدت من مکتوباته في هذا الشأن لما فيها من الفائدة بل الفوائد ومن أهمها المله من سوء حال المسلمين الذي يعبر عنه في كل مناسبة

(الكتاب الاول من رمل الاسكندرية في ٥ أغسطس سنة ١٩٠٢)

ولدنا العزيز

وصلاني رقيمك وأرجو أن يصلني الآخر قبل غروب يوم الخميس إن شاء الله . إلى الآن لم أكتب شيئاً ، وقد أخذت القلم الآن لا كتب وإذا بداخل يحبي تحية الصباح ويشغلني بما لافائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو يفر مني فرار الخير من أيدي المسلمين . ربما جئت إلى مصر يوم الخميس ان لم يطراً ما يحملهني على الذهاب إلى رشيد والسلام (محمد عبده)

(الكتاب الثاني من الرمل في ٦ أغسطس)

كتب اليوم وختمت المقال فيما يتعلق بمذهب المتكلمين ورأيي الفلاسفة والناس جلوس يتكلمون ، وأريد مراجعته صباح الغد إذ لا يمكنني مراجعته وهم جالسون وهم لا يفارقوني إلى وقت النوم .

لم أر فرحاً إلى الآن ، ولا أدري هل أراه غداً ؟ كما لا أدري هل ينبغي أن تنشر المقال قبل أن يرسل اليه ؟ وعلى كل حال فلا بد من نقله بخط آخر ولا يكون إلا خطك . وأظن اني أكون بمصر مساء الغد إن شاء الله ، فلتكن عذري بعين شمس صباح الجمعة بعد أن تسأل بالتليفون والسلام محمد عبده
فعلم من هذين الكتابين انه كتب ذلك المبحث الدقيق في الفلسفة وعلم

الكلام في يوم واحد يمكن لا يكتب فيه براجعه ، وهو في شغل شاغل من وفود الناس .
عنده . وهذا مصداق ما قاله لي سعد باشا زغلول بمناسبة استديائه من أناس قطعوا
عليه طريق اتصال الفكر في موضوع كان يكتبه . قل فاضطرت عند الفراغ
إلى إعادة الفكرة فيما كنت اكتب من أوله . (قال) وكان لشيخنا رحمه الله من
قوة الفكر ما يمكنه من الكتابة او الكلام في أي موضوع كان مع سماعه لكلام
الناس ومشاركتهم فيه ، ولا يصعب عليه العود إليه بعد قطعه عليه . وسيرى
القارىء مصداق هذا فيما يأتي قريباً

نم جاء القاهرة وكان قد أتم القسم الاول من الرد الخاص بمسألة ابن رشد ،
فمسخته بخطي وأرسلت ما كتبته إلى فرح افندي وكتبت إليه بأن الاستاذ الامام
استحسن أن ينشره كل منا في وقت واحد (ولكن فرحاً امتنع من النشر كما سندكره)
ثم سافر الاستاذ إلى الدقهلية لاجل مسألة إعانة المنكوبين في ميت غمر وكان شرع في
كتابة القسم الثاني من الرد واعطانيه وهو المقاتلة بين الاسلام والنصرانية في العلم
والمدنية ، والتسامح مع العلم والفلسفة . لاجل أن يكتب في القطار وحيث يكون ضيقاً
من كل بلد ، وأذكر بعض مكتوباته الخاصة في ذلك

(الكتاب اثلاث من السنبلاوين في أول سبتمبر سنة ١٩٠٢)

ولدنا الفاضل

السلام عليكم . رأيت ما كتب في المقطم وهو حسن . حافظ يروج المنار وينجح
إن شاء الله ^(١) . تذكرت اني نسيت في قسم المسيحية أن أذكر عند الكلام في
البروتستانت ورأيهم في الفلسفة وحكاية ما كان يقوله (ولتير) في (ارسطو) هذه
العبارة « وكان علماء السنة يسمون أرسطو المعلم الاول » فان كنت لم تطبع الى
الآن سب ولتير لارسطو فأضف هذه العبارة بعد ذلك السب . وان كان قد
انتهى طبعه فاختر لذلك موضعاً في آخر الكلام على رأي المسلمين في الفلسفة قبل

(١) يعنى محمد حافظ ابراهيم بك ، وكان مرافقاً له في ذلك السفر ، ويرغب

تبسم الاسلام من الاديب الذي رماه بضيق الصدر على غير ذنب
الى الآن لم اكتب ولا كلمة في الموضوع لاني في شغل شاغل من هؤلاء الناس
المرزوقين في عقولهم أولا، وفي بيوتهم ثانياً . وربما فرغت بعد يومين والسلام
محمد عبده

(الكتاب الرابع من المنصورة في ٤ سبتمبر)

ولدتنا العزيز

أنا اليوم في المنصورة وربما فارقتها الى عين المنزلة من طريق النيل طلباً لراحة
الفكر، وهرباً من جو البلدان في فسادهم . وقد يخطر ببالي أن أرجع إلى القاهرة
لأهرب في عين شمس، ولا أدري مايفعل الله بي من اليوم إلى الغد
أصبحت وقد عوقبت عقوبة من بكل أمره إلى غيره على ضعف ثقته بالناس
كافة إلا من اختار لنفسه، بحثت في محفظتي عن تمة ما عندك من المقال المعروف
وهي تلك البقية التي استبقيتها لأصل بها ما يتبعها فلم أجدها، ولا أرتاب في
أن الكاتب الذي كان يحمل المحفظة أخذها في أوراقه مع أوراق توزيع نقود
المحروقين . فكدرني ذلك غاية الكدر لاني لا أعلم من أي موضع يبتدىء ما كان
فيها، وأرجو أن لا يكون الكاتب قد أضاعها، أما نهايتها فاني أتذكرها، ويمكنني
أن أبتدىء مما بعدها، ولكن كيف يملأ الفراغ بين ما سأكتب وبين ما عندك
إن كانت الورقة قد ضاعت ؟

(نعم عهد إلي أن أذهب إلى ديوان الاوقف وأسأل عن ذلك الكاتب وأفتش
الورق الذي معه وأرسل إليه الورقة إن وجدتها كما يعتقد . وفي هذا الكتاب مصداق
لكامة سعد باشا فيه فهو يتذكر ما انتهى اليه من الكتابة بعد أيام، ويمكنه أن يصل
ما يكتبه بعد من الكلام)

(الكتاب الخامس منها في ٦ سبتمبر وهو مرجوع كتاب مني إليه)

ولدتنا العزيز

وصل رقيمتك، كنت أحب أن يكون اللفظ « علماء أهل السنة » بدل علماء

المسلمين^(١) لما تعلم من الفرق ورنه الاسم في آذان المخدوعين، لم أبحث عن الورقة الضائعة ولا أظن أنها في المحفظة فإن لم تكن عند أحد الكنايين فقد نسيتها في البيت وعلى كل حال فالكتابة في هذا السفر ضرب من المحال، نعوذ بالله من عطلة كالتي أنا فيها^(٢) ولكن المدة قصيرة وأرى في الراحة شيئاً من الفائدة، ولا أراك تحتاج إلى التتمة قبل رجوعي إلى حيث يمكن العمل، فإن المقال الباقي لا ينشر مرة واحدة فيما أظن (نم تكلم عن عودته وتقدير مكثه وختم كتابه بقوله) أحب أن أعرف أثر المقال في أنفس من تعرف من المسيحيين أو المسلمين والسلام عليكم

(الكتاب السادس منها في ١١ سبتمبر)

وهو مرجوع كتاب مني إليه ذكرت أنه فيه أن أدباء المسيحيين معجبون بأدب المقال ونزاهته، وإن كانوا يألمون من موضوعه، وإن المؤيد شرع في نشره نقلاً عن المنار ولكنه لم يعزه إليه، وكنت كلفت مسعود افندي وحافظ افندي عوض نشره من قبل فلم يفعلوا، وذكرت له بمناسبة ما ذكره من ترويج حافظ (بك) إبراهيم للمناربط الاشتراك فيه. فبين رأييه في كل ذلك وهذا نص كتابه :

ولدنا العزيز

وصلني رقيمك أمس في المنصورة وأنا اليوم فيها وربما وصلت إلى مصر مساء يوم الأحد وأصبح في عين شمس إن شاء الله تعالى صباح يوم الاثنين. والذي كنت أحب أن أعرفه هو ما يجد المسيحيون في المقال من حسن التأديب، وكنت أخاف أن يكون بدر مني ما يؤخذ علي فيه من هذه الناحية. أما تألمهم من الحق فذلك مما لا يصح أن أشك فيه، لأن الباطل إذا لم يألم من منظر الحق فم يألم؟ (٣) وجدت بعض اللحن في المقالة وقد أصلحته في النسخة التي وردت إلي وأندكر الآن أني وضعتها في الشنطة. ولو وجدت حيث أنا صمغاً أو نشاء لبعثت بها

(١) يعني الذين لقبوا أرمطو بالمعلم الاول، وقد غلطت أنا في استبدال الثاني بالاول الذي كتبه هو (٢) يعني عطلته من الاشتغال بالمعلم والكتابة مع عمل البر والاحسان الذي سافر لأجله وهو مساعدة منكوبي الحريق (٣) هذه العبارة مما لم يكن بأذن في نشره عنه في حياته

١٠٢ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١

إليك ، ولكن أحب ان تنتظر بالملزمة الثانية حتى احضر يوم الاثنين إن شاء الله تعالى . واتذكر الآن من الخطأ (وهبهم الله إياها) والصواب منحهم ، لأن وهب لم يرد في القرآن إلا متعديا باللام ولا أحب ان اخالفه ولو إلى صحيح .

الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر ، بما هو أصلح للأجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الأغنياء قليلا ، والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف الأمل ، في نجاح العمل والسلام

محمد عبده

وفيه الحاشية الآتية

لا تعجب مما يصنع عمال المؤيد فالذي أظنه ولا أخاله إلا صحيحا هو أنهم انتظروا بالنشر ورود خبر من الشيخ علي ولذلك لم يحصل النشر إلا بعد ورود البوسطة من أوربا ولا أستبعد ان يكون الشيخ أوصاهم بنشر المقل بدون ذكر مفرسه الأول إرضاء لمحمد رشيد^١ وخوفا من احفاظه لو علم ان المؤيد ينقل عن المنار . وحجة الشيخ علي في ذلك ان عدوه الخنث واقف له بالمرصاد فاذا رأى كلمة طار بها إلى سيده وأخذها وسيلة إلى الطعن في الشيخ ، فإن شئت عذرت العمال وعذرت الشيخ أيضاً ، ونحن لا نريد إلا النشر وإيست نسبة المذخور مما بهم اغفاله ، فدعهم وما يعملون والسلام

محمد

﴿ نشر المقالات وتأثيرها ورد الجامعة وردنا عليها ﴾

لما عاد الأستاذ من الاسكندرية اتفقنا على انه يحسن ان أنسخ المقال بخطي وأرسل ما أنسخه إلى فرح أفندي وان تنشره معاً في شهر واحد ففعلت ، ولكن فرح أفندي امتنع من نشر المقال في مجلته ، وكتب في غلاف الجزء الذي صدر بعد إرسالها إليه ما معناه على ما أذكر انها لما وصلت إليه وضع رأسه بين يديه ، وغرق في بحر من الأفكار والتصورات ، وعزم على الرد على الأستاذ الامام ، والدخول معه في مناظرة تصور انه يطير بها صيته وصيت مجلته في الانام ، فكتب

أولا مقالة رد بها رداً إجمالياً ختمه بالطمع على صاحب المنار ورميه بالجهل وعدم فهم هذه الموضوعات الكلامية والفلسفية التي فُق هو أهلها فيها بزعمه ووجهه شرعت في نشر المقالات في المنار ، فكان لها تأثير عظيم في هذه البلاد وفي سائر الأمصار ، وتناقلتها الجرائد العربية في الاقطار ، وفي مقدمتها جريدة المؤيد بمصر . ومن التزم نقلها برمتها من أدباء النصارى الأحرار (نعوم افندي لبكي) صاحب جريدة المناظر التي كان يصدرها في (سان باولو - البرازيل)

وأما فرح افندي فانه بعد أن كتب مقالة الجامعة انقطع عن كل عمل سوى الرد فألف فيه كتاباً مستقلاً سماه (فلسفة ابن رشد) ولكن خاب ظنه فيما كان يرجو من الفوائد العظيمة وسعة انتشار مجلته في مصر وسائر العالم العربي ، كما خاب ظن بشارة باشا نقلاً صاحب الأهرام ، في تصديده الدفاع عن هانوتو والرد على الاستاذ الامام ، ولكن هذا لم يتورط في الخوض في عقائد الاسلام وفلسفتها مثله ولما كان رده هذا مشتملاً على الكلام في العقائد الاسلامية بالباطل شرعت في الرد عليه في باب الدفع عن الاسلام من المنار ، والظاهر أن هذا الرد قد حمل كثيراً من المسلمين المشتركين في مجاته على ردها اليه وهذا ما لم أكن أقصده ولم يخطر لي ببال ، ولكن بعض الناس لا يزالون يقولون ويكتبون ان الجامعة قتيلة المنار ، وإنما قتلها تعرضها لما لا يعنيتها وما لا تفهمه من شؤون الاسلام ، ولا يمكن أن تعيش صحيفة عربية في هذه البلاد إلا باقبال المسلمين عليها لانهم السواد الأعظم وهو مع هذا لم ير لكتابه تأثيراً وعجز عن استمرار اصدار الجامعة لينتقم بها على حين كان يزعم ان اقبال الناس عليها قد تضاعف وانه انشأ لها مطبعة كبيرة وانه سينزل ما يطبعه من الألوف من نسخها ألفاً أخرى ليفي بما يتجدد كل يوم من طلب الاشتراك فيها (وكان هذا في جزء ديسمبر سنة ١٩٠٢) ولم تصدر بعده

الوقفة بين الولد وأبيه والمريد وأستاذه

لما شعر فرح افندي بجنائته على نفسه ، ورأى عاقبة عمله ، وخيبة أمله ، أراد أن يستعيد احترام المسلمين لمجته بمودة الامام ، وينتقم لها من صاحب المنار ، فكتب أولاً كتاباً خاصاً إلى الاستاذ الامام ذكر فيه ميله إلى الجامعة ورضاه عنها

وان الشيخ رشيد رضا يحسده فيطمئن له فيه ويبغضه اليه .. فلما قرأ هذا الكتاب سقط فرح افندي من عينه ، وزال كل ما كان له من القيمة في نفسه ، وعجب من البون الشاسع بيني وبينه ، أمدحه ويذمني ، وأوصي به ويصدعني ، ويرميني بضد ما أنا عليه بمحض سوء الظن ، وتصديق خواطر السوء ، وقد أعطاني الاستاذ ذلك الكتاب ، فحجالت من ظهور خطأ رأيي عنده وغروري بالرجل

(الكتاب المفتوح ، والادب المفزوح)

نم لما رأى الرجل أن كتابه المختوم لم يغن عنه شيئاً ارسل إلى الاستاذ الامام رسالة طويلة مطبوعة في ١٦ صفحة عنوانها (كتاب مفتوح من ادارة مجلة الجامعة إلى فضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده في مصر القاهرة) افتتح هذا الكتاب بقوله للاستاذ « في شخصكم شخصان » وبينهما بان الاول هو القابض على سلطنة الافتاء وهذا الشخص يحترمه - وان الثاني « كرجل من علماء الشرق كتب ردوداً طويلة على مجلة الجامعة » وانه يوجه هذا الكتاب إلى شخصه الثاني لا إلى الاول ، وملخص هذا انه يحترم منصبه الرسمي لا شخصه العلمي الممتاز. وقد علم القراء قيمة هذا المنصب عند الاستاذ الامام مما تقدم في عمله في الافتاء ، بل علم جماهير المعارفين ان شخصه كان فوق منصبه ، وان شرف المنصب ولم يشرف به . نم ذكر ما كان من ميل الاستاذ إلى الجامعة وتنشيطها ، وما كتبه في مقدمة الرد من الثناء عليها ، الدال على انه لم يقصد بالرد عليها الغض من كرامتها . وبقى على ذلك بقوله :

« ولكن من سوء الحظ ان صاحب مجلة المنار الشيخ رشيد رضا الطرابلسي تابعكم ساءه ودادكم للجامعة فلم يذخر وسعاً في إلقاء الفتنة بينكم وبينها ، ولذلك كان يمهّد لردودكم ويذيلها بأقوال وأكاذيب فيها عدوان على الجامعة وإهانتها ، لأسباب منها الحسد وضعف الاخلاق . فالجامعة لم تبعاً بإهانتها وأكاذيبه وعدوانه لأنه أظهر انه من الذي يجب ان لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت إلى كلامهم ، إلا متى وجب الالتفات إلى هذين البله والحمقى والبلداء الذي لا يروي غليلهم إلا شتم الناس والتطاول عليهم » اه بحروفه .

نم ذكر انه قد شغل عن هذا الالتفات الذي لا يابق بادبه وحكمته إلى تأليف كتاب (ابن رشد وفلسفته) الضخم الذي بلغت صفحاته ٢٢٥ صفحة وذكر سبب تدخل الجامعة في هذه المواضع وبالغ في دعوى إعجاب الناس بكتابه وفي احتقارهم لصاحب المنار، وما كتبه اليه بعض فضلاء المسلمين من الطعن في مجلة المنار وجناباتها على الاسلام والمسلمين بمناجرتها بالدين، وبرائة عقلاء المسلمين منها، وكون صاحبها هو الذي افرد وحده بالاستيلاء من هذا الكتاب !!! نم قال :

[ولذلك ما كنا لنعبأ به ونكتب اليكم هذا الكتاب بشأنه لولا ما يشيعه بلسانه وقلمه فانه يقول ان لكم يدأ في الاقدار التي ملأ بها مجلته طعنا على الجامعة وشتما لمنشئها] وقل انه لا يصدق ذلك ولو رأى خط الاستاذ في تصحيح مسوداته ما لأنه أعطى قابسه للجامعة وصاحبها فلا يرجع فيه . بل قال انه ينبغي كلام المنار بطرف نعله ، نم قال (في ص ٧) مانصه :

[وهنا نستأذنكم بابداء ملاحظة مختصة بهذا الموضوع ، فان تابعكم الشيخ رشيد الطرابلسي صاحب المنار لا يجني بتهوره وحمقه على نفسه وعلى قومه فقط . بل هو يجني أيضاً على منصبكم السامي منصب الافتاء الكريم . فانه كل ما (كذا) نشر ذما وطعنا في أحد أكابر الناس الذين لانعجبه آراؤهم وأعمالهم يقول لبعض اخصائه « إن الاستاذ المفتي راض عن هذا » أو « هو الذي أوحى إلي هذا الفكر » وهناك على ذلك أمثلة كثيرة نذكرها عسى ان يكون فيها فائدة وتنبيه لكم ولتابعكم فتدفعون هذا الضرر عنكم وعن عباد الله الذين نحن من جملتهم] وأول ما ذكره من هذه الامثلة ما تقدم لنا ذكره بالتفصيل في صفحة ٥٨٣ وهو ما نشر في المنار في الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي باشا ملك مصر الجديد ، من مقالة المنار ومقالة الاستاذ الامام نفسه ، قفى على ذكرها بقوله [فبعد انتشار هاتين المقالتين صار تابعكم الشيخ رشيد رضا الطرابلسي يشير إلى بعض تلك الاخصاء ان تلك الآراء منكم ، فانتشر هذا الخبر وصار الناس يتساءلون : ما بين الجناب الخديو وفضيلة المفتي لينشر المنار في محمد علي باشا مثل تلك المقالات ؟]

كتب فرح أفندي أنطون هذا لأنه كان في معزل من معرفة ما كان يعرفه جميع خواص المصريين وكثير من عوامهم وجميع أرباب الصحف في هذا القطر من أمر الشقاق بين الخديو والمفتي. ثم ذكر أن المنار أنكر حضور الأمراء الرقص الأفرنجي تعريضاً بالخديو، وأنكر تصفيق الناس لسموه في حفلة افتتاح بعض المساجد وقال إن التصفيق في المساجد من أعمال الجاهلية، وأنكر على أمراء المسلمين وملوكهم عدم الحج، تعريضاً بالخديو؛ وفاته ما هو أعظم من ذلك وأصرح وأهم عند الخديو وهو ما تقدم ذكره في هذا التاريخ، ولوعرفه أن كان غنياً عن أفراء الوشايات ثم أذكر أن المنار يروم أن يحارب يلدز وعابدين معاً ويقول صاحبه لاي كان أنه لا يعترف للسلطان بالخلافة، وقلنا خلا عدد من أعداد مجلته من الطعن على رجال الدولة [وأخصهم سماحة أبي الهدى أفندي] ويلصق بالمفتي تهمة مقاومة شيخ الأزهر كما يعرض به بقوله في مجلته [هذا هو الاستاذ الامام ولا أستاذ امام بمصر غيره] وذكر أنه يتهمك بشيخ الأزهر بلسانه قال [ولكنه من حسن الحظ ليس له جرأة على أن يكتب بقلبه في مجلته كل ما يقوله بلسانه لأن ذلك يقتضي قلباً غير القلب الذي بين جنبيه] !! ولو كان يقرأ كل ما كتب في المنار ومنه الانتقاد الصريح على شيخ الأزهر لما كتب هذا ولما احتاج إلى القول على صاحبه ثم قال (في صفحة ١٠) بعد أن بين ضرر خطة المنار بالمفتي مانصه:

[ونحن لا نجهل انكم تقولون مالي والمنار فانه لا علاقة لي بصاحبه إلا كعلاقتي برجل يتردد على منزلي ويقف في بابي - فنجيب أننا نعلم ان لفضيلتكم علاقة بتابعكم المذكور من عدة وجوه] وفسر هذه الوجوه بالمساعدة المالية والادبية قال [حتى صار معروفاً في مصر من دعاكم إلى مأدبة فقد دعا تابعكم]

ثم ذكر رد المنار على الجامعة وذكر أنه نفعا من حيث أراد أن يضرها حتى أنه لو علم بمقدار هذا النفع «يعض أنامله ندماً» ومنه أنه كثرت مجاملة كرام المصريين لها، وتدفق عليها سيل الدراهم والدنانير بكثرة طلب الاشتراك «مع الدفع مقدماً عن سنة وعن سنتين» إلى آخر ما قاله وكان تأويله أن الجامعة ماتت ولم تصدر بعد ذلك، ووالله لم نكن نقصد إلى هذا ولا نفكر فيه

ثم ذكر عبارة أدل على عقله وأدبه من كل ماذكر إذ خاطب الاستاذ الامام بقوله في ص ١٤ بما نصه :

[ولما رأى تابعكم صاحب المنار ان حيلته لم تنطل على أحد من قرائه في دعواه على الجامعة عدل إلى قول آخر فصار يقول ان صاحب الجامعة ليس بغني ، ونعم أيها الرصيف الحسن الذوق العاطر الاخلاق ان صاحب الجامعة مثلك ليس بغني ، وإن كان ينفق في كل شهر على كل جزء من الجامعة أربعين جنبها أي ما يكفي لنفقات مجلة المنار طول السنة ، ولكن ساء محك الله لما إذا لم تتقدم معرفتك به سبع أو ثمان سنوات (١) فانك لو فعلت ذلك لصادفته يومئذ في حالة ترضيك ، ولما كنت يا سليم الذوق تعبده يومئذ بعدم الغنى لان كثيرين مثلك كانوا يترددون إلى منزل أبيه كما تتردد الذنور إلى محل الفرائس] !!

وقفي على هذا بأنه مستعد لارسال أوراق مالية بالنفي جنبه أو ثلاثة آلاف مما مات، لايه إلى صاحب المنار ليحصلها « بسيف فضيلة المفتي » !!

وفي الخاتمة من ص ١٥ و ١٦ اقترح على الاستاذ ثلاثة اقتراحات (١) تحكيم رجلين قاضين عادلين من رجال الازهر ليكونا حكاما في هذه المسألة (٢) أن يكذب ما يشيعه صاحب المنار عنه من أن ما ينشره عن الجامعة هو بايعاز منه (٣) أن يترك تابعه صاحب المنار التعرض للجامعة بعد الآن ، وأنذره بأنه إذا لم يجبه إلى أحد هذه الاقتراحات [فالجامعة تتحقق عند ذلك صحة الاشاعة التي يشيعها تابعكم وحينئذ تضطر كما صدر جزء من المنار وفيه تحكك بها أن ترفع اليكم كتابا مفتوحا كهذا الكتاب فتشكوه اليكم ، وتوقف جمهور العقلاء بالتفصيل على اقترائه واعتدائه تحت حمايتكم ، وغني عن البيان أن هذه المسألة لا تقف يومئذ عند حدودها الحالية] يعني انها تكون خطرا على المفتي باظهاره للخديو ان المنار يكتبه ، بايعازه !!!

وأرسل إلى الاستاذ مع هذا الكتاب المفتوح المطبوع كتابا خطيا ذكر فيه انه إذا لم يكف المنار عن الرد عليه فانه ينشر على الناس مائة ألف نسخة من هذا الكتاب

ولم يكتب فرح أفندي بهذا بل توسط خليل باشا حمادة الشهير بأن يكلم

(١) انني كنت اعرفه في هذه المدة ومن قبلها كما تقدم في التمهيد لهذا البحث

الاستاذ الامام فيما جناه صاحب المنار على الجامعة بر دوده عليها، وأنه يعلم أنه لا يستطيع أحد أن يسكته غيره، وأنه يتمنى هو أن يحافظ بعد ذلك على مودة الاستاذ وعطفه . وقد حضر خليل باشا من الاسكندرية وتكلمنا في المسألة وأجمعنا نحن الثلاثة على أن من يكتب مثل هذا الكتاب ويقتري هذا الافتراء الجنوني الذي لا يجوز أن يرد عليه ، ولا أن يخاطب أو يذكر بلسان ولا قلم . وهكذا فعلنا ولكن فرح افندي عادي توسل إلى الاستاذ الامام أن يعود إلى الصلة به ويعاتبه على احتقاره له فكتب اليه الاستاذ ما نصه وهو فصل الخطاب، الذي ليس بعده قول ولا كتاب إلى صاحب الجامعة

لو احتقرتك ما كتبت اليك كلمة ، وانك تسيء الظن بنفسك أكثر مما يسيئه بك غيرك . وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم . ولكن : اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا ، فذلك اللهم أنفس ما تعطي ، وأفضل ما تهب . والسلام

اعتذار للقراء

انني لخصت هذه المسألة لان بعض الادباء لا يزالون يظنون انني كنت مسيئاً لهذا الرجل كما سمعوا منه او عنه ، ولانهم امن أشد ما ابتلي به الاستاذ الامام من إساءة من أحسن اليهم من الناس ، وطاحت بثقته منهم كلامهم إلا من اصطفى لنفسه كما تقدم أنفا في أحد كتبه إلي من هذا السياق ، ولم يكن يجهل أحد يعرفنا انني كنت أوثق هؤلاء المصطفين عنده ، الا صاحب الجامعة الذي خسر بأوهامة العصبية وطاعة قلبه لها من صداقتنا له مالا عوض عنه . وخسر في اثرها مجملته، واضطر إلى كسب رزقه بالاشتغال بالروايات التمثيلية، ولو لم يكن فيما ذكرنا من الفائدة إلا نشر هذا الجواب الحكيم الكافي ، وقد كان عاتبه بعض أصدقائه على ما كان من انخداعه بهذا الرجل وعلى الثناء عليه حتى في مقام الرد عليه قبل أن يظهر هذا منه . ومنهم صديقه الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان - فأجابه بقوله « لا خسارة في حسن الادب »

الدفاع عنه الاسلام والمعوة اليه

﴿ من طريق التأليف والتقريب بينه وبين أهل الكتاب، وهو خاتمة هذا المقصد ﴾

تمهيد في ذكر شيء عن ميرزا باقر

لما كان المجددان الكبيران — حكيم الشرق والاسلام السيد جمال الدين والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده — في باريس يصدران جريدة العروة الوثقى أرسل اليهما بطاقة الاستئذان رجل اسمه ميرزا محمد باقر قال انه يعرف السيد معرفة شخصية ، قال السيد: أنا لا أعرف رجلاً بهذا الاسم وأذن له، فدخل فإذا هو رجل قد عرفه في ثغر (بوشير) في الخليج الفارسي إذ جاءه السيد مع جماعة من الافغان في طريقهم الى الحجاز ، وكان اسمه ميرزا يوحنا ، وهو إيراني تنصر وصار داعية للنصرانية هنالك مع جمعية المبشرين ، وقد دعا السيد ورفاقه إلى النصرانية فطفق السيد يجادله فبدرت منه كلمة طعن في النبي ﷺ فأمر السيد من معه من الافغانين بضربه فضر به حتى خرج يزحف على استه كما حدث السيد عنه مراراً، ثم عرفوا بيته فأرادوا إحراقه عليه فحبل بينهم وبين ذلك ثم سافروا

فلما دخل على السيد في باريس عرفه وبادر هو إلى ذكر ما كان من أمر تنصره ثم عودته إلى الاسلام ورجوعه إلى لقبه الاول (باقر) وكان يُعرف أيضاً باسم ابراهيم جان المعطر — وأخبر السيد بأنه كفر عن ذنبه الاول فصار داعية للاسلام ، وعرض عليه استعداد له لخدمته في إدارة العروة الوثقى فكان يترجم لها ما يهيمه من الجرائد الانكليزية . ولما ذهب الاستاذ الامام الى لوندرة للسمي لدى ساستها ومحادثتهم في مسألة مصر والسودان كان ميرزا باقر هو المترجم بينه وبين كبار رجال الانكليز الذين قابلهم وتكلم معهم ، وكان يفترص هذه الاحاديث لدعوتهم الى الاسلام فيقول له الاستاذ الامام دع هذا الآن إلى أن نفرغ مما نحن فيه

وقد مدح بعض كبراء الهند ملكة الانكليز بقصيدة بليغة باللغة الاوردية أو الفارسية فلما ترجمت لها معانيها أمرت بأن تترجم باللغة الانكليزية نظماً فلم يوجد

في لندن من قدر على ذلك بلغة الشعر الانكليزي البليغة غير ميرزا باقر لانه كان متقنا للغتين كل الاتقان ، وقد امرت الملكة المترجم بخمسمائة جنيه فردها وقال انه يطلب لها جائزة واحدة هي دخول الملكة في الاسلام !!

هكذا كان يدعو الى الاسلام ويلوح لي أن الاستاذ الامام أقنعه بان هذا الاسلوب في الدعوة منفر للانكليز ، وان الاسلوب الذي يرجي نجاحه هو ما ألفت له الجمعية التي هي موضوع كلامنا في خانة هذا المقصد

وأزيد القراء بيانا عن ميرزا باقر هذا فأقول انه كان آية من الآيات في الذكاء وسرعة الحفظ وقوة الاستحضار والاستنباط - تلك المزايا التي قلما تجتمع لفرد من الافراد إلا في القرون كالسيد جمال الدين في المتأخرين وأشهر رجالها في التاريخ الاسلامي شيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية

كاد يكون حافظا لكتابي المهدين : العتيق والجديد ، فاذا تكلم في موضوع من أمور الديانة النصرانية أو البهائية طفق يسرد الشواهد المتعددة من تلك الكتب بسرعة غريبة وان كانت كثيرة ويبين معانيها وما له من الاجتهاد والرأي فيها وترجيحه على غيره

وكان كذلك يستحضر آيات القرآن . وقد عني بجمعه على ترتيب النزول لا ليقرأ ويتعبد به بهذا الترتيب ، بل للاستمانة به على الفهم والاستنباط والعمل ، وكان محتج بالقرآن دون الحديث على أصول الاسلام التي يدعو اليها ويعمل بها ، وكان له شذوذ في ذلك غريب أخبرني الاستاذ الشيخ توفيق الايوبي أنه حازه في بيروت في تفنيد ما ارتآه من جواز غسل اليدين إلى الرسغين في الوضوء محتجا بان النبي ﷺ إنما علم العرب غسل اليدين الى المرفقين لانهم كانوا يكشفون سواعدهم فتكون عرضة لتساخها أو لوقوع الغبار عليها . قال له الايوبي تعال نتحاكم الى الشيخ محمد عبده ، قال رضيت فأتمى الشيخ فقال لميرزا باقر : ألسنت تلتزم الاحتجاج بعبارة القرآن وتعتمد في معناها على تفسير معاجم اللغة ؟ قال نعم ، قال فن القرآن جمل غاية غسل اليدين في الوضوء المرفقين فان أنيتنا بنص من كتب اللغة يطلق لفظ المرفق على الرسغ عذرناك وإلا وجب عليك التزام حد القرآن في غسل اليدين ، فاقتمع ورجع

ومن مزاياه أنه كان من أفدر العلماء على اقناع الملاحدة بالدين الاسلامي ، وكان ممن أرجعهم اليه بعد الارتياح فيه احمد مدحت افندي العالم الكاتب التركي الشهير صاحب مجلة (ترجمان حقيقت) وكان قد اشتهر بالاحاد ، حتى ان السلطان عبد الحميد قد استغرب رجوعه إلى الاسلام ، ذلك ان السلطان أمر بتأليف لجنة من كبار أهل الرأي ليستشيرهم في مسألة اعفاء السادة الاشراف من الخدمة العسكرية وكان من أعضائها احمد مدحت افندي هذا فلما جاء دوره في الكلام قال ان النبي ﷺ وأهل بيته كانوا يكونون في طلائع المجاهدين في سبيل الله ، وان وجود هذه الذرية المباركة في الجيش الاسلامي قدوة وبركة يرجى به النصر له ؛ فالتفت اليه السلطان قائلاً : أنت إذا مسلم باحمد ! فحجل خجلاً شديداً لانه لم يكن يعلم ان السلطان قد بلغه خبر احاده ، وهل كان يخفى على عبد الحميد حال رجل من أشهر الكتاب في عاصمته ؟ وماذا يفعل إذا جيوش جواسيسه ؟ حدث احمد مدحت افندي أستاذنا الشيخ حسين الجسر بهذه الحكاية ، وقال له انني كنت قد ارتبت في ديني بشبهات كثيرة علمية وتاريخية ثم سافرت إلى بغداد فلفت فيها علماً إيرانياً اسمه ميرزا باقر وقم يدي ويدينه مناظرات كثيرة في هذه المسائل وغيرها أزالته من نفسي كل ما كان علق بها من الشبهات والشكوك ، واطمأنت بحقية الاسلام كل الاطمئنان .

جمعية التآليف والتقريب

عرف ميرزا باقر في لندن وغيرها بعض رجال الانكليز المستقلي الفكر المحبين لحرية البحث في الدين . ولما وجد هو والاستاذ الامام في بيروت بعد تعطيل العروة الوثقى اجتمعوا فيها بالاستاذ بيرزاده وعارف أبي تراب تابع السيد الافغاني وبجمال بك نجل دامز بك التركي قاضي بيروت الشهير وكان شاباً ذكياً مغرماً بالامور العامة من سياسية ودينية واجتماعية وألفوا جمعية سياسية دينية مصرية موضوعها التقريب بين الاديان السماوية الثلاثة وإزالة الشقاق من بين أهلها ، والتعاون على إزالة ضغط أوربة عن الشرقيين ولا سيما المسلمين منهم ، وتعريف

الافرنج بحقيقة الاسلام وحقيقته من قرب الطرق ، وقد دخل في هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء ايران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في الآستانة وبعض الانكليز واليهود ، وكان من أعضائها من رجال الدين في لوندرة القس اسحق طيلر بل كان هو داعيتها هنالك ، ومن رجال الحكومة (جي دبليو لينتر) مفتش المدارس في الهند ، وكان الاستاذ الامام صاحب الرأي الاول في موضوعها ونظامها ، وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) الامام لها ، واني ألخص هنا بعض ما نشر من آثارها

(شهادة المفتش الانكليزي المشار اليه آنفا لمسلمي الهند ومكاتبهم ومدارسهم)
(وسعيه لانصاف دولته لهم والعناية بدينهم)

نشرت جريدة الدالي تلغراف من جرائد لندن الشهيرة في ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ مقالة لهذا المفتش عنوانها (الاسلام والمدارس المحمدية) ذكر في أولها انه أتيح له تعلم العربية والقرآن في مكتب اسلامي بالآستانة قبل حرب القريم وانه فتش مئات من المدارس المحمدية في الهند ووصلت اليه ألوف من الاخبار عن مدارس أخرى - فهو بهذه المؤهلات يشهد بأن ما أشيع عن المكاتب الاسلامية انها « مفارات الانم » بهتان لا يصح أبدا ، فان الاجتماعات المنزلية (العائلية) والعلمية والرسائل الدينية والاخلاقية التي أوجب المسلمون على التلاميذ قراءتها سياج للآداب حافظ لها

وذكر ان هنالك مكتبا يعلم فيه البنون والبنات التعليم الابتدائي لم يسمع انه وقع فيه أدنى حادثة تنافي الآداب . وان بعض الصبيان رموا مرة بعض أولاد النصارى بالحجارة فعاقب امام الجامع الجاني منهم فلم يعد أحد بعد ذلك الى مثل هذا التعدي . ومدح سلوك شبان الاشراف من المسلمين . والتعليم الديني في جميع مكاتبهم ، واذم مكاتب الدولة (الانكليزية) بعدم تعليم الدين الاسلامي فيها وخطأها في ابطال المدارس الوطنية . ثم قال :

أما السؤال الاوسع عن الفرق بين المسيحية والاسلام وكونهما آلة لنشر

التمدن فسامحوني أن ألاحظ ان من لا يعرف للسان العربي لا يقدر أن يبحث أو يرى ان تعلق اصول الدين الاسلامي أشد وأربط بقلوب المعتقدين به في معيشتهم اليومية مما هو للنصرانية اسوء حظها ، واذ كان الامر كذلك فلا حجة عندنا في معاشرتنا المسلمين بأن نترك الكلمة السواء بين الدينين ، ونأخذ بما يفرق بين الامتين . المسلمون يعتقدون ان اليهود والنصارى هم أهل الكتاب أي عندهم كتاب مقدس : الولد المسلم حين خروجه من المكتب يعترف أمام ربه معاهداً إياه انه مؤمن بهذه الكتب . القرآن يأمر بصيانة المساجد والصلوات والبيع التي يذكر فيها اسم الله الواحد ، كأنها غاية جهاد المؤمن ، ويسمي عيسى كلمة الله وروحه ، وولادته العجيبة ، ورجعته الحميدة ، مقبولاتان عند المسلمين ، بمعنى لا يخالف العقائد المعتمدة عند الاحزاب العيسوية .

ثم قال : اقواعد الاسلامية المتعلقة بالزواج تهيب للنساء وتهب لهن حقوقاً شرعية أفضل مما ورثته نساء الانكليز حتى منذ اجراء قانون أموال المتزوجات في سنة ١٨٨٢

« الجنس اللطيف ليس موضوع الكلام بين الحمديين كما هو بين شبان النصارى ، والحجاب صيانة أعطيت لما هو ثمين وضعيف . الارملة المسلمة العفيفة مشهورة انها حامية التربية ، واحسان المسلمين لمواليهم واشفاقهم على البهائم التي ترجع أيضاً الى الرب ، وانفاقهم في سبل الخير والسذاجة التي هي من خصال المؤمنين الصادقين أخرى بأن تميلنا اليهم من أن نصيح على « النبي الكاذب » وما أحسن عمل مبشريننا لو جاهدوا في التوفيق بين الاسلام والمسيحية توفيق أختين من أم واحدة »

ثم قال « الحرية الدينية ينبغي أن يكون معناها عدم العصبية في الدين الذي تجمل الشرقيين أن يعطوا حصة من خراج أرضهم لافضل المصالح عندهم ، وهو الدين ، وان كنا نريد أن نلصق المسلمين بالدولة الانكليزية فيجب علينا أن نهب لهم الدين والدنيا ، ونؤمن كما آمن أكبر شاه الهندي ان الملك والدين توأمان ، فكما ان كل دولة تخدم الافكار الدينية بين رعاياها لا يمكن لها أن تدوم ، هكذا كل دولة

لاتعامل عقائد رعاياها بالعدل والكرم السواء لا تقدر على النجاح
« اما الذي أنا مصر على توكيده فهو الاتحاد بين الاسلام والمسيحية ليس من
جهة الدين فقط بل من جهة السياسة أيضاً »

« مرزمان كان المسلم ينظر إلى الانكليزي كأنه الناصر الطبيعي للعالم الاسلامي
من أجل موادته القديمة للعثمانيين ، الذين يعد سلطانهم خليفة المحمدين السنيين ،
وأكثر أبناء وطننا من جنسهم . هذه الوادة يجب توطيدها . ومن جملة المساعي
التي أؤكدها الشروع فيها ادخال الشبان المسلمين (وكذا أولاد الرجوات الراجبوتية
النبيلة) في مدارسنا الحربية على قصد استخدامهم مع تسوية الرتب والارتقاء
بالمأمورين الاورباويين في عساكر الهند المستقبلية التي يجب اكثارها جداً . الخ

خطب اسحق طيلر ومقالاته في الاسلام والنصرانية

وأما القسيس الكبير اسحق طيلر فقد كان يلقي خطبا في لندن ويكتب
مقالات في جرائدها بهذا الموضوع ، وكانت الجمعية في بيروت تترجم ما ينشر
منها بالعربية بقلم ميرزا باقر ويصحح ترجمتها الاستاذ الامام ، وتنشر في جريدة
نورات الفنون الاسلامية في سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٨ م وبلغني أن جريدة المؤيد كانت
تنقلها عنها . وقد نشرت واحدة منها في المجلد الرابع من المنار بعنوان (المسلمون في
افريقية) منقولة عن جريدة (البال مال غازيت) الانكليزية ألخص بعضها هنا وهو :

خطبة لاقس اسحق طيلر

قرأ القس اسحق طيلر في خطبة له صحيفة بدأها بقوله : ان الاسلام من
حيث هو دين دعوة وتبليغ قد نجح في قطعة عظيمة من العالم نجاحا يفوق نجاح
الديانة المسيحية (تخير من السامعين) وان المسيحية تخنس بالفعل بين يدي الاسلام ،
والمساعي المبذولة لتنصير الامم المسلمة ترجع إلى الخيبة رجوعا ظاهراً ،

ثم ذكر مساحة الاقطار والامم التي انتشر فيها الاسلام من افريقية وآسية
وثباته فيها وكون الوثنيين الذين يدخلون فيه لا يرجعون عنه ولا يقبلون النصرانية
لاته معقول عندهم دون المسيحية التي لا يعقلونها « لما نعلم من دقتها » — وذكر

كيف يهذبهم الاسلام بلبس اشياى والنظافة ، ويمنعهم من السكر والقمار والمراقص الخزية ، واختلاط النساء بالرجال ، والقتل والزنا ، وسائر المفاصد التي تفسد بها التجارة الاوربية، ويحملهم على الحضارة الصحيحة

ثم قال « تلك أحوال يسوءنا مرآها وجهلها حماقة ، فيجب علينا أن نعلم أن الدين الاسلامي لا يناقض الديانة المسيحية بل يتفق معها، فإنه صدى إيمان ابراهيم . والمسلمون يؤمنون بان أعظم هداة البشر : ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله وعيسى كليم الله ، ومحمد رسول (ص) واسيدنا عيسى مقام جليل في الاربعة »

ثم ذكر ان بعض رؤساء الكنيسة ابتدعوا في المسيحية موضوعات خيالية شركية كعبادة القديسين والملائكة والشهداء حتى جعلوا الوساخة من صفات القديسين، فجاء الاسلام ففسح هذه الاباطيل وأظهر الاحكام الاساسية للدين وهي توحيد الله وتمظيمه ، وبذل الانسانية بالرهبانية، وأرشد الناس إلى الاخوة الصحيحة، والحقائق الاساسية للطبيعة الانسانية ، وانه لا يحمل الانسان على التجرد من الروحانية المحضة ، كانهاليم المسيحية ، وأطرى الاخوة الاسلامية وقوة رابطتها وتسكلم في تعدد الزوجات التي كانت فاشية في جميع الامم والملل بغير حد وتخفيف الاسلام لشرها وإقامته لكل امرأة قبا شرعياً فأثقت البلاد الاسلامية من الفواحش الرسمية وهي أعظم شناعة من تعدد الزوجات في الاسلامية

(قل) « تعدد الزوجات على قواعد المنتظمة عند المسلمين أمجح تأثيراً في صيانة النساء عن الرذائل ، وأخف ضرراً على الرجال من مخالطة امرأة واحدة لرجال كثيرين ، تلك لعنة البلاد المسيحية ولا وجود لها في بلاد الاسلام (أنظر وتأمل) الانكليز الذين يجوزون اختلاف رجال كثيرين إلى امرأة واحدة في المواقير (أي بيوت الفحش) لا يلبق بهم أن ينكروا على المسلمين الناكحين مشى وثلاث ورباع ، فلنخرج الجذع الكبير من أعيننا قبل أن نهزم باخراج القذي من عيون اخواننا » وختم كلامه بقوله « إن الاسلام قد. نسخ السكر والقمار والبغاء ثلاث امعات أهلكن البلاد المسيحية »

« الاسلام قريب جداً من المسيحية ، والمسلمون كأنهم مسيحيون ، فتعالوا

بنا نساعدكم على الكمال في دينهم ، لانسى عبثاً لابطاله ، املنا نجد في الاسلام مسيحية ونجد محمداً ﷺ آخذاً بعرض المسيح في دينه (بشاشة من الحاضرين)»

أخبرني الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ان اسحق طيلر هذا لما أكثر في خطبه ومقالاته من مدح الاسلام والمسلمين لم يجد المبشرون وسيلة لاسكاته الا الاحتياال عليه لزيارة مصر فزارها فصاروا يطوفون به على الخانات والمواخير ويرونه حال المسلمين فيها حتى كف عن هذا الاطراء في المدح. ولكنه ظل يدافع عن الاسلام ويدعو الى التقريب والتأليف بين الديانتين وأهلها بما هو دعوة الى الاسلام نفسه على طريقة الجمعية التي كانت تمدّه بالمعلومات

(المقالة الأولى للقس اسحق طيلر بعد زيارته لمصر)

نشرها في جريدة (سانت جيمس) من جرائد لندن في ١٨ ابريل سنة ١٨٨٨ بعنوان (الاسلام والمسلمون) وقد اقتصر فيها على أصل الموضوع وهو مدح الاسلام والرد على المطاعن التي يوردونها عليه والتقريب بينه وبين المسيحية والدفاع عن المسلمين أيضاً دون تصويرهم ممثلين الاسلام نفسه كما كان يقول من قبل قال في أولها « اني ذهبت الى مصر أحد اقطار الاسلام ومقصدي الوحيد أن أطلع في ذلك المكان على الاحوال المجموعة في القرآن من الآداب والاخلاق والتقوى والمعرفة . وأعلم على قدر الامكان ماهي العقائد الحقيقية المتعلقة بالمسلمين ذوي التربية »

ثم ذكر أنه وجد المسلمين يتالمون بمايتهمهم به انصارى ويكفرونهم به مع تصر يحرم لهم بايمانهم بالله وبما أنزل على جميع النبيين ، وأنه تعجب لما رأيهم راضين بالبحث في عقائدهم والاعتراف بذنوبهم ، وأن أحد علمائهم قال له تعالوا نبحث معكم عما نوافقكم وما نخالفكم فيه عسى أن لا يكون اصلاح البين أمراً صعباً . واعترف له بأن المسلمين ابتدعوا في دينهم ما ليس في كتاب الله كما فعل انصارى. (وقال) فاذ نحن رجعنا الى خالص تعليم نبينا ﷺ كما في كتاب الله ورجعتم الى خالص

تعليم عيسى عليه السلام وحواريه فلا نجد ما يفرق بيننا . ولكننا نعتقد أن تعاليم

عيسى قد غشيتها الأباطيل منذ أيام قسطنطين الأول « وسيا في زمان ترك فيه

هذه البدع الفاسدة كلها ويبقى على الأرض دين واحد يقدر كل إنسان على قبوله »

ثم ذكر عبادة القبط في مصر لربهم وعكوفهم على التماثيل ورؤية المسلمين

لذلك واستحالة تركهم لعقائدهم وعباداتهم لا يثار هذه العبادة عليها أو قبول

ما يدعوهم إليه المبشرون من العقائد المتناقضة وإن لهم الحق أن يأولوا كتب

النصارى كما يشاءون، وأن يرفضوا العقائد النصرانية المخترعة كالأصول التسعة

والثلاثين للكنيسة الانكليزية، واعتراف الكنيسة الوستمنسترية المثلثة الاسنان الخ

ثم ذكر خلاصة العقيدة والعبادة الإسلامية ومنها الفاتحة في الصلاة ودعاء

القنوت وأدعية أخرى وقال انه يمكن أن يؤخذ كتاب صلاة من أدعية المسلمين

بكون مقبولا في كل البلاد المسيحية . وقفى على ذلك ببيان أن كل عقيدة إسلامية

قد وجد من الفرق المسيحية من أخذ بها ثم قال « ولا يمكن أن نرى أحداً من

المسلمين قد تمسك بمفتريات وأباطيل كشيعة كالوجودية بين فلاحي جنوب ايطالية »

ثم تكلم في المقارنة بين الإسلام وفرق أهل الكتاب في النساء وفي الحروب

المقدسة وفضل الإسلام فيها على ما قبله واستطرد إلى المقارنة بين المسلمين والقبط

في مصر وقال ان تقدم القبط أقل . وان المسلمين يعترفون بانهم كسائر الشرقيين

مقصرون في اكتساب العلوم الجديدة على كونهم يفتخرون بالنهضة العلمية المضيئة

التي كانت للعرب في دولهم . ثم ختم مقاله بقوله :

« ان شيخ مدرسة الأزهر الذي مقامه كمقام الويس شنسلر في مدارسنا

الكلية سأل وزير المعارف في مصر حديثاً أن يهيء وسيلة لتربية ألف ومائتين

من تلامذة العلوم الإلهية في الفنون الدنيوية . وسمعت من محمدي عالم كان مدرسا

في إحدى مدارس الحكومة أنه ذات يوم أعلن في بعض الجرائد الوطنية ان له

النية أن يعطي درساً لبعض تلامذة مدرسة الأزهر وفي أسبوع واحد وصله

أكثر من ستمائة طلب يستأذونه مرسلوها بالدخول في الصف

قال « اتعلم الانفع هؤلاء اتلامذه لعله معرفة التواريخ لكن الصعوبة في هذه هي عدم وجود كتب متينة صالحة نحكي عن الدينين بروح الانصاف والمحبة . سألت يوماً تلميذاً من تلامذة الازهر هل قرأت كتب التواريخ ؟ قل نعم عندي كتاب لكنني لأحبه ، قلت له لماذا ؟ أجاب لانه يتضمن نبياً محمداً ﷺ بقوله الباطل انه كان مفترياً . ظهر أن الكتاب كان عمل بطرس بارلي وهب له من أحد المرسلين الامر كانيين ، فلا عجب أنه لم يحبه . هل نحن نحب أن يهب المرسلون الاسلاميون كتباً لتلامذة مدارسنا الالهية مكتوب فيها أن مؤسس بنيان المسيحية كان مفترياً ؟

ثم قال « إني أترك لمقاتلي الآتية بيان المذاكرة في موضوع دين المسيح وذكر رغبة كثير من المسلمين في إصلاح احوال حتى قال لي أحدهم لا يبعد أن يحصل بين المسيحيين والمسلمين مودة تامة ونماس بيدي الصداقة والاخوة وزوال أسباب الحرب إن شاء الله » (اسحاق طيلر)

﴿ المقالة التالية لها وموضوعها : القرآن والكتب المنزلة ﴾

نشرت في جريدة (سنت جمس) أيضاً في ١٣ مايو سنة ١٨٨٨ افتتاحها بقوله « ان المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام وصدقوا ببعثته ، وهو عندهم معدود في أولي العزم من رسل الله الى خلقه ، فهم عندنا مسيحيون نصلي لهم كل يوم أحد ، ونسأل الله يهديهم وايانا الى الحق والى طريق مستقيم » ثم ذكر إيمانهم بالكتب السماوية كلها بشهادة القرآن لها وبأن القرآن خاتمها ومهيمن عليها - وانهم يستدلون على صحة دينهم بحجج القرآن وتعاليمه الصالحة المصلحة للبشر وتأثيرها وسرعة انتشارها بين أرباب الاديان كلها ، وبكون من جاءها أمياً يستحيل أن يأتي مثله بهذه الحقائق بدون وحي من الله - وان عدم احتياج القرآن بغيره على نبوة محمد ﷺ هو أوضح الادلة على صحة نبوته ، على أن في كتب الحديث كثيراً من المعجزات المشابهة لمعجزات الاناجيل ، على أن هذه الاعاجيب التي رويت عن المسيح عليه السلام « مما يعد عقبة في طريق الاعتقاد بدينه ... »

ثم ذكر استدلال المسلمين على نبوته ﷺ ببشارات الكتب السابقة به كما يستدل النصارى على المسيح ببشارات كتب العهد العتيق . وفصل ذلك تفصيلا بالشواهد . وذكر في تفصيله ما ينكره النصارى عليهم من الجنة الجسمانية وما يستدلون به عليه من كتب الانبياء وكذا تأويله مع اثباتهم للنعيم الروحاني وعدم اياه أعظم من كل نعيم ، وهو ينقل هذه المعلومات عن بعض علماء المسلمين ، وهي مقالة مهمة ينبغي للمسلمين الاطلاع عليها كالتي قبلها أو أكثر

(خريستفورس جباره) على ذكر هذه الجمعية التي انحلت بتفرق مؤسسيها اذكر انني رأيت بعد هجري إلى مصر هذا الرجل فعلمت منه أنه قام في نفسه منذ سنين أن سعادة العالم الانساني لا تتم الا باتفاق أهل الاديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والاسلام . ثم صار هذا الخاطر وجدانا ملك عليه أمره وحمله على الدعوة اليه بالقول وبالكتابة . أنشأ أولا نشرة سماها شهادة الحق . وبث دعوته في أمير كافي معرض شيكاغو وغيره ، وكان يكتب الرسائل الطويلة فيه إلى علماء الدين المشهورين في بلاد الشرق وهو في أمير كافي الغرب . ثم جاء إلى مصر وألف فيها كتبا ورسائل كثيرة يوفق فيها بين التوراة والانجيل والقرآن ، فخرمته الكنيسة الارثوذكسية وكان قد وصل من رتبها الكهنوتية إلى رتبة الارشمندريت وكذلك قابله المسلمون بالهزاء والسخرية إلا الاستاذ الامام وصاحب المنار ، فاحتمل من الايذاء ما هو معهود في كل من يدعو الناس إلى خلاف ما هم عليه

كان الفقيد موحداً يقيم الحجة على أنه ليس في الانجيل ولا في رسائل الرسل ما يدل على التثليث ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقرآن وبرسالة سيدنا محمد ﷺ . ومما كان يخالف فيه المسلمين مسألة صلب المسيح و كان يؤول قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . وكان استفتى مفتي الديار المصرية عن عقيدته بكلام مجمل يصرح بالامان بنبوة سيدنا محمد وصدقه في كل ما جاء به ، فأجابه المفتي جوابا قيد فيه اعتبار اسلامه بعدم إنكار شيء مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة ، فجاءني وقال لي انني لم أفهم معنى هذه الكلمة فبينت له معناها

أصاب الفقيد مرض ونقه منه ثم انتكس وعند إحساسه بشدة وطأة المرض جاءني وقال لي إنني منذ سكنت مصر لم أعرف فيها رجلاً رحماً يفعل الخير لغير علة إلا فضيلة المفتي وقد اشتدت حاجتي إلى مبلغ كذا لأجل دخول المستشفى أو السفر ونفسي علي عزيزة فأرجو أن تأخذ لي من فضيلة الاستاذ المبلغ المذكور فأجبتة سمعاً وطاعة ، ثم واساه الاستاذ الامام بضعف ما طلب . ودخل أولاً مستشفى القصر العيني بمساعدة أحد الوجهاء ثم المستشفى النسائي بمساعدة وجيه آخر وتوفي فيه بمرض القلب . و كان أمر دفنه مشكلاً فحل هذا الاشكال بعض أذكياء النصارى فشهد عند غبطة البطريق أنه اعترف قبل موته بالكنيسة الارثوذكسية ورجع اليها فدفن دفناً أرثوذكسياً وأخذوا كتبه ونهبها رد عليهم متين . وقد كتبت ملخص ما تقدم في ترجمته من المجلد الرابع ، وختمتها بقولي : وأما حقيقة امره وما يصير اليه في الآخرة فذلك مفوض إلى العليم الرحيم اهو أنا أعتقد انه مؤمن ناج عند الله إذا كان قد مات على ما عرفته منه وهو في مسألة الصلب متأول معذور

حظ اليهود من هذه الجمعية

لا أذكر أنني سمعت من الاستاذ الامام شيئاً من اشتراك اليهود في هذه الجمعية ولكنني لما نشرت في المنار مقالات (المسألة الشرقية) بمناسبة عدوان إيطاليا على طرابلس الغرب وبرقة وما لليهود العثمانيين من عمل في ذلك أرسل إلي الدكتور شمعون مويال رسالة من يافا ذكر فيها عن هذه الجمعية وتأليفها وغرضها وكونه من أعضائها ما يبني عن معرفة صحيحة لم يعرفها أصداء الاستاذ الامام في بيروت نفسها ، قال فيها بعد تحيته مانصه :

« أما بعد فإن ما يبني وبين السيد من صلة الأدب والتفكير والخدمة العمومية والالتناء إلى الامام الاعظم أستاذنا الكبير (رض) يفسح لي مجال الطمع يجعل علائقنا الروحية علائق مراسلة وتبادل أفكار وآراء عسانا نصل معاً إلى الضالة التي ينشدها كل مؤمن »

ثم ذكر مسألة تأسيس الجمعية وانتظامه في عضويتها متوقفاً أن يكون شيخنا

رحمه الله تعالى أخبرني خبره ، وقال ان كونه عضواً في هذه الجمعية يغنيه عن تصريحه لي بعقيدته الدينية . واسكنه بين عقيدته السياسية باجمال يتلوه تفصيل قال « أما عقيدتي السياسية فهي ان الاسلامية رابطة سياسية كبيرة مبنية على جامعة ايمان ، وجامعة فلسفة ، وجامعة تاريخ ، وان اليهودية كذلك . وان للعنصر العربي الاسلامي جامعة عنصرية كالجامعة العنصرية اليهودية »

ثم فصل ذلك بالشواهد من العهد العتيق ومن التاريخ ، واستنتج من ذلك ان بين العنصرين فوق قرابة النسب والرحم ، ووحدة أصول اللغتين واشتقاقها ، جامعات الاخلاق والعادات والتقاليد التاريخية والشعر والاغاني ، والتنبيه للحقيقة قال انها راهنة وهي ان اليهود الذين تفرقوا في أنحاء الارض وانتصار رومية بعد ثوراتهم المتتابعة عليها قد كادوا ينقرضون من العالم ، وان أغلب اليهود الباقين هم من سلالة الذين خرجوا من جزيرة العرب

ثم عقد فصلاً عنوانه (العثمانية واليهودية) بين فيه فضل الدولة العثمانية على اليهود واخلاصهم لها ، تلاه فصل آخر في رأي اليهود وخطتهم في مسألة عدوان إيطاليا على طرابلس وبرقة وهو انهم استاءوا وأيدوا استيائهم بالقول والعمل ، وذكر ما يدل على ذلك — وكانت النتيجة لما تقدم كله الانتقاد على المنار فيما ذكره في مقالة المسألة الشرقية من اتهام اليهود « بارشاد صهيونيهم الالمان » حكومة « اغيلة غاطه وسلانيك » بالتهديد للطلليان في فعلتهم . وانه لا يعقل ، وان ما نشر في الجرائد برهان على « ان الاثنى عشر مليوناً من بني اسرائيل المنتشرين في كافة أنحاء المعمور هم ١٢ مليون صديق حميم بل أخ صادق الاخاء للدولة الاسلامية المتمدنة القوية التي بقيت للعناصر الشرقية ملجأ وملاذاً وعزاً وفخراً »

ثم ختم مقاله الطويل بذكر ظلم أوربة للجميع وأن مستقبل اليهود مرتبط بمستقبل الاسلام . ولم أنشر له هذا المقال في المنار ولا أجبت عنه لعدم امكان مناظرته كتابة فيما أخالفه فيه من أمر الصهيونيين الذين اجتهدت في السعي لتحويلهم عن الاتحاديين إلى العرب قبل الحرب فلم أفلح ، ثم جددت السعي بعد الحرب فلم أنجح .

المقصد الرابع

(من الفصل السابع)

إغاثة المنكوبين في امهرات الزمان

كانت هذه الاغاثة نوعين : خفية وعلنية ، أما الخفية فقد اشتهر بها في حياته ونوّهت بها الجرائد والوثائق والرائون له بعد وفاته ، على ما كان من شدة كتمانها ، فقد كان هو يتصدق بكل ما يتيسر له التصدق من ماله على قتله وكثرة نفقاته ، وكان يجمع المال من أصدقائه الاغنياء للمنكوبين من رمتهم أحداث الزمان ، أو السفة والاسراف في المال ، بالعسر بعد اليسر ، والفقر بعد الفنى

وأما العلنية فهي التي كان يقوم بها بالتعاون مع اللجان المنظمة تحت رياسته وأشهرها في عهد وجودي بمصر لجنة الاعانة لجرحى الجيش المصري في حرب السودان وأرامل موتاهم وأيتامهم ، ولجنة الاعانة للمنكوبي الجريق في (ميت غمر)

والعبارة في هذا العمل الشريف الذي يذكر في هذا التاريخ أمران (أحدهما) ان وجهاء الامة الذين يعنون بعمل الخير كانوا كلما احتاجوا إلى تأليف لجنة لجمع المال لاعانة المنكوبين يختارونه لرياستها (وثانيهما) انه كان في عمله هذا يقصده معه أمراً غيره هو أعلى منه وهو تربية الامة على التعاون والاهتمام بالشؤون العامة والبذل في هذه السبيل سبيل الله تعالى

﴿ لجنة الاعانة لجرحى وأرامل وأيتام الجيش المصري ﴾

أرسلت اللجنة إلى جميع الجرائد خطاباً في بيان تأليفها والمنشور الذي كتبته رئيسها في الدعوة إلى الاعانة هذا نصهما :

في يوم الثلاثاء ٢٦ ابريل سنة ١٨٩٨ اجتمع بمنزل صاحب السعادة احمد سيوفي باشا بالعباسية حضرات أمين فكري باشا ناظر الدائرة المدنية ومحمد

ماهر باشا محافظ مصر والاستاذ الشيخ محمد عبده القاضي بمحكمة الاستئناف
ويوسف سليمان بك رئيس نيابة مصر ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش وسيدى
الحاج محمد الحلو وكيل دولة المغرب الاقصى ، واحمد بك ارناؤد ، وعبد الرحيم بك
من أعيان العاصمة ، والخواجه شمعون آريب واحمد فتحي زغلول بك رئيس
محكمة مصر ، وشكلوا منهم لجنة للقيام بفتح اكتاب عام لمساعدة جرحى الجيش
وعائلات قتلاه وأيتامهم في الوقائع الاخيرة تحت رعاية الجنب العالي الخديوى
وانتخبوا حضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده رئيساً وسعادة أحمد سيوفى باشا أميناً
للصندوق وحضرة أحمد فتحي زغلول بك كاتب سر اللجنة وقررت ارسال منشور
لاهل الخير وأولي البر والاحسان

وفي يوم الخميس تشرف وفد من اللجنة بمقابلة سمو الامير المعظم وعرضوا
ماقرروه على مسامعه الشريفة فلقوا من جنابه العالي كل رعاية وتلطف ، فكان
أول المكتتبين ، وجرى على ذلك أيضاً صاحب العطوفة مصطفى فهمي باشا رئيس
مجلس النظار وحضرات النظار ، واجتمعت اللجنة بعد ذلك بمنزل سعادة أمين
الصندوق بالغرورية ، وبعد تحرير المنشور والاقرار عليه كلف كاتب السر
بإرساله إلى الجرائد

فقياماً بما تقرر أبعث لحضرتكم بصورة المنشور راجياً نشره في جريدتكم
لتعميم العلم به واقبلوا مزيد تحيتي
كاتب سر اللجنة
احمد فتحي زغلول
١٦ الحجة سنة ١٣١٥

المنشور

قد عرف الكافة ما جاء به الجند المصري الذي سبق على البلاد السودانية
مما يخلد له ولبلاده المجد والفخار ، ولم يخف على أحد ما أصاب تلك الجنود في
الايام الاخيرة من قتل بعض ضباطهم وأفراد عساكرهم ، وجرح عدد كبير منهم ،
وإن كان ما أصابهم قليلاً في جانب الظفر الذي نالوه بمعونة الله وثباتهم وشجاعتهم
ومن المعلوم ان من قتل منهم ترك أيتاما وأهلاً فيهم الضعفاء وذوو البأساء ،

ومن جرح قد يعجز عن الكسب ولو شفي وبحاجة إلى ما يقيم أوده ولو إلى أجل ،
ومكان هؤلاء الشجعان من أهالي البلاد هو مكان الاخ الكريم من أخيه ، أو
العضو الشريف من البدن السليم ، ولا يسمح ذو مروءة أن يدع أخاه في مثل
هذا المصاب يذهب فريسة الحاجة ، والبدن السليم لا بد أن يألم لما يصيب أعضائه ،
وهذا كان لأنباء ذلك المصاب هزة في قلوب الكثيرين من أهل الاحساس
الظاهر في جميع الطبقات ، وأفاض كثير من الجرائد في استنهاض الهمم لمساعدة
أوائك الرجال أو أهليهم ، وكان لكل واحد من سكان القطر المصري أن
يبتديء بدعوة باقيهم إلى هذا العمل المجيد ، والباديء في الخير الداعي إليه
هو في الحقيقة خادم لمن يستنهضه ، فانه إنما يفتح سبيلا لظهور كرم السجبة ،
وسطوع ضوء الحمية .

وقد قام بعض الاعيان من أهل العاصمة بتأليف لجنة للسمي في جمع إعانة
لمساعدة أوائك الجرحى وأهالي القتلى وعرضوا ما أرادوا الشروع فيه على الجناب
الخديو الفخيم ليكون العمل تحت رعايته ، فتفضل جنابه السامي بقبول ذلك على
جاري سنته الشريفة في تقدير الاعمال الخيرية ، فاجتمعوا في يوم الثلاثاء ٥ ذى
الحجة سنة ١٣١٥ الموافق ١٦ ابريل سنة ١٨٩٨ بمنزل صاحب السعادة أحمد
سيوفي باشا وانتخبوا الداعي رئيساً ، وسعادة أحمد سيوفي باشا أمين صندوق
للاعانة ، وحضرة أحمد فتحي زغلول بك كاتب سر اللجنة ، ثم عرض الامر على
الجناب السامي فسر به ، وكان أول من شرف العمل بالاككتاب وتفضل به ،
وكذلك اكتب صاحب المطوفة رئيس مجلس النظار وبقية حضرات النظار ،
ثم أخذت اللجنة تتابع عملها في دعوة أهل الخير للاشتراك في مساعدة اخوانهم
وحيث ان ... تسكن من أهل الفضل وذوى الهمة والمروءة رأيت أن أبعث
اليكم بهذا رجاء أن يرى لهمتكم الاثر الجليل ، في هذا العمل الجميل ، مع العلم بان
من يتفضل بدفع شيء من المونة لآخوانه المصابين فانما يفعل ذلك لمحض الشفقة
والرحمة ، وصدوراً عن الهمة والمروءة ، ومن المعلوم أنه لا ينقص مال من صدقة ،
وان نخذل أمة كان التعاون من سجاياها ، فارجو أن تساعدوا بما استطعتم ،

وأن تقبلوا المساعدة ممن يليكم ويفرب منكم ، وما يجتمع لديكم تتفضلون بارساله
إلى سعادة أمين الصندوق أحمد سيوفي باشا بمصر ويرسل الى ... تكم الايصال
حسب العادة ، والله لا يضيع أجر المحسنين رئيس اللجنة

نحريراً في ١٦ الحجة سنة ١٣١٥ محمد عبده

نشرت جميع الجرائد هذا المنشور وحبذت المشروع ورغبت الناس في هذه
الاعانة بما لاشائبة فيه الا جريدة المؤيد فانها شابت التزغيب بشيء من أ كدار
السياسة قالت مانصه:

تعليق المؤيد

نكرر حض القراء الكرام على الا ككتاب في مشروع الاعانة العسكرية للجيش
المحارب في السودان لان أكثر ما يجمع منها سيخصص لارامل وأيتام قتلى الحرب
وهو من خير أعمال البر والاحسان ، والباقي يعطى إعانة للجرحى من الجيش الذي
حارب في السودان وانتصر على قوم كانوا بالامس خارجين على سلطة الحكومة
الخدوية كما هو معلوم

وقد علمنا أن اللجنة القائمة بجمع الاموال لهذه الاعانة أرسلت منشورات شتى
لأعيان الاقاليم ولحكام المديرات الذين وزعوها على حكام المراكز لدعوة القادرين
على الاعانة ، وإن كانت الاعانة اختيارية على كل حال

وهنا يخطر على بالنا أن نسأل صاحب المطوفة ناظر الداخلية لماذا لم يصدر
منشوراً كما فعل عند تشكيل لجنة الاعانة العسكرية الشاهانية يبين فيه للحكام والعامه
أن الاعانة اختيارية محضة ، لكل انسان حرية الاشتراك فيها وعدمه ، إذ
الا ككتاب اختياري ولا شك في الامرين ، ففي الاعانة الاولى بعث عطوفة ناظر
الداخلية ثلاثة منشورات للاقاليم ، الاول يقول فيه: ان الا ككتاب حر لمن شاء ،
والثاني يقول فيه : قد بلغنا أن بعض الممد يتداخل في جمع الاعانة من الاهالي
ويجبرهم على الدفع فنبهوا عليهم بعدم التداخل وأفهموهم أن التبرع حر لا إجبار
فيه ولا إكراه ، واثالث قال فيه « اطلعنا في بعض الجرائد على أن بعض الممد
يتأسون لجان الاعانة ، ويتجولون من بلد لبلد لجمع المال ، وهذا تداخل منهى

عنه ، فأحضروهم وخذوا عليهم التعهد اللازم بعدم التداخل مطلقاً في جمع الاعانة لانهم موظفون ، وكل من يخالف هذا يحال على لجنة التأديب للمحاكمة .. اهـ»
فهل للحكومة مكيالان في مشروعات الاكتتاب الاختياري ؟! أو ذاك مشروع مبعوض عند الانكليز وهذا زلنى اليهم ??

أما نحن فقد حثنا الاهالي على مشروع الاعانة العسكرية الشاهانية، ونحثهم الآن على مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان ، لاعتقادنا أن ذلك مشروع ملي كان واجباً في وقته ، والملة عندنا أغلى وأعز الاوطان، ولاعتقادنا أن المشروع الحالي مكرمة وطنية وحب الاوطان من الايمان ، ولكن سؤالا لمطوفة الوزير حق لا يختلف فيه اثنان اه تعليق المؤيد

إنكار الاستاذ الامام على تعليق المؤيد

غضب الاستاذ رئيس اللجنة من تعليق المؤيد فكتب الانتقاد أو الانكار الآتي وأرسله اليه في صباح اليوم التالي طالبا منه نشره في يومه فنشره ورد عليه ، وهذا نص الانتقاد وبتلوه الرد كما نشر في المؤيد

(لجنة مصابي الجيش بالسودان)

ورد الينا صباح اليوم كتاب من صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده رئيس لجنة إعانة مصابي الجيش بالسودان فتقبلناه بيد الشكر والاحترام ، ونشرناه بحروفه كما أراد وهو :

حضرة الاستاذ الفاضل صاحب جريدة المؤيد الغراء
اطلعت الآن في عدد جريدتكم الصادر بتاريخ أمس على جملة في الحوادث الداخلية تتعلق بلجنة إعانة المصابين بشجاعتهم من الجيش المصري المحارب في السودان ، فرأيت فيها منحاني على تحرير هذه السطور رجاء نشرها في العدد الذي يصدر هذا اليوم :

أبدأ ببيان مقصد اللجنة من القيام بجمع الاعانة لاولئك المصابين : أظهر الضباط والجند المصري شجاعة وثباتا في قتال محاربيهم حدهم عليهما الاجبي ،

وحق أن يفتخر بهما الوطني ، وقد أجمع علماء الاخلاق على ان الشجاعة من الفضائل التي لا ترسخ في نفوس الافراد من أمة ، ولا تم الاغلب من آحادها ، إلا إذا عرفت الامة مقدارها وسندتها بالقول والعمل ، وهذا كان أول باعث لأول متكلم في هذا المشروع^(١) مشروع الاعانة والله شهيد على ما في نفسه ، وهذا الغرض من الاعانة ظاهر من نص المنشور الذي نشرته اللجنة

خلف المقتولون أيتاما ، وقد يعجز المجروحون عن الكسب ، وقد علمنا ان الحكومة لا يمكنها أن تفي بحاجة أولئك وهؤلاء ، ولم يصابوا باليتم أو المعجز في دنيئة ولا خطيئة ؟ فسواء كانت حرب السودان صوابا في نظر السياسة أو خطأ فهو لاء على كل حال ليسوا ب مجرمين ، بل أتوا في إظهار ثباتهم أو جاء في ذلك أولياؤهم بما يعدون فيه من المحسنين ، فلا يليق بأمة فيها قطرة دم من الحياة أن تدعهم يمدون الايدي بالسؤال ثاني يوم أدوا فيه أو أدى عائلوهم حق تلك الفضيلة الجليلة فضيلة الشجاعة ، فهذا باعث من الرحمة ، وداع من الشفقة ، ليس أعضاء اللجنة أول من يشعر به من المصريين ، بل في ظنهم ان أصغر مصري يساويهم فيه ، وابتدأوهم بدعوة اخوانهم انما هو خدمة لهذا الشعور الذي لا يسلبه انسان إلا بخذلان من الله

وعلى ذلك أرجو أن لا يتكرر بعد هذا ان الاعانة للجيش المحارب كأنها إعانة للحكومة نفسها على الحرب ، فانا نعلم ان الحكومة تحارب اذا قدرت على الحرب وتركها اذا عجزت عنها ، وهي أعلم بما تلقاه في الحالين ، وإنما سمي اللجنة في إعانة من أصيب في تلك الحروب ، كما أرجو من حضرتكم اذا سمحتم بكتابة شيء يختص بأعمال اللجنة أن تمنونها بالاسم الذي وضعت له نفسها وقبلها به الجناح الخديوي الالفخ تحت رعايته دون سواء

ثم ذكرتم أنكم علمتم ان أعضاء اللجنة أرسلوا بمشورات الى حكام المديرات الذين وزعوها على حكام المراكز لدعوة القادرين الخ فأبشركم ان هذا العلم غير صحيح فان المدير أرسل اليه منشور واحد كما يرسل إلى غيره من الاعيان لعله

(١) يعني الاستاذ نفسه فهو المقترح الاول الاعانة

يكتتب بصفة انه مصري ويدعو اصدقاءه ان أمكنه الى الاكتتاب فان وظيفته لا تحظر عليه أن يخاطب صديقا في ذلك

وأزيدكم ان بعض المديرين عند ما وصله ذلك المذشور الواحد تحير فيما يصنع به ، كانه ظن انه لا يباح له أن يدعو ولو أصدقاءه للاحسان ، ولا زال في حيرته حتى أرشده مرشد الى ان من السهل عليه أن يحمل على الاكتتاب أحباءه من اهل القاهرة أو بلد آخر ففعل

أما توزيع المنشورات على الاعيان سواء كانوا حكما أو غير حكماء فهو عمل اللجنة ، والناس موكولون الى اختيارهم فمن شاء قبل ومن شاء لم يقبل ، وكثير من الاعيان طلب من اللجنة أن تعتبره مشتركا بدون دعوة ، ومعارف اعضاء اللجنة من اهل اليسار في القطار ليسوا والحمد لله بقليل ، وليس بقليل أيضا من يجد وجدان اعضاء اللجنة كما ذكرنا

وأما كلمة الزاني التي جاءت في سؤالك لمطوفة رئيس النظار فلا اظنك قد قصدت معناها ، فانك تعلم فيما اظن أن اعضاء اللجنة الذين قد بلغتك اسماءهم لا يغمز عليهم بمثل هذه الكلمة

نم لا اخالني مخطئا اذا قلت انك تعلم الفرق بين عمل هذه اللجنة وبين عمل لجنة الاعانة السابقة ، فهذه لاعانة المجروحين والايتام من اهالي البلاد ، وتلك اعانة دولة عظيمة كاللولة العثمانية على نفقات الحرب قبل وقوعها أو في اثنائها قبل أن يصاب فيها المجروحون بشيء ، ولذلك قد كان للجرحى والايتام معونة أخرى بعد ما وقعت الوقائع ، وربما اختلف شأن الحكومة في العاملين ، فكان الاجدر بمثلك أن يلتمس هذا الفرق دون أن ينبه الحكومة أو يحرضها على أمر كان يلومها عليه في نفسه بقلمه

ولو سلمنا تمام المشابهة بين العاملين ، أفما كان من انصافك مايسع السكوت عن الحكومة أو حمدها على ترك عمل لم تسلم من اللائمة فيه في اعتقادك ، وبممكنها أن تتوب عنه وتنيب إلى الله في عدم العودة اليه ؟

فإذا فرضنا ان هذا السؤال كان حقا لا بد من أدائه كما قلت ، أفما كان

الا ليق بدعوتك الى الاحسان أن توجه الى ما بعد نهاية العمل الخيري الذي تكرر الدعاء اليه حتى لا يحدث عن مثله صد عن سبيل تحمل أنت على السلوك فيه والاستقامة عليه .
رجائي في انصافك أن تنشر هذه الكلمات في العدد الذي يصدر في هذا اليوم دفعاً لما أوهمته عبارتك أس ، وأن تجري فيما تنشره عن اعمال اللجنة على حسب ما يقتضيه مقصدها السابق ذكره . وأن لا تجعل للظنون عليك سلطاناً ، ولا للحق عليك مقالا ، والسلام

رئيس اللجنة

محمد عبده

رد المؤيد على رسالة الاستاذ الامام

كنا نود لو أن فضيلة الاستاذ الذي يعرف هو كما يعرف كل انسان مقدار ما نجله ونحترمه لم يشر علينا بنشر مقالته باضاءه ، لا لانها تضمنت رداً وملاحظة وانتقاداً علينا ، بل لانها تكاد تفهم القارىء اننا على اختلاف في المبادئ والمقاصد من جهة ، ولانها تضطرنا أن نلاحظ على ما جاء فيها مخالفاً لوجهتنا ، وربما فهم بعض الناس أن صاحب المؤيد يناقش فضيلة المولى الاستاذ الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة أجل وأسمى عنده من أن يتناول إلى مناقشته ، على أن للمؤيد حقاً لا يطلب منه تركه إذا كان ينصف الغير بنشر ما يعترض به عليه فيه

فاولاً — ان المؤيد كان أول جريدة شكرت القائمين بجمع اعانة لمصابي الجيش المحارب في السودان ، وحضت الجمهور على مشاركتهم في هذا السبيل ، ولو دعي صاحب المؤيد أن يكون عضواً عاملاً في اللجنة المؤسسة لهذا العمل لابي الدعوة في مقدمة الملبين ، وهو بلا دعوة لم يدخر وسماً ولن يدخر مسعياً في سبيل انجاح هذا المشروع الجليل ، وقد قال بالامس انه يعتقد أن اعانة مصابي الجيش المصري المحارب في السودان مكرمة وطنية وحب الوطن من الایمان

ثانياً — ان المؤيد لم يقل ان هذه الاعانة تعتبر اعانة للحكومة نفسها على الحرب ولم يتعرض في معرض دعوة الناس لها إلى كون حرب السودان صواباً أو خطأ لعله أن الجيش مأمور ومن أول واجباته الطاعة العمياء لقواده ، فلم يكن

نمت موجب لفضيلة مولانا الاستاذ أن يستلفت أنظار القراء إلى النقطة التي تتنازع نفوس الناس في الاكتاب ، وقد تحاشى المؤيد في كل مرة دعاءهم فيها اليه مثل هذا الاستلفات جهده

ثانياً — ان المؤيد يسمي دائماً هذه اللجنة بلجنة إعانة أرامل وأيتام ومجروحي الجيش المحارب في السودان ، وفي عدد الامس أقرب مذكر ، وليس في هذه التسمية مخالفة كبيرة للعنوان الذي اختارته اللجنة لنفسها وهو (لجنة إعانة مصابي الجيش بالسودان) ولم يكن قصدنا من ذكر أرامل وأيتام التي نذكرها غالباً إلا تذكيره عواطف القراء بالكثير الالفاظ تأثيراً على النفوس ، إذ قد يفهم البعض أن افظ مصابي الجيش قاصر على جرحاه وهو غير مراد اللجنة حتما كما يؤخذ من نص منشورها العمومي

رابعاً — ان تبشيرنا بان ما علمناه من ارسال المنشورات إلى المديرين فأموري المراكز لا دعوة القادرين على الاكتاب الخ غير صحيح ، لا ينطبق على وجهتنا ، فاننا قصدنا أن نفهم كافة القراء في الاقاليم أن لدى المديرين والأمورين منشورات — نقول الآن وقسائم — ليعرفوا أن الاكتاب ميسور لهم وقريب منهم في كل بقعة ، ولذلك أردفنا هذه العبارة بقولنا ان الاكتاب اختياري محض حتى لا ينفروا منه نفرتهم من كل شيء يحسبونه بالا كراه من قبل الحكومة ، ولم نقل مطلقاً ان المدير أو الأمور يحظر عليه أن يشتغل بأي عمل خيري بصفته الشخصية ، وان كانت الحكومة قد حظرت عليه ذلك بالفعل قبل الآن ، وأبطلت مسمى المديرين في مشروعات إنشاء المدارس الاهلية بالاكتاب ، كما يعلم ذلك حضرات الافاضل أعضاء اللجنة ، وعلى الخصوص أحدهم الذي كان مديراً في النوفية ، وكما جعلت صف الموظفين من كل الطبقات في الدواوين العمومية والاقاليم لا يشتركون في اكتاب الإعانة العسكرية الشاهانية

وإذا صحت حكاية المدير الذي وقع في الحيرة كيف يفعل بالمنشور الذي وصل اليه ، فليس ذلك لكون مافيه من الالغاز التي يعسر حلها حتى يرشده ذلك المرشد بما يزيل حيرته ، بل لانه احتار كيف يدخل إلى هذا المشروع من باب وهو يعلم

ان المنشورات الرسمية وغير الرسمية التي والت الحكومة بها المديرين قد غات أيديهم، وأغانت كل باب خيري في وجوههم، وجعلتهم يفرون من كل عمل خيري فرار السليم من الاجرب

على أن فضيلة الاستاذ قد قل ان اللجنة أرسلت منشوراتها إلى المديرين، وانها أرسلتها كذلك إلى أعيان البلاد حكما وغير حكما، فدل هذا على انها أرسلت إلى المديرين والأمورين أيضاً، ويسرنا أن اللجنة قد عمت منشوراتها إلى حد شمل كل طبقات الامة، فما المنشورات إلا إعلانات كما عم توزيعها تحقق معناها أكثر، وكانت فائدها أتم

خامساً — أما تأويل عبارة الزاقي بما يصرفها عن عطوفة ناظر الداخلية — لارئيس النظار — إلى الغمز على حضرات أعضاء اللجنة فلاحق فيه مولانا الاستاذ بوجه من الوجوه، اذ لم يخطر بباله ولا يمكن أن أفهم ان كل ساع في هذا الاكتاب يقصد الزاقي للانجليز إذا كان المؤيد نفسه يدعو الناس إلى الاكتاب، ومولانا الاستاذ يعتقد حق الاعتقاد بأنه يدعو دعاء خاصاً لذلك، بدليل أنه تفضل فبعث إلى صاحب المؤيد مع هذه الرسالة دفتر قسائم ليجمع بواسطتها المال ممن يدعوهم إلى الاكتاب، وان كان له حق العتاب على أن تصل القسائم إلى أعيان البلاد ومأموري المراكز قبل ان تصل ادارة المؤيد في القاهرة

وأي حاجة للتأويل بهذا الغمز؟ لكون المؤيد لم يعتد توجيه مثل هذا السؤال أو الانتقاد إذا كان حقاً لمطوفة لوزير؟ أو لان عطوفة الوزير لم يصدر منشورات يعرقل بها مساعي الاكتاب الاول ولم يبحث على الاكتاب الثاني؟ أو لانه لم يكن أول داع إلى الاكتاب الحاضر بكلامه مع سعادة المحافظ وسعادة سيوفى باشا؟

الاهم ان الفرق بين عمله في الاكتابين يتن ظاهر لا يجهله أحد، وهو قد كان من المحرضين حقيقة على عدم الدفع في الاكتاب الاول وهو من المحرضين عليه في الاكتاب الثاني، وكما لمناه على عمله في الاول نشكره على عمله في الثاني، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نسأله عن علة مصادرته الاكتاب الاول اذا كان ممن ترجى منهم المساعدة والتماون على البر كما هو رأيه الآن في الاكتاب الثاني

على أن مولانا الاستاذ يقضب وبحقه أن يقضب اذا كان المؤيد يوجه لأحد أعضاء اللجنة غمزا مثل قوله (الزلنى للانكليز) وهو مجملهم عن ذلك كل الاجلال ولكن زلنى عطوفة الوزير للانكليز ربما كانت من الصنائع التي يحمد عليها بحسب ما يراه لازما لمنصبه الرسمي ، ولذلك كان أشرف فضيلة مدحه عليها اللورد كرومر في خطبة (شبرد) الاخلاص في العمل معه

وهل يرى مولانا الاستاذ باعثا بغض لدى عطوفة الوزير مشروع الاكتاب الاول وحبب اليه مشروع الاكتاب الثاني أقوى من ميل الانكليز عن الاول وميلهم الى الثاني ؟

ألا ان مجرد رغبة الانكليز في مشروع الاكتاب الحاضر لا يجعله نقيصة وسبة عند الوطني الحر ، بل ينبغي أن يتخذ ميلهم فرصة لزيادة نجاحه ، وليس في المزيد من المكرمات الاخير المكرمات وأعظمها

سادسا — أننا لا نرى التنبيه الى الفارق بين الاكتابين في محله ، فلا كتاب الاول كان واجبا ملأ في حينه اذا قلنا ان دولتنا العلية كانت في عوز الى معونة رعيها لها عند الشروع في محاربة عدوها من الدول غير الاسلامية ، والاكتاب الذي نحن بصددده الآن مكرمة وطنية في إبانها يحسن بكل ذي عاطفة شريفة وغيره وطنية أن يشترك في القيام بها ، والفارق بين الاكتابين بأكثر من ذلك ولا نخال ان وظيفة مولانا الاستاذ تسمح له بالافاضة فيه بعد حتى ندخل من بابه الآن

سابعا — اننا لو كنا نعلم ان سؤالنا عطوفة وزير الداخلية عن علة الفارق عنده بين الاكتابين ينتج حقيقة صداً عن سبيله او يتوهم منه أن ينتج مثل ذلك لا بقيناه الى ما بعد الفراغ من مشروع الاكتاب الحاضر ، ولا يمكننا نعلم علم اليقين ان سؤالنا هذا لا يترتب عليه شيء ما من هذا القبيل ، ولذلك اعتبرنا كل وقت زمانه ، فلم يكن سؤالنا اياه الآن سابقا لأوانه

وذا صح ما تكتبه الجرائد المأجورة التي يفسح لها عطوفة الوزير صدرأ وتزعم انها تنطق باسانه في كل ما تقول من ان عطوفته من كثرة ما يكره المؤيد يتوخى العمل على عكس ما يريد في كل شيء حقا كان او باطلا ، فلا يبعد أن سؤالنا عطوفته مما

يجرئ من همته على الاخذ بناصر هذا المشروع الحاضر اضعاف ما عرف عنه فيزداد بهمته
العالية نجاحا. ويكون المؤيد قد ساعد بذلك أكثر من كل عامل للنجاح سواء
وفي الختام ان المؤيد بأسف غاية الاسف أن يظهر على صفحاته ما يكاد يوهم
القراء أن يتناول الى مناقشة مولانا الاستاذ المفضل، ولكن باعث الكتابة جاء من
خلال السطور التي طلب المولى الاستاذ أن تنصفه بنشرها ، ولو أنصفنا لجمالها كما
كنا نتظر من الخصوصيات اهـ

الحكم العدل بين الاستاذ الامام وصاحب المؤيد

ما كتبه صاحب المؤيد من غمز الحكومة أو ناظر داخلتها ولمزه لم يكن له
موضع مناسب ولا حسن في التعليق على خطاب اللجنة ومنشورها ممن يستحسن
عملها ويدعو اليه معها ، وانما اللائق في هذا التعليق هو تحييد دعوة اللجنة والحض
على اجابتها ، وإذ كان لمز الحكومة مقصداً من مقاصد المؤيد في سياسته الوطنية
بسبب استسلامها لسلطة الاحتلال فلم يكن الاستاذ الامام ولا غيره ينكر على المؤيد
أن يلزم بما ذكره هنا في موضع آخر ، وقد اشتهر عن الاستاذ الامام عند
الوطنيين والاجانب أنه سمي مجلس النظار المصري « جمعية الصم البكم »

ذلك بان وضع الغمز في هذا التعليق ووصف مشروع الاعانة بأنه زلفى
الانكلاز يشعر قراء المؤيد بما يصددهم عن الاعانة شعوراً يجدونه في أعماق قلوبهم
ولا ينتزع منها قوله إنه يحشم عليها ، وكذلك تسميته المشروع في السطر الاول
من التعليق « مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان »

ذلك بان المصريين ولا سيما المسلمين منهم وكذا من غيرهم كانوا كارهين
لحرب السودان التي أكره الانكلاز الحكومة المصرية عليها ، وموجسين خيفة
من سوء عاقبتها ، ولقد كنت أشعر بهذا على قرب عهدي بالهجرة إلى مصر ،
وكون صحيفة المنار لم تستكمل عند الدعوة الى هذه الاعانة الشهرين الاولين من
سنتها الاولى ، وقد كتبت في شأن السودان كتابة شديدة لولا الحرية المطلقة
للصحف في هذا العهد لحوكت عليها ، بل صرحت في تلك السنة بان الانكلاز

يقصدون انتزاع السودان من مصر والاستيلاء عليه ، وبان الاتفاق الذي عقد بين عميد الاحتلال ووزير خارجية مصر خيانة لا تغفر ، فكلمة المؤيد المعبر عن الشعور الوطني ولا سيما الاسلامي بان هذا المشروع زلفى الانكليز كان له تأثير شديد في النفوس لا أزال أذكره في نفسي ، ولم أكن منشراح الصدر لرياسة الاستاذ الامام لرياسة هذه اللجنة مع علمي اليقين بانها خير محض

ولم يكن الاستاذ الامام ممن يخفى عليه شيء من هذه الشؤون الروحية ، دع السياسية ، بل كان من أشد الناس شعوراً بما ذكرنا ، ولذلك اقتصر في مدح الجيش الوطني الذي حارب في السودان بالشجاعة الشخصية ، وقال « فسواء كانت حرب السودان صواباً في نظر السياسة أو خطأ فهو لا ، على كل حال ليسوا بمجرمين » الخ

ومن أراد أن يعرف رأيه في مسألة السودان وجهاده في سبيلها فليرجع الى ما أثبتناه في هذا التاريخ من سعيه مع استاذ السيد الافغاني فيها (ص ٣٧٠)

هذا ما آلمه من تعاقب المؤيد فكتب في حال هذا الألم الشديد انتقاده الجارح وأوجب على صاحب المؤيد نشره ، فلم يجد هذا بداً من نشره ومن التعليق الطويل عليه بما يبريء به نفسه ويحتج لها ، واقد كان الاستاذ الشيخ علي يوسف يحل الاستاذ الامام في نفسه أرفع الاجلال ، وقد يخل بها في مؤيده لاجل السياسة بعض الاخلال ، وكان لابد له من اثبات على خطته السياسية في همز الحكومة ونزها عند كل سائحة وبارحة ، ومن الاحتجاج لنفسه عند النزوات الجامحة ، وقد أصاب في رده على الاستاذ الامام في شيء واحد وهو تحميمه عليه نشر كتابه الانتقادي بنصه ، فلو أنه وقد بين له خطأه فيما كتب طأله بكتابة ما يزيل التأثير السيء للتعليق بما يراه هو لكتب ما يرضيه ويسره

أما قول الشيخ في الوجه الثاني « انه لم يقل ان هذه الاعانة تعتبر إعانة للحكومة نفسها » فهو مغالطة إذ الاستاذ الامام لم يسند اليه هذا القول وإنما أسند اليه قوله « انها إعانة للجيش المحارب » ووجه إنكاره بقوله : كأنها إعانة للحكومة نفسها إلى الحرب » والفرق بين المشبه والمشبّه به ظاهر

وأما قوله في الوجه الخامس « أما تأويل عبارة الزلفى بما يصرفها عن عطوفة

ناظر الداخلية الى الغمز على حضرات أعضاء اللجنة فلا حق لمولانا الاستاذ فيه بوجه من الرجوه « النخ فهو مخطي » فيه من جهة دلالة اللفظ ، ومصيب فيه من ناحية القصد ، ولم يكن الاستاذ الشيخ علي رحمه الله تعالى دقيقا في مدلولات اللغة ، فنص عبارته « أو ذاك مشروع مبغض عند الانكليز وهذا زلفى اليهم ؟ » أي وهذا المشروع زلفى اليهم ، فهو قد وصف المشروع نفسه بأنه زلفى للانكليز ، والمشروع عمل اللجنة لا عمل ناظر الداخلية . وقد اعتذر بأنه لا يقصد هذا المعنى ولكن اللفظ لا يدل على غيره ، وإنما لامة الاستاذ على لفظه ، لا على قصده ، والناس يقرؤن لفظه لا قصده . فكيف يقول ان الاستاذ ليس له حق فيه بوجه من الوجوه ، لولا أنه يجهل المدلول اللغوي أو يتجاهله ؟ وما عدا هذين الوجهين مما أطل به فلا طائل تحته

اعانة منكوبي الحريق بميت غمر

ألف الاستاذ هذه اللجنة من الجمعية الخيرية الاسلامية وكان يذهب بنفسه الى منازل أمراء الاسرة الخديوية وغيرهم من الكبراء فيطالب منهم الاعانة لها ، لان لزيارته لهم من التأثير المقتضى للبذل الكثير ما ليس للمطالبة بالكتابة ، وأرسل منشوره البليغ اليهم ، وانتي أكتفي هنا بما ذكرته في الجزء الثاني من هذا التاريخ في شأن هذه الاعانة . وهذا نصه :

﴿ الحث على اعانة منكوبي حريق ميت غمر ﴾ *

(وتأليف لجنة في الجمعية الخيرية الاسلامية لجمع الاعانات)
عرض لي مامعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع كنت أسمع فيه بحادثة ميت غمر من بعض الافواه كأنها من الحوادث المعتاد حدوثها ، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي . فاذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين - سكان ميت غمر - ويصهر من فؤادي ما يصهره من لحومهم . أرقّت تلك الليلة ولم تغمض عيناى إلا قليلا . وكيف ينام من يبست يتقلب في نعم الله ،

(*) نشرت في جريدة المؤيد في صفر سنة ١٣٢٠ - ١٢ مايو سنة ١٩٠٢

وله هذا العدد الجهم من اخوة واخوات ، يتقابلون في الشدة والبأساء ، اردت أن ابادر بما استطيع من المعونة، وما استطيع قليل لا يفي من الحاجة ولا يكشف البلاء. ثم رأيت ان أدعو جمعاً من اعيان العاصمة ليشاركوني في افضل اعمال البر في اقرب وقت ، وكان يوم السبت ، فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزى خيراً من اعتذر ، وغفر لمن تأخر. اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية . وكنت كتبت من قبل الى سعادة السر تشريفاتي . فوجدت رقيماً منه بعد الانصراف يفيد ان الجناب العالي قبل ذلك

سبق السابقون من ارباب الجرائد الى الدعوة وفتحوا باب الاكتتاب في الخير ، فجزاهم الله افضل الجزاء ، ولكن الكثير إذا تفرق قليل ، والوافر اذا تشدت يسير ، لهذا كان من قرارات اللجنة المجمع في مركز الجمعية الخيرية الاسلامية ان يكتب الى حضرات المكتتبين الاولين بالانضمام الى إخوانهم ، وأن يرسلوا مندوبين منهم الى لجنة الادارة العاملة إذا شاؤوا . شكلت لجان لجمع المال بأسرع ما يمكن ، ودعي أناس كرماء في بعض مراكز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل في نواحيهم . وسيكتب إلى غيرهم من اعيان المديرية الآخر .

ليس الحادث بذى الخطب اليسير ، فلمصابون خمسة آلاف وبضع مئتين ، منهم الاطفال الذين فقدوا عائلتهم ، والتجار والصناع الذين هلك آلاهم ورءوس اموالهم ، ويتعذر عليهم ان يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم . وإلا اصبحوا متشردين متلصصين او سائلين . والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يؤوون إليه . ولا مال لهم يقيمون به ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربه . لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الامر ان يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المذكوبين

كتبت إلى حضرة مأمور مركز ميت غمر ليفيدني برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزي ميت غمر وزفتى هل يكفي لدفع الضرورة الحاضرة ، ولغذاء الناس ، وستر عوراتهم ، ووقايتهم من الموت ؟ ثم طلبت احصاء وقتياً لاصناف المصابين

وطبقاتهم ، حتى يكون ذلك التوزيع على قاعدة صحيحة . و نرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكل وجه ، واف بالمقصود متى اجتمع مبالغ واف بالحاجة سيودع ما يجتمع في خزانة محافظة العاصمة حسب ما رآه المجتمعون بالاتفاق ، وفي ذلك ضمان من الضياع ، ومدع عن مرامي الظنون ، وما بقي من تفصيل محضر اللجنة فهو على ماتراه بعد .

هذا مارأيت أن اكتبه عن سبب الاجتماع وخبره ، وأختم ذلك بالمشور الذي أوجه به إلى اهل الروادى جودوا بما تسمح به سجاياهم الكريمة ، من بذل مال وبذل سعي

منشور

قد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ما عليه اهل ميت غمر بعد الحريق الذي أصاب بلدتهم ، فهم بلا قوت ، ولا ساتر ، ولا مأوى ، فليتصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته ، أفما كان يتمنى ان يكون كل الناس في معونته ؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به منازل بهم ، واينفق من ماله وهمة ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ، إن شاء الله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ، ولا تيمموا الحبيث منه تنفقون * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان ، وثقوا بوعد الله ، فكلكم يؤمن الله ، وكلكم يوقن انه اصدق القائلين ، واقدر القادرين . فأرجو من همتكم ان تدفعوا شيئا من مالكم في مساعدة إخوانكم وان تبذلوا مافي وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم في هذا العمل ، وترسلوا بما تجمعون إلى الداعي

رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية

محمد عبده

(فائدة) قال المرحوم حسن باشا عاصم للاستاذ بعد عودته من توزيع هذه الاعانات وكنت معها : لو اعطيتني هذا المال الذى جمعته لاجل مدارس الجمعية ... فأجابه بقوله : ما جمع لشيء وجب صرفه فيه ، وإننا نفترض الحوادث الموجهة لنعلم الناس البذل في سبيل البر ، ومتى اعتادوا البذل في بعضها ، هان عليهم البذل في سائرها

المقصد الخامس

(من الفصل السابع)

في أسفاره

للسفر والسياحة في الارض فوائد كثيرة في صحة الجسد ، وتهذيب النفس ومشاهدة شؤون الخلق ، ومعرفة سنن الله وحكمته في الارض ، والاعتبار بأحوال الأمم في علومها وأعمالها وبدواتها، وحضارتها، وقوتها وضعفها، ومثل الاستاذ الامام في علمه الواسع وعقله المنير من يستفيد من السفر مالا يستفيد من دونه علما وحكمة ، ومعرفة وبصيرة ، وقد كتب في تأثير بعض الاسفار في نفسه ما نشرناه في ترجمته من المنار وهذا نصه (ص ١٨٤٦٥)

« أما الاسفار إلى البلاد العثمانية ومعاشره كثير من المسلمين غير مسلمي مصر فقد كان من نتائجها عندي أني عرفت حق المعرفة ان مرض المسلمين نشأ من أمرين : الاول الجهل بدينهم وإبداع ما لم يكن منه وإلصاقه به ، واختلاط ما هو من الدين بما ليس منه ، حتى صار ما هم عليه ديناً أجنبياً عن أصل الدين الاسلامي الطاهر الرفيع . والامر الثاني استبداد الحكام الظالمين من المسلمين في جميع أقطار الارض » وقد سافرت بعد ذلك مرات إلى أوروبا وأفريقيا فكان أثر الاسفار في بلاد المسلمين زيادة البصيرة في ذلك الذي عرفته لأول الامر ، وأثر الاسفار في أوروبا قوة الامل في إصلاح أحوال المسلمين ، فما من مرة أذهب إلى أوروبا إلا ويتجدد عندي الامل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها ، وذلك بإصلاح ما أفسدوا من دينهم ، وتشجيع عزائمهم إلى معرفة شؤونهم ، وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون افراد ظلمتهم . وهذه الآمال وإن كانت تضعف في نفسي عند ما أعود إلى ديارى لكثرة ما ألاقى من العنت ، وشدة ما أصادف من المصاعب ، وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم ، وشدة عداوتهم لأنفسهم ، وقوة رغبتهم في تمكين ظالمهم

من رقبهم، وحبهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول، لكنني متى عدت إلى أوربا ومكثت فيها شهراً أو شهرين تعود إليّ تلك الآمال، ويسهل علي تناول ما كنت أعدّه من المحال، ولا تسألني عن السبب في ذلك فاني لا أستطيع تفصيله ولكن هذا ما تحدثه الاسفار في نفسي « اه

أقول والمتبادر إلى الذهن ان السبب في ذلك هو ما يسمى في العرف الآن بتأثير الوسط أي البيئة من المكان والمكين، لان كل انسان يحل في مكان ويشاهد حال قوم لا بد أن يتأثر بشيء مما هم عليه بحسب استعدادهم وما وجهت إليه نفسه. وبلاد أوربا قد ارتقت ارتقاء عظيمًا في العلوم والصناعات والكسب والسياسة وغير ذلك، فمن سافر إليها وكان من هممه التجارة يزداد معرفة بطرقها ونشاطا في عملها، ومن كان همّه غير ذلك يتأثر بارتقاء القوم فيه فتنهض همته اليه، وناهيك بعلو كعب القوم في خدمة أمتهم، وإعلاء شأن ملتهم، وما يبذلون في هذه السبيل من الاموال، وما يركبون لها من الاهوال، فمن ير ما هم عليه من العزة والسيادة، وهو يعلم ما كانوا فيه من الضعة والمهانة، فهو جدير بأن يكبر أمله في قومه، ولا ييأس من غده في يومه، وكان تغمده الله برحمته يقول لي عند ما يريد السفر إلى أوربا: إنني أذهب لأجد نفسي: أي فقد اخلقتها معاشر الكسالى واليائسين اه

وقد توجهت همته في هذه السنين الاخيرة لزيارة الشعوب المسلمة فبدأ بزيارة تونس والجزائر وكان عازما على زيارة الهند وإيران وقزاق والقوقاس في هذه السنة وما بعدها، فصرفه المرض عن عزمه في هذا العام، ثم قطع آماله كلها الحمام اه. وقد نسيت هنالك ذكر الآستانة فأبدأ بذكرها الآن

(سفره إلى الآستانة)

كان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يود ان يسبح في البلاد الاسلامية ليختبر أحوال المسلمين فيها، وقد عن له أن يبدأ بزيارة الآستانة فذكر ذلك للورد كرومر في حديث له معه فكان رأيّه انه لا يظن انه يسر بهذه الزيارة، وانه لا بأس مع

ذلك بان يعرف حال هذه العاصمة القديمة والدولة التاريخية ، والظاهر ان اللورد كان يعتقد انه لا شيء يقطع أمل الاستاذ من حياة الدولة العثمانية إلا زيارته للاستانة وقد سافر هو والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد و كان سمو الخديو قد سبقهما اليها ، وانني أنشر هنا ما كتبه عن هذه المسألة في موضعين من مجلد المنار الرابع (أحدهما) ما نشر في الجزء المؤرخ في غرة جمادي الاولى سنة ١٩ الموافق ١٦ أغسطس سنة ١٩٠١ في باب الاخبار التاريخية (ص ٤٣٥) وهذا نصه :

(فضيلة مفتي الديار المصرية في الاستانة العلية)

سافر صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في هذا الصيف إلى دار السعادة العلية ، ولما ألقى مراسيه فيها بادر حالا إلى قصر يلدز العامر حيث مقام مولانا وسيدنا السلطان الاعظم أيده الله تعالى ، وحينما أودن مولانا بحضوره أمر بتبليغه السلام ، ثم انصرف الاستاذ من القصر بعد ان أقام مع عطوفة الباشكاتب السلطاني نحو ساعة . وبعد ذلك صدرت الارادة السنية بان يمد لفضيلته دار مخصوصة من أحسن دور الضيافة السلطانية على ما جاء في بعض الاجوبة من الاستانة ونشره المقطم الاغر . وورد في بعض الاخبار الخصوصية الموثوق بها ان صاحبة الدولة والعصمة والدة الجنب العالي أمرت بان يدعى أيضاً للانزول في قصر بيك ، ثم أكد الخبرين معاً بعض الوجهاء الذين حضروا من عهد غير بعيد من هناك وقل ان الاستاذ أقام في قصر بيك يومين او ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى دار الضيافة السلطانية ، ولكن المكاتب التي وردت من الاستاذ نفسه لم تذكر أمر الضيافة بالمرّة

ومما ينبغي ذكره من غرائب ما في مصر من فساد الاخلاق ، والجرأة على مقام السلطنة فما دونه من المقامات الرفيعة ، ان الذين لا عمل لهم إلا السعاية والتجنس والكذب على خليفتهم وسلطانهم أرسلوا إلى المايين الهمايوني وإلى بعض الكبراء في الاستانة تقارير خلقوا فيها ماشاؤا من الافك وقول الزور يريدون بذلك ان يتوصلوا ليتوصلوا إلى التباعد بين الاستانة العلية ومصر لانهم يعلمون

ان قول الاستاذ في مصر هو اقول الفصل، الذي يؤثر ويعول عليه جميع أهل الفضل، من العلماء والوجهاء، والموظفين بل الذي لا يشك في صدقه أحد يعرفه كتبوا ما كتبوا وايس لهم شيء يتوكلون عليه وقد اتفق أن سافر في السفينة التي سافر فيها الاستاذ المفتي صاحب المؤيد انفاضل فكان رفيقاً له، وكان لهم (أي أولى السعاية) في هذه المرافقة الاتفاقية القال والقليل، لملهم بأن جريدة المؤيد أعظم الجرائد تأثيراً في القطار المصري وهي عمدة جميع مسلمي مصر في السياسة والاخبار، وقد خدمت الدولة العلية والحضرة الحميدية خدمة لها في القطار اعظم تأثير ومما لا يعزب عن الذهن ان مفتي الديار المصرية وكبير العلماء فيها لا بد أن يزور صاحب أكبر منصب علمي إسلامي وهو شيخ الاسلام وقد كان معه في زيارته له رفيقه وأرسل هذا الى جريدته ما دار بينهما من الحديث، ولا يتحدث هذان الامان الجليلان إلا في العلم والعلماء ووظائفهم، وقد نشرنا جواهر الحديث في المقالة الافتتاحية، ونقول ههنا ان الجواسيس اعداء الدولة قد كتبوا بمناسبة ما ذكره المقطع من استياء العلماء من الحديث، تقارير برقية وبريدية مزورة على العلماء في ذلك، ومن الناس من يقول ان بعض المتعممين المغرورين وافقهم على ذلك وانه هو الذي غش المقطع حتى كتب ما كتب. ولو ان العلماء استاءوا حقيقة لراجعوا في ذلك شيخهم الأكبر شيخ الازهر، وهو كان يكتب الى الاستاذ المفتي بذلك. ويقال ان أجرة التقرير الذي ارسله (فلان بك) بلغت ثلاثة جنيهات وقد اختلف من سمع ذلك في موضوع التقارير، ويقال ان في بعضها طلب أن يكذب صاحب الدولة والسماحة شيخ الامام الحديث الذي نشر في المؤيد أو يرجع عنه!! وعندنا ان بعض الجرائد هي التي هولت الامر وان شيخ الاسلام إذا علم ان بعض من ينتسب إلى العلم ينكر قوله وقول مفتي الديار المصرية أو يستاء منه فانه لا يرجع إلا عن كلمة واحدة منه، وهي تسمية هؤلاء المستائين «متفنين» ويستبدل بها لقب «ممتوهين» ومثل هؤلاء لا تلتفت الدولة الى كلامهم، ولا تنفذ لهم رأياً، ولا تجيب لهم طلباً، لانها بذلك تمتنع على نفسها باب امثال كلام من يجهل الزمان وما يستلزمه ويناسبه، وربما يجرتهم السماع لهم إلى طلب ما فيه خراب

الدولة . وقد ذكرنا هذا ليتعجب العقلاء في سائر الاقطار من الخلل والخلل الموجود في مصر، أصلحها الله تعالى وأصلح أهلها آمين

وأما الموضوع الآخر فهو ما أشرنا اليه من حديث المفتي مع شيخ الاسلام في الاستانة وقد مهدنا له بمقدمة طويلة في حال العلم والعلماء ، ونهد له هنا بتلخيص مقدمة المؤيد له

زيارة الاستاذ الامام لشيخ الاسلام

أرسل الاستاذ صاحب المؤيد إلى جريدته مقالة عنوانها (العلماء هداة الامة ومن هم ؟) مؤرخة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠١ فنشرت بتاريخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣١٩ الموافق ٣٠ يوليو قال في أولها :

« في اليوم الثاني من وصولنا إلى دار السعادة رأي صاحب الفضيلة مولانا الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ان يبدأ بعد اداء فرض اخلاص الولاء للجلالة الخليفة الاعظم بزيارة صاحب الدولة والسماحة مولانا جمال الدين افندي شيخ الاسلام المعظم وكنت لم أحظ بمجلته في زوراتي الاولى لدار السعادة فرأيتها نعم الفرصة للتمتع بمشاهدته، والوقوف على آرائه وأفكاره... فلا فرصة لي أعظم من ان أحضر مجلسا جمع بين امام مصري علم القراء ماله من الفضل وسعة الاطلاع وعلو الفكر وبعد الغور في أحوال الزمان ، وبين امام الامة الاعظم شيخ الملة والاسلام في هذا العصر الحميدى لأروي مايقولان »

ثم ذكر سيرهما إلى مايسمى (باب المشيخة) ومكانه ووصف البناء ، والاستئذان على الشيخ باسم مفتي الديار المصرية ومبادرته إلى الاذن ودخولها عليه وتلقيه المفتي بالترحاب ، ووصف مجلته ومن فيه وإشارته للحاضرين بالانصراف ليخلو المجلس الزائر . بعد هذا قال : ان شيخ الاسلام افتتح الحديث مع فضيلة المفتي بالسؤال عن وقت وصوله إلى دار السعادة بعبارة عربية فصيحة وانتقل الحديث إلى مسألة النطق بالعربية الفصحى وانهم على تعلم فنونها لم يتمرنوا عليها كثيراً ، ومما قاله شيخ الاسلام في ذلك انه رأى في الطائف بعض اعراب

الحجاز ينطقون باللغة الفصحى التي لا يحسنها أهل مكة وأمثالهم . وتكلم المفتي في
تقصير المسلمين حتى في البلاد العربية في اتقان العربية ...

وذكر المؤيد ان الشيخ سأل المفتي عن قاضي مصري يحجي افندي فائى المفتي على علمه
وأدبه وفصاحة نطقه ، ثم سألته عما في مصر من المحاكم غير الشرعية فذكر له المفتي
أنواع المحاكم وان الذي ألجأ الحكومة إلى إيجاد محاكم غير شرعية هو تقصير العلماء
وقد نقلت عن المؤيد بقية الحديث بنصها فيما يلي :

﴿ حديث شيخ الاسلام ومفتى الديار المصرية في العلم والعلماء ﴾

قال (المفتي) بمناسبة كلام مع الشيخ (وهو الكلام في المحاكم غير الشرعية)
إن كان للمسلمين شكوى مما يرونه مأساً بشريعتهم فاجدر بهم ان يشتكوا من
أنفسهم لا ممن يعتدي عليهم

(الشيخ) لا ريب في ذلك فان حياة كل امة تقوم باستعدادها لكل زمان
بما يناسبه ومن غالب الزمان غلبه الزمان . ولكننا نؤمل ان تتغير الحال ويتنبه
المسلمون لما فاتهم فيحصلوه وذلك لا يكون إلا بهمة علماءهم ، وحملة شريعتهم
(المفتي) نعم ذلك لا يكون إلا بهمة علماءهم ولكن العلماء في انصراف تام
عن شؤون العامة وقد تركوا أهم تلك الشؤون إلى الحكام ووكلوا بعضها إلى العامة
أنفسهم ، وجعلوا نصح العامة والخاصة او الاشتغال بما يهيء لذلك من العمل مما
لا يعني ، ولم تبق لاحد منهم علاقات مع العامة ، اللهم إلا أولئك القصاص الذين
يسمونهم وعاظا او مدرسي مساجد وما هم من علم الدين وشؤون العامة على شيء ،
وهم يفسدون أكثر مما يصلحون

(الشيخ) لا شك ان أغلب المشتغلين بعلوم الدين تنقصهم الخبرة باحوال
الناس ويفوتهم العلم بما عليه أهل العصر ، ولو خبروا الزمان وأهله لامكنهم ان
يحموا شرعهم ، ويعملوا شأن أهل ملتهم ، مع ان العالم لا يكون عالما حتى يكون مع
علمه عارفا ، والعارف هو الذي يمكنه ان يوفق بين الشرع وبين ما ينفع الناس في
كل زمان بحسبه ، ومن كان بارعا في العلوم الدينية ولكن لا يعرف حال أهل

عصره ، ولا يراقب احكام زمانه ، فلا يسمى عالما ولا كنه يسمى « متفنا » اعني انه يعرف فن النحو او فن الفقه او ما شبه ذلك ، ولا يسمى عالما على الحقيقة حتى يظهر اثر علمه في قومه ولا يظهر ذلك الاثر الا بعد علمه باحوالهم وإدراكه لحاجاتهم (المفتي) مات قوله سماحتكم هو المعروف عند الاولين من علمائنا . وقد جاء في كثير من كتب السادة المالكية تعريف العالم بأنه (العالم كيف على شأنه ، البصير بأهل زمانه) وهو تعريف للعالم بالغاية من علمه والعكوف على الشأن ان لا يضيع العالم زمنه الا فيما يفيد ويفيد العامة ، لان هذا هو شأن العالم الذي ينبغي ان يكف عليه . ولذلك اتبعه بالوصف الآخر وهو البصر بأهل الزمان لان البصر بأهل الزمان انما يدخل في الغاية من العلم لأنه وسيلة للتمكن من العمل به في اهل ذلك الزمان . وكان صاحب هذا التعريف يقول من فرط في شيء ، من زمنه ولم يستعمله فيما من شأنه ان يستعمله فيه ، او اساء استعماله بسبب جهله باحوال هذا الزمان ، فهو ينثر المقال نثرًا لا يبالي كيف يقع ، ولا يعرف هل يصفع عليه او يخضع له ويخشع . ومن كان كذلك فهو خارج عن مفهوم العالم لا ينطبق عليه تعريفه . وغاية ما يمكن أن يصل اليه ان عرف شيئًا من العلم ان يسمى حافظًا له

(الشيخ) نعم ان مما يؤسف عليه الاسف العظيم ان من كان من علماء المسلمين على شيء من العلم فنما يعد في الحقيقة متفنا ولا يصح ان يطاق عليه اسم العالم . وبذلك بقيت الشريعة مدفونة في الكتب وحرمت ارواح اهلها من التمتع بآدابها — ثم تبسم قائلًا : واعلم الذي مل بجملة الشريعة إلى البعد عن شؤون العامة هو انهم أرادوا ان يخدموا أنفسهم خاصة دون الناس عامة

(المفتي) وهل تعد سماحتكم ذلك خدمة لانفسهم مع ما تراهم فيه من الضمة والخنول ، وحرمان اعاليمهم من الحقوق التي يتمتع بها اسافل غيرهم ، وفرار لدنيا من وجوههم وهم اتعب الناس في طلبها ، وبغضاها لهم وهم احرص الناس على حبها . واذا قنع احدهم بشيء منها فهي وقفة عاجز لا قناعة المزين . انما كانوا اعز واكرم ، ومقامهم اسمى واعلى ، لو كانوا علماء على النحو الذي عرفه اولافنا (الشيخ) صدقت فان من أراد ان يخدم نفسه وجب عليه ان يخدم العامة

لاندرج المصلحة الخاصة في المصلحة العامة فاذا ضاعت المصلحة العامة ضاعت الخاصة أيضاً ، واذا حفظت الاولى حفظت الثانية

(المفتي) نعم يامولاي هذه هي القاعدة الحقيقية ولكن مدرسي كتب الفقه لا يهتمون بتقريرها لطلبتههم . فهؤلاء الذين سمعهم سماحتكم متفنين لم يرووا هذه القضية فيما درسوا ، فلعل ذلك عذرهم فيما نسوا « اه بحروقه عن المؤيد

الفائدة في هذا الحديث هي الارشاد الى العمل بالعلم ونفع الناس به ، فمن كان يصدق عليه من العلماء يسر به ، ومن كان حجة عليه يستاء في نفسه وليكنه لا يظهر الاستياء لئلا يكون مسجلاً على نفسه ذلك ، اللهم إلا أن يغلب على أمره باعتقاد ان الكلام ظاهر الانطباق عليه عند الناس لعلهم بأنه لم يحصل من العلم إلا حفظ بعض الاصطلاحات التي لا أثر لها في عمله ، ولا يمكن أن ينفع بها الناس ، أو لحسد شديد لمن ظهر الحق على لسانه ، فهو يكابر الحق ويجادل فيه بعد ما تبين وعلم انه الحق وان ما بعده هو الضلال .

نشر الحديث في المؤيد فنذكر المقطم في العدد الذي صدر منه في اليوم التالي لنشره ان العلماء في مصر عموماً وعلماء الازهر خصوصاً قد استأوا منه ووقع عليهم كالعصاة ، فنشر المؤيد في اليوم الثالث مقالة لبعض العلماء يقيم الحجة فيها على المقطم بأنه ليس من العقول أن يعلم باستياء العلماء كلهم في مصر في صبيحة يوم واحد فلم يجد المقطم جواباً إلا انه استنجد ببعض العلماء المتفنين الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فكتب له نبذة بعد يومين زعم انه بين فيها سبب استياء العلماء من حديث الشيخين كأنه حقيقة واقعة . وأما السبب الذي كتبه فهو مما يضحك الناس على حماقته ، وقد خدم المقطم الاسلام باظهار سخافته ، كأنه يقول هذه أفكار الذين يعارضون كلام الأئمة الراشدين ، ولا تدري هل قصد المقطم هذا أم لا ؟

زعم ذلك المتفنن ان السبب في استياء العلماء المزعوم انه يوجد فئة ذات عُدّة عظيمة يريدون ابطال مذهب اهل السنة ورأوا أن يسقطوا العلماء من نظر

العامه ليتمكنوا من ذلك ، لان العلماء هم حراس السنة فهم دائماً يذمون العلماء ، وجاء كلام الشيخين في ذم العلماء مؤيداً لكلامهم !!!
لعمري لا يقول هذا القول من بالغ أن يكون متفنتاً أو حافظاً وإنما هو غبي لم يفهم معنى الكلام ، وإن كان لم يمزب عن افهام العوام ، الشيخان يحثان العلماء على العمل بعلمهم وأن لا يقتصروا على حفظ الاصطلاحات الفنية ، وهل يمكن ان يحرسوا السنة إلا بهذا ؟

هؤلاء البابية قد ألفوا كتابا يريدون به ابطال مذهب السنة بل والاسلام كله ، وقد نشره حتى في الجامع الازهر ، فهل قام من العلماء الذين سماهم انصار السنة ، من حامى عن السنة ، إلا الاستاذ مفتي الديار المصرية لذي اتفق مع الاستاذ شيخ الجامع على تأديب ناشره ، وغير هذا الفقير الذي رد على كتابهم في المنار ؟ وهؤلاء دعاة المسيحية ينشرون الكتب والجرائد في الرد على الاسلام ، وقد اشتغلت بشبههم الاذهان ، فهل تصدى هو أو غيره من اهل الازهر للرد عليهم ؟؟ وهذه البدع والمنكرات فاشية فهل انكرها منهم أحد ؟

يتخذ صاحب المقالة المقطعية اسم العلماء ترساً يدافع به الحق الذي يكلفه العمل ، ويعد هذا التكليف طعناً بالعلماء جميعاً ، كأنه يحكم عليهم بانه لا يوجد فيهم عامل عمله خادماً لدينه ، ويسمي الذي يعلق آمال المسلمين بهم طاعناً فيهم ، ويزعم ان الأولى تعليق الآمال بالحكام والامراء وهو يعلم ساطة الا جانب عليهم ، فنعوذ بالله من الجهل ونعوذ بالله من الغش

جعل الله علماء الدين الذين أورثهم الكتاب ليكونوا نواباً عن الرسل في الهدى والارشاد على ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه لا يعمل به ، ومقتصد يشتغل في اصلاح نفسه والعمل بما وجب عليه ، وسابق بالخيرات يعمل ويعلم الناس ويرشدهم الى الاهتداء به (هذا التفسير هو الذي اختاره العلامة البيضاوى وغيره) وهذا القسم الثالث هو الذي تحيا به الملة ، وتحفظ السنة ، وقد ضعف الاسلام والمسلمون بضعفه وكادوا يتلاشون بتلاشيته . وكلام الشيخ والمفتي ينفخ روح الغيرة في القسم الاول والثاني ليرتقوا الى القسم الثالث . وكلام صاحب المقالة

المقطعية يسجل عليهم بأنهم من القسم الأول أو الثاني ويسمى هذا نصراً للسنة وما هو إلا نصر المقطم، وتصديق له بأن العلماء قد استأوا من كلام الشيخين، ولعله هو الذي غشه أولاً وصدقه ثانياً

عهدنا بهذا المغرور أنه يحرم نشر الآيات القرآنية في الجرائد فلماذا ملأ مقالاته بالآيات التي حرفها عن مواضعها ووضعها حيث شاء الهوى (يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً) وعهدنا به يحرم الكتابة في الجرائد الإسلامية، ولو لخدمة الملة الخيفية والدولة العلية، فكيف استحل أن يكتب في جريدة يعتقد هو وأكثر قومه إن لم نقل كلهم أنها ضد الدولة وغير خادمة للملة؟ ألم يجد جريدة يدافع فيها عن السنة والاسلام وعلمائه الاعلام، إلا هذه الجريدة التي لم تنشأ لهذا القصد ولولا إرادة تأييد كلامها لما نشرت مقالاته. لا تريد بهذا طعنًا بالمقطم وإنما تريد تفنيد هذا المغرور بما هو مسلم عنده، وسنبين وظائف العلماء في الجزء الآتي، وإلى الله تصير الامور (١)

ما كتبه مصطفى بك كامل في المسألة

ان جريدة اللواء لم تكتب شيئاً في موضوع حديث شيخ الاسلام والمفتي لان صاحبها مصطفى بك كامل كان في اوروبا فلما وصلت اليه جرائد مصر أرسل إلى جريدته مقالة من باريس نشرت في ٧ جمادى الاولى (٢٢ أغسطس) عنوانها (كلمة في سبيل العلماء) ذكر في أولها «الحكم الشديد القاسي الذي نطق به شيخ الاسلام ومفتي مصر بشأن العلماء» واهتمام الرأي العام في مصر بهذا. ثم ذكر انه «لا ينكر أحد في مشارق الارض ومغاربها أن الاسلام في حالة يرثى لها وان المسلمين فقدوا في هذا العصر كل قوة ونفوذ...» واعترف بان لكل باحث الحق في ابداء رأيه بحرية في هذا الموضوع.

ثم أنهى باللائمة على شيخ الاسلام ومفتي مصر في حكمهما على علماء العصر ونسيانهما أو تناسيهما أنهما من هؤلاء العلماء «ومسؤلان مثل الآخرين (بل قبلهم) عما نحن فيه من تأخر وجهالة وسوء حال»

(١) قد وفينا بهذا الوعد والله الحمد

ثم احتج على شيخ الاسلام بانه لم يرفع صوته قبل الآن بالنصح للمسلمين الخ
ثم انتقل إلى المفتي وقال انه لا يناقشه « الحساب على ما مضى من أعماله ولا
يذكره بالحوادث المشؤومة وشأنه فيها » وانه يتنامى ذلك ويطالبه بالعمل لاصلاح
حال المسلمين بدلا من اعلان الحرب على العلماء - وذلك العمل الذي يطالبه به
هو أن يستقيل من منصب الافتاء وينشئ مدرسة لتربية علماء اللازم للاسلام
المعين للمسلمين » قال « يومئذ يحق له أن يحكم على المقصرين .. يومئذ نحني له
الرءوس تعظيما واجلالا ، ونشهد له أمام الناس والتاريخ بأنه أب الحركة الاسلامية
الحديثة ، وروح الحياة الملية الجديدة » الخ

وقد رددت على هذه المقالة في جزء المار الذي صدر من المجلد الرابع في غرة
جمادى الاولى من تلك السنة فأذكر من الرد ما هو خاص بحديث الشيخين - لان
ما يتعلق بالرد على مقاله في حوادث الثورة العربية التي ذكر عنها بالحوادث المشؤومة
قد تقدم في ص ١٤٧ من هذا التاريخ - وهذا نصه (ص ٥١٠ م ٤) :

« صدى حديث مفتي الديار المصرية مع شيخ الاسلام في الآستانه »

طار خبر هذا الحديث في المؤيد ، ثم في المنار إلى جميع البلاد الاسلامية فتلقاه
العقلاء والفضلاء بالقبول ، ونشرته برمته الجرائد الاسلامية في الشرق والغرب
ليعم نفعه ، ويعرف عامة المسلمين كما يعرف خاصتهم بان أكابر علمائهم معترفون بان
معظم بلاء المسلمين قد جاءهم من تقصير علمائهم في خدمة الامة والملة

« قول صاحب جريدة اللواء في الحديث »

عرف صاحب هذه الجريدة عند الخواص وأهل الرأي بالتجاوز والشذوذ
والافن والخطأ ، ومع هذا لم يشذ عن الجرائد الاسلامية المعتبرة في الاعتراف
بصدق الحديث وإصابته المرمى وقرطسته في الهدف واكتنه لم يترادشذوذ وتجاوز
الحدود عند الكلام عليه فجعل الحديث رأيه الافن حجة على المتحدثين ، وسأل
من لا ينظر في جريدته من شيخ الاسلام ومفتي الديار المصرية عن خدمتهم للاسلام
أما شيخ الاسلام فصاحب اللواء يعرف أن مولانا السلطان أيد الله بتوفيقه

لم يترك له ولا للوزراء استقلالاً يعمل يتعلق بالامة بل وضع جميع اعباء الدولة والامة على كاهله ، فن كان هناك تقصير فليسأل عنه صاحب الارادة والنفوذ المطلق ، وبالت شعري ماذا يقول صاحب الاواء اذا سألته شيخ الاسلام عن رأيه في الإصلاح الاسلامي الذي ينبغي أن يعمل به ؟ هل يشير عليه بمثل ما أشار على مفتي الديار المصرية : أن يترك وظيفته وينشئ مدرسة كمدرسة مصطفى كامل او مدرسة الوطن او مدرسة باب الخلق !!!

وأما مفتي الديار المصرية فقد سمع الصم ندائه بالارشاد إلى الإصلاح وما العلماء إلا مرشدون ، وأبصر العمي سعيه في خدمة الازهر الشريف والجمعية الخيرية الاسلامية التي لها عدة مدارس كل واحدة منها خير من جميع المدارس الاهلية ، وجمعية احياء العلوم العربية واعترف المكابرون مع المنصفين بمروءته وبذل جاهد وماله في خدمة المسامين في الحكومة وغير الحكومة . ومن أعماله القريبة تقريره في إصلاح المحاكم الشرعية الذي أجمع على استحسانه العلماء والفضلاء وحزموا بانه لم يحاب الحكومة في إظهار خطأها وانه شخص الاء وبين الدواء ووصف طريق العلاج .

ولكن صاحب الاواء في مصر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يحس بهذا كله ولا يشعر به وأزيد على هذا ان المرحوم مصطفى كامل كان يعلم ويقول أحياناً ان علة الملل لمصائب الاسلام والمسلمين ملوكهم وامراءؤهم ، وان العلماء لا يستطيعون عمل شيء بدون رضاهم ، وان الاستاذ الامام أرسل عند ما كان ببيروت لائحة الى شيخ الاسلام في ذلك العهد ببيان ما يجب من الإصلاح في الدولة كما سيأتي بيانه فلم يمكنه تنفيذ شيء منها ، وكان مع هذا يقدر السلطان عبد الحميد ، ولو ان شيخ الاسلام أراد أن يعمل شيئاً بالاتفاق مع العلماء وانتقم منه السلطان لحد للسلطان انتقامه ، وحكم باستحقاق شيخ الاسلام له . وكان من أشد أنصار الخديو في مقاومة الشيخ محمد عبده في إصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والمساجد ، وهكذا شأن السياسة في اتباع الهوى . وقد اتفق رجوعه من أوربة في الباخرة التي عاد فيها الاستاذ الامام وتعارفا مدة كما تقدم في ص ٥٩٣

(كتاب الاستاذ الامام إليّ بعد خروجه من الاستانة الى أوربة)

ولدنا العزيز

لم يصل إلي كتابك إلا هذا اليوم ٢٨ أغسطس وذلك ببركة الاستانة العلية .
الشيخ اسماعيل (١) قابلني في آخر يوم كان لي بالاستانة وصحبني من البيت الى
الكبري ثم أمرته بمفارقتي وسافرت بعد ساعتين، أعطيته ورقة زيارة لنجل أحمد
عزت بك ولا أدري هل يساعده أو يواعده .

لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملاً أو يصيب خيراً في الاستانة .
وعلى كل ذي دين أن يفر منها بدينه وبقية نفسه

تعلمت في الاستانة ما لم يكن لي علم إلا بالمشاهدة ، وستسمع منه ما يمكن التعبير
عنه عند اللقاء إن شاء الله تعالى .

بودي لو يشترك الشيخ اسماعيل في عمل المنار ، احدهما يكتب والآخر
يسافر ويدعو الى الاشتراك ويجمع القيمة وهكذا ، ولا أدري هل يوافقك ذلك ؟
ما ذكرت عن الحموي (٢) ليس يبعد عن اخلاق مثله ممن يذنون انفسهم
متى حملوا وزر لقب من الالقاب . اللقب يثقل عليهم فيزهق ارواحهم من ابدانهم ،
ولا يبقى متعلقاً باجسامهم إلا خيال لا يعرف شيئاً من انفسهم .

كتبت للشيخ علي الآن ما قيل عنه وعن غيره . لم أر الى الآن شيئاً مما

(١) هو الاستاذ العالم الفقيه الشاعر الاديب الشيخ اسماعيل الحافظ الطرابلسي
أصدق أصدقائي ومن تلاميذ الاستاذ الامام كان مجاوراً في الازهر من قبل هجرتي
الى مصر ، ثم ذهب الى الاستانة لاجل الدخول في سلك القضاة الشرعيين وقد أوصي
الاستاذ به بنجل عزت باشا العابد ليوصي والده بمساعدته تطيباً لقلبه وهو لا يرجو له
نجاحاً في الاستانة لدينه واستقامته ، ولذلك استحسن أن يأتي ويشاركني في عمل المنار
وقد كان هذا يوافقني الا أنه مثلي لا يصلح للسفر للدعوة الى الاشتراك وجمع القيمة
فكلانا ليس بمالي ، ولهذا لم يكن من مصلحته هو مشاركتي في هذا العمل

(٢) هو سليم باشا الحموي كان صاحب جريدة تسمى الفلاح تعيش باعانة من الاستانة
لأنها تمدح السلطان ورجاله وتدافع عنهم . وقد قال الاستاذ الكواكبي هنا انه يطبع منها
١٠٠ أو ٢٠٠ نسخة يرسل نصفها الى الجرائد ونصفها الى الاستانة !

كتب في المقطم، واكثر رأيت جملة في محايات المؤيد (١) ردّاً عليه لا بأس بها وعرفت انها من قلمك، فان كانت التي تذكر فهذا رأيي فيها، وإن كانت غيرها فاحفظها حتى اعود، كما احب ان تحفظ ما قال المقطم، وإن امكن ان ترسله إلي فاعطه لمجوده. وليتني أعرف ماذا كتب، مصطفى كامل، فقد بلغني انه كتب اني حبست في الاستانة الخ كما بلغني ان ذلك أشيع عنكم. ولا آسف على شيء أشد مما آسف على جهل قومي بأن السلطان لا يستطيع حبسي لو اراده، وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم، ولذلك اسباب لا احب ذكرها الآن

قال الموياجي لأحد اصحابي هنا إنك وصاحب الرائد تصبان على العلماء أدلاء التبريع والتعنيف، وان ذلك قد يثير فتنة (في رأسه بالطبع) وانه يرى الصواب أن أكتب اليك لتكف عن ذلك، وأنت تعلم اني لم أر شيئاً مما كتبت ولا مما كتب غيرك، فان كانت شدة فحفف، وإن كان قد كذب القائل فدعه يهرف. اكتب مقدمة أسرار البلاغة وانك الذي سميت بطبعه وانك كتبت عليه ما كتبت في الهامش، واذكر اني قرأته وأصلحت ما في المطبوع من خطأ بقدر الامكان، وانه لا يوجد من خطأ غير مصلح إلا موضع أو موضعان ليسا من الاعتبار في شيء. وان شئت تركت هذا التنبيه الاخير. من رأيي أن لا ينشر الكتاب ولا ينتهي طبع الخطأ والصواب إلا بعد الفراغ من دراسته، أو على الأقل بعد الانتهاء من دراسة هذا العام في شعبان. اكتب المقدمة وابقها الى أن أحضر في آخر الشهر الآتي إن شاء الله (٢)

أنا اشتغل الآن ببعض ما كتب الافرنج على الاسلام وبما وقف عليه الافرنج من خط المسند، وما ظهر لهم في لغة سبأ وحير. البرد شديد، والمطر لا ينقطع، وأحب أن ينتهي الرقيم، والسلام
محمد عبده

(١) كتب في المقطم يومئذ ان علماء مصر ساء هم حديث المفتي مع شيخ الاسلام لانه طعن فيهم، والذي نشر في المؤيد رداً عليه هو مقالة افتتاحية لي معزوة الى أحد العلماء وتنويه بها في الاخبار المحلية فذهل الاستاذ عن هذا عند الكتابة

(٢) لما حضر وقرأ مقدمتي لاسرار البلاغة أعجب بها ولم ينتقد كلمة منها

(اقول) كان المراد من الدسائس وسعاية الجواسيس وشرهم (المويلحي) أن يحبس الاستاذ الامام أو يهان ، وهم لا يجهلون ان السفارة البريطانية كانت بالمرصاد ، وانها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه ، والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا أيضاً ، وكان لأحمد شفيق بك (هو صديقنا شفيق باشا) سعي حميد في المابين لتلافي هذا الشر ، وبعد أن سافر الاستاذ الامام أرسل اليه أحمد شفيق الكتاب الآتي مع ما كان أرسل اليه بعنوان الاستانة من طريق صاحب المؤيد ومنها كتابي الذي اجابني عنه الاستاذ بهذا الرقيم .

ويعلم من كتاب احمد شفيق باشا ما كان من مراقبة سفير الانكليز لما يحدث - ومن حرص رجال السلطان عبد الحميد على حفظ كرامة الاستاذ الامام ولا سيما رئيس كتابه (باشكاتب المابين) الذي كان عازماً على حمل السلطان على الانعام على الاستاذ برتبة علمية عالية وهو ما يعبرون عنه بالتلطيف . وهذا نصه :

سيدي الفاضل

ها أنا أرسل اليكم جملة جوابات سلمها إلي حضرة الشيخ علي يوسف لتوصيلها اليكم بلغت القول أغاسي (١) السلام من طرفكم فسألني عما اذا كنتم توجهتم الى لوندرة حيث كان بلغه ذلك فأكدت له ان هذا الخبر مكذوب بالمرة بعد توجهكم سألني الباشكاتب عنكم فقلت له انكم سافرتم الى أوربا ومنها ستموجهون الى مصر ، فأوراني سروره من عدم مساعدكم بشيء ، وقال الحمد لله على أن تداركنم الأمر ، أما التلطيف فسيكون عند تشريف الجنب الخديوي عند مقابلة سموه أرجوكم عدم اطالة الشاء فيما تمت به من الواجبات التي يفرضها علي حي لسيدي لانه لاحظ علي في بعض الاعمال التي أجريتها في مسئلتكم سفير انكائرا تأسف علي عدم إمكانية مقابلتكم وكلفني أن أبلغكم ذلك ، ولما أفهمته المسئلة على وجه الاجمال تكدر ولكنه استصوب كل ما فعلناه

واني اهديكم وافر التحية والاكرام والسلام افندم

أحمد شفيق

٢٠ أغسطس سنة ١٩٠١

(١) له محافظ بشكطاش الذي يعنيه ملاحظة الاستاذ وكل ما له علاقة بالسلطان

عودة الاستاذ الامام

(من الاستانة وأوربة)

لما عاد الاستاذ الامام من سفره هذا لقي من حسن استقبال علماء هذه البلاد ووجهائها ما لم يسبق له نظير عند عودته من أسفاره السابقة ، وهنيء بقصائد كثيرة وكان لذلك سببان (أحدهما) ان فضائله قد ذاعت في السنين الاخيرة بعد ترك منصب القضاء الذي كان شغلا شاغلا له عن كثير مما أتبع له بعد استبدال منصب الافتاء به ، مما تقدم شرحه (وثانيهما) ارادة تكذيب من خاضوا في دعوى استقياء العلماء وغيرهم من حديثه مع شيخ الاسلام في الآستانة ، وقد أثبت شيئا من خبر هذه الحفاوة في المنار ، وبعض الشعر الذي هنيء به على كراحتي لفشر مدائح الاشعار ، وقد وصل إلى الاسكندرية في ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ هـ (٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ م) وهاك ما نشره المنار في الجزء الذي صدر بهذا التاريخ من المجلد الرابع (ص ٥٤٩)

(قدوم مفتي أفندي الديار المصرية وحفاوة المصريين به)

جاء الاستاذ الاسكندرية في الموعد الذي ذكرناه في الجزء الماضي فاستقبله في الباقرة علماءها ووجهاءها ، وجاء القاهرة في ناشئة ليلة الثلاثاء وكان في انتظاره على رصيف محطة السكة الحديدية الجماهير من العلماء وكبار الموظفين والقضاة والوجهاء وفي مقدمتهم أصحاب السعادة عبد الحليم باشا ناظر الاوقاف وبلينغ باشا ناظر الدائرة السنية . وكانت كثرة عمائم الازهريين تستوقف الطرف - كما قال المقطع - وما أشرقت الشمس في اليوم التالي على عين شمس إلا وكانت مورد جماهير المهنتين من العلماء والوجهاء واستمر ورود الوفود بضعة أيام وكان من مسهلات الزيارة عليهم أن مصلحة السكة الحديدية زادت عدد القطارات التي بين القاهرة والمرج من يوم قدومه حتى لا تمر ساعة إلا ويسافر فيها قطاران أو ثلاثة . وجاء كثيرون من البلاد الاخرى إلى مصر لاجل زيارته . واكتفى كثيرون بارسال الرسائل البرقية وقليلون بالرسائل البريدية ، ولم يعهد مثل هذا الاحتفال والحفاوة

في مصر لعالم ولا لامير دون أمير البلاد الاعظم أيده الله تعالى وأيد به العلم وأهله
وقد تبرع السري الفاضل محمد بك أباطه بخمسة جنيئات لإدارة المنار شكراً
لله تعالى على قدوم الاستاذ وجعلها عادة مستمرة وهي قيمة الاشتراك بعشر نسخ
توزعها الإدارة على مستحقيها مجاناً

وكتب العلامة إمام اللغة الشيخ محمد محمود الشنقيطي مهنثاً له وأنشدها بحضرته:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

للجامع الأزهر المعمور عاد على	رغم الحسود فتي مصر ومفتيها
محمد الفحل عبده بدر هاتته	خيراته ديمة هطلاء يؤتيها
ميسر لفعال الخير قاطبة	تأنيده طلابها تترى فبؤتيها
سفائن العلم في ذا الشرق لانغدت ^(١)	أعلامها يديه وهو نوتها
لم يحسدن على ما الله خو لهم	من فضله الناس من نعمى يؤتيها
لن ينكث العهد ان ينكسه ناكسه	بل عفة العهد يحكمها وبختها
وتعلمون جميعاً ما علمت به	من ذي الكارم ماضها وآتيها
هلا نظمتم لكم عقداً مكارمه	اجرتهم خرس فرس حول بختها

(وقال أيضاً مخاطب الامام المفتي)

أيا من قد نأى عنا وغابا	وبعد قضائه الحاجات آبا
تغنينا بشعر الصدق الما	عزمت إلى أباطحك الأيا
«وكأس بالاباطح من صديق	يراه لو أصبت هو المصا
ومسرور بأوبتنا إليه	وآخر لا يحب لنا إياها»

وقال أيضاً هذا اليتيم :

إلى عين شمس عدت يا شمس عصرنا ويا رجل الدنيا ومفتي مصرنا
وحلتي هذه سبيلها سبيل حلة عائشة بنت طلحة رضي الله تعالى عنهما غير أن
هذا الشعر شعري وذالك شعر قيس بن الحداية

وشرح ذلك ان أم عمران عائشة بنت طلحة أنشدت عينية قيس بن
الحداية الخزاعي الجاهلي فاستحسنتها وبحضرتها جماعة من الشعراء فقالت :
من قدر منكم أن يزيد فيها بيتا واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حلتي هذه ،
فلم يقدر احد منهم على ذلك اه

وكتبه محمد محمود الخمس خلت من جمادى سنة ١٣١٩

وهنا بالقدوم الكاتب الشاعر السيد مصطفى لطفي المنفلوطي بقصيدة قال

سار يباري النجم في جده	وعاد كالسيف إلى غمده
رأى السرى والسهد مهر العلى	فجد وارتاح إلى سهده
للايبصر الخطب جليلا ولا	تلوي به الاهوال عن قصده
مسدد العزم إذا ما مضى	يحار صرف الدهر في رده
كالسيف يجلوه القراع ولا	يأخذ ضرب الهام من جده
من لا يرى المجد سبيلا له	لا يأسف المجد على فقدده
فضجعة الراقد في بيته	كضجعة الميت في لحده
كان لمصر بعد توديعه	صبابة الصادي إلى ورده
واليوم قد عاد لها كل ما	ترجو من النعمة في عوده
واقتر عنه ثغرها مثلما	يقتر ثغر الروض عن ورده
بدا وقد حفت به هيبة	كأنما عثمان في برده
ما فيه من عيب سوى انه	يحسده الناس على مجده
ما حيلة الحساد في نعمة	أسبغها الله على عبده

«ومن قصيدة للاستاذ الشيخ سيد علي المرصفي مدرس الادب في الازهر»

هذا هو العلم لا علم بمحفظه	محدودة من جلود الشاء والغنم
جوفاء معتلة في جوفها ورم	تشكو لخالقها من علة الورم

« ومن قصيدة الفاضل الشيخ مصطفى حسين مشيط المنفلوطي الازهري »

ان الزمان إذا اعتدى بصروفه لم يبق حبلا في الهوى موصولا
كم ذا يروغني بكل ملمة لا تترك الصبر الجميل جميلا
لولا اعتصامي بالامام محمد كهف الورى لم أبلغ المأمولا

ومنها

شيدت أركان الشريعة بعد ما لعبت بها أيدي البلاء طويلا
وشهرت للدين الحنيفي سيفه بيد اثبات وكان قبل كايلا
ومن قصيدة للشاب اللوذعي مصطفى صادق افندي الرافعي الكاتب بمحكمة شين الكوم

والصبح ميمون الطليعة قادم مثل (الامام) بطلعة زهراء
يجلو الظلام كما تجلى هده فأضاء كل سريرة ظلماء
تزهر السماء بشمسها و (محمد) في الارض شمس الملة السمحاء

حديثه عن الآستانة

وعدني الاستاذ في كتابه المنشور آنفا بان يحدثني عند اللقاء بما يمكن التعبير عنه من حال الآستانة وقد فعل ، ولم يكن من الحكمة نشر حديثه ولا كتابه في ذلك الوقت . وأهم ما أذكره من حديثه أنه لم ير بيئة في العالم ولم يكن يعقل وجود بيئة كآستانة في سوء تأثيرها في العقل والفكر والقلب ، وان ذهنه كان هنالك ممسوحاً كأنه لم ينقش فيه شيء من العلوم والآراء . وبهذا كان أحرار الترك معذورين في شرودهم منها وتوطين أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الانسان من ضروب البلاء والمحن

وسأذكر رأيه في الدولة والسلطان والخلافة والترك والعرب العثمانيين في

المقصد الآتي إن شاء الله تعالى

أسفاره الى أوربة ومقاصده منها

قد بينا مقاصده من أسفاره الى أوربة وبعض أعماله فيها (بعد عمله السياسي الكبير مع أستاذه السيد جمال الدين الافغاني) في مواضع أهمها ما نقلناه عنه مما كتبه في سياق تعلمه للغة الفرنسية (ص ١٠٤) ثم ما نقلناه عنه في مقدمة هذا المقصد ، ومنها ما ذكرناه في المجلد الرابع في أثناء سفره الى الاستانة وهو ما أخذناه من مکتوباته كالرقم الذي أرسله إلينا بعد خروجه من الاستانة الى سويسرة وزدنا عليه بحثه في خزائن الكتب العامة في الاستانة والخاصة كالمكتبتين الملكيتين في فينا وبرلين وقد عثر في الثانية على آثار عربية مهمة منها ما يرتقي تاريخه إلى عهد الصحابة ، ومنها ما نشرناه في صفحته ٤٨٦ من مجلد المنار السادس وذلك في أثناء سفره الاخير الى انكلترة وهذا نصه :

يسافر أكثر أمراء المصريين وكبار الموظفين منهم كل عام إلى أوربامصطافين فيقضون أشهر الصيف هناك في هو وارب وتمتع بالذات ، وخيرهم من يسافر لغرض صحيح كنزويض جسمه بالاستحمام في الحمامات المعدنية وصعود الجبال ، او لاختبار يفيد في صناعته التي بها قوام منافعه الشخصية ، ولم نسمع عن أحد منهم انه سافر لاختبار حال التربية والتعليم في تلك البلاد — التي أجمع علماءها وعقلاؤها على انهم ماسادوا الامم إلا بالتربية والتعالم — والاستفادة من ذلك لتكبل نفسه والاستعانة على نفع قومه إلا الشيخ محمداً عبده مفتي الديار المصرية فانه قد سافر من قبل غير مرة لتعلم أفصح لغات القوم (الفرنسية) فتعلمها وأحسنها ووقف بها على أهم معارفهم التي تعينه على ترقية أمته ^(١) وقد ولي وجهه في هذه السنة شطر المدارس الكلية التي يتخرج فيها كبار الرجال لاختبر شؤونها ، حتى اذا حقق الله تعالى له رجاءه بايجاد مدرسة جامعة في هذه البلاد يكون على بصيرة في كيفية تأسيسها ونظامها كما يرشد اليه قوله تعالى (أفلم يسروا في الارض فتكون لهم قلوب)

(١) وكان يحضر دروس آداب لغتها في مدرسة جنيف الكلية التي تعقدها في الصيف للسائحين كما تقدم في موضعه

يعقلون بها او آذان يسمعون بها) - الآية - وكما قال الشاعر :

قد سلك الطريق ثم عادا ليخبر القوم بما استفادا

وقد سبق له رؤية المدارس الفرنسية العالية وكان في بعض أسفاره قد أخذ إذنا من ناظر معارف فرنسة بان يزور أي معهد من معاهد العلم في أي وقت شاء^(١) ولما كانت التربية ونظام التعليم في البلاد الانكليزية مفضلين عند علماء هذا الشأن من الفرنسيين على مثلهما في سائر الممالك الاوربية سافر في هذه السنة لزيارة أعظم مدارس هذه الدولة العظيمة وأعظمها كلية اكسفورد وكلية كبردج

وقد ذكرت جرائد لوندرة هذه الزيارة وما كان من احتفال رجال العلم في المدرستين واجلالهما للاستذ واثنت الجرائد عليه بما هو أهله من العلم الواسع والعقل الكبير ، والهمة العالية . وذكرت غير ذلك من نقله في الجرائد كزيارته للفيلسوف سبنسر أعظم فلاسفة أوربا الاجتماعيين ، ونزوله ضيفا كريما على المستر ويلفرد بلنت في قصر (كرايت بارك) . وقالت ان المستر كوكر نل قد سحب فضيلته في زيارة مدرسة اكسفورد ، وان الاستاذ بويل المؤلف الشهير كان دليلا له لانه من معلمي التاريخ في تلك المدرسة ، وقالت انه لما زار مدرسة كبردج خرج لاستقباله في المحطة طائفة من أساتذتها ، وان المستر ادوار براون قد دعاه فيها إلى طعام الغداء ودعا لاجله طائفة من الاساتذة وبعض المستشرقين (٢) وكبار المستخدمين ، وانه تناول طعام العشاء في قاعة المدرسة الكبرى . وذكرت تفصيل الزيارة بما لاحاجة إلى بيانه هنا وقد لخصته الجرائد اليومية المصرية وذكرت علماء الجرائد الانكليزية على معارف الاستاذ الواسعة

وقد كتب الدكتور ادوارد براون أستاذ اللغتين العربية والفارسية في كلية

(١) وكان في أسفاره الاولى إليها يعنى بعلم الحقوق واصول القوانين الفرنسية التي تستمد منها القوانين المصرية حتى انه كان يختار لنفسه مدة وجوده في باريس حوزيا يحمل شهادة (اليسانسيه) في الحقوق فكان يذاكره في هذا العلم في حال تفرغه في ضواحي باريس «٢» وقد ساله هؤلاء العلماء عن بعض ما أشكل عليهم في بعض الكتب العربية فكان يجيبهم بداهة بما يقنعهم ويزيل اشكالهم

كمبردج رسالة إلى جريدة المؤيد ذكر فيها خبر الزيارة بنحو التفصيل الذي جاء في الجرائد الانكليزية ومما جاء في رسالته قوله كما في العدد ٤٠٤٢ من المؤيد :

« ولقد كان كل من في المدرسة فرحاً مسروراً بزيارة هذا الرجل العالم العظيم . وأعجب بعلمه وفضله وسمو آرائه جميع العلماء والعظماء ، وتمنوا لو أقام بينهم زمناً طويلاً . وفي اعتقادي ان فضيلة المفتي قد شرف الشرق وعلماءه في هذه الديار » اهـ

فالحمد لله الذي جعل فينا من نفتخر به أمام كبار رجل العلم في أوربا الذين يرون الشرق وأهله في ظلمات من الجهل لا يبصرون
وقد ذكرت الجرائد الانكليزية ان المفتي سافر من انكلترا قاصداً فرنسا ليسافر منها إلى تونس والجزائر . وهذا ما كنا علمناه من هنا قبل سفره وقد كان عازماً على ان ينتهي إلى بلاد اسبانيا (الاندلس) حيث كانت تلك الدولة العربية التي أفضت العلوم على أوربا فانتقم منها التعصب فأفناها عن آخرها ، ولا ندري هل بقي من زمن اجازته مايكفي لذلك أو يعود من تونس إلى بلاده التي ظمئت لمعارفه ؟ كن الله له وأيده بروحه حيث كان ، ومدت في أجله حتى يرتقي بهذه الامة إلى أعلى مافي عالم الامكان .

زيارته للفيلسوف غوستاف لوبون

وانني بمناسبة ما ذكرت في هذه النبذة من اجتماعه بكبار الحكماء والعلماء في أوربة أقول انه في سفره الاخير إلى فرنسا ذهب إلى دار الفيلسوف الاجتماعي الشهير (غوستاف لوبون) للتعرف به والشكر له على تأليف كتابه (حضارة العرب) فلم يجدده لانه كان مصطافاً في الارياف ، فترك له في داره بطاقة الزيارة . فلما عاد الفيلسوف ورأى البطاقة أسف لما فاتته من لقاء أكبر علماء الاسلام وأرسل اليه كتاباً يؤذنه بذلك ويشكره تفضله بزيارته

اجتماعه بالفيلسوف سبنسر

قلنا انه في سفره الاخير الى انكلترة سنة ١٩٠٣ زار هذا الفيلسوف ، وكان ذلك في ١٠ أغسطس وكان الفيلسوف مصطافا في (برايتون) من جنوب انكلترة وقد نهاه الاطباء عن كثرة مقابلة الناس وعن الحديث مع أحد أكثر من عشر دقائق لمرضه مع شيخوخته ، ولكنه سر من حديث الاستاذ الامام ودعاه الى الغداء معه وأطال الحديث معه في فلسفة الدين والاخلاق والافكار المادية وسياسة أوربة واني أذكر ملخص ما حدثنا به أستاذنا من ذلك وأرمز إلى سبنسر بحرف

(ف) المقتطفة من فيلسوف ، وإلى شيخنا بحرف (م) المقتطفة من كلمة امام

(ف) هل زرت انكلترة قبل هذه المرة؟ (م) نعم زرتها منذ عشرين سنة

(ف) كيف وجدت الفرق بين الانكليز اليوم والانكليز منذ عشرين سنة؟

(م) انني زرت هذه البلاد في المرة الاولى لغرض سياسي خاص وهو البحث

مع رجال السياسة في مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطاني وأقيمت أياما

قليلة لم يتعد علي فيها ما جئت لاجله ، وقد أملت بها الآن منذ أيام فلم أدرس حالة

الناس ... وانما يجب ان آخذ عنكم ذلك

(ف) ان الانكليز يرجعون القهقري فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة

(م) فيم هذه القهقري وما سببها؟

(ف) يرجعون القهقري في الاخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الافكار المادية

التي أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا ، ثم سرت اليها عدواها ، فهي تفسد أخلاق

قومنا ، وهكذا سائر شعوب أوربة

(م) الرجاء في حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة

على الافكار المادية

(ف) انه لا أمل لي في ذلك لان هذا التيار المادي لا بد أن يأخذ مده غاية حده

في أوربة . ان الحق عند اهل أوربة الآن للقوة

(م) هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقايد

الاوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابها

(ف) 'محي' الحق من عقول أهل أوربة بالمرة وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض (واعلمه ذكر الحرب) ليتبين أيها الأقوى ليسود العالم - أوفى يكون سلطان العالم ثم انتقل الكلام إلى الفلسفة الإلهية

(ف) ما يقول علماء الاسلام في الخالق (عز وجل) هل هو داخل العالم أو خارجه؟ (م) ان علماء الاثر يقولون ان الله تعالى فوق كل شيء، بائن من العالم، والمتكاملين يقولون: انه لا داخل العالم ولا خارجه. والصوفية القائلين بوحدة الوجود - يقولون ان كل شيء في العالم مظهر من مظاهر وجوده، وذكر له خلاصة مذهبهم هذا ما خص ما ذكره لنا الاستاذ الامام، ولسنا في حاجة إلى تفصيل ما أجاب به الفيلسوف عن عقائد فرق المسلمين في الخالق عز وجل لانه معروف في محله، والاني رأيت في مذكرة جيب له خلاصة حديثه مع سبنسر بأخصر مما ذكره لنا مشافهة وكتب عقبه ما نصه كما نقلته عنها في المجلد الثامن عشر الذي طبع في زمن الحرب الكبرى فلم يكن من الممكن ذكر ما قاله فيلسوف الانكليز الحر في فساد أخلاقهم وفي زوال الحق من عقول أهل أوربة والخطر عليها من سلطان الافكار المادية، وهذا نص ما كتبه في المذكرة (ص ٧٥١ م ١٨)

« ماذا حركت مني كبة الفيلسوف «الحق للقوة» الخ؟ جاءت منه مصحوبة بشماع الدليل فأثارت حرارة وهاجت فكراً، ولوجأت من ثرثار غيره كانت تأتي مقتولة ببرد التقليد، فكانت (تكون) جيفة تعافها النفس فلا تحرك الا شمشرازاً وغشياناً

« هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً مما يفيد في راحة الانسان

وتوفير راحته وتغزير نعمته (أعجزهم) ان يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها على

الانسان حتى يعرفها فيعود إليها، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد

اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم ان يجلووا ذلك الصدا الذي غشي الفطرة الانسانية،

ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحاني؟ حار الفيلسوف في حال أوربا

وأظهر عجزه مع قوة العلم فأبى الدواء؟ الرجوع إلى الدين الخ الدين هو الذي كشف

الطبيعة الانسانية وعرفها إلى اربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلون بها» اهـ

وقد تقدم فيما كتبه إلى الاستاذ بمدخروجه من الاستانة إلى أوربة أنه يشتغل
« ببعض ما كتبه الأفرنج على الإسلام وبما وقفوا عليه من خط المسند وما ظهر لهم
في لغة سبأ وحير » فاما اشتغاله بما كتبوا على الإسلام مدحاً أو ذماً فكان ذلك
دأبه في جميع أسفاره ، وأما خط المسند فقد بدأ بدرسه في تلك السنة في سويسرة
على أهل الاختصاص فيه كالدكتور هيس وغيره وعندي كتاب فيه بخطه رسم فيه
حروف المسند وما يقابلها من خطنا المعروف وتركيب الكلام وتفسيره ، وغرضه
منه أن يقرأ بنفسه ما وقفوا عليه في بلاد اليمن وما يرجي أن يُعثر عليه من آثار مدنية
سبأ وعاد في تلك البلاد مهد الحضارة العربية الاولى

سفره إلى تونس والجزائر وصقلية

كان الاستاذ الامام رحمه الله قد أخبرنا عند إرادته السفر إلى أوربة في
صيف سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م أنه ينوي السفر منها إلى تونس والجزائر للوقوف
على أحوال المسلمين في هذين القطرين وآثار الإسلام فيهما ، وأن يجعل ذلك
مقدمة وتمهيداً لزيارة المغرب الأقصى لمثل هذا الغرض إن أمكن
وأذكر بهذه المناسبة أن بعض وزراء مولاي عبد العزيز سلطان المغرب
كتبوا إليّ قبل الحماية الفرنسية أن اختار لهم رجلاً مصححاً جامعاً بين العلوم الشرعية
ومعرفة السياسة والادارة ليستعينوا به على اقناع السلطان باصلاح البلاد الذي
يدعوه اليه المزار المرة بعد المرة ، فأطاعت شيخنا على ذلك فجنحت نفسه للذهاب
بنفسه ولكنه ايقن أن الأوربيين عامة والانكليز والفرنسيين خاصة يحسبون
لذهابه واقامته هنالك كل حساب ، وبحولون دونه بما استطاعوا من الأسباب ،
وجعالة السلطان يطلبون أن يكون ما اقترحوه عليّ سرّاً لا يشعر به احد ، وقد
اخترت يومئذ السيد عبد الحميد الزهراوي فلم يتيسر ارساله

كتمت عزم شيخنا على زيارة تونس والجزائر لثلاثيادر الاشرار إلى
بث الدسائس لمنع فرنسة إياه من دخول البلاد أو للحيلولة دون ما يريدون منها
بعد دخولها كما فعلوا في سفره إلى الاستانة ، حتى اذا ذكر الخبر في الجرائد الاوربية

نقلته عنها وذكرت اننا كنا نتوقمه كما تقدم آنفا . ولكن لم يكده يعرف ذلك حتى بادر أولئك الاشرار إلى ما كان ينتظر منهم كما بينته في (ص ٥٣٠ من مجلد المزار السادس الذي صدر في ١٥ رجب سنة ١٢٢١ ٢٢٥١ ايلول سنة ١٩٠٣ م وهذا نصه :

(سماية خائبة)

لما علم بعض الاشرار بالطبع ان الاستاذ الامام يقصد في صيف هذا العام زيارة بلاد الجزائر وبلاد تونس افترضوا ذلك فكتبوا في السماية به الى حكومة الجزائر رسالتين إحداهما أرسلت من مصر والاخرى من الاسكندرية باسم الحاكم الفرنسي العام وفيهما ما فيهما من قول الزور والاغراء بالامام بزعم انه لا يقصد بالسفر الى الجزائر إلا تحريض المسلمين على الثورة والخروج على الحكومة ونبد طاعتها وانه قادر على ذلك ... كما كتبوا بمثل ذلك الى الاستانة عند ما توجه الى زيارتها منذ عامين

كتبوا هذا لاعتقادهم ان الحكومة الفرنسية هناك حكومة خرقاء تأخذ بالشبهة ، وتنتقم من البرىء لادنى وهم يوسوس به شيطان من شياطين الانس ، أو يهيجس به في الخاطر عفريت من الجن ، ولظنهم ان الحكومة الفرنسية تجهل قدر الاستاذ الامام ومقامه الديني ، ولكن الحكومة الفرنسية فوق أوهامهم واحلامهم ، فقد بلغنا انها قد تلقت الرجل العظيم بالحفاوة والاحلال اللاتئين بشخصه وبمقامه الديني والعلمي ، كما تلقاه في انكلترا كبراء الانكليز وعلمائهم . فسر بهذه المعاملة الحسنة لاشهر أئمة المسلمين في هذا العصر مسلمو الجزائر ورأوا ذلك دليلا على حسن قصد حكومتهم وحسن سياستها

فليعتبر فضلاء المصريين بهؤلاء الابالسة الذين يعز عليهم ان يوجد في الامة رجل جليل عالي القدر محترم المقام حتى إنهم يبذلون جهدهم في تنميق الكذب ليحملوا الاجانب على اهانة ساداتهم وأئمة الدين الذين ينتسبون إليه وإن كان يتبرأ منهم . ولو شاء الفضلاء الانتقام الادبي من هؤلاء الاشرار لفعلوا ولكنهم لا يتفقون . اهـ

سافر الاستاذ إلى تونس والجزائر فكان له من الحفاوة والتكريم عند علماء

المسلمين وكبرائهم ما يليق به ، ولم ير من الحكومة الفرنسية شيئاً يسوؤه بل قابله رجالها في القطرين بالاجلال والاحترام ، على ما بشره حوله من الجواسيس السريين في كل مكان ، وهو لم يكن بجهل هذا ولا كان يخشى منه لانه كان يعرف مقام نفسه ومكانته التي تضطر الحكومة الفرنسية إلى إجلاله ، ولم يكن له أدنى غرض سياسي من زيارته وراء ارشاد المسلمين إلى حقيقة دينهم والطريقة المثلى لحياته وحياء لفته مع البعد عن السياسة التي قال فيها «مادخلت السياسة عملاً إلا أفسدته» فسيرها مثلاً وقد نال مراده فاجتمع بخيار العلماء والعقلاء الذين يقدرون الاصلاح قدره ومن خيارهم في الجزائر الشيخ محمد بن الخوجه صاحب المصنفات والاستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية . (وقد نشرنا في (ص ٩١٧ من مجلد المنار السادس تقرير طويلاً منها تفسير سورة العصر ، وعشرين بيتاً من قصيدة طويلة للثاني في مدح الاستاذ الامام ، وسننشرهما مع غيرهما في ذيل هذا التاريخ إن شاء الله تعالى) وقد رأى هذين الفاضلين وغيرهما ، مقتبطين بالمنار ولا سيما دروس العقائد التي ينشرها تحت عنوان (أمالي دينية) وتدعوهم إليه هؤلاء الفضلاء أن يوصي صاحب المنار بان لا يذكر في مجلته دولة فرنسية بما يسوؤها لئلا تمنع المنار من الجزائر ، وقالوا له : إننا نعدده مدد الحياة لنا ، فإذا انقطع انقطعت الحياة عنا . وقد وجد له في تونس والجزائر حزبا دينياً ينتمي اليه من حيث لم يكن يعلم وإنما الصلة بينهم وبينه مجلة المنار ، كما صرح بذلك كاتب في جريدة الطان (١)

وألقي في تونس ذلك الدرس الحافل العظيم الشأن في (العلم والتعليم) وقد نشرناه في المجلد السادس من المنار . كما ألقى في الجزائر تفسير سورة العصر - (وتقدم الكلام عليه في ذكر مؤلفاته) وقد طبعنا هذا وذلك في كتيب صغير يوضع في الجيب ولا يزال الناس يستفيدون منه ونزل في تونس ضيفاً بدار خليل أبو حاجب زوج الاميرة نازلي وهو كبير الوزراء اليوم وكان أحرارها ولا سيما الشبان يودون لو نزل في أكبر الفنادق لتكون حريتهم بالاستفادة منه أوسع . وقد عرض عليها أخذ الاذن له بزيارة سمو الباي ، فقال هل يمكنني أن أخلو به وأتكلم معه بالحرية؟ (١) قلت هذا جريدة الاهرام وذكرنا موضوعه في ص ٧٤١ من مجلد المنار الحادي عشر

قيل لا ، بل لابد من حضور أحد حاشيته من الفرنسيين . قال إذاً لا حاجة إلى زيارته
وقد نشرت في صفحة ٦٠٨ من مجلد المنار السادس سيرة الاستاذ في الجزائر
وتونس ونصائحه الحكيمة للمسلمين فيها وهذا نصه :

نصيحة الاستاذ الامام لاهل الجزائر وتونس

من يعرف الاستاذ الامام يعرف أن كل حديثه في جميع أوقاته نصيح وتعليم ،
فجالسه ومسايره يستفيد علماً وحكمة في كل أمر من أمور الدنيا والآخرة ، ولذلك
نعتقد أن الذين عرفوه واجتمعوا به في رحلته الأخيرة إلى الجزائر وتونس قد
سمعوا منه نصائح لا تحصى ولكن النصيحة العامة الشاملة التي كان يشافها أهل
العلم والدراية في القطر بن هي :

(١) الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية من طرقها القريبة التي أرشد
إليها في الخطاب الذي ألقاه في تونس . (٢) الجد في الكسب وعمران البلاد
من الطرق المشروعة الشريفة مع الاقتصاد في المعيشة . (٣) مسالة الحكومة
وترك الاشتغال بالسياسة . وبهذا الأخير يتم لهم كل ما يريدون من مساعدة
الحكومة الفرنسية لهم على ما قبله ، فإن الحكومات في جميع الأرض يضيقون على
البلاد التي يستعمرونها ماداموا يعتقدون أن أهلها ساخطون عليهم أو لهم ضلع
مع حكومة أخرى . وهذا الاعراض عن السياسة لا ينافي مخاطبة الحكومة فيما يرونه
ضاراً بهم من القوانين والمعاملات ، فإذا لم تكشف ظلامتهم بعد الاتجاه إليها في
كشفها كانوا معذورين إذا سخطوا وتربصوا بها الدوائر

والمشهور عند العارفين بالسياسة العامة أن فرنسا تبحث دائماً عن طريقة
يطمئن بها أهل الجزائر لحكومتهم وتطمئن هي لرضاهم عنها ، ولا شك أن هذه
الطريقة تنفع الحاكم والمحكومين وعدم السير فيها يضر بالمحكوم (١) أكثر مما يضر

(١) كلمة المحكوم والمحكومين بمعنى رعية الحاكم الذي تولى الحكم فيهم كلمة
عرفية ، وبصح أن تكون مجازاً من قول العرب : حكم الفرس بمعنى وضع لها حكمة
(بالتحريك) اللجام التي يملك بها امرها ويمنع جماها

بالحاكم . ونحن نعتقد أن الطريقة الوحيدة هي حسن المعاملة من فرنسا واعراض
الجزائريين والتونسيين عن السياسة إلى العلم الذي ينير العقول ، والعمل الذي
يشغل عن الفضول ، وقد ذكرنا في الجزء الماضي ان الاستاذ الامام انس من
الحكومة الفرنسية هناك الميل إلى هذه المعاملة وأنس من أهالي الجزائر الرجاء
الحسن بحاكمهم الجديد (موسيوجونار) وقد ذكرنا في جزء سابق ان الموسيو
(روا) يميل في تونس إلى هذا المذهب . حقق الله الرجاء وأصلح الأحوال بمنه وكرمه اه
وسأبين تحقيق القول في مسألة الاشتغال بالسياسة في الكلام على آرائه من المقصد الآتي

﴿ الملم بصقلية ، وما كتبه عن عاصمتها - بلرم ﴾

أنصح للاستاذ الامام أن يجعل عودته من تونس والجزائر عن طريق ايطالية
فمرج في طريقه على جزيرة صقلية وشاهد ما في عاصمتها (بلرم) من آثار العرب ،
وكتب في ذلك رحلة نشرتها في المنار ثم في الجزء الثاني من هذا التاريخ (منشآت
الاستاذ الامام - من ص ٤٧٣ - ٥٠٤ من الطبعة الثانية) وصف فيها قصر الملك روجار
وكنيسته في بلرم ، والكنيسة الكبرى والاديار وكنيسة مودبالي . وبين في هذا
الوصف ما كان من تساهل العرب وتساءل أين هم الآن ؟

وعقد فصلا لمكتبة العمومية ودار المحفوظات وما فيها من آثار العرب . وبين
حاجة السائح إلى معرفة اللغات الاجنبية وان الانكليزية أعم نفعاً في أوربة ووصف
الصقليين وورثاتهم ووساختهم ، وما بينهم وبين الطبقات الفقيرة من المصريين من الشبه
ووصف دور الآثار وبساتين النيات والمقبرة ، وبين بمناسبة ما فيها من الصور
والنماثيل فائدتها وحكمها في الشرع . وختمها بالكلام على أمير وأميرة من خيار
الاسرة العلوية بمصر نزلا في الباخرة التي عاد فيها من مسيني (أو مسينا) قاصدين
الاسكندرية ، فاثني على آدابهما الاسلامية

وقلم الاستاذ في هذه الرحلة أدبي فكاهي ، وتمنينا لو كتب مثل هذه الرحلة
عن تونس والجزائر وغيرها من البلاد ، يمزج فيها الفوائد العلمية ، والحكم الاجتماعية ،
والعبر التاريخية ، بالفكاهات الادبية

الاستاذ الامام - عودته

من أوربة وتونس والجزائر

جاء في ص ٥٦٧ من مجلد المنار السادس ١٦ رجب ١٣٢١ - ١٧ أكتوبر ١٩٠٣
عاد الاستاذ من سياحته في أوربة وتونس والجزائر فلتقاه في محطة القاهرة الجماهير
من العلماء والوجهاء وهي حفاوة داعبتها المحبة والاحلال . ولم تهمل لغيره في هذه
الديار ، وقد أثنى على حفاوة أهل الجزائر وتونس وحكومتيهما به ، وقال انه
رأى روحاً جديداً في العلماء ، وتوجهاً جديداً من فرنسة للمسلمين ، وانه يرجو
بذلك للبلادين حياة علمية سميدة ، ونهضة إسلامية قريبة ، فيألف الحاكم والمحكوم ،
ويوجه العلم إلى المعلوم ، وسننشر فوائده رحلته فيما بعد .

التراخي الشعرية بالمودة من هذه الرصد .

لما قدم الاستاذ الامام من سياحته في هذا العام هنأه بالقصائد الطنانة جماهير
العلماء والادباء في الازهر وغيره ونشر بعضها المؤيد واخترت منها للنار يومئذ
ما عللت اختياره بقولي في (ص ٦٠٧ م ٦) « ونذكر هذه الايات للشاب الذي
زاحم في بدايته أهل النهاية ، تنشيطاً له على العناية بالادب ، وهو الشيخ مصطفى نجل
حسن بك (باشا) عبد الرازق : قال

يا ساهرا ، والمسلمون نيام	اقبل عليك تحية وسلام
نشرت لفضلك بينهم أعلام	تطوي البلاد وحيث جئت لأمة
والحق أنى حل فهو إمام	كابد رآنى سار يشرق نوره
فلمصر أولى منهم والشام	إن يقدروا في الغرب علمك قدره
يلهي الصغار وجدت الايام	فيك الرجاء لأمة لعبت بما
والله يرضى عنك والاسلام	لا زلت غيظاً للضلال وأهله

سفره إلى السودان

كانت حكومة السودان تعتمد على الاستاذ الامام في اختيار قضاة الشرع له من علماء مصر ولا سيما رئيسهم (قاضي القضاة) فيختار لها خير رجال الشرع علماً وأخلاقاً وإدارة ومعرفة بحال الزمان كأصحاب الفضيلة الاستاذين الشيخ محمد شاكر والشيخ محمد هارون والشيخ محمد مصطفى المراغي (ومن حسن المصادفة ان هؤلاء الثلاثة الذين تولوا منصب قاضي القضاة في السودان كانوا على أتم المودة والصداقة، وابعضهم وشيعة رحم مع بعض) والشيخ اسماعيل خليل، وكذلك كان سائر القضاة الشرعيين وبعض أساتذة مدرسة غردون الكلية من مريديه كالشيخ محمد الخضري والشيخ عبد الوهاب النجار وغيرهم من خواص الاساتذة الشرعيين المصريين المتبعين لطريقته في الاصلاح .

ومن المعقول ان هذا الامام الذي كان ينوي ان يزور جميع الاقطار الاسلامية لا يغفل زيارة قطر السودان شقيق مصر الذي يعمل بأرائه الاصلاحية فيه بغير معارضة. وكان من قدر الله تعالى أن توجهت نفسه الى ذلك في شتاء سنة ١٣٢٢ هـ فأخبر برغبته هذه حاكم السودان العام وهو سردار الجيش المصري في أوائل يناير سنة ١٩٠٥ فجاءه الجواب الآتي من وكيل حكومة السودان بمصر في ١١ يناير فضيلتو افندم مفتي الديار المصرية

نبدي افضيلتكم ان سعادة افندم السردار أظهر ارتياحه التام من رغبتكم لزيارة السودان وعليه فرسل طيه الاستمارة اللازمة للسفر بموجبها مجاناً من الشلال إلى الخرطوم ببوسطة يوم الاحد المقبل الموافق ١٥ الجاري كما قررتم ، وطيه أيضاً الاستمارة اللازمة للعودة من الخرطوم إلى الشلال مجاناً ،واقبلوا وافز الاحترام

مدير المخابرات بمصر

(الأمضاء بالانكليزية)

ولما علم كبار رجال حكومة السودان من الانكليز والمصريين بعزم فضيلته على السفر جاءت برقيات الترحيب ودعوة الضيافة من كثير منهم نذكر ما حفظناه منها بالترتيب وهو :

(الاول) من السكرتير القضائي وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ - ١ يناير سنة ١٩٠٥

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

سرني انكم قادمون للسودان فهل لكم بقبول دعوتي لتكونوا نزيلي مدة
اقامتكم بالخرطوم
سكرتير قضائي

(الثاني) من قاضي القضاة وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ - ١ يناير سنة ١٩٠٥ - فضيلتو مفتي الديار المصرية

بغاية السرور تلقينا نبأ تشريفكم نحن ومنازلنا في خدمتكم محمد هارون

(الثالث) من الشيخ اسماعيل خليل والشيخ عبد الوهاب النجار

الخرطوم ١٠ - ١ - سنة ١٩٠٥ - فضيلة المفتي بمصر

عمنا السرور لتشريف مولانا فان تفضل فنحن ومنازلنا له

(الرابع) من جماعة الموظفين المصريين وكان رأيهم ان ينزل بدار خاصة به

لاضيفاً على أحد وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ - ١ - سنة ١٩٠٥ - فضيلة المفتي بمصر

سنتهيء منزلاً خاصاً بكم وبمعيبتكم فهل تفضلون بالقبول أولادكم

ولما كان جناب السكرتير القضائي قد سبق إلى الدعوة إلى منزله أرسل اليه

الاستاذ الامام برقية بقبول دعوته فأرسل البرقية الآتية إلى سماحته عند وصول

القطار المقل له إلى حلغا وهذا نصه :

من الخرطوم ١٠ - ١ - سنة ١٩٠٥

سماحة مفتي الديار المصرية - بالاكسبريس - حلغا

سرني قبولكم دعوتي. سأستقبلكم بالحلفاية يوم وصولكم صباحاً. سكرتير قضائي

وبعد وصوله إلى الخرطوم جاءت به برقيات ومكتوبات من الوجهاء والموظفين

في أم درمان وشندي وغيرها بالدعوة إلى زيارة بلادهم أذكر منها كتاب سمادة

الوزير باشا العباسي الشهير لمكانة مرسله وطرافة عبارته وهذا نصه :

﴿ كتاب الزبير باشا إلى الاستاذ الامام ﴾

من الزبير رحمت باشا العباسي بالسقاي ، إلى رئيس العلماء الكرام ، وزين
الاکرمين الفخام ، عزيز الاصل ، وشريف الحر والنسل ، جناب حضرة الشيخ
محمد عبده مفتي الديار المصرية والاقاليم السودانية . دام معززاً مكرماً آمين .

بعد تقديم السلام ، المشتمل على الايادي والاقدام ، بغاية كل أدب وخضوع
وزيادة احترام ، مع سؤال القلي عن صحتكم وعمّا أنتم فيه وعليه من الامور الخيرية ،
التي نرجو دوامها عليكم بكرة وعشية ، انه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .
ثم أحيط شريف علمكم وهو انه قد بلغ مسامعي حلول أقدامكم الشريفة ،
بماصمة بلادي السودانية بالخرطوم ، ولما بيني وبينكم من المحبة والمودة الخالصة
والمخلصة ، فلا شك ولا ريب أن تكون الآن أنت ضيفاً لي خاصة دون أشرف
السودان كلها ، وقد كنت قبل قيامكم من المحروسة فرحاً مسروراً بقدومكم
وتشريف بلادي بها مستعداً لتشريفني بمقابلة ذاتكم مع أول كرام الناس
المستعدين لمقابلتكم . ولكن يا أسفاً يا أسفاً قد منعتني ما منع قبل ابرة (ابرة) الحبشي
عن البيت الحرام عن مشاهدتكم وتشريفني بمقابلةكم ، بسبب ما حدث لي من اللطف
الشديد ، ولغاية تاريخه ملازم الفراش ، أنتظر العفو من الله عز وجل ،

وأرجو من كرمكم المشهور قبول ما تضمنته هذه الرقعة بالنيابة عن شخصي
مع أسفي وعدم مرادي ، كما وان الامور كلها تجري بحسب مقادير الله تعالى ،
وليست تجري على حسب خواطر العباد .

وأهنيكم ونم أهنيكم وأهني أشرف بلادي كلها من علمائها الكرام وأشرف
قبائلها بقدوم أقدامكم السعيدة ووصولها بماصمتها بالخرطوم ، وأهني نفسي غاية
ونهاية ملحقاً بهم ، أعادكم الله تعالى إلى مصر سالمين غانمين ، معززين مكرمين ،
فرحين مسرورين ، من علمائنا جميعاً ، وأهالينا آمين .

كاتبه

وفي الختام اقبلوا فائق الاحترام

الزبير رحمت باشا العباسي بالسقاي

٢٦ يناير سنة ١٩٠٥

﴿ وصف سيرة الاستاذ الامام في زيارته للسودان ﴾

إنني عند ما شرعت في جمع مواد هذا التاريخ كلفت صديقي الاستاذ الفاضل المؤرخ الشيخ عبد الوهاب النجار أن يكتب إلي خلاصة سيرة الاستاذ رحمه الله تعالى منذ وصوله الى الخرطوم الى عودته منها إلى القاهرة لانه شاهد ذلك عيانا فكتب إلي ما يأتي بنصه :

﴿ وصف اقامته في السودان ﴾

قام الامام رحمه الله من مصر متوجهاً إلى السودان في الساعة التاسعة من مساء اليوم الخامس عشر من شهر يناير سنة ١٩٠٥ ، وفي اليوم الثامن عشر كان في انتظاره بحلفا صاحب الفضيلة القاضي الشرعي ورجال الضبطية فيها وغيرهم ، فاستقبلوه استقبالا فائق الوصف ، وزار المدرسة واختبر تلامذتها وتفقد نظامها ، حتى أتى ميعاد قيام القطار فركبه فوافى الخرطوم البحرية في منتصف ليلة الجمعة الموافق ٢٠ يناير ، وكان النظام في تلك الايام يقضي بنوم الركاب في العربات ، فلم يزل بعربة الوابور إلى الصباح ما أصبح صبح يوم الجمعة ٢٠ يناير حتى كان الناس يفسلون من كل حذب مسرعين إلى المعديّة التي تميز بين الخرطوم والخرطوم البحرية ، وبعضهم كان أعد الزوارق لقطع النهر الأزرق قبل قيام المعديّة وكانت الحكومة قد أعدت السفينة البخارية الخاصة بصاحب السعادة الحاكم العام لتذهب بسكرتير قضائي السودان المستر بونهام كارتر ، وصاحب السعادة اللواء السير سلاتين باشا المفتش العام بالسودان ، وصاحب السباحة قاضي القضاة الشيخ محمدهارون ، وأصحاب الفضيلة الشيخ الطيب هاشم مفتي السودان ، والشيخ محمد عمر البنا المفتش بالحاكم الشرعي ، والسيد علي المرغني عين اعيان السودان ، لاستقبال الاستاذ الامام من قبل الحكومة ، فوصلوا إلى محطة الخرطوم البحرية الساعة السابعة والنصف وكانت المحطة غاصة بمن سبقهم من الجماهير ، فرحبوا بالاستاذ واستقبلوه استقبالا حسنا ، وحياهم أحسن تحية ، ثم طلبوا إليه أن يوافي الباخرة ليجوز الى الخرطوم ، فسار بدرأ يحتف به الوقار وتتقدمه الهيبة ، إلى أن وصل الى الفلاك ، فاستوى ومن

معه عليه ، وجميعهم منشرح الصدر ، بادي المسرة ، جرت بهم السفينة الى المدوة اليسرى للنيل الازرق ، وكان في انتظاره مأمور المدينة الصاغ محمد غالب افندي (بك الآن) وغيره من المصريين المقيمين بالخرطوم وغيرهم ، وحين نزل الاستاذ ومن معه الى البر وأخذ في السير الى المنزل المعد لنزوله ، قدم له صاحب المنزل سكرتير قضائي السودان جواداً مطهما بيده ليركبه الى المنزل فشكر له هذه الحفاوة ، وأظهر له الرغبة في السير على قدميه إلى المنزل

وحين وصل الاستاذ الى باب المنزل وقف للتسليم على الجموع المحيطة به وشكرهم ، وأراد قاضي القضاة الانصراف معهم فأخذ المستر (بونهام كارتر) السكرتير القضائي بيده وأدخله مع الاستاذ الى المنزل ، وقل له أنت تعلم مايلزم للاستاذ من المعدات والادوات والامكنة ، فأرجوك الاطلاع على مارتبته له ، وطلب ما تزيده عليه . فوجده قد هيا له مكاناً خاصاً به للنوم وآخر للوضوء والغتسال ، وثالثاً لتناول طعام الافطار . كل ذلك في الدور الأعلى ، وقاعة فسيحة في الدور الاسفل لاستقبال من يريد استقباله من الناس ، وكل ذلك تام الاثاث والرياش واحتراما لمقام الاستاذ ولعلمه بما هو عليه من التقوى كان يتركه يتناول طعام الافطار وحده ، وكان المضيف لا يحضر خمرأً ولا آتيتها على مائدة يأكل عليها الاستاذ . وهذا كان دأبه ودأب جميع من دعوه من الانكليز وغيرهم لتناول الطعام . مثل صاحب السعادة الحاكم العام والواء سلاطين باشا ، والميرالاي منسي بك السكرتير الملكي والميرالاي استانتون بك (باشا) مدير الخرطوم ، والقائمقام امري مساعد المفتش العام .

وكان الحاكم العام مسافراً قبل مجيء الاستاذ . ولما علمت اللادي ونجت بقدم الاستاذ الامام طلبت إليه أن يحضر في المساء إلى سراي الحاكم العام ليتناول معها الشاي . فأقام بمنزل قاضي القضاة عقب خروجه من صلاة الجمعة بالمسجد الجامع والناس ترد من كل أوب للسلام عليه والاستفادة من محادثته والاصفاء الى كلماته التي هي درر الحكم تتشظى عنها اصداقها امامهم ، الى أن حل ميعاد ذهابه الى سراي الحاكم العام .

كان صاحب السعادة اللواء سلاطين باشا عرض على الاستاذ الامام ساعة استقباله وهو على ظهر الباخرة انه يرافقه في اليوم التالي إلى أم درمان (١) يشاهد آثار المهدي كعبة المهدي ويدت الخليفة وبيوت اخوته وأسرته ويدت الامانة ومسجد الخليفة وغير ذلك ، فتقبل الاستاذ منه ذلك بالشكر والامتنان

وذهب طيب الله ثراه إلى أم درمان صباح يوم السبت ٢١ يناير سنة ١٩٠٥ يرافقه سعادة اللواء سلاطين باشا وقاضي اقضاة ، وكان في انتظارهم صاحب الفضيلة مفتي السودان ، والشيخ محمد البدوي من العلماء . وبعد ما شاهد تلك الامكنة زار محكمة أم درمان الشرعية فسر بما رأى ، وقصد مدرسة أم درمان واختبر التلاميذ ورأى من التقدم وحسن النظام والتعليم ما لم يكن ايظنه في بلاد السودان . ثم عاد إلى الخرطوم

زيارته للمدرسة الكلية واختباره لطلبتها

وفي يوم الاحد زار مدرسة غوردن الكلية ومعه صاحب السباحة قاضي اقضاة وصاحب الفضيلة قاضي المديرية الشرعي وكان يختبر طلبة قسم المعلمين والاقضاة اختبار مدقق في كل علم من العلوم التي يتلقونها ، فرأى من ذكائهم وكثرة ما حصلوه من العلوم على حداثة عهد المدرسة وقلة ما يكون قد حذقه الطلبة من المعلومات حين دخولهم فيها ما أنعمش أمله فيها ، فان الطالب الذي يتم دراستها وإن لم يكن كالذي يتم الدراسة بقسم المعلمين الناصرية إلا أن الاول يدخل خالياً من المعلومات في حين أن الثاني يدخل حافظاً للقرآن والالفية ويؤدي امتحاناً في عدة علوم لا يمكن أن يضارعه السوداني في الحصول عليها ولو أقفى أكثر أيام عمره ، ولو دخل السوداني المدرسة حاصلاً على درجة المصري في قسم المعلمين لسبق المصري عند انتهاء الطلب

وفي يوم الاثنين عاد إلى الكلية وأنتم اختبار تلامذة القسم الابتدائي وشاهد الورشة التابعة للكلية التي يتعلم فيها أبناء الاهالي الصناعات المختلفة كالنجارة

(١) كانت صفة العرض هل يحب الاستاذ المفتي ان يأخذني مترجمه أم درمان لا طلمه على آثار الخليفة والدرابوش ؟

والحدادة والبرادة ، وصب المعادن والنقش وغير ذلك ، وبعد التفتيش طلب
أنموذج التعليم بقسم القضاة وصرح بأنه يريد أن يهذبه حتى يكون بحال تناسب
الطلبة الذين كان يرجو ادخالهم في مدرسة القضاء الشرعي بمصر . وبالجملة فقد
مر بمعارف السودان سرور الاب المشفق بابنه النجيب ، وأثنى على ناظر المدرسة
وهو مدرسها بما هم أهله أطيب اشياء .

ومما يذكر بمناسبة زيارة مولانا الاستاذ رحمه الله أن المستر كرى مدير معارف
السودان قال عتب زيارة الاستاذ الامام الكلية : إن كثيراً من موظفي المعارف
في مصر وغيرهم ممن زاروا المدرسة قد أثنوا عليها ، وقد أثنى عليها فضيلة المفتي
فأنا الآن مقتنع بأنها كما وصفها سائرة في طريق نجاح باهر

(زيارته لدواوين الحكومة وتفتيشه لمحكمة عموم السودان ومحكمة الخرطوم الشرعيتين)

وقد زار الاستاذ في الايام التالية لزيارة كلية غردون دواوين الحكومة وأفرد
كلا من محكمة عموم السودان الشرعية ومحكمة مديرية الخرطوم الشرعية بيوم فتنش
فيه أعمالها وسير القضايا فيها ، وراجع كثيراً من الاحكام التي نظرت فيها محكمة
العموم بصفة استئنافية أو بصفة تمييز ، وقد مر من جميع مآراه في المحكمتين
سرور القارس بياكورة جنى غرسه

اقبال الجماهير لزيارته والاستفادة منه

وقد كان قاضي قضاة السودان وقاضي الخرطوم يخلوان بالاستاذ في عدة
أوقات وكل منهما يطرح بين يديه ما يراه من المشاكل في الاحكام والاجراءات
والامور التي تجلب على الناس المشاق اذا جرى فيها الحكم على مذهب الحنفية
فيشير إلى كل منها بمحل ما أشكل عليه ، ويبين مأخذ ما أشار به من مذهب مالك
أو غيره من الأئمة جزاهم الله وجزاه عن الاسلام والمسلمين أفضل جزاء

وقد كان الناس من مصريين وغيرهم يتقاطرون على الاستاذ رحمه الله من
كل صوب أينما كان في الاوقات التي كان يفرغ فيها عادة من التفتيش أو من زيارة
معاهد العلوم ، وكانت أوقات الاجتماع عامرة بمذكراته لهم في الدين وتهذيب

النفس وتكاملها بالأخلاق الكريمة ، وشحنهم بالهم وحشها على فعل الخير بما عهد منه من الأساليب التي تأخذ بالآليات ، وتستروي الافئدة ، وقد كان المسلمون والمسيحيون في ملازمته والاستفادة من حكمه سواء وبمناسبة ذكر المسيحيين نذكر أن المسيحيين الذين بالخرطوم أوفدوا وفداً من خيرتهم ينوب عنهم بالسلام على الأستاذ الامام والترحيب به ، فأحسن وقادتهم وشكر ما أبدوه من الحفاوة به ، حتى خرجوا وألسنتهم لاهجة بالثناء عليه وهم إلى الآن يذكرون له حسن اللقاء ، ولين الجانب ولطف المعاشرة ، ولم يكونوا بأقل من المسلمين حزناً عليه حين نعيه طيب الله ثراه

(حادثة جرت أثناء وجوده بالخرطوم)

(بشأن زيارته لنادي الموظفين المصريين)

وذلك أن المستخدمين المصريين (مسلمين ومسيحيين) افتتحوا نادياً سموه (نادي المستخدمين المصريين) ليكون مجتمعاً لهم يستغنون به عن قهاوى الاروام ، ولما حضر الأستاذ الامام دعاه جماعة من أهل النادي أن يزور ناديهم ويشرب الشاي معهم ، فوعدهم ، فأمر اليه أحد الصادقين في محبته أن هذا النادي يحتمي ببعض أهله الخرفيه ، فحاول الامام أن يصرف أهل النادي عن التشديد في الكون معهم في ناديهم بالتي هي أحسن ، فزاد تمسكهم به ، ورأوا في انصراف الأستاذ عن طلبهم كسراً لخاطرهم ، وأحسوا بمن أطلع الأستاذ على ما كان سبباً في رغبته عن إجابة طلبهم ، فمدوا اليه ألسنتهم بالسوء ، وأخذت روس الشقاق تبدو من مكانها ، فذهب إلى الأستاذ واحد من التخلصين له ^(١) وأخبره أن أهل النادي قد اشتد غيظهم على من كان سبباً في تخلف الأستاذ عن ناديهم ^(٢) وأن عاقبة ذلك شقاق وعداوة لأحمد منفيها ، ورجاه في أن يتلافى الأمر بلطف حكمته ، فما كان جواب الأستاذ إلا أن أخذ يسأله عن شؤونه في عمله الذي يقوم به في السودان وعن مقدار النجاح فيه وأحواله مع الرؤساء ، ولم يجبه عما هو بصدد بسلب ولا إيجاب

(١) عبد الوهاب النجار (٢) المرحوم الشيخ محمد هارون قاضي قضاء السودان

وعند غروب شمس ذلك اليوم (الأربعاء ٢٥) يناير أشرقت طلعة الأستاذ في نادي المصريين وكان مزيناً بالاعلام وسعف النخل والازهار، وجلس الأستاذ في قاعة أعدت له ولجماعة من المصريين وأخذ أهل النادي مجالسهم في قاعات أخرى وبعد تناول الشاي قام حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد الخضري وقال خطبة وجيزة هي آية من آيات البلاغة شكر للأستاذ فيها تشريفه للنادي وجبره لخطر أهله، ثم تلاه حضرة الفاضل الشيخ عبد الرؤف سلام المدرس بالكلية وتلا قصيدة غراء في مدحه وتبعهما غيرها

ثم قام الأستاذ الامام فأثنى على جميعهم لما لقيه من الحفاوة به وخطب فيهم خطبة بليغة حبذ فيها قيامهم بإنشاء هذا النادي إذ كان لاجتماعهم فائدة من وجوه وأخذ يعدد فوائد الاجتماع في الاندية عند الامم الراقية، ثم صرح بأنه وصل الى علمه ان بعض اهل النادي يشربون الخمر، وطفق يشرح مضار الخمر وكيف ان العقلاء من أهل أوربا اخذوا يحرمونها على أنفسهم، وان لم يحرمها عليهم كتبهم، وان الضرر منها في السودان وهو قطر حار أشد منه في غيره - وانه لا وجه لمن يحتاج لوجود الخمر في النادي بأنه يجمع المسلم والمسيحي وثانيهما يبيحها دينه، فانه لا فائدة في الاجتماع اذا لم ينزل أحد من أهله عن بعض مشتبهاته ابتغاء مرضاة أخيه، ثم قال على انه بلغني ان المسيحيين من اهل النادي يتحاشون المجيء فيه لما يألون له من سكر بعض اخوانهم المسلمين. ثم ختم كلامه بالدعاء لهم بالخير وطلب اليهم أن يحققوا أمله فيهم بأن لا توجد الخمر في ناديتهم - فعاهدوا الله جميعاً على أن لا تدخل ناديتهم خمر، وانهم لا يدخلون النادي اذا استمر وجود الخمر فيه وانفض الجمع على ذلك.

ولكنهم لم يوفوا بالعهد إلا مدة إقامة الأستاذ بالسودان ثم عادوا لما نهوا عنه، تولى الله بلطفه هدام

(ضيافة الضباط له في ميسهم وحفاوتهم به في ناديم)

وفي مساء يوم الخميس ٢٦ يناير كان الاستاذ رحمه الله مدعواً لتناول العشاء بميس (١) الاورطة السابعة هو وجماعة من خاصة تلاميذه وأحبابه ، فوافى ثكنة الاورطة بعد غروب الشمس وكانت مزدانة بالاعلام وموسيقى الاورطة تصدح بانغامها المطربة طول بقاءه ، وكان في انتظاره صاحب العزة قومندانها مرسي بك فهمى والعدد الكثير من الضباط الكبار والضباط الصغار في الاورطة .

وبعد تناول العشاء قام هذا الجمع المحتشد في ثكنة الاورطة والشيخ في وسطهم ممتط جواداً مطهما (٢) وكانوا كلهم ركباناً ماعدا الجنود الذين كانوا يسرون امام هذا الموكب الحافل حاملين الاضواء حيث كان الوقت السابعة والنصف مساء ويقيم جميعهم نادي الضباط المصريين (٣) وكانوا قد أعدوا حفلة عظيمة إكراماً لمولانا الاستاذ احتشد فيها جميع الضباط الموجودين بقسم الخرطوم بين ضباط كرام ، وضباط عظام ، وضباط صغار وهم بملابسهم العسكرية جميعاً ، وقد رجوا صاحب المطوقة حسين فخرى باشا ناظر المعارف والاشغال المصرية أن يشرف النادي في تلك الليلة لمصادفة وجوده بالخرطوم ، وبعد تشريف الامام النادي جاء صاحب المطوقة فخرى باشا وجلس مع الاستاذ يحادثه في أمور السودان وما رأياه من تقدم المدارس والعمران في هذه المدة اليسيرة

ثم دعي الاستاذ الامام وفخرى باشا وجماعة من خاصة الاستاذ والضباط الكرام والمظام لتناول الشاي في قاعة فسيحة على مائدة أعدت لذلك ، وبعد تناول

(١) ليس كلمة انجليزية يعبر بها عن اشتراك جماعة في المعيشة يأكلون ويشربون جميعاً
ولكن أورطة في الجيش المصري ميس ينتظم الضباط الذين لا يصطحبون أزواجهم
(٢) لم يركب رحمه الله من المطايا في السودان سوى الحيات الكريمة

(٣) هذا النادي بناء نفخ من أبنية الحكومة على الضفة اليسرى النيل الأزرق قائم في وسط حديقة جميلة ، قد افتتح تحت رعاية الجناب العالي الحديو حين زار الخرطوم سنة ١٩٠٢ ومن الاصول المقررة أن يكون رئيسه أقدم ضابط بقسم الخرطوم

الثناء هم صاحب المطوفة فخرى باشا بالانصراف وانطلق البكباشى محمود افندى (باشا) عزمي اركان حرب الحملة الماثية بخطاب خطابة وجيزة افتتحها بالترحيب بالاستاذ الامام وفخرى باشا وشكرهما على تلبية دعوة الضباط المصريين وتشريفهما ناديهما وختمها بالدعوات لمولانا الخديوي المعظم والحاكم الامام . فرد عليه صاحب المطوفة الناظر بخطبة هي غاية في اليجاز بعبارة سهلة بطريقة شكر فيها الضباط المصريين على الحفاوة به وتمنى أن يدوم ارتقاء السودان بحسن اجتهادهم ، والتفات الحاكم العام السير رجنالد ونجت باشا ، فصفق له الحاضرون وانصرف من النادي يشبعه أحد الضباط العظام

وأراد الاستاذ الامام أن يتلو فخرى بالانصراف فاستوقفه الجمع ورجوه أن يروي غلتهم بكلمات يسمعونها منه ، فأثنى على هؤلاء الضباط بما هم أهلها من المعاني التي فاه بها في ذلك المقام مأرويه لك بالمعنى وهو :

خطابه للضباط ونصيحه لهم

كنا نسمع عنكم في وقت الحرب ما جعلنا نسميكم شياطين الحرب ، وقد شاهدت الآن من أعمالكم الجليلة وآثار العمران التي تمت بأيديكم في السودان ما يسوغ لي أن أسميكم ملائكة السلام ، لا يشك مطلع على هذا الرقي الذي أراه في السودان في أن العامل منكم يقوم من العمل في السودان بما لا يقوم به أربعة

في مصر ، ولو قيل لي هذا الكلام وأنا في مصر ما صدقت ، لقد قمت أيها الضباط بالأعمال التي عهدت اليكم في السودان أحسن قيام ، وإن ما شاهدته من آثار المدنية التي تمت بأيديكم ليجمعني مع شدة ميلي إلى النظام والدستور أعنى أن تكون الحكومة المصرية حكومة عسكرية لينالها من التقدم على أيديكم ما ناله السودان ثم حشهم على الاجتماع والائتلاف ، وأنه يود أن يكون هذا النادي ناديا للضباط حقيقيا يجتمعون فيه لاسترشاد بعضهم ببعض في المشكلات واستفادة بعضهم من تجارب الآخرين ، وأن لا يكون نصيبه الهجران وعودهم على قهاوي الاروام وختم كلامه بالدعاء لهم وتوفيقهم للسداد ، وكانوا يصفقون له عند انتهاء الجمل تصفيقا طويلا متكررا

ثم انتقل هذا الجمع إلى البهو الكبير وجلس الاستاذ يحادثهم إلى منتصف الليل ، كل هذا والموسيقى تصدح بالانغام اللطيفة إلى أن خرج هذا الحفل ، وأما النادي وحديقته فكانا مزدانين بزينة أبهى وأسنى من زينة حديقة الازبكية في ليالي الحفلات

صلاة الجمعة في أم درمان

صلى الاستاذ صلاة الجمعة ٢٧ يناير سنة ١٩٠٥ في المسجد الجامع بأم درمان ومعه قاضي القضاة وقاضي المديرية ومفتي السودان ، وعدد من مدرسي الكلية وغيرهم ، وقد بادر كل من بالمسجد عقب الصلاة لتقبيل يد الاستاذ وأبدي من معه إكراماً له وكان الزحام شديداً حتى لقد آذى الزحام على التقبيل أيدي بعض من يرافقه

وفي عصر ذلك اليوم ركب الاستاذ ومن كانوا يرافقونه باخرة من بواخر الحملة المائية كان استأجرها حضرة نسيب أفندي فلييدس باشا كاتب مكتب سكرتير قضائي السودان وأبقاها تحت تصرف الاستاذ ذلك اليوم ، فسارت بهم الباخرة إلى قرب كرري موضع الواقعة الفاصلة بين الجيش المصري والدرناويش ثم وصلت بهم إلى أم درمان ليلاً قبل العشاء

رأى الاستاذ في ذلك اليوم مسجد أم درمان بحالة حملته على أن يتبرع بمبلغ عشرة جنيهات لتكون أساساً لعمل اكتاب لجمع مقدار من المال يبنى به ذلك المسجد أو يصلح جزء من مسجد الخليفة ، وأعطى ذلك المبلغ لصاحب السماحة قاضي قضاة السودان ، نسأل الله أن يبعث اللهم لتعميم الاكتاب وتحقيق ما كان يقصده الامام

وعلى ذكر مسجد أم درمان جئنا تداعي المعاني إلى انه رحمه الله قد وعد أن يسمي لدى ديوان الاوقف بمصر ايقرة مبلغاً لا يقل عن أربعةائة جنيه لإعادة بناء جامع الخرطوم القديم الذي خربه الدراويش وتركوا جدره مهتمة ، فهل من مسلم يقوم عنه هذا المقام المحمود ، ويجوز الاجر من الله واشياء من الناس (انما يعمر

مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله
فمسي أولئك أن يكونوا من المهتدين)

وزار الاستاذ الامام رحمه الله مدرسة البنات التي تديرها الراهبات ويشرف
عليها قس يسمى القس جون وهو الذي دعاه لزيارتها واحتفل بمقدمه أيما احتفال.
وبعد خروجه من المدرسة سأل عن مدرسة للبنات المسلمات فقيل له انه لا مملجاً
لهن ولا مناص من التعليم في هذه المدرسة فعمد النية على أن يسمى بأي وسيلة يجدها
لإنشاء مدرسة اسلامية لتعليم البنات المسلمات في الخرطوم ولكن عاجله المنون قبل
أن يحقق تلك الآمال

اغتباط البلاد بأيام اقامته فيها واستفادتها منه

كانت أيام إقامة الاستاذ بالخرطوم عند أهلها وأهل أم درمان أعياداً ومواسم
وكانت البيوت التي يكون فيها كأنها الكعبة لا تخلو من طائف ، والعلماء والادباء
يوافونه من كل فج وناحية ، هذا سائل وذاك مسترشد والآ خر مستبصر في
كتاب الله أو سنة نبيه أو عقيدة من العقائد أو علم من العلوم

وربما حمل اليه الرجل عدة أسفار يعرض عليه ما أشكل عليه فهمه منها فكان
يميط اللثام عن كل معضلة ، ويدلل صعاب المشكلات بفكرته الوقادة ، وكان
يحث الناس على فعل الخير مع أهله وغير أهله ، وجرت لذلك مناقشات طويلة في
غير مجلس بينه وبين محبيه وأصدقائه من أفاضل الادباء وقد أربى في رأيه هذا
على أبي العلاء في قوله :

كن صاحب الخير تنويه وتفعله مع الانام على أن لا يدينوك
وكان يقول : يجب على الانسان أن يفعل الخير على انه خير على كل حال سواء
صنع مع أهله أو غير أهله * لا يذهب العرف بين الله والناس *

وبالجملة فقد كان في السودان مثال الخير وموضع عناية العامة والخاصة. وقد
كان صاحب السعادة الحاكم العام يعني به عناية المعارف بقدره، ولذي يقدر مساعدته
للبلاد السودانية قدرها ، وكان يسأله عن ملاحظته على الكلية والمحاكم الشرعية

فاذا أخبره بشيء قيده في مذكرته ليجري الامر على مقتضاه في الوقت المناسب من ذلك أن قانون الحكومة السودانية يقضي أن انتقال الموظف الذي راتبه أقل من خمسة وعشرين جنيتها في الشهر يكون بالدرجة الثانية لا يستثنى غير قاضي القضاة والمفتي والمفتش ، فشكا ذلك إلى الاستاذ الامام قاضي مديرية الخرطوم ، فعرض الاستاذ الامر على الحاكم العام وطلب إليه أن يكون نزول قضاة المديريات بالدرجة الاولى أسوة بقضاة مصر الشرعيين ، فتقبل طلبه بقبول حسن ، ووعد بأن يتم ذلك عند عودته من سفره إلى كسلا فصر وقد تم ذلك في أواخر شهر مايو سنة ١٩٠٥ ولما جاء يوم الثلاثاء ٣١ يناير سنة ١٩٠٥ وهو موعد عودته إلى مصر دعي لتناول الطعام ظهر أجمع الحاكم العام ومعه قاضي القضاة ومفتي السودان ، وقد أعدت الباخرة لتجيزه ومن معه إلى الخرطوم البحرية ، وكان يرافقه قاضي القضاة والمفتي والمفتش وقاضي المديرية وكل من كانت عنده فرصة لوداعه من مدرسي الكلية كالشيخ محمد الخضري وكاتب هذه السطور (عبد الوهاب النجار) وكثير من علماء السودان واهل الوجاهة ، وسافر القطار من الخرطوم البحرية وفيه الاستاذ مشيماً بالدعوات تحف به القلوب مبيناً مصر وهو متمليء فرحاً وسروراً بما شاهد من نماء غرسه رحمه الله رحمة واسعة وجازاه أفضل ما جازى عاملاً مخلصاً لدينه ووطنه .

﴿ استدراك على الكاتب ﴾

فات أخطأ الاستاذ الكاتب أن يذكر دعوة أكبر اشراف السودان وأشهرهم للاستاذ الامام وهو السيد علي الرغني لنيل صفتها وفائدتها ، وهذا نص كتاب الدعوة :

الخرطوم في ٢٤ يناير

سماحة الاستاذ الامام

غيب اذكى السلام والاحترام ، أسعد الباري أوقاتكم بالسران ، نرجو التشریف

عزائنا يوم الخميس في الساعة ٧ ونصف لتناول العشاء

وتقبلوا مزيد الامنونة والاحترام مكي علي ميرغني

المقصد السادس

من الفصل السابع

آراؤه وآماله وأمانيه

آراء الناس قد تختلف باختلاف الأحوال والازمنة والامكنة والاشخاص الذين يلقي اليهم الرأي او يناط بهم العمل، فرب رأي ينفع امرء أو يضر آخر لا اختلاف الفهم او الميل او الاستعداد للعمل، ومن كلام علي كرم الله وجهه: عند البخاري حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله. ومن كلام ابن مسعود (رض) في مقدمة صحيح مسلم: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وقد نقلت فيما سبق عن الاستاذ الامام انه كان من طبعه في حديثه ودروسه العلمية والدينية أن يتكلم بقدر ما يشعر به من استعداد السامع، بخلاف السيد جمال الدين، فانه كان يلقي الحكمة والآراء السياسية لكل أحد ويؤثر في نفسه، ولذلك اختلف الناقلون لبعض آرائه بين النفي والاثبات، وكان المسيح عليه السلام يكثر من ضرب الامثال، وقال انه لا يستطيع أن يقول لقومه كل شيء، وانه سيأتي بعده الذي يبين لهم كل شيء، وهو البارقايطروح الحق (عليه الصلاة والسلام) وقد سمعت في أثناء صحبتي الطويلة القصيرة لاستاذنا قدس الله روحه آراء كثيرة في جميع ما كان يدور بيننا من الموضوعات، وعلمت منه انه لا يفضي بكل ما في نفسه بدون احتراز الا لبعض الافراد، ولكن كان يقول لي في بعض آرائه هذا لا يكتب او لا يقال لكل أحد. (وأول مرة ذكر لي هذا عند بيان رأيه في الشيعة وكان ذلك سنة ١٣١٥ قبل صدور المنار)

كتبت بعض آرائه وكتبت بعضا، وحدثت ببعض ما كتبت من علمت انهم ينتفعون به. ومن آرائه ما نقل عنه في حياته او بعد وفاته صحيحا، وما نقل محرفا تحريفا، ومنها ما اختلف الناقلون له في فهمه او تأويله بالتبع لاختلاف مشاربهم او نياتهم وانني أنبه قارى هذا التاريخ لسألة مهمة وهي أن بعض آرائه الدينية والسياسية

والاجتماعية مبنية على مذهبه في الاصلاح ، فلا يفهم مراده منها حق الفهم إلا من عرف مذهبه هذا حق المعرفة ، وقد ذكرنا مذهبه هذا فيما نقلناه من كلامه في أول ترجمته لنفسه (ص ١١ و ١٢) وسنبينه بالتفصيل في المقصد الثامن من هذا الفصل ، ورأيه المشهور في السياسة مبني عليه ، وقد تقدم نقله عنه في مواضع آخرها نصيحته لمسلمي تونس والجزائر من هذا الفصل ، وهو مجمل يحتاج إلى البيان فأبدأ ببيان اجماله وكونه فرعاً من فروع مذهبه في الاصلاح

رأيه في السياسة

من حكمه المأثورة التي سيرها مثلاً قوله «مادخلت السياسة في شيء إلا أفسدته» ومن أقواله المشهورة فيها «قن شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين ، فانا معك من الشاهدين ، أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل ارض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس» اهـ من (كتاب الاسلام والنصرانية ص ١١١ من الطبعة الرابعة)

وغرضه من ذم السياسة ومن نهى العاملين من المسلمين لأحياء العلم والدين عنها ، وارشادهم أن يكونوا في عملهم بمعزل عن تأييدها أو مقاومتها ، هو أن السياسة في جميع بلاد المسلمين استبدادية جائرة ، سواء أكان حكامها وساستها من أهلها ، أم من الاجانب المتغلبين عليها ، فتأييد سياستهم بالعلم والدين افساد لهما ، ومقاومتها بهما عرضة لمنع اقامتهما ، والتنكيل بأهلها ، فالطريقة المثلى اجتنابها ، ومداواة أهلها ، واقناعهم بكل وسائل الاقناع الممكنة بأن الاصلاح العلمي أو الديني المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم ، ونافع لهم أو غير ضار بهم ، وحسب العامل المصلح تمكنه من العمل ، فان استطاع بهذه المسألة والمحاسنة أن يجد مساعدة من الحكام بشرط ترك الحرية له في العمل فذلك أفضل وأكمل ، كما فعل السيد احمد خان ثم الشيخ شبلي النعماني في الهند ، والاستاذ الامام بمداواة الانكليز في مصر ، ومن وسائله التي اتخذها لذلك عقب رجوعه من منفاه ، لائحة

نظام التربية بمصر التي قدمها إلى السير افلان بارنج (لورد كرومر) وهي ما نشرناه في الجزء الثاني (المنشآت - ص ٥٣٣ طبعة ثانية) فكان تأثيرها عنده سلبيا لا ايجابيا وكان مراد الاستاذ منها التوصل ليكون معلما في مدرسة دارالعلوم لاعتقاده أن تلاميذها أرجى لقبول الاصلاح من مجاوري الازهر ، وقد طلب ذلك فعارض الخديو توفيق باشا فيه ، ولم يساعده الانكليز عليه . وكان طلب من الدولة العثمانية أن تقوم بهذا الاصلاح في بلادها وبسط الحاجة اليه في لائحة وقعها هو وبعض وجهاء بيروت إذ كان مقما فيها وأرسلها إلى شيخ الاسلام في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤ (راجع ٥٠٥ - ٥٢٢ من المنشآت ج ٢) ومن ذا الذي يقرأ اللوائح او يفهم ما يقرأ ، او يبالي أن يعمل بما يفهم ؟

يقول محبو السياسة او المشتغلون بها ان هذه المسألة للسياسة والادارة لرجالها اقرار ضمنى للاستبداد ومساعدة سلبية عليه ، ويقال لهم ان هذا لا يمنع غير هؤلاء المشغولين عن السياسة بمعمل آخر نافع للامة أن يعملوا هم لها من طريق السياسة ، فتقسيم الاعمال الكبيرة وتوزيعها شرط من شروط اتقانها والنجاح فيها . واما الاستاذ الامام فانه كان يرى ان استبداد السياسة لا علاج له إلا وحدة لامة وجمع كتتها ، واز الطريق المستقيم الموصل إلى هذه الغاية هو تربيتها وتعليمها على الوجه الذي يراه هو وسنشره في بيان مذهبه في الاصلاح قريبا ، ولولا هذه الادارة لما أمكن له أن يعيش في مصر ، فاذا لم يخرج الانكليز منها لامة حرة لورد كرومر فلا شك في ان الخديو كان يخرج ويخرجني منها كما أخرج أبوه السيد جمال الدين ، وقد تقدم ما يثبت هذا - وحسبك انه قاومه في كل اصلاح حاوله ، ولم يقاومه الا جانب في شيء ، وهم لا يجهلون ان نجاحه فيما يحاول من الاصلاح وبال على نفوذهم في مصر بل في العالم الاسلامي كله

وانني أذكر هنا ما كتبه محمد حافظ بك ابراهيم في كتابه الادبي (سطوح) من رأي الاستاذ وتلاميذه ومريديه في السياسة ، واقفي عليه باول ما سمعته منه في ذلك ، و نقل الاول عن (ص ٨٤٥ من مجلد المنار العاشر) والثاني من مذكراتي التي لم ينشر منها إلا القليل . وهذا نص الاول :

﴿ كلمة شاعر مصر الاجتماعي محمد حافظ ابراهيم في سياسته ﴾

(بين سطيج وأحد تلاميذ الاستاذ الامام)

سطيج - أين أنت من القوم ؟

التلميذ - من أولئك الذين نعموا الرضى على المهدين ، ولم يحمدوا مغيبة
الحكمين ، عهد الدولة التركية ، وعهد الدولة البريطانية ، ففي أولها قاضت المظالم
وغاضت الاموال ، وفي ثانيهما أخصبت الارض ، وأجدبت الرجال -

سطيج - وهل أنت في خفض من العيش ؟ - التلميذ - لا أشكو بحمد الله
عسراً ، ولا أرجو يسراً ، وانما أتفياً ظل هذا البيت العربي ، لذلك الشاعر الأبي ،
مذبذب الرزق لا فقر ولا جدة حظ امرك لم يحقق ولم يكس

قال - وأين مكانك من العلم ، وأين منك منزلة الحلم ؟ قل حسبي اني من
تلاميذ حكيم لاسلام ، الاستاذ الامام ، طيب الله ثراه ، وجعل النعيم مثواه

قال - اني لأرى رأياً حصيفاً ، وأسمم قولاً شريفاً ، فن أي تلاميذه تكون
وقد سمعنا انهم فريقان - فريق قد اختصه بسياسته ، وفريق قد اختصه بعلمه ،
وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبا لهما بالطاع السعيد ؟ قل - لا علم لي بما تقول .
وقد كنت ألصق الناس بالامام ، أغشى داره ، وأرد أنهاره ، وألتقط نماره ، فما سمعته
ينحوض في ذكر السياسة قببحها الله ، ولكن كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ،
ويتنقل بنا بين مناطق الافهام ، ومنازل الاحلام ، ويسمو بأنفسنا الى مراتب
العارفين بأسرار الخلائق ، وحكم الخالق ، وكان ربما ساق الحديث الى ذكر أحوال
هذا المجتمع البشري فأقضى في شؤون الاجتماع وحاج العمران ، ووقف بنا على
أسرار الحياة ، فان كانوا يسمون تلاميذه احزاباً ، ويقسمون تعاليمه أبواباً ،
فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران

والكنه كان يحتمك بالسياسة مادعت الى ذلك الحال فيرصد حركاتها ، ويصد
غاراتها ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، وأن تقف عنرة في طريق الفضيلة ، فلم يكم
تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها ، حتى اذا ظفر بطليته ، وفاز

برغبته ، واستمد منها ما شاء ، تحت حماية الافتاء ، عطف على العلم بذلك الامداد ، ورد عليه ما سلبت يد الاستبداد ، ولولا أنه كان يماهم جبل الوداد ، وبجاذبهم فضل النصيح والارشاد ، لأصابه ما أصاب حكيم الافغان ، وقضي على أمة النيل بالحرمان قضي النبي عليه الصلاة والسلام فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزيمة الفاروق ، فما غضت الردة من شرف النبوة ، ولا نالت من عصمة الرسالة ، ولبت الاسلام اسلاما - ومات الاستاذ الامام فصبا بعض حزبه كما يدعون ، واستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غش ذلك من كرامة حكيم الاسلام ، ولا مس من سيرة ذلك الامام . حافظ ابراهيم

أول ما سمعته منه في السياسة

أول كلام سمعته منه في هذه المسألة كان في زيارتي الاولى له في ضحى يوم الاحد ٢٤ رجب سنة ١٣١٥ وقد وصلت إلى القاهرة في مساء اليوم الذي قبله ، وقد تكلم معي في عشر مسائل : ستة منها خاصة باصلاح الازهر ، وقد ذكرتها في اول المقصد الثاني من الفصل السادس (٤٤٥)

وكانت السابعة والثامنة منها قوله (٧) اني أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم في السياسة ، وإهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء ، وعليه يبني كل شيء . (٨) ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ... فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك اوطانهم والسير في الارض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار . فقال إنما أنت مشبهاه ملخصاً

ثم عدنا إلى هذا الحديث في يوم الجمعة (٢٠ رمضان سنة ١٣١٥) إذ ذهبت معه إلى مأتم الامير عثمان باشا فاضل شقيق الاميرة نازلي هانم وكنا بداره في الناصرية وقد ذكر لي قبل الخروج منها شيئاً عن حال هذه الاميرة وانها تعرفه ونجله وقد عنيت عقب عودته من سورية بعد انتهاء مدة النفي بالسعي لدى الخديو

توفيق باشا للعفو عنه و كلمت في ذلك لورد كرومر وهو كلم رياض باشا (وكان رئيس النظار) فوعده بذلك ولكن سبق صاحب الدولة أحمد مختار باشا فكلم سموه بذلك فأجابه وأصدر العفو عنه (فالفضل في هذا العفو كان لمختار باشا لا لورد كرومر الذي تبجح به بعد وفاة الاستاذ في كتابه مصر الحديثة)

الاميرة نازلي هانم والسياسة

قلت أسمع عن هذه الاميرة انها ذكية فاضلة سياسية . قال نعم : هي كذلك قلت : لو استعملت هذا الادراك في عمل مفيد لتهديب النساء بتعليم البنات لأمكنها

قال : نعم ولكنها مولعة بالسياسة (كما قلت) فمن سوء حظ المسلمين ان كل من كان فيه استعداد لشيء يشتغل بغيره . فاشتغال هذه الاميرة بالسياسة كاشتغال السيد جمال الدين بها . هو رجل عالم وأعرف الناس بالاسلام وحالة المسلمين ، وكان قادراً على النفع العظيم بالافادة والتعليم ، ولكن وجهه كل عنايته إلى السياسة فضاع استعداده هذا ...

وهذه الاميرة قادرة على تأسيس عمل يفيد في تهذيب البنات . فان من حولها من الاميرات ينفقن نفقات كبيرة إسرافاً وتبذيراً ، ولو انها حملتهن وأمثالهن من النساء الغنيات على انشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن واستحضرت لهن معلمات من الاستانة أو سورية لكان خير عمل عمله وما كن ليخالفنها . فاذا لم يأت بالفائدة المطلوبة كان غرساً أو بذراً تجنى ثمرة ولو بعد حين قال : وطالما ذاكرتها بهذا المعنى وخطأها في الاشتغال بالسياسة وكان يسوءها هذا مني لان النساء (ولا سيما الاميرات) يحببن الطاعة وعدم المماضة لهن في آرائهن . وأنا لا أجاريها في احاديثها السياسية فتغضب . واذا حضر مجلسها غيري وتكلمت معه لا ترضى أن أكون ساكناً فتحملني على المشاركة وأنا لا أحب أن أجاريها في شيء اعتقد خطأها به . وقد قلت لها يوماً : إن سكت لأرضيك وإن تكلمت لأرضيك (أي لاني أعارض) فكيف العمل ؟

(اقول : ثم حضرت معه ومع سعد باشا وغيرهما مجلسها بدارها ، وكانت
برزة تضع على رأسها قناعا وتتكلم بطلاقة وتحتج)

ثم عدت معه الى مشرب السيد جمال الدين

قلت : ان السيد جمال الدين رأى ان طريق التعليم والتربية بعيد وان

الاصلاح الاقرب يكون باصلاح الحاكم او الحكومة

قال : لو انه تقرب من السلطان بمقدار تمكنه من حمله على اصلاح التربية

والتعليم من غير تعرض لفساد حاشيته ولا تدخل في شؤونهم - بل مع مساعدتهم

على اغراضهم الخسيسة - لكان حسنا ولقد ان ينفذ ما ربه - مثلا - يحسن للسلطان

ان يصدر إرادته باصلاح الوعظ في الجوامع والتعليم الديني في المدارس ، ويقترن

هذا السعي باعطاء أبي الهدى خمسمائة جنيه واعطاء نيشان لابنه أو لآخيه ، فإذا

رآه أبو الهدى بخدمة فيما هو منهم عنده فاما أن يواتيه ، وإما ان لا يناويه ، وهلم جرا

لكنه تدخل في شؤون هؤلاء الفاسدي الطباع والاخلاق ، وإصلاحهم من

المستحيلات ، فأخفق مسعاه ، اها الحديث وقد نقلته كما كتبت في ذلك اليوم

كتاب الاستاذ الامام إلى السيد

أقول والشيء بالشيء يذكر ان الاستاذ الامام كان كتب الى السيد كتابا

عقب استقراره في الاستانة يدلي فيه بمثل هذا الرأي الذي ذكره لي من استحسنت

مداراة أعدائه الكثيرين في الاصلاح ، واختار فيه أسلوب الكناية والتعريض

والرمي إلى الغرض من مكان بعيد ، لعدم ثقته بأمانة البريد ، ولأسباب المكتوبات

التي ترسل إلى السيد جمال الدين ، ولم يضم امضاءه في آخره ، لان السيد يعرف

خطه دون مراقبي البريد في الاستانة ، فغضب السيد غضباً شديداً ، وعاتب الاستاذ

عتاباً قاسياً ، بل تهريفاً عاتياً ، لتوهمه ان الذي حمل الاستاذ على ذلك الخوف على

نفسه ، وفاته ان المرء في مصر لا يخاف على نفسه إلا أن يكون من نفسه ، وانما

حمله على الاتهام ، التعمية على مراقبي البريد اللثام ، والاستاذ لا ينقص عنه في

الشجاعة ، ولكنه لا يغلو فيها إلى طرف التهور

جواب السيد الهام للاستاذ الامام

كتب اليه كتابا يقول فيه بعد الدعاء له بتثيت الجأش، ويرميه فيه بالجزع والجن : تكتب ولا تمضي وتمقد الانغاز ؟ من أعدائي ؟ وما الكلاب كثرت أو قلت ؟ انك في آفق مكفهر ، لا يميز فيها الخبيث من الطيب ، ولا الشريف من الزنيم ، ولا الافين من الكيس ، وامامك الموت ، ولا ينفعك الحذر من الاول ولو كنت حريصاً على مقامك ، ولا ينجيك الخوف من اثاني ، فلا تضيق على نفسك ، فكن فيلسوفا يرى العالم أعرية ، ولا تكن صديقاً هلوفا

الرسالة ما وصلت ، ولا بدت لنا موضوعها وجلال منك قوى الله قلبك . وأما تمثال الكمال والجمال حضرة البرنيس التي لها من قلبي المنزل الابهي ، والمقام الاسنى ، فلا أعلم من أمرها شيئاً لالها ولا عليها ولا سممت »

(يعني بالبرنيس الاميرة نازلي هانم وقد سأله الاستاذ عنها إذ كانت في الاستانة و كان السيد جمال الدين يريد أن يطالب لها من السلطان وسام الشفقة المرمع واستشار في ذلك بعض زائريه من المصريين فلم يمارض فيه إلا محمود بك سالم قال له : يا مولاي السيد ان هذا يسوء افدينا الخديو لانه يراه من حقه)

وفي آخر الكتاب تعريض « بالنتيب ومحبه ، وكليهما وجروه » وانه لا يأسف ان كانوا من فلتات الطبيعة في خروجهم عليه ، وعلل ذلك بقوله « لان لي اذن في مصر من يصدع بالحق ، وبزبح الباطل ، ويدوس بجرموقه عرنين كل أفاك أثيم » اه الكلام ، وما بدمه إلا السلام ، وهل كان له بمصر إلا الاستاذ الامام ؟ هذه الحدة وسرعة الغضب التي هي عيب السيد الكبير الاكبر ، هي التي كانت سبب فشله في أعماله الكبرى كما قال وارث علومه وهمته وأفكاره وأكبر أنصاره الاستاذ الامام في ترجمته له في حال حياته لما وصفه بها « وكثيراً ما هدمت الحدة ، ما بذته الفطنة »

وقد قلت فيها من المقصورة الرشيدية :

واقسما الاصلاح شقين

فذلك للسياسة التي قضى بها واما وطراً فما قضى

وايتها ودعت الشيخ كما ودعها إذ عاذ منها وقلا

رأيه في مشروع مستر بلنت

(في استقلال مصر بمساعدة الاحتلال)

نشرت جريدة اللواء في أواخر سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م ترجمة كتابين أرسلهما الإمام إلى صديقه مستر وفرد بلنت جوابا عن أسئلة سأله عنها في الموضوع الذي نشره فيما يلي . وذكرت جريدة اللواء أنها نقلت هذين الكتابين عن (كتاب التاريخ السري للاحتلال) الذي ألفه بالانكليزية مستر بلنت هذا ، وتلقاهما المؤيد عن اللواء . ولكن هذا الكتاب ترجم أخيراً باللغة العربية ولم نجد فيه ذكراً لهذين الكتابين ولا لموضوعهما . وقد كثر اللفظ فيهما عند نشر الجريدتين لهما ، ورجع الناس إلي يسألوني فيما اختلف فيه الكاتبون والمتكلمون في ذلك ، فنشرتهما وبينت رأبي فيهما في الجزء الحادي عشر من المجلد العاشر من المنار (ص ٨٣٤) وهذا نصه :

كتابان سياسيان

(للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده)

(أو مطالب مصر « الادارية » من انكثرا)

المستر بلنت الانكليزي المستشرق الشهير كتاب سماه (التاريخ السري للاحتلال) جاء في الطبعة الثانية منه ترجمة كتابين أرسلهما اليه صديقه الاستاذ الامام جوابا عن أسئلة سأله عنها ، وقد ترجمتهما جريدة اللواء عن الانكليزية إلى العربية ، وتلقاهما عنها المؤيد . وهذا نص ما نشرته الجريدتان :
سأل المستر (وفرد سكارن بلنت) المرحوم المفتي رأيه في الحال السياسية الجديدة التي نشأت في مصر عن إبرام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا وانكثرا عليه ، فأجابه فضيلته على ذلك السؤال في كتاب بعثه له في يوم ٦ مايو سنة ١٩٠٤ ، هذا نصه مع تصحيح لغوي قليل :

(الكتاب الاول في شكل الادارة بمصر مع الاحتلال)

« ان رأيي في الادارة المصرية اذا بقيت الخديوية في عائلة محمد علي هو كما يأتي :

١ - أول وأهم قاعدة أساسية في تلك الادارة هو انه يجب أن لا يكون للجناب الخديوي أي سلطة تخوله التداخل في أعمال الهيئات التنفيذية للنظارات ولا إدارة الاوقاف والازهر ، ولا المحاكم الشرعية ، بمعنى أنه لا ينبغي أن يجعل (لتداخله الشخصي) أثر ما في الادارة المصرية مطلقاً

٢ - يجب أن يشكل مجلس على نسق مجلس الشورى الحالي بوجه التقريب ولكن على نظام أفوم، وترتيب أمثل منه، وينبغي أن يكون الوزراء وكبار الموظفين أعضاء فيه . وليس هناك ما يمنع من انتظام بعض كبار الموظفين من الانكباذ في الحكومة المصرية في سلك أعضائه ، ويكون من اختصاص هذا المجلس سن القوانين الجديدة

٣ - ينبغي أن توضع حدود لتداخل السلطات التنفيذية الذي يدعيه الموظفون الانكليز كالمستشارين وغيرهم لانفسهم ، حتى لا يكون الموظفون المصريون مجرد آلات صماء لا إرادة لهم ولا رأي يبدونه من تلقاء أنفسهم

٤ - أن يشكل مجلس إدارة في كل نظارة من النظارات كالحقانية والداخلية مثلاً، ينتخب أعضاؤه بواسطة المجلس العام المتقدم الذكر، وتكون وظيفة كل مجلس من هذه المجالس الادارية البحث في تفصيلات المسائل المهمة ، ووضع المشروعات والقوانين والنظامات لكل مصلحة من مصالح الحكومة

٥ - أن يوضع قانون لنظارة المعارف يكون اجبارياً بالنسبة للشؤون المتعلقة بالمعارف العمومية والتعليم ، وينبغي أن ينحصر قسم من الدخل العمومي للقيام بنفقات التعليم يكون كافياً لفتح مدارس للتعليم العام ، وأخرى للتعليم الفني تسكني لسد حاجات البلاد

هذا هو رأيي بوجه عام قد أبديته لكم »

فكتب له المستر (بلنت) بعد ذلك بشهرين يسأله ان يتوسع في آرائه هذه

ويضع نموذجاً للدستور المروم إدخاله في مصر ، فأجابه إلى طلبه بعد طول روية ومشاورة أصدقائه في ذلك وأخذ آرائهم في هذا السؤال وسؤال آخر عرضه عليه المستر بانث أيضاً يتعلق بما ينبغي أن يتخذ من الاحتياطات ضد ما يتوقع حدوثه من عدم ثقة الجناب الخديوي بالدستور كما وقع على عهد المغفور له والده مما قضى على الآمال الوطنية ، واستفسر منه أيضاً عما إذا كان من الممكن أن يقبل المصريون تعيين أمير أوربي بصفة وال تحت سيادة جلالة السلطان إذا صعب الحصول على أمير من العائلة الخديوية متشبع تشبهاً تاماً من الأفكار الدستورية ، فأجاب المرحوم المفتي على جميع ذلك بالكتاب الآتي

(الكتاب الثاني في نموذج الدستور والاحتياط لضمانه)

صديقي العزيز المحترم

أهديك عظيم تحبتي وأعتذر لك عن إبطائي في الرد على كتابك المؤرخ في ٨ يونيه فاني كنت مشغولاً جداً بالامتحان في مدرسة المعلمين والازهر وغيرهما ، ولم أجد وقتاً خالياً لأجيبكم فيه على كتابكم هذا ، لاسيما وان موضوعه دقيق للغاية ويعوزه مزيد ترو ، ودقيق نظر

وقد فكرت طويلاً وتذاكرت مع بعض أفاضل المصريين فوجدتهم مجمعين على ان من أول الضروريات لحسن الادارة المصرية هو قيام الحكومة الانكليزية بضمان النظام في البلاد وكفالاته ، ومعنى ذلك أنها تراقب استتبابه والمحافظة على استمراره وعلى الدستور الذي يمنح لمصر ، وأن لا تدع ذلك الدستور عرضة لتدخل الخديويين ومتى تمت هذه الضمانة ومنح الدستور لا تبقى حاجة إلى نزع سلطة الحكم من عائلة محمد علي ولا إلى تعيين أمير أوربي فان تعيين أمير أوربي لا يصادف قبولا من الاهالي ولا يساعدهم على تحسين حالتهم

واما الدستور فينبغي ان يراعي فيه ما سأذكره الآن من المسائل الآتية بصفة خاصة :

(١) أن تناط جميع شؤون الحكومة بسلطة من السلطين الآتين :

أولاً - تناط بسلطة تشريعية تسن القوانين الادارية والقضائية
ثانياً - تناط بسلطة تنفيذية تكلف بتنفيذ تلك القوانين وان تحصر
السلطة التشريعية في مجلس نواب أو وكلاء يزيد عدد أعضائه عن أعضاء مجلس
الشورى الحالي، وتكون دائرة اختصاصاته الحالية بحيث تحترم قراراته وتكون واجبة
التنفيذ وأن لا يسمح للوزراء بعدم احترامها ومراعاتها مهما كانت ظروف الاحوال
وهذا المجلس هو الذي يسن القوانين كافة وتنتخب الوزارة من بين أعضائه
وأن تحصر السلطة التنفيذية في الوزارة التي تخول حق تقديم مشروعات
القوانين بحيث لا نستأثر بسنّها وحدها، لان حق سنّها هو من اختصاص مجلس النواب
(٢) أن تناط جميع مسائل الحكومة التي ليس لها ارتباط بسن القوانين
بالوزارة حتى منح الرتب والنياشين ، وان لا يترك من اشغال الحكومة
شيء مطلقاً للجناب الخديوي ، وأن يناط بها ايضاً امر المصالح المختصة بالتعليم
الديني وغيره . والمحاكم الشرعية والاهلية وتوزيع الرتب والنياشين دون أن
يسمح لسموه بأي تدخل فيها مطلقاً

(٣) اذا فرض ان كان بعض الوزراء من الانكليز و كان لهم صرءوسون من
المصريين فانه ينبغي أن يعطى هؤلاء المصربون أو الوزراء الثانويون
سلطة تسمح لهم بان يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت
مراقبة الوزراء الاصليين بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد العوبة في أيديهم
كما هو الحال الآن

وينبغي أن تلغى وظائف جميع المستشارين اكتفاء بهؤلاء الوزراء وفي هذه
الحالة تقضي الضرورة بان يكون رئيس الوزراء مسلماً بحيث يكون مركزه الرسمي
محدوداً بوظيفة الرئاسة دون أن يشغل رئاسة نظارة من نظارات الحكومة

(٤) ان يكون جميع الموظفين الآخرين في الحكومة من المصريين أعني
ان المديرين ووكلاء المديرات وقضاة المحاكم الاهلية ابتدائية كانت أو استئنافية
وأعضاء النيابة وغيرهم يكونون مصريين ويجوز تعيين انكليز كمفتشين وتعيينهم
ايضاً في بعض وظائف في المصالح الهندسية والعارف وفي الوظائف الصناعية

التي يحتاج الامر فيها إلى معارف خاصة اذا لم يوجد مصري تتوفر فيه الاحاطة بتلك المعارف الفنية

على انه يجب على كل حال أن يمحصر عمل أولئك الموظفين الاجانب فيما هو داخل ضمن دائرة اختصاصهم فقط وأن يكونوا خاضعين لمراقبة الوزراء بحيث لا يخلولون أقل سلطة ادارية او قضائية تفضي إلى اضعاف نفوذ الموظفين المصريين.

(٥) ان يخلو أعضاء مجلس النواب الحق في ان يسألوا النظار عن تنفيذ القوانين وينتقدوهم على ما يفرط منهم من الخطأ أو يقع من الخلل في الاعمال ، ويتحتم على النظار أن يبينوا أسباب ما يقومون به من الاعمال ، واذا وقع خلاف بين النواب والنظار يوكل أمر حل ذلك الخلاف إلى لجنة تشكل من خمسة أعضاء من مجلس النواب ينتخبون بالاقتراع السري ، وخمسة آخرين من أعضاء محكمة

الاستئناف ينتخبون مثلهم بالاقتراع السري ، ورئيس المجلس ورئيس النظار ورئيس محكمة الاستئناف ويكون حكم هذه اللجنة بالاغلبية المطلقة

ويجوز زيادة أعضاء هذه اللجنة باضافة أعضاء آخرين عليها من مجلس النواب ومحكمة الاستئناف

واني أعتقد انه لو وضع نظام دستوري على هذا النمط وضمته الحكومة الانكليزية لقام بحاجة البلاد ولنالت حكومتها استقلالاً لم تعرف له مثيلاً وينبغي ان لا ننسى إعادة تنظيم شؤون المعارف والتعليم فان هاتين المسألتين هما من أمس الامور التي يبدأ مجلس النواب بمباشرة الاشتغال بها الامضاء

محمد عبده

وبعد فراغه من هذا الكتاب وضع في ذيله الحاشية الآتية

« قد نسيت ان أتكلم على الحرية فأقول : ان السردار الانكليزي وبعض ضباط الانكليز يبقون في الجيش المصري ولكن يجب أن يشغل المصريون ما بقي من وظائف الجيش واذا فرض وقامت بعض صعوبات بشأن ذلك ورأت الحكومة الانكليزية وجوب وجود قواد انكليز فيه أعني « باشاوات » فلا ضرر في ذلك »

﴿ قول المنار في الكتابين ﴾

قد كثر حديث الناس في هذين الكتابين لما نشر في جريدة اللواء ثم المؤيد وغيره ثم اتسع مجل الآراء فيهما بعد أن استنبط اللواء منهما ما استنبط وخلصهما المؤيد بما لخصهما به ، وزعم أن ملخصه هو رأي الكاتب وناهيك بتقليد الجرائد في دهاء هذه البلاد

قال المنتقدون ان الكتابين يدلان على بغض كاتبهما للأسرة الخديوية كافة وللأمير الحاضر خاصة . وقالوا ان فيهما تحسباً للظن بالانكليز ، وقالوا بل فيهما مشايعة لهم . وقالوا هذا رأي الكاتب في الدستور المصري وأطلقوا: أي انه لو كان الامر كله بيده لرضي لبلاده بما كتبه فيهما . وقالوا ان كاتبهما على غير بينة بالقوانين الاساسية للأمم . وأغرب ما قالوا وما كتبوا هو ما أنبأ عن استنكارهم سلب السلطة الشخصية من الخديويين بمحصر السلطة في مجلس النواب ومجلس الوزراء !! ومن هم المستنكرون لذلك؟ هم الذين يزعمون انهم طلاب المجلس النيابي والحكومة الدستورية لمصر !!! يا الله العجب

وقد استحسن كثير من العقلاء المستقلين المطالب التي في الكتابين واستدلوا بهما على غيرة كاتبهما على بلاده وأهلها وسميه في اصلاح حالها مرأً وجهرأً من كل طريق وكل منفذ ، وأنكر آخرون صحة نسبة الكتابين إلى الاستاذ الامام وقالوا انه ليس فيها شيء من روحه ولا من أسلوبه

واننا نبين حقيقة معناها الذي حرفته الالهواء عن موضعه الذي وضعته فيه الظروف والاحوال بعد تمهيد نمهده لذلك فنقول :

(١) ليعلم القارئ قبل كل شيء أن ما نشر في الجرائد ليس هو الذي كتبه الاستاذ الامام بل هو ترجمة لاحد محرري جريدة اللواء عن الانكليزية . وما في الاصل الانكليزي مترجم عن العربية . فاذا ظهر الاصل العربي الذي يقول حافظ افندي عوض انه رآه عند مؤلف الكتاب يكون مراد الكتاب اظهر وأصح والحكم عليه أعدل

(٢) ان المراد منهما لا يفهم تمام الفهم إلا بترجمة ما كتبه المستر بلنت إلى الاستاذ الامام بالحرف لان الفتوى تكون على حسب السؤال كما هو مشهور ومعلوم
(٣) قد علم مما كتب اللواء والمؤيد أن موضوع سؤال مستر بلنت يتعلق « بالحالة السياسية الجديدة التي نشأت في مصر عن ابرام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا وانكلترا عليه » فما رآه كان خاصاً بتلك الحالة التي أمنت فيها انكلترا معارضة أوربا لها في مصر . فاذا تذكرنا أن كل ما فعلناه من مقاومة الاحتلال أيام كان ضلع أوربا كلها معنا ولا سيما فرنسا لم يزد إلا قوة ورسوخاً فأننا يمكن أن نعقل أن تلك المطالب التي طلبها الاستاذ الامام بعد اتفاق أوربا مع الاحتلال علينا كانت كبيرة جداً وان الانتقاد على هذه المطالب ينبغي أن يكون محصوراً في كثرتها أو عظمتها حتى جعلت نجاح انكلترا بوفاق ابريل ١٩٠٤ نجاحاً لمصر وحرماناً لانكلترا من معظم ما كان لها من النفوذ والسلطة

(٤) ذكر اللواء والمؤيد من موضوع سؤال بلنت كلمة « الدستور الروم إدخاله في مصر » فلم أن هنالك مشروعاً للدستور يمد في انكلترا فما هو وما موضوعه ؟ أو ليس هذا نصاً في الموضوع صريحاً في أن ما كتبه الاستاذ الامام في جواب مستر بلنت ليس مشروعاً وضعه لما يجب أن يكون عليه بلاده مطلقاً بل هو مطالب وتعديلات لدستور معين يبحث فيه الانكليز أنفسهم؟ ونحن إلى الآن لم نقف على مشروع دستوري لهم إلا مشروع لورد كرومر بإنشاء مجلس تشريعي لمصر مؤلف من جميع الاجانب . وهل يمكن حينئذ أن يطلب لمصر من انكلترا أكثر مما طلب الاستاذ الامام ؟ وقد تقدم أن ما طلبه كثير

(٥) ذكر اللواء والمؤيد أن مستر بلنت سأل الاستاذ الامام بالتصريح عما ينبغي اتخاذه من الاحتياطات لمنع ما يتوقع حدوثه من عدم ثقة الخديوي بالدستور كما وقع في عهد والده أي بأن يكون الدستور مأموناً عليه من حل الخديوي له، بلهـ تصرفه فيه باستمالة أعضائه إلى ما يريد بالرتب والنياشين أو بغير ذلك . وهذا السؤال لا يعقل له وجه إلا إذا كان واضحاً ومشروع ذلك الدستور لا يرضون أن يكون للخديويين سلطة عليه، بل لا يعقل وجود دستور حقيقي يكون عرضة لعبث السلطة

الشخصية به . وهل يمكن أن يجاب عن هذا إلا بتمدد انكلترا بحماية الدستور والحال ان انكلترا تكون هي الواهبة له لتأمين بحسن الادارة المصرية تحت مراقبتها على طريق الهند وتنال هي شرف إصلاح مصر وتنظيمها (ان صح ذلك ولم يصح) (٦) ونقل اللواء فالمؤيد ان مستر بلنت سأل أيضا هل يقبل المصريون تعيين وال أوربي عليهم تحت سيادة السلطان ؟ وهذا السؤال مبني على عدم ثقة اولئك المشتغلين بمسألة الدستور المصري بحكم الامراء الشرقيين الذين يعتقدون أنهم أشربوا في قلوبهم الاستبداد حتى لا يكاد يوجد فيهم من يميل إلى الحكم الدستوري ويرغب فيه . فهل تنتقد إجابة الاستاذ الامام عن هذا السؤال بأنه لا حاجة إلى حاكم أوربي مع وجود الدستور المضمون ومنع الخديويين من السلطة الشخصية ؟ وهل من الانصاف والحق أن يعد طلبه إبقاء الامارة في بيت محمد علي دليلا على بغضهم ؟ وهل يستنكر عاقل الاحتجاج على من يريدون تولية أمير أوربي علينا بكوننا لا تقبل ذلك وكونه هو لا يمكن أن يساعدنا على تحسين حالنا ؟ ما أغرب الرأي الذي يمل به الهوى وتروجه الاغراض الخسيسة

﴿ تلخيص المطالب التي طلبها الاستاذ الامام لمصر ﴾

من الانكليز فيما كتب الى مستر بلنت

(١) أن يكون للمصريين مجلس نيابي تنحصر فيه السلطة التشريعية أي وضع القوانين كما لو يكون له حق سؤال الحكومة عن تنفيذها ومحاسبتها على خطأها (٢) أن يكون للمصريين سلطة تنفيذية وهي الوزارة المسؤولة وتناط بها جميع أمور الحكومة لا يترك منها للخديويين شي خاص باشخاصهم كما هو شأن الحكومة النيابية في أوربا لاسيما انكلترا

(٣) أن يكون رئيس الوزراء مسلما لا كما كان من قبل تارة وتارة (٤) أن يكون جميع موظفي الحكومة من الديرين ووكلاء المديريات والقضاة ورجال النيابة وغيرهم من المصريين بحيث لا يبقى من موظفي الانكليز إلا بعض المفتشين ومن لا يوجد مصري يقوم مقامه في عمله

(٥) تنظيم شؤون المعارف والتعليم وجمالهم - أهم الامور التي يبدأ مجلس النواب بها

(٦) قيام المصريين بجميع وظائف الجيش بحيث لا يبقى فيه من الانكليز إلا السردار وبعض الضباط

(٧) إلغاء وظائف المستشارين المسيطرين على الحكومة الآن

(٨) على انكلترا أن تكفل هذا الدستور وتضمن تنفيذه بأيدي المصريين وفسر ذلك بأن تراقب استتبابه والمحافظة عليه مراقبة فقط حتى لا يبطئه الخديويون هذه هي المطالب الايجابية الاصلية وأنى لمصر بالوصول اليها وإلى الآن لم تطمع الاحزاب بمثلها فلم يطلب حزب ولا جريدة شيئاً يتعلق بالعسكرية ولا يعقل أحد كيف يكون الاستقلال الحقيقي بدون جند وطني يقوم بشؤون الوطنيين وهناك مطلوب مهم مبني على فرض وقوع شيء لا يؤمن وقوعه مادام للانكليز شأن في سلطة البلاد، بل قد وقع مثله في عهد اسماعيل باشا وهو جعل بعض الوزراء من الانكليز، طلب الاستاذ على فرض وقوع ذلك أن يكون للمرءوسين للوزير الانكليزي من المصريين سلطة يفصلون بها في المسائل المتعلقة بالدين وما أشبه ذلك ولا يكونوا آلة في ايدي رؤسائهم من الانكليز . وهذا مطلب لسنا بمدركه اليوم فانه لا يمكن لرئيس ولا مرءوس في الحثانية أن يجري في المحاكم الشرعية أمراً لا يرضاه المستشار القضائي .

وأغرب ما سمعت من بعض الاغرار « البسطاء » ان الكتابين تضمنتا طلب جعل بعض الوزراء من الانكليز فلما قيل له انه ليس فيهما شيء من ذلك وانما فيهما مطلب مهم مبني على فرض وقوع ذلك بالرغم من انهما كان ينبغي ذكر هذا الفرض والتقدير لانه يذكرهم بهذا الامر !! فتمجب أبها القارى من هذه السذاجة والفرارة والغفلة عن الواقع والاهتمام بالالفاظ دون الحقائق ومما تقدم من البيان يعلم القارى انه ليس في الكتابين شيء ينتقد . وقامت أشهر اعضاء الحزب الوطني حماسة وإخلاصاً يقول: إنه ليس فيهما شيء ينتقد إلا جعل انكلترا كافلة للدستور، لان هذا بمعنى الحماية ولكننا لانثلاً

لأجله في إخلاص المرحوم الشيخ : فقلت له كان يصح ان يقال هذا لو كانت هذه الكفالة من مواد الدستور وكان الدستور مصدقا عليه من الدولة العلية، فيكون حينئذ حقا رسميا لها . وليس فيما كتب شيء من ذلك وإنما الموضوع أن تسمح لنا انككترا بهذا الدستور وتكتفي هي بدلا من القبض على أزمة السلطة فينا بمراقبة سيرنا على الدستور والنظام المطلوب ولا تسمح للخديويين أن يغيروه إذا حاولوا ذلك . ومعلوم أنها لا تسمح لهم الآن بتغيير ما في التشريع ، ولا مداخله ما في التنفيذ ، مع قبضها على كل شيء ، وعدم تحماتها لتبعة شيء ، فأني الامرين أفضل ؟؟ وعلى ذكر رأي عضو الحزب الوطني ان تلك العبارة التي انتقدها من الكتابين لا تدعو إلى الشك في إخلاص الكاتب : نذبه إلى سيئة فاشية فينا هي من أقبح السيئات وأشدّها ضرراً في الأمة، ألا وهي اتهام كل من نراه خطأ في مسألة من المسائل العامة بسوء النية وعداوة البلاد وبعض الأمة وحب الانكليز ومساعدتهم على ما يقصدون بنا من السوء !! وتفرع عن هذه السيئة سيئة أكبر منها وهي اختراع بعض الناس الخطأ أو تكلفهم استنباطه من كلام من يكرهونه لأجل إصاق تلك التهمة به .

فشو هذه السيئة مع أختها أعظم أسباب تفرق الأمة وضعفها وانقسامها على نفسها « كما يقولون » لاسيما بعد توجيه الجرائد هذه التهمة إلى الجماعات والأحزاب . وليت شعري أي قيمة لهذه الأمة إذا صح ما ترجف به بعض الجرائد من اتهام حزب الأمة برمته بعدم الإخلاص للأمة وبمشايعة المحتلين عليها بعد الأرجاف بأن ذلك النابغة العظيم « الأستاذ الإمام » الذي اعترف بنبوغته الشرق والغرب كان غير مخلص للأمة أو لأميرها ؟ بل أي تعريض بالأمير أشد من إثبات ان نابغي المستقلين من أمته يقاومونه ، وأن جمهوراً كبيراً من سراة الأمة يؤلف حزبا وينشيء جريدة لمقاومة نفوذهم ؟؟

قد يقول سائل ان النار قد أبرز هذه المطالب بأسلوب يظهر منه مالم يظهر من ترجمة الكتابين على كونه لم يأت بشيء جديد فهلا كتب المرحوم المفتي كتابه بهذا الأسلوب الذي يتجلى فيه الإخلاص لمصر والتفاني في خدمتها دون

ذلك الاسلوب الذي يلوح منه إرضاء الانكليز أو استرضائهم إن لم نقل محاباتهم وجوابه من وجهين « أحدهما » أننا لم نطلع على ما كتبه المرحوم بنصه فنحكم على أسلوبه « وثانيها » أنه لم يكتب لمتن على قوه بحبه لهم ومقاومته لمحتلي بلادهم ، ولا ليظهر للانكليز أنه مبارز لهم ، وإنما كتب لصديق له يسمى في خير مصر . على أنه لو كتب للحكومة الانكليزية نفسها لوجب عليه في شرع البلاغة أن يجعل تلك الكتابة بأسلوب يرجى قبوله وعدم اتهام صاحبه بالعداء والمقاومة لها . ولكل مقام مقال

رأى أحد المنوك في النوم أن أسنانه سقطت فعبّر له الرؤيا معبر بقوله : أن جميع أهلك وأقاربك يموتون في حال حياتك ، فاستاء الملك وعاقبه عقاباً شديداً . ثم جيء بمعبر آخر فقص عليه الرؤيا فقال له تأويل هذه الرؤيا أن الملك يكون أطول أهله عمراً . فسر الملك وأجازه اجازة سنية . فالبايع يخاطب كل مخاطب بما يرجو أن يبلغ به مراده من نفسه فمن أصحاب الجرائد من يطلب من الانكليز مطالب بصفة الأمر صاحب السلطان ، وما مراده إلا إرضاء من يقرأ هذه المطالب فيحمد كاتبها ويحمله لأنه استعلى على بريطانيا العظمى ، فأناال الأمة من الاستعلاء عليها بالقول ، ماتلوهو به عن الفخر بالاستعلاء أو المساواة بالفعل . ولكنه لا يخطر في باله الاسلوب الذي يمكن أن يكون مقنعاً أو مقبولا عند الانكليز لأنه لا يريد منهم شيئاً

لو كان الاخلاص والغيرة على قدر كبر المطالب وإن كانت من المحال ، والتعزز على القوي يتحقق بزخرف القول وإن كان غروراً ، لا يمكن كل كاتب أن يكتب كل يوم في اثبات اخلاصه وغيرته وتعززه نحو هذه العبارة : إني آمرك أيتها الدولة الانكليزية الظالمة المعتدية بأن تردي مصر إلى المصريين ، وقبرص إلى الدولة العلية . بل ان تردي الهند إلى النوابين والرجاوات من أهلها ، وأن تارزي إلى جزائر كاتارز الحية إلى ححرها . فإن لم تحفظي شرفك وتمثلي هذا الامر فانتفق مع أعضاء بعض برلمانك فنؤلف منه لجنة تشاغب المجلس أحياناً في هذه المطالب فتعززه هزاً ، وتؤزّه أزاً ، وتهز الشعور الوطني في هذه البلاد هزة تميد لها جزائر بريطانيا ميدانا ، وتزلزلها زلزالا ، ربما كان من ورائه البلاء النازل ، والخسف العاجل ؟؟

﴿ رأيه في الدولة العثمانية والتعليم فيها ﴾

قد فصل الاستاذ الامام رأيه في الدولة وما يجب عليها من الاصلاح في لائحة كتبها في بيروت سنة ١٣٠٤ ورفعها إلى شيخ الاسلام وقد أشرنا اليها آنفا بعد أن ذكرناها في المقصد الثاني من الفصل الخامس (ص ٣٩٢) وقد بين في هذه اللائحة الخطر الذي يندر الدولة إذا لم تبادر إلى اصلاح التعليم باستحواذ الجهل على أكثر المسلمين، ودخول العلم عليهم من طريق الاجانب أصحاب المطامع في البلاد، وقد قال في مقدمتها (ص ٥٠٦ من الجزء الثاني والطبعة الثانية) ما نصه :

« ان من له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكفالة لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها ، وانا والحمد لله على هذه العقيدة ، عليها نحيا وعليها نموت

» ان للخلافة الاسلامية حصونا وأسواراً ، وان أحكم أسوارها ما استحکم في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحمية للدفاع عنها ، ولا معقد للثقة ، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين ، إلا ما أتاهم من قبل الدين ، ومن ظن أن اسم الوطن ، ومصلحة البلاد ، وما شا كل ذلك من الافاظ الطنانة يقوم مقام الدين في انهاض الهمم ، وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها ، فقد ضل سواء السبيل

» المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم ، وأنحت الايام على معاهد إيمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيه من الجهل باصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الاخلاق ، وانتكاس في الطبائع ، وانحطاط في الانفس ، حتى أصبح الجمهور الاعظم أشبه بالحيوانات الرتع ، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ، ويتنافسون في اللذات البهيمية ، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته أوكانت العزة لسائد عليهم من غيرهم ؟ ثم ذكر تدخل الاجانب ومدارسهم وسوء تأثيرها وخطرها على الدولة - أو يتداركها أمير المؤمنين وتدركها قوته ، وانتقل من ذلك إلى وصف التعليم الاسلامي فقال (ص ٥٠٨)

«أما المكاتب والمدارس الإسلامية فقد كانت أما خالية من التعليم الديني جملة، وأما مشتملة على شيء قليل منه، لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر، وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات، مع الجهل بالمدلولات، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرؤوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها^(١) خلوا من الدين، وجهالاً بمعائده، منكبين على الشهوات، وسفاسف المذات، لا ينجشون الله في سر ولا جهر، ولا يراعون له حكماً في خير ولا شر، وانحط بهم ذلك إلى الكلب في الكسب، والانصباب على طلب التوسعة في العيش، لا يلاحظون فيه حلالاً أو حراماً، ولا طيباً أو خبيثاً، فاذا دعوا إلى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا إلى الراحة، ومالوا إلى الخيانة، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

» وبالجملة فإن ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا من عصم الله، وهم قليلون. ولهذا نراهم يفرون من الخدمة العسكرية، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم. ونرى غيرهم من الأمم يتسابقون إلى الانتظام في سلك جنديتهم، مع أنها غير معروفة في دينهم، بل مضادة لصريح نصوصه، ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم إذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة، والانفاق على مصالح الأمة، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم، بعكس ما نرى في سائر الأمم. هكذا انطفاً من المسلمين مصباح العقل، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها، ولا يهتدون إلى جامعة يلجؤون إليها، وتقطع ما بينهم (تحبسهم جميعاً وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) ولا حول ولا قوة إلا بالله

«هذه أحوال نذكر منها القليل، والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير، نذكرها مقرونة بانقاس الأسف وصعداء الحزن، لما نعلم أن الأجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم، وأغابهم شاذة، ويفترسون ناداتهم وجمهورهم نادة، ومسارعة الفساد فيهم مشهورة، يحسن بازديادها كل سنة عما قبلها، وإن عواقب ذلك لتخشى، ولا حول ولا قوة إلا بالله * أه المراد منه

(١) ليتأمل القراء هذا الذي كتب منذ نصف قرن وماذا كان من أثره في الدولة والخلافة بأيدي هؤلاء العسكريين وأمثالهم

نم بين ما يجب من التعليم الديني الذي يدرأ الخطر بدرجاته الثلاث والعلوم والكتب التي تتخذ له ، وعقد فصلاً خاصاً للدعاة والمرشدين فيراجع هذا كله في جزء منشأته

﴿ رأيه الاخير في الخلافة العثمانية والدولة والترك ﴾

لم يجد الامام لنصحه سامعاً ، ولا لندائه مجيباً ، وظلت الدولة تتدهور كل عام في هوة ، وتقع في مأزق من نفوذ الدول الاجنبية ، وكثر المتفرنجون في الترك وغيرهم من شعوبها ، فلم يبق لاسم الخلافة ولا للاسلام نفسه مكانة من أنفسهم ، وتجرؤا على الطعن في السلطان والكيد له في العاصمة وفي البلاد الاوربية ، واشتد السلطان في مطاردتهم ، والانتقام ممن يعجز عن استمالتهم ، فانقطع رجاء الاستاذ الامام من هذه الدولة ، ومن إمكان الاستفادة من منصب الخلافة . واني أذكر هنا أول ما سمعته منه في ذلك

زرتة في الساعة العاشرة قبل الظهر من يوم الجمعة (٢٩ رجب سنة ١٣١٥) عن موعدة في زيارة قبلها ، وكان هذا هو اليوم الخامس من وصولي إلى القاهرة فاستقبلني في حجرة النوم وكان يكتب فترك الكتابة لاجل الحديث ، وجاءه بريد الصباح وبمناسبة ما فيه من الجرائد تكلمنا في فوائد الجرائد ومذاهبها وذكرت طعن جريدة المقطم في الدولة العثمانية وتأثيره في كثير من الناس في سورية على قلة المطلعين عليها فيها لانها ممنوعة منها ، وإنما تنسل من البرد الاجنبية إلى بعض الاجانب وتنقل إلى غيرهم ، وذكرت انه يساعد هذا التأثير كلام الجرائد الاخرى التي تشير إلى ضعف الدولة بلطف كالأهرام وهي غير ممنوعة حتى صار كثير من الناس يعتقد أن الدولة على شفا جرف هار لآمال ولا رجال ولا سلاح ، وانتهت بهم أفكارهم هذه إلى انها لا تقدر على محاربة اليونان . فلماذا أقول ان حرب اليونان ما أفادت الدولة شيئاً إلا نزع هذا الاعتقاد من النفوس . وكذلك كان اعتقاد المسلمين في الممالك الاخرى بما تنشره الجرائد الاوربية عن حالتها بينهم .

نم ان من الناس من اعتقد بعد هذه الحرب أن الدولة العثمانية من أقوى الدول أو اقواهن وأنها تقدر على تدويح أي دولة أوربية . وأنا لأحب أن أظهر الدهماء

منهم أن الحقيقة غير ما يتوهمون^(١) فما رأي مولانا في الدولة؟

قال الاستاذ « هذا جهلان يتناطحان (يعني سقوط الدولة بالمرّة وكما قوتها) واني رأيت كثيراً من المصريين يمتقدون وصول الدولة إلى هذه الدركة من الضعف ، وانها لم تكن تقدر على مقاومة اليونان ، وعند إعلان الحرب صرح أمامي بعضهم بأن اليونان تنتصر على الدولة ، فخطأته . قال إن الدولة لا مال عندها ولا ضباط . قلت له وما أدراك ان اليونان عندها المال والضباط ؟ أنا أعرف اليونان انهم أجبن الشعوب وأفقرهم ، ولو أن الدولة قالت لا تراك الروملي أو الاناضول ، أو اللارتوط قد أذنت لكم أن تأكلوا اليونان - لما كان اليونان إلا أكلة واحدة لهم ، واقتلهم بالمصي ولم محتج الدولة إلى عسكر ولا سلاح

» ان الحرب أعلنت يوم الاربعاء فيما أظن وكان في عزمي السفر إلى الشام لتغيير الهواء لاني كنت موعوكا فجتت الاسكندرية اعتقاداً مني انه لا يأتي يوم الثلاثاء (موعد سفر الباخرة الخديوية إلى سورية) إلا وتكون الحرب قد انتهت (وتبسم) « ان كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها (وإن كان أكثرهم يحبها) وأنا أيضاً أكره أعمال السلطان فان جبنه الخالع وهؤلاء المشايخ الذين قربهم وسلطهم ولا سيما الشيخ أبي الهدى فان شأنه وشأنهم كذا وكذا - وذكر ما نعلم من إفسادهم واستعانتهم عليه بجبن السلطان ووسواسه

قال « لكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً فانها سياج في الجملة ، وإذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود ، فان اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم وهو المال ، ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء ثم انتقل الكلام إلى رجال الدولة فقال ما حاصله : ان الدولة لديها رجال نبهاء درسوا وعرفوا كل شيء ، ولكنهم أصيبوا بداء اليأس ، فهم يائسون من كل خير وإصلاح . وهذا الداء قاتل وصاحبه يهدم ولا يبني ، لا ينظر إلا إلى مصلحة شخصه وذكر انه تكلم مع كثيرين منهم هذا وفي أوربة فألقاهم يائسين - وذكر أحد

(١) قال لي أحد الممرين في ملوي إن ملك المسكوب كتب للملك السلطان عبد الحميد إنني مستعد للحرب بعد ٤٨ ساعة فكتب إليه ملكنا إنني مستعد للحرب بعد ٢٤ ساعة

الباشوات من أمثالهم وقل إنه يأس على سعة عرفانه (قال) وكيف نياأس وإن حالة أوربة كانت شراً من حالتنا في الجهل ومقاومة العلم (وأطال في ذلك . وقد بسط هذا أخيراً في مقالات الاسلام والنصرانية)

قال « وأما أنا فأنني في يأس تام من طبقة الامراء والحكام ، لا يرجى منهم خير » ثم تكلم فيما يقال من طمع الشيخ أبي الهدى في الخلافة وأنه لا يرجى نجاحه لان مقصده شخصي ووسائله شرور ولا تنجح الاعمال إلا إذا كانت مبنية على مقاصد الخير والمصلحة العامة وإن نجح ما ليس كذلك فلا يكون نجاحه إلا مؤقتاً تصير الاجل وأطال في ذلك الخلافة أو منصب الخلافة

كان يرى ان محاوله السلطان عبد الحميد من الانتفاع بلقب الخلافة ومنصبها لا يرجى منه أدنى فائدة للمسلمين لجهله وجهل رجاله بمعنى الخلافة وبالوسائل التي يمكن بها إحياء منصبها والانتفاع به (وهو ما أرشد الدولة اليه بما كتبه إلى شيخ الاسلام) وإنما أعمال دعائه وأعوانه لأحياء هذا المنصب او اللقب وهمية ، ومنفعته المرجوة منه شخصية ، وهي تخويف دول أوربا من سحق رعاياهم المسلمين عليهم اذا هم عادوا الخليفة ، ولكنه كان يرى السكوت عنهم وعننه ، وأن مشايعتهم غش للمسلمين وجناية على الاسلام ، ومقاومتهم فتنة وتفریق بين المسلمين ولما أطلعت على فاتحة العدد الاول من المنار في منتصف شوال من تلك السنة (١٣١٥) أعجبه كل ما ذكرته فيه من المقاصد والاغراض إلا كلمة واحدة هي تعريف الامة بحقوق الامام ، والامام بحقوق الامة . قل ما معناه ان المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وان الكلام في الامامة مثار فتنة بخثى ضره ولا يرجى نفعه الآن . واقترح على حذف الكلمة من المقاصد فحذفها

﴿ رأيه في استقلال العرب ﴾

علمت من حديثي معه انه يعتقد ان العرب أجدر الشعوب بالاستقلال والحضارة الرشيدة بطبيعة بلادهم وشجاعتهم ، وبما لهم من الوراثة والتاريخ واللغة الراقية ، وبوجود الروح الاعظم للاصلاح الاكل بلغتهم وهو القرآن ، وما يبينه من

حميرة الرسول الاعظم محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الترك سلبوهم كل شيء ففترقوا وتعادوا واستحوذ عليهم الجهل . فيجب أن يبدؤا بالعلم الصحيح وجمع الكلمة وكسب الثروة ، ويستعدوا لسنوح الفرصة ، ولا يجوز لهم بخل من الأحوال أن يخرجوا على الدولة العثمانية ، لما لذلك من سوء العاقبة ، وذكر لي واقعة حال في هذا الموضوع أدلى فيها بحجته على هذا الامر

قال : وجد رجل مستشرق بريطاني أحب العرب وساح في بلادهم واختبر حالهم فظهر له ان أخلاقهم في بلاد نجد شريفة لم تفسد ، واستعدادهم عظيم فتوجهت رغبته إلى السعي لمساعدتهم على تأليف دولة عزيزة تجدد الحضارة العربية ، وأراد جمع المال الذي يهد السبيل ويهيئ الوسائل لذلك

واستشارني في هذا الامر فقلت له إن العرب أهل لذلك ولكن اترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم ، فإذا شعروا بذلك أوراوا بوادره قاتلوهم ، حتى اذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين او على أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام فتكون الماقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته . قال فقمع الرجل وترك ما كان عزم عليه من السعي

لم يذكر لي اسم هذا الرجل ولما رأيت بعد ذلك صديقه مستر بلنت وحادثته وحادثت زوجه علمت انه هو الذي كان فكر في ذلك وعزم عليه

ثم لما التقيت بالمرحوم محمود شوكت باشا في الاستانة بعد الدستور وتكلمت معه في المسألة العربية رأيت رأيه قريباً من رأي الاستاذ الامام من ناحية مسألة الدولة (رحمهما الله تعالى) قال نحن العرب أقوى من الترك استعداداً لتحصيل العلوم والفنون ، واكسب المال بالزراعة والتجارة والصناعة ، ونحن أكثر عدداً من الترك في الدولة اذا سمحنا باحصاء النفوس في جميع بلادنا ، ولكن الترك متفنون ونحن مختلفون ، وقوة الدولة العسكرية والمالية في أيديهم ، فعاداتنا لهم خطر علينا ، فيجب أن نقوي أنفسنا بالدولة في ظل الدستور ، فنكثر من ادخال أولادنا في المدارس وفي الخدمة العسكرية ، وتكون عاقبة ذلك ان تكون أغلبية

المبعوثان (النواب) منا ، وأن يكون زمام الدولة في أيدينا .
أقول ولكن الاتحاد بين جعلوا الدستور صوريا وتوسلوا بقبضهم على زمام
السلطة إلى تقوية العصبية التركية الطورانية ، والقضاء على سائر الشعوب العثمانية ،
هو قتلوا محمود شوكت باشا منقذهم من الاستبداد الحميدي ، وعزموا على قتل كل
زعيم عربي ، فقضى الله عليهم وعلى هذه الدولة بسوء سياستهم ولم يبق للترك إلا
الاناضول وبعض الروملي منها

وأما رأي الاستاذ الامام وهو الذي جربنا على الدعوة اليه فهو أن يعنى العرب
بترقية أنفسهم بأنفسهم من غير معاداة ولا مباراة للدولة ، وانتظار الفرص للاستقلال
مع اتقاء خطر الاجانب واضعاف الاسلام ، ثم جاءت الحرب الكبرى قبل تمكننا
من ذلك فكان من عاقبتها ما كان .

رأيه في الشعب المصري

قال لي في سياق حديث في حالة البلاد : إن أطفال المصريين أذكى من أطفال
سائر الشعوب ، وإن شبانهم من أنشط الشبان وأمضاهم عزما وهمة وإقداما ، ولكن
المصري يدب فيه الهرم المعنوي منذ استكمال الخامسة والعشرين فيخلد إلى الراحة
والتمتع بالذات ، وتعمد به همته عن الجهاد والكدح في سبيل المصلحة العامة
وقال لي مرة وهو في أشد الغضب والامتعاض من حادثة المحاكم الشرعية
عند ما اقترحت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية عضوين
في المحكمة الشرعية العليا : والله لو أن في مصر مائة رجل لما استطاع الانكسار
أن يقيموا فيها ، أو لما استطاعوا أن يعملوا عملا إذا أقاموا . إن في مصر مئات أو
آلاف من الرجال يفهمون كل شيء ، ولا ينقصهم العلم بما يجب للبلاد ، ولكنهم
خاقدون الارادة وقوة العزيمة ، فلا تكاد تجد عشرة منهم يتحلون بهما ، وهما
الصفتان التي لا ينفع بدونهما علم ولا يقوم عمل

أرأيت هذا الرجل - مصطفى باشا فهمي - الذي يصفه الوطنيون بالخيانة
للبلاد ؟ انه ذكي نبيه ومحب خير البلاد ومصالحها ، ولكنه ضعيف الارادة بل

فاقدتها ، ولولا ذلك لأمكنه بما نال من ثقة مـلطة الاحتلال به أن ينفع البلاد نفعاً عظيماً ، ويدفع عنها أذى كثيراً ، ولكنه لا يدري هذا

وقال لي في حديث آخر : ان الشعب المصري لا يفني ولا يندغم في غيره من الشعوب التي تغلبه على حكومته ، وقد يندغم الشعب المتغلب عليه فيه . ذلك بان ذل الغلب وفقد الاستقلال لا يضعف حيويته ويقلل نسله كما وقع لشعوب أخرى ، بل يعيش في كل حال ، يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ويتزوج وينسل ، ويحفظ مشخصاته القومية . والحكومات أعراض تزول ، وهو لا يزول . ولكنني صرت في ريب من بقاء هذه المزية فيه بما علمت من سريان جريمة السكر من الامصار إلى الارياف ، وابتلاء الفلاحين بهذه الاشرية الكحولية السامة وفشو الزنا فيهم ، وكل منهما يعطل الجهاز التناسلي او يضعفه ، فاذا لم يتدارك هذا الخطر بالتربية الدينية والتعليم المشتمل على القواعد الصحية ، وتغذية ذلك باصلاح خطابة المساجد وبث الوعاظ والمرشدين فيها ، فان الشعب المصري نفسه على خطر الانحلال والزوال (أقول) انه قد فشا في الشعب بعده ما هو شر من السكر وهو استعمال المخدرات السامة من الكوكايين والمورفين و ...

نم اذكر بمناسبة الكلمة الاولى في اطفال المسلمين وشبانهم أن أحمد فتحي باشا زغلول كان يتحدث معي مرة في ضعف رجال الحكومة المصرية وفتور همومهم حتى في أعمالهم الرسمية فذكر أفراداً من رؤسائهم قال انهم تعلموا احسن التعليم ، وحصلوا أكمل التحصيل ، وكان لهم ما يحمد من الهمة والشجاعة الأدبية في شبابهم ، ونجدهم الآن كالتماثيل في دواوينهم ، لولا انهم يحركون أيديهم لخم بعض الاوراق أو لطرد الذباب .

قلت : أو ما سمعت ما كان يقول أستاذنا في ذلك - وذكرت له كنهه - فإذا هو قد سمعها منه إذ قال : أو كما كان يقول الأستاذ شيئاً كنا نفهم كل مراده منه ؟ كلا اننا كنا نفهم مدلول الفاظه اللغوية وأما فحواها وتأويلها في الخارج فربما لا نفهمه إلا بعد التجارب عدة سنين

﴿ رأيه في التربية والتعليم بمصر ﴾

يغنيننا عن بيان رأيه في هذه المسألة ما نقلناه من خطبه التي كان يلقيها في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية (ص ٧٣٠ - ٧٥٢) وما نشرناه من منشأته في الجزء الثاني من هذا التاريخ (ص ٥٢٣) وهو لأئحة نظام التربية والتعليم في مصر فقد بين فيها صفة تعليم الأزهر ومدارس الحكومة ، وما فيهما من الخلل والفساد. وزد عليه جهاده في إصلاح التعليم في الأزهر ، وعندنا كلام آخر منه في ذلك سمعناه في أثناء المذاكرة معه

وخلاصة رأيه في التعليم والتربية أن يكون المراد منهما تجديد تكوين الأمة الذي بطل وانحل منذ قرون كثيرة ، بحيث تكون الأمة عزيزة متعانة متكافلة يصدق عليها - لتمثيل النبي ﷺ - للمؤمنين بالبنیان الرصوص يشد بعضه بعضا ، وبالجسد الواحد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالحس والسهر هذه هي التربية وهذا هو التعليم اللذين كان يجاهد في سبيلهما ، ويدعو إلى مسالة الحكام المستبدين والمتغلبين لأجل التمكن منهما ، ويعلم ان استقلال الأمة الصحيح لا يكون أولا يتم ويثبت إلا بهما ، وكان يقول : يا ويح الرجل الذي ليس له أمة . وكان يفضل القبط على المسلمين في الوحدة والتعاون والعمل لمصلحة طائفتهم ، ومعرفة قيمة رجالهم ، وقال لي يلجؤون في جميع خطوبهم ومشكلاتهم إلى بطرس باشا غالي من الاسكندرية إلى حلغا والسودان

﴿ رأيه في الوطنية والدين ﴾

كان يرى ان الوطنية التي هي عبارة عن تعاون جميع أهل الوطن الواحد المختلفي الأديان على كل مافيه عمرانه وإصلاح حكومته لا يعارض الدين الإسلامي في شيء ، كما يثبت شرعه في العدل والمساواة ويشهد له تاريخه كما بينه في كتاب الإسلام والنصرانية وقد كان السيد جمال الدين يرشد تلاميذه ومريديه وحزبه السياسي إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقي إلى التعاون على الاعمال الوطنية السياسية والعمرانية وكان حزبه مؤلفا من أذكاء الملل المختلفة ، وكان مع هذا يدعو

المسلمين إلى الإصلاح الاسلامي الخاص بهم في فهم العلم والدين وشدوا اخي الاخوة الاسلامية مع جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ولم تر أحداً من الناس الذين تكلموا في شؤونهم والذين كتبوا عنه في مدة حياته ولا بعد مماته اتهمه بالتفريق بين أهل الوطن الواحد ، ولا بين أهل المذاهب الاسلامية ، بل كان داعية اجتماع واتحاد وطني في كل وطن - وشرقي عام في دعوة الشرق كله وارشاده إلى تحرير شعوبه من سيطرة الغرب - واتحاد اسلامي في الإصلاح الديني ونبذ الشقاق فيه وكذلك كان الاستاذ الامام كما علمنا من سيرته في مصر وفي سورية ، قد كان من التآلف بين جميع الطوائف في بيروت على عهد مالم يعهد له نظير كما تقدم ، وكان يرى القبط على أنهم الاتحاد والتآلف والتعاون بينهم على ترقية جميع أمورهم الدينية والدنيوية من دون المسلمين ، ولم يصدر عنه قول ولا فعل في مقاومتهم او دعوة المسلمين إلى ذلك ، وإنما كان يحب أن يجتهد كل فريق بنفسه في ترقية مصالحهم المالية ويتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية . وقد كان يعلم ان بطرس باشا غالي هو الذي وضع في وزارة الحقانية مشروع المحاكم الشرعية تمهيداً لالغائها وادغام عماها في عمل المحاكم الاهلية ، وأخبرني بذلك بصفة خاصة كما كان يخبرني بجميع الاسرار ، ولكن معاملته الشخصية مع بطرس باشا لم تتغير

وقد كان بعض كتاب المسلمين طعنوا في بطرس باشا واتهموه بحاباة القبط في الوظائف وغيرها إذ كان وكيل وزارة الحقانية ، وذكروا ان تمصبه الذي كان سبب الخلاف بينه وبين الوطني المسلم النابغة شفيق بك من صور هو الذي اضطر هذا إلى الاستقالة وكان الاستاذ الامام في ذلك الوقت (سنة ١٣٠٥) في بيروت فلما رأى هذا الشقاق الوطني في الجرائد المصرية كتب في تلافيه مقالة في جريدة ثمرات الفنون عنوانها (مصر والمحاكم الاهلية) وكتب إلى بعض مريديه بمصر (سمد زغلول) أن يسمى بنشرها في بعض الجرائد الاسلامية فنقل منها هنا ما ثبت مذهب الوطني شرحناه من جزء المنشآت (ص ٣٦٥ طبعة ثانية) وهو

أتت جريدة على ذكر ما يشاع من الخلل في المحاكم الاهلية بمصر ، وتذرعت بذلك إلى الكلام في وكيل الحقانية ، وناطت جميع الخلل باثرته وتطرفه في الميل

الى ابداء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتعلق به من
لا أهلية فيه لاجادة العمل ، واسترسلت من ذلك إلى دعوى أن المسلمين قد
نظروا إلى هذا التصرف بعين الناقم . فعارضتها جريدة أخرى ودفعت ما ادعته
من وقوع الضغائن بين المسلمين وبين اخوانهم في الوطنية من الاقباط ، وأقامت
الادلة على التحامهم بالالفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بمضد أخيه عند الشدة ،
ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوارث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك
وقوفهم مواقف القتال مع اخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنة كريد
وحرب الحبش والمواقع السودانية ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم
ويوازونهم ، فكانوا حرباً لمن حاربهم ، وسلماء لمن سلمهم ، وأن الخلاف المذهبي
لم يحدث في البلاد شقاقاً وطنياً في زمن من الأزمان . ولهذا لا ترى للقبط في مصر
مسألة سياسية تعنى بها دول أوربا كما ترى لغيرهم في غير مصر مسائل . وأيدت هذه
الجريدة جريدة أخرى جاءت بتاريخ القبط في الاحقاب الماضية ، وما وصلوا اليه
في الاوقات الحاضرة ، ثم فصلت القول تفصيلاً فيمن عهدت اليهم وظائف في
المحاكم الالهية من الطائفة القبطية وذكرت أسماءهم وسوابق خدمتهم ، فكان أعضاء
المحاكم منهم عشرة من سبعة وستين عضواً والذين في أقلام النيابة منهم ثلاثة من
عدد كثير من النواب ومتعلقينهم ، والكل في قولها من أهل الاستحقاق لا يغمز على
أحد منهم في العلم بماوليه ، ولا يرمي بالقصور عن تأدية ما عهد اليه عمله
نم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحاً
وتصريحاً بالخال الواقع في المحاكم ، وأن مظهره بل كاه من تداخل وكيل الحقانية
بطرس باشا غالي في أعمال تلك المحاكم . ونقلت تلك الجريدة إجماع الناس على أن
السبب في زول النازلة الهائلة وهي استعفاء عزتو شفيق بك منصور إنما هو الخلاف
الذي وقع بين بطرس باشا وبينه ووقوف الباشا مانعاً بين البيك وبين الاصلاح
هذا إجمال ما رأيناه فرويناؤه وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يتخذ
ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ، فإن ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب ،
أو كما يقال جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه ان كان له نفع ، فإنه

يشير الساكن ، وينطق الساكن ، ويثاب القلوب المتفرقة على مقاومة رأي الطاعن ، ومخالفته الى عكس ما يريد ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا الى احدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الظلم ، او ينسبوا الى شائن من العمل ، تعاملاً بأن رجلاً او رجلاً منها قد استهدفوا لذلك ، فانه مما يرسل العداوات الى عمائق القلوب ، ويدلي بالصفائن الى بواطن الافئدة ، فاذا تنافرت الطوائف تشاغت كل منها بما يحيط شأن الاخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم ، فالتوى على الطاعن قصده ، وبعثت عنه غايته ، فقد كان يريد بقوله انتقاص شخص واحد تأديباً له او استصرافاً لدفع شره ، فأدى سوء استعماله الى خيبة آماله . فنحن نرى رأي الجريدين المحاميتين خصوصاً عن طائفة الاقباط في مصر ، فانها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهملها لوجوب المحافظة على وصية النبي ﷺ فقد عهد الى أصحابه اذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبضها خيراً ، وقد كان حسن حال الاقباط مظهرًا لصدق نبأه عليه الصلاة والسلام . على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية في الدول الاسلامية المتعاقبة بما أجادوا من صناعاتي الحساب والكتابة في تلك الاوقات ، ولم تعهد لهم فتنة ، ولم تذكرهم على البلاد غائلة ، فلا ينبغي لمبغني الحق أن يمس شأنهم بالاعنوان العام . وأما مالا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف المقول أو ميالين الى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا تقديم على حال أولئك الاشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ، أو تحويلهم عن القبيح من اعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصاً بالعمل الذي ظهر فيه الخلل لا يتعدى الى أوصاف خاصة لا تفيد في البحث . نعم ان كانت الطائفة او الامة من قوم أجانب على البلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة ، او حيلة غادرة ، وكانت أعمال أحادها مبنية على أصول سننها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كما في أعمال الانكليز بمصر ، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بانم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلادهم ، واستخلاص الحق منهم لأربابهم المراد من المقالة وبقيتها دفاع عن بطرس باشا

﴿ رأيه في الاحتلال والاستعمار الانكليزي ﴾

والفرق فيه بين الانكليز والفرنسيين

يعلم جميع الواقفين على التاريخ الحديث وسيرة الاوربيين في الاستعمار انهم يسمون فتحهم الممالك واستيلائهم عليها بالطرق السياسية بأسماء خادعة تفر الشعوب وتخدع أعصابهم بتوهمهم ان البلاد بلادهم وان وجود الاجنبي فيها موقت والمصلحة فيه مشتركة بينه وبينهم - كالحماية والاجارة والاحتلال الموقت وغير الموقت ، وزادوا عليها بعد الحرب اسم الانتداب والوصاية - ولهذا التسمية عندهم فوائد احتياطية لان احداث الزمان قد تضطرمهم إلى تغيير سياستهم فيها حتى يتركوها لاهلها ، كما ان لهذا المظهر فائدة لاهل البلاد بما يعطيهم من حق المطالبة بحقوقهم في الاستقلال بها ، وإزالة صور الحماية او الوصاية او الاحتلال إذا عرفوا كيف يسعون لذلك ويستعدون له

ويعلم أكثر هؤلاء الواقفين العارفين ان الانكليز يراعون من عقائد من يستولون عليهم ومن استعدادهم العلمي والاجتماعي ما لا يرعي الفرنسيون ، وأنه يمكن من اقناعهم والاستفادة منهم ما لا يمكن مثله مع الفرنسيين ، لان أخلاقهم أعلى ، وهم إلى مواناة الطبيعة والعقل أدنى ، وخلقتهم التجاري ، يؤثر في سيرهم السياسي ، فهذا مما لا يحتاج إلى رأي من مثل الاستاذ الامام في كبر عقله وتجاربه

بيد انني أنقل عنه ما يحتاج اليه غير العارف بما ذكره ويزداد العارف به بصيرة ، ومنه ان الذي يبطل بسلطتهم على بلاده لا يمكنه أن يقنعهم بما يراه من مصلحتها أو كف الاذى من ناحيتهم عنها إلا باتيانهم من ناحية أخلاقهم والراسخ في طباعهم ، كما تقدم في مسألة قاضي مصر التركي ورجوعهم عن إيجاب عزله على الخديو ونصب قاض مصري في مكانه (راجع ص ٥٧٦) - او باتيانها من ناحية غريزتهم التجارية في تصوير المنفعة لهم فيما فيه منفعة البلاد ، ومن هذين الناحيتين كان الاستاذ الامام يقنع لورد كرومر بكثير من المصالح الوطنية ، وكان في أول العهد بعودته الى مصر يزيد عليهم ان الشعب قريب العهد بشورة فقتال مع الانكليز فيجب اجتناب ما يثير في نفسه ذكرى ذلك

مثال قناعهم من طريق منفعتهم انه بلغ الاستاذ ان اللورد عزم على إلغاء النيابة العامة من المحاكم الاهلية واحالة عمل النائب العمومي ورؤساء النيابة ووكلائها على القضاة وانه أمر الحكومة بذلك ولم يبق إلا تنفيذه بقرار من مجلس النظار فزاره في صباح اليوم الذي تقرر اجتماع مجلس النظار فيه لتقريره ، فأخبره اللورد به وسأله عن رأيه فيه ، فأجابه ان هذا خطأ لا يحتمل الصواب ، وضرر عظيم على الحكومة والبلاد ، وشرح له ذلك من الجهة القضائية وأهمها عجز القضاة عن النهوض بعمل النيابة ، وزاد على ذلك ما هو أهم في نظر اللورد وهو ان رجال النيابة الذين يلغى عملهم هم من أرقى رجال البلاد علماً وعقلاً ولساناً وقلماً ، وستوجه همه كل من تلغى وظيفته ولا يجد غيرها في درجتها إلى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد والمسؤولين عن النظام تعباً كبيراً ، او ما هذا فخواه

قال اللورد حينئذ ان هذا كلام وجيه ونحن قد استشرنا كثيراً من المعارفين بالقضاء والادارة فلم نجد عندهم مثل هذه الاعتراضات بل وافقونا ، وان مجلس النظار سيجتمع الآن في سراي عابدين برئاسة الجناب الخديوي لتقرير هذه المسألة ولا بد لا يقف ذلك من ذهابي بنفسي الى عابدين بعد إيدانهم بذلك بالهاتفون ، وقام فودع الاستاذ وأخبر السراي بمجيئه راجياً تأخير جلسة المجلس الى ما بعد حضوره ، فذهب وابطل هذا العمل

هذا نموذج من أفعاله في خدمة البلاد من طريقهم . ومن أقواله فيهم ما قاله لي وقد كنت راكباً معه فرأينا فلاحاً يمتص عوداً من قصب السكر مبالغاً في امتصاصه ، فلا ياتي ما في فيه منه إلا بعد جفافه ، قال الاستاذ أنظر إلى هذا الرجل كيف يمتص هذا القصب ، هكذا يفعل الانكليزي في امتصاص ثروة البلاد واستخدام الرجال المقتدرين على العمل فيها ، هم يحافظون على الشيء او الشخص ما وجدوا فيه فائدة لهم ، حتى اذا مارأوا انه لم يبق فيه أدنى فائدة لهم أقوه كما يلقي هذا الفلاح ما يمتصه من ألياف القصب اذا جف ولم يبق فيه شيء من الحلاوة .

وكان ينكر على الخديو اتباعه هذه القاعدة التجارية معهم ببيع مصالح البلاد بمنافعه المادية او أهوائه الشخصية ، كمساعدتهم إياه على عمه في مسألة نظارة الاوقاف

الخصوصية، وذكر مسائل أخرى، وكان هذا الحديث قبل حدوث مسألة محاولة عزله وعزل حسن باشا عاصم من الحكومة وقد تقدم شرحه وهو أوضح المثل وأظهر الشواهد في ذلك

محاورة في الاحتلال وأعماله المنكرة

زاره محمد بك بيرم وأنا عنده في رمضان سنة ٣١٥ وهو من حزب الانكليز وقد رقوه فجعلوه محافظ مصر وكان يأتيه دائماً باخبار الحكومة والانكليز على حقيقتها فذكر مسألة بيع البواخر لشركة انكليزية وصرخ المؤيد ومن على رأيه في الانكار على الحكومة والانكليز، وقال هل ينتظرون من الانكليز أن يفضلوا على الشركة الانكليزية شركة من غير أبناء جنسهم؟ نعم لو وجدت شركة مصرية وقدموا عليها الشركة الانكليزية لكان لهم الحق في الانكار، ولكن أين الوطنيون الذين يقدمون على مثل هذا؟ اجتمع عند الخديو جماعة من وجهاء الاغنياء وتكلموا في المسألة فوعدهم بأنهم اذا هيئوا المال يتم لهم المسألة ويكون شريكهم فيها، وضرب لهم موعداً فأنقضى الموعد ولم يكن منهم شيء

قل الاستاذ ان المعارضين في المؤيد وغيره يتكلمون في المسألة من جهة شرف الحكومة والبلاد بابقاء الراية المصرية في البحر

قال البيك: إن الراية المصرية وكل ما هو بمعناها قد طار مع دخان المدافع يوم ضربت الاسكندرية. وإن الخديو يوم جاء مصر استقبله الانكليز استقبال ضيف (وذكر كلاماً في ذلك لا يعرف عن غيره بل المعروف خلافه) قال: ولكن المصريين لا يفهمون هذا... يرون ميتاً لم يدفن فيظنونونه حياً

(أقول وقد حضرت مثل هذا المجلس في مكتب الشيخ علي يوسف بإدارة المؤيد وكان عنده ابراهيم بك المويلحي وكان يقول هذا الكلام في المسألة المصرية وان ما يسمى الاحتلال هو عين الفتح والامتلاك، قال بعض الحاضرين وقد انتهى أمره بمركة التل الكبير، فقال المويلحي بل بضرب الاسكندرية واحتلالها أو قبل ذلك. ولم يعترض الشيخ علي ولا غيره على ذلك بل وافقهم عليه)

ثم ذكر محمد بك بيرم مسألة بيع أراضي الوقف المسماة (تفتيش الوادي)

التي وقفها اسماعيل باشا على المكاتب والمدارس الاسلامية
قال الاستاذ : ان هذه المسألة في غاية الخشونة وما كان يليق بالانكليز مثل
هذا العمل المفضوح وإن كانت أزمة البلاد في أيديهم

قال البليك : إن استبدال أرض الوقف جائز ولو بالمال ليشتري به غيره
قال الاستاذ انما يصح هذا في الاراضي التي لاربع لها وهذه الاراضي كان
ربيعها السنوي خمسة عشر ألف جنيه فما زالت تنقص حتى صارت ٧٥٠٠ جنيه
أي نزلت إلى النصف فينبغي الفحص عن السبب . واذا كان لا بد من بيعها على
ان دخلها كذا فلا بد في هذا من حكم القاضي الشرعي . وقال في الرد على قول
بعض رجال الحكومة انها من أملاك الميري : ان اسماعيل باشا ورث هذه الارض
من أبيه ابراهيم باشا ووقفها بصفته الشخصية « اسماعيل بن ابراهيم من أصحاب
الاملاك » لا بصفة انه خديو مصر ، فوقفها صحيح لا شك فيه

قال البليك لو ان المصريين يعلمون ان الانكليز قد امتلكوا مصر ووجهوا
نظرهم لمعرفة كيف ينبغي أن تكون حياتهم مع هذا الحاكم الجديد لكانوا انتفعوا
وقدروا أن يحافظوا على بعض ما يجب المحافظة عليه

قال الاستاذ متلطفاً في تخطيطه بما ارتآه من وجوب توطين المصريين أنفسهم
على ذهاب بلادهم من أيديهم - : إن العمل لاخراج الانكليز من مصر عمل كبير
جداً ولا بد في الوصول إلى الغاية منه من السير في الجهاد على منهاج الحكمة والدأب
على العمل الطويل ولو عدة قرون ، لا انه عمل صغير يكفي فيه الكلام في المجالس
والكتابة في الجرائد ، (هكذا أو مامعناه) وقالوا إن كثيراً من المصالح الاميرية
معرضة للبيع فهل يقدم المصريون على شراء شيء منها ؟

فرنسة والاسلام

نم قال البليك بمناسبة بيع تفتيش الوادي وحكم الاستاذ بأنه وقف صحيح
وان بيعه اعتداء من الانكليز على الدين : ان الفرنسيين قد باعوا مساجد مدينة
الجزائر لاجل المصالح العامة ولم يبقوا في تلك المدينة إلا أربعة جوامع فقط —
وانتقل الكلام بهذه المناسبة إلى ذكر فرنسة فقال الاستاذ الامام : انه لا توجد
أمة تبغض المسلم لانه مسلم لا لأمر آخر إلا فرنسة . وأطال في بيان ذلك : ومما قاله

انني لما كنت أجتمع مع احد الفرنسيين للمذاكرة في أحوال الشرق أمتعض وينتفضر - أو يرتعش - جسدي كله

وقال ان الفرنسي اذ مدح الاسلام وذكر شيئاً من مزاياه فلا بد أن يكون غرضه من ذلك منفعة فرنسة ، وذكر عدة رجال منهم ألفوا كتباً بهذا المعنى ثم صرحوا ولو في آخر ما كتبوا بحالتهم مع المسلمين في الجزائر وما ينبغي عمله لبقاء سلطتهم فيها ، وذكر أسماء بعض تلك الكتب

كنت قد استغربت هذا القول من الاستاذ ثم رأيت كثيراً من الشواهد والدلائل التي تؤيده وأقواها ما كتبه فيلسوف فرنسة الاجتماعي ومؤرخها الحر الدكتور غوستاف لوبون إلى عبد الغني سني افندي التركي المشهور وهو نص صريح في هذا المعنى مع بيان سببه وهو الدين الكاثوليكي

ذلك بأن عبد الغني افندي هذا قرأ بعد الحرب الكبرى كتاباً لهذا الفيلسوف في أسباب الحرب وفلسفتها أنمى فيه بالتخطئة على الدولة العثمانية لدخولها في الحرب مع ألمانيا ، فكتب اليه مبيناً عذر دولته في ذلك وهو اتفاق فرنسة مع الروسية من قبل الحرب على تقسيم بلادها وإعطاء الآستانة لروسية . فلم يلبث أن جاءه مرجوع الكتاب من الفيلسوف يعترف له فيه بالحق أي بعذر الدولة ويصرح فيه ببغض دولته فرنسة وقومه المسلمين - وهل يقول الحق في السياسة افرنسي إلا أن يكون فيلسوف لا يقول إلا ما يعتقد ؟ وقد نشر هذا الجواب في مجلة الهلال بلغته الافرنسية مع ترجمته وهذه ترجمته (من ص ٦١٦ من العدد السادس من السنة الثالثة والثلاثين) سيدي

« أراكم فيما كتبتم على تمام الاصابة سأسمى في نشره في إحدى الجرائد الفرنسية . لكنني لست واثقاً من ان أوفق . لان العقيدة الكاثوليكية المتوارثة فينا تجعلنا من ألد الاعداء للمسلمين . وقد كتبت فيما مضى مجلداً ضخماً باسم « حضارة العرب » وذلك لاثبت ان العرب هم الذين مدنوا أوروبا

هذا واقبلوا الدكتور غوستاف لوبون

ثم قال الاستاذ : إني لأعجب لهؤلاء الافرنج كيف يجرحون قلوب الذين يستولون عليهم بالتمدي على أحكام دينهم وامتهان شعائره وتقاليده (كبيع الانكاز لوقف تفتيش الوادي) ويميشون معهم خائفين من ثورتهم وانتقاضهم عليهم ، وفي إمكانهم أن يحبوا أنفسهم إليهم ويميشوا معهم بالراحة وانما ذلك بعدم التعرض لدينهم

قلت : ان اضافة الدين الاسلامي غرض مطلوب لذاته عندهم فهم يؤثرون التعب بفعل ما يحبون ، على الراحة مع ما يكرهون

قال : ليس هذا برأي فان توالي المؤلمات يبعث على الخروج يوما ما . ثم تكلمنا عن ثورة الهند التي تفاقم خطبها في تلك الايام ، وفي حالة روسية وألمانية وشبابهما ونشاطهما . ولا حاجة الى ذكر شيء من ذلك هنا

(رأيه في اللغة العربية واللغات الاوربية والكتب في كل منها)

قد نوهنا بما عني به الاستاذ الامام منذ انتقل من دور التعلم الى دور العمل من السعي لاصلاح اللغة العربية عند توليه إدارة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية وفي التدريس بدار العلوم ثم في اصلاح الازهر ، وفي بعض تقاريره الاخيرة عن دار العلوم عند توليه رئاسة امتحانها السنوي تصرح مرضي بتقديم اللغة العربية فيها وقربها من الدرجة المطلوبة وسننشر بعضها في الذيل إن شاء الله تعالى ولاكنه كان يرى ان اللغة العربية في حاجة الى اصلاح آخر فوق اصلاح التعليم لفنونها وآدابها ، واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو ما فعله الفرنسيين وغيرهم من شعوب العلم في أوربة من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية وتاريخ تطور اللغة وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية ، وفلسفة البيان والانتقاد ، وغير ذلك ، وقد قال لي ان هذا النوع من الاصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيين فيه إلا باشتغال جدي مدة خمسين سنة .

وأما كتبنا العربية فقد كان كثير الشكوى والتبرم من سوء أسلوبها وضعف لغتها ، وكان يفضل كتب المتقدمين على كتب المتأخرين ، ويقول مع ذلك إن فن

التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم، وأنا في أشد الحاجة إلى حذوهم فيه قلت له في أول حديث لنا في إصلاح الأزهر وقد تقدم ذكره وتاريخه أننا في أشد الحاجة إلى تأليف كتب تناسب حالة العصر وحاجته في الترتيب والسهولة ومراعاة عقول المتعلمين، وفي تنقيح العلوم وتعميد طرقها ومسالكها، ولا سيما تواريخ العلوم وغيرها.

قال نعم: أننا إذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلاً فلا يوجد في تواريننا مادة تفي بالغرض، يذكر أن واصل بن عطاء أول من تكلم في العقائد على مذهب المعتزلة واعتزل مجلس الحسن البصري، لكن ما سبب ذلك؟ من أين جاء هذا الفكر الجديد؟ وكيف انتشر هذا المذهب؟ وما الذي حدا بالشيخ أبي الحسن الأشعري للقول بأن الوجود عين الوجود؟ و.... ومتى دخلت الفلسفة في كتب العقائد؟ وماذا كان غرض العلماء في إدخال الفلسفة على القول مع العقائد في وقت واحد؟ كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريننا. ويمكننا أن نعرف كثيراً من شؤون الإسلام وتاريخه من الكتب الأفرنجية فإن فيها ما لا نجده في كتبنا.

وقال في وقت آخر إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا إذا كان متقناً للغة من لغات العلم الأوروبية تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله من مدح وذم وغير ذلك من العلوم

﴿ رأيه في الصوفية والفقهاء ﴾

أول حديث دار بيني وبين الأستاذ في هذه المسائل كان في يوم الخميس (٦ شعبان سنة ١٣١٥) كنت على موعد لزيارته فجلسته في منتصف الساعة التاسعة صباحاً فكشفتني بعزمي على إنشاء جريدة وتكلمنا في هذا الموضوع بما سأذكره في موضعه، وإذا كان المراد من جريدتي هذه الإصلاح الديني تذاكرنا وفيه وفي وجه الحاجة إليه حتى انتهى الكلام إلى ذكر للصوفية

قلت: إن الصوفية فلاسفة أخلاق، وإن كلامهم نفع كثيراً وأضر كثيراً

قال : (١) انه لم يوجد في أمة من الامم من يضاهي الصوفية في علم الاخلاق وتربية النفوس — و (٢) انه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين — و (٣) ان سبب ما ألم بهم تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ الامراء بقول الفقهاء فيهم، فأولئك يكفرون، وهؤلاء يعذبون ويقتلون، حتى انه قتل في هذه البلد (القاهرة) في يوم واحد خمسمائة صوفي — و (٤) ان هذا سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم ان ظهوروا، ولجؤتهم إلى الاختفاء، وكلامهم في الطريقة وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والاشارة — (٥) نعم قام أناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم مما كانوا مضطرين إلى الظهور به وهو ليس من التصوف، ولم يعرفوا من أمورهم الصحيحة إلا قليلا. وهكذا كان البعد عن التصوف رويداً رويداً حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضاً تاماً إلا ما لا نعلم

قال : وان الفقهاء لبعدهم عن التصوف (الذي هو الدين) جهلوا سياسة وقتهم وحاله، ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الاحكام الشرعية... اذا عرفوا ان الحكم كذا؟ لا يعرفون كيف يجعلون الامراء والحكام يلتزمون هذا الحكم وينفذونه، ولهذا ضاع الدين والسياسة

احتقرهم الامراء والسلاطين في أنفسهم، واستخدموهم لاغراضهم التي تؤيد سلطتهم ونفوذهم، وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغائبهم — ولا يوافق الشرع — فدققوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبون، وأفتوهم بما يشاؤون. وقررت فتاويهم في كتب الفقه على انها أحكام شرعية « أي ان هذا هو حكم الله في هذه المسألة » قلت : ان للصوفية كلاماً غير معقول وما هو مخالف لظاهر الشرع (أو ظاهره للشرع) وهو الكلام فيما وراء التربية وتهذيب الاخلاق الذي انفتح به الباب لتأويلات الباطنية، الذين يشبه كلامهم في كثير من آيات القرآن كلام الصوفية ولكون اهل السنة صاروا يسلمون للصوفية أقوالهم صارت الصوفية وصلة بيننا وبين الباطنية قال : نعم صدر عنهم كلام ما كان ينبغي أن يظهر ولا ان يكتبه ومنه ما يوهم الحلول « ولو كنت سلطاناً لضربت عنق من يقول به. وأنا لا أنكر ان لهم أذواقاً خاصة وعلماً وجدانياً « بل ربما حصل لي شيء من ذلك وقتاً ما »

لكن هذا خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علماً . (قال) ان هذا الذوق يحصل للانسان في حالة غير طبيعية وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا ينبغي (أولا يجوز) أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية . اهـ
وقل في حديث آخر ولا يستحيون ان يقولوا ان كل ذلك حكم الله يدين به عباده .
وقل أيضا : كل ما أنا فيه من نعمة في ديني أحمد الله تعالى فسببها التصوف . وتقدم بيان ما وفق له من التصوف الصحيح الخلي من البدع والخرافات المرغب في العلوم وتحرير القول في التصوف في أوائل الكتاب

ثم فصل الاستاذ هذه المسألة - التنازع بين الفقهاء والصوفية وما انتهى اليه أمر هؤلاء في تفسير (٢ : ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وحق ما كان عليه الصوفية الاولون من الاصلاح وحسن النية فيما أخطأوا ، واقتتان الناس بهم بعد فساد أمرهم حتى اتخذوهم أنداداً لله يطلبون منهم ما لا يطالب إلا من الله تعالى فيراجع هذا التنصيل في الجزء الثاني من التفسير وفصله أيضاً في مجلس من مجالسه التي عقدت ليراد الشبهات وحل المشكلات وتفنيد الخرافات في قرية (بهاده) وكنا من حضرها مع الاستاذ الاكبر السيد علي البيللاوي شيخ اجامع الازهر وغيره من كبار علماء الازهر كالشيخ أبي الفضل الجيزاوي الذي صار شيخاً للازهر بعده والشيخ سايمان العبد شيخ الشافعية وغيرهم رحمهم الله تعالى ، وكان هنالك شيخ يسمى الشيخ محمد الدلاصي يفتن العوام بالاولياء وكراماتهم ومددهم ، وكان الشيخ عبد المؤمن موسى عمدة تلك البلد من قراء المنار يخالف هذا الشيخ في تعاليمه الخرافية ولم يجد وسيلة ل اظهار ضلاله لاهل البلد الذين يجتمعون عليه الا دعوة الاستاذ الامام الى البلد هو وهؤلاء العلماء الاعلام (سنة ١٣٢٢)

وهناك أقيمت على الاستاذ الامام الاسئلة المتعاقبة بالموضوع فأجاب عنها بما هو الصواب وفصل الخطاب ، ومما لم تكن نعلمه الا منه في ذلك المجلس مسألة (ديوان الاولياء والتصرف الباطن) للذين ينسبان الى الصوفية فيبينها الاستاذ الامام أحسن بيان وافقه عليه من حضر من العلماء ، وملخصه انه لما آمن

الامراء في الفتك بالصوفية باغراء الفقهاء كان الصوفية يعقدون اجتماعات سرية للبحث في كف الاذى عنهم ويقررون فيها ما يتفقون عليه ثم يسمون لتنفيذه بالوسائل الكسبية وقد يكون منه قتل بعض خصومهم - فهذا أصل ما يسمى الديوان والتصرف في الاكوان ، وليس تصرفا بالكرامات ولا بنحو ارق العادات فليراجع تفصيل هذا من اراده في (ص ٤٣٢ - ٤٤٠) من مجلد المنار السابع

رأيه في البهائية العباسية والشيعة

كنت قد عنيت بالبحث عن حقيقة البائية البهائية وغير البهائية في أثناء طلب العلم بطرابلس الشام ، ولما هاجرت إلى مصر في منتصف سنة ١٣١٥ اجتمعت بعزيزا ابي الفضل الجوزقاني داعية البهائية وناظرته مراراً ، وكان عندي رسالة منه كتبها في التمهيد للدعوة الصريحة إلى دينهم وكانوا ممنوعين من هذه الدعوة في بلاد الدولة العثمانية - ومصر منها - بما اشترطته عليهم الدولة عند الاذن لهم في الإقامة بمكنا ، وحرية التجوال والإقامة في سائر بلادها

وقد دهشت أشد الدهشة إذ رأيت الاستاذ الامام غير واقف على حقيقة دينهم ومصدقا ما كان سمعه من زعيمهم الداهية عباس افندي نجل البهاء ومنظم دعوته وناشرها حتى أوقفته على ذلك ، كان يجتمع بعباس افندي أيام إقامته في بيروت إذ كان عباس افندي يتردد اليها ويصلي الصلوات الخمس والجمعة ويحضر بعض دروس الاستاذ الامام ومجالسه واستمر على مكاتبته بعد عودته إلى مصر ولدي عدة كتب منه اليه

وكان أول حديث جرى بيني وبينه فهم تنمة المحاورة في الفقهاء والصوفية فاني لما ذكرت الشبه بين الصوفية والباطنية في التأويل سألته عن رأيه في البائية قال ان هذه الطائفة هي الطائفة الوحيدة التي تجتهد في تحصيل العلوم والفنون بين المسلمين وفيها العلماء والعلماء ، ولا أعلم حقيقة مذهبهم ، ولا أدري هل ما يقال عنهم من الحلول ونحوه صحيح ام لا ؟ بل أستغربه جداً

سألته عن ميرزا فضل الله الإيراني ؟ قال سمعت به منذ عهد قريب وانه مؤرخ وفاضل ولم أره

قلت نعم انه بارع في التاريخ وقد ساح كثيراً وهو مهذب الاخلاق وذكوت كل ما عرفت من صفاته وقلت انه يظهر لنا انه من دعاةهم
ثم سألته عن عباس افندي وقلت أسمع انه بارع في العلم والسياسة ، وانه عاقل يرضى كل مجلس ...

قال نعم ان عباس افندي فوق هذا ، انه رجل كبير ، هو الرجل الذي يصح إطلاق هذا اللقب (كبير) عليه

قلت له : انني اجتمعت بميرزا فضل الله مراراً وناظرته فألفيته يستدل على صحة تعاليمهم بثبوتها هذه المدة وانتشارها ونموها ، ويحتج بآيات من القرآن على انه لا يدوم ولا يثبت إلا الحق كقوله (إن الباطل كان زهوقاً) وقوله (له دعوة الحق) الخ

قال : وانا أقول انه لا يثبت ويدوم إلا الحق والخير ، وان الشر والباطل لا يدومان وإن انتشرا ونميا ، ولكن دعوة القوم لم يطل عليها الا مد بحيث يصح الاحتجاج لها بهذا (ثم قال وقد رأيته مرتاباً في قوله) لا أقول ان كل ثابت حق وخير وانما كلامي في الشيء الذي له حياة ونمو (معنويان) فان من الاشياء المعنوية ما هو ثابت كشبات الحجر الذي تلقى في مكان ولا يحركه أحد أو كالجبل ونحوه مما يكون ثبوته بالاستمرار لعدم التحرك لا بقوة حيوية تمسكه أن يزول

وأما ماله حياة كالدعوة إلى دين أو مذهب فلا يثبت ويدوم إلا اذا كانت الدعوة حقاً في نفسها ، وإن احتف بها في بعض أطوارها شيء من الباطل فهو عرض لا يمنع دوامها وبقاءها بخلاف الدعوة الباطلة من أساسها ، ولهذا لم تثبت دعوى أحد من الذين ادعوا النبوة بعد نبينا ﷺ لانه خاتم النبيين

(قال) وكونه خاتم النبيين لو لم يرد في القرآن لكانت طبيعة الوجود دالة عليه بمجرد النظر إلى خطاب القرآن وتعاليمه ، وضرب لذلك مثلاً فقال ان مثل النوع الانساني كله كمثله شخص منه يخاطبه ابوه ومربيته في كل

طور من أطوار عمره بما يناسب درجة عقله ، وحاجة سنه ، وكذلك عامل الله النوع الانساني . فخطب قوم كل رسول بحسب درجة عقولهم وحالتهم الاجتماعية في زمانهم ، وكما ارتقى البشر جعل الله التشريع لهم أرقى حتى ختمه ببعثة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه الذي هو دين سن الرشد لنوع الانسان

نم شرح المسألة بما نستغنى عنه هنا لانه كتبه في رسالة التوحيد في بحث ترقى الاديان وختمها بالاسلام الذي هو خطاب الله للبشر في سن بلوغ الرشد ولم تكن الرسالة قد طبعت عند إلفائه إليّ بهذا الكلام ولا تم تأليفها (راجع ص ١٨٤ من طبعة الرسالة الخامسة)

قلت : ان اتباع الباب والبهاء قد فتنوا بهما لما رأوا من القوة العقلية الخارقة للعادة (وكان الصواب أن أقول الاحوال النفسية والاقوال الغريبة المخالفة للعادة) ولذلك اتبعوهما ، مع ان هذا أمر طبيعي فانه قد عهد في الطبيعة ان أفراداً من الناس تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة (كقصور روسية السابق) وكذلك في بعض الازمان يوجد أفراد تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة ، وهؤلاء إذا قام أحدهم بدعوة إلى شيء كدين أو مذهب أو طريقة يتبعه خلق كثير افتنانا به وإعجابا بفكره وادراكه وأقواله المؤثرة ، وإن كان ما يدعوا اليه غير معقول في ذاته ولا يمكنه إقامة البرهان عليه

الاستاذ : انا أعتقد أن صاحب القوة العقلية الخارقة للعادة إذا دعا إلى شيء خيري ونجح فيه فلا بد أن يكون مؤيداً بروح من الله تعالى وإن هذه القوة العقلية لا يوجد ما الله تعالى عبثاً

قلت : هل تعتقد هذا عن وجدان فقط ام عليه دليل عقلي
قال : بل هو معقول والتاريخ من أوله إلى آخره شاهد له ودال عليه فإن الانبياء ودعاة المذاهب الصحيحة كانوا كلهم من هذا القبيل

قلت : ان كلامكم السابق واللاحق عين ما يحتاج به البايبة ولم نخالفوهم إلا في شيء واحد (هو كل شيء في المعنى) وهو انكم حققتم انه لا يمكن تغيير شيء من أصول الاسلام وشريعته لانها هي التي خاطب الله بها النوع الانساني عند

بلوغه سن الرشد وطور الكمال العقلي الذي ليس وراءه طور آخر يحتاج فيه إلى تشريع آخر منه تعالى لتربيته وتكميله ، بل وكاه في كل ماوراءه إلى اجتهداه واستقلاله والذي يفهم من كلام هؤلاء كـميرزا فضل الله داعيتهم في تفسير ما تشير إليه رسالته التي كتبها لبعض اخواننا تفسيراً لمقالته التي نشرها في المقتطف (١) هو ان بهاء الله إما أن يكون مجدداً في الشريعة الاسلامية واما أن يكون آتياً بشريعة جديدة ، وان لكل وجهها محتجون له بالقرآن والاحاديث . والذي علمته من مناظرة فضل الله هذا انهم يعتقدون انه شارع لدين جديد ، وان قولهم باحتمال أن يكون مجدداً في الشريعة الاسلامية هو الدرجة الاولى في دعوة المسلمين الى دينهم فاذا قبلها المدعو نقلوه الى اثنائية ، وطريقتهم في الدعاية وتأويل الآيات والاحاديث بأهوائهم كطريقة سلفهم من الباطنية كالاسماعيلية وغيرهم ويقولون ان غرضهم من ديانتهم او من أصولها ومقاصدها توحيد الاديان وينظرون في كتب اليهود والنصارى ويتأولونها كما يتأولون القرآن ويزعم ميرزا فضل كما سمعت منه أن كتاب كل أمة فيه بيان لكل ما يطرأ على تلك الامة وان الانجيل فيه بيان لحالة أوربة الآن وان الاوربيين سيمحقون محققاً واستدل بما في الاصحاح الثاني من رسالة بطرس الثانية من ظهور معلمين كذبة يبشرون بدع هلاك ومجانبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً واعدن اياهم بالحرية وهم عبيد الفساد الخ قال الاستاذ : لو كان بطرس يعلم ما سيطرأ على المسيحية وأخبر به لأخبر عما هو أهم من ظهور البروتستنتية ومن كل شيء طرأ عليها وهو انقلابها وتحولها إلى وثنية ، فان النصرانية انقلبت إلى الوثنية من عهد قسطنطين بعد المسيح بثلاثة

(١) كان ميرزا فضل الله كتب مقالة في المقتطف موضوعها (الباب والبابية)

وقال إنها مقالة تاريخية ، فقرأتها أنا وبض طلبة العلم في طرابلس ورأيت فيها ما يخاف الشريعة الاسلامية فكتبت إلى أخيها الشيخ إسماعيل الحافظ وكان مجاوراً في الزهر أن يبلغ ميرزا فضل الله إنكاراً ما أنكرنا ، فبلغه فكتب رسالة وضح فيها مراده بما علمنا منه ان البهائية دين جديد وانهم يدعون إليه سرا كدعاية الباطنية من قباهم

قرون، فقسطنطين كان ملكاً وثنياً وادعى التدين بالنصرانية سياسة لاجل لاستعانة بمنتحليها على خصمه .. ونجح في ذلك

وقال ان لفظ الحرية في رسالة بطرس ليس بالمعنى المعروف الآن ... الخ وبعد إطالة الكلام في تاريخ النصرانية أعطيته رسالة ميرزا فضل الخطبة وانصرفت . ولم أعد إلى لقائه إلا بعد سباحة في الوجه القلبي عدت منها في أواخر شعبان، وقد زرتة في الليلة الثانية من رمضان ولم نفرغ للمذاكرة العلمية لكثرة الزائرين ثم زرتة بعد ظهر الجمعة سادس الشهر فقابلني في حجرة النوم والمطامة وكان أول مأسأله عنه رسالة فضل الله فرأيت مستحسنها لها

قلت نعم ان كلامها أو أسلوبها حسن ولا سيما بيان حاجة المسلمين إلى الاصلاح ولكنه ذكر الدعوة إلى الاصلاح درجتين (الاولى) الاصلاح في الدين الاسلامي به وهذا معقول مقبول، وهو الذي نقول به ونسعى اليه وأريد أن أنشيء لاجله صحيفة دورية (والثانية) الحاجة إلى شريعة جديدة ، وقد سلك في التعبير عنها طريق الابهام كقوله ان فهمها يتوقف على فهم معنى « القيامة وطي سموات الاديان » فقارئة لا يفهم مراده منه وقد باحشاه فيه فعلمنا انهم يعتقدون ان القيامة قد قامت وان كل ما ذكر من صفاتها في القرآن قد وقع ومنه طي السماء وقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) فالسموات عندهم هي الاديان ، والسبع منها هي : البرهمية والبوذية، والكونفوشيوسية والزرادشتية، واليهودية والنصرانية والاسلام . وذكرت غير ذلك من عقائدهم وتأويلاتهم للقرآن بما هو أبعد من تأويلات سلفهم الاسماعيلية والعبيديين بمصر

قال الاستاذ : أي حاجة إلى هذا البعد عن الحق والصواب وإلى هذا الكلام الذي لا يعقل . أنا لم أفهم من عباس أفندي شيئاً من هذا وإنما صرح لي ان قيامهم لاصلاح مذهب الشيعة وتقريبه إلى مذهب أهل السنة . وفي الحقيقة ان مذهب الشيعة (و ذكر ما لم يأذن لي بنقله عنه في حياته ، وأرى الحكمة في ترك التصريح به بعد وفاته، وإنما أقول ان حكمه عليهم أشد من حكم شيخ الاسلام ابن تيمية) وقال هم أحوج الفرق إلى الاصلاح ولكن من الاسف العظيم أن لا يقوم فينا

مصلحون إلا ويخرجون عن الاعتدال إلى مبالغة وغلو لا تنجح معه الدعوة .
الوهابية قاموا الاصلاح ومذهبهم حسن لولا الغلو والافراط . أي حاجنا إلى قولهم
بهدم قبة النبي ﷺ والقول بكفر جميع المسلمين والعمل على إخضاعهم بالسيف
أو إبادتهم (١) نعم لا بأس بالمبالغة في القول وخطابة لاجل التأثير بالترغيب أو
الترهيب والتنفير ، لكن ما كل ما يقال يكتب ويبنى عليه عمل . انني كثيراً ما
أتكلم بكلام في مجلس المذاكرة والخطابة لا أحب أن يكتب وينقل عني وإنما
فائدته التأثير في نفس المخاطب ...

(وهذا انقطع الحديث بزيارة محمد بك بيرم التي تقدم ذكرها ثم عدنا اليه بعد ذهابه)
سأني الاستاذ عما أنكرناه من رسالة ميرزا فضل فذكرت له أولاً مسألة
تعدد الزوجات والتسري وان شريعة البهاء تبيح الجمع بين امرأتين فقط ، فطلق
الاستاذ يشرح مفسد التعدد والتسري وخروج المسلمين بهما عن هداية الشرع
إلى « الاسراف في استفراغ الشهوة بدون ملاحظة الغرض الديني ، وهذه
العادة — أي إكثار السراري — نشأت في زمن العباسيين وامتدت إلى هذا
العصر حتى أنك تجد عند سلطان الأتراك وغيره المئات من هؤلاء السراري ،
وقد ترتب على ذلك مفسد كان لها الأثر الكبير في ضعف الأمة وسقوطها إلى
الدركة التي هي فيها . دع ما فيها من بيع السلمات من الجركس والسودان بدون
أدنى شبهة شرعية »

وتوسع في هذا فذكر ما في التعدد من فساد البيوت (العائلات) بانتقال
التمادي من الزوجتين أو الزوجات إلى أولادهن فيتمذر معها تهذيبهم ، وقال
في حق السلاطين والامراء إذا كان في قصر أحد هذه العدد الكثير من النساء فتى
يصفو فكره للاصلاح والنظر في شؤون الأمة ؟

وإنما أطال الاستاذ في هذا الاستطراد لانه ظن انني من الذين يستحسنون

(١) هذا ما كان مشهوراً عنهم في مصر وجميع البلاد العثمانية ثم علمنا من كتبهم
ان الناس غلوا في الكذب عليهم لارضاء الدولة العثمانية أكثر من غلوهم فهم لم
يهدموا القبة المذكورة ولا قال علماءهم بكفر جميع المسلمين

تعدد الزوجات وكننا في أول المعاشرة . ثم رجعنا إلى موضوع دين البهاية قلت : انهم يقولون بصحة جميع الاديان والكتب الدينية ويدعون جميع أهل الملل إلى دينهم دعوة واحدة لأجل الجمع وتوحيد كلمة البشر به ، ويستدلون عند دعوة أهل كل دين بشيء مما في كتبهم ولا سيما التوراة والانجيل والقرآن وقد ظهر لي ان طريقتهم أحكم من طريقة الماسون فإن هؤلاء الماسون رأوا من الحكمة أن لا يفرقوا بين الاديان في الدخول في جمعيتهم بدعوى انها لا تمس الاديان ، وان كانت غايتها هدم جميع الاديان . وأما البهاية فيقولون بصحة كل دين في نفسه ويستدلون به على دينهم الناسخ لما قبله

قال الاستاذ : ان التقريب بين الاديان مما جاء به الدين الاسلامي وتلاقؤه تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الخ واستغرب استدلال القوم على قيام الباب والبهاء بالكتب السماوية اهـ

ولما كتبت ملخص هذا الحديث في وقته ختمته بقولي : والحاصل ان الاستاذ يقول بضرورة الاصلاح وبغلو المصلحين ، ولولا هذا انغلو من البابية لكان يجب أن يساعدهم . أقول : ولم يكن قبل حديثي معه يعلم عنهم شيئاً صحيحاً والظاهر انه لم يقرأ ما نقلته دائرة المعارف العربية عن أستاذه السيد جمال الدين فيهم ، على ان ذلك كان قبل ظهور البهاية ، بل كان غشه داهيتهم عباس افندي بقوله ان قيامهم لم يكن إلا لمقاومة غلو الشيعة وتقريبهم من أهل السنة . هكذا قال عباس افندي لشيخنا الشيخ حسين الجسر إذ لفي في عكا ، وأنا أيضاً لم أكن أعرف حقيقة أمرهم كما ينبغي

ثم كان من مناظرتي لميرزا فضل الله ما ألجأه إلى بيان أصل عقيدتهم وانهم يعتقدون ألوهية البهاء حتى قل لي مرة فيه (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس) الخ الصفات في الآيات فحتمها له بقوله تعالى (سبحانه الله عما يشركون) وأخبرت الاستاذ الامام بذلك فعلم انهم نسخة من الباطنية القدماء وشر منهم

ثم رددت عليهم في مواضع من المنار وجاءني بعد الرد عليهم رسائل الباب

من طهران من عربية وفارسية وما يسميه (البيان) الذي تأول به قوله تعالى (ثم ان علينا بيانه) ثم ساعدت الدكتور مهدي خان على تأليفه (مفتاح باب الابواب) في الرد عليهم وكان عنده نسخة (الكتاب الاقدس) للبهاء التي يكتمونها عن جميع الناس فاطلعت عليها وعرفت حقيقة دينهم بالتفصيل

وكان قد بقي في نفسي شبهة من قول الاستاذ الامام في أوائل حديثي فيه ان تبات الشيء ونمائه وبقائه مما يكون في الاديان والمذاهب لا يكون إلا لما معه من الحق فراجعته في ذلك واحتججت عليه بالاديان الباطلة الثابتة منذ القرون الطويلة وكذلك المذاهب والجماعات الضالة المضلة . فقال إن أصول تلك الاديان والمذاهب حق ثم طرأ عليها الباطل ، فبعضها ثابت بما فيه من الحق ، وبعضها بما وضع له من النظام الموافق لسنن الكون والاجتماع ، والنظام حق وهو ثابت باق بذاته وما في الجمعية او المذهب من الباطل تابع له باق به ، مع عدم معارضة اهل الحق لما فيه من الباطل

ثم اني حررت الحقيقة في أصل هذا الموضوع بما رددت به على كتاب ميرزا ابي الفضل (الدرر البهائية) الذي كان أول كتاب طبعوه هنا في الدعوة إلى دينهم فانقر بخلاصة الباطنية صاحب جريدة الاواء فبادر إلى تقريره واثناء عليه إذ لم يفهم ما فيه الكفر ، فحقت ان أرد عليه يومئذ فيصر على ضلاله وانتصاره للبهائية فذهبت إلى الشيخ علي يوسف في مكتبته بدار المؤيد فوجدت الكتاب في يده ينظر فيه تمهيداً لتقريره وهو معجب بما كان قرأه منه فأخبرته بكنه دينهم وبما فيه من الخلاصة والتلبس على المسلمين ، وكلفته ان يخاطب مصطفى كامل بتعجلاه بتقريره وبما يجب عليه من تلافي هذا الخطأ حتى لا يغتر قراء الاواء به ويقبلوا على الكتاب فيقع المستعد منهم في أحبولة كيد الباطني ففعل

ثم رددت على الكتاب بمقالتين في المجلد الثالث من المنار عنوان إحداهما (الدعوة حياة الاديان) وعنوان الثانية (الدعوة وطريقها وآدابها) بينت فيها بطلان شبهته في الاستدلال على حقيقة دينهم بما يزعمه من انتشاره وثباته ونموه بما ثبت في تاريخ البشر

من انهم مادعوا إلى شيء الا واستجاب له بعضهم حتى عبادة الشيطان والاورثان والحيوان وغيرها، وان نجاح الدعوة إلى شيء تكون بقدر اتقان القيام بها ومراعاة شروطها الخ وقد أعجب الاستاذ الامام بهاتين المقالتين وكذا غيره من الفضلاء حتى قال لي المرحوم ابراهيم بك اللقاني من أين جئت بهذه الشروط المدودة لنجاح الدعوة إلى الاديان فهي معقولة كأنها مسائل علمية مدونة ؟ وقد التزم طبع هذا الكتاب مجاور كردي في الازهر وكان يوزعه فيه فاخبرت الاستاذ الامام بذلك فكتب شيخ الازهر بوجوب عقابه فسأله الشيخ فتصل واعتذر بأنه اسمه ذكر فيه بغير اذنه وهو لا يعلم ما فيه فعاقبه بقطع جرايته وراتبه إلى مدة أربعة أشهر فقط، ثم طرد من الازهر ومما رددت به على البابية والبهاية بالصرامة بعد الاطلاع على رسائلهم وكتبهم التي جاءتني من طهران مقال حافل عنوانه (استغناء البشر عن دين جديد، ومعنى كون دين الفطرة آخر الاديان، وافتحار البابية) نشرته في المجلد السابع من المنار (ص ٣٣٥ - ٣٣٨) وفيها بعض الشواهد من رسائلهم، وأدلة لباب السبعة السخيفة على دينه. ويثبت فيها فرقمهم الرابع (١) البابية الملص (٢) البابية الازلية. أي أتباع صبح ازل الذي كان في قبرص (٣) البابية البهاية (٤) البابية البهاية العباسية. وقد أعجب الاستاذ الامام بهذه المقالة. وإما ذكرت هذا في ترجمته لئلا يكون في بقية الناس الذين رأوا صحبة عباس افندي له في بيروت أو سمعوا ثناءه عليه من بظن انه ظل يصدقهم في اظهارهم للاسلام، ودعواهم أنهم لا يبغيون فيه إلا الاصلاح

(رأيه في اعراض المسلمين عن الاسلام وعقابهم عليه)

لا أرى حاجة إلى ذكر رأيه في المسلمين وإعراضهم عن الاسلام وبعدهم عنه وإعراضهم عن هدايته، وما ابتلاهم الله به من سلب الملك، وألبسهم من سراويل الذل، جزاء لهم املهم يرجعون، فان ما كتبه في ذلك في رسالة التوحيد مختصراً وفي كتاب الاسلام والنصرانية مبسوطاً بعض البسط، وما نقلناه عنه في مواضع من التفسير يكفي ويشفي — على أن له في مجالسه الخاصة معنا من التصريحات في ذلك ما لا نظير له فيما كتبه وما كان يقوله في درس التفسير

صرح مراراً بأن انتقام الله تعالى من المسلمين لأئعراضهم عن كتابه وعن هدي رسوله اتباعاً لأهوائهم وشهواتهم ، وما فتنهم به ساداتهم وأمرائهم ، لما يبلغ حده ، بدليل ان هذه النقم لا تزال تتجدد وتعدد ، وكان يقول ان المسلمين مصابون بالمقم لا يموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والاعمال النافعة فيهم ويخلفه مثله ، على خلاف ما نرى عليه الامم الحية ، وكان يذكر لي رجالاً كثيرين من أصحاب هذه المزايا الكبيرة في مصر وسورية كالشيخ المهدي العباسي والشيخ علي اللبثي في مصر ، والامير عبد القادر الجزائري والسيد محمود حمزة مفتي الشام وغيرهم لا يوجد أحد مثلهم ولا من يقرب منهم . وقد ظن بعض خواصه انه يقول هذا في المصريين لانه ضرب لهم الامثال منهم ، ولكنه ذكرنا الامثال من غيرهم أيضاً على انه قال أخيراً ما يدل على رجائه في حياة المسلمين ، وقد عبر عنه أولاً بمثل يفيد الشك إذ قال : انني أرى في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضر فلا أدري أهي من بقايا الحياة الاولى أم هي بدء حياة جديدة ؟ قلت له الدليل على الثاني ان هذه الورقات تزيد ولا تنقص . وأما رجاءه في مستقبل الاسلام في الجملة دون شعوبه الحاضرة ، فكان رجاء كاملاً لانه متصل برجائه في الاسلام نفسه ، وهذا الرجاء لم ينقص قط وانما كان شكه في أول شعب يحبي الاسلام هل هو من المنتمين اليه ، أم من الذين سيبتدون به ؟

(رأيه في الاسلام نفسه)

كان يحزم بان الاسلام — اسلام القرآن والرسول الاعظم ﷺ في سيرته وسنته وسيرة خلفائه الراشدين وعلماء الصحابة (رض) — هو دين الفطرة ودين المستقبل ، وان أتم الحضارة في الغرب سيدوقون من فتن مذنياتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرون الى طالب الخروج منها فلا يجدونه إلا في الاسلام — اسلام القرآن والسنة لا اسلام المتكلمين والفقهاء . وقد صرح بهذا في مواضع كثيرة نقانا عنه كثيراً منها في التفسير وغيره

(رأيه في المذاهب وأئمتها)

كان رأيه في المذاهب وأئمتها عين ما يدل عليه هذان اللفظان ، فالمذاهب هي طرق الاستدلال التي سار عليها أولئك العلماء المستقلون في فهم الكتاب والسنة وقواعدها واستنباط الأحكام من النصوص بمقتضى معاني اللغة العربية الفصحى في مفرداتها وجملها وأساليبها وتلك القواعد ، وكان يحلُّ جميع الأئمة المجتهدين ويرشد طلاب العلم إلى تباعدهم في اعتصامهم بالكتاب والسنة اعتقاداً وتخلُّقاً وأدباً وعملاً واستدلالاً ، كما صرح به في خطبته عند ختام درس المنطق (ص ٧٦٣) ويقول انه لا معنى لاتباع المذهب إلا هذا : وأما جمل كلام الامام المجتهد ديناً يتعبد به ، فهو يناني دين الاسلام نفسه ، ويدخل فاعلوه فيما حذر الله عنه من فعل أهل الكتاب باتباع رؤسائهم فيما يوجبون عليهم وبحلون لهم وبحرمون عليهم في قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)

وكان يرى ان أمور الدين قسمان : أحكام قطعية يجب على كل مسلم معرفتها والتدين بها وهي كلها منصوطة في كتاب الله تعالى ومبينه بالتفصيل في سنة رسوله وتناقلها المسلمون بالعمل ، فهي قطعية مجمع عليها لا مجال فيها لاجتهاد المجتهدين ، فيأتي فيها تقليد المقلدين .

والثاني أحكام غير ثابتة بنص قطعي ولا إجماع فهي محل الاجتهاد ، والتحقيق أنها لا تكون في فرض أحكام عامة في العبادات ولا في المحرمات الدينية بل فيما يشتبه على المكلف من جزئياتها أو طرق العمل بها وفي أحكام المعاملات . وهذه يجب على المشتغلين بالعلم من تدريس وتأليف وإفتاء وإفتاء بين الناس أن يبحثوا عن أدلتها ، مهتدين بسيرة الأئمة ومذاهبهم فيها ، ويعملوا بما ظهر لهم رجحانه منها . وأما العوام فيرجعون فيما يعرض لهم ويشتبه عابهم منها إلى من يشقون بعلمه وتقواه فيسألونه عن حكم الله فيها إن كان فيها نص عنهما ، أو عن اجتهاده وما يطمئن اليه قلبه منها . وهذا معنى قول علماء السلف وأئمتهم : العامي لا مذهب له وإنما مذهبه مذهب مفتيه . والمدار في أساس هذا الموضوع على أصل

الامام مالك في ان مدار العبادات على النصوص ووجوب الاخذ بظواهرها ،
ومدار أحكام المعاملات في غير المنصوص القطعي على القواعد واعتبار المصالح العامة
وتقدم رأيه في وجوب الانتفاع بفقته جميع الأئمة في أحكام المعاملات في
الكلام على تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية ، وفي معناه كلامه مع قاضي
القضاة في السودان واخوانه ، وكان الاستاذ مالكي المذهب في نشأته الاولى ،
تفقه بمذهب مالك ثم قرأ فقه الحنفية في الازهر وامتحن فيه امتحان شهادة العالمية ،
وأصل مذهب الحنفية ان فرائض الدين والمحرمات الدينية لا تثبت إلا بنصوص
الكتاب والسنة القطعية ، بل نقل الشافعي في الام عن أبي يوسف ان مشايخه
وسائر علماء السلف لا يقولون في شيء انه حرام إلا ما كان بيناً في كتاب الله
تعالى بلا تفسير . ونقل شيخ الاسلام ابن تيمية عن السلف انهم لم يكونوا
يوحسون ولا يحرمون شيئاً إلا بنص قطعي ، وان الاحكام العامة الامة لا تثبت
إلا بنقل الامة المتواتر بالعمل

رأيه في الفقه والفقهاء وسوء حال المسلمين

قال في المحاورة الطويلة التي دارت بيننا في نهار رمضان سنة ١٣١٥ بعد الكلام
في البابية ما خلاصته كما كتبت في ذلك اليوم :

ان المسلمين ضيعوا دينهم واشتغلوا بالالفاظ وخدمتها ، وتركوا كل ما فيه
من المحاسن والفضائل ... لم يبق عندهم شيء . هذه الصلاة التي يصلونها لا ينظر
الله اليها ولا يقبل منها ركعة واحدة ، حركات كحركات القروء ، والفاظ لا يعقلون
لها معنى ، لا يخطر ببال أحد منهم انه يخاطب الله تعالى ويناجيه بكلامه ، ويسبح
بحمده ، ويعترف بربوبيته ، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره

ومن المعجب ان فقهاء المذاهب الاربعة (وربما غيرهم أيضاً) قالوا ان الصلاة
بلا حضور ولا خشوع يحصل بها أداء الفرض ويسقط الطلب. ما هذا الكلام ؟
انه لباطل ، كل آية تذكر الصلاة في القرآن تبطله . قالوا النية في الصلاة أن يقصد
الانسان فعل هذه الصلاة دون غيرها . وبالعكس بعضهم فقال : لا بد من تصور جميع

أعمالها عند التكبير ، وفسروا قوله **صلى الله عليه وسلم** « إنما الأعمال بالنيات » بهذا . إنما الفعل عند مباشرته طبيعي ، فاني اذا قمت أمشي لأفصد بمشي التعمود (ضبط) وحاش لله ان تفرض الشريعة الحكيمة هذا وتجعل عليه مدار الاعمال والمبادىء ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة ، إن اليهود لم تحرف القرآن أكثر مما حرفوا . المراد بالنية في الحديث قصد المرء ، وغرضه من فعله وهو إمام الله وابتغاء مرضاته (وهو النية الصحيحة) وأما غرض آخر كالرياء (قلت) وعلى يدل الترديد في مسألة الهجرة في الحديث نفسه) لا أن المراد قصد هذه الحركات التي لا معنى لها ، وما كان الله تعالى ليفرض حركات وأعمالا بجماعها عبادة وقوم المرء يفعل مثلها كثيراً في ترده بأشغاله الدنيوية من مشي وانحناء وقيام وسجدة . ان صلاة المستر براون الانكليزي عندي خير من صلاتهم . سألتهم فقال: هو رجل انكليزي رأى ترجمة القرآن فأسلم^(١) وهو يحملها ويقرأ فيها . عند الفراغ ، ويصلي بحسب ما يفهم من القرآن ، ويستقبل القبلة كما حرره بحسب معرفته بعلم الفلك ، ويركع ويسجد ، فهذا وجد عنده روح الصلاة وكان لا الاوقات وعدد الركعات . قال لي : انني أصلي عند الفراغ بحرارة وخشوع وسألني عن صلاته فقلت له أنا أصلي فصل ممي ، وعلمته كيفية الصلاة في أقصير بالعمل ، فتمت له الصلاة بصورتها وروحها ، وقال لي مرة انه يعجب للمسلمين المؤمنين بالقرآن لا يسبقون كل الأمم ويكونون خير الناس ، وقد سأل من أكثر الناس جناية على القرآن ؟ فقلت ذرووه وأصحابه ، فسر بجوابي هذا كلام أوتي كل هذا الاعجاب بالقرآن والاعتبار والاهتمام به مع أن الترجمة الانكليزية له بعيدة عن الصواب في مواضع كثيرة الخ

ثم قال : وقد جملوا (أي الفقهاء) كتبهم هذه على علاتها أساس الدين ، ولم يخبروا

(١) قد علمت بعد ذلك انه كان ضابطاً بحرياً وأنه لما رأى الكلام عن وظلماته وأمواجه وأهوالها في ترجمة القرآن سأل بعض الهنود من المسلمين ركب محمد البحر وسافر فيه ؟ قال لا ، قال ان ما في القرآن عن البحر لا يمكن أن عن خبر مخبر من الناس ، فيكان هذا سبب عنايته في قراءة الترجمة كلاماً واهتمامه بالترجمة

من قولهم: ان العمل يجب بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة. فانصرفت الازهان عن القرآن والحديث، وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على ما فيها من الخلاف في الآراء والركاكة

(قلت له : سمعت بعض الحنفية يقول ان الفقه الحنفي يحتاج في تحصيله إلى عشرين سنة ، فقلت للقاتل ان هذه المدة هي مدة البعثة التي شرعت فيها العقائد وأحكام الفقه وغيرها من الأحكام التهديبية والسياسية ، والنظم الحربية والمدنية ، مع الاشتغال بالحرب والفتوحات) فضحك الاستاذ وقال : ان قول هذا القاتل صحيح قلت له : رغب إلي الصديقان (الشيخ محمد الرافعي وعبد القادر افندي المغربي) أن أسأل فضيلتكم عن الطريقة التي ترونها مفيدة في تهذيب فقه الحنفية والتأليف فيه على كيفية مفيدة . قال وهل يوجد عندهم اشتغال صحيح ؟ قلت نعم قال (١) ينبغي لمن يؤلف أن يحيط أولا بمسائل الباب الذي يكتب فيه (٢) وأن يعتمد على كتب القرون المتوسطة كالزبلي ، لانه الكتب المختلة العبارة كالكنز والتنوير (٣) وان يرجع أحكام الباب ومسائله الى قواعد كلية (٤) ثم يسرد الأحكام بعدها في غاية الوضوح (٥) وأن يراعي الترتيب الطبيعي بين المسائل فيقدم ما ينبغي تقديمه ويؤخر ما ينبغي تأخيره (٦) وان لا يخلط مسائل باب بآخر وان كان بعض المسائل يشترك فيه بابان كالبيع والاجارة فلا بأس بذكره في كل باب ، ولا بأس بالإشارة الى انه تقدم (٧) وان يذكر القول الراجح بدليله ويذكر بعده القول المرجوح مع الإشارة الى دليله (٨) وأن يختصر في مسائل العبادات ثم قال « إذا رجعنا الى كتب القرون المتوسطة كالزبلي نكون قد خطونا خطوة لإصلاح الكتب والفقه ، ومادنا مقيدون بعبارة هذه الكتب المتداولة ولا نعرف الدين والعلم إلا منها فلا نزداد إلا جهلا . هذا الشوكاني لما كسر قيود التقليد الاعمى حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقهيا ، وقال ان حالة الفقهاء هذه هي التي ضيعت الدين ، وشرح هذه المسألة ببيان حالة العوام (وهم الامة) وحالة الحكام أمام الفقه قال :

« ان العامي الذي يحتاج الى الكسب والعمل لاسعة عنده اصرف سنين طويلة

في تعلم أحكام الطهارة وسائر العبادات في الازهر من هذه الكتب الطويلة الصعبة، وأي حاجة إلى هذه الابحاث الطويلة، والتدقيقات في مسائل المياه والطهارة والصلاة قال عليه السلام « صلوا كما رأيتموني أصلي » وشرح صلاته ووضوئه يمكن بيانه في ورقات قليلة . وكل ماء يشرب وينقى به البدن يطهر به

« من أين جاءهم ان ماء الزهر والورد لا يصح الوضوء به ؟ وهل فيه زيادة عن الماء إلا شيء من الطيب الذي هو من مقاصد الشريعة ؟ وماء الكولونيا أحسن شيء للوضوء فانه يمنع آثار المرض أيضا وكان الشيخ الانبائي يقول بنجاسته لان فيه سبيرتو ، وهل يوجد شيء مطهر كالسبيرتو ؟ والاستدلال على نجاسته باسكاره ضعيف » فانه لا يمكن شربه لانه محرق للجوف - كذلك محلول السابون من أحسن المنقيات والمطهرات (الطبية) وشربه قاتل

« ثم ان الناس تحدث لهم باختلاف الزمان امور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب فهل توقف سير العالم لاجل كتبهم ؟ هذا لا استطاع ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الاحكام الشرعية ولجؤا إلى غيرها . ان أهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم . والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون ان الدين ناقص (كذا في مذكري) فاضطر الناس إلى الاستدانة من الاجانب بارباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للاجانب ، والفقهاء هم المسؤولون عند الله تعالى عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة لانه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها (أي كاحكام الضرورات) لانهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويحملونها كل شيء ، ويتركون لاجلها كل شيء ،

« يقرءون الاصول ولا يخطر ببال أحد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب إلى أصله ، أو يبحث عن دليله ، بل لم ينجحوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر

(١) ظاهر هذا ان الاستاذ يوافق الفقهاء على القول بنجاسة المسكرات ولكنني

لما اقتيت في المنار بطهارة عينها اعجبه ذلك واقره

في الكتاب والسنة ، دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذي تشتت به شمل الامة ، ويكتفون بقول (وكأهم من رسول الله ملتزم)

قلت له ان ابو صيري جـير بالشكر منهم حيث وضع لهم هذه القاعدة التي يرجعون اليها ، كما ان ابن مقلة جدير بشكر الدروز بل يجعله اماما في دينهم لاني رأيت لهم كتابا يذكرون فيه أسرار الحروف من حيث رسمها الحالي ، وأول من اخترعه ابن مقلة فرسمه أصل يستنبط منه كثير من الاحكام الدينية على مذهبهم ، فضحك ثم قال :

« كان ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العمل ، وإذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة بمكان أو زمان ينبغي لهم التنبيه على ذلك ، وان هذا الحكم ليس عاما وانما سببه كذا ، لانهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زمان ومكان » اهـ الحديث

(أقول) قد فطنت في أثناء طلبي للعلم في طرابلس الشام لانكار قول العلماء إن جميع ما قرره الفقهاء في كتبهم من الاحكام دين أوجب الله علينا اتباعه ونحن نرى بمدارسته أن أكثره آراء للمؤلفين يستنبطها بعضهم من كلام بعض لامن كلام الله ورسوله (ص) والذين يستدلون منهم وهم أقلهم يذكرون في أدلتهم أحاديث ضعيفة أو موضوعة ولا سيما الخفية فكنت أجادل الطلاب ثم العلماء في ذلك ولا سيما الصديقين اللذين ذكرتهما للاستاذ الامام في حديثي هذا فهما اللذان عودتهما حرية البحث بغير احتباس ولا تقية ، حتى كنت أقول في بعض الاحكام أهذا حكم الله تعالى أم حكم السارخانية والشرنبلالية والولولاجية وأمثالها من كتب الاعاجم والمقلدين ؟ (وكان هذا أول أسباب اشتغالي بعلم الحديث)

وقد ذكرت هذا للاستاذ الامام فاعجبه حتى ذكر أسماء هذه الفتاوي مرة في درسه في الازهر . ومن أغرب أمر علماء الفقه أو كتبه أنهم صاروا يخضعون للمتصوفة بعد أن ضعف أمر الرقيقين في العلم حتى أنهم يسمون لهم خرافاتهم بالتأويل ، بعد ما كان التناكر بين سلفهما كما تقدم

حسبي هذا القدر من آرائه المفيدة في الاصلاح ، وله آراء علمية ودينية بينها في التفسير ، ولا حاجة إلى تدوين آرائه العلمية الخاصة التي لا تدخل في أبواب الاصلاح ككون الجراد له حياة خاصة به ، وكون الانسان له عدة أنفس ، وان في الكون ارواحا منبثقة فيه تؤثر في ارواح البشر كاتسم الخفية المسماة بالميكروبات التي تؤثر في أجسادهم

آماله وأمانيه

بيننا فيما سبق أن أكبر آماله وأمانيه من الحياة إصلاح حال المسلمين في دينهم وديارهم بما يعود به مجد الإسلام ، ويعم نوره الانام ، وفقاً لما يفهمه من وعد الله تعالى في القرآن ، باظهاره على الدين كله ، في العالم كله ، وانه كان يرى ان أقرب الوسائل وأرجاها لذلك إصلاح التربية والتعليم في الجامع الازهر ، لانه مدرسة العالم الاسلامي كله ، وانه كان من مقاصده الاصلاحية فيه تخرج طوائف من الاختصاصيين في كل علم من العلوم يكونون مرجعاً فيه وقائمين بفروض الكفايات العلمية والدينية كلها على أكمل حال يصل اليها كسب البشر ، ولا سيما طائفة القضاة وطائفة الدعاة الى الاسلام والمدافعين عنه ، وطائفة الوعاظ والمرشدين والخطباء لارشاد العامة ، وطائفة المؤلفين لجميع ما يحتاج اليه رقي الاسلام من الكتب المختلفة المواضيع

مدرسة كلية

لما خاب أمله في الازهر فكر في السعي لانشاء مدرسة كلية تغني عنه في تخرج الرجال الذين يقومون بخدمة الاسلام . فاستمال أحمد باشا المنشاوي الماري المشهور ليقوم ببذل المال لذلك لما يعلمه من حبه لمعالي الامور . وكان المنشاوي قد حوكم في تلك الاثناء بتهمة الاستداء وتعذيب بعض الناس وحكم عليه بالحبس فخرج مبعداً عن الخديو ومكروها من الانكليز والحكومة حتى أعرض عنه جميع الوجهاء . فاغتنم الاستاذ الامام هذه الفرصة وأظهر له العطف والتكريم . وصار يدعو الى طعامه ومجلسه ويزوره في ذهابه . وقد كان حمل من تونس عدة من برانس الصوف والحرير وغيرها من نسيجها البديع . فعرضه كله على أحمد باشا المنشاوي ليختار لنفسه برنسا أو دناراً منها ، فأخذها كلها ، ظناً منه انه اليه أهداها ، وحرم الاستاذ وأهله وأصدقائه كلهم من هذه الهدايا النفيسة التي كان يريد توزيعها عليهم وصار المنشاوي كلما أراد أن يجيء القاهرة يرسل برقية إلى الاستاذ الامام بانه سيتغدى عنده يوم كذا ، وكان الاستاذ يدعو في لأحضر الغداء معها ، ودعا مرة أحمد فتحي (باشا) زغلول فاجتمعنا في عين شمس وتكلمنا مع الباشا في مسألة

بإنشاء المدرسة التي توجهت رغبة الامام اليها فقال أنا مستعد لتنفيذ ما تقررونه، ولكن بشرط أن تكون المدرسة خارج مدينة القاهرة « بلد الافيون والمنزول » واختار أن يبنها في أطيانه في بسوس ويشترى المعلمين مراكباً بخاريًا (رفاصاً) ينقلهم إلى القاهرة كل يوم. وقد عرفته في تلك الاثناء فصرت أكثر الكلام معه في الرغبة في هذا العمل، ووصل خبره إلى الجرائد فطفتقوا يذكرون المدرسة الكلية أو الجامعة بما يزيدني تشويقاً اليه، وقد ألححت عليه مرة حتى أقسم بالله ليقوم من من فوره لشراء قصر في شبرا لا أحد الامراء، لينشيء المدرسة فيه موقفاً الى ان يتم البناء، وقد فعل، ولكن لم يتفقا على الثمن وفي يوم السبت عاشر شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر ١٩٠٥) كتب الى مجلس النظار كتاباً يطلب فيه أن تبيعه الحكومة عشرة آلاف فدان معينة ليجمعها موقفاً على مدرسة كلية يريد إنشاءها في ضواحي القاهرة، على أن يوقع عقد الوقفية في الوقت الذي توقع فيه المالية عقد البيع. وقد كالم الاستاذ الامام وكيل نظارة المعارف بأن يكتب إلى نظارة المالية توصية بان تجعل الثمن رخيصاً جداً كعادتها فيما تبيعه للمدارس والاعمال الخيرية ففعل. وكلم الاستاذ نفسه مستشار المالية بذلك فوعدته، حتى إذا ما انتهت الوسائل قضى الرجل نحبه في الاسبوع الذي عين فيه موعد العقد كما بينت ذلك في ترجمته من مجلد المنار السابع

الحج والزيارة ورؤية مواضع غزواته (ص)

كان من أكبر آماله أن يحج بيت الله الحرام، ويحج المسجد النبوي وقبره عليه الصلاة والسلام، ثم يزور جميع أماكن غزواته عليه السلام ويضع خريته للحجاز يبين بها مواضع تلك الغزوات، وكان المانع له من المبادرة إلى ذلك ما كان يعمل به من اساءة السلطان عبد الحميد الظن به بتأثير سعاية الجواسيس ولا سيما بعدما كان من أمرهم عند زيارته للاستئانة فتد كان يرجو زوال ذلك ليكون آمناً على نفسه في أثناء أداء الحج وما يتبعه مما ذكرنا وكان يقدر لذلك أربعة أشهر

ولكن سوء ظن السلطان به كان يزداد عاماً بعد عام، وصار الخطر منه بعدما كان من تغير الخديو على الاستاذ أكبر، إذ كثرت تقارير سعاة الشر المفسدين في الطعن فيه وتخويف السلطان به، حتى ان الاستاذ عند ما كان في مرض الموت، كانت حكومة

سورية تبحث عنه في سواحلها إذ بلغها من طريق الآستانة عن مصر أنه عند ما انتقل من القاهرة إلى الاسكندرية كان يريد الذهاب منها إلى سورية لأجل عمل سياسي فيها

تأليف تاريخ الاسلام

لما فرغ من قراءة دلائل الإعجاز في الازهر كثرت عليه اقتراحات الطلاب والعلماء فيما يقرأ بعده ، واقترحت أنا عليه أن يشرع في تأليف كتاب في تاريخ الاسلام ويقرأه ، وكان الاستاذ الاكبر السيد علي البيلاوي شيخ الازهر اقترح عليه ان يقرأ تاريخ الاسلام إذ لا يقدر على ذلك غيره ، فعززت رأيه بهذا الشرط وهو ان يؤلف هو التاريخ وكما كتب شيئاً منه نطبعه ويشرع هو في قراءته ، فالقراءة تتبع الطبع ، والطبع يردف التأليف ، فانشرح صدره لذلك وعزم عليه ، ولكن حال دونه ما كان من الشعب السياسي الذي أثاره الامير وانهى باستقالة صديقه شيخ الازهر المذكور واستقالته هو من الازهر وما ولي ذلك من مرضه وفوفاته ، ولولم يخسر المسلمون بذلك إلا حرمانهم من هذا التاريخ لكانت خسارة لا يعرف كتبها إلا من يعلم ان المسلمين أحوج إلى هذا من كل كتب الكلام والمقائد ، إذ ليس لدينهم تاريخ مدون على الاصول العلمية الحديثة ، التي ارتقى اليها الا فرنجي هذا العصر ، حتى انهم ألفوا في تاريخ الاسلام ما لم يوجد له نظير في مؤلفات المسلمين كتاريخ سيدو الفرنسي المسمى بمخلاصة تاريخ العرب وقد بدأه بمقدمة فيما كانوا عليه قبل الاسلام ثم ذكر ظهور الاسلام وما كان من تأثير دعوته وفتوحاته فيهم وفي سائر العالم ، وما ترتب على ذلك من احياء جميع علوم العمران القديمة وترقية العرب لها ، على اختلاف أنواعها من رياضية وطبيعية وفلسفة وطب وصيدلة وآداب وفنون ، وما كان وراء ذلك من الحضارة وارتقاء العمران بالصناعة والزراعة ، واشراع طرق التجارة وغير ذلك . وكذا تاريخ حضارة العرب الدكتور غوستاف لوبون الشهير وقد تقدم ذكره وكان الاستاذ عهد الى أحمد فتحي (باشا) زغلول بترجمته فعمزم على ذلك ثم توفي الاستاذ ولم يفعل (١)

(١) ترجمه بعد ذلك الاستاذ الكاتب المؤرخ محمد اقدي مسعود الشير ولما بطبعه

ومن المعلوم بالبداية ان هؤلاء الافرنج لا يفهمون الاسلام وتأثيره كما يفهمه
أعلام المسلمين ، وأن في اعلام المسلمين مثل الاستاذ الامام ، فهو أوسع منهم
اطلاعا على مادة تاريخ الاسلام والسيرة النبوية ، وأدق منهم فهما ، فهو بعلمه هذا
وعلمه بما كتب المسلمون وبما كتبوا هم بطريقتهم العلمية ، وبقوة إيمانه وسعة
معارفه ، أجدر من عرفنا بأن يكتب للاسلام تاريخا يبين حقيقته وتأثيره الروحي
والمدني في اصلاح البشر ، ويثبت فيه بالتفصيل ما نقلناه من رأيه في مستقبل الاسلام ،
ويكون خير معين على الدعاية الاسلامية ، فانه يكون أعظم تأثيرا وأعم نفعا من
كتب العقائد كلها لاشتماله على ما فيها وزيادة ، ولقراءة كل الناس له وفهمهم إياه

﴿ جريدة يومية ﴾

كتبت في ترجمته التي نشرتها في النار عقب وفاته في هذه المسألة ما يأتي :
وكان في عزمه السعي لتأليف شركة تنشيء جريدة يومية في القاهرة تختار
لها طائفة من الكتاب الاختصاصيين يتقاسمون موضوعاتها فينفرد بعضهم في بيان
مأعليه المصريون في المدن والقرى والمزارع من العادات والتقاليد والاعتقادات
وما يطرأ عليهم من التغيير في ذلك ، وبعضهم في المسائل الاقتصادية والزراعية ،
وبعضهم في الموضوعات العلمية والادبية ، ويوضع لهم قانون لا يتعدونه ومن أحكامه
الاقتصار في المسائل السياسية والاخبار الصادقة على ما فيه العبرة والفائدة لاهل
البلاذ ، وعدم المدح والذم الشعري ، وقبول الانتقاد على ما ينشر فيها من كل
كاتب أديب ، ومنها أن يرجع في بيان جميع المصالح ذات البال إلى ما يقرره
مجلس إدارة الجريدة بالمشاورة فلا يكون ما ينشر فيها عبارة عن رأي رجل واحد
ومثلا يتذبذب مع ميله وهواه ، ومنها أن لا تكون الجريدة خصما لجريدة أخرى .
كنت ممن يابح عليه بهذا السعي منذ سنتين واخترت لهذا العمل من الكتاب
المجيدن المعتادين من رضي بهم ، وكاشفنا كثيرين من الكبراء والفضلاء في ذلك ،
واختارنا منهم أعضاء لمجلس الإدارة ، ووضعت تقريرا تمهيدا لانشاء المطبعة
ونفقات العمل . ولو بقي الامام حيا لرجونا أن يبرز هذا العمل في هذا الشتاء ، وان
خسارتنا بفقده لا عظم من كل خسارة

المقصد السابع

من الفصل السابع

أخلاقه وشمائله ومعارفه

أذكر هنا ما كتبه في ترجمته من المنار مع تفصيل وتنقيح إيضاح فأقول :
الاعمال ثمرات الاخلاق فما ذكرناه من أعمال الرجل يمثل بعض أخلاقه
لأنها بعض آثارها، وان وراء ذلك من أحسن الخلال، وآيات الكمال، ما تقصر عن
تمثيله جلائل تلك الاعمال، واقدم كملت الاستاذ الامام اصول الفضائل الاربع ، (العفة
والشجاعة والعذالة والحكمة) وما نشأ عنها وتفرع ، وإننا نشرح بعض أخلاقه
لتكون قدوة للمقتدين

عزة نفسه وعلو همته وتواضعه

طبع الله هذا الرجل على عزة النفس وعلو الهمة هبة ووراثته وتربية، وقد أدركه
السيد جمال الدين الذي درج في حجر السيادة، وترعرع في بيت الامارة، وهو
مجاور في الازهر، ومنقطع الى التصوف، يلبس قميصاً يبدو من أعلا جيبه صدره
الاشعر، وقد ارسل جمة كجمة الدراويش . فراءه من صاحب هذا القشف ما عنده
من العزة والاباء، وحفظ الكرامة ورقة شعور الشرف، وأكبر أن يكون هذا أثر
التربية والتخلق في بلاد ساسها الظلم، وتحكم فيها الجور المذلل للارادات المذل
للنفوس . وكأنه سبق الى نفسه أن هذا أثر وراثته لأحد آباءه الاولين، وانهم
لا بد أن يكونوا من الملوك والحاكمين، فقال له مرة أو مراراً « قل لي بالله أي أبناء
الملوك أنت ؟ » وهذا الخلق هو ركن الفضائل الركين، وناهيك بقول الله تعالى
(والله العزة والرسولة وللمؤمنين) وهو الباعث على جلائل الاعمال، والحامل على
الاستهانة بما بين يديها من الاهوال .

وقد يشبهه على كثير من الناس هذا الخلق الكريم، بخلق الكبر الذميم،
ولذلك كان بعض الحاسدين والجاهلين ينز الاستاذ الامام بهذا اللقب ولا سيما

عند ما كانوا يرونه مترفعاً عن الدهان والتملق للكبراء ، معرضاً عن يعارضه في مقاصده وإن كان من العظماء . ولو اختبروه ناظرين بعين الانصاف لرأوا حقيقة التواضع مع الرفعة كيف تكون ، ولرأوا كيف كان يخدم الفقير والمسكين ، ويتجافى جنبه عن مضجعه لأجل العفاة والمستفيدين ، ولأن الخديو كان يقول إنه يدخل عليّ كأنه فرعون !

مهابته ولطفه في المعاشرة

كان مهيب الطامة ، وقور المجاس ، وهذه الصفات تشبهه بصفات المتكبرين ، وإن كان من عاشره يرى من لطفه وتواضعه عن رفعة ، وأدبه وظرفه في أطف حشمة ، وفكاهته بما دون الدعابة ، ما يعلم به أنه كان له أوفر حظ من الوراثة الحمديدية التي عبر عنها هند بن أبي هالة (رض) في حديثه المشهور في شمائل المصطفى (ص) بقوله « من نظر إليه بديهة هابه ، ومن عاشره معرفة أحبه » وما زلت أقول إن نسيتنا جميع فضائله فإن نسي حلاوة عشرته ، وأنس محاضراته ، ولذة محاورته . ومن دقائق ملاحظته في التواضع والادب أنه كان يتحاشى صيغة الطلب الجازم في مخاطبة أصدقائه ومحبيه ، وتلاميذه ومريديه ، فيستبدل بالامر - الاستفهام والتخيير ، ويوسم مخاطب المدر قبل أن يحتاج إلى الاعتذار ، ثم إذا أخلف معه يتناسى إخلافه فلا يقابله بلوم ولا عتب . أذكر من لطائفه في هذا الباب قوله لي مرة : انني كوني غداً في مكان كذا بعد الظهر فإن ذكرت ذلك ووجدت فراغاً وأحببت أن تراني فملت ذكر كل هذه القيود وأنا أعلم أنه يريد أن أوافيه حتماً ، ولولا ذلك لذكر لي أنه يكون في ذلك المكان ولم يزد كما دته معي إذ كان يخبرني في يومه ، بمواقفته في غده سلامة صدره ، وصفاء قلبه .

قد عرف ربه الله تعالى بسلامة الصدر وصفاء القلب ، والحلم والصفح ، فما انتقم من مسيء ، ولا سعى في ضرر أحد قط ، بل كان يحسن إلى من أساء إليه : إذا استنجد به أنجده ، وإذا استترفده أرفده ، وإن عاد إلى الإساءة سبعين مرة كان معني كذا علماء الأزهر الوجهاء ، من أولي المناصب في القضاء ، قد انحراف عنه ، وكان من قبل زميلاً له في طلب العلم ، فحاض فيه ، حتى عرف بأنه من شائئيه ، فاتفق لهذا الرجل أن صدر عنه ما أغضب الرؤساء الثلاثة عليه : الخديو

ورئيس النظار ولورد كرومر . فضاقت عليه الدنيا وضاقت عليه نفسه ، ولم يجد له وسيلة يلتحد اليها لارضائهم أو استمالة بعضهم اليه إلا زميله القديم ، فجاءه بعد إعراضه الطويل المريض ، وقص عليه خبره ، فطيب قلبه وطأنه ، ولم يلبث أن طاف على الثلاثة وكلهم بما أَرْضاهم عنه في يوم واحد

تغليبه لحسن الظن وتغايبه عن الشر

كان على ذكائه وصدق فراسته يغاب عليه حسن الظن وبذلك دفع أناساً إلى مراتب لم يكونوا أهلاً لها ، والناس يمدون ذلك عليه ، ويغفلون عن عذره فيه ، وهو أن من رفهم ورقاهم كان لابد للأعمال التي رقام اليها من عامين ، فحسن الظن ببعض من يكن أن يعهد اليهم العمل وناطه بهم ، فمنهم من ظهر بالاختبار أن ظن الخير فيه صادق فكان صالحاً للخدمة شاكراً للصنيعة . ومنهم من ظهر بعد التجربة أوامه ، وتبين فساده وشؤمه ، فلم يصلح عملاً ، ولم يشكر محسنه . ومن هذا الفرق من ساء إلى من أحسن اليه ، وكفر حقوق المنعم عليه . ومنهم من أظهر الوفاء ، في وقت لرحاء ، وأظهر حقده وضغنه ، عند الضراء والمحبة . وليت شعري ما حيلة الرجل الذي جبت طينته على الاحسان ، وتوجهت همته إلى الخدمة العامة ، وقد نشأ في قوم فشا فيهم فساد الاخلاق ، وقل فيهم الوفاء والاخلاص . أيمن أن يقال له لا تسد إلى أحد معروفه ، ولا تسع لاجل أحد بخير ، الا بعد أن تجرب به عدة سنين ، فتعلم انه من المصلحين والشاكرين كيف وإنما يجرب الرجل بما يعهد اليه من الاعمال ، وما يعامل به من البر والاحسان . وكان أهل الخبث والمكر من حاسديه يظنون أنهم يخذعون به دعاةهم وودعائهم ، ولكن فراسته كانت تحرق صدورهم ، وتنفذ إلى سواد قلوبهم ، ويقرأ في صدقهم وجوهرهم الأولى ، مارسم على صحائف وجوههم الاخرى ، وإنما يقبل منهم ما أنفهم ولا ويتغابي عما أضمرُوا ، عملاً بقوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن) الآية وما ورد في خبر « اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى غير أهله ، فإن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن تصب أهله كنت أنت من أهله » رواه الخطيب في رواية مالك عن ابن عمر (ص ٨٨٨) وابن النجار عن علي (رض) وهذا ما أوصى به لاستاذ الناس في السودان كما قدم (ص ٨٨٨) وكان يعجبه قول أفلاطون : استصلاح العدو أحرم من استمالة الكافر

على انني لا انكر انه كان لسلامة قلبه يفيض امام بعض من يعتقد اخلاصهم بما لا تسمعه عقولهم ، ويفضي الى بعضهم بما تضيق عنه صدورهم ، وانه كان لمبالغته في الحلم يعفو عن لا تعفو المصلحة العامة عنه ، ويصفح عن يقضي الاصلاح بالانتقام منه ، وقد كان يكون هذا العفو والصفح مما يخفى على من عفا وصفح عنهم ، كما كان يخفى عليهم الانتقام لو أنه انتقم منهم . وامله لولا هذا الخلق لكان نجاحه أسرع وأتم ، وإصلاحه أشمل وأعم . وقد تقدم في الكلام على عمله في إصلاح الازهر أنه كان قادراً على الانتقام من أشد الناس مقاومة له فلم يفعل ، (ص ٤٩٤ و ٤٩٥ و ٥٥٦) وقد وشى به مرة بعض من كان لهم صلة بلورد كرومر فذكروا له انه يحايي في قضائه المسلمين على القبط ، وذكروا ان ذلك وقع له مراراً في تلك السنة ، فسأله اللورد عن ذلك فأثبت له انه لم يتقاض عنه أحد من القبط في تلك المدة كلها ، وإنما كانت جميع أحكامه على المسلمين ، وأحضر له كشفاً رسمياً بتلك القضايا كلها ، فذكر على اللورد أن يكذب عليه هؤلاء الوشاة بما كان سبب خبجه مع هذا القاضي العادل ، وصرح له بإرادة الانتقام منهم ، فبالغ الاستاذ رحمه الله في استعطافه وإرجاعه عن رأيه ، بحجة انه يكره أن ينتقم من أحد لاجله ، فرجع عن ذلك . ويقال إن الوشاة عرفوا ذلك الاستاذ الامام وحفظوها له منقبة من مناقبه ومنه له عليهم .

إثارة المصلحة العامة على الخاصة

كان يرجح في المصالح العامة أصحاب الكفاية والاستعداد على المحبين له والمتصلين به ممن دونهم . وقد سمعت صديقه منذ الطلب ، وصاحبه بالجانب ، (الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان) يعاتبه في هذا ، ويصفه بأنه لا يعرف أعداءه ... وذكر له رجلاً منهم قدمه على غيره في منصب القضاء الشرعي ، فأجابه : إنما قدمته لانني أعلم انه احق بالترقية ممن قدمته عليهم ، وأقدر على العمل منهم ، ولو جعلته سكرتيراً لي وهو لا يحبني ، لكنت جديراً بلومك لي ، ولكنني لأخون المصلحة العامة لهوى نفسي ومن استقرأ أعمال الوزراء ورؤساء المصالح في هذه البلاد وأمثالها يرى أن كلا منهم يعني بإيثار أهله وأصحابه ورجال حزبه على غيرهم ، وإن كانوا خيراً منهم ، وهذه الآفة شر الآفات التي تفسد الحكومات وتضعف الأمم .

وفاؤه لأصدقائه وأصدقائه

كان من أشهر صفاته الوفاء لأصدقائه ، يهتم بشأنهم في السر والظهر ، والبعد والقرب ، والغيب والشهود ، بمثل ما يهتم آباؤهم وأبنائهم أو أشد ، وكثيراً ما يسعى في دفع الشر عنهم وفي سوق الخير اليهم ، بأشد مما كانوا يسمعون لأنفسهم . لهذا كان من أعجب الشعر اليه هذا البيت الذي كان يضعه أمامه على مكتبه مكتوباً بخط جميل ، لأنه يصور حاله مع أصدقائه أدق التصوير

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وقد حضر في شبابه مجلساً من أترابه فتمنى كل منهم ماتسمو اليه نفسه من سعادة الدنيا ، فكانت أمنيته هو أن يكون له صديق وفي مخلص ينعم بمعاشرته

وما من صديق ولا محب له الا وكان آمناً من انحرافه عنه ، بل من توانيه في الانتصار له ، تأثراً بقول واش محال ، اورهبة من كيد قوي ذي محال ، أو طمعا في جاه او مال ، وقد كان في وفاته هذا خير قدوة لمعاشريه والمتصلين به ، يربي نفوسهم باخلاقه وسيرته ، كما يربي عقولهم بعلمه وحكمته ، فريدوه ومحبه الصادقون أشد الناس وفاء لمن يحبون ، وأعظمهم اخلاصاً لمن يصطفون ، وكان من وفاته لأصدقائه أن يحافظ على مودة ابنائهم وأحفادهم من بعدهم ، ويبذل جهده في مساعدتهم ، فقد كان أولاد صديقه الرحوم سليمان باشا أباضه عنده بمنزلة أولاده أو أخيه حموده بك الذي رباه منذ صغره ، وكذلك أولاد احمد بك محمود وجيه الرحمانية وآل الوكيل . وقد بينت أصل هذه الصداقة بين هاتين الامرتين وبينه في الكلام على عمله ورأيه في الثورة العراقية (ص ١٤٨) قضى أحمد بك محمود شتاء بعض السنين في فندق (عدن بلاس) بالقاهرة في اثر عملية جراحية عملت له فكان الاستاذ الامام يزوره فيها بعد الخروج من الازهر في كل ليلة من الليالي الدرس ، فيمكث عنده مدة طويلة وكنت أذهب معه في الغالب كما كنت أصحبه في أكثر الليالي قبل ذلك وبعده . وقد حدثني في

أول ليلة صحبته فيها لزيارته بما كان من دقائه عنه عند ما ائتمر به المرابطون لقتله ، كما ذكرته في موضعه ، وذكرته درجة صداقة سليمان باشا أباطه له في (ص ٤١٧)

وفاء أصدقائه له وتقديرهم له

وكان أصدقائه الذين عرفوا وفاءه وسائر فضائله مغتبطين بصداقته ويعدون لها من أفضل حظوظهم من هذه الحياة الدنيا بقدر إدراكهم لنعيم الحياة العقلية الروحية الأدبية فيها ، ويودون لو يبذلون في سبيل مرضاته كل ما يستطيعون من مال وعمل ، وكان ممن لم أدرك منهم هنا سليمان باشا أباطه وعبد الله باشا فكري وأمين باشا فكري (وكان هذا مريضاً عنده جرتي إلى مصر وتوفي قبل أن أعرفه) وعلي باشا مبارك والشيخ علي اللبني وكان يذكر هؤلاء ذكراً حسناً . وكان من أصدقائه جميع إخوانه من تلاميذ السيد جمال الدين المخلصين ، وقد أدركت طائفة منهم ولما أنشأت المنار عهد إلي أن أرسله إلى الأماقاذا الصوفي الشهير الشيخ أبو شرة قوي في نجع حمادي من الصعيد الطيب وإلى الشيخ داغر القاضي الشرعي في الشرقية على أن لا يؤخذ منهما شيء من قيمة الاشتراك قال هذان صديقان لي وحسابهما علي ، أما الأول فهو من بقايا شيوخ الطريقة الصالحين المخلصين ، وأثنى علي علمه ومعرفته بالتصوف^(١) وأما الشيخ داغر فهو من خيار إخواننا تلاميذ السيد جمال الدين ، وهو فقير (وقد رأيته عنده بعد ذلك فاذا هو من خيار الصالحين) وأما أصدقائه ومريدوه الذين عرفناهم وعاشرناهم من العلماء والأمرء والوجهاء في مصر وسورية فكثيرون قد مر ذكر بعضهم وسيأتي ذكر آخرين منهم ، وقد وعدت عند ذكر محمد بك راسم في الكلام على درسه الخاص أن أذكر عنايته به في مرضه الأخير فأقول :

لما نقل إلى الاسكندرية لتمريره فيها أنزله صديقه محمد بك راسم بدارهم في الرمل وكان أخوه الذي يسكنها مسافراً ، وهي من أجمل قصور الرمل بناءً

(١) وقد جاء مصر وزار أستاذنا فيها ولم يتح لي لقائه ولكنني حظيت بصداقة نجله وخليفته الأستاذ أبي الوفاء فكان من أفضل من عرفت وصادقت

وأثنا ورياشا ، فجعل الدور الملوي له ولاهل بيته ، والدور الاول للوافدين لعيادته والسؤال عنه ، وللأصدقاء الذين يقيمون الليالي ذوات العدد عنده للقرب منه وتسلية ، وما يرجون من الاطمئنان برؤية حاله ، وللخدم

وكان في كل طبقة من الدار حجرات للجلوس والنوم وحجرة المائدة وحمام ، وكان طاهي الدار يصنع في كل يوم عدة ألوان من الطعام التي لا يعمد مثلمها إلا عند أرقى طبقات الاغنياء ، تزيد على حاجة كل من في الدار .

ثقل أمر هذه النفقة على أهل بيته فرجوا منه أن يرغب إلى محمد بك باسم في الاذن لمجوده بك أخيه بتولي إحضار مادة الطعام ، فقال لهم أنا أستحي أن أكله في هذا لانه يشق عليه أن يسمعه مني ، وهو يعلم بما عندي من دقة الشعور بشعوره واخلاصه واحتقاره لهذه النفقة ، ويكبرني أن أكله فيها ، ولكنني أعهد إلى السيد رشيد أن يتلطف في استئذانه بذلك معتذراً بمراعاة شعور كن النسوي ، وذكر لي ذلك وعهد إلي أن أبرئه هو من خطور هذا بباله ، قائلاً : انني أعلم من نفسي انه لا يعمد هذا شيئاً يصح أن يذكر بين الاخوان ، فاني لو علمت انك تحتاج إلى داري بما فيها لكان تركي إياها لك مما يلذ لي وترتاح اليه نفسي ، ولا أعده شيئاً يذكر فكلمت محمد بك باسم أحسن الله تعالى اليه وأكثر في الامة من أمثاله وقلت ان زوج الاستاذ الامام عصبية المزاج وكذلك أخوه حموده بك وقد ثقل عليهما وعلى بناته نفقة الطعام ، واكلوه في ذلك ، فقال لهم انه ليس لي لسان يستطيع ان يقول لمحمد باسم كلمة في هذا ، فلما ألحوا عليه أحالهم علي ، وقال كيت وكيت ، فعمط علي محمد باسم بك هذا الكلام وقال واجماً متألماً : أي شئ هذا حتى يذكر ؟ إن بذل النفس والنفائس قليل في سبيل هذا الرجل العظيم ، انني لا أعطي الطاهي إلا شيئاً حقيراً وهو ثمن اللحم والسمك والخضر والفاكهة والمربى ، وما عدا ذلك من السمن والعسل والحبوب فانها تأتي من كفر الجاموس (يعني مزرعة لهم بهذا الاسم) قلت يقول حموده بك إن الطاهي والخدم يزيدون في ثمن الاشياء ، فاذا تولى هو الصرف يتلافى هذه الخيانة . قال وماذا عسى أن يزيدوا ؟ يزيدون عشرة أو عشرين في المائة ؟ هذا ليس بشئ ، يذكر ، وهم في حل منه ، فأرجوك أن تقنع

حموده بك ليقتنع الحربم بان الاستاذ والدنا ، وانه لا يليق أن يجري هذا الحديث بيننا
وأما وصف ثقة أصدقاء الامام به فمن أحسن ما سمعته فيه قول محمد حافظ
(بك) ابراهيم : قال لي يافلان اننا لم نقع في حاجة إلى وفد الشيخ لنا في الرزق
وضرورات المعيشة ، ولا في الدفاع عن حياتنا او شرفنا ، ولكننا نشعر في
أعماق أنفسنا باننا بوجوده في أمانة من الحاجة ومن الظلم ، وان كل ماعسى أن نحتاج
اليه نجده عنده ، فنحن لا نحسب مع وجوده حسابا لعدوان ولا حاجة ، او ما هذا معناه
ولكن حافظا خشي يوما أن يؤثر في نفس الامام ما كان يدبره بعض الناس
من الدسائس والمكائد للفرقة بيننا وبينه في أثناء سفره الاخير الى اوربة
فتونس والجزائر ، إذ كان منهم من يكيد لي ومنهم من يكيد له ، وكان هو يتسقط
أخبارهم ويكشفني بها ، وقد قال مرة : أترى يا شيخ رشيد تروج هذه الدسائس
لدى الاستاذ الامام ؟ قلت له انه لأجل نفسا وأسمى أخلاقا من ذلك ، ونحن
إنما نجله لعلو نفسه ، وسمو عقله وأخلاقه ، فان فرضنا ان هذه السعاية الدنيئة أثرت
في نفسه تأثيراً حملاً على ترك مودتنا ونحن أخاص الناس في وده والتنويه بفضله
والدفاع عنه ، فنحن نتركه غير آسفين ، إذ يظهر لنا بذلك اننا كنا في إجلاله
مخطئين ، وقد أشار حافظ الى تلك الدسائس في القصيدة التي هناها بها بعودته
من ذلك السفر ، وقد نشرناها في المنار وسننشرها في ذيل هذا التاريخ ان شاء الله
وجملة القول انه كان أوفى الاوفياء لاصدقائه ، وكان له من الاصدقاء
انصديقين مالم يتح بمضه لغيره ، قال له محمد حافظ ابراهيم ، ياسيدي ان لك أعداء
كثيرين ، فأجابه ولم تذكر أعدائي وتنسى أصدقائي يا حافظ ! فهل تعلم ان أحداً
له مالي من الاصدقاء ؟ قال اللهم لا ، وتأمل هنا حسن موقع قوله يا حافظ !

ثقة بالله دون الخلق

كان على ما علمنا من صفحه عن الاعداء ، وكمال الوفاء الاحباء ،
والثقة بصدق بعض الاصفياء ، والاحسان بأوائك وهؤلاء ، لا يخاف في طريقه
إلى الاصلاح عدوا مبيناً ، ولا يتكل فيه على الصديق وان كان ناصحاً أميناً ، وانما
كان مستقلاً برأيه مع الاستشارة ، مستقلاً بإرادته مع الاستعانة ، واثقاً بان الله

يؤيده ويسخر له الناس ، لا خلاصه لله وللناس ، يستخدم في سعيه كل من استطاع استخدامه من موافق ومخالف ، ووطني وأجنبي ، ولكنه لا يعتمد في قلبه على أحد من الناس ولا يفتر باحد منهم .

كان في الناس من يظن أن السبب في شجاعته وقوة عزيمته في عمله ونفوذه عند الحكومة وادلاله عليها ، هو اعتماده على حزبه الكبير الذي يضم جماهير العقلاء والفضلاء والكتاب والادباء ، وفيهم من يظن أن سبب جراته ومضائه واقدامه ثقته بتأييد الحكومة له وبالقوة المحتملة من وراء الحكومة . أما هو فكان يعتقد أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم بما وهبه من العزيمة والاخلاص . وقد كلمته مرة فيما يقل من ثقته بالحكومة ... فأقسم بالله انه يشعر بأنه في هذا الوجود كالعريان الذي ليس له فيه شيء ، وأنه لا يعتمد على شيء إلا على الله وحده وهو المسخر لمن يشاء . وقد تقدم بيان رأيه في الانكليز المستعمرين كمحتلي مصر (ص ٩٢٢) وأما رأيه في الحكومة المصرية في عهد الاحتلال فله فيه مقالة أملاها في أثناء مرضه ونشرت باللغة الفرنسية في بعض المجلات وفيها يلقب جماعة النظار (الوزراء) بجمعية الصم البكم ، وعلني أعتر عليها فأنشرها في ذيل هذا التاريخ

صدقه وشجاعته

كان رضي الله عنه معتصما بمجبل الصدق ، متحررا ما يعتقد انه حق ، وإذا تذكرت ان علة العلل لفشو الكذب في الناس هي شدة ظلم الحكام ، واستبداد أولي السلطان ، وان أ كذب الناس أكثرهم قربا من الظالمين ، ومعاملة للحكام المستبدين ، علمت ان ملكة صدق اللسان ، لا تربي إلا في حجر شجاعة القلب وجسارة الجنان ، ولولا شجاعته لما نادى بمقاومة الاستبداد - والاستبداد (كما قال) في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ولما حافظ على رأيه واعتقاده وان خالف العلماء والحكام ، وخالف الجماهير المعبر عن رأيهم بالرأي العام ،

هذان الخلقان - الصدق والشجاعة - هما شرطان للقدررة على الاصلاح ، فالكذب والجبان عدوان لله لا يصلحان لشيء من الخير ولا يصلح بهما شيء . وان التزام الصدق في أمة فشا فيها الكذب ، واعتادت الدهان والملق ، من أشق الامور

على النفوس ، وأبمدها عن طاعة التهذيب ، لما له من الاثر في احفاظ القلوب ،
والتأثير في إثارة البغضاء ، وتكثير سواد الاعداء ، وتنفير المحبين والاصدقاء ،
فكيف يتكلفه المتكلف مع هذه المنفرات عنه ، والمرغبات في ضده ، ثم كيف
يكون ملسكة نفسية ، لا تتكلف فيه ولا روية ؟ لا تحسب الامر سهلا فان الظهور
بمخالفة اهواء العامة مما يجنب امامه الملوك القاهرون ، وينكمش دونه العلماء العاملون ،
ولهذا يدهن الرؤساء المرءوسين ، ويدهن الرؤسون للامراء والسلاطين ، فالصدق
فيما لا يرضي العامة ، أشد من الصدق فيما لا يرضي الخاصة ، فما بالك بالصادق فيما
قد يغضب الفريقين ، والصابر على الطعن من الجانبين ، أليس هو في مرتبة
الصديقين ، التي تلي مرتبة النبيين والمرسلين ؟

وقد ذكرت في الكلام على دروس الاستاذ الامام خلاصة خطابه الذي ألقاه
في الجامع الازهر في حفلة ختام درس المنطق وفيه ان الشجاعة الازنية هي التي تعتق
الافكار من رق التقليد ، فتكون حرة مطلقة العنان في ميدان العلم ، جديرة بالسبق
إلى معرفة الحق وبيانها ، وان من فقد هذا الخلق لا ينتفع بعلم المنطق ولا يكون أهلا
للاستدلال ، فلا يكون عالما مستقلا في علمه حق الاستقلال (راجع ٧٦١)

رأيت الاستاذ الامام في النوم بعد موته بايام فقال لي : إن الله تعالى أعطاني
مقعد الصدق او قال : اني في مقعد الصدق . فتذكرت كلام الشيخ محيي الدين بن
عربي في مقام الصدق وحال الصدق ، ومنه ان صاحب حال الصدق يكون كثير
الظهور بالولاية والكرامة كثير الدعوى بحق ، - كعبد القادر الجيلي - وصاحب
مقام الصدق أعلى وأكمل ، ويكون في الولاية مجهولا لا يعرف ، ونكرة لا تعرف ،
- كأبي السعود بن الشبل تلميذ عبد القادر - وتذكرت جهل الناس بمقام الاستاذ
الامام ، في الولاية والعرفان ، احتجاجا بمظهره الدنيوي ومعارفه الكونية ، عن
مرتبه الروحية ومعارفه اللدنية ، واستيقظت وعلى لساني قوله تعالى (ان المتقين
في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر)

وبعد بضعة أشهر من وفاته كتب إلي الاستاذ الشيخ احمد محمد الاني من
طوخ القراموص كتابا جاء فيه مانصه :

ولمناسبة ذكر الاستاذ الامام أخبركم برؤية منامية حصلت لي معه وهي - رأيت كأني في قراقة مصر في يوم عيد ومعي بعض الاخوان فعرضت عليه زيارة قبر الاستاذ الامام فامتنع فتوجهت بنفسي اليه فرأيت حوشاً جديداً مبنياً عليه باب ذو ضربتين فاستأذنت من عنده بالدخول فأذن لي فدخلت على مكان القبر وسلمت على من فيه فاهتز القبر لذلك وانفلق عن الاستاذ الامام فاذا هو شيخ موقر ابهى من هيئته التي كان عليها في الدنيا ، وبعد أن رد علي السلام اوماً إلي كأن أقبله فقبلته ، ثم قلت له ما فعل الله بك ؟ فأجابني بجواب لا أفهمه اولاً وثانياً فقلت له سأكرر السؤال حتى أفهم الجواب فقال - أعطاني مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - فقلت له في اي مقام أنت ؟ فأجاب - في مقام الصديقية . (وهذه الاجابة كانت لها مناسبة نهارة إذ جاء ذكر فضيلته بين بعض الاخوان وبينني فقال (هل هو ابو بكر الصديق ؟) فقلت نعم انه صديق زمانه) ثم قلت للاستاذ الامام ماذا ترى حالي ؟ فقال حسن (ولكن لا يضر الناس - يعني المسلمين منهم - إلا أخذ الربا وأكله) انتهى

هذا - وإن ما ذكرناه من الشجاعة في التزام الصدق ، والمجاهرة بنصرة الحق ، هو ما يعبر عنه كتاب العصر بالشجاعة الادبية ، وانت لا تجهل ان من لا يهاب في الحق صولة الحسام ، ولا يخاف طعن الخواص والعوام ، فهو جدير بان لا يخيفه الحسام ، ولا ترهبه السهام

كاشفني رحمه الله مرة بكتاب جاءه بغير توقيع يهدده مرسله فيه بالقتل اذا هو ظل مسترسلاً في عمل نسب اليه^(١) ورأيت غير مبال به ولا مكترث له ، فقلت له إن لك أعداء لا يخافون الله ، وانك تجيء دارك في الليل وهي في الخلاء بعيدة عن العمران ، فلو نظرت في ذلك. فقال أو أنت تقول مثل هذا ؟ اني لم أهني نفسي الى الآن بأنه وجد في وطني من تجرأ علي بكلمة « أخطأت » ، فأخاف ان يتجرأ احد منهم على محاولة قتلي ؟

وسأنته مرة ماذا تصنع إذا هجم عليك لص في الليل أتطلق عليه الرصاص

(١) هو ما اتهم به باطلا من مشايعة الحكومة في مسألة المحاكم الشرعية وتقديم شرحها

من هذا المسدس - وأشرت الى مسدس معلق بسرير نومه - فقال لا يجوز إطلاق الرصاص في البيت فانه يزعج النساء والعيال ، وليس عندي للص الا القبض عليه والاخذ بوقوف رقبته :

وكان في سن الشباب يسير مع والده ليلا في خلاء من الريف فهجم عليهما صائل من قطاع الطريق بيده نبوت مستدير الرأس فيه مسامير كبيرة من الحديد رفعه ليضرب به أحدهما فسبقة الولد بضربة خر بها صريعا ويظن انه مات وأغذاها في السير

وخرج هو وبعض أصدقائه في بيروت في بعض أيام الآحاد للتنزه في حدائق (انطلياس) من ضواحيها في لبنان وهو المكان الذي يصفى فيه ماء النهر ويدفع إلى مدينة بيروت ، وفي أيام الآحاد يكثّر هنالك المتنزهون ، فيينا هو يدخن بشيشته (النارجيلة) مع أصحابه أقبل شاب من دعاة النصارى الذين يدلون بالفتوة والشجاعة ووضع لفافة من التبغ على رأس شيشته فأشعلها بنارها ، وهذا يعد احتقارا في عرفهم ، فأخذ الأستاذ الشيعة وضربه بها في صدره ، فتداعى كثير من شبان النصارى والمسلمين للتناصر والنجدة ، وكادت تكون فتنة ، ولكن وقى الله شرها فشجاعة الأستاذ الامام بنوعيا كانت تجتدم في بعض أوقات الغضب فتخون حلمه وأناته ، فيخاطب أمير البلاد على مسمع كبار العلماء بمثل ما رويناه عنه في (ص ٥٧٣) ويقرب منه قوله لوزير الحماية وهو رئيسه في إحدى ليالي رمضان بقصر عابدين وهو يحاوره في مسألة قضائية على مسمع من كبار رجال القضاء ونعميرهم : يظهر ان سعادة الباشا لا يستوفى حاجته من النوم في هذه الايام فيظل فكره متعبا - يعني انه لهذا لم يفهم المسألة ! بل صرح بما يفيد هذا المعنى . فما كان ينتقده على السيد جمال الدين من الحدة لم يكن بمنجاة منه ، ولكنه كان دونه فيه ، وقد تذكرنا مرة في هذا الموضوع فقال لي إن السيد كان يقول لي إن في جيبك قرداً يخرج في بعض الاحيان . وقد تقدم فيما كتبه الامير شكيب من سيرته في بيروت انهم لم ينتقدوا من أخلاقه إلا شيئا من حدة المزاج (ص ٤٠٤)

انصافه في الرأي والعلم واذاكم

كان من خلائقه الانصاف في الرأي والعلم ، كالا نصاب في الحكم ، والبعد عن
المكابرة ، في المذاكرة والمناظرة ، فلم يكن يزدهيه الغرور والاعجاب ، بسعة العلم
وكثرة الصواب ، ولا كان يصده الاعتراف له بالامامة في العلم والدين ، عن الرجوع
إلى رأي أحد التلاميذ والمريدين ، فضلا عن العلماء والعارفين ، بل كان رجاءا للحق
إذا ظهر له ، يحترم فهم غيره ورأيه ، وهذا الخلق عزيز في العلماء ، لاسيما ذوي
الشهرة والجاه ، ومن طلب آية على هذا فليرجع الى ما كتبه الامام الغزالي عنهم في
بيان آفات المناظرة من كتاب العلم في الاحياء ، فاذا علم بما كان يجري بينهم والعلم
حي والامة عزيزة - ومن لوازم ذلك الانصاف - فما ظنه بهذا الخلق في خلف
لم يبق لهم من عزة سلفهم إلا الفخر بها ، ولا من علمهم إلا الحكاية عن قلد هم فيه .
من آيات انصاف أستاذنا ورجوعه الى الحق ما هو مدون في مواضع من المنار .
من ذلك ما نشرناه له في تفسير (وأما السائل فلا تنهر) إذ اختار قول بعض
المفسرين - وهو الحق - أن المراد بالسائل من يسأل عما يجهل ويطلب التفقه في الدين ،
وذكر فيما كتبه في تفسير جزء (عم) ان لفظ السائل لم يرد في كتاب الله عنوانا
للفقير والمساكين ، فظن بعض من قرأ ذلك ان قوله يفيد ان لفظ السائل لم يرد في
القرآن بمعنى طالب المال . فذكره رجل مستنير من عمدة البلاد^(١) بقوله تعالى :
(والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم) فحسب بادي الرأي انه أخطأ
فيما كتب ، فأرسل إلي ورقة صغيرة يصرح فيها بتخطئة نفسه ، وكافني طبع
عشرة آلاف نسخة منها بعدد ما طبع من كتاب تفسير « جزء عم » لتلصق
بنسخ التفسير ، وأمر الجمعية الخيرية بأن تملك عن بيع الكتاب حتى تطبع
الاوراق وتلصق بنسخه ، وكتب بيانا لذلك وأرسله إلي لأنشره في الجرائد ،
فرجعت إلى الجزء فرأيت عبارته صحيحة إلا انها مهمة ليست كالمعهود في بيانه ،
فراجعته في ذلك ولم أطبع البيان ، فعاد الى التأمل في العبارة ورجع الى مسودات

(١) هو صديقنا المرحوم الشيخ عبد المؤمن موسى الذي تقدم ذكره في (ص ٩٢٩)

تفسير الجزء فتذكر انه ما كتب تلك العبارة في السائل إلا وهو ذاكر لما توهموا انه يناقيا من قوله تعالى (وفي أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم) وقوله تعالى (والسائلين وفي الرقاب) ثم كتب ما كتب في إيضاح العبارة واعترف بما فيها من الابهام ، واستغفر الله من العود الى مثله ، وقد نشرنا ذلك في ص ٨١٥ من المجلد السابع من المنار فليرجع اليه من شاء

هذا ما نشرته في ترجمته من المنار بشأن انصافه في العلم وأزياه على ذلك هنا انه كتب إلي يومئذ و كان موعوكا في فراشه ما يأتي :

ولدنا حضرة الشيخ رشيد رضا

وقع سهو في تفسير سورة (والضحى والليل) حيث ذكرت ان لفظ السائل لم يرد في القرآن بمعنى الفقير مع انه ورد في سورة الذاريات و (سأل سائل) فأحب أن يعرف ذلك ويكتب في بعض الجرائد حتى لا يتعرض متعرض آخر للهديان في موضوع مثل هذا ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤ محمد عبده

وأرسل مع هذا ورقة فيها تصحيح مفصل لهذا السهو فوجدت فيه الوقفة التي أشرت اليها ووقفة أخرى لانه كتب في حال مرض وكدر شديد لاشتداد المرض على صديقه الاستاذ الشنقيطي الكبير وما جاء في الكتاب الا وكان الشنقيطي قد قضى نحبه ، وواريناه لحداء ، فكتبت اليه ما يأتي :

مولاي

جهز فقيدنا الشيخ محمد محمود (الشنقيطي) رحمه الله تعالى وشيع ودفن على السنة التي تحبها له ولغيره كما كان هو يحبها ، فأحسن الله عزاءك ، وعزاء العلم والفضل ومحبيهما بك ، وقد بشرني أخي محروس افندي بان صحة مولاي على أحسن ما كانت أمس ، ولولا ذلك لما صبرت عن المجيء إلى عين شمس

ثم انني أردت أن أبيض ما كتبتم في مسألة (السائل) ففطنت لامر لم يخطر ببالني أمس ، اذ كنت تصفحت المکتوب على عجل ، وهذا الذي خطر لي الآن هو ان عدم جري سنة الكتاب باعتبار لفظ السائل عنوانا للفقير والمسكين لا يظهر جماله علة او سببا لامتناع كون ذلك اللفظ في الآية لطالب الصدقة -

فكون السائل هو المستفهم عما لا يعلم لا طالب الصدقة ظاهر في نفسه، وكون لفظ السائل لم يرد عنوانا للفقير والمسكين ظاهر أيضا . ولكن هذا العطف الذي يفيد السببية والتعليل غير ظاهر لي (١)

فهل أكتب النبذة وأنشرها في الجرائد على وقفتي في العبارة وأنتظر اللقاء لتظهروا لي بالقول ما لم يظهر لي من الكتاب؟ أم أرجي النشر انتظاراً لبيان آخر منكم؟ أنتظر الجواب غداً بواسطة حموده بك أو محروس افندي . والامر لمولاي حفظه الله ٢٥ شوال سنة ١٣٢٢ ولدكم

محمد رشيد رضا

فكتب إلي على الجانب الآخر من كتابي مراده من عبارة التفسير وكتب بعده مانصه : « فإذا شئت أن تضيف شيئاً من هذا على ما كتب فافعل واختر موضعه . وعبارة التفسير فيها اجمال جر الى تأليف حاشية كهذه ، فأستغفر الله مما صنعت فيها ، وأرجو أن لا أعود الى مثلها »

وأعني بنشر هذا انه رحمه الله تعالى فوض إلي أن أزيد فيما كان كتبه أولاً شيئاً من معنى ما كتبه أخيراً على جانب كتابي ، وأن أضعه في الموضع الذي أراه لائقاً به مما كتبه أولاً وأنشره بامضائه ، وهذا من تواضعه وانصافه من نفسه، وإذنه لتلميذه الموثوق به عنده أن يتصرف في كلامه . وحينئذ كتبت الموضوع وزدت فيه ما رأيته وبيضته وعرضته عليه فأمضاه فنشرته في المنار (ص ٨١٥ من المجلد السابع) وفي بعض الجرائد

ولما طبعت الجمعية تفسير جزء عم ثانياً في مطبعة المنار بعد وفاته رحمه الله تعالى وضعت فيه هذه الحاشية عند تفسير الآية ، مع تصحيح ألفاظ أخرى

(١) أصل عبارته في تفسير الآية (وأما السائل فلا تنهر) : والسائل هو المستفهم عملاً يعلم وإيس هو طالب الصدقة فان هذا اللفظ لم يرد في كتاب الله عنواناً للفقير والمسكين « الخ فلا شك في العبارة محصور في قوله » فان هذا اللفظ الخ أي في عطائه على ما قبله بالقاء المفيدة للسببية . وعدم وروده كذلك لا يظهر كونه سبباً لوجوب حمل السائل بمعنى المستفهم عما لا يعلم . وقد قلت له أنت كثيراً ما تكون سائلاً تطلب المال من الأغنياء للفقراء والمنكوبين والجمعية الخيرية

قليلة وقعت خطأ في الطبعة الاولى وأمر هو بتصحيحها. ثم طبعت الجمعية مرة ثالثة فحذفت منه الحاشية اذا عتمدت على الطبعة الاولى، وهذا من غرائب الاهمال المبني فيما يظهر على المبالغة في حسن الظن بتصحيح المطبعة الاميرية، فلعل الجمعية تنشر الحاشية وتعتمد في التصحيح على طبعة مطبعة المنار، عند إعادة طبعه إذ هو يطبع مراراً كثيرة وأبلغ من هذا في انصاف الاستاذ الامام وعنايته بتصحيح العلم الذي ينسب اليه انه عند إلقاء ذلك الدرس العام او المحاضرة في العلم والتعليم في حاضرة تونس كنبه بعض من حضره وعرض عليه فصحيحه ونشر في جريدة الحاضرة المشهورة هنالك، ولما أردت طبعه في المنار قلت له ان مانشر في تونس غير معتنى بصحته فأذن لي بتصحيحه وتنقيحه عند نشره في المنار، وقد صرحت يومئذ بهذا الاذن، وهذه فضيلة له قلما يشاركه فيها أحد من العلماء المشهورين في هذا العصر وان لم ترتق شهرتهم إلى أدنى درجات شهرته العالية، وقد نقل عن الامام الغزالي انه أمر تلاميذه بتصحيح ما قد يقع في كلامه من غلط في اللغة العربية لانه لم يبلغ الغاية منها وأبلغ من هذا وذاك ما كان من انتقاد الاستاذ الشيخ محمد محمود الشنقيطي على رسالة التوحيد واعلان الاستاذ لهذا الانتقاد في مجلس الدرس في الجامع الازهر مع الثناء على المنتقد، وقد نشرنا ذلك بوقته في المجلد الاول من المنار (٤٦٥ طبعة ثانية) في أثناء مقال عنوانه (انصاف العلماء) وهذا نص المراد منه :

« هل أتاك حديث علماء الآخرة وأنصار الحق وما كان من شأنهم تلقاء رسالة التوحيد » قرأ الرسالة العلامة المحدث الذي انتهت اليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار لاسيما علم الرواية للحديث الشريف ولاشعار العرب والمخضرمين، ألا وهو الاستاذ الفاضل الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي، فتوقف في بعض الحروف وبعض المسائل منها، فولى وجهه شطري بيت الاستاذ المؤلف حتى اذا ما جاءه طلب منه أن يقرأ الرسالة معه فقرأها في يومين، وتذاكرا فيما توقف فيه، فأزال له الاستاذ المؤلف بعض ما أشكل عليه واعترف له بالاصابة في بعض ما انتقده، وانتهى الأمر بشكر كل منهما الآخر. ومن حسن أخلاق الاستاذ المؤلف واعترافه بالحق وشكره عليه أنه قص هذه القصة على تلاميذه في

الجامع الازهر، وأثنى لهم على أخلاق الاستاذ الشنقيطي وعلمه ودينه، وقل هذه هي مزايا العلماء. وأما الانتقاد الذي اعترف المؤلف فيه للمنتقد بالاصابة فهو نحو قوله « دعيت لتدريس » وكان ينبغي أن يقول « دعيت الى تدريس » فسبق القلم، هذا من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فمسألة البحث في خلق القرآن . انتقدها الشنقيطي بأن فيها مخالفة لما التزمه المؤلف من سلوكه في العقائد مسلمة السلف، قال والسلف لم يبحثوا في هذه المسألة. فاعترف له المؤلف بذلك وقال إني خالفت في هذه المسألة بخصوصها الشرط لاهيتها واشتباه كثير من الناس فيها» وذ كرت بعد هذا تقریظ الشنقيطي للرسالة بقصيدة علمية وانشاده اياها في مجلس الدرس من الازهر، ونشرت القصيدة برمتها وسأنشرها في ذيل هذا التاريخ كما وعدت إذ ذكرت هذا التقریظ في سياق الكلام على مؤلفاته . وقد كتب الاستاذ في حاشية نسخة الرسالة التي قرأها في الازهر بوجوب حذف تلك الجملة منها في الطبعة الثانية . وكذلك فعلنا فلم نذكرها في شيء من طبعاتنا

جوده وسخاؤه

لا حاجة الى إطالة الكلام في جوده وسخائه فإنه صار فيه على اكتتامة الصدقة وإخفائه البذل أشهر من علم، وعرف الناس كثيراً من البائسين والمعجزه الذين كان يعملهم ويوصيهم بالكتمان . ولم يكن في أيام السراء، أبسط يداً منه في أيام الضراء، لقيه صاحب له من المصريين المنفيين في بيروت فقل له ان والذي قد توفي وايس لدي ما أنفقه في تشييعه، فأعطاه كل ما كان يملكه من النقد وهو راتبه الشهري من المدرسة السلطانية كان قبضه ولم ينفق منه شيئاً، ولكن الله أخلف عليه بما لم يكن يحتسب فقد كان له دين عند رجل في مصر يلويه ويمطاله به أيام كان يتقاضاه وهو يراه، فيستحي منه وبخشاء، فما مر يوم أو يومان على بذل جميع ما في يده، وإيثار صديقه على عياله، حتى آذنه مصرف (بنك) في بيروت بأن حواله برقية جاءت باسمه من مصر، وإذا هي دينه على ذلك الرجل (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وكان إذا وفر شيئاً من النفقة

صرفه في سبل البر ، كان يدخن باللفائف المعروفة (بالزنوبية) بعد بالمارجيلة (الشيشة) .
ثم ترك التدخين بها وجعل ما كان ينفقه فيه صدقة . وكان لبعض أولي الحاجة من اهل المرونة والستر رواتب شهرية فرضها على نفسه . وكان منهم الاستاذ الشنقيطي ، والشاعر الاديب الشيخ عبد المحسن الكاظمي . ولما رتبنا أوراقه وحاجه عند السفر الى الاسكندرية وجدت في صندوق الجلد الصغير الذي توضع فيه الاوراق المالية والامانات عرراً من النقود مكتوباً على كل منها اسم من براد إعطاؤه إياها .
وقد سألتني عن الكاظمي مرة في الاسكندرية فذكرت له ان عليه ديناً فقال لو اخبرتني بذلك قبل أن يتصرف جموده بالنفقة التي كنا نعدّها للسفر (هي مائة جنيه) لأرسلتها اليه .

غيرته على الملة والامة

علمي لا أحتاج الى التنويه بغيرته على ملته وأمته ، فان بذل حياته كلها في السعي لتربية الامة على هدي الدين وآداب الملة ، لم يكن إلا أثراً من آثار هذه الغيرة ، فالدليل وجودي علمي عرفه القريب والبعيد ، واعترف به العدو والصديق ، ولكنتني أذكر في هذا الباب شيئاً لا يعرف نظيره إلا بعض أصفياؤه ، الذين لم يغب عنهم شيء من أحواله .

جثته مرة في رمضان (سنة ١٣١٥) بعد الظهر على موعد فقيل انه نائم ولم يكن ينام في مثل هذا الوقت بل كان ينام طائفة من الليل ثم يقوم في السحر ويلبث بعد السحور إلى أن يصلي الصبح ثم ينام حتى ترتفع الشمس ، فكشترينما استيقظ فسأله ما أنامه ؟ قال مامعناه أرقتني الليلة الفكر في حال المسلمين وما ينزل بهم من البلاء يبعدهم عن دينهم ، واتباع أهوائهم وشهواتهم ، وقوي سلطان الفكر فهاج المجموع المصبي ونبهه تنبيهاً شديداً ، حتى حدثتني نفسي بأن أنزل إلى حيث يكثر اجتماع الناس كاللوسكي والازبكية فأقف في الطريق أو تجاه أحد مجامع الاهو (كالمقاهي) وأنادي أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم من القبيح حتى تركتموه ؟ وماذا رأيتم فيما اخترتم بديلاً منه حتى تقلدتموه ؟ ثم أخطبهم في حقيقة مام فيه ، وأنذرهم عاقبة مام عليه ، وأبين لهم طريق النجاة منه . وقد عاجلت النوم

فلم أملك منه شيئاً، فلجأت الى المكتابة وما كنت لأكتب في الليل فجرى القيا بفصل جملة في أواخر فصول رسالة التوحيد . فثابت إلي بعد ذلك نفسي ، وراى النوم على عيني ، ولكن الليل كان قد آذن بالرحيل ، وجاء وقت السحور ، فلم أنل منه نيلاً ، فكانت هذه النوم في النهار عوضاً عما فاتني في الليل (١)

أقول قد عرف من سبق له قراءة رسالة التوحيد ان الفصل الذي كتبه في تلك الحالة هو الفصل الذي عنوانه (انتشار الاسلام بسرعة لم يهد لها نظير في التاريخ) وما يليه من التفرقة بين الاسلام والمسلمين ، ولعمري ان ذلك الفصل لقول فصل . وما هو بالهزل ، أملاه على كاتبه الالهام ، حتى كاد يكون معجزة من معجزات الاسلام . وقد قال في أوائله :

« ابتداء هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، أوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء ، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تدايله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق ، وطردهوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير ان تلك الدماء كانت عيون المزامم تتفجر من صخور الصبر ، يثبت الله بمنظرها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب ، وهي ذوب مافسد من طباعهم ، فتجري من مناخرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركه جميعاً فيجعله في جهنم أوائلك هم الخامرون)

« تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبقته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقر الاغنياء ، ولا ناصر له إلا انه الحق بين الباطيل ، والرشد في ظلمات الاضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتمزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان آخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحاً ، ولا أنالهم القهر فلاحاً » الخ

() تقدم ذكر هذه الحادثة في (٣٠٥) بمناسبة أخرى وما هنا أصح

وجئته مرة في داره بعين شمس (سنة ١٣٢١) و كان قد وعك غداة يومه
غرايته ينظر في ثلاثة كتب عربية يقرأ المسألة في كل منها فسألته مابك وما هذا
الذي تنظر فيه ؟ فقال هو التهييج العصبي الذي يلم بي أحيانا من الفكر في الامور
العامة ، وهذه كتب في أصول الفقه ألهو بمباحثها عن القرآن ، فاني اذا فكرت فيه
رأيت بعد المسلمين عنه فيقوى هذا التهييج العصبي ، ولم أجد شيئا يشغل الفكر مثلها

مروءته ونجدته

قد اشتهر بكال المروءة والنجدة ، بأعلى مما اشتهر بالسخاء والصدقة ، فان
السخاء يبذل المال انما يكون بقدر ثروة الانسان ولم يكن الاستاذ الامام من أرباب
الدثور . لم يكن يملك إلا راتب وظيفته وهو لا يفي بنفقاته العادية إلا بالتدبير
والاقتصاد ، وكان له قليل من الارض في بلده ترك استغلالها لاختوته ، وانما
أكثر صدقاته ، من آثار مروءته ونجدته ، يقصده المحتاج فيكتب له وصية
الى بعض الاغنياء الذين لا يردون وصيته كالأ مير حسين كامل ، أو يذهب هو
بنفسه فيطلب منهم . وكان يصمد اليه كثير من طلاب الوظائف في الحكومة وغيرها
من المصالح والدوائر الغنية أو طلاب الترقى فيها . ومن طلاب المساعدة على كشف
المظالم ، اضعاف من ياجأ اليه لطلب المال ، فما كان يخيب رجاء أحد فيه ، إلا أن
يكون مبطالا ينتصر على ذي حق ، أو ثاملا يلبس ثوب مظلوم . وقد كانت
شهرة بالنجدة والمروءة مما يشغله عن أعمال أنفع منها ، ولكن طبعه يأبى عليه
أن يرد شيئا منها وهو قادر عليه . ومن الشواهد عليها ما تقدم من انتداب لارضاء
الخديو والورد كرومر ورئيس النظار في يوم واحد على من التجأ اليه في ذلك .
لا يزال في الناس كثير من أهل المعروف والمروءة ولكننا لانعرف أحدا
لا يشك من يعرفه في نجدته إياه إذا عراه خطب بكل ما يقدر عليه في نفسه او في
تأثيره عند غيره كما كان يفعل هذا الرجل لمن يلتجئ اليه ولصديقه من تأقما نفسه

ثباته على الحق واستقامته

كان هذا الأواب الرجاء الى الحق، جبلا راسخا في الثبات والاستقامة على الحق، لا يتزلزل في أخلاقه وآدابه، ولا يتحول عن مقاصده وأعماله، إلا اذا ثبت له انه أخطأ في شيء. وكان لا يقدم على العمل إلا بعد الروية والتدبر، والبصيرة والتثبت، وقد كان السيد جمال الدين يقول فيه هو كالفلك لا يتغير، قال هذا بعد ما غاب غيبته في بلاد المشرق ثم عاد إلى أوروبا ورأى فيها جماعة ممن كان يعرف من المصريين قد تغيروا عما كان يعهد من مبادئهم كأزايئهم، إلا الشيخ محمد عبده فإنه لقيه كما تركه خلقا وزيا، وخلقاً وأدبا، وعقلا ورأيا، وعلماء وعملا، ووفاء وثباتا، إلا ما آتاه الله من المزيد في العلم، والخصافة في الرأي

كان أخلص أخوانه ومريديه يرثون لما يكابده في سبيل اصلاح الازهر من العناء ويأسفون على اضاءة وقته الثمين فيما يعتقدون انه عبث لا يفيد، فيجهمون على لومه وتثبيطه واقامة الحجج على استحالة اصلاح هذا المعهد حتى يقتنع، ويحسبون انه ترك، فاذا هم برونه في اليوم التالي قد عاد إلى عمله انشطما كان وأشد هما واهتماما، فقال بعضهم لبعض في غيبته اننا لنعجب أشد العجب من الاستاذ في علمه وفهمه وسمو عقله كيف يقتنع بان عمله هذا تعب غير مجد ثم يعود اليه؟ فقال لهم اعلمهم بحاله وهو سعد زغلول ان الامر ليس باختياره وانما هو شعور وجداني بأنه مسخر لهذا العمل او ملهم به من الله تعالى، فهو لا يستطيع تركه

أخبرني الاستاذ نفسه هذا الخبر، ثم ذكره لي سعد باشا نفسه إذ طالبتة يوما باصلاح الازهر في عهد رياسته للحكومة مع زعامته للامة. قال لي إذا كان الشيخ قد عجز عن اصلاح الازهر على ما آتاه الله مما لا ندرك شأوه فيه علما وهمة فماذا أستطيع أنا أن أفعل؟ قلت انه كان معارضا من الامير ومن الشيوخ، وانت لا يعارضك أحد، قال إن العلة في نفس المكان هو غير قابل للاصلاح، قد كرت له مارواه لي الاستاذ من لوم جماعتهم له ومن جوابه هو عنه، قال هذا صحيح ان عمله كان وجدانا دينيا لا اختيار له فيه.

عاداته وزيه

وأما عاداته فقد كان يخالف فيها علماء هذه الديار - يخالفهم فيما يكره شرعا أو عقلا كتطويل الاردان وتوسيعها وجر الاذيال ، فكان زيه أقرب إلى زي علماء سورية منه إلى زي علماء مصر الا العمامة : جبة وقباء من ذوات الزيتق للرقبة كما يراها الناظر إلى رسمه الشمسي ومن ذوات الالوان غير البهجة فلم يكن يلبس الاحمر بأنواعه ولا الاخضر ولا الاصفر ولا الحرير ذا الالوان المعروف بالقطني وكل ذلك مما يلبس العلماء الموسرون في مصر. وكان يكره كسوة التشريفة (الرسمية) ويستحي منها في نفسه ، ولما كان صهره محمد بك يوسف مقبلا بدار وراء قصر عابدين كان يضعها عنده فيلبسها أيام الاعياد عنده ويدخل بها القصر ويحضر الحفلة الرسمية ثم يخرج فيخلعها عنده ، وفي أيام الشتاء يضع فوقها العباءة والشال الكشمير حتى لا ترى ، ولو لا الضرورة لما لبسها ، ولما حضر الحفلات الرسمية وكان يكره أن تقبل يده بل يصافح الناس مصافحة ، وقد منع الازهرين عن تقبيلها بعد الدرس كما دعتهم . ومامدها لي لتقبيلها لإمرة واحدة : وكان قد جاء من سفر فتأخرت عن عادتي في المجيء للسلام عليه مع الفوج الاول من المسلمين أو قبلهم فتلقاني بباب الدار قائلا « قلت ان انسيد قد أبطأ » فأقبلت على يده بلهفة وشوق شعرت بمثلها منه ، فمدها لي خلافا لعاداته ، فشمرت منه بمحنان أبوي خفق له قلبي ، ولا أنسى لذته الروحية ما حييت

وكان يحتذي النعال المدنية التي تسمى (الجزمة) دون سائر العلماء فينكرون عليه ذلك فيما بينهم ، ثم كثر القنادون به من شبابهم فكبهولهم ، وكان يركب الخيل حتى انه كان يذهب إلى المحكمة وإلى الازهر راكباً فرساً ، ثم ترك ذلك بعد الانتقال من القاهرة إلى عين شمس . وقد قيل له انه لا يليق بكبار العلماء امتطاء الخيول ، فقال بل يليق بهم أن يكونوا كالفانيات يجرون الديول ، ويتوكئون على السواعد عند الركوب والنزول ، ونطق بالكلمة المصرية « ستي هانم »

وكان يحب المشي على قدميه حتى انه اذا تأخر في درس الازهر بحيث علم

انه فاته موعد القطار الذي يصل الى عين شمس في آخر الساعة التاسعة ليلا وهو موعد عشاء الاسرة يقول لي قد فاتنا القطار فهل لديك مانع من المشي ؟ فاذا قلت له لا ، قال هلم . فتمشي من الازهر الى المحطة أحيانا وإلى مادونتها أحيانا .

ومن عادة علماء الازهر ان من يصير منهم شيخاً الازهر أو مفتياً للديار المصرية يبادر حالا إلى شراء عربة يركبها ويرى انه لا يليق به ركوب عربات الاجرة ، وقد قلت له مازحا: مابالك تركب عربات الأجرة وتمشي أحيانا مخافا سنة الشيوخ ؟ فقال ان هؤلاء ، وأمثالهم من أصحاب مناصب الحكومة الكبيرة يرون انهم يكبرون في أعين الناس بهذا ، وأما أنا فأنني لو صرت خليفة للمسلمين لما استكبرت عن عربات الأجرة ، ولا عن المشي عند الحاجة

ومشينا مرة من الازهر قاصدين محطة سكة الحديد ، فلما جاوزنا شارع الموسكي مال الى دكان فاشترى منها قليلا من البسكويت وطفق يأكل منه بلطف بعد خروجه من السوق . فقلت له مازحا : أمفتي الديار المصرية يأكل في الطريق ؟ قال : أما قرأت انه قيل لديوجين الفيلسوف : لماذا تأكل في الطريق ؟ فقال لاني أجوع في الطريق . ونحن قد فاتنا عشاء الدار الآن فنكتفي بهذا

أما طعامه في الدار فكان من أنفـس الطعام وأنظفه ، وأما أواني المائدة فكانت من الوسط في جنسها . ولم يكن نهما ولا مغرما بلذة الطعام بل كان يقول ان من ضعف الإنسان ونقصه حاجته الى الطعام كل يوم ، ولوددت لو أمكنني الاستغناء عنه وقلت له مرة انني عودت نفسي التقشف بترك أطايب الطعام اختياراً ، والنوم على الارض أحيانا ، وأردت أن أعودها احتمال الوساخة تربية لها على قشف الصوفية فلم أستطع الصبر . فاني اذا عرقت ولم أغير ثيابي يبقى صدري ضيقا حرجا . قال وأنا كذلك .

وكذلك كان فرش داره ، وسرر النوم فيها من الحديد الوسط ، ولمكن حشاياها ومخدراتها وملامتها كانت من النسيج الابيض في أعلى درجات النظافة كان هو يعني بالنظافة من صغره وقد ذكرت هذا من قبل . ثم كانت زوجته الشامية من آل حماده من أكبر بيوت بيروت متنطعة في النظافة الى درجة الوسوسة .

خلقه ومزاجه وأمراضه

كان ربع القامة، أسمر اللون مع وضاعة، عظيم الهامة في اعتدال، عالي الجبهة، كبير الدماغ، أسود العينين براقهما، كأنهما مصباحان أو شرارتان بارزتان للوجنتين، أقوى المرنين واسم الفم، منظم الاسنان، جهوري الصوت، أشعر الذراعين والمنكبين والصدر، عصبي المزاج عضليه، ممتليء الجسم في غير ضخامة، قوي البنية. فاجاه مرة حصان جامح فدفعه بيديه في صدره فردّه إلى الوراء حتى أقمى أو كاد وحاول بعض رفاقه من مجاوري الازهر أن يشغله عن المطالعة في الليل ليأب معهم بالورق فرماه بالارض ووضع بين ساقيه وضغطه بهما، فلم يستطع التفصي حتى كان هو الذي أطلقه باختياره - ولكن عرض له ما أضعف هذه القوة الخارقة للعادة منذ سن الشباب، فكان سبباً لما كان ينتابه من الامراض ذلك بأنه ظهر له خراج تحت إبطه في سن الصبا فلم يبال به حتى كبر وتحول الدم فيه إلى صديد، وكان كماداته يركب الخيل ويطيل الجري عليها في الشمس حتى أقعدته الحمى بل ألقته في الفراش، فامتص دمه ذلك الصديد السام فغاب عن الادراك أربعين يوماً. وقد تثل له عند بدء سريان السم في بدنه رجلان واقفان في باب الحجرة التي نام فيها في يده أحدهما غرارة (زكية) وأمام الآخر شيء كالخشيش فأخذ قبضة منه ووضعها في الغرارة فشعر هو بأن شيئاً قد دخل في ساقيه، ثم وضع فيها قبضة أخرى فشعر بأن شيئاً قد دخل في فخذه، وهكذا كان كلما وضع قبضة شعر هو بدخول شيء في جسمه حتى إذا ما بلغ صدره كانت الغرارة قد امتلأت وغاب شعوره فلم يدرك بعدها شيئاً قط حتى إذا تم له أربعون يوماً عرق عرقاً شديداً فاض منه على فراشه فكاد يفرقه، ففتح عينيه وعاد إليه شعوره وقد ذكر هذا التسمم الصديدي بعد ذلك لكثير من الاطباء فقالوا له ان النجاة منه والحياة بعده تعد من النواذر التي تقرب من خوارق العادات. وكان يعاوده تأثير ذلك السم في مواعده من كل عام فيمرض مرضاً ثقيلاً أو خفيفاً، ثم حسنت صحته بالسكنى الخلوية في عين شمس - إلا الرثية (الروماتزم) فقد كانت تصيبه في يده حتى يضطر في بعض الليالي إلى رفعها طول الليل، ولم ينفعه علاج إلا صبغة اليود، واظب على أخذ نقط معدودة منها في نصف كوب من الماء بعد كل طعام - وهو لمز واظب عليه خير دواء

المقصد الثامن

(من الفصل السابع)

مذهبه في الاصلاح والتجديد ، ومذهب السير جمال الدين

كان السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده من أكبر مظاهر قول النبي ﷺ « إن الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » (١) وقد قال المحققون من العلماء في معنى الحديث ان التجديد لا يكون لعلم واحد ولا في عمل واحد ، وان قواه ﷺ « من يجدد » عام يصدق بالقليل والكثير فقد يكون في القرن الواحد مجددون كثيرون منهم المجدد في علم التفسير والمجدد في الحديث وإحياء السنة ، والمجدد في تنقيح علوم الفقه واللغة ، ومنهم المجدد في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الاسلام وتقوية ملكه

وقد شرع هذان المجددان الحكيمان في مصر بنوعي التجديد السياسي والعلمي اللذين يشملان جميع أنواع التجديد الذي اشتدت اليها حاجة الامة ، ثم اقتصر على التجديد السياسي في أوربة بمساعدة جمعية العروة الوثقى التي أسسها لهذا الغرض وأنشأ باسمها تلك الجريدة العربية التي هزت العالم الاسلامي كله هزاً ، وكادت تدع الشرق إلى الثورة دعاءً ، فزلزلت الدولة البريطانية زلزالاً شديداً ، وقد تقدم وصف ذلك مؤيداً بالبراهين والشواهد

ثم تفارقا فاشتغل كل منهما بما خلق ميسراً له ، فكان رأيُه تبعاً لميله واستعداده ، وكل منهما ضروري لا بد منه ، الاصلاح والتجديد من طريق السياسة ، والاصلاح والتجديد من طريق التعليم والتربية ، وإن شئت قلت تجديد الامة باصلاح الدولة ، وتجديد الدولة باصلاح الامة ، لا بد من كل منهما ، وكل منهما يفضي إلى الآخر ، ولكن الاول أدنى وأسرع ، والثاني أثبت وأدوم وقد تقدم شرح عملهما المشترك

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة

وعمل كل منهما في محله (راجع ما كتبه الاستاذ عن دعوته لكل من الاصلاحين في ص ١١ و ١٢)

كان بين الرجلين من التشابه الفطري ، والتعارف الروحي ، والاستعداد العقلي ، ومن التربية الصوفية ، واستقلال الفكر في طلب العلم ، ومن علو الاخلاق ، ما كان سبباً لاتصال كل منهما بالآخر منذ تلاقيا في خان الخليلي اول ليلة ، ذلك الاتصال الذي عرف به كل منهما قدر الآخر معرفة لم تتفق له مع غيره من كل من عرفا من المعجبين بهما والمستفيدين منهما . وهذا شيء قد عرفه كل من عرفهما وكان بينهما اختلاف في ثلاثة اشياء هن سبب اختلافهما في مسألة السياسة التي ذكرناها في مواضع من هذا الكتاب : الاسرة والامة والحكومة . يضاف اليها ما تقتضيه من كبر الامل وعلو الهمة

نشأ السيد جمال الدين في أسرة من أشهر بيوت شرف النسب وشرف الحسب ، في عاصمة أمة عزيزة النفس ، شديدة البأس ، لم تذلل لحاكم ولا لأجنبي ، وهي تعظم آل البيت النبوي تعظيم العبادة ، في حكومة كان ذا مقام كبير في بيت إمارتها ، وركناً من اركان الزعامة لاحد الوارثين للحكم فيها ، وهو الامير محمد أعظم خان ، كما تقدم بيانه في ترجمته

ونشأ الشيخ محمد عبده في بيت من بيوت فلاحي مصر في قرية صغيرة ، في ظل حكومة مستبدة ، تحقر الفلاحين وتظلمهم ، وقد أصاب أسرته شيء غير قليل من الظلم حتى هاجر والده عبده خير الله من قرية محلة نصر من مديرية البحيرة الى مديرية الغربية فاحتفى بآل المذشاي واعتزواهم بشجاعته ، حتى ان الحكومة طلبته من محمد بك [أو مصطفى بك] المذشاي فأنكر وجوده عنده زماناً ، حتى إذا ما أهتمته الحكومة بالمعش في مسألة القرعة العسكرية وحبسته امكنها أن تقبض على عبده خير الله وتحبسه بهممة اخرى

فلئن كان بيته اوجه بيت في قريته فهو لم يكن من بيوتات الواجهة في الامة ولا عند الحكومة ، وأتمته نفسها لم تكن لها عزة ولا مكانة لدى حكومتها أيضاً ، وما اوتيه من عزة النفس الفطرية كان دون ما اوتيه السيد جمال الدين ، كما كانت

الوراثية والتربية المغذيتان لغريزة السيد في الافغان ، الناهضتان به الى الآمال الكبار ، الحافزتان له الى مقاومة ظلم الامراء والملوك وإصلاح الدول أو إسقاطها — على الضد من الوراثة والتربية المغذيتين لغريزة الشيخ محمد عبده في مصر — فهذه الاسباب الثلاثة كان استعداد السيد الحسيني الافغاني للعمل السياسي اقوى من استعداد الشيخ الفلاح المصري

فلما جاء السيد مصر ونفخ من روحه في هذه الغريزة الشريفة، سار صاحبها معه في كل خطوها خطاه لقلب نظام الحكم الاستبدادي في مصر، وإقامة نظام نيابي في مكانه، حتى إذا ما نفى السيد من مصر قال كلمته المشهورة انني تركت لهم الشيخ محمد عبده فهو يتم ما بدأت به

ولكن الشيخ نفى بعده إلى قريته (محلة نصر) لكيلا يشتغل في حزبهما الوطني لانتمام العمل السياسي (الذي كان توفيق باشا أقسم للسيد أفاضل الايمان - إذ كان ولي العهد - على تنفيذه لبرنامج في إنشاء الحكومة النيابية وتعميم المعارف أهم التنفيذ) نفى فأطاع الامر، واذ لم تمكنه الحياة في الارياض عاد إلى مصر فكان يمكث عامة مزاره في دار المرحوم رفاعة بيك يتمتع بكتبه، ويدخل القاهرة في الليل متنكرًا ولم يعمل عملاً سياسياً

ثم اشتغل في وزارة رياض باشا بالاصلاح الداخلي وتوسل بنفوذه في المطبوعات إلى اصلاح التعليم في وزارة المعارف، ولما ظهرت بوادر الثورة العراقية كان مقاوما لها وفاقاً لميله الغريزي لاخوفاً ولا جبنًا، حتى إذا ما استعان الخديو توفيق باشا بالاجانب على وطنه طفق يساعد الثورة على علمه بضعف استعدادها وعدم امله بنجاحها، كما تقدم شرحه ونصوص ماذا كرت فيه

ثم لما دعاه السيد بعد نفيه من مصر إلى العمل معه في جمعية العروة الوثقى لتحرير العالم الاسلامي والشرق على الدولة البريطانية والسمي لاجلاء الجيوش البريطانية من مصر او ترك السودان، أجابه، وكانت بلاغته في ابراز افكار السيد الثورية هي التي أثارت تلك البراكين التي وصفنا تأثيرها في موضعه، ولما لم يفد كل هذا يئس الشيخ من العمل السياسي الذي كان استعداد له مستمداً

من روح السيد، ورجع إلى ميله الغربي وهو الاصلاح من طريق التربية والتعليم .
 لتحرير العقل وإعادة هداية الدين ، فكان ما كان من عمله في بيروت ثم في مصر
 كل هذا كان امراً حسناً في نفسه ، ولكننا لم نوافق استاذنا على تخطيطه لاستاذته
 بالاشتغال بالسياسة ، وعارضناه في اول مرة فاه فيها بتخطيطه ، قائلين إن طريقة
 السيد اسرع من طريقته وكلاهما ضروري

كان استاذنا يائساً من ملوك المسلمين وامرائهم، ورؤسائهم من الباشوات
 وامثالهم، وزاده يائساً منهم فشل استاذته في الاصلاح السياسي من قبلهم، مع اعترافه
 له بانه اعلى منه همة واشد تأثيراً ، وان روح كلامه يؤثر في كل من سمعه في كل
 موضوع كله به . لهذا تمنى لوجه هذه القوة الروحية العليا إلى بعض اولي الفطرة
 السليمة والقلوب النظيفة من الامة ، وادع فيها ما أوتيته من الحكمة الدينية
 والاجتماعية والادبية، بذلك اللسان الجذاب الخلاب، الذي أوتي فصل الخطاب
 وجوابنا عن هذا ان استاذنا كان فصيح من استاذته لسانا وقلما ، ولا يقل
 عنه في العلم ، وانما هو دونه في قوة التأثير ، وقد سلك طريق التربية والتعليم التي
 يفضلها، ولكنه اتى من مقاومة اولي السطان مثل ما اتى استاذته منهم في طريقته
 السياسية ، ولم يكن تأثيره في إيقاظ الامة واصلاحها اقوى من تأثير استاذته ،
 فثبت بهذا ان عمل كل منهما كان ضروريا لا بد منه

لقد كانت الشعوب الاسلامية كلها مسبوطة لا تحس ولا تشعر بما يمزقها
 ويفرقها ويعرقها ، بل كان الشرق الادنى والاعوسط على اختلاف ملله ونحله في
 ظلمات حالكة لا يبصر ما يحل به . فكان السيد هو الذي نفخ فيه روح الحياة مبتدئا
 بالافغان فلهند فمصر فالترك فايران ، ولولا جهل ملوك الشرق وتصرف الاجانب
 في ملوكهم وامرائهم تصرف المالك بالملوك والراعي بسائمة الانعام، لاحيا هذه
 الممالك كلها حياة طيبة مباركة، صارت بها من الدول القوية والامم العزيزة

وقد وصفت في مقصودي الرشيدية (١) حال الشعوب الاسلامية ومصائبها بملوكها

(١) هي مقصورة عارضت بها مقصورة ابن دريد الشهيرة، وتقدم ذكر آيات منها

وعلمائها ومرشديها، ووصولها بجهلهم وسوء تصرفهم إلى اليأس من الحياة وكيف
نفخ فيها روح الرجاء . وما كان لو ارث حكيمته في عهده ، وخليفته من بعده ، من
تعاهد أحد نوعي الاصلاح ، بما أثبت بهما أنهما كانا المجددين للامة في هذا
الزمان ، وان مافعلابها كان منتهى مافي الامكان ، فاذا كر منها أياتا متفرقة في
معنى دعوته الاصلاحية ثم ماقلته فيه وفي الاستاذ الامام

قلت بعد ذكر الملوك المستبدين ، والعلماء المنافقين ، والمرشدين الخرافيين :

أولكم سادتنا الذين قد	ضلوا السبيل وأضلوا من قفا ^(١)
والامة التي استدلوا يثت	من نفسها فهي تردى في الردى
لولا صياح منذر أهاب : أن	هي وع عينيك فامسحي الكرى
قد طلع الصبح فقومي وانظري	ما فعل المستيقظون في الورى ^(٢)
لا تيا سي لشدة الضغط فقد	يحدث الانفجار تجمع القوى
وانما تلك قواك جهلت	فعلت حيناً فكانت كالهبا
وصاح بالملوك والسادة أن	حسبكم من الشقاق ماضى
قد كاد ان يحاط يا قوم بكم	ويسرع الزوال فيكم والفنا
فبادروا للاتحاد بينكم	ورأب صدع الشعب من غير ونى
لا يرتقي الشعب بلا علم ولا	حياة للعلوم إلا بالافى ^(٣)
والشعب إما يتحد فانه	ينجام من يظلمه خلع الحذا
أليس باجتماع ذرات الهبا	كونت الارض وكانت السما
فقوة الشعب له ذاتية	وقوة الظالم منه تقتنى
فجندهم منهم ومنهم ماله	فهو بأيديهم وايدهم بغى

ذاك جمال الدين فيلسوفنا وتاكم دعوته التي دعا

(١) أي قفا أثرهم واتبعهم (٢) مضمون هذين البيتين جملة في قائمة العدد
الاول من المنار . وعزوي إياه الى السيد الحكيم كغيره عرو مضمون لاعزو عبارة
(٣) اللفى جمع لغة وأصلها لفوة - فهو كغرف جمع غرفة

(والنجم) يهتدى به (اذا هوى)	(ما ضل) في دعوته (وما غوى)
فان يكن ذلك للاستبداد في	فارس طوداً كان شامخ الذرى
فان ركن الظلم في الترك أبى	حكته وسعيه الذي سعى
ومن أبى الكتاب والميزان لا	يقده الا الحديد يمتهى (١)
او تجمل النار له قذائفا	تقوض الصروح من أعلى الذرى
أنفذ أهل عصره بصيرة	وغير أهل عصره ممن مضى
إلا من اختار العليم واصطفى	فما له اختار الحكيم واصطفى
يخترق الحجب شعاع رأيه	فيشهد المحجوب كلاً رنا
كأنما الغيب لديه حاضر	إذا ارتأى كات كانه رأى
ألم ينبىء بهم ما جرى	في فارس ومصر قبل ان جرى (٢)
أصدق من زمانه عزيمة	وعزمه أمضى نصالاً وشباً
ان قل صارم الزمان او خبا	ما قل غضب عزمه ولا نبأ
وان خبا زنده (٣) في قدحه	أورى زناد رأيه وما خبا
وان خوت نجومه في نوها	جاءك نوء بري وحيـا
عنه سلوا مصر وذلك الرجا	تنبشكم الآثار ثم والصدى (٤)

(١) يمتهى يحدد ذلك ان تقول إلا الحسام ينتضي أي يسل والاول هو الموافق للاقتباس من الآية (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وأنزلنا معهم الحديد فيه بأس شديد) ومعني البيت أن من لم يكن له وازع نفسي من هداية كتاب الله ولا رادع قضائي من ميزان العدل في شرع الله فلا يمنعه من ظلمه إلا قوة الحديد يعاقب بها على ظلمه

(٢) إشارة الى قوله في أمته الافغانية فيما نشره من تاريخها بمصر « تلك الامة المعروفة بعزة النفس ، وشدة الباس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الخضجر ، المتلى بجوع البقر والاستسقا ، الذي لم يشبعه ابتلاع مائتي مليون من النفوس ، ولم تروه مياه الكنج والتمس بل فغرفاه ليلتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل ونهر جيحون » يعنى الانكليز ، وكان عدد أهل الهند وقتئذ مائتي مليون (٣) اي للزمان (٤) إنما أشرنا الى مصر اشارة البعد لاننا نظمنا المقصورة في سورية في ايام طلبنا للعلم . ثم زدنا فيها بمصر بعض ما هنا وما تقدم من عمل الاستاذ الامام في الازهر

بل نم من ينبئكم بما رأى
 إذ جاءها الحكيم وهي دنف
 تمد خير من تولى أمرها
 وأفسد الانفس فهي عنده
 أرهقها من أمرها العسر بما
 قد أبسل الظلم والاستبداد من
 لا عالم الشرق بدينه ولا
 فذا أجير نلامير علمه
 وذاك غافل ومغرور بما
 فليس فيهم كاتب مؤثر
 ولا خطيب فيهم مفوه
 ولا سياسي يروض الصعب من
 ولا حكيم يحمل الفرقان في
 فتلكم مصر وذاك داؤها
 وأشرع الطريق للإصلاح من
 بما أفاض من دراري حكمة
 في خطب يحيي القلوب صدعها
 وفي دروس كتب أحيى بها
 وفي أمالي بها أنشأ من
 يقبسون في ثباً (٥) من داره
 ثبا له ينحوه أهل الرشدا
 وفي كؤوس سمر يديرها

بمينه وما رواه فوعى
 أعضل داؤها وأعوز الدوا
 من اصلاح التربة والماء الروى
 بهم تساس بل تساق بالمصا
 أفسد من روح الإباء والتقى
 ساكنها كل مضميم مزدري
 مقتبس العلم من الغرب هدى
 له ومنه واليه يبتغى
 بحذقه من المرء واللخى (١)
 يدني يراعه اليك ما نأى
 يختلب القلب ويبعث الأسمى
 مشاكل السأو ويأسو إن سأي (٢)
 غياهب الخطب إذا الخطب غسا (٣)
 إذ جاءها الآسي فطب وأسا
 علم وحكم ولسان وحجا
 قد زانها فصل الخطاب ونش (٤)
 ويكشف الخطب ويبعث الرجا
 من دارس العلوم ما كان عفا
 معالم الانشاء ما كان أعشى
 مريده والشمس ردا الضحى
 بين تبات وفرادى وثنى
 في سامر (البورصة) ما الليل سجا (٦)

(١) اللخى كثرة الكلام في باطل (٢) السأو الشعب، وياسويداوي، وسأى
 الشيء مقلوب ساءه، معناه (٣) غسا اظلم (٤) ثا الحديث أشاعه والشيء أشاعه
 (٥) التي بالضم المجلس الذي يضم الاكابر (٦) سامر البورصة مقهى في حي الازبكية

لا لغو في شرايها يخشى ولا غول فيقتال الجسوم والنهى
تنارعوها حيث لا تنازع صرفا بأفواه العقول نحتسى
تخلقوا لها على مائدة لا يشتكى لها صدى ولا طوى
يفندوم سياسة وحكمة وغيرة سأي بهن فشأى (١)
أجفل إذ دعا اليها الجفلى ازهرهم فأصبحت كالنقري (٢)
فما مثنى شيخ اليها الخيزلى إلا عدا فتى اليها الهيدى (٣)
لكنما حتا إليها من ذأى الشـيوخ منهم ففاز واغتيـا (٤)
سل الملا والمجد عن تاريخه يقصه المجد عليك والملا
فكم سما من المالى منبرا ليس يسامى فتعالى من برا
مالي وما لعاذلي في حبه فقد أضل قومه وما هدى
أذكر من كاله فينثني يشكر من يحسن منه المشتكى
ذلك شاني مع شانيه إذا أريته البدر يرني السـهـا
هيـات ما تساويا وان حكت صرح القوارير فقاقيع الحجـا

تمت بالاصلاح قام بعده مريده الوارث كل ما حوى
من حكمة تكشف أحلاك الدجى وغيرة تأكلت فيها الجذى
وهمة ان جردت لحادث تريك أسرار تصاريف القضا

(١) سأي في سيره عدا وركض وسأي الشيء نواه وقصده. وأما شأى القوم بالمعجمة فسبقهم (٢) الجفلى الدعوة العامة الى الطعام. والنقري الدعوة الخاصة لبعض الناس (٣) الخيزلى والخوزلى مشبة فيها تناقل وتراجع، والهيدى ضرب من سير الخيل (٤) حتا حتوا عدا عدواً شديداً، وذأى الرئيس مره وسه طرده واضطهده. واغتيـا بلغ الغاية. ومعنى الايات الثلاثة ان السيد دعا إلى مائدة علمه دعوة عامة فاجفل الازهر من دعوته فانقلبت خاصة، مثنى اليها بعض الشيوخ متناقلا وهرولا اليها جماعة من الشبان عدواً. وقد سبق الجميع اليها من اضطهده الشيوخ ففاز وبلغ الغاية القصوى في العلم والحكمة، وهي اشارة الى الاستاذ الامام الذي اضطهده الشيخ عlish وغيره (٥) الحجـا بالفتح جمع حجة بمعنى الفقاقيع وهي ثقافات الماء الصغيرة المستديرة كمثل القوارير. والايات تعريض بالشيخ ابي الهدى

إذا تحدث الحسام المنتضى
وصدق اخلاص غدا يفيض من
من كان منه المقول الذي حكي
تأزرا لينقذا الامة من
تأخيا لينقذا الاسلام من
قد ورثا موسى وهارون بما
واعتصما (بالعروة الوثقى) فذا
وهل يتبجح الله مثل (عبده)
واقسما الاصلاح شطرين فذا
وذاك للسياسة التي قضى
كادت وما كاد لها السيد بل
لانتعيب الحية الرقطاء لا
وليتها ودعت الشيخ كما

أعيا مضأوها الحسام المنتضى
جوانب القلب فيملا الحشا
والقلم الذي بعلمه جرى
فرعونها الذي استبد وعلا
دجاله الذي يبدعه غلا
تأخيا والمصطفى والمرضى
حرر ما أملاه ذاك وارتأى
(محمد) لها إماما مقتدى
آثر إصلاح العلوم والحجا
بها وأما وطراً فما قضى
أعرض عن مكر الجهول ونأى
حكمة لكن لأخاديع الرقى
ودعها إذ عاذ منها وقلا (١)

نتيجة الاصلاحين والتجديدين

نتيجة ما تقدم ان السيد الافغانى والشيخ المصرى ، هما اللذان جددا الاسلام
بعملهما فى السياسة والتربية والتعليم الاسلامى ، وأيقظا الشرق كله فهب للحياة
والاستقلال القومى، وكان حظ مصر منها أكبر من حظ غيرها، لطول اجتماعهما
وعملهما المزدوج فيها

وقد ظهرت فيها ثمرة العمل السيامى، أكبر وأوسع انتشاراً من ثمرة العمل
العلمى التهذيبى على انقطاع الثانى له فى سنيه الاخيرة، فان بذرها لنواة الحكومة
النيابية وانشاءها الحزب الوطنى له، ونخرجهما الكتاب والخطباء الذين يتماهدونه،
ما زالت تقوى حتى اذا تم شرط ظهوره بعد اربعين سنة بانتشار الشعور العام فى

(١) اشارة الى قوله « أعوذ بالله من السياسة » الخ

نابتة جديدة من الشعب نهض الشعب فلم يجد قطبا تدور عليه رحاه إلا أحد تلاميذها (سعد باشا زغلول) فسلمه قياده ، وظهر مصداق قول الاستاذ الامام : اذا تم تكوين أعضاء الجنين ظهر فيه الرأس ، ولم يعد يصدق على المصريين قوله : يا ويح الرجل الذي ليس له أمة

ولكن هذه النهضة السياسية لا تزال ناقصة ما يكفل نمامها وزكاه وابقاءها ، وهو نهضة الثقافة التهذيبية التي انحصر جهاد الامام الاخير فيها ، وانما الخطر الاكبر على مصر من ضعفها باجماع العقلاء فيها ، وهي لا تتم إلا بالترقية الدينية التي هي قوام الفضائل وحفظ البيوت من الانحلال بالفسق والاباحه ، وانما سبب ضعفها كثرة الأعداء المهاجمين لها من الاجانب الطامعين ، وملاحدة الوطنيين ، وكثرة عباد الشهوة الاباحيين ، وفساد وزارة المعارف تبعاً لفساد الحكومة بتأثير الترية المادية الاجنبية ، وفوضى الازهر وجوده . وقد تمت أركان هذا الاصلاح العلمية ، وإنما ينقصها زعيم قوي ينهض بها بثورة دينية سلمية كاثورة السياسية ، أو بتأييد الحكومة لها

ولو بقي الاستاذ الامام حياً إلى هذا العصر الذي جعل جلالة ملك مصر فيه ميزانية الازهر والمعاهد الدينية ثلث مليون جنيه ، وأمكنه اقناع هذا الملك في كهواته ونضوجه بمثل ما أقنع سلفه الخديو في شبابه من الاصلاح ، لامكنه إحداث أعظم انقلاب روحي تهذيبي في مصر يتبعه فيه الشرق الاسلامي كله ، وتضطر أوربة وسائر شعوب الحضارة إلى اقتباسه لتعصم به من خطر الفوضى المادية التي تتقاذفها أمواجها ، وترى حضارتها عرضة للغرق فيها

على ان الاستاذ الامام لا يزال موجوداً بوجود علمه مدونا ، ورأيه في التجديد مبيناً ، ووجود تلاميذه في الازهر وغيره أضاف ما كان له في عهد حياته الجسدية . فوسائل إتمام النهضة الثقافية المطلوبة موجودة ، ولم يبق إلا النقطة الاخيرة التي يكمل بها الضغط فيحدث الانفجار ، وعسى أن يكون قريباً

الطعن على الحكيمين المجددين

من سنن الاجتماع التي أثبتتها التاريخ ان الناس إذا ألفوا شيئاً وجروا عليه بالتقليد زمناً طويلاً فإن التعصب له يصير من الوجدانات الطبيعية لا يقبل الجمهور في انتقاده أو الدعوة إلى تركه أو مخالفته حجة ولا برهاناً لا من العقل ولا من الدين ولا من المصلحة، وإنما يقبل ذلك الأفراد بعد الأفراد، بحسب تفاوت الاستعداد، فإذا صار هؤلاء الأفراد جماعة قوية من الأمة سهل عليهم نشر ما يدعون إليه، وضعف الاعراض والصد عنه بقدر ما يبذلون من القوة والحكمة في الدعوة إليه، ولا سيما إذا كان حقاً

وهذا ما وقع للحكيم مع علماء الأزهر وأمثالهم، جاء السيد جمال مصر في سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) فألقى في عقول الناس وجوب البحث في الاسباب التي أضاعت ملكهم واستدانتهم للاجانب على قاعدة قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وأثبت لمن أصغى إليه ان ما في أنفس جماهير المسلمين اليوم من الدين والعلم والاخلاق غير ما كان عليه سلفهم، وانه يجب لتلافي ذلك تغيير نظام العلم والتربية في الأزهر وغيره — فكان ذلك طعناً في علمهم وتعليمهم لا يمكنهم الاعتراف به، فلم يبق إلا الطعن على مقرره

أول ما يخطر ببال الذي تخطئه أو تلومه في دينه أو مذهبه أو رأيه أو عادن انك تحقره، فيبادر بغريزة حب الذات إلى الدفاع عن نفسه، وإذا كان الوجه إليه اللوم والانتقاد أو الدعوة إلى غير ما هو عليه جماعة أو شعباً بادر أفرادهم إلى التعاون على الدفاع عن أنفسهم ومجاهدة المخالف لهم بما يستطيعون من حول وقوة، في حق أو باطل، وصدق أو كذب، وان شدة زعمائهم في ذلك تكون على قدر ما لهم من المنافع المادية والجاه فيما فيه الاختلاف، وشدة عامتهم ودهمائهم فيه تابعة لشدة الرؤساء والزعماء فيما يصورون لهم من جناية المخالف لهم وعدوانه على دينهم في الدرجة الاولى وعلى دنياهم في الدرجة الثانية

وروايات التاريخ عن تعصب اهل الاديان والمذاهب في الدين الواحد بعضهم

على بعض مشهورة يتخذها الملاحدة حجة على ذم الاديان وزعمهم انها ضارة للبشر، مغرية للعداوة والفتن والحروب بينهم، والدين الحق لا يأذن بالحرب الا لمنع الفتن ورفع الظلم. والملوك والرؤساء انما هم الذين اتخذوه وسيلة لذلك وقتا ما، كما اتخذوا الجنسية والوطنية له في وقت آخر. وكذا اختلاف المذهب في الدين الواحد، وما كان ينبغي أن يقع هذا في أهل ملة التوحيد، لو لا انهم وصموه بالتشيع والتفريق ثم ان لطعن العلماء بعضهم على بعض سببا آخر وهو الحسد فهم أشد الناس تحاسداً. وقد روى الحافظ ابن عبد البر وغيره عن ابن عباس (رض) وعن بعض كبار السلف كمالك بن دينار - النهي عن سماع كلام العلماء بعضهم ببعض وتعليقه بأنهم أشد تغايراً من التيوس في زرائعها، حتى قال بعض الفقهاء بعدم قبول شهادة بعضهم على بعض ما وجد رجل نبغ في العلم والعرفان، وبذ في شهرته الاقران، إلا وغلا بعض العلماء في إطرائه، وبعضهم في ذمه وهجائه، سواء كان من المحدثين او المتكلمين او الصوفية او الفقهاء، وقد اشتد ذلك في العصور الوسطى عند المسيحيين والمسلمين. عني بعد القرون الثلاثة الاولى من نشأة الدينين

وقد كنت عازماً على بسط هذا المبحث في هذا التاريخ لأبين لقارئه أن ما قيل في حكيمينا المجددين من الطعن اليهم الذي لا يعرف له قائل له قيمة لا يعد شيئاً في جنب ما قاله العلماء المتقدمون المعروفون في الامام أبي الحسن الاشعري ناصر السنة على الاعتزال، والامام ابن حزم المجتهد المطلق، وحجة الاسلام الغزالي من أئمة المعقولات والتصوف والفقهاء، وشيخ الاسلام ابن تيمية من أئمة المحدثين الجامعين بين المعقول والمنقول، والشيخ أبي الحسن الشاذلي من أئمة الصوفية المعتدلين، دع غلاة القائلين بوحدة الوجود منهم. وقد جمع الشمراني كثيراً من هذه المطاعن في المشهورين في كتابه اليواقيت والجواهر وغيره

والكنني رأيت الطعن في حكيمينا قد ضعف بعد وفاتهما وما زال يتضاءل حتى خفي أوزال، وأما الثناء عليهما والاعتراف لهما بالاصلاح العام عن علم وإيمان، وبصيرة وإخلاص، فما زال ينمي زرعه، ويخرج شطاه، حتى استغلظ واستوى على سوقه، وآتى أكله ضعفين وسيكون أضاعفا مضاعفة، فأجمعت كلمة أهل العلم

والرأي الذين يخدمون الاسلام وشعبه والشرق وحضارته على أن لها الفضل الاول في النهضة العلمية والدينية والمدنية والسياسية

بعد هذه المقدمة الوجيزة أقول قد اشتهر عن علماء مصر انهم كانوا يطعنون على السيد جمال الدين ثم على الشيخ محمد عبده بعد اتصاله به وأخذ عنه . وأشهر من روي عنه ذلك الشيخ عlish المغربي الاصل كما تقدم في (ص ١٢٣) ومن المعروف ان المغاربة أشد تعصباً وحدة في عصبيتهم من المشارقة . وان المصريين من أشهر المشارقة في التسامح وسعة الصدر . ولذلك كان جل ما قيل في الحكيمين مما يوسوس به في الآذان . ولم نجد لاحد من أهل العلم المشهورين كتاباً ولا رسالة تتهمهما بشيء مسين معروف عن أحدهما أو كليهما مخالفاً لاصول الدين . وأما ما كتب في الجرائد من الطعن في الاستاذ الامام فقد بينا في بحث عداوة أمير البلاد له وإغرائه به انه لم يصدر عن العلماء بل عن سفهاء الجرائد ، وانه لم يكن لشيء منه قيمة . وقد كان كله من أسباب ارتفاع قدره ، وعظم أمره ، كما ذكرته في هذا التاريخ مجملًا ، وفي المنار مفصلاً

وقد أشرت فيما سبق منه هنالك إلى ان أول من طعن فيه من أصحاب الجرائد رجل اسمه الشيخ محمد الشربتلي ووعدت ببيان ذلك هنا فأبدأ فيه بما نشرته في ذلك الوقت مجملًا وأقفي عليه بتفصيله ، فأقول :

جاء في ص ٢٣٩ من الطبعة الثانية لمجلد المنار الاول مانصه :

حال الجرائد المصرية . والغمزة بالشيخ محمد عبده

في مصر والا-كندرية جرائد كثيرة لا نعرف عددها ، منها بضع جرائد معتبرة تجري لمستقر لها معقول ، وتستقي كل واحدة منها من مشرب مورود او معلول ، والبواقي يعشن بما يأكلن من العوارض ، فان لم يتح لهن منها شيء . وهن مما لا ينال الصبىط ، أنشأن ينهشن الاعراض الطيبة ، ويملأن مواضعهن بلحوم الميتة ، إلا أن يقتدي صاحب المرض عرضه بشيء من المال : يعرضن اولاً ببعض الوجهاء فان جاء التعريض بالغرض فذلك ، والا صرحن بالقول ، وان كان تذقحا وتجرما . من هذا النوع جريدة في القاهرة تسمى النهج القويم عرضت بغمزة حضرة

الاستاذ السكامل والعلامة الفاضل الشيخ محمد افندي عبد الشهير ، فلم يُبَل ،
فصرحت بغميزته في مقالة نشرتها عن حال الازهر الشريف قلبت فيها الحقيقة
ماشاءت. فقامت النيابة العمومية الدعوى على صاحب الجريدة الشيخ محمد الشربتلي ،
ولدى الاستنطاق زعم ان الاستاذ الشيخ سليمان العبد أحد شيوخ الازهر
المشهورين هو الذي جاءه بالخبر الذي نشره عن الازهر ، وأغراه بنشره ، ووعدته
بترويج الجريدة بأزاء ذلك ، فاستحضر الاستاذ الشيخ سليمان العبد للمحكمة وسئل
من قبل النيابة عن علاقته بالاستاذ الشيخ محمد عبده وعن صحة ما يدعيه صاحب
جريدة النهج ، فاجاب بعد اليمين بان علاقته بالاستاذ علاقة صداقة ووداد ، وصفاء
ووفاء ، وان صاحب النهج كاذب في دعواه . وأيدت قوله شهادة الاستاذ الشيخ
حمزة فتح الله وآخرين ضد شهادة صهر صاحب تلك الجريدة وعمال مطبعتها ،
وبعد هذا طفق محرر النهج يستعطف الاستاذ الشيخ محمد عبده ويضمن بالاستاذ
الشيخ سليمان العبد زعماء انه أغراه ، ثم فنده وأنكر مدعاه . بسبب هذا كثر
الارجاف بان الصداقة بين الشيخين منفصلة العرى ، فلاحظ هذا الشيخ سليمان
فمكتب رقيا إلى أشهر الجرائد المصرية يقول فيه :

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سيد رسله سيدنا محمد . اني أعلن في
جريدتكم الغراء فوق ما قلته امام النيابة العمومية كذب من ادعى أنني حرصت
على تقيص أخي وصديقي الاستاذ الشيخ محمد عبده ، واني أعتقد فيه حسن الخلال ،
وصفات الكمال ، وليس بيني وبينه إلا كمال الصفاء والوفاق أدامهما الله بين رجال
العلم وأمناء الامة في ظل تعطفات مولانا الخديو المعظم ونحت عناية مولانا صاحب
الفضيلة شيخ الجامع الازهر أمين
كتبه بقلمه

سليمان العبد بالازهر

ويقال انه كان بين الشيخين بعض فتور وانهما قد تصالحا على يد فضيلة
الاستاذ الاكبر شيخ الجامع وستبري ، النيابة الاستاذ الشيخ سليمان وتقيم الدعوى
على صاحب النهج ، وعسى أن يبرئ في هذه الكرة وينيب اه
هكذا أبهمت الحادثة بالاتفاق مع الاستاذ وانني مبين الآن ظاهرها وباطنها فاقول

نحري الاستاذ الامام الازهر بنجره بله بالترهيب

(المحرك لرميه بانكار التوحيد)

أراد الاستاذ الامام أن يصحح الازهر بقارة شديدة توقظ النائم ، وتقدم القائم ، وتزول غرور المغرورين بالعلم ، واحتقار المحقرين لمن عداهم في الفهم ، وثبت لهم بالفعل ان تحليلهم لألفاظ كتب التدريس عندهم وإيراد الاحتمالات والشكوك فيها ، ليس هو العلم المطلوب ، وإنما العلم بتحليل الحقائق ، والجزم بما تثبته الدلائل ، وأن العلم بالتوحيد ، لا يثبت بالتقليد ، وكان يقرأ رسالة التوحيد وبلغه عن بعض المشهورين منهم أنه قال ان هذه الرسالة إنشاء لا علم ، فلما بلغ مبحث إقامة الدليل على وحدانية الله عز وجل قال لحاضري الدرس وفيهم كثير من العلماء المدرسين في الازهر ما معناه :

انكم تعلمون ان الايمان بوحدة الله تعالى هو الاساس الاعظم لدين الاسلام ، ولذلك جعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه ، حتى اذا ما قالها المشرک في ميدان القتال وجب الكف عنه الخ وسيكون موضوع درسنا الآتي إقامة البرهان على هذه العقيدة ، واني سأحضر معي عند المجيء إلى هذا الدرس مائة جنیه وأعدكم بان من أقام أمامي البرهان على الوحدة قبل أن يسمعه مني وأمكنه أن يجيب عما أوردته عليه من الاعتراض جواباً صحيحاً فاني أدفع اليه هذا المبلغ ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب فكانت هذه الصيحة بهذا التحدي العلني الصريح صاخة شديدة دوى صوتهما في الازهر ، ووصل إلى مسامع شيوخه في كل مكان ، فاصم آذانهم ، وزلزلة قوية رجفت لها قلوبهم ، ولعل كل واحد منهم كان يتوقع أن يوجد فيهم من يبرز لهذا الرجل في اليوم الموعد غيره ويقم له البرهان ، وبجيبه عن كل ما يورد على مقدماته وشروط انتاجه من اعتراض ، ثم يأتي أن يأخذ للمائة الجنیهات ، قائل له انما برزت لك لتعلم أن في السويداء رجلاً ، وفي ميادين الازهر أبطالا . لا لاجل جنیهاتك التي أغنانا الله بالقناعة عنها . ولكن جاء اليوم الموعد ، والشاهد والمشهود ، ونادى الاستاذ الحاضرين ، بلسان عربي مبين : هاهي ذي الجنیهات المائة ، فمن

كان مستعداً لإقامة البرهان قبل أن يسمعه مني فليتقدم ، فنكست الروس ، وصمتت الالسنه . قال فاصيخوا إلي اذا . وشرع يقرر البرهان الذي كتبه في رسالته أنا لا أمتقد انه لم يكن يوجد في الازهر من يقدر على إقامة البرهان على التوحيد الذي قال فيه الشاعر :

فيا عجبا كيف يعصى الآله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

بيد أنه ثبت بهذا التحدي ، وعدم التصدي ، انه لم يكن أحد منهم يجرؤ أن يقف مع الاستاذ الامام موقف المناظر ، في ذلك المجمع الحافل ، ولكنهم يعذرون - بالطبع لا بالشرع - اذا غضبوا منه وحنقوا عليه ، وحاولوا أن يسددوا سهمه اليه ، بأن يوعزوا الى جريدة من الجرائد الساقطة أن تذيع في الناس أن الشيخ محمدا عبده أنكر وحدانية الله تعالى ، وقال انها لا يقوم عليها دليل ، وكذلك فعلوا وكان نشر هذه التهمة بين العوام ، أسهل من نشر ذلك التحدي الذي لم ينشره لهم أحد ، ولو نشر لما وجد فيهم من يفهمه إلا الأقل . وكذلك كان ، وأعقبه خوض الناس في الاستاذ الامام .

نشر الشربتلي التهمة في جريدته فطلبت النيابة للتحقيق وزجته في الحبس ، فقل انه تلقى هذا الخبر من رجل من كبار علماء الازهر يثق به وهو الشيخ سليمان العبد ، فطلبت المحكمة الشيخ للتحقيق ، فشعر بالاهانة وخاف أن يقرن بالشربتلي في الحبس . فطفق يطوف على الوجاه من رجال الحكومة وغيرهم ليدفعوا عنه طلب المحكمة ، حتى انه ذهب الى الاسكندرية وكلم فيها محافظها اسماعيل باشا صبري لانه صديقه وكان صديق الاستاذ الامام ايضاً ، فلم يجد عند أحد نجدة ولا غناء ، فكلم الاستاذ الاكبر الشيخ حسونه شيخ الازهر واستنجد به ، فقال له ان وقعتك مع الشيخ محمد عبده ، ولا يوجد في مصر أحد ينقذك منه غيره ، فتعال معي إليه واعتذر له وأنا أرجره أن يقبل عذرک

ذهبا إلى الاستاذ الامام فكان مما قاله الاستاذ اني لا يهمني في الدنيا شيء إلا ديني ، ولولا غيرتي على ديني لما دخلت أزهر كم فانه لا ينافي منه إلا التعب والعناء . اما تخاف يا شيخ سليمان أن أتقرب إلى الله تعالى باخراجك من وظيفة التدريس

في دار العلوم بسوء نتيجة دروسك التي تظهر لي في الامتحان ؟ (وكان الاستاذ يتولى رئاسة الامتحان في دار العلوم ويضع له تقريراً سنوياً) ولكن يفرك مني انني أعلم أن عندك أولاداً كثيرين يغاب على قلبي الشفقة عليهم . فاعتذر الاستاذ الشيخ سليمان له وقال اننا نعلم الله على الصفاء والوفاء . وتكلم الشيخ خسونه بما قبله الشيخ محمد عبده مع تصريحه بانه لا يثق بالمعاهدات . وانتهى الامر بنشرناه يومئذ في المنار من انكار الشيخ سامان ما عزي اليه في المحكمة وفي الجرائد اليومية ، واعلانه بامضائه انه يعتقد الكمال في الشيخ محمد عبده ولكن تأثير تلك الصاخة لم يذته بذلك بل كثر تهامس كثير من العلماء في مجالسهم بالطعن والذم ، حتى كان كثير من أهل الفهم يحضرون درس الاستاذ الامام للاختبار ، متوقعين أن يسمعوا فيه شيئاً من الكفر أو الابتداع ، فيرون ضد ما كانوا يظنون ، وبصيرون من أنصاره ، فهذه النازلة هي السبب لما ذاع من تكفير الازهريين له ، وكنا نراه بين كبرائهم موضع الاجلال والاكبار ، وأما صغارهم فكانوا يذلون له ذلاً أستحي أن أهينهم بحكايته عنهم ، فان كانوا يعتقدون مع هذا كفره أو ابتداعه فهم منافقون والحق انهم ما كانوا ينقمون منه إلا الجزم بفساد التعليم في الازهر والسعي لما يتعذر لاصلاحه بالتعليم الاستقلالي الاستدلالي ، وبعضهم كان يحسده على ما آتاه الله من الجاه وجملة القول أن جميع خصوم الامامين الحكميين المصلحين كانوا من الفقهاء الجامدين ، والشيوخ الخرافيين ، وكان أنصارهما ومازوا عقلاء العلماء ، والكتاب البلغاء ، وطلاب اصلاح الفضلاء ، ومن المعلوم بالبداهة ان العوام الجاهلين يقبلون كلام الاولين لانهم أركان خرافاتهم وبدعهم وجهلهم ، ولكن العاقبة للمتقين ، والحجة بالباغة للعقلاء المنصفين ، فكان هؤلاء يدافعون عن الحكميين وينشرون مناقبهم في جميع الاقطار ، وتقدم نموذج من ذلك في الكلام على اصلاح الازهر وانتصار علماء الشرق والغرب للاستاذ الامام . وفي مجلدات المنار مقالات كثيرة في هذا الباب ، فاعلمنا بشيء انتقد عليه إلا وقد فندناه كزعم بعضهم في رسالة طبعها انه أنكر وجود الجن ، وبعضهم انه انكر وجود الملائكة ، وسندشراهم من ذلك في ذيل هذا التاريخ . ونذكر منها مقالة لعالم تركي نشرناها في المجلد الثالث عشر وهذا نصها :

الشيخ جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده (*)

كنت كتبت رسالة بينت فيها فساد زعم الذين يتهمون الشيخ جمال الدين الافغانى بالمروق وأوضحت بطلان هذا البهتان باجلى بيان، وطبعت تلك الرسالة ونشرتها فتداولتها الايدي واشتهرت بين الناس، وبعد ذلك سمعنا ببهتان جديد وهو أن الاستاذ لم يكن مارقا ولكنه كان وهابيا

عجبا هل يعرف هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون معنى رميهم الناس بالمروق تارة وبالوهابية تارة أخرى؟ أم هل درى اولئك الخراصون الاقا كون ناشرو الافك والبهتان أنهم بعملهم هذا يدخلون تحت انذار قوله تعالى (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) الخ ؟

واما الوهابية فهي بالحقيقة اسم الذين اعتنقوا هذا المذهب وهم معظم سكان بلاد العرب ومذهبهم ليس بينه وبين مذهب الحنبلية فرق كبير

عجبا أصار من الدين عندنا أن نشق بكل كلام يراد به إيذاء أي شخص والطعن عليه؟ وكيف يجوز أن نعمد إلى رجل صحيح العقيدة صالح الاعمال ونقول إنه رجل صالح ولكنه مارق من الدين، ثم يتلقى الناس هذا القول وينتشر من دون ترو ولا نظر في أعمال وأحوال من نسب ذلك اليه، فلا يمضي قليل زمن حتى يشيع بين الناس بان فلانا مارق وان فلانا زنديق

ثم كيف يجوز لنا الحكم بمجرد نقل قوم لا يعرفون من أحوال من يحكون عليه بهذه الافتراءات ولا من كلامه شيئا يصحح حكمهم؟

اننا نعلم ان اكبر جرم في الاسلام هو أن يحكم الانسان على عقيدة انسان آخر ويتحكم فيها وينسبه إلى الزندقة تارة وإلى الوهابية تارة أخرى بمجرد اختلاف في المشرب، أو لاقل سبب، مع أن الواجب الاسلامي بأمرنا باحترام عقيدة مطلق انسان

(*) كتب محمد عا كفافندي الكاتب التركي المعروف هذه المقالة ونشرها بجريدة شورى التي تصدر في اورينبورغ في الروسية تحت هذا العنوان فنقلناها عنها

مادام يوجد دليل واحد على اسلامه ضد تسعة وتسعين دليلاً على الكفر ، وانه لايجوز الحكم بالكفر مع وجود ذلك الدليل

ان اتهم كبار المصلحين بالوهابية في بلاد العرب وبالفرياسونية في بلاد الترك وبالباية في بلاد المعجم وبالدهرية والمروق في بلاد الروسيا صار أمراً معروفاً ومشهوراً جداً . وان تعجب فمعجب نعمت خيرة رجال الاسلام بتلك النعمت مثل جمال الدين الافغاني مع أنهم هم وحدهم المعروفون بالدفاع عن الدين الاسلامي وهم أنفسهم المجتهدون في ترقية بنيه بتربيتهم تربية صحيحة، وهم الذين أفنوا عمرهم الثمين بإنشاء المدارس ليجعلوا لأبناء أمتهم حظاً من العلوم التي تنهض بهم من حضيض الذل إلى اوج العز وتؤهلهم للجهاد في معترك هذه الحياة ليخرجوا من أسر الغلب (المغلوبية) إذا اعترض علينا معترض من أهل اللال الاخرى قائلاً: انكم تنهضون أفضل رجالكم وأعلمهم واعقلهم وأعلامهم قدراً وأشدهم غيرة على ملتكم بالمروق والدهرية والفرياسونية والوهابية مع أنهم لا يريدون لكم إلا الخير والرقى والسعادة فلماذا الآن دينكم لا يجتمع مع العقل والعلم والفضل والادب والحمية وحسن الخلق؟ فماذا يكون جوابنا يا ترى؟

إذا بحثنا في تاريخ الرجال الغيورين في القطار المصري الذين يدأبون على منفعة الاسلام ويخدمون المسلمين خدمة صادقة نجد أنهم تلامذة جمال الدين الافغاني وانهم انما نبغوا بفضل تربيته القويمة

لو كان الرجل مارقاً من الدين كما يقولون لما قدر أن يوجد رجالاً ممتثلين غيرة على الدين وأهله يخدمونه أجل الخدم (لان فاقد الشيء لا يعطيه) ولا هم لهم سوى ترقى الانسانية بكل همة ونشاط

ان جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى ضاقت عليه الارض بما رحبت سواء كان في الافغان أو المعجم أو تركيا أو اورية ولم يسمح له أن يقيم في إحدى هذه البلاد ناعم البال منشرح الصدر ، ولو كان من محبي المال والجاه والمناصب العالية لترك ما اضطره لاجله وهو خدمة الاسلام الجليلة، وإلقاء الدروس النافعة للعالم الاسلامي

ولما حاول إيقاظ المسلمين من نومهم العميق المؤدي إلى النوم الأبدي إن لم يسمف بالمنبهات من مثل إرشاد جمال الدين ، نعم لو أن جمال الدين ترك خدمة لاسلام واشتغل ببث أفكاره في العالم ولم يعمد إلى إيقاظهم لانهايات عليه سحب الدنانير والكان موضع الاحترام ، وصاحب المقام الذي لا يرام في جميع البلاد

ولكن تلك الروح العالية ، والارادة القوية ، والنفس السامية ، لم تنزل به في هذا الحضيض - حضيض المجد الزائل - فما زال مشمرًا عن ساعد الجد مجتهدًا بترويج مقاصده الخيرية ، يصارع الايام ويكافح الزوائب غير هباب ولا وجل ، وثبت في موقف يتمذر على غيره الوقوف فيه حتى صح أن يقال عنه انه كان شهيدًا في حياته وصدق عليه عبارة كل بك التركي « أحسن شيء وأفضله في هذه الدنيا أن يكون الانسان شهيدًا في حياته »

هذا - وان الذين يقترون على جمال الدين الافغاني بالمروق والوهابية تراهم لا يألون جهدًا برمي الشيخ محمد عبده بأكثر مما رموه به (كأن الكفر والمرق على نسبة النفع للامة) نعم ان لهؤلاء الافاكين مصنع كفر لا يفتأ يصوغ من حلي الكفر أجودها لهؤلاء الرجال العظام ، فانا ارجو منهم بعد النظر في مؤلفات الشيخ محمد عبده أن يثبتوا لي علامات الوهابية التي ينكرونها عليه ولو بأي صفة كانت ويظهرها للملأ^(١) ان بعض الناس يقول « انه لا موازنة بين زهد الشيخ محمد عبده وبين علمه »^(٢) وربما كان كذلك . وهل إذا امضى الشيخ محمد عبده عمره معتكفًا بالمساجد ، مواظبًا على صلاة النافلة ، أكان يفيد الاسلام أكثر مما أفاده ؟ اننا لانظن ذلك بل ان رده على عالم افرنجي مثل هانوتو ومدافعة عن حقوق الملايين من المسلمين هي في نظرنا أحسن عملا وأكثر ثوابا من الاعتكاف وصلاة النافلة

انظروا إلى قول عمر رضي الله عنه لأبي قلابة التابي « ان اكتسابك الرزق

(١) لعل سبب مناقشته لهم في الوهابية مع قوله انه ليس بينها وبين الحنبلية فرق كبير هو انها كانت تخيف السلطان عبد الحميد لان آل الرشيد وبعض الخرافيين كانوا يلقون اليه انهم اعداؤه واعداء الدولة (٢) الواقع ان الشيخ محمد عبده كان ازهد في الدنيا ممن يصفهم المسلمون بالزهد لعجزهم وتواكلهم فقد كان يتصدق بكل مازاد على ثقة بيته ، ولواراد الدنيا لكان من كبار اغنيائها

«لعمري أحسن عندنا من إقامتك في المسجد» وهل يمجز أبو قلابة عن تربية عياله وأولاده في زمن يعيش فيه الناس بقليل من النفقة عيشة الرفاهية من غير تجشم مشاق الكسب؟ ومع ذلك فقد أمره عمر رضي الله عنه بالكسب ونهاه عن الإقامة في المسجد أما محمد عبده فإنه لم يكن مثل أبي قلابة ولا هو في زمن مثل زمنه بل هو في زمن يحتاج فيه أن يشمر عن ساعد الجد لأجل تربية عائلة تبلغ الملايين من الأشخاص هأنحن اليوم معشر المسلمين ليس لنا مثل جمال الدين ومحمد عبده وقد مضى إلى خالفهما وتركنا كالماشية بالاراع، بل اننا أصبحنا واقفين موقف الحيرة لا ندري ماذا نعمل ولا نهتدي طريق النجاة

فالواجب علينا أن نذكر مثل هذين الاستاذين بالخير لأنها خدما الدين وكانا من حماة، وأن نسأل لهما من الله الرحمة والغفران لكي ينال جزاء عملهما الصالح نعم ويجب أن نعترف بفضلها وإرشادها لثلاثيها الأجيال المقبلة وتعيننا بأننا لا نعرف لاهل الفضل فضاهم، ولاجل أن يعرف القوم الآخرون اننا اناس نعرف فضل المصلحين واننا لسنا ممن يكفرون النعم. ويحسن أن أورد هنا حكاية صليبو وأجمعها خلافا لهذا الموضوع وهي انه قالني قبل خمس سنوات رجل افريقي وقال لي «إنكم قوم محرومون من معرفة الصناعة وأنتم معذورون في هذا، وأما في عدم تفكيركم في معرفة قدر الرجال فلستم بمعذورين فيه، بل ان هذا ذنب لكم لا يعتفروا من أشنع الذنوب» فاعتبروا يا أولي الابصار. (انتهت مقالة العالم التركي) أكتفي بهذا من خبر الطعن في دين الامامين الحكيمين من جهة المسلمين الذين لا يوجد في خيارهم من يدنو منهما في العلم ولا في الدين وأقول ان لا فرنج مطاعن اخرى في سياستهما التي كانت كلها جهادا لهم من أهمها طعن لورد كرومر على الاستاذ الامام في كتابه (مصر الحديثة) وقد فندته بمقالات في المنار سنشرها في الذيل الموعود به إن شاء الله تعالى. وقد وقفنا على مناقب أخرى للسيد جمال الدين من أهمها ما سمعناه من الشيخ عبد الرشيد ابراهيم السائح التبري الروسي الذي كان ملازما له في الآستانة الى يوم وفاته، ورأيناه يعتقد انه من كبار أولياء الله تعالى العارفين به، رحمه الله تعالى ونفع المسلمين بسيرته

خاتمة الفصل السابع

صحبة المؤلف للاستاذ الامام

لم يكن أحد يجهل في عهد الاستاذ الامام انني كنت معه في سني جهاده الاخير، كما كان هو مع السيد جمال الدين في مصر وباريس، كنت معه كما قل هو للاستاذ الشيخ محمد شاكر «ترجمان افكاره» وكنت مستودع أسرارته، والداعية له والمدفع عنه في كل معركة من معارك جهاده، أكتب بشأنها في المنار ما يليق بعلاقتي به، وفي الجرائد اليومية ما يكتبه من لا يعنيه الاظهار للحق والمصلحة، وفوق ذلك اننا كنا على اتفاق في العقيدة والرأي في جميع ما ينشره المنار إلا مسائل الدولة العثمانية وسلطانها، فانها من السياسة التي كان يبغضها. وقد مرت الشواهد على ذلك في عدة مواضع من أهمها سعي سمو الخديو للتفريق بيننا، ومن قول الاستاذ ابي شادي بك اننا رجل واحد. فوجب أن أبسط في هذا التاريخ بد هذه العلاقة وما انتهت اليه، ووضعتها ههنا لان عملي في الاصلاح والتجدد متم لعمله، كما كان عمله متما لعمل السيد جمال الدين من الوجهة الدينية والمدنية، وكان عمل سعد باشا زغلول في جمع كفة الشعب المصري متما لعملهما من بعض نواحيها السياسية ولقد قال له صديقه القديم محمود سامي باشا البارودي في أول تلاقيهما بعد عودة الباشا من منفاه في جزيرة سيلان الهندية: ان السيد جمال الدين قد تركك لنا فقامت بالاصلاح بعده خير قيام، واني لخائف أن تنقطع السلسلة بعدك فبشرني هل عندك أحد ترجو أن يتصل به سير الاصلاح؟ قال نعم، عندي شاب صوري يقوم بذلك وسأرسله إليك لتتعارفا. أخبرني الاستاذ الامام نفسه بهذا وأرسلني الى الباشا لتعارف، فتعارفنا وتآلفنا وكان رحمه الله أشد الناس عشقا للمنار، حتى كان يطلب ما طبع من كل جزء منه قبل أن يتم طبعه.

ذكرت في ترجمة السيد جمال الدين من هذا الكتاب (ص ٨٤) خبر عشقي له وكتابي اليه بالرغبة في صحبته لتلقي الحكمة منه، وأن سبب عشقه وعشق الاستاذ

الامام هو قراءة جريدتهما (العروة الوثقى) وان ذلك كان سنة ١٣١٠ إذ كنت أطلب العلم في طرابلس الشام ثم بينت ما كان من تأثير العروة في نفسي في فصل عقده للكلام على تأثيرها في العالم الاسلامي (ص ٣٠٣) ثم ذكرت لقائي للاستاذ أول مرة في طرابلس الشام بعد عودته من أوربة وما كان من إكباري له ، وإعجابي بكلامه (ص ٣٩٠) وما كان ذلك إلا ساعة أو سويعة من الزمان

وقد لقيته مرة ثانية في طرابلس إذ كان جاء سورية مصطافا وكان يصحبه أحمد فتحي بك زغلول من خواص مريديه (وكان رئيس نيابة الاسكندرية) فدعاه كبير عشائر لواء طرابلس محمد باشا المحمد المرعي الشهير إلى ضيافته في مزارعه الواسعة في عكار فأجاب ، ورأى من حفاوة هذا الامير ما لم يره في مكان ، من ذلك أن الاستاذ الامام كان في بعلي بك على ما ذكر ، ولم يعين الطريق التي يسلكها إلى بلد الباشا التي ينتظره فيها من عكار ، فأرسل الباشا إلى كل طريق من الطرق الموصلة إلى بلده (برقايل) كوكبة من الفرسان ممتطية جيادها العربية ، مشرعة رماحها الخطية ، فصادفته إحداها فجاءت في خدمته . ثم كانت الاخباريات تمود ترى كلما وصلت واحدة منها قالت : يا سعادة الباشا ما وجدنا للضيف أثراً . وكان الاستاذ الامام في مدة وجوده في عكار متنقلا بين مزارع الباشا وقراه يركب معه ومع آله وعشيرته فرسا من هذه الجياد العربية ، تتوغل به الجبال ، وتهبط الاودية ، وتسبح في السهول ، وقد دعا الباشا لاجله أشهر علماء طرابلس ليأنس بهم

و كنت في طرابلس أنتمس أخبار عودته كل يوم فوصل اليها ليلا ونزل في دار صديقه الاستاذ عبدالعزيز افندي سلطان الذي كان مدرسا للقانون في المدرسة السلطانية ببيروت أيام كان الاستاذ مدرسا فيها . ذهبت في الصباح لزيارته فقبل لي انه ذهب الى حمام عز الدين فجئت الحمام وانتظرت في محل الجلوس الخارجي ريثما يخرج ، وكان في انتظاره بعض العلماء ، فخرج قبله أحمد فتحي بك زغلول فعرفه بي الاستاذ الشيخ خير الدين الميقاتي وذكر له حبي للاستاذ وللسيد جمال الدين وتشيعي لهما ، وكان مما قاله انه أبلغ كاتب عندنا ولا يمدله استاذاً في الانشاء

الا الشيخ محمد عبده، وهو لم يلقه . فقال له فتحي بك : كذلك عندنا الكتاب المجيدون في مصر كلهم يعرفون بانه لا أستاذ لهم في الانشاء الا الأستاذ او السيد جمال الدين . ثم خرج الأستاذ فسلمت عليه وقد تذكر تلاقينا تلك السويعة منذ بضع سنين . وكنت أأزمه مدة وجوده في طرابلس من اول النهار إلى وقت النوم ، وكان في مجالس التنزه في حديقة التل وفي السمر ليلا لا تلقاه الا مسؤولا ، فكان سبعة أعشار الحديث له او اكثر

ولكن محمد باشا المحمد اضطره إلى سؤاله والسماع لحديثه في أيام ضيافته له اذ ذكرت انساب العرب فكان الباشا يذكر اتصال قبائل هذا العصر بالقبائل المدونة في الكتب كتاريخ ابن خلدون وغيره وكان للباشا باع طويل في ذلك فكان الأستاذ يسأله التفصيل فيه ويمجّب باجوبته

وقد أظري في بعض مجالسه الشيخ احمد فارس الشدياق في اللغة والانشاء ، فقلت له أين هو من اسلوب العروة الوثقى الرفيع ووضعكم افرائد اللغة الطريفة في مواضعها منها ؟ قل تلك ألفاظ نديرها اما الشيخ احمد فارس فهو امام في اللغة . واما اسلوبه في الكتابة فغريب قلما فطن له الادباء ، ذلك انه خدم الدولة الانكليزية في الآستانة عشرين سنة بما كان يعتقد جميع قراء جريدته الجوائب انه خدمة للدولة فقط اذ أقنع مسلمي الهند بل العالم الاسلامي كله ان هذه الدولة صديقة لسلطان ودولته ونصيرة لها . وقد عجبنا من تفضيله لاحمد فارس على نفسه في الانشاء وهو أبلغ منه وكان مما سألته عنه اسلام مسلمي ليفربول من بلاد الانكليز : أهو اسلام صحيح أم سياسي ؟ قال السياسة لا تأتي من العامة وهؤلاء من العامة . وقد تعارفنا في هذه المرة وكان كلما كتب الى عبدالعزبز سلطان بسلام علي

وكان مما أعجبني من كلامه وكلامه حكم كالدرر انه لما اراد السفر من طرابلس إلى مصر طفق العلماء والوجهاء يلحون عليه راجين أن يطيل إقامته عندهم أسبوعا على الاقل ، فقال إذا فصل بعد انتهاء الاجازة بأيام ، قلت له وهل في هذا تبعه أو مسؤولية ؟ قال نعم نحتاج الى الاعتذار الى ناظر الحفانية ، فتذكرت حديث «إياك وكل أمر يعتذر منه» روى الضياء المقدسي في أحاديثه المختارة عن أنس مرفوعا إلى النبي ﷺ

ولما قضى السيد جمال الدين نجه بالاستانة في شوال سنة ١٣١٤ (مارس ١٨٩٦) أجمعت الرأي على الهجرة إلى مصر للاتصال بوارث علمه وحكمته الاستاذ الامام لتلقي الحكمة منه ، والوقوف على رأيه ونتائج اختباره في الاصلاح الاسلامي . وكنت قد نلت من شيوخى شهادة التدريس (العالمية) فطفقت أمهد السبيل لارضاء والدي بهذا السفر حتى رضي . وأما الوالدة فكانت توافقتني على كل ما اقول لها ان فيه فائدة لي (رضي الله عنهما)

رضي الوالدان بالسفر وبقي أن ترضى الحكومة الحميدية في طرابلس وبيروت وهذا ما لا سبيل اليه ، لانني قد اشتهرت بانني كاتب ومفكر وبحاث في السياسة وإن لم ينشر لي شيء في الجرائد إلا مقال طويل في الاخلاق وصدور الاعمال عنها وعن الوجدان - فاجأت الى الحيلة

أعطيت صندوق ثيابي ومتاعي للشيخ أبي النهى القاوقجي يسافر بها بعد أيام في الباخرة النمساوية وذهبت الى بيروت منفرداً في غرة رجب سنة ١٣١٥ فأقمت فيها أياماً، وأخذت جواز السفر من (ناظر النفوس) فيها وهو صديقي الاستاذ الشيخ صالح الرافعي فلما جاءت الباخرة النمساوية بيروت نزات اليها في زورق صغير مع الاستاذ الرافعي فلم يرتب رجال البواليس في امري لانه ليس معي شيء يدل على السفر وقال بعضهم لبعض : هذا ضيف عند ناظر النفوس من بلده (طرابلس) يريدان التمتع في البحر رست باخرتنا في الاسكندرية مساء الجمعة ٨ رجب [٣ يناير سنة ١٨٩٨] فأقمت فيها أياماً وانتقلت منها الى طنطا فالمنصورة فدمياط فأقمت في كل منها أياماً ثم عدت الى طنطا ماراً بهن وكنت في طنطا ضيفاً على السيد حسين القصبي لما كان بين والده ووالدي من المودة إذ أقام والده بدارنا في القلمون أياماً كانت أطيب أيام إقامته في سورية صحة وهناء معيشة

وسافرت من طنطا يوم السبت ٢٣ رجب الى القاهرة قبل الظهر . وفي ضحوة يوم الاحد ذهبت إلى زيارة الاستاذ الامام بداره في الناصرية ومعى صديقي الاستاذ الشيخ اسماعيل الحافظ ورفيقي الشيخ أبو النهى القاوقجي ، فلما بلغناها ارسلت اليه بطاقة الزيارة فمالبث أن نزل وهي بيده وطفق بعد السلام يسألني عن اصحابه





﴿ المؤلف بعد هجرته إلى مصر في سنة ١٣٢٧ هـ ﴾

في طرابلس : الاستاذ الشيخ حسين الجسر ودروسه وجريدة طرابلس التي ينشر فيها مقالاته، والشيخ عبد الله البركة والشيخ عبد الله المسقاوي، وعبد العزيز افندي سلطان، ومحمد باشا المحمد

ثم قلت له ان غرضي الاول من الهجرة الى مصر تلقي الحكمة عنه واني أعتقد انه بقية رجاء المسلمين، وانه موجه عناية لاصلاح الازهر، فتكلم في مسألة الازهر ومسألة إلزام الخديو توفيق باشا اياه أن يكون قاضياً في المحاكم الاهلية بما نشرته في أول الكلام على عمله في اصلاح الازهر، ثم تكلم في مسألة السياسة بما نقلته عنه في موضوع رأيه في السياسة، ثم قال ان المسلمين في بأس من كل خير ونجاح الا إياي فان لي املا كاملا، ويوجد رجل آخر في مصر له نصف أمل. وقد علمت بعد ذلك ان هذا الرجل هو صديقه الشيخ عبد الكريم سلمان، ولكن ما كان عنده من نصف الامل زال بعد ذلك عندما رأى ما رأى من مقاومة الاصلاح في الازهر، وصرت أجاده في هذا اليأس فيقول سنرى ما تفعل أنت وأستاذك؛ وبينت أيضاً ان أمه الكامل انما هو في الاسلام لا في شعوبه الحاضرة

كلمته في أنه الموالد وثنية

وتكلم في مسائل أخرى ذكرتها في مواضعها إلا مسألة واحدة وهي ما جرى في عقائد المسلمين من الوثنية وكون أظهرها هذه الاحتفالات الدينية للسماة بالموالد وقد فاتني أن أذكر هذا في رأيه في إعراض المسلمين عن دينهم فأذكره هنا استطراداً لفائده وفكاهته، وان كنت نقلت عنه في التفسير مراراً ما هو في معناه قلت له انني مرت بطنطا قرأت في مسجد السيد البدوي مالم أر مثله من الطواف بقفص القبر وطلب الحوائج منه ... فذكر لي ان أحد وجهاء المصريين كان عنده في أثناء مولد السيدة زينب من هذا الشهر (رجب) مع جماعة آخرين ققام الوجيه وقال انه ذاهب لزيارة السيدة (قل) فقلت له لم خصصت الزيارة بهذا اليوم ؟ قال لانه يوم المولد - وان هذه الليلة هي الليلة الكبيرة

« قلت : ما هذا المولد ؟ انا لا افهم معنى لهذا اللفظ ، هل يوم المولد او الليلة

الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين ؛ قال ونهيتته عن الذهاب فلم يذته وهم بالخروج ، فقلت له اني لست مازحا وإنما أنكلم بالجد وأقول ان هذا العمل من اعمال الوثنيين وان الاسلام يأباه . كل آيات القرآن في التوحيد تنهي عن هذا وتذمه . ان الفاتحة التي تقرأونها كل يوم في صلاتكم مرارا تنهاكم عن هذا العمل — تخطبون الله تعالى فيها بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) كذبا فانكم تستعينون غيره [وتعبدون غيره] ثم ان عملكم هذا متناقض حيث تهذون الفاتحة الى من تزورونه ، إذ معناه انه محتاج اليكم وينتفع بفائدتكم ، ثم تطلبون منه قضاء حوائجكم » الخ

ثم كنت أختلف الى داره باذنه فيقابلني في حجرة النوم والمطالعة والكتابة كما يقابل بعض خواص أصحابه أحيانا ، وأما سائر الناس فكان يقابلهم في حجرة الاستقبال من الدور الاسفل . وقد نشرت بعض ما دار بيني وبينه في بيان آرائه آنفا . وكان عند الانصراف بعد كل لقاء يذكر لي مواعيده في اليوم التالي و الوقت الذي يمكن ان يلتقي فيه بالدار وهو كل وقت يكون فيها

كثير اجتماعي به قبل إصدار المزار وكنت أكتب خلاصة ما يدور بيننا من المذاكرة وكاه في المسائل الاصلاحية التي هاجرت لاجل الاشتغال بها والوقوف على منتهى علمه ورأيه فيها ، ولم تكن نختلف الا في مسائل قليلة ينتهي البحث فيها بالاتفاق كمسألة البابية والبهائية التي شرحتها في الكلام على آرائه وسيأتي غيرها

استشارتي اياه في انشاء جريدة

لئن كان الغرض الاول الباعث لي على الهجرة الى مصر هو صحة الاستاذ الامام كما تقدم فقد اقترن به عند اجلة قداح الفكر فيه باعث آخر وهو إنشاء صحيفة اصلاحية أستمد من حكمته واختباره فيما أكتبه فيها اذ آن لي ان اكون مفيدا كما اكون مستفيدا ، وقد جربت نفسي في الكتابة بتأليف كتاب (الحكمة الشرعية) فكان كل من سمع شيئا منه في تحقيق المسائل للاصلاحية الدينية والاجتماعية والمدنية من اهل العلم والفهم يبالغ في الثناء على إنشائه ،

والاستقلال في تحرير مباحثه ، وفي مقدمتهم أستاذي الشيخ حسين الجسر الذي خالفت بعض آرائه التصوفية وغيرها فيه . وكان من تلك المباحث المتفق على حسنها مبحث الأزياء من نواحيه الدينية والاجتماعية والأدبية والسياسية ، ومسألة اصلاح الخطابة والاستعداد للارتجال فيها ، ومسألة ضرر الاتكال في ارجاع مجد الاسلام على المهدي . ومسألة طمع الاجانب في بلادنا وفي سلب ثروتنا بمصنوعاتهم ، وكان للمقال الذي نشرته لي جريدة طرابلس في فلسفة الاخلاق والاعمال تأثير حسن عند الادباء في موضوعها وانشائها ، وكنت اشعر بانني مستعد للخطابة الارتجالية في كل موضوع درستة وكل شيء علمته ، لان النطق بالعربية الصحيحة سهل علي ، وقد جربت الالتقاء الخطابي ذلك في مسجدنا بالقلمون فساس لي قياده ، وذلت لي صمابه ، وكنت أعتقد ان استعدادي كله يبقى ضائعاً اذا بقيت في سورية ، وانه لا يمكن ان يظهر هذا الاستعداد بالعمل الا في مصر لما فيها من الحرية المفقودة من البلاد العثمانية

نم انني كنت مخالفاً لجمهور أهل بلادتي ولا سيما المسلمين منهم في استقلال الفكر وحرية البحث في المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية ، حتى كان أدباء النصارى يستغربون هذا مني ويقولون انى لك هذا ومن أين جئت به في هذه البلاد؟ وقد أقيت مرة خطاباً حراً في اجتماع حضره كبار رجال الحكومة والعلماء والوجهاء ذكرت فيه طبقات الناس من الحكام وغيرهم ، وان تفاضلهم انما يكون بالعمل النافع للامة ، خاف بعض من سمعوا في المجلس ومنهم أستاذي الشيخ حسين الجسر ان يكون سبباً لا يذاء الحكومة لي ، ولكن متصرف طرابلس كان من الاثر الكاشقين للحرية (وهو حسن باشا سامي الذي كان والده شيخ الوزراء في الآستانة) فقام وأثنى علي وقال انه يفتخر بان يعد نفسه طرابلسياً لهذا الكلام الذي سمعته وما فيه من الحكمة الختم كان يجليني ويحب أن يسمع رأيي في كل شيء يهمه حتى اذا ما زرته في دار الحكومة أمر حاجبه بأن لا يأذن لأحد في دخوله علينا لأعمال الحكومة الرسمية ، وجملي عضواً في شعبة المعارف

ورأيت في طرابلس رجلاً من أحرار المصريين ذا كربي في مسائل دينية

قلنا رأيتني كلمته فيها بأدب وتلطف في الاستدلال قال لي انك لا تستطيع أن تقيم في هذه البلاد انك لا بد أن ترحل إلى مصر وقال ان كل من ساءه عنها من اهل العلم حكموا بكفره وأهانوه

وجلة القول انني كنت قد عزمت على انشاء الجريدة قبل السفر وعقدت مع رجل آخر اتفاقا عليه، ورأيت أن أختبر حال البلاد وأعرف رأي الاستاذ الامام فيه، ولم أكتشفه بذلك إلا بعد سياحة قصيرة في الوجه البحري قبل دخول القاهرة وسياحة اقصر منها في الوجه القبلي بعده، وكان قد ذم جرائد مصر امامي وقال انها قليلة الفائدة لعدم وجود أحزاب تنطق بلسانها، وتكون هي داعية لها

زرتني في سادس شعبان (سنة ١٣١٥) تلك الزيارة الطويلة التي كان من حديثنا فيها مسألة الصوفية والبهاية التي شرحناها في الكلام على آرائه فكان اول حديثه معي ان زائراً بيروتياً من بيت الانسي اخبره ان جماعة جاؤا من طرابلس الشام لانشاء جريدة في مصر، فقال له وهل رأوا الجرائد هناك قليلة؟ حينئذ قلت له انه يعنيني وقد جاءني أنا من طرابلس ان والي بيروت بلغه انني جئت مصر لانشي جريدة لأطمئن في رجال الدولة، وأصل الخبر صحيح ولكن المقصد اعلى من الكلام في الشخصيات والحكومات، وإن رجال الدولة قد ذموا كثيراً ومدحوا كثيراً فما نفع المدح ولا الذم

رأيه في جرائد مصر وقرائنها

قال الاستاذ ان المصريين في حالة جمعات افكارهم موجهة إلى شيء واحد من الجرائد وهو اخبار الحكومة وما يقال عن الخديو وعن الانكليز ولا يلتفتون إلى ما وراء هذا وقد قامت به ثلاث جرائد : المؤيد والمقطم والاهرام، وشرح خطة كل جريدة منها، وذكر انه لا يمكن لي مباراة واحدة منهم في خطتها

قال : واذا كتبت في الموضوعات الادبية كالتربية أو التعليم أو آداب اللغة لا يلتفت إلى كلامك الناس، فاني لأعرف أحداً في الازهر ولا في المدارس مشتغلاً باللغة وآدابها إلا أن يكون في الزوايا من لم نعرف، وهؤلاء إن وجدوا

لا غناء فيهم ، وهذا أمر مهم ومفيد ولكنه لا يأتي منه ما ينبغي بنفقاته ، ولا ينبغي التعب وانفاق المال هكذا

قلت ان صاحب مجلة الهلال أخبرني ان له ٣٥٠٠ مشترك ، فاستغرب وقال ان كانوا يحسبون ان كل من يكتبون اسمه في دفترهم مشترك كما فقد يكون عنده هذا الممدد ، وأما الذين يدفعون الفلوس فلا أعتقد انهم يبلغون الالوف

قلت : ان من غرضي الاشتغال والتمرن على الكتابة في المسائل الاصلاحية المفيدة قال يمكنك ان تكتب هذه المباحث في كتاب فهو أرجى لقراءة الناس له

مرافقتي على انشاء صحيفة اصلاحيية وشروطه فيها

ثم انتقلنا إلى الكلام في موضوع مرض الامة وضعفها وان أنفع الوسائل في معالجتها التربية والتعليم ونشر الافكار الصحيحة لمقاومة الجهل والافكار الفاسدة التي فشت فيها كالجبر والخرافات . . . فقلت ان هذا هو الباعث لي على إنشاء هذه الجريدة واني أسمح ان أنفق عليها سنة أو سنتين من غير ان أكسب شيئاً

قل ان كان هكذا فهو حسن . وهذا أشرف الاعمال وأفضاها . وأنا اذا

كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة فاني أساعدها بكل جهدي

قلت اني أعاهدكم على أن أكون معكم كما يريد مع أستاذة على نحو مما يقول الصوفية . ولكنني أحفظ لنفسي شيئاً واحداً أخالفهم فيه وهو أن أسأل عن حكمة مالا أعقله ، ولا أقبل إلا ما أفهمه ، ولا أفعل إلا ما أعتقد فائدته

قال : هذا ضروري لا بد منه . ومن هنا انتقلنا إلى الكلام في الصوفية

ثم زرتة في يوم الاربعاء (١٢ شعبان) وكان معي الاستاذ الشيخ اسماعيل الحافظ فكلمته في مسألة الجريدة فأشار بثلاثة امور (١) أن لا نتحيز لحزب من الاحزاب (وذكروا في حديثه صاحب المؤيد ومصطفى كامل الشاب المتحمس او المتهور) (٢) ان لا نورد على جريدة من الجرائد التي تتعرض لنا بدم او انتقاد (٣) ان لا نخدم افكار احد من الكبراء « هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة الذين يدعون بها كبراء ، اننا قد نستخدمهم ولكن لا نخدمهم »

ثم اشار الى ان الطبع ينبغي ان يكون في المطبعة الاميرية لئلا يبعد عن الدسائس

وعن اطلاع جماعة المطابع على شؤون الجريدة الداخلية (وذكرك لي ما عمله من اخلاق اصحاب الجرائد من السوريين والمسلمين)

ثم تكلم عن حرية الجرائد وقال انتم تسمعون ان في مصر حرية ... هذه الحرية ليست للمسلمين ، المسلمون في اشد المراقبة عليهم ، وأبعد الناس على الحرية ، لا حرية لهم فيما ينفعهم اصلاً ، ولا يمكن لهم الحرية المطلقة في كل ما يضرهم (وقد قال في حديث آخر ان الحرية التي كانت بمصر كافية للنهوض باصلاحها وانما كان العائق فساد الاخلاق) قال : لكن أجر الطبع في المطبعة الاميرية غال ، وانما غلاؤه لاجل التصحيح فاذا كانوا يرضون منا الطبع بدون تصحيح باجرة مناسبة فلا معدل عنها ، وأنا أسأل عن هذا الامر .

وقد سرتني من حديثه هذا انه تكلم عن هذا العمل بضمير المتكلم ومعه غيره وأنه يشعر بانه يعمده منسوباً اليه . ثم سأل بعد رمضان عن ذلك وعلمنا ان الطبع في المطبعة الاميرية غير ميسور ولا من المصلحة ، فطقت أسأل عن المطابع ورجحت أولاً مطبعة الاخبار وأخيراً مطبعة التوفيق القبطية ، وبقي من مقدمات الشروع الوقوف على عناوين القراء الذين ترسل اليهم الجريدة لاجل الاشتراك فيها وكنت عرفت أفراداً منهم في القاهرة وغيرها . فشاورت الاستاذ في ذلك فكتب الى نقولا افندي شحاده صاحب جريدة الرائد المصري (وكان من الذين يجلونه ويدافعون عنه) كتاباً هذا نصه :

عزيزي الفاضل

بعد اهداء التحية أقدم لك حضرة الشيخ محمد رشيد رضا الطرابلسي من أفاضل أهل العلم في طرابلس وهو الذي سبق الكلام معكم فيه ، وانه يريد إصدار جريدة أدبية ، وقد ظهر انه اتفق مع مطبعة أخرى غير مطبعة الاخبار . والرجاء أن تساعدوا حضرته باعطائه أسماء المشهورين من مشتركي جريدتكم من مأموري حكومة ومديرين وغيرهم ومن أعيان ومعتبرين في القطر المصري ، وعندى يقين انه سينال منكم ما يحب من ذلك . وأكون لكم من الشاكرين . ١٤ مارس سنة ١٨٩٨

محمد عبده

ذهبت بالكتاب إلى الرجل في إدارة جريدته (الرائد المصري) فرحب بي ووضع بين يدي دفتر المشتركين في جريدته وقل اكتب منه ما تشاء ، واتصلت المودة بيني وبينه طول حياته وكان صادقا وفيا : فهذا كل ما ساعدني به الاستاذ من رأي وعمل تمهيدى لاصدار الممار

نم شاورته في اسم الجريدة فذكرت له اسم الممار مع أسماء أخرى ليختار منها او غيرها فاختر اسم الممار وكان احبها إلي لفظا ومعنى ، ثم شرعت في تحريره في الاسبوع الذي صدر فيه فكتبت فاتحة العدد الاول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلي المجاور لدار الاستاذ بالناصرية وذهبت بها الى داره فعرضتها عليه فأعجبته جدا لاجاب كما تقدم (ص ٩١٣) ولما صدر العدد الاول قال : كان ينبغي أن تكتب فيه مقالة أخرى في موضوع من الموضوعات الاصلاحية التي ذكرتها في المقدمة ، فقلت موعدنا العدد الثاني ، فلما صدر الثاني مفتحا بمقال طويل عنوانه (اقول الفصل — محاورة في سعادة الامة) جئت به دار الاستاذ وكان عنده الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان فقرأه هذا كله والاستاذ الامام يسمع ، وبعد الفراغ من قراءته أثنيا عليه ثناء جميلا وقال الشيخ عبد الكريم : انك لم تترك في هذا المقل شيئا يقال في الموضوع ، قلت هذا كله مقتبس من مولانا الاستاذ ، قال الاستاذ كلا اني والله لم أتكلم بك في شيء من هذا ، قلت وأنا لست بالمتعلق انا أعني اني استفدت هذا المذهب ورويت من هذا المذهب ، من قراءة جريدة العروة الوثقى

وما ذكرت هذه المسألة هنا لاجل الثناء على نقدي بل لأبين كيف تأسست الصلة بيني وبين الاستاذ الامام في اتحاد المذهب والمذهب

ترويح الممار بالثناء عليه

كنت كلما صدر عدد من الممار آتية بيضة أعداد منه ليراها أصدقائه وزواره من العلماء والفضلاء ، ويهب منها لمن يشاء ، وكان هو يثني عليها لمن رآها ولمن لم يرها عند المناسبة كما تقدم في حكاية الشيخ محمد المهدي (ص ٧٧٤) بل ذكرها

لسمو الخديو بما فهم منه انها له أو تعنيه (٥٨٠) وهذا جل ما كان يروج به المنار، إذ كان خلقه وأدبه يأبى عليه أن يطالب من أحد شيئاً لأجله، وقد صار المنار كأنه له، حتى كان بعض الناس يظنون انه هو الذي يكتب مقالاته المهمة وكنت أسر بهذا، حتى اضطرت الى التصريح في المجلد الرابع بأن كل ما ينشر فيه غير معزو إلى أحد فهو لمنشئه

وقد كان من تأثير هذا النوع من الترويج أن المنار قوبل بالقبول والاحترام من أعلى الطبقات الاجتماعية في القطر المصري، ومن ذلك ان أحمد فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر الاهلية استشهد بكلام المنار في مقدمة الكتاب الذي ترجمه وطبعه في ذلك العهد (الاسلام خواطر وسوانح) فانه كتب مقدمته بعد صدور العدد الاول من المنار وهي في بيان حال المسلمين الذي نقل مؤلف الكتاب (الكونت دي كاستري) ما نقل من طعن الصليبيين عليهم وعلى دينهم وبين خطاهم فيه بما علمه بالاختبار، فقد بين فتحي بك في مقدمته لما كان عليه الاسلام وأهله من المناقب والفضائل وما صاروا اليه من المخازي التي صاروا بها حجة على دينهم ومنها قوله « وانحل عقد نظام المسلمين فأصبحوا أشعثا يمتتهم الناس ويرمونهم بالأنحطاط، ويعيرونهم بما تنزه عنه شرعهم ولكنهم ألفوه، وبالغوا في التمسك به، حتى تبدلت الاحوال وصار كما قال صاحب المنار (الجبر توحيداً، وترك الاسباب إيماناً، وترك الاعمال المفيدة توكلًا، ومعرفة الحقائق كفرًا وإلحادًا، وإيذاء المخالف في المذهب دينًا، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحًا، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفنا، والمهانة تواضعًا، والخضوع للذل والاستبسال للضمير رضى وتسليماً، والتقليد الاعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً)

قال لي أحد كبار المحامين الذين اشتركوا في المنار منذ السنة الاولى وظل مشتركاً وفيها طول عمره (رحمه الله) انه لما ظهر كتاب احمد فتحي بك رئيس المحكمة الاهلية العلامة الكبير النفس ورأينا في مقدمته نقلاً عن صاحب (المنار) تساءلنا عن المنار وصاحبه، وأكبرنا استشهاد هذا الرئيس الكبير بكلامه من أول ظهوره، وكان هذا سبب اشتراكه فيه ولقد كانت طبقة المحامين والقضاة الاهليين

الذين اشتركوا في السنة الاولى من المنار أكثر من سائر الطبقات المتعلمة، والظاهر ان السبب الاول لذلك رؤية المنار مكرما محموداً عند أعلى رجال القضاء مقاماً : الاستاذ الامام وسعد زغلول بك واحمد فتحي زغلول ، وحسن عاصم باشا، وقاسم بك امين وغيرهم من مستشاري الاستئناف ورؤساء المحاكم

وأخص طنطا بالذكر في هذا المقام فقد كان أكثر المحامين الراقين فيها من مشتركين المنار وأنصاره، وكان الداعي لهم إلى ذلك أحدهم مصطفى بك الباجوري من أصدق مريدي الاستاذ واخوانه وكان هو الوكيل على أطيان سعد بك زغلول وكان يكتب في حساب نفقاتها اشتراكه في المنار وفي الجمعية الخيرية الاسلامية (بأمر الاستاذ الامام) إذ هو الذي يدفعهما عنه

ومهما يكن من كثرة اشتراك رجال القضاء والمحاماة بالإضافة الى سائر المتعلمين المدنيين فلن تنهض بصحيفة أسست للإصلاح الديني قبل كل شيء، فان أكثرهم لا يحفل بهذا العمل لذاته، ولم يكن تأثير الاستاذ الامام وحزبه فيهم إلا تأثيراً معنوياً كتأثير الوزير الكبير رياض باشا فقد كان يمدح المنار في مجالسه على مسامع زواره (رحمه الله تعالى) إذ لم يكونوا يدعون إلى نشره أو الاشتراك فيه بالصراحة، ولم يوجد أحد اهتم بتعميم نشر المنار من كبار رجال مصر إلا ابراهيم باشا فؤاد وزير الحقانية فانه كأم فتحي بك زغلول بل كلفه وضع مشروع لتوزيع ألوف من نسخه بثمان قليل ولم يتح لهما تنفيذ ذلك، وقد خبرني الخبر فتحي ولم أحفل به ولا شكرته له ولا حاولت العمل معه لتنفيذه، وهذا مما لا أنكر من سيثاني وزهدي

مساعدة المنار المادية ، ومبادئ المالية

لم احتج إلى مساعدة مالية من أحد إلا مرة واحدة : سرق جميع مافي الإدارة وأنا غائب في طنطا بسبب سياسي دبره بعض جواسيس الاستانة فاضطرت إلى رفع دعوى على السارق ولكنه فر وفتشت داره وحكم عليه ، ولم يكن معي من الدراهم ما يكفي لتجديد العمل ثم لشراء المسروق عند العلم بوجوده لدى رجل أجنبي إلا باقتراض خمسين جنيها فقط أخذها لي الاستاذ الامام من محمد بك الوكيل

أحد أودائه (المحاسب) وأخذ مني سنداً بها ، وكان ذلك في أوائل السنة الثالثة للنار ولم أتمكن من وفاء هذا الدين إلا في السنة الخامسة ، ففي هذه السنة كثر المشتركون في النار من جميع الطبقات وكان من أكبر أسبابه مقالات الاستاذ الامام في موضوع (الاسلام والتصرانية) وكذا نشر سجل جمعية أم القرى بيد أن هذا الانتشار قد تلاه عهد سخط سمو الخديو على الاستاذ وعلي ومقاومته لنا واغرائه العلماء والحزب الوطني وموظفي الخاصة بالصدع عن النار ، فكان الضرر المالي علي بهذا أكبر من ذلك الربح بنفوذ الاستاذ الامام ، وقد وقف على ذلك الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وشرحه لي شرح خبير بصير ، ونصح لي بان أقتصد في الثناء على الاستاذ والتنويه به لاسلم من أذى خصومه الاقوياء فيتسنى تعميم نشره ، وقد صرح بانه يخدم الاسلام خدمة لم تعهد من غيره ، وبان المسلمين في أشد الحاجة إلى هذه الخدمة وبأنه يجب أن يوجد النار في كل بيت ، فأقنعت الشيخ علياً بان التنويه بالاستاذ الامام مقصود لذاته وهو اقناع العالم الاسلامي بزعامته ، إذ الإصلاح لا يعم وينتظم إلا بزعيم موثوق به يكون مناط الوحدة له ، فأقنعت بذلك ، وقد شرحت هذه المسألة في ترجمة الشيخ علي يوسف في النار عقب

موته وذكريها في الكلام على سمي الخديو للتفريق بيني وبين الاستاذ الامام من هذا التاريخ (ص ٥٨٧)

والغرض من ذكر هذا وما قبله هنا دحض ما ظنه بعض الناس (الذين لا يعقلون أن يكون بين الناس علاقة قوية ولا رابطة متينة إلا بالمنافع المادية) وقاله بعض الخصوم من أن صاحب النار كان متشيعاً للشيخ محمد عبده لاجل المنفعة المادية الشخصية ، وهذا ظلم لتاريخ كل منا ولتاريخ الإصلاح لم يكن أحد منا مادياً ولا ممن يعني بالمال ، ولو كنت أعمل للمال ، لكنت من أبعد الناس عن هذا الرجل الذي يعيش مثلي عيشة الكفاف ، ولقد كان خديو مصر أكثر منه مالاً ، وأقدر على مساعدة من يخدمه بالمال من غير جيبه وقد فعل ، فكيف آثرت عداوته على مودته لأجله ؟

تلك المرة الاولى التي احتجت فيها إلى مساعدة مالية في مصر ، ولم أذكر

حاجتي له وقد كنت عنده كولد الصلي وأخيه النسي أو أعز وأكرم ، بل هو الذي سألي : هل لديك من الفلوس ما يمكنك من استمرار اصدار المنار بعد أن سرق كل ما في ادارته حتى الاجزاء السابقة ؟ قلت اعلي أرجي ، اصداره ريثما أكتب إلى صديق لي من طرابلس أعرض عليه مشاركتي فيه ، قال لا يجوز تأخير اصداره فكم يكفيك لاستمرار العمل ؟ قلت خمسون جنيهاً . قال يمكنك أن تقترضها ، ثم استكتبني سنداً بخمسين جنيهاً من محمد بك الوكيل فأخذه ثم جاءني بها

وأظن انه كان يعتقد انه يكبر عليّ أن أقبل هذا المبلغ منه لو بذله باسم المساعدة ، ويعتقد مع ذاك انه يعز عليّ أن أردّه عليه أيضاً ، وإن كانت علاقتي به كملاقة الولد بوالده ، وإن أدري أكان يدري أيضاً أنني لم أطلب من والدي لنفسه مساعدة مالية قط أم لا ، فاني كنت في الصغر أهابه فأطلب من والدتي ، وفي الكبر أنحرى أن لا احتاج اليه ، وكان لي كسب أدبي بني بحاجتي الشخصية حتى نمن الكتب العلمية وهو كتابة الحجج الشرعية والعقود ، ومنه جمعت نفقة السفر إلى مصر ، ولم أطلب من والدي شيئاً ، وكان لي قطعة أرض أملكها أيضاً ولم أحتج إلى بيعها ، وعرض عليّ بشارة باشا أن لا يمدنقل الأهرام إلى مصر أن أكتب لها مقالات في مقابلة نصف ليرة لكل مقالة وإن كثرت وقصرت فلم أقبل

لله در الاستاذ الامام ، انه علم من أخلاقي وشعوري ما لم يعلمه أحد إلى الآن ، بل علم من شؤونني في خويصة نفسي ما لم أكن أظن انه يعلمه ، حتى حدثني به الامير حسين كامل (الذي صار سلطاناً بعده) بمناسبة حديثي معه في مشروع مدرسة الدعوة والارشاد ، ولما رأيته دمعاً من حديثه قال انني عرفت هذا من أستاذك وأستاذي الذي تشرف علينا روحه الآن ولولاه لم أكن أنا مسلماً الخ ومما يناسب هذا الحديث ان السلطان حسين كامل لما علم انني أريد الحج في سنة ١٣٣٤ طلبني إلى قصر عابدين فقابلني رئيس الديوان محمود باشا شكري وقال لي ان عظمة السلطان طلبك لإيقابك ويسالك الدعاء له ، ولكن جاءه في هذا الوقت الامير داود وطلب مقابلته لعرض مسألة مهمة عنده فتأسف لهذا التعارض مع ميعادك ، وأمرني أن أبلغك ذلك مع سلامه وأقدم لك هذه الصرة من

الجنهات للمساعدة على سفرك هذا . قلت له : أشكر مولانا السلطان وأعتذر عن قبول المساعدة . قال لماذا ؟ قلت لاني أريد أن أنفق على حجي من كسبي ، واني منذ سنين مهيء مائة جنيه لا حج بها مع والدتي ، قال زيادة الخير خير . قلت نعم ولكن لا حاجة لي به ، قال يمكنك أن تتصدق بها ، قلت بل أنصدق من مالي بقدر سمتي ومجال الصدقة عند عظمة السلطان أوسع . قال احسب هذه ثمن دعاء لمولانا . قلت الدعاء عبادة لا يجوز أخذ الثمن عليه . وأنا أدعو للسلطان تعبدًا أيضًا لان صلاح ولاية الامور مفيد للامة كلها . قال عطايا الملوك لا ترد ، قلت ان كثيراً من علماء السلف كانوا يردونها . قال وماذا أقول لمولانا السلطان عنك ؟ قلت قل له ان هذا مقتضى خلقه الذي ترفونه بالنقل عن أستاذه كما أخبركموه بذلك ، والاخلاق لا تتغير . وانصرفت ،

ثم قلت لمحمود شكري باشا بعد عودتي من الحج : انني عازم على ذكر عطف مولانا السلطان علي فيما أكتب عن رحلتي الحجازية في المنار ، مع تلطيف ما ذكرته لسعادتكم من الاعتذار . قال هذا لا يجوز وهو يسوء مولانا السلطان ، قلت اني أذكره بأسلوب الثناء . قال : الترك يقولون في الشيء الممنوع « أولماز » فاذا كان المنع شديداً قالوا « هيج أولماز » وهذا من النوع الثاني

ولو كان أستاذاً حياً لسرّ مني بهذا الرد ، وقد كان هو يستطيع يوم حاجتي أن يأتيني بمائة جنيه أو أكثر من صديقه الامير حسين ولم أخذ منه مساعدات للناس ، ولكنه كان يعلم انني لا أسف الى هذه الدناءة ولا كان هو يحبها لي

على انه لامني مرتين على ما عده مبالغة في الزهد إحداهما رد مساعدة الخديو عند إرادة الحملة عليه في الفتوى الترانسفالية كما تقدم (ص ٥٨٦) والثانية مساعدة كان عرضها علي الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر المروفة علي الخليج الفارسي والشيخ محمد عبد الوهاب شيخ دارين في سواحل نجد الجنوبية ، وهما من أسخى أجواد العرب ، وكانا أرسلنا إلي من طريق الهند رسالة تتضمن برقيات ورسائل رفعت إلى السلطان عبد الحميد في الدفاع عن ابن السعود وتقنيده ما زعمه خصومه من عداوته للدولة لاجل ان أبيضها وأصححها وأنشرها في جرائد مصر اليومية مع تأييدها ،

وسألاني عما أطلبه لنفسي وللجرائد التي أشيرها فيها . فبيضت منها عدة نسخ وأخذتها بنفسي إلى الجرائد اليومية المعروفة فنشرتها ، ثم كتبت إلى مرسلها أنني لا أطلب لنفسي شيئاً لأن هذا العمل خدمة للأمة والدولة وأنني لم أعط الجرائد شيئاً لأنها لا تأخذ مني مالا للنشر ، فلما علم الاستاذ ذلك لامني وقال إن أحق ما يأخذ مثلك عليه المال خدمة الأمة والدولة ، ومصالح هؤلاء الأمراء والزعماء الأغنياء وتكالبهم

عبرفتي بالاستاذ روحية إسلامية محض

وجملة القول في هذه العلاقة أنني كنت في عهد التحصيل أطلب العلم بباعث ديني محض مرشدي فيه كتاب أحياء علوم الدين للغزالي وقد كان أكبر مؤثر في قلبي ، ولي أن أقول كما قال الاستاذ الإمام أن كل ما أحمد الله عليه من خير في ديني فسببه تصوف الأحياء ، إلا أنه مشوب بضرر التزهيد الشديد في الدنيا بما لا يأمر به دين الفطرة الوسط ، ولو أن أسرة روتشيلد وأمثالهم من اليهود أرباب الثور ، ربوا أولادهم على تصوف الأحياء لفقدوا ثروتهم في الجيل الثاني . وأنا لم أشعر بضرر تزهيد الأحياء لي إلا بعد أن صار لي أسرة ، ولكن علمت قبل ذلك أن مبالغة الأحياء في الزهد مخالفة لهدي الإسلام وانتقدته في المنار

ثم نفخت في أمروة الوثيق روحاً ثانية كما تقدم شرحه فمشقت صاحبها السيد في الدرجة الأولى والشيخ في الدرجة الثانية ، فصرت كما قلت في كتابي إلى السيد « لا أنبؤا مجلساً ولا أفيض في كلام إلا ويكون ذكر الجمال فأنمته أو ختامه ، أو متخللاً أجزائه وأقسامه ، إن لم يكن هو موضوع الكلام » ولم يكن أحد من علماء طرابلس وأدبائها يستطيع أن يقول في هذين الحكيمين كلمة سوء في مجلس أنا فيه ، إذ لا يكون لي بد من الرد عليه ، وكلهم من أصدقاء والدي أو أهل مودتي ، ويجلون أسرتي فلا يحبون مفاضبتي ،

وقد جاء طرابلس بدري باشا من آل بدرخان متصرفاً بعد حسن سامي الحر ، وبدري باشا هذا من أصحاب الشيخ أبي الهدى عدو السيد جمال الدين ، فلم يعد أحد يجرأ على مدح السيد في طرابلس غيري ، واذ كنا نسمي في مجلس المتصرف بداره

ليلة قرأ قارىء في جريدة (بيروت) خبر ثورة في بعض قبائل الافغان، فطفت أطري شجاعة الافغان، فقال مصطفى باشا الانجا ان السيد رشيد افندي يحب الافغان حباً شديداً يحمله على اطرائهم وما هم إلا وحوش ، فقلت اني أنا أحب واحداً من الافغان هو السيد جمال الدين ، وانما أتكلم عن الافغان بما أعلم من التاريخ (وكان السيد يومئذ حياً) فتعجب الحاضرون من هذه الجرأة ، وغير بعضهم الحديث خوفاً من الفتنة (وقد آذى بنو الانجا وبدرى باشا أهلي بعد سفري إيذاء شديداً لاجل أبي الهدى)

ظار بي هذا العشق الروحي العقلي بعد وفاة السيد جمال الدين إلى الاستاذ الامام، وكان قد علم بحبي له وظن انه كحب الالوف من الناس للعلماء والفصحاء والكتاب والخطباء ، وبعد محاورات ومسامرات كثيرة تتابعت من أواخر رجب إلى العشر الاخير من شوال علم ان هذا الحب نوع آخر لم يعرف له ضرباً إلا حبه هو للسيد جمال الدين ،

ثم صدر المنار في ٢٢ شوال فعلم منه ومن استمرار الماشرة ان صاحبه شعبان ريان، مفعم العقل والفكر والخيال والوجدان ، بحب الاصلاح الذي تلقاه هو عن الافغاني ، قوي الاستعداد للجهاد في سبيله بكل مأوته من حول وقوة ، وانه وقف حياته على هذا الجهاد ، ويرى من الواجب عليه دينا أن لا يصدده عنه شيء من المخاوف ولا المضار ، ولا من المال والجاه ، ولا يؤثر عليه آخر من فروض الكفايات الاخرى التي يقوم بها كثيرون اذا هي عارضته .

ولم يلبث أن ثبت هذا عنده بما علمه من سعي الحكومة الحميدية لاستمالة هذا الفتى وعرضها عليه ماشاء من الوظائف الكبيرة فيها ، ومن الرتب والنياشين ومن ذلك مكاتبات أبي الهدى افندي التي ذكرت في بيان علاقتي بالخديو (في ص ٥٨١) ثم سرقة إدارة المنار ، ثم إيذاء حكومة طرابلس لوالد صاحب المنار واخوته بعد اليأس من استمالته ، ثم من إيذاء الخديو وحزبه وشيوخه وجرائده وقصارى القول انه رأى منه فتى قد ربى نفسه بل رباه الله تعالى ذلك النوع من التربية التي اقترحها هو على السيد جمال في باريس وهو أن يذهب الى مجهل من

معامي الارض وأغفلها لا ترمقهم فيها الحكومات الفاسدة المفسدة لاجل أن يربى عشرة من أذكى أبناء المسلمين ويعلمهم ما يمد أنهم به لا استمرار العمل الذي شرع فيه لتجديد الأمة وأحياء الاسلام . ولم يرقبه أحداً من تلاميذها ولا من غيرهم قد رسخ في نفسه هذا المذهب ، وروي من هذا المنهل ، ووقف حياته على خدمته بالعلم والعمل ثم رأى أن هذا الفتى هو الذي حمله باللاحاح على قراءة تفسير المنار في الجامع الازهر ، وأنه هو جاءه بكتاب أسرار البلاغة من طرابلس وحمله على تصحيحه وتدريبه في الازهر لأحياء البلاغة العربية ، وعني بطبعه بمساعدته ، وأنه ينشر في مناره ما يقتبسه من دروسه ومجالسه بمباراة صحيحة فصيحة لا يأبى أن تعزى إليه ، ثم رأى تأثير ذلك في المجالس والمحافل المصرية ، (في المكتوبات والرسائل والقصائد التي تأتيه من هذه البلاد وغيرها)

ثم سافر الى تونس والجزائر فرأى أن له في كل من القطرين حزباً ريفياً ومريدين من أرقى طبقات المسلمين لا يعرفون عنه شيئاً إلا من المنار ومن مطبوعات المنار كيف كانت منزلة هذا الفتى عند هذا الرجل المصلح الذي قال انه لم يرض بالانتظام في وظائف الحكومة إلا ليجعلها وسيلة للإصلاح الديني في الازهر ، وهو لا يرى لأحد قولاً ولا عملاً يساعد عليه إلا موافاة الشيخ عبد الكريم سلمان له في أعمال الازهر الادارية المحض ، لا يمكن لأحد أن يعبر عن منزلته عنده غيره . وسيأتي ما قاله فيه

علاقتنا في المعاشرة العادية

وأما المعاشرة فقد كان يذكر لي في كل لقاء أوقاته التي يفرغ فيها للتلاقي اذا جثته فيها كما تقدم ، فكنا نكثر الاجتماع في الدار والازهر وفي بيوت خواصه كالشيخ عبد الكريم سلمان وسعد بك زغلول وأحمد فتحي بك زغلول وحسن باشا عبدالرازق وغيرهم . والكثرة ما يراني الناس معه كذا كالألزام والمألوم الذين لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ولما كثرت أعمالي منذ السنة الثالثة بالاشتغال بإدارة المنار وحساباتها فوق الاشتغال بتحريرها وتصحيحها ، قلّ هذا التلاقي ، ففطن

لذلك بعض اصحابه فقال له مالي لا أري فلانا معك كالمادة ؟ أظنه قد استغنى عن مساعدتك فركك ؟

فأجابه الاستاذ : كلا ان فلانا كان قليل الاعمال فكان يقضي جل أوقات فراغه معي لانني أعز أصدقائه، وقد كثرت الآن عمله فقل فراغه الذي لا يزال يصرف أكثره معي، ولم يكن للحاجة الى المساعدة أدنى تأثير في اجتماعنا أولاً ولا آخرًا كما تظن وكان اذا صادف فراغا في وقت لا مواعيد بيننا فيه يزورني في ادارة المنار وقد جاءني مرة بعد الظهر فقال هل عندك شيء يؤكل فان عندي عملا منعني من الذهاب للغداء في الدار ؟ قلت يوجد نصف رغيف من الخبز الجيد الافرنجي ، وقطعة من الزبد باقية من فطوري، فان شئت ضممتا إليها ابريقا من الشاي الابيض الصيني، وإن شئت أحضر الخادم لك من المطاعم ماشئت (وكنت في تلك الايام أتعدى وأتمشى في المطاعم لانني وحدي) قال هذا يكفي وهو من خير ما يؤكل أو قال خير ما يؤكل

ولما جاءت والدتي لزيارتي مع بعض الاخوة صار كل طعامي في الدار وكان الاستاذ الامام يقترح علي أن تصنع الوالدة نفسها لنا بعض الاطعمة الطرابلية المتأخرة ، وأمر أهل بيته أن يسألوها عن بعض هذه الاطعمة كيف تعالج في طرابلس وذكرت له ان والدتي انما جاءت مصر لتقنعني بان تزوجني فما رأيك؟ قال إن كان عندك فراغ من العمل تبذل فيه ثلاث ساعات أو أكثر كل يوم في الكلام الفارغ مع النساء فزوج، وذكر لي طباع النساء وإشغالهن للرجل بكثرة الكلام الفارغ . وان موآتاتهن خسارة والاعراض عنهن مصيبة — وضرب لي المثل بنفسه و ببعض أصدقائه، فعلمت انه لا يجب أن يشغلني عن عملي بالزواج وذكرت لي الوالدة ان زوج الاستاذ قالت له : لماذا لا تعطي السيد رشيد ابنتك فلانة وانت لا تحب مفارقتها ؟ فقال لها اذا كان هو لا يريد أن يتزوج أفأقول له أنا تعال أزوجك؟ وقد صرفت والدتي يومئذ عن هذه الفكرة وما امكنها إقناعي بالزواج إلا بعد وفاته

وكنت اذا عاقتي شيء عن الدرس من شكاة أو غيرها خرج من الدرس إلى رؤيتي في إدارة المنار ولم يصبر إلى الصباح. واشتكي مرة فأرسل إلي رقعة من رقاع

الزيارة يخبرني بشيكاته ويدعوني إلى رؤيته، حتى قال أنتظر مجيئك وإن أوغلت في الليل ما شئت ولكن في غير تخويف . ولم آس على شيء ضل عني من آثاره الخطية مثل هذه الرقعة

ولما جاء والدي لزيارتي في السنة الثانية من هجرتي وكانت الحكومة في طرابلس أرسلته لاجل استمالي والتأليف بيني وبين الشيخ أبي الهدى وصل مساء فشغلت به عن الدرس فسأل الاستاذ عني بعض اخواني . فقيل له جاء والده، فخرج من الازهر إلى إدارة المنار للسلام على الوالد ولم يؤخر ذلك إلى الصباح وقد كتبت للشيخ أبي الهدى كتاب مودة بأمر الوالد وكلفت الاستاذ أن يكتب له مثله ويرسل اليه نسخة من رسالة التوحيد ويكتب اسمه عليها - ففعل على ما كان من كراهته له ، وقد سر بذلك الشيخ أبو الهدى وأرسل اليه كتاباً، وتقرظاً شعرياً للرسالة قل فيه :

أخذت رسالة التوحيد منكم	فصح الاتحاد بلا اتحاد
وأعجبني انتساق الدر منها	وجدد عهدود في الفؤاد
نعم فيها اختيارات ونسج	دقيق فيه درب للطراد
وغايتكم بما قد صين فيها	منزهة بحكم الاعتقاد
قدم نساج در هدى ثمين	مفيد للعباد وللبلاد

هكذا كانت الصحبة بيننا، كنا كأولي القربى الأبرار في البيت الواحد، ليس فيها أدنى تكلف، وما كنت أذهب اليه في أيام الأعياد حيث يكثّر الزائرون إلا عن مواعدة . قل لي مرة اني عازم على عدم الخروج غداً للقاء المهنيين بالعيد ، فاذا جئت فتجاوز حجرة الاستقبال (المندرة) واستأذن علي في داخل الدار، ففعلت فوجدت احمد فتحي زغلول قد سبقني اليه فظللنا نبحث في المسائل الشرعية والاجتماعية إلى ما بعد الظهر والناس يجيئون أفواجا في كل قطار فيجلسون في المندرة ويعودون في قطار آخر

وكان مما دار البحث فيه يومئذ مسألة الاجماع عند الأصوليين أنكر الاستاذ حججه ووافقه البيك فقلت ان الاداة التي يذكرونها على حججه لا تنطبق إلا على

إجماع الأمة التي يمثلها أهل الحل والعقد . قال الأستاذ لو أرادوا هذا لما انكروا
عاقلاً وهو ضروري في كل زمن

حياتنا العملية المعنوية في الإصلاح

وأما حياتنا المعنوية فكنا كروح واحدة في جسدٍ ، كان يكشفني بجمع
أفكاره وأسراره في علاقته بالحكومة والخديو والورد كروم ورئيس النظار ،
وفي أعماله في الأزهر ومجلس الشورى ومجلس الأوقاف الأعلى ، ويعهد إليّ بكتابة
بعض المقالات في الجرائد . لتأييد رأيه وتفنيد آراء مخالفيه في بعض المسائل أو
الأعمال ونشر كل منها في الجريدة التي تليق بها باضواء تناسب الموضوع ،
كزهري ، أو حقوقي ، أو مسلم وكنت أنشر بعضها في المؤيد وبعضها في
المقطم وبعضها في الأهرام وكذا الرائد المصري ، وأحياناً كان يرسل إليّ إحدى
الجرائد وعليها إشارة منه إلى شيء لاجل الرد عليه ، وقد يكتب بجانبه أو على
ورقة أخرى موضوع الرد والالتماء إلى الروح الذي يبرز فيه من شدة أو لطف
أو تهكم أو تجهيل ، ولا يزال لدي شيء من هذه الأوراق

وكان يعهد إليّ في بعض الأوقات بكتابة المكتوبات الشخصية لأصدقائه
سواء أكانت مبتدأة كتبهنة أو تعزية أم رجع كتاب منهم ، أو جواباً عن سؤال
من غيرهم ، وقد ذكرت نموذجاً من هذين النوعين فيما تقدم ، وتارة كان يطلب
مني أن أكتب له بعض النصوص أو الأحاديث في بعض المسائل ، وسأله بعض
الناس لأدري في أي البلاد أن يرسل إليهم برنامجاً لمدرسة إسلامية أنشئت أو
يراد أنشاؤها وطريقة التدريس فيها فعهد إليّ بذلك ففعلت ولا يزال لديّ بعض
أوراق المسودة التي كتبتها لذلك . وقد مر من الشواهد والمثل على هذا في الفصول
السابقة ما يعني عن الإطالة فيه هنا

السعاية والدسائس لتفريق بيننا

بعد هذا كله وبعد ما تقدم في معناه طمع بعض الحاسدين في التفريق بيني وبينه بما تقدم بعضه ، وأذكر هنا ما هو أغرب منه

ذكرت في الكلام على وفاته لأصدقائه ووفائهم له أن محمد حافظ (بك) إبراهيم عثر في أثناء سفر الاستاذ الامام الاخير على اثمار بعض الناس لابمادي وابماده عنه بعد عودته من هذا السفر ، فأنا أبسط ما يخصني من ذلك هنا بقدر ما فيه العبرة ، وأغرب ما فيها أن المرحوم الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان الصق اتراب الامام وأصدقائه به كان رئيس هؤلاء المؤتمرين ومستشارهم وعميدهم فيما يرجون من نجاح سمائهم ، وكانوا يجتمعون في دار المرحوم الشيخ عبد الرحيم الدمرداش (باشا) ، ومن حضر مجلسهم وأخبرني بعد خيبتهم انه كلف أو انتدب - للشهادة أمام الاستاذ ببعض ما دبروه الدكتور عبد الرزاق افندي المنزلي الذي كان طبيباً في المحافظة

فلما عاد رحمه الله تعالى من سفره ذاك مقتبطاً أشد الاغتياب بما رأى في تونس والجزائر من تأثير المنار في نشر أفكاره الاصلاحية ووجود حزب كبير له فيها ، طفق يسمع تلك الاقوال المروزة المزورة ^١ من أناس لا علاقة بينهم تشعر بالتواطؤ أو ارادة السعاية ، منها ما سمعته في دار الدمرداش ومنها ما سمعته في عقر داره بين أهله وولده ، فكانت أثقل على سمعه من الكتاب المفتوح الذي أمله وساوس فرح افندي أنطون العصبية

وقد أضاع الشيخ عبد الكريم حله الواسع فأظهر ما كان يكتبه منذ سنين من الامتناع مني إذ ظن أن مادبروه كاف لفوزهم فيه ، حتى ان حموده بك أطلعه

(١) روز الكلام أو الرأي في نفسه ترويزاً أي دبره وتروى في ترتيبه وتقديره

ليكون مقبولا . والتزوير معروف

على ساعة نفيسة حملها الاستاذ من أوربة ليهدبها إليّ فأخذها ووضعها في جيبه وأقسم بالله لن يعيدها، فسكت حموده ولم يخبر الاستاذ بذلك ولما آن لهم أن ينثلوا كنانتهم، ويؤدوا أمانتهم، قال أجرؤهم والاستاذ الامام حاضر في دار الدرداش : ان صاحب المنار يطعن في علم الاستاذ ويقول انه هو الذي يحضر له دروس التفسير، ويقول، ويقول، وصدقه غيره وزاد عليه، وقفا إثرهم الاستاذ الشيخ عبد الكريم (عفا الله عنه وعنهم) فقال: لا غرابة فالشيخ رشيد رضا صار مستغنياً عن الشيخ محمد فهو يقول ماشاء ولا يبالي، وانما الغرابة في اصرار الشيخ على مودته ورفع شأنه كعادته مع أمثاله، وهو في غنى عنه، فان كانت مزيته انه ينقل عنه التفسير وينشره فانه يوجد كثيرون يقومون مقامه في ذلك

حينئذ غضب الاستاذ وقال - كما حدثني بلسانه - ليس فيكم كلام أحد مثله أو يقوم مقامه، اثتوني بواحد مثله وانا أترك صحبته، انه لم يقل ولن يقول شيئاً مما ذكرتم، ولو قاله لما صح ان يكون له من الاثر ما تريدون، وقد آن أن أقول لكم ان الله بعث إلي بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري، إن في نفسي أموراً كثيرة أريد ان أقولها أو أكتبها للامة وقد ابتليت بما شغلني عنها، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد، واذا ذكرت له موضوعاً ليكتب فيه فانه يكتبه كما أحب، ويقول ما كنت أريد أن أقول، واذا قلت له شيئاً مجحلاً بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل، فهو يتم ما بدأت، ويفصل ما اجملت. وقد رأيت في سفرى هذا من آثار عمله وتأثير مناره ما لم أكن أظن ولا أحسب، فهو قد أنشأ لي أحزاباً، وأوجد لي تلاميذ وأصحاباً، ولا أفهم معنى لما تقولون من حاجته السابقة إليّ، واستغنائاه الآن عني، ماذا كانت تلك الحاجة؟ وماذا عملت له؟ أنا والله في خجل من نفسي انني لم أعمل له شيئاً، وهو قد عمل لي كل شيء، عمل لي ما لم يعمل أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طول حياتي خدمتهم الخ، فسكت الجماعة واجمين مدحورين، وأحال الشيخ عبد الرحيم الجد هزلاً، والدم اصحاب المنار مدحاً

ولكن الاستاذ الامام اعلى الله مقامه ، وأجزل ثوابه في دار الكرامة،

أرسل عقب ذلك إلى زميله القديم ، وصديقه الحميم ، الاستاذ الشيخ

عبد الكريم « إما أن تكف عن السيد رشيد واما أن أستغني أنا عن

صحبة أربعين سنة »

أخبرني الاستاذ الامام هذا الخبر وقال لي انني أشعر منذ زمن طويل بان
الشيخ عبد الكريم غير راض عنك ، وقد فكرت طويلا في مخالفته لي في هذا فلم
أهتد إلى سببه ، وأقرب ما خطر في بالي إلى العقل أنه يشعر من حديثك معه أنك
لاتعده من العلماء ، وما كنت أظن ان مافي نفسه منك يصل معي إلى هذه الغاية
ويضطرنني إلى هذا الانذار

قلت واني أشعر بما شعرت به بل أنا أولى بذلك، لان دعايته في التعريض بي
تخزني وخزاً ، وقد تكزني وكزاً ، ولا اشك في انبجاسها من عين آنية ، ونية
غير صافية ، ولـكنني أتغابي لأجلك ، ولم أتعمد التعريض بقلة علمه ، ولا الايماء
إلى توهين فهمه ، إلا أن يكون شيء من فلتات اللسان ، ولا يبعد حينئذ أن
يكون عن كامن الوجدان .

وأقول الآن لقد كان الشيخ عبد الكريم أجدر من غيره بادراك الرابطة
الاصلاحية التي جمعتنا ، والعروة الوثقى التي اعتصمنا بها ، وانه لا حق مني بقصد
المنفعة الدنيوية من صحبة الاستاذ، فانه هو الذي نظمه في خدمة الحكومة أولا في
المطبوعات معه ، وأخيراً في جملة قاضياً في المحكمة الشرعية العليا وهو شافعي المذهب .
وقد تقدم انه لما نكب الاستاذ في عاقبة الحوادث العرابية رأى من مصلحته
المالية أن يتكلم فيه ، وان سعاد أفندي زغلون قد اعتذر الامام عنه (ص ٢٧٨)
فان كان حب المنفعة ينافي الاخلاص في المودة فانا المخلص دونه . ولعل
الاستاذ كان يريد أن يجعل لي وظيفة علمية في الحكومة اذ رغبت في طلب
الجنسية المصرية وتقييد اسمي في دفاتر الانتخاب فلم أفعل (وانما فعل هذا لي

أخي بعد وفاته بسنين) وقد علم أي أكره خدمة الحكومة ورتبها ونياشينها
طبعا ودينا ، كما أبيتها من الدولة العثمانية فعلا

والسبب الصحيح فيما كان من امتعاض الشيخ عبد الكريم مني وتبرمه بي
في السنين الأخيرة هو انه رأى قد حلت محله في ضحبة الاستاذ بل اريت عليه
وفقته في الاتصال به ، حتى ان أكثر الذين كانوا يلوذون به لتقريبهم اليه قد
انصرفوا عنه الي ، وان كانت مودتهم لم تتغير ، ونم سبب آخر يعزز هذا السبب
ويقويه ، وهو كراهته للسوريين ، لاستثني منهم إلا الامير شكيب ارسلان ، فانه
حل من نفسه محلا كريما عند مازار مصر ، لفكاهاته الادبية ، ونوادره اللطيفة ،
على مكانته من حب الاستاذ الامام له وتكرمه إياه ، وللدعابة موقع من نفسه معروف
يعلمونها عنده صاحب المفاكهة ، وحاضر النادرة ، ولعله لو أقام بمصر لكان نصيبه
منه مثل نصيبي أو على مقربة منه

ولم تصف مودته لي إلا بعد وفاة الاستاذ الامام ، لان سبب الكراهة قد زال ،
ورأى أنني كنت بعد موته أشد محبيه أسي وحزنا ، ومدحا وثناء ، وعناية باحياء ذكره ،
نم أساء الظن بي لتأخير إصدار هذا الجزء من التاريخ إذ ظن ان سبب ذلك عودة
الخدو إلى الاقبال علي ، ومساعدته إباي على مشروع الدعوة والارشاد ، ولما علمت
ذلك أعطيته ما كنت طبعته منه وهو ينتهي إلى ص ٢٣٢ وأخبرته بما بعده من المواد
وسأله : هل يوجد في البلاد حرية تبيح لي نشر هذا ؟ قال لا . قلت فما تقول فيما بعده
وهو أشد منه على الانكليز وعلى الخديو معا . وذكرت له ما كان معارضة فتحي باشا زغلول
لي في حرية الكتابة ، واعترف بعذري عن اذعان ، وعاملني معاملة أخلص الاخوان
وهذه المسألة قد اشتهرت في ذلك الوقت وأشار اليها محمد حافظ ابراهيم
معرضاً بالشيخ عبد الكريم في قصيدته التي هنا بها الاستاذ الامام في عودته بقوله :

شاب فيهم ولاؤهم حين شابوا وولائي في عنفوان الشباب

واتني أذكر بمناسبة قول الاستاذ الامام لي ان الشيخ عبد الكريم ربما كان
يتهمني بانني لا أعده عالما اننا كنا مرة في احتفال وليلة عرس لبعض اصحابنا مع
بعض الادباء فطفقوا يتناشدون بعض فرائد الشعر ، وما يعن لهم فيها من النقص

فأنكرت بعض ما وقع لبعضهم من الخطأ اللغوي أو البياني ومنه ما قاله أو وافق قائله الشيخ، ثم خطأني هو في قول قلته فأثبت بالحجة على صحته وأنشدت قول السموأل وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فكان هذا اشد ما واجهت به الشيخ عبد الكريم فيما أذكر

ولما توفي الاستاذ ونشرت الجرائد يوم دفنه الايات التي قالها قبيل وفاته

ساء الشيخ عبد الكريم نشرها لان قوله فيها

فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً رشيد يضيء النهج والليل قاتم صريح فيما فهمه كل الناس من انه يعنيني به، وقد تحدثوا بذلك في حفلة المأتم، فهم الشيخ عبد الكريم بان يكتب الى الجرائد بان تكذب عزو الايات الى الاستاذ، ولكن اخبره مصطفى بك الباجوري وحموده بك وكذا الشيخ احمد الحمصاني انهم سمعوا الايات منه وكتبوها عنه في الاسكندرية فأمسك عن تكذيبها واجماسا خطا وجملة القول اننا عدنا الى الصفاء والوفاء، اللذين يليقان باقرب الناس الى قطب الوفاء والاخلاص، حتى صار الشيخ عبد الكريم يزورني في داري ويأكل طعامي، ويسأل عن اولادي ويكرمهم كماداته الحميدة مع اولاد اصدقائه . عفا الله عنه

هذا ما كان من كيد اللجنة في آرائها المروزة، وأقوالها المزورة، وعاقبة رازها

الاكبر الذي تولى كبرها، وتفصي مهازلها الامهر الذي تلافى امرها

وكان وراءها دبيلة نسائية ظنت انها ابعد عن الظنة، وأدنى إلى إثارة نغم

الفتنة، وهي مانفتوه في صدور بعض السيدات من أولي القربى من تهم صدقنها،

علماً منهم بانهم لا يصبرن عن إذاعة سرها : فبينما الاستاذ الامام في داره بين اهله

وجماعة أسرته، الذين اجتمعوا للحفاوة بعودته، إذا هو يسمع من بعض النساء

وسوسة غير وسوسة الحلي، وإذا بصوت يرتفع بذكر الشيخ رشيد رضا، وإذا

بكريمته الكبرى (رحمها الله تعالى) تقول قد تسرب من محافل الرجال، إلى خدور

ربات الحجال : ان دخيلة هذا الرجل قد تكشفت، وسريرته قد افترضت،

وانه يصحب أستاذه للتجسس عليه، لا لتلقي العلم منه

قال الاستاذ : ما هذا؟ من يقول هذا؟ قالت يقولون او يقلن انه جاسوس عليك

قال لمن؟ ان التجسس في هذا البلد لا يكون الا لاحد رجلين: الخديو وهو قد عاداه لاجلي. واللورد كرومر وهو لم يعرفه ولا يحب ان يعرفه، والا لكنت انا الذي اعرفه به ثم خاف ان يسمع اكثر مما سمع في غضب فيقول ما يجرح شعور السيدات، فتلافى ذلك بأن التفت إلى اخيه حموده بك فقال له: انظر يا حموده! انك إذا كنت لا تستطيع ان تكون والسيد رشيد كالاخوين المخلصين فلا يمكنك ان تعيش معي في هذه الدار، فأخذ بهذه الكلمة النار، وهو الذي قص علي الخبر

ما كان ينتقده الاستاذ على المنار

كان أحسن الله اليه ينتقد علي في المنار أموراً يذكرها لي عند وجود ما يذكره بها (أحدها) الصراحة التامة والشدة في إظهار الحق وكان يعبر عن ذلك بقوله مامعناه: انك كثيراً ما تبرز الحق عرباناً ليس عليه حلة ولا حلي يزينه للناظرين، ويهون قبوله على المبطلين، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل، وقلما يكون للداعي اليه صديق، وأنه لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد اعراضهم عنه. وكان يعجبه من مقالاته ما جعلته بأسلوب المناظرة كمحاورات المصلح والمقلد فوضوعها أشد ما كتب وطأة على الجامدين المقلدين ولم يسمع من أحد منهم شكوى منها ولا قدحاً في كتابها (ثانيها) كان يقول لي مراراً أن المنار في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص فينبغي أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه من أفهام جميع القارئین حتى العوام، وقد تحريت موافقته في هذا حتى إن قارئ المنار ليجدون من غريب اللغة في السنة الأولى ما لا يجدون فيما بعدها ولكن بقي أكثر مباحثه للخواص بالرغم من ذلك التحري

(ثالثها) الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الأحيان، وهذا مما كنت أكرهه أنا أيضاً فيعرض لي من الضرورة ما يحتمني عليه وجل عملي المهم منها كان سريع وقد أشرت إلى ذلك في فاتحة المجلد ١٢ من المنار سنة ١٣٢٧ بقولي «سالمنا السياسة فساورت ووثبت، واساسنا لها فجمحت وتقمحت، وكنا نهم بها في بعض الأحيان فيصدف بنا عنها الاستاذ الامام، ولم نزل منها ما نهواه، الا بعد ان اصطفاه الله

بعضه أقواله في خطة الاصراع والتجديد

(والقائم بها على أثره واثر السيد جمال الدين)

كان الاستاذ الامام قدس الله روحه يصرح في المناسبات المختلفة بهذا المعنى للأفراد أو الجماعات، حتى صار معروفاً عند من يعنى بهذا الامر، من مسلمي الشرق والغرب، ولا سيما بعد وفاته، واشتهار أبياته، وصار الناس يكتبون هذا ويقولونه لنا: فأصدقنا ومحبو الاصلاح يقولونه ثناء ودعاء، وخصوصاً يقولونه تهكماً واستهزاء.

ومن ذلك ان مولانا الاستاذ احمد آ زاد المكنى بأبي الكلام، أحد زعماء الهند وعلماؤها الاعلام، لما أنشأ مجلته (الهلال) الاوردية الاصلاحية ذكر في صدرها صور الثلاثة مع الكلام عنهم: السيد جمال الدين الافغاني. الشيخ محمد عبده. السيد محمد رشيد رضا. فيبيح لي هذا التاريخ الحراوي وجب علي أن أثبت فيه ما سمعته منه أو رويته عنه وهو قليل من كثير لا يزيد على عشر كلمات - أعيد قبله ذكر كلمته الخطية في المنار التي سبق نشرها في ضمن كتاب له (ص ٨١٠) وهي

(كلمته الخطية، في خطة المنار التجديدية)

وهب لم يرد في القرآن الا متعديا باللام ولا أحب أن أخالفه ولو إلى صحيح. ان سرني في المنام وفي أسنى انكباب على المنار قد نجب اذا لم يسر عوا بال اشتراك في المنار تقوى بقوة الليل الى تغيير الحاضر بما أصلح للآجل واعود على الكد صر من شر الغابر. ولما يزال ذلك الليل في ان عمياء فليكن والفقراء لا يستطيعون الى السبل سبيلا. ولما ذلك لا يهتف الامل في نجاح العمل

والسيد
جمال الدين رشيد رضا

« وهب لم يرد في القرآن الا متعديا باللام ولا أحب أن أخالفه ولو إلى صحيح. الناس في عناية عن النافع، وفي انكباب على الضار، فلا تعجب إذا لم يسر عوا بال اشتراك في المنار، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الليل إلى تغيير الحاضر، بما هو أصلح للآجل، وأعون على الخلاص من شر الغابر ولا يزال ذلك الليل في الاغنياء قليلا. والفقراء لا يستطيعون إلى السبل سبيلا. ولكن ذلك لا يهتف الامل في نجاح العمل »

الكلمات العشر

(الكلمة الاولى) قوله لصديقه محمود سامي باشا البارودي انه يرجو ان اكون خلفه في القيام بالاصلاح الذي خلف به السيد جمال الدين ، وقد ذكرته في أول هذه الخاتمة (ص ٩٩٥)

(الكلمة الثانية) قوله لحسين دانش بك الذي كان سكرتير محمود باشا الداماد صهر السلطان العثماني عند ما كان في مصر مع الداماد ونجليه البرنس صباح الدين والبرنس لطف الله في سنة ١٣١٧ . ثم صار سكرتيراً لمصلحة الديون العثمانية في الاستانة وكان شاباً مجتهداً في الشؤون الدينية ميالاً إلى الاصلاح الاسلامي فاغتم فرصة وجوده بمصر للقاء الاستاذ الامام فصاحب المنار ، وقد أخبرني ان الاستاذ قال له في أثناء حديث معه : انني مارأيت أنهض من هذا الشاب (صاحب المنار) بالتوفيق بين الدين والعقل . وبين الشريعة ومصالح البشر المدنية الموافقة لهذا العصر .

(الكلمة الثالثة) لسماحه السيد محمد توفيق البكري وهو بمعنى كلمته البارودي . قال لي الاستاذ البكري : كنت راكباً مع شيخنا (الاستاذ الامام) في ليلة من ليالي رمضان بشارع درب الجمايز فذكرت ما من الله عليه من العلم والحكمة وخدمة الاسلام وقلت له : إلى من نرجع فيما خصك الله به من ذلك اذا لم تكن موجوداً ؟ (وقد عني بذلك وفاته) فقال له : إلى الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار

(الكلمة الرابعة) ما صرح به في درس التفسير بالجامع الازهر : تأخرت عن أول الدرس ليلة فأردت الجلوس حيث وجدت محلاً وهو بعيد عنه فناداني تعال إلى هنا ، وخاطب الحاضرين بقوله : انه يفهم او يستفيد أكثر من كل واحد منكم (ص ٧٦٩) وقد ذكرني بهذه الكلمة الاستاذ الشيخ حسن منصور من عهد غير بعيد

(الكلمة الخامسة) للاستاذ الشيخ احمد إدريس رفيقه في تفتيش المحاكم الشرعية وهو من أروع قضاة هذه المحاكم وقد ارتقى إلى المحكمة العليا . ذكر لي انه لما كان معه في الاسكندرية كلمة بعض أصحابه مستنكرين لشيء نشر في المنام عن الدولة العثمانية فقال له بعضهم نرجو أن تمنع صاحب المنار من نشر مثل هذا

فقال لي اسمع ما يقولون ، انني والله لا أعرف أحداً في الناس مستقل الفكر مثل هذا لرجل ، وانما أنا أكلمه في كل موضوع بالدليل

والمراد من ذكر هذه الكلمة هنا انني كنت معه على طريقته وطريقتي في الدين والعلم وهي حرية العقل واستقلال الفكر واتباع الدليل ، وقد اشترطتها في الأخذ عنه من أول يوم (ص ١٠٠٢) فقد استفدت منه حكمة وعذماً ، وأدباً جمّاً ، ولم أقلده في شيء منها تقليداً ، بل كنت أوافقه بالافتناع كثيراً ، وأخالفه وأناقشه بالدليل قليلاً ، لاننا متفقان في المبادئ والمقاصد والغاية والنية والله الحمد

(الكلمة السادسة) للاستاذ الشيخ محمد شاكر إذ بلغه عن الخديو انه انما يرضى عنه اذا أبعد صاحب النار عنه فقال : كيف أرضى بأبعد صاحب النار عني وهو ترجمان أفيكاري (ص ٥٨٦)

(الكلمة السابعة) لبطرس باشا غالي وزير الخارجية إذ بلغه عن الخديو مثل ما بلغه الشيخ شاكر وان سموه أرسله اليه بذلك وانه اذا ترك صحبة صاحب النار يفوض له العمل في الازهر . قال انني أفضل ان أعيش مع صاحب النار في رمل عين شمس على البقاء في منصب الافتاء وعضوية مجلس إدارة الازهر لان هذا الرجل متحد به في العقيدة والرأي والخلق والعمل الخ (ص ٥٨٦)

(الكلمة الثامنة) مقاله للشيخ عبد الكريم سلهاز وقد ذكرته آنفاً من عده إياي مدداً لحياته ، في انعام ما بدأ ، وتفصيل ما أجمل (ص ١٠١٨) وأهمه عنده التفسير كما صرح به في آياته الآتية

(الكلمة التاسعة) ما قاله لي في سياق الكلام في الاصلاح وما كان عرض له من كناية وصيته للمسلمين . قال : مرضت مرضاً شديداً اشرفت به على الموت فطلبت دواة وقلماً وورقاً لا أكتب وصية فيما يجب على المسلمين من الاصلاح بعدي ، فلما أحضرت علم أهل البيت انني شعرت بقرب الاجل ، فطفتن بيكين حتى علا نحيبهن فلم أستطع الكتابة حينئذ

قلت لعلاك كتبت بعد ذلك . قال بل شعرت بالصحة ورجوت العمل قلت : هذه الوصية ضرورية للامة وإذا كتبتها في حال الصحة والقوة تكون

آثم. قال «انه لم يبق من حاجة اليها. فالمراد منها صار معروفاً، وأوماً اليه إيماء لطيفاً...

الكلمة العاشرة - آياته قبل الوفاة ﴿

لما مرض الاستاذ الامام مرضه الاخير كنت أعوده بداره في عين شمس كل يوم وأقرأ عليه ما كتبه الشيخ عبد الكريم من رسالة (أعمال مجلس ادارة الازهر) فيصحح فيها ويزيد او ينقص منها ، وقد أملى علي تقريره عن امتحان مدرسة دار العلوم وهو في سريره فكتبته . ولما سافر إلى الاسكندرية سافرت معه وكنت أقيم عنده أياما وأعود إلى القاهرة فأنظر في أعمال ادارة المنار ثم أعود إلى الاسكندرية دواليك ، ولما اشتد عليه المرض أذيع وأنا في مصر انه توفي ، فكدت أقضي من الغم وبت تلك الليلة بعد تكذيب الخبر ولما استيقظت وجدت علي مخطتي دما قد خرج من فمي وأنا نائم . وفي الصباح عدت إلى الاسكندرية فلما قابلته قال لي :

قد جاش في نفسي الشعر في غيبتك كأنني لا أقول الشعر إلا في الحبس او المرض - يشير إلى القصيدة التي نظمها في السجن في عاقبة الحوادث المرابية وقد تقدمت (ص ١٥٠) وأنشروني هذه الايات فكتبته عنه واحداً بعد واحد وهي:

ولست أبالي ان يقال محمد أبل آثم اكتظت عليه المآثم (١)
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه العماثم (٢)

(١) أبل المريض شفي من مرضه واكتظت المآثم امثلاث وازدحت بالناس والمآثم جمع مآثم وهو مجتمع الناس في الحزن وهو في أصل اللغة عام في الحزن والفرح ثم غلب على جماعتهم في المصائب ثم نسبت هذه الغلبة.

(٢) قضاء العماثم يعني أهلها على الدين قد يكون بتركهم اقامة كتاب الله ورسوله في هدايته والدعوة اليه على بصيرة وهي الحججة ، وبانبياءهم للبدع والعادات المضیعة له ، وقد يكون بنداوتهم له لوم والفنون التي هي قوام الدول والامم باسم الدين فيكون المشتغلون بها بعداء عن الدين معتقدين انه آفة العمران بل يرقون منه ويباعدونه وأصحاب العماثم عاجزون عن الجمع لهم بين صالح الدنيا والدين فلا يبقى علي تقاليد الدين الا أفراد لا تقوم لهم قائمة

والناس آمال يرجون نيلها اذا مت ماتت واضمحلت عزائم
 فيارب ان قدرت رُجعى قريبة الى عالم الارواح وانقضت خاتم (١)
 فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا رشيدا يضيء النهج والليل قائم
 بماثاني نطقا وعلمنا وحكمة ويشبه منى السيف والسيف صارم
 ونشرت الجرائد في خبر وفاته الخمسة الاولى وضبطت الثاني هكذا :

ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمام
 وقال لي بعد كتابتها انه خطر في بابه أبيات أخرى فكتبتها عنه . ورأيت
 قد ترك فيها ألف التأسيس في كلمة القافية كأنه أذهله عنه الألم ولم أنشر منها في
 المنار إلا هذا البيت الذي نشرته إحدى الجرائد الاسبوعية أيضا وهو
 قوله في صفة المرشد الرشيد :

ويخرج وحي الله للناس عاريا عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم
 ولما أنشدني الابيات طفق الشيخ عبد الرحيم الدمرداش بمأزحه كعادته
 لأجل التسلية فقال له : أنا أشتغل ليلا ونهارا بخدمتك وتكيس رجائك (وزاد
 على ذلك كلمة دعابية) ثم توصي للشيخ رشيد وتجعله خليفة لك ، يا ضيعة الخدمة !!
 وهذا البيت الاخير آخر نص صريح من الاساذ الامام في اتباع مذهب
 السلف في تفسير القرآن وهو ينبوع الاعتقاد وأصل الدين ، ومراده بالرأي الذي
 ينهى عنه اتباع الهوى لتأييد المذاهب المقلدة ، أو طلب المنافع الباطلة ، وبالتأويل
 الخروج في تفسيره عن مدلول النظم العربي البليغ وما يخالف المحكم الذي هو
 ام الكتاب ، أو ما أجمع عليه اهل الصدر الاول .

فأسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته ورضوانه ، وبوقفنا لتحقيق آماله ، ويلهمني
 الحق الذي يرضيه تعالى في تفسير كتابه ويقدرني على اتمامه ، انه على كل شيء قدير

الفصل الثامن

في شؤون الخاصة المعنوية ونهاية هيأته الجسمية

وفيه ٤ مقاصد وخاتمة أما المقاصد فهي (١) قوة عقله وسعة علمه (٢) إيمانه بالله تعالى وحبه لله ولرسوله وعباداته (٣) مرضه الأخير ووفاته (٤) تأييده

المقصد الأول

قوة عقله وسعة علمه

يصف الناس كل نابغ بالذكاء الفطري، ويعنون به سرعة الفهم وسهولة الحفظ ولذلك كنت تجد الناس مجمعين على وصف الاستاذ الامام بالذكاء النادر، لا يختلف في هذا منصف ولا مكابر، أما هو فكان يقول عن نفسه انه متوسط في الذكاء وانه يوجد في كل مئة رجل ٧٥ رجلاً مثله في ذهنه. وعلى هذا كان يجب ان يكون ثلاثة أرباع الناس أو طلاب العلم منهم خاصة مثله، ولكن الناس لم يروا في الملايين الكثيرة في المصور المختلفة مثله. وانك لتسمع كثيراً من أهل العلم بالتواريخ وسير الرجال الفضل يقولون ان الدنيا انما تلد مثل هذا الرجل في كل عدة قرون مرة، فهو المصداق في عصرنا لقول الشاعر في مدح رجل اسمه كثير * فمثل كثير في الانام قليل * وقال الذين يمتحنون أذهان طلاب العلم وعقولهم من علماء الافرنج: ان في كل مائة منهم ٢٥ أذكاء ومثاهم بلداء، والخمسون الآخرون يتفاوتون في الوسط بين هذين. وامعري لقد كان هو في الثلاثة الاولى من الربع الاول ان لم يكن هو الاول بل لا اعتقل ان يكون في كل مائة مثله في الذكاء.، ولكن السيد جمال الدين كان الاول في كل الف أو الف الف، بل هو الذي لا يكاد يسبقه اولاً يلحقه أحد

وقد قال كثير من أهل الرأي والفضل فيه بعد موته ان الفراغ الذي حدث بفقده لا يملأه أحد في هذا العصر . وقال أحمد مختار باشا الغازي أكبر قواد الترك وعلمائهم الرياضيين : اني أحسب ان دماغ الشيخ محمد عبده اكبر من كل ما عرف من أدمغة كبار الرجال ، ولو وزنه الذين يعنون بهذا في أوربة لثبت لهم انه أكبر من دماغ بسمارك أدهى ساسة أوربة في عصره ، ومن أدمغة أكبر فلاسفتهم وقد راجعناه في قوله ان ثلاثة أرباع الناس يساوونه في ذكاء ذهنه ، وقلنا له كيف تحصل في الزمن القصير من العلم مالا يحصلونه في الزمن الطويل ؟ فقال إن الفرق بين الناس في هذا لا يأتي من الاختلاف في الذهن فقط ، وانما يأتي معظمه من الاختلاف في توجيه الارادة إلى الشيء ، ومعرفة طريقه وغايته قبل طلبه . وهذه حقيقة لا مريبة فيها ولكنها لم تذهب بامثرائنا في ان قوله ذلك من المبالغة بمكان ، وإن كان قاله اعتقاداً لا تواضعاً وهضماً لنفسه . على اننا نعرف من أصحاب الذكاء المدهش من كان ذكاؤهم وبالا عليهم خاصة أو عليهم وعلى كثير من الناس الذين يعرفونهم . فالعبرة بما قال وهو ان ادراك المقاصد انما يكون بصحة توجيه الارادة اليها وطلبها من طرقها الطبيعية بلغ هذا الرجل من قوة العقل ان عجزت الامراض الشديدة عن منعه المطالعة فكان يقرأ في أيام مرضه أكثر مما يقرأ في صحته التي تشغله فيها الاعمال . أتظن انه كان يقرأ كتب القصص والفكاهات ؟ كلا انما كان يقرأ العلوم العقلية والفلسفة الاجتماعية وكتب التربية والتاريخ العلمي . وقد رابه من مرضه الاخير مله فيه من المطالعة وقال إنه لم يعهد ذلك في مرض قط ، فقلت له هكذا شأن أمراض المدة ، على ان كثرة الاعمال العقلية هي السبب الفعال في مرضك هذا كما يقول الاطباء . ولم يكن المرض يومئذ قد اشتدت وطأته ولا علم انه سرطان الكبد وقد أصيب بحمى التيفوس مرة في بيروت فبلغت نهاية شدتها ، وأعلى حرارتها ، حتى خشي على حياته منها ، ولم يغب عقله ولم يهذ لسانه ، حتى قال الطيب الذي كان يعالجه انني لم أر مثل دماغ هذا الرجل ، ولو حدثت عن مثل ما رأيت منه لما صدقت . وكذلك قال بعض الاطباء الذين زاروه قبل موته بايام قليلة (كالداكتور زلزل المشهور) اذ وصف له سير مرضه من أوله الى يومه ذاك ، ووصف له أعراضه

لم يفته منها شيء، وكان قد دب السم في جميع جسمه، وبقي عقله حاضرا وذاكرته تملي على لسانه الاجوبة السديدة في وصف مرضه لمن يسأل عنه وفي غير ذلك اتفقنا نحن الذين كنا نلزمه على أن لا يتحدث في الجدل ولا مسائل العلم والاجتماع. وأن نمنع عائديه من الحديث في ذلك لا سيما بعد اشتداد المرض عليه على قلة من يؤذن لهم برؤيته، ولكنه كان ينتقل بنا من الفكاهة إلى الجد، فاذا ساق شجون الحديث مسألة عويصة أو عبارة احتجب معناها، أسرع ذهنه إلى كشف الحجاب عن الخفايا فجلاها، ونفت في عقدة العويص منها فحل عراها أذن لنا بذكر الشعر والادب في يوم تواترت فيه نوبات الالم عليه فكان مما أنشده محمد حافظ ابراهيم من مختار محفوظه قول بشار المشهور:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
وقل انني أنشد هذا البيت منذ سنين وأنا لم أفهمه، وسألت عنه غير واحد من الادباء فلم يأت أحد بتفسير ترتاح اليه النفس، فلم يلبث الامام أن قال، والالام ينال من كبده ما ينال، ان معناه ظاهر، فانه يريد أنهم اذا غضبوا سلوا سيوفهم، وأشرعوا رماحهم، فكان بريقها ولمعانها كاهلك لحجاب الشمس الذي يظهر به نورها ويتألق شعاعها، إلى أن يمكنوها من طلى أعدائهم وصدورهم، فتخرج وهي تقطر دما، وتسيل مهجا، هنالك يخفى ذلك البريق واللمعان بستر الدم له وريته عليه. فالضمير في قواه قطرت دما عائد إلى السيوف أو الرماح وإن لم تذكر بالقول فهي معلومة بالقربة، أي على حد قوله تعالى (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) على التفسير المشهور المأثور من ان ضمير (توارت) يرجع إلى الشمس. والصحيح أنه يرجع إلى الخيل

ناهيك بمن كان يقتل عامة نهاره وزلفا من ليله بحل المشكلات وامضاء الاعمال في معاهد كثيرة، ولا يشكو تعباً ولا يخف مللا، كان يصبح فيغدو إلى مجالس الشورى مثلاً فيجلى المسائل الموضوعة للبحث، سواء كانت قضائية أو إدارية أو مالية، ويؤلف بينها وبين مصلحة البلاد، ويؤيدها بالحجج القانونية والعقلية التي تقنع الحكومة بعد اقتناع الاعضاء، ثم يخرج من هذا المجلس فيأكل

طعام الغداء ويذهب الى الازهر، فان كان اليوم يوم جلسة الادارة جلسها، وعمل عمله فيها، ثم ينتقل الى مكتب الافتاء حيث كان ينتظره اصحاب الحاجات المختلفة في جميع مصالح الحكومة وغيرها، والمستفتون والزائرون وكتاب الجمعية الخيرية والازهريون من علماء ومجاورين، فينظر في هذه الاور إلى ما بعد العصر، ثم يخرج الى ديوان الاوقف إن كان اليوم يوم جلسة المجلس الأعلى، أو إلى مجلس إدارة الجمعية الخيرية إن كان يوم جلسته، ثم يعود عند الغروب الى الازهر فيقرأ الدرس، ويخرج بعد العشاء قاصداً داره فيجد العفاة واصحاب الحاجات ينتظرونه في المحطة وفي البيت يعرضون عليه حاجاتهم، ويقرأ في القطار جرائد المساء، وبعد هذا كله قلما كانت داره تخلو ليلة من السامرين يتكلمون في العلم والادب والمصالح العامة والخاصة . ولا تنس ان الايام التي لم تكن موعد جلسة في تلك المجالس الرسمية كان يقرأ فيها أوراق تلك المجالس . ولكنه كان على ذلك العقل الكبير، والعرفان الغزير، كثير النسيان للامور الجزئية كالارقام، وأسماء الاعلام

علومه ومعارفه

أتقن جميع العلوم الإسلامية، من لغوية وشرعية وعقائية، وكذا الفلسفة القديمة والتاريخ، وعلوم الحقوق والقوانين، وضرب بسهم في العلوم والفنون العصرية قبل تعلم اللغة الفرنسية، ثم أتقن هذه اللغة في سن الكهولة وتوسع بها في العلوم على طريقة الافرنج . وكان يمدى بالعلم على قدر الحاجة اليه في العمل والاصلاح . فأما علوم اللغة العربية فقد بلغ منها أن كان أدق الناس فهما للقرآن والحديث ولغيرهما من فصيح الكلام، وأبلغ الكتاب، وأخطب الخطباء

قال الشيخ ابراهيم اليازجي اللاعوي الاديب النقادة : كان حديثه الذي يلقيه في المجالس كأفصح ما يكتب الادباء المرسلون، وقد تقدم فيما كتبه الامير شبيب عن سيرته في سوربة ما كان من دقة فهمه وذوقه للشعر البليغ وطربه بمطربه وشجوه بمشجيه (ص ٤٠٩)

أما العلوم العقلية فقد ارتقى فيها أن كان فيلسوفاً حكيماً، اعترف له بذلك

من يمتد بمعرفتهم. واذكر هنا تفسيره لكلمة فيلسوف . حدثنا في طرابلس الشام قال كنا في مجلس بعض الكبراء بمصر (هو علي باشا مبارك) وكان في المجلس بعض اهل العلم وحمله الاقلام من السوريين (هو الدكتور يعقوب افندي صروف محرر المقتطف) فقال ما معناه ان الناس قد ابتدلوا لقب فيلسوف فصاروا يطلقونه على غير أهله ، وكان أطلق هذا اللقب في جريدة على بعض الحاضرين !! فخرى ههنا كلام في معنى كلمة فيلسوف . قال يعقوب أفندي : الفيلسوف هو الذي يتقن جميع العلوم . قال الاستاذ إذا لم يوجد فيلسوف في الارض . قل هو الذي اتقن بعض الفنون وله إلمام بسائرهما . قال ان جميع الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وكذا الثانوية على إلمام بجميع العلوم المصرية ثم يتقنون بعضها ، فما أكثر الفلاسفة في المهندسين والاطباء . وفي التلاميذ أيضاً . ثم سئل هو عن تفسيره فقال : الفيلسوف هو الذي له رأي ومذهب في العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .

وأما علوم التصوف فكان فيها من الراسخين وقد قال لي اني اقرأ الفتوحات المكية كما اقرأ تاريخ ابن الاثير لان لغوامضها مفتاحاً من علمه لا يخفى عليه شيء منها وقد تقدم شرح هذا في الكلام على تربية الاولى بالتفصيل .
وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إماماً مجتهداً وإن كبرت هذه الكلمة على الذين سجلوا على انفسهم الحرمان من فضل الله أن يؤتي المتأخرين . من العلم والفهم ما آتاه المتقدمين ، ونأهيك بفهمه في القرآن ووقوفه على اصول الشريعة وحكمها واسرارها ، وقوة حجته في اثبات عقائدها ، ودفع الشبهات عنها ، وتطبيق احكامها على مصالح البشر . واست اعني بكونه إماماً مجتهداً في الشريعة انه صاحب مذهب دونه ، أو كان يريد أن يدونه ، وانما اعني ما ذكرت آنفاً من فهمه الدين اصوله وفروعه بالدلائل والبراهين ، والفقه فيه والوقوف على حكمه ، والقدرة على بيانه بدون تقليد عالم معين من العلماء السابقين والأئمة المهديين ، الذين اتبع آثارهم واهتدى بهديهم . وكان يرى ان من يضع للناس مذهباً جديداً فانما يزيدهم عمى وجهلاً وتفرقاً واختلافاً ،

هذا ما كتبه في ترجمته من المنار مع تنقيح ما . وازيد عليه هنا ما يأتي فاقول
انه على نصره للسنة لم يكن واسع العلم برواية الحديث ولا حفظه، ولا كثير
العناية بمعرفة الجرح والتعديل فيه — وانما قرأ علم مصطلح الحديث وبعض متون
الصحاح والسنن التي تقرأ في الازهر وهي قليلة وتقرأ للتبرك لا للتفقه فالتقصير من
الازهر لامنه ، وكان هو يقرأ الحديث للتفقه والتادب بالسنة ويشدد النكير على
الازهرين وامثالهم بقراءته للتبرك ويعدها من جنايتهم على الاسلام، وكان يستقصي
اخبار السيرة النبوية والشمال المحمدية، ويعدهما من أركان التشريع والتاريخ الاسلامي.
وكان يرى ان المحدثين قد غلطوا في تصحيح كثير من أحاديث الفتن والفرق لان
اصحاب الاهواء غنوا بترويجها، وكذا الاحاديث المخالفة للقرآن كحديث السحر،
وقد جادلته في بعض هذه المسائل وقلت له : ان علماء الجرح والتعديل يقولون بوضع
الحديث المخالف لنص القرآن وغيره من القطعيات ، قال نعم وانها لنعمت القاعدة
ولكن لا ترى فيهم من طبقها على جزئياتها؟ ورأيت في الاستدلال بها يوافق مذهب
السلف واعلى ايسر هذه المسألة في ذيل هذا التاريخ فقد طال هذا الجزء جداً

وأما العلوم المصرية فكان يعرف منها الرياضيات، ويلم بالطبيعات، ويتقن
الفلسفة العقلية وعلوم التربية والنفوس والاخلاق والاجتماع وتواريخ الملل والامم
ومذاهبها، وكان يطالع دائماً ما تجد عند الافرنج من المصنفات في هذه العلوم وفي شأن
الاسلام، وكان عزم على تعلم اللغة الالمانية وشرع فيه لان الالمان سبقوا غيرهم إلى الاختصاص
في جميع العلوم فما زلت اثني عزمه عن ذلك حتى قبل، وقد درس علم الخط المسند وكتب
فيه كتاباً لاجل تحقيق التاريخ العربي القديم . وسبق هذا في الكلام على اسفاره
يظن بعض الشبان المتفرجين المغرورين ببضاعتهم الزجاجة من مبادئ العلوم
المصرية أن الاستاذ اذا قيس بعلماء أوربة أو حضر مجالسهم كان يكون كالأبكم بين
الناطقين ، وما يدرون انه كان في كل مكان من كل بلد ذلك الامام الذي تشخص
اليه الابصار ، وتصفى اذا تكلم الاسماع ، لما أوتي من الحكمة وفصل الخطاب ،
وقد ذكره بعض ملاحدة مصر في مجلة له فزعم ان بعض الناس ترجم له

بعض ما كتبه في مقالات (كتاب الاسلام والنصرانية) واستبعد لجهله بحاله وترجمته أن يكون قرأها باللغة الفرنسية ، ولم يدرك انه حذق هذه اللغة وكان من أفصح الناس نطقاً بها ، وفهما لها ، بل صرح بعض العارفين به وبها ممن ترجموه انه كان كأفصح أهلها . وقد كانت يقرأ لي في كتاب فرنسي في فلسفة الارادة كأنه يقرأ في كتاب مؤلف بالعربية . وترجم عنها في أثناء تعلمها كتاب التربية للفيلسوف هربرت سبنسر لاجل التمرن على الترجمة ثم عرض ترجمته على صديقه قاسم بك أمين الذي شهد له بالامامة بأوسع ما في هذا اللفظ من المعاني ، وكان في الذروة من المصريين الذين حذقوا اللغة الفرنسية فهمًا ونطقًا وإنشاءً ، فأصلح بعض الكلام فيها . ثم راجع بعض المتقنين للفرنسية والعربية هذه الترجمة وما أصلحه قاسم بك أمين منها فوجد أن قاسماً مخطئاً فيما أصلحه منها ، وإن ما كتبه الاستاذ الامام في بدايته من ترجمتها هو الصواب ، وقد أملى في أثناء مرضه الاخير مقالة بهذه اللغة نشرت في بعض المجلات الفرنسية

ومن قرأ رده على موسيو هانوتو ولاحظ أن ما فيه من الكلام على الفرق بين الآريين والساميين في عقائدهم وتأثيرها في حضارة كل منهما ، وما فيها من عقائد فرق النصرانية المختلفة وغير ذلك مما لا يوجد تفصيله الا في الكتب الافرنجية — من قرأ ذلك ولاحظ ما ذكر عرف سعة اطلاعه على كتب الافرنج واستحضاره لما قرأه عند الحاجة اليه

وناهيك برجل كان الاستاذ ادوارد براون من كبار العلماء المستشرقين المدرسين في جامعة (كبردج) يكتب له « أستاذي الاكبر ، وأستاذنا الاكبر الافضل الاعلم ، الاعز الاكرم » ويكتب امضاءه في بعضها (أحقر تلامذتك ادوارد براون) ويقول في كتاب التعزية لآخيه : مارأيت مثل الفقيد المرحوم في الشرق ولا في الغرب فوالله كان وحيداً في العلم ، وحيداً في التقوى والورع ، وحيداً في البصيرة والاطلاع على ظواهر الامور وبواطنها ، وحيداً في جميل الصبر وخلص النية ، وحيداً في البلاغة والفصاحة ، عالماً عاملاً محسناً ورعاً مجاهداً ، محباً للعلم ، ملجأ للفقراء والمساكين » الخ (راجع ص ٢٩٨ ج ٣) من هذا التاريخ

المقصد الثاني

من الفصل الثامن

إيمانه بالله تعالى وربه لله ورسوله ﷺ وعبارته

تقدم ان الرجل قد ربي تربية صوفية شرعية خالية من البدع ، وتقدم قوله ان الغرض من تربية الصوفية أن يكون الدين وجداناً لصاحبه كوجدان الحب والبغض ، واللذة والألم ، لا يزلله شك ولا تؤثر فيه شبهة ، وهو قد طلب العلوم بارشاد مربيه الصوفي (الشيخ درويش) القائل له ان كل علم من العلوم يفيد النفس كما لا يقربها إلى الله تعالى فكان ينوي بطلبه العلوم حتى الرياضية والفلسفة الكمال الذي يقربه إلى الله عز وجل ويدنيه من مرضاته فكان طلبها عبادة لم تزده إلا إيماناً كان يقرر أن الدين فوق العقل ومعارفه الكسبية ، ولكنه صديق له لاعدو ، فهو يرشده إلى الكمال في معرفته ، كما يرشد القلب والوجدان إلى الكمال في فضيلته ، ولولا ان ارشاده للبشر من فوقهم لما اذعنوا له ولما كان ديناً .

وكان يرى ان اليقين المطلوب في الايمان هو اليقين المنطقي المؤلف من علمين (أحدهما) ان الحق في المسألة كذا (وثانيهما) انه لا يمكن أن يكون إلا كذا . وقد بينت في التفسير وغيره ان هذا هو الكمال في العلم والايمان وهو لا يشترط في صحة الاسلام بل يكفي فيه اليقين اللغوي وهو الجزم الذي لا شك معه ولا ريب فيه بالفعل وكان هو على يقين منطقي في عقيدته ، ووجدان روحي في إيمانه ، ويعتقد أن الايمان الصحيح ما ظهر اثره في الاخلاق والاعمال ، حتى انه لم يكن يتصور أن يجتمع توحيد الله تعالى مع الذل والصغار وإقرار الباطل والخوف من الاعتصام بالحق في نفس واحدة ، فكنا نرى ثمرات الايمان الكامل يانعة في شجرة نفسه المباركة ، من الخوف من الله ، والرجاء في الله ، والتوكل على الله ، والحفظ لحدود الله ، والخشوع في الصلاة لله ، وعند قراءة كتاب الله ، ولو استطاع أن يتعدى حدود الله متأولاً بالمصلحة لوافق الخديو على ما يريد من الاوقاف العامة ليمكنه من إصلاح الازهر (راجع ص ٥٧٣)

وكان يعتقد ان الخشوع وحضور القلب في الصلاة واجب فهو ركن من أركان الصلاة أو شرط لصحتها أو قبولها ، وقد ذكرنا أول ماسمعه منه في هذه المسألة في بيان رأيه في المسلمين والفقهاء وإنكاره عليهم جعلهم الخشوع والتدبر من المندوبات كانكاره على المفسرين جعل أكثر ما في القرآن من صفات المؤمنين ومزايا الايمان خاصا بالايمان الكامل ، وقوله كانهم افتوا المسلمين بانهم في اوسع الرخصة من ترك محاسبة أنفسهم على لوازم الايمان التي لا تفارقه وثمراته التي لا تتخلف عنه من الفضائل والاعمال . وقد عاشرنا كثيراً من العلماء الذين يوصفون بكمال العلم والتقوى ، فما كنا نسمع منهم في مجالسهم كلمة مثل كلماته في البر والتقوى وهداية القرآن ، وأخلاق الايمان ، وفوائد عباداته في سعادة الآخرة ، وسيادة الدنيا ، ككون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنفي الجزع والهلع

تعظيم للنبي ﷺ وبيان لهامو قدره

وأما تعظيمه وتكريمه وتوقيره وتعزيره للنبي المجتبي صلوات الله وسلامه عليه وآله ، وعرفانه لقدره ، واجلاله لمنصبه ، فهو ما لم نسمع من أحد وما لم نقرأ ولم نرو عن أحد مثله من علماء عصرنا ولا متصوفتهم ، بل منه ما فاق به المتقدمين ، من العلماء المحدثين ، والحكام العقايين ، ومن الصوفية العارفين : استقصى المحدثون

ماروي من مناقبه ومعجزاته ﷺ فكان منها الصحيح والضعيف والموضوع ، ومنها ما هو منفر عن الاسلام ، وشبهة على الايمان ، وجاء الصوفية من اطرائه ﷺ بما يعقل وما لا يعقل ، وما يقبل في الشرع وما لا يقبل ، وأما الفقهاء والمتكلمون فمنهم المنتقدون لذلك ومنهم المقلدون المتأولون

أقم ميزان القسط بين ذلك كله وما بين أستاذنا الامام من فضائله وهدايته ، وأسرار رسالته ، تلك الحقائق التي كان بها ﷺ خاتم النبيين ، والرحمة العامة للعالمين ، والمصلح للفساد الذي فشا في الخلق أجمعين ، من فلاسفة ومليين ، وبدو وحضريين ، وانظر أيهما اهدى الى الايمان ، وأقوم بما يدل عليه القرآن ، وما تفسره السنة النبوية والسيرة الحمديدية ، ويؤيده التاريخ العام لجميع الامم والملل ، وتجد هذا مفصلاً في رسالة التوحيد تفصيلاً

كان تأثير سيرته (ص) في قلبه يلي تأثير القرآن العظيم ، دخلت عليه مرة

بدون استئذان ، وكان وحده في حجرة مقابلة الناس ، فاذا بيده كتاب ينظر فيه ، وإذا بدموعه تتحادر من مآقيه ، تشرق بها وجنته ، وتنطف بها لحيته ، فلما رأي وضع الكتاب ومسح وجهه بيديه . قلت ما هذا الكتاب ؟ قل : سيرة النبي ﷺ وقد عقد في مجالسه انخاصة درسا طويلا في عظمة النبي (ص) في نفسه القدسية الكاملة بين فيه استحالة تاثير السحر فيها لعلمنا تلخصه في ذيل هذا التاريخ

وكان يعتقد ان الله تعالى خالق روح محمد ﷺ وأودع فيها كليات شريعته الكاملة كما أودع في نواة النخلة كل المواد والخواص التي تنبت نخلة مثاها ، اذا زرعت في الارض الصالحة لها . ثم كان الوحي الالهي له كالماء الذي يمد النخلة ويغذيها بعد أن تنبت إلى أن تكمل وتؤتي أكلا يانعا طيبا ، يعني ان الوحي كان تعليميا شارحا لمقائد وآداب وأحكام أعد الله لها نفسه الزكية فكانت فطرته تطلبها باستعدادها ، ودليل ذلك نفورها قبله من كل عقائد الوثنية وأعمالها .

وهذا المعنى بعيد أشد البعد عما رواه بعض الوضاعين المجازفين من ان جبريل عليه السلام كان يتلقى الوحي في السماء من وراء حجاب ثم ظهر له بعد ذلك ان الذي كان يلقيه اليه من وراء الحجاب هو محمد ﷺ فان هذه المجازفة مخالفة لنصوص القرآن القطعية في هذا الموضوع ، وتجد الجاهلين باصول هذا الدين وكتابه المنزل وسيرة النبي ﷺ وسنته الصحيحة يقبلون هذا وما اشبهه لان ركن الدين عندهم القلوع في الاطراء ، وهذا شان كل الملل في اطوار زوال العلم والمعرفة وترك العمل ، والاعتماد على الاقوال ، التي لاتعب فيها ولا جهاد ، لا يبقى لهم حظ من الدين الا الاطراء بالكلام ، والاتكال على اشخاص الانبياء والاولياء مع ترك الاتباع .

ذكر في رسالة التوحيد خلاصة ماصح من خبر ولادته ﷺ ونشأته في قومه وما كان من استسلام جده عبد المطلب وهو سيد قريش وسيد العرب كلها لأبرهة الحبشي في مسألة مطالبته في رد ما استاق جيشه من إبله ، دون مطالبته بالرجوع عما كان بصدده من هدم بيت الله تعالى وقال « هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام - وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش » ثم قال في إثبات رسالته ﷺ وموضوعها وعظمته في تبليغها وتنفيذها ما نصه وفيه أبلغ اثبات لما قلناه :

وصفه للنبي ﷺ وما جاء به لا صلاح البشر

«فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حاله من الفقر، ومقامه في الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجم ملكا، أو يطلب سلطانا؟ لا مال لا جاه، لا جند لا أعوان، لا سليقة في الشعر، لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة، أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة،

«ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على الرؤوس؟ ما الذي سما بهجته على الهمم، حتى انتدب لأرشاد الأمم، وكفالاتهم كشف الغم، بل وأحياء الرمم؟ ما كان ذلك إلا ما أتى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم، ما كان ذلك إلا وجدانه ربح العناية الإلهية تنصره في عمله، وتمده في الانتهاء إلى أملة، قبل بلوغ أجله، ما هو إلا الوحي الإلهي يسمى نوره بين يديه، يضيء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل، ما هو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي. أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد، والاعتقاد بالعلي المجيد، والكل ما بين وثنية مفرقة، ودهرية وزندقة

«نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبد معبوداتهم—وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات، بالتطهر من تشبيههم—وفي الثانوية بأفراد الإله واحد بالتصرف في الأكوان ورد كل شيء في الوجود إليه

«أهاب بالطبعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا من الوجود الذي قامت به

«صاح بذوي الزعامة، أي بطوا إلى مصاف العامة، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد، هو فاطر السماوات والأرض، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم

«تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى، فبين لهم بالدليل، وكشف لهم بنور الوحي، أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين

بهم^(١) وطلبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكنات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشراك مع كل ذي نفس انسانية في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة

« وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا اغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الامل
« مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على مأودعته من الشرائع الالهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لا افاظها إلى غير ما قصد من وحيها اتباعا لشهواتهم . ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر عليها ، حتى يكونوا على نور من ربهم

« وافت كل انسان الى مأودع فيه من المواهب الالهية . ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات الى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين ايديهم من الاكوان ، وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال ، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة ، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بمقوله وافكارهم ، بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه . وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة الى أوائل المصطفين انما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليست في الاعتقاد بوجوده . وقرر أن لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه إلا مارسمته الشريعة وفرضه العدل . ثم الانسان بمد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .
« دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وإن كانا متمزجين . وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية من الحق .

١٠٤٠ موضوع دعوته (ص) وعظمتها وكيف قام بها على ضعفه البشري

«دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى، وبين لهم ان خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة، والاخلاص للعباد، في العدل والنصيحة والارشاد.

«قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة. كل هذا كان منه والناس احباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة. كل هذا والقوم حواله أعداء انفسهم، وعبيد شهواتهم، لا يفقهون دعوته، ولا يملكون رسالته. عقدت أهذاب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله، لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة بالالوم والتعنيف

«لكنه في فقره وضعفه، كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل، وبأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، وينبهم للعبر، ويحوظهم مع ذلك بالموعة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه، عادل في أمره ونهيه. أو أب حكيم في تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رؤوف بهم في شدته، رحيم في سلطته

«ما هذه القوة في ذلك الضعف؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز؟ ما هذا العلم في تلك الامية؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟ إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شيء، الذي وسع كل شيء رحمة وعلما. ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان، ويشق الحجب، ويمزق الغلاف، وينفذ الى القلوب، على لسان من اختاره لينطق به، واختصه بذلك وهو أضعف قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيداً عن الظنة، بريئاً من التهمة، لا تيانه على غير المعتاد بين خلقه.

«أي برهان على النبوة أعظم من هذا؟ أي قام يدعو الكاذبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء لم يحصوا ما كانوا يعلمون، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء، ناشيء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء، غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطييمة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة، والنظر في سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع

أصول الشريعة ، ونحط للسعادة طرقا لن بهلك سالكم، ولن يخلص تاركها
«ما هذا الخطاب المفحم ؟ ماذا لك الدليل الملمج ؟ أقول ما هذا بشرأ إن هذا
الا ملك كريم ؟ لا لا أقول ذلك . ولكن أقول كما أمره الله ان يصف نفسه ،
ان هو إلا بشر مثلكم يوحى اليه . نبي صدق الانبياء ، ولكن لم يأت في الاقناع
برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل
قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب ، وحكم اليه الخطأ والصواب ،
وجعل في قوة الكلام وسليطان البلاغة وصحة الدليل مبالغ الحجة ، وآية الحق الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » اهـ

[المؤلف] أنحدى علماء الاسلام كاهم باتياننا عن غيره بمثل هذا البيان لرسالة
خاتم النبيين ، والرحمة العامة للعالمين ، في حقائق جمعت كل ما يحتاج اليه البشر لصلاحهم ،
على اختلاف درجاتهم في العلم والفلسفة والحضارة والشرائع ، لا يستطيع ان يرددها
عقل ، ولا يمارى منها مجادل ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

عبادته وتهجده

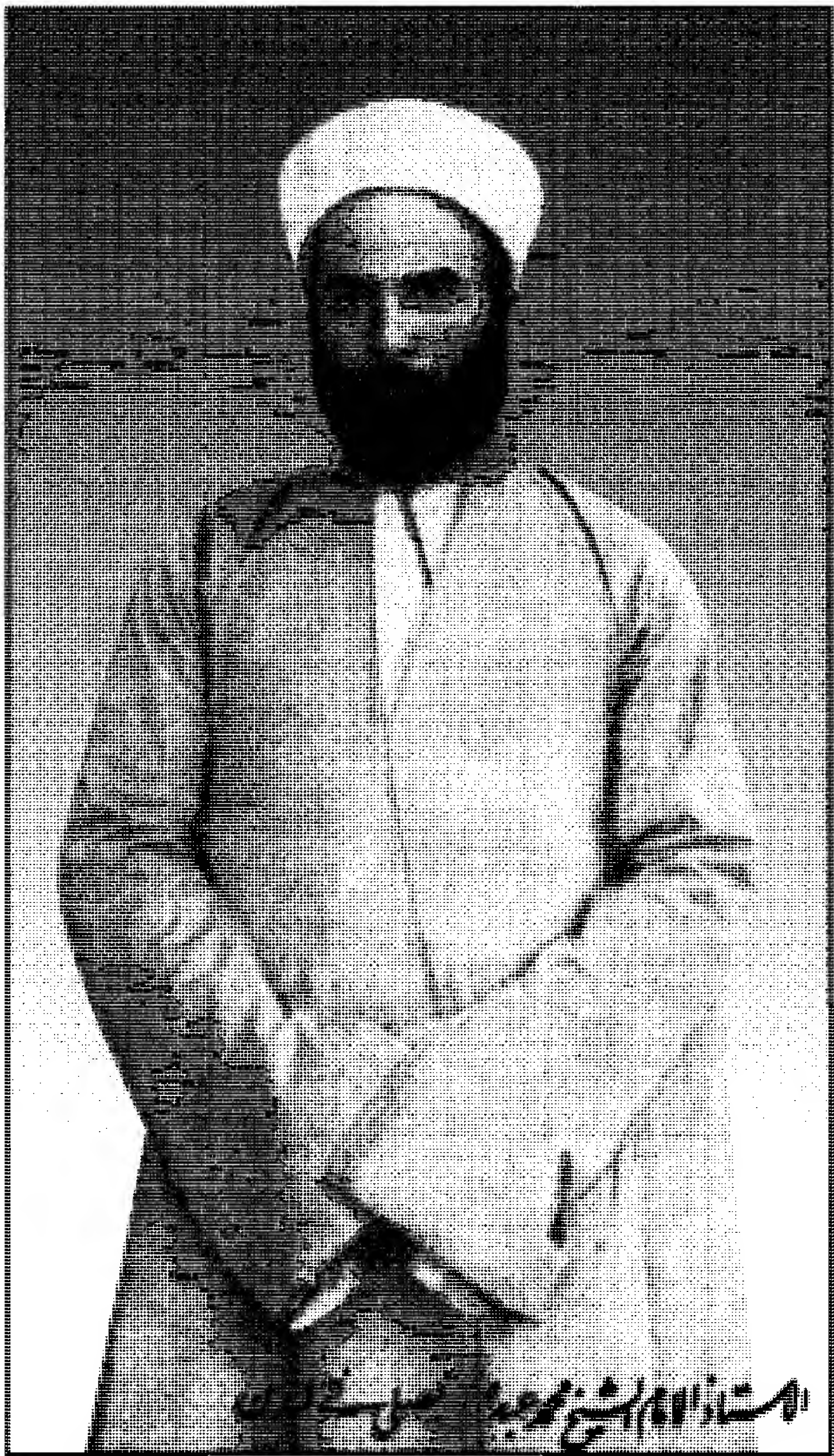
قد علم مما سبق من سيرته الشريفة ، ان اكثر أعماله عبادة ، فان ساعات نهاره
كانت مقسومة على الاعمال المتعدية النفع التي هي افضل من نوافل العبادات ، الا في
شهر رمضان فقد كان يقول ان هذا شهر لا يتسع لغير العبادة . المحضة ، كالدكر والصلاة
والتلاوة ، وحدثنا الشيخ عبد الرشيد عن السيد جمال الدين انه ما كان يصلي النوافل
إلا في ليالي رمضان . ولكن استاذنا كان مواظبا على التهجد في كل ليلة لا يتركه
في سفر ولا حضر

انا لم يتح لي ان ابيت بقربه الا مرة واحدة كناضيو فاعلى المرحوم ابراهيم باشا
خليل في بلدة فقوس فكنا مها يطل سهرنا في الليل أجد الاستاذ يقوم من آخر
الليل يصلي ويتفقدني عند طلوع الفجر لاجل صلاة الجماعة وكنا نبيت في حجرتين
متلاصقتين ، وكان من عادته ان يقدمني للامامة في كل مكان نصلي فيه جماعة
وقد اراد ان يفعل ذلك مع محمد حافظ ابراهيم اذ صحبه في سفره الى الدقهلية .

في اثناء حادثة حريق ميت غمر . حدثنا حافظ قال كان عندي شكوك او شبهات في كثير من امور الدين فاستعنت لي الفرض في صحبتي للاستاذ الامام فكنت اسأله عنها فيكشفها بما يقنعني وينشرح له صدري ، وكان يبيت بالقرب من مبيتي حيث نكون ضيوفا فينغص علي نومي بصلاته في آخر الليل . ثم يطرق باب حجرتي عند الصباح لاجل صلاة الفجر ويناديني بقول الشاعر * يراقد الليل الى كم تنام * قال حافظ فقلت له يا مولاي انني لا استطيع ان احمل الاسلام كله في سفرة واحدة ، حملت هذه المرة عقائده ، وسأحمل في الثانية ماشئت من صلاة وصيام ، وقد اشار حافظ في مرثية التأين الى تهجده بقوله :

وكم لك في اغفاءة الفجر يقظة نفضت عليها لذة الهجمات
ووليت شطر البيت وجهك خاليا تناجي ايله البيت في الخلوات

وحدثني الاستاذ مصطفى بك الدمياطي عن بسيوني بك الخطيب وكيل وقف المنشاوي باشا ، قال له كان الاستاذ الشيخ محمد عبده يكون ضيفا عندنا في سراي المنشاوي بالقرشية ومن عادتي أن أنزل في أواخر الليل للتفتيش ، فكنت أسممه في حجرة نومه يصلي وحدثني الاستاذ السيد محمد البيلالوي تقيب السادة الاشراف لهذا العهد قال كنت مرة في دار صديقنا احمد باشا تيمور بداره المجاورة لنا بالحلمية فذكرنا الاستاذ الامام و كان في المجلس رجل يكرهه فطمع فيه وهو لا يعرفه ، فقلنا ما تنقم منه ؟ قال انه لا يصلي ، قال السيد فقلت له نحن نشهد انه يصلي وقد صليت انامعه ، وبينما نحن نتكلم معه دخل علينا فلان - وذكر خادما كان يتردد أحيانا على أحمد (باشا) تيمور يخدم عنده مدة ويغيب مدة - فسأله اين كنت ؟ قال كنت عند علي باشا رفاعة قال ولم تركته ؟ قال فررت من ضيف ثقيل اسمه الشيخ محمد عبده ، قال وماذا رأيت من ثقله ؟ قال انا خادم السلامك فكانوا يسهرون سهرا طويلا ثم ينامون فلا يمضي على نومهم الا مدة قليلة حتي يقوم هذا الشيخ ويطلب الوضوء ثم يصلي الى ان يطالع الفجر فيصلبها ، فيؤرقني فلا يدع لي من الليل مدة استريح فيها . فلما سمع الرجل الطاعن حديثه قال من اين جئتم بهذا الرجل ؟ فقال له صاحب الدار اننا منذ شهور كثيرة لم نره حتى فاجأنا الآن ، فاستغفر الرجل ربه وأتاب ،



وكان مثله كثير من الناس يسمعون من بعض الحاسدين أو الدجالين المتعجبين بالدين، أقوال الطعن بمبطلي دجلهم من الحكماء الراسخين، والائمة المصلحين، كاشر بتلي عصر، والنبهاني في سوربة، فيأخذونها قضية مسلمة، وبذيعونها بغيرتهم الجهلية الخاطئة، فمن كان منهم حسن النية، سخر الله له من يظهر له الحقيقة، فيتوب الى الله تعالى ويكون حسن الخاتمة. وقد كتب اليه العلامة الشيخ سليم البخاري لما اطلع على رسالة التوحيد مامضونه: إنك كنت أبغض الناس لسوء ظن في دينك فأصبحت أحبهم إلي لما علمته من دينك و.... فأجابه إنني أشكر لك بغضك وحبك كليهما لانهما عن حسن نية.

بل بلونا الكذب على أمثل هؤلاء الغيورين، وقد اتهم بعضهم الاستاذ بترك الصلاة في أيام طلب العلم ذ كان ناسكا يتوب الى الله تعالى اذا حدث انسانا بشيء من مر الدنيا، أنهم بذلك لدى الشيخ المهدي العباسي شيخ الازهر ليحرمه من شهادة مالية، فسأل عنه رفاقه في طلب العلم فشهدوا له بأنه أشدهم محافظة على الصلوات قال له الشيخ محمد بنجيت منهم اننا دائما نقدمه فيؤمننا في صلاة الجماعة لتقواه صلاحه، سمعت هذا من لسان الاستاذ الشيخ محمد بنجيت الشهير منذ بضع سنين وقد عثرنا على صورة شمسية الاستاذ الامام أخذت عنه وهو يصلي على ضفاف ر التيمس في لندره من حيث لا يدري وقد أهدى الي نسخة منها بعض أصدقائنا ببيروت ثم أرسل الي صديقنا الامير شبيب نسخة أخرى. وهاهي ذي مثبتة هنا وأصرح مع هذا بانه كان كثيراً ما يجمع بين صلاتي الظهر والعصر والمغرب امشاء حتى في الحضر اذا لم يتيسر له صلاة الاولى بالخشوع والحضور الذي تقدر وجوبه. وحديث ابن عباس في صحيح مسلم وسنن الشافعي وغيرها صريح في ل النبي ﷺ لذلك وكونه رخصة كما عله ابن عباس (رض) بقوله: لئلا يخرج به، فهذا كان يعده شبهة من لم يعرف ذلك ولا سيما اذا كان سبي الظن أو الفصد وجملة القول ان كل من عرفه معاشره من أهل دينه وغيرهم من وطني جنبي شهدوا له بكمال التقوى والورع والعنة والاستقامة حتى وصفه بعض فرج بالقداسة أيضا.

المقصد الثالث

من الفصل الثامن

مرضه ووفاته

كتبت في اثناء اشتداد المرض عليه في الجزء التاسع من مجلد المنار الثامن الذي صدر في غرة جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ (ص ٣٥٥) ما نصه :

مرض الاستاذ الامام

لقد مرض أستاذنا منذ أشهر مرضاً كنا نظن انه من الامراض الهينة التي كانت تمتاز به ، ولكن طال الزمان ورأينا كل من عرض عليه من الاطباء ينهاء عن الاعمال العقلية واجهاد الفكر ويأمره بالحمية والراحة التامة وهو لا يزداد إلا اجهاداً لنفسه وجهاداً لامته ، وكان موضع المرض المعدة والامعاء فانتقل إلى الكبد فاختلاف الاطباء حينئذ بين قائل ان المعدة هي الاصل والكبد تأثرت منها ، وقائل ان الكبد بتمددتها تضغط على المعدة فتضعفها من وظيفتها ، وأجمعوا على اختلافهم في أي العضوين هو الاصل على وجوب ترك العمل بقاتا والتعجيل بالسفر إلى أوروبا ، وكل منهم أشار بترجيح بلاد واختيار أطباؤها ، فرضي الاستاذ بالسفر ولكن لم يرض القدر إذ كانت السفن الدورية التي تنقل الناس إلى أوروبا لا تقبل زيادة على من سبق إلى أخذ جوازاتها من السائحين والمصطافين إلى ١٤ من الشهر الافرنجي الماضي (يونيو) فأخذ جوازاً وصبر عن السفر ولكنه لم يصبر عن العمل كدأبه وعادته ، فكان يبيت على فراش الآلام ويندو إلى محل عمله فيتنظر في الفتاوى وفي أعمال مجلس الشورى ومجلس الاوقاف الاعلى وأعمال الجمعية الخيرية الاسلامية وأوقاف الحنفية ويشغل مع اللجنة التي يرأسها لوضع نظام لمدرسة القضاء الشرعي ومحضر امتحان مدرسة دار العلوم وينظر في حاجات العقاة وطلاب المساعدة والشفاعة عند الحكام فيقضي حاجاتهم ، حتى ثقلت عليه وطأة المرض وعجز عن

الخروج ، واشتدت عليه الآلام حتى كان - والذي خلقه حجة على هذه الامة التي زرئت بالكسل والخمول - يشتغل على فراشه عند سكون نوبة الالم، ولم يكن شيء من ذلك الشغل لنفسه ولا لاهله وولده ولكنه للناس ، وهل كان الناس يشفقون عليه ادخاراً له أو تأديباً معه، أو عملاً بالذوق الذي يفخر به أهل هذا البلد ؟ كلا انهم كانوا يكلفونه النهوض بأثقالهم وقوفاً على سريره وهو مضطجع أو مستلق عليه، وكان يعمل ما قدر ، ويعتذر عما يعجز طالباً الانظار والامهال إلى أن تحسن الحال

جری على هذه الحال يعمل للناس والمرض يعمل فيه عمله ، وينهك قواه وينحل جسده ، حتى اذا مادنا موعد سفره رآه بعض الاطباء فقال ان المرض ينذر بالخطر ، ولا يجوز له الاقدام على السفر ، فجيء بطبيب آخر فقال قولة الاول، فكتم هذا القول من عرفه من الاصدقاء وذي القربى وساروا به في اليوم التالي إلى الاسكندرية (١٠ ربيع الآخر) ورآه من ليلته بعض أطبائها فقالوا مثل ما قال الاولان، وهو لم يعلم بهذا القول ، بل قيل له ان الاطباء قالوا ان جسمك لا يقوى على مشقة سفر البحر فيجب أن تريض في الاسكندرية لعلك بتغيير الهواء تجد قوة تمكنك من السفر وعند ذلك هياً له الصديق الوفي محمد بك راسم دار أخيه في رمل الاسكندرية ونقله اليها

كانت الجرائد اليومية أذاعت خبر سفر الاستاذ إلى أوربة ثم ذكرت انه أرجأ السفر بأمر الاطباء، فعلم القاصي والداني من أهل هذا القطر بمرضه، وظهر من آيات مكانته في نفوس الناس ما لم يكن يعلم كله، فكان شغلاً شاغلاً للمقلاء والفضلاء، من جميع الاصناف والطبقات ، كان أمراء البيت الخديوي ومن حضر من نظار الحكومة لاسيما رئيسهم « القائم مقام الخديوي » وغيرهم من كبراء الامة يترددون على الدار التي يقيم فيها المرة بعد المرة ، وكان بعض الامراء يرسلون اليه اطباءهم، وكانت الرسائل ترد كل يوم في البرق والبريد من جميع أنحاء القطرين — مصر والسودان — تسأل عن صحته وكما وجد يوماً راحة تبشر الجرائد به.

الامة فيصبح الناس مطمئنين ، فاذا سكنت الجرائد يوما عن البشارة لجوا في السؤال مستخبرين

أما نحن - معشر أهليه وأقرب أصدقائه ومريديه - فاننا نتراوح بين اليأس والرجاء ، اذا رأيناه في راحة من الألم يرجح أملنا حتى اذا ماتنا لم نعلم خوفنا ووجلنا ، فثلثنا في ذلك مثل مقياس الحرارة كل يوم في صمود وهبوط بحسب ما نرى من حاله . ولا غرو فهو كاهلوا لحياتنا المعنوية وكاشدس لامتنا المسكينة ، ونسال الله تعالى دفع البلاء واللف في القضاء ، وتعجيل الشفاء ، انه سميع الدعاء . اهـ

وبعد اربعون من صدور هذا الجزء من المنار توفاه الله تعالى اليه في الساعة الخامسة بعد الزوال من ثامن هذا الشهر (جمادى الاولى) الموافق ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥ فياله من رزء وجلت له القلوب ، وذرفت العيون ، وفاضت الشؤون ، واعتصم المؤمنون بآية (ان الله وان اليه راجعون)

وقد أبنته في جزء المنار العاشر (م ٨) الذي صدر في ١٦ جمادى الاولى بمأنه :

مصاب الاسلام ، بموت الاستاذ الامام

مات الاستاذ الامام ولو كان كبر النفوس ، وطهارة الارواح وعلو الهمم ، مما يحول دون الموت لما مات أبداً ، ولكن كل حي يموت إلا الحي القيوم (إنا لله وإنا اليه راجعون) مات الاستاذ الامام فمات ذلك العلم الواسع ، والحكمة البالغة ، والحجة الناطقة ، والمعارف الكونية والالهية ، والعلوم الكسبية والدنية ، مع البيان الساحر ، والادب الباهر ، والبلاغة التي تمتلك العقول والقلوب ، والفصاحة التي تستهوي الاسماع والنفوس مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاخلاق القدسية ، والشماثل الحممدية ، والصدق في القول والفعل ، والاخلاص في السر والجهر ، والوفاء في القرب والبعد ، والسخاء في العسر واليسر ، والعفة في الشباب والكهولة ، والحلم عند الغيظ والمغاضبة ، والعفو مع القدرة على المؤاخذة ، والتواضع وخفض الجناح للمخلصين ، والشهامة ، والترفع على المناققين والمستكبرين ، واللين للحق وأهله ، والشدة على الباطل وجنده ،

والشجاعة التي تها بها الامراء والعظماء، والقناعة التي رفعت رأسه فوق الرؤساء
 مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاعمال النافعة، والمشروعات الرافعة،
 والمساعي الجديدة، والوسائل المفيدة، والاجتهاد في ترقية الامة، والدفاع عن
 الملة، والدعوة إلى التوحيد والتأليف، والاشتغال بأفضل التعليم والتأديب،
 والتربية الصحيحة للمريدين والجمع بين علوم الدنيا والدين، ومواساة البائسين
 والمعوذين، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الآمل البعيدة، والمقاصد الحميدة، التي كانت
 مطوية في ذلك الجرم الصغير، الذي انطوى فيه العالم الكبير، تلك الآمال
 التي تتضائل دونها هم الملوك والامراء، وتتصاغر أمامها نفوس الزعماء والاغنياء،
 الذين هم عن استعمال مواهبهم مصروفون، وعن ائمة برهم محجوبون،
 وعن سنته في خلقه غافلون

مات الاستاذ الامام فراع موته الناس، من جميع الطوائف والاجناس، فعلم
 علماء الدين، انهم فقدوا ركنهم الركين، الذي تحمل عنهم رد الشبهات وغير ذلك من
 فروض الكفايات، وعلماء الدنيا انهم خسروا ركنهم الاقوى الذي يدفع عنهم
 مطاعن المتعصبين، وتكفير الجامدين، ويثبت أن الاسلام جمع بين المصلحتين،
 ولا يتم ذلك الا بالجمع بين العلمين. وشعر طلاب الاصلاح بانهم فقدوا
 إمامهم العظيم، الذي كملت فيه صفات الزعيم. وأحس الفقراء والمساكين
 بأنهم رزقوا بكافل اليتامى وغوث العاجزين. ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة،
 شدة وقع هذه الطامة، وانهم نكبوا بصاحب الرأي الثاقب والعمل النافع،
 سربي الرأي العام في الشورى والجمعية العمومية، صاحب اليد البيضاء في الاوقاف
 الاسلامية، المضطلع باصلاح الازهر والمحاكم الشرعية، الناهض بأعباء الجمعية
 الخيرية، الموفق بين الحكومة والرعية. واعترف اهل الملل بان مصابه مصاب
 الانسانية، والخسارة الكبرى على العلم والمدينة

مرض هذا البر الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض الضعفاء،
 ويبحث عن مساكن القواعد من النساء، ليواسيهم بالبر، من وراء الستر، وقال لي

ان فلانا الغريب قد انقطع عن السفر بدين عليه وانني مستغن الآن عن مشة جنيه فان كانت كافية ارسلتها اليه، ولكنه غاب عن الوجود قبل أن يقضي لبانته من البر والجود، مرض هذا المصلح العظيم فاضطربت الامة المصرية لمرضه فكانت الدار التي يمرض فيها كعبة العائدين، من العلماء والامراء والوزراء، والادباء والفضلاء، والفقراء والافغنياء . وكان البرق يناجيه كل يوم مع البريد، بالنيابة عن العاجز والبعيد، سائلين عن صحته او مهنيين ما يقال عن راحته، فكان يحمد الله ان جعل الدهماء من امته يعرفون لخادمها خدمته، ويشكرون للعامل لها عمله، ويقول لئن شفيت لأجهدن النفس في خدمتهم اجمعين، حتى اكون حرضا أو اكون من الهالكين

مرض الاستاذ الامام فلم يمعه المرض عن خدمة المسلمين والاسلام، واحتضر الاستاذ الامام، وهو يفكر في مصلحة المسلمين والاسلام، ومات الاستاذ الامام وهو يلتهب غيرة على المسلمين والاسلام

نقول مات الاستاذ الامام فنبدي القول ونعيده، ننصر الحس، ونكابر النفس، فقد كادت نحسب ان موته رؤيا منام واضعاث احلام، وما هو الا الحق اليقين، ومصير الاولين والآخرين (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد اقل من مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) مات استاذنا وإمامنا ولك اللهم البقاء، فلا تفتنا بعده ولا تحرمنا أجره، واغفر اللهم لنا وله

نعم إنه قد مات ولكن لم تمت علومه ومعارفه، وما أثره وعوارفه، فلقد ربى أرواحا، وأصلح إصلاحا، وألف كتبا، وترك علماء وأدباء، وأمات سنننا سيئة له أجر إقامتها، وأحيا سنننا حسنة له أجرها وأجر من يعمل بها . وعلمنا كيف نفهم القرآن، ونقيم شرائع الاسلام، مع توخي نفع الناس اجمعين . والاخلاص لله رب العالمين .

مات أستاذنا وإمامنا فكبر علينا موته ولكنه ربانا على الصبر، وعلمنا كيف نتعزى عنه حتى في مرض موته . فقد كان هجيرا في تلك الكربات والسكرات كلمة الله التي أمرنا بتكرارها في الصلوات : (الله أكبر) فلئن كان بفضل

كبيراً فينا فإله أكبر . وإن كان مرضه وموته كبيراً علينا قاله أكبر . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .
 لبي دعوة ربه برمل الاسكندرية في الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادى الاولى ، فنماه الرق بآلاته الناطقة والكتابة الى العاصمة وغيرها من مدن القطر فاضطربت لنعيمه القلوب ، وذرفت العيون ، واسترجعت الألسنة وحوقلت ، وطفق الناس يعزي بعضهم بعضاً متفقين على ان المصاب به عام ، وأشد وقعه على المسلمين والاسلام ، وما كنت تسمع من البعيد والقريب ، والبغض والحبيب ، والوطني والاجنبي ، والرشد والغوي ، والعالم والجاهل ، والمفضل والمفاضل ، الا كلمة « خسارة لا تعوض » أو كلمة « عوض الله الأمة به خيراً » أو قول الشاعر

وما كان قيس رزؤه رزء واحد ولكنه بنيان قوم يهدما

أو قول الآخر : ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خاق كثير
 وقد اجتمع مجلس النظار فقرر ان تحتفل الحكومة رسمياً بتشيع جنازته في الاسكندرية ، ومصر وان تنقل جثته على قطار خاص الى العاصمة ففعلت ، وشاركتها الامة ونزلاؤها والمحتلون بهذا التشيع الذي لم يسبق مثله لغيره ، حتى كان يخيل للمشيع انه لم يبق احد من سكان الاسكندرية ولا من سكان القاهرة الا وقد حضر ليوودع هذا الامام الوداع الاخير ، وقد صلى عليه في الجامع الازهر ودفن في قراقة المجاورين تقمده الله برحمته ورضوانه . وأسكنه فسيح جناته اهـ

هذا ما أبنته به في المنار عقب الوفاة وجعلته مقدمة لترجمته ، وتركت وصف تأثير مرضه ووفاته في القطر المصري والاحتفال بجنازته بالتفصيل للجرائد المصرية ، وكذا وصف هذا التأثير في العالم الاسلامي وسائر الشرق وبعض تأثيره في الغرب لجرائد الاقطار الاخرى ، وما نظمته الشعراء من الرثاء ، وما كتب من التعازي الرسمية وتعازي المعظماء . وقد جمعت اهم ما وصل الي من ذلك في سفر مستقل جعلته الجزء الثالث من هذا التاريخ بلغت صفحاته ٤٢٨ فمن أراد أن يعرف اكبار الفضلاء من الامم المختلفة الاجناس والممال له بما امله لم يتفق لغيره فلينظره

المقصد الرابع

من الفصل الثامن

في تأيينه وراثته

نطلق لفظ التأين على تعداد محاسن الميت وتأثير موته والحزن عليه بالنثر ، والثناء على هذه المعاني بنظم الشعر ، ويدخل في الاول مامزج فيه النثر بأبيات من الشعر ، وقد أثن الاستاذ الامام كثير من العلماء والادباء من الازهرين وغيرهم بما ألقوه في الجمعيات التي عقدت لذلك وبما نشروه في الصحف ، وقد جمعنا كثيراً منه مع تأين الصحف المصرية وغيرها ، وما وصل اليها من المراثي والتعازي في الجزء الثالث كما تقدم

مقالة يوم الاربعين

وكان المستعدون لتأيينه وراثته على قبره عند دفنه كثيرين ولا سيما الازهرين فرأى صديقه حسن باشا عاصم كثرة ازدحام الناس وما هم فيه من الحزن والكرب مع شدة الحر والتعب من طول المسافة التي مشوها من محطة مبصر الى القرافة - وهي عدة اميال - فقام في الناس فقال: ان اصدقاء الفقيد ومريديه استحسنا ان يؤخر التأين الى اليوم الاربعين لوفاته، فانصرفوا ايها الناس مأجورين

وقبل مجي ذلك اليوم فكر اخوانه في الامر فقرروا ان يعين المؤبنون والراثون باسمائهم وينشر ذلك في الجرائد لعلهم ان عدد الذين يتصدون لذلك من العلماء والشعراء سيكون كثيراً ، ولا يمكن تقديم بعضهم ومنع بعض في اثناء الاجتماع والوقت لا يتسع للجميع ، واتفقوا على ان يكونوا ستة وأعلنوا اسماءهم وموضوع تأين كل منهم وهم :

- (١) حسن باشا عاصم يذكر ملخص تاريخ حياته ولا سيما عمله في الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان شريكه في خدمتها ، وكذا جمعية إحياء الكتب العربية
- (٢) الأستاذ الشيخ أحمد أبوخطوة من كبار المدرسين في الأزهر والعضو في المحكمة الشرعية الكبرى . يتوسع في مسألتي إصلاحه للأزهر والمحام
- (٣) حسن باشا عبد الرازق أحد أعضاء مجلس شورى القوانين يكون من اخص ما يذكره خدمته للامة وللحكومة في المجلس
- (٤) قاسم بك أمين المستشار في محكمة الاستئناف ، والعالم البارع في علوم الاخلاق والاجتماع ، يكون اخص ما يبينه سمو أخلاقه وفضائله وإصلاحه في الامة
- (٥) حفني بك ناصف القاضي في محكمة مصر الأهلية وأحد كبار الادباء من تلاميذه الذين تخرجوا به في الأزهر ثم في دار العلوم يرثيه بقصيدة
- (٦) محمد حافظ أفندي إبراهيم شاعر مصر الاجتماعي ومن مرثيى الامام في الادب يرثيه بقصيدة ايضا - وكذلك كان ، ونشرت كل ما قيل في الحفلة في الجزء الثالث من هذا التاريخ (ص ٢٣٦ - ٢٧٤)

وقد سبق لي اقتباس من تأبين الثلاثة المؤبنين له في مقاصد عمله في الجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية إحياء الكتب العربية وعمله في إصلاح المحاكم الشرعية والاقواف وعمله في مجلس شورى القوانين ، وكنت عازما على اقتباس جمل أخرى مما قاله غيرهم فحال طول الكتاب دون ذلك فانا أحيل القراء على قراءة ذلك كله في الجزء الثالث الخاص بالتأبين والثناء

حفلة الجامعة المصرية

ومنذ بضع سنين أقيمت له حفلة تأبين أخرى في مدرسة (الجامعة المصرية) قام بالدعوة اليها وتنظيمها لجنة مؤلفة من ١٥ رجلا من طبقات الامة العلمية الراقية ناشم من نابغي علماء الأزهر ، وقد وضعت اللجنة رسالة في عملها وما ألقى فيها وما ورد عليها من الخطب والقصائد ، وما كتبتة في شأنها الجرائد ، وطبعناه على نفقتها ووزعناه مجانا ، وقد بينت في مقدمة الطبع الباعث على هذا التأبين وهو سيمور الامة بالحاجة الى إحياء ذكره ، وتجديد البحث في تعليمه وهديه « حتى

كان السابق الى اقتراح ذلك في الصحف اليومية ، طالب من طلبة المدارس الثانوية ، لم يدرك عهد الامام ، ولكنه أدرك قيمة ما تركه لها من الصوت والاعلام « (١) »
وانني أذكر هنا ما نشرته اللجنة في الجرائد عن عملها وهذا نصه :

إحياء ذكرى الاستاذ الامام

فكر جماعة من تلاميذ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الاحتفال بإحياء ذكره ، وتألفت لجنة منهم برئاسة زميله حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد نجيت ، وقررت أن تكون الحفلة بدار الجامعة المصرية الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ (وهو يوم وفاته بالحساب الشمسي)

ووضعت اللجنة نظام الحفلة وعينت خطباءها مراعية ما يتسع له الوقت وما يناسب الغرض من الاحتفال بإمام مصلح
وستطبع اللجنة ما يلقى في الحفلة في كراسة خاصة مع ما يرد إليها من الخطب والقصائد المختارة . وهذه أسماء حضرات أعضاء اللجنة :

الشيخ محمد نجيت - رئيس . السيد عبد الحميد البكري . السيد محمد رشيد رضا . الشيخ محمد مصطفى المراغي . الشيخ محمد هلالى الأبياري . الشيخ عبد المجيد سليم . الشيخ مصطفى عبد الرازق . الشيخ علي مرور الزنكلوني . احمد زكي باشا . حسن عبد الرازق باشا . السيد عبد الرحيم باشا الدمرداش . احمد بك لطفى السيد . حنا بك باخوم . الدكتور طه حسين . الدكتور منصور فهمي (السكرتير)
ولما جاء اليوم الموعود كانت اللجنة قد أتمت الاستعداد للاحتفال في رحبة دار الجامعة المصرية بعد إذن مجلس إدارة الجامعة لها بذلك ، وفرشت أرضها بالرمل الأصفر ، ونصبت في صدر المكان منبر الخطابة وفرشت أرضه بالطنافس العجمية النفيسة ووضعت عليها الأرائك والمقاعد الوثيرة ، وصفت من ورائه كرامى الخيزران بعدد ما وزعت من رقاع الدعوة على العلماء وخواص الأمة من جميع الطبقات

(١) هو محمود افندي كامل نجل الاستاذ محمد علي كامل المحامي المشهور

وما جاءت الساعة المعينة للبدء في الاحتفال الا وكانت المقاعد كلها قد شغلت بالمدعوين وفي مقدمتهم حضرة صاحب المعالي محمد شكري باشا وزير الزراعة جاء من الاسكندرية لاجل حضور الحفلة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن هيئة الوزارة وزاد أناس تجددوا فأذن لهم فاضطر كثير منهم إلى الوقوف وراء الصفوف فكان المجموع زهاء الف وثلاثمائة نسمة. وقد بدىء الاحتفال بقراءة بعض الحفظة آيات من القرآن الحكيم . وبعد فراغه ابتدر المنبر الاستاذ الشيخ محمد بنحيت رئيس لجنة الاحتفال وتلا خطبته الافتتاحية، وتلاه سائر الخطباء على الترتيب المتقدم اهـ (المؤلف) المراد بالمتقدم ما ذكر في فاتحة الرسالة المطبوعة وخلاصته أن يليه الاستاذ أحمد لطفي بك السيد بكلمة يقولها باسم الجامعة فاشيخ مصطفى عبدالرازق بخطبة في خلاصة ترجمة الاستاذ الامام فالذكر كتور منصور فهمي بكلمة يعبر بها عن رأي النابتة المصرية في الامام ، وماله في قلوب أحرار الفكر من المقام ، وأن ينشد بعده محمد حافظ بك ابراهيم قصيدته ، ثم يختم الحفلة صاحب المنار ، بما يتسع له الوقت من الكلام. وقد ابقى بقية من الوقت للاستاذ الشيخ علي الزنكلوني قد كان ما ألقى في هذه اللجنة على غرار ما ألقى في اللجنة الاولى في التنويه بامامة الرجل وعبقريته وإصلاحه ، قرر ذلك فضيلة رئيسها بالاجمال وشرحه الآخرون بالتفصيل ولا حاجة إلى نشر خلاصته فانه مطبوع يناله كل من أراد برمته واكتفي سأخذ كلمة من خطاب الاستاذ احمد لطفي بك السيد في الشهادات الآتية :

ذلك انني ذكرت في الجزء الثالث من هذا التاريخ الذي نشرت فيه ما قيل في التأبين الاول وفي الرسالة الخاصة بالثاني أقوالا لبعض رجال العصر المشهورين من الامم والملل المختلفة والبلاد المتفرقة في علو قدر الاستاذ الامام بالعلم والعمل والاصلاح ، والشهادة له بالامامة وتجديد العصر بما لم يشهد بمثله لاحد من الناس فاننا أختم هذا المقصد باعادتها مع زيادة عليها من الجزء الثالث وأبدأ بالاجانب وأختم بالمصريين أيهم أقرب إلى الامام وداءً ، وأوفى له عهدا

شهادات رجال العصر له

﴿ ما قاله بعض كبراء الانكليز ﴾

(١) شهادة لورد كرومر الانكليزي السياسي

شهد لورد كرومر في تقريره عن مصر والسودان سنة ١٩٠٥ بان الحزب الاسلامي الذي كان زعيمه الشيخ محمد عبده هو الحزب الوسط بين الحزب المحافظ على التقاليد العتيقة الذي يحارب المدنية وينبذها وبين حزب المتفريجين المارقين من الدين وانه هو الحزب الذي يرجى أن تنهض به البلاد لانه جامع بين الترقى المدني والمحافظة على الدين .

ونقل عنه أنه قال ان هذا الرجل لا ذنب له إلا انه أنور أهل بلاده وقد سئل اللورد عن الشيخ هل كان متساهلاً في الاسلام ؟ فقال : بل هو متعصب له أو فيه ولكن بالمعقل

وقال له أحد وجهاء المصريين ان كل أعمال جنابكم محصورة في اصلاح الحكومة فترغب اليكم أن تعملوا اعمالاً ترقية المسلمين فانهم لن يعودوا الاعمال الاجتماعية فقال اللورد اعملوا أنتم وعلي أن أساعدكم فمن لا يرقى نفسه لا يرقى غيره . قال المصري انه ليس عندنا رجال بهمهم أمر الامة ويقدرّون على العمل النافع لها . فقال اللورد بل عندكم رجالان غيوران مقتدران وهما الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدا وهما بالمال وهما يعملان للبلاد ما تحتاج اليه من الترقى

(٢) كلمة السرما - كولم مكاريث مستشار الحفانية بمصر

نوه جناب المستشار في تقريره القضائي عن تلك السنة بما كان من خدمته الثمينة لوزارة الحفانية ، في كل ما يتعلق بالشريعة الاسلامية ومحاكمها ثم قال : وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر ، كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها ، وفوق ذلك فقد

قام لنا بمخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من
الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية ، إذ كان
يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ، ويناضل عنها ، ويبحث عن حل يرضي
الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك ، وانه ليصعب تعويض ماخسرناه بموته نظراً لسمو
مداركه وسعة اطلاعه ، وميله لكل ضروب الاصلاح ، والخبرة الخصوصية التي اكتسبها
أثناء توظيفه في محكمة الاستئناف وسياحاته إلى مدن أوروبا ومعاهد العلم ، وكانت النظارة
تريد أن تسكل اليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع إنشاؤها ومراقبتها
مراقبة فعلية . أما الآن فانه يتعذر وجود أحد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام
بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته ، فلكل هذه الاسباب أخشى ان نظارة
الحقانية ستظل زمناً طويلاً تشعر بخسارتها بفقده . اهـ كلام المستشار

(٣) شهادة الدكتور ادوارد براون العالم الانكليزي

كتب الدكتور ادوارد براون العلامة الانكليزي المدرس في جامعة
كمبردج كتاب تعزية لمجوده بك قال فيه « مارأيت في الشرق ولا في الغرب مثله »
وراجع تمة كلامه في (ص ١٠٣)
وكتب إلي جواباً عن سؤاله إياه أن يرسل لي ما نشر في الصحف الانكليزية
عن وفاة الامام قال فيه : فوالله مارأيت في جرائدنا في هذه الواقعة العظمى
والمصيبة الكبرى إلا ما أستحي عن نقله الى حضرتك بسبب عدم كفايته وقلة
اطلاعه على بطون الامور ، كأنهم زعموا ان هذا الاستاذ الاكبر الذي كان في
زماننا مثل الاكسير عديم النظر كأحد السياسيين القشريين الخ

(ما قاله بعض كبراء الترك والفرس)

(٤) شهادة احمد مختار باشا الغازي

قال المشير احمد مختار باشا الغازي علامة الترك الشهير ورب السيف والقلم
في إكبار علمه وعقله : إنني أعتقد ان دماغ هذا الرجل أعظم دماغ عرف ، وانه

لو وزن لرجح بكل دماغ من أدمغة الرجال العظام الذين عرف الأفرنج وزن أدمغتهم . ولما قرأت في الجرائد نبأ وفاته (وكان الغازي يومئذ في أوربة) ضاق علي المكان الذي كنت فيه لان الخسارة به لا عوض لها

(٥) شهادة الدكتور عبدالله جودت الكاتب التركي

أبنة الدكتور عبد الله جودت أحد كتاب الترك المشهورين وأحد مؤسسي جمعية الاجتهاد والترقي في مجلته (اجتهاد) التي كانت تصدر في مصر باللغتين التركية والفرنسية مرتين في العدين التاسع والحادي عشر من السنة الاولى فجعل عنوان الترجمة (الاموات الذين لا يموتون) فقال في الاول منها ما ترجمته الحرفية :

كان الشيخ محمد عبده بلا خلاف أحد النابغين الذين لا يدخلون في طبقات الرجال ، وانما الانهاية هي الحد الوحيد الذي ينتهي اليه علمهم

ثم قال كان الشيخ محمد عبده مسلماً حقيقياً على قدم النبي ﷺ وقال في العدد الآخر : كان الشيخ محمد عبده مسيحاً ثانياً منح للعالم الاسلامي الذي كان ذوي سقوطه فيه يصيح مسامع ذوي الوجدان ، ويمزق أحشاء أصحاب الايمان

(٦) شهادة الاستاذ الكبير ذكاء الملك الايراني

قال في اول تأييده من جريدته (تربيت) التي تصدر في طهران ما ترجمته : كل من يسمع نعي المعلم الاول والاستاذ الاجل ، والفقيه الأعلم ، والحكيم والفيلسوف الاسلامي الاعظم ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية المعظم - رضوان الله عليه - ولم يبلغ منه الاسف أقصى درجاته فهو يجهل قدر هذا الرجل الجليل المبرور ومقامه العالي في الشريعة الاسلامية - أو هو ...

﴿ مقالته بعض علماء تونس وبلاد العرب ﴾

(٧) شهادة الأستاذ العلامة الشهير طاهر بن عاشور

باش مفتي المالكية في تونس لهذا العهد (١)

قل في كتاب التميزية للمؤلف : أفاسمك الأسي والغم على مصيبتنا ومصيبة الاسلام والعلم والحكمة بمفارقة أستاذنا الذي كان علمه نزهة أبصارنا ، وذكره أنس نفوسنا . . . عرفت الأستاذ معرفة شهود بتونس في سنة ١٣٢١ فعرفت من ملاقاته الأولى رجل العزم والارادة والفكر وبلاغة القول وشدة الفراسة وتكافؤ القوى العملية والفكرية . . . (ثم قال بعد ذكر المعتاد من ضعف الأسي والاسف بطول العهد على المصائب : « فأما أسفنا على الأستاذ الامام فلا شك انه يجد كلاً حارت الافهام في المشكلات ، وخارت القوى في مقاومة البدع وجرأئيم التأخر يقابلني تمثال الأستاذ الامام في منزلي مرات وأذكر كلماته وتفاسيره مهما قرأت سورة في صلاتي فكان ذلك يهزني فخرأً ، ويمجد في روح النشاط والعزيمة فصرت الآن يزيدني أسفاً على أسفي وغماً على غمي ، حتى سئمت الحياة وصغرت في عيني الدنيا بأسرها

(٨) شهادة الأستاذ محمد بن الخوجه التونسي

قال في مقالة نشرها في جريدة الحاضرة التونسية « فكان أبلغ البلاء إذا كتب ، وأفصح الفصحاء إذا خطب ، وكان أقوى العلماء والادباء بياناً ، وأجودهم بالحكمة اساناء ، وأوسعهم في معارض الكلام باعاً ، وأوفرهم في مفاهيم العلوم اطلاعا ، وأبعدهم مرمى ، وأسد هم سهما . وكان عظيم الهمة كبير النفس يغالب كرات الزمان بثبات عز عن النظر . ويستصغر الكبائر ، ويستسهل المصاعب ، ويستهن بكل شيء . اعترضه في مسيره . ومما يؤثر عنه في هذا المعنى قوله : انني لا أخشى شيئاً سوى الموت لانه يقطع علي السير . وبالجملة فان الشيخ محمد عبده كان رجلاً « والرجال قليل »

(١) وقد كتب ترجمة للامام نشرها في بعض الجرائد

(٩) شهادة الاستاذ محمد الجمالي التونسي

قال في جريدته الصواب « ولولا أن الناس اعتادوا المبالغات في تأبين الاموات لكان تأبيننا للاستاذ الامام، لا يشبهه تأبين أحد ممن رماهم سهم الحما، بعد الانبياء عليهم السلام » اه وقد باع تأييده له ست صفحات

(١٠) شهادة العالم العامل الشيخ محمد شاكر من علماء صفاقس (تونس)

قال في كتاب التعزية لي بعد ذكر بعض اعماله: ولا غرو فقد جرت سنة العناية الالهية، أن تختص من شئت بالاختصاصات العلمية، ولقد أتى هذا الفقيد المقدس من الاقول والاعمال الجليلة، بما أجمع به القوم انه رجل الدنيا وشمس الفضيلة، لسان بالحكمة ناطق، وعزم في احياء الدين صادق، وثبات في تأييد الحق، وكمال في صبر على اذية الخلق، فهو القائم بوظائف الوراثة النبوية، والحريص على دينه وأمنه حتى في آخر أدواره الحياتية الخ

(١١) شهادة العالم الجليل السيد محمد بن عقيل اشهر السادة العلويين

قال في أول كتاب له في تعزيتي من سنا فورة:
بلغنا نبي مجدد القرن الثالث عشر (١) الاستاذ الحكيم... ولقد عم الاسف أفئدة جميع المسلمين ومن عرف الفقيد من عقلاء الطوائف الاخرى وإلى الله المشتكى
واقعد صدق شيخنا ابن شهاب في قوله

رزئت مصر لا بل الاسلام وأرتنا اقتدارها الايام

وكتب في رقيم آخر « نعم اني رأيت في بعض الجرائد اقتراحا لبعض محبي مجدد العصر في عمل صورة للاستاذ الامام.... الخ فلم يعجبني ذلك » واقترح كغيره طبع آثاره

﴿ ما قاله بعض علماء سورية ولبنان وأدبائهما ﴾

(١٢) شهادة الاستاذ الحكيم السيد عبدالرحمن الكواكبي

سأل سمو الخديو عباس حلمي العالم الحكيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي :
كيف رأيت الشيخ محمد عبده ؟ قال ان افريقية أخرجت كثيراً من العلماء في
العلوم والفنون المختلفة دون الفلسفة ، ولكنها أخرجت فيلسوفاً واحداً بذاً جميع
الفلاسفة وهو ابن خلدون . وكذلك مصر أخرجت من لا يحصى من العلماء ،
دون الفلاسفة الحكماء ، ثم أخرجت أخيراً حكماً فاق جميع الحكماء . وهو الشيخ
محمد عبده . سمعت هذا من فم الكواكبي ونسيت ان أذكره في الجزء الثالث
وكان الكواكبي يعتقد انه أعلم من أستاذه الافغاني وانه هو الذي كبر صيته
بالعلم ، وهذا غلط منه

(١٣) شهادة الدكتور يعقوب صروف السلامة المصري

قال الدكتور يعقوب صروف صاحب المقتطف لما أكثر المؤننون في حفلة
الاربعين من وصف الاستاذ بكلمة فقيد الاسلام وفقيد مصر : اننا لانرضى بأن
يكون فقيدكم وحدثكم ، بل نقول انه أكبر من ذلك — انه فقيد الشرق كله . وقد
بين هذا مفصلاً بترجمته في مجلة المقتطف فراجع في الجزء الثالث من هذا التاريخ
ومنها قوله في أنواع أعماله « وتارة مفسراً قواعد الدين تفسيراً يقبله العقل
المستنير ، وتصلح به شؤون الأمم ، وينطبق على مصالح الزمان »
ثم قال « وتارة مبيناً بالحجج القاطعة ان الدين لا يمنع الارتقاء والاخذ بأسباب
العمران ، بل يحث عليها . ومظهراً للشوائب والبدع التي دخلت عليه فأضرت
أهله ، وهي ليست منه في شيء بل يتبرأ منها وينهى عنها »

(١٤) شهادة الشيخ ابراهيم اليازجي الاديب اللغوي الشهير

قال في مجلة الضياء « وكان متوقداً للفؤاد ثاقب البصيرة قوي الحجة ذرب

اللسان، بليغ العبارة، إذا وقف للخطابة كان كأنما يتلوعن ظهر قلبه فلا يتوقف ولا يتكأ، ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيباً سخيفاً، حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداة وجدته كأحسن ما ينشئ المترسلون من الفصحاء . وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول حتى انه تعلم اللغة الفرنسية وهو فوق الأربعين فلم يأت عليه إلا أشهر حتى كان يجيد فهمها ، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهائها، ولم يرو مثل ذلك إلا عن استاذة السيد جمال الدين ، وذلك بفضل الله يؤتيه من يشاء الخ

(١٥) شهادة الاستاذ جورجى زيدان المؤرخ السوري الشهير

قل في مجلته الهلال بعد نشر مجل من ترجمته ومناقبه وأعماله : على أن عظمته الحقيقية لا تتوقف على ما تقدم من أعماله الخيرية أو العلمية أو القضائية وإنما هي تقوم بمشروعه الإصلاحى الذى لا يتصدى مثله إلا أفراد لا يقوم منهم في الأمة الواحدة مهما طال عمرها إلا بضعة قليلة وهذا ما أردنا بسطه على الخصوص من هذه العجالة « ثم بسطه وذكر خطته وخطة أستاذة السيد وضرب له المثل بمصلح النصرانية (لوثير) فقال انه أول من جاهد في سبيلها وقد فاز بجهاذه القيم السياسة بنصرته . وأما مصلح الاسلام فكانت السياسة ضده ، وإنما حملة على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الادبية ومنصبه الرفيع في الافتاء . »

وقال في محاولته إصلاح الازهر انه لم ينجح فيه إلا قليلا « ولكنه وضع الاساس ولا بد من رجوع الأمة إلى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون له الفضل في تأسيسها . »

(١٦) شهادة نعوم افندي ابكي الكاتب اللبناني الحر

قال في جريدته المناظر التي كان يصدرها في (سان باولو) عاصمة (البرازيل) ان فجيرة النصارى بالامام « ليس لانه كاتب وايس لانه خطيب وايس لانه لغوي » ثم بين العلة لصحيحة الفجيرة وهي قوله « هو الذى استخدم كل ما وضعت فيه الطبيعة من المقدرة في سبيل إصلاح الاسلام ، فهو مصلح الاسلام ، ومن أصلح الاسلام فقد أصلح الشرق ، فمحمد عبده هو مصلح الشرق . وهذا ما يجعلنا نخشع لموته ونكبر المصاب ، لاننا شرقيون وفينا روح وطني »

(بعض ما قاله المصريون)

(١٧) شهادة صاحب الدولة رياض باشا وزير مصر الأكبر

قال رياض باشا وزير مصر الأكبر للشيخ عبد الرحيم الدمرداش وكان ملازما لفراش الفقيد في مرض موته : اننا كلنا شاكرين لك فانك لا تخدم رجلا واما أنت تخدم الامة في هذا الرجل - وقال في موته : خسارة لا تعوض

(١٨) شهادة صاحب السماحة الاستاذ محمد توفيق البكري

لما سمع السيد محمد توفيق البكري نبأ وفاة الاستاذ الامام وهو في أوربة لم يصدق الخبر فلما عاد إلى مصر أخبرنا بأنه لم يصدق الخبر إلا بعد عودته إلى مصر وعلل ذلك بأنه كان يخال ان الموت لا يتجرأ على الشيخ محمد عبده (١) وقال : لقد ترك الشيخ فراغا لا يسده أحد ، فانه كان كما قال المتنبي * مل السهل والجبل * ولو ترك مناصب الحكومة وعمل مستقلا لحدث انقلابا عظيما . وكان هذا رأى كثير من الناس

(١٩) شهادة ابراهيم باشا نجيب

قال ابراهيم باشا نجيب المصري وكيل نظارة الداخلية : إن الناس لا يعرفون قيمة الشيخ محمد عبده إلا بعد ثمانين سنة — أى بعد انتهاء جيلين في التربية الاجتماعية

(٢٠) شهادة محمد طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية بمصر

قال في أول مقالة نشرها في جريدة (اجبت) باللغة الفرنسية ما ترجمته
لقد خسرت مصر والعالم الاسلامي خسارة كبرى بموت الشيخ محمد عبده

(١) وقع هذا المعنى لكثيرين في الاقطار المختلفة ومنه ما كتبه الى أحد المعزين من مدينة الجزائر من انه كاد يقع للناس ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب (رض) في موت سيد الانام اذ قال : من قال ان محمدا قد مات ضربت عنقه . قال وان بعض العلماء لا يزال ينكر موته الى وقت ارسال هذا الكتاب

مفتي الديار المصرية ، وسيبكي خسارة هذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومذاهبهم فإنه كان من أكبر رجال الاسلام الذين كانوا يتقدمون ارجاعه إلى مجده السابق

(٢١) شهادة الدكتور عبدالعزيز بك نظمي

قال في أول تأييده له من مجلة الحكمة مانصه :

رزىء العالم الاسلامي في السابع من جمادى الاولى رزءاً لم يذق مرارته منذ طوت الايام حماة الاسلام الاول : رزىء في امام عظيم وعليم حكيم جمع إلى جهاد الخلفاء الاربعة في اقامة الدين والدنيا اجتهاد الأئمة الاربعة في تقويمهما رزىء في خير من سعى بعد رسول الله وخلفائه الراشدين في إعلاء كلمة الله وتجديد ما أخلقت لايام من فضائل الاسلام ودفع مقتريات أعدائه عنه ونفي البدع منه ... رزىء فيمن كان للهـدى علماً ، وللعلم مناراً ، وللتشريع حجة ، ولمصالح الامة حافظاً ، ولأيتامها أباً وأبي أب ... رزىء في فضيلة الاستاذ المامنة الشيخ محمد عبده رضي الله عنه وأرضاه

(٢٢) شهادة حافظ افندى واصف الادب القبطي المصري

قال في أول تأييده من مجلته المحيط « أجمع العقلاء من كل أمة في هذه الديار ان انتقال هذا الفقيه الكريم كان أعظم خسارة خسرتها الامة الاسلامية خصوصاً والمصرية عموماً في التاريخ الحديث » ثم بين ذلك

(٢٣) شهادة قاسم بك أمين في تأييده

إذا أصيبت أمة من الأمم الغربية بفقد رجل من رجال العلم أو الادب أو السياسة كانت تعتمد عليه في إصلاح شأن من شؤونها قال قومهم : ليس في الوجود انسان لا يعوض ووجدوا في الحال بين أهل طائفته او صناعته من يسد الفراغ الذي تركه ويأخذ مكانه ، أما الحال عندنا فليس كذلك - مهما قلبنا النظر ، ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في أمتنا من يعوض عنا ما خسرناه بفقد أستاذنا الشيخ محمد عبده ، لأنقول

ذلك محابة لصديق كانت محبته من اسباب الشرف والسعادة لشخصي، ولا موافقة للعادة المتبعة في رثاء المتوفين حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم، ومنحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم احد بشيء منها مدة وجودهم بين الاحياء. وإنما هذا هو الحق الذي يجب إعلانه اعترافا بمصري وصل إلى أسمى مقام لا يمكن أن يتأله انسان في هذه الحياة - مقام لم يستمد وجوده من منصب عال في الحكومة، ولا من رتبة رفيعة، ولا من ثروة طائلة، ولا من نسبة إلى بيت قديم، ولا من شيء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحل محل شرف النفس. مقام اهتدى اليه بشعوره، واكتسبه بمجده وعمله، وحافظ عليه بقوة إرادته وحسن سياسته، وخدم فيه بعلمه وعمله. مقام ممكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها، ويحركها نحو الخطة التي رسمها، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذي هيأه لها - مقام الامامة بأوسع معناها - تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجترأ على أن يدعي فيه استحقاقا بعده. الخ

(٢٤) شهادة احمد لطفي بك السيد العالم المصري

قال في حفلة تأييده في الجامعة المصرية سنة ١٣٤٠ في الكلام على مراكز مصر العلمي في مسابقة الامم الحية

على هذا الاعتبار يجب علينا أن نتخذ نهضتنا العلمية الحاضرة بشير الرجوع الى مضمار المسابقة العلمية العامة، وأن نوطد أنفسنا على العمل بجهد للاستعداد الى هذه المسابقة. ومن صنوف العدة أن ندين حقيقة مراكزنا العلمي، وايس مركزنا العلمي شيئاً آخر إلا تقدير ما أنتجت بلادنا من النوايع الذين هم أركان نهضتنا الحاضرة - أولئك هم مصابيح الماضي، تنبث منها أنوار الهداية الساطعة، فتكشف للحال طريقه الى الامام في ظلمات المستقبل، وأكبر هؤلاء النبغاء هو أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده.

(٢٥) شهادة سيد باشا زغلول الزعيم المصري الاكبر

قل لي اذا كان شيخنا قد عجز عن إصلاح الازهر وقد أوتي من العلم وقوة الارادة والمزم مالم تؤت فماذا يمكنني انا ان أفعل في إصلاحه

وكنت نشرت في الجزء الثاني من هذا التاريخ مقالة عنوانها (الشورى والاستبداد) على أنها من مقالات الاستاذ الامام في جريدة الوقائع المصرية فقال لي سعد باشا أنها ليست للامام وان سبب ترك امضائه لها ان الامام كان أمر محرري الوقائع وهو منهم بترك امضاءاتهم في ذيل مقالاتهم . وقل « انك اذا تأملت هذه المقالة تجدها دون مقالات الامام التي نشرتها معها في موضوع الشورى عبارة ومعنى وتحقيقا » فحذفتها من الطبعة الثانية لهذا الجزء .

ولو أراد سعد ان يكتب كلمة فيما يعلمه من مناقب أستاذه لتدون في التاريخ لكتب ما هو أبلغ من كل مارويناه عن غيره لانه أعلم من غيره بسيرته من أول نشأته الفاضلة ، إلى نهايتها الكاملة ، ومن أفدرهم على بيان ما يعلم .

(٢٦) شهادة أحمد فتحي زغلول النابغة المصري

كان أحمد فتحي باشا من أعلم الناس بعد أخيه ومربيه سعد باشا بمناقب الاستاذ ولو كتب في بيان امامته لجاء بما يلي ما كان يكتبه شقيقه سعد ، ولا أحفظ عنه كلمة مختصرة أدونها هنا إلا قوله : إنا كنا نسمع كلمة الحكمة من الامام فنظن اننا فهمنا ما يريد منها - وبعد اختبار السنين نعلم اننا انما كنا فهمنا مدلول اللفظ اللغوي دون ما رمى اليه من المقاصد الاجتماعية التي كشفها لنا الزمان اهـ

أشهد ان أحمد فتحي زغلول كان رجلا كبيرا بمعارفه المصرية وذكائه ولو ذعيت به وعلو همته ، وقدرته الادارية والقضائية - وأشهد ان سعد زغلول كان كبيرا في ذلك أيضا وانه يفضل أخاه في الاخلاق والشمال والارادة والثبات - وأشهد بالله ان محمداً عبداً أكبر من كل منهما ، وانهما كانا على معرفتهما بقيمة أنفسهما كانا يعلمان بأنه فوقهما في كل شيء ، ويعترفان به بكل شيء ، وانهما كانا يرجعان اليه في خطوبتهما ، ويتحاجان اليه في تنازعتهما ، ويكونان معه كالولد أمام والده ، والتلميذ بين يدي أستاذه وحسي هذا بديلا من كلمة بليغة من افظهما أدونها لها

خاتمة الكتاب

فيما يجب على الأمة لهذا الامام

أنبتت تربة مصر ألوفا كثيرة من العلماء والصلحاء والادباء والقضاة والحكام، ولكننا لا نعرف في تاريخها ذكراً لرجل جمع من فضائل العلم والعمل والصلاح والاصلاح مثل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مواهبه الفطرية والكسبية وكمالاته الشخصية، وفي صرف حياته العملية كلها الى اصلاح بلاده ووطنه، وترقية امته، وإعلاء شأن ملته، بدون عمل ما لنفسه وأسرته، فهو قد خرج من معاهد العلم الى ميدان الجهاد في هذه السبيل - سبيل الله تعالى - الى ان قضى في المعارك محبة، ولقي ربه، شهيداً بذلك العلماء الافذاذ على اختلاف علومهم الدينية والدنيوية والمصرية، واختلاف أوطانهم وملهمهم. وترى سيرته الشارحة لهذا مفصلة في هذا الجزء من تاريخه، وترى الشواهد عليها من كلامه ماثلة في الجزء الثاني له، والشهادات له فيها متواترة في الجزء الثالث منه -

مثل هذا الرجل العظيم يجب أن يكون مثلاً كاملاً يقتدى به في علو الهمة، وقوة الارادة، وفي العلم الصحيح، والعمل الصالح المصلح، وفي الجهاد لإعلاء شأن الأمة في دينها ودنياها، ومدنياتها وحكومتها، فالام لا ترقى إلا بامثال هؤلاء الرجال مثل هذا الرجل الكبير يجب أن تحيي الأمة ذكره، وتنشر حكمته، وتتخذ حجة لها في رقيها واستحقاقها للوقوف مع الامم الراقية، التي تدل وتفاخر بعلمائها النابغين وزعمائها المجاهدين وأئمتهم المصلحين. كما قال غير واحد من كبار المفكرين هذا الامام المجدد المصلح يجب على هذه الأمة التي نبتت من طينتها، ونبت في بيتها، فأعلى ذكرها، ورفع قدرها، أن تعلي ذكره، وترفع قدره، وتربي نابتها على أصول حكمته في التجديد الديني والمدني، والاصلاح الملي والوطني، ويجب على جميع شعوب الملة التي جاهد في سبيل اصلاحها، أن تساعد شعبه على ما يعمل لاهياء ذكره، ودوام الاستفادة من علمه ورأيه

ما كان هذا الشعب الكريم والذي يرضى لنفسه ان يوصف بالكنود لثمنه ،
ولا بالجحود لفضل المنعم ، ولا كان تلاميذ الاستاذ الامام ومريدوه بالابناء العاقين ،
ولا أصدقاءه ومحبيه بالفاقلين او الخاملين : فاما الشعب فلا يجاهد بدون قائد ،
وأما اصفياء الامام فقد فكروا في القيام بهذا الواجب عقب المصاب ، وعقدوا له
الاجتماع تلو الاجتماع ، وأقروا شيئاً حالت دون تنفيذ الاقدار ، وكان خصمهم
أمير البلاد ، ورقبيهم عميد الاحتلال ، ولا زعامة يؤيدها الرأي العام

توفي الامام وكان أكبر كبراء مريديه القادرين على تنظيم هذا العمل غائبين عن
مصر - أعني سعد باشا زغلول وأحمد فتحي باشا زغلول - فلما عادا من سفرهما
عقدا في دار الاول اجتماعا حضره من اصدقاءه الشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ
عبد الرحيم الدمرداش ، وحسن باشا عاصم ، ومحمد بك راسم ، وقاسم بك امين ،
ومحمد رشيد رضا (الكاتب لهذا) فقرروا أولا أن يشتركوا معي في الرأي ويساعدوني
على ما أعلنته من عزمي على تأليف تاريخ له وعلى نشره كما يراه القاريء في مقدمة
هذا الكتاب . ثم اجتمعوا وتشاوروا فيما يجب ان يعمل لاجلاء ذكره ، فأجمعوا
الرأي على إنشاء مدرسة كلية تنسب اليه وتكون التربية والتعليم فيها على رأيه ،
وهو ما كان يسمى له بعد تركه للازهر ، ويكون المنفذ لخطة فيها صاحب المنار

وإذ كانوا يملكون أن سلطنة الاحتلال نحسب لهذا العمل منهم كل حساب ،
عهدوا إلى أحمد فتحي أن يقابل لورد كرومر ويذكر له هذا القرار ، ويسأله عن
رأيه فيه ، لكيلا يكون على رية منه ، ويجيبهم بما يسمعه منه في جلسة أخرى
عينوا موعدها ، فلما وافوها الميقاتها قال لهم : ان اللورد أظهر الاستحسان لهذا الرأي ،
ولكنه قال ان من الحكمة أن يبدأ بهذا العمل صغيراً ثم يصعد فيه على سلم التدرج ،
وأن يجري فيه على خطة مدرسة (عليكده) في الهند التي أسسها المرحوم السيد احمد
خان الشهير ، وساعدته عليه الحكومة الانكليزية ، حتى صارت المدرسة كلية ،
قال ووعد اللورد بأن يطلب لنا من حكومة الهند نظام هذه المدرسة ومنهاج دروسها ،
لنأخذ منه ما نراه موافقا للمدرسة التي نريدها

فهمت اللجنة من فحوى رد اللورد انه لا يرغب فيما ترغب هي فيه من إنشاء

مدرسة كلية راقية على مذهب الاستاذ الامام، الذي اعترف هو بفضله ونبيله، ووطنيته الصادقة، وخدمته للمصلحة العامة، التي قال فيها: (ان الاوربيين ما فضلوا المصريين إلا بكثرة رجالها) - وباعتدال حزبه بين الاحزاب الاسلامية، وجمعه بين اسباب الحضارة والمحافظة على اصول الدين الاسلامي. وفهمت منه أيضا انه ينبغي أن تكون المدرسة العبدية، كما يجب هو وترضى دولته اي كالمدرسة الهندية استاءت اللجنة من هذا الرد ولم يثنها الاستياء عن عزمها، بل فكرت في جمع المال لانشاء المدرسة بصفة مصفرة كما قال اللورد لانه هو الممكن، وانتظار موافاة الزمان لتكبيرها، ورأت من الشيخ عبد الرحيم الدمرداش المتري أريحية للبدء في التبرع للمشروع، ففوقت المزيمة، حتى ان اللجنة عهدت إليّ بالبحث عن دار صحية لتستأجرها للمدرسة، ففعلت

ولكن حدث في اثناء ذلك ان تبرع مصطفى كامل بك الغمراوي بخمسمائة جنيه لمشروع مدرسة جامعة مصرية، وعهد الى سعد بك زغلول بان يتولى الدعوة الى التبرع له والسعي لتنفيذه هو ومن يختار من اصدقائه وغيرهم، فقبل وألف لجنة لذلك سمي هو وكيلها، وتركت الرئاسة ليختار لها احد الامراء

وتلا هذا ان ولي سعد باشا وزارة المعارف العامة، فاضطر الى ترك لجنة الجامعة المصرية، واختير صديقه قاسم بك امين وكيلًا للجنة إدارتها مكانه. وكان ذلك بعد سنة من التصدي لانشاء المدرسة باسم الاستاذ الامام، فلم يبق لهذا المشروع من يشتغل به، وكاد هذا الرجل العظيم ينسى هو وأستاذه السيد جمال الدين، لولا تنويه المنار به في كل جزء من اجزائه، وتنويهه بالسيد أيضا في بعض الاجزاء ونشر بعض آثاره المطوية، وطبع الجزء الثاني والثالث من هذا التاريخ، وقضى الله تعالى أن أرجي. إتمام الجزء الاول منه المفصل لترجمته، بما يرى القارىء اسبابه في مقدمته، ولولا انني من أضعف خلق الله تعالى في السعي لجمع المال وان كان المراد به شريفاً ونافعاً، لما تركت السعي لانشاء المدرسة، وقد كان اقرب الوسائل له في السنين الاخيرة توجه قلب محبة الشيخ عبد الرحيم باشا الدمرداش رحمه الله تعالى إلى البذل للمنافع العامة، فلو وجد في هذه الحالة احد من كبراء حزب الاستاذ

الامام المدني يزين له إنشاء المدرسة التي كان من اعضاء اللجنة التي قررتها ، ويرغبة في حبس عقار أو أطيان تفي بنفقتها ، لفعل

سكت أصحاب النفوذ والجاه من اصدقاء الاستاذ الامام عن القيام بالواجب له عليهم ، ولكن الرجل حي لا يموت ، ولا ينسى فضله ، في امة يعلمو فيها قدر العلم والحرية ، ويزداد السعي للحياة القومية والوطنية

فهذه مدرسة الجامعة المصرية ، التي عارض وجودها وجود المدرسة العبدية الامامية ، قد اعادت منذ بضع سنين الاحتفال بذكره ، فقام به فيها لجنة مؤلفة من نابغي علماء الازهر وبعض الوجهاء ومدرسي الجامعة ، فحرك عملهم الجرائد لاعادة التنويه بذكره ، وتعطير الآفاق بذكي نشره . وتبرع الشيخ عبدالرحيم باشا الدمرداش في اثناء ذلك بما يؤتي الجامعة غلة سنوية كافية لنفقة إنشاء كرسى لعلم الاخلاق تخليداً لذكرى الاستاذ الامام فيها . وتلا ذلك اقتراح كثير من فضلاء الامة لاحياء ذكره ، فأشار بعضهم بترميم داره في عين شمس وجعلها من معاهد العلم او الاعمال الخيرية العامة ، وبعضهم غير ذلك

ولما اسندت مشيخة الازهر ورياسة المعاهد الدينية إلى صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي وهو من خواص تلاميذ الاستاذ ومريديه في العلم والعقل والاخلاق ، ألف في دار الادارة العامة للمعاهد لجنة خاصة لاجل البحث في امثل الطرق لاحياء ذكره في الازهر وغيره ، وجعل أعضائها من تلاميذه الازهريين وسواهم ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب ، فاجتمعت اللجنة مراراً . وكان من سوء الحظ كما يقال أن استقال هذا الاستاذ من المشيخة ورياسة المعاهد الدينية قبل أن تفرغ من المساعي التمهيدية ، وتقرر مايجب تنفيذه وينظم في سلك الاعمال الرسمية وأخيراً قرر مجلس مديرية دمنهور إرسال بعثة علمية إلى ألمانيا باسم الاستاذ الامام لاجل الاختصاص في علوم فلسفة الاخلاق والتربية والاجتماع ، وجدت ادارة المعاهد الدينية تقرير قراءة رسالة التوحيد درسا في الازهر وملحقاته ، وانما كان هذا لكثرة فوائدها ، لا لاحياء ذكر مؤلفها

لكن هذا شيء ، قليل على الامة المصرية ، وقد صارت أمة ذات رأي ووحدة ، وبذل

في سبيل المصلحة العامة، وكان قطب رحي وحدتها، والعامل الاكبر في جمع كلمتها، والزعيم الاكبر لها فيها، هو تلميذه ووريثه الاول سعد باشا زغلول: فمنه تلقى هذه الافكار، ومن زنده استورى هذه الآثار. إذ تربي في حجره بالدرس والتفكير والقول والعمل. وكان اوفى مرديه وأصدقائه له في زمن محنته، وأشد هم حنيننا اليه في مدة غيبته، وأشوقهم إلى اتباعه واللاحاق به، وقد نشرنا بعض مكتوباته اليه في منفاه ببيروت وفيها التصريح بهذه المعاني، وانا نثبت هنا صورة شمسية من خطه للكتاب الذي تقدم نشره في صفحة ٢٧٥ فن لم يستطع قراءته هنا لتصغير كالمه فليقرأه هنالك، وننشر صوراً لمكتوبات أخرى له بخطها الاصيل في أول الكتاب

١٠٦٩، ١٠٦٩، ١٠٦٩

مؤدى المفضل، والى الكس همداد

بسمه تعالى الربى فكرية قدوة. وانما بالكم على طول شوقنا اليه فنواه وورعنا في القول. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
بكم كرام اعياض السميد. واما جدي في الزمنية من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
وعظيم الوجدان في طينتنا. واما جدي في الزمنية من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
بالجمود وقتلت في جدي في الزمنية من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
نوهنا الى اليك جدي في الزمنية من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
ذلك استجاء لساننا. والى الكس همداد. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
واجب الماد جدي في الزمنية من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
بسمه تعالى الربى فكرية قدوة. وانما بالكم على طول شوقنا اليه فنواه وورعنا في القول. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
ما وقع فينا من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
وغيرهم في جدي في الزمنية من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
مردى ذوت لطفه. والى الكس همداد. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
ونشهد بسمه في الزمنية من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات
انك ما جدي في الزمنية من ايامكم من معرفتنا. كم جدي في الامم والجنات. وحررنا على ان نرفع هذه اليا رسله جلاله في الامم والجنات

(كلمات من مكتوبات سعد باشا لاستاذ الامام)

كان الامام كلف سعداً بعض الاعمال ومنها ارسال اثاث من بيته بمصر إلى بيروت، فقام بذلك خير قيام فاثني عليه بكتاب فقال سعد في جوابه :
« اني وما أعمل من خير مما صنعت أيدي مكارمكم فلا أستحق شكراً ولا حمداً، بل إن كان هناك ما يدعو إلى المديح فالحمد راجع اليكم، والشكر عائد عليكم، واني أعد الفخار كل الفخار في خدمة جنابكم العالي، وأجد تنبيهي الى القيام باي خدمة نعمة سامية من حضرتكم لا أقدر على الوفاء بواجب شكرها، وعلى هذا

فولاي يرى في اسناد التفضل والتكرم والاحسان إلى زيادة تنازل منه لا أرى نفسي جديرة بها ، وعهدي بالمولى الجليل أن يتحرى بكراماته موقع الاستحقاق « وأظن أن حضرته يذكرك أي في يوم من الايام التي نزلت بها في بيته ذا كرتة في هذا المعنى ، ورجوت من مكارمه أن يجعل طلبه أي أمر مني بصيغة الامر لا بلفظ الرجاء ، فاني أرى في الامر الاول فوائد ترتاح نفسي اليها لا أراها في الثاني » وكتب اليه الامام كتابا يذكر فيه استبشاره بما رآه في جريدة البرهان ، دالا على فوزه ببعض الاعمال ، فاجابه سعد عن هذا بقوله :

« ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، وبحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم ، فهو المتربي في نعمتكم ، المغترف من بحار حكمتكم ، المحفوف بعنايتكم ، المشمول بعين رعايتكم ، البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب السكمال بحسن توجهاتكم ، وكرم تعطفاتكم ، أدامكم الله لكل خير مبدأ »

فاذا كان الزعيم السياسي الاكبر يعد نفسه أنرا من آثاره ، وشعلة من ناره ، وقبسة من أنواره ، وكان يعتقد ان ما بلغه وما يبلغه في المستقبل من المراتب فهو أثر تربيته ، وثمر نعمته ، ويمضي كتيبه اليه بكلمة ولدكم أو صنيعكم ، وإذا كانت الحكومة المصرية قد قررت زهاء مائة الف جنيه لبناء قبره ، ووضع تمثالين للتذكير بشخصه ، أفيعثر منها أو يكبر عليها ، أو على الوفد الممثل لسياسته ، والعامل باسم زعامته ، ان يقوم بإنشاء مدرسة تنسب إلى اسم استاذهم ومربيهم ، وبإعادة تعليمه وتربيته ، ونشر رسائله وكتبه ؟ كلا . انه قد آن للامة وقد صار لها زعماء تنقاد لهم ، ومجلس نواب يسيطر

على حكومتهم ، وكتاب بلغاء يدعون إلى المصلحة العامة ، وخطباء مصاقع يهزون قلوب الخاصة والعامة ، أن تراجع مناقب هذا الامام التي فصلناها في هذا التاريخ وتقرر ما يجب عليها من إحياء ذكره ، والاهتداء بأرشاده ، وبناء أساس التربية والتعليم الديني والمدني على أسس قواعده ، وتعاون أحزابها وحكومتها على تنفيذ ما قررت ، في الوقت القريب المناسب له ، فانها هي القواعد الحكيمة التي تحفظ لها عقائدها وأخلاقها ، وتكوين بيوتها (عائلاتها) ونماء ثروتها ، وترسخ دعائم استقلالها ، وتجعلها قدوة للبلاد العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي اعترف

عقلاؤها لهذا الاستاذ العالم، وأستاذ الفيلسوف الحكيم، بالزعامة المدنية والسياسية، والامامة الدينية، والتوفيق بين الجامعتين المليية والوطنية
فلو لم يكن لهذه الامة الفخر على غيرها بظهور هذا الامام المجدد منها، لكانت
جديرة بان تتبع تعاليمه الحكيمه لعظم فوائدها، ولما تمطيتها من الزعامة التي لا تنحصر
منافعها منها، وأعيد التذكير بما هي مستهدفة له من خطر الانحلال، المهدد لما
نالت من مبادئ الاستقلال، بانتشار الفاسد المادية، والفوضى الادبية، والانفاس
في الشهوات، والاسراف في الذات، المضي لثروة البلاد، المضي لصحة الاجساد،
الزهد في الزواج، المضعف للنتاج

بل أذكركم بما لا يعزب عن علمهم من اضطراب العالم كله بهذه الفوضى التي
ثلث أكثر عروش الممالك، وأشعلت نار الفتن الداخلية في كثير من الامم، وغاضت
ينابيع ثروة غالب الدول، وأنذرت الروابط الاجتماعية بالانحلال، وعرى الشعوب
الموثقة بالانفصام، وثروة الاقوام الغنية بالزوال، ثم أذكركم بأنه لا يثبت في مهبط هذه
العواصف إلا الراسخون في الايمان، ولا يصبر على هذه القواصف إلا المتصمون
بمآنة الاخلاق، وهو مأمهدهم مسالك الاستاذ الامام، وجعل تناوله على طرف النمام

بل حدث في هذه الاعوام، بوادر انقلاب عام، يرقبه الحكماء، ويشعر به
البصراء، وقد فطن له بعض أذكائنا في سياحته في أوربة، وهو الشعور بشدة الحاجة إلى
هداية الدين، وكونه هو العلاج الوحيد لهذه الأدوية الاجتماعية الوبائية من إباحة
الاعراض، وفوضى الآداب، وعبادة المادة والشهوات، والتنازع السيامي، والنظام
البشري، التي تنذر الشعوب زوال الحكم الديمقراطي، وأهيار النظام المالي أو الرأسمالي.
بل تهددها بحرب شر مما قبلها، كالريح العقيم تدمر كل شيء بأمر ربها. وقد وصف
هذا الذي مارأي وروى عن أوربة من درء هذا الخطر بالدين، وتمنى لو يظهر الدين
الواقى للحضارة الحاضرة من مصر، لكن فضلاء العقلاء في مصر يرون أن بلادهم أشد
حاجة إلى هذا العلاج من أوربة، فإن هذا الوباء يفتك بها وهي أقل مناعة وحصانة
من سرت إليها العدوى منهم، وإنما تفضلهم بأن العلاج موجود فيها وهي في غفلة عنه،
بل لما تشمر بالحاجة إليه، وهو القرآن، وما بينه من سنة محمد عليه الصلاة والسلام

تنبأ حكيمنا هو وأستاذه منذ نصف قرن بأن شعوب أوربة ستشعر بالحاجة الى الدين المصلح المعقول ، فتطلبه فلا تجده إلا في القرآن فتأخذه بقوة كماداتها ، حتى لا يبعد أن يضطر المنسوبون اليه من أن يعودوا إلى طلبه منها (راجع ص ٩٣٩) فان كانت مصر تريد أن تكون أهلاً لا نقاذ أوربة من فوضى الاباحه والمادية التي تتردى هي فيها من ورأبها ، فانها تجد الوسيلة اليها في تعاليم إمامها ، فلتسبق اليها وتجربها في إنقاذ نفسها وها هو ذا أكبر رجال الدين فيها عقلاً ، واسد هم رأبها ، وهو الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي ظهر نبوغه في أرقى المناصب الدينية فكان قاضي قضاة السودان ورئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر فشيخ الازهر ورئيس المعاهد الدينية ، فقام بها خير قيام - ها هو ذا يفتيها بترسم خطوات الاستاذ الامام وهذا نص ما كتبه في ذلك : «أعتقد اننا اذا جاوزنا عصر السلف الصالح لأنجد رجلاً رزق فيها في هداية القرآن ، ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانية مثل الامام محمد عبده . ولقد وهبه الله شروط الامامة الدينية جميعها ، كما منحه البصر في أمور الدنيا ، ومن الحق على المسلمين ان يترسموا خطواته بالاصلاح الديني والديني ، اذا أرادوا إعزاز دينهم ، ورفع أبنائه في دنياهم . »

وانني أختم هذا الكتاب الذي قضيت به ديناً أدبياً كبيراً كان على مصر بتدوين تاريخ الامامين المجددين اللذين يرجع اليهم مفضل نهضتهم المعنوية ، كما يرجع إلى محمد علي الكبير فضل نهضتها المادية ، باقتراحي عليها قضاء الدين الآخر الذي لا قبل لي به ، وهو العمل بما أرشد اليه الحكماء بالتربية والتعليم ، وإحياء ذكرهما بتعميم تاريخهما وآثارهما ، وإنشاء مدرسة لذلك باسم الاستاذ الامام ، وترميم داره وجعلها من المنافع العامة ، فهذا دين يجب على مصر أدائه على اختلاف أحزابها ومذاهبها ومشاربها ، لان الامام كان للجميع باتفاق الجميع

أحمد الله عز وجل أن أدت الأمانة وبلغت الوصية ، ووفيت حق أستاذي وصديقي ، ونصحت لأمتي ووطني ، وهو كل ما أملك مما فرضه علي ربي للتي (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب) وسلام على المرسلين ، وعلى من اصطفى من عباده المصلحين ، والحمد لله رب العالمين .

عمارة

﴿ فيها رسوم شمسية لكتب خطية من زعيم مصر الاكبر ﴾

سعد باشا زغلول

الى شيخه ومريه الاستاذ الامام أيام كان

في بيروت

ترجم شمسي الكتاب من بعد باشا زغلول بمصر إلى شيخه وسميه الاستاذ الامام في يدوت في ٨ جادى الاولى سنة ١٣٠٠ هـ

مردى ان نفسى وراى الاول احسنه تبار

اكتب الى السيد استاذى وعبه تقبلي به الشريعة هدية منى بطلان النى لم يكتف به ترارة هاهى ضامن شاع اليدا وروى شافى اللبى انى صنفنا بالجرعة ونا ارضه
المع مع الاعضا ونا به هدية لى شيب هدية المكلمات بوللى والبركة بوللى على بيبى المير التماس انشا وديعده ابراستنا الجزا انما كيه كيه فى انحصانه ربه شقيقه
بالدنا به مفصل وادام به بعد على حيز حكمة اننا فى نكر كتاب هدى لهم آباء الجوز ودرنا اننا فى طائفة الهدهد وراى انك شافى طفا نكر الاله سور الا ردى
الى سبيل ارشد والى طراط مستقيم فزناه سرور العبدى شافنا سرنا ه وندى سنده سنده كبره فبى منباه فانه وادى بانا بهى سورده وبقينا
كاهن من الكهنة وشركا له على صوته مداهده دامت ناسية وارثه الطمدل وتدمم انما انهم بيبا به بهى كى الله اى اللام النبى وارسوه لغيره
المروزة وادوا با به النجدة ونا لهم سدا لى العلى ونا بيبهم منه نيام العلى فرى كى انهم على صفات الهدهد وصفظنا انهم لفظا لهم فى الهدهد وشرفنا كى
لده شريف الهدهد نا برز با هم لى كفت هاهنا نا كبره اعده لهم ونا با هم وما فشا حى فى الفناجى العلى لى صفى تلى كيه وراى كانت كلفت فى الالهدهده
الى فقرة البيا به لغيرهم كتاب مصر وسند حكمة وعظمت كانية بذلة فى الالهدهده على راحة نفوسهم وطرارة فديهم وكبريتهم لهم وبعثت
عظمهم وكباهه شيبهم ونا فوجبه ما تى منه الفنا ونا اصدده فغيرهم الى سبابا على فدا واديه بيبك الالهدهده فى فنانا كى فوجوه الالهدهده فى الوقت سكتا

1075

ايه طينكم بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 چنين است كه بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 رخت كنيد و بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 بالذره حريقه بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 اسما عيل الذي است غايه الاضماره ما استصعوه به في حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 استحيات و انوارها طهرات الطينكم ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 الله شانه لاسحق و حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 من كبريتكم صفيكم الله احد الله الطهرية انما اعلم بكم في حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 اذ احده لدرينكم و بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر
 ستا بهم ايه ابره و كم كبريتكم ايه و بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر تصوير ياب و كبر طهر طينكم ابره ها به طهر المظفر بنابر آنچه در حريقه ابره ها به طهر المظفر

ط

[illegible]

(رسم كتاب ثالث من سجد باشا إلى الاستاذ الامام رجهما الله تعالى في ٢٧ ج سنة ١٣٠٠)

حرفه الارسا نر الما فل والمولى الكا س

وسيد قيسى البالدية ففدور ، علينا شأكم الموقر ج ١١ ج والموقر ج ١٨ ج وسررت غاية الردر با اهتم علينا ، مه اهتأ الموقر ج الت حفظنا ها
في البيوت و هتينا بولانها من الموقر ج الما فظم لنموه على الموقر ج غضب الما فظم ولا بد في ذم ضال الكمال ومكة المجدول و ارموز الموقر ج ومثواه
الديعب - وارت انه تعرضت لما جهنم الموقر ج فمضنا الله تعالى لبنا به بالسنن العظيم والموقر ج رشا لنا من غنى بلزيم الما فظم و رجا ت ترا فظم
آ ماله اظف على قتال السب فحبرية الجهر صفنا الى لم فظم والموقر ج وفكاه الى الموقر ج الجيسى في فخر الموقر ج على هتينا فظم طبا فظم وفد اينا لفظا ل
اخرى هذه الة في هذه الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج
ورده في آخرها شير ساد - فظم الموقر ج ما برجب فظم الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج
الانليل الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج
فك في هذه الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج
في الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج
الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج الموقر ج

[illegible]

فرہارسی

الجزيرة الکبریٰ

من تاریخ

الاستیاذ الامام

الشیخ محمد عبده

(الفهرس الاول لمواد الفصول وما فيها من المقدمات والمقاصد والخواتيم)

(تصدير الكتاب)

بيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام ، وشيخنا
الاستاذ الامام، ووجه الحاجة اليه، ووجوب المحافظة عليه

المواد التي اعتمدنا عليها في هذا التاريخ

المقدمة، وفيها بيان سبب تأخير هذا الجزء، وصفة تأليفه، وموقعه عند صنوف قرائه

٩ فاتحة ما كتبه الاستاذ الامام من تدوين سيرته

١١ ما دعا اليه من الاصلاح ، وهو جدير بأن يحفظ لفظه ولا ينسى معناه

١٢ جهده بمقاومة الاستبداد في أيام صلاته

١٣ الفصل الاول منه ، أهلى

وكلامه فيه على والده ووالدته وأصل بيتهم وظلم الحكام لهم

١٦ كلامه في شرف النسب والادب وسبب ضياع الانساب

١٨ كلامه في التربية والوراثة

١٩ مفسدة تفضيل الجوارى على أهل البيوتات

الفصل الثانى

٢٠ نشأته وتربيته وطلبه للعلم

٢١ تربيته الصوفية وشيخه الشيخ درويش فيها

٢٥ لقاءه للسيد جمال الدين واتصاله به

فهرسة سيرة السيد جمال الدين

٢٧ ترجمة الاستاذ الامام للسيد جمال الدين

٣٥ مقاله في حال مصر قبل السيد جمال الدين

٣٧ السيد جمال الدين موجد النهضة السياسية الاجتماعية بمصر

٣٩ ترجمة أديب بك اسحاق لجمال الدين

٤٢	ترجمة سليم بك العنحوري له
٤٩	نخطة الاستاذ الامام للعنحوري في الطعن بجمال الدين واعترافه بخطئه
٥١	سبب الطعن على السيد جمال الدين
٥٤	السيد جمال الدين في إيران ، والعداوة بينه وبين الشاه ومسألة حصر التبك
٥٦	(مكتوب من البصرة إلى السامرة)
	(وهو ما أرسله السيد جمال الدين الى ميرزا حسن الشيرازي رئيس مجتهدي الشيعة يرجعه به على الشاه فاضطره إلى إلغاء الامتياز باحتكار التبك لشركة انكليزية)
٦٣	مقالات السيد في تحريض العلماء على خلع الشاه
٦٩	أحوال فارس الحاضرة (مقالة له)
٧١	السيد جمال عند السلطان عبد الحميد وكلامهما في شاه العجم
٧٣	(مذهب السيد جمال الدين السياسي)
	وفيه كلام الاستاذ في عمله السياسي ، وتأسيسه الحزب الوطني بمصر
٧٦	نفي السيد جمال الدين من مصر بسعي فراسة وانكارة
٧٧	كلمة توفيق باشا للسيد جمال الدين في تعليق أمه به
٧٨	الانارة إلى مقصد السيد من السودان وسيأتي شرحه
٧٩	(فلسفة السيد جمال الدين)
٨٠	كلمة الاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات
٨٢	(رأي السيد في الاصلاح الاسلامي)
٨٤	عشق المؤلف السيد وكتابيه اليه
٨٨	نهاية أمر السيد في الآ ستانة
٨٩	صورة السيد قبل مرضه
٩٠	» » بعد العملية الجراحية في فمه
»	عتاب الشيخ أبي الهدى لي على مدحي للسيد
٩١	مرض السيد ووفاته ونعي الجرائد له
٩٤	تأبين الشيخ اليازجي للسيد جمال الدين ، وفيها ترجمة له باللغة الفرنسية
٩٩	ترجمة مجلة الهلال للسيد

عود إلى تاريخ الاستاذ الامام

١٠٢ دخول الاستاذ الامام الامتحان في الازهر

١٠٣ طلبه للعلم بعد التدريس وشهادة العالمية

١٠٤ تعلمه اللغة الفرنسية وما كتبه فيه

الفصل الثالث

١٠٦ في تربته الروحية وتصوفه

١٠٩ استطراد في حقيقة التصوف وكتبه وتاريخه

١١٣ الموازنة بين الصوفية والفقهاء وبين هدي السلف

١١٦ قول ابن خلدون في الصوفية وغلاهم وغلاة الرافضة

١١٨ الكرامات والكشف والشطحات

١٢١ كلام ابن تيمية في أصناف الصوفية ومراتبهم الثلاث

١٢٣ ما سرى إلى صوفية المسلمين من صوفية الهنود وغيرهم

١٢٤ ضلالات الصوفية وبدعهم ونوعان

١٢٥ تحرير التصوف الشرعي بكتاب (مدارج السالكين)

١٢٦ مكانة الاستاذ الامام من التصوف

وفيه إنقاذ السيد الاستاذ من الفرق في خيال التصوف

١٢٨ أحوال الصوفية وغرورهم، وغرور الناس بهم

١٢٩ تعذر أو تسر إصلاح طرق الصوفية

١٣١ الفصل الرابع

في الطور الاول من حياته العملية وهو ما قبل النفي وفيه تمهيد وخمسة مقاصد

تمهيد للفصل في حفظه بما يكون به الرجل عظيمًا

(المقصد الاول من الفصل الرابع)

١٣٣ تدريبه وبدؤه بإصلاح التعليم في الازهر

١٣٤ حادثته مع الشيخ عlish في الازهر

(المقصد الثاني منه)

١٣٥ تدريبه في مدارس الحكومة

(المقصد الثالث منه)

١٣٧ عمله في إدارة المطبوعات والجريدة الرسمية - وتمته فيمآتي من تلخيص كتابه في الثورة العرابية

(المقصد الرابع منه)

١٤٠ عمله في مجلس المعارف الاعلى

(المقصد الخامس منه)

١٤٥ عمله ورأيه في الثورة العرابية

١٤٨ خطبته في وجهاء العرايين مخطأً ومجـ لاهم واثارهم بقتله

١٥٠ قصيدته في الثورة العرابية

كتاب الثورة العرابية له

١٥٧

١٥٨ خطابه للخدو في أول الكتاب

١٥٩ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة

١٦١ مقدمات الثورة من سيرة اسماعيل باشا

١٦٢ الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا

١٦٤ مبدأ الفوضى في الجند المصري

١٦٥ نفوذ الاجانب بمصر وأسبابه وغايته وفيه حكم وعبر بالغة

١٧٠ وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة

» أول إصلاحات رياض باشا لإبطال السخرة بنوعها

١٧٢ عدل رياض في توزيع مياه النيل وإلغاء الضرائب

١٧٣ وضعه ميزانية للحكومة وإبطاله للكرماج والحبس لتحصيل الحقوق

١٧٤ قانون النصفية

عمر في المطبوعات

(وصفه له في كتاب الثورة العراقية ، وهو أغرب أعماله وأدناها على عبقرية)

- ١٧٦ وضعه الأئمة قلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فيها
(وفيها إلزام جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى بإخبار إدارة المطبوعات بجميع أعمالها - والمحاكم أن ترسل إليها جميع نتائج أحكامها . وان لإدارة الجريدة الرسمية حق انتقاد كل عمل تراهم متقدماً حتى أعمال وزارة الداخلية !!)
١٧٧ انتقاد الجريدة الرسمية لطريقة التحرير في الحكومة وتأثيره في إصلاحها
١٧٩ انتقاد الأستاذ رئيس التحرير لانتظار المعارف وتأثيره في إصلاحها
١٨٠ تأثير انتقاده الأعمال العمومية في الإصلاح العام

دار الكتب العربية ودار العلوم

- (سمي بتأثير الجريدة الرسمية إلى التقريب بينها وبين الأزهر وإصلاح التعليم بما يحمي البلاد ويرقي الأمة)
١٨١ إصلاح نظام العسكرية والمحاكم
١٨٢ (سيرة الحكومة بالأجيال والحديثون وفق والوزير رياض بالتفصيل) من كتاب الثورة العراقية
١٨٣ شمائل رياض باشا ومعارفه وأخلاقه منه
١٨٤ تأثير سيرة رياض باشا وشماله في مقدمات الثورة منه
١٨٨ (سيرة الحديثون وفق المفضية إلى الثورة) منه
١٩٠ إثارة الحديثون الضباط على وزيره رياض منه
١٩١ أسباب تأليب الضباط المفضي إلى الثورة منه
١٩٢ مظاهرة الملا المصري للضباط منه
١٩٥ بدء الثورة بحادثة قصر النيل منه
١٩٧ تشجيع معتمد فراسة عرابي منه
١٩٨ نتيجة ما سبق من تبين أفكار عرابي ومشايخه ورياض والحديثون فيه
١٩٩ أغراء فنصل فراسة للضباط بالثرد وإخراجه من مصر منه

٢٠٠	محاولة الخديو تلافي شرتمرد الضباط (منه)
٢٠١	حال عرابي النفسية وخوفه وجبنه وعمله (منه)
٢٠٣	(مسلك الخديو وحاشيته مع الضباط) (منه)
٢٠٧	طلب عرابي مجلس نواب وسيديه (منه)
٢١٠	مسألة الضباط التسعة عشر (منه)
٢١١	النفير والمنزل في الضباط لتوحيد القوة (منه)
٢١٤	قوة ناظر الجهادية ومأمور الضبطية (منه)
٢١٥	تربية الامم وطاعة الجند (منه)
٢١٦	مقاصد سلطان باشا وصفاته ومساعدته اعرابي (منه)
٢١٧	(مناوأة الاستاذ الامام للعرابين ورأيه في الاصلاح)
٢١٩	حادثة عابدين وبها ينتهي تاريخ ما كتبه الاستاذ الامام في أسباب الثورة
٢٢٥	(الشيخ محمد عبده العالم الصحفي المحرر)
	ما كتبه المستر بروذلى محامي العرايين تحت هذا العنوان من كتابه (الثورة العرايية)
٢٣٢	شهادة بروذلى بان مصر لا تستغنى عن مثله اذا قدر لها الاستقلال
٢٣٣	خيانة سلطان باشا لمصر
٢٣٤	مذكرات الاستاذ الامام في الثورة والحرب
	وهي مائة مسألة ونيف نذكر عناوين أهمها
٢٣٥	سلطان باشا - حياته
٢٣٧	مذكرات أواخر سنة ٨١ عن الثورة
٢٣٩	» سنة ٨٢ »
٢٤١	مسألة الشراكسة وغش القنصلين للخديو
٢٤٢	المذكرة التي استعفت الوزارة عقبها
٢٤٣	المشير درويش باشا مندوب السلطان
٢٤٥	تسلح الاوربيين استعداداً للمذابح
٢٤٦	بدء المذبحة في الاسكندرية

﴿ عمر باشا لطفي محافظ الاسكندرية وخيائته لوطنه وعبوديته للخديو ﴾

- ٢٤٧ هو الذي سبب مذبحة الاسكندرية
- ٢٤٩ طلبه انزال عسكر انكليزي الى الاسكندرية بحجة عجز عرابي عن حفظ الامن
- ٢٥١ (كلمة الخديو توفيق في حرق الاسكندرية)
- ٢٥٢ وصف المهاجرة من الاسكندرية بعد حرقها وضربها
- ٢٥٤ كتاب تاريخي من الخديو الى عرابي ورد عرابي عليه
- ٢٥٥ عزل الخديو لعرابي
- » الجيش المصري ومتطوعته والجيش الانكليزي
- ٢٥٦ آراء عرابي في حالته وفي عدم الثقة بالفرنسيين
- ٢٥٧ انخداع عرابي بغش دسيس الفرنسي له وتركه لقتال السويس
- » أخبار القتال بين المصريين والانكليز وضعف عرابي وجيشه
- ٢٥٨ عود إلى خيانة سلطان باشا برشوة العربان بمال الانكليز ضد عرابي

﴿ فوائد ما كتبه الاستاذ الامام في المسألة العرابية ﴾

- (وهي بضع عبر في سوء تصرف الاوربيين في البلاد المصرية وجهل أمرائها بطباع الامم وحقوقها وأخلاق البشر وسياستها وخلو البلاد من الزعماء العقلاء المخلصين والفرق بين الاستاذ الامام وسلطان باشا في سيرتها في الثورة - واحتقار الخديو وحاشيته ووزرائه وكبار ضباطه الاعاجم المصريين - وكون الشعب المصري قام بكل ما يمكنه من الواجبات في الثورة - وسوء تصرف الدولة العثمانية فيها - ورأي الاستاذ الامام في رياض باشا وعرابي باشا)
- ٢٦٦ (خاتمة هذا المقصد في اتهام الاستاذ وسجنه والحكم عليه بالثني من مصر)
- ٢٦٧ الكتاب البليغ الذي أرسله من السجن لاحد مريديه يصف به الحال المظلمة
- ٢٦٨ ما ذكره فيه من سعاية اللثام به بكتابة تقرير في الطمن عليه
- ٢٧٠ وصفه لمواطنه في السجن
- ٢٧١ رده على تقرير سعيد البستاني ورقاقه الوشاة
- ٢٧٢ وصفه لصنائه ومقابلة الاساءة بالاحسان
- ٢٧٣ نقتله بمستقبله وحسن نيته فيه

الفصل الخامس

٢٧٤

(في الطور الثاني من حياته العملية مدة النفي ، وفيه مقدمة ومقصدان)

٢٧٤ المقدمة في نفيه وحفاوة أهل بيروت به

(بعض مكتوبات سعد زغلول النذب الهام ، إلى مربيه الاستاذ الامام)

٢٧٥ الكتاب الاول وهو مرجوع ما كتبه اليه الامام من بيروت عقب وصوله اليها

٢٧٦ مكتوب آخر من سعد زغلول له

٢٧٨ اعتذار سعد عن شكوى الامام من طعن الشيخ عبدالكريم سلمان عليه

المقصد الاول من الفصل الخامس

٢٨١ عمله مع السيد جمال الدين في أوربة

٢٧٢ كتاب السيد جمال الدين للاستاذ من بور سعيد

٢٨٣ جمعية العروة الوثقى السياسية السرية

٢٨٤ قانون الاصول العملية للجمعية

٢٨٧ اليمين الذي يحلفه المرتبطون بالجمعية ، وهو جدير بتأمل كل مسلم وتدبره

واستشعاره عظمة الايمان الوجداني الذي صدر عنه

٢٨٩ الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية والوطنية

٢٩٠ (فاتحة العدد الاول من العروة الوثقى)

وفيه قواعد اجتماعية عامة تمثل داء الشرق ودواؤه ، والخطر على الانكليز

من تألب الشرق ولا سيما المسلمين عليهم وتمثيل المسألة المصرية والاحتلال

الانكليزي بصورة مبهجة نيرة

٢٩٦ منهج الجريدة

(رعب الانكليز من العروة الوثقى ومقاومتهم لها)

٢٩٩ ماقالة الجرائد الانكليزية في العروة الوثقى (منها)

٣٠١ قرار مجلس النظار المصري في منعها (منها)

- ٣٠٣ ﴿ تأثير العروة الوثقى في العالم الاسلامي والشرق ﴾
- ٣٠٦ ﴿ مقاصد العروة الوثقى الاربعة ﴾ (١) الجامعة الاسلامية (٢) الرابطة الشرقية (٣) المسألة المصرية (٤) المسألة السودانية
- ٣٠٦ ﴿ مذهبها في الجامعة الاسلامية ، ونموذج من مقالاتها فيها ﴾
- ٣٠٨ مقالة الجنسية والديانة الاسلامية منها
- ٣٠٩ الصفات التي تقوم بها الخلافة الاسلامية
- ٣١٢ وصفه للمتفرنجين المقلدين
- ٣١٣ مقالة المقابلة بين الاسلام والنصرانية في السيادة والقوة العسكرية، وأسباب مخالفة أتباع كل منهما لتعاليم دينه خلافا للطبيعة
- ٣١٨ » المحطاط المسلمين وسكونهم وسببه
- ٣٢١ » التعصب بأنواعه وفلسفته وسبب ذم الافرنج والمتفرنجين للديني منه
- ٣٢٤ » القضاء والقدر وتأثير عقيدته في الحرب والفرق بينها وبين عقيدة الجبر
- ٣٢٦ » الفضائل والرزائل وما يترتب عليهما من الاعمال
- ٣٢٨ » الوحدة الاسلامية وجناية الملوك عليها
- ٣٣٠ » » والسيادة
- » » استعانة الفاتحين على الامم بأمرائها

٢٣١ المسألة المصرية ولها خمس وسائل

- (والمقصود منها جلاء الانكليز عن مصر وجعل حكومتها لاولي العزم من المصريين)
- ٣٣٢ الوسيلة الاولى اثارة العالم الاسلامي للدفاع عن مصر

﴿ الشواهد من مقالات العروة في وسائل انقاذ مصر واستقلالها ﴾

- ٢٣٦ (الشاهد الاول) في تحريض المصريين على الانكليز
- » مقالة (هؤلاء رجال الانكليز وهذه أفكارهم) وفيها مناظرة الاستاذ الامام في لوندرة لوزير الحربية الانكليزية وغيره في المسألة المصرية
- ٣٤٠ (الشاهد الثاني) تحريض العثمانيين والمصريين والهنود على الانكليز
- » مقالة انهم واستعمال الانكليز له واعتمادهم عليه في سياستهم

٣٤٦	(الشاهد الثالث) تحريض الروس والعثمانيين على الانكاز
٣٤٨	(الشاهد الرابع) في دواية المسألة المصرية وعقد المؤتمر الاوربي لها
	الحقيقة الخامسة ، في ملل البيان الرائعة ، في تنمية أمر المؤتمر
٣٥٣	وخديعة انكلترة لفراسة فيه
٣٥٧	(الشاهد الخامس) تحريض الدولة العثمانية على الانكاز
٣٦٠	(الشاهد السادس) في تنبيه الحديو ورجال دولته للخطر
	(مقالة) عمى الناس أو تماميهم في مصر عن مقاصد الانكاز فيها. وفيها الحث على
	الحبة الوطنية والمالية والفتك بالحنة
٣٦٢	(الشاهد السابع) في سياسة أوربة في المسألة المصرية ومكان الحكومتين
	العثمانية والمصرية منها
٣٦٥	(الشاهد الثامن) في تحريض المسلمين عامة والساطان والمصريين خاصة على الانكاز
	» مقالة زلزال الانكاز في السودان وهي مهيجة أشد التهييج
٣٦٦	المدافعة عن الوطن وخيائته وجزاؤها
٣٦٩	التحريض الخطابي على الجهاد الديني والوطني
٣٧٠	مسألة السودان
	(وسياسة الامامين الحكيمين في تهويل أمر المهدوية فيه لاقناع الانكاز بتركه
	ليجعله مركزاً لسياستهما وفيها شواهد)
٣٧١	الشاهد الاول - مقالة سياسة انكلترة في الشرق
٣٧٢	» الثاني - « انتصار السودانين على الانكاز وتأثيره
٣٧٥	» ٣ « أماني انكلترة في حركات محمد احمد
٣٧٦	» ٤ « سقوط بربر في يد محمد احمد
٣٧٧	» ٥ « السودان ومصر بعد سقوط بربر
٣٧٨	» ٦ « قوة محمد احمد بسوء تأثير احتلال مصر
٣٧٩	إيضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان
٣٨٠	دخول الاستاذ الامام مصر مستخفيا في أثناء نفيه والغرض منه
٣٨٢	العبارة في هذه السياسة

خاتمة هذا المقصر

(آفة الشرق أمراؤه المستبدون، وزعماء المترفون، ومرشدوه الجاهلون وفيه ثلاثة مثل)

٣٨٤ (المثال الاول) استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها

٣٨٦ (المثال الثاني) استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها

٣٨٨ (المثال الثالث) رأي المروية في معاقبة الامم للامراء والرؤساء الخونة

المقصد الثاني

٣٩٠ (من الفصل الخامس — عمله في سورية)

٣٩٣ سيرته في بيروت بقلم الاستاذ السيد عبد الباسط فتح الله

٣٩٣ بقلم الامير شبيب أرسلان، وفيها استطراد في فهمه للشعر

وذوقه وشعوره فيه

٤١٠ أصدقاءه في مصر ورأيه في الازهر وأهله

خاتمة هذا المقصر

٤١٣ سعيه لاقتناع الدولة العثمانية باصلاح التعليم والتربية بلائحة أرسلها إلى شيخ

الاسلام في الامتانة، بين فيها الخطر على الدول بفساد التربية والتعليم

الرسمي وحلول التعليم الاجنبي عمله

٤١٤ كلامه في توقف اصلاح المسلمين على القرآن

٤١٥ رأيه الاخير في الدولة العثمانية

الفصل السادس

٤١٦ في الطور الثالث من حياته العملية ، وفيه مقدمة وثمانية مقاصد وخاتمة

٤١٦ المقدمة في عودته من سورية الى مصر

٤١٧ حال الاوفياء والجيلاء من أصحابه معه بعد عودته

٤١٨ عفو الحديو عنه ومن شفع له عنده وكرمه له

٤١٩ سعيه ليكون معلما في دار العلوم وامتناع الحديو

٤٢٠	المقصد الاول عمله في القضاء الاهلي
٤٢١	حكمه باجتهاده وتنفيذه أحكامه على الاجانب
٤٢٢	عنايته في القضاء بالاخلاق واصلاح ذات بين العائلات وعقاب الفاجرات
٤٢٣	براعته في تحقيق القضايا وفراسته فيها
٤٢٤	كلمته العالية في الارادة والاختيار والتقدير والابداع والنشوء والارتقاء
٤٢٥	المقصد الثاني عمله في الازهر
»	اول كلام دار بيننا في اصلاح الازهر
٤٢٧	سميه لدى الخديو عباس والحكومة في اصلاح الازهر
٤٢٨	اصلاح كتب التدريس في الازهر
٤٢٩	تفصيل بعد اجمال في اصلاح الازهر (كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر)
٤٣٠	تشكيل مجلس ادارة الازهر وأسبابه
٤٣٢	قانون المرتبات
٤٣٣	حال الازهر ومرتبات الشيوخ قبل النظام من بؤس وفقر وظلم ومخاابة
٤٣٦	تبرم كبار العلماء وشكواهم من النظام
٤٣٧	إلحاق التعليم في المسجدين الاحمدي والدسوقي بالازهر لتوحيد النظام
٤٣٨	قانون كساوي التشریف وفوائده وسبب كراهة قدماء الشيوخ له
٤٤٠	نظام التدريس والامتحان وفوائده وما كان من القوضى قبله
٤٤٣	المساحة أو عطلة الدراسة والقوضى قبلها
٤٤٤	مساعدة الخديو علي تنفيذ القانون بمال الاوقاف
٤٤٦	مكافأة امتحان الطلبة وفوائدها
٤٤٩	العلوم الحديثة وقائدها
٤٥٥	اصلاح التعليم في الازهر
٤٥٦	دار الكتب في الازهر
٤٥٨	نظام الجرايات المزيل للقوضى والمخاابة
٤٦٠	امتحان التدريس وشهادة العالمية
٤٦٢	العلوم والكتب ونظام التدريس
٤٦٥	مسألة زاوية العميان والعبرة فيها

- ٤٦٧ إلحاق معهد الاسكندرية بالازهر
 ٤٧٠ الشيخ محمد شاكر وتعيينه شيخا للاسكندرية وفيها عبر
 ٤٧٤ مراتب أولاد العلماء وثقة الحكومة على الازهر
 ٤٧٦ الفساد والجهل في أخلاق العلماء وأعمالهم
 ٤٧٧ شهادة القضاة والمفتين بالزور لأولاد العلماء
 ٤٧٩ سمي الأستاذ الامام بالرزق لأولاد العلماء
 ٤٨٠ حالة الازهر الصحية وتعيين طبيب له
 ٤٨٤ محافظة المجلس والاستاذ الامام على حقوق الازهر وشرفه

الخديو والازهر

- ﴿ توجه عزم سموه الى قلب نظام الازهر واخراج الاستاذ الامام منه ﴾
 ٤٨٧ تمهيد لبيان الشعب الذي أحدث في الازهر
 ٤٨٨ الشعب الذي أحدثه الخديو وانتهى باستقالة السيد البيلاوي وبعض أعضاء المجلس
 ٤٨٩ ختم المشايخ لمرائض الشكوى من البيلاوي ومجلس ادارة الازهر
 ٤٩٠ الدسائس لحمل البيلاوي على الاستقالة
 ٤٩١ حادثة رواق المنارة وفيها عبرة لمن يعتبر
 ٤٩٣ ممرضة البهائم في اصرار الازهر
 ٤٩٤ سيرة الشيخ حسونه والشيخ سليم في الازهر
 ٤٩٥ حيلولة الاستاذ الامام دون نفوذ الحكومة في الازهر
 ٤٩٥ ألقاب الازهر السوءى عند الاستاذ الامام

- ٤٩٧ غضب الخديو على الاستاذ الامام وحسن باشا عاصم وما اقتضاه من الانتقام
 ٤٩٩ استعراض الخديو لحيش الاحتلال احتفالا بجلوس ملك الانكليز لارضاء
 الانكليز بعزل المفتي

- ٥٠٠ التمهيد الديني بعد السيامي الانتقام من المفتي
 » ما كتبه الشيخ محمد الاحمدى من التمهيد
 ٥٠١ التمهيد بشخص الشيخ النمريني
 ٥٠٢ حديث الشيخ النمريني في جريدة الجوائب المصرية ونشر المؤيد له

﴿الازهر الشريف﴾

- ٥٠٥ رد الاستاذ الامام على حديث الشريبي (وتفنيده فيه لما قاله في الازهر وما كان يقرأ فيه وقوله ان الطلبة يطعنون في الأئمة. وكلامه في دخول الفلسفة الازهر)
- ٥١٠ تفنيده لكلامه في استنكار اشتغال العلماء بالسياسة
- ٥١٣ ﴿خطبة سمو الخديو في عابدين﴾

(وتمر يرضه فيها بالاستاذ الامام لمحله على الاستعفاء من الازهر وبصاحب

المنار لنفيه من مصر)

- ٥١٥ غرض الحكومة الخديوية من الازهر
- ٥١٦ تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في المسلمين
- ٥١٩ ما كتبه النواب محسن الملك زعيم الهند في خطبة الخديو وإصلاح الازهر . وفيه طعن شديد في الخديو وعلماء الازهر وثناء عظيم على الاستاذ الامام وآمال المسلمين فيه وآلامهم من تركه لإصلاح الازهر
- ٥٢٦ تعليق جريدة الرياض الهندية على هذه المقالة
- ٥٢٧ دفاع المنار عن علماء الازهر فيما طعن عليهم النواب
- ٥٣٠ رد النواب على دفاع المنار عن الازهرين وإثباته عداوتهم للعلم وبيان أسوء حال المسلمين وما كان يرجي من إصلاح الازهر
- ٥٤١ حقيقة الازهر . وفيه بيان لجود العلماء وضرره على العالم الاسلامي . وكون الاستاذ الامام قد انفرد بالسعي لإصلاحه
- ٥٤٥ ﴿مذكرة الاستاذ الامام في بيان مواد قانون الازهر التي لم تنفذ﴾
- ٥٥٢ صدى استقالة الاستاذ الامام في أوربة
- ٥٥٤ حال الازهر في عهد الشيخ الشريبي
- ٥٥٥ الازهر ومدرسة القضاء الشرعي
- ٥٥٨ ﴿الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي﴾

التقرير الذي رفعه يوسف باشا طلعت الى المايين في الاسنانة عن أعمال الخديو ضد السلطان ومقاومة المفتي له

٥٦٧ خلاصة الخلاصة في إصلاح الازهر وما جاء في المقصورة الرشيدية في حاله ومستقبله

علاقة الامام بالامير

- ٥٦٩ كلمة في صفة الخديو عباس في أول توليته وما عرض له بعده
 ٥٧٠ كلمتان متضادتان للخديو في الازهرين قالها لصاحب المنار
 ٥٧١ سيرة الخديو السيامية والمالية
 ٥٧٢ أسباب مخطط الخديو على الاستاذ وتأثير مخطط الخديو عليه في نفسه
 وفي كلامه ومنها كلمته الصادقة له في حفلة التشريف
 ٥٧٤ إخلاص الاستاذ للخديو وأصدقائه من الامراء واقتراء من اتهمه بعداوة
 أسرة محمد علي
 ٥٧٥ حسن علاقة الاستاذ بلورد كرومر في نظر الخديو

﴿ شاهدان عمليان ﴾

- على تأييد الاستاذ للخديو ضد الانكليز
 ٥٧٦ (الاول) مسألة عزل قاضي مصر التركي واستبدال مصري به وإنقاذ الاستاذ
 للخديو من ورطتها
 ٥٧٩ (الثاني) مسألة ليون فهمي وإنقاذه إياها منها

﴿ علاقة المؤلف بسمو الخديو ﴾

- ٥٨٠ ذكرى محمد علي وسلوك الخديو في إنشاء مدرسة صناعية باسمه
 ٥٨٤ محاولة الخديو الانتقام من صاحب المنار والتفريق بينه وبين الشيخ محمد عبده
 ٥٨٥ كلام بطرس باشا غالي والاستاذ الشيخ محمد شاكر مع الاستاذ الامام
 من قبل الخديو في التفريق وكلام السيد توفيق البكري معي في ذلك من قبل سموه
 ٥٨٦ كلام الشيخ علي يوسف لي في ضرر المنار من مبالغته في مدح الاستاذ الامام
 ٥٨٧ سمي الخديو لتفي صاحب المنار من مصر
 ٥٨٨ استطراد في سيرة الخديو مع الاستاذ الامام
 ٥٩١ وطنية الخديو وسيرته الاولى
 ٥٩٣ الخديو ومصطفى كامل وحزبه
 ٥٩٤ الشيخ علي يوسف بين الخديو والامام

- ٥٩٥ الخديو وبطانة قصره
 ٥٩٦ أحمد شفيق باشا بن الخديو والامام
 ٥٩٧ العبرة التاريخية في سيرة الخديو الاخيرة
 ٥٩٨ خدمة الخديو للاسلام بمساعدة مدرسة الدعوة والارشاد
 ٥٩٩ شكوى الانكليز وغيرهم من الاجانب للخديو من المدرسة ودفاعه عنها
 » اهتمام الخديو بمسألة مسلمي فيلبين
 ٦٠٠ » » بمسلمي جاوة والسيد محمد بن عقيل

استدراك

على هذا التاريخ بوجود مواد لم تنشر فيه ، والوعد بتأليف ذيل له يستوفي ذلك

المقصد الثالث من الفصل السادس

- ٦٠٢ عمله في منصب الافتاء وتأثير تقليده الافتاء في الامة وتهانيها له
 ٦٠٣ تهنئة الشيخ عبدالرحمن قراعة له
 ٦٠٤ » محمد حافظ ابراهيم له
 ٦٠٥ عمله في تفتيش المحاكم الشرعية
 ٦٠٦ تقريره في اصلاح » »
 ٦٠٧ خطابه لوزير الحفانية فيه
 ٦٠٨ كلامه في الحاجة إلى المحاكم الشرعية واصلاحها
 ٦١١ مقدمة ناشر تقرير المحاكم وما فيه من المقاصد العامة
 ٦١٣ قاعدة بناء الاحكام الشرعية على مصالح البشر
 ٦١٤ قواعد الاسلام الشرعية التي بها كانت عامة دائمة
 ٦١٥ اقتراحه توسيع اختصاص المحاكم الشرعية وعدم حصر القضاء في مذهب الحنفية
 ٦١٦ اقتراحه تأليف كتاب في أحكام المعاملات من جميع المذاهب
 ٦١٨ كلمة لاحد كبار قضاة الشرع في اصلاحه للمحاكم
 ٦٢٠ ﴿ علماء الازهر والمحاكم الشرعية ﴾
 ٦٢١ ضياع الشريعة بجمود العلماء
 ٦٢٣ كلمة لورد كرومر في المحاكم الشرعية

- ٦٢٥ مناقشة مجلس الشورى في اصلاح المحاكم
٦٢٦ كلمة قاضي مصر التركي في استغناء المحاكم الشرعية عن الاصلاح ورد المفتي عليه
٦٢٩ ﴿ هل يعتبر الازهر اليوم بما لم يعتبر به بالامس ﴾

المقصر الخامس من الفصل السادس

- ٦٣٠ عمله في مصلحة الاوقاف العامة واصلاح المساجد
٦٣١ مشروع اصلاح المساجد ومقاومة الخديو له
٦٣٢ لائحة المساجد : موضوعها وكونها اصلاحاً دينياً عاماً زول به مفسد كثيرة
٦٣٥ » واحالة الخديو لها إلى الاورد كرومر !!!
٦٣٧ ﴿ العبرة البالغة في مقاومة اصلاح المساجد ﴾
٦٣٨ لائحة المساجد وما نفذ منها
٦٣٩ مشروع ترتيب المساجد الذي قرره مجلس الاوقاف الاعلى
٦٤٣ المذكرة المرفوعة إلى المجلس الاعلى بشأن المساجد

فتاوى الاستاذ الامام

- ٦٤٧ الفتوى عن السؤال الوارد من الهند ومقدمة المفتي لها وموضوعها استعانة المسلمين بالكفار وأهل البدع والاهواء على مصالح المسلمين وحكم من كفر فاعلمها
٦٤٨ جواب علماء المالكية والشافعية عنها
٦٥٦ حكم تكفير المسلم وما يكفر به
٦٥٧ جواب شيخ الحنابلة
٦٥٩ جواب أحد علماء الحنفية
٦٦٢ ما حققه الاستاذ الامام في المسألة بأدلة القرآن والسنة وعمل الصحابة وفيه (مسألة النهي عن مودة الكفار وموضوعه وما يشترط فيه وانشاء عمر (رض) الدواوين بالرومية والفارسية وجواز تقليد وزارة التنفيذ لغير المسلم)
٦٦٦ فتواه في طوفان نوح هل عم الارض أم لا ؟
٦٦٧ الفتوى الترانسفاليتية في ذباح أهل الكتاب وابس القبة واقتداء الشافعية بالحنفية
٦٦٩ تقرير محمد بك ابى شادي في الفتوى والطعن على المفتي

٦٧٥	الفتاوى الثلاث الترا نسفالية. وما كتبه المنار فيها
٦٧٧	طعام أهل الكتاب
٦٧٩	الفقه في تحريم الميتة والتذكية أنواعها وحقيقتها
٦٨٣	فتوى القاضي أبي بكر بن عربي في طعام أهل الكتاب
٦٨٥	كلام الشيخ محمد بيرم في مسألة خنق الحيوان للتذكية
٦٨٦	توضيح القول في الموقوذة وأدراك ذكاتها
٦٨٨	الخلا ف في التسمية على الذبيحة وتأيد الفتوى وحقيقتها وما به الافتاء
٦٩٠	اجتهاد المفتي وتقليده وكون الاستاذ الامام مجتهداً
٦٩٢	واقعة في ذبائح أهل الكتاب في زمن محمد علي باشا
٦٩٤	استحسان الاستاذ الامام لما كتب المنار في مسألة الفتوى وعباراته في الاستحسان وفكاهة راوندية للمويلحي في ذلك
٦٩٤	اشتغال الجرائد بمسألة الفتوى
٦٩٦	مسألة ذبائح أهل الكتاب وتأيد الفتوى بالاجماع
٦٩٩	تهافت المرجف في الفتوى
٧٠١	الفتنة في تحريم الميتة وما أهل به لغير الله
٧٠٤	تأييد علماء العصر والجرائد للفتوى
٧٠٥	مقالة وعظية لعالم مغربي في موضوع الخلاف في الفتوى
٧٠٨	تأييد واقعة الفتوى بمذهب الحنفية
٧١٠	الاستدلال على سوء نية المرجف في الفتوى
٧١٢	اهانة المرجف للعلماء وتعريضه بالامير
٧١٤	كتاب من الترا نسفال في حقيقة الفتوى والسؤال
٧١٦	تأييد علماء الآفاق للفتوى
٧١٧	مقالة في ذلك من جريدة الرياض الهندية عنوانها (هل ولد السيد احمد خان ثانية بمصر وظهرت جريدته تهذيب الاخلاق بشكل المنار؟)

المقصد السادس من الفصل السادس

٧١٩	علمه في مجلس شورى القوانين وموت رئيس المجلس عمر لطفي باشا فجأة عقب تعيينه عضواً فيه
-----	---

- ٧٢٠ كرامات الخرافين وضعف وطنية المعاصرين
- ٧٢١ وطنية الاستاذ الامام ووطنية الشيخ علي يوسف
- ٧٢٣ مقاله حسن باشا عبدالرازق في عمله في مجلس الشورى
- (المقصد السابع من الفصل السادس)
- ٧٢٦ عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (من المنار)
- ٧٢٩ كلمة حسن باشا عاصم في عمله في الجمعية
- ٧٣٠ الاصلاح الديني والاجتماعي الذي كان يبثه الاستاذ الامام في مدارس الجمعية الخيرية
- ٧٣٠ الاحتفال الاول بامتحان مدارس الجمعية وخطاب الامام فيه
- ٧٣٢ امتحان تلاميذ مدرسة الجمعية وخطبة تلميذ في الموضوع
- ٧٣٦ الاحتفال الثاني لمدرسة الجمعية بمصر
- ٧٣٧ خطاب الاستاذ الامام في مقاصد الجمعية من مدارسها وفساد تعليم مدارس الحكومة
- ٧٣٩ الاحتفال الثالث لمدرسة الجمعية بمصر وخطاب الاستاذ الامام في التربية والتعليم وفيه اثبات ضعف المسلمين بترك التعليم الديني
- ٧٤٢ مدرسة الجمعية في المحلة الكبرى والاحتفال بافتتاحها
- ٧٤٣ خطاب الاستاذ الامام في الغرض من التعليم الابتدائي
- ٧٤٤ خطبة صاحب المنار في الاحتفال
- ٧٤٨ خطاب ابراهيم بك الهلباوي فيه
- ٧٤٩ خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في الجمعية ومدارسها
- ٧٥٠ افساد جميع مدارس البلاد الامة
- ٧٥١ مايجب أن تكون عليه كتب التعليم في المدارس، واقترح تأليف كتابين في العقائد والعبادات على صاحب المنار وانفاق الاستاذ رئيس الجمعية وحسن باشا عاصم مدير مدارسها على ذلك وخطبها فيه
- (المقصد الثامن من الفصل السادس)
- ٧٥٣ عمله في جمعية احياء الكتب العربية

الفصل السابع

في شؤونه العامة وفيه ثمانية مقاصد

- ٧٥٥ (المقصد الاول من الفصل السابع تدريسه)
- ٧٥٦ طريقته في التدريس وطريقة أستاذه الافغاني
- ٧٥٨ (ختام درس المنطق في الازهر) وفيه بيان طرق اصلاحه في الدرس من صفة الالقاء واختيار الكتب وما امتاز به درسه في المنطق من المسائل العقلية والعلمية والخلقية)
- ٧٦١ (ملخص خطابه في ختام درس المنطق) وفيه بيانه لاعتاق الاسلام الافكار من رق التقليد وتوقفه على الشجاعة ، وان القرآن فرض علينا النظر والاستدلال وإنما علم المنطق منظم لطرق الاستدلال

درس التفسير في الازهر

- ٧٦٥ اقتراحي إياه عليه وما دار بينهما من الحوار فيه
- ٧٦٩ صفة درس التفسير وما كان له من التأثير وفكاهاته فيه
- ٧٧١ شهادتان مكتوبتان في تأثيره احدهما لعالم غريب
- ٧٧٢ شهادة نابي خريجي دارالعلوم وهي الثانية
- ٧٧٤ الدرس العالي الخاص في خارج الازهر
- ٧٧٧ المقصد الثاني من الفصل السابع - مؤلفاته
- ٧٧٩ رسالة التوحيد وصفها وتأثيرها في المسلمين وآراء فضلاء النصارى فيها
- ٧٨١ تقریظ الشيخ سعيد الشرنی لرسالة التوحيد
- ٧٨٢ أقوال علماء المسلمين فيها
- ٧٨٣ تقریظ الشنقيطي الكبير لها وانتقاده عليها
- ٧٨٤ تقریظ الشيخ سليم بو حاجب كبير علماء تونس ومفتي المالكية الاكبر فيها
- ٧٨٥ تقریظ عالم أديب شعبي لها
- ٧٨٦ تقریظ الامير شكيب لها
- ٧٨٧ (كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدينة) وفيه من الحقائق الدينية والتاريخية والاصلاحية ما لا يستغنى عن معرفته مسلم في هذا العصر

المقصد الثالث من الفصل السابع

- ٧٨٩ دفاعه عن الاسلام ، وكشفه للشبهات والادهام ، وهو ثلاثة أنواع
 » النوع الاول دفاعه الشفوي
 ٧٩١ إحالته بعض المستفتين والشاكين على صاحب المنار
 ٧٩٢ كتابان من التلميذ محمد لطفي جمعه في شبهاته وخواطره الدينية
 ٧٩٧ النوع الثاني دفاعه العلمي الخاص بالمسلمين
 ٧٩٨ النوع الثالث رده على الطاعنين في الاسلام

الرد على هانوتو ٧٩٩

- ٨٠٢ هانوتو والاسلام — تلخيص المناقشات في موضوع الرد
 ٨٠٥ الرد على فرح افندي أنطون صاحب مجلة الجامعة
 ٨٠٦ كيف كتب الرد على الجامعة في السفر
 » مكتوبات الاستاذ الامام لي في شأن كتابة الرد
 ٨١٠ نشر الرد على الجامعة وتأثيره ورد الجامعة عليه وردنا عليها
 ٨١١ وقية صاحب الجامعة بين الولد وأبيه والمريد وأستاذه
 ٨١٢ الكتاب المفتوح ، والادب المفضوح
 ٨١٦ آخر ما كتبه الاستاذ الامام لصاحب الجامعة
 » اعتذار للقراء

الدفاع عن الاسلام والدعوة اليه بالتقريب بين المسلمين وأهل الكتاب

- ٨١٧ ترجمة ميرزا باقر الغريبة
 ٨١٩ جمعية التقريب بين المسلمين وأهل الكتاب
 ٨٢٠ شهادة مفتش انكليزي لمسلمي الهند ومدارسهم
 ٨٢٢ خطب القس اسحق طيلر الانكليزي ومقالاته في الاسلام والنصرانية
 ٨٢٤ مقاله الاولى لاسحق طيلر بعد زيارته لمصر في الموضوع
 ٧٢٦ مقاله الثانية : القرآن والكتب المنزلة
 ٨٢٧ خريستفورس جياره
 ٨٢٨ حظ اليهود من جمعية التقريب

المقصد الرابع منه

- ٨٣٠ إغاثته المنكوبين في أحداث الزمان
 • لجنة الاعانة لجرحى وأرامل الجيش المصري المحارب في السودان
 ٨٣١ منشور الاستاذ الامام في الدعوة إلى الاعانة
 ٨٣٣ تعليق المؤيد على المنشور والدعوة
 ٨٣٤ انكار الاستاذ الامام على تعليق المؤيد
 ٨٣٧ رد المؤيد على رسالة الاستاذ
 ٨٤١ الحكم العدل بين الاستاذ وصاحب المؤيد
 ٨٤٣ اعانة منكوبي الحريق ببيت غمر ومنشور الاستاذ الامام في الحث على الاعانة

المقصد الخامس منه في أسفاره ٨٤٦

- ٨٤٧ (سفره إلى الاستانة ودسائس الجواسيس وسمايتهم فيه)
 ٨٥٠ زيارة الاستاذ الامام لشيخ الاسلام في الاستانة
 ٨٥١ حديث شيخ الاسلام والاستاذ الامام في العلم والعلماء
 ٨٥٣ قول المقطم ان الحديث وقع على العلماء كالصاعقة
 ٨٥٥ ما كتبه مصطفى كامل في الانكار على الحديث ورد المنار عليه
 ٨٥٨ كتاب الاستاذ الامام إلى بعد خروجه من الاستانة

٨٦٠ كتاب أحمد شفيق باشا إلى الاستاذ الامام ، وفيه ما سمعته من باشا كاتب

السلطان وسفير الانكليز فيه

- ٨٦١ عودة الاستاذ الامام من الاستانة وأوربة والتهاني الشمرية له بهودته
 ٨٦٥ (أسفاره إلى أوربة ومقاصده منها)
 ٨٦٨ اجتماعه بالفيلسوف سبنسر وحديثها
 ٨٦٩ تعليق الاستاذ على قول سبنسر ان الحق عند أهل أوربة للقوة لا
 قيمة له بذاته ، وقوله ان الافكار المادية محقت الفضيلة منهم وجزم
 بأنه لا علاج لهم الا الدين الاسلامي
 ١٣٩ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١

- ٨٧٠ سفره الى تونس والجزائر
- ٨٧١ سيرته في تونس والجزائر ونصيحته لاهلها
- ٧٧٤ إمامه بصقلية ورحلته عنها
- ٨٧٥ عودته من سفره هذا والتهاني لهما
- ﴿ سفره إلى السودان وما كان من حفاوة الحكومة والاهالي به ﴾
- ٨٧٨ كتاب الزير باشا في دعوته إلى ضيافته
- ٨٧٩ وصف إقامته في السودان وفوائده للمحاكم والمدارس والاندية والجماعات
- ٨٨٥ ضيافة الضباط المصريين له في ناديه وعظته لهم في اجتناب الخمر
- المقصد السادس منه
- ﴿ آراؤه وآماله وأمانيه ﴾
- ٨٩١ رأيه في السياسة واستعاذته منها
- ٨٩٣ كلمة شاعر مصر محمد حافظ ابراهيم في حزب الامام والسياسة
- ٨٩٥ الاميرة نازلي هانم والسياسة
- ٨٩٦ كتاب الاستاذ الامام إلى السيد جمال الدين بالاستانة
- ٨٩٧ خلاصة جواب السيد له
- ٨٩٨ رأيه في مشروع مستر بلنت في استقلال مصر بمساعدة الاحلال
- كتابان سياسيان من الاستاذ الامام الى مستر بلنت
- ٨٩٩ الكتاب الاول في شكل الادارة بمصر
- ٩٠٠ » » » نموذج الدستور المصري
- ٩٠٣ قول المنار في الكتاين وزده على المعارضين عليها
- ٩٠٥ تلخيص ما طلبه الاستاذ الامام بمصر من الانكباب
- ٩٠٩ رأيه في الدولة العثمانية والتعليم فيها
- ٩١١ » الاخير في الخلافة العثمانية والدولة والترك
- ٩١٣ » في استقلال العرب
- ٩١٥ » في الشعب المصري والخطر عليه من السكر والزنا
- ٩١٧ » في التربية والتعليم بمصر
- » » في الوطنية والدين

- ٩١٨ ﴿ انتصاره للقبط ودفاعه عن بطرس باشا بداعية الوطنية ﴾
- ٩٢١ رأيه في الاحتلال والاستعمار الانكليزي والفرنسي
- ٩٢٥ كتاب غوستاف لوبون الذي صرح فيه بان العقيدة الكاثوليكية تجعل
الفرنسيين أعدى أعداء المسلمين
- ٩٢٦ رأيه في اللغة العربية واللغات الاوربية وكتبهما
- ٩٢٧ رأيه في الصوفية والفقهاء وتنازعهما
- ٩٢٩ » في ديوان الاولياء وتصرفهم الباطن
- ٩٣٠ » في البهائية العباسية والشيعة
- ٩٣١ حياة الاديان وارتقاؤها وشبهة البهائية فيها
- ٩٣٢ البهائية وداعيتهم ميرزا ابوالفضل
- ٩٣٤ غلو الدعاة إلى الاصلاح العائق لتجارتهم
- ٩٣٦ اسمالة البهائيه والماسونية لاهل الاديان كلها
- ٩٣٧ بطلان استدلال البهائية على صحة دينهم بانتشاره
- ٩٣٨ رأيه في إعراض المسلمين عن الاسلام وعقابهم عليه
- ٩٣٩ » في الاسلام نفسه وكون الافرنج سيهتدون به
- ٩٤٠ » في المذاهب وأئمتها
- ٩٤١ » في المسلمين والفقهاء
- ٩٤٢ مستر براون المهدي الانكليزي
- ٩٤٣ رأيه في تنقيح كتب الحنفية
- ٩٤٤ رأيه في تفسير الفقهاء ومفاسد تقليد لمبارات الكتب

آماله وأمانه

- ٩٤٦ مدرسة كلية اسلامية
- ٩٤٧ الحج والزيارة ووضع خريطة لغزوات النبي ﷺ والحجاز
- ٩٤٨ تأليف تاريخ للاسلام
- ٩٤٩ جريدة يومية بصفة خاصة

المقصد السابع من الفصل السابع

(أخلاقه وشمائله)

- ٩٥٠ عزة نفسه وعلو همته وتواضعه
 ٩٥١ مهابة واطفه وسلامة صدره وصفاء قلبه
 ٩٥٢ تغايبه لحسن الظن وتغايبه عن الشر
 ٩٥٣ إيناره للمصلحة العامة على الخاصة
 ٩٥٤ وفاؤه لآخوانه ووفائهم له
 ٩٥٧ ثقته بالله دون الخلق
 ٩٥٨ صدقه وشجاعته
 ٩٥٩ رؤيان في مقصد الصدق ومقام الصدق له في الآخرة
 ٩٦٠ شجاعته وعدم خوفه من صائل ولا فاتك
 ٩٦٣ انصافه في الرأي والعلم والحكم
 » اذنه لي بتصحيح كلامه والزيادة فيه
 » تصرّحه في الدرس بانتقاد الشنقيطي عليه وما أصاب فيه وشكره له
 ٩٦٦ جوده وسخاؤه
 ٩٦٧ غيرته على الملة والامة
 ٩٦٩ مروءته ونجده
 ٩٧٠ ثباته على الحق واستقامته
 ٩٧١ عاداته وزيه
 ٩٧٣ صفة خاقه ومزاجه وأمراضه

المقصد الثامن منه

- ٩٧٤ مذهب في الاصلاح ومذهب السيد جمال الدين
 ٩٧٥ ما تشابهوا ما اختلفا فيه
 ٩٧٦ اشتغالها منفردين ومجتمعين
 ٩٧٨ وصف إصلاحهما في المقصورة الرشيدية

- ٩٨٢ نتيجة إصلاحيهما وتجديديهما
٩٨٤ الطعن على الحكيمين المجددين وسببه والدفاع عنهما
٩٨٦ حال الجرائد المصرية والغميزة بالشيخ محمد عبده
٩٨٧ الشيخ سليمان العبد والاستاذ الامام

- ٩٨٨ (تحدي الاستاذ الامام الازهر بتجهيله بالتوحيد، المحرك لرميه بانكار التوحيد)
٩٩١ الشيخ جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده (دفاع عنهما لفاضل تركى)

٩٩٥ خاتمة الفصل السابع

(صحبة المؤلف للاستاذ الامام — سببها ومبدؤها وغايتها)

- ٩٩٦ لقائي الاستاذ الامام في طرابلس الشام
٩٩٨ هجرنى إلى مصر لصحبته وإنشاء صحيفة اصلاحية
٩٩٩ تلاقينا بمصر أول مرة وتصريحه بان الموالد تقاليد وثنية
١٠٠٠ استشارتي له في انشاء صحيفة ومحاورنا في ذلك
١٠٠٢ رأيه في جرائد مصر وقرأها
١٠٠٣ موافقته لي على انشاء جريدة اصلاحية وشروطه فيها
١٠٠٥ ترويجه للمنار بالثناء عليه
١٠٠٧ مساعدة المنار المادية، وكلمة في حياتى المالية
١٠١١ علاقتى بالاستاذ روحية اصلاحية لاثية فيها
١٠١٣ صفة ما كنا عليه في المعاشرة العاديه
١٠١٥ حلى إياه على مكتبة أبى الهدى الصيادي
» تقرىظ الشيخ أبى الهدى لرسالة التوحيد
١٠١٦ حياتنا العملية المعنوية فى الإصلاح

١٠١٧ (السعاية والدسائس للتفريق بيننا)

- ١٠١٨ سعي الشيخ عبد الكريم سلمان للتفريق . وانذار الامتاذ الامام له بترك
صحبة ٤٠ سنة، وتلميله لكره عبد الكريم لي وتعليلى لذلك
١٠٢٠ صفاء المودة بينى وبين الشيخ عبد الكريم بعده

- ١٠٢١ الدسيسة النسائية للتفريق يتنا وكلة الاستاذ لاخته حموده بك
 ١٠٢٢ انتقاد الاستاذ الامام على المنار
 ١٠٢٣ ﴿ بعض أقواله في الاصلاح والتجديد ﴾
 (والقائم بخطه فيها على أثره وأثر جمال الدين)
 » كنه الخطية في خطة المنار التجديدية
 ١٠٢٤ (كلماته العشر المصروفة بان صاحب المنار خليفته في إصلاحه وعلمه)
 ١٠٢٦ آياته قبل وفاته في ذلك

١٠٢٨ الفصل الثامن

(في شؤون الخاصة المعنوية ونهاية حياته الجسدية وفيه ٤ مقاصد)
 » المقصد الاول قوة عقله وسعة علمه

- ١٠٣١ علومه ومعارفه الاسلامية والعصرية
 ١٠٣٣ تقصيره في رواية الحديث والجرح والتعديل

المقصد الثاني

- ١٠٣٥ إيمانه بالله وجهه لله ورسوله
 ١٠٣٦ تعظيمه للنبي ﷺ وبيان له قدره
 ١٠٣٧ كنهه في انطواء روحه ﷺ على كليات الدين
 ١٠٣٨ وصفه للنبي ﷺ وما جاء به لاصلاح البشر
 ١٠٤١ عبادته وتهجده
 ١٠٤٣ ترخصه في الجمع بين الصلاتين في الحضر أحيانا

المقصد الثالث

- ١٠٤٤ مرضه ووقاته
 ١٠٤٦ مصاب الاسلام بوقاة الاستاذ الامام
 ١٠٥٠ المقصد الرابع في تأيينه ورثائه
 » حفلة يوم الاربعين لتأيينه
 ١٠٥١ حفلة الجامعة المصرية »

شهادات رجال العصر

- ١٠٥٤ ﴿ من الاجانب والوطنيين المختافى الملل ﴾
- » شهادة لورد كرومر الانكليزي السياسي
- » كلمة السر ملكولم مكاريث مستشار الحاقانية بمصر
- ١٠٥٥ » الدكتور ادوارد براون العالم الانكليزي
- » أحمد مختار باشا الغازي المشير العثماني
- ١٠٥٦ » الدكتور عبد الله جودت الكاتب التركي
- » الاستاذ الكبير ذكاء الملك الايراني
- ١٠٥٧ » الامتاز العلامة طاهر بن عاشور مفتي المالكية الاكبر بتونس
- » الاستاذ محمد بن الخوجه التونسي
- ١٠٥٨ » الاستاذ محمد الجعايبي التونسي
- » العالم العامل الشيخ محمد شاكر من علماء صفاقس (تونس)
- » العالم الجليل السيد محمد بن عقيل أشهر السادة العلويين
- ١٠٥٩ » الاستاذ الحكيم السيد عبد الرحمن الكواكبي السوري
- » الدكتور يعقوب صروف العلامة المصري
- » الشيخ ابراهيم اليازجي الاديب اللغوي الشهير
- ١٠٦٠ » الاستاذ جورجى زيدان المؤرخ السوري الشهير
- » نعم افندي ابكي الكاتب اللبناني الحر
- ١٠٦١ » صاحب الدولة رياض باشا وزير مصر الاكبر
- » صاحب المباحة الاستاذ محمد توفيق البكرى
- » ابراهيم باشا نجيب وكيل وزارة الداخلية بمصر
- » محمد طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية بمصر

- ١٠٦٢ كلمة الدكتور عبد العزيز نظمي بك
 » حافظ اقدي واصف الاديب القبطي
 » قاسم بك أمين المستشار في محكمة الاستئناف في تأييده
 ١٠٦٣ » احمد لطفى بك السيد مدير الجامعة المصرية
 » سعد باشا زغلول الزعيم الاكبر
 ١٠٦٤ » احمد فتحي زغلول النابغة الاشهر

١٠٦٥ خاتمة الكتاب

(فيما يجب على الامة لهذا الامام)

- ١٠٦٦ تقرير حزب الاستاذ الامام المدني لإنشاء مدرسة باسمه عقب وفاته وتعذر
 ١٠٦٨ عودة الامة إلى إحياء ذكرى الامام بالاحتفال بها وبالبحث في عمل يخلد
 » تأليف شيخ الازهر المراغي لجنة في ادارة المعاهد الدينية لذلك
 ١٠٦٩ تربية الامام لزعيم الامة السياسي سعد باشا زغلول
 » رسم كتاب بخط سعد زغلول باشا الاستاذ الامام وكلمات له من كتب آخر
 في اعترافه بفضل الاستاذ الامام عليه وانه هو صنيعته وغرس نعمته
 ١٠٧٠ الواجب على الامة زعمائها ونوابها وأحزابها وحكومتها التعاون على إحياء ذكر
 ١٠٧١ شدة حاجة الامة إلى العمل برأيه في التربية والتعليم وكونه هو الذي ي
 استقلالها ويثبت وينقذها من الفوضى العامة وتمذرها وتنذر العالم كله
 » شعور عقلاء أوربة بأنه لا يدرء عنها خطر الفوضى الحاضرة إلا ه
 دين معقول ، وان يجدوا هذا في غير دين القرآن
 ١٠٧٢ فتوى الاستاذ الاكبر المراغي في أن الاصلاح الذي دعا اليه الامام
 الذي يمز المسلمين في دينهم ويرفع قدرهم في دنياهم
 تحديد اقتراحى على مصر في إحياء ذكرى الامام وهو ختام الكتاب
 تم الفهرس الاول ويليه الفهرس الثاني

فهرس نامه للصور والرسوم

الشمسية في الكتاب

(القسم الاول فهرس الصور)

- صورة موقظ الشرق وحكيم الاسلام مجدد القرن الرابع عشر
السيد جمال الدين الافغاني
- » الاستاذ الامام مجدد القرن الرابع عشر الشيخ محمد عبده
- » السيد محمد رشيد رضا مؤلف الكتاب سنة ١٣٥٠
- » السيد جمال الدين وهو واقف بخطب ٣٩
- » السيد جمال الدين قبل مرضه في الاستانة ٨٩
- » » بعد العملية الجراحية له في فمه ٩٠
- » الاستاذ الامام وهو في بيروت سنة ١٢٨٣ ٣٩٢
- » » وهو يصلي في لوندرة سنة ١٢٨١ ١٠٤٣
- ٩٩٨ صورة المؤلف بعد هجرته الى مصر في سنتي ١٣١٧ و ١٣٢٧

(قسم رسوم المخطوطات)

- ٢٨٢ رسم الكتاب الذي أرسله السيد جمال الدين الى الشيخ محمد عبده
من بورسعيد في طريقه من الشرق الى اوروبا
- ٢٣٤ رسم مذكرة للاستاذ الامام في خيانة سلطان باشا
- ٧٥٢ رسم مذكرة حسن باشا عاصم والشيخ محمد عبده في اقتراحهما
علي صاحب المنار تاليف كتابين في التوحيد والعبادات لمدارس
الجمعية الخيرية
- ١٠٢٣ رسم كلمة الاستاذ الامام في مجلة المنار وصفة الراغبين فيها
- ١٠٦٩ كتاب من زعيم مصر السياسي الاكبر سعد باشا زغول الى مريه
الاستاذ الامام
- ١٠٧٣ كتاب آخر من السياسي الاكبر سعد باشا الى مريه الاستاذ الامام
- » » » » ١٠٧٨
- » » » » ١٠٨٠

فهرس ثالث لاسماء الاعلم في الكتاب

(تنبيه) الصفر عن يسار الرقم للدلالة على تكرار الاسم في الصفحة التالية

١٤٨	ابراهيم افندي الوكيل	٦٣	آقا محسن العراقي
٣٩٩ و ٩٩ و ٩٤	» اليازجي (الشيخ)	١٤	ابراهيم (من أبناء عمومة الاستاذ الامام)
١٠٥٩ و ١٠٣١ و ٤٠٨	» الجوزي	٢١١ و ٢٠٥	» آغا التوتنجي
١٢٦	» خلدون	٠٦٩٢ و ٤٧٠	» باشا (الشيخ)
٠١١٠	» دريد	٠٤١١	» التادلي (من كبار علماء المغرب)
٤٢٦ و ١٣٦ و ١٢٠ و ١١٦	» رشيد	٠٣٠	» بك توفيق (مدير البحيرة)
٣٦١	» رشيد	٢٨٠	» جاد (من المصريين المتقين)
٨٠٥ و ٧٩٨ و ٥٣٤ و ٤٠٤ و ٥١	» السائب الكلبسي	٨١٧	» جان الماطر (هو ميرزا باقر)
٨٠٧ و	» السعيد الحافظ	٠٢١٩ و ٢١١ و ٢٠٦	» بك حيدر
١١٠	» سيده	١٠٤١	» باشا خليل
١٠١٠	» سيناء	٢٢٨	» دريد
١١٠	» الفارض	٢٣٨	» الدسوقي
٠٧٥٣	» القيم	٧٢٧	» رشدي باشا
١١٦ و ٥١	» مسكويه	٤٠٨	» صافي (الدكتور البيروني)
١٤٨	» يعيش القرشي التيمي	١٦	» عثمان الكبير
٤٩٥ و ١٢٥ و ١٠٢	» أبو اسحاق الاسفرايني	١٠٠٧	» باشا فؤاد
١٣٥	» أبو اسماعيل الهروي	٥٩٩	» فتحى باشا
٥٣٥	» أبو بكر القاضي المالكي	٢٢١	» بك فوزي
١١٨	» أبو تراب (عارف افندي تابع السيد جمال)	٢٨٠ و ٢٧٤ و ١٣٧ و ٩٢ و ٤٥	» اللقاني
٢٢٥ و ١١٢	» أبو الحسن الشاذلي	٩٣٨ و ٥٥٨ و ٣٩٩ و	» الموليحي
٥٣	» أبو السعود بن الشبل	٥٨٧ و ٢٧٢ و ٤٦ و ٦٦٨ و	» الموليحي
٨١٩ و ٢٨٢ و ٤٨ و ٤١ و ٣٣	» أبو الحسن الشاذلي	٩٢٣ و ٨٥٩ و ٦٩٤	» الموليحي
٥١	» أبو السعود بن الشبل	١٣٨ و ٧٤٢ و ٧٤٨	» الموليحي
١٠٨			

أبو شرقاوي (الشيخ) الصوفي ١٢٦ و ٩٥٥	أحمد بن تيمية ١٠٢ و ١٢١ و ١٢٨ و ٨١٨
أبو طالب المكي ١١٢	» بن خنبل الامام ١١٢
أبو الطيب الحافظ ١٢١	» باشا تيمور ٧٥٧ و ٧٧٤ و ١٠٤٢
أبو عبد الرحمن السلمي ١١١ و ١٢١	» بك الحسيني (السيد) ٥٠٩
أبو عبيدة ١١٠	» حشمت باشا ٧٢٨
أبو الفضل الجوزقاني (ميرزا) ٩٣٠ و ٩٣١	» خان (السيد الهندي) ٧١٧ و ٨٩١
٩٣٣ و ٩٣٥ و ٩٣٦ و ٩٣٧	» باشا الدرهملي ٢١٣
أبو الفضل الجيزاوي (الشيخ) ٩٢٩	» بك رشوان ٨٧
أبو القاسم السكر بلاني (الميرزا) ٦٣	» الرقاعي (الشيخ) ٤٥٨ و ٤٦٤ و ٧٥٦
أبو مسلم الاصفهاني ٥٣	» زكي باشا ١٠٥٢
أبو المعالي (امام الحرمين) ٥٠٦	» سيوفي باشا ٨٣٠
أبو نصر السراج ١١٢	» شفيق باشا ٥٨١ و ٥٨٩ و ٥٩٦ و ٨٦٠
أبو نعيم (الحافظ) ١١٢	» بك صدقي ٢٠٦
أبو النعمى القاوقجي (الشيخ) ٩٩٨	» عباس (الشيخ) ٣٩٦
أبو الهدى الصيادي (الشيخ) ٧٣ و ٨٥	» علي محمود ١٤٨
٨٨ و ٩٠ و ٥٨١ و ٨١٤ و ٧٩٦ و ٩١٢	» بك عبدالغفار ١٩٢ و ٢١٤ و ٢٢١ و ٣٩٩
٩٨١ و ١٠١١ و ١٠١٥	» قارس الشدياق ٩٩٧
أبو الوفا الشرقاوي (الاستاذ) ٩٥٥	» قنحي زغلول ٢ و ٢٣٦ و ٥٩١ و ٧٧٤
أبو الوفا القوني ٤٦	٧٧٩ و ٨٣١ و ٩١٦ و ٩٤٦ و ٩٤٨ و ٩٩٦
أحمد آزاد المكنى بابي الكلام ١٠٢٣	١٠٠٦ و ١٠١٣ و ١٠١٥ و ١٠٢٠ و ١٠٦٤
» ابراهيم (الشيخ) ٧٧٣ و ٧٧٥	أحمد كمال باشا (الامير) ٥٨٤
» ادريس (الشيخ) ٦٠٦ و ١٠٢٤	» لطفي السيد ٥٩١ و ١٠٥٢ و ١٠٦٣
» بك اوناود ٨٣١	» بك العريس ٥٧٩ و ٥٨٣
» أبو خطوه (الشيخ) ٥٩٥ و ٦١٨	» محمد الانبي (الشيخ) ٩٥٩
٦٢٩ و ٦٣٢ و ٦٧٤ و ١٠٥١	» الحمصاني (الشيخ) ٧٧٥ و ١٠٢١
أحمد باشا (الشيخ) ٤٦٧ و ٤٦٩	» محمود بك ٢٣٦ و ٩٥٤
» أحمد البسيوفي الحنبلي ٦٥٩	

٩١	أحمد مختار باشا (الغازي) ٤١٧ . و ٥٨١	اعتماد السلطنة
٩٠٠	٨٩٥ و ١٠٢٩ و ١٠٥٥	افلاطون
٢١١ و ٢٠٦	أحمد مدحت افندي (الكاتب التركي) ٨١٩	ألفي افندي يوسف
١٠٥	أحمد باشا المنشاوي ٩٤٦ و ١٠٤٢	الكسندر دوماس
٨٨٠	أحمد بك النقادي ٧٧	امري (القائمقام الانكليزي)
٢٧٤	أحمد بك يحيى (باشا) ٦٢٤	أمين ابو يوسف (الشيخ)
٤٤	أديب بك اسحاق ٣٨ و ٤١ و ٤٥ و ٤٠	أمين غالي باشا
٩٥٥ و ٨٣٠ و ٥٥٥	٧٨ و ١٨٦ و ٢٣٨ و ٣٩٩ و ٤٠٠ و ٤٠٨	أمين باشا فكري
٤٣٠ و ٤٢٦ و ٤١١	ادوارد براون (الدكتور) ٨٦٦	الانباي (الشيخ)
٩٤٤ و ٥٥٥ و ٤٥٠ و ٤٣٨ و ٤٣٢	٩٤٢ و ١٠٣٤ و ١٠٥٥	
ب	اسبينا بك ١٤٢	
٩٤٢	اسنا تون باشا ٨٨٠	بارنار (مسيو)
٨٩٢ و ٤١٩ و ٣٤٨	استونه باشا ١٤١	بارنج (السير)
٨٢٢-٨١٧	اسحاق طيلر (القس) ٨٢٢ و ٨٢٤ و ٨٢٦	باقر (ميرزا محمد باقر)
٢٥٨ و ٢٥٠	اسماعيل باشا الخديوي ١٥ و ٣٥ و ٤١	بالمر (الجناسوس الانكليزي)
٤٨٥ و ٤٧٤	٤٦ و ٤٨ و ٦٢ و ٧٤ و ١٣٦ و ١٤٥	البيلاوي (السيد شيخ الازهر)
٥١٣ و ٥١٠ و ٥٠١ و ٤٩١ و ٤٨٨	١٥٧ و ١٥٩ و ١٧٤ و ١٨٦ و ٢٠٩	
٩٠٤٢ و ٩٤٨ و ٩٢٩ و ٦٢٩ و ٥٥٥	٢١١ و ٢١٦ و ٢٦٠ و ٢٩٨ و ٣٣٤ و ٣٣٧	
٩٠١٢ و ١٠١١ و ٨٥	٥١١ و ٦٢٠ و ٧٧٧ و ٩٢٤	بدرى باشا بدرخان
٣٩٨	اسماعيل الحافظ (الشيخ) ٨٥٨ و ٩٣٣ و ٩٩٨	بديع الزمان الهمداني
٢٦٦ و ٢٤٣ و ٢٢٤	١٠٠٣	برودلي (المتر)
٣٦٢ و ٣٤٩ و ٣٠٠	اسماعيل خليل (الشيخ) ٨٧٧	بسمارك
١٢٠٩ و ٠ و ٠	اسماعيل بك صبري ٢٠٦ و ٢٢١	
٤١٨	اسماعيل باشا صبري ٧٧٥ و ٩٨٩	البسيوني (الشيخ)
١٠٤٢	اسماعيل باشا صديق ٢٠٩ و ٢١١	بسيوني بك الخطيب
٩٠٠٩ و ٨١١ و ٨٠١	اسماعيل بك الفلكي ١٤٢	بشارة باشا تقلا
١٠٢٩ و ٣٩٩	الاصم ١١٢	بشارة زلز (الدكتور)

٩٧٦ و ٨٩٥ و ٨٩٢ و ٧٧٧ و ٥٩٢ و ٩٩٩ و	بطرس باشا غالي ٥٨٦ و ٤٩٩ و ٢٨٩ و ١٠٢٥ و ٩٢٠ و ٩١٨ و ٦١٢ و
ج	بلانت (المستر و يافرد) ٢٢٦ و ١٠ و
٨٠٢ جاد افندي عيد	٢٨٢ و ٣٢٦ و ٨٦٦ و ٨٩٨ و ٩٠٠ و
١٤٢ جاستون ماسيرو (مسيو)	٩٠٤ و ٩١٤ و
١٤١ جالاردو بك	٨٦١ بليغ باشا ناظر الدائرة السنية
٨٠٥ جان جاكروسو	٥٢٥ بهاء الدين العاملي
١٠٦٠ و ٧٣ جورجى زيدان	٩٣٣ بهاء الله (إله البابية)
جمال الدين الاقفاني ٤ و ٦ و ١٩ و ٢٤	٤٢ بنفسى
٥٤٥ و ٥٢٠ و ٤٥٠ و ٣٧ و ٣٥ و ٣١ و ٢٧ و ٤٧	٤٧ بولسن (الوزير)
٨٩ و ٨٥ و ٨٣ و ٧٩ و ٧٤ و ٦٢ و ٥٦ و ١٧٢	١٧٢ بولينو باشا
١٣٠ و ١٠٦ و ١٠٤ و ٩٩ و ٩٦ و ٨٨٠	٨٨٠ بونهام كارتر
١٦٤ و ١٦٢ و ١٥٨ و ١٣٩ و ١٣٤ و ١٣٢ و ٨٦٦	٨٦٦ بويل (الاستاذ) المؤلف الشهير
٢٨١ و ٢٧٤ و ٢٦٤ و ٢٦٢ و ٢٣٢ و ١٧٥ و ٦٨٦	٦٨٦ البضاوي (القاضي)
٣٦١ و ٣٢١ و ٣٠٦ و ٣٠٣ و ٢٩٨ و ٢٨٩ و ٤٢	٤٢ بيكو نسفيلد
٤١٦ و ٤٠٥ و ٣٩٨ و ٣٨٢ و ٣٨٠ و ٣٧٠ و	ت
٤١٨ و ٤٢٥ و ٤٩٦ و ٥٦٧ و ٥٦٩ و ٥٩٠ و	
٨٩ و ٨٦٥ و ٨٤٢ و ٨١٧ و ٧٧٧ و ٧٤٦ و ٣٠	٣٠ تحسين افندي
٩٥٠ و ٩٣٦ و ٩١٧ و ٨٩٦ و ٨٩٤ و ٨٩٢ و ١٦١ و ٤١	١٦١ و ٤١ تريكو (المسيو)
٩٨٢ و ٩٧٦ و ٩٧٤ و ٩٧٠ و ٩٦١ و ٩٥٥ و ٨٠٨	٨٠٨ توفيق الايوي (الشيخ)
٩٩٧ و ٩٩٤ و ٩٩١ و ٩٨٦ و ٩٨٤ و ٣٣	٣٣ توفيق باشا الخديوي
١٠٤١ و ١٠٢٨ و ١٠٢٣ و ١٠١١ و	١٠٨ و ٧٤ و ١٣٦ و
٤١٢ جمال الدين أفندى شيخ الاسلام	١٤٣ و ١٤٦ و ١٥٧ و ١٥٩ و ١٦٢ و
٨٥٠ و	١٨٢ و ٢٣٢ و ٢٣٥ و ٢٤٤ و ٢٥١ و
٥٧٧ جمال الدين افندى قاضي مصر	٢٦٠ و ٢٦٢ و ٢٦٤ و ٢٩٨ و ٣٣٤ و
٦٢٦ و ٦٢٣ و	٣٢٧ و ٣٤٤ و ٣٥٠ و ٣٦٠ و ٣٧٧ و
٨١٩ جمال بك نجل رامز بك القاضي التركي	٥٦٩ و ٥٤٣ و ٤٩٩ و ٤١٩ و ٤١٧ و

١٠١١ و ١٠٠١	حسن باشا سامي	٢٢٨ و ١٩٦	جميلة هانم (الاميرة)
٤١١ و ٢٧٦ و ٢٥	» الطويل (الشيخ)	٣٢٠	جنكيز خان
(وراجع حرف ح من تصدير الكتاب)		١٢١ و ١١١	الجنيد بن محمد
حسن باشا عاصم ٢ و ٤٩٧ و ٥٦٢ و ٥٦٩		٦٣	جواد الآقا التبريزي
٥٧٣ و ٥٧٧ و ٥٨٠ و ٥٨٢ و ٥٩٤		٩٢ — ٩٤	جورج افندي كوتشي
٦٠٢ و ٧٢٦ و ٧٢٨ و ٧٥١ و ٨٤٥		٧٨٠ و ٨٠٥	جورجي افندي بني
٩٢٣ و ١٠٠٧ و ١٠٥١		٨٠٥	جول سيمون
» باشا عبد الرزاق ٧٢٣ و ١٠١٣ و ١٠٥١		٨٧٤	جونار (مسيو)
حسن العطار (الشيخ) ٦٩٢		٨٨٨	جون (القس)
» فهمي افندي شيخ الاسلام ٣٠		٥٠٢	جوهر قائد الممزر العبيدي
» القويضي (الشيخ) ٦٩٢		١٤٢	جيجون بك
» المرصفي (الشيخ) ٤٣١			جيل البحري الانكليزي حامل جنهات
» منصور (الشيخ) ٧٧٣ و ٧٧٥ و ١٠٢٤		٢٥٨	الرشوة
» موسى العقاد ١٨٦			
حسونه النواوي (الشيخ) ١٤٢ و ٤١١ و			
٤٢٧ و ٤٣٠ و ٤٣٢ و ٤٣٧ و ٤٧٩ و ٤٨٥			
٤٩٢ و ٤٩٦ و ٥٠٩ و ٥٥٤ و ٥٥٧			
٥٧٧ و ٦٠٢ و ٦٢٤ و ٦٢٧ و ٦٢٩ و ٩٨٩			
٢٧٦	حسين افندي	٧٧٣	حامد والي (الشيخ الدكتور)
٢٠٦ و ٢١١	» بك		الحاوي الطحاوي (الجاسوس العربي على
» الجبر (الشيخ) ٧٢ و ٨٤ و ٢٨٣ و ٣٠٤		٢٥٩ و ٢٦٥	عراي)
٤٠٤ و ٨١٩ و ٩٣٦ و ٩٩٩ و ١٠٠١		٦٣	حبيب الله الرشتي
١٠٢٤	حسين دانش بك	٣٥٩	الحجاج بن يوسف
٥٩٩	» رشدي باشا	٦٣	حسن الاثنياني
٢٧	الحسين السبط بن علي أمير المؤمنين	٩٢	حسن باشا ضابط بشكطاش
٨٨٥ و ١٤١	حسين نخري باشا	٣٩٩	» بك جاد
٩٩٨	» القصبي (السيد)	٨٢٠	» خان
» كامل (الامير فالسلطان) ٥٧٤ و		١٤	» خير الله

ح

١٠٠٩ و ٩٦٩	حسين الرصافي (الشيخ)	١٤٢ و ١٣٧	دارون	٨٠
» بك مظهر	٢١٩	داغر (الشيخ)	٩٥٥	
حفي بك ناصف ١٣٥ و ٣٧ و ٠٧٥٦ و	١٠٥١	داود (الامير)	١٠٠٩	
حماده الحولي	٢٧٦	داود باشا يكن	٠٢١٣	
حمدي باشا	٣٩٣	دبلنيسير	١٦٩ و ١٦٥ و ٤٧	
حمزة فتح الله الشيخ	٩٨٧	درنج (البارون)	١٩٧ و ١٩٥ و ١٩١	
حموده بك عبده ٢ و ٦ و ١٥ و ٤٠١ و ٩٥٤ و	١٠٥٥ و ١٠٢١ و ١٠١٧ و ٩٦٤ و ٩٥٦	درويش باشا ٢٤٣ و ٢٤٨ و ٢٥٤ و ٢٦٤ و	٢٥٦ و ٣٢٧ و ١٩٩ و	
حنا بك باخوم	١٠٥٢	درويش خضر (الشيخ) ٢١ و ٢٣ و ١٠٦ و	٧٢٨	
حنين الحوري	٤٥	درويش بك السيد احمد	٢٦٥ و ٢٥٧	
خ		دلسبس	٥٩٣	
خضر بك	٣٩٩	دلونكل	٥٥٣ و ٥٢٢ (مستشار المعارف)	
خضر خضر بكبائي	١٩٦ و ٢٠٥ و	دولوب (مستشار المعارف)	٠٢٧	
خريستفورس جباره	٨٢٧	دوست محمد خان	٣٦٣	
خير الدين الميقاتي (الشيخ)	٩٩٦	دو كورسيل (البارون)	٣٤٦	
خير الله التركماني	١٦	دوندوكوف (البرنس)	١٠٠٦	
خير ي باشا	٢٢٨ و ٣٢	دي كاستري (الكونت)		
خليل ابو حاجب (الوزير التونسي)	٨٧٢	ذ كاه الملك الابراني	١٠٥٦	
خليل اغا	٥٦٢	ذو الفقار باشا	٢٥٢ و ٢٤٣	
خليل باشا حماده	٨١٥ و ٥٧٢ و ٥٥٧	ذ		
خليل بك عفت	٢٢٨	رائف باشا	٣٩٣	
» افندي علي	٢٠٦	الرازي (الامام) ٥٠٦ و ٥٢٨ و ٥٣٤ و	٢٥٩	
» سعاد (الدكتور)	٣٩٩	راشد باشا	٢٥٠ و ٢٣٦ و ٤٧	
» مطران صاحب جريدة الجوائب ٥٠١ و	١٩٧	راغب باشا	٩٧	
خورشيد بك بسمي		رستم باشا	٢٢٠	
		رضا باشا	٩٧٦ و ٦٢٠	
		رفاعة بك		

٤٠٥	٧٧٤ و ٥٩٣ . سعد حماده (الحاج)	رفيق بك العظم
٢٨٠ و ٢٧٥ و ١٣٧ و ٤	٣٥٤ سعد باشا زغلول و ٢ و ٤ و ١٣٧ و ٢٧٥ و ٢٨٠	رئيس الاكبر
٥٥٧ و ٤٥٨ و ٤١٨ و ٤١٢ و ٢٨٢ و ١٠١١ و ١٦٧	١٠١١ و ١٦٧	روتشيلد
٧٧٤ و ٧٥٦ و ٧٢٨ و ٥٩٣ و ٥٩١ و ١٤٢ و ٤١	١٤٢ و ٤١	روجرس بك
١٠٠٧ و ٩٨٣ و ٩٧٠ و ٩١٨ و ٨٩٦ و ٢٤١	٢٤١	روفيل
١٠٦٣ و ١٠١٩ و ١٠١٣	١٤٣ و ١٤٠ - ١٣٧ و ٤٤ و ٤٠	رياض باشا
٥٣١	١٧٢ - ١٦٩ و ١٦٥ و ١٦١ و ١٤٦	و ١٤٦ و ١٦١ و ١٦٥ و ١٦٩ و ١٧٢
٦٢٧ و ١٥	٢٠٠ - ١٨٥ و ١٨٢ و ١٧٩ و ١٧٥	و ١٧٥ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٥ - ٢٠٠
٢٦٩	٢١٦ و ٢١٣ و ٢١١ - ٢٠٨ و ٢٠٢	و ٢٠٢ و ٢٠٨ - ٢١١ و ٢١٣ و ٢١٦
٤١١ و ٤٠٣ و ٤٠٠	٢٣٧ و ٢٢٤ و ٢٢٢ - ٢٢٠ و ٢١٨	و ٢١٨ و ٢٢٠ - ٢٢٢ و ٢٢٤ و ٢٣٧
٧٩٠ و ٧٨١	٥٨٨ و ٥٨٤ و ٥٧٠ و ٢٨٢ و ٢٦٤ و ٢٦١	و ٢٦١ و ٢٦٤ و ٢٨٢ و ٥٧٠ و ٥٨٤ و ٥٨٨
٦٧٤	١٠٥٤ و ١٠٠٧ و ٩٧٦ و ٨٩٠ و ٦٣٦	و ٦٣٦ و ٨٩٠ و ٩٧٦ و ١٠٠٧ و ١٠٥٤
١١٢	١٠٦١ و	و ١٠٦١
١٠٠	١٨٦	رياضستون
٤٢٠	١٠٠	رفيان (الفيلسوف)
٨٧٩		ز
٢٢٧ و ٢١٨ - ٢١٦ و ١٤٧	١١٠	الزير بن بكار
٢٤٣ - ٢٤٠ و ٢٣٨ و ٢٣٥ و ٢٣٢	٨٧٧	الزير باشا العباسي
٧٢١ و ٧١٩ و ٢٦٣ - ٢٦١ و ٢٥٨ و ٢٤٨	٥٦٢	زرفوداكي
١٣٧	٤٦	الزرقاني (الشاعر)
٣٠٤	١١٠	الزخشري
٤٦٤ و ٤٣١ و ٤٢٨	١٦	زمزم (اخت الاستاذ الامام)
٥١٠ و ٤٩٤ و ٤٩١ و ٤٨٨ و ٤٨٥	٣٣٨	الزولوس
٦٢١ و ٥٨٩ و ٥٥٧ - ٥٥٥	١٤٢	زين المرصفي (الشيخ)
٨٥٨		س
٢٠٤		سالمسيري (اللورد)
٥١ و ٤٩ و ٤٢ و ٣١	٧٨٤	سالم بوحاجب (الشيخ)
٨٦ و ٧٨ و ٥٣	١٤١	» باشا سالم
٤٥		سبنسر (الفيلسوف) ٨٦٦ و ٨٦٨ و ١٠٣٤
١٠٤٣	١٩٩	ستكوفيش
٩٥٤ و ٤٥٤ و ٤١٧ و ٢٣٥		

٢٣٦	شواربي باشا	٢٥٣ و ٢٤٨	سليمان سامي
٥٩٣	شويكار هانم (الاميرة)	٩٨٩ و ٩٨٧ و ٩٢٩	سليمان السعيد (الشيخ)
٤٣ و ٣٩ و ٢٩	شير علي خان	٧٧٢	سليمان نظمي الفاروقي
		٢٢٦	سنتلانا
	ص	٢٤٥	سندويش
٢٤٩ و ١٤٢	صادق بك شنن	٢٤١	سكونيش
٥٣٥	صاعد الاندلسي (القاضي)	٩٢	سهل باشا نجل فضل باشا العلوي
١٠٢٤	صباح الدين (البرنس)	٨٦٣	سيد علي المرصفي
٣٠	صفوت باشا	١٣٨	سيد وفا افندي
٤٩٠	صفية هانم السادات	٢٥٠	سيمور قائد الاسطول البريطاني
٧٨٠	صموئيل افندي بني		ش
	ط	١٣٧	شاهين باشا
٤٢٥	طالس	١٠١	شيلي شميل (الدكتور)
٢٢٠	طه باشا	١٩١	شيلي النعماني (الهندي)
٧٥٧	طه البشري (الشيخ)	١٠٠	شرشل (اللورد)
١٠٥٢	طه حسين (الشيخ فالدكتور)	٢٣٥	شريمي باشا
٧١٦	طاهر بن عاشور (الشيخ التونسي)	١٦٤ - ١٦٢ و ٧٦ - ٧٤	شريف باشا
١٠٥٧ و		١١٥	الشريف الرضي
٦٨٨	الطبري	١٢١	الشمراني
٦٩٢	الطارطوشي (الامام)	٩١٨	شفيق بك منصور
٢٥٣ و ٢١٧ و ١٤٦	طلبة باشا	٣٠٣ و ٢٨٩	شكيب ارسلان (الامير)
١٩٥	طلعت باشا (الوزير التركي)	٧٩٠ و ٧٨٦ و ٤٠١ و ٣٩٨ و ٣٩١	
٨٧٩	الطيب هاشم (الشيخ)	٩٦١ و ١٠٢٠ و ١٠٣١ و ١٠٤٣	
	ظ	٨٣١	شمعون ارييب
٢١	ظافر المدني (الشيخ)	٨٢٨	شمعون موريال (الدكتور)
		٢٧٦	شناوي زغلول
	الظواهري (الشيخ)	٧٣٩	الشنقيطي الكبير (الشيخ محمد محمود)
	(وراجع محمد)	٧٥٤ و ٧٨٣ و ٨٦٢ و ٩٦٣ و ٩٦٥	
			(الاحدى)

٢٧-٩	عبدالرحمن خان (الامير)	ع	علي باشا (الوزير العثماني)
٦٤	عبدالرحمن البحراوي		حاصر ادماعيل (الشيخ فالبك) ٢٧٦ و ٢٨٠
٥٧	عبدالرحمن البرقوقي		عباس باشا حلمي الخديوي ٨٨ و ٣
١٩٤٨٨	عبدالرحمن الشريبي	٣٠	
٥٤ و ٥٥٢ و ٥١٩ و ٥١٥ و ٥١٣			
٥٨٨ و ٥٥٦			
٢٣	عبدالرحمن قراعه	١٥٧ و ٤٢٦ و ٤٩٣ و ٤٩٩ و ٥٦٩	
٥٧ و ٤٩٤	عبدالرحمن القطب	٥٩٣ و ٥٩١ و ٥٨٠ و ٥٧٥	
٦٥	عبدالرحمن بك كتنخداي	١٥	عباس باشا الاول
٥٨ و ١٢٩ و ٩١	عبدالرحمن الكواكي	١٨	العباس بن عبدالمطلب (رض)
٥٥٩			عباس افندي البهائي ٤٠٧ و ٩٣٠
٣١	عبدالرحيم بك	٩٣٨ و ٩٣٦ و ٩٣٤	
٣٨ و ٢	عبدالرحيم الدمرداش (باشا)	٢٢٢ و ١٣٥ و ١٠٣	العباسي (شيخ الازهر)
١٠٥٢ و ١٠٢٧ و ١٠١٧ و ٨٣١ و ٧٣٩		٦٢٧ و ٦٢١ و ٥١٢ و ٥١٠ و ٤٣٥ و ٤١١	
٩٤	عبدالرشيد ابراهيم (التصدير (ز))		عبد الباسط افندي فتح الله (السيد) ٣٩٠
٤١ و		٤١٣ و ٤٠١ و ٣٩٣	
٦	عبدالسلام المويلحي باشا	٨٧٢	عبد الحليم بن سماية (الاستاذ)
٥٤ و ٢٠١ و ١٩٥ و ١٩٢	عبدالعال بك	٨٦١ و ٥٩٥	عبد الحليم باشا عاصم
٦٤ و ٢١٢		٩٧ و ٨٨ و ٧١ و ٥٥	عبد الحميد (السلطان)
٣٠	عبدالعزیز (سلطان المغرب)	٨٥٧ و ٨١٩ و ٦١٦ و ٥٨٢ و ٥٧٦ و ٥٦٠	
٥٧	عبدالعزیز البشري	١٠١٠ و ٩٩٣ و ٩٤٧ و ٩١٢	
١٨	عبدالعزیز افندي سلطان الطرابلسي		عبد الحميد البكري (السيد) ١٠٥٢
٩٩ و ٩٩٦		٦٧٤	عبد الحميد حمروش الجراوي (الشيخ)
٧٣ و ٥٩٨	عبدالعزیز شاو يش	٨٧٠	عبد الحميد الزهراوي (السيد)
٦٢	عبدالعزیز نظمي (الدكتور)	٥٩٥ و ٤٩٠	عبد الخالق السادات
٣ و ٥٥	عبد العظيم (مشهد بطوس)	٢٠٥	عبد الخير
٦٥	عبد الغني سني (الكتاب التركي)		عبد الرزاق المترجي (الدكتور) ١٠١٧
٨٣	عبد القادر باشا	٨٨٤	عبد الرؤف سلام (الشيخ)
٢٨٣ و ٢٨	عبد القادر الجزائري (الامير)		
٠٨ و ١٠١ و ٩٠	عبد القادر الجيلي		

١٢١	عبدالقادر الرافعي	١٠٣ و ١١ و ٤١ و ٤٦ و ٤٨ و ٧٨٢	عبدالواحد بن زيد
٨٧٦ و ٧٧٣	عبدالقادر بك القباني	٤٠٠ و ٨٠٢	عبدالوهاب النجار
٨٨٩ و ٨٨٣ و ٨٧٩	عبدالقادر المغربي	٥٥ و ٨٢ و ٨٧ و ٩٤٣	و
٩٧٥ و ١٣	عبدالقاهر الجرجاني	٧٥٣	عبد خير الله
١٩٨ و ١٩٣ و ١٩٠ و ١٨٥	عبدالكريم سلمان (الشيخ)	١٣٨ و ٠٢	عثمان رفيقي باشا
٢٧٦	٢٧٨ و ٢٨٢ و ٤١١ و ٤٢٧ و ٤٣٠ و ٤٦٥	٠٤٦٥	عثمان شعيب
٢٢٨ و ١٤٢	و ٤٦٩ و ٤٧٤ و ٤٨٨ و ٤٩٢ و ٤٩٥	-	عثمان بك غالب
٨٩٤	٤٩٧ و ٥٠١ و ٥٤٤ و ٥٩٥ و ٦١٥ و ٦١٧	٦١٧	عثمان باشا فاضل
٤٦٧	و ٦٢٢ و ٨١٦ و ٩٥٣ و ٩٩٩ و ١٠٠٥	١٠٠٥	عثمان مرتضى (باشا)
٥٩٩	و ١٠١٣ و ١٠١٧ - ١٠٢١ و ١٠٢٥	١٠٢٥	عدي باشا
١٥٤ و ١٤٩ - ١٤٦ و ٤٦	عبدالكريم بن هوازن	١١٢	عراي باشا
٢٠٤ و ٢٠١ و ١٩٧ و ١٩٥ و ١٩٢ و ١٦	عبداللطيف البغدادي	١٦	و
٢٢٧ - ٢١٩ و ٢١٧ - ٢٠٩ و ٢٠٦ و ٩٢٩	عبد المؤمن موسى (الشيخ العمدة)	٩٢٩	و
٢٤٨ و ٢٤٥ - ٢٤١ و ٢٣٨ و ٢٣٢ - ٢٢٩ و ٩٦٣	عبدالحسن الكاظمي (الشيخ)	٩٦٧	و
٥١٠ و ٣٤٤ و ٢٦٤ و ٢٦٠ - ٢٥٠ و ٩٦٧	عبدالمجيد سليم (الشيخ)	١٠٥٢	و
١٠٣٢ و ٩٥٥ و ٧٣٨ و ٩١	عبد الملك	١٦	عزت باشا العابد
١١٠	عبدالله البركة (الشيخ)	٣٩٠ و ٩٩٩	عقال بن شبة
١٤٣	عبدالله جودت (الدكتور)	الكاتب التركي	علي ابراهيم باشا
٠٦٢ و ٦٠	١٠٥٦	علي اكبر الشيرازي	و
١٧	عبدالله زغلول	٢٧٦	علي بن أبي طالب امير المؤمنين
٢٧	عبدالله باشا صغير	٥٩٠	علي الترمذي السيد
٢٢٩	عبدالله باشا فكري	٣٢ و ١٤١ و ٤٠٨	علي حيدر باشا
١٢١	و ٤١٠ و ٩٥٥	٩٥٥	علي الخواص الصوفي
٧٦٩	عبدالله القدومي (الشيخ)	٦٦٦	علي باشا ذوالفقار
٩٤ و ٩٢	عبدالله افندي الكردي	٢١٠	علي بك راغب المصري
١٠٤٢ و ٦٢٠	عبدالله المسقاوي (الشيخ)	٩٩٩	علي باشا رفاعه
٠١٠٥٢	عبدالله افندي المغيرة	٥٨٦	علي سرور الزنكلوني
٣٠	عبدالله نديم (السيد)	٤٦ و ٢٣٦ و ٥١٠	علي شرواني زاده
٧٥٧	و ٦٦٨ و ٧٧٧	٧٧٧	علي عبدالرازق

علي بك فهمي ١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٥ و ٢٠٠ .
 غورث بن مر ١١٠
 غوردون ٢٤١ و ٣٧٢ و ٣٧٧
 غورست (السير الدون) ٣ و ٥٨٨ و ٥٩٣
 علي الليثي ٩٣٩ و ٩٥٥
 علي باشا مبارك ١٦ و ١٤١ و ٢١٨ و ٢٢٨
 غوستاف لوبون (الفيلسوف) ٨٦٧ و ٩٢٥
 و ٢٣٥

ف

علي بك مظهر ٤٦
 علي الميرغني (السيد) ٨٧٩ و ٨٨٩
 علي الملي الغربي (الشيخ) ٦٩٢
 علي يوسف (الشيخ) ٤١٢ و ٤٩٠ و ٥٠٢
 فرج بك الزين ٢٠٥ و ٢١٢
 فرح أفندي انطون ٨٠٥ و ٨١٠ و ٨١٢
 و ٨٤٨ و ٨٦٠ و ٩٢٣ و ٩٣٧ و ١٠٠٨
 عlish (الشيخ) ١٠٦ و ١٣٣ و ١٤٦
 فريد باشا ١٧١ و ٢٣٦
 فوده بك حسن ٩٨٦ و ٩٨١
 فيدال بك ٥٣٤
 فيض الله الدر بندي ٥٣٤
 فيضي باشا ٧٦٦ و ٧٨٤
 فيفيان (مستر) قنصل انكلترة الجنرال ٣٣
 و ١٩ و ١٦
 عمر الاهري
 عمر بن حسام
 عمر الخشاب (السيد) ٧٦٦ و ٧٨٤
 عمر بن الخطاب
 عمر لطفي باشا ٢٣٠ و ٢٣٣ و ٢٣٧ و ٢٤٧ -

ق

قاسم بك أمين ٢ و ٧٧٠ و ٧٧٤ و ١٠٠٧
 قاسم بن ثاني (الشيخ) حاكم قطر ١٠١
 قدر باشا ٦٢٧
 القمي النيسابوري ٤١٤
 ك
 الكاشاني الباطني ٩١٦
 كاليار (المسيو) ٢٤٠
 كتشتر (اللورد) ٥٩٩
 كرومر (اللورد) ٣ و ١٦٥ و ١٦٩ و ٣٤٨
 عوض واصف (صاحب المحيط) ١٠٦٢
 غ
 غرافيل (اللورد) ٢٣٩ و ٣٧٥ و ٣٨٢
 غريغوريوس حداد (مطران الروم)
 فبطركهم ٧٨٠
 الغزالي ٥١ و ١١٢ و ١٢٥ و ٤٠٤ و ٥٠٣
 غلادستون (المستر) ٤١ و ٤٥
 غمبتا ٢٣٧ و ٢٣٩

٥٩٣ و ٥٧٤	محمد ابراهيم (الامير)	٥٠١ و ٤٩٩ و ٤٩٥ و ٤٦٧ و ٤١٨	
٠٦٧٣ و ٦٧١ و ٠٦٦٨	» بك ابوشادي	٥٧٥ و ٥٧١ و ٠٥٦٤ و ٥٦٠ و ٥٥٨	
٩٩٥ و ٧١٦ و ٧١٠ و ٦٩٥		٥٨٨ و ٥٨٤ و ٥٨١ و ٥٧٩-٥٧٧	
٤٦٤	» ابو الفضل (الشيخ)	٧٢٩ و ٥٩٨ و ٦٢٣ و ٦٣٢ و ٠٦٣٦	
٣٦٥ و ٣٤٧ و ٣٣١ و ٧٨	» احمد المهدي	٨٤٠ و ٨٤٧ و ٨٩٢ و ٨٩٥ و ٩٥٣	
٣٨٢ و ٣٨٠-٣٧٨ و ٣٧٦-٣٧٣ و ٣٧٠	محمد الاحمدى الظواهري	٩٦٩ و ٩٩٤ و ١٠١٦ و ١٠٢٢ و ١٠٥٤	
٥٠٢ و ٥٠٠	و ٥٠٤ و ٥٠٢	٨٨٢	كري (المستر)
٥٠٢ و ٥٠٠	محمد الاحمدى الظواهري	٢٤٥	كودار بك
٥٠٢ و ٥٠٠	و ٥٠٤ و ٥٠٢	٢٤٧-٢٤٥	كوكسن
٢٨	محمد اسلم	٢٤٥	كولفى
٤٣ و ٠٣٩ و ٠٢٨	» اعظم خان	٢٢٢	كوتقى (المستر)
٢٨	» افضل خان	١٣٥	كينزو (مؤلف)
٤٣	» اكبر خان		ل-م
٦٩٢	» بن الامير	١٤١	لارمى باشا
٢٨	» أمين	١٠٢٤	لطف الله (البرنس سبط السلطان)
٤٩٥ و ٤٩٣ و ٤٦٤	» البحيري (الشيخ)	١٤١	ايرونه ديروول (مسيو)
٠١٠٥٢ و ١٠٤٣	» بنجيت	٢٤٢	ليكس
٨٨١	» البدوي	٢٣٩	ليون (اللورد)
٢٥	» البسيوني	٥٧٩ و ٥٧٦	ليون فهمي
٩٣٥ و ٩٢٣ و ٦٨٥	» بك بيرم	٢٤٥ و ٢٤٢-٢٣٩ و ٠٢٢٢	مات (المستر)
٦٣	» تقي الاصفهاني	٦١٥ و ٥٧٢ و ٣١٣	مالك الامام
٦٤	» » (البجنوردى (الملا)	٨٣١ و ٧٦٩ و ٧٣٠	ماهر باشا محافظ مصر
٥٦٣ و ١٢٩	محمد توفيق البكري (السيد)	٨٢٠	مؤيد الملك
١٠٦١ و ١٠٢٤ و ٦٦٨ و ٥٨٦ و ٥٦٦		٥٨٨	متشل انس (مستر)
١٠٥٨	» الجمايبي التونسي	٢٠	مجاهد (الشيخ) عبده
٨٠٧ و ٧٧٥ و ٦٠٤	» حافظ ابراهيم	٩٦٣	محروس افندي عبده
٨٠٩ و ٨٩٢-٨٩٤ و ٩٥٧ و ١٠١٧ و ١٠٥٣		٥٢٧ و ٥٢٠ و ٥١٦	محسن الملك (النواب)
١٠٥٣ و ١٠٥١ و ١٠٤١ و ١٠٢٠		٦٠٠ و ٥٥٢ و ٥٥٠ و ٥٤٠	محمد بك أباطه

١٠٢٥	محمد حسن الشيرازى (الميرزا) ٥٦ و ٦٣
١٩٣	» حسنين (الشيخ) ٧٧٣
١٠٥٨	» بن حنيف ١١١
٦٧٠ و ٦٦٨	» الحلو (الحاج) ٨٣١
١٠٤٣ و ٩٨٩ و ٩٨٦ و ٦٩٩ و ٦٧٤	» خضر ١٤
١٠٥٣	» الحضري (الشيخ) ٨٧٦ و ٨٨٤ و ٨٨٩
٢٢١	» خليل ٢٧٩ و ٢٧٦
٩٣٧	» بن الحوجه التونسي ٨٧٢ و ١٠٥٢
٧٧٨ و ٧٥٦	» اندلاصي الشيخ ٩٢٩
٢١١	» بك راسم ٢ و ١٩٠ و ٩٥٥
٦٨٦	» راشد (الشيخ) ٥٦٣ و ٥٧٣
١٠٦١	» الرافعي ٩٤٣
٩٩١	» رشيد رضا ٥١ و ٥٣ و ٥٥ و ٦٢ و ٦٨
٣٠٣	و ٧١ و ٢٦٠ و ٤٧٧ و ٥١٤ و ٥٧٠
١٠١٠	» ٥٨٦ و ٥٨٨ - ٥٩٠ و ٦١٧ و ٦٣٠ و
» عبده الاستاذ الامام	٠٧٩٧ و ٨١٠ و ٨١٢ و ٩٥٦ و
(لم نيين أرقام اسمه ولا لقبه اكثرنا	و ٩٦٣ و ١٠٠٤ و ١٠١٢ و ١٠١٤ و
والاستغناء عنهم - بالفهرس الاول)	١٠١٨ و ١٠٢١ - ١٠٢٤ و ١٠٢٧ و ١٠٥٢
١٩٦	محمد رضا الكرمانى ٦١
٦٩٢	محمد رفيق خان ٢٨
٧٧٣	محمد افندي الرملوي ٢٢٠
١٠٤٨ و ٦٠٠	محمد افندي الزمر ٢٢٠ و ٣٩٩
١٦٠ و ١٥٧ و ٣٦	» زيد بك ٧٧٤
٥٢٨ و ٥١٠ و ٣٣٨ و ٣٣٥ و ٢٤٧	» باشا سيد احمد ٣٢
٨٩٩ و ٨١٣ و ٥٨٣ و ٥٧٤	محمد افندي السيد ٢٢٠
٥٧٤	» شاكر (الشيخ) ٤٧٠ و ٤٧٣ و ٥٥٣
٦١	و ٥٨٦ و ٥٩٥ و ٧٧٠ و ٨٧٦ و ٩٩٥
	» علي خان (الميرزا) ٩٩٥

١٣٧ و ٤٦	٣٠٤	محمد علي بك المؤيد
٢٢٣ و ٢١٣ و ٢١١ و ٢٠٢	٨٧٩	» عمر البنا
٢٥٧ و ٢٤٤ و ٢٤٠ و ٢٣٦ و ٢٣٠	٥٩٣	» بك فريد
١٠٢٤ و ٩٩٥ و ٤١٠ و ٢٧٥	٧٨٢	» فريد وجدي
١٠٠٩	٧٧٥	» كرد علي (الاستاذ)
٩١٤	٤٠٠	» افندي البابيدي
٨٨٦	٧٩٦ و ٧٩٣ - ٧٩١	» لطفي جمعه (الحامى)
٣١٦	٩٩٩ - ٩٩٦	» باشا محمد المرعي
٢٥٧	٥٩٩	» محب باشا
	٢٢ و ٢١	» المدي (السيد)
١٠٥٢	٩٤٨ و ٨٠٩	» بك مسعود
٣٩٢ و ٣٩٠ و ١٥٦	١٠٥٢ و ٨٧٦	» مصطفى المراغي (الشيخ)
٧٨١ و ٤٠٥ و ٤٠٠	٩٧٥ و ١٥	» المذاوي
١٠٨ و ٥١	٤٠٤	» المنيني (الشيخ)
٩٥٩ و ١١٦	١٠٠٥ و ٧٧٣ و ٧٥٧	» المهدي (الشيخ)
٣٩٣	٤١١	» المهدي العباسي (الشيخ)
٨٨٥	١٠٤٣ و ٩٢٩	» النجدي (الشيخ)
١٠١٢ و ٨٥	٤٦٤	» هارون (الشيخ)
١٠٢١ و ١٠٠٧	٨٨٣ و ٨٧٩ و ٨٧٦	» هلال الاياري (الشيخ)
٨٦٤	١٠٥١	» وجيه الكيلاني (السيد)
١٠٤٢	٦٠٠	» بك الوكيل
٨٦٤	١٠٠٩ و ١٠٠٧	» بك يوسف
١٠٥٢ و ٨٧٥ و ٧٥٧	٩٧١	» محمود بك كاتب أسرار الخديو
٣٩٩	٢٢٩	» باشا (الشيخ)
٧٧٣	٤٦٩	» حمزة (السيد مفتي الشام)
٧٤٥	٩٣٩	» باشا الداما
٥٩٠ و ٥١٤	١٠٢٤	» بك سالم
٩١٥ و ٨٢١	٨٩٧ و ٧٧٤	

٩٨٠	مصطفى كامل باشا	٥٨٨ و ٥٩٢ - ٥٩٤	نسيم بك خلاط
٩٠٦ و ٨١١	٦٠٢ و ٦٩٥ و ٦٩٩ و ٧١٠ و ٨٠٣	نوم افندي ليكي	
٤٢	٨٥٥ و ٨٥٧ و ٨٥٩ و ٩٣٧ و ١٠٠٣	النقاوى (السيد)	
١٠٠٤	» اطفى المنفلوطي	٧٥٧ و ٨٦٣	نقولا افندي شجاده
٢٠٠	» المنشاوى	١٥ و ٩٧٥	نوبار باشا ٧٤ و ١٦١ و ١٦٥ و ١٨٦ و ٢٠٠
٢٥٠ و ٢٤٨	» باشا وهي	٣٢ و ٥١١	نينه
	المعتصم (الخليفة العباسي)	٢٢٨	ه - ي
٦٣	ملكاه مخرج المؤرخ الانكليزي	٣١٦	هادى النجم آبادى
٩٣	ملكولم مكاريث (مستشار الحقاينة)	١٠٥٤	هارون الطيب
	منح بك الصلح	٤٠٧	هانوتو المسيو ٧٩٨ - ٨٠١ و ١٠٣٤
	منسي بك (الميرالاي)	٨٨٠	هرتكتون وزير الحرية ٢٣٧ و ٢٣٩
	المنصوري	٤٩١	هكس
٣٧٤	منصور فهمي (الدكتور)	١٠٥٢	ولسلي ٢٥٧ ولسن ٩٦٥
	منو ٢٥٦ منيف باشا ٣٠		وليد بن القاسم ١١٠
	مهدى خان الايراني (الدكتور)	٩٣٧ و ٥٨٩	ونجت باشا السير ٨١٦
	المهدى الوزاني	٧١٦	ونجت اللادى ٨٨٠
	موجيل ١٤٢ موتان ١٤٢ مونج ٢٤١		يحي افندي قاضي مصر ٦٢٦ و ٨٥١
	موني (مسيو)	١٤١	يعقوب خان ٢٩
	ن		يعقوب صروف الدكتور ١٠٣٢ و ١٠٥٩
	نابليون	٦٢١	يوحنا ميرزا ٨١٧
	نادر شاه الايراني	٣٤٦	يوسف باشا جدوى ٢٢٨
	نازلي هاشم (الاميرة)	٨٧٢ و ٤١٨	يوسف الحنبلي ٤٦٤
		٨٩٧ و ٨٩٤	يوسف سليمان بك ٨٣١
	ناصر الدين شاه ايران ٥٤ و ٧٢ و ٩٥ و ٣٤٧		يوسف باشا طلعت ٦٦٩ و ٥٦٠
	نجم الدين باشا	١٩٣	يوسف باشا كمال ٢٠٤
	نسيب ارسلان (الامير)	٤٠١	يوسف النابلسي ٤٣١
	نسيب فابيدس	٨٨٧	يوسف التبهاني الدجال ٥٩٠ و ٤٣ - ١٠

فهرس رابع لاسماء البلدان والاماكن

حرف الالف

١٠٠٥	الاسماعيلي (جامع)	٤٩	أذربيجان
٣١٨ و ٤٠	افغانستان	٥٥ و ٤٤ و ٤٠ و ٣٠ و ٢١	الاستانة
٤٢ و ٢٧	الافغان (و) من التصدير	٩٥ و ٩٣ و ٩١ و ٨٨ و ٨٢ و ٧٦ و ٧٢	
٨٦٦	اكسفورد	٩٧ و ٢٣٦ و ٢٤٤ و ٢٥٨ و ٨٤٧	
٨٨١ و ٨٧٧	ام درمان	٨٥٦ و ٨٦٤ و ٨٧٠ و ٨٩٦	
٥٤١ و ٣٢٩ و ٣١٩	الاندلس	٤١ و ٧٧	أبو شهر
٢٩٩	اندومان (جزائر)	٧٢	الازبكية
٩٦١	انطلياس (متنزه لبيروت بلبنان)	٤٩٥	الازهر . الالقب التي كان ينزهها الاستاذ
٥٨	الاهواز	٤٩٥	الامام
٢١	ايتاي البارود	(وتركنا بقية أرقام الازهر لكثرتها	
٣٣١ و ٩٦ و ٦٤ و ٥٨ و ٥٤ و ٢٩	ايران	ومعرفة مواضعها من فصول الكتاب)	
(ز — من التصدير)		٢٧	اسعد آباد
ب		٣٦	اسكيار نيا فيس
٣٣ و ٥٥ و ١٠٠ و ٢٩٥ و ٣٨١	باريز	٢٩	الاسكندرية . استعداد الاجانب للمذابح
٢٩	بخارى	٨٦٨	فيها وبده المذبحة وسببها ٢٤٥
٣٧٦	برايتون	»	طلب محافظها انزال عسكر انكليزي بربر
٣٩٦	برج أبي حيدر	٢٤٩	اليها
٩٩٦	برقايل (بلدة بعمار)	»	وصف المهاجرة منها بعد حرقها
٩٢	بشكطاش	٢٥٢	وضربها
٣٤٧ و ٩٦ و ٦٢ و ٦٠ و ٥٦	البصرة	»	كلمة الخديو توفيق في حرقها ٢٥١
٧٢ و ٥٤	بطرسبرج	»	إلحاق التعاليم الديني فيها بالازهر بطرسبرج
٩٩٦ و ٤٠٥ و ٣٩٨	بعلبك	٤٦٧ - ٤٧٤	

	البغالة	٤٣٤ حصة شبشير	
٤	بغداد	٢٢٨ و ١٢٤ حضر موت	
٨	بلييس	٤٨٤ و ٢٦٠ حلب	
٢ و ٤٩٢	بلرم	٨٧٤ حلوان	
٣٣	بلاد الافغان	٣١٣ و ١٠١ و ٣٧ حيدر آباد	
	بلاد فارس	٣١٨ و ٠٦٢	
	بلاد الهند (راجع الهند)		
٥ و ٢٥	بلوچستان	٣٥٩ و ٣١٨ خان الخليلي	
	بمباي (الهند)	٧٧ خانقين	
	بور سعيد	٢٨١ و ٢٥٠ خراسان	
٢ و ٢٧١	بيت المقدس	٢٩٨ الخرطوم	
	بيروت	٤٨ و ٣٩٠ و ٣٩٨ و ٤٠٤ خوارزم	
٢٤		٩٩٨ و ٤١١ و ٤٠٧ درب الجمايز	
٥ و ٤٠٤ و ٣٩٨		دمشق الشام	
٨ و ٢٥٥		دمياط	
٥	الزعة التوفيقية	١٨١ دنقلا	
٨	الثل الكبير	٢٦٠ دهلي	
٢٥	تونس	٥٥١ و ٣٨٩ و ٣٨١ و ٣٦٣ و ٢٥٦ رأس التين السراي	
٨		٩٦٥ و ٩٥٧ و ٨٩١ و ٨٧٥ و ٨٧٠ رشيد	
٤٥ و ٨٠٦ و ٢٥٢		١٠١٧ و ١٠١٣ الرمل (الاسكندرية)	
٢	(الجامع الازهر)	٣٠ و ٢٨ الروملي	
٢	جدة	٤٨ الزقازيق	
٣ و ٣٩٦	جرجا	٢٧٨ زقاق البلاط	
٢ و ٤٨	الجزائر	٥٥١ و ٨٧٠ و ٨٧٢ و ٨٧٥ زيزينا	
١		٨٩١ و ٩٢٤ و ٩٥٧ و ١٠١٣ و ١٠١٧ السامرة (بالعراق)	
٢	جزيرة سيلان	٤٦ سرخس	
٨	جنيف	٨٦٥ و ١٠٥ السند	
	الحجاز	٩٤٧ و ٤٠٣ و ٣٥ السنطة	

خ - د - ر - ز - س

ت - ج - ح

٥٦٢	١٠٥٨ طشيوز	سنغافورة
٢٤٠ و ٢٤٠	٣٤٥ و ٣٧٣ طندلا	سواكن
٩٣٨ و ٥٨ و ٦٥ و ٩٥٥	السودان: سياسة جمال الدين ومحمد عبده طهران	
٤١٧ و ٢٣٨ و ٢٢٢ و ٢١٩ (السراي)	عابدين (السراي) ٣٠٦	فيه أثناء ثورة المهدي
٩٦١ و ٩٢٢ و ٦٠٠	٣٨٢ - ٣٧٠	
	» زيارة الاستاذ الامام له وفوائدها ١١٠٦ عاصمة الدولة الروسية (تصدير - ز)	
	سورية: حفاوة أهلها بالاستاذ الامام في نفيه عاصمة الدولة العثمانية	
٥٤١ و ٣٠٤	وماداريين سعد زغلول في ذلك ٢٧٤ العراق	
٣٤٦	سورية: عمل الاستاذ الامام وإصلاحه فيها عشق آباد	
٩٩٦	٣٩٠ - ٤١٥ عكار	
٧١٧ و ٥١٧	» الحفاوة به في عكار وطرابلس منها ٩٩٦ عاكره الهند	
٧٧٤ و ٥٨٦ و ٥٧٧ و ٥٧٢ و ٥٥٩	٢٥١ و ١٧٤ و ١٧١ و ٢٩ عين: خمس	السويس
١٠٢٥ و ٩٧٢ و ٩٦٩ و ٨٦١ و ٨٠٩	٨٧٠ و ٨٦٥ و ١٠٤	سويسرة
	٩٩٥ و ٤١٠ و ٤٦	سيلان
	غ-ف-ق-ك	
٢٨	غزته	ش-ص-ض-ط-ع
٤٣٤	الفجالة	شبراخيت
	فارس (راجع بلاد فارس)	شبرا - أوشنبرا
٤٤	فروق (الاستانة)	شندي
٥٩٣	٨٧٧ فشوده	شبحل مزاراني (مقبرة المشايخ)
٦٠٠	٩٢ فيلبين	صقلية
٨٢	٨٧٤ فينا	صيدا
٢٤٦ و ٢٣٦	٤٠٥ قبرص	الضلعان من الاناضول
٥٧٠ و ٤٩٢ و ١٧١	٥٩٧ القبه (سراي)	الطائف
٧٥٤ و ٧٣٩ و ٧٣٠ و ٧٢٨	٨٥٠ قبة الغوري	طبرستان
٤٠٥	القدس	طرابلس الشام ٢١ و ٨٤ و ٣٠٣ و ٣٩٠ و ١٩٦ و ٢٠١ - ٢٠٤ و ٢٠٦
٢٥٩	٥٩ القصاصين	٣٩٨ و ٤٠٥ و ٩٣٠ و ٩٩٦ و ١٠٣٢ القفقاز
٦٩	١٩٧ القلقاز	طره
١٠٠١ و ٩٩٨ و ٣٠٣	١٩٧ القلقون	

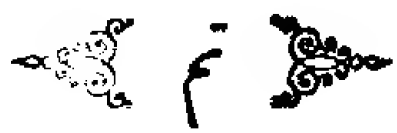
القنال	٢٥٧ و ٣٣١ و ٣٧١ و ٣٧٤	مصر . شهادة انكليزي بعدم استناتها
قندهار	٢٩ و ٣٦٣	عن محمد عبده اذا قدر لها الاستقلال
كابل	٢٧ و ٣٩ و ٣٨٩	٣٣٢
كسلا	٣٨٢ و ٨٨٩	» وصفها في عهد محمد علي من (العروة الوثقى)
كفر اندوار	٢٥٣ . و ٢٥٨	٣٣٢
كفر الزيات	٢٢١	» حالها قبل السيد جمال الدين وبعده (من)
كلكته (الهند)	٣٣ و ٢٨١	كلام الاستاذ الامام
كبرديج	٨٦٦ و ١٠٣٤ و ١٠٥٥	» حالها قبل السيد جمال الدين وبعده (من)
كنر (افغانستان)	٢٧	المقصورة الرشيدية
كنيسة اورين	١٥ و ٢١ - ٢٣	» نفوذ الاجانب الغريب فيها وسيا
كوردفان	٣٧٦	وغايتها
الكويت	٣٤٧	» احتقار الخديو توفيق ورجاله وكره
		ضباطه من الاعاجم المصريين
		٢٦٢ و ٢٥١
لبنان	٣٩٨ و ٤١١	» وطنية اهلها وقيامهم بالواجب في
لوندرة	٣٣	مقاومة الانكليز
		» وصف العروة الوثقى البليغ انثود
		لاحتلال الانكليز لها
		» منم جريدة العروة الوثقى من دخوله
		وتغريم من توجد معه
		» استفزاز المسلمين لنجدة مصر ع
		الاحتلال
		» مسألتهم مع الاحتلال وسياسة العرو
		الوثقى فيها
		» مشروع مستر بلنت في استقلالها ووثق
		الاستاذ الامام فيه
		» رأي الاستاذ الامام في خواص شعب
		١٨٥
المارستان (اسم كان يطلقه الاستاذ الامام على الازهر)	٤٩٥	
مازندران	٥٩	
محلة نصر ١٣ و ١٦ و ٢٠ و ٢٣ و ١٠٧	٩٧٥ و ٩٧٦	
المحمره (عربستان)	٣٥٩	
المخروب (اسم كان يطلقه الاستاذ الامام على الازهر)	٤٩٥	
مداغسكر	٣٥١	
مرو	٣٤٦	
مسكوروسية	٩٦	
مشتهر	٥٦٢ و ٦٣١	
مشهد شاه عبد العظيم بايران	٩٦ و ٩٦	

١٠٠٥	الناصرية	مصر. رأى الاستاذ الامام في التربية والتعليم
٩١٤ و ٩٥	نجد	فيها
٢٩	نيسابور	» رآيه في وطنيتها واتفاق المسلمين مع
٣٦٣ و ٣٤٧ و ٢٨	هراة	القط
٣٦٣	هرسك و بوسنه	مكة المكرمة
٢٩٠ و ٢٨	الهند	منية طوخ
٣٨٤ و ٣٣٤ و ٣٢٩ و ٣٠٢	هيكل آمون	مونيخ
٣٥٤	يلدينز	ميت غمر
٨٤٨ و ٧٢		

ن - ه - ي

نا بلس

٦٦٦



تذييلات

(الاول) اتواضعنا الفهرس الاول المفصل ل مواد الكتاب بهيئة خاصة من اختلاف أنواع الحروف ووضعها للفصول والمقاصد والمسائل ترشد الناظر اليها بسهولة وسرعة أغنتنا عن وضع فهرس آخر لها مرتب على حروف المعجم ووضعنا فهرساً ثانياً للصور والرسوم الشمسية على قلتها لتسهيل مراجعتها على مريدها وفهرساً ثالثاً لاسماء الاعلام الشخصية لان كثيراً منها قد يحتاج الناظر في التاريخ الى مراجعته فيها هو خاص بأصحابها . ولم نلتزم ذكر ألقابهم في الفهرس ولا في كل مكان في التاريخ ولا مراعاة التاريخ في اللقب فسمد باشا كان يلقب بالشيخ فالاندي قالبك قالباشا فذكرنا اللقب الاخير في كل مكان لقيناه به . وتركنا ألقاب التعظيم الرسمية وغير الرسمية اتباعاً لكتب سلفنا إلا قليلاً

وفهرساً رابعاً لاسماء البلاد والمواضع لان منها ما يحتاج إلى مراجعته ولم نمن بالاستقصاء فيه بل تركنا أكثرها تكرر أراً فيه وفيما قبله كما بيناه في محله

(الثاني) يجد القارئ في السطر السابع من فهرس الصور والرسوم (في صفحة ١١١٣) ذكر صورة المؤلف سنة ١٣٥٠ ولكنه يجد بجانبها الصورة نفسها قد كتب تحتها سنة ١٣٤٥ وسبب هذا اننا لما طبعنا الصورة الاولى وهي صورة هذه السنة وجدت غير صالحة فوضعنا مكانها الصورة الاخرى وكان ذلك بعد طبع الفهرس

(الثالث) ذكر في السطر ١٣ من صفحة ج من تصدير الكتاب ان الامام أبو محمد ابن حزم كان في القرن السادس والصواب الخامس فانه توفي سنة ٤٥٦ وكان يجب تقديم ذكره على ذكر الغزالي في التجديد ومات ذكر هذا إلا بعد طبع الكراسة فليصحح بالقلم

الاستدراك على الكتاب

كتبت في آخر الكلام على عمل الاستاذ الامام في اصلاح الازهر (صفحة ٦٠١) استدراكاً قلت انه بقي لدي من مواد هذا المقصد وغيره (ومن سيرة السيد جمال الدين) شيء كثير أرجأته إلى الجزء الرابع الذي سيكون ذيلاً لهذا الكتاب ثم ذكرت بعض هذه المواد المرجأة في مواضع أخرى. وأقول هنا ان منها تقريراً إضافياً بخطه في إصلاح المحاكم الأهلية وضعه بطلب المستشار القضائي، ومنها بعض تقاريره عن مدرسة دار العلوم في إثر توليه لرياسة الامتحان السنوي فيها، ومنها مقالته الذي أملاه باللغة الفرنسية عن مصر وحكومتها في عهده، ومنها مقالات مهمة في المنار وفي جرائد أخرى تتعلق بالازهر وغيره من الموضوعات المهمة كالرد على ما انتقده لورد كرومر على شيخنا في كتابه مصر الحديثة. ومنها مکتوبات بعض العلماء والادباء والكبراء له وقصائد بانغا الشعراء فيه وفيها كتاب من الشيخ يوسف النبهاني وهو الذي هجاه مع أستاذه وتلميذه نقاقاً للخديو ولعلنا نأخذ رسمه بالتصوير الشمسي ومنها موضوع فتوى من أهم المسائل الاجتماعية المالية في هذا العصور وهي حكم شراء سندات الدين الدولي. والذي وجدته عندي في أوراقه منه نص السؤال في هذه المسألة المهمة وهو طويل يتضمن المستندات التي يعتمد عليها في الجواب على الطريقة التي كان يضع عليها علماء دار الفتوى (فتوى خانة) في الاستانة أسئلة الاستفتاء التي يوقع عليها شيخ الاسلام بالفتوى إما بكلمة «أولور» التركية إذا أفتى بالإيجاب من صحة وجواز، وإما بكلمة «أولماز» إذا أفتى بالسلب أي عدم الصحة أو الجواز ولاكنني لم أجد نص الافتاء في أوراقه على هذا السؤال، وبحث عن هذه الفتوى في سجلات فتاويه الرسمية فلم أجدها هذا وان ما تركته عمداً من مواد إصلاح الازهر المنشورة في مجلدات المنار ردألي على كتاب رسمي للعلامة الشيخ سليم البشري وآخر على كتاب للعلامة الشرييني (رحمهما الله تعالى) فأما الاول فقد شكاني الى الاستاذ الامام نفسه فرغب إلي في زيارته ومصالحته ففعلت، ثم صحت المودة بيني وبينه بعد الاستاذ الامام فكان محبذاً لعمل في مدرسة الدعوة والارشاد. وقد قال لاجد شفيق باشا إن السيد محمد رشيد هو لسان الاسلام في هذا العصر. وزار المدرسة مشجماً لما وسأذكر فيه ان شاء الله أشهر أصدقاء الاستاذ الامام ومريديه وتلاميذه الصادقين ومن كان يثق بهم من علماء الازهر وغيرهم (وان من أقدم أصدقائه الاستاذ الشيخ سليمان العبد) وأختمه بالنتيجة الفلسفية التحليلية للتاريخ كله والله الموفق